عبدالله الطيب

أبو العلاء شاعراً

نَظْرةٌ جَمَاليَّةٌ

رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٥٠م



ترجمها من الإنجليزية

عبدالمنعم أحمد الشاذلي

المحاضر بوحدة الترجمة، بكلية الآداب/ جامعة الخرطوم

٢٠١٠م

الطبعة الأولى

٢٠١٧م

عَبْد الله الطَّيِّب

أبوالعَلاءِ شاعِراً

نَظْرةٌ جَمَالِيَّةٌ

(رِسالَتُهُ التي نالَ بِها دَرَجَةَ الدّكْتُوراه مِنْ جامِعةِ لَنْدَنَ سنةَ ١٩٥٠)

تَرْجَمها مِنَ الإنْجِلِيزِيَّةِ:

عَبْدُ المُنْعِمِ أحمَدَ الشَّاذَلِيّ

المُحاضِرُ بِجامِعَةِ الخُرْطُومِ، كُلِّيَّةِ الآدابِ

وَحْدَةِ التَّرْجَمَةِ

٢٠١٠م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

٨١١.٤ عبد الله الطيب، ١٩٢١-٢٠٠٣

ع ط أ

أبو العلاء شاعراً: نظرة جمالية/ عبد الله الطيب،

ترجمة/ عبد المنعم أحمد الشاذلي- الخرطوم

مؤسسة عبد الله الطيب الخيرية للطباعة والنشر، ٢٠١٧

٥٨٠ صفحة؛ ٢٤ سم

ردمك: ٤-٥٩٩-٤-٩٩٩٤٢-٩٧٨

في الأصل رسالة دكتورا من جامعة لندن، ١٩٥٠

١. أبو العلا المعري- الشعر- نقد.

٢. الشعر العربي- تاريخ العصر العباسي

عبد المنعم أحمد الشاذلي، (مترجم)

جامعة الخرطوم - كلية الآداب- وحدة الترجمة والتعريب

الخرطوم

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

إهْداءٌ مُسْتحَقٌّ ....

- إلى: **بَلَّتْنا إبراهِيْم أحمَد**، أُمِّي الحَبِيْبَةِ ...... **الأمُّ العظيمةُ**، وقد تعلَّمْتُ مِن وَرَاءِ شَخْصِيَّتِها أنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يَتحصَّلَ المرْءُ على دَرَجاتٍ عالياتٍ مِنَ المعْرفةِ الحقّةِ وفَهْمِ الحياةِ وغايَتِها والمعْنَى الحقِّ للإسلامِ، دُون أنْ يَلِجَ لِلدَّرْسِ يوماً حُجْرةً واحِدةً، مِثْلَما أنَّهُ يُمْكِنُهُ أنْ يُكَدِّسَ الدَّرجاتِ العلْمِيَّةِ دُونَ أنْ يُفِيدَ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ شَيْئاً، فَيَكُونَ كالحِمارِ يَحْمِلُ أسْفاراً؛

- **أحْمَد مُحَمَّد الشَّاذَليّ**، أَبِي الحَبِيبِ، ..... الرَّجُلُ العِصامِيُّ العَظِيْمُ، والبَطَلُ الشُّجاعُ الجَرِئُ، الذي يَحْمِلُ مِنْ فِكْرِ أبي العلاءِ المعرّيِّ قَدْراً مُعْتَبراً ويحفَظُ من شِعْرِهِ حَظّاً دُونَ أنْ يَعْرِفَ أبا العلاء وما لَهُ مِنْ فِكْرٍ أو شِعْرٍ، والذي علَّمَني ما لم أتعلَّمْهُ في قاعاتِ الدَّرْسِ ومَكْتَباتِ العِلْمِ ومِنْهُ الثِّقَةُ بِالنَّفسِ والاعْتِدادُ بِالعَقْلِ والجُرْأةُ في الحقِّ، وألّا مُسَلّماتٍ حتى يقضِيَ العقلُ حُكْمَهُ. ولَعَمْرِي لَئِنْ تأخَّرَ خُرُوجُ هذا العَمَلِ إلى ما بعد صُعُودِ رُوحِكَ إلى الرَّفِيقِ الأعْلَى بِسَنَوَاتٍ ثلاثٍ، فَلَقَدْ عزَّاني حقّاً أنْ قَدْ شَيَّعَكَ تاريخُكَ الشَّرَفُ والمهابَةُ القاهِرةُ والوقارُ الرَّزِيْنُ. وكم نفَّسَ عنِّي مِن لَذْعِ الفِراقِ وسَكَّنَ مِن هَوَاجِسِ الوَجْدِ– وقَدْ لَذَّ لِقلْبِي تَرْدَادُهُ– قَوْلُ القائِلِ:

وإنِّي، وإنْ قُـدِّمْتَ قَبْلِـي، لَعَـالِمٌ　　بِـأَنِّي، وإنْ أَبْطـأْتُ، مِنْـكَ قَرِيْـبُ
وإنَّ صَـباحاً نَلْتَقِـي في مَسَـائِهِ　　صَـبَاحٌ إلى نَفْسِـي الغَـدَاةَ حَبِيْـبُ

- **الشاذليّ أحمد الشاذلي**، أخِي الحبيبِ وشُقَيِّقِ نَفْسِي، وقد رحلْتَ عنّا في الخالِدِينَ وأنتَ في رَيعانِ الشَّبابِ، دِفاعاً عَنْ وَطَنِكَ وفِداءً لأهْلِكَ، ووفاءً لِقِيَمِكَ الرفِيعَةِ؛ وما أنا وأنتَ إلّا كَما قالَ كَعْبُ بْنِ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ في أَبِي المِغْوارِ أخِيْهِ:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ كانـتْ أصابـتْ مَنِيَّـةٌ　　أخِـي، والمنايـا لِلرِّجـالِ شَـعوبُ
لَقَـدْ عَجَمـتْ مِـنِّي المنَـيَّةُ ماجِـداً　　عَروفـاً لِرَيْـبِ الـدَّهْرِ حِـيْنَ يَرِيْـبُ
فَلَـو كَـانَ مَيْـتٌ يُفْتـدَى لَفَدَيْتُـهُ　　بِمَـا لَمْ تَكُـنْ عَنْـهُ النفـوسُ تَطِيـبُ

فَـإنْ تَكُـنِ الأيَّـامُ أحْسَـنَّ مَـرَّةً إليَّ فَقَـدْ عـادتْ لَهُـنَّ ذُنُـوبُ
أخٌ كـانَ يَكْفِيـنِي وكـانَ يُعِيْنُـنِي عَلَـى نائِبـاتِ الـدَّهْرِ حِيْنَ تَنُـوبُ
أخِـي، مـا أخِـي! لا فـاحِشٌ عِنْد بَيْتِهِ ولا وَرَعٌ عِنْـدَ اللِّقَـاءِ هَيُـوبُ
حَلِيـفُ النَّـدَى يَـدْعُو النَّـدى فَيُجِيْبُـهُ سَـرِيعاً ويَـدْعُوهُ النَّـدَى فَيُجِـيْبُ
أخُـو شَـتَوَاتٍ يَعْلَـمُ الحَـيُّ أنَّـهُ سَـيَكْثُرُ مـا في قِـدْرِهِ ويَطِيْـبُ
لِيَبْكِـكَ عَـانٍ لَمْ يَجِـدْ مَـنْ يُعِينُـهُ وطـاوِي الحَشـا نـائي المزَارِ غَرِيْـبُ
وإنِّي لَباكِيْـهِ وإنِّي لَصَـادِقٌ عَلَيْـهِ، وبَعْـضُ القـائِلِيْنَ كَـذُوبُ
حَبِيـبٌ إلى الـزُّوَّارِ غِشْـيَانُ بَيْتِـهِ جَمِيْـلُ المحَيَّـا شَـبَّ وهْـوُ أَرِيْـبُ
ودَاعٍ دَعـا يـا مَـنْ يُجِيْـبُ إلى النَّـدَى فَلَـمْ يَسْـتَجِبْهُ عِنْـدَ ذاكَ مُجِيْـبُ
فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ جَهْرَةً لَعَـلَّ أبـا المِغْـوارِ مِنْـكَ قَرِيْـبُ

- **فائزةَ سُلَيمان الطيِّب**؛ الزوجةُ الوفيَّةُ، وأبنائي الغالِينَ: **آيةَ، ومُحمَّدٍ، وعبد الله،** سَمِيِّ المؤَلِّفِ، **وإيادٍ، ومَلَكَ**؛

وإنَّما كانَ إهداءُ هذا العَمَلِ حَقًّا لَكُم أصِيلاً مُقْتَضىً منِّي لأنَّكُمْ كُنْتُم فِيْهِ شُرَكاءَ بحقِّكُم، فَكَمْ احتجَبْتُ بهِ عَنْكُمْ في أوقاتٍ كانَ يَجِبُ أنْ أكُونَ فِيها مَعَكُمْ، أُلَوِّنُ لَكُمُ الحَياةَ وأستجْلِبُ لَكُم سَعْدَها، وأقْضِي لكمُ الحَوائِجَ كأحسنِ ما يكون القضاءُ. ولكِنَّ الترجمةَ، لا سِيَّما إذا كانَتْ أدبِيَّةً، تَدفَعُ بِدُرُوبِ التفكُّرِ فِيها أحياناً إلى التَّفَرُّغِ والخَلْوةِ. ولا أَزالُ أذكُرُكَ يا محَمَّدُ وأنْتَ لا تَكادُ تُفارِقُني، حتى إذا اضطرِرْتُ إلى هذا التفرُّغِ فاحتَجَبْتُ بِهِ عَنْكُمْ، جِئْتَ تَطْرُقُ عليَّ بابَ الغُرْفةِ، بِشِدَّةٍ وإلحاحٍ ضارِعٍ وأنتَ تَبْكِي تلازِمُ البابَ لا تُفارِقُهُ، حتى إذا فَتحْتُهُ لِأَخْرُجَ ألفَيْتُكَ قَدْ أَخذَكَ النَّوْمُ أمامَهُ وقَدْ افتَرَشْتَ الأرْضَ، وهو مَشْهَدٌ لا يَزالُ يَلْذَعُ القَلْبَ مِنِّي كُلَّما ذَكَرْتُهُ

وعَزائِي أحِبَّتِي أنَّكُم واجِدونَ في هَذهِ الترجمةِ عِلْماً وأَدَباً وشِعْراً وفِكْراً وفَنّاً ومُتْعَةً أرجو أنْ تَتجَدَّدَ كُلَّما قَرَأْتُمُوها. فهلَّا قَبِلْتُمُ الإهداءَ وغَفَرْتُمُ التقْصِيرَ

مُقَدِّمَةُ المُتَرْجِم

لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ وأنا صَبِيٌّ صَغِيرٌ، ثُمَّ وأنا فَتىً حَدَثٌ أَسْتَمِعُ بُعَيْدَ مَغِيْبِ الشَّمْسِ مِن إذاعةِ أُمْدُرْمانَ إلى أحادِيْثِ الدكتور عبْد الله الطَّيِّب ودِراساتِهِ في القُرْءَانِ الكَرِيْمِ، بِصَوْتِهِ الجَمِيْلِ الصَّافِي يُصافِحُ أُذُنَيَّ مُتعالِياً مَعَ بِدايَاتِ سُكُونِ الكَوْنِ إلى لَيْلِهِ الذِي تُضِيئُهُ مَصابِيْحُ السَّمَاءِ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ حِيْنَها أَنَّ لِي مَوْعِداً مَعَ هذِهِ الشَّخْصِيَّةِ النَّابِغَةِ. وما أزالُ أَذْكُرُ كَيْفَ كانَتْ تَنْفِرُ نَفْسِي حَيْنَما كانَ يأْخُذُ في بَيانِ وُجُوهِ التَّجْوِيْدِ فأَشْعُرُ بالامْتِعاضِ إذْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُو لِي آنَذَاكَ إلاَّ أَلْغازاً وطلاسِمَ لا سَبِيْلَ إلى فَكِّها، حتى إذا أَخَذَ فِي بَيَانِ وُجُوهِ التَّفْسِيْرِ مَلَكَ عَلَيَّ عَقْلي وقَلْبِي جَمِيْعاً وهُوَ يَتَوسَّعُ فِيْهِ ويَسْتَطْرِدُ بِسَرْدِهِ القَصَصِيِّ الأَخَّاذِ ولِسانٍ سُوْدَانِيٍّ دارِجِيٍّ جَمِيْلٍ[1]. فلَمْ أكُنْ أَعْلَمُ بأنَّنِي على مَوْعِدٍ مَعَهُ وأنَّ الأقدارَ سَتَرْبِطُنِي بِهِ على نَحْوٍ أَحْبَبْتُهُ، وهُوَ أنْ صِرْتُ تَلْمِيْذاً لَهُ في جامِعَةِ الخُرْطُومِ، بِكُلِّيَّةِ آدَابِها، بِقِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، ثُمَّ وأنا طالِبٌ في كُلِّيَّتِها لِلدِّراساتِ العُلْيَا، إذْ كانَ المُشْرِفَ عَلَيَّ في رِسالَتِي التي تَقَدَّمْتُ بِها لِلْماجستير. ثُمَّ ها هُوَ ذا الرَّبْطُ يَتَمادَى بِهِ وبِي فَكُنْتُ مَنْ قُدِّرَ لَهُ من بَيْنِ تلامِيذِهِ جَمِيْعاً أَنْ يُتَرْجِمَ لَهُ هذا السِّفْرَ العَظِيْمَ، وهُوَ رسالَتُهُ لِلدكتوراةِ مِنْ جامعة لَنْدَنْ، وقد مُنِحَها في سَنَةِ ١٩٥٠ عَنْ الرِّسالَةِ التي قدَّمَها بِعُنْوانِ (أبو العَلاءِ المعَرِّيّ شاعِراً). وسَبَبُ ذَلِكَ هُو أنْ كانَتْ دَعَتْنِي بَعْضُ

---

[1] فَسَّرَ عبد الله الطيب القُرْءانَ الكَرِيْمَ تَفْسِيْراً جَمِيْلاً مُيَسَّراً مِنْ إذاعةِ أُمْدُرْمانَ في سِتِّناتِ القَرْنِ الماضِي. ثُمَّ أَصْدَرَ تَفْسِيْراً للأجزاءِ الثلاثةِ الأخِيْرَةِ مِنَ القُرْءَانِ تَفْسِيْراً لُغَوِيّاً عَمَدَ فِيْهِ إلى شَرْحِ الألفاظِ وتَحْلِيْلِها ثُم يأْتِي بِشَرْحٍ سَرْدِيٍّ مُتتابعٍ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ غايَةٍ فِي الفصاحَةِ، ثُمَّ يأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ بالتَفْسِيرِ بِلِسانٍ سُوْدَانِيٍّ دارِجٍ، كُلُّ هذا مَعَ الوُقُوفِ على وُجُوهِ القِراءَاتِ والتَّعْلِيْقِ عَلَيْها. ولَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ دَهْراً لِماذا يَعْمَدُ إلى إيْرادِ التَفْسِيْرِ بالدارِجَةِ السُّودانِيَّةِ بَعْدَ إيْرادِهِ بالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، ما سِرُّ هذا المَزْجِ الغَرِيْبِ؟ ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي أنَّ مُرَادَهُ مِنْ ذلكَ، واللهُ أَعْلَمُ، أنَّهُ إنَّما قَصَدَ إلى تَدْوِيْنِ اللُّغَةِ السودانِيَّةِ الدَّارِجةِ التي كانَتْ سائِدَةً إلى عَهْدٍ قَرِيبٍ وما تَزَالُ في أَرْيافِ السُّودانِ العَرَبِيَّةِ، جَنْباً إلى جَنْبٍ مَعَ الفصيحةِ لِيَدُلَّ على قُرْبِ هذِهِ الدَّارِجةِ السُّودانِيَّةِ إلى العَرَبِيَّةِ قُرْباً لَصِيْقاً أو لِيَدُلَّ عَلى فَصاحَةِ الدَّارِجَةِ السُّوْدانِيَّةِ، ولِيَكُونَ هذا التَّدْوِيْنُ حِفْظاً مُوَثَّقاً لِهَذِهِ الدارِجةِ التي جَعَلَتْ تَتَلاشَى بِأَخَرَةٍ. ويُقَوِّي هذا المَذْهَبَ عِنْدِي ما كُنْتُ سَمِعْتُهُ مِنهُ في مُحاضَرةٍ عَمِيْقَةٍ لَهُ كانَ قَدْ ألقاها في جامِعَةِ القاهِرةِ بالخُرْطُوم (سابقاً) بِعُنْوانِ (اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ المعاصِرَةُ)، استَمَعْتُ إليها مِنْ إذاعةِ أُمْدُرْمانَ في الثَّمانِيْناتِ؛ فكانَ مِمَّا قالَ فِيْها إنَّ المَدَنِيَّةَ تَقْتُلُ الفَصاحَةَ. فَلَعَلَّهُ أَرَادَ تَدْوِيْنَ الدَّارِجِيَّةَ السُّوْدَانِيَّةَ لِما رأى مِنْ تَلاشِيْها مَعَ غَلَبةِ المَدَنِيَّةِ.

دَواعِي الدَّرْسِ الأَدَبيِّ لِأَنْ أَقْرَأَ في شِعْرِ أبي العلاءِ المعَرّيِّ مِنْ دِيوانِهِ (سَقْطِ الزَّنْدِ) فَذَكَرْتُ لِذَلِكَ هذِهِ الرِّسالَةَ عَنْ أبي العلاء وعَجِبْتُ أَشَدَّ العَجَبِ كَيْفَ لَمْ تُنْشَرْ كُلَّ هذِهِ السِّنِيْنَ السِّتِّيْنَ؛ فَذَهَبْتُ إلى السَّيِّدةِ جِرِزلدا الطَّيِّب زَوْجَتِهِ وسأَلْتُها عَنْها فقالَتْ لِي إنّها ما تَزالُ قابِعَةً حَيْثُ هِيَ. فَأَخْبَرْتُها أَنِّي أُرِيْدُ تَرْجَمَتَها إلى العَرَبيَّةِ، حُبّاً في الاطِّلاعِ عَلَيْها والتَّزَوُّدِ مِنْها ورَغْبَةً في نَشْرِها، ولِيَكُونَ ذَلِكَ بَعْضَ وَفاءٍ لِأُستاذٍ فَذٍّ هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الأَكادِيمِيِّيْنَ العَرَبِ في العَصْرِ الحَدِيْثِ في مَجالِ اللُّغَةِ وآدابِها والثَّقافَةِ الإنسانيَّةِ الرَّحِيْبَةِ. فَرَحَّبَتِ السَّيِّدةُ جرزلدا بالرَّأْيِ واسْتَصْوَبَتْهُ، لاسيما وأَنّا قد وَجَدْناها مَهْمُومةً بِنَشْرِ ما لَمْ يُنْشَرْ مِنْ مُؤَلَّفاتِ البروفسير عبد الله الطَّيِّبِ وإعادَةِ ما قَدْ نُشِرَ ونَفَدَتْ طَبْعَتُهُ. ومِنْ عَجِيْبِ الأَمْرِ أَنِّي لَمْ أَجِدْ منها نُسخَةً واحِدَةً، لا في جامعةِ الخُرْطُومِ ولا في بَيْتِهِ، فَقَدْ قِيْلَ لِي إنَّ النُّسخَةَ التي كانَتْ بِمَكْتَبَةِ السُّودانِ بِجامِعَةِ الخُرْطُومِ كانتْ قَدِ اختَفَتْ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيْلٍ. وهُنَا أَشْكُرُ للسَّيِّدَةِ الجليلةِ جرزلدا الطَّيِّب جَهْدَها الذي بَذَلَتْهُ حَتَّى تَحْصُلَ عَلَى نُسخَةٍ مُصوَّرَةٍ بَبَرْنامَجِ بِي دِي إف (pdf) مِنْ جامِعَةِ لَنْدَنَ وذَلِكَ بَعْدَ لَأْيٍ وتَعَبٍ. كما أَشْكُرُ لها كذلِكَ ثِقَتَها بِي فِي القيامِ بِهَذا العملِ بَعْدَ أَنْ أَشارَتْ لَها بِذَلِكَ الأُستاذَةُ الفاضِلَةِ فادِيَةُ مُصْطَفَى عَلِيّ، بِنْتُ أُخْتِ العَلّامَةِ عبد الله الطَّيِّب، وقَدْ دَرَسَتْ الأَدَبَ الإنجليزيَّ والتَّرْجَمَةَ جَمِيْعاً.

والرِّسالَةُ مَطْبُوعةٌ بِالآلَةِ الكاتِبَةِ القَدِيْمَةِ؛ وأَمَّا ما أَدْرجَهُ فِيْها الكاتِبُ أَحْيَاناً مِنْ أَبْياتٍ شِعْرِيَّةٍ فَقَدْ كُتِبَتْ بِالعَرَبيَّةِ بِخَطِّ اليَدِ، قد بَدَتْ فِيهِ عِنايةٌ بِوُضُوحِ الكتابةِ.

ولَقَدْ كَتَبَ عبدالله الطَّيِّب رِسالَتَهُ فِي أبي العلاء شاعراً بِلُغَةٍ إنجليزيَّةٍ غايَةٍ في الرَّصانَةِ والفَصاحَةِ والأَصالَةِ. فَأَنْتَ تَشْعُرُ مِنْ قُوَّةِ سَبْكِ عِبارَتِهِ فِي الإنْجليْزِيَّةِ وطَلاقَةِ تَعْبِيْرِهِ بِها بِأَنْفاسِ فَصاحَتِهِ العَرَبيَّةِ المعْرُوفَةِ وتَتَلَذَّذُ بِرُوحِ أُسْلُوْبِهِ المتَفَرِّدِ المعْرُوفِ عَنْهُ في كَتابَتِهِ بِالعَرَبيَّةِ. وقد دعوتُ القَوْمَ في محاضرةٍ عامةٍ ثُمَّ في لِقاءَاتٍ أُخرَى إلى نَشْرِ هَذِهِ الرِّسالَةِ بِالإنجليزيَّةِ كما هِيَ في أَصْلِها، فهَناكَ بَعْضُ وَعْدٍ بِذلِكَ، وعَسى أنْ يُنْجزَ قَرِيباً. هذا، والفصاحَةُ والبَيانُ صِبْغَةٌ إذا اتَّصَفَ بِها المرْءُ فِي لُغَةٍ، اتَّصَفَ بِها فِي كُلِّ لُغَةٍ يَتَعَلَّمُها مِنْ بَعْدُ؛ إذْ يَكْتَسِبُ بِها أُسْلُوبُهُ طَعْماً يُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ تَتَذَوَّقُهُ فِي كُلِّ لُغَةٍ يَكْتُبُ بِها، وهُوَ لَعَمْري سِمَةٌ مِنْ سِماتِ الكاتِبِ الأَصِيْلِ والأَدِيْبِ

المطْبُوْعِ. ومِنْ أبْرَزِ أمْثِلَةِ هَؤُلاءِ في عَصْرِنا الحَدِيْثِ، مَثَلاً، الأُستاذُ الأَدِيْبُ الكَبِيْرُ عبَّاسُ محمود العقَّادُ المتَوفَّى سَنَةَ ١٩٦٤ والدكتور الأَدِيْبُ طه حسين المتَوفَّى في ١٩٧٣ فإنَّ لِكِلَيْهِما أُسْلُوبَهُ المميَّزَ، حتَّى إنَّهُ لَيُمكِنُكَ أنْ تُميِّزَ أُسْلُوبَيْهِما مِنْ بَيْنِ عَشَراتِ الأَسالِيْبِ إنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مِئَاتِها. فالعَقَّادُ جَزْلُ الأُسْلُوبِ فَحْلُهُ، وجَزالَتُهُ قائِمَةٌ عَلى الفَخامَةِ والضَّخامَةِ والقُوَّةِ، لا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ غالِباً ولَكِنْ مِنْ جِهَةِ العِبارَةِ وسَبْكِها، فإنَّ في عِبارَتِه وشَكْلِها مِنَ القُوَّةِ و(الوُعُورَةِ أحْياناً)، مَعَ سلاسَة لَفْظِها، ما يُلْزِمُكَ أنْ تَشْحَذَ ذِهْنَكَ وتُنَقِّبَ فِكْرَكَ لِتَسْتَجْلِيَ ما وَراءَها، فما هو إلاَّ أنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حتَّى تَتَفَجَّرَ لَكَ معانِيْها جَمالاً وسِحْراً يَمْلِكُ عَلَيْكَ فِكْرَكَ وشُعُورَكَ جَمِيْعاً؛ فَمِنْ شَأْنِ عِبارَةِ العَقَّادِ أنْ تَتَأَبَّى عَلَيْكَ بادِئَ الأَمْرِ تَأَبِّيَ الغَوانِي ثُمَّ تُسْمِحُ لَكَ عَرُوبةً غَزلةً شأْنُهنَّ كَذلِكَ.

وأمَّا الدكتور طه حسين فَجَزالَةُ أُسْلُوبِهِ قائِمةٌ عَلَى رِقَّةٍ وسلاسةٍ وعُذُوْبَةٍ تسْكُنُ ألفاظَهُ وعِبارَاتِهِ جَمِيْعاً، حتَّى لَتَخالَ أنَّكَ تَشْرَبُ مِنَ الماءِ العَذْبِ عَلَى ظَمَأِ الهاجِرَةِ، وهو حقّاً السَّهْلُ المُمْتَنِعُ والقَرِيْبُ البَعِيْدُ. وأَقُولُ فِيْهِما لِمَنْ لَهُ بَصَرٌ بالشِّعْرِ ومَذاهِبِهِمْ في قَوْلِهِ، إنَّ العَقَّادَ في نَثْرِهِ يَكادُ يَمْتَحُ مِنْ بِئْرِ الفَرَزْدَقِ في شِعْرِه، عَلَى حِيْنِ أنَّ طه حسين ناثِراً أشْبَهُ بِجَرِيْرٍ شاعِراً. ولا أَدَعُ هَذا المقامَ، أيُّها القارِئُ الكَرِيْمُ، حَتَّى أُقَرِّرَ لَكَ تَقْرِيْراً عَجِلاً يُناسِبُ هَذا المقامَ المتَعَجِّلَ، وهُوَ أنَّ العَقَّادَ بَعْدُ أرَقُّ في شِعْرِهِ مِنْهُ في نَثْرِه، ومَعَ ذَلِكَ فَما كانَ شِعْرُهُ دُوْنَ نَثْرِهِ إنْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ، وهُوَ بَعْدُ مَشْهُورٌ ناثِراً أكْثَرَ مِنْهُ شاعِراً.

وهذا عَرَض فَلْنُعاوِدِ الغَرَض.

قُلْنا إنَّ عبد الله الطَّيِّب قَدْ تَناوَلَ أبا العلاءِ شاعِراً تناوُلاً اتَّصَفَ بِالعُمْقِ والأَصالَةِ واتَّسَمَ بالطَّرافَةِ والطُّرْفَةِ والمتْعَةِ. فَمَعَ صَرامَةِ المنْهَجِ العِلْمِيِّ الذي الْتَزَمَ بِهِ، ومَعَ ما عُرِفَ بِهِ النَّقْدُ عُمُوماً مِنْ الجساوَةِ والعُسْرِ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ، ومَعَ ما عُرِفَ بِهِ شِعْرُ أبِي العلاءِ مِنْ قُوَّةٍ وعُسْرٍ بِصِفَةٍ أَخصَّ، مِمَّا بَعْضُ أَسبابِهِ عُمْقُ الفِكْرَةِ وقُوَّةُ اللُّغَةِ؛ مَعَ هذا كُلِّهِ جاءَ تناوُلُ عبدالله الطَّيِّب لِشِعْرِ أَبِي العلاءِ مَوْسُوماً بِالأَناقَةِ والرَّشاقَةِ والجَمالِ؛ فَهُوَ يَكْتُبُ بِإحاطَةٍ وإلْمامٍ ويُحَلِّلُ بِذَكاءٍ، ويَسْتَشْهِدُ بِفِطْنَةٍ ويُقَرِّرُ بِثِقَةٍ واطْمِئْنانٍ. ولقد جاءَتْ دِراسَتُهُ هذه فَرِيْدَةً في بابِها،

حتى إنِّي لَأَزْعُمُ أنَّها فَتَحَتْ آفاقاً جَدِيْدَةً في مَجَالِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ بِصِفَةٍ عامَّةٍ وفي مَجَالِ شِعْرِ أبي العَلاءِ ونَثْرِهِ وفِكْرِهِ جَمِيْعاً بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ. فأَنَا أُقَدِّرُ أنَّ هَذِهِ الدِّراسةَ سَتُحَرِّكُ راكِدَ البَحْثِ في شَأْنِ أبي العلاء شِعْرَاً وفِكْراً. فَلَقَدْ ظَلَّتْ شَخْصِيَّةُ أبي العلاء فِكْراً وشِعْراً عَصِيَّةً عَلَى بَحْثِ الباحِثِيْنَ دَهْراً طَوِيلاً، إذا اسْتَثْنَيْنا الكِتَاباتِ التارِيْخِيَّةَ الطَّابَعِ التي أَكْثَرُ ما دَارَتْ حَوْلَ حَيَاتِهِ وسِيْرَتِهِ وذكائِهِ، دُوْنَ عَمِيْقِ تَعَرُّضٍ لِشِعْرِهِ، وإذا اسْتَثْنَيْنا الأحكامَ الجزافِيَّةَ التي ظَلَّتْ تَصْدُرُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ دِيْنِيَّةٍ بَحْتَةٍ قَبُولاً ورَفْضاً ومَدْحاً وقَدْحاً، لاسِيَّما مَنْ طالَتْهُمْ أحْكامُ أبي العلاءِ وسِهَامُهُ النَّافِذَةُ مِنْ رُمُوزِ السُّلْطَةِ الدِّيْنِيَّةِ مِنْ لَدُنْ أيَّامِ أبي العلاءِ إلى يومِنا هذا؛ وإذا اسْتَثْنَيْنا كذلكَ بَعْضَ الكِتاباتِ المعاصِرَةَ المتَّصِفَةَ بِالجِدِّيَّةِ والعُمْقِ، عَلَى نَحْوِ ما صَنَعَ طه حسين والعَقَّادُ، غَيْرَ أنَّ أكْثَرَها، على قِلَّتِها، حامَ حَوْلَ الحِمَى وانْتَهَى إلى أَقْوالٍ وأَحْكامٍ في شِعْرِ أبي العلاء وفِكْرِهِ يُمْكِنُ قَبُولُها إمْكانَ رَفْضِها.

ومَعَ أنَّ أبا العلاء المعَرِّيَّ ظَلَّ مِنْ أَبْرَزِ الشَّخْصِيَّاتِ الأَدَبِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ والفَنِّيَّةِ المثِيْرَةِ عَلَى مَرِّ تارِيْخِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ كُلِّهِ مُنْذُ عَصْرِهِ، إلاَّ أنَّ كُلاً مِنْ فِكْرِهِ ونَبَاتِيَّتِهِ وعُزْلَتِهِ ظَلَّ مَناطَ الاهْتِمَامِ دُوْنَ شِعْرِهِ الذي لَمْ تَتَوَجَّهْ إلَيْهِ الدِّراسةُ- إلاَّ قَلِيلاً - إلاَّ بَعْدَ اهْتِمامِ النُّقادِ الغَرْبِيِّيْنَ بِهِ، كما ذَكَرَ عبد الله الطيب. هذا ولَسْتُ أعْلَمُ شاعِرَاً أو كاتِباً عَرَبِيَّاً تلاقَتْ في كتاباتِهِ خصائِصُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ومُمَيِّزَاتُها وجَمَالِيَّاتُها وفِكْرُها وتارِيْخُها عَلَى نَحْوٍ لافِتٍ لِلنَّظَرِ، كما تلاقَتْ وائْتَلَفَتْ واتَّسَقَتْ في كتابَاتِ أبي العلاء. فَجَاءَ شِعْرُهُ ونَثْرُهُ قِطَعاً أَدَبِيَّةً جامِعَةً تَحْتَشِدُ فيها أَسْماءُ الحَيَوَانِ والنَّباتِ والشَّخْصِيَّاتِ والأفلاكِ والنُّجومِ والطَّبائِعِ والأَحْدَاثِ والأَخْلاقِ والأفْكارِ والعقائِدِ؛ كُلُّ ذلِكَ يَأْتَلِفُ مَعَ ألفاظِ اللُّغَةِ وعِبارَاتِها ائْتِلافاً عَجِيْباً مِنْ طَرِيْقِ جَمالِيَّاتِ هَذِهِ اللُّغَةِ، جِناساً وطِباقاً ومُقابَلَةً ونَحْوَها، مِمَّا يَعِزُّ أنْ تَدُورَ العَيْنُ مِنْهُ عَلَى نَظِيْرٍ في أَدَبِ العَرَبِيَّةِ. حتى جاءَ أَدَبُ أبي العلاء كَأَنَّهُ تَسْجِيْلٌ نادِرٌ لِبَراعَةِ هَذِه اللُّغةِ وإعْجازِها التَّعْبِيْرِيِّ الذي تَفَرَّدَتْ بِهِ دُوْنَ غَيْرِها مِنَ اللُّغاتِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ بِاللُّغَةِ غَزِيْرٍ واطِّلاعٍ في العُلُومِ واسِعٍ.

وقد تناوَلَ عبد الله شِعْرَ أبي العلاءِ في هَذِهِ الدِّراسةِ تناوُلاً طَرِيفاً جَدِيداً جَرِيْئاً. فتناولَ دِيْوانَ سَقْطِ الزَّنْدِ تناوُلاً اتَّسَمَ بِالاقْتِدارِ العلميِّ الصارِمِ والتذوُّقِ الفنيِّ المِمْتِعِ؛ دَرَسَهُ فأَتْقَنَ دَرْسَهُ

وحلَّلَهُ فجوَّدَ تحليلَهُ، ودلَّ عَلى مَواطِنِ الفنِّ والجمالِ في الدِّيوانِ عامَّةً والقصائِدِ خاصَّةً. وهو عملٌ قلَّ أنْ تجِدَ لَهُ نَظِيراً، أسْعَفَهُ فِيهِ إتقانُهُ للعَربيَّةِ وسَعةُ اطِّلاعِهِ في الأَدَبِ العَرَبِيِّ خاصَّةً والآدَابِ العالَمِيَّةِ عامَّةً، وشاعِرِيَّتُهُ الطَّرُوبةُ، وذكاؤُهُ المعروفُ عَنْهُ، وجُرْأَتُهُ التي تَسْنُدُها مَلَكَتُهُ النَّقْدِيَّةُ المدرَّبَةُ، حتَّى انْتَزَعَ لَنا اللَّذَةَ الفَنِّيَّةَ الخالِصةَ في كَثْرَةٍ مُعْتَبرةٍ مِنْ قصائِدِ الدِّيوانِ بَعْدَ أنْ ساقَنا إلَيها سَوْقاً مازَجَتْهُ الخِبرةُ والفِكرَةُ وشَفَعَهُ التلذُّذُ الفَنِّيُّ يَصْدُرُ مِنْ شاعِرٍ ناقِدٍ في شاعِرٍ ناقِدٍ.[1]

ولَمْ يَكُنْ تناوُلُهُ لِلُزُومِيَّاتِ بأقَلَّ حظّاً مِنْ المتعةِ في تناوُلِهِ سَقْطَ الزنْدِ. فقَدْ دَرَسَ هذا الدِّيوانَ دِراسةً فَنِّيةً اتَّسَمَتْ بِالتعمُّقِ والتحليلِ والجرأةِ التي أَقْدَمَتْهُ على الردِّ على كِبارِ النُّقَّادِ والأُدَباءِ العَرَبِ مِنْ أمثالِ ابْنِ خلدونَ وابْنِ الأَثِيرِ، وكِلاهُما أديبٌ كبيرٌ ومِمَّنْ تكلَّمَ في شِعْرِ أبي العلاءِ مِنْ جِهَةِ الحُكْمِ والنَّقْدِ؛ فما زالَ بِهِما حتَّى ردَّ نَقْدَهُما غَيْرَ شيءٍ، بِعِلْمِيَّةٍ وثِقةٍ بِالنَّفْسِ لا تخفَى. كما أنَّهُ تَعقَّبَ ناقدَيْنِ عَظِيمَيْنِ آخرَيْنِ، ولكنَّهما أورباوِيَّانِ هَذِهِ المرَّةَ، وكلامُ الإفرنج كالمسلَّمِ بِهِ عِنْدَ أُدَباءِ العَرَبِ المعاصِرِينَ بِدَافِعِ الانْهِزامِ الحضارِيِّ، فأبْطَلَ نظرِيَّتَيْهِما حَوْلَ الحُكْمِ على دِيوانِ اللُّزُومِيَّاتِ، وهما مرجليوث ونِكِلْسُون.

والحقُّ أنِّي لم أظْهَرْ على نقدٍ لناقِدٍ قطُّ مازَجَهُ قَدْرٌ مِنَ الجَراءةِ والجَسارةِ لَمْ يَقِلَّ عن حَظِّهِ مِنَ اللَّذَّةِ والمتْعةِ الفَنِّيَّةِ كما في هَذِهِ الدِّراسةِ الجَسُورَةِ المُمْتِعَةِ من البروفسير عَبد الله الطيِّبِ، اللَّهُمَّ إلا الدكتور طه حُسَيْن. وكأنَّ عَمَلَهُ في المرْشِدِ مِمَّا كانَ أعَدَّهُ لِهَذا الصنيعِ إعْدَاداً. عَلَى أنَّ عبْد الله الطيِّب عَرَضَ لِبَعْضِ شِعْرِ أبي العلاءِ في مُرْشِدِهِ قَبْلَ إذْ يَتَناوَلُهُ في هَذِهِ الرِّسالةِ، وعَسَى أنْ يَكُونَ هذا مَوضُوعاً لِدَرْسٍ نُقَدِّمُهُ لاحقاً، على نَحْوٍ مُنْفَصِلٍ مُفصَّلٍ. هذا وقَدْ أشْرَفَ عَلَى عبد الله الطَّيِّب في دِرَاسَتِهِ هَذِهِ أُستَاذُهُ أَلْفريد قِيُوم (Alfred Guillaume)[1] البريطانيُّ

---

[1] لَمْ أجِدْ هَذه المعلومَةَ في نُسْخَةِ (أبو العلاء شاعراً) الإنجليزية، فَيَبْدُو أنَّ الصَّفحَةَ المدوَّنَ فِيها هَذِهِ المعْلومَةُ لَمْ تَصِلْنِي، ولَكِنَّ هَذِهِ المعلومَةَ مَعْرُوفةٌ عَنْهُ مِنْ كَلامِهِ ومِن إشارَتِهِ إلى ذلكَ في كِتابِهِ (القَصِيْدَةُ المادِحةُ ومَقَالاتٌ أُخَرُ) الذِي طَبَعَتْهُ دَارُ التَّأْلِيفِ والتَّرْجَمَةِ والنَّشْرِ بِجَامِعَةِ الخُرْطُومِ؛ -وهي الآن دارُ جامعةِ الخرطومِ لِلنَشْرِ- الطبعةُ الأُوْلَى، سنة ١٩٧٣.

أَسْتاذُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ والدِّراساتِ الإسْلامِيَّةِ بِجامِعَةِ لَنْدَن، وهو مَنْ قَدَّمَهُ إلى الدكتورِ طه حُسَين أوَّلَ عَهْدِهِ بِه لَمَّا شاءَ عبد الله الطيِّب أنْ يَعْرِضَ عَلَيْهِ كِتابَهُ الضَّخْمَ (المرشِدُ إلى فَهْمِ أشعارِ العَرَبِ وصِناعَتِها)[1]، ولَمْ يَكُنْ قِيُوم قَدِ اطَّلَعَ عَلَى كِتابِ المُرْشِدِ بَعْدُ، ولَكِنْ لِما كانَ رَأَى مِنْ أدائِهِ وصَنِيْعِهِ في (أبو العلاءِ شاعراً) هذا الذي بَيْنَ يَدَيْكَ. والفريد قِيُوم هُوَ مَنْ تَرْجَمَ السِّيْرَةَ النَّبَوِيَّةَ لِابْنِ إسْحاق إلى الإنجليزيَّةِ، وقَدْ عاوَنَهُ عبد الله الطَّيِّبِ في عَمَلِهِ هذا؛ فأسْدَى لَهُ هذا في أوَّلِ تَرْجَمَتِهِ هَذِهِ عِبارَةَ الشُّكْرِ والعِرْفانِ؛ وتَراهُ يَذْكُرُهُ في واحِدَةٍ مِنْ حَواشِي مُقَدِّمَتِهِ الطَّوِيْلَةِ لِهَذِهِ التَرْجَمَةِ لا عَلَى أنَّهُ تلْمِيذُهُ ولَكِنْ عَلَى أنَّهُ زَمِيلٌ لَهُ سَابِقٌ[2] واسْتَشْهَدَ لَهُ هُناكَ بِرَأْيٍ نَقْدِيٍّ. وهو مِنْ جَمِيلِ إنصافِ الإفْرَنْج

وإنَّ مِمَّا يَزِيْدُ مِنْ أهمِّيَّةِ هذِهِ الدِّراسَةِ أنَّ شَخْصِيَّةَ أبي العلاءِ[3] لاتَزالُ مُثِيْرَةً لِلْجَدَلِ والنَّظَرِ، فما يَزالُ فَنُّهُ شِعْراً ونَثْراً مَحَلَّ دِراسَةٍ ونَقْدٍ؛ ومايَزالُ الدَّرْسُ مُوَجَّهاً إلى شِعْرِهِ وفَنِّهِ ونَقْدِهِ الأَدَبِيِّ، وإلى آرائِهِ في النَّقْدِ والفِكْرِ والاجْتِماعِ. ومِمَّا يَزِيْدُ مِنْ أهمِّيَّتِها كَذَلِكَ، مِنَ الناحِيَةِ الاجْتِماعِيَّةِ الفِكْرِيَّةِ عَلَى الأقَلِّ، أنَّ دِيْوانَ اللُّزُومِيَّاتِ عِنْدِي أنا خاصَّةً يُعَدُّ ثَوْرَةً اجْتِماعِيَّةً وفِكْرِيَّةً عَنِيْفَةً

---

[1] هُو أضْخَمُ مُؤَلَّفٍ لِعَبْد الله الطَّيِّب، يَقَعُ في أَرْبَعةِ أجْزاءٍ ضَخمةٍ وجُزْؤُهُ الرَّابعُ والأَخِيرُ يَقَعُ في قِسْمَيْنِ ضَخْمَيْنِ؛ وجاءَ فيه بِعِلْمٍ غَزِيْرٍ وثقافةٍ واسِعَةٍ، وهو من أجلِّ ما أُتِيْحَ لَنا في هذا العَصْرِ مِنْ كُتُبِ الأَدَبِ التي جَمَعَتْ إلى الأَدَبِ والعِلْمِ الطَرافَةَ والمتْعَةَ، عَلَى نَحْوِ ما قالَ الدكتور طه حسين فِيما كَتَبَ في تَقْدِيْمِهِ لَهُ. وهُوَ كِتابٌ لا غِنَى لِلْمُثَقَّفِ العادي الذي يَنْشُدُ العِلْمَ ويَطْلُبُ سَعَةَ المَعْرِفَةِ والثقافةِ عَنْهُ. وبِسَبَبِ ماجاءَ بِهِ مِنْ نُدْرَةِ العِلْمِ تَعَرَّضَ كَثِيْراً للسَّرِقَةِ في حياةِ صاحِبِهِ وبَعْدَ مَماتِهِ. وقد صَدَرَتْ طبعاتٌ له عَدِيْدَةٌ.

[2] انظر حاشِيَةَ صفحة ٢٧ مِنْ مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَةِ كِتابِ: (سيرة رسول الله) (The Life of Muhammad)، لِأَلْفريد قِيُوم، الطبعة الأُولَى.

[3] يَقُولُ عَنْهُ العَقَّادُ وهُو مِنْ عَباقِرَةِ الفِكْرِ والفَهْمِ، في كِتابِهِ: (رَجْعَةُ أبي العلاءِ): (ثَلاثُ علامَاتٍ مَنِ اجْتَمَعْنَ لَهُ كانَ مِنْ عُظَماءِ الرِّجالِ وكانَ لَهُ حَقٌّ في الخُلُودِ: فَرْطُ الإعْجابِ مِنْ مُحِبِّيهِ ومُرِيدِيهِ، وفَرْطُ الحِقْدِ مِنْ حاسِدِيهِ والمُنْكِرِيْنَ عَلَيْهِ، وجَوٌّ مِنَ الأَسْرارِ والأَلْغازِ يُحِيْطُ بِهِ كأنَّهُ مِنْ خَوارِقِ الخَلْقِ الذِينَ يَحارُ فِيهِمُ الواصِفُونَ يَسْتَكْثِرُونَ قُدْرَتَهُمْ عَلَى الآدَمِيَّةِ، فَيَرُدُّونَ تِلْكَ القُدْرَةَ تارَةً إلى الإعْجازِ الإلَهِيِّ وتارةً إلى السِّحْرِ والكِهانَةِ وتارَةً إلى فَلَتاتِ الطَّبِيْعَةِ إنْ كانُوا لا يُؤْمِنُونَ بِما وَراءَها. وهَذِهِ العَلاماتُ الثَّلاثُ مُجْتَمِعاتٌ لِأَبِي العَلاءِ عَلَى نَحْوٍ نادِرٍ فِي تارِيْخِ الثَّقافَةِ العَرَبِيَّةِ لا يَشْرَكُهُ فِيها إلاَّ قَلِيْلٌ مِنَ الحُكَماءِ والشُّعَراءِ. فَهُوَ في ضَمانِ الخُلُودِ مُنْذُ أحَبَّهُ مَنْ أحَبَّ وكَرِهَهُ مَنْ كَرِهَ، وتَحَدَّثَ عَنْهُ مَنْ تَحَدَّثَ كأنَّهُ بَعْضُ الخَوارِقِ والأعاجِيبِ).

وصَرْخَةً مُدَوِّيَةً لا تَقِلُّ خُطُورةً عَنِ الثَّوْرَاتِ الاجْتِماعِيَّةِ الكُبْرَى في جَمِيْعِ أَطْوَارِ التَّارِيْخِ البَشَرِيِّ، انْطَلَقَتْ مِنْ رُكْنٍ قَصِيٍّ في ناحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي مَعَرَّةِ النُّعْمانِ بِالشَّامِ. ومِنْ ذَكاءِ أَبي العلاء أَنَّهُ اخْتَارَ دِيْوَانَ اللُّزُومِيَّاتِ مِنْبَراً يُطِلُّ مِنْهُ، والشِّعْرَ وَسِيْلَةً يُعَبِّرُ بِها دُونَ سائِرِ وسائِلِ التَّعْبِيْرِ، يُبَلِّغُ بِهِ ثَوْرَتَهُ هَذِهِ حتى يَضْمَنَ بُلُوغَ الأَسْماعِ في كُلِّ البِقاعِ مِنَ المجْتَمَعِ الإسلامِيِّ والإنسانِيِّ جميعاً.

وسَوَاءٌ أَتَّفَقْنا مَعَ أَبِي العلاءِ فِي نَظَرَاتِهِ الفِكْرِيَّةِ العِلاجِيَّةِ التي انْطَوَتْ عَلَيْها ثَوْرَتُهُ هَذِهِ أَمْ اخْتَلَفْنا- وحَتْماً نَحْنُ مُتَّفِقُونَ مَعَهُ ومُخْتَلِفُونَ - فالثَّابِتُ عِنْدِي الذِي لا يَعْتَرِيْهِ الشَّكُّ أَنَّ أَسْبابَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ مِنْهُ ودَوَافِعَ تِلْكَ الصَّرْخَةِ المدَوِّيَةِ لا تَزَالُ قائِمَةً في المجْتَمَعِ الإسلاميِّ اليَوْمَ وعَلَى نَحْوٍ أَشَدَّ ضَرَاوةً وأَقْسَى فظاعَةً وأَبْلَغَ تَعْقِيْداً. فَقَدِ انْتَهَى الإسلامُ في قُلُوبِ أَتْباعِهِ، عَلَى الأَكْثَرِ، إلى مُجَرَّدِ شَعائِرَ شَكْلِيَّةٍ وطُقُوسٍ دِيْنِيَّةٍ خَوَتْ مِنْ مَعانِيْها وخَلَتْ مِنْ رُوحِها؛ وصارَتِ العلاقاتُ بَيْنَ النَّاسِ يُحَرِّكُها الطَّمَعُ وتَحْكُمُها الأنانِيَّةُ والأَثَرَةُ، واشْتَدَّتْ مَظاهِرُ الظُّلْمِ في المجْتَمَعِ عَلَى كُلِّ مُسْتَوَيَاتِهِ الحَيَاتِيَّةِ أفراداً وجماعاتٍ، في الأُسْرَةِ والمؤَسَّساتِ، وغابَتْ مَعانِي الرَّحْمَةِ والإنسانِيَّةِ والعَدْلِ والإكْرَامِ إلاَّ مُسَمَّيَاتٍ وأَشْكالاً. وفَشَا الكَذِبُ في الأَلْسِنَةِ والغِشُّ في التِّجارَةِ والخِدَاعُ في التَّعامُلِ، ووُظِّفَ الدِّيْنُ لاسْتِجْلابِ المنافِعِ الخاصَّةِ وتَحْقِيْقِ المصالِحِ الشَّخْصِيَّةِ وتَكْوِيْنِ الكِياناتِ والجَماعاتِ والعُلُوِّ في النَّاسِ؛ كُلُّ ذَلِكَ مَعَ قُوَّةِ مَظاهِرِ التَّدَيُّنِ وادِّعاءٍ لِلصَّلاحِ[1]. وما كانَ أَصْدَقَ ابنَ رُشْدٍ لَمَّا قالَ: (التِّجارةُ بِالأديانِ هِي التِّجارةُ الرَّائِجةُ فى المجْتمعاتِ التى يَنْتشِرُ فِيها الجَهْلُ)

ولأبي العلاءِ، بَعْدُ، آراءٌ شاذَّةٌ لا يَمْلِكُ المرْءُ إلّا أنْ يَرُدَّها عَلَيْهِ ردّاً ويَقِفَ منها مَوقِفَ الرَّفْضِ المطْلَقِ، مِثْلُ رأيِهِ في المرأةِ وتَعْلِيمِها، إنْ صَحَّتْ أشعارُهُ فِيْها، فهِيَ مِنْ أغْرَبِ آرائِهِ ومما لا تكادُ تَجِدُ لَهُ مُبرِّراً، إذ يُناقِضُ عِنْدَهُ بَعْضَ مَبادِئِهِ كالعَدْلِ والمساواةِ والرَّحْمَةِ.

---

[1] حامَ عَبْد اللهِ الطَّيِّب حولَ هذا المعْنَى كَثِيراً في كِتابِهِ (نَظَراتٌ فِي المجتمع الإسلاميِّ)، نُشِرَ بَعْدَ وَفاتِهِ سنةَ ٢٠٠٩، دار عزة للطباعة والنشر.

هذا، وهاكَ الآنَ بَعْضَ مَلامِحِ مَنْهَجِي الذي اتَّبَعْتُهُ في هذا العَمَلِ:

١. حَرَصْتُ أشَدَّ الحِرْصِ عَلَى ضَبْطِ الكَلِماتِ بِالشَّكْلِ لِأُساعِدَ القارِئَ على القِرَاءَةِ الصَّحِيْحَةِ والفَهْمِ الصَّائِبِ، لاسِيَّما وأنَّ الدِّراسةَ أدبِيَّةٌ، وذاتُ طابَعٍ تَخَصُّصِيٍّ ومَلْأَى بِالشِّعْرِ والكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ التي يَغْلُبُ عَدَمُ اسْتِخدَامِها في اللُّغَةِ اليَوْمِيَّةِ. ثُمَّ لِما رَأَيْتُ مِنْ تَرَاجُعِ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الصَّحِيْحَةِ، حَتَّى لَدَى كَثِيرٍ مِنَ الأكادِيْمِيِّيْنَ وعامَّةِ المثَقَّفِيْنَ، وذَلِكَ لِمَا فَشا مِنْ الدَّارِجِيَّاتِ البَعِيْدَةِ عَنِ الفَصِيْحَةِ، مِمَّا سادَ القَنَوَاتِ الفَضَائِيَّةَ والإذاعاتِ والصُّحُفَ مِنَ اللَّكْنَاتِ وما يُشْبِهُ الرُّطاناتِ، فصارتِ العَرَبِيَّةُ كأَنَّها مَقْصُورةٌ عَلَى الفَضَائِيَّاتِ والدَّوَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ والتي تَرَى كَثِيْراً مِنها تَمْضُغُها بِتَكَلُّفٍ وتَصَنُّعٍ مُمِضٍّ حتى صارَتِ العَرَبِيَّةُ الفَصِيْحةُ في أغْلَبِ شأْنِها كأَنَّها لُغَةٌ إكْليروكِيَّةٌ دِيْنِيَّةٌ مَصْنُوعَةٌ صِناعَةً، بَعِيْدَةٌ عن الصِّحافَةِ الجَيِّدَةِ والحَياةِ بِرَحابَتِها والثَّقافَةِ بِسَعَتِها.

ثُمَّ إنِّي قَدْ حَرَصْتُ كَذَلِكَ عَلَى هَذِهِ المهِمَّةِ، لِأَنَّها أَشْبَهُ بِرَجُلٍ قَضَى حَياتَهُ - مَعَ آخَرِيْنَ - في بَعْثِ فَصاحَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَكَشْفِ نَوَاحِيْها الجَمَالِيَّةِ في التَّعْبِيْرِ، مَعَ أنَّهُ كانَ يُتْقِنُ الإنجلِيْزِيَّةَ والفَرَنْسِيَّةَ ويَعْرِفُ الإسْبَانِيَّةَ وتَعَلَّمَ في أُخْرَياتِ حَياتِهِ اللُّغَةَ اللاتِيْنِيَّةَ التي لَمْ يَعُدْ لَهَا وُجُودٌ يُذْكَرُ إلاَّ في الكُتُبِ القَدِيمَةِ أو بَعْضِ الدَّوَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ الكَنَسِيَّةِ، وذَلِكَ لِأَغْراضٍ لَهُ بَحْثِيَّةٍ. وقد رَأَيْتُهُ وهو يُعِدُّ الجُزْءَ الرَّابِعَ[1] مِنْ كِتابِهِ (المرْشِد) وهُوَ يَضْبِطُ كَلِماتِهِ بِالشَّكْلِ بِيَدِهِ، بَعْدَ أنْ طُبِعَ في مَرْحَلَتِهِ الأخِيْرَةِ، وكَأَنَّ المطْبَعَةَ قَدِ اسْتَثْقَلَتْ هَذِهِ المهِمَّةَ فأَشْفَقَتْ مِنْها، أو كانَ هُوَ يَخْشَى مِنها كَثْرَةَ الأخْطاءِ، فَقامَ بِهَذِهِ المهِمَّةِ بِيَدِهِ، ثُمَّ صَوَّرَ الكِتابَ بَعْدَ ذَلِكَ وخَرَجَ لِلنَّاسِ.

---

[1] يَتَأَلَّفُ هذا الجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ كِتابِ (المرْشِدُ إلى فَهْمِ أشْعارِ العَرَبِ وصِناعَتِها) من قِسْمَيْنِ يَقَعُ كُلٌّ مِنْهُما في مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ، وصَدَرَ القِسْمانِ مَعاً في سَنَةِ ١٩٩١، وكان البروفسير قد كَلَّفَني وأنا طالبٌ بِالسنةِ الرابعةِ أو الخامسةِ بِكُلِّيَّةِ الآدابِ بِمُراجَعَةِ تَجارِبِ طَبْعِ هذا الجُزْءِ مَعَ الأُستاذِ بَشِيْرِ سَهَل جمعةِ الذي كان مَسْؤولاً عن مُتابعَةِ طَباعةِ هذا الجُزْءِ في دارِ جامعةِ الخرطومِ لِلنشرِ، وكانَ ذَلِكَ أوَّلَ عَهْدِي بِمَعْرِفَتِهِ، لَمَّا جَمَعَنا مَعاً بِمَكْتَبِهِ في اجْتماعٍ قصيرٍ لهذا الغَرَضِ. وبَعْدَ الفَراغِ مِن المراجَعةِ طَلَب البروفسير عبد الله الطيب إلى دار جامِعَةِ الخَرْطومِ لِلنَّشْرِ أنْ تَدْفَعَ لِي مُكافأةً مالِيَّةً، فأُعْطِيْتُها كُتُباً.

٢. صَنَعْتُ حَوَاشٍ كَثِيْرَةً - سِوَى ما صَنَعَهُ المؤلِّفُ مِنْها في كِتابِهِ - بَعْضُها رَأَيْتُ أَنَّهُ مُهِمٌّ لِلْمُثَقَّفِ أوِ القارِئِ العادِيِّ لِيَكْتَمِلَ لَهُ فَهْمُ المعْنَى المرادِ؛ إذْ إنَّ المؤلِّفَ إنَّما كانَ كَتَبَ رِسالَتَهُ لِلَجْنَةِ امْتِحانٍ مُتَخَصِّصَةٍ. وبَعْضُها صَنَعْتُهُ أَحْتالُ بِهِ على صَرَامَةِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ وجَسَاوَتِهِ وأُحاوِلُ أنْ أُكْسِبَ بَعْضَ مَواطِنِهِ شَيْئاً مِنَ الخِفَّةِ وتَطْرِيَةِ النَّشاطِ، لِيَكُونَ كأنَّهُ مِنْ قَبِيْلِ ذَلِكَ الذي يَسْتَجْلِبُهُ المتَحدِّثُ اللَّبِقُ عَنْ طَرِيْقِ الاسْتِطْرَادِ. غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ حَرِيْصاً أَشَدَّ الحِرْصِ عَلَى أَلَّا أَتَدَخَّلَ في مَادَّةِ الكِتَابِ قَطُّ. وأنا شَدِيْدُ الاعتقادِ أَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ لِعَبدِ الله الطَّيِّبِ أنْ يَتَوَلَّى نَشْرَ هَذِهِ الدِّراسَةِ بِنَفْسِهِ لَصَنَعَ شَيْئاً مِمَّا صَنَعْتُ هُنا يَنْحُو بِهِ هَذا النَّحْوَ لِيُخْرِجَها مِنْ حَيِّزِ التَّخَصُّصِ والصَّفْوِيَّةِ لتَكُونَ في مُتناوَلِ المثَقَّفِ العادِيِّ غَيْرِ المتَخَصِّصِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ. ومِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ هذا الاعْتِقَادِ مِنِّي ما كانَ ذَكَرَهُ في مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ (القَصِيْدَةُ المادِحَةُ ومَقالاتٌ أُخَرُ) أَنَّهُ كانَ يَنْوِي نَشْرَها في سِتِّينِيَّاتِ القَرْنَ الماضِي في إحْدَى دُوْرِ النَّشْرِ بِلَنْدَنَ وأنَّهُ كانَ يَنْوِي اخْتِصارَها لِهَذا السَّبَبِ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتِمَّ لأَنَّهُ تَزَامَنَ مَعَ إضْرَابٍ في بِرِيْطانِيا شَلَّ حَرَكَةَ الحَيَاةِ.

٣. مَيَّزْتُ بَيْنَ حَوَاشِي المؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ الموْجُودَةِ أَصْلاً في كِتَابِهِ والحَوَاشِي التي صَنَعْتُها أنا بِأَنْ خَتَمْتُ حَوَاشِيَّ التي صنعتُها بِكَلِمَةِ (التُّرْجُمان) أو (المترجم)، هَكَذا بَيْنَ هَذَيْنِ القَوْسَيْنِ، لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّها مِنْ عَمَلِي ولَيْسَتْ من الأَصْلِ.

٤. وَجَدْتُ المؤَلِّفَ قَدِ اتَّبَعَ في إيْرَادِهِ الشِّعْرَ في كِتابِهِ هذا ثَلاثَةَ أساليْبَ؛ **أَحَدُها** أَنْ يُوْرِدَ تَرْجَمَةً لِمَا يَسْتَشْهِدُ بِهِ من بَيْتٍ أوِ أبْياتٍ أو قَصِيْدَةٍ دُوْنَ إيْرادِ النَّصِّ، وهو الأُسْلُوبُ الأَغْلَبُ الأَعَمُّ الذي اعْتَمَدَهُ في رِسالَتِهِ اعْتِماداً، وهُوَ كما تَرَى، الأَنْسَبُ لِطَبِيْعَةِ رِسالَةٍ مَكْتُوبَةٍ باللُّغَةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ. وقد كانَ نَهجِي في التَّرْجَمَةِ هُنا أنْ أَرْجِعَ إلى أصلِ هذا البَيْتِ أوِ الأَبْياتِ أو القَصِيْدَةِ فأُوْرِدُه كما هُوَ بالعَرَبِيَّةِ، فإذا شَعَرْتُ أَنَّها واضِحةٌ بِنَفْسِها وإلاَّ شَفَعْتُها بِتَرْجَمَةِ شَرْحِها مِنَ الإنجليزيَّةِ وهُو أَغْلَبُ ما صَنَعْتُ هُنا. **وثانيها** أَنْ يَجِيءَ بِنَصِّ البَيْتِ أوِ الأبياتِ بالعَرَبِيَّةِ دُوْنَ شَرْحٍ لَها، وهُو كَثِيرٌ وإنْ لَمْ يَكُنِ الأَغْلَبَ. على أَنِّي هُنا أَشْرَحُ ما أَشْعُرُ أَنَّهُ صَعْبٌ على القارِيءِ العادِي شَرْحاً مُوْجَزاً، ولَكِنْ قليلاً جِدّاً ما فَعَلْتُ

ذَلِكَ. **وثالِثُها** أنْ يُوْرِدَ المؤَلِّفُ البَيْتَ أوِ الأبياتَ كما هِي باللُّغةِ العَرَبيَّةِ، ثُمَّ يُلْحِقُها شَرْحاً بِالإنجليزيَّةِ، وهُوَ أقَلُّ هذِهِ الأساليْبِ الثَّلاثةِ. ومَنْهَجِي هُنا أنِّي إذا شَعَرْتُ أنَّ البَيْتَ واضِحٌ بِنَفْسِهِ وإلاَّ شَفَعْتُهُ بِتَرْجَمةِ شَرْحِهِ. وهَذَا الأُسْلُوبُ عَلَى قِلَّةِ مَواطِنِهِ إلَّا أنَّني أكْثَرُ ما تَرْجَمْتُ شَرْحَ الأَبْيَاتِ التي تُذْكَرُ. وأكْثَرُ ما أتْعَبَنِي الأُسْلُوبُ الأوَّلُ، الذِي يَذْكُرُ فِيْهِ المؤَلِّفُ مَعْنَى البَيْتِ مَحَلِّ الاسْتِشْهادِ أوْ شَرْحَ القَصِيْدَةِ باللُّغةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ، وهذا الأُسْلُوبُ وإنْ كانَ هُوَ الأَنْسَبَ لِنَصٍّ مَكْتُوْبٍ بالإنجليزيَّةِ إلاَّ أنَّهُ لا يُناسِبُ نَصَّاً مَكْتُوباً بِالعربيَّةِ، كما قَدْ تَرَى. فَلَيْسَ مِنَ المُنَاسِبِ أنْ تَقْرَأَ كِتاباً في الأدَبِ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، لا تَجِدُ فِيْهِ مِنْ نَصِّ الشِّعْرِ المسْتَشْهَدِ بِهِ إلَّا شَرْحَهُ. ولِذَلِكَ حَرِصْتُ عَلَى إيْرَادِ الأَبْيَاتِ أوِ القصائِدِ المسْتَشْهَدِ بِها نَصَّاً. وقد لَقِيْتُ هُنا عَنَتاً شديداً، لِأنَّني لَمْ أجِدْ أغْلَبَ المصادِرِ التي يُشِيْرُ إليها المؤَلِّفُ بِطَبْعاتِها التي كان اعْتَمَدَ عَلَيْها لا سِيَّما مُؤلَّفاتِ أبي العلاءِ المعَرِّيِّ، ما عَدَا (الفُصُولُ والغايَاتُ). فباخْتِلافِ الطَّبْعاتِ ضَلَّتْ عنِّي المصَادِرُ والمرَاجِعُ. فأنا لا أعْرِفُ في أيِّ صَفحَةٍ مَثَلاً أجِدُ أبياتاً بِعَيْنِها ولا أعْرِفُ ما هِي قافِيَتُها لِيَسْهُلَ عليَّ الرُّجُوْعُ إلَيْها في الطَّبْعَاتِ المخالِفَةِ. ثُمَّ إنَّ بَعْضَ هذا الشِّعْرِ لا تكونُ مَرَاجِعُهُ دَوَاوِيْنَ شِعْرِيَّةً، بَلْ كُتُباً تاريخيَّةً أوْ أدَبِيَّةً، وكثيرٌ مِنْهُ لا يَكُونُ لِأبي العلاءِ، بِطَبِيْعةِ الدِّراسةِ.

٥. حَرَصْتُ على إثْباتِ مَظانِّ المصَادِرِ والمراجِعِ كما أثْبَتَها المؤَلِّفُ، أيْ أثْبَتُّ ذَاتَ أرقامِ صَفْحاتِ المصَادِرِ وأجْزائِها. عَلَى أنَّني أسْقَطْتُ الإشارةَ إلى أرقامِ السُّطُورِ، إذِ اسْتَثْقَلْتُها وخَشِيْتُ كَثْرَةَ الخَطَأِ فِيْها، كما أنَّني تَجاهَلْتُ أرْقامَ الصَّفْحاتِ والأجْزاءِ في الفَصْلَيْنِ السَّادِسِ والسَّابعِ، إذا كانت لِدِيْوَانِ اللُّزُومِيَّاتِ خاصَّةً لِكَثْرَتِها أوَّلاً، ولِأنَّ دِيْوانَ اللُّزومِ حَسَبَ طَرِيْقَةِ نَظْمِهِ وتَرْتِيْبِهِ مَسْرَدٌ ألفبائيٌ قائِمٌ بِنَفْسِهِ، يَسْهُلُ على مَنْ يُرِيْدُ الرُّجُوعَ إلى بَيْتٍ وِجْدَانُهُ، فاكتَفَيْتُ بِذَلَكَ.

٦. تَعَرَّضَ المؤلِّفُ لِبَعْضِ القصائِدِ، كما هُو في الفصْلِ الخامِسِ، بالتَّحْلِيْلِ دُوْنَ إيْرادِ نَصِّها أو دون أنْ يُوْرِدَ مِنْها بَيْتاً واحِداً، وهذا مِنْهُ قَدْ يُناسِبُ الكتابةَ بِالإنْجِلِيْزِيَّةِ كَمَا ذَكَرْتُ هُنا؛ غَيْرَ أنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى القارِئِ العَرَبِيِّ أنْ يَقْرَأَ تَحْلِيْلاً لِقَصِيدةٍ دُوْنَ أنْ تُذْكَرَ أبْيَاتُها،

فأَوْرَدْتُ هَذِهِ القصائِدَ بَيْنَ يَدَيْ تَحْلِيْلِها أَوْ مَعَهُ. كما أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِبَعْضٍ آخَرَ مِنْها طَوِيْلٍ جِدّاً بِالشَّرْحِ دُوْنَ ذِكْرِها مِثْلِ قَصِيْدَةِ أَبِي العلاء التي نَظَمَها في رِسالَةِ الغُفْرانِ على لِسانِ عِفريْتٍ مِنَ الجِنِّ، فِي الفَصْلِ السَّادِسِ مِنْ هَذا الكِتابِ، ومِثْلِ قصائِدِهِ الأَرْبَعِ التي نَظَمَها في بَغْدَادَ، فأَوْرَدْتُهُنَّ جَمِيْعاً مَعَ شَرْحِهِنَّ أَوْ تَحْلِيْلِهِنَّ لِأَنَّهُ الأَنْسَبُ لِهَذا الكِتابِ فِي زِيِّهِ العَرَبِيِّ أو أَنْسَبُ لِمَنْ يَقْرَأُ كِتاباً بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ.

٧. أَوْشَكَ المؤَلِّفُ في كتابِهِ هذا كُلِّهِ أَنْ يَدْعُوَ شاعِرَهُ بِقَوْلِهِ (أبا العلاء) أَوْ (شاعِرَنا) ما عَدا مَوَاطِنَ قَلِيْلَةٍ دَعَاهُ فِيْها بِقَوْلِهِ (المعَرِّي). ومَعَ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ ثَمَّةَ فَرْقاً بَيْنَهُما إلاَّ أَنَّنِي التَزَمْتُ بِكلامِهِ أَيّاً كانَ وفِي أيِّ مَوْضِعٍ كانَ. (فأبو العلاء) كُنْيَةُ الشاعِرِ، أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمان التنوخِيِّ، والكُنْيَةُ تُطْلَقُ عِنْدَ العَرَبِ حُبّاً لِلشَّخْصِ وتَكْرِيْماً، وأَمّا (المعَرِّيُّ) فَنَسَبٌ نَزَلَ مَنْزِلَةَ اللَّقَبِ، واللَّقَبُ يُوْحِي عِنْدَ العَرَبِ بِخِلافِ ما تُوْحِي بِهِ الكُنْيَةُ قال تعالى: ﴿ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ وقال الشاعِرُ:

أُكْنِيْهِ حِيْنَ أُنادِيْهِ لِأُكْرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْءَةَ اللَّقَبا[1]

ولِأَنَّ العَلَّامَةَ عَبْد الله الطَّيِّب كان يُحِبُّ أبا العلاء ويُجِلُّهُ ويَعْرِفُ لَهُ فَضْلَهُ ومَنْزِلَتَهُ بَيْنَ الشُّعَراءِ والمفَكِّرِيْنَ سَمَّى كِتابَهُ هذا (أبو العلاء شاعِراً). والظاهِرُ أَنَّ حَظَّ أَبِي العلاء مِنَ الحُبِّ والتَّكْرِيمِ بَيْنَ المفَكِّرِيْنَ والأُدَباءِ، لا سِيَّما المعَاصِرِيْنَ مِنهُمْ، عَظِيمٌ. فَقَدْ أَصْدَرَ طَهَ حُسَيْنٌ رَحِمَهُ اللهُ كِتابَيْنِ عَنْ هَذا الشاعِرِ العَظِيْمِ هُما سَمَّى أَحَدَهُما (مَعَ أَبِي العلاء في سِجْنِهِ) والآخَرَ (تَجْدِيْدُ ذِكْرَى أَبِي العلاءِ). وأَصْدَرَ العَقَّادُ كِتابَهُ (رَجْعَةُ أَبِي العلاءِ).

---

[1] هَذا البَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ ابْنِ جِنِّي عَلَى جَوَازِ تَقَدُّمِ المفْعُولِ مَعَهُ على مُصاحِبِهِ؛ ومَع أَنَّ ابْنَ جِنِّيٍّ كانَ مِنَ المحَقِّقِيْنَ الموَثَّقِيْنَ وأَهْلِ النَّظَرِ إلاَّ أَنَّهُ رُبَّما اعْتَمَدَ على الرِّوَايَةِ. ولا أرى إلّا أَنَّهُ مِنْ حَذْلَقَةِ اللُّغَوِيِّيْنَ وافْتِعالِهِم حالاتِ الاسْتِشْهادِ؛ وما أَرى إلّا أَنَّ رِوايَةَ هذا البَيْتِ خَطأً وأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِرفْعِ الكَلِمَتَيْنِ (السَّوْءَةُ) و(اللَّقَبُ) عَلَى أَنَّهُما خبرٌ مقدّمٌ ومَبْتَدأٌ مؤخَّرٌ جُمْلَةً اسْمِيَّةً فِي مَحَلِّ نَصْبِ حال، أيْ ولا أُلَقِّبُهُ والحالُ أَنَّ اللَّقَبَ يَسُوْؤُهُ؛ فَعَلَى ذلِكَ فالوَاوُ قَبْلَهُما إِنَّما هِيَ واوُ الحالِ لا المَعِيَّةِ، انْظُرْ شَرْحَ ابنِ عَقِيْلٍ عَلَى أَلْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ، صَفْحَةِ ٢٩٢؛ طبعة دار التُّراثِ، القاهرة، ٢٠٠٥.

ولَعلَّهُ مِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نَذْكُرَ هُنا أنَّ العَلاَّمَةَ عبد الله الطَّيِّب لَمَّا كانَ يُحِبُّ أبا الطَّيِّب المتَنبِّي فَقَدْ سَمَّى كتابَهُ عَنْهُ (مَعَ أبي الطَّيِّب) ولَكِنَّ طه حُسَيْن لَمْ يَكُنْ يُحِبُّهُ فَسَمَّى كتابَهُ عَنْهُ (مَعَ المتنبي) مُسْتَخْدِماً اللَّقَبَ، فَهَذا مِنْ عَجِيْبِ إشاراتِ هَؤُلاءِ الأفذاذِ، يَعْرِضُونَ الفِكْرَةَ كامِلَةً أوْ الموْقِفَ كُلَّهُ بِكَلِمةٍ واحِدَةٍ، مُفِيْدِيْنَ مِمَّا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أسْرَارِ اللُّغَةِ.

وحَيْثُ يَجِيْءُ الكلامُ بَيْنَ هَذَيْنِ القَوْسَيْنِ المرَبَّعَيْنِ [...] فَذَلِكَ يَعْنِي أنَّ الكَلامَ هُنا مِنْ صَنِيْعِي أنا أُظْهِرُ بِهِ مَعْنًى مِنَ المعَانِي، عَلَى نَحْوٍ رُبَّما اسْتُغْنِيَ عَنْهُ. وقَدْ جاءَ ذَلِكَ في عِباراتٍ قَلِيْلَةٍ جِدّاً.

٨. صَنَعْتُ فَهْرَسةً بِمُحْتَوى الكِتابِ ولَمْ أجِدْ في الأَصْلِ هَذِهِ الفَهْرَسَةَ.

٩. لَقَدْ تَرْجَمْتُ الشِّعْرَ الإنجليْزِيَّ الذي اسْتَشْهَدَ بِهِ عَبْد الله الطَّيِّب في كِتابِهِ هَذَا إمَّا نَثْراً كما هُوَ الحالُ في أبْيَاتِ قُبَّرَة شَيْلِي في الفَصْلِ الرَّابِعِ، صفحة ١٧٦، وإمَّا نَثْراً وشِعْراً مَعاً، كما هُوَ الحالُ في مَوْضِعَيْنِ مِنِ اسْتِشْهادِهِ بِكَلامِ شكْسبِيْر في الفَصْلِ السَّادِسِ (الصَّفحتانِ: ٣٩٣، و٤٠٠). عَلَى أنَّني هُنا أُثْبِتُ التَّرْجَمَةَ النَّثْرِيَّةَ في مَوْضِعِها داخِلَ النَّصِّ وأُثْبِتُ التَّرْجَمَةَ الشِّعْرِيَّةَ في الحاشِيَةِ أسْفَلَ الصَّفْحَةِ؛ لِأَنَّ التَّرْجَمَةَ الشِّعْرِيَّةَ ذَوْقِيَّةٌ خالِصَةٌ، قابلةٌ لاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيْها.

أمَّا بَعْدُ، فالتَّرْجَمَةُ، وإنْ تَكُنْ فَنّاً مِنَ الفُنُونِ وتَقُومُ عَلَى الدُّرْبَةِ والمِرَاسِ إلاَّ أنَّها أُخْتُ التَّأْلِيفِ وصِنْوُهُ إنْ لَمْ تَكُنْ تأْلِيفاً خالِصاً؛ لِأَنَّها ضَرْبٌ مِنَ التأْلِيْفِ تَحْكُمُهُ دِقَّةُ التَّفْسِيْرِ بِلِسانٍ آخَرَ، ولَيْسَتْ هِيَ نَقْلاً كما يَزْعُمُونَ. ويُعْجِبُنِي هُنا الجَوْهَرِيُّ، صاحِبُ الصِّحاحِ وهُوَ مِنْ أقْدَمِ المُعْجَمِيِّيْنَ العَرَبِ وأذْكاهُم، واعْتَمَدَ عَلَيْهِ كَثِيْرٌ مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهُ، إذْ قالَ هَذا القَوْلَ في صِحاحِهِ، وإنْ كانَ غَيْرُهُ كَثِيرٌ مِمَّنَ قالَ بِالنَّقْلِ كابْنِ مَنْظُورٍ في لِسانِ العَرَبِ. وعِنْدَ الكَثِيْرِ أنَّها نَقْلٌ لِكلامٍ مِنْ لُغَةٍ إلى أُخْرَى وشَتَّانَ بَيْنَ النَّقْلِ والتَّفْسِيْرِ. فالكَلِمَةُ (Interpretation) في اللُّغَةِ الإنجليْزِيَّةِ تُفِيدُ مَعْنَى التَّفْسِيْرِ والشَّرْحِ، قَبلَ النَّقْلِ. فالكَلِمةُ لاتِيْنِيَّةُ الأصلِ، دَخَلَتْ اللُّغَةَ الإنْجِلِيْزِيَّةَ في القَرْنِ الرابعِ عَشَرَ، وأصْلُها كَلِمَةُ (Interpretari) وتَعْنِي الشَّرْحَ والتَّفْسِيْرَ. ولَعَلَّهُ مِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نَذْكُرَ أنَّ الجِذْرَ اللاتِيْنِيَّ (Interpret) يَعْنِي (السِّمْسارَ، أوالوَسِيْطَ). ووَاضِحَةٌ

ولعلَّهُ مِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نَذْكُرَ هُنا أنَّ العَلاَّمةَ عبد الله الطَّيِّب لَمَّا كانَ يُحِبُّ أبا الطَّيِّب المتَنبِّي فَقَدْ سَمَّى كتابَهُ عَنْهُ (مَعَ أبي الطَّيِّب) ولَكِنَّ طه حُسَيْن لَمْ يَكُنْ يُحِبُّهُ فَسَمَّى كتابَهُ عَنْهُ (مَعَ المتنبي) مُسْتَخدِماً اللَّقَبَ، فَهَذا مِنْ عَجِيْبِ إشاراتِ هَؤُلاءِ الأفذاذِ، يَعْرِضُونَ الفِكْرَةَ كامِلَةً أوْ الموْقِفَ كُلَّهُ بِكَلِمةٍ واحِدَةٍ، مُفِيْدِيْنَ مِمَّا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ اللُّغَةِ.

وحَيْثُ يَجِيْءُ الكلامُ بَيْنَ هَذَيْنِ القَوْسَيْنِ المرَبَّعَيْنِ [...] فَذَلِكَ يَعْنِي أنَّ الكَلامَ هُنا مِنْ صَنِيْعِي أنا أُظْهِرُ بِهِ مَعْنَىً مِنَ المعَانِي، عَلَى نَحْوٍ رُبَّما اسْتُغْنِيَ عَنْهُ. وقَدْ جاءَ ذَلِكَ في عِبارَاتٍ قَلِيْلَةٍ جِدّاً.

٨. صَنَعْتُ فَهْرَسةً بِمُحْتَوَى الكِتابِ ولَمْ أَجِدْ فِي الأَصْلِ هَذِهِ الفَهْرَسَةَ.

٩. لَقَدْ تَرْجَمْتُ الشِّعْرَ الإنجليْزِيَّ الذي اسْتَشْهَدَ بِهِ عَبْد الله الطَّيِّب في كِتابِهِ هَذا إمَّا نَثْراً كما هُوَ الحالُ في أبْيَاتِ قُبُّرَةِ شَيْلِي في الفَصْلِ الرَّابِعِ، صفحة ١٧٦، وإمَّا نَثْراً وشِعْراً مَعاً، كما هُوَ الحالُ في مَوْضِعَيْنِ مِنِ اسْتِشْهادِهِ بِكلامِ شكْسبِيْر في الفَصْلِ السَّادِسِ (الصَّفحتانِ: ٣٩٣، و٤٠٠). عَلَى أنِّي هُنا أَثْبَتُّ التَّرْجَمَةَ النَّثْرِيَّةَ في مَوْضِعِها داخِلَ النَّصِّ وأثْبَتُّ التَّرْجَمَةَ الشِّعْرِيَّةَ في الحاشِيَةِ أسْفَلَ الصَّفْحَةِ؛ لِأَنَّ التَّرْجَمَةَ الشِّعْرِيَّةَ ذَوْقِيَّةٌ خالِصَةٌ، قابلةٌ لاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيْها.

أمَّا بَعْدُ، فالتَّرْجَمَةُ، وإنْ تَكُنْ فَنّاً مِنَ الفُنُونِ وتَقُومُ عَلَى الدُّرْبَةِ والمِرَاسِ إلاَّ أنَّها أُخْتُ التَّأْلِيفِ وصِنْوُهُ إنْ لَمْ تَكُنْ تأْلِيفاً خالِصاً؛ لِأَنَّها ضَرْبٌ مِنَ التأْلِيْفِ تَحْكُمُهُ دِقَّةُ التَّفْسِيْرِ بِلِسانٍ آخَرَ، ولَيْسَتْ هِيَ نَقْلاً كما يَزْعُمُونَ. ويُعْجِبُنِي هُنا الجَوْهَرِيُّ، صاحِبُ الصِّحاحِ وهُوَ مِنْ أَقْدَمِ المعْجَمِيِّيْنَ العَرَبِ وأذْكاهُمْ، واعْتَمَدَ عَلَيْهِ كَثِيْرٌ مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهُ، إذْ قالَ هَذا القَوْلَ في صِحاحِهِ، وإنْ كانَ غَيْرُهُ كَثِيْرٌ مِمَّنَ قالَ بِالنَّقْلِ كابْنِ مَنْظُورٍ في لِسانِ العَرَبِ. وعِنْدَ الكَثِيْرِ أنَّها نَقْلٌ لِكلامٍ مِنْ لُغَةٍ إلى أُخْرَى وشَتَّانَ بَيْنَ النَّقْلِ والتَّفْسِيْرِ. فالكَلِمَةُ (Interpretation) في اللُّغَةِ الإنجليْزِيَّةِ تُفِيدُ مَعْنَى التَّفْسِيرِ والشَّرْحِ، قَبلَ النَّقْلِ. فالكَلِمةُ لاتِيْنِيَّةُ الأصلِ، دَخَلَتْ اللُّغَةَ الإنْجِلِيْزِيَّةَ في القَرْنِ الرابع عَشَرَ، وأصْلُها كَلِمَةُ (Interpretari) وتَعْنِي الشَّرْحَ والتَّفْسِيْرَ. ولَعَلَّهُ مِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نَذْكُرَ أنَّ الجِذْرَ اللاتِيْنِيَّ (Interpret) يَعْنِي (السِّمْسارَ، أوالوَسِيْطَ). ووَاضِحَةٌ

هِيَ الوَاشِجَةُ الدّلاليَّةُ بَيْنَ مَعْنَيَيْ (الشَّرْح) و(السَّمْسَرَة). فالسِّمْسارُ وَسِيطٌ تجاريٌّ يُؤَدِّي عملاً يَقُومُ عَلَى الوَساطَةِ والتَّفاوُضِ عَلى العُقُودِ شِرَاءً وبَيْعاً؛ فَهَذا (التّفاوُضُ) ضَرْبٌ مِنَ الشَّرْحِ والتَّفْسِيرِ كما تَرَى، ولا يَكُونُ إلاَّ بِهِ. فأمَّا كَلِمَةُ (Translation) فلاتِيْنِيَّةٌ كَذَلِكَ مِنَ الكَلِمَةِ (Translatus) وهِيَ صِيْغَةُ التَّصْرِيْفِ الثَّالِثَةُ لِلْفِعْلِ اللاتِيْنِيِّ (Transferre)، وهو مُرَكَّبٌ مِنْ البادِئِةِ (Trans) وتَعْنِي (عَبْر) والجِذْرِ (ferre) ويَعْنِي (حَمَلَ)، فَعَلَى ذَلِكَ يَعْنِي هذا الفِعْلُ (النَّقْلَ). فَكَلِمَةُ (تَرْجَمَة) على ما بَيَّنَّا هُنا تُؤَدِّيْها الكَلِمَةُ الإنجليْزِيَّةُ (Interpretation) بِأَوْلَى وأصَحَّ مِمَّا تُؤَدِّيْها كَلِمَةُ (Translation)؛ فالأُوْلَى أصْلُ مَعْنَى (تَرْجَمَة) والثانِيَةُ أقْرَبُ إلى أنْ تَعْنِيَ النَّقْلَ، لاسِيْما إذا عَلِمْتَ أنَّ مِمَّا تَعْنِيْهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ (Translation) التَّحْوِيْلَ والتَّصْبِيْرَ والجَعْلَ، كَقَوْلِهِمْ مَثَلاً (جَعَلَ كَلِمَاتِهِ أفْعالا) أوْ (He has translated his words into deeds). وكأنَّما صِيرَ إلَيْهِ اليَوْمَ مِنْ قَصْرِ مَعْنَى كَلِمَةِ (Interpretation) عَلَى التَّرْجَمَةِ الفَوْرِيَّةِ دُونَ التَّحْرِيرِيَّةِ يُذَكِّرُ بِمَعْناها الأصْلِ في لَاتِيْنِيَّتِهِ، فالتَّرْجمةُ الفوريَّةُ قَرِيْبَةٌ في طَرِيقَةِ أدائِها مِن مَعْنَى الوَساطَةِ والتَّفاوُضِ، وإلَّا فَهِي أَوْلَى بِمَعْنَى الترجمةِ فوريةً كانتْ أمْ تَحْرِيْرِيَّةً؛ لِأنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الكَلِمَتينِ كالفَرقِ بَيْنَ التَّفْسِيرِ والنَّقْلِ، ونَقْلُكَ الشَّيْءَ يَكُونُ كُلِّيّاً كامِلاً، وأمَّا شَرْحُكَ الشَّيْءَ لا يَكُونُ كُلِّيًا ولا كامِلاً، بَلْ تأخذُ مِن مَعْناهُ وتتْرُكُ؛ لأنَّ لِلْكَلِماتِ والعِباراتِ إيحاءاتِها وملابَساتِها الدَّلالِيَّةَ الزَّائِدَةَ عَلَى مَعانِيْها الأَصْلِيَّةِ (Connotations)، فإذا أتَى عَلَيْها الشَّرْحُ والتَّفْسِيرُ أَخَذَ مِنْها وتَرَكَ. وما كانَ أصْدَقَ أبا العلاءِ المعَرِّيَّ لَمَّا قالَ، وكانَ لُغَوِيّاً كَبِيْراً ووَقَّافاً على دَقائِقِ الألْفاظِ والمعاني:

يُعَبِّرُ[1] سَيْفُهُ لَفْظَ المَنَايا ... كَمَا شَرَحَ الكَلامَ التُّرْجُمانُ

---

[1] التَّعْبِيْرُ التَّفْسِيْرُ، وفي القُرآنِ: (إنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ). ومَعْنَى بَيْتِ أبي العلاءِ أنَّ سَيْفَ المَمْدُوحِ يُعْرِبُ عَنْ مُرادِ الموْتِ فَيُفْهِمُ هُوَ عَنْهُ لَفْظَهُ ويُتَرْجِمُهُ فِعْلاً وهو ضَرَباتُهُ في الأَعْداءِ، فَعَمَلُ السَّيْفِ فِيْهِمْ هُوَ تَرْجَمَةٌ لِكَلامِ الموْتِ، فَذَلِكَ مِنْهُما كَتَفْسِيرِ المتَرْجِمِ الكلامَ بِلُغَةٍ أُخْرى. والبَيْتُ مِنْ قَصِيْدَةٍ لَهُ في سَقْطِ الزَّنْدِ:

هذا، وقَدْ قُلْنا إنَّ التَّرْجَمَةَ فَنٌّ لِأَنَّها تأْلِيفٌ، ولَكِنَّنا نُسْرِعُ فَنَقُولُ إنَّهُ تأْلِيفٌ مَحْكُومٌ بِالمعانِي المرَادُ تَرْجَمَتُها لا يَخْرُجُ عَنْها. فالمتَرْجِمُ مُؤَلِّفٌ مِنْ حَيْثُ كَونُهُ حُرّاً في اخْتِيارِ أَلْفاظِهِ وصِياغَةِ تَراكِيْبِهِ؛ ولَكِنَّها حُرِّيَّةٌ مَحْكُومةٌ بِالدِّقَّةِ في أَدَاءِ المعانِي التي يُتَرْجِمُها لا يَحِيْدُ عَنْها. فالتَّرْجَمَةُ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ فَنٌّ. وأَمَّا وَصْفُها بِكَوْنِها (عِلْماً) فَوَصْفٌ لا يَصْدُقُ عَلَيْها إلاَّ لُماماً، أعْنِي حِيْنَ يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بِمُصطَلَحاتٍ مَعْرُوفَةٍ مَنْقُولَةٍ نَقْلاً. وهُوَ الموْضِعُ الوَحِيْدُ الذي يَكْثُرُ فِيْهِ صَوابُ التَّرجَمَةِ الآلِيَّةِ التي يَتَحَدَّثُونَ عَنْها. وكَيْفَ تَصِحُّ تَرْجَمَةٌ آلِيَّةٌ والتَّرْجَمَةُ عُمُوماً مَوْهِبَةٌ تُزاوِجُ عَمَلَ الذِّهْنِ؛ إذْ تَقُومُ عَلَى هَذِهِ العَناصِرِ غالِباً:

- مَقْدِرَةُ الفَهْمِ في اللُّغَةِ المتَرْجَمِ مِنْها
- مَقْدِرَةُ التَّعْبِيْرِ في اللُّغَةِ المتَرْجَمِ إلَيْها
- الثَّقافَةُ العامَّةُ التي يُعالِجُ بِها المتَرْجِمُ الفوارِقَ الثَّقافِيَّةَ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ

وكُلُّ هَذِهِ العناصِرِ تَتفاوتُ دَرَجاتُها مِنْ شَخْصٍ إلى آخَرَ، بَلْ تَتَفاوَتُ دَرَجاتُها في الشَّخْصِ الوَاحِدِ مِنْ وَقْتٍ إلى آخَرَ؛ لِأَنَّ آفاقَهُ الذِّهْنِيَّةَ تَزِيْدُ مِنْ وَقْتٍ إلى آخَرَ ومعارِفَهُ تَتَّسِعُ كَذَلِكَ، فَتَزِيْدَ لِذَلِكَ مَقْدِرَتُهُ في التَّرْجَمَةِ ويَعْلُوَ فيها كَعْبُهُ. وهي بِذَلِكَ تُفارِقُ العِلْمَ؛ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ تَغَيُّرِها هِيَ وثَبَاتِهِ هُوَ. وأَبْرَزُ ما يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ قَضِيَّةُ تَرْجَمَةِ الشِّعْرِ. لِأَنَّ الشِّعْرَ مِنْ أَظْهَرِ مَواطِنِ ظُهُوْرِ الفَوارِقِ الثَّقافِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ بَيْنَ الأُمَمِ والأَفْرَادِ، فَهُوَ مِمَّا يَصْعُبُ تَرْجَمَتُهُ وإنْ أَمْكَنَتْ؛ لِأَنَّهُ مَثَلاً أَكْثَرُ ما يَقُومُ عَلَى الإشارَةِ والتَّلْمِيْحِ والإيْحاءِ والشُّعُورِ وما هو بِمَجْراها؛ قَالَ البُحْتُرِيُّ:

والشِّــعْرُ لَمْــحٌ تَكْفِــي إشــارَتُهُ ... ولَــيْسَ بِالهَــذْرِ طُوِّلَــتْ خُطَبُــهْ

-مَعَــانٌ مِــنْ أَحِبَّتِنــا مَعَــانُ ... تُجِيْـبُ الصَّـاهِلاتِ بِـهِ القِيَـانُ

فإيْحاءَاتُ الكَلِمَةِ أو(Connotations) في الشِّعْرِ مِمَّا يَطْلُبُهُ الشَّاعِرُ أحياناً طَلَباً، وإيحاءاتُ اللَّفْظَةِ شَيءٌ زَائِدٌ على مَدْلُولِهَا العامِّ، فَهُوَ مِمَّا يَعْسُرُ تَرْجَمَتُهُ، وربما كانَ ذلك هو ما دَفَعَ الجاحِظَ إلى القَوْلِ في حَيْوَانِهِ إنَّ تَرْجَمَةَ الشِّعْرِ مِمَّا لا يُستَطاعُ، لكِنَّ الحِيلةَ في أمْرِهِ مُمكِنةٌ، لا سيَّما مَع تقدُّمِ عُلُومِ اللسانيَّاتِ وانتشارِ مَعاجِمِ الألفاظِ المترادِفَةِ والمتضادَّةِ ومسارِدِها وسهولةِ التوفُّرِ عَلَيْها. ولله دَرُّ ثيودور سَيْفَري إذْ ذَهَبَ في كِتَابِهِ (فَنُّ التَّرْجَمَةِ)[1] إلى القَوْلِ بِفَنِّيَّةِ الترجمةِ، وهُوَ عندي الأقربُ إلى الصَّوابِ.

واعلمْ أيُّها القارِئُ الكريْمُ أنَّ الترجمانَ أوِ المترجِمَ الحاذِقَ كالممَثِّلِ الحاذِقِ؛ إذِ الممثِّلُ الحاذِقُ يُنْسِيْكَ وأنْتَ تُشاهِدُهُ أنَّهُ إنَّما يُمَثِّلُ، ويُحْدِثُ فِيكَ ما يَشاءُ مِنَ الشُّعورِ، مَلْهاةً أو مَأْساةً، إضْحاكاً أو إبْكاءً، فإذا أنتَ مُنفعِلٌ مَعَهُ بِكُلِّ ما تملِكُ مِنَ الشعورِ؛ فَكَذَلِكَ المترجِمُ الحاذِقُ، يُنْسِيْكَ وأنْتَ تَقْرأُ تَرْجَمَتَهُ أنَّها تَرْجَمةٌ فَتَقْرَؤُها وكأنَّها مكتوبةٌ بِهَذِهِ اللُّغَةِ لا مُترجَمَةٌ إلَيْها. ومَتَى كانتِ الترجمةُ ضَعِيْفةً أو مُهَلْهَلةً، مَلِلْتَ وتَمَلْمَلْتَ وسَبَقَ إليكَ السَّأَمُ، فطَفِقْتَ تَذْكُرُ أنَّها ترجَمةٌ، مِثْلُ المَمَثِّلِ الغِرِّ، لا تبرحُ تَذْكُرُ أنَّهُ إنَّما يُمَثِّلُ فما يَبْدُو مِنْكَ مَعَهُ انفعالٌ. وثَمَّةَ أعْمالٌ تَرْجَمِيَّةٌ جَيِّدَةٌ في بِلادِنا ظَهَرَتْ قُبَيْلَ سَنَوَاتٍ، مِنْها كِتابُ (حَرْبُ النَّهْرِ)[2] الذي أَلَّفَهُ رَئِيْسُ الوُزَراءِ الشَّهِيْرُ وِنسْتُونْ تْشَرْشِلْ، وهُوَ مِنْ أشْهَرِ رِجالاتِ السِّياسَةِ والحَرْبِ في القَرْنِ العِشْرِيْنَ؛ وتَرجَمَهُ الأستاذ عبد الله محمد سليمان، وقَدَّمَ لَهُ العلامةُ عبد الله الطَّيِّب وقالَ عَنْهُ أوَّلَ ما قالَ في تَقْدِيْمِهِ :(هَذِه تَرْجَمَةٌ نَفِيسَةٌ لِكتَابٍ نَفِيْسٍ)؛ وكَذلِكَ كتابُ (السُّوْدانُ) لِماكْ

---

[1] كِتابُ (فَنُّ التَّرْجَمَةِ) (Art of Translation) لِثِيُدُور سيفري (Theodore Savory) طَبَعَتْهُ شَرِكَةُ جوناثان كَيبْ، أوَّلَ مَرَّةٍ سَنَةَ ١٩٥٧، لندن، وأُعِيْدَ طَبْعُهُ فِي ١٩٦٨. وقد كَتَبَ عَدَدٌ مِنَ الكُتَّابِ كُتُباً بِذَاتِ هذا الاسْمِ، مِثْلُ محمد عناني وصَفَاء خُلوصِي. هذا ونَحْنُ مُقْبِلُونَ على الفَرَاغِ مِنْ تَرْجَمةِ كِتابِ ثيودرو هذا قريباً.

[2] كتابُ (حرب النَّهرِ) أوْ (The River War) للبريطاني الشهير (Winston Churchill)، وكان صَحَفِيّاً مُرافِقاً لِلْجَيْشِ البريْطانِيِّ الغَازِي بِقِيادَةِ (كِتْشِنَرْ)، وهُوَ وَصْفٌ لِحَرْبِ النَّهرِ وهِيَ وقْعَةُ كَرَرِي التي وَقَعَتْ سَنَةَ ١٨٩٨في أُمْدُرمانَ عَلَى الضَّفَّةِ الغَرْبِيَّةِ لِنَهرِ النِّيْلِ بَيْنَ هذا الجَيْشِ الغازِي وقُوَّاتِ المهَدِيَّةِ بِقِيادَةِ عبد الله التَّعايْشِيِّ خَلِيْفَةِ المهْدِيِّ.

مايْكل[1]، وهو أَحَدُ أبْرَزِ رجالاتِ الحُكْمِ الإنْجِليْزِيِّ في السُّوْدَانِ، وقَدْ تَرْجَمَهُ الأستاذ محمود صَالح عثمان صَالح؛ وكذلِكَ كتابُ (الخليفةُ عبدُ الله: حياتُهُ وسِياسَتُهُ) للدكتورة فِيْفْيَان أَمِيْنَة ياجِي، الذي تَرْجَمَهُ صَدِيْقِي الدكتور مَكِّي بَشِيْر مُصْطَفَى البَدْرِيّ[2]. وللأستاذ محمّد عليّ جادَيْن إسهاماتٌ عديدةٌ في الترجمةِ في السودان، منها مثلاً ترجمتُهُ لِكتابِ (جنوبُ السودانِ في الوثائقِ البريطانية، ١٩٠٠-١٩٥٥) لِكاتبِهِ الدكتور روفائيل ك بادالَ. كما أنَّ لأُسْتاذِ إبراهيمَ الكامِلِ كِتابٌ في التَّرْجَمَةِ جَيِّدٌ هُوَ (المدارَاتُ والمعابِرُ)، وهُوَ مِنْ كُتُبِ المخْتارَاتِ، تَرْجَمَ فِيْهِ قصائِدَ وأَبْياتاً وأقْوالاً مِنَ الإنجليزيَّةِ ومِنَ العَرَبِيَّةِ، وكان نَهْجُ أغْلَبِ اخْتِيارِهِ فِيْهِ مِنَ الشِّعْرِ والأقْوَالِ في كِتابِهِ هذا مَسْأَلَةَ الكَرَامَةِ البَشَرِيَّةِ المطْلَقَةِ المكْفُولَةِ لِلنَّاسِ جَمِيْعاً لا يُمَيِّزُ بَيْنَهُمْ في ذَلِكَ شَيْءٌ من عِرْقٍ أو لَوْنٍ أو دِيْنٍ. وأحْسَبُ أنَّ مُنْطَلَقَهُ في ذَلِكَ آيَةُ الإسْرَاءِ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. وهو كِتابٌ رائِعٌ في بابِهِ. هذا، ولِلعلامةِ عبد الله الطَّيِّب أعمالٌ تَرْجَمِيَّةٌ كَبِيْرَةٌ؛ إذْ تَرْجَمَ كَثِيْراً مِنَ الشِّعْرِ الإنجليزِيِّ، لاسِيَّما لِكِبارِ الرومانتيكيِّيْنَ، كقصيدةِ (الحسناءُ بلا رَحْمَة) أو(La Belle Dame Sans Merci) لِجُوْنْ كِيْتْس؛ و(الملّاح الشيخ) (The Ancient

[1] تَقَلَّبَ ماكْ مايْكِلْ في الوظائِفِ الإداريةِ المختلِفَةِ إبّانَ احتلالِ بِريطانيا لِلسُّوْدَانِ حتى وَصَلَ مَنْصِبَ السكرتير الإداريِّ، وهو المَنْصِبُ الذي يَلِي مَنْصِبَ الحاكِمِ العامِّ. ويَذْكُرونَ أنَّهُ كانَ رَجُلَ إدارةٍ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ، شَدِيْداً وحازِماً وفعَّالاً، حتَّى عدَّهُ بَعْضُهُم الحاكِمَ العامَّ الفاعِلَ مِنْ وَرَاءِ الحاكِمِ العامِّ، كما كانَ مُؤَرِّخاً ولَهُ كتاباتٌ عَدِيْدَةٌ عن السودنِ، أشْهَرُها وأكْبَرُها كِتابُهُ الضَّخْمُ (مِنْ تارِيْخِ العَرَبِ فِي السُّودانِ) ويَقَعُ فِي جُزْأَيْنِ، وقَدْ كُنْتُ أَخَذْتُ فِي تَرْجَمَتِهِ مُنْذُ سَنواتٍ قَبْلَ أنْ أبْدَأَ في تَرْجمةِ هذا السِّفْرِ وأعْتَزِمُ إكْمالَ التَّرْجَمَةِ قَرِيْباً بِعَوْنِ اللهِ.

[2] الدكتورة فِيْفيان ياجي أُسْتاذةُ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ بِقِسْمِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ بِجامِعَةِ الخُرْطُوم، والدكتور مَكِّي بَشِيْر البَدْرِيّ، مُتَرْجِمٌ بِمُنَظَّمَةِ الأُمَمِ المتَّحِدَةِ، وكان قبلَها أُسْتاذاً بِجامعةِ الخُرْطومِ. وقد سَبَقَ أنْ تَرْجَمَ لَها مِنْ قَبْلُ كِتابَها (رِجالٌ حَوْلَ المهْدِيّ)، طَبَعَتْهُ دار الخُرْطُوم لِلَنشْرِ، أوائِلَ التِّسْعِيْنات، وكِلاهُما مُتَرْجَمٌ مِنَ الفَرَنْسِيَّةِ، وقَدْ كُنْتُ تَوَلَّيْتُ مُراجَعَةَ تَرْجَمَةِ الأخِيْرِ. هذا وللدكتور مكي بشير كتابٌ قَيِّمٌ عَنْ حياةِ الدكتورة فيفيان ياجي

(Mariner[١] لصامويل تايلور كولوردج؛ و(إلى ليلاه الخجول) أو (To His Coy Mistress) لأندرومارفل؛ وقصيدة (النمر) أو (Tiger) لوليم بليك، وغير ذلك كثير؛ وعندي أن ترجمة قصيدة أندرومارفل فاقت أصلها جمالاً وروعة، ورب ترجمة كهذه[٢]

---

[١] ترجم هذه القصيدة شعراً الشاعر السوداني عمران العاقب؛ وترجمته جميلة، وكان صديقاً للدكتور عبد الله الطيب في بخت الرضا إذ كان أمين مكتبتها. وذكر لي الأستاذ العاقب، وكان يزورني بمكتبي بجامعة الخرطوم لأراجع معه ترجمته هذه لقصيدة كولردج بعدما كان نشرها، ولم تكتمل المراجعة، أن عبد الله الطيب شاركه في ترجمة بيتين منها على نحو ارتجالي معجب، إذ دخل عليه يوماً بمكتبة بخت الرضا ليستعير كتاباً، وكان حينها رئيساً لشعبة اللغة العربية فقال له وهو يتجه إلى القسم الإنجليزي من المكتبة: أين وصلت في الترجمة؟ فقال العاقب: (,The ice was here)، وقبل إكماله البيت أملى عليه دكتور عبد الله الطيب ترجمة البيتين:

The ice was here, the ice was there
The ice was all around:
It cracked and growled, and roared and howled
Like noises in a sound!

صـقيعٌ هُنـا وصـقيعٌ هُنـاك ... لَقَدْ شَمِلَ الكَوْنَ ثَوْبُ الصَّقيعْ
ولِلرِّيحِ زَمْجَرَةٌ خِلْتُها ... هَمَاهِمَ فـي حُلْمِ لَيْلٍ مُرِيـعْ

وهو شعرٌ جميلٌ أفلحَ كما ترى في تركيزِ جوِّ الوحشةِ، لا سيَّما بزيادتِهِ عبارةَ (في حُلْمِ لَيْلٍ مُريع) التي رامَ بها كذلكَ حفظَ الوزنِ، وكأنَّه جاءَ بكلمةِ (مُريع) التي يجبُ أن تكونَ وصْفاً لِلْحُلْمِ قبلَ الليلِ، لِيُقوِّيَ بها كلمةَ (همَاهِم) المتقدِّمةَ في أوَّلِ عجزِ البيتِ؛ لأنها ضعيفةٌ هنا لفظاً ومعنىً بالنَّظَرِ إلى معاني تكسُّرِ الثُّلوجِ وما لها مِنْ هديرٍ وزئيرٍ وعُواءٍ. ولعلَّكَ تعلمُ أنَّهُ يجوزُ في ترجمةِ الشِّعْرِ والتصرُّفِ فيها ما لا يجوزُ في النثرِ بحالٍ، علَى ألَّا يكونَ ذلكَ علَى حِسابِ المعْنَى العامِّ، وهو ما صَنَعَهُ عبد الله الطيِّب هُنا

[٢] ترجمَ عبد الله الطيب قِطَعاً مِنْ قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ الأمريكي تُوماس سْتيرنز إليوت (الأَرْضُ اليَبَابُ) أو (The Waste Land)، ولِغيْرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ في كُتَيِّبٍ لَهُ نَقْدِيٍّ بِاسْمِ (حَتَّامَ نَحْنُ مَعَ الفِتْنَةِ بإليوت)، والذي كانَ مَقالاتٍ نَشَرَها في مجلَّةِ الدَّوْحَةِ القَطَرِيَّةِ في ثمانينيَّاتِ القرْنِ الماضِي، تساءلَ فيه عن مَغْزَى أنْ يأخذَ الشاعرُ إليوتُ من الأدبِ العربيِّ ومِنَ القُرءانِ دُونَ أن يُشِيرَ إلى شيْءٍ مِنْ ذلكَ، جَرْياً على مَذْهَبِهِ الذي أقامَ عليْهِ قصيدتَهُ هَذِهِ، وهو أُسْلُوبُ الإشاراتِ. ولِلأستاذِ عبدِ المنعم عَجَبَ الفَيا، وهو مثقَّفٌ وأديبٌ سودانيٌّ، بحثٌ جيِّدٌ فيه ذكاءٌ واطِّلاعٌ، ردَّ بِهِ ما على ما جاءَ في هَذا الكِتابِ، جَديرٌ بالمطالعَةِ والنَّظَرِ، وكانَ أوَّلُ ما نشَرَهُ في مجلَّةِ (المُلْتَقَى) التي كانَتْ تَصْدُرُ في الخَرْطُومِ، وعبد الله الطيِّب عَلَى قَيْدِ الحياةِ.

وقَدْ سَبقَت تَرْجَمَةَ هذا الكتابِ تَرْجَماتٌ لِي في القِصَّةِ القَصِيْرَةِ والشِّعْرِ وغَيرِهِ، إلَّا أنَّها ماتَزَالُ حَبِيْسَةَ الطِّرْسِ السَّكُوْتِ، فَلَمْ تُنْشَرْ بَعْدُ، وعَسَى أنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ قَرِيْباً بُعَيْدَ نَشْرِ هذا الكِتابِ، وذَلِكَ إنْ أخْطَأَتِ النَّفْسَ أيْدِي اللَّيالي، وتقاعَسَتْ عَنْ يَوْمِها الأيَّامُ. ومَنْ لَكَ يا صاحِ بعُمُرٍ مَدِيْدٍ، ونَحْنُ نَخُوضُ أحداثَ الدَّهْرِ تأْخُذُ مِنَّا ما لا تُعِيْدُ، وتَرْمِي بِنا في صِرَاعِ أشْقيائِهِ مِنْ ناسهِ الصِّغارِ ذَوِي الجُثَثِ الضِّخامِ، ورَحِمَ اللهُ أبا الطَّيِّبِ المتَنَبِّي، فَقَدْ قالَ:

فُــؤَادٌ مــا تُسَــلِّيْهِ المـدَامُ وعُمْرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللِّئامُ

ودَهْـرٌ ناسُـهُ نـاسٌ صِـغارٌ وإنْ كانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخامُ

وإذَنْ، فَلَيْسَ أقلَّ مِنْ أنْ يَتَسَلَّى بِهَذا الشِّعْرِ الرَّصِيْنِ، والشَّجْوِ الحَزِيْنِ ويُرْسِلَ هَذِهِ الزَّفَرَاتِ الحَرَّى، إذا لَمْ تَبْلُغِ ابْنَةُ العِنَبِ تَسْلِيَتَهُ لِعِظَمِ ما جَثَمَ عَلَى الفُؤَادُ. ولَوْ تَرَى، فَهَذا مِنْهُ نَفْثَةُ مَصْدُورٍ.

هذا، وأرْجُو أنْ يَكُونَ هذا العَمَلُ نافِعاً لِقارِئِيْهِ، مُفِيْداً في مُحِيْطِ الدِّراساتِ الأَدَبِيَّةِ والنَّقْدِيَّةِ وفي مُحِيْطِ الثَّقافَةِ العامَّةِ. كَما أَرْجُو أنْ يَكُونَ دَفْعاً لِحَرَكَةِ التَّرْجَمَةِ المعاصِرَةِ في البِلادِ العَرَبِيَّةِ عامَّةً وبلادِنا السُّوْدَانِ خاصَّةً

عبد المنعم أحمد الشَّاذَلِيّ

جامِعَةُ الخُرْطُومِ

كُلِّيَّةُ الآدَابِ،

وحدة الترجمة والتعريب،

اكتوبر ٢٠١٠

مُقَدِّمَةٌ

ظَلَّ أَبُوالعَلاءِ المعَرِّيُّ مَوْضُوعاً لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ المؤَلَّفاتِ الجَيِّدَةِ في كُلٍّ مِنْ أُوْرُبَّا وبِلادِ الشَّرْقِ. فَقَدْ تَناوَلَ كُلٌّ مِنَ الأُسْتاذِ مَرْجُلْيُوثَ والدُّكتور طَهَ حُسَين حَياتَهُ وعَصْرَهُ بِمَهارَةٍ واقْتِدارٍ. ونَحْنُ في هذهِ الدِّراسَةِ مَدِيْنُونَ كَثِيراً لِما كَتَبا.

وعَرَضَ كُلٌّ مِنْ نِكِلْسُوْنَ وعَدَدٍ مِنَ النُّقَّادِ الغَرْبِيِّيْنَ والشَّرْقِيِّيْنَ لِدِراسَةِ آرائِهِ الكَثِيرَةِ وأَفْكارِهِ الغَزِيرَةِ.

وأُقِيْمَتْ فِي مَدِيْنَةِ دِمَشْقَ في العام ١٩٤٥ الذِّكْرَى الأَلْفِيَّةُ لِأَبِي العَلاءِ وأَمَّها عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الأَدَبِيَّةِ البارِزَةِ، وَفَدَتْ مِنَ البِلادِ العَرَبِيَّةِ وأُورُبَّا، وأَسْهَمُوا بِمُحاضَراتٍ ومَقَالاتٍ قَيِّمَةٍ تَناوَلَتْ الجَوانِبَ المخْتَلِفَةَ لِحَياةِ أَبِي العلاء ومُؤَلَّفاتِهِ، وطُبِعَتْ هذه المحاضَراتُ والمقَالاتُ في ذَاتِ السَّنَةِ في مُجَلَّدٍ بِعُنْوَانِ (المهْرَجانُ الأَلْفِيُّ لِأَبِي العَلاءِ).

ومَعَ ذلك، فَمازالَ مِنَ السَّابِقِ لِأَوانِهِ أَنْ نَزْعُمَ أَنَّهُ قَدْ تَمَّ الكَشْفُ عَنْ كُلِّ جَوانِبِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّائِعَةِ والمثِيْرَةِ. ونَحْنُ نَعْتَزِمُ أَنْ نَتَناوَلَ في فُصُولِ هَذِهِ الدِّراسَةِ أَبا العلاءِ شاعِراً. وهُوَ مَوضُوعٌ ظَلَّ إلى اليَوْمِ أُنُفاً غَيْرَ مَطْرُوقٍ بِالقَدْرِ المطْلُوبِ. وسَنُحاوِلُ أَنْ نُقِيمَ دِراسةً نَقْدِيَّةً لِأُسلُوبِهِ عَلَى نَحْوِ ما بَيَّنَهُ في كُلٍّ مِنْ دِيوانَيْهِ سَقْطِ الزَّنْدِ واللُّزُومِيَّاتِ.

ويَلْزَمُنا في مُجْرَى دِراسَتِنا هَذِهِ أَنْ نَنْظُرَ بِالبَحْثِ في مَوْضُوعاتٍ نَحْوِ زَنْدَقَةِ أَبي العلاءِ وعِلْمِهِ، كَمَا يَلْزَمُنا أَنْ نَتَحَدَّثَ قَلِيلاً بِشَيْءٍ مِنَ التَّوْضِيحِ عَنْ طَبِيعَةِ بَعْضِ مُؤَلَّفاتِهِ الأُخْرَى مِثْلِ (الفُصُولُ والغَايَاتُ) و(مَلْقَى السَّبِيْلِ). وعَلَيْنا أَنْ نَبْدَأَ بِالوُقُوْفِ عَلَى الأَحْدَاثِ العامَّةِ في حَيَاةِ شاعِرِنا الطَّوِيلَةِ

أبو العِلاءِ المَعَرِّيُّ شاعِراً

نَظْرَةٌ جَمالِيَّةٌ

تَمْهِيدٌ

عَلَى كَثْرَةِ الكِتاباتِ التي تناوَلَتْ أبا العلاء المعَرِّيَّ بِالدَّرْسِ والتَّحْلِيلِ، إلاَّ أنَّهُ إلى يَوْمِنا هَذَا لَمْ يَحْظَ شِعْرُهُ بِدِراسَةٍ مُتَأَنِّيَةٍ شامِلَةٍ. فَدِراسَتُنا هَذِهِ مُحاوَلَةٌ لِتَقْدِيرِ مَكانِ أبي العلاء المعَرِّيِّ مِنَ دُنْيا الأدَبِ العَرَبِيِّ مِنْ أجْلِ الكَشْفِ عَنِ القِيمَةِ الجَمَالِيَّةِ لِشِعرِهِ.

ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ نَقِفَ بَعْضَ صَفْحَاتِ هَذا البَحْثِ عَلَى حَياتِهِ وعَصْرِهِ حتى نُمَهِّدَ الطَّرِيقَ لِمُتابَعَةِ تَطَوُّرِ أدَبِهِ ومَهَارَتِهِ في الأدَبِ والشِّعْرِ جَمِيعاً. وإنَّ تأرِيخَ القصائِدِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الدِّقَّةِ أوِ التَّقْرِيبِ يُمَكِّنُ المرْءَ مِنْ تَتَبُّعِ غَرَضِ الشَّاعِرِ مِنْ لَدُنْ جَيَشانِ المشَاعِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وتَدَفُّقِها أيَّامَ الشَّبابِ إلى عَهْدِ تأْلِيفِهِ وكِتابَتِهِ التي صَقَلَها الذِّهْنُ والتَّفْكِيرُ في سِنِّ النُّضجِ. وعَلاوةً عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ حاوَلْنا أنْ نُبَيِّنَ كَيفَ تأثَّرَ الشَّاعِرُ بِظُرُوفِ عَصْرِهِ وأحْوَالِهِ، لا سِيَّمَا القَضَايا الاجْتِماعِيَّةِ والسِّياسِيَّةِ والدِّينِيَّةِ التي كانَتْ قَدْ شَغَلَتِ الأذْهانَ وحارَتْ فِيها العُقُولُ.

وقَدْ تَعَرَّضْنا لِسَقْطِ الزَّنْدِ فَدَرَسْناهُ بِعِنايَةٍ وأثْبَتْنا أنَّهُ جَدِيرٌ بِأنْ يُعَدَّ عَمَلاً ذا مَزِيَّةٍ شاعِرِيَّةٍ حَقَّةٍ. وقَدْ كُنَّا نَعْرِضُ مِنْ حِينٍ إلى آخَرَ إلى رَسائِلِ أبي العلاء بِالدَّرْسِ والبَحْثِ، ولَكِنْ لَيسَ بِأكْثَرَ مِمَّا تُتِيحُ لَنا الشَّاهِدَ والمِثالَ عَلَى مَناحِي فِكْرِهِ والكَشْفَ عَنْ مَعَانِي شِعْرِهِ.

وأمَّا مَنْهَجُهُ المبْتَكَرُ الذي اصْطَنَعَهُ في اللُّزُومِ، وأوزانُهُ ولُغَتُهُ وفِكْرُهُ فِيهِ، فَقَدْ عَرَضْنا لِكُلِّ ذَلِكَ بِالدَّرْسِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ طَرِيفَةٍ جَدِيدَةٍ كُلَّ الجِدَةِ.

وقَدْ كانَ أبو العلاء المعَرِّيُّ كاتِباً وناظِماً اشتُهِرَ بِمَعْرِفَتِهِ بِنادِرِ الألْفَاظِ وقَدِيمِها وبِمُصْطَلَحاتِ عِلْمِ الفَلَكِ والتارِيخِ الطَّبِيعِيِّ والفَلْسَفَةِ وغَيْرِها مِنَ العُلُومِ، ما كانَ مِنْها

مَعْرُوفاً لَدَى سَلَفِهِ مِنَ الأجْيالِ وما كانَ مَعْرُوفاً في عَصْرِهِ الذي عاشَ فِيهِ. واعْلَمْ أنَّ ما طُبِعَ مِنْ أعْمالِهِ، وخصوصاً اللُّزُومياتِ، كَثِيْراً ما عَجزَ عَنْ بَيانِ مَعَانِي الكَلِماتِ النَّادِرَةِ والعِبارَاتِ الغامِضَةِ، ولِأجْلِ هذا فَقَدْ بَذَلْنا جَهْداً لِبَيانِها وشَرْحِها لِلْقارِئِ. وأنْتَ واجِدٌ في مُلْحَقٍ لِهَذِهِ الدِّرَاسةِ ثَبَتاً بِبَعْضِ الكَلِماتِ وبَعْضِ صِيَغِها مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً لَدَى المُعْجَمِيِّيْنَ العَرَبِ.

الجزْءُ الأوَّلُ

الفَصْلُ الأَوَّل

حياتُهُ

الجُزءُ الأَوَّلُ

الفصْلُ الأَوَّل

حَيَاتُهُ

١. عَصْرُهُ:

كانَتِ الخِلافَةُ العَبَّاسِيَّةُ خِلالَ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ (أيْ العاشِرِ المِيْلادِيِّ) والنِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ الخامِسِ (أيْ الحادِي عَشَر الميلادِيِّ) قَدْ آلَتْ الي مُجَرَّدِ اسْمٍ. فَفِي بَغْدادَ التي كانَتْ قَدْ فَقَدَتْ كَثِيْراً مِنَ البَرِيقِ الذي كانَ كَساها إبَّانَ مُلُوكِها الأَوائِلِ، كانَ السَّادَةُ الفاعِلُونَ فِيْها هُمْ أُمَراءَ بَنِي بُوَيْهِ (البُوَيْهِيِّيْنَ) الذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا ذَوِي اقْتِدارٍ ولا كانُوا مِنْ أَهْلِ النَّدَى والسَّماحِ، مَا خَلا عَضُدَ الدَّوْلَةِ[1]. وقد كانَتْ مِصْرُ مَقَرّاً لِلدَّوْلَةِ الفاطِمِيَّةِ المُنْشَقَّةِ؛ وكانَتْ بَقِيَّةُ العالَمِ الإسْلامِيِّ في أيدِي المغْتَصِبِيْنَ والمتَلَصِّصِيْنَ والمغامِرِينَ والمتَمَرِّدِينَ[2].

وكانَتْ مَعَرَّةُ النُّعْمانِ[3] ضاحِيَةً مِنْ ضَوَاحِي حَلَبٍ التي صارَتْ فِيما بَعْدُ عاصِمَةَ ذَلِكَ الإِقْلِيمِ مِنَ الشَّام المسَمَّى العَوَاصِمَ ومَقَرّاً لِبَنِي حَمْدانَ. وقَدْ كانَ الشَّامُ في فَتْرَةِ حَيَاةِ

---

١ أبو شجاعٍ عَضُدُ الدَّوْلِة، فنَّاخُسْرو، ابْنُ رُكْنِ الدَّوْلَةِ البُوَيْهِيُّ، حَكَمَ نَوَاحِي العِرَاقِ مِن ٣٦٧هـ إلى ٣٧٢هـ، انْظُرْ (الكامِلَ) لابْنِ الأثِيرِ، طبعة بْرِيْل، ١٨٦٦، مجلد ٨، ص ٥٠٦ ومجلد ٩، ص ١٣

٢ عَرَفَتْ إسبانيا حُكْماً قَوِيّاً عَلَى يَدِ الخَلِيْفَةِ المُنْشَقِّ الناصِرِ، الأَمَوِيِّ، وخُلَفائِهِ، ولَكِنَّها جَعَلَتْ تُعانِي ذَاتَ المَصِيرَ الذي عاناهُ بَقِيَّةُ العالَمِ الإسْلامِيِّ بَعْدَ مَوْتِ المَنْصُورِ بْنِ أَبِي عامِرٍ وابْنِهِ عبْدِ الملِكِ (٣٩٢هـ-٣٩٩هـ)، انظُرِ المصْدَرَ نَفْسَهُ، المجلد ٨ ص ٤٩٩

[1] انظر مُعْجِم البُلْدَان لِيَاقُوتٍ، لِيْبِيْتْز ١٨٦٨ مجلد٤ ص ٥٧٤، ومُقَدِّمَةَ (رَسائِلُ أَبِي العلاء) بِتَحْقِيق بُروفسير مَرْجُليوث ص ١٢

شاعِرِنا يَعِيشُ حالَةً مِنَ الاضْطِرَابِ السِّيَاسِيِّ، ولَعَلَّهُ كانَ أَشَدَّ الأَقَالِيمِ الإِسْلامِيَّةِ نَكَدَ حَظٍّ وسُوءَ طالِعٍ. فَعَلَى حُدُودِهِ الشَّماليَّةِ كانَ الرُّومُ يُوَاصِلُونَ تَقَدُّمَهُمْ نَحْوَ الجَنُوبِ، وكانُوا قَدِ اسْتَولَوْا قَبْلَ ذلِكَ عَلَى كُلٍّ مِنْ أَنْطاكِيَةَ (فِي سَنَةِ ٣٥٨هـ) واللَّاذِقِيَّةِ (فِي ٣٥٩هـ)، وعَلَى حُدُوْدِهِ الجَنُوبِيَّةِ كانَ الفاطِمِيُّونَ يَزْحَفُونَ صَوْبَ الشَّمَالِ ويُهَدِّدُونَ بِإِخْضَاعِ الشَّامِ كُلِّهِ لِسُلْطانِهِمْ. وكانَ الحَمْدانِيُّونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ قَدْ طَلَبُوا مُسَاعَدَةَ الرُّومِ عَلَى الفاطِمِيِّيْنَ. وفِي سَنَةِ ٣٨٦هـ تَمَرَّدَتْ مَعَرَّةُ النُّعْمانِ عَلَى حَلَبٍ وثارَتْ عَلَيْها[1] ومِنْ ثَمَّ صارَ سَعِيْدُ الدَّوْلَةِ، لا بَلْ خادِمُهُ لُؤْلُؤٌ، والِياً عَلَيْها. وكانَ أَهْلُ مَعَرَّةِ النُّعْمانِ قَدْ تَلَقَّوْا سَنَداً مِنْ مِصْرَ مِمَّا مَكَّنَهُمْ مِنَ الصُّمُودِ لِبَعْضِ الوَقْتِ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَبِلَ وَالِي حَلَبٍ نَفْسُهُ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ أَنْ يَكُونَ تابِعاً لِمِصْرَ، وهَكَذَا فَقَدْ رَجَعَتْ مَعَرَّةُ النُّعْمانِ كَرَّةً أُخْرَى إلى وَلائِها القَدِيْمِ لِحَلَبٍ. وفِي هَذِهِ الأَثْناءِ كانَ عَلَى المَشْهَدِ السِّياسِيِّ آخَرُونَ، فَصَالِحُ بْنُ مِرْداسٍ[2]، سَيِّدُ قَبِيْلَةِ عامِرٍ البَدَوِيَّةِ، كانَ قَدْ ضَمِنَ فِي سَنَةِ ٤١٤هـ تَوَاطُؤَ كُلٍّ مِنْ سِنانِ بْنِ عُلَيَّانَ الكَلْبِيِّ وحسَّانَ بْنِ مُفَرِّجِ الطائِيِّ؛ وكانَ كِلاهُما، مِثْلَهُ، طَمُوحاً لا يَتَوَرَّعُ عَنْ فِعْلِ شَيْءٍ ولا يَرْعَى حُرْمَةً. وفِي هَذِهِ السَّنَةِ ذَاتِها كانَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى حَلَبٍ[3]، واسْتَوْلَى حَسَّانٌ عَلَى دِمَشْقَ، وسِنانٌ عَلَى الرَّمْلَةِ. وقَدِ اقْتَحَمَتْ جُمُوعُهُمُ البَدَوِيَّةُ البِلادَ فَعَمِلَتْ فِيها تَخْرِيباً وتَعْذِيباً وسَلْباً ونَهْباً[4]. وقُتِلَ صالِحُ بْنُ مِرْدَاسٍ فِي سَنَةِ ٤٢٠هـ فِي مَعْرَكَةٍ خاضَها ضِدَّ الفاطِمِيِّيْنَ[5]، ولَكِنَّ قَتْلَهُ لَمْ يَكُنْ يَعْنِي

---

[1] مقدمة (رسائل أبي العلاء) تحقيق بروفسير مرجليوث، ص ١٩

[2] مُقَدِّمة (رَسائِل أبي العلاء) تحقيق بروفسير مرجليوث، ص ٢٠

[3] كان صالِحُ بْنُ مِرْداسٍ قد حاوَلَ قَبْلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً الاسْتِيلاءَ عَلَى حَلَبٍ. انظر (الكامِلَ) لابْنِ الأثِيرِ، مجلد ٩، ص ١٥٩، وتاريخ ابنِ خَلْدُون، القاهرة، ١٨٦٧ج ٤، ص ٢٧١-٢٧٣.

[4] انظُرْ دِيوَانَ اللُّزُوم، ج١،ص ١١٩-١٢٠.

[5] الكامِل لابْنِ الأثير، المجلد ٩، ص ٢٧٧.

نِهايَةَ أُسْرَتِهِ الحاكِمَةِ، فَقَدِ اسْتَمَرَّتْ حَلَبُ لِتِسْعٍ وعِشْرِيْنَ سَنَةً أُخْرى مَسْرَحاً لِلصِّراعاتِ بَيْنَ خُلَفاءِ صالِحِ بْنِ مِرْداسٍ والفاطِمِيِّيْنَ، حَتَّى تَمَكَّنَ الفاطِمِيُّونَ في سَنَةِ ٤٤٩هـ (وهِيَ السَّنَةُ التي ماتَ فِيْها أبو العلاء) مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْها مِنْ طَرِيقِ التَّفاوُضِ والدَّسائِسِ والكَيدِ والمُراوَغَةِ السِّياسِيَّةِ، لا مِنْ طَرِيقِ قُوَّةِ السِّلاحِ.

وأحْسِبُ أنَّهُ يَحْسُنُ بِنا أنْ نَكْتَفِيَ بِهَذِهِ اللَّمْحَةِ السَّرِيْعَةِ والنَّظرَةِ التارِيخِيهِ العَجْلى لِعصْرِ أبي العلاء. وسَوَاءٌ أكانَ عَلَى حَلَبٍ أمِيْرٌ حَمْدانِيٌّ أمْ تابِعٌ فاطِمِيٌّ أمْ زَعِيمٌ مِرْداسِيٌّ فَمِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ البِلاطَ كانَ يَعِيشُ تَرَفاً مُفْرَطاً فِيهِ ورَغَداً مِنَ العَيْشِ غَدَقاً، عَلَى حِينِ كانَ سَوَادُ النَّاسِ يُعانُونَ الجُوعَ والخَوْفَ والمَرَضَ والخُضُوعَ الذَّلِيلَ لِنَيْرِ طُغْيانٍ مُتَجَبِّرٍ. وشَيْئاً فَشَيْئاً صارَ المجْتَمَعُ نَهْباً لِجُباةِ الضَّرائِبِ الفاسِدِينَ والتُّجَّارِ ذَوِي الأَنانِيَّةِ والطَّمَعِ، والعُلَماءِ الدَّجَّالِينَ والزُّعَماءِ الدِّينِيِّيْنَ الكَذَّابِينَ والمنَجِّمِينَ وباعَةِ الخُمُورِ، يَفْتَرِسُونَ جَسَدَهُ ويَنْهَشُونَ لَحْمَهُ. فقَدْ كانَ هَذَا العَصْرُ عَصْرَ انْحِلالٍ سِياسِيٍّ واجْتِماعِيٍّ وأخْلاقِيٍّ.

٢. صِباهُ وشَبابُهُ:

وُلِدَ أبو العلاء أحْمَدُ بْنُ عبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمانَ المعَرِّيُّ في بَيْتٍ يَنْتَمِي إلى قَبِيْلَةِ تَنُوخٍ العَرَبِيَّةِ، ذاتِ الثَّراءِ والتَّمَيُّزِ، في مَعَرَّةِ النُّعْمانِ في العامِ ٣٦٣هـ (أيْ ٩٧٣ مِيْلادِيَّة). وكان كُلٌّ مِن أبِيهِ وجَدِّهِ وعَمِّهِ قاضِياً في المعَرَّةِ وحِمْصٍ. واسْتَمَرَّ أُناسٌ مِنْ رَهْطِ أَبِيهِ يَشْغَلُونَ هذا المنْصِبَ، لِجِيْلَيْنِ تَقْرِيباً بَعْدَ وَفاةِ أبي العلاء، في أماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الشَّامِ[1]، ويَبْدُو أنَّ رَهْطَ أُمِّهِ، بَنِي سُبَيْكَةَ، وإنْ كانوا أقَلَّ ظُهُوراً مِنْ رَهْطِ أبِيْهِ، كانُوا ذَوِي مَنْزِلَةٍ وحُظْوَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ[2]. وعَلَى ذَلِكَ فَقَدْ تَرَبَّى أبو العلاء في جَوٍّ مِنَ الثَّقافَةِ والثَّراءِ قَلَّ أنْ

---

[1] انظر (تَعْرِيف القُدَماء)، ص ٧٠-٧٥

[2] مقدمة (رسائل أبي العلاء) ص ١٤

أصابَهُ شاعِرٌ مِنَ الشُّعَراءِ. وقَدْ أُصيبَ بِالجُدَرِيِّ وهُوَ في الرّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ عَمَىً جُزْئِيّاً، إذْ كانَ قَدْ فَقَدَ الإبْصارَ بِعَيْنِهِ اليُسْرى فَوْرَ إصابَتِهِ بِالمَرَضِ تَقْريباً، ولَكِنَّهُ تَمَكَّنَ لِبَعْضِ الوَقْتِ مِنَ الإبْصارِ بِعَيْنِهِ اليُمْنَى إبْصاراً اعْتَراهُ الإعْتامُ[1]. ولَسْنا نَعْلَمُ ما إذا كانَ في ذَلِكَ الوَقْتِ بِمَقْدورِهِ أنْ يَقْرَأَ بِها في أوائِلِ سِنِيِّ صِباهُ، غَيْرَ أنَّهُ مِنَ المحْتَمَلِ أنَّهُ ظَلَّ يُبْصِرُ إبْصاراً ضَئِيلاً حَتَّى حِيْنِ مَقْدَمِهِ أنْطاكِيَةَ، أيْ حَتَّى حَوالَي السَّابِعَةَ عَشْرَةَ أوِ الثامِنةَ عَشْرَةَ مِن عُمُرِهِ[2].

وقَدْ أعاضَ أبا العلاء عَنْ فَقْدِهِ بَصَرَهُ ما كانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ ذاكِرَةٍ عَجِيْبَةٍ. إذْ يَرْوِي لَنا مَنْ تَرْجَمُوا لَهُ قَصَصاً عَدَداً عَنْ هَذِهِ الذّاكِرَةِ الحادَّةِ، حتى جاءَ بَعْضُها مِمَّا لا يَكادُ يُصَدَّقُ. مِنْ ذَلِكَ، مَثَلاً، أنَّهُم يَذْكُرُونَ أنَّ أبا العَلاءِ، وهُوَ في طَرِيقِهِ إلى بَغْدادَ، مَرَّ الجَمَلُ الذي كانَ عَلَيْهِ قَرِيباً مِنْ إحْدَى الأشْجارِ، فَطَلَبَ مِنهُ أصْحابُهُ أنْ يَخْفِضَ رَأْسَهُ لِئَلَّا تُصِيبَهُ فُرُوعُها، وبَعْدَ عامَيْنِ حَدَثَ أنْ مَرَّ أبو العلاء بِذاتِ المَوْضِعِ فَخَفَضَ عِنْدَهُ رَأْسَهُ لِيَتَجَنَّبَ هَذِهِ الأفْرُعَ التي لَمْ تَكُنْ مَوجُودَةً هَذِهِ المرَّةَ، إذْ كانَتِ الشَّجَرَةُ قَدْ قُطِعَتْ قَبلَ مُرُورِهِ[3]. وتَزْعُمُ قِصَّةٌ أُخرَى يَرْوِيها التِّبْرِيْزِيُّ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ حَفِظَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ مُحادَثَةً بِالفارِسِيَّةِ كانَتْ قَدْ جَرَتْ بَيْنَ التِّبْرِيزِيِّ وأَحَدِ بَنِي قَوْمِهِ، الفُرْسِ، وذَلِكَ عِنْدَ أوَّلِ سَماعِهِ لَها، ولَمْ يَكُنْ لَهُ بِها عِلْمٌ[4].

وكانَ والِدُ أبي العلاءِ رَجُلاً ذا ثَقافَةٍ وعِلْمٍ، وكانَ لَهُ بَصَرٌ بِالشِّعْرِ وتَذَوُّقٌ لَهُ، وعَلَى يَدَيْهِ تَلَقَّى أبو العلاءِ مَبادِئَ النَّحْوِ واللُّغَةِ والأَدَبِ والفِقْهِ. وأمّا الحَدِيْثُ فَأَخَذَهُ عَنْ يَحْيَى بْنِ مِسْعَرٍ؛ وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ هَذا كانَ بَعْدَ أنْ تَرَكَ والِدُهُ المعَرَّةَ إلى حِمْصٍ لِيَتَوَلَّى فِيْها

---

[1] تعريف القدماء ص ١٨٣.

[2] (أَوْج التَّحَرِّي عن حَيْثِيَّاتِ المعَرِّي) لِيُوسُفَ البَدِيْعِيِّ، طبعة دمشق ١٩٤٤م، ص ٩

[3] نفسه ص ١٤

[4] نفسه ص ١٦.

القَضاءَ[1]. ولَمَّا بَلَغَ الرَّابِعَةَ عَشْرَ مِنْ عُمُرِهِ تُوُفِّيَ والِدُهُ بِحِمْصٍ سَنَةَ ٣٧٧ هـ، وقَدْ بَكَاهُ بِمَرْثِيَةٍ شِعْرِيَّةٍ وَصَفَهُ فِيها بِأَنَّهُ وَقُوْرٌ رَزِيْنٌ، ويَظُنُّ أَنَّهُ لَنْ يُبادِرَ فَيُزاحِمَ الناسَ يَوْمَ القِيامةِ إلى حَوْضِ النَّبِيِّ (ص) لِأَنَّهُ يَتَرَفَّعُ عَنِ المزَاحَمَةِ، عُلُوَّ هِمَّةٍ وطَلاقَةَ نَفْسٍ، بَلْ سَيَتَأَنَّى في الوُرُودِ لِيَرِدَ مُنْفَرِداً[2].

وبَعْدَ وَفاةِ وَالِدِهِ ارْتَحَلَ إلى عَدَدٍ مِنْ مُدُنِ الشَّام طَلَباً لِلْعِلْمِ. فَذَهَبَ إلى حَلَبٍ وفِيها شَهِدَ دُرُوسَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَعْدٍ النَّحْوِيِّ[3]، وعَدَدٍ مِنْ رِجَالاتِ بَنِي كَوْثَرٍ الذِينَ أَخَذُوا عَنِ العالِمِ اللُّغَوِيِّ الكَبِيْرِ ابْنِ خَالَوَيْهِ[4]. كَمَا زَارَ كُلّاً مِنْ أَنْطاكِيَةَ واللَّاذِقِيَّةِ، ويُعْتَقَدُ أَنَّهُ لَقِيَ في إِحْدَاهُما رَاهِباً نَصْرَانِيّاً أَوْحَى إِلَيْهِ بِشُكُوكِهِ في الدِّيانةِ السَّمَاوِيَّةِ وهِيَ شُكُوكٌ ما اسْتَطاعَ أبو العلاء مِنْها فِكاكاً قَطُّ[5].

ولَكِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تَبْدُو مُخْتَلَقَةً مِنْ جَمِيْعِ وُجُوهِها لِأَنَّهُ، وإِنْ يَكُنْ مِنْ غَيْرِ المسْتَبْعَدِ أَنْ يُهاجِمَ رَاهِبٌ نَصْرَانِيٌّ الإِسْلامَ، فَمِنَ المستَبْعَدِ جِدّاً أَنْ يُلْقِيَ شُكُوكاً في حَقِيْقَةِ الدِّينِ السَّمَاوِيِّ؛ إِذْ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّهُ بِهَذا يَهْدِمُ غَرَضَهُ ولا يَخْدُمُهُ في شَيْءٍ.

هَذَا وقَدْ شَاعَ في اللاذِقِيَّةِ عَنْ أَبي العلاء قَوْلُهُ[6]:

---

[1] تعريف القدماء ص ٦٩

[2] سَقْطُ الزَّنْد، ج ١، ص ١٩٤

[3] تعريف القدماء ص ٣١٢هـ

[4] نفسه

[5] نفسه ص ١٩٠، وانظر كذلك رسائل أبي العلاء (المقدمة) ص ١٦

[6] لَمْ يُوْرِدِ المؤَلِّفُ نَصَّ هذَيْنِ البَيْتَيْنِ، فَأوردناهُما مِنَ المَرْجِعِ الذي أشار إليه، وهو مُعْجَمُ البُلْدَان، المجلد ٤، ص ٣٣٩، والدَّلْبَةُ الناقُوْسُ (التَّرْجُمان)

في اللاذِقِيَّةِ فِتْنَةٌ ما بَيْنَ أَحْمَدَ والمسِيْحْ
هذا يُعالِجُ دَلْبَةً والشَّيْخُ مِنْ حَنَقٍ يَصِيْحْ
كُلٌّ يُمَجِّدُ دِيْنَهُ يا لَيْتَ شِعْرِي ما الصَّحِيْحْ[1]

ثُمَّ رَجَعَ أبو العلاءِ إلى المعَرَّةِ وهُوَ ابْنُ عِشْرِيْنَ، فَجَعَلَ يُلْقِي فِيْها دُرُوساً في اللُّغَةِ، ويَنْظِمُ الشِّعْرَ لِأَصْدِقائِهِ وأقْرِبائِهِ ومَعَارِفِهِ، ولَمْ يُسْعِفْهُ الحَظُّ قَطُّ لِيَلْقَى أحَدَ كِبارِ النُّحاةِ في زَمانِهِ فَيَأْخُذَ عَنْهُ، وهُوَ ابْنُ خالَوَيْهِ الحَلَبِيُّ؛ إذْ كانَ هَذا قَدْ تُوُفِّيَ بِحَلَبٍ قَبْلَ زَمانِ أبي العلاء؛ وكان ابْنُ جَنِّيٍّ قَدْ ذَهَبَ إلى العِرَاقِ. ولَمَّا حَطَّ أبو العلاء رَحْلَهُ بِبَغْدادَ لَمْ يَجِدْ بِها أحَداً مِنْ عُلَماءِ اللُّغَةِ الكِبارِ الَّذِيْنَ كانَ يَسْمَعُ عَنْهُمْ وهُوَ بِالمعَرَّةِ، فَكُلٌّ مِنَ الفارِسِيِّ وابْنِ جِنِّيٍّ[2] والرُّمَّانِيِّ[3] كانَ قَدْ تُوُفِّيَ ولَمْ يَبْقَ عَلَى قَيْدِ الحياةِ سِوَى عَلِيِّ بْنِ عِيْسَى الرَّبَعِيِّ[4]، الذي كانَتْ طَرِيْقَتُهُ تَقُوْمَ عَلَى الغَطْرَسةِ والتَّسَلُّطِ فَنَفَرَ مِنهُ أبو العلاء لِما كانَ فِيهِ مِنَ الكِبْرِيَاءِ ورَهافَةِ الحِسِّ ورِقَّةِ الشُّعُورِ. وعَلَى ذلك، فَيُمْكِنُنا أنْ نُرَجِّحَ أنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عبدِ اللهِ بْنِ سَعْدٍ النَّحْوِيَّ كانَ آخِرَ شُيُوْخِ أبي العلاء الثَّلاثَةِ الكِبارِ.

وبَعَدَ أنْ بَلَغَ شاعِرُنا العِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ أَمْسَكَ عَنْ طَلَبِ العِلْمِ مِنَ العُلَماءِ، عَلَى نَحْوِ ما ذَكَرَ في إحْدَى رَسائِلِهِ[5].

ولَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُ بِالمعَرَّةِ بِالقَدْرِ الذي كان يُمْكِنُ أنْ تَطَلَّبَهُ مَقْدِراتُهُ الشِّعْرِيَّةُ، فَمَا كانَ يَكْتُبُ أمادِيحَهُ تَكَسُّباً، كَما يَذْكُرُ لَنا في مُقَدِّمةِ دِيْوَانِهِ سَقْطِ الزَّنْدِ[1]. وقَدْ عاشَ فِيْها

---

[1] (تجديد ذكرى أبي العلاء) ولَكِنَّ كاتِبَهُ لَمْ يُشِرْ إلى مَرْجِعٍ، انظُرْ ص ١٢٦ مِنهُ

[2] إرشاد الأريب، ج ٥، ص ١٥، وقد تُوُفِّيَ في سنة ٣٩٢ هـ.

[3] إرشاد الأريب، ج ٥، ص ٢٨٠، وقد تُوُفِّيَ في سنة ٣٨٤ هـ.

[4] انظر إرشاد الأريب، ج ٥، ص ٢٨٣، ويُخْبِرُنا ياقوتٌ أنَّ الرَّبَعِيَّ كان مَشْنُوعاً مَعْرُوفاً بِسُوْءِ طَبْعِهِ وخُلُقِهِ وغَرابَةِ أطْوارِهِ وعاداتِهِ، وأنَّهُ كان مُوَسْوِساً بِالكِلابِ، فَكان يُطارِدُها ويَضْرِبُها ويَعَضُّها كُلَّما وجَدَ إلى ذَلِكَ سَبِيْلاً

[5] انظر رسائل أبي العلاء، النصّ العربيّ، ص ٣٢

قانِعاً بِما تَرَكَهُ لَهُ أبُوهُ مِنْ مَالٍ زَهِيدٍ. وقَدْ كانَ التَّكَسُّبُ بِشِعْرِ المدِيْحِ مِهْنَةً مُذِلَّةً لِرَجُلٍ فِي مِثْلِ مِزَاجِ المعَرِّيِّ وحِدَّةِ طَبْعِهِ ونَفْسِيَّتِهِ. ثُمَّ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ هذا التَّكَسُّبُ بِالمدِرِّ لِلْمالِ بِالقَدْرِ الذِي ذَهَب إليهِ الأُسْتاذُ مَرْجُلْيُوْثُ في تَرْجَمَتِهِ لِحَياةِ المعَرِّيِّ [٢] لا سِيَّما لِلْشُّعَراءِ الشَّبابِ الناشِئِيْنَ الذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا قَدِ اصْطَنَعُوا بَعْدُ لِأَنْفُسِهِمْ شُهْرَةً أوْ ذاعَ لَهُمْ صِيتٌ. فالمتَنبِّي كانَ قَدْ أُعْطِيَ دِيْناراً واحِداً بِقَصِيدَةٍ جَمِيلَةٍ نَظَمَها في عَلِيِّ بْنِ الحاجِبِ(٣)، وقد كانَتْ حالُهُ قَدِ انْتَهَتْ إلى فَقْرٍ مُدْقِعٍ وبُؤْسٍ مُهِينٍ، قَبْلَ أنْ تَهُبَّ لَهُ رِياحُ الحَظِّ خَيْرًا. وابْنُ الرُّومِيِّ غالِباً ما لَمْ يُصِبْ نَجاحاً عِنْدَ مَنْ كانَ يَمْدَحُهُمْ حَتَّى إنَّ اليَأْسَ مِنهُمْ قَدْ دَفَعَهُ لِأَنْ يَقُوْلَ:

ذَهَبَ الذِيْنَ يَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ ... هَزَّ الكُمَاةِ عَوالِيَ المرَّانِ
كانُوا إذا مُدِحُوا رَأَوْا ما فِيهِمُ ... فَالأَرْيَحِيَّةُ مِنهُمُ بِمَكانِ

وقَدِ اسْتَشْهَدَ الثَّعالِبِيُّ بِهَذَا الشِّعْرِ لِابْنِ الرُّومِيِّ في تَرْجَمَتِهِ لِسَيْفِ الدَّولة وقالَ إنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ لَوْ رَأى هذا الأمِيرَ لَمَا قَالَ هَذَا الشِّعْرَ(٤). وكانَ عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ الشُّعَراءِ أنْ يَعِيشُوا حَياةَ بُؤْسٍ وشَظَفٍ وأنْ يُعالِجُوا مَصادِرَ عَيْشِهِمْ عِلاجاً بِالبَحْثِ عَنْ أعْمالٍ يَمْتَهِنُونَها كَشَأْنِ عامَّةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُصِيبُونَ عِنْدَ مَنْ يَمْدَحُونَهُ مِنَ الأُمَراءِ نَوالاً أوْ عَطَاءً. ويُورِدُ أبُو حَيَّانِ التَّوْحِيدِيُّ قِصَّةً تُثِيرُ الشَّفَقةَ وتَبْعَثُ الحُزْنَ، إذْ يَحْكِي أنَّهُ وصَدِيقاً لَهُ، وكانَ شاعِراً، كانا قَدْ طَرَقا بابَ أحَدِ الأعْيانِ الأثْرِياءِ المقْصُودِينَ أكْثَرَ

---

[١] صفحة ٦

[٢] رسائل المعرّيّ ص ١٧

[٣] يَتِيمةُ الدَّهْرِ لِأَبِي مَنْصُورِ الثَّعالِبِي، القاهرة، ١٨٨٣، الجزء الأول، ص ٨٢. ظَلَّ المتَنبّي (٣٠٣-٣٥٤هـ) أشْهَرَ شُعَراءِ العَرَبِ، وكان قد نَظَمَ أغْلَبَ قصائِدِهِ وأرْوَعَها في الأمِيرِ الحَمْدَانِيِّ سَيْفِ الدولة، أمِيرِ حَلَبٍ (تُوُفِّيَ في ٣٥٦ هـ)، وانظُرْ سِيرَةَ حَيَاتِه ص ٧٨ مِن ذَاتِ المصْدَرِ، والوَفَيَاتِ، ج١، ص٤٤.

[٤] نفسه ج ١٠ ص ٩

مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً، فَكَانَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَرُدُّهُما خائِبَيْنِ أَوْ يَسْتَقْبِلُهُما بِضِيافَةٍ مَنْكُودَةٍ حَتَّى قَالَ صاحِبُهُ يائِساً: (ما جِئْتُهُ بَعْدَ الآنَ وَلَوْ كانَتْ دارُهُ الجَنَّةَ وداخِلُها يُخَلَّدُ فِيها)[1].

وقالَ أَبُو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ[2] عَنْ مُعاصِرِيْهِ، وكانَ يَسْتَرْزِقُ مِنْ بَيْعِ القُماشِ، إنَّ جُلُوسَهُ فِي السُّوقِ يَشْتَرِي ويَبِيعُ لَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الناسَ قُرُودٌ[3].

---

[1] إرْشادُ الأَرِيب، مجلد ٥ ص ٤٠٥، وقَدْ كانَ أبو حَيَّان التَّوْحِيدِيُّ أَحَدَ كِبارِ كُتَّابِ القَرْنِ الرابعِ الهِجْرِيِّ؛ كما كان يُعْتَقَدُ أَنَّهُ زِنْدِيقٌ كَبِيرٌ ومُدَلِّسُ أحادِيثَ؛ ويُثْبِتُ ابْنُ أَبِي الحَدِيْدِ فِي كِتابِهِ (شَرْح نَهْجِ البَلاغَةِ)، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ج١٠ ص ٥٩٧، أَنَّ أَبا حَيَّان كانَ هُوَ مَنْ وَضَعَ الكَلامَ المشْهُورَ الذي يُقالُ إِنَّ عُمَرَ وعَلِيّاً تَبادَلاهُ لَمَّا رَفَضَ الأَخِيرُ مُبايَعَةَ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ، وعِنْدَ ياقُوتٍ أَنَّ أبا حيَّانَ كانَ حَيّاً فِي سَنَةِ ٤٠٠ هـ، ويَذْكُرُونَ أَنَّهُ ماتَ فِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ بَعْدَ أَنْ قَضى أَواخِرَ سِنِيِّ عُمْرِهِ سائِلاً بِالطُّرُقاتِ. وذَكَرَ زَكِيّ مُبارَك فِي كِتابِهِ النَّثْرُ الفَنِّيُّ أَنَّ أَبا حَيَّانَ ماتَ فِي ٤١٤هـ.

[2] أبو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ، ت ٣٩٦هـ، كانَ شاعِراً وناقِداً كَبِيراً، وأَكْثَرُ ما اشْتُهِرَ بِهِ كِتابُ الصِّناعَتَيْنِ، انظُرْ إرشاد الأريب مجلد ٣، ص ١٣٥

[3] يُشِيرُ عبد الله الطَّيِّبِ هُنا إلى قَوْلِ أَبِي هلالٍ العسكرِيِّ:

جُلُوسِي فِي سُوقٍ أَبِيعُ وأَشْتَرِي ... دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَنامَ قُرُودُ

ولا خَيْرَ فِي قَوْمٍ يَذِلُّ كِرامُهُمْ ... ويَعْظُمُ فِيهِمْ نَذْلُهُمْ ويَسُودُ

وتَهْجُوهُمُ عَنِّي رَثاثَةُ مَلْبَسِي ... هِجاءً قَبِيحاً ما عَلَيْهِ مَزِيدُ

قُلْتُ: وجَلِيٌّ أَنَّ البَيْتَ الثانِي مَأْخُوذٌ مِنْ دالِيَّةِ صَلاءَةَ بْنِ عمروِ بْنِ مالكٍ، المعْرُوفِ بالأَفْوَهِ الأَوْدِيِّ، وكانَتِ العَرَبُ تَعُدُّهُ مِنْ عُقَلائِها ووُعاتِها، لا جُهَلائِها وغُواتِها، وهو كذلك، وذلك إذْ يَقُولُ:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَراةَ لَهُمْ ... ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهُمْ سادوا

تُلْفَى الأُمورُ بِأَهْلِ الرُّشْدِ ما صَلَحَتْ ... فإنْ تَوَلَّوْا فَبِالأَشْرارِ تَنْقادُ

كَيْفَ الرَّشادُ إذا ما كُنْتَ فِي نَفَرٍ ... لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلالٌ وأَقْيادُ

أَعْطَوْا غُواتَهُمُ جَهْلاً مَقادَتَهُمْ ... فَكُلُّهُمْ فِي حِبالِ الغَيِّ مُنْقادُ

وما أَكْثَرَ ما حامَ أبو العلاء حَوْلَ هذا المعْنَى، في (اللُّزُوم) خاصَّةً، إذْ كان ذلكَ عِنْدَهُ مِنْ دَلالاتِ فَسادِ الناسِ والدُّنْيا، (التَّرْجُمان)

ويُحدِّثُنا صاحِبُ[1] كِتابِ الأغانِيِّ أنَّ نَجاحَ أبي تَمَّامٍ[2] كانَ عَلَى حِسابِ جَمِيعِ الشُّعَراءِ الذِينَ عاصَرُوهُ[3]. فَهَذا الكَلامُ مِنهُ شاهِدٌ عَلَى أنَّ (الأُمَراءَ) لَمْ يَكُونُوا مِنَ السَّخاءِ والجُودِ والعَطاءِ بِما يَرُوقُنا أنْ نزعُمَ لَهُمْ. والحَقُّ أنَّهُ مُنْذُ أيَّامِ البَرامِكةِ والخُلَفاءِ الأوائِلِ لَمْ يَعُدْ نَظْمُ قصائِدِ المَدِيحِ طرِيقاً لاحِباً إلى الثَّراءِ العَرِيضِ والشُّهْرَةِ الوَاسِعَةِ. ويُمْكِنُنا القَوْلُ إنَّهُ بِمَصْرَعِ المتَوَكِّلِ (أيْ فِي سَنَةِ ٢٤٧هـ) كان عَصْرُ المدِيْحِ الفِضِيِّ قَدْ وَصَلَ إلى نِهايَتِهِ.

ويَنْبَغِي لنا أنْ نُصَدِّقَ أبا العلاءِ فِيْمَا يَقُولُ، فَلَيسَ ثَمَّةَ ما يَحْمِلُنا عَلَى أنْ نُشَكِّكَ في صِدْقِهِ، ولَيْسَ مِن دَاعٍ لِأنْ تُغَرِّرَ بِنا أَسْماءٌ نَحْوُ (سَعِيْدٍ)، مِمَّا يَتَرَدَّدُ في بَعْضِ قَصائِدِهِ المادِحَةِ، فَتَحْمِلَنا عَلَى أنْ نُقَرِّرَ أنَّها إنَّمَا تَعْنِي سَعِيدَ الدَّوْلَةِ أو أيَّاً مِنَ الوُلاةِ غَيْرِهِ، فَلَعلَّ الشَّاعِرَ كانَ يَسْتَخْدِمُها عَلَى غِرَارِ مَا كانَ يَصْنَعُ كُثَيِّرُ عَزَّةَ وغَيْرُهُ مِنَ الشُّعَراءِ الأَمَوِيِّينَ، إذْ كانَتْ تَتَرَدَّدُ في قَصِيدَةِ الغَزَلِ عِنْدَهُم، أَسْماءُ (لُبْنَى) و(لَيْلَى).

وأُسْلُوبُ المعَرِّيِّ نَفْسُهُ وطَرِيْقَةُ أدائِهِ في قَصَائِدِ المدْحِ تُؤَكِّدُ ما قالَهُ عَنْها في مُقَدِّمَةِ سَقْطِ الزَّنْدِ، إذْ قالَ هُناكَ[4] إنَّهُ لَمْ يَكْتُبِ الأمادِيحَ لِكَسْبِ عَطَاءٍ ونَيْلِ نَوَالٍ ولَكِنَّهُ نَظَمَهُنَّ يَرُوضُ بِهِنَّ القَوْلَ ويَشْحَذُ القَرِيحَةَ.

وعَلَى ذَلِكَ فَلَنا بَعْدُ أنْ نَفْتَرِضَ أنَّ أبا العلاءِ لَمْ يَبْدَأْ حَيَاتَهُ الأدَبِيَّةَ مَدَّاحاً مُتَكَسِّباً بِمَدْحِهِ. وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَقْدِراتِهِ الشِّعْرِيَّةِ فَلَقَدْ أَهَّلَتْهُ تَقَالِيدُ أُسْرَتِهِ وما كانَ تَلَقَّى مِنْ تَرْبِيَةٍ وتَعْلِيمٍ، لِمِهْنَةِ المدَرِّسِ المحاضِرِ والعَلَّامَةِ المتَبَحِّرِ. وقد يَسَّرَ لَهُ الحَيَاةَ وذَلَّلَ لَهُ

---

[1] هو أبو الفَرَجِ الحَسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ الإصْفَهانِيُّ (٢٨٤-٣٥٦هـ) المعروفُ، كان شاعِراً جَيِّداً ولُغَوِيّاً مُتَمَيِّزاً وناقِداً مُوسِيقِيّاً، وكان مَشْنُوعاً لِما عُرِفَ بِهِ مِنْ سَلَاطَةِ لِسانِهِ وطَرِيقَةِ أَكْلِهِ المنَفِّرة، انظُرْ إرْشادَ الأرِيْبِ، ج٥، ص ١٤٩.

[2] حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطائِيُّ، الشاعِرُ الكَبِيرُ، مادِحُ المعْتَصِمِ، الخَلِيْفةَ، وجامِعُ (كِتابِ الحَماسَةِ) المشْهُورِ.

[3] كتاب الأغاني، بولاق، ج ١٥، ص ١٠٢

[4] سقط الزند، ج١، ص ٦

صِعابَها ما كانَ يَحْظَى بِهِ مِنْ عِنايَةٍ فائِقَةٍ مِنْ أُمِّهِ (فَقَدْ رَوَوْا أنَّها أَرْسَلَتْ إلَيْهِ، لَمَّا ارْتَحَلَ فِيما بَعْدُ وأقامَ بِبَغْدَادَ عامَيْنِ اثْنَيْنِ، زُجاجاتٍ مِنْ مَاءِ (القَرَامِيْدِ)، وهِيَ بِئْرٌ بِالمعَرَّةِ)[1] . والذِيْنَ التَقَوْا بِهِ في هذِهِ الفَتْرَةِ عَرَفُوا فيهِ شابّاً مُتَنَدِّراً حَسَنَ الفُكاهَةِ شاكِراً لِرَبِّهِ عَلَى العَمَى شُكْرَ غَيْرِهِ عَلَى الإبْصارِ، يَلْعَبُ الشِّطْرَنْجَ والنَّرْدَ[2] ، ولا يَكادُ يُمْسِكُ عَن نَظْمِ القَصائِدِ العِذابِ في الغَرَام والهُيَامِ.

كَمَا كَتَبَ أبو العلاء الرَّسَائِلَ إلى أصْدِقَائِهِ وأقْرِبائِهِ وأغْلَبُ هَؤُلاءِ كانُوا مِنْ خُؤُولَتِهِ. ولَمَّا بَلَغَ الخامِسَةَ والعِشْرِيْنَ (أي في سنةِ ٤٨٨ هـ) طَلَبَ إلَيْهِ أهْلُ المعَرَّةِ أنْ يَكْتُبَ لَهُم رَدّاً عَلَى رِسَالةٍ كانَ قَدْ بَعَثَ بِها إلَيْهِمْ أبو القاسِمِ المغْرَبِيُّ (يُعْرَفُ في التَّارِيخِ بِالمغْرَبِيِّ الوَزِيْرِ)[3] . ومِنْ هذِهِ الوَاقِعَةِ نُدْرِكُ أنَّ المعَرِّيَّ كان قَبْلَ ذلِكَ قد تابَعَ خُطَاهُ في طَرِيقِ الشُّهْرَةِ في مَوْطِنِهِ، ولاجَرَمَ أنَّ ذَلِكَ كانَ لَهُ شَرَفاً عَظِيْماً، أنْ يُخْتارَ ويُنْتَقَى مِنْ بَيْنِ رِجالاتِ الأَدَبِ الشَّبابِ بِالمعَرَّةِ، لِيَكُوْنَ نِدّاً لِلْمَغْرَبِيِّ ونَظِيراً[4] . وأُسْلُوبُهُ النَّثْرِيُّ في هذِهِ الرِّسالةِ تَفْشُو فِيهِ لُغَةُ السَّفْسَطَةِ والحَذْلَقَةِ، ويَعُجُّ بِالألفاظِ الجَوْفاءِ التي لا طائِلَ وَراءَها. ولَكِنَّ ذَلِكَ كانَ مِمَّا يَرُوقُ مُعاصِرِيهِ الذِينَ لَمْ تَكُنْ تَسْتَهْوِيهِمْ قَطُّ الأَسَالِيبُ البَسِيطَةُ الخالِيَةُ مِنَ التَّعْقِيدِ.

[1] انظر أَوْج التَّحِرّي ص ١٤

[2] انظر تَتِمَّةَ اليَتِيمَة، للثعالبي، طبعة طهران،١٣٥٣هـ، ج١، ص ٩، وانظر، كذلك، تَعْرِيْفَ القُدَماء، ص ٥٥٨.

[3] رَسائِل أبِي العلاء، ص ٣-١٤. ولِسِيرَةِ حَيَاةِ المغْرَبِيِّ (٣٧٠ هـ -٤١٨هـ)، انْظُرْ كامِلَ ابْنِ الأثِيرِ المجلَّدَ ٩، ص ٢٥٥، ووَفَيَات الأعيان، ج ١، ص ١٩٥.

[4] كانَ المغْرَبِيُّ وَقْتَئِذٍ فِي الثَّامِنَةَ عَشْرَ، وكانَ قَدِ اشْتُهِرَ بِمَوَاهِبِهِ الأَدَبِيَّةِ وهو في الرَّابِعَةَ عَشْرَ.

٣. رِحْلَتُهُ إلى بَغْدادَ:

عَلَى حِينِ كانَ المعَرّيُّ مُقِيماً بِدارِهِ بمَعَرَّةِ النُّعْمانِ، كانتْ شُهْرَتُهُ تَتَسامَى وتَتَنامَى باطِّرَادٍ حتى بَلَغَتْ بَغْدادَ. وقَدْ كانَ مِنَ الوَاضِحِ لِرَجُلٍ في مِثْلِ مَقْدِرَاتِهِ أنْ يَطْلُبَ مَجْدَهُ ويُصِيبَ جَدَّهُ في حاضِرَةِ البِلادِ ذاتِها. فَخَرَجَ إليها مُرْتَحِلاً في سَنَةِ ٣٩٨هـ، بَعْدَ أنْ وافَقَتْهُ إلى ذلك أُمُّهُ وبَعْدَ أنْ أعانَهُ على هذِهِ الرِّحْلَةِ أخْوالُهُ عَوْناً مُقَدَّراً، حتى إنَّ أحَدَهُمْ كانَ قَدْ أَمَدَّهُ بِقارِبٍ (سَفِينَةٍ) يَقْطَعُ بِهِ نَهْرَ الفُرَاتِ إلى بَغْدادَ.

ويَبْدُو أنَّ الجُزْءَ البَرِّيَّ مِنْ رِحْلَتِهِ هَذِهِ كانَ مَحْفُوفاً بِالأخْطارِ والأَهْوَالِ؛ لِأَنَّ الشاعِرَ يُحَدِّثُنا أنَّ الطُّرُقاتِ كانَتْ كَثِيْراً ما تَكوْنُ نَهْبَ هَجَمَاتِ عِصاباتِ اللُّصُوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ الذيْنَ لا يَنْتَهِي أذاهُمْ إلى حدٍّ[1]. إذْ يَقُولُ في قَصِيدَةٍ يُخاطِبُ بِها أبا حامِدٍ الإسْفَرايِيْني[2]؛ أحَدَ أبْرَزِ فُقَهاءِ بَغْدادَ، فَوْرَ وُصُولِهِ إلَيْها: (رُبَّ صَلاةِ ظُهْرٍ جَمَعْناها مَعَ صَلاةِ العَصْرِ في فَلاةٍ تَلْمَعُ مِنْ آلِها، قَدْ شَحَّ فِيْها الماءُ، حتى إنَّنا قَدْ صَارَتْ طَهَارَتُنا تَيَمُّماً[3] فمَسَحْنا الأَوْجُهَ مِنَّا والأَيْدِيَ بِإسْرَاعٍ، وكَمْ قَصَرْنا مِنَ الصَّلاةِ المفْرُوضَةِ، فارْتَدَّتِ الرَّكَعَاتُ الأَرْبَعُ مِنْها اثْنَتَيْنِ[4]، وذَلِكَ في مَهْمَهٍ قدِ امْتَدَّ وطَالَ طُوْلَ صَلاةِ الكُسُوفِ[5] ولَمْ نَجْهَرْ بِصَلاتِنا في هَذِهِ البَيْدَاءِ المجْهَلِ، ولَمْ يَرْفَعْ مُؤَذِّنُنا عَقِيرَتَهُ بِالأَذَانِ خَوْفَ تَنْبِيهِ الأَعْدَاءِ واللُّصُوصِ. وأَنَا في مَعْشَرٍ أجْمَعُهُم لَيْلاً، لِلسُّرَى، وأرْمِي بِهِمْ في مَجَاهِلِ هَذِهِ

---

١ سَقْط الزَّنْد، ج ٢، ص ١١٩.

٢ الإسْفَرايِينيّ (٣٤٤ – ٤٠٦هـ). وانْظُرْ تَرْجَمَتَهُ في وَفَيَاتِ الأَعْيَانِ، ج٢، كانَ إمَامَ فُقَهاءِ الشَّافعيَّةِ في عَصْرِ أبي العلاءِ.

٣ عِنْدَ فَقْدِ الماءِ أو مُثُولِ الخَطَرِ في اسْتِعْمَالِهِ، جَازَ لِلمُسْلِمِ لِطَهَارَتِهِ أنْ يَتَيَمَّمَ وذَلِكَ بِأنْ يَضْرِبَ بِيَدَيْهِ عَلَى صَعِيدِ الأَرْضِ، رَمْلاً أو حَجَراً، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِما وَجْهَهُ ويَدَيْهِ إلى المِرْفَقَيْنِ، وذلِكَ بَدَلاً مِنَ الطَّهارةِ المائِيَّةِ.

٤ يُسْتَحَبُّ لِلمُسْلِمِ المسافِرِ أنْ يَقْصُرَ مِنْ صَلاتِهِ مَتَى اسْتَطالَ سَفَرُهُ إلى سِتَّةٍ وثَلاثِينَ مِيْلاً فأكْثَرَ، فتَصِيرَ صَلَوَاتُ الظُّهْرِ والعَصْرِ والعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ لِكُلٍّ مِنهُنَّ، بَعْدَ أنْ كُنَّ أرْبَعاً.

٥ تُقرأُ فيها سُوَرُ البَقَرةِ وآلِ عِمْرَانَ والنِّساءِ والمائِدَةِ، وهُنَّ أطْوَلُ سُوَرِ القرءانِ.

الصَّحْرَاءِ عِنْدَ الصَّبَاحِ لِنَسْتَتِرَ مِنْ عِصَابَاتِ اللُّصُوصِ؛ فَهُمْ في جَمْعِي لَهُمْ ورَمْيِي بِهِمْ في مَجَاهِلِها كَجِمَارِ الرَّمْيِ[1]؛ يَقُولُ أبو العَلاءِ[2]:

وَرُبَّ ظُهْرٍ وَصَلْناها عَلَى عَجَلٍ بِعَصْرِها فِي بَعِيْدِ الوِرْدِ لَمَّاعِ

بِضَرْبَتَيْنِ، لِطُهْرِ الوَجْهِ واحِدَةٌ ولِلذِّراعَيْنِ أُخْرَى ذَاتُ إِسْرَاعِ

وكم قَصَرْنا صَلاةً غَيْرَ نافِلَةٍ فِي مَهْمَهٍ كَصَلاةِ الكَسْفِ شَعْشاعِ

وما جَهَرْنا ولَمْ يَصْدَحْ مُؤَذِّنُنا مِنْ خوْفِ كُلِّ طَوِيْلِ الرُّمْحِ خَدَّاعِ

في مَعْشَرٍ كَجِمارِ الرَّمْيِ أَجْمَعُها لَيْلاً وفِي الصُّبْحِ أُلْقِيْها إلى القَاعِ[3]

وأَمَّا الجُزْءُ النَّهْرِيُّ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلةِ فَيَبْدُو أَنَّهُ سارَ عَلَى ما يُرَامُ أَوَّلَ الأَمْرِ، ولَكِنَّ رِجالَ السُّلْطَانِ بَهاءِ الدَّوْلَةِ تَعَرَّضُوا لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ عِنْدَ مَوْضِعٍ يُقالُ لَهُ القادِسِيَّةُ واعْتَرَضُوها، واسْتَوْلَوْا عَلَى القَارِبِ، فاضْطُرَّ أبو العلاءِ إلى إِكْمَالِ رِحْلَتِهِ بَرّاً. وفَوْرَ وُصُولِهِ بَغْدادَ نَظَمَ قَصِيدَتَهُ التي أَوْرَدنا مِنَها الأَبْيَاتَ آنفاً يَطلُبُ فِيْها إلى أَبي حامِدٍ الاسْفَرَايِيْنِي مُسَاعَدَتَهُ وذَلِكَ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِيُخَلِّصَ لَهُ قَارِبَهُ. ولَقَدْ كانَتْ هَذِهِ القَصِيدةُ رِسَالةً كَتَبَها شِعْراً وأَظْهَرَ فِيْها مَهارَتَهُ اللُّغَوِيَّةَ وسَعَةَ اطِّلاعِهِ فِيها كَمَا أَظْهَرَ بَراعَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ، وجاءَ فِيْها بِصُوَرٍ حَيَّةٍ لِمَشقَّةِ السَّفَرِ ولِقَلَقِهِ في الطَّرِيقِ وشُعُورِهِ بالخَطَرِ وعَدَمِ الطَّمَأْنِيْنَةِ. وقدْ عَرَّفَ فِيْها نَفْسَهُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ عَلَى استقامةٍ ونزاهةٍ وخُلُقٍ رَفِيْعٍ، لا يُثْقِلُ عَلَى أَصْدِقَائِهِ بِتَكْلِيفِهِمْ بَذْلَ الجاهِ والمالِ، عَلَى حِينِ أَنَّهُ دائِماً خَفِيفٌ في بَذْلِهِما لَهُمْ، يَتَعَاطَى مَعَهُمُ الرِّبا الذي يَحِلُّ في شَرِيعَةِ الوِدَادِ، إِذْ يَرْضَى مِنهُمْ بِقَلِيْلِ المَوَدَّةِ

---

[1] رَمْيُ الجَمَرَاتِ مِنْ شعائِرِ الحَجِّ.

[2] سقط الزنْدِ، ج ١، ص ١٦٠.

[3] لَمْ يُوْرِدِ المؤَلِّفُ هذه الأبياتَ بِنَصِّها هنا وإنَّما جاءَ بِشَرْحِها الذي تَرْجَمْناهُ قَبْلَها. (التُّرجُمان)

ويُكافِئُهُمْ عَلَيْها بِأَضْعافِها[1]. غيرَ أنَّ أبا حامِدٍ لَمْ يَخِفَّ إلى مُساعَدَتِهِ، فَبادَرَ إِلَيْها مَنْ يُعْرَفُ بِابْنِ حَكّارٍ[2] فاسْتَنْقَذَ لَهُ قارِبَهُ[3].

ويَذْكُرُ صاحِبُ (أَوْجُ التَّحَرِّي) أنَّ بَغْدادَ كانَتْ وَقْتَئِذٍ مَدِيْنَةَ الدُّنْيا، وأَنَّ كُلَّ ما عَداها إِنَّما كانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْها أَراضِيَ فَلّاحِيْنَ[4].

والحَقُّ، أنَّهُ مَعَ أنَّ عَصْرَها الذَّهَبِيَّ كانَ قد قَضَى وماضِي مَجْدِها قَدْ كانَ ولَّى، إلاَّ أنَّها كانَتْ ما تَزَالُ حاضِرَةَ الإِسْلامِ وعاصِمَةَ الشَّرْقِ[5]. وقَدْ كانَتْ شَوارِعُها وطُرُقاتُها تَزْدَحِمُ بالتُّجّارِ والمسافِرِينَ الذِينَ يأْتُونَ إِلَيْها مِنْ أَقْاصِي الدُّنيا، يَتحدَّثُون لُغاتٍ مُخْتَلِفاتٍ ويَعْرِضُونَ أَنْواعاً أَصْنافاً مِنَ العاداتِ والمعْتَقَداتِ. وقَدْ كانَ الجانِبُ الفِكْرِيُّ مِنَ الحَيَاةِ فِيْها في غَايَةِ الغِنَى والثَّرَاءِ. فَقَدْ كانَتِ المسَاجِدُ وما يُماثِلُها مِنَ الأماكِنِ العامَّةِ تَشْهَدُ حَرَكَةً مُتَّصِلَةً مِنْ ضُرُوبِ النَّشاطِ العِلْمِيِّ مِنْ مُحاضَرَاتٍ ودُرُوسٍ وخُطَبٍ وإِنْشَادٍ لِلشِّعْرِ، ثُمَّ المنَاظَرَاتِ الحامِيَةِ. فالشُّعَرَاءُ، مَثَلاً، قَدْ كانَ لَهُمْ رُكْنُهُمُ الخاصُّ بِهِمْ في مَسْجِدِ المنْصُورِ مُنْذُ أَيَّامِ أَبِي تَمَّامٍ. وبِجانِبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَقَدْ كانَتْ بَغْدادُ مَدِيْنَةَ مَجالِسٍ. فَرِجالُ الثَّقَافَةِ والعِلْمِ والثَّرَاءِ وعِلْيةُ القَوْمِ، كانَ لِكُلٍّ مِنهُمْ مَجْلِسُهُ في بَيْتِهِ. وكانَتْ هَذِهِ المجالِسُ تَتَفاوَتُ

---

١ سقط الزند، ج ١، ص ١٦٢.

٢ مَدَحَهُ أبو العلاء في طائِيَّتِهِ المعْرُوفةِ، وجاءَ فِيها قَوْلُهُ:

وعَنْ آلِ حَكّارٍ جَرَى سَمَرُ العُلَى ... بِأَكْمَلِ مَعْنَىً لا انْتِقاصٌ ولا غَمْطُ

فإنْ يُنْسِهِمْ أَمْرَ السَّفِيْنَةِ فَضْلُهُمْ ... فَلَيْسَ بِمُنْسِيَّ الفِرَاقُ ولا الشَّحْطُ

(التَّرْجُمان)

٣ نفسُهُ، ج ٢، ص ١٢٩.

٤ أَوْج التحرّي، ص ١٧.

٥ كانَ عَضُدُ الدَّوْلَةِ قدْ أَصْلَحَ كَثِيراً مِنَ الخَرَابِ الذي خلَّفَهُ جَهْلُ أسلافِهِ وما وَقَعَ بَيْنَ السُّنَّةِ والشِّيْعَةِ مِن هَرْجٍ وفِتَنٍ. انظُرْ كامِلَ ابْنِ الأَثِيرِ ج ٨ ص ٥١٨.

في أحْجامِها وأقْدَارِها بِحَسَبِ كَرَمِ أرْبابِها وسَمَاحِهِمْ ومُيُولِهِمْ. فمِنْ بَيْنِ أشْهَرِ أصْحابِ المجَالِسِ الأعْيَانِ المقْصُودِينَ الممْدُوحِينَ في الأدَبِ أبو نَصْرٍ سابورُ بْنُ أرْدَشِيرَ، وَزِيرُ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ الذِي أنْشَأَ دَارَ العِلْمِ بِبَغْدادَ التي يُشِيرُ إليها أبو العَلاَءِ في قَصِيدتِهِ (مَغَانِي اللِّوَى[1]) وعَبْدُ السلامِ البَصْرِيُّ الذي كانَ يَنعْقِدُ مَجْلِسُهُ كلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ[2] وكانَ شاعِرُنا مِمَّنْ يَختلِفُ إليْهِ خِلالَ إقامَتِهِ بِبَغْدادَ، والشريف المرْتَضَى[3] الذي كان مُتَكَلِّمَ الشِّيْعَةِ ومِقْوَلَهُم لَّما كانَ أبو العلاءِ بِبَغْدادَ، والذي صارَ فِيمَا بَعْدُ نَقِيباً لَهُمْ (أيْ إمَامَهُمْ). ويُحَدِّثُنا مَنْ تَرْجَمَ لِشاعِرِنَا أنَّهُ صارَ أثِيراً عِنْدَ المرْتَضَى مُقَرَّباً لَدَيْهِ بَعْدَ حادِثةٍ جَرَتْ في مَجْلِسِهِ. وذلِكَ أنَّهُ اتَّفَقَ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ وَطِئَ قَدَمَ رَجُلٍ في هذا المجْلِسِ، فَصَاحَ فِيهِ الرَّجُلُ غاضِباً: (مَنْ هَذَا الكَلْبُ؟) فَرَشَقَهُ أبو العلاءِ بِجَوَابٍ حادٍّ مُفْحِمٍ: (الكَلْبُ مَنْ لا يَعْرِفُ لِلكَلْبِ سَبْعِينَ اسْماً)[4]. فَسَمِعَ المرْتَضَى هذا الجَوَابَ عَرَضاً، فطَلَبَ مِنَ المعَرِّيِّ البَقَاءَ بَعْدَ انْفِضَاضِ المجْلِسِ، وبَعْدَ ذلك أَقْبَلَ يَسألُهُ في مُختلِفِ مَسَائِلِ العِلْمِ؛ فَلَمَّا ألْفاهُ عالِماً مُنجَّذاً مُكْتَمِلَ الأدَوَاتِ عامَلَهُ نِدّاً لَهُ ونَظِيْراً وأقْبَلَ عَلَيْهِ يُكْرِمُهُ ويُجِلُّهُ.

وقد نَزَلَ المعَرِّيُّ عِنْدَ أغْلَبِ عُلَماءِ بَغْدَادَ مَنْزِلَةَ النَّظِيْرِ والنِّدِّ، فاتَّخَذَ كَثِيراً مِنهُمْ أصْدقاءَ لَهُ ومعَارِفَ، وإنْ لَمْ يَكُنْ بَعْضُهُم بِالوَدُودِ لَهُ والموَالِفِ كَعَلِيِّ بْنِ عِيْسى الرَّبَعِيِّ، إمامِ

---

١ وَفَيات الأعْيان، ج ١، ص ٢٥٠.

٢ سَقْط الزَّنْدِ، ج ٢، ص ١٠٩.

٣ هو ابْنُ ذِي المَنَاقِبِ المؤسَوِيّ (٣٥٥ – ٤٣٦هـ) صَارَ نَقِيباً بَعْدَ مَوْتِ أخِيْهِ الرَّضِي (٤٠٦هـ)، الذي كانَ أعْلَى شأناً مِنهُ وأرْفَعَ قَدْراً، عَلَى الرّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ الأصْغَرَ؛ الوَفَياتِ، ج ١، ص ٤٢٣؛ وج ٢، ص ٢ – ٥.

٤ تَعْرِيف القُدَماء، ص ٧٦. وقَدْ نَظَمَ السُّيُوطِيُّ، العالِمُ المشْهُورُ، قَصِيْدةً تَعْلِيْمِيَّةً جاءَ فِيها بِما أرْبَى عَلَى السِّتِّيْنَ اسْماً لِلكَلْبِ وسَمَّاها (التَّبَرِّي مِنْ مَعَرَّةِ المعَرّي)، وذلِكَ حتى يُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْ تُهمةِ المعَرِّيِّ لِمَنْ لا يَعْرِفُ لِلكَلْبِ سَبْعِيْنَ اسْماً؛ انظُرْ أوج التحرّي، ص ٤٢٩

النُّحاةِ. فَقَدْ حَدَثَ أنْ كانَ أبو العلاء بِبَابِهِ يَسْتَأْذِنُ في الدُّخُوْلِ، فَصَاحَ هذا بِأحَدِ رِجالِهِ: (أدْخِلُوا الاسْطِيْلَ)، والاسْطِيْلُ لَفْظَةٌ نابِيَةٌ في الدَّارِجةِ الشَّامِيَّةِ تَعْنِي (الأعْمَى)[1].

ولَكِنَّ هذِهِ الحادِثَةَ وغَيْرَها مِنْ مَثِيلاتٍ لَها أُخْرَيَاتٍ لَيْسَتْ بِالشَّيءِ الذي يُعْتَدُّ بِهِ ولا تَحْمِلُ دَلالَةً تُذْكَرُ بالنَّظَرِ إلى ما حَظِيَ بِهِ أبو العلاءِ مِنَ التَّكْرِيمِ والتَّبْجِيلِ مِنَ الآخَرِينَ.

وقَدْ قُدِّرَ لِبَعْضِ ما أصابَ مِنْ صَدَاقاتٍ في بَغْدادَ أنْ تَدُومَ طَوِيْلاً. مِنْ هَذِهِ الصَّدَاقاتِ تِلْكَ التي جَمَعَتْهُ بِابْنِ فُوُرَّجَةَ وبِأبِي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ (وكِلاهُما كانَ مِنْ تلامِيْذِهِ) وبِعَبْدِ السَّلامِ البَصْرِيِّ. وقَدْ ظَلَّ أبو العلاء يَرْعَى ذِكْرَى هَذِهِ الصَّدَاقاتِ طَوِيْلاً بَعْدَ رُجُوعِهِ إلى الشَّامِ، وجَعلَتْ هَذِهِ الذِّكْرَى تُنْتِجُ لَنَا، مِنْ بَعْدُ، قِطَعاً أنِيْقَةً مِنَ المرَاسَلاتِ مَعَ أطْرَافِ هذِهِ الصَّدَاقاتِ.

وقَدْ كانَ بِمَقْدُورِ أبِي العلاء في بَغْدَادَ أنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ مَوْقِعاً ومَنْصِباً يُناسِبُ ما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَوَاهِبَ ومَقْدِرَاتٍ وتَبَحُّرٍ عِلْمِيٍّ وثَقَافَةٍ مَوْسُوعِيَّةٍ. ولَكِنَّهُ كانَ آخِرَ مَنْ يَنْظِمُ

---

[1] وَرَدَ في مُقَدِّمَةِ رَسائِلِ أبِي العلاءِ ص ٢٥ سَطْر ١٧،حاشِيَة ٧ لَفظَتَا **اسْطَبْل واصْطَبْل**، وليس **اسْطِيل**. ووَرَدَتْ بِذاتِ الرِّوَايَةِ في عِدَّةِ مَواضِعَ مِنْ (تَعرِيْف القدماء)ص ١٦ حاشِيَة ٥، ومِنْ (إرشادِ الأريب)، مجَلَّد ١ ص ١٦٩، ولَكِنْ مَعَ كُلِّ هِذهِ الشواهِدِ فاسْطَبْل غَيْرُ مُقْنِعَةٍ. ويَبْدُو أنَّ **اسْطِيل** هِيَ الأصَحُّ. فَمَعَ أنَّها لَمْ تَرِدْ في أيٍّ مِنَ المعَاجِمِ المعْرُوفَةِ إلَّا أنَّ أصْلاً وَرَدَ في قامُوسِ الفَيْرُوزابادِي (القاهرة ١٩٣٨) مُجَلَّد ٣ ص ٣٩٥ وهُوَ (سَطَل) ويُوحِي بِمَعْنَى الظُّلْمَةِ والعَمَى، وعِنْدَهُ يُشِيرُ المؤَلِفُ إلى استِعْمَالٍ دَارِجِيٍّ مَحَلِّيٍّ يَتَّصِلُ بِهِ، ولكنَّهُ لا يُحَدِّثُنا عَنْه بِوُضُوحٍ (ويُوْجَدُ هَذا في (تاج العَرُوس)، القاهرة، بُوْلاق، مُجَلَّد ٧ ص ٣٧٥). ولَكِنَّهُ يُعْطِيْنا لَفْظَةَ (ساطِل) بِمَعْنَى سَحَابَةِ الغُبَارِ، كما يُعْطِينا الفِعْلَ **تَسَيْطَلَ** بِمَعْنى جاءَ وَحْدَهُ بِلا صَحْبٍ. وفي يَتِيمةِ الدَّهْرِ، مُجلَّد ٣، ص ١٨٠، دَلِيلٌ جَوْهَرِيٌّ يُؤَيِّدُ صِحَّةَ لَفْظَةِ **اسْطِيل** وهو الفِعْلُ **سَطَّلَ** أيْ ادَّعَى العَمَى، فَقَدْ وَرَدَ هذا الفِعْلُ في بَيْتٍ مِنْ قَصِيْدَةٍ طَوِيْلَةٍ عَنِ (الشَّحَّاذِينَ) واسْمُها (القَصِيدة السَّاسانِيَّةُ) وفيها:

ومَنْ طَفَشَلَ أو زَنْكَلَ أو سَطَّلَ في السِّرِّ

ويُخْبِرُنا الثَّعالِبِيُّ في شَرْحِهِ لِهَذَا البَيْتِ أنَّ كَلِمةَ **اسْطِيل** مَعْناها الأعْمَى. وجاءتْ في مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ ذاتِ القَصِيدة (راجع ذاتَ المرْجِع، ص ١٨٧). ولَيْسَ لِمُحْتَجٍّ أنْ يَحْتجَّ أنَّ كَلِمةَ **اسطبْل هي الأصَحُّ**؛ لِأنَّ هَذِهِ الكَلِمةَ الأخِيْرَة لا تَمُتُّ إلى الأصْلِ **سَطَّل** الوَارِدِ في البَيْتِ أعْلاه بِأدْنَى صِلَةٍ.

الأَمادِيحَ عَلَى جِهَةِ الاحْتِرَافِ والتَّكَسُّبِ مَعَ أَنَّهُ كانَ يُمْكِنُهُ في هذا الوقْتِ، إذا احْتَرَفَ المدِيْحَ مُتَكَسِّباً بِهِ، أنْ يُصِيبَ بِهِ ثَرَاءً وغِنَىً، كَيْفَ لا وقَدْ كانَ عَرَّفَ نَفْسَهُ شاعِراً مُتَميِّزاً، وأَقَرَّ لَهُ العُلَماءُ بِالعِلْمِ واعْتَرَفُوا بِهِ واحِداً مِنهُمْ.

ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَظَمَ أبو العلاء قَصائِدَ المدِيحِ. إذْ كانَتْ قَوَاعِدُ اللِّياقَةِ وآدَابُ السُّلُوكِ فِيما بَيْنَ طَبَقَةِ الأُدَباءِ في بَغْدَادَ تَقْضِي أنْ يَتَبادَلُوا قَصَائِدَ المدِيحِ في أيَّامِ المناسَبَاتِ وغَيْرِها مِنَ الأيَّامِ المشْهُودَةِ. وعادَةً ما كانَتْ هَذِهِ الأمادِيحُ تُصاحِبُها هَدَايا ثَمِينَةٌ إذا كانَ المتَرَاسِلانِ مِنْ أَهْلِ المالِ والجاهِ[1] وإلاَّ، أيْ إذا أرْسَلَ القَصِيدَةَ رَجُلٌ رَقِيْقُ الحالِ إلى آخَرَ مِنَ الطَّبَقَةِ الموْسِرَةِ، فالقَصِيدَةُ تَعْدِلُ رِسالةَ ضَرَاعةٍ، فإمَّا أنْ يَرُدَّ عَلَيْها الموسِرُ بِهَدِيَّةٍ أو يَتَجاهَلَها. (ومَا كانَ السَّرِيُّ المثري يَشِينُ نَفْسَهُ إذا كافأَ الشَّاعِرَ بِأشياءَ عَينيَّةٍ).

وأمَّا إذا كانَ المتَرَاسِلانِ مُتَكافِئَيْنِ في حالِهِما، كان الرَّدُّ عَلَى القَصِيدَةِ قَصِيدَةً مِثْلَها وأغْلَبُ مَا تَكُونُ عَلَى بَحْرِها وقافِيَتِها. وأحْيَاناً يَتَبادَلانِ هَدَايا مِنْ نَوْعٍ أو آخَرَ[2]. فالقَصَائِدُ التي كانَ يَنْظِمُها أبو العلاءِ لِأَصْدِقائِهِ داخِلَةٌ في النَّوْعِ الأَخِيرِ.

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيءٍ، فإنَّ ثَمَّةَ مَرْثِيَةً نَظَمَها أبو العلاء في الشَّرِيفِ ذِي المناقِبِ[3] (والدِ كُلٍّ مِنَ الرَّضِيِّ والمرْتَضَى) يُمْكِنُنا أنْ نَعُدَّها قَصِيْدَةَ مَدِيْحٍ إذْ يَقُولُ فِيْها مُخاطِباً إيَّاهُما[4]:

يا مالِكَيْ سَرْحَ القَرِيضِ أَتَتْكُما ... مِنِّي حَمُولَةُ مُسْنِتِينَ عِجَافِ
لا تَعْرِفُ الوَرِقَ اللُّجَيْنَ وإنْ تُسَلْ ... تُخْبِرْ عَنِ القُلَّامِ والخِذْرافِ

---

١ انظُرْ، مِثالاً لِذَلِكَ، دِيْوَانَ الشريف الرَّضِيِّ، بَيْروت، ١٣٠٧هـ، ص ٤٥، ورسائل أبي العلاء (المقَدِّمَة)، ص ١٣.

٢ كَقَصَبِ البُوْصِ أو اليَرَاعِ الذي تُصنَعُ مِنهُ الأقْلامُ وضُرُوبٌ مِنَ الآلاتِ الموْسِيقِيَّةِ النَّفْخِيَّةِ أو المزَامِيرُ.

٣ هو ذُو المنَاقِبِ أحْمَدُ بْنُ الحسَيْنِ الموْسَوِيُّ، مِن نَسْلِ عَلِيٍّ وفاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ، تُوُفِّيَ في ٤٠٠هـ في أوَّلِ شهرِ جُمَادَى، قُبَيْلَ تَرْكِ أبي العلاءِ بَغْدادَ ورُجوعِهِ إلى مَوْطِنِهِ. الوَفَيَات، المجلَّد الثاني، ص ٤، و(الكامل) لابْنِ الأثير، المجلد ٩، ص ١٥٤

٤ سقط الزند، ج ٢، ص ٦٦.

أيْ يا مَنْ مَلَكْتُمَا قُطْعانَ الشِّعْرِ، جاءَتْكُما مِنِّي قَصِيدَةٌ مُتَواضِعَةٌ تُشْبِهُ رَاحِلَةَ قَوْمٍ مُجْدِبِينَ أَصَابَتْهُمُ السَّنَةُ فَصَارُوا عِجافاً مَهازِيلَ، ولَكِنَّها تَحْمِلُ شُكْرَ رَجُلٍ، هو الشَّاعِرُ، مِنْ هَؤُلاءِ المهازِيلِ العِجَافِ، لا يَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ الفِضَّةِ، ولا يُحْسِنُ إلَّا أنْ يُجِيبَ في مَسَائِلِ (القُلَّامِ) و(الخِذْرافِ)[1]

وهَكَذا يَمْضِي في هذِهِ القَصِيدةِ فيُعْلِنُ بِوُضُوحٍ أَنَّهُ لا يَبْتَغِي عَطاءً ولا جَزَاءً وأَنَّهُ كانَ سَيُرْسِلُ إِلَيْهِما هَدِيَّةً ثَمِيْنَةً لَوْ كانَ يُماثِلُهما ثَرَاءً؛ يَقُولُ:

وأنا الذِي أُهْدِي أَقَلَّ بَهارَةٍ   حُسْناً لِأَحْسَنِ رَوْضةٍ مِئْنافِ
أَوْضَعْتُ في طُرُقِ التَّشَرُّفِ سامِياً   بِكُمَا ولَمْ أَسْلُكْ طَرِيْقَ العافِي[2]

ونَحْنُ نَزْعُمُ أَنَّ هَذِهِ الكِبْرِياءَ مِنْ أبي العلاء كانَتْ أَدْعَى لِأَنْ تَكُونَ مَجْلَبَةَ اسْتِيَاءٍ مِنهُ واسْتِنْكارٍ، لا مَجْلَبَةَ وِدادٍ لَهُ وإكْبارٍ؛ إذ يُحَدِّثُنا ياقوتٌ وغَيْرُهُ عَنْ وَاقِعَةٍ مُهِيْنَةٍ جَرَتْ لِأَبي العلاءِ في مَجْلِسِ الشَّرِيْفِ المرْتَضَى؛ وذَلِكَ بِسَبَبِ دِفاعِهِ المتَحَرِّئِ عَنِ المتَنبِّي وانْتِصارِهِ لَهُ لَمَّا تَناوَلَهُ المرْتَضَى بالانْتِقَادِ والانْتِقَاصِ[3]. والمعْرُوفُ أَنَّ المعَرِّيَّ قالَ لِلْمُرْتَضَى: (أيُّها الشريفِ! لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلمُتَنبِّي إلا لَامِيَّتُهُ (لَكِ يا مَنازِلُ في القُلُوبِ مَنازِلُ) لاسْتَحَقَّ بِها أنْ يَكُونَ شاعِراً عَظِيماً)؛ فَمَا كانَ مِنَ الشريفِ إلَّا أنْ أَمَرَ بِهِ فَطَرَدَهُ رِجالُهُ مِنَ المجْلِسِ وهُمْ يَجُرُّونَهُ. ولَمَّا سُئِلَ المرْتَضَى عَنْ ذَلِكَ أَجَابَ بِأَنَّ المعَرِّيَّ كان قَدْ أَسَاءَهُ؛ لِأَنَّ ذِكْرَهُ لِهَذِهِ اللامِيَّةِ، مَعَ أَنَّها لَيْسَتْ مِنْ رَوائِعِ المتنبِّي، كانَ يُرِيدُ بِهِ البَيْتَ[4]:

وإذا أَتَتْكَ مَذمَّتِي مِنْ ناقِصٍ   فَهِيَ الشَّهادةُ لِي بِأَنِّيَ كامِلُ

---

١ ضَرْبانِ مِنَ النَّبتِ يَنْبُتانِ في الرَّبِيْعِ ويَجِفَّانِ عِنْدَ اسْتِشْعارِ حَرِّ الصَّيْفِ، انْظُرْ مُعْجَمَ (لَيْنِ) لَنْدَن، ١٨٦٣، ص ٧١٣.

٢ لَمْ يَرِدْ هذانِ البيتانِ في الأَصْلِ ولا اللَّذانِ قَبْلَهُما بَلْ وَرَدَ شَرْحُهُما (التَّرْجُمان)

٣ تعريف القدماء ص ٧٦.

٤ ديوانُهُ بتحقيق عبد الوهاب عزّام، القاهرة، ١٩٤٤، ص ١٦٦.

وقَدْ وقَفَ بروفسير مَرْجُلْيُوث في هذِهِ القِصَّةِ وأَعْطاها مِنَ الوَزْنِ ما جَعَلَها، عِنْدَهُ، السَّبَبَ المبَاشِرَ لِمُغادَرَةِ المعَرِّيِّ بَغْدادَ[1]. ولكِنَّنا نَشُكُّ في هذِهِ القِصَّةُ أصْلاً ونَمِيلُ إلى أنَّها اخْتِلاقٌ مَحْضٌ ومِنْ بَناتِ الخَيالِ، وذَلِكَ لِأَسْبَابٍ هِيَ:

أوَّلاً: إنَّ مُعَامَلَةَ المعَرِّيِّ القاسِيَةَ لَيْسَتْ هِيَ المرَادَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ القِصَّةِ؛ ولَكِنَّ إيْجَادَها كانَ لازِماً لِتُعْطِيَ نَوْعاً مِنَ الإثارَةِ وتَحْرِيكِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (ناقِص) في البَيْتِ مُسِيئَةٌ، ولابُدَّ أنْ يُظْهِرَ المرْتَضَى اسْتِنْكَافَهُ مِنْها وغَضَبَهُ بأنْ يُعاقِبَ مُرْتَكِبَ هذِهِ الإساءَةِ؛ فَهَذِهِ الملاحَظَةُ وَحْدَها كَفِيلَةٌ بِحَمْلِنا عَلَى الظَّنِّ في اخْتِلاقِها ووَضْعِها.

ثانياً: كانَتْ جَماعَةُ المرْتَضَى الشِّيْعِيَّةُ، مِنَ الأجْيالِ اللاحِقَةِ، تَمِيلُ إلى الحَدِيْثِ عَنْهُ عَلَى أنَّهُ أذْكَى رَجُلٍ وأعْظَمُ عالِمٍ في الإسْلامِ. فَمِنَ المحْتَمَلِ أنَّهُمْ اخْتَلَقُوا هَذِهِ القِصَّةَ ووَضَعُوها بِهَذِهِ الكَيْفِيَّةِ لِيَجْعَلُوا مِنْها شاهِداً حَيّاً عَلَى تَفَطُّنِهِ وسُرْعَةِ بَدِيْهَتِهِ في إدْراكِهِ غَرَضَ المعَرِّيِّ مِنَ الاسْتِشْهادِ بِهَذَا البَيْتِ. ويُخْبِرُنا التِّبْرِيزِيُّ، وهُوَ أحَدُ مُشايِعِي المرْتَضَى، عَنْ مُناظَرَةٍ أُخْرَى جَرَتْ بَيْنَ أبي العلاءِ والشَّرِيفِ، اسْتَخْدَما فِيْها لُغَةً تَستعْصِي عَلَى الفَهْمِ لِأَنَّها مُوغِلَةٌ في الإلْغازِ، وما كانَ مِنْ غَرَضٍ لِرِوَايَةِ هذِهِ المنَاظَرَةِ إلَّا إعْلاءُ شَأْنِ الشريف وتَفْخِيمُ سُمْعَتِهِ وإظهارُهُ مُظْهَرَ المدَافِعِ عَنْ عَقِيْدَةِ الإيْمَانِ، والمعْصُومِ والمنَزَّهِ عَنِ الخَطَأِ[2]. وقَدْ سُمِّيَ المعَرِّيُّ في هذِهِ القِصَّةِ الثانِيَةِ (بالملْحِدِ)، وهي تَسْمِيَةٌ ما كانَتْ لِتَنْطَبِقَ عَلَيْهِ في بَغْدَادَ، إذْ كانَ فِيْها شَدِيْدَ الحَذَرِ مِنْ أنْ يَحِيدَ عَنْ مَأْلُوفِ الدِّينِ ومَعْرُوفِ الاعْتِقَادِ عِنْدَ النَّاسِ[3].

١ مقدمة رسائل أبي العلاء، ص ١٧.

٢ تعريف القدماء، ص ٣٨٠.

٣ يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ الدِّمَشْقِيُّ إنَّ أبا العلاءِ كانَ قد أُخْرِجَ مِنْ بَغْدَادَ مَخْزِيّاً مَعِيْباً بِسَبَبِ بَيْتَيْهِ:

ثالثاً: ما كانَ لِأبي العلاءِ أنْ يَنْظِمَ مَرْثِيَتَهُ في ذِي المَناقِبِ، لَوْ كانَ ابْنُهُ سَبَقَ بإهانَتِهِ. وإذَنْ فَلَوْ كانَتْ هذِهِ الحادِثَةُ قد وَقَعَتْ- هذا إنْ كانَتْ حَقّاً قَدْ وَقَعَتْ - فَيَجِبُ أنْ يَكُونَ وُقُوعُها خِلالَ الأرْبَعَةِ أَشْهُرٍ التي أعْقَبَتْ وَفاةَ ذِي المَناقِبِ. ولَكِنَّ هذا بِطَبِيْعَةِ الحالِ مُستَبْعَدٌ جِدّاً؛ لِأنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ اللُّؤْمِ بِمَكانٍ أنْ يُقْدِمَ المرْتَضى عَلَى إهانةِ رَجُلٍ كانَ قُبيلَ ذَلِكَ قَدْ مَدَحَهُ وبَكَى فَقْدَ أبِيهِ. وعَسَاكَ أنْ تُلاحِظَ أنَّ الأَسَى لِفَقْدِ ذِي المناقِب والحُزْنَ عَلَيْهِ لَا بُدَّ أنَهُ كانَ قَدْ امْتَدَّ لِأَشْهُرٍ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فلا بُدَّ أنَّ زُوَّارَ أَهْلِهِ، الذينَ يأْتُونَهُم مُعَزِّينَ في فَقْدِهِ، قَدْ طَلَبوا سَمَاعَ المَراثي التي نُظِمَتْ في الشَّريفِ الفَقِيدِ ويَبْدُو أنَّ المرْثِيَةَ التي نَظَمَها فِيهِ أبو العلاءِ كانَتْ أفْضَلَ هذِهِ المَراثي جَمِيْعاً، ولِذَلِكَ نَزْعُمُ أنَّها كانَتْ كَثِيراً ما تُنْشَدُ خِلالَ أيامْ الحُزْنِ والحِدَادِ. وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ هذا الإنْشَادَ كانَ يُؤَدِّيهِ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ. فإذا كانَ الأمْرُ كَذلِكَ فإنَّا نَتوقَّعُ أنْ تَتوَثَّقَ الصِّلَةُ بِذَلِكَ بَيْنَ الشاعِرِ والمرْتَضى عَلَى نَحْوٍ أَقْوَى مِمَّا كانَتْ عَلَيْهِ، لا أنْ تَتَرَدَّى فَتَرْتَدَّ عَداءً بَيْنَهُما.

رَابعاً: يُخْبِرُنا بَعْضُ مَنْ تَرْجَمُوا لِأبِي العلاءِ، مِمَّنْ رَوَوْا قِصَّتَهُ هذِهِ مَعَ المرْتَضى، أنَّ المرْتَضى هَذَا كانَ يَكْرَهُ شِعْرَ المتَنبِّي. والظَّاهِرُ أنَّ الأمْرَ كانَ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ تَماماً، يَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةُ اسْتِشْهَادِ المرْتَضى مِنْ دِيوَانِ المتَنبِّي في أَمَالِيْهِ[1]؛ لا بَلْ إنَّنا نَعْلَمُ مِنْ دِيوَانِ الرَّضِي، أنَّ الرَّضِيَّ هذا كانَ صَدِيقاً لابْنِ جِنِّي، الذِي كانَ مِنْ أصْحَابِ المتَنبِّي المتَعَصِّبِينَ لَهُ. ولَذلِكَ، فَلا بُدَّ أنَّ المرْتَضى كانَ مِنَ التَّعَقُّلِ والحَصَافةِ بِمَا يَدْعُوهُ لِأنْ

-يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجدٍ وُدِيَتْ ما بَالُها قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إلاّ السُّكُوتُ لَهُ وأنْ نَعُوذَ بِمَوْلانا مِنَ النَّارِ

ولَكِنَّ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ وَرَدَا في دِيوَانِ اللُّزُومِ، الجُزْءِ الأوَّلِ ص ٣٨٦ وهُما مِنْ نِتاجِ فَتْرَةٍ مِنْ حَيَاةِ أبي العلاء مُتَأَخِّرَةٍ عن فَتْرَةِ بَغْدادَ، وكَانَ ابْنُ كَثِيرٍ يَكْرَهُ أبا العلاءِ ولَرُبَّما عُدَّ هذا مِنهُ مِثالاً عَلَى إسْقاطِهِ في حَقِّ أبي العلاءِ، وتَمَنِّيهِ حُدُوثَ ذَلِكَ لَهُ.

[1] انظُرْ أمالِي السَّيِّدِ المرْتَضَى، القاهرة، ١٩٠٧، الجزء الثالث، ص ١٢٤ – ١٢٨ والجزء الرابع ص ٤١، ٤٣.

يُشارِكَ أَخاهُ في رَأْيِهِ ويُشَايِعَهُ عَلَيْهِ، لا سِيَّما وأَنَّهُ كانَ وَقْتَئِذٍ نَقِيبَهُم، لا أنْ يُعاقِبَ مَنْ يُعْجَبُونَ بِالمتَنبِّي ويُسَفِّهَهُمْ.

خامِساً: مِنْ المسْتَبْعَدِ جِدّاً أنْ يُغامِرَ الشريف بِسُمْعَةِ رَهْطِهِ وبَيْتِهِ، بِأنْ يُهِيْنَ شاعِراً مَوْهُوباً يَنْتَسِبُ إلى أحَدِ البُيُوتِ العَرَبِيَّةِ البارِزَةِ المعْرُوفَةِ، ولَهُ في بَغْدَادَ أقارِبُ ورَحِمٌ مِنَ التَّنُوخِيِّينَ، لا يُسْتهَانُ بِهِمْ كأَبِي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ، ابْنِ القاضِي التَّنُوخِيِّ المشْهُورِ[1]، والذِينَ يُكْبِرُهُمْ رَهْطُ الشرِيفِ وأهْلُهُ ويُجِلُّونَهُم، لِأنَّهُمْ كانُوا مُناصِرِينَ لِلشِّيعَةِ ومُشايِعِينَ لَهُمْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أنَّهُمْ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ[2]. ولَقَدْ كانَ عَلَى آلِ الشرِيف أنْ يَخْشَوْا كَثِيراً تُهَمَ أعْدَائِهِم لَهُم ونَمائِمَهُمْ فِيهِمْ، ومَكَائِدَ مُنافِسِيهِمْ ودَسَائِسَهُمْ[3]. فَقَدْ كانُوا يُحافِظُونَ عَلَى مَكانَتِهِمْ فِي النَّاسِ بِمَا كانُوا يُظْهِرُونَهُ لَهُمْ مِنَ السَّمَاحِ والحِلْمِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ والتُّقَى.

سادِساً: إنَّ أبَا العَلاء نَفْسَهُ لَمْ يَذكُرِ الشريف فِي دِيوَانِ اللُّزُومِ بِتَكَرُّهٍ وازْدِراءٍ، عَلَى ما يُتَوَقَّعُ مِنهُ؛ بَلْ نَرَاهُ، عَلَى النَّقِيْضِ مِنْ ذَلِكَ، يُظْهِرُ لَهُ شَيْئاً مِنَ الاحْتِرَامِ ؛ وذَلِكَ إذْ يَقُولُ[4]:

وأصْحابُ الشرِيف ولا تَساوٍ كأصْحابِ ابْنِ زُرْعَةَ وابْنِ سَمْحِ

وقَدْ تَنبَّهَ التِّبْرِيْزِيُّ إلى أنَّ أبا العلاء ظَلَّ يَذْكُرُ الشريف بِخَيْرٍ بَعْدَ تَرْكِهِ بَغْدَادَ[5]. فمِنْ غَيْرِ المحْتَمَلِ قَطُّ أنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ أبِي العلاءِ في حَقِّ الشَّرِيْفِ، إنْ كانَ هذا قَدْ كانَ نالَ مِنهُ وأهانَهُ عَلَى الملإِ.

---

1 ٣٢٧ – ٣٨٤هـ انظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي الوَفَيَاتِ، ج ١، ص ٥٦٣.

2 انظُرْ إرشاد الأريب، ج ٥، ص ٣٤٢.

3 انظُرِ الكامِلِ، لابْنِ الأثِيْرِ، مُجَلَّد ٩، ص ١٢٩.

4 دِيْوَانِ اللُّزُومِ، ج ١، ص ٢٣٥.

5 تعريف القدماء، ص ٣٨٠.

سابِعاً: إنَّ ابْنَ خَلِّكانَ الذِي تَستهْوِيهِ كَثِيْراً القَصَصُ والنَّوادِرُ والطَّرَائِفُ الأَدَبِيَّةُ ويَسْتَطِيبُها لَمْ يُورِدْ هذِهِ القِصَّةَ فِي تَرْجَمَتِهِ لِأبِي العلاءِ، ولَيْسَ مِنَ الممْكِنِ بِحَالٍ أَلّا يَكُونَ قَدْ سَمِعَ بِها. (كَمَا أَنَّهُ مِمَّا لَهُ دَلالَةٌ ومَغْزَىً أَلّا يُوْرِدَ أَكْثَرَ القَصَصِ الأُخْرَى المتَّصِلَةِ بِشاعِرِنا، مِمَّا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ عَدَّهُ مَوضُوعاً ومُخْتَلَقاً؛ فَذَلِكَ يَدُلُّكَ، عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمِيلُ إلى تَصْدِيقِها)[1].

فَلِهذِهِ الأَسْبَابِ التِي أَوْرَدْناها لَعَلَّهُ مِنَ الحَزْمِ والحَيْطَةِ أنْ نَرْفُضَ التَّسْلِيمَ بِصِحَّةِ هذِهِ القِصَّةِ مِنْ حَيْثُ قِيْمَتُها. وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ بروفسير مَرْجُلْيُوث كانَ سَيَنْتَهِي إلى ما انْتَهَيْنا إِلَيهِ مِنْ هذا الرَّفْضِ، لَوْلا أَنَّهُ شَغَلَ نَفْسَهُ بِالسَّبَبِ الذي كانَ وَرَاءَ مُغادَرَةِ شاعِرِنا بَغْدَادَ، الظَّاهِرِ البُطْلانِ. عَلَى أَنَّنا عَلَيْنا أَلّا يَفُوتَنا أنَّ بروفسير مَرْجُلْيُوث لَمَّا كَتَبَ سِيرَةَ حَياةِ المعَرِّيِّ، لَمْ يَكُنْ كِتَابُ (الإنْصَافُ والتَّحَرِّي) لِابْنِ العَدِيْمِ، الذِي كَشَفَ عَنِ السَّبَبِ الذِي حَمَلَ أبا العلاءِ أن يُجْمِعَ عَلَى العَوْدَةِ إلى المعَرَّةِ، قد اكْتُشِفَ بَعْدُ. فابْنُ العَدِيْمِ هذا يُخْبِرُنا أنَّ عَبْدَ الواحِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمانَ، أخا أبي العلاءِ، كانَ قَدْ أرسلَ إلى أبي العلاء، وهُو بِبَغْدادَ، رِسَالةً أَخَذَتْ شَكْلَ القَصِيدة، عَلَى لِسَانِ أُمِّهِ، يَتَّهِمُهُ فِيْها بِأَنَّهُ قَدْ أغْرَاهُ جَمَالُ مَدِيْنَةِ بَغْدَادَ وسُحِرَ بِرَوْعَةِ الحَيَاةِ فِيهَا، ويَحُثُّهُ على تَذَكُّرِ أصْدِقَائِهِ وإِخْوَانِهِ وهذِهِ المرْأَةِ المِسْكِينَةِ، أُمِّهِ، التي تَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ بِفارِغِ الصَّبْرِ، خَوْفاً مِنْ أنْ يَطوِيَها الموْتُ قَبْلَ أنْ تَرَاهُ ثانِيَةً[2]. ولَوْ أنَّنا أخذْنا في الاعْتِبَارِ أنَّ أبا العلاءِ كانَ في بَغْدَادَ وحِيداً يُنازِعُهُ الحَنِينُ إلى دِيَارِهِ، عَلَى نَحْوِ ما نَجِدُهُ في قَصِيْدَتَيْهِ (مَغانِي اللِّوَى)

---

١ الوَفَيَاتِ، ج ١، ص ٤١.

٢ أوردَ ابْنُ العَدِيْمِ هذه القَصِيدةَ كامِلةً، تعريف القدماء، ص ٥٤٤ .

و(طَرِبْنَ)[1] وأَنَّهُ كانَ في إقْلالٍ مِنَ المالِ[2]، أمْكَنَنا حَقّاً أنْ نُقَدِّرَ الأَثَرَ الحاسِمَ الذي أحْدثَتْهُ فِيهِ هذِهِ الرِّسالَةُ.

لَقَدْ خَفَّ إلى بِلادِهِ، الشَّامِ، تارِكاً بَغْدادَ في الرَّابعِ والعِشْرِيْنَ أو الثَّالِثِ والعِشْرِيْنَ مِنْ رَمضَانَ مِنَ العامِ ٤٠٠هـ، بَعْدَ أنْ أمْضَى في بَغْدَادَ اثْنَيْنِ وعِشْرِيْنَ شَهْراً. وفي طَرِيْقِهِ عائِداً إلى بِلادِهِ تَلَقَّى نَبأَ مَوْتِ أُمِّهِ، فَأَخْرَسَتْهُ الفاجِعَةُ حتى إنَّهُ ما اسْتَطاعَ أنْ يُذْهِبَ حُزْنَهُ ويُنَفِّسَ أَسَاهُ في المرْثِيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ نَظَمَهُما فِيْها. ولَكِنَّ هذا الحُزْنَ انْفَجَرَ مِنهُ فَخَرَجَ مُنْدَفِعاً في رِسالَةٍ مُشْجِيَةٍ تُقَطِّعُ نِياطَ القُلُوبِ، أَرْسَلَها إلى أحَدِ أَخْوَالِهِ[3]. ولَقَد كانَ فَقْدُهُ أُمَّهُ عَلامَةً فارِقَةً على انْتِهاءِ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ حَيَاتِهِ وابْتِدَاءِ مَرْحَلَةٍ أُخْرَى.

---

١ انظُرْ (شِعْرُهُ في بَغْدَادَ) مِنَ الفَصْلِ الرَّابعِ مِنْ كِتابِنا هذا.

٢ سقط الزند، ج ٢، ص ١١٩.

٣ رسائل أبي العلاء، النصّ العربيّ، ص ٣٢.

٤. فَتْرَةُ عُزْلَتِهِ:

لَقَدَ كانَ مِزَاجُ أبي العلاءِ تَزَهُدِيّاً، كأَنَّهُ كانَ قَدْ جُبِلَ عَلَى الانْصِرَافِ عَنْ مُتَعِ الحَيَاةِ. فَلَقَدْ كانَ تَرَبَّى في بَيْتِ دِينٍ، ونَشَأَ نَشْأَةً اكْتَنَفَتْها أصْنافُ المشَقَّاتِ والعَنَاءِ ومُنازَعاتٌ أهْلِيَّةٌ وأَسْفَارٌ لا تَهْدَأُ؛ فَمُنْذُ شَبَابِهِ كانَ قَدْ أظْهَرَ مُيُولاً إلى عَدَمِ الاحْتِفَالِ بِمَظاهِرِ الدُّنْيا وانْصِرَافاً عَنْ لَذَاذاتِها. فَلَمْ يَتَعاطَ الخَمْرَ التي يَعُدُّها الشُّعَرَاءُ عَيْنَ نَبْعِ الإلْهَامِ الشِّعْرِيِّ ووَحْيِهِ[١]. ولَمَّا بَلَغَ الثَّلاثِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ صارَ إلى مَذْهَبِ النَباتِيِّيْنَ، ومُنْذُ ذَلِكَ الحِيْنِ بَدَا كأَنَّهُ كانَ يُعِدُّ نَفْسَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً لِحَيَاةِ التَّقَشُّفِ والتَّعَفُّفِ والامْتِنَاعِ عَنِ المتَعِ[٢]. ولَقَد كانَتْ تَجْرِبَةُ بَغْدادَ اخْتِبَاراً لِقُوَّةِ إرَادَتِهِ ورَبَاطَةِ جَأْشِهِ واسْتِعْصَامِهِ الأخْلاقِيِّ، وهُوَ ما أثْبَتَ فِيهِ صَبْراً وصُمُوداً مُشَرِّفاً، أقْدَمَهُ عَلَى أنْ يَقُولَ[٣]:

أَإِخْوَانَنَا بَيْنَ الفُرَاتِ وجِلَّقٍ ... يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحَالِ

أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي عَلَى العَهْدِ سالِمٌ ... ووَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤَالِ

(أيْ اعْلَمُوا يا إخْوَتَنا الذِيْنَ المقِيمِينَ بَيْنَ العِرَاقِ والشَّامِ أنِّي واللهِ لا أُعْطِيكُمْ كاذِبَ الأَخْبَارِ، فَإنِّي ما أَزَالُ عَلَى عَهْدي مَعَكُمْ أَرْعَاه، وإنَّني لَمْ أَتَعَرَّضْ لِذُلِّ السُّؤَالِ)

هَذَا، ولَمَّا أجْمَعَ أمْرَهُ أنْ يَعُودُ إلى الشَّامِ لَرُبَّما كانَ قَدْ أزْمَعَ هذا العَوْدَ أصْلاً عَلَى أَلَّا يَعُودَ لِمُخَالَطَةِ النَّاسِ ومُعَاشَرَتِهِمْ. وقَدْ أبْرَمَ إزْمَاعَهُ هذا ما كانَ مِنْ فُجاءَةِ مَوْتِ أُمِّهِ. ولِذَلِكَ نَرَاهُ يُوَجِّهُ رِسَالَةً إلى أهْلِ المعَرَّةِ يَطْلُبُ إلَيهِمْ فِيْها أَلَّا يَلْقَوْهُ، ويُعْلِنُهُمْ عَزْمَهُ عَلَى العَيْشِ في عُزْلَةٍ والمكْثَ في بَيْتِهِ عَلَى كُلِّ حالٍ[٤]. ومَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَمْضِ عَزْمُهُ عَلَى ما كانَ

---

١ انظرْ (الجانبُ الفِكْرِيُّ لِشِعْرِ اللُزُوم) مِنْ كِتابِنا هذا.

٢ نفسه.

٣ سقط الزند، ج ٢، ص ٤٥، ١، ٤.

٤ تَعريفِ القُدَماء، ص ٥٤٦.

أرَادَهُ. إذ إنَّهُ لَمَّا جاءَ المَعَرَّةَ كانَتْ شُهْرَتُهُ قَدْ اتَّسَعَتْ وصِيْتُهُ قَدْ بَلَغَ حَدّاً مِنَ العِظَمِ لَمْ يُمْكِنْهُ مَعَهُ أنْ يَنْقَطِعَ عَنِ الناسِ. فَتَدَفَّقَ الطُّلَّابُ إلى بَيْتِهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ حتى وَجَدَ نَفْسَهُ مُجْبَراً عَلَى أنْ يُجِيبَهُمْ إلى ما أرَادُوا مِنَ العِلْمِ والمعْرِفَةِ، بَعْدَ أنْ ارْتَدَّتْ مُحَاوَلاتُهُ لإنْفَاذِ عَزْمِهِ عَلَى الاعْتِزَالِ بِالفَشَلِ. وطارَ ذِكْرُهُ يَعُمُّ البِلادَ الإسْلامِيَّةَ حَتَّى أصْبَحَتْ مَعَرَّةُ النُّعْمان، بِمُقامِهِ فِيْها، قِبْلَةَ الزَّائِرِينَ. وسُرْعَانَ ما وَجَدَ نَفْسَهُ مَوْصُولاً بِالناسِ، وظَلَّ إلى آخِرِ أيَّامِهِ يُرْسِلُ الرَّسائِلَ العَلِيمَةَ المتَعَمِّقَةَ في المعْرِفَةِ إلى أرْجاءِ العالَمِ الإسْلامِيِّ. عَلَى أنَّ ثَلاثاً مِنْ عَزائِمِهِ كانَتْ قَدْ ظَلَّتْ ماضِيَةً لَمْ يَثْنِها ثانٍ؛ وهِيَ أنَّهُ لَمْ يَبْرَحْ بَيْتَهُ إلَّا مَرَّةً واحِدَةً هِيَ لَمَّا حَاصَرَ صالِحُ بْنُ مِرْداسٍ، بِتَحْرِيضٍ مِنْ وَزِيْرِهِ تاذْرُسَ، المعَرَّةَ وأَسَرَ سَبْعِينَ مِنْ رِجَالِها في سَنَةِ ٤١٨ ﻫ، فَطَلَبَ إلَيْهِ أهْلُ المعَرَّةِ أنْ يَتَوَسَّطَ لَهُمْ عِنْدَ صَالِحٍ، ويَتَحَدَّثَ إلَيْهِ عَلَى لِسَانِهِمْ، مِنْ أجْلِ اسْتِنْقَاذِ الأَسْرَى والتَّفْرِيجِ عَنِ المدِيْنَةِ[1]. ولَقَدْ كانَتْ شَفاعَتُهُ فِيهِم مَقْبُولَةً عِنْدَ صالِحٍ، وقامَ بِالمهِمَّةِ خَيْرَ قِيامٍ؛ ومَعَ ذَلِكَ نَرَاهُ يَقُولُ بِتَوَاضُعٍ في دِيْوَانِ اللُّزُومِ[2]:

مَا كانَ لِي فِيْها جَناحُ بَعُوْضَةٍ ... اللهُ ألْبَسَهُمْ جَنَاحَ تَفَضُّلِ

أيْ أنَا لَمْ أصْنَعْ فِيهِمْ مَعْرُوفاً ولَوْ بِمِثْقالِ جَناحِ بَعُوْضَةٍ، بَلْ هُوَ اللهُ الذِي تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ فَبَسَطَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ رَحْمَتِهِ.

فَذَلِكَ كانَ أوَّلَ خُرُوْجٍ لَهُ مِنْ دَارِهِ مُنْذُ رُجُوعِهِ مِنْ بَغْدادَ، وآخِرَ خُرُوجٍ مِنْها. وقَدْ ظَلَّتْ حَيَاتُهُ بِالمعَرَّةِ طِيلَةَ الوَاحِدِ والعِشْرِينَ عاماً التي تَلَتَ، هادِئَةً خامِلَةً خَلِيَّةً مِنْ أيَّةِ أحْداثٍ

---

١ انْظُرْ تَعْرِيْف القُدَماءِ، ص٠ ٤١٤؛ وكانَ المعَرِّيُّ قَدْ قالَ لِصالِحٍ: (الأميرُ، أعْلَى اللهُ مَقامَهُ، مِثْلُ يَوْمٍ بَهِيٍّ، حارٌّ وَسَطُهُ، بارِدٌ طَرَفاهُ، وكالسَّيْفِ الماضِي أمْلَسُ وَسَطُهُ خَشِنةٌ شَفْرَتاهُ، خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلِيْنَ) انظُرْ تعريف القدماء، ص٥٦٦.

٢ ديوان اللزوم، ج ٢، ص ٢٣٤.

تُذْكَرُ. وقَدْ كانَ الحُكَّامُ في بَعْضِ الأحْيانِ يُهَدِّدُونَهُ بِالطَّرْدِ والتَّغْرِيبِ عَنْ مَوْطِنِهِ بِسَبَبِ ما كانَ يُصْدِرُهُ مِنْ أقْوالٍ يُحَرِّضُ بِها عَلَيْهِمْ؛ غَيْرَ أنَّ هذِهِ التَّهْدِيدَاتِ ما كانَتْ تَنالُ مِنْ وَداعَتِهِ أو تُبَدِّدُ طُمَأْنِينَتَهُ.

وقَدْ تَعاقَبَ عَلَى حَلَبٍ حُكَّامٌ عَدِيدُونَ، وكانَتْ تَقَلُّباتُ الأَقْدارِ والحُظُوظِ تُقَرِّرُ مَصَائِرَ المَمالِكِ وأقْدارَها في الشَّرْقِ والغَرْبِ جَمِيْعاً، عَلَى حِيْنِ كانَ صاحِبُنا شَيْخُ المَعَرَّةِ مُنْتَبِذاً في سِجْنِهِ الذي دَخَلَهُ طَوْعاً واخْتِياراً مُقِيماً ثَمَّ وهُوَ يُقاوِمُ كُلَّ إغْراءٍ لِيَتْرُكَ رُكْنَ عُزْلَتِهِ[1] ويواصِلُ صِيَامَ دَهْرِهِ إلَّا يَوْمَ الفِطْرِ ويَوْمَ الأضْحَى، ويُحافِظُ بِصَرامَةٍ عَلَى مَذْهَبِهِ النَّباتِيِّ. وكانَ يُحاضِرُ تَلامِيْذَهُ في عُلُومِ اللُّغَةِ وغابِرِ الأزْمانِ، أهْلِها وآثارِها، وفي النَّحْوِ؛ وقَدْ واصَلَ حَيَاتَهُ نَشاطاً وعَطَاءً حَتَّى آخِرِ يَوْمٍ لَهُ فِيها.

ومِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أنَّهُ كانَ لَهُ تَلامِيذُ ومُرِيدُونَ أوْفِيَاءُ ومُخْلِصُونَ مِنْ بَيْتٍ يُعْرَفُ بِبَنِي هاشِمٍ كانُوا يَسْتَنْسِخُونَ تَطَوُّعاً مِنهُمْ ما كانَ يُمْلِيهِ عَلَيْهِم دُونَ أنْ يَسأَلُوهُ عَلَى ذَلِكَ أجْراً، وأكْثَرُ ما كانَ يُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْرِباءُ الشَّاعِرِ[2].

وقَدِ اخْتَلَفُوا فِيما إذا كانَ أبو العلاءِ مُثْرِياً في أُخْرَياتِ حَيَاتِهِ. فَقَدْ ذَهَبَ الذَّهَبِيُّ إلى أنَّ دَخْلَهُ السَّنَوِيَّ كانَ ثَلاثِيْنَ دِيْناراً (وتَعْدِلُ خَمْسَةَ عَشَر جُنَيْهاً اسْتَرْلِينِيّاً) كانَ يَتَقاضَاهُ مِنْ مَالٍ تَرَكَهُ لَهُ أبُوهُ، إذْ كانَ قَدْ اسْتَوْدَعَهُ لَهُ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ[3]. ورَأْيُ الذَّهَبِيِّ هذا

---

١ حاوَلَ الحاكِمُ، الملِكُ الفاطِمِيُّ، إقْناعَهُ لِيَتْرُكَ مَوْطِنَهُ. كما أنَّ أبا العلاء نَفْسَهُ يُحَدِّثُنا في لُزُومِهِ أنَّه ظَلَّ يَحِنُّ إلى بَغْدادَ دَهْراً طَوِيْلاً بَعْدَ أنْ تَرَكَها؛ فَيَقُوْلُ مَثَلاً:

يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى أنِّي رَجَعْتُ إلى ... هَذِي البِلادِ ولَمْ أهْلِكْ بِبَغْدَاذا

إذا رأيْتُ أُموراً لا تُوافِقُني ... قُلْتُ الإيَابُ إلى الأوْطانِ أدَّى ذا

انظُرْ اللزوم، ج ١، ص ٣٠٣.

٢ تعريف القدماء، ص ١٩٠.

٣ نفسه.

يَتَّسِقُ جِدّاً مَعَ وَصْفِ الشَّاعِرِ المتَكَرِّرِ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ فَقِيرٌ. فَفِي إِحْدَى قَصَائِدِ سَقْطِ الزَّنْدِ خَاطَبَ مَنْ أَسْمَاهُ ابْنَ نَصْرٍ المالِكِيَّ، واعْتَذَرَ لَهُ عَنْ إِرْسالِهِ لَهُ هَدِيَّةً مِنْ ثَلاثِينَ دِرْهَماً (تَعْدِلُ عَلَى التَّقْرِيْبِ خَمْسَةَ عَشَرَ شِلِناً) ودَعَاهُ إلى قَبُولِها مِنهُ حتى لَوْ أَنْفَقَها في شِرَاءِ ماءٍ بِكَفْرِطابَ، وهِيَ مَوْضِعٌ بِالشَّامِ مَعْرُوفٌ بِشُحِّ الماءِ فِيه، كانَ الفَقِيهُ ابْنُ نَصْرٍ مُتَوَجِّهاً إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ المعَرّيُّ تِلْكَ الدَّرَاهِمَ الثَّلاثِينَ، وقَدْ شَفَعَها بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ[1]:

أَيَبْسُطُ عُذْرِي مُنْعِمٌ أَمْ يَخُصُّنِي ... بِمَا هو حَظِّي مِنْ أَلِيمِ عِتَابِ
قَبُولُ الهَدَايا سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ... إذا هِيَ لَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَ تَحَابِ
فَيالَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً ... مَضَتْ لِيَ فِيها صِحَّتِي وشَبَابِي
وقَلَّتْ لَهُ فاتْرُكْ ثَلاثِينَ أَسْوَداً ... مَتَى ما تُكَشَّفْ تُلْفَ غَيْرَ لُبَابِ
إذا أَسْكَتَ المحْتَجُّ كُلَّ مُنَاظِرٍ ... فَعِنْدَ ابْنِ نَصْرٍ نَجْدَةٌ بِجَوَابِ
وما أنا إِلَّا قَطْرَةٌ مِنْ سَحَابِهِ ... ولَوْ أَنَّنِي صَنَّفْتُ أَلْفَ كِتابِ
وبَيْنَ يَدَيْهِ كَفْرُطابِ وإِنْسُها ... يَعِيشُ لِفَقْدِ الماءِ عَيْشَ ضِبابِ
لَعَلَّ الذي أَنْفَذْتُ يَكْفِيهِ لَيْلَةً ... لِإِسْباغِ طُهْرٍ حَانَ أَوْ لِشَرَابِ

ومُفَادُ هَذا الشِّعْرِ أَنَّهُ لَوْ كانَ أبو العلاء مُوْسِراً لَكانَ أَرْسَلَ إلى ابْنِ نَصْرٍ هَدِيَّةً أَنْفَسَ وأَعْلَى قِيْمَةً[2]. عَلَى أَنَّ الرَّحَّالَةَ الفارِسيَّ، نَصْرِيَّ خُسْرُو الذي زَارَ المعَرَّةَ في حَياةِ الشَّاعِرِ، يَتَحَدَّثُ عَنْهُ عَلَى أَنَّهُ رَجُلُ يُسْرٍ وثَرَاءٍ[3]. ولَكِنَّا عَلَيْنا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ نَصْرِيَّ خُسْرُو لَمْ يَرَ الشَّاعِرَ، وإِنَّما بَنَى قَوْلَهُ هذا عَلَى السَّمَاعِ؛ ولعلَّهُ أَسَاءَ فَهْمَ ما كانَ لِشاعِرِنا مِنْ أَثَرٍ عَلَى تَلامِيذِهِ وأَقَارِبِهِ، فَظَنَّ أَنَّ ما كانَ يَحْظَى بِهِ عِنْدَهُمْ مِنَ الإِجْلالِ

---

[1] لَمْ يُورِدْها المؤَلِّفُ في الأَصْلِ، فأَوْرَدْناها نَحْنُ لِيَتَّضِحَ مِنْها كلامُهُ في هذا الصَّدَدِ، وانظُرْها بَعْدُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، ج٢، ص١٣٩ (التَّرْجُمان).

[2] إِلاَّ إذا صَحَّ ما اتُّهِمَ بِهِ أَهْلُ المعَرَّةِ جَمِيْعاً بِأَنَّهُمْ كانَ فِيهِم بُخْلٌ وحِرْصٌ. انظُرْ تعريف القدماء، ص ١٩٢.

[3] نفسه، ص ٤٦٢.

والتَّعْظِيمِ إنَّما كانَ لِثَرَاءٍ عِندَهُ وتأْثِيرٍ دُنْيوِيٍّ[1]. وعَلَيْنا أنْ نَتذَكَّرَ، كَذَلِكَ، أنَّ بَيْتَ أبي العلاء كانَ يَتَمَتَّعُ بِمكانٍ رَفِيعٍ فِي الناسِ ومَنْزِلَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَرْمُوقَةٍ، وأنَّ أبا العلاءِ صارَ فِي أَوَاخِرِ سِنِيِّهِ عَمِيدَ هذا البَيْتِ ورَأْسَ هَؤُلاءِ الرَّهْطِ، بِحُكْمِ سِنِّهِ وعِلْمِهِ وشُهْرَتِهِ. فَمَعَ أنَّهُ كانَ فَقِيراً إلَّا أنَّهُ، عَلَى عادَةِ الشَّرْقِ المسْلِمِ، لابُدَّ لِأَهْلِ بَيْتِهِ أنْ يَسْتَشْعِرُوا مَسْئُوْلِيَّتَهُمْ نَحْوَ كَفَالَةِ التَّلامِيْذِ المعْوِزِيْنَ وأنْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ إكْرَامِ الأضْيَافِ والزُّوَّارِ وأنْ يُنْفِقُوا عَلَى حَلْقَةِ شَيْخِهِمْ عَلَى نَحْوٍ لا يَقِلُّ عَمَّا كانَ مَعْهُوداً فِي الإنْفَاقِ عَلَى دُورِ العِلْمِ ومَرَاكِزِ التَّعَلُّمِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ. ولَعَلَّهُمْ كانُوا يَقُومُونَ بَكُلِّ هذِهِ المؤُوْنَةِ والإنْفاقِ بِاسْمِ أبِي العلاء حَتَّى دُونَ إشْعَارِهِ بِذلِكَ[2]؛ هَذا كُلُّهُ فَضْلاً عَنِ الهَدَايا والعَطَايا التي كانَتْ تَأْتِيهِ مِنْ أَثْرِيَاءِ الناسِ ومِنْ تلامِيذِهِ ومُرِيدِيْهِ، التي كانَ يَتَلَقَّاها أهْلُ الشاعِرِ لِلْقِيامِ عَلَى حَلْقَتِهِ وتَعَهُّدِها بِالرِّعايةِ والإنْفَاقِ.

---

١ يَقُوْلُ المعَرِّيُّ فِي مُقَدِّمَةِ ضَوْءُ السَّقْطِ: أنا شَيْخٌ كَبِيْرٌ تُنْسَجُ حَوْلِي الأكاذِيْبُ .. إلخ، انظُرْ شُرُوحَ سَقْطِ الزَّنْدِ، القاهرة، ١٩٤، مجلَّد ١ ص٥.

٢ أوج التحرّي، ص١٢. ويَزْعُمُ البَدِيعيُّ أنَّ أبا العلاء كانَ يَكْفُلُ بَعْضَ تلامِيذِهِ الفُقَراء. وانظُرْ كَذَلِكَ (تَعْرِيْف القُدَماء)، ص ٥٧٥.

٥- وَفاتُهُ:

عَاشَ أبو العلاء سِتَّةً وثَمَانِينَ عاماً، غَيْرَ أنَّهُ كانَ في أَوَاخِرِ سَنَواتِ عُمُرِهِ قَدْ أَقْعَدَهُ الرُّوماتِيزِمُ والشَّيْخُوخَةُ. وقَدْ تُوُفِّيَ إثْرَ نَوْبَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ حُمَّى أوْرَثَتْهُ هَذَياناً، وذَلِكَ في سَنَةِ ٤٤٩هـ (أيْ ١٠٥٤م)، ودُفِنَ بِالمعَرَّةِ حَيْثُ لا تَزَالُ بَقَايا قَبْرِهِ ظاهِرَةً.

ولَقَدْ بَكاهُ عَدَدٌ جَمٌّ مِنْ تَلامِيذِهِ وأصْدِقائِهِ وأقْرِبائِهِ. وقامَ عَلَى قَبْرِهِ أكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ شاعِراً يَتْلُونَ عَلَيْهِ مَرَاثِيَهُم فِيهِ.

وقَدْ قُرِئَ القرءانُ أكْثَرَ مِنْ مِئَتَيْ مَرَّةٍ ووُهِبَ ثَوَابُ القِرَاءَةِ إلى رُوْحِهِ الرَّاحِلَةِ. وقَدْ نُقِشَ عَلَى شاهِدِ قَبْرِهِ، بأمْرٍ مِنْهُ، هذا البَيْتُ[1]:

هذا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ   وما جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

[1] الوفيات، ج ١، ص ٤٢.

الفَصْلُ الثاني

عِلْمُهُ ومُؤَلَّفاتُهُ

الفصل الثاني

عِلْمُهُ ومُؤَلَّفاتُهُ

القسم (أ)

عِلْمُهُ

كانَ العِلْمُ عَلَى زَمانِ أبي العَلاءِ يَعْنِي أنْ يُتْقِنَ المرْءُ دَرْسَ مَسائِلِ الفِقْهِ، وعِلْمَ الحَدِيْثِ والتَّفْسِيرَ، وأنْ يَكُونَ ضَلِيعاً في عُلُومِ اللُّغَةِ والبَيَانِ، ثُمَّ أنْ يَلْقَى عَدَداً مِنَ العُلَماءِ ويَحْصُلَ مِنهُمْ عَلَى إجَازَةٍ لَهُ وَاعْتِرافٍ بِهِ. وعادَةً ما كانَ ذَلِكَ يِسْتَلْزِمُ مِنَ التَّرْحالِ والتَّسْفارِ شَيْئاً كَثِيراً. وعَلَى نَحْوِ ما رَأَيْنا آنِفاً فَقَدْ تَجَشَّمَ شاعِرُنا عَناءَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ طَلَباً لِلْعِلْمِ؛ ولَكِنَّ مَنْ دَرَسَ عَلَيْهِمْ وأَخَذَ عَنْهُمْ مِنَ العُلَماءِ كانُوا قِلَّةً في عَدَدِهِمْ بِالنَّظَرِ إلى ما كانَ مَعْرُوفاً عَصْرَئذٍ. ومَعَ هذا فقد كان ماهِراً حاذِقاً مُنَجِّذاً مُكْتَمِلَ الأَدَوَاتِ في أغْلَبِ فُرُوعِ المعْرِفَةِ التي كانَ يَتَلقَّاها مُعاصِرُوهُ ويَتَعاطَوْنَها؛ ولِهَذَا السَّبَبِ كانَ عُلَماءُ بَغْدادَ يَرَوْنَ فِيهِ نِدّاً لَهُم ومُنافِساً.

وكانَ أبو العلاء النَّحْوِيَّ[1] يَخْتَلِفُ عَنْ مُنَافِسِيهِ مِنْ مُعاصِرِيهِ في أنَّهُ كانَ يُبْغِضُ ما كانوا عَلَيْهِ مِنْ تَحَيُّزٍ نَظَرِيٍّ مَذهَبِيٍّ أَشَدَّ البُغْضِ. فَالنَّحْوُ كانَ قَدْ تَأَثَّرَ تأثُّراً شَدِيداً بِعِلْمِ الكَلامِ

---

[1] (النَّحْوِيَّ) هنا مَنْصُوبَةٌ بِفِعلٍ مُضْمَرٍ تَقدِيرُهُ أعْنِي أو أخصُّ، منصوبٌ على الاختصاصِ، أو عَلَى مَذْهَبِ مَنْ نَصَبَ عَلَى المدْحِ أو الذَّمِّ، أو التمييز، أيْ أَعْنِي الشَّخصَ النَّحْوِيَّ مِنهُ لا الشَّاعِرَ ولا المفَكِّرَ. ولَعلَّهُ مِنْ هذا البابِ جاءَتِ الآيةُ الكريمةُ: (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيْماً). النِّساء، ١٦٢، فَقَالَ والمقِيْمِيْنَ، بِالنَّصْبِ عَلَى المدْحِ، مَعَ أَنَّها مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَرْفُوعٍ وهُوَ (الرَّاسِخُونَ في العِلْمِ)؛ ومِنهُ قَوْلُهُ تَعالَى كَذَلِكَ: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) عَلَى رِوَايةِ النَّصْبِ فِي (حَمَّالَة) لِأنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الذَّمِّ، أيْ اذْكُرْها حَمَّالَةَ الحَطَبِ. ومَنْ رَوَى الرَّفْعَ فَخَبَرٌ لِلْمُبْتَدَإِ (امْرَأَتُهُ). ومِنْ ذلِكَ أيْضاً، جاءَ عِنْدَ سِيْبَوَيْهِ أنَّ العَرَبَ تَقُوْلُ: (جاءَ زَيْدٌ الخَبِيْثَ) نَصَبُوْهُ على الذَّمِّ، أيْ اذْكُرْهُ بِهذا الوَصْفِ. (التُّرْجُمان)

واتَّخَذَ لَهُ كِتاباتٍ وأَساليبَ دِرَاسِيَّةً وتَعْليمِيَّةً خاصَّةً بِهِ جَعَلَتْ مِنهُ إحْدَى أعْسَرِ دِرَاساتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وأعْوَصِها. وقَدْ كانَتْ الزَّعَامةُ في النَّحْوِ قد تَحَوَّلَتْ مِنَ البَصْرَةِ والكُوفَةِ إلى بَغْدَادَ، واتَّخَذَتْ المناظَراتُ والمجادَلاتُ الشَّدِيدةُ التي خَلَّفَتْها المدَارِسُ السابِقَةُ شَكْلاً أشَدَّ حِدَّةً وأكْثَرَ نَظَرِيَّةً وتَجْرِيداً. وكانَ عَلِيُّ بْنُ عِيْسَى الرُّمَّانيُّ وأبو عَلِيٍّ الفارِسِيُّ إمَامَيْ النُّحاةِ التَّقْليدِيِّيْنَ قَبلَ زَمَانِ نُهُوضِ أبي العلاءِ بِرِحْلَتِهِ إلى بَغْدادَ. وقَدْ كَتَبَ الرُّمَّانِيُّ كِتاباً اعْتَمَدَ فِيهِ أُسْلُوباً بَلَغَ مِنَ التَّنْظِيرِ والتَّجْرِيدِ ما جَعَلَ أبا عَلِيٍّ الفارِسِيَّ نَفْسَهُ يَعْجِزُ عَنْ فَهْمِهِ، فَعَلَّقَ عَلَيْهِ، قائِلاً: (إذا كانَ ما يَكْتُبُهُ الرُّمَّانِيُّ نَحْواً إذِنْ فَقَدْ فاتَنا مِنهُ جَمِيْعُهُ، وإذا كانَ ما نُدرِّسُهُ نَحْنُ النَّحْوَ، إذِنْ فَمَا عَلِمَ هُوَ مِنهُ شَيْئاً)[1]. وقَدْ كانَ أبو العلاء يُدْرِكُ أنَّ النُّحاةَ إنَّما كانُوا يَنْسِجُونَ بُيُوتَ العَنْكَبُوتِ مِنْ لَا شَيْءٍ. وقَدْ سَخِرَ مِنهُمْ فِي رِسالَةِ غُفْرانِهِ بِأَنْ جَعَلَ بَطَلَ قِصَّتِهِ يَفْقِدُ ما يُوجِبُ لَهُ دُخُولَ الجَنَّةِ، بَعَدَ أَنْ شَهِدَ مُناظَرَةً مُسْتَحِرَّةً بَيْنَ أبي عَلِيٍّ الفارِسِيِّ وبَيْنَ بَعْضَ الشُّعَراءِ القُدَامَى كانَ الفارِسِيُّ قَدْ أساءَ تَأْوِيلَ شِعْرٍ لَهُ لِيَتَّسِقَ مَعَ مَذْهَبِهِ النَّحْوِيِّ[2]. ويَقولُ أبو العلاء في كتابِهِ (الهَمْزَةُ والرِّدْفُ)، وهو أحَدُ كُتُبِ شاعِرِنا التي لَمْ تَصِلْ إلَيْنا لِضَياعِها، وإنْ يَكُنْ كِتابُ أَوْج التَّحَرِّي قَدْ احْتَوَى شَيْئاً قَلِيلاً مِمَّا كانَ جاءَ فِيهِ: (يا نَحْوُ يا نَحْوُ! حُقَّ لِمَا كُتِبَ مِنْكَ المحْوُ. ما جَرٌّ بالإضَافَةِ ونَصْبٌ عَلَى الإغْرَاءِ؟)[3].

[1] إرشاد الأريب، ج٥، ص ٢٨١.

[2] رسالة الغفران، ص ٥٧.

[3] أوج التحري، ص ١١

وممَّا يُؤْسَفُ لَهُ أنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَنا مِنْ كُتُبِ أبي العلاء في النَّحْوِ شَيْءٌ، وأغْلَبُها إنَّما كان حَوَاشٍ وتَعْلِيْقاتٍ وشُرُوحاً أثْبَتَها عَلَى كُتُبٍ كان يُدَرِّسُها، ولَكِنَّ اثْنَيْنِ مِنْها هُمَا (الطَّلُّ الطَّاهِرِيُّ) و(الحَقِيرُ النَّافِعُ) كانَتْ مِنْ تأليفِهِ هو[1].

وقَدْ كانَ شَرَعَ في كِتابَةِ شَرْحٍ لِكتابِ سِيْبَوَيْهِ ثُمَّ أمْسَكَ عَنْ ذَلِكَ وأعْرَضَ عَنْهُ قَبْلَ أنْ يُكْمِلَهُ رُبَّما، عَلَى الأرْجَحِ، لِأنَّهُ لَمْ يَسْتَحْسِنْ أُسْلُوبَ سِيْبَوَيْهِ أوْ كانَ قدْ أنْكَرَهُ.[2] ولعلَّهُ مِنَ العَسِيرِ عَلَيْنا أنْ نذهَبَ في التَّقْدِيرِ والحُكْمِ في مِقْدارِ ما كانَ عَلَيْهِ أبو العلاءِ مِنَ الحقِّ والصَّوَابِ في نَقْدِهِ لِلنَّحْوِ وما إذا كانَ هذا النَّقْدُ مِنهُ بَنَّاءً قَوِيماً أمْ لا. ولَكِنَّهُ يُمْكِنُنا القَوْلُ بِثَباتٍ وتَوْكِيدٍ أنَّ صَوْتَهُ بَيْنَ جَماعةِ النُّحاةِ ما كانَ بِالمسْمُوعِ، فَقَدْ كانَ صَرْخةً في وَادٍ، وهو ذاتُ ما انْتَهَى إلَيْهِ صَوْتُ ابْنِ خَلْدُونَ[3] الذي جاءَ بَعْدَ أرْبَعَةِ قُرونٍ مِنْ زَمانِ أبي العلاءِ. ونَرَاهُ يَنْصَحُ تَلامِيذَهُ بِقَوْلِهِ: (احْفَظُوا نَوَادِرَ أبي زَيْدٍ، واقْرَأُوا كُتُبَ أبي عَمْرٍو ولا تُكلِّفُوا أنْفُسَكم عَنَاءَ الحَدِيْثِ عَنْ أبي عُمَرَ[4]).

وقَدْ كانَ كُلٌّ مِنْ أبي زَيْدٍ الأنْصَارِيِّ وأبي عَمْرٍو الشَّيْبانِيِّ مِنْ النُّحاةِ الذين اعْتَمَدُوا مَنْهجَ السَّماعِ في اللغةِ والْتَزَمُوا بِهِ التِزاماً صَارِماً، فَكَانا يَأْخُذَانِ اللُّغَةَ ويُدَوِّنانِها بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ عَلَى نَحْوِ مَا يَسْمَعَانِها تُسْتَخْدَمُ في أَصَحِّ مَصادِرِها، وكانا مَتَى وَجَدا العِبارةَ أسْقَطَا القِياسَ ولَمْ يَلْتَفِتا إليْهِ. وأمَّا أبو عُمَرَ المطَرِّزُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ دِقَّةُ أيٍّ مِنْ هَذَيْنِ ولا الْتِزَامُه؛

---

[1] تعريفُ القُدَماء بآثار أبي العلاء، ص ٥٣٨ – ٨٣٩.

[2] تعريف القدماء، ص ٥٤٠، وانظرْ، كذلك، رسالةَ الغُفْرَان، ص ٢٦ و٣٥.

[3] انظرْ مُقدِّمَةَ ابْنِ خَلْدون، ص ٤٨١ و٤٧٣.

[4] اللزوم، ج ١، ص ٣٨٥.

فَقَدْ كانَ جَمَعَ عَدَداً ضَخْماً مِنَ الكَلِمَاتِ والعِبَاراتِ رَآها أَغْلَبُ عُلَماءِ اللُّغَةِ زَيْفاً وانْتِحالاً أَمْلاهُما التَّدْلِيْسُ[1].

وقَدْ كانَ أبو العلاءِ يُؤْثِرُ دَرْسَ القَوَاعدِ البَسِيطَةِ عَلَى كَلامِ البَصْرِيِّينَ والكُوفِيِّينَ والبَغْداديِّينَ وتَنْظِيرِهِمْ ذِي التَّعْقِيدِ والعُسْرِ، وكانَ يُفَضِّلُ تَدْرِيسَ الكُتُبِ السَّهْلَةِ كَكِتابِ المخْتَصَرِ لِابْنِ سَعْدَانَ و(الجُمَلِ) لِلزَّجَّاجِي[2]. ويَظْهَرُ أنَّ كِتابَهُ (الحَقِيرُ النافِعُ) مِنْ عُنْوَانِهِ الذي يَعْنِي الوَضِيعَ المفِيدَ، إنَّما كانَ كِتابَ تَدرِيْسٍ مُخْتَصَرٍ.

ولَمْ يكُنْ أبو العلاءِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ والشِّعْرِ القَدِيْمِ في مَعْرِضِ قَضِيَّةِ الاسْتِشْهَادِ اللُّغَوِيِّ؛ إذْ كانَ يَسْتَشْهِدُ بِالحَدِيْثِ بِذَاتِ القَدْرِ الذي يَستَشْهِدُ بِهِ مِنَ الشِّعْرِ القَدِيْمِ عَلَى صِحَّةِ آرَائِهِ اللُّغَوِيَّةِ، كَالكَلِمتَيْنِ، مَثَلاً :

التَّحَوُّبُ؛ بِمَعْنَى المعَاناةُ والمكابَدَةُ يَكونُ مَعَها غالِباً بَثٌّ وحُزْنٌ. وجاءَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ (اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي وارْحَمْ حَوْبَتِي)[3].

وكَلِمَةِ **احْتَرَسَ**؛ بِمَعْنَى سَرَقَ، وجاءَتْ في الحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ: (لا قَطْعَ في حَرِيْسَةِ[4] الجَبَلِ) أيْ لا يُدْرَأُ حَدُّ السَّرِقَةِ بِقَطْعِ اليَدِ في ما يُسْرَقُ مِنْ أعْلَى الجَبَلِ[1].

---

[1] كانَ المطَرِّزُ (٢٦١-٣٤٥هـ) مُتَّهَما بِالتَّدْلِيْسِ. إذْ يَرْوِي ابْنُ خَلِّكانَ أنَّ بَعْضَ تَلامِيْذِهِ كانوا قَدِ اصْطَنَعُوا كَلِمَةً عَنْ طَرِيْقِ النَّحْتِ ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنها فَحَدَّثَهُمْ عَنها كَما لَوْ كانَتْ كَلِمَةً عَرَبِيَّةً صَحِيْحَةً، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنها بَعْدَ عامٍ فَأَجابَهُمْ ذاتَ الجَوَابِ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ أبو عُمَرَ ثِقَةً وَثَّقَهُ عُلَماءُ الحَدِيثِ واحْتَجُّوا لَهُ بِأَنَّ عُلَماءَ اللُّغَةِ كانُوا يَغَارُونَ مِنهُ فَكَانُوا لِذَلِكَ يُثِيرُونَ حَوْلَهُ الشُّكُوكَ والشُّبُهاتِ، انْظُرِ الوَفَيَات مُجَلَّد ١ ص ٦٣٢-٦٣٤

[2] المهرجانُ الألْفِيُّ، ص ٣٧٠.

[3] الفُصُولُ، ص ٤١١. ويَرَى بروفسير قِيُوم أنَّ كَلِمَةَ (حَوْبة) رُبَّما جاءَتْ مِنَ الكَلِمَةِ الآرَامِيَّةِ (هوفا) وتَعْنِي الإثْمَ.

[4] حَرِيسَة مَعْناها مَحْرُوسة، فَالصِّيغَةُ العَرَبِيَّةُ (فَعِيْلٌ) تأْتِي بِمَعْنَى المفْعوليَّةِ كَحَرِيسَة هذِهِ وبَنِيَّةٍ بِمَعْنَى مَبْنِيَّةٍ، وكَحَلِيبٍ بِمَعْنَى مَحْلُوبٍ وجَرِيحٍ بِمَعْنَى مَجْرُوحٍ؛ وتَأْتِي أيْضاً بِمَعْنَى الفاعِلية كَشَهِيدٍ بِمَعْنَى شاهِدٍ وسَمِيعٍ بِمَعْنَى سامِعٍ. (التُّرْجُمان)

وأبو العلاء، هُنا، يُشبِهُ مَدْرَسَةَ النُّحاةِ التي تَرَأَّسَها فِيما بَعْدُ ابْنُ مالِكٍ الذي جَزَمَ بِأَنَّ الحَدِيْثَ النَّبَوِيَّ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ في جَمْعِ اللُّغَةِ وكِتابَةِ المعاجِمِ العَرَبِيَّةِ. وخِلافاتُهُمْ في هذا الشَّأنِ جَدِيرَةٌ بالاهْتِمامِ وذَاتُ إمْتاعٍ[2]. وكانَ النُّحاةُ الأَوائِلُ قَدْ رَفَضُوا الاحْتِجاجَ بالحدِيثِ النَّبَوِيِّ اسْتِشْهاداً بِهِ في آرائِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ، كأَنَّهُمْ كانُوا يَرَوْنَ أَغْلَبَ الأَحَادِيثِ مَوْضُوعاً مُدَلَّساً. ويَرَى ابْنُ الضَّائِعِ أَنَّ رَفْضَ سِيْبَوَيْهِ لِحُجِّيَّةِ الحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ في الاسْتِشْهادِ اللُّغَوِيِّ إنَّما كانَ بِسَبَبِ ما كانَ جَارِياً بَيْنَ المحَدِّثِينَ مِنْ رِوَايَةِ الحَدِيثِ بِالمعْنَى[3]. واحْتَج ابنُ مالِكٍ وجَماعَتُهُ بأَنَّ المحَدِّثِينَ الموَثَّقِينَ أَمْثَالَ البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ إنَّما كانُوا مُحَقِّقِينَ مُدَقِّقِينَ بِما عُرِفُوا بِهِ مِنَ الوَرَعِ فَحَرَصُوا عَلَى أَنْ يَرْوُوا الحَدِيْثَ بِلُغَتِهِ الأَصْلِيَّةِ التي جَاءَ بِهَا. وذَهَبَ الرَّضِيُّ إلى أبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ، إذْ عَدَّ كُلَّ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ونَسْلَهُمْ حُجَجاً مُعْتَمَدِيْنَ مُوَثَّقِينَ، ولِكلامِهِمْ وأَلْفاظِهِمْ في الاسْتِشْهادِ اللُّغَوِيِّ ما لِلْشِّعْرِ القَدِيمِ مِنَ الصِّحَةِ والحُجِّيَّةِ[4].

وقَدْ أثَارَ بَيْتُ أبي العلاءِ في سَقْطِ الزَّنْدِ[5]:

يُـذِيبُ الرُّعْـبُ مِنـهُ كُـلَّ عَضْـبٍ   فَلَـوْلا الغِمْـدُ يُمْسِـكُهُ لَسَـالاَ

كَثِيراً مِنَ النَّحْوِيِّيْنَ فاخْتَصَمُوا فِيهِ وكانَ ذَلِكَ، فِيْمَا يَبْدُو، إبَّانَ حَيَاةِ أبي العلاءِ. فَقَدْ رَأَى أغْلَبُهُم أَنَّ مَجِيْءَ الجُمْلَةِ التَّابِعَةِ (يُمْسِكُهُ) بَعْدَ (لَوْلا) حَشْوٌ وخَطأٌ[6]. ولَكِنَّ بَعْضَهُم

---

[1] الفُصُول، ص ٤١١؛ أيْ أنَّ الشيءَ إذا وُضِعَ في أعْلَى الجَبَلِ كانَ بارِزاً لَافِتاً لِلانْتِباهِ وجاذِباً للأنْظارِ مُطْمِعاً في أخْذِهِ ومُغْرِياً بِسَرِقَتِهِ، فَلِذَا لا يُعاقَبُ سارِقُهُ.

[2] انظُرْ خِزانَةَ الأَدَبِ لِلْبَغْدادِيِّ، القاهرة، ١٣٤٨هـ، المجلَّد الأوَّل، الصَّفْحات من ٢٣ — ٢٥.

[3] نفسه، ص ٢٣.

[4] نَفْسُهُ

[5] سقط الزند، ج ١، ص ٢٨.

[6] انظُرْ شَرْحَ ابْنِ عَقِيْلٍ بتحقيقِ محمد سعيد الرافِعِيِّ، القاهرة ١٣٦٧هـ، ص ٩٥.

(ومنهم ابنُ مالِكٍ وبَهاءُ الدِّينِ النَّحّاسُ) رَأى أنَّ تَرْكِيبَ هذا البَيْتِ صَحِيحٌ ومُحْكَمٌ، واحْتَجَّ لِذَلِكَ مُسْتَشْهِداً بِالحَدِيثِ النَّبَوِيِّ[1]. فَأَلّا يُقْدِمَ أبو العلاء عَلَى حَذْفِ هَذا البَيْتِ مِنْ سَقْطِ الزَّنْدِ، وقَدْ رَاجَعَهُ مِراراً في أُخْرَياتِ حَياتِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى اقْتِناعِهِ بِهِ عَلَى هذا التَّرْكِيبِ، وإنْ كانَ ذَلِكَ مِنهُ لا يَدُلُّ عَلَى أنَّه بَنَى رَأْيَهُ اللُّغَوِيَّ هذا اسْتِناداً عَلَى الحَدِيثِ الشريف واسْتِشْهَاداً بِهِ.

وقَدْ كانَ عِلْمُ الصَّرْفُ، وهو أحَدُ فُرُوعِ النَّحْوِ، مِمَّا يَسْتَهْوِي المعَرِّيَّ فَأَحَبَّهُ وكَلِفَ بِهِ أَشَدَّ الكَلَفِ. (ويَبْحَثُ عِلْمُ الصَّرْفِ بُنَى الكَلِماتِ واشْتِقاقَ كَلِمَةٍ مِنْ أُخْرَى والأفْعَالَ المعْتَلَّةَ وصَوْغَ الاسْمِ المثَنَّى والجَمْعَ وصِيَغَهُ والتَّصْغِيرَ، وهَلُمَّ جَرّاً). وقَدْ كانَتْ جُهُودُ النُّحاةِ فِي الصَّرْفِ قاصِرةً ومُتَأَخِّرَةً شَدِيدَةَ القُصُورِ والتَّأَخُّرِ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعرِفُونَ أيّاً مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الأُخْرَى؛ ولِذَلِكَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ التَّوَصُّلِ إلى تَصَوُّرِ نَظَرِيَّةٍ شامِلَةٍ تَسْتَوْعِبُ عِلْمَ الاشْتِقَاقِ. وقد كانَ أبو العلاء مُوْلَعاً بِأَمْثَالِ: جَهَنَّمَ وإسْتَبْرَقٍ وسُنْدُسٍ مِنَ الكَلِمَاتِ، مِمَّا جاءَ فِي القرءان والتي كانَتْ أَلْغَازاً مُعَمَّاةً حارَ إزاءَها المفَسِّرُونَ وأساتِذَةُ الاشْتِقاقِ. فَقَدْ كانَ يُدْرِكُ أَنَّ بَعْضَهُنَّ أصْلُهُ غَيْرُ عَرَبِيٍّ كَجَهَنَّمَ وإِسْتَبْرَقٍ؛ ولَكِنَّهُ كانَ عَلَى خَطأٍ فِيما ذَهَبَ إِلَيْهِ عَنْ كَلِمَةِ (سُنْدُس) إذْ كانَ يَرَى أَنَّها عَلَى وَزْنِ (فُنْعُل) مِنْ (سَدُوس) (وهي ضَرْبٌ مِنَ الحَرِيْرِ، أخْضَرُ) وقد جاءَتْ في إحْدى قَصَائِدِ المفَضَّلِيّات[2]. وأمّا الكَلِمَتَانِ الأُخْرَيانِ اللَّتانِ مَالَ إلى أنَّ أصْلَيْهِما غَيْرُ عَرَبِيَّيْنِ فَقَدْ تَساءَلَ حَوْلَهُما عَلَى نَحْوٍ مِنَ الغَرَابَةِ قائِلاً: (فَكَيْفَ يُمْكِنُ الاشْتِقاقُ مِنهُما، عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ أَنَّهُما عَرَبِيَّتانِ في أصْلَيْهِما؟)، وأَخَذَ في إجابةِ هذا السُّؤَالِ في رِسالَتِهِ الفُكاهِيَّةِ (رِسالَةُ الملائِكَةِ)؛ فَقَدْ رَأَى، مَثَلاً، أنَّ كَلِمَةَ (مُوسَى) رُبَّما كانَتْ مُشْتَقَّةً مِنْ

---

[1] انظُرْ أَلْفِيَّةَ ابْنِ مالِكٍ، ص ٩٤، وكذلكَ تَعْرِيفَ القُدَماءِ، ص ٤٦٩ وما بَعْدَها.

[2] رسالةُ الملائِكَةِ، ص ١٢، وكَذلِكَ المفَضَّلِيّات بِتَحْقِيقِ السَّيْرْ تْشَالِزْ لِيالْ، بَيْروت، ١٩٢٠، ص ٥٩٧.

قَوْلِهِمْ (مَأَسَ بَيْنَ القَوْمِ) أي أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ. و(رِسالَةُ الملائِكَةِ) هذا كِتابٌ نَفِيسٌ لِلْغايَةِ؛ إِذْ يَكْشِفُ عَنِ الطُّرُقِ والأساليبِ التي اسْتَخْدَمَها العَدِيدُ مِنَ النُّحاةِ في مُعالَجَةِ (الدَّخِيل) في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، ويُبَيِّنُ بِوُضُوحٍ مَواطِنَ الضَّعْفِ والهَنَاتِ في كُلِّ النِّظامِ الذي يَقُومُ عَلَيْهِ النَّحْوُ العَرَبِيُّ، وأقامَ عَلَى ذَلِكَ الشَّوَاهِدَ والأدِلَّةَ.

ومَكانُ أبي العلاءِ مِنْ حَيثُ وصفُهُ عالِماً لُغَوِيّاً قد بَلَغَ مَنْزِلَةَ المفَسِّرِينَ والشُّرَّاحِ. فَهَهُنا تَظْهَرُ مَعْرِفَتُهُ بِالأَمْثالِ والحِكاياتِ التي وضَعَتْها العَرَبُ عَلَى أَلْسِنَةِ الحَيْوَاناتِ ومُعْتَقَدَاتِهِمْ في التَّطَيُّرِ والتَّشَاؤُمِ، كَمَا تَظْهَرُ مَقْدِرَتُهُ عَلَى شَرْحِ عَوِيصِ الأَلْفاظِ والتَّعابِيرِ بِجَلاءٍ ووُضُوحٍ. وقَدْ عَالَجَ مَتْنَ (الفُصُول) في شَرْحِهِ الذي صَنَعَهُ لَهُ كَما لَوْ كانَ هذا الكِتابُ لِكاتِبٍ غَيْرِهِ؛ إِذْ يُورِدُ، مَثَلاً، كُلَّ ما تَحْتَمِلُهُ اللَّفْظَةُ مِنْ وُجُوهِ التَّفْسِيرِ والمعْنَى دُونَ أَنْ يُبَيِّنَ لَنا مِنْها عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ المعْنَى الذي أَرَادَهُ لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ في سِيَاقِها هذا[1]؛ وهُو في هذا يُشْبِهُ اثْنَيْنِ مِنْ شُرَّاحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ جَاءَا بَعْدَهُ، وهُما السُّهَيْلِيُّ وأبو ذَرٍّ، وأَكْثَرُ ما أَشْبَهَ الأَخِيْرَ مِنهُما فِي أَنَّهُ لا يُبَسِّطُ الكَلامَ بِكَلامِ غَيْرِهِ أَيْسَرَ مِنهُ، بَلْ يُعَالِجُ اللَّفْظَ أو العِبارَةَ التي تَتَطَلَّبُ شَرْحاً باقْتِضابٍ وحِدَّةٍ. فَيَقُولُ في كَلِمةِ (وَكِبٍ) مَثَلاً (الكَثِيرُ الوَسَخِ)، وفي كِلِمَةِ (عَفْراء): أُنْثَى الأعْفَرِ، ضَرْبٌ مِنَ الظِّبَاءِ وهُوَ الذي تَعْلُو بَيَاضَهُ حُمْرَةٌ)، وهكذا[2]. فَمِثْلُ هذا يَتَرَدَّدُ كَثِيراً فِي شَرْحِهِ لِمَتْنِ الفُصُولِ. وهو يُشْبِهُ السُّهَيْلِيَّ في أَنَّهُ يَسْتَطْرِدُ أَحْياناً لِيَبْحَثَ مَسَائِلَ في النَّحْوِ أَوِ الأَنْسَابِ أَوْ لِيَكْشِفَ جانباً مُهِمّاً وطَرِيْفاً لِكَلِمةٍ أو عِبارةٍ، ولَكِنَّهُ لا يُطِيلُ في ذَلِكَ إِطَالَةَ السُّهَيْلِيِّ قَطُّ؛ ولا يُظْهِرُ ميلاً إلى الكَلامِ عَنْ حَياةِ النَّاسِ وخُصُوصِيَّاتِهِمْ كَمَا يَفْعَلُ الأَخِيْرُ.

ولنَسْتَشِهدْ بِأَمْثِلَةٍ عَلَى ذَلِكَ:

---

[1] انظُرْ (الفُصُول والغايات) الصفحات ٢٣ و٢٤ و١٥٨ و١٦٢ و١٩٢ و١٩٤.

[2] نفسه، ص ١٩٤.

١. **الدُّرِّيُّ** في (كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)، فمَنْ تَرَكَ الهَمْزَ فِيهِ احْتَمَلَ وَجْهَيْنِ: أحَدُهما أنْ يكونَ مَنْسُوباً إلى الدُّرِّ لِضِيَائِهِ وحُسْنِهِ؛ والآخَرُ أنْ تَكُونَ الهَمْزَةُ مُخَفَّفَةً في دُرِّيءٍ. والدُّرِّيءُ مَأْخُوذٌ مِنَ الدَّرْءِ وهُوَ الدَّفْعُ ؛ أرَادُوا أنَّهُ يُرْجَمُ بِهِ الشَّيْطانُ؛ و(فُعِّيلٌ) بِناءٌ قَلِيلٌ؛ إنَّما جاءَ فِيهِ حَرْفانِ: الدُّرِّيءُ فِيْمَنْ هَمَزَ، والمُرِّيقُ، فارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وهُوَ العُصْفُرُ. ومَنْ قالَ دِرِّيءٌ فَكَسَرَ وهَمَزَ فَهُوَ أَقْيَسُ[1].

٢. **حَلْفاءُ**، نَباتٌ مَعْرُوفٌ، واحِدُها حَلِفَةٌ وحَلَفَةٌ ؛ وقالَ قومٌ : يُقالُ في الوَاحِدَةِ حَلْفَاءُ؛ والأوَّلُ أصَحُّ. والمِحْلِفَانِ: حَضَارِ والوَزْنُ (زُحَلُ والمِيزَانُ) ؛ قِيلَ لَهُما المِحْلِفَانِ لِأَنَّ النَّاسَ يَحْلِفُونَ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنهُما سُهَيْلٌ؛ وكُلُّ ما أحْوَجَكَ إلى الحَلِفِ فهُوَ مُحْلِفٌ؛ قالَ الكَلْحَبَةُ العُرَنِيُّ[2]، مِنْ بَني عُرَيْنِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبوعِ بْنِ حَنْظَلَةَ:

تُسائِلُني بَنُو جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ   أغَـرَّاءُ العَرَادَةُ أمْ بَهِيْمُ
كُمَيْتٌ غَيْرُ مُحْلِفَةٍ ولكِنْ   كَلَوْنِ الصِّرْفِ عُلَّ بِهِ الأدِيْمُ

والصِّرْفُ صِبْغٌ أَحْمَرُ[3].

وأغْلَبُ شُرُوحِ أبي العلاء لِمُؤَلَّفَاتِهِ كانَ هُوَ مَنْ وَضَعَها[4]؛ ولَكِنَّه وَضَعَ بَعْضَ الشُّرُوحِ لِدَوَاوِينِ غَيْرِهِ كأبِي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ والمتَنَبِّي. فأمَّا شَرْحُهُ لِشِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ (وهُوَ مِنْ أصْعَبِ الشِّعْرِ في الأدَبِ العَرَبِيِّ قَاطِبَةً) فَيُوْجَدُ مِنهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ في شَرْحِ التَّبْرِيزِيِّ لِدِيْوَانِ هذا

---

[1] نفسه

[2] عِنْدَ ابْنِ الأنْبَارِيِّ أنَّ الصَّوابَ هو: الكَلْحَبَةُ العَرَنِيُّ مِنْ بَنِي عَرِيْنٍ. انظُرْ (المفضَّليَّات) ص ٢٠؛ ولكنَّ أبا العلاء، كما تَرَى، لا يَقْبَلُ هذا الوَجْهَ

[3] الفصول، ص ٤٠٨.

[4] ولكِنَّ مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أنَّها كُلَّها تَقْرِيباً قَدْ ضَاعَتْ ولَمْ تَصِلْ إِلَيْنا.

الشَّاعِرِ؛ وأمَّا شَرْحُهُ لِشِعْرِ البُحْتُرِيِّ المسَمَّى (عَبَثُ الوَلِيْدِ) فَقَدْ طُبِعَ حَدِيثاً بِالقاهِرة، وقَدْ تناوَلَ فِيهِ أبو العلاء باقْتِضابٍ بَعْضَ مَوَاطِنِ العُسْرِ في شِعْرِ البُحْتُرِيِّ ودَلَّ عَلَى ما وَقَعَ فِيهِ مِنَ الأخْطاءِ النَّحْوِيَّةِ واللُّغَوِيَّةِ. وأمَّا شَرْحُهُ لِشِعْرِ المتنبِّي فَقَدْ تَفَوَّقَتْ عَلَيْهِ كِتَابَاتُ الشُّرَّاحِ الذِينَ جاءُوا بَعْدَهُ وحَلَّتْ مَحَلَّهُ. ومَعَ ذَلِكَ، فَلا غِنَى لِلدِّراسَةِ هذِهِ عمَّا كَتَبَ أبو العلاءِ فِي هذا الشَّرْحِ. ذَلِكَ أنَّ أبا العلاء قَدْ تَناوَلَ فِيهِ مَسائِلَ في البَيَانِ وفنِّ الأُسْلُوبِ. وقَدْ كانَ المتنبِّي أَمْلَى شَرْحاً لِدِيوَانِهِ، وقَدْ طُبِعَ لِحُسْنِ الحَظِّ حَدِيْثاً بِالقاهِرَة، نَشَرَهُ الدكتور عَبْدُ الوهَّاب عَزَّام مَعَ طَبْعةٍ جَمِيلَةٍ لِشِعْرِ الشَّاعِرِ. ومِنَ الطَّرِيفِ أنْ نُلاحِظَ كَيْفَ تَشابَهَ هذا الشاعِرُ والمعَرِّيُّ كِلاهُما في تَعَامِلِ كلٍّ مِنهُما مَعَ شِعْرِهِ. فَكِلاهُما كانَ يَظُنُّ أنَّ الصُّعُوباتِ الوَحِيْدَةَ في شِعْرِهِ إنَّما هِيَ فِي الألْفَاظِ الغَرِيبةِ وقَلَّما شَرَحَ المعْنَى العامَّ لِلأبْياتِ والعِبَاراتِ أو عَلَّقَ عَلَيْها. عَلَى أنَّ المتنبِّي يَكْشِفُ عَنِ المناسَبَاتِ التي نَظَمَ مِنْ أجْلِها قَصَائِدَهُ (هذا عَلَى فَرْضِ أنَّ مُقَدِّماتِ القَصَائدِ الموْجُودَةَ فِي الدِّيوَانِ مِنْ صُنْعِ المتنبِّي لا مِنْ وَضْعِ تلامِيذِهِ). وهُناكَ شَيْءٌ لا أَرَى أنَّ القارِئَ لِشَرْحَيْ هَذَيْنِ الشاعِرَيْنِ يُخْطِئُهُ، وهو ثِقَةُ كلٍّ مِنهُما القَوِيَّةُ بِذاكِرَتِهِ وادِّعاؤُهُ الضِّمْنِيُّ بِأنَّهُ أرْفَعُ شَأْناً وأَكْثَرُ عِلْماً مِنْ كُتَّابِ المعَاجِمِ ووُضَّاعِ القَوَامِيسِ. ولَعَلَّهُما في هذا مَعْذُورانِ؛ إذْ مِنَ الهَنَّاتِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ العُلَماءِ الشُّعُورُ بالزَّهْوِ والإعْجَابُ بِالنَّفْسِ مَتَى ما رَأَوْا أنَّهُمْ اكْتَشَفُوا شَيْئاً مِنَ المعْرِفَةِ نادِراً.

ولْنَأْخُذْ أمْثِلَةً عَلَى هذا مِنْ (فُصُولِ) أبِي العلاء:

(**الإِبِدُ**: الأتانُ التي في بَطْنِها وَلَدٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أتانٌ إِبِدٌ كُلَّ عامٍ تلِدُ. وهذا الحَرْفُ أَحَدُ ما جاءَ عَلَى فِعِلٍ وهُوَ قَلِيلٌ، مِثْلُ **إِبِلٍ وإِطِلٍ** وهِي السَّفِينَةُ؛ وامْرَأَةٌ

بِلِزٌ وهِيَ الضَّخْمةُ المسِنَّةُ؛ وبأسْنَانِهِ **حِبِرَةٌ**، وهِيَ صُفْرةُ الأسْنَانِ، ولَمْ يَذْكُرْ سِيْبَوَيْهِ مِنْها إلَّا حَرْفَيْنِ وهما إبِلٌ وحِبِرَة)[1].

ويَتَّضِحُ لَكَ مِن اتِّصَافِ عِلْمِ أبِي العلاء بِأنَّهُ لا يَسِيرُ عَلَى نِظامٍ ولا يَجْرِي على أُصُولٍ، حَقِيْقةُ أنَّ أبا العلاء لَمْ يأخُذْ عَنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ، حَتَّى إنَّهُ كانَ عَلَى الأغْلَبِ عِصَامِيَّ التَّعلُّمِ أو مُعَلِّمَ نَفْسِهِ. والحَقُّ أنَّهُ كانَ مُتَشَدِّداً فِي بَيَانِ مَرَاجِعِهِ ومَصَادِرِهِ وأنَّه، عَلَى عَمَاهُ، قَلَّما أتَى باسْتِشْهادٍ مَغْلُوطٍ أو خَطَأٍ؛ ولكنَّا مَعَ ذلكَ لا نَسْتطِيعُ أنْ نُمْسِكَ عَنْهُ انْتِقادَنَا لَهُ بأنَّهُ بَدَلاً مِنْ أنْ يَضَعَ مَعْاجَمَ أو يَكْتُبَ أعْمَالاً بَحْثِيَّةً عَلَى غِرَارِ ما صَنَعَ ابنُ جِنِّيٍّ فِي (الخَصَائِص) فَقَدْ اخْتَارَ أنْ يَضَعَ سَعَةَ عِلْمِهِ الغَزِيرِ عَلَى الأغْلَبِ فِي كُتُبٍ (كالفُصُول) الذِي مَزَجَ فِيهِ القِيمَتَيْنِ الأَدَبِيَّةَ والعِلْمِيَّةَ مَزْجاً بَالِغَ الاضْطِرَاب. ومَعَ ذَلِكَ فإنَّ خُلُوَّ كِتَاباتِهِ اللُّغَوِيَّةِ مِنَ النِّظامِ والتَّرتِيبِ أمْرٌ لا نَرَى دَاعِياً لِأنْ يَكُونَ مَحَلَّ اسْتِهْجانٍ شَدِيدٍ أو انْتِقادٍ قاسٍ؛ إذ يَظْهَرُ أنَّ أبا العلاء كانَ مُعَلِّماً ذا اقْتِدارٍ؛ لِأنَّ كُتُبَ الأدَبِ والتَّارِيخِ تُحَدِّثُنا أنَّ مُحَاضَرَاتِهِ ودُرُوسَهُ كانَ يَؤُمُّها عَدَدٌ ضَخْمٌ مِنَ الطُّلابِ، مِنهُم أبو زَكَرِيَّا التِّبْرِيزِيُّ الذي بَرَزَ لِيَكُونَ أحَدَ أكْبَرِ الشُّرَّاحِ في تارِيخِ الأدَبِ العَرَبِيِّ. ثُمَّ إنَّهُ عَلَيْنا ألَّا يَفُوتَنا أنَّ عَدَمَ النِّظام فِي التَّأْلِيفِ كانَ أمْراً شائِعاً على عَهْدِ أبِي العلاء، وأنَّ مَنْ عاصَرَهُ مِنَ العُلَماءِ لَمْ يَعِبْ عَلَيْهِ ذَلكَ ولَمْ يأخُذْهُ عَلَيْهِ.

وقَدْ ظَلَّ أبو العَلاء، ولأجْيَالٍ عَدِيدةٍ، مَحَلَّ الثَّنَاءِ والإشَادَةِ بِأنَّهُ كانَ عَلَماً قَلَّ أنْ يَجُودَ الزَّمانُ بِمِثْلِهِ (قَدْ أُوتِيَ قِيادَ اللُّغَةِ فقادَها). وفي عَصْرِنا هذا، أَدَّتْ دِرَاسَةُ كِتاباتِهِ نظْماً ونَثْراً إلى تَحْسِينِ بَعْثِ اللِّسانِ الفَصِيْحِ بِعِبَارتِهِ الأنِيقةِ الدَّقِيقةِ وإنْعَاشِ الذَّوْقِ القَدِيمِ لِلَّفْظِ العَرَبِيِّ الصَّافِي الأَصِيلِ النَّبِيلِ.

---

[1] الفصول، ص ١١١.

القسم (ب)

مُؤَلَّفاتُهُ

ذَكَرَ بَعْضُ مَنْ تناوَلَ سِيرَةَ المعَرّيِّ، أنَّهُ كَتَبَ ما يَرْبُو عَلَى المِائَةِ كِتَابٍ. ولَكِنَّ أغْلَبَ الظَّنِّ أنَّ هذا العَدَدَ مُبَالَغٌ فِيهِ. وقَدْ ذَهَبَ الأُسْتَاذُ مَرجُلْيوْثْ إلى أنَّ عَدَدَها خَمْسَةٌ وخَمْسُونَ[1]. ولَكِنَّ أغْلَبَها قَدْ ذَهَبَ طَيَّ الضَّياعِ، ولَمْ يَبْقَ لنا مِنْها إلَّا هذِهِ:

١- سَقْطُ الزَّنْد (شِعْرٌ).

٢- لُزومُ ما لا يَلْزَمُ، [أو اللُّزومِيَّاتُ، أوِ اللُّزُومُ] (شِعْرٌ).

٣- الفُصُولُ والغاياتُ (نَثْرٌ).

٤- رِسَالَةُ الغُفْرَانِ (نَثْرٌ).

٥- رِسَالَةُ الملائِكَةِ (نَثْرٌ).

٦- مَجْمُوعةُ رَسَائِلِهِ.

٧- جُزْءٌ كَبيرٌ مِنْ مُكاتباتِهِ مَعَ ابْنِ أبي عِمْرانَ حَوْلَ النَّباتِيَّةِ (أو مَذْهَبُ الاقْتِياتِ عَلَى النَّباتِ وما يَأْتِي مِنهُ دُونَ الحَيْوانِ وما يَخْرُجُ مِنهُ).

٨- خُطْبَةُ الفَصِيحِ؛ وهذا المؤَلَّفُ عُثِرَ عَلَيْهِ حَدِيثاً في إحْدَى مَكْتَبَاتِ تُونُسَ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ بَعْدُ إلى القُرَّاءِ[2].

٩- مَلْقَى السَّبِيْلِ؛ وهو مُجَلَّدٌ رَقِيْقٌ، بَعْضُهُ شِعْرٌ وآخَرُ مِنهُ نَثْرٌ.

١٠- شَرْحُ دِيوَانِ المتنبّي.

١١- عَبَثُ الوَلِيدِ.

١٢- بَعْضُ مُقْتَطَفَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ (الهَمْزَةُ والرِّدْفُ) مَوْجُودةٌ في أوْجِ التَّحَرّي، ص ٦٧.

---

[1] انظُرْ (رَسائِلُ أبي العلاء) (المقَدِّمة منها)، ص ٣٩.

[2] تعريف القدماء بآثار أبي العلاء، ص ٤١ (انظُرْ الحواشي).

١٣- قِطَعٌ مِنْ (اسْتَغْفِرْ واستغْفِرِي)[1].

١٤- مُقْتَطَفاتٌ مِنْ (كِتابُ الأَلْغَازِ)[2].

١٥- نُبَذٌ مِنْ كِتابِ (الصَّاهِلُ والشاحِجُ)،

وهذا الكِتَابُ الأَخِيرُ كَتَبَهُ مُحْتَذِياً فِيهِ حَذْوَ أُسْلُوبِ (كَلِيلَةٌ ودِمْنَةٌ)[3].

وكانَ بَعْضُ سَبَبِ ضَياعِ العَدَدِ الأَكْبَرِ مِنْ كُتُبِ أَبِي العَلاءِ اسْتِيلاءُ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى المعَرَّةِ في سَنَةِ ٤٩٢هـ أيْ ١٠٤٩م، فَتَلِفَ أَكْثَرُها، وكانَ البَعْضُ الآخَرُ مِنْ هَذَا السَّبَبِ حَالَةَ الجَهْلِ العامَّةِ التي أَخْلَدَ إِلَيْها المسْلِمُونَ بَعْدَ سُقُوطِ بَغْدادَ سَنَةَ ٦٥٦هـ أي ١٢٥٨م، فَكَانَ أَنْ أَلْحَقَ هذا الجَهْلُ بِالمكْتَباتِ الخاصَّةِ والعامَّةِ ضَرَراً أَكْبَرَ مِمَّا كانَ جَنَتْهُ عَلَيْها أَيْدِي غُزَاةِ النَّصارَى والتَّتارِ وأَفْعَالُهُمْ. ومَعَ ذلك، فَبِإِمْكَانِنا أَلَّا نَزالَ عَلَى أَمَلِ العُثُورِ عَلَى عَدَدٍ مِنْ كُتُبِ أَبِي العلاء الضائِعَةِ؛ إِذْ إِنَّ ثَمَّةَ شَوَاهِدَ كَثِيرةً عَلَى أَنَّ بَعْضَها، مِمَّا هُوَ الآنَ في حُكْمِ المعْدُومِ، قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ رِجَالُ القَرْنِ الحادِي عَشَرَ الهِجْرِيِّ (أَيْ الثامِنَ عَشَرَ المِيلادِيِّ) وعَرَفُوهُ[4]. وإلى ذَلِكَ الحِينِ فَلَنا أَنْ نُعَزِّيَ أَنْفُسَنَا بِأَنَّ هذا القَدْرَ الذي بَقِيَ لَنَا مِنْ كُتُبِهِ ووَصَلَ إِلَيْنا عَطاءٌ عَظِيمٌ حَقّاً وأَنَّ هذا العَطَاءَ، وحْدَهُ، كَفِيلٌ بِأَنْ يَسْتَفْرِغَ قَدْراً مِنْ حَياةِ العِلْمِ.

---

[1] تَعرِيفُ القدماءِ بآثارِ أبي العلاء، ص ٢٨١ و٣٩٧ ونِهَايةُ الأَرَبِ للنُّوَيْرِيِّ، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٣٤.

[2] أوْجُ التحرّي، ص ١٠٤.

[3] تعريف القدماء، ص ٤٥٢ و٤٥٣؛ وتَقُولُ إِحْدَى القَصَصِ التي اقْتَبَسَها الكَلاعِيُّ مِنْ هذا الكِتابِ، إنَّ أَسَداً شاخَ وتقدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ حَتَّى عادَ غَيْرَ قادِرٍ على الصَّيْدِ لِيَقْتَاتَ؛ فَجَاءَ مَلِكَ الغابةِ وطَلَبَ مِنهُ طَعَاماً؛ فأَمَرَ لَهُ هذا بِعُضْوٍ مُوَزَّبٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ الأَسَدُ: أَصْلَحَ اللهُ الملِكَ، إنِّي كُنْتُ اصْطَادُ الوَعِلَ أوِ البَقَرَةَ الأَهْلِيَّةَ فَلا أَكَادُ أُدْرِكُ بِها الشِّبَعَ فأَيْنَ مِنِّي هذا العُضْوُ يَقَعُ؟ فَقَالَ الملِكُ: مَنِ اتَّكَلَ عَلَى كَسْبِ غَيْرِهِ وَحَبَّ أَنْ يَقْتَنِعَ بِقَلِيْلِ خَيْرِهِ. فَقَالَ الأَسَدُ: صَدَقَ الملِكُ ولا حَاجَةَ لِي بِهَذا العُضْوِ. فَقَالَ لَهُ الملِكُ: فَمَاذا تَصْنَعُ؟ قالَ الأَسَدُ: أَجْتَزِئُ بِنَبْتِ السَّحَابِ ولا أَفْتَقِرُ إلى الملِكِ والأَصْحَابِ.

(أَجْتَزِئُ يَعْني أَكْتَفِي- الترجمان).

[4] كالبَدِيْعِيِّ فَقَدْ كان مِنْ رجَالاتِ هذا القَرْنِ الحادي عَشَرَ الهجْرِيِّ، وكذا كانَ النُّوَيْرِيُّ.

وكما ذَكَرْنا لَكَ أيُّها القارِئُ الكريمُ في مُقَدِّمَةِ سِفْرِنا هذا أنَّا مَعْنِيُّونَ في المقامِ الأوَّلِ والأخِيرِ بِتَوْجِيهِ بَحْثِنا هذا إلى دِيوَانَيْ سَقْطِ الزَّندِ واللُّزُومِ مِنْ بيْنِ مؤلَّفاتِ أبي العلاء جَميعاً. ولِكنَّنا مع هذا نَرَى أنَّهُ مِن سَدِيدِ الرأْيِ ومِمَّا يَقْتَضِيهِ المقَامُ هنا أنْ نَذْكُرَ لكَ كَلِمَةً أو كَلِمَتَينِ في كُلٍّ مِنَ الفُصُولُ والغاياتُ ومَلْقَى السَّبِيْلِ. أمَّا الأوَّلُ فَلأنَّهُ عُثِرَ عَلَيْهِ حَدِيثاً، وأمَّا الأَخِيرُ فَلِأَنَّ بَعْضَهُ نَظْمٌ خالِصٌ.

الفُصُول والغايات:

أَمْلَى أبو العلاء كِتابَهُ (الفُصُولُ والغاياتُ) (كما كان يُسَمِّيْهِ هو) في أوائِلِ عُزْلَتِهِ وبُعَيْدَ رُجوعِهِ مِنْ بَغْداد[1]. وقَدْ جاءَ أُسْلُوبُهُ في هذا الكتابِ قائِماً على الإشاراتِ ومَلِيْئاً بِنَوادِرِ اللُّغَةِ وأَوابِدِها، ويُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ، في وجوانِبَ مِنهُ، مُبَشِّراً بِمَقْدَمِ اللُّزُومِ؛ إِذِ احْتَوَى تَفَكُّراً وتأمُّلاتٍ في الحَيَاةِ والموْتِ، وقَصَصاً عَنِ الحَيْوَاناتِ ونُبَذاً طَوِيْلَةً تُعَبِّرُ عَنْ وَرَعٍ وتَقْوَى (أو تُظْهِرُها إظْهاراً). وقد اتَّهَمَ المعَرِّيَّ مُعاصِرُوهُ بِأنَّهُ إنَّما كَتَبَ كِتابَهُ هذا يُريدُ بِهِ مُعَارَضَةَ القُرْءانِ. وقَدْ رَوَى بَعْضُ مَنْ تَرْجَمُوا لَهُ أنَّهُ رُبَّما كانَ بَعْضُهُم يُبْدِي رَأْيَهُ لِلشَّاعِرِ عَنْ هذا الكِتَابِ بِأنَّهُ دُوْنَ القُرْءان فَكانَ يُجِيبُهُمْ في حِدَّةٍ: (انْتَظِرُوا حَتَّى تُجَلِّيَهُ أَرْبَعَةُ قُرُونٍ مِنَ القِرَاءَةِ عَلَى المَنَابِرِ)[2].

ومُنْذُ طَبْعِ الفُصُول في العام ١٩٣٨م أَقْبَلَ النُّقَّادُ العَرَبُ يَسْعَوْنَ بِحَمَاسٍ وانْدِفَاعٍ لِيُثْبِتُوا أنَّ هذا التَّأْلِيفَ كِتَابُ تَقْوَى ووَرَعٍ وأنَّ ما رُمِيَ بِهِ مِنْ تُهْمَةٍ قَدِيمَةٍ بِأَنَّهُ كانَ أُرِيدَ بِهِ مُعَارَضَةُ القُرْءان مَحْضُ كَذِبٍ وافْتِراءٍ وبُهْتَانٍ. ولَكِنَّ هذا الدِّفاعَ عَنِ (الفُصُول) لا يُمْكِنُهُ احْتِمالَ إِمْعَانِ النَّظَرِ وتَدْقِيْقَهِ. وإنَّ الاعْتِقادَ بِأَنَّ القُرْءانَ كَلامُ اللهِ القَدِيمُ وأنَّهُ الأَعْلَى مِيزَةً وتَفَوُّقاً في كلِّ زَمانٍ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَقْبَلُهُ العَدِيدُ مِنْ عُلَماءِ المسْلِمينَ. فَبَعْضُ أَوَائِلِ المعْتَزِلَةِ كإِبْرَاهِيْمَ النَّظَّامِ وعَدَدٍ مِنْ عُلَماءِ الكَلامِ مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهُ كالمرْتَضَى، وقَدْ كانَ مُعَاصِراً لأَبِي العلاءِ، كانُوا يُدَرِّسونَ عَقِيدَةَ الصَّرْفَةِ[3] التي تقْضِي بِأَنَّ القُرْءانَ لَمْ يكُنْ كِتاباً مُعْجِزاً بِالنَّظَرِ إلى ما لَهُ مِنْ مَزِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ، بَلْ لِأَنَّ المشِيْئَةَ الإلَهِيَّةَ صَرَفَتْ كُلَّ مَنْ عَسَى أنْ يأتِيَ بِمِثْلِهِ عَنِ الإتْيَانِ بِمِثْلِهِ. وقَدْ كانَ ابْنُ سِنانٍ الخَفَاجِيُّ الذي كانَ مِنْ أَشَدِّ مُحِبِّي أبي

---

[1] انظُرْ مُقَدِّمَةَ (الفُصُول).

[2] تعريف القدماء، ص ٣١٤.

[3] إرشاد الأريب، ص ١٧٧.

العلاءِ (والذي يُرَجَّحُ أَنَّهُ دَرَسَ على شاعِرِنا لِبَعْضِ الوَقْتِ) مِنْ أَكْبَرِ المدافِعِينَ عَنْ هذِهِ العَقِيدةِ. ويَذْكُرُ ياقوتٌ أَنَّهُ قَرأَ في بَعْضِ كُتُبِ الخَفَاجِيِّ هذا (أَنَّ القُرْءانَ لَمْ يَأْتِ في البَيَانِ والبلاغةِ بِشَيءٍ يَرْبُو عَلَى المعْهُودِ يَسْتَحِقُّ بِهِ أَنْ يُعَدَّ مُعْجِزَةً لِلْنَبيِّ (عَلَيهِ السلامُ)، وأَنَّهُ مِنَ المِمْكِنِ لِأَيِّ رَجُلٍ حازَ اقْتِداراً وكَفَاءَةً في البَلاغةِ أَنْ يأْتِيَ بِنَظِيْرِهِ، وأَنَّهُ لا يَمْنَعُهُ مِنْ ذلك مانِعٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ قَدْ صَرَفَهُ مِنْ أَنْ يأتِيَ بهذا النَّظِيرِ)[1].

ولَمْ تكُنْ عَقِيدةُ الصَّرْفَةِ، كَمَا قَدْ يَتبادَرُ إلى الذِّهْنِ، سِوى حَبِيكَةٍ ذَكِيَّةٍ اتَّخَذَ مِنْها بَعضُ المعْتَزِلَةِ والشِّيعَةِ وأربابُ التَّفْكِيرِ الحُرِّ سِتاراً يُخْفُون بِهِ عَدَمَ إِيْمانِهِمْ بِما لِلْقُرْءانِ مِنْ خاصَّةِ الإِعْجازِ والصَّبْغَةِ الإلَهِيَّةِ. ونُرَجِّحُ أَنَّ هَؤُلاءِ كانُوا قَدْ وضَعُوا كُتُباً رامُوا بِهَا مُعارَضَةَ القُرْءانِ أو الإِرْبَاءَ عَلَيْهِ، ولَكِنَّ هذه الكُتُبَ كانَتْ قد أُحْرِقَتْ عَلَى يَدِ الأَجْيالِ التي تَلَتْ، فَلَمْ تُتْرَكْ لِتَبْقَى[2]. ويُحَدِّثُونَنا أَنَّ مَنْ أَسْمَوْهُ ابْنَ الرَّاوَنْدِي[3] كَتَبَ كتاباً نَقْدِيّاً صَرِيحاً عَنِ القُرْءانِ سَمَّاهُ الفَرِيدَ[4] أيْ الجَوْهَرَ[1]. وهذا الاسْمُ اسْتَعارَهُ ابْنُ الرَّاوَنْدِيّ مِنْ حِكايَةِ

---

[1] نفسه .

[2] يُحَدِّثُنا ياقوتٌ أَنَّ بَعْضَ خُزَّانِ دُورِ العِلْمِ فِي زَمانِهِ كانَ يَفْتخِرُ بأَنَّهُ أَحْرَقَ نُسْخَةً مِنَ (الفُصُول) وأَنَّ ابْنَ الدَّهَّانِ، شَيْخَ ياقوتٍ، لامَهُ عَلَى هذا الصَّنِيعِ. ولَعَلَّ مِنَ الطَّرِيفِ هُنا أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ ابْنَ الدَّهَّانِ هذا كانَ أَحَدَ العَرَبِ القَلائِلِ جِدّاً الذينَ يَعْرِفُونَ لُغَةَ الرُّومِ. إرشاد الأريب ج ٦ ص ٢٣٢.

[3] هو أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ إسحاقَ أبو الحُسَيْنِ المعْرُوفُ بِابْنِ الراوَنْدِيِّ نِسْبَةً إلى رَاوَنْدَ، إحْدَى قُرَى قاسانَ بِأَصْبَهانَ. وقد اختَلَفُوا فِي تَرْجَمَتِهِ اخْتِلافاً شَدِيداً؛ فابْنُ خَلِّكانَ، القاضِي، الذي يُعَوِّلُ عَلَيْهِ أستاذُنا عبد الله الطَّيِّب هُنا كَثِيراً فِي تَراجِمِهِ، يَذْكُرُهُ فِي (وَفَيَاتِهِ) بأَنَّهُ أَحَدُ فُضَلاءِ عَصْرِهِ، وأَنَّهُ مِنْ أَصْحابِ التَّوَالِيْفِ الكَثِيرةِ وتَرْبُو على مِئَةٍ؛ لَكِنَّ ابْنَ كَثِيرٍ يَذْكُرُهُ فِي(البِداية والنِّهاية) بأقْبَحِ الأَوْصافِ ويَلْعَنُهُ بَعْدَ قَوْلِهِ فِيهِ إِنَّهُ مِنْ مَشاهِيرِ الزَّنادِقةِ والمُلْحِدِينَ وأَنَّهُ طَعَنَ فِي النَّبِيِّ والقُرْءانِ؛ ثُمَّ يَتَعَقَّبُ ابْنَ خَلِّكانَ ويُهاجِمُهُ على تَرْجَمَتِهِ لابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ، ويَقُولُ إِنَّهُ تَسامَحَ مَعَهُ مُتَناسِياً زَنْدَقَتَهُ، مَعَ أَنَّ ابْنَ كَثِيرٍ نَفْسَهُ كَثِيراً ما اعْتَمَدَ فِي كِتابِهِ عَلَى ما كَتَبَ ابْنُ خَلِّكانَ؛ راجِعْ إِنْ شِئْتَ كِتابَ الوَفَيات ج ١ص ٩٤ والبِداية والنِّهاية ج ١٤ص ٧٦٤ وج ١ص ٥٨٨. (التُّرْجُمان).

[4] هَكَذا فِي الأَصْلِ (Al Farid)، كتابُ الفَرِيْدِ، (أو الفِرِنْد) رَوَوْا أَنَّهُ تَضَمَّنَ انْتِقاداً لأُسْلُوبِ القُرْآنِ. ولابْنِ الرَّوَانْدِي كتابٌ آخر هو (الزُّمُرُّد) ضَمَّنَهُ طَعْنَهُ فِي الأَنْبِياءِ واصفاً إِيَّاهم (بالمخاريق). وأَمَّا عَمَى الأَفْعَى إذا نَظَرَتْ إلى الزُّمُرُّدَةِ فَقَوْلَةٌ قَدِيمَةٌ

خُرَافِيَّةٍ هِيَ أَنَّ الأفْعَى إذا نَظَرَتْ إلى الزُّمُرُّدَةِ ذابَتْ عَيْنَاها فَعَمِيَتَا (فَالحَيَّةُ هنا هِيَ فُقَهاءُ الأشاعِرَةِ التَّقْلِيدِيُّونَ). وقد جَمَعَ الرَّضِيُّ كِتاباً سَمَّاهُ (نَهجَ البَلاغَةِ) حَوَى طائِفَةً كَبِيرَةً مِنَ الأقْوالِ والخُطَبِ المدَلَّسَةِ، نُسِبَتْ إلى عَلِيٍّ، وأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّها أُرِيدَ بِهَا مُعارَضَةُ القُرْءانِ أوْ، على أقلِّ تَقْدِيرٍ، تَكمِلَةٌ لَهُ.

ولِذَلكَ لَمْ يَكُنْ عَجَباً أنْ نَجِدَ شَاعِرَنا قَدْ جَارَى هَؤُلاءِ المفَكِّرِيْنَ الأحْرَارِ (أو الزَّنادِقَةِ) فَنَحْنُ نعْلَمُ مِنْ شَهادَةِ (لُزُومِهِ) و(رِسَالَةِ غُفْرَانِهِ) أَنَّهُ كانَ بَعِيداً عَنْ أَنْ يكونَ مُسْلِماً تَقْلِيدِيّاً. والحقُّ أنَّهُ يَقُولُ عَنِ القُرْءانِ في ثانِي هَذَيْنِ الكِتابَيْنِ، أيْ رِسالَةِ الغُفْرانِ: (أَجْمَعَ مُلْحِدٌ ومُهْتَدٍ، وناكِبٌ عَنِ المحَجَّةِ ومُقْتَدٍ، أَنَّ هَذَا (الكِتَابَ) الذي جاءَ بِهِ (مُحَمَّدٌ) كِتابٌ بَهَرَ بالإعْجَازِ، ولَقِيَ عَدُوَّهُ بالإرْجازِ؛ مَا حُذِيَ عَلَى مِثَالٍ، ولا أَشْبَهَ غَرِيبَ الأَمْثَالِ؛ ما هُوَ مِنَ القَصِيدِ الموْزُونِ، ولا الرَّجَزِ مِنْ سَهْلٍ وحُزُونٍ؛ ولا شَاكَلَ خَطابَةَ العَرَبِ، ولا سَجْعَ الكَهَنَةِ ذَوِي الأَرَبِ؛ وجاءَ كالشَّمْسِ اللَّائِحَةِ، نُوْراً لِلْمُسِرَّةِ والبائِحَةِ؛ لَوْ فَهِمَهُ الهَضْبُ الرَّاكِدُ لَتَصَدَّعَ، أو الوُعُولُ المعْصِمَةُ لَرَاقَ الفادِرَةَ والصَّدَعَ ﴿وتِلْكَ

-ومَعْرُوفةٌ عِنْدَ العَرَبِ، يَذْكُرُونَ أنَّ أصْلَها رُبَّما رَجَعَ إلى الفَراعِنَةِ، الذِيْنَ رُبَّما كانُوا كَذَلِكَ يُداوُوْنَ بَعْضَ الأمْراضِ بِالزُّمُرُّدِ. وقَدْ ذَكَرَ أبو الرَّيحانِ البيرونيُّ أنَّهُ امْتَحَنَ الأفْعَى تِسْعَةَ أشْهُرٍ فِي زمانَيِ الحَرِّ والبَرْدِ فَلَمْ يُؤثِّرِ الزُّمُرُّدُ فِي عَيْنَيْها، إنْ لم يَزِدْهُما حِدَّةً. وبعد كَلامِهِ عن نَفاسَةِ هذا الحَجَرِ الكريمِ، ذَكَرَ أنَّهُ أكثَرُ ما وُجِدَ على أرْضِ النِّيْلِ جهةَ الصَّعِيْدِ جنوبيَّ مِصْرَ في بلادِ النُّوبَةِ من السودان، في بَرِّيَّةٍ مُنقطِعةٍ عَنِ العِمارةِ، وكذلك فِي الأرضِ الممتدَّةِ بَيْنَ نَهرِ النِّيْلِ وبَحْرِ القَلْزم (البحْرِ الأحمر) على تُخُومِ أرْضِ البجَة مجاوراً لِمَعْدِنِ الذَّهَب، فتأمَّلْ هذا الوصْفَ الجُيُولوجِيَّ. (انظر الجَماهِر فِي مَعْرِفة الجواهر، ص ٧٣). هذا، والزُّمُرُّدُ مِنَ الأحْجَارِ الكَرِيْمَةِ ذاتِ النَّفاسَةِ العالِيَةِ، أخضَرُ اللَّوْنِ، ومِنهُ الزَّبَرْجَدُ؛ كانَ النَّاسُ –ورُبَّما لايزالون– يَزْعُمونَ لَهُ قُدْراتٍ رُوْحِيَّةً تُرِيحُ الأعْصابَ وتُذْهِبُ إجْهادَ العَيْنِ (انظُرْ مَقالةً جَيِّدَةً عَنْ الزُّمُرُّدِ للدكتور عَدْنانَ عاكِف). وكما أشارَ المؤلِّفُ فإنَّ ابْنَ الرَّاوَنْدِي أرادَ بِتَسْمِيَةِ كِتابِهِ هَذَا أنْ يَقُولَ إنَّ مُناوِئِيهِ والمتَرَبِّصِينَ بِهِ، وكانَ مِنهُم عُلَماءُ الأشاعِرَة، سَيَفْعَلُ بِهِمْ هَذَا الكِتابُ إذا طالَعُوهُ فِعْلَ الزُّمُرُّدِ بِالأفْعَى إذا نَظَرَتْ إلَيْهِ، أي أنَّهُمْ سَيَعْجِزُونَ عَنْ إيذائِهِ، إذ لَنْ يَفْهَمُوا مُحْتَواهُ، أو سَيُوقِعُ بِهِمُ الأذى مِن جِهَةِ الإفحامِ. ويُذْكَرُ أنَّ كتابَ (المجالسُ المؤيَّدِية) لهبةِ الله بن عمران الشيرازي، من رجالِ عَهْدِ الخليفةِ الفاطِمِيِّ المستنصِر باللهِ، كانَ أحدَ المصادِرِ الموثقَّةِ في الرَّدِّ عَلَى كتابِ الزُّمُرُّدِ هَذَا. (التُّرْجُمان)

[1] انظُرْ رِسالةَ الغُفْران، ص ١٦٠ فما بَعْدَها.

الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وإنَّ الآيَةَ مِنهُ أَوْ بَعْضَ الآيَةِ لَتَعْتَرِضُ في أفْصَحِ كَلِمٍ يَقدِرُ عَلَيْهِ المخْلُوقُونَ؛ فَتَكُونَ فِيهِ كالشِّهابِ المتَلأْلِيءِ في جُنْحِ غَسَقٍ، والزَّهْرَةِ البَادِيَةِ في جُدُوبٍ ذَاتِ نَسَقٍ ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِيْنَ﴾[1]. ويَنْبَغِي أَلَّا يَفوتَنا مُلاحَظَةُ قَوْلِهِ (جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ) ولَمْ يَقُلْ (أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)؛ وأَنْ نُلاحِظَ، كَذَلِكَ، اقْتِباسَهُ مِنَ القُرْءانِ ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِيْنَ﴾[2] الذي يُشْتَمُّ مِنهُ في هذا السِّياقِ بِدْعَةُ المعْتَزِلَةِ المشْهُورةُ القائِلَةُ بِخَلْقِ القُرْءانِ. ثُمَّ إنَّ اسْمَ كِتابِ الفُصُولِ — أوِ الفُصُولِ والغاياتِ — كأنَّهُ أُرِيْدَ بِهِ مُضاهاةُ مُسَمَّياتِ القُرْءانِ (الفَواصِلِ) و(الآياتِ) (وذَلِكَ ما كانَ شَعَرَ بِهِ مُعَاصِرُو الشَّاعِرِ فَأَضافُوا لِهَذا الاسْمِ وَصْفاً يُناسِبُ ذَلِكَ فَقَالُوا: (في مُحاكاةِ السُّوَرِ والآياتِ)؛ لِأَنَّ اسْمَ الكِتابِ يَعْنِي (الفُصُولَ والقَوافِي)؛ (فالفَصْلُ) كَأَنَّهُ في مُقابِلِ السُّورَةِ القُرْءانِيَّة ويَعْرِضُ، مِثْلَها، طائِفَةً مِنَ المَوْضُوعاتِ والأفْكارِ الجَيِّدَةِ الرَّائِعَةِ في بابِها، ولَكِنَّ ما يَسُودُهُ مِنْ نِظامِ التَّقْفِيَةِ الغَرِيبِ وغَيْرِ المألُوفِ ومِنَ التَّأَنُّقِ في تَخَيُّرِ الأَلْفاظِ، كُلُّ ذَلِكَ خَلَقَ فيه نَوْعاً مِن رُوحِ الوَحْدةِ الخَفِيِّ، بِما يُشْبِهُ أَغْلَبَ السُّوَرِ المكِّيَّةِ. وأَمَّا (الغايَةُ) فَتَعْنِي في أَصْلِ مَعْناها المنْتَهَى والوَقْفَ والنِّهَايَةَ؛ فاسْتخدَمَها أبو العَلاءِ هُنَا بِمَعْنَى القافِيَةِ في نِهَايَة كُلِّ قِسْمٍ مِنْ أقْسَامِ الفَصْلِ. ولَعَلَّهُ مِنَ الملائِمِ أَنْ نُطْلِقَ مَعْنَى الغايَةِ هُنا عَلَى كُلِّ القِسْمِ الذي تَجِيءُ فِيهِ. وهي في هذا تُشْبِهُ آيَ القرءانِ مِنْ وَجْهٍ وتُخالِفُها مِنْ وَجْهٍ آخَرَ. تُشْبِهُها في أنَّ لَهَا قافِيَةً ولَهَا في الغالِبِ وَحْدَةً في المَوْضُوعِ؛ كَما أنَّ الغاياتِ، شَأْنَ آيِ القُرْءانِ، تَخْتَلِفُ في طُولِهَا اخْتِلافاً كَبِيراً. ومَعَ ذَلِكَ، فَأَغْلَبُ الغاياتِ أَطْوَلُ مِنْ أيٍّ مِنْ آياتِ القُرْءانِ. وقَدْ جاءَتِ الغَايَاتُ الأَكْثَرُ طُولاً مُقَسَّماتٍ إلى أَقْسامٍ أو فِقَرَاتٍ وعِباراتٍ مَسْجُوعاتٍ قِصارٍ قَدْ قُمْنَ (لِلْغايَةِ) مَقامَ الآياتِ لِلسُّورَةِ. وتَخْتَلِفُ

---

[1] الفُصُول، ص ١٥٨ — ١٥٩.

[2] مِنَ السورة ٢٣.

(الغايَةُ) عَنِ الآيَةِ في أنَّها تَنْتَهي بِذاتِ القافِيَةِ التي تَنْتَهي بِهَا الغاياتُ الأُخْرَى في الفَصْلِ الذي تَجِيءُ فِيهِ. وفي هذا الجانِبِ، تُشْبِهُ الغايَةُ في فَصْلِها بَيْتَ الشِّعْرِ في قَصِيْدَتِهِ إذْ إنَّهُ يَنْتَهِي بِذاتِ القافِيَةِ التي تَنْتَهِي بِهَا الأبْياتُ الأُخْرَى في القَصِيدةِ. ولِذَلِكَ، فالفَصْلُ يُشْبِهُ السُّورَةَ في هذا الجانِبِ الوَحِيْدِ الذي ذَكَرْنَا آنِفاً، ولَكِنَّهُ يُشْبِهُ القَصِيدةَ في أنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ أقْسامٍ، كُلٌّ مِنْها وَحْدةٌ بِذَاتِهِ غَيْرَ أنَّهُ يَجِيْءُ بِذاتِ القافِيَةِ التي تَجِيْءُ بها الأقسامُ (أو الغاياتُ) الأُخْرَى.

وقَدْ رُتِّبَتْ فُصُولُ هذا (الفُصُولِ) عَلَى حُرُوفِ الهِجاءِ أوْ عَلَى النَّسَقِ الألِفْبائيِّ، فبَلَغَتْ عِدَّتُها ثَمَانِيَةً وعِشرِينَ فَصْلاً. أيْ أنَّ كُلَّ فَصْلٍ قَدِ اتَّخَذَ حَرْفاً واحِداً مِنْ حُرُوفِ الهِجاءِ قافِيَةً لَهُ رَئِيسَةً. ولَمْ يَصِلْنا مِنْ جُمْلَةِ هذِهِ الفُصُولِ الثَّمَانِيَةِ والعِشْرِيْنَ سِوَى سَبْعَةٍ؛ ولَكِنَّ هذِهِ السَّبْعَةَ فُصُولٍ مَلأَتْ وحْدَها مُجَلَّداً غَزِيرَ العِلْمِ وَفِيرَهُ. ومِنْ حَيْثُ مَنْطِقُ الكَمالِ والتَّمامِ كانَ يَجِبُ أنْ يَكُونَ هُناكَ تِسْعَةٌ وعِشرُونَ فَصْلاً لا ثَمَانِيَةٌ وعِشرونَ. ولَكِنَّهُ لَمَّا كانَ حَرْفُ القافِيَةِ في هذا الكِتابِ يأْتِي دَائِماً بَعْدَ حَرْفِ الأَلِفِ، ولَيْسَ مِنَ المِمْكِنِ قَطُّ أنْ تَلِيَ ألِفٌ ألِفاً، فَقَدِ اكْتَفَى أبو العلاء بالهَمْزَةِ وَحْدَها. ولْنُورِدْ هُنا قِطْعَةً مِنْ هذا الكِتابِ تُصَوِّرُ لَنا أدَقَّ تَصْوِيرٍ هذا المَزْجَ الذي أشَرْنا إلَيْهِ هنا، بَيْنَ أُسْلُوبِ القرءان ونَهْجِ القَصِيدة[1]:

(يُصْبِحُ الوَحْشِيُّ أَنِقاً، يَرْتادُ مَغْرِباً ومَشْرِقاً، لا يَتَّقِي مِنْ خَطْبٍ مُتَّقَىً، يَعْتامُ الرِّياضَ المَوْسُومَةَ، قَدْ حَيَّتْهُ الوُهُودُ بِالزَّهَرِ، وشَرِبَ مَاءَ الغُدُرِ، عَلَى أغانِيِّ الذُّبابِ، واخْضَرَّتْ جَحافِلُهُ مِنْ لَسِّ الغَمِيرِ، وأَرِجَتْ سَنابِكُهُ مِنْ وَطْءِ النُّوَّار، وامْتَرَغَ في النَّباتِ حَتَّى كأنَّهُ سُنْدُسٌ خَرَجَ لَهُ مِنَ الجِنانِ، يَمِيلُ مِنَ الأَشَرِ مَيْلَ الثَّمِلِ، ويُغَرِّدُ إذا صاحَ تَغْرِيدَ الطَّرِبِ

---

[1] الفصول، ص ٨ – ١٠.

النَّشْوانِ، إنْ سَحَلَ فعَنْ مَجْدِ اللهِ تَرْجَمَ ذَلِكَ السَّحِيلُ، وإنْ شَحَجَ فَشَحِيجُهُ تَكْبِيرٌ وتَهْلِيل، وإذا عَشَّرَ فَالنُّسْكُ فِي ذَلِكَ التَّعْشِيرِ حَبِيسٌ، وإذا صَفَنَ فَصُفُونُهُ تَقْدِيسٌ، وَقْعُ حَوَافِرِهِ عَلَى الأوْدِيَةِ والرُّزُونِ، يَشْهَدُ بِأنَّ اللهَ أوَّلُ حَكِيمٍ؛ حَتَّى إذا نَضَا رَبِيعاً بَعْدَ رَبِيعٍ، وخَلَصَ مِنْ مَصِيفٍ إثْرَ مَصِيفٍ، واشْتَدَّ القَيْظُ ووَقَدَتِ الشِّعْرَيانِ، وتَظاهَرَ في ظَهْرِهِ عَتِيقُ الأعْوَامِ، وأمَرَّتْهُ الرِّجَلُ والقِيعانِ، إمْرَارَ المسَدِ البَدِيعِ، أَجْمَعَ الوُرُودَ والماءُ مِنهُ لا أَمَمٌ ولا قَرِيبٌ؛ وسَبَقَهُ أشْعَبُ كأنَّهُ نَمِرٌ إلى النَّمِيرِ، في جَفِيرِهِ زُرْقُ ظُبَاتٍ كأنَّها جَمَراتُ النَّارِ، أفْواقُها كأفْواهِ أفْرِخَةِ النِّغْرانِ، تَعَوَّدَ أنْ يَضَعَها مِنَ الوَحْشِ بِحَيْثُ أرادَ؛ أَقْسَمَ فأبَرَّ القَسَمَ لَيُرْوِيَنَّها بَعْدَ الخِضَمِّ مِنْ دِماءِ الهادِياتِ؛ لَهُ صِبيَةٌ كالتَّوالِبِ، وسَلْفَعٌ كأنَّها السِّعْلاةُ، يَقُوتُهُمْ لَحْمَ القَطا ولُحُومَ القَطَواتِ، ويَكْثُرُ عِنْدَهُمْ الوَشِيقُ مِنْ مُتُونِ الأَخْدَرِيَّاتِ؛ فَباتَ ساهِراً مِنَ الطَّمَعِ وأطْفالُهُ مِنَ السَّغَبِ سَاهِرِينَ، تَتَقَضَّى دُجاهُ ويَنْصَرِمُ عَنْهُ الصَّرِيمُ، وهو في دُجْيَةٍ لا يَجْلُوها النَّهارُ؛ سَمِيرُهُ فِي اللَّيلِ الخَمُوشُ؛ تَحْتَكُّ القَرْناءُ جارَتُهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ، كاحْتِكاكِ الجَرْباءِ في العِقالِ. حَتَّى إذا اللَّيْلُ ضَرَبَهُ ذَنَبُ السِّرْحَانِ، وَرَدَ الوَحْشِيُّ بِأُتُنِهِ وهُوَ يَظُنُّ أنْ لا أَنِيسَ، فَلَمَّا شَرَعَ أو كادَ، أهْوَى لَهُ بِمِشْقَصٍ كأنَّهُ نابُ الغُوْلِ فانْتَظَمَ بِهِ رُغاماهُ، فَسَقَطَ صَرِيعاً بِعِلْمِ اللهِ، وانْصَرَفَتْ حلائِلُهُ أيامَى لا تَحْفِلُ بِحَرارَةِ الأُيُومِ، ولَقِيَ البائِسُ حُتُومَ القَضاءِ).

شَرْحٌ لِمُحْتَوَى هَذِهِ الغايَةِ:

(إنَّ الحِمارَ الوَحْشِيَّ، وقد أعْجَبَهُ مَرْأَى المرْعَى ذاتَ صَباحٍ، جَعَلَ يَرْتادُ هذا المرْعَى يَجُوبُهُ مُغَرِّباً فِيهِ ومُشَرِّقاً، قَدْ أَمِنَ فِيهِ فَهُو لا يَتَوَجَّسُ شَرّاً ولا يَتَوَقَّعُ خَطَراً، يَتَخَيَّرُ في مَرعَاهُ بَيْنَ رِيَاضٍ أصابَها الوابِلُ حَدِيثاً؛ وقَدْ حَيَّتْهُ الوِهادُ بِمَا عَلَيْها مِنْ أزاهِيرَ، وشَرِبَ مِنْ مَاءِ الغُدْرانِ عَلَى حِينِ كانَتْ أسْمَاعُهُ تَلَذُّ طَنِينَ الذُّبابِ وأَزِيزَهُ؛ قَدِ اخْضَرَّتْ مِنهُ المشَافِرُ مِنْ أكْلِهِ الكَلأَ النَّضِيرَ؛ وتَعَطَّرَتْ مِنهُ السَّنابِكُ مِنْ وَطْئِهِ النُّوَّارَ العَطِيرَ، تَمَرَّغَ

مَرِحاً عَلَى النَّباتِ حَتَّى كأنَّ هذا النَّباتَ سُنْدُسٌ جِيْءَ لَهُ بِهِ مِنَ الجَنَّةِ؛ يَمْشِي مُتمايِلاً مُتخايِلاً مِنِ اسْتِطارَةِ الفَرَحِ تَمايُلَ مَنْ لَعِبَتْ بِرأْسِهِ ابْنَةُ العِنَبِ، ويُغَرِّدُ إذا صاحَ تَغْرِيدَ مَنْ اسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ وتَمَلَّكَتْهُ النَّشْوَةُ؛ وإنْ أَتَى مِنهُ النَّهِيقُ غَضِيضاً (سَحِيلاً) فإنَّما هو تَمْجِيدٌ لِلَّهِ؛ وإنْ أَتَى ضَجِيجاً (شَحِيجاً) فَذلِكَ تَكْبِيرٌ مِنهُ وتَهْلِيلٌ؛ فإذا صَفَنَ (والصُّفُونُ قِيامُهُ عَلَى ثلاثِ قَوائِمِ وثَنْيُهُ حافِرَ الرَّابِعَةِ) كانَ صُفُونُهُ تَقْدِيساً؛ وإنْ عَدا كانَ وَقْعُ حَوافِرِهِ عَلَى سَهْلِ الأَرْضِ وحَزْنِها شاهِداً بِأَنَّ اللهَ أَوَّلُ حَكِيمٍ؛ فإذا قَضَى مِنَ الرَّبِيعِ فُصُولاً عَدِيدَةً، واخْتَلَفَتْ أَماكِنُ اصْطِيافِهِ سَنَواتٍ كَثِيرَةً، ثُمَّ كانَ أنِ اشْتَدَّ الحَرُّ وارْتَفَعَتْ الشِّعْرَيانِ إيْذاناً بِصَيفٍ لافِحٍ؛ وتَرَكَتِ السُّنُونُ المُتَطاوِلَةُ آثارَها على ظَهْرِهِ واسْتَحالَ شَحْمُهُ إلى عَضَلٍ وعَصَبٍ مِنْ كَثْرَةِ ضَرْبِهِ في الأَرْضِ نَجْدِها ووَهْدِها، عَزَمَ أنْ يَرِدَ الماءَ والماءُ مِنهُ بَعِيدٌ. وكانَ أنْ سَبَقَهُ إلى هذا الماءِ صائِدٌ طَمِعٌ كأنَّهُ النَّمِرُ شَراسَةً وفَتْكاً، وقَدْ حَمَلَ في جُعْبَتِهِ سِهاماً حَدِيدَةَ النِّصالِ؛ وهو رَامٍ ماهِرٍ يَمْلِكُ أنْ يَضَعَ سَهْمَهُ مِنَ الوَحْشِ في المَوْضِعِ الذي يُرِيدُ؛ قَدْ أَقْسَم، وقد أَبَرَّ قَسَمَهُ، أنْ يُرَوِّيَ هذِهِ السِّهامَ مِنْ دِمَاءِ المُتَقَدِّماتِ في القَطِيعِ، لَهُ صِبيَةٌ صِغارٌ شُعْثٌ كأنَّهُمُ الجِحاشُ، وزَوْجَةٌ جَرِيئَةٌ كأنَّها الغُوْلَةُ[1]، يُطْعِمُهُمْ مِنْ لَحْمِ الطَّيرِ ولُحُومِ أَكْفالِ الحَيْوانِ وأَرْدافِهِ، ويَكْثُرُ عِنْدَهُمُ القَدِيدُ المُتَّخَذُ مِنْ لَحْمِ الحُمُرِ الوَحْشِيَّةِ. فَبَاتَ هذا الصَّيَّادُ لَيْلَتَهُ تِلْكَ ساهِراً يُطْمِعُ نَفْسَهُ في الصَّيْدِ، وكَذَلِكَ بَاتَ أطفالُهُ ساهِرِينَ جُوعاً[2]، وقَدِ اخْتَبَأَ في مَخْبَئِهِ، لَيْسَ لَهُ في ظُلْمَةِ هذا اللَّيْلِ المُوْحِشَةِ مِنْ سَمِيرٍ إلَّا مِنَ البَقِّ وسَمَاعِ صَوْتِ احْتِكاكِ الحَيَّةِ القَرْناءِ وهِيَ تَحْتَكُّ بِنَفْسِها؛ حَتَى إذا طَلَعَ الفَجْرُ، وَرَدَ الوَحْشِيُّ هذا الماءَ تَصْحَبُهُ إناثُهُ مِنَ الأُتُنِ، وهُوَ يَظُنُّ

---

[1] ذَكَرَ الجاحِظُ أنَّ الغُوْلَ يَتَلَوَّنُ في الظُّهُورِ ذَكَراً أو أُنْثَى، إلاَّ أنَّ الأَكْثَرَ على أنَّهُ أُنثى، انظُرْ (الحَيَوَان)، القاهرة، ١٩٤٧ ج ٦ ص ١٥٨ وما بَعْدَها.

[2] يَبْدُو هذا الكَلامُ مِنهُ مُناقِضاً لِمَا مَرَّ مِنْ وَصْفِهِ بَيْتَ الصَّيَّادِ

أنَّ الماءَ خِلْوٌ مِنَ الأخْطَارِ وطُلاَّبِ الصَّيْدِ؛ فَمَا كادَ يَقْرَبُهُ لِيَنْغُبَ مِنهُ نُغَباً حَتَّى رَمَاهُ هذا بِسَهْمٍ كأنَّهُ نَابُ الغُولِ فأنفَذَهُ مِنهُ الكَبِدَ، فَسَقَطَ صَرِيعاً بِعِلْمِ اللهِ، وفَرَّتْ أُتُنُهُ أيامَى (بلا زَوْجٍ) ما تكادُ تَشعُرُ بِفَقْدِ الزَّوْجِ ولا بُرَحاءِ التأيُّمِ، ولَقِيَ البائِسُ ما حَتَّمَهُ القضَاءُ وأنْفَذَهُ القَدَرُ).

ومَوْضُوعُ هذِهِ الغايَةِ الذي أوْرَدْناهُ قَدْ وَرَدَ في كَثِيرٍ مِنْ قَصائِدِ الشِّعْرِ القَدِيمِ. والعِبَاراتُ:

- اخْضَرَّتْ جَحافِلُهُ مِنْ لَسِّ الغَمِيرِ، ....
- أمَرَّتْهُ الرِّجَلُ، ....
- عَتِيقُ الأعْوامِ، .... إلخ

وغَيْرُهُنَّ مِنَ العِباراتِ الأُخْرَى مَوْجُوداتٌ في بَعْضَ القَصائِدِ السَّائِرَةِ. ومِنَ الواضِحِ أنَّ كَلِماتِ التَّقْفِيَةِ والسَّجْعِ (حَكِيْم) و(أرَادْ) و(الهادِيات) و(السّعْلاة) و(القَطَوات) و(أخْدَرِيَّات) و(صَرِيم) و(خَمُوش) لا يَتَوافَقْنَ مَعَ أيٍّ مِنَ المَعانِي والأفكارِ هُنا ولَيْس يَجْمَعُ بَيْنَهُنَّ قَطُّ هُنا إلَّا أنَّ الحَرْفَ الأخِيرَ (حرْفَ القافِيَةِ الساجِعَةِ) فِيهِنَّ جَمِيعاً يَأْتِي عَقِبَ حَرْفِ مَدٍّ. وهَذا النَّهجُ الغَرِيبُ في التَّقْفِيَةِ مَوْجُودٌ في كَثِيرٍ مِنْ سُوَرِ القُرْءان؛ كَمَا في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى[1] ﴿وأمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ والأرْضُ إلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ* فلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ، ما يَعْبُدُونَ إلَّا كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وإنَّا لَمُوَفُّوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوْصٍ* ولَقَدْ آتَيْنا مُوْسَى الكِتَابَ فاخْتُلِفَ فِيهِ، ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنهُ مُرِيْبٍ* وإنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعْمَالَهُمْ، إنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ* فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ومَنْ تَابَ مَعَكَ ولا تَطْغَوْا إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ﴾.

---

[1] الآياتُ مِنْ ١٠٨ – ١١٢ مِنْ سُوْرَةِ هُوْدٍ.

وأمّا أُسلُوبُ أبي العلاء في اقْتباسِنا هذا الأَخيرِ مِنَ الفُصُولِ فيُمْكِنُنا أنْ نَنْظُرَ بِهِ إلى أُسلُوبِ الآيةِ الكريْمَةِ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والذيْنَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً، سِيْمَاهُمْ في وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ؛ ومَثَلُهُمْ في الإنْجِيْلِ كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْئَهُ فآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الكُفَّارَ؛ وَعَدَ اللهُ الذيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيْماً﴾[1]

والقارِئُ، في كِلا هَذَيْنِ المِثالَيْنِ، يَنْتَظِرُ أنْ يَنْتَظِمَ ما يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ سَلْسِلةٌ لا تَنْقَطِعُ مِنَ العِباراتِ في قَافِيَةٍ واحِدَةٍ، ويَظَلُّ حَبِيسَ هذا التَّرَقُّبِ عَبْرَ حَرَكَةٍ مُعَقَّدَةٍ لِلْجُمَلِ والتَّعابِيْرِ حَتَّى تُسْعِفَهُ القافِيَةُ ولَكِنْ في عَيْنِ نِهَايَةِ الفَقْرَةِ. ويَبْلُغُ التَّشابُهُ بَيْنَ أُسلُوبِ كَثِيرٍ مِنْ فِقراتِ (الفُصُولِ) وأُسْلُوبِ السُّوَرِ المكِيَّةِ أحْيَاناً مَبْلَغاً جِدَّ مُلْفِتٍ لِلْنَّظَرِ، حَتَّى لَرُبَّما تَبدَّدَ الشَّكُّ عِنْدَنا في أنَّ شاعِرَنا قَدْ كانَ أَرادَ بِالفُصُولِ مُعَارَضَةَ أوَائِلِ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْءانِ مِنَ الآيِ. خُذْ مَثَلاً قَوْلَ أبي العلاءِ في أَوَّلِ صَفْحاتِ (الفُصُول):

(أَحْلِفُ بِسَيْفٍ هَبَّارٍ، وفَرَسٍ ضَبَّارٍ، يَدْأَبُ في طاعَةِ الجَبَّارِ، وبَرَكَةِ غَيْثٍ مِدْرارٍ، تَرَكَ البَسِيطَةَ حَسَنَةَ الحَبارِ، لَقَدْ خابَ مُضِيعُ اللَّيْلِ والنَّهارِ، في اسْتِمَاعِ القَيْنَةِ وشُرْبِ العُقَارِ، أَصْلِحْ قَلْبَكَ بالأَذْكارِ، إصْلاَحَ[2] النَّخْلَةِ بِالإبارِ، لَوْ كُشِفَ ما تَحْتَ الأحْجارِ،

---

[1] الآيَةُ ٢٩، مِنْ سُوْرَةِ الفَتْحِ.

[2] في الفُصُولِ: (صَلاَحَ) بِالمجرَّدِ، وما أثبتَهُ المؤلِّفُ هنا (إصْلاحَ)، بالزِّيادةِ، هُوَ الصَّوَابُ لِأَنَّهُ مَصْدَرُ (أَصْلَحَ) الرُّبَاعِيِّ قِياساً، و(صَلاحُ) بِالمجَرَّدِ تُخالِفُ القِيَاسَ والقاعِدَةَ، لِأَنَّها مَصْدَرٌ لِلثُّلاثِيِّ (صَلَحَ). هذا ولا يَحْتَجَّنَّ في هذا المقَامِ مُحْتَجٌّ بِالآيةِ الكَرِيْمَةِ ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ إذْ لَمْ يَقُلْ (مُرْتَقِبٌ)؛ أَقُولُ: لايَصِحُّ هذا الاحْتِجاجُ لِأَنَّ مَعِيَّةَ الرسولِ هُنا لِقَوْمِهِ إِنَّما هِيَ في أَصْلِ الفِعْلِ (رَقَبَ) لا في الهَيْئَةِ مِنهُ، فأمَّا الهَيْئَةُ فلا مَعِيَّةَ له فِيها مَعَهُمْ، لأنَّ حالَ قَوْمِهِ يَخْتَلِفُ عَنْ حالِهِ هُوَ، فَحالُهُمْ بِشَكِّهِمْ وكُفْرِهِمُ الارْتِقابُ،

فَنظَرْتَ إلى الصِّدِيقِ المختارِ، أكْبَرْتَ ما نَزَلَ بِهِ كُلَّ الإكْبار، نَحْنُ مِنَ الزَّمَنِ في خَبارٍ، كَمْ في نَفْسِكَ مِنِ اعْتِبارٍ، ألا تَسْمَعُ قَدِيمَةَ الأَخْبارِ، أيْنَ وَلَدُ يَعْرُبٍ ونِزارٍ، ما بَقِيَ لَهُمْ مِنْ إصارٍ، لا وخَالِقِ النَّارِ، ما يُرَدُّ الموْتُ بِالإباءِ).

فَأَنْتَ واجِدٌ هُنَا، كَمَا في السُّوَرِ المكِيَّةِ الأُوَلِ، فِقَراتٍ قِصاراً مُقَفَّياتٍ، قَدْ أَمْسَكَ بَعْضُهُنَّ بِرِقابِ بَعْضٍ. ولا يَنْسَى شاعِرُنا، في مُحاكاتِهِ لِأُسْلُوبِ القُرْءانِ، أنْ يَسْتَخْدِمَ أساليبَ القَسَمِ، كَمَا في قَوْلِهِ (أحْلِفُ بِسَيْفِ هَبَّار) وقَوْلِهِ (وخالِقِ النَّار) فَهَذِهِ الأَقْسامُ مِنهُ تُشْبِهُ أَقْسامَ القُرْءان، ﴿والتِّيْنِ والزَّيْتُونِ﴾[1] و﴿والطُّورِ﴾[2].

وقَدِ احْتَوَى كِتابُ الفُصُولِ، كَمَا احْتَوَى اللُّزُومُ، عباراتٍ تَنْطَوِي عَلَى زَنْدقةٍ، ولَكِنَّها عادَةً ما تَأْتِي مُتَخَفِّيَةً تَحْتَ سِتارِ إظْهارِ الوَرَعِ والتَّقْوَى. خُذْ، مَثَلاً، قَوْلَهُ:

(عَزَزْتَ باعِثَ الأرْواحِ، أَمَّا اللَّحاقُ بِالقَوْمِ فَقَرِيبٌ، ولَسْتُ مِنْ لِقائِهِمْ عَلَى يَقِينٍ، فالقَلْبُ لِذَلِكَ آسِفٌ حَزِينٌ، أَفَتُرَانِيَ أُوْجَرُ عَلَى ذَلِكَ وأُثَابُ). وخُذْ، أَيْضاً، قَوْلَهُ:

(الجَسَدُ بَعْدَ فِراقِ الرُّوْحِ كَمَا قُصَّ مِنْ يَدِكَ وقُصِّرَ مِنْ فَوْدِكَ، إذا أُلْقِيَ فَسِيطٌ في النَّارِ لَمْ تُبالِهِ، وإذا غُرِّقَ فَلِيلٌ في اللُّجِّ فَكَذَلِكَ؛ هَكَذَا يَقُولُ المعْقُولُ، ولِلهِ نَظَرٌ في العالَمِ دَقِيقٌ، لا يَمْتَنِعُ أنْ يَكُونَ جَسَدُ الصَّالِحِ إذا قُبِرَ في نَعِيمٍ، وجَسَدُ الكافِرِ في عَذَابٍ أَلِيمٍ، لا يَعْلَمُ بِهِ الزَّائِرُونَ، وعابِدُ اللهِ لَيْسَ بِغَبِينٍ. لَيْتَ أنْفاسِي أُعْطِينَ تَمَثُّلاً فَتَمَثَّلَ كُلُّ نَفَسٍ رَجُلاً قائِماً يَدْعُو اللهَ تَبَتُّلاً، يَمْنَعُ جَفْنَهُ لَذِيذَ الإغْفاء).

-افْتِعالٌ مِنْ رَقَبَ، وأمَّا حالُهُ هُو فالرَّقابةُ (بِلا افْتِعالٍ) إذْ لا يَجُوزُ في حَقِّهِ افْتِعالُها بِما عِنْدَهُ مِنْ يَقِينٍ ووَحْيٍ، فَتَأَمَّلْ فَهَذا مِنْ دَقِيقِ مَعَانِي القُرْءان. (التُّرْجُمان).

[1] الآيَةُ ١ مِنْ سُوْرَةِ التِّيْنِ.

[2] الآيَةُ ١ مِنْ سُوْرَةِ الطُّوْر.

أيْ فالجَسَدُ بَعْدَ أَنْ تُفارِقَهُ الرُّوحُ لا يَعُودُ ذا نَفْعٍ، إذْ لا يَعْدو أنْ يَكُونَ مِثْلَ قُلامَةِ الظُّفْرِ أوْ حُلاقَةِ الشَّعْرِ أوْ نَوَاةِ التَّمْرِ أُلْقِيَتْ في النَّارِ أو كَتَابِ البَعِيرِ المكْسُورِ أُغْرِقَ في اليَمِّ، فَيَعُودُ مِمَّا لا يُبالَى بِهِ لأنَّهُ يَنْتَهِي إلى شَيْءٍ غَيْرِ ذِي نَفْعٍ، فَذَلِكَ ما قَضَى بِهِ العَقْلُ، ولَكِنَّ للهِ تَعَالَى نَظَراً في العالَمِ يَدِقُّ عَنِ الفُهُومِ والعُقُولِ، فَلا يَسْتَحيلُ عِنْدَهُ أنْ يُنَعَّمَ جَسَدُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ بَعْدَ دَفْنِهِ، ولا أنْ يُعَذَّبَ جَسَدُ الكافِرِ بَعْدَ مُواراتِهِ الثَّرَى دُوْنَ أنْ يَعْلَمَ بِذَلكِ الزَّائِرُونَ. وإنَّ مَنْ عَبَدَ اللهَ لَمْ يَخْسَرْ شَيْئاً بَلْ فازَ كُلَّ فَوْزٍ لِأنَّهُ قَدْ وَجَدَ بِذَلِكَ الغِنَيَّ، فَلَيْتَ أنْفاسِي التي أَتَنَفَّسُها مُكِّنَتْ مِنْ أنْ تَتَمَثَّلَ أشْخاصاً فَيَتَمَثَّلَ كُلُّ نَفَسٍ لِي مِنْها رُجَلاً قائِماً بِدُعاءِ اللهِ تَبَتُّلاً، مُمْتَنِعاً بِذَلِكَ عَنْ لَذَّةِ النَّوْمِ.

وقَدْ كانَ تَفْكِيرُ ابْنِ عَقِيلٍ مُنْصَرِفاً إلى مِثْلِ هذه الفِقَراتِ مِنْ غاياتِ أبي العلاء لَمَّا كَتَبَ عَنْهُ أنَّهُ كانَ يُضَمِّنُ بِخُبْثٍ تَعَابِيرَهُ في الثَّناءِ على اللهِ انْتِقاداً لِلإِسْلامِ مُنْكَراً[1].

وكَثِيْراً ما اسْتَخْدَمَ أبو العلاء جُمَلاً تَطُولُ يُحِلُّها مَحَلَّ عِبارَاتٍ بَسِيطةٍ قَلِيلَةٍ. فَهُوَ مَثَلاً يأْتِي بِمِثْلِ هَذِهِ الجُمَلِ يُرِيدُ أنْ يَقُولَ (حَتَّى يَقَعَ المحَالُ) أو (رُبَّما صَيَّرَ اللهُ المحَالَ غَيْرَ مُحَالٍ). وهَذَا الضَّرْبُ مِنَ التَّعْبِيرِ يَبْدُو مُثْقِلاً مُمِلّاً ؛ ولَكِنَّهُ في بَعْضِ الأحَايِينِ يُمَثِّلُ مأَداةً ذَكِيَّةً لِلسُّخْرِيَةِ، كَمَا في قولِهِ (يَقْدِرُ رَبُّنا أنْ يَجْعَلَ الإنسانَ يَنْظُرُ بِقَدَمِهِ، ويَسْمَعُ الأصْوَاتَ بِيَدِهِ، وتَكُونُ بَنَانُهُ مَجارِيَ دَمْعِهِ، ويَجِدُ الطَّعْمَ بِأُذُنِهِ، ويَشَمُّ الرَّوَائِحَ بِمَنْكِبَيْهِ، ويَمْشِي إلى الغَرَضِ عَلَى هامَتِهِ)[2] (وواضِحٌ هنا أنَّهُ إنَّما أرادَ بِهَذا الصُّوفِيَّةَ).

ولَكِنَّ هَذِهِ الجُمَلَ الطَّوِيْلةَ البَدِيْلَةَ لا تَعُودُ مُغْتَفَرَةً لِأبي العلاء إذا جاءَ بِهَا في الفِقَراتِ التي حَوَتْ أدْعِيَةً قانِتَةً وتأمُّلاتٍ دِيْنِيَّةً خالِصةً؛ كقَوْلِهِ مَثلاً:

---

[1] تعريف القدماء، ص ٢٠.

[2] الفُصُول، ص ٣١.

- (ولكَ الحُجَّةُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَتَّى يقِفَ الظَّرِبانُ على الظَّرِبِ، مَوْقِفَ الكَئِيبِ الحَرِبِ، يَبْكِي مِنْ بَيْنِ أُمِّ حُبَيْنٍ، وذَلكَ ما لا يَكُونُ إلَّا أنْ تُرِيدَ)[1]. (ذَكَرَ الجاحِظُ أنَّ الظَّرِبانَ لا يَزالُ مُولَعاً بِخِداعِ الضِّبابِ والعَظاياتِ وغَيْرِها مِنَ الدَّوابِّ الزَّاحِفَةِ كأُمِّ حُبَيْنٍ البائِسَةِ حتى يَفْتَرِسَها)[2]. وكَقَوْلِهِ أيضاً:

- (رَبِّ أَبْلِغْني هَواي، وارْزُقْني مَنْزِلاً لا يَلِجُهُ سِواي، مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ، فهُوَ كَعِنْدَ، وأنا كَمِنْ، ولا تَجْعَلْني رَبِّ في الصَّالِحِينَ كَواوِ الخَزْمِ[3]، والثابِتَةِ في الجَزْمِ، وأَثْبِتِ اسْمِيَ في دِيوانِ الأَبْرارِ مَعَ الأَسْماءِ المتَمَكِّناتِ)[4].

فَهَذِهِ الأَدْعِيَةُ يُشْتَمُّ مِنْها رائحةُ الهَرْطَقَةِ والتَّجْديفِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ مَعانِي الإِخْلاصِ والوَرَعِ والقُنُوتِ وبَيْنَ استِعْمالِ هذه اللُّغَةِ المتَحَذْلِقَةِ المتَقَعِّرَةِ.

فَكِتابُ (الفُصُولِ والغاياتِ) مَعَ أَنَّهُ احْتَوَى طائِفَةً رَائِعَةً مِنْ أَمْثِلَةِ المهارةِ اللَّفْظِيَّةِ والمعْرِفَةِ المتَعَمِّقَةِ، ومَعَ أَنَّهُ قَدَّمَ فَهْماً مُتَفَرِّداً مِنْ كاتِبِهِ لِأُسْلُوبِ القُرْءانِ الصَّعْبِ، إِلَّا أَنَّهُ لا يُمْكِنُ تَبْرِئَتُهُ كُلَّ التَّبْرِئَةِ مِنْ تُهْمَةِ الطَّيْشِ أوِ العَبَثِ. فَمَا تَعاطاهُ أبو العلاءِ مِنَ الموْضُوعاتِ واللُّغَةِ الجاهِلِيَّةِ الطَّابَعِ في كَثِيرٍ مِنْ فُصُولِهِ إِنَّما كانَتْ مِنَ الحُوشِيِّ المهْجُورِ حَتَّى في عَصْرِهِ ولَكِنَّها لَيستْ كَذَلِكَ، بِطَبِيْعَةِ الحالِ، في أَعْيُنِ عُلَماءِ اللُّغَةِ. ثُمَّ إِنَّ أَخْذَهُ بِأُسلوبِ القُرْءانِ مَطِيَّةً لِعَرْضِهِ دَقَائِقَ النَّحْوِ وما هُوَ بِمُجْراها مِنَ الموْضُوعاتِ العِلْمِيَّةِ يُشِيرُ إلى عَدَمِ تَوْقِيرٍ لِهَذا النَّصِّ المقَدَّسِ. ومِنَ الحقِّ أنْ نُقَرِّرَ هُنا أَنَّهُ لَوْ كانَ حَقّاً أُرِيد بِكِتابِ

---

[1] نفسه، ص ٣٠.

[2] (الحَيْوَان) لِلْجاحِظ، ج ٦، ص ٢٨٨

[3] هِيَ واوٌ زائِدةٌ، تُزادُ عَرُوضِيّاً في أَوَّلِ البَيْتِ أو في أَوَّلِ المِصْراعِ الثاني مِنَ البَيْتِ، ولا تُفِيدُ شَيْئاً في المعْنَى، ومِثْلُها الواو التي تَثْبُتُ عِندَ الجَزْمِ، لهذا الغَرَضِ، وواضِحٌ أَنَّ المعنى المرادَ: لا تَجْعلْني شَيئاً مُكرَّراً بلا مَعْنَى. (المترجم)

[4] الفُصُول، ص ١٢٢.

الفُصُولِ هذا اسْتِجَابةٌ لِتَحَدِّي القُرْءانِ ومُعَارضَتُهُ، فَلَهِيَ اسْتِجابَةٌ قَدْ طاشَتْ بَعِيْداً عَنْ مَرْمَاها وأَخْطَأَتْ غَرَضَها.

وقَدْ كانَ بَعْضُ مَنْ تناولَ سِيرَةَ أبي العلاء شَدِيدَ الاقْتِناعِ بِتَسْفِيهِ هذا الكِتابِ والنَّيْلِ مِنهُ وانْتِقاصِ قَدْرِهِ وذَلِكَ بإطْلَاقِ صِفاتٍ عَلَيْهِ مِثْلِ (بارِدٍ) و(سخِيف)[1].

مَلْقَى السَّبِيْل:

لابُدَّ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ أَمْلَى هذا الكِتابَ في أوَاخِرِ حَيَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ يُصَوِّرُ نَظْرَةً إلى قَضَايا الدِّينِ مِلْؤُها الوَرَعُ والتُّقَى. ولَسْتَ تَجِدُ فِيهِ إلَّا بَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ يُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ مِنهُما الشَكُّ في الآخِرَةِ، وهُما[2]:

يا ساكِنِي التُّرْبِ ما عِنْدِي لَكُمْ خَبَرٌ ولا كِتَابٌ إلَيْنا مِنْكُمْ وَصَلا
لَمْ تَأْتِنا مِنْكُمْ رُسْلٌ مُخَبِّرَةٌ فَلَيْتَ شِعْرِي عَنِ المَقْبُورِ ما فَعَلا؟

وما أوْهَنَ هذِهِ الشُّكُوكَ وأوْهَاها بِالنَّظَرِ إلى ما في (اللُّزُومِ) مِنْ أقْوالِ أَبِي العَلاءِ السَّافِرَةِ الجَرِيْئَةِ؛ فهِيَ تُشْبِهُ أنَّاتِ أبِي العَتَاهِيَةِ ووَهْوَهاتِهِ وبُكاءَهُ في زُهْدِيَّاتِهِ، كَقَوْلِهِ، مَثلاً[3]:

فَلَوْ كانَ هَوْلُ المَوْتِ لا شَيْءَ بَعْدَهُ لَهَانَ عَلَيْنا الأَمْرُ واحْتُقِرَ الأَمْرُ
ولَكِنَّهُ حَشْرٌ ونَشْرٌ وجَنَّةٌ ونَارٌ وما قَدْ يَسْتَطِيلُ بِهِ الخَبَرُ

---

[1] تعريف القدماء، ص ٢١.

[2] مَلْقَى السَّبِيل، ص ١٧.

[3] ديوان أبي العَتَاهِيَةِ، بيروت، ١٨٦٧ ج٣. وُلِدَ أبو العتاهية (١٣٠هـ - ٢١١هـ).انظُرْ لِترجمتِهِ الأغانِي ج٣ ص ١٢٦ والوَفَيات ج١ ص ٨٩.

وقد كانَ أبو العتاهِيَةِ، عَلَى الأرْجَحِ، زِنْدِيقاً (مُفكِّراً حُرّاً) كغَيْرِهِ مِنْ قُرنائِهِ؛ ولَكِنَّ خَوْفَهُ مِنْ سَطْوَةِ رِجالِ الدِّينِ هُوَ الذي دَفَعَهُ لأنْ يَنْحُوَ هذا المَنْحَى الحَذِرَ. وأمَّا صاحِبُنا، فإنَّ تَقَدُّمَهُ في السِّنِّ وشُعُورَهُ باقْتِرابِ الأجَلِ، هُوَ مِمَّا أفْضَى بِهِ إلى هَذَا الرُّوْحِ الدِّيْنِيِّ الطَّابَعِ.

وفي البَدْءِ يَمِيْلُ المرْءُ إلى الشَّكِّ في صِحَّةِ نَسَبِ هذا الكِتَابِ إلى أبي العلاءِ؛ لأنَّهُ يَبْدو مُخْتَلِفاً أَشَدَّ الاخْتِلافِ عَنْ لُزُومِهِ ورِسَالةِ غُفْرَانِهِ. ولَكِنَّنا لا نَمْضِي في هذا الشَّكِّ إلا رَيْثَما يَنْهَضُ أمامَنا الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِ إلى أبي العلاء وقد بَلَغَ مِنَ القُوَّةِ والقَطْعِيَّةِ حَدّاً لا سَبِيْلَ مَعَهُ إلى دَفْعٍ أو نَقْضٍ. فَقَدْ كانَ هَذَا الكِتابُ مِنْ أشْهَرِ ما كَتَبَ أبو العلاءِ، وكان كَثِيرٌ مِنْ شُعَرَاءِ المغْرِبِ وإسبانيا يُحاوِلُونَ تَقْلِيْدَهُ ومُضاهَاتَهُ[1]. ثُمَّ إنَّ هُناكَ نُسْخَةً مِنهُ مَخْطُوطةً مَحْفُوظةً بأسكوريال تَعُودُ إلى القَرْنِ السادسِ الهِجْرِيِّ[2].

ويَقَعُ مَلْقى السَّبِيْلِ في مُجلَّدٍ صَغِيْرٍ يَحْوِي تَفكُّراً وتأمُّلاتٍ في المَوْتِ، وأفكاراً وآراءً حَوْلَ طَبِيعَةِ الحَيَاةِ العارِضةِ التي إلى زَوالٍ؛ وقَدْ كُتِبَ أوَّلاً بِنَثْرٍ مَسْجُوعٍ، ثُمَّ أُعِيدَ هذا المَنْثُورُ نَظْماً شِعْرِيّاً عَلَى ذَاتِ أحْرُفِ الرَّوِيِّ التي كانَتْ سُجِعَتْ عَلَيْها الفِقراتُ المَنْثُورَةُ المتَقَدِّمةُ عَلَى النَّظْمِ. ويَضُمُّ الكِتابُ تِسْعَةً وعِشْرينَ جُزْءاً صَغِيراً قَدْ وَضِعَتْ عَلَى أحْرُفِ الهِجاءِ أوِ النَسَقِ الألْفَبائِيِّ لِقَوَافِيها، وفي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هذِهِ الأجْزاءِ اسْتُخْدِمَ حَرْفٌ واحِدٌ مِنْ أحْرُفِ الهِجاءِ؛ وهذا يَعْنِي أنَّ أبا العلاء قَدْ صَنَعَ في مَلْقَى السَّبِيْلِ ما كانَ صَنَعَ في اللُّزُومِ والفُصُولِ، إذِ اسْتَخْدَمَ كُلَّ حُرُوفِ الهِجاء في قَوَافِيهِ. وإنْ كانَ في كِتابِ (المَلْقَى) قَدْ عَدَّ اللاَّمَ ألِف أوْ (لا) حَرْفاً مُنْفَصِلاً؛ فَذَلِكَ ما يُفَسِّرُ لَنا وُجُودَ تِسْعَةٍ وعِشرِينَ

---

[1] تعريف القدماء، ص ٤٥٥.

[2] نفسه

فَصْلاً في (الملْقَى) بَدَلاً عَنْ ثَمانِيَةٍ وعِشْرِينَ. ونُوْرِدُ لَكَ أيُّها القارِئُ هنا جُزْءاً يَسِيراً عَسَى أنْ يَكونَ مِثالاً صالحِاً لِأَجْزاءِ (الملْقَى)؛ فَهَاكَ أوَّلاً هذا الجُزْءَ نَثْراً[1]:

(لا تَبْرُزِي يا غانِيَةُ، فإنَّها الدَّارُ الفانِيةُ، سَتَرَكِ بِكِلَّةٍ وَالِدَاكِ، فَلْتُمَسِّكْ بِالنُّسْكِ يَدَاكِ، الوَرَعُ ذَهَبٌ إبْرِيزٌ، والجَدَثُ حِرْزٌ حَرِيزٌ، قَدْ تَهْلِكُ فَتاةٌ رُودٌ، وتَلْبَثُ مُسِنَّةٌ تَرُودُ).

أيْ لا تَخْرُجِي أيَّتُها المرْأَةُ الجَمِيلَةُ سَافِرَةً، فَمَا تَرَيْنَها مِنْ دَارِ إقامَةٍ إنَّما هِيَ إلى بِلَىً وزَوالٍ، ولَقَدْ حافَظَ عَلَيْكِ والِدَاكِ يَسْتُرانِكِ خَلْفَ خِبائِكِ وخِدْرِكِ، فاسْتَمْسِكِي أنْتِ بِالتُّقَى، فَالدِّينُ قِيْمَةٌ نَفِيسَةٌ نَفَاسةَ الذَّهَبِ، وأمَامَكِ القَبْرُ مأوَىً مَنِيعاً؛ فَقَدْ يُلِمُّ الموْتُ بَالفَتاةِ وهِيَ ما تَزالُ غادَةً ناعِمَةً، وتُعَمَّرُ العَجُوزُ بَعْدَ أنْ ذَوَتْ مِنْها نَضارَتُها وذَهَبَ عَنْها جَمالُها.

ثُمَّ يَنْظِمُ أبو العلاء هذا الجُزْءَ المنْثُوْرَ شِعْراً، فَيَقُولُ[2]:

يَمُوْتُ قومٌ وَرَاءَ قَوْمٍ ويَثْبُتُ الأَوَّلُ العَزِيزُ
كَمْ هَلَكَتْ غَادَةٌ كَعَابٌ وعُمِرَتْ أُمُّها العَجُوزُ
أحْرَزَها الوَالِدانِ خَوْفاً والقَبْرُ حِرْزٌ لَهَا حَرِيزُ
يَجُوزُ أنْ تُبْطِئَ المنَايَا والخُلْدُ في الدَّهْرِ لا يَجُوزُ

أيْ يَتَتَابَعُ الأَقْوَامُ نَحْوَ الموْتِ، ولا يَبْقَى إلَّا الأوَّلُ الآخِرُ، ولَيْس لِلْمَوْتِ مَنْطِقٌ مَعْقُولٌ، فَقَدْ يَسْبِقُ إلى فَتاةٍ غَضَّةٍ ناهِدٍ ويَتَأخَّرُ عَنْ أُمِّها المسِنَّةِ دَهْراً، فَتَتَحَوَّلَ هذِهِ الفتاةُ الجَمِيلَةُ مِنْ صَوْنِ خِدْرِ وَالِدَيْها إلى صَوْنِ اللَّحْدِ الذي لا يُنْتَهَكُ، وقد يَتَأخَّرُ الموْتُ حِيناً، ولَكِنَّ مَجِيئَهُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ، إذْ لا يَجُوزُ الخُلُودُ في حَقِّ المخْلُوقاتِ.

---

[1] ملقى السبيل، ص ٩، ١، ١١.

[2] نفسه، ص ٩، ١، ١٥.

ويَبْدو (مَلْقَى السَّبِيْل) كأنَّهُ تأْلِيفٌ مُصَغَّرٌ لِأُسْلُوْبَيْ الفُصُولِ واللُّزُوم؛ ولكنَّ ألفاظَهُ أكْثَرُ سُهُولَةً مِنْ أَلْفَاظِهِمَا، ولَسْتَ بِوَاجدٍ فِيهِ ما تَلْقَاهُ فِيهِما مِنَ الإشاراتِ الدَّالةِ على سَعَةِ مَعْرِفَةِ الشَّاعِرِ وتبَحُّرِهِ العِلْمِيِّ واسْتِطْراداتِهِ التي يَنْزِعُ إلَيْها مَتى شاءَ وساخِرِ تَعْليقاتِهِ. إنَّ كِتابَ مَلْقَى السَّبِيْلِ كِتابُ شَيْخٍ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ فَهُو يُعِدُّ نَفْسَهُ لِلرِّحْلَةِ الرَّهِيبَةِ إلى العالَمِ الآخَرِ وهُوَ، كَذَلِكَ، كِتابٌ يَشْهَدُ بِدِقَّةٍ عَلَى انْحِسارِ حَيَاةِ شاعِرٍ وتَرَاجُعِ ما كان لَهُ مِنْ قُدْراتٍ، وأُفُولِ ما كانَ عَلَيْهِ مِنْ دَوْلاتٍ.

الجزء الثاني

الفصل الثالث

سقط الزند

الجزء الثاني

الفصل الثالث

سقط الزند

مُقَدِّمة:

يَعْنِي اسْمُ هذا الدِّيوَانِ فِي أَصْلِ مَعْنَى اللَّفْظِ ما يَتَساقَطُ مِنْ شَرَرِ النَّارِ عِنْدَ القَدْحِ، وهِيَ عِبارةٌ اسْتَخْدَمَها أبوالعلاء مَجازاً يَصِفُ بِها ما ضَمَّنَهُ هذا الدِّيوَانَ مِنْ شِعْرٍ عَلَى أَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ جِدِّ مُحْكَمٍ؛ فَهَذَا مِنْ أبي العلاء، كَمَا تَرَى، رَأْيٌ فِي شِعْرِهِ في غايَةِ التَّواضُعِ[1].

وقَدْ كانَ لِسَقْطِ الزَّنْدِ مِنَ الشُّهْرَةِ والسَّيْرُورَةِ ما لَمْ يَكُنْ لِتآلِيفِ أبي العلاء الأُخْرَى. وقَدْ حَوَى هذا الدِّيوَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ومائةَ قَصِيدَةٍ بَيْنَ مَقْطُوعةٍ ومُطَوَّلَةٍ، وحَظِيَ مِنَ الشُّرُوحِ الكَثِيرةِ بِما لَمْ يَحْظَ بِهِ أيٌّ مِنْ دَواوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الشَّهِيرةِ، ما خَلا دِيوَانَ المتَنَبِّي.

ومِمَّا يُؤْسِفُ المرْءَ أَلَّا يَجِدَ تَرْتِيبَ قَصَائِدِ هذا الدِّيوانِ، الذي اصْطَنَعَهُ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ، يَقُوْمُ عَلَى أيِّ مَنْهَجٍ عِلْمِيٍّ، إلَّا مِنْ إشارَاتٍ باهِتاتٍ عَلَى التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ لِمُحْتَوَى الدِّيوانِ. ولَسَوْفَ نَتَّخِذُ مِنْ هذِهِ المقَدِّمَةِ غَرَضاً أساساً لَنا هُوَ أَنْ نُحَدِّدَ عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّقْرِيبِ تَوَارِيخَ نَظْمِ بَعْضِ القَصَائِدِ، وأَنْ نُقَدِّمَ خُطَّةً عامَّةً لِنَسَقٍ يَقُومُ عَلَى تَرْتِيبٍ زَمَنِيٍّ، هُوَ الأَقْرَبُ تَرْجِيْحاً عِنْدَنا، تَقُومُ عَلَيْهِ مَجْمُوعاتُ القَصَائِدِ.

---

[1] جاءَ فِي أوائِلِ شَرْحِ التَّنْوِيْرِ عَلَى دِيوانِ سَقْطِ الزَّنْدِ: (... وإنَّما سَمَّى هذا المدَوَّنُ سَقْطَ الزَّنْدِ لِأَنَّهُ مِمَّا أَنْشأَهُ فِي شَبَابِهِ، فشَبَّهَ شِعْرَهُ بالنَّارِ، وطَبْعَهُ بالزَّنْدِ الذي تَقْدَحُ بِهِ النَّارُ، وجَعَلَهُ سَقْطاً لِأَنَّهُ أَوَّلُ ما يَخْرُجُ مِنَ الزَّنْدِ، وهذا الشِّعْرُ أَوَّلُ ما سَمَحَ بِهِ طَبْعُهُ فِي رَيِّقِ شَبابِهِ، فَسَمَّاهُ سَقْطَ الزَّنْدِ تَجَوُّزاً واسْتِعارةً. (التُّرْجُمان).

وإذْ نَجِدُ عِبارَةَ (وقالَ فِي صِباهُ) لا تَسْبِقُ إلا قَصَائِدَ ثلاثاً في الدِّيوانِ كُلِّهِ، فإنَّهُ يُمْكِنُنا أنْ نَسْتَنْتِجَ أنَّ ثَلاثاً فَقَطْ مِن قَصائِدِ هذا الدِّيوانِ هي التي نَظَمَها أبو العلاء خِلالَ سِنِيِّ صِباهُ، أيْ بَيْنَ عامَيْ ٣٧٤هـ و ٣٨١هـ، وهَذِهِ القصائِدُ الثَّلاثُ هِيَ :

١. مَرْثِيَتُهُ في أبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيمانَ[1]، وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّهُ نَظَمَها في ٣٧٧هـ، وهِيَ:

نَقِمْتُ الرِّضا حَتى عَلَى ضَاحِكِ المزْنِ   فَلا جادَنِي إلَّا عَبُوسٌ مِنَ الدَّجْنِ

٢. القِطْعةُ التي مَدَحَ بِها بِلادَ فارِس[2]، وهي التي أوَّلُها:

لِتَذْكُرْ قُضَاعَةُ أيَّامَها   وتُزْهَ بِأَمْلاكِها حِمْيَرُ

٣. القَصِيدة التي مَدَحَ بِها أحَدَ سَراةِ حَلَبٍ ووُجَهائِها، بِالجُزْءِ الثَّانِي، الصفحة ٢٤:

ونَجِدُ في بعْضِ أمادِيحِ أبي العلاء وقَصائدِهِ في الفَخْرِ بَعْضَ الأبْياتِ التي تَصْلُحُ لِأنْ نَتَّخِذَ مِنْها شَوَاهِدَ عَلَى أنَّ القصائِدَ التي وَرَدَتْ فيها إنَّما نُظِمَتْ في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ حَيَاةِ أبِي العلاء. فَفِي أُولَى قَصَائِدِ سَقْطِ الزَّنْدِ جاءَ البَيْتانِ[3]:

سَرَى بَرْقُ المعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ   وباتَ بِرامَةٍ يَصِفُ الكَلالا

شَجَا رَكْباً وأفْراساً وإبْلاً   وَزادَ فَكَادَ أنْ يَشْجُو الرِّحالا

فَهَذا الشِّعْرُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ قدْ نُظِمَ قُبَيْلَ عَوْدَتِهِ إلى مَوْطِنِهِ أوْ بُعَيْدَها، بعْدَ أنْ فَرَغَ مِنْ دِراساتِهِ (سنة ٣٨٣هـ)، وهذا ما عَسَى أنْ يُفسِّرَ لَنا مَسْحَةَ الحَنِينِ إلى الوَطَنِ التي تَشِيْعُ في هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ. كَما أنَّنا نَجِدُ في ذاتِ القَصِيدة بَيْتَيْنِ هَجَا بِهِما مَنْ سَمَّاهُما

---

[1] سقط الزند، ج١، ص ١٩٣.

[2] نفسه، ج٢، الصفحة ٢٤

[3] نفسه ص ٢٣، ج ١

حِصْناً وحُصَيْناً اللَّذَيْنِ يَبْدُو أَنَّهما صَحِباهُ في طَرِيقِهِ؛ ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ المعَرِّيَّ لَمْ يَتَجَشَّمْ عَناءَ رِحْلةٍ قطُّ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ حَلَبٍ إِلَّا فِي سَنَةِ ٣٩٨ ه عِندَما خَفَّ إلى بَغْدادَ. ولَمَّا لَمْ تَكُنِ القَصِيدةُ التي مِنْها هَذانِ البَيْتانِ مِمَّا نَظَمَ في بَغْدادَ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِمَّا نَظَمَهُ بَعْدَ عَوْدتِهِ مِنْ حَلَبٍ سَنَةَ ٣٨٣هـ.

وفي القَصِيدةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سَقْطِ الزَّنْدِ، نَجِدُ أَبْياتاً يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْها أَنَّ الشَّاعِرَ لَمَّا نَظَمَها لَمْ يَكُنْ إِلَّا شابّاً، مِثْلَ قولِهِ:

وعِيْشَتِيَ الشَّبابُ ولَيْسَ مِنْها صِباي ولا ذُؤابَتِيَ الهِجانُ[1]

وعَلَى ذَلِكَ، فَلَرُبَّما كانَ مِنَ المرَجَّحِ أَنْ يَكُونَ تارِيخُ نَظْمِها سَنَةَ ٣٨٤هـ أو ٣٨٣هـ. وفي قَصِيدَةِ الفَخْرِ:[2]

وَرَائِي أَمَامٌ والأَمَامُ وَرَاءُ إذا أنا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الكُبَراءُ

يَجِدُ القارِئُ نَفْسَهُ أَمامَ ذَلِكَ الشُّعُورِ الذي يَطْغَى عَلَى طُلَّابِ العِلْمِ وهُمْ يَقِفُونَ عَلَى أَعْتابِ وَظائِفِهِمْ. ونَحْنُ هُنا واجِدُونَ عَدَمَ الرِّضا عَنِ الحَيَاةِ والنُّفُورَ والتَّبَرُّمَ مِمَّا أَصابَهُ بَعْضُ مُنافِسِيْ شاعِرِنا مُتَوَسِّطِيْ الذَّكاءِ مِنْ نَجاحٍ. ومَعَ ذَلِكَ فَيَظْهَرُ شاعِرُنا مُرَدِّداً الشُّعُورَ الذي يَنْتابُ قُرَناءَهُ مِمَّنْ يُساكِنُونَهُ حاضِرَتَهُ، وذلك إِذْ يَقولُ في هذا البَيْتِ[3]:

وأيُّ عَظِيمٍ رابَ أَهْلَ بِلادِنا فإنَّا عَلَى تَغْيِيرِهِ قُدَراءُ

فَهَلْ يُشِيرُ هُنا إلى تَمَرُّدِ مَعَرَّةِ النُّعْمانِ عَلَى حَلَبٍ في سَنَةِ ٤٨٦هـ؟[4]

---

[1] سقط الزند، ج ١، ص ٤٣.

[2] نفسه ص ٨٥.

[3] نفسه ص ٨٦

[4] انظر مُقَدِّمة (رسائل أبي العلاء)، ص ١٩

ويُمْكِنُنا أنْ نُطْلِقَ عَلَى الفَتْرَةِ التي نُظِمَتْ فِيْها القَصِيدتانِ الأُوْلَى والثَّالِثَةُ والقِطْعَةُ الفَخْرِيَّةُ **فَتْرَةَ العِشرِيْنِيَّاتِ الأُوْلَى لِأبي العَلَاءِ**؛ ومُجْمَلُ القَوْلِ عِنْدَنا أنَّ لِهَذِهِ الفَتْرَةِ تَنْتَمِي كُلُّ القِطَعِ التي تُعبِّرُ عَنْ طُمُوحِ الشَّبَابِ وتُظْهِرُ خِفَّةً وطَيْشاً وشُعُورَ الفَتَي اليافِعِ بِعَدَمِ الرِّضا. ويُمْكِنُ أنْ تَكُونَ القِطَعُ التالِيَةُ قد نُظِمَتْ في هذِهِ الفَتْرَةِ:

١- قَصِيدَةُ مدْحٍ، (صفحة ١١ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٢- قَصِيدَةُ مدْحٍ، (صفحة ٣١ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٣- قَصِيدَةُ مدْحٍ، (صفحة ٤١ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٤- قَصِيدَةُ مدْحٍ، (صفحة ٦٥ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٥- أحدَ عَشَرَ بَيْتاً في الفَخْرِ، (صفحة ٨٥ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٦- بَيْتانِ في وَصْفِ سِتَّارٍ مُخَدَّرةٍ[1]، (صفحة ٨٦ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٧- قِطْعَةٌ مِن اثْنَيْ عَشَرَ بَيْتاً في تأمُّلاتٍ خاصَّةٍ غَرَامِيَّةٍ، (صفحة ٨٧ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

٨- بَيْتانِ في الفَخْرِ بِصَفْحَةِ ١٣٦ مِنَ الجُزْءِ الأوَّلِ:

تَعَاطَوْا مَكَانِي وقَدْ فُتُّهُمْ فَمَا أدْرَكُوا غَيْرَ لَمْحِ البَصَرْ
وقَدْ نَبَحُونِي وما هِجْتُهُمْ كَمَا نَبَحَ الكَلْبُ ضَوْءَ القَمَرْ

---

[1] المخَدَّرَةُ هي الفتاةُ المُمْتَنِعَةُ التي تَلْزَمُ خِدْرَها أيْ خَيْمَتَها أو مَخْدَعَها لا تُفَارِقُهُ، أيْ لا تُكْثِرُ الخُرُوجَ، وكان هذا أَمْدَحَ لِلْمَرْأَةِ، وقَدْ قَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ، وكانَ شاعِراً يُجِيدُ الغزَلَ ولَكِنَّهُ كانَ مُتَحَرِّاً سَلِيطَ اللِّسانِ:

لا يُيْئِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جَرَحا
عُسْرُ النِّسَاءِ إلى مُيَاسَرَةٍ والصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ ما جَمَحا

وبَيْتَا أبي العلاءِ اللَّذانِ عَنَاهُما المؤَلِّفُ يُخاطِبُ بِهِما السِّتارَ المشَارَ إلَيْهِ وكانَتْ مَرْسُومةً عَلَيْهِ طيُورٌ، هُما:

الحُسْنُ يَعْلَمُ أنَّ مَنْ وَارَيْتَهُ قَمَرٌ تَستَّرَ فِي غَمامٍ أبْيَضِ
غَشِيَ الطُّيُورَ غَوَافِلاً فَتَحَيَّرَتْ مِنهُ فَلَمْ تَبْرَحْ ولَمْ تَتَنَفَّضِ

(التُّرْجُمان)

٩- ثَلاثَةُ أبْياتٍ في تأمُّلاتٍ غَرامِيَّةٍ، (صفحة ١٣٧ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

لَعَمْرِي لَقَدْ وَكَّلَ الظَّاعِنُونَ ... بِقَلْبِيَ نَجْماً بَطِيءَ الغُرُوْبْ

أَقُوْلُ وقَدْ طالَ لَيْلِي عَلَيَّ ... أمَا لِشَبابِ الدُّجَى مِنْ غُرُوْبْ

أَقُصَّتْ نُسُوْرُ نُجُوْمِ السَّمَاءِ ... فَلَمْ تَسْتَطِعْ نَهْضَةً لِلْغُرُوْبْ

١٠- قَصِيدةُ مدْحٍ مِنْ أحَدَ عَشَرَ بَيْتاً، (صفحة ١٥٦ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)

١١- خَمْسةُ أبْياتٍ فِي الغزَلِ، (صفحة ١٥٨ مِنَ الجُزْءِ الأوَّل)، وهِيَ:

إنْ كانَ طَيْفُكِ بَرّاً في الذِي زَعَما ... فإنَّ قَوْمَكِ ما بَرُّوا لَهُمْ قَسَمَا

آلَى أمِيرُكِ لا يَسْرِي الخَيالُ لَنا ... إذا هَجَعْنَا فَقَدْ أَسْرَى ومَا عَلِما

وكم تَمَنَّتْ رِجالٌ فِيكِ مُغْضَبَةٌ ... أنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ سَقَما

نَشُوفُ مِنْ آلِ هِنْدٍ بارِقاً أَرِجاً ... كأَنَّما فُضَّ عَنْ مِسْكٍ وما خُتِما

إذا أَطَلَّ عَلَى أبْياتِ بادِيَةٍ ... قامَ الوَلائِدُ يَسْتَقْبِسْنَهُ الضَّرَما

١٢- الأَبْيَاتُ التِي أوَّلُها:

زَارَتْ عَلَيْها لِلظَّلامِ رِوَاقُ ... ومِنَ النُّجُومِ قَلائِدٌ ونِطاقُ

وهِيَ قِطْعَةٌ تَبْلُغُ عَشْرَةَ أبْياتٍ، ولابُدَّ أنَّ الجُزْءَ الأكْبَرَ مِنْها قَدْ حَذَفَهُ الشاعِرُ؛ لِأنَّ بِدايَتَها مُشْعِرَةٌ بِأنَّهُ كانَ أرادَ بِها قَصِيدةَ مَدْحٍ[1].

١٣- أَحَدَ عَشَرَ بَيْتاً في الغَزَلِ[2]

١٤- سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتاً في تأمُّلاتٍ شَخْصِيَّةٍ وغَرامِيَّةٍ[3]

١٥- سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتاً في تأمُّلاتٍ شَخْصِيَّةٍ وغَرامِيَّةٍ[1]

---

[1] سقط الزند، ج ١، ص ١٦٣

[2] نَفْسُهُ ج ٢، ص ٢٦

[3] نَفْسُهُ ص ٢٨

١٦- أربَعَةَ عَشَرَ بَيْتاً في تأمُّلاتٍ شَخْصِيَّةٍ وغَرَامِيَّةٍ[٢] وهِيَ:

إنْ كُنْـتَ مُدَّعِـياً مَـوَدَّةَ زَيْنَـبِ ... فاسْـكُبْ دُمُوعَـكَ يـا غَمَـامُ ونَسْـكُبِ[٣]

١٧- خَمْسَةُ أبْياتٍ في الغَزَلِ[٤]، وهي:

تَوَقَّتْـكَ سِـرّاً وزَارَتْ جِهَـارا ... وهَـلْ تَطْلُـعُ الشَّـمْسُ إلّا نَهَـارَا

كـأنَّ الغَمَـامَ لَهَـا عَاشِـقٌ ... يُسَـايِرُ هَوْدَجَهـا أيْـنَ سَـارَا

وبِـالأرْضِ مِـنْ حُبِّهـا صُـفْرَةٌ ... فَمَـا تُنْبِـتُ الأرْضُ إلّا بَهَـارَا

فَـدَتْكِ نَـدَامَى لَنـا كَالقِسِـيِّ ... لا يَسْـتَقِيمُونَ إلّا ازْوِرارَا

أَذَبْـتِ الحَصَـى كَمَـداً إذْ رَمَيْـ ... ـتِ بِالـدُّرِّ يَـوْمَ رَمَيْـتِ الجِمَـارَا

١٨- بَيْتانِ في وَصْفِ أحْلامِهِ[٥]:

إلى اللهِ أشْـكُو أنَّـني كُـلَّ لَيْلَـةٍ ... إذا نِمْـتُ لَمْ أعْـدَمْ طَـوارِقَ أوْهـامِي

فـإنْ كـانَ شَـرّاً فَهْـوَ لا بُـدَّ وَاقِـعٌ ... وإنْ كـانَ خَـيْراً فَهْـوَ أضْغَاثُ أحْلَامِ

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّهُ، وهُوَ في الخامِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ (أيْ سنةَ ٣٨٨ هـ)، طُلِبَ إليْهِ أنْ يَكْتُبَ رِسالَةً عَلَى لِسَانِ أهْلِ معرَّةِ النُّعْمانِ إلى أبي القاسِمِ المغْرِبِيِّ.

---

[١] نَفْسُهُ ص ٢٩

[٢] نَفْسُهُ ص ٣١

[٣] لَيْتَهُ كانَ قالَ (سَحَابُ) بَدَلاً عن غَمَامِ، فَذَلِكَ أدْعَى لِلتَّوافُقِ مَعَ مَذْهَبِ الشاعِرِ وهُوَ وَلَعُهُ بالجَرْسِ المؤسِيقِيِّ الدَّاخِلِيِّ والنَّغَمِ مُفِيداً في ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ بِالعَرُوضِ العَرَبِيِّ واللُّغَةِ جَمِيعاً؛ لِأنَّها كانَتْ سَتَزِيدُ مِن وَسْوَسَةِ هَذِهِ السِّيْنات في عَجُزِ البَيْتِ، وإذَنْ لَتَوَاصَلَ النَّغَمُ في البَيْتِ التَّالِي لِهَذا البَيْتِ مَعَ كَلِمَةِ (سَوْدَاءُ) التي أشْبَهُ بِها أنْ تَكُونَ سَحَابَةً مِنْ أنْ تَكُونَ غَمامةً، قالَ:

فَمِنَ الغَمَائِمِ لَوْ عَلِمْتَ غَمَامَةٌ ... سَوْدَاءُ هُدْباها نَظِيرُ الهَيْدَبِ

(التَّرْجُمان)

[٤] سقط الزَّنْدِ ج ٢، ص ٣٤

[٥] نَفْسُهُ ص ٢٢٤

ويَظْهَرُ لَنا أنَّ بَعْضَ ما جاءَ مِنْ أبْيَاتِ فَخْرٍ في قَصِيدَتَيْهِ (ألا في سَبِيلِ المجْدِ)[1] و(أرَى العَنْقاءَ تَكْبُرُ أنْ تُصادا)[2] إنَّما ألْهَمَهَا الشاعِرَ هذا الذي أصاب مِنْ نَجاحٍ أدَبِيٍّ، خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

وَقَدْ سارَ ذِكْرِي في البِلادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بِإخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتكامِلُ[3]

وقوْلَهُ:

يُكَرِّرُنِي لِيفْهَمَنِي رِجَالٌ ... كَمَا كَرَّرْتَ مَعْنىً مُسْتَفَادا[4]

لِيَ الشَّرَفُ الذي يَطَأُ الثُّرَيَّا ... مَعَ الفَضْلِ الذي بَهَرَ العِبادا

ألا يُمْكِنُنا بَعْدُ أنْ نُرجِّحَ أنَّ هاتَيْنِ القَصِيدَتَيْنِ قَدْ نُظِمَتا في سنةِ ٣٨٨هـ أو ٣٨٩هـ ؟ ويَغْلُبُ أنْ تَنتَمِيَ القَصائِدُ التي نَظَمَها في الشَّرِيفِ أبي إبراهِيمَ مُوسَى بْنِ اسحاقَ ومَرْثِيَتُهُ فِيهِ إلى الفَتْرَةِ بَيْنَ عامَيْ ٣٨٧ هـ و٣٩٣ هـ لِأنَّنا نُرَجِّحُ أنَّ الشَّرِيفَ كانَ في الثامِنَةِ والسِّتِّيْنَ مِنْ عُمُرِهِ لَمَّا بَعَثَ إلَيْهِ أبو العلاء بِقَصِيدَتِهِ النُّونِيَّةِ يُجِيبُهُ[5] بِها عَلَى قَصِيدَةٍ كانَ هذا قَدْ أرْسَلَها إلَيْهِ، مَطْلَعُها:

غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ وِصالُ الغَوانِي ... بَعْدَ سِتِّينَ حِجَّةً وثَمانِ[6]

---

[1] نَفْسُهُ ج ١، ص ١٠٩.

[2] نَفْسُهُ ص ١١٥.

[3] نَفْسُهُ ص ١١٠.

[4] نَفْسُهُ ص ١١٨

[5] قَصِيدَةُ أبي العلاء النُّونِيَّةُ المعْنِيَّةُ هُنا هِيَ:

عَلِّلانِي فَإنَّ بِيضَ الأَمَانِي ... فَنِيَتْ والظَّلامُ لَيْسَ بِفَانِ

(التُّرْجُمان)

[6] سقط الزند ج ١، ص ٩٠ البيت الأخير.

ومَعَ أنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ هذا مِنَ المبالَغاتِ الشِّعْرِيَّةِ، إلَّا أنَّ البَيْتَيْنِ الخامِسَ والسادِسَ مِنَ المرْثِيَةِ المنْظُومَةِ في الشَّرِيفِ رُبَّما نَفَيا كُلَّ شكٍّ[1]:

أبي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ التي قِيلَ إنَّها مُنَفِّذَةُ الأقْدارِ في العُرْبِ والعُجْمِ

فإنْ كُنْتُ ما سَمَّيتُهُمْ فَنباهَةٌ كَفَتْنِيَ مِنهُمْ أَنْ أُعَرِّفَهُمْ بِاسْمِ

فهَذانِ البَيْتانِ يُنْبِئانا أنَّ الشَّرِيفَ كانَ أباً لِسَبْعَةِ أَوْلادٍ كِبارٍ.

ونَرى أنَّهُ لا يُمْكِنُ لِهَذِهِ المرْثِيَةِ أنْ تَكُونَ قَدْ نُظِمَتْ بَعْدَ سَنَةِ ٣٩٣ ه (وهِيَ السَّنَةُ التي صارَ فِيْها أبو العلاء نَباتِيّاً)؛ إذْ لَوْ قَدْ كانَتْ نُظِمَتْ بَعْدَها لَكَانَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ أنْ نَجِدَ فِيْها نَظْرَةً فِكْرِيَّةً في الحَيَاةِ ظاهِرَةً بَيِّنَةً، غَيْرَ أنَّ ذَلِكَ ما لا نَلاحِظُهُ في هَذِهِ المرْثِيَةِ.

ولِهَذا صحَّ لَنَا أنْ نتَّخِذَ مِنْ هذا أساساً نَبْني عَلَيْهِ ترْجِيحَنا أَلَّا يَكونَ مَوْتُ الشَّرِيفِ قَدْ تَجاوَزَ سَنَةَ ٣٩٣ ه. ولَرُبَّما جَذَبَتْ أَلْمَعِيَّةُ أبي العلاء أبَا إبراهيمَ هذا وَقْتاً مَّا قَبْلَ أنْ يُقِرَّ لَهُ بِها غَيْرُهُ مِنْ رِجَالاتُ الأَدَبِ في مَعَرَّةِ النُّعْمانِ.

فأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ الصِّلَةَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ جَعَلَتْ تَوَشَّجُ في العَامِ ٣٨٧ه أو في ٣٨٦ه واسْتَمَرَّتْ قائِمَةً بَيْنَهُما إلى العَامِ ٣٩٢ه أو العَامِ ٣٩٣ه.

وقَصَائِدُ أبي العلاء ذَاتُ الصِّلَةِ بِأَبِي إبْرَاهِيمَ هِيَ:

١. قَصِيدَةُ المدْحِ الوَارِدَةُ في سَقْطِ الزَّنْد، الجزء الأول صفحة ٥٦.

٢. قَصِيدَةُ المدْحِ الوَارِدَةُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، الجزء الأول صفحة ٧٩

وليس في الدِّيوانِ ما يُشِيرُ إلى أنَّ هذِهِ القصيدةَ قد نُظِمَتْ حقّاً في أبي إبْراهِيمَ، ولَكِنَّنا نَجِدُ فيها هذا البَيْتَ:

مَتَى أَنَا في رَكْبٍ يَؤُمُّونَ مَنْزِلاً تَفَرَّدَ مِنْ شَخْصِ الشَّرِيفِ بِأَوْحَدِ[1]

---

[1] نَفسُهُ ص ٢٠٤.

٣. قصيدةُ المدْحِ الواردةُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، الجزءِ الأوَّلِ، صفحة ٩١.

٤. قصيدةُ المدْحِ الواردةُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، الجزءِ الأوَّلِ، صفحة ١٣٩.

ونُظِمَت هذِهِ القصيدةُ في الشَّرِيفِ وكان عَلِيلاً، ولَعَلَّها العِلَّةُ التي مَات فِيها.

٥. قصيدةُ المدْحِ الوارِدةُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، الجزْءِ الأوَّلِ، صفحة ١٨٣

والظَّاهِرُ أنَّها مُهْداةٌ إلى الشَّرِيفِ، فاسْمُ مُحَمَّدٍ[٢] الذِي أوْرَدَهُ أبو العلاء في هذِهِ القَصيدَةِ قد وَرَدَ كَذلِكَ في المرْثِيَةِ.

٦. المرْثِيَةُ الوَارِدَةُ في سَقْطِ الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأوَّلِ، صفحة ٢٠١.

وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ كُلَّ القصائِدِ التي نَظَمَها أبو العلاء لِأَصْدِقائِهِ وأقارِبِهِ ووُجَهاءِ مُجْتَمَعِهِ في مُناسَباتٍ بِعَيْنِها كانَتْ وَلِيدَةَ المدّةِ الزَّمَنِيَّةِ مِن ٣٨٦هـ إلى ٣٩٢هـ، إذْ إنَّ أغْلَبَها خَلَتْ مِنَ المتَانَةِ وشِدَّةِ الأَسْرِ التي طَبَعَتْ أشْعارَهُ خِلالَ عِشْرِينَيَّاتِهِ الأُوْلَى، كَمَا أنَّها لَمْ تَنطَوِ عَلَى أيِّ نَظْرَةٍ مُتَعَمِّقَةٍ في الحَيَاةِ، وهِيَ سِمَةٌ طَبَعَتْ كِتاباتِ أبِي العلاء المتَأَخِّرَةَ. وفَضْلاً عَنِ القصائِدِ المتَعلِّقةِ بِأبِي إبراهيمَ وعَنْ قَصِيدتَيْ الفَخْرِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ، فَهَذَا الشِّعْرُ، كَذَلِكَ، يَنْتَمِي إلى هَذِهِ الفَتْرَةِ:

١. القَصِيدة التي أَرْسَلَ بِها إلى أَحَدِ أصدقائِهِ يُهَنِّئُهُ فِيْها بزَوَاجِهِ، بِسَقْطِ الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأَوَّلِ، صفحةِ ٥١.

٢. قصيدةُ المدْحِ الوارِدةُ في سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ٧٣.

٣. قصيدة المدح التي أَرْسَلَها إلى أَحَدِ الشُّعَرَاءِ، سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ٩٩.

٤. قصيدةُ المدْحِ الوارِدةُ في سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ١٢٥.

٥. قصيدةُ المدْحِ الوارِدةُ في سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ١٣٠.

---

[١] نَفْسُهُ ص ٨٠.

[٢] نَفْسُهُ ص ١٨١.

٦. قصيدة المدح التي أرْسَلَها إلى أَحَدِ الشُّعَرَاءِ، بِسَقْطِ الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأَوَّلِ، صفحة ١٤٢.

٧. قَصِيدَةُ تَهْنِئَةٍ اقْتَضَاهُ إيَّاها أحدُ الأُمَراءِ في زَواجِهِ، بِسَقْطِ الزَّنْدِ، مِنَ الجُزْءِ الأوَّلِ، صفحة ١٤٧.

٨. قَصِيدةُ المدْحِ الواردةُ في سقط الزند، مِنَ الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٥٣.

٩. قَصِيدةٌ ودَّعَ بِها خالَهُ، في سقط الزند، مِنَ الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٦٥، وهي:

تُفَـدِّيكَ النُّفُـوسُ ولا تُفـادَى　　　فَـأَدْنِ القُـرْبَ أوْ أَطِـلِ البِعَـادا

أرَانَـا يـا عَلِـيُّ وإنْ أقَمْنـا　　　نُشـاطِرُكَ الصَّـبابَةَ والسُّـهادا

١٠. قَصِيدةٌ أجابَ بِها أحَدَ الشُّعَرَاءِ، سقط الزند، مِنَ الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٧٢.

١١. قَصِيدةٌ نَظَمَها عَلَى لِسانِ مَن يُعْرَفُ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ السَّقَّاءِ[1] في مَدْحِ أَحَدِ أصدقاءِ الأَخِيرِ، سَقْطِ الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٧٤، وهِيَ:

تُثْـنِي عَلَيْـكَ الـبِلادُ أنَّـكَ لا　　　تَأْخُـذُ مِـنْ رِفْـدِها وتَرْفِـدُها

١٢. قَصِيدةٌ في تَهْنِئَةِ أحَدِ الأصدقاءِ بِزواجِهِ، سقط الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٧٨.

١٣. قَصِيدةٌ في الغَزَلِ أَشارَ عَلَيهِ بِها أَحَدُ أصدقائِهِ، سَقْطِ الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ١٨٧.

١٤. قَصِيدةُ المدْحِ الواردةُ في سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ١٥.

١٥. قِطْعةٌ يُثْنِي فِيها عَلَى لاعِبِ شِطْرَنْجَ، سَقْط الزَّنْدِ، الجُزْءِ الأوَّل، صفحة ٢٢٣، وهِيَ:

قُـلْ لِـتِرْبِ الآدَابِ فِي كُـلِّ فَـنٍّ　　　وحَلِيْـفِ النَّـدَى وحَـرْبِ العَـذُولِ

أَيُّهَـا اللَّاعِـبُ الـذِي فَـرَسُ الشِّطْـ　　　ـرَنْجِ هَمَّـتْ فِي كَفِّـهِ بِالصَّـهِيلِ

مَـنْ يُبَارِيْـكَ والبَيَـاذِقُ فِي كَفِّـ　　　ـكَ يَغْلِـبْنَ كُـلَّ رُخٍّ وفِيـلِ

---

[1] كانَ عبدُ اللهِ بْنِ السَّقَّاءِ كاتِباً وكان صديقاً لِأبِي العلاء وسَأَلَ أبا العلاءِ أنْ يَنْظِمَ لَهُ هَذِهِ القَصِيدةَ عَلَى لِسانِهِ تَمْدَحُ بِها صَدِيقاً لَهُ عَلَى ما رَأَى فِيهِ مِنَ الوَفَاءِ والإخْلاصِ. (التُّرْجُمان)

تَصْرَعُ الشَّاهَ فِي المجَالِ ولَوْ جَا ... ءَ مُرَدَّىً بِالتَّاجِ والإكْلِيلِ

لُطْفُ رَأْيٍ يَسْتَأْسِرُ المِلكَ الأعْـ ... ـظَمَ بِالوَاحِدِ الحَقِيرِ الذَّلِيلِ

أنْتَ فَوْقَ الصُّوْلِيِّ فِي هَذِهِ الخَلَّـ ... ـةِ مُزْرٍ فِي غَيْرِهَا بِالخَلِيلِ

قَدْ أتَتْنِي هَدِيَّةٌ مِنْكَ بِالأمْـ ... ـسِ فَقَابَلْتُهَا بِحُسْنِ القَبُولِ

غَيْرَ أنَّ السَّمَاعَ فِي الكُتْبِ وَقْفٌ ... وانْتِقَالُ الوُقُوفِ غَيْرُ جَمِيلِ

١٦. قِطْعَةٌ يَصِفُ بِهَا شَمْعَةً، سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ١٣٦:

وصَفْراءَ لَوْنَ التِّبْرِ مِثْلِي جَلِيدَةٍ ... عَلَى نُوَبِ الأيَّامِ والعِيْشَةِ الضَّنْكِ

تُرِيْكَ ابْتِسَاماً دَائِماً وتَجَلُّداً ... وصَبْراً على ما نَابَهَا وهْيَ في الهُلْكِ

ولو نَطَقَتْ يوماً لَقَالَتْ أظُنُّكُمْ ... تَخَالُونَ أنِّيَ مِنْ حِذَارِ الرَّدَى أبْكِي

فلا تَحْسَبُوا دَمْعِي لِوَجْدٍ وَجَدْتُهُ ... فَقَدْ تَدْمَعُ الأحْداقُ مِنْ كَثْرَةِ الضِّحْكِ

١٧. قَصِيدَةٌ أرْسَلَ بِهَا إلى أحَدِ أصدقائِه، سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ٢٢٤.

١٨. قَصِيدَةُ تَعْزِيَةٍ، سقط الزند، الجزء الأول، صفحة ٢٢٥.

وتَطْبَعُ سَنَةُ ٣٩٣ هـ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً في التَّطَوُّرِ الرُّوحِيِّ لِأبي العلاء؛ إذ إنَّهَا السَّنَةُ التي صَارَ فِيْها نَبَاتِيّاً.

ولَمَّا كانَ في ثلاثِيْنِيَّاتِهِ الأُولَى شَدِيدَ المعاقَرَةِ لِأفْكَارِ الموْتِ ومَبَادِئِ الأَخْلاقِ القَوِيمَةِ والتَّقَشُّفِ والزُّهْدِ، فَمِنَ المرَجَّحِ أنْ تَكونَ القصائِدُ التَّالِيَةُ قد نُظِمتْ خِلالَ هذِهِ الفَتْرَةِ:

١- المرْثِيَةُ التي رثا بِهَا فَقِيهاً حَنَفِيّاً يُسَمَّى أبا حَمْزَةَ جاءَ فِيها:

كُنْتَ خِلَّ الصِّبا فلَمَّا أرَادَ الْـ ... ـبَيْنَ وَافَقْتَ رَأْيَهُ في المرادِ

ورَأَيْتَ الوَفاءَ لِلْصَّاحِبِ الأَوَّ ... لِ مِنْ شِيْمَةِ الكَرِيمِ الجَوادِ

وخَلَعْتَ الشَّبابَ غَضّاً فَيَا ... لَيْتَكَ أبْلَيْتَهُ مَعَ الأَنْدادِ

فَاذْهَبا خَيْرَ ذَاهِبَيْنِ حَقِيْقَيْـ ... ـنِ بِسُقْيَا رَوَائِحٍ وغَوادِ[1]

وعِبَارَةُ (خِلَّ الصِّبَا) في البَيْتِ الأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الأَبْيَاتِ اسْتَخْدَمَها الشاعِرُ وأرادَ لَها أنْ تُؤدِّيَ لَهُ المعْنَيَيْنِ (خِلَّ شَبابِي) و(خِلَّ الشَّبابِ) جَمِيعاً. ومِنَ البيْتِ الثَّالِثِ فِيها نُدْرِكُ أنَّ أبا حَمْزَةَ كانَ قَدْ قَضَى وهُوَ فِي رَيْعانِ شبَابِهِ؛ وهُوَ ما يَعْنِي في أيِّ مَرْثِيَةٍ الفَتْرَةَ العُمْرِيَّةَ التي بَيْنَ العِشْرِينَ والخامِسةِ والثَّلاثِينَ. وفي البَيْتِ الرَّابعِ ما يُشْعِرُ أنَّ أبا حَمْزَةَ إنَّمَا كانَ فَوْقَ الثَّلاثِينَ، نَفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ تَوَافُقِ مَوْتِهِ فِي الزَّمَانِ مَعَ تَوَلِّي شَبَابِ أبي العلاءِ. ومِنْ هُنا يُمْكِنُنا أنْ نَسْتَنْتِجَ أنَّ هذه المرْثِيَةَ إنَّما نَظَمَها الشاعِرُ فِي الفَتْرَةِ بَيْنَ ٣٩٣ هـ و٣٩٨هـ.

٢- قَصِيدَةٌ فِي التَّعْزِيَةِ، بِدِيْوَانِ سَقْطِ الزَّنْد، الجزءِ الثاني، الصفحة ١٠

وفي هَذِهِ القَصِيدَةِ نَقْرأُ:

ضَلَّ الذي قَالَ البِلادُ قَدِيمَةٌ ... بِالطَّبْعِ كانَتْ والأَنَامُ كَنَبْتِها

ووَرَاءَنا يَوْمٌ تَقُومُ هُجُودُهُ ... مِنْ بَعْدِ إبْلاءِ العِظامِ ورَفْتِها

ومِنَ الوَاضِحِ أنَّ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ لا يَنْتَمِيانِ إلى فَتْرَةِ عُزْلَةِ أبي العلاءِ، ومِنَ الرَّاجِحِ جِدّاً عِنْدَنا انْتِماؤُهُما إلى ذَاتِ الفَتْرَةِ التي تَنْتَمِي إلَيْها قَصِيدةُ الرِّثاءِ التي نُظِمَتْ في الفَقِيْهِ الحَنَفِيِّ.

---

[1] نَفْسُهُ ص ٢١٥ – ٢١٦.

٣- قِطْعَةٌ قَصِيرَةٌ فِي التَّفكِيْرِ المتأمِّلِ، بالجزءِ الثاني من سَقْطِ الزَّنْد، بصفحة ١٣؛ والتأمُّلاتُ في هذِهِ القَصيدَةِ مِن سِنْخِ تلك المرَاثِي التي أوْرَدْناها آنِفاً.

٤- قَصِيدةٌ في المدِيْحِ، بالجزءِ الثاني بالصفحة ٣٦.

فَقَدْ أرْسَلَ أبو العلاء بِهَذِهِ القَصِيدَةِ إلى أحَدِ أصدقائِهِ الذي نَراهُ شِرِّيبَ خَمْرٍ، عاكِفاً عَلَى شُرْبِها، مُوْلَعاً بِها. وفي هَذِهِ القَصِيدَةِ يَقُومُ أبو العلاء مَقامَ الواعِظِ الأخلاقِيِّ، الدَّيِّنِ، إذْ يُسمِّي شُرْبَ الخَمْرِ سَفَاهةً وإثْماً[1]. وهُوَ يَذْكُرُ أرْضَ العِراقِ عَلَى أنَّها أرْضٌ قَصِيَّةٌ تَنْسِبُ العَرَبُ إلَيْها الخَمْرَ، وعَلَى ذَلِكَ فَلا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ نَظْمُ هذِهِ القَصيدَةِ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ بَغْدَادَ، بَلْ يَغْلُبُ ظَنُّنَا أنْ تَنْتمِيَ إلى ذَاتِ فَتْرَةِ القصائِدِ التي ذَكَرْناها مِنْ قَبْلُ.

---

[1] سقط الزند ج ٢، ص ٣٧.

قصائِدُ بَغْدادَ (٣٩٨ هـ - ٤٠٠هـ)

بِحَسَبِ ما جاءَ بِدِيوانِ سَقْطِ الزَّنْدِ مِنْ بَيانٍ، فإنَّ القصائِدَ التي نَظَمَها أبو العلاء بِبَغْدادَ سَبْعٌ، وهِيَ هذِهِ:

١- قَصِيدةٌ مَدَحَ بِها أبا حامِدٍ الإسْفَرَايِيْنِيَّ، بِالجُزْءِ الأوَّلِ، الصفحة ١٥٨، وهِيَ:

لا وَضْعَ لِلرَّحْلِ إلَّا بَعْدَ إيضاعَ فَكَيْفَ شاهَدْتِ إمْضائي وإزْمَاعِي

٢- قَصِيدَتُهُ في مَدْحِ المعَرَّةِ وهِيَ المشْهُورةُ بـ (طَرِبْنَ) بِالجزْءِ الثاني، الصفحة ٣٨:

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المتَعالِي بِبَغْدَادَ وَهْناً مَا لَهُنَّ ومَا لِي

٣- قَصِيدَتُهُ في مَدْحِ المعَرَّةِ وهِيَ المعْرُوفةُ (بِمَغَانِي اللِّوَى) بالجزء الثاني، الصفحة ٤٦:

مَعَانِي اللِّوَى مِنْ شَخْصِكِ اليَوْمَ أطْلالُ وفِي النَّوْمِ مَغْنَىً مِنْ خَيالِكِ مِحْلالُ

٤- قَصِيدَتُهُ في رِثاءِ ذِي المناقِبِ والِدِ الرَّضِي والمرْتَضَى، وقد نَظَمَها قُبَيْلَ رُجُوعِهِ إلى المعَرَّةِ، الجزء الثاني، صَفْحَةِ ٥٥:

أَوْدَى فَلَيْتَ الحادِثاتِ كَفَافِ مالُ المسِيفِ وعَنْبَرُ المسْتافِ

٥- قَصِيدتُهُ التي هَنَّأَ بِها أبا القاسِمِ التَّنُوْخِيَّ عَلَى مَوْلُودٍ لَهُ، الجزء الثاني، صفحة ٦٦، وهي:

مَتَى نَزَلَ السِّماكُ فَحَلَّ مَهْداً تُغَذِّيهِ بِدِرِّهَا الثُّدِيُّ

٦- قَصِيدَتُهُ التي رَدَّ بِها عَلَى أُمْدُوحَةٍ كانَ قَدْ بَعَثَ بِها إلَيْهِ صَدِيقُهُ ابْنُ فُوْرُّجَةَ، وكانَ نَظَمَها قُبَيْلَ رُجُوعِهِ إلى المعَرَّةِ، الجزء الثاني، الصفحة ٨٠، وهي[1]:

---

[1] كان ابْنُ فُوْرُّجةَ قَدْ مَدَحَ أبا العلاء بِقَصِيدَتِهِ:

كَفَى بِشُحُوبِ أَوْجُهِنا دَلِيلا　　　عَلَى إِزْماعِنا عَنْكَ الرَّحِيلا

٧- قصيدَتُهُ في وَدَاعِ بَغْدادَ، الجزء الثاني، الصفحة ٦٨:

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعِ　　　يُخَبِّرُنا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى صَدْعِ

وأما القصائِدُ الثَّلاثُ التَّالياتُ فَهُنَّ كَذلِكَ وَلِيداتُ فَتْرةِ بَغْدادَ؛ غَيْرَ أَنَّ الدِّيوانَ يَسْكُتُ عَن ذِكْرِ شَيْءٍ عَنْهُنَّ:

٨- قَصِيدَةٌ قَصِيرَةٌ حَوَتْ تَأَمُّلاتٍ غَرَامِيَّةً عاطِفِيَّةً، بالجزء الأَوَّلِ، الصفحة ١٣٧، وهِيَ:

مِنْكَ الصُّدُودُ ومِنِّي بِالصُّدُودِ رِضَى　　　مَنْ ذا عَلَيَّ بِهَذا فِي هَوَاكَ قَضَى

بِي مِنْكَ ما لَوْ غَدَا بِالشَّمْسِ ما طَلَعَتْ　　　مِنَ الكآبَةِ أَوْ بِالْبَرْقِ ما وَمَضَا

إذا الفَتَى ذَمَّ عَيْشا في شَبِيبَتِهِ　　　فَمَا يَقُولُ إذا عَصْرُ الشَّبَابِ مَضَى

وقَدْ تَعَوَّضْتُ مِنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ　　　فَمَا وَجَدْتُ لِأَيَّامِ الصِّبا عِوَضَا

وقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيا فَهَلْ زَمَنِي　　　مُعْطٍ حَيَاتِي لِغِرٍّ بَعْدُ ما غَرِضَا

جَرَّبْتُ دَهْرِي وأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ　　　لِيَ التَّجَارِبُ فِي وُدِّ امْرِئٍ غَرَضَا

ولَيْلَةٍ سِرْتُ فِيها وابْنُ مُزْنَتِها　　　كَمَيِّتٍ عادَ حَيّاً بَعْدُ ما قُبِضَا

كأنَّما هِيَ إِذْ لاحَتْ كَوَاكِبُها　　　خَوْدٌ مِنَ الزَّنْجِ تُجْلَى وُشِّحَتْ خَضَضَا

كأنَّما النَّسْرُ قَدْ قُصَّتْ قَوَادِمُهُ　　　فَالضَّعْفُ يَكْسِرُ مِنهُ كُلَّما نَهَضَا

والبَدْرُ يَحْتَثُّ نَحْوَ الغَرْبِ أَيْنُقَهُ　　　فَكُلَّما خَافَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى رَكَضَا

ومَنْهَلٍ تَرِدُ الجَوْزاءُ غَمْرَتَهُ　　　إذا السَّما كانَ شَطْرَ المَغْرِبِ اعْتَرَضَا

وَرَدْتُهُ ونُجُومُ اللَّيْلِ وانِيَةٌ　　　تَشْكُو إلى الفَجْرِ أَنْ لَمْ تَطْعَمِ الغَمَضَا

-أَلا قَامَتْ تُجاذِبُنِي عِنَانِي　　　وتَسْأَلُنِي بِعَزْصَتِها مَقِيلا

وقَدْ ذَكَرَ البَدِيعِيُّ أنَّ هَذِهِ القَصِيدةَ نُظِمَتْ بِبَغْدَادَ وأنَّهُ أُعْجِبَ بِها أهْلُها إعْجَاباً شَدِيداً حتى إنَّهُمْ اصْطَنَعُوا لَها نَغَماً أوْ وَضَعُوا لَها لَحْناً[1].

٩- قَصِيدَةٌ قَصِيرَةٌ في الغَزَلِ، بالجزء الثاني، صفحة ١٤. ونُرَجِّحُ أنَّ هذِهِ القَصِيدَةَ كانَتْ قد نُظِمَتْ بُعَيْدَ وُصُولِ أبي العلاء بَغدادَ، وهِيَ:

أَسَالَتْ أَتِيَّ الدَّمْعِ فَوْقَ أسِيلِ ومَالَتْ لِظِلٍ بِالعِرَاقِ ظَلِيلِ

أَيَا جارَةَ البَيْتِ المِمَنَّعِ جارُهُ غَدَوْتُ ومَنْ لِي عِنْدَكُمْ بِمَقِيلِ؟

لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جَمَالٍ فَإنْ تَكُنْ زَكَاةُ جَمَالٍ فاذْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ

وأرْسَلْتِ طَيْفاً خانَ لَمَّا بَعَثْتِهِ فَلَا تَثِقِي مِنْ بَعْدِهِ بِرَسُولِ

خَيَالٌ أَرَانا نَفْسَهُ مُتَجَنِّباً وقَدْ زَارَ مَنْ صافِي الوِدادَ وَصُولِ

نَسِيْتِ مَكَانَ العِقْدِ مِنْ دَهْشِ النَّوى فَعَلَّقْتِهِ مِنْ وَجْنَةٍ بِمَسِيلِ

وكُنْتِ لِأَجْلِ السِّنِّ شَمْسَ غُدَيَّةٍ ولَكِنَّها لِلْبَيْنِ شَمْسُ أصِيلِ

أَسَرْتِ أَخَانا بِالخِدَاعِ وإنَّهُ يُعَدُّ إذا اشْتَدَّ الوَغَى بِقَبِيلِ

فإنْ تُطْلِقِيهِ تَمْلِكِي شُكْرَ قَوْمِهِ وإنْ تَقْتُلِيهِ تُؤْخَذِي بِقَتِيلِ

وإنْ عَاشَ لَاقَى ذِلَّةً واخْتِيَارُهُ وَفَاةُ عَزِيزٍ لا حَيَاةُ ذَلِيلِ

وَكَيْفَ يَجُرُّ الجَيْشَ يَطْلُبُ غَارَةً أسِيرٌ لِمَجْرُورِ الذُّيُولِ كَحِيلِ؟

لا بَلْ إنَّ أُسلُوبَهُ فِيْها شَدِيدُ الشَّبَهِ بِأُسْلُوبِهِ في كُلٍّ مِنْ (طَرِبْنَ) و(مَغَانِي اللِّوَى).

٩- قَصِيدَةٌ نَظَمَها في صَدِيقٍ لَهُ لَمْ يَعُدْهُ في عِلَّةٍ أَلَمَّتْ بِهِ وهُوَ في بَغْدادَ، وهِيَ مُثْبَتَةٌ بالجُزْءِ الثاني، صفحةِ ٩٨، وهِيَ التي أوَّلُها:

أَمُعَاتِبِي في الهَجْرِ إنْ جَارَيْتَنِي طَلْقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ

---

[1] أوج التحرّي ص ١٤

ومِن البَيْتَيْنِ فِيها[1]:

يُمْسِي ويُصْبِحُ كُوزُنا مِنْ فِضَّةٍ مَلأَتْ يَدَ السَّاقِي كُسُورَ دَراهِمِ
ولَدَيَّ نارٌ لَيْتَ قَلْبِي مِثْلُها فَيَكُونَ فاقِدَ وَقْدَةٍ وسَخائِمِ

نَتَبَيَّنُ أنَّ نَظْمَ هَذِهِ القَصِيدة كانَ في الشِّتاءِ، رُبَّما في دِيسَمْبِرَ مِنْ عام ١٠٠٨م أَوْ يَنايِرَ [كانُونَ الثانِي] ١٠٠٩م (أي حَوالِي سَنَةِ ٣٩٩ هـ)، ونَعْلَمُ أَنَّها نُظِمَتْ بِبَغْدادَ، وذَلِكَ مِنَ البَيْتِ[2]:

بِمَحَلَّةِ الفُقَهاءِ لا يَغْشُو امْرُؤٌ نارِي ولا تَنْضُو المطِيَّ قَوائِمِي

و(مَحَلَّةُ الفُقَهاءِ) هَذِهِ حَيٌّ مِن أَحْياءِ بَغْدادَ المعْرُوفَةِ.

---

[1] سقط الزند ج٢، ص ٩٩

[2] نفسه، ج ٢، ص ١٠٠.

قصائِدُهُ بَعْدَ رَجْعَتِهِ مِنْ بَغْدادَ

بَعْدَ أنْ رَجَعَ أبو العلاءِ مِنْ بَغْدادَ نَظَمَ القَصائِدَ التَّالِيَةَ:

١ و٢ قصيدتانِ رَثَا بِهِما أُمَّهُ التي تُوُفِّيَتْ في سَنَةِ ٤٠٠هـ، فالأُوْلَى في الجُزْءِ الثَّانِي بِصَفْحَةِ ٨٧، وهِيَ:

سَمِعْـتُ نَعِيَّهـا صَـمَّا صَـمَامِ ... وإنْ قـالَ العَـواذِلُ لا هَـمـامِ[1]

والثانِيَةُ بِصَفْحَةِ ١٣٧ مِنْ ذَاتِ الجُزْءِ وهِيَ:

خُلُـوُّ فُـؤَادِي بِـالمَوَدَّةِ إخْـلالُ ... وإبْلاءُ جِسْمِي في طِلابِكِ إبْلالُ

٣- قَصِيدَتُهُ التي مَدَحَ بِها عَبْدَ السَّلامِ البَصْرِيَّ وأَرْسَلَها إلَيْهِ، وأَغْلَبُ الظَنِّ أَنَّهُ نَظَمَها بُعَيْدَ رَجْعَتِهِ، إذْ إنَّ ذِكْرَى مَجْلِسِ عَبْدِ السَّلامِ في هذِهِ القَصِيدَةِ تَبْدُو ناضِرَةً حاضِرَةً في ذِهْنِ الشاعِرِ ولَيْسَتْ بِالشَّيْءِ الخافِتِ الباهِتِ الذي يُسْتَحْضَرُ مِن مَاضٍ بَعِيدٍ، فانْظُرْها في الجُزْءِ الثَّانِي، بِصَفْحَةِ ١٠١[2]، وأَوَّلُها:

تَحِيَّـةَ كِسْـرَى في السَّـنَاءِ وتُبَّـعِ ... لِرَبْعِـكِ لا أَرْضَـى تَحِيَّـةَ أَرْبُـعِ

٤- قصيدةٌ يُهَنِّئُ بِها مَنْ سَمَّاهُ (المشَرَّفَ) بِمَوْلُودٍ لَهُ، بِالجُزْءِ الثاني، صَفْحَةِ ١٣٠، وهي التي أَوَّلُها:

---

[1] صَمَّا أيْ صَمَّاءُ، والعَرَبُ رُبَّما نَطَقَتِ المَمْدُودَ مَقْصُوراً، فَتَقُولُ في السَّماءِ والشِّتَاءِ، مَثَلاً، السَّما والشِّتا، وكما هُنا، والصَّمَّاءُ الداهِيَةُ الدَّهْياءُ التي تُصِمُّ لِهَوْلِها الآذانَ، وصَمَامِ مِنْ اسْماءِ الدَّاهِيَةِ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ هذا المعْنَى، مَبْنِيَّةٌ عَلَى الكَسْرِ، وهِيَ هُنا في مَحَلِّ نَصْبٍ، أيْ وَقَعَ خَبَرُ مَوْتِها في أُذُنِي كالدَّاهِيَةِ التي تُصِمُّ الآذانَ، وإنْ قالَ لِي عَوَاذِلِي لا تَهْتَمُّ، و(هَمامِ) اسْمُ فِعْلِ أمْرٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الكَسْرِ. (التُّرْجُمان)

[2] سقط الزند ج ٢ ص ١٠٩ البيت الأخير.

مَـتَى يُضْـعِفْكَ أيْـنٌ أوْ مَـلالُ فَلَـيْسَ عَلَيْـكَ لِلـزَّمَنِ ابْتِهـالُ

ويَظْهَرُ أنَّ المشَرِّفَ هذا شآمِيٌّ كانَ قَدْ ذَهَبَ إلى مِصْرَ. ويَتَحَدَّثُ أبو العلاء في هذِهِ القَصِيدَةِ عَنْ نَفْسِهِ مُصَوِّراً شَوْقَهُ إلى الارْتِحالِ (فَلَعَلَّهُ كانَ يُفَكِّرُ في العَوْدَةِ إلى بَغْدادَ) ويَصِفُ حَالَهُ بِأَنَّهُ مَوقُوفٌ عَلَى المصابَرَةِ عَلَى مَضَضِ الأيَّامِ والعُزْلَةِ مِنَ النَّاسِ ابْتِغاءَ السَّلامةِ مِنهُمْ[1]. وعَلَى ذَلِكَ فَيُمْكِنُ أنْ تَكُونَ نُظِمَتْ في سَنَةِ ٤٠٠هـ أو بَعْدَها.

٥- قَصِيدَتُهُ التي مَدَحَ بِها أَبا القاسِمِ التَّنُوخِيَّ، الجُزْءِ الثَّانِي، صَفْحَةِ ١١٢.

٦- ثَلاثَةُ أبْياتٍ قَالَها عَلَى لِسانِ مَنْ أسْمَاهُ البَلْخِيَّ، بالجُزْءِ الثاني، صَفْحَةِ ١٣٦، وهِيَ:

كَمْ بَلْدَةٍ فارَقْتُها ومَعَاشِرٍ يُذْرُونَ مِنْ أَسَفٍ عَلَيَّ دُمُوعا

وإذا أضاعَتْنِي الخُطُوبُ فَلَنْ أرَى لِوِدادِ إخْوانِ الصَّفَاءِ مُضِيعا

خَالَلْتُ تَوْدِيعَ الأَصادِقِ لِلنَّوَى فَمَتَى أُوَدِّعُ خِلِّيَ التَّوْدِيعا

وفِكْرَةُ تَوْدِيعِ بَغْدادَ في هذِهِ الأَبْياتِ غَيْرُ خافِيَةٍ، فَمَا أرْجَحَ أنْ تَكُونَ قَدْ نُظِمَتْ بُعَيْدَ رُجُوعِ أَبِي العلاء مِنْ بَغْدادَ[2].

٧- قَصِيدةٌ أَرْسَلَ بِها إلى فَقِيهٍ يُعرَفُ بابْنِ نَصْرٍ المالِكِيِّ. في الجُزْءِ الثاني، بِصَفْحَةِ ١٣٨. ويَظْهَرُ أنَّ أبا العلاء كانَ رَجُلَ خَمْسِينَ لَمَّا أَنْشَأَ هَذِهِ القَصِيدَةَ[3]، وهِيَ:

---

[1] نَفْسُهُ ص ١٣١.

[2] عِبارَةُ المؤَلِّفِ في أصلِها باللُّغةِ الإنجليزية ما يَعْنِي (مِنْ بَغْدادَ)، غَيْرَ أنَّهُ مِنَ الواضِحِ أنَّ ثَمَّةَ خَطأً طباعِيّاً، إذ لا رَيْبَ أنَّ مُرادَهُ (مِنْ بَغْدادَ) وهو ما أثبتناهُ هنا، والله أعْلَمُ. (التُّرْجُمان)

[3] سقط الزند ج ٢، ص ١٣٩. البيت الثالث، ثم انْظُرْ ص ١٣٨-١٣٩.

أَيَبْسُطُ عُذْرِي مُنْعِمٌ أمْ يَخُصُّنِي   بِمَا هُوَ حَظِّي مِنْ أَلِيْمِ عِتَابِ

٨- قَصِيدَةُ مَدْحٍ، بِالجُزْءِ الثَّانِي، بِصَفْحَةِ ١٣٩، وهِيَ التي أوَّلُها:

يا ساهِرَ البَرْقِ أيْقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ   لَعَلَّ بِالجِزْعِ أعْواناً عَلَى السَّهَرِ

ولا رَيْبَ أنَّ هَذِهِ القَصِيدَةَ كَتَبَها لِأبِي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ؛ لِأنَّنا نَقْرأُ فِيها[1]:

وصُغْتُ في الوَارِدِ المأْمُولِ تَهْنِئَةً   وجاءَ كالغَيْثِ أُسْقِينا بِهِ المطَرا

ونَقْرأُ فِيها كَذَلِكَ قَوْلَهُ:

وحَمَّلَكَ الشِّعْرَ مِنْ أَشْعارِ طائِفَةٍ   وَحْشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تَسْكُنُ الوَبَرا
جُزْءٌ بِدَرْبِ جَمِيلٍ في يَدَيْ ثِقَةٍ   سأَلْتُهُ رَدَّ مَضْمُونٍ إذا قَدَرا

ويُرِيدُ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ دِيوانَ (تَيْمُ اللَّاتِ) الذي كانَ قَدْ عَهِدَ إلى عَبْدِ السَّلامِ بْنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ رَدَّهُ إلى أبي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ[2]

ويُرِيْدُ بِقَوْلِهِ السَّابِقِ الذِّكْرِ:

وصُغْتُ في الوَارِدِ المأْمُولِ تَهْنِئَةً   وجاءَ كالغَيْثِ أُسْقِينا بِهِ المطَرا

قَصِيدَةَ التَّهْنِئَةِ التي نَظَمَها وهُوَ بِبَغدادَ[3].

٩- القَصِيدَةُ التي مَدَحَ مَنْ أَسْمَاهُ خازِنَ دَارِ العِلْمِ، ولَعَلَّهُ عبدُ السَّلامِ البَصْرِيُّ، بِالجُزْءِ الثاني، بِالصَّفْحَةِ ١٢١، وهِيَ:

لِمَنْ جِيْرَةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فَلَمْ يُنْطُوا   يُظَلِّلُهُمْ ما ظَلَّ يُنْبِتُهُ الخَطُّ

---

[1] نَفْسُهُ ص ١٤٠.

[2] نَفْسُهُ ص ١٢٠، البيت الأخير.

[3] نَفْسُهُ، ج ٢، ص ٦٦.

وفي هذه القصيدَةِ يَذْكُرُ ثَوْرَةَ صالحِ بْنِ مِرْدَاسٍ وحسَّانَ بْنِ مُفرِّجٍ التي وَقَعَتْ في سَنَةِ ٤١٤هـ،

١٠- القَصِيدَةُ التي رَثَا بِها جَعْفَرَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ المهَذَّبِ[1]، وهِيَ:

أحْسَنُ بِالوَاجِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعِيدُ النَّارَ في زَنْدِهِ
ومَنْ أبَى في الرُّزْءِ غَيْرَ الأَسَى كانَ بُكَاهُ مُنْتَهَى جُهْدِهِ

١١- قَصِيدَةٌ كتبَها عَلَى لِسانِ سائِقِ قافِلَةِ الحَجِيْجِ، بالجُزْءِ الثاني، بِالصَّفْحَةِ ٢٢٠، وهي:

دُنْيـــاكَ تَحْـــدُو بِالمسَـــا فِـــرِ والمقِـــيْمِ جِمَالَهَـــا

ويُشِيرُ ما جاءَ في بَعْضِ أبْياتِ هذِهِ القَصِيدة إلى عُزْلَةِ الشَّاعِرِ.

وأما القصائِدُ في الدِّيوانِ مِنَ الثانيَةِ عَشْرَةَ إلى الثانيَةِ والثَّلاثِينَ فَهِي مَجْمُوعةٌ تُكَوِّنُ فَصْلاً مِن فُصُولِ سَقْطِ الزَّنْدِ يُعرَفُ بِالدِّرْعِيَّاتِ، يَمْتَدُّ مِنَ الصَّفْحَةِ الحادِيَةِ والأَرْبَعِينَ بَعْدَ المائَةِ إلى الصَّفْحةِ التاسِعَةَ عَشْرَةَ بَعْدَ المِئَتَيْنِ. وأوْدَعَ أبو العلاء جُلَّ هَذِهِ القصائِدِ نَظْرَةً لِلحَياةِ بالِغَةَ السَّوْداوِيَّةِ والتَّشَاؤُمِ؛ فهُوَ يَتَحدَّثُ عَن نَفْسِهِ عَلَى أنَّهُ رَهِينُ مَحْبَسِهِ وعُزْلَتِهِ، ويَصِفُ كَثِيراً مِنْ أوْضاعِ تَقَشُّفِهِ وزُهْدِهِ. وقد كُتِبَتْ هذِهِ القصائِدُ بِلا أدْنَى شَكٍّ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ بغدادَ[2].

---

[1] مِنَ الأَبْياتِ السِّتَّةِ الأخِيرةِ مِنْ هَذِهِ القَصِيدة تُدرِكُ أنَّ أبا العلاء أرْسَلَها إلى المهَذَّبِ بْنِ عَلِيٍّ أخي جَعْفَرَ. وأُسْلُوبُ أبي العلاء في هذِهِ القَصِيدة يُشْبِهُ أُسْلُوبَهُ في نَظْمِهِ المتأخِّرِ؛ فإنَّنا نَجِدُ فِيها بَيْتَهُ:

تَجْرِبَةُ الدُّنْيَا وَأَفْعالُها حَثَّتْ أخا الزُّهْدِ عَلَى زُهْدِهِ

وهُوَ ما يُمكِنُ أنْ يُعَدَّ وصْفاً لِحَالِ الشَّاعِرِ القائِمِ عَلَى العُزْلَةِ

[2] انظر فصْلَ (الدِّرْعِيَّات) آخِرَ الفَصْلِ الرَّابِعِ مِن كتابِنا هذا.

القسم الأول

تَطوُّرُ أُسْلُوبِ أبي العلاء

فَتْرَةُ صِباهُ وأوّلِ شَبابِهِ:

لَمْ يَصِلْنا مِنْ شِعْرِ فَتْرَةِ صِبا أبي العلاء (من٣٧٣هـ-٣٨٣هـ) إلّا قَصِيدَتانِ في المَدِيحِ وقَصِيدةٌ رَثا بِها أباهُ. أمَّا قَصِيدَتا المَدِيحِ فَتَبْدُوانِ كِلْتاهُما كأنَّهُما قَدْ نُظِمَتا قَبْلَ بُلُوغِ أبي العَلاء العِشْرِينَ مِنَ العُمُرِ، ويَبْدو أنَّهُما لِهَذا السَّبَبِ أُغْفِلَتا مِنْ هَذِهِ الفَتْرَةِ، فَهُما تَشْرَكانِ قَصائِدَهُ التي نَظَمَها في شَبابِهِ في كَثِيرٍ مِنَ السِّمَاتِ والخصائِصِ. فَلَمْ يَبْقَ لَنا إلّا مَرْثِيَتُهُ آنِفَةُ الذِّكْرِ:

نَقِمْتُ الرِّضا حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ المُزْنِ فَلا جادَنِي إلَّا عَبُوْس مِنَ الدَّجْنِ

لِتَكُونَ القَصِيدَةَ الوَحِيْدَةَ التي وَصَلَتْنا مِنْ فَتْرَةِ صِبَا أبي العلاء لِتُمثِّلَ لَنا أوَّلَ أعْمالِهِ الأدَبِيَّةِ التي يَبْدو أنَّ أبا العلاء أبادَها وتخلَّصَ منها بِأَخَرَةٍ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّ نَسْجَها هَلْهَلٌ أوْ لَيْسَ بِالحَسَنِ أو أنَّ نَظْمَها لَمْ يُرْضِ فَنَّهُ وذَوْقَهُ. وشاهِدُنا عَلَى ذَلِكَ هُوَ العُيُوبُ التي اعْتَرَتْ أُسْلُوبَهُ عَلَى نَحْوِ ما يَظْهَرُ لَنا في بَعْضِ أبْيَاتِ هَذِهِ المَرْثِيَةِ، كَقَوْلِهِ مَثَلاً:

تَئِنُّ ونَصْبِي في أَنِينِكَ وَاجِبٌ كما وَجَبَ النَّصْبُ اعْتِرافاً عَلَى إنِّ[1]

وكَقَوْلِهِ:

فَهَلْ أنْتَ إنْ نادَيْتُ رَمْسَكَ سامِعٌ نِداءَ ابْنِكَ المَفْجُوعِ بَلْ عَبْدِكَ القِنِّ[2]

---

[1] سقط الزند ج ١ ص ١٩٨، البيتُ الأخِيْرُ. واسْتَخْدَمَ (إنِّ) هُنا بَدَلاً عَنِ الصِّيْغَةِ الصَّحِيْحَةِ (إنَّ)؛ واسْتِخْدَامُ المَفْعُولِ المطْلَقِ (اعْتِرافاً) مَحْضُ تَكْرَارٍ

[2] نَفْسُهُ ص ٢٠٠. وعبارةُ: (بلْ عَبدِكَ القِنِّ) ضَرْبٌ مِنَ الخَرْقِ والرَّفْلِ أخطأَهُ الإتْقانُ

فأَخْطَاءٌ كَهَذِهِ لا يَكُونُ لَهَا أنْ تَصْدُرَ إلَّا عَنْ قِلَّةِ الدُّرْبَةِ وغِيَابِ الخِبْرَةِ بِفَنِّ قَوْلِ الشِّعْرِ. وثَمَّةَ أخطاءٌ أُخْرَى بِمَقْدُورِنا أنْ نَضَعَ أَيْدِيَنَا عَلَيْها في هَذِهِ القَصِيدَةِ وَقَعَ فِيها الشَّاعِرُ، أوقَعَهُ فِيها بِصِفَةٍ رَئِيسَةٍ تَقْلِيدُهُ لِأبي الطَّيِّبِ المتنبِّي، لا سِيَّما في طَرِيْقَةِ الأخِيْرِ الغَرِيبَةِ والمتَفَرِّدَةِ في التَّعْبِيرِ عَنِ المعَانِي البَسِيطَةِ بِطَرِيقَةٍ بَالغَةِ التَّعْقِيدِ؛ وهو ما كان يَرَاهُ أبو العلاء، الصَّبِيَّ، شارَةَ التَّمَيُّزِ ودَلَالَةَ العَبْقَرِيَّةِ. ولِهَذا السَّبَبِ نَجِدُ عِنْدَ أبي العلاء، مَثَلاً، قَوْلَهُ:

فَلَيْتَ فَمِي إنْ شامَ سِنِّي تَبَسُّمِي فَمُ الطَّعْنَةِ النَّجْلاءِ تَدْمَى بِلا سِنِّ[1]

فَهَهُنا نَلْحَظُ، فَضْلاً عمَّا تَرَى مِنَ التَّشْبِيهِ المتَكَلَّفِ، الاسْتِخْدَامَ الغَرِيبَ وغَيْرَ المأْلُوفِ لِيَاءِ المتكلِّمِ المضافَةِ في قَوْلِهِ (تَبَسُّمِي)، وذَلِكَ ما اقْتَدَى فِيهِ بِأبي الطَّيِّبِ المتنبِّي وأخَذَهُ عنْهُ أخْذاً واضِحاً، كَمَا في قَوْلِ المتنبِّي:

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالا وحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لا الجِمَالا[2]

وكَمَا في قَولِهِ كذلِكَ:

أنا لَائِمِي إنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوائِمِ عَلِمْتُ بِما بِي بَيْنَ تَلكَ المعَالِمِ[3]

ونَحْنُ نَرَى شاعِرَنا في حُبِّهِ لِلْمُتنبِّي وإعْجابِهِ الشَّدِيْدِ بِهِ، لا يُقَلِّدُهُ وحَسْبُ ولَكِنَّهُ يَنْقُلُ عَنْهُ بَعْضَ عِباراتِهِ نَقْلاً ويأخُذُها أخْذاً، كَقَوْلِهِ مَثَلاً :

أ. ويَكْنِي شَهِيدُ المرْءِ غَيْرَكَ هَيْبَةً وبُقْيَا وإنْ يُسْأَلْ شَهِيدُكَ لا يَكْنِي[4]

---

[1] سقط الزند ج ١، ص ١٩٣.

[2] دِيْوَانُ المتنبِّي، ص ١٢٨.

[3] نفسه ص ١٩٥.

[4] سقط الزند ج ١، ص ١٩٩.

فهذا يُذَكِّرُ بِقَوْلِ المتنبِّي:

ونُصْفِي الذي يُكْنَى أبا الحَسَنِ الهَوَى   ونُرْضِي الذي يُسْمَى الإلَهَ ولا يُكْنَى[1]

ب. وقَوْلُ أبي العلاءِ:

فَلَيْتَكَ في جَفْنِي مُوارَىً نَزاهَةً   بِتِلْكَ السَّجَايا عَنْ حَشَايَ وعَنْ ضِبْنِي[2]

مُحاوَلةٌ لِلإِرْباءِ عَلَى المتنبِّي والتَّفَوُّقِ عَلَيْهِ في قَوْلِ الأخِيرِ:

فإنْ تَكُ في قَبْرٍ فإنَّكَ في الحَشَا   وإن تَكُ طِفْلاً فالأسَى لَيْسَ بِالطِّفْلِ[3]

ج. وقَوْلُ أبي العلاء:

عَلَى أُمِّ دَفْرٍ لَعْنَةُ اللهِ إنَّها   لَأجْدَرُ أُنْثَى أنْ تَخُونَ وأنْ تُخْنِي[4]

جاءَ فيْهِ بِعِبارةِ (أمِّ دَفْرٍ) وهِي عِبارةٌ صارَتْ عِنْدَ المتنبِّي عَلَماً على الدُّنيا؛ فَلَعَلَّهُ أَخَذَها مِن بَيْتِ المتنبِّي:

وأمَتَّ دَفْراً والدُّهَيْمَ فَمَا تُرَى   أُمُّ الدُّهَيْمِ وأُمُّ دَفْرٍ هَابِلُ[5]

وتَظْهَرُ صُورَةُ البَغِيِّ المومِسِ التي اسْتَخْدَمَها أبو العلاء لِلدُّنْيا في قَوْلِ المتنبِّي:

فَذِي الدَّارُ أخْوَنُ مِن مُوْمسٍ   وأخْدَعُ مِن كَفَّةِ الحابِلِ

تَفَانَى الرِّجالُ عَلَى حُبِّها   وما يَحْصُلُون عَلَى طائِلِ[6]

---

[1] ديوانه من ٣٠٨.

[2] سقط الزند ج ١، ص ٢٠٠.

[3] ديوانه ص ٢٧٠.

[4] سقط الزند ج ١، ص ١٩٤.

[5] ديوانه، ص ١٦٥، وانظر الحاشية.

[6] ديوانه، ص ٢٦٤.

د. وكَقَوْلِ أبي العلاء:

وَجَدْنا أذَى الدُّنْيا لَذِيذاً كأنَّما جَنَى النَّحْلِ أَصْنافُ الشَّقاءِ الذي نَجْني

وهذا البَيْتَ حَشْدٌ رَدِئٌ وجَمْعٌ رَكِيكٌ لِلمَعانِي التي عبَّرَ عَنْها المتنبِّي بِقَوْلِهِ:

أرَى كُلَّنا يَبْغِي الحَيَاةَ لِنفْسِهِ حَرِيْصاً عَلَيْها مُستَهاماً بِها صَبَّا[1]

وبِقَولِهِ:

صَحِبَ الناسُ قبْلَنا ذا الزَّمانا وعَنَاهُمْ مِنْ شأْنِهِ ما عَنَانا
وتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْ هُ وإنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانا

وماذا عَسَى أن يُرجَّى مِن صَبِيٍّ دُوْنَ العِشْرِينَ إلَّا جُهْدٌ فاتِرٌ وعَمَلٌ فَطِيرٌ. غيْرَ أنَّ هَذِهِ المرْثِيَةَ، عَلَى ما بِها مِنْ أخْطاءٍ كَثِيرةٍ، قَدْ تَنَزَّهَتْ حَقّاً عَنْ هذا الوَصْفِ؛ فأَبو العلاء، الصَّبِيّ، قَدْ بَدَا فِيها رَبَّ مَعَانٍ إنْ فاتَهُ أنَ يَكُونَ رَبَّ ألفاظٍ، وهُوَ يَكشِفُ عَنْ خَيالٍ خَصِيبٍ على نَحْوٍ نَابِهٍ بارِعٍ يُنْبِئُ عَنْ قُدْراتِهِ وإمكانيَّاتِهِ الهائِلَةِ ويُبَشِّرُ بِمَعِينٍ فِيهِ لا يَنْضُبُ. ومِثالُ ذلك أنَّهُ في تَصويرِهِ لِأبِيهِ في الحَيَاةِ الآخِرةِ مُتَرَدِّداً، هلْ يَتْرُكُ ما كانَ مَعْرُوفاً بِهِ مِنْ صِفةِ المبَادَرَةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ فَيَرِدَ حَوْضَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ مُزَاحِماً الجُمُوعَ، إنَّما يُبَشِّرُ بِمَقْدَمِ مُؤلِّفِهِ (رِسالَةِ الغُفْرانِ)، فأنْتَ وَاجِدٌ مَسْحَةً خَفِيفَةً مِنَ السُّخْرِيَةِ في بَيْتَيْهِ:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلِ يخِفُّ وَقَارُهُ إذا صارَ أُحْدٌ في القِيامَةِ كالعِهْنِ
وهَلْ يرِدُ الحَوْضَ الرَّوِيَّ مُبادِراً مَعَ الناسِ أمْ يأْبَى الزِّحَامَ فَيَسْتَأْنِي[2]

---

[1] ديوانه، ص ٣٢٠.

[2] سقط الزند ج ١، ص ١٩٤.

ثُمَّ إنَّهُ في تَفَكُّرِهِ في الموْتِ وفي عَناءِ الحَيَاةِ ومَشاقِّها وقَضِيَّةِ (الحقِّ المطْلَقِ) إنَّما يُبَشِّرُ بِمَقْدَمِ مُؤَلَّفِهِ الشِّعْرِيِّ (اللُّزُومِ). ومِنَ الطَّرِيفِ أنْ نُلاحِظَ أنَّهُ في هذِهِ القَصِيدةِ يُسَمِّي الدُّنيا أمَّ دَفْرٍ ويَستَخْدِمُ صُوَراً، كَرِحْلةِ القَطا مَثَلاً، يَستَشْهِدُ بِها عَلَى تَمَسُّكِ الناسِ بِالحَياةِ وصِراعِهِمْ مِنْ أجْلِ البَقاءِ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُصِيبُهُم فِيها مِنْ أصْنافِ البُؤْسِ والفَقْرِ والشَّقَاءِ[1]. ولَكِنْ مَضى عَلَى هذِهِ المرْثِيَةِ وَقْتٌ طَوِيْلٌ قَبْلَ أنْ تَظْهَرَ لِلَّناسِ ثانِيَةً، وفي غُضُونِ ذِلكَ نَظَمَ أبو العلاء قَصائِدَهُ التي تَلَتْ في سَقْطِ الزَّنْدِ وغَيْرَهُنَّ مِنَ القَصائِدِ التي نَظَمَها خِلالَ فَتْرَةِ عُزْلَتِهِ بِكامِلِ النُّضْجِ والإحْكامِ.

١ انظرِ اللُّزُومَ ج ٢، ص ٢٤٨، وسَقْطَ الزَّنْد، ج ١، ص ١٩٦.

القِسْم الثانِي

قصائِدُهُ بَيْنَ العِشْرِينَ والرَّابِعَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ[1]

ويَبْدُو أَنَّهُ نَظَمَ، وهو بَيْنَ العِشْرِينَ والرَّابِعَةِ والعِشْرِينَ، أَرْبَعَ قصائِدَ فِي المدِيحِ بَلَغَتْ أَصْغَرُهُنَّ واحِداً وخَمْسِينَ بَيْتاً، وسَبْعَ قصائِدَ لَمْ تَتَجاوَزْ أيٌّ مُنْهنَّ سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتاً، وسَبْعَ قِطَعٍ لَمْ يَزِدْ بَعْضُهُنَّ عَنِ البَيْتَيْنِ أو الثَّلاثَةِ أَبْياتٍ. وقد بَلَغَ مَجْمُوعُ ما نَظَمَهُ خِلالَ هذهِ الفَتْرَةِ تِسْعةً وسَبْعِينَ وثَلاثَمِائة بَيْتٍ، سِتَّةٌ وسِتُّونَ ومِئَتانِ مِنها هِي أَبْياتُ قصائِدِ المدِيحِ الأَرْبَعِ. وفِي الجَدْوَلَيْنِ التَّالِيَيْنِ بَيَانٌ بِعَدَدِ مَرَّاتِ اسْتِخْدَامِ البُحُورِ والقَوافِي لِهَذَا الشِّعْرِ:

أولاً:

البَحْرُ	عددُ القِطَعِ المَنْظُومَةِ عَلَيْهِ	عَدَدُ الأبياتِ المَنْظُومَةِ عَلَيْهِ
الطَّوِيلُ	١	١١
البَسِيطُ الأَوَّلُ	٣	٨١
البَسِيطُ السَّادِسُ	١	٣
الوَافِرُ	٣	١٩٦
الكامِلُ	٧	٧١
المُتَقَارِبُ	٢	٧

---

[1] لَمْ يَرِدْ هَذا العُنْوَانُ الصَّغِيرُ بِهَذِهِ الكَيْفِيَّةِ. (المترجم)

ثانياً:

حَرْفُ القافِيَةِ	ض	م	ف	ق	س	ب	ن	د	ر	ل
عَددُ الأبياتِ المَنْظُومةِ عَلَيْهِ	٢	٥	٦	١٠	١٢	١٤	٦٥	٦٥	٨٨	٩١
عَددُ القِطَعِ المَنْظُومةِ عَلَيْهِ	١	١	١	١	١	١	١	٣	٤	٢

ولَرُبَّما عُدَّتْ قصائِدُ المدِيْحِ الأربَعُ أَهَمَّ هذِهِ المَنْظُوماتِ، فَهُنَّ يَحْوِينَ القَدْرَ الأكبَرَ مِن نَظْمِ أبي العلاءِ، كَمَا أنَّهُنَّ، بِما هُنَّ عَليْهِ مِنْ طُوْلٍ، يُوفِّرْنَ فُرصةٍ نادِرةٍ لِلتَّوَفُّرِ عَلَى دَرْسِ أُسْلُوبِه. وقَبْلَ أنْ نُحاوِلَ تَحْلِيلَ هذِهِ القصائِدَ، لَعلَّهُ مِنَ المعِينِ لَنا مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ النَّاقِدِ أنْ نُخَمِّنَ لِماذا نُظِمَتْ هذِهِ القَصائِدُ؟.

كُنَّا في الفَصْلِ السَّابِقِ قَدِ اسْتَبْعَدْنا احْتِمالَ أنْ يَكُوْنَ أبو العلاء قَدْ نَظَمَ هذِهِ القَصائدَ طَلَباً لِلْعَطاءِ. فَمِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكُوْنَ قد نَظَمَها يَرُوْزُ بِها القَوْلَ ويَرُوضُهُ ويَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالمِرَانِ عَلَيهِ، وعَلَى هذا فلا تُشِيْرُ أَسْمَاءُ المَمْدُوحِينَ المَذْكُورةُ فِيها إلى أشْخاصٍ بِأعْيانِهِم. أو لَعَلَّ أَقْرِبَاءَ أَبِي العلاء وذَوِي قُرْباهُ مِنْ ذَوِي العِلْمِ والدِّرايةِ كانُوا عَلَى إدْراكٍ تامٍّ بِمَقْدِراتِهِ الفَنِّيَّةِ ومَوَاهِبِهِ الشِّعْرِيَّة فكانُوا لِذَلِكَ يَطلُبُونَ إِلَيْهِ أحْياناً أنْ يَمْدَحَ بَعْضَ ساداتِ حَلَبٍ أوِ المعَرَّةِ مِمَّنْ كانَتْ لَهُمْ صِلاتُ وُدٍّ ووشائِجُ مِقَةٍ بأُسَرِهِمْ وبُيُوتَاتِهِمْ.

وأيّاً كانَ الدَّاعِي لِنَظْمِ هذِهِ الأمادِيحِ الأرْبَعِ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ شَكٌّ أنَّ الدَّاعِيَ الأعْظَمَ والدَّافِعَ الأوَّلَ لِنَظْمِها هو أنَّ أبا العلاء كان يُرِيدُ أنْ يُحْدِثَ الأثَرَ الذي يُرِيدُ في نُفُوسِ جُمْهُورِهِ وأنْ يُثِيرَ فِيهِمْ ما يَشاءُ مِنَ الإعْجابِ، ثُمَّ إنَّهُ كان يَبْغِي كَذلكَ أنْ يُباهِيَ بِتَفَوُّقِهِ ويُظْهِرَ تَمَيُّزَهُ وفَضْلَهُ. وشاهِدُنا عَلَى هَذَا ما يَشِيعُ فِيها مِنَ العِباراتِ المُبْتَذَلَةِ المَنْهُوكَةِ وأدَوَاتِ الزَّخْرَفَةِ والتَّزْوِيقِ وكَذَلِكَ، إلى حَدٍّ ما، تَقْلِيدُهُ لِلْمُتَنَبِّي (الذي كانَ أشْعَرَ الشُّعَرَاءِ

وأعْظَمَهُمْ في أَعْيُنِ رِجَالاتِ بَلْدتِهِ مِنْ أهْلِ الشَّام). ويُمْكِنُنَا أنْ نُفَسِّرَ ما كانَ يَنْظُرُ بِهِ أبو العلاءِ إلى شِعْرِ المتنبّي وشَخْصِهِ جَمِيعاً مِنَ الإجْلالِ والإكْبَارِ، بِالحَقِيقةِ المعْرُوفةِ وهي أنَّ شَخْصِيَّةَ الأخِيرِ كانَتْ شَدِيدةَ الإلْهَامِ والتَّأْثِيرِ بِمَا لَهَا مِنْ حَيَوِيَّةٍ ونَشَاطٍ ومَتَانةٍ وشِدَّةِ أسْرٍ في مُقابلِ حَيَاةِ أبي العلاء الهادِئةِ الوادِعَةِ الرَّكِيْنةِ الرَّصِيْنةِ، الكَفِيَّةِ الخَفِيَّةِ. فَشِعْرُ المتنبّي كان يَحُضُّ بِقُوَّةٍ عَلَى اسْتِخْدَامِ السَّيْفِ ويَحُثُّ عَلَيْهِ حَثّاً مِنْ أجْلِ تَطْهِيرِ العالَمِ الإسلامِيِّ، الذي كَانَ مُضْطَرِباً قَدِ اخْتَلَطَ الحابِلُ فِيهِ بِالنَّابِلِ وتَحْكُمُهُ الفَوْضَى ويَسُودُهُ الفَسَادُ، مِنْ قَبْضَةِ الأُمَراءِ الضِّعافِ الغُرَبَاءِ عَنْهُ؛ وذَلِكَ ما كانَ يَطمَحُ إلَيْهِ كُلُّ عَرَبِيٍّ ماجِدٍ عالِي الهِمَّةِ مُنْذُ سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسلامِيَّةِ. فلا غَرْوَ إذَنْ أنْ كان أبو العلاء مُتأثِّراً بِهِ في أعْماقِ نَفْسِهِ. ويُحَدِّثونَنا أنَّ تَحَيُّزَهُ إلَيْهِ كانَ قَدْ بَلَغَ بِهِ حَدّاً جَعَلَهُ يُسمِّيْهِ (الشاعِرَ)- هَكَذا بِالأَلِفِ واللَّامِ[1] – ويَزْعُمُ أنَّ المتنبِّي مَطْبُوعٌ ومُبْدِعٌ ومُبْتَكِرٌ حتَّى في أخْطَائِهِ إذْ كانَ مِن غيْرِ المِمْكِنِ تَبْدِيلُ كَلِمةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ سَوَاءٌ مِنْها ما كانَ حَسَنَ الانْتِقَاءِ مُتَخَيَّراً أمْ كانَ غَيْرَه. فأمَّا أمادِيْحُ أبي العلاء الأرْبَعُ فَتَجِدُ أَثَرَ المتنبِّي فِيها واضِحاً في هَذِهِ الجَوَانِبِ مِنْها:

(أ) نَهجِ القصيدَةِ.

(ب) الصورُ الشِّعْريةُ واللُّغةُ المجازِيَّةُ (الاستِعارةُ والتَّشْبِيهُ).

(ج) الحِكَمِ والأقْوالِ السَّائِرَةِ.

(د) المبَالَغَةِ.

---

[1] تعريف القُدَماء، ص ٧٦، و١٨٧ وأوْجُ التحرّي، ص ٢٩.

(أ) نَهْجُ القَصِيدَة:

أوَّلاً: البَحْرُ والقافِيَةُ:

اسْتَخْدَمَ أبو العلاء بَحْرَ الوافِرِ في ثَلاثٍ مِنْ هَذِهِ الأمادِيْح والبَسِيْطَ الأوَّلَ في الرَّابِعَةِ. وعَلَى نَحْوِ ما رَأيْتَ في الجدْوَلِ الأوَّلِ، بَلَغَتْ الأبْياتُ المَنْظُومةُ عَلَى الوَافِرِ أكْثَرَ مِن نِصْفِ نَظْمِ أبي العلاء في عِشْرِينِيَّاتِهِ الأُوْلَى. ورُبَّما عادَ السَّبَبُ في ذلك إلى حَقِيقةِ أنَّ الوافِرَ أسْهَلُ بَحْرٍ تُنْظَمُ عَلَيْهِ قَصِيدَةٌ. وعادةً ما تَكُونُ قَوَافِيهِ بِصِيغَةِ (ـاَلا) و(ـاَلِ) و(ـاَلُ) و(ـيْلا) و(ـيْلُ) و(ـيْلِ) و(ـوْلا) و(ـوْلُ) و(ـوْلِ) وهَلُمَّ جَرّاً. وتُسمَّى مِثْلُ هذِهِ القَوافِي (المتَواتِرِ)[1] وهو يَعْنِي لُغَةً كَثِيرَ الحُدُوثِ والاسْتِخْدَامِ. ونَرَى أبا العلاء لا يُقدِمُ عَلَى استخْدَامِ ضُرُوبِ القَوَافِي الأشَدِّ عُسْراً مِمَّا يَأْتِي في بَحْرِ الوافِرِ إلَّا في فَتْرةٍ مُتَأخِّرةٍ جِدّاً.

ومِنَ المهِمِّ أنْ نُلاحِظَ هُنا أنَّ قَصَائِدَ المتنبِّي في الوَافِرِ رُبَّما كانَتْ هي الأبْلَغَ تَعْبِيراً عَنْ شَخْصِيَّتِهِ، وتَبْدو أكْثَرَ قابِلِيَّةً لِلتَّقْلِيدِ والمحاكاةِ مِنْ سائِرِ أشْعارِهِ الأُخْرَى.

واسْتَخْدَمَ أبو العلاءِ لِقَوافِيهِ في ثَلاثٍ مِنْ أَمادِيحِهِ (ـالا) و(ـانُ) و(ـادُ). وقَدْ اسْتَخْدَمَ المتنبِّي الأُوْلَى مِنْ هَذِهِ القَوافِي في قَصِيدَتِهِ:

---

[1] هناكَ خمسةُ أنْواعٍ مِنَ القَوافِي وهِي:

(أ) **المُتَوَاتِرُ** : وهو ما في آخِرِهِ سَبَبٌ خَفِيفٌ؛ وهو ما كان فيه مُتَحَرِّكٌ بَيْنَ ساكِنَيْنِ، كما في (ـاَلا) و(ـاَلُ).

(ب) **المُتَرَادِفُ** : وهو ما تَوالَي فِيهِ ساكِنانِ، كما فِي (وَيْلْ)

(ج) **المُتَدَارِكُ**: وهو الذي فِي آخِرِهِ وَتِدٌ مجموعٌ؛ وهو كُلُّ قافِيةٍ جاءَ فِيها مُتَحَرِّكانِ بَيْنَ ساكِنَيْنِ، مِثْلُ (مَرَامِهِ).

(د) **المُتَرَاكِبُ**: وهو ما كان آخِرَهُ فاصلةٌ صُغْرَى؛ وهي كُلُّ قافِيةٍ تَوالَتْ فِيها ثَلاثةُ مُتَحَرِّكاتٍ بَيْنَ ساكِنَيْنِ، مِثْلُ (الشَجَرُ).

(هـ) **المُتَكاوِسُ**: وهو ما كان آخِرَهُ فاصِلَةٌ كُبْرَى، وهي كلُّ قافِيةٍ تَوالَتْ فيها أرْبَعةُ مُتَحَرِّكاتٍ بَيْنَ ساكِنَيْنِ، مِثْلُ (لَهُ فَجَبَرْ)، من قَوْلِ الشاعِرِ (قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلَهُ فَجَبَرْ). انظر سَقْطَ الزَّنْدِ، ج ١، ص ٩-١٠

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالا وحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لا الجِمَالا[1]

وهِيَ القَصِيدَةُ التي احْتَذَى أبو العلاء حَذْوَها في قَصِيْدَةِ مَدْحِهِ الأُوْلَى. وأمَّا القافِيَةُ التي جاءَ بِها أبو العلاء على (انُ) فهي تَحْوِيرٌ وتَغْيِيرٌ لِلقافِيَةِ (انِ) التي جاءَتْ في قَصِيدَةِ المتنبِّي:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيْباً في المغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيْعِ مِنَ الزَّمَانِ[2]

ولِلمَرْءِ هُنا أنْ يُشَبِّهَ هَذا البَيْتَ بِمَطْلَعِ قَصِيْدَةِ أبي العَلاء:

مَعَانٌ مِنْ أحِبَّتِنا مَعَانٌ تُجِيْبُ الصَّاهِلاتِ بِهِ القِيانُ[3]

وواضِحٌ الشَّبَهُ بَيْنَ البَيْتَيْنِ. وعَجُزُ هذا البَيْتِ سَرِقَةٌ لِبَيْتِ المتنبِّي الرَّابِعَ عَشَرَ مِن قَصِيدَتِهِ. وأمَّا القافِيَةُ (ادُ) لِأبِي العلاءِ فَتَحْوِيرٌ، كَذَلكَ، لِقافِيَةِ المتنبّي (ادِ) في قَصِيدَتِهِ:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ في أُحادِ لُيَيْلَتُنَا المنُوطَةُ بِالتَّنادِ[4]

ولرُبَّما اسْتَوْحَى أبو العلاءِ مِنَ البَيْتَيْنِ الثَّالِثِ والرَّابِعِ مِن هذِهِ القصيدَةِ مَطْلَعَ قصيدَتِهِ:

أَفَوْقَ البَدْرِ يُوضَعُ لِي مِهَادُ أَمِ الجَوْزاءُ تَحْتَ يَدِي وِسَادُ[5]

وأمَّا القَصِيدَةُ التي نَظَمَها أبو العلاء عَلَى البَسِيْطِ الأَوَّلِ[6] فقَدْ رَكِبَ فِيها قافِيَةً أعْسَرَ وأشَقَّ، نَحْوَ (الشَّجَرِ) و(إبَرِ) و(سُوَرِ) ... إلخ. وهي ما تُعْرَفُ بِالمتَراكِبِ.

---

١ ديوانه، ص ١٢٩.

٢ نفسه ص ٥٥٧.

٣ سقط الزند، ج ١، ص ٤١.

٤ ديوانه، ص ٧٦.

٥ سقط الزند، ج ١، ص ٦٥.

٦ سقط الزند، ج ١، ص ٣٠.

وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ كُلّاً مِنَ البَحْرِ والقافِيَةِ في هَذِهِ القَصِيدَةِ قد أَوْحَى إِلَيْهِ بِهِما القَصِيدَةُ العاطِفِيَّةُ الذَّائِعَةُ الصِّيْتِ:

سَقَى المطِيرَةَ ذاتَ الظِّلِّ والشَّجَرِ وَدَيْرَ عَبْدُونَ هَطَّالٌ مِنَ المطَرِ[1]

ومَعَ ذلك فأثَرُ أبي تمَّامٍ في بَعْضِ أبْياتِها غَيْرُ خافٍ، غَيْرَ أنَّ رُوْحَ المتنبِّي هِيَ ما يَسُودُ أغْلَبَ القَصِيدَةِ.

ثانياً: **الموضوعات**:

١- النَّسِيبُ أو المقَدِّمَةُ الغَزَلِيَّةُ:

كانَتْ المقَدِّمةُ النَّسِيبِيَّةُ يُرادُ مِنْها هَدْهَدةُ دَواخِلِ المسْتَمِعِ بُغْيَةَ إحْدَاثِ نَوْعٍ مِنَ الشَّجْوِ والحَنِينِ لِلحَياةِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ، وبِهَذا يَقُومُ بِهِ عُنْصرُ التَّشْوِيقِ والتَّرَقُّبِ لِما سَيأْتِي بَعْدَ هذِهِ المقَدِّمةِ[2]. وبَعْضُ قصائدِ المتنبِّي تَبْتدِئُ بِمُقَدِّماتٍ طَوِيلَةٍ تَتضَمَّنُ رَجْعَ تأمُّلاتٍ لَهُ خاصَّةٍ قامَتْ مَقامَ هذا النَّسِيبِ المتعارَفِ عَلَيْهِ وكانَ لَها ما كانَ لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ، عَلَى حِيْنِ تَبْتدِئُ الكَثْرَةُ الكاثِرَةُ الأُخرى مِنْ قَصائِدِهِ بِمُقَدِّمةٍ نَسِيبِيَّةٍ تَتَّخِذُ مِنْ جَمالِ البَدَوِيَّاتِ مادَّةً لَها ومَوضُوعاً[3]. وقد كانَ مِنْ أثَرِ ذَلِكَ أنْ أَحْدَثَ حَنِيناً عَمِيقاً وشَوْقاً دَافِقاً لِحياةِ الصَّحْراءِ. ثُمَّ إنَّ المتنبِّي قَدْ رَامَ بِذَلِكَ أنْ يُعْرِبَ عَنْ صُدُودِهِ عَنْ حَياةِ الحَضَرِ ونُفُورِهِ مِنْها ومِن كُلِّ ما تُمَثِّلُهُ مِنْ وُجُوهِ الفَسادِ وانْحِطاطِ الأَخْلاقِ. وكَمْ كانَتْ هَذِهِ الصِّفةُ مَحَلَّ تَقْدِيرٍ كَبِيرٍ وتَبْجِيلٍ عَظِيمٍ مِنْ أبي العلاء. فَقَصِيدَتَاهُ المدْحِيَّتَانِ[4]:

---

١ معجم البلدان، لياقوت، ج ٢، ص ٦٧٨.

٢ انْظُرْ العُمْدة في صِناعةِ الشِّعْرِ ونَقْدِهِ، طبعة القاهرة ١٩٠٧، ج ١، ص ١٤٥-١٦١

٣ انْظُرْ يَتِيمةَ الدَّهْرِ، ج ١، ص ١٢٨.

٤ سقط الزند، ج ١،ص ٦٥ وص ٤١.

أَفَوْقَ البَدْرِ يُوضَعُ لِي مِهَادُ   أَمِ الجَوْزاءُ تحْتَ يَدِي وِسَادُ

وقَصِيدَتُهُ:

مَعَانٌ مِنْ أحِبَّتِنا مَعَانٌ   تُجِيْبُ الصَّاهِلاتِ بِهِ القِيانُ

يَفْتَتِحُهُما بِتأمُّلاتٍ لَهُ خاصَّةٍ شَبِيهةٍ بِتلكَ التي بَدَأَ بِها المتنبِّي قصائِدَهُ التي أَشَرْنا إِلَيْها. فَفِي مُقدِّمةِ الأُوْلَى مِنهُما يَسْتَرْسِلُ فِي مَدْحِ نفسِهِ مُفْتَخِراً ويَشْكُو نُوَبَ الزَّمانِ وأحْداثَهُ المناوِئَةَ التي لا يَسْتجِيبُ فِيْها لِلْكِرَامِ، ويَهْجُو بَعْضَ مُنَازِعِيهِ ومُناوِئِيهِ. وفِي مُقدِّمةِ ثانِيَتِهِما يَسْتَعِيدُ ذِكْرياتٍ لَهُ مِن عَهْدِ صِباهُ ويَبْعَثُها مِنْ بِلَىً، وما يَزَالُ هذا الأمرُ فارِضاً نفْسَهُ على الشَّاعِرِ مُتَمَلِّكاً إِيَّاهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَعودُ لِلقَوْلِ فِيهِ ويَرْجِعُ إليْهِ فِي الجُزْءِ الذي كان حَقُّهُ أنْ يَكونَ وَقْفاً على مَدْحِ مَمْدُوحِهِ على النَّحْوِ المتعارَفِ عَلَيْهِ. وهنا نُلْفِي شِعْراً رائِعاً يَصِفُ مَشاهِدَ ظَلَّتْ حَيَّةً ناضِرةً في عَيْنِ عَقْلِ المعَرِّيِّ زَماناً طَوِيلاً بَعْدَ أنْ ذَهَبَ عَنْهُ بَصَرُهُ؛ ولنأْخُذْ قَوْلَهُ مَثَلاً :

بِهِ غَرْقَى النُّجُومِ فَبَيْنَ طافٍ   وراسٍ يَسْتَسِرُّ ويُسْتَبانُ

والضَّمِيرُ في (بِهِ) يَعُودُ إلى غَدِيرٍ ذَكَرَهُ في البَيْتِ قبْلَهُ؛ أيْ هُوَ قَدْ وَرَدَ هذا الغَدِيرَ فَرَأَى فِيهِ هَذِهِ النُّجُومَ بَعْضُها قَدْ طَفَا عَلَى السَّطْحِ وبَعْضُها اسْتَقَرَّ في قَعْرِهِ، تَظْهَرُ حِيْناً وتَخْتَفِي حِيْناً آخرَ. وأمَّا قصيدَتاهُ المدْحِيَّتَانِ الأُخْرَيانِ[1]:

أعَنْ وَخْدِ القِلاصِ كَشَفْتِ حَالا   ومِنْ عِنْدِ الظَّلامِ طَلَبْتِ مَالا

و:

يا ساهِرَ البَرْقِ أَيْقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ   لَعَلَّ بِالجِزْعِ أعْواناً عَلَى السَّهَرِ

---

[1] سقط الزند، ج١ ص ١٤، وص ٣٠

فَفِيهِما أيْضاً احْتذَى حَذْوَ المتنبِّي وتَأسَّى بِهِ في مُفْتَتَحيهِما، إذْ يَفتَتِحُ الأُوْلى مِنْهُما بأَسْئلَةٍ بَيانِيَّةٍ إنْكارِيَّةٍ يُوجِّهُها إلى إبِلِهِ فَهُوَ يُعَنِّفُها ويوبِّخُها لِوَلَعِها بِالسَّفَرِ وقلَقِها وتنقُّلِها وأسْفَارِها التي لا تَهْدأُ. فَهَذا مِنهُ يُذكِّرُنا بقَوْلِ المتنبِّي:

حَتَّامَ نحْنُ نُسارِي النجْمَ في الظُّلَمِ ... وما سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ

ولا يُحِسُّ بأجْفانٍ يُحِسُّ بِها ... فَقْدَ الرُّقادِ غَرِيبٌ بَاتَ لم يَنَمِ[1]

أيْ حَتَّى مَتَى نَظَلُّ نَسْرِي مَعَ هَذِهِ الأنْجُمِ ونُجارِيها في سُراها تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ والحالُ أنَّ تنقُّلَها لا يَنْتَهِي ولا هِيَ مِثْلُنا إذْ هِيَ لا تَرْتَحِلُ بأقْدامٍ ولَيْستْ لَها أجْفَانٌ يُضْنِيها بِها السَّهَرُ كَمَا يَفعَلُ الغَرِيبُ مِنَّا عِنْدَما يَقْضِي هذِهِ اللَّيالِيَ لا يَذُوقُ فِيها نَوْماً.

والقَصِيدةُ الثانِيَةُ يَفتَتِحُها أبو العلاء بِالنَّسِيبِ، إذْ يُشَبِّبُ بِامْرَأَةٍ بَدَوِيَّةٍ عَلَى طَرِيقَةِ المتنبِّي. ولَكِنْ مَعَ ذَلِكَ تَظْهَرُ أصالَةُ المعَرِّيِّ في التَّوَسُّعِ والتَّفاصِيلِ الخَيالِيَّةِ في تَشْبِيهاتِهِ والتي لَوْلَاها لَكَانَتْ هَذِهِ التَّشْبِيهاتُ مِنْ قَبِيْلِ مَأْلُوفِ التَّقْلِيدِ ومَعْرُوفِهِ فَهُو، مَثَلاً، يَزْعُمُ لِمَحْبُوبَتِهِ أَنَّها قَدْ كَسَتِ الظِّبَاءَ فاخِرَ الفِراءِ ومُزَرْكَشَ الثِّيابِ لِتَصْرِفَها عَمَّا باتَتْ تَستجْدِيها إيَّاهُ مِنْ حُسْنِ الدَّلِّ والحَوَرِ[2]. فَهَذَا مِنهُ، كَمَا تَرَى، تَطْوِيرٌ وتَحْسِينٌ لبَيْتِ المتنبِّي:

مَرَّتْ بِنا بَيْنَ سِرْبَيْها فَقُلْتُ لَها ... مِنْ أيْنَ جانَسَ هذا الشَّادِنُ العَرَبا[3]

أيْ فَهَذِهِ المحْبُوبةُ قَدْ دَانَتْنا واقْتَرَبَتْ مِنَّا عَلَى حِيْنِ مَرَّ بِنا سِرْبانِ مِنَ الظِّباءِ فَسَأَلْتُها مُتعَجِّباً: كَيْفَ جانَسَ هذا الرَّشَأُ العَرَبَ فأشْبَهَهُمْ؟

---

١ ديوانه، ص ٥١٠.

٢ سقط الزند، ج ١، ص ٣١ .

٣ ديوانه، ص ٨٩.

غيْرَ أنَّ أبا العلاء قَدْ قصَّرَ حَقّاً عَنْ أنْ يُدَانِيَ مَهَارَةَ المتنبِّي في مُقابَلَةِ ما بِحَياةِ المدِينةِ مِنَ التَّصَنُّعِ والتَّكَلُّفِ والتَّمْوِيهِ والاستِجْلابِ إِزَاءَ حَياةِ البَداوَةِ والرِّيْفِ القائِمَةِ على البَساطَةِ والصِّدْقِ.

٢- الرِّحْلةُ التَّقْلِيدِيَّةُ لِلِقاءِ المَمْدُوحِ:

أَمَّا المتنبِّي فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ عِنْدَه وَاقِعِيَّةً. وقَدْ كانَ فِي هذا مُخالِفاً لِأَغْلَبِ الشُّعَراءِ الذِينَ كانَ عَلَيْهِمْ أنْ يَدَّعُوا أَنَّهُمْ إنَّما جازُوا البِيدَ وجَابُوا التَّنَائِفَ مِنْ أجْلِ أنْ يَصِلُوا إلى (أُمَرائِهِمْ). ولِهَذَا لا يَأْتِي مَوضُوعُ الرِّحْلَةِ عِندَهُ في مَكانِهِ وتَرْتِيبِهِ المعْرُوفِ مِنَ القصِيدَةِ، بَلْ يَبْرُزُ كُلَّما اسْتَدْعاهُ وتَطَلَّبَهُ دَافِعٌ ذاتِيٌّ خاصٌّ، ولِذَلِكَ نَرَاهُ أحْياناً يَتَكرَّرُ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً في القَصِيدَةِ الواحِدَةِ.

والذي صَنَعَهُ أبو العلاء هو أنَّهُ حذا حَذْوَ هذا الأُسْلُوبِ الفَنِّيِّ وجَرَى عَلَى سَنَنِهِ. ولَعَلَّهُ كان يَرَى ما يَقُوم بِهِ مِنْ أسْفارٍ قِصارٍ وتَنَزُّهاتٍ في الشَّامِ شَبِيهَةً بِما كان يَتَجَشَّمُهُ أبو الطيِّبِ مِن رِحْلاتٍ طِوالٍ ضِخامٍ وأسْفارٍ عِظامٍ. ومَهْما يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَلا بُدَّ أنْ يَكونَ قد تَبيَّنَ لِأَبي العلاءِ، بَعْدَ أن نَهَضَ بِرِحْلَتِهِ إلى بَغْداد، كَيفَ يَلْزَمُ المرْءَ أَنْ يُبَاشِرَ بِنَفْسِهِ تَجْرِبَةَ السَّفَرِ عَبْرَ الصَّحْراءِ ويُقاسِيَ صِعابَهُ ومَشَاقَّهُ حَتَّى يأْتِيَ شِعْرُهُ فِيهِ جَمِيلاً رَائِعاً.

٣- مَوْضُوعُ المدِيْحِ الأساسُ:

ومَوْضُوعُ المدِيْحِ هذا رُبَّما أَخَذَ فيهِ الشَّاعِرُ عَقِبَ وَصْفِ الرِّحْلَةِ مُبَاشَرَةً وعلى نَحْوٍ مُفاجِئٍ، وهو ما كانوا يُسَمُّونَهُ (بِالاقْتِضابِ) وهُوَ أُسْلوبٌ كانَ يَتَعَاطاهُ البُحْتُرِيُّ وشُعَراءُ المدِيحِ التَّقْلِيْدِيِّينَ[1]. والأُسْلُوْبُ الآخَرُ هو أُسْلُوبُ التَّخَلُّصِ الذي كانَ أَكْثَرَ

---

[1] العُمْدة، ص ١٥٩.

استخدَاماً وتَعاطِياً بَيْنَ الشُّعَراءِ العَبَّاسِيِّينَ، وهو أنْ يَعْمِدَ الشَّاعِرُ إلى إحْداثِ نَوْعٍ مِنْ حِيْلَةٍ لَفْظِيةٍ يُمْكِنُهُ بِها ذِكْرُ اسْمِ مَمْدوحِهِ بَعْدَ مَوْضُوعِ الرِّحْلَةِ يَتَخَلَّصُ بِذَلِكَ إلى مَوضُوعِ المدِيْحِ. وهَاكَ هذا المِثالَ:

تَقُولُ التي مِنْ بَيْتِها خَفَّ مَرْكَبِي ... عَزِيزٌ عَلَيْنا أنْ نَراكَ تَسِيْرُ

أَمَا دُوْنَ مِصْرٍ لِلغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بَلَى إنَّ أسْبابَ الغِنَى لَكَثِيْرُ[1]

فَقُلْتُ لَها واستَعْجَلَتْها بَوادِرٌ ... جَرَتْ فَجَرَى في إثْرِهِنَّ عَبِيْرُ

ذَرِيْنِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيْكِ بِرِحْلَةٍ ... إلى بَلَدٍ فيها الخَصِيبُ أَمِيرُ[2]

وقَدْ عُرِفَ المتنبِّي عُمُوماً بِأنَّهُ زَعِيمُ فَنِّ التَّخَلُّصِ. وقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاءَ أُسْلُوبَهُ هُنا وسَعَى لِأنْ يَتَفَوَّقَ عَلَيْهِ، وقَدْ وُفِّقَ في ذَلِكَ أحْياناً وأصابَ نَجَاحاً، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

مُواصَلَةً بِها رِحَلِي كَأنِّي ... عَنِ الدُّنيا أُرِيدُ بِها انْفِصالا

سأَلْنَ فَقُلْتُ مَقْصِدُنا سَعِيدٌ ... فَكانَ اسْمُ الأمِيرِ لَهُنَّ فَالا[3]

ويُمْكِنُكَ حَقّاً مُقارَنَةُ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ بِبَيْتَيْ أبي الطَّيِّبِ:-

عَلَى قَلَقٍ كأنَّ الرِّيْحَ تَحْتِي ... أُوَجِّهُها جَنُوباً أو شِمالا

إلى البَدْرِ ابْنِ عَمَّارِ الذِي لَمْ ... يَكُنْ في غُرَّةِ الشَّهْرِ الهِلَالا[4]

وكَمَا تَرَى فَقَدْ استخْدَمَ كِلا الشَّاعِرَيْنِ اسْمَيْ مَمْدُوحَيْهِما استخْداماً ذَكِيّاً.

---

١ البَيْتُ الثاني مِنْ هَذِهِ الأبْياتِ لَمْ يَرِدْ في الأصْلِ، وما أشْبَهَ أنْ يَكُونَ عَلى غَيْرِ مُرادِ المؤلِّفِ فأثْبَتْناهُ. (المترجم).

٢ دِيْوَانُ أبي نُوَاسٍ، القاهرة، ١٨٩٨، ص ٩٩.

٣ سقط الزند، ج ١، ص ١٧.

٤ ديوانه، ص ١٢٩.

ويَتَّفِقُ أحْيَاناً لِأبي العلاء أن يَنْجَحَ، عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنهُ، في تَقْلِيدِ أَخْطاءِ المتنبِّي ومُحاكاةِ سَقْطاتِهِ التي كانَتْ تَتَفَلَّتُ في بَعْضِ الأحيْانِ فَيَهْبِطَ مِنَ الجَزَالَةِ إلى الرَّكاكَةِ أو يَنْزِلَ مِنْ رَوْعةٍ إلى إسْفافٍ. فَنَرَى مَثَلاً أنَّ بَيْتَ أبي العلاء:-

ولَوْ قِيلَ اسْأَلُوا شَرَفاً لَقُلْنا يَعِيشُ لَنا الأمِيرُ ولا نُزَادُ[1]

شَبِيهٌ بِقَوْلِ المتنبِّي:

أعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَا سَرْجُ سابِحٍ وخَيْرُ جَلِيْسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ
وبَحْرُ أبُو المِسْكِ الهُمَامُ الذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وعُبَابُ[2]

(ب) التصوير الشعري واللُّغةُ المجازية (الاستعارةُ والتَّشْبِيهُ):

يَفِيضُ شِعْرُ أبي العلاء الذي نَظَمَهُ في هَذِهِ الفَتْرَةِ بطائِفَةٍ كَبِيْرَةٍ مِنَ الاسْتِعاراتِ والتَّشْبِيهاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ المعْرُوفَةِ. ولكنَّ كَثِيراً مِنْها اسْتَعَارَهُ مِنَ المتنبِّي مباشرةً، ومِثالُ ذلك:

(١) السَّيفُ خَطِيبٌ[3]

(٢) تَشْبِيهُ طرائِقِ السَّيْفِ ونَمْنَمَتِهِ بأَثَرِ مَشْيِ النَّمْلِ عَلَى كَثِيبٍ مِنَ الرَّمْلِ[4].

(٣) وَصْفُ صَفْحَةِ السَّيْفِ بِجَمْعِ فَرِيدٍ بَيْنَ النَّارِ والماءِ[5].

(٤) جَعْلُ المَمْدُوحِ آمِراً يأْمُرُ قُوَى الطَّبِيعةِ فَتَمْتَثِلُ أمْرَهُ[6].

---

١ سقط الزند، ج ١، ص ٦٧.

٢ دِيْوَانُهُ، ص ٤٨٠.

٣ سقط الزند ج ١، ص ٢٨، وديوان المتنبّي، ص ٤٨٧.

٤ سقط الزند، ج ١، ص ٣٨،، ودِيْوَانُ المتنبِّي، ص ١٨٨.

٥ سقط الزند، ج ١، ص ٢٨، ودِيْوانُ المتنبِّي، ص ١٨٨.

٦ سَقْطُ الزند ج ١، ص ٣٠، وديوان المتنبّي، ص ٢٤٨.

هَذا، وتَحْتَلُّ الأَزْهارُ والجَواهِرُ والدُّرُّ والفِضَّةُ (أو اللُّجَيْنُ) والنُّجُومُ وغَيْرُهُنَّ مِنْ لَامِعِ الأَشْياءِ وبَرَّاقِها جُزْءاً بارِزاً بائِناً في التَّصْويرِ الشعريِّ والاسْتِعاراتِ عالِيَةِ الزَّخْرَفةِ التي وَظَّفَها أبو العلاء في هَذِهِ المرْحَلَةِ؛ ويُوشِكُ أنْ تَكونَ كُلُّ صُوَرِهِ هُنا مُسْتَوْحاةً مِنَ عالَمِ المرْئِيَّاتِ المنْظُورِ. وقَلَّما أظْهَرَ اسْتِحْسَاناً أو تَذَوُّقاً لِلْمَسمُوعاتِ أو الصُّوَرِ الذِّهْنِيَّةِ، وذَلِكَ ما أَفْقَدَ شِعْرَهُ في هَذِهِ الفَتْرةِ لَمْسةَ الصِّدْقِ والواقِعِيَّةِ التي ظَهَرَتْ في شِعْرِهِ فِيما بَعْدَ. ولكنَّهُ مَعَ ذلكَ يُحاوِلُ تَعْوِيضَ النَّقائِصِ ووُجُوهِ التَّقْصِيرِ التي كانَتْ تَسِمُ شِعْرَهُ بِسَبَبِ عَمَاهُ مِنْ طَرِيقِ تَعاطِيهِ الظَّرْفَ والفُكاهةَ، ومِنْ طَرِيقِ الأَخْذِ مِنَ الأساطيرِ أوِ الخُرافاتِ. فمِثالُ تعاطِيْهِ الظَّرْفَ والفُكاهَةَ قولُهُ:

أذَالَ الجَرْيُ مِنهُ زَبَرْجَدِيّاً ... ومَا حَقُّ الزَّبَرْجَدِ أنْ يُذَالا
وقَدْ يُلْفَى زَبَرْجَدُهُ عَقِيقاً ... إذا شَهِدَ الأَمِيْرُ بِهِ القِتالا[1]

وهُوَ يَتَحَدَّثُ هُنا عَنْ مُهْرٍ مَمْدُوحِهِ الذي يُجْرِيهِ صاحِبُهُ لِبُلُوغِ غاياتِهِ فَيُهِينَ حَوافِرَهُ التي تُشْبِهُ الزَّبَرْجَدَ خُضْرَةً وصَلابَةً. ورُبَّما خاضَ بِهِ هذا الأَمِيرُ غِمارَ الحُرُوبِ؛ فَتَتَخَضَّبَ هذِهِ الحَوافِرُ الخَضراءُ بِالدِّماءِ، وبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ هذا الزَّبَرْجَدُ[الأخْضَرُ] إلى عَقِيقٍ [أحْمَرَ]. ومِثالُ أَخْذِهِ مِنَ الأساطيرِ والخُرافاتِ قَوْلُهُ:

أَجَدَّ بِهِ غَواني الجِنِّ لَعِباً ... فأَعْجَلَها الصَّباحُ وفِيهِ جَانُ
فَصِيمٌ نِصْفُهُ في الماءِ بَادٍ ... ونِصْفٌ في السَّماءِ بِهِ تُزانُ[2]

وهو يَتَحَدَّثُ هُنا عَن غَدِيرٍ كَثِيراً ما يُورِدُهُ المَمْدُوحُ خَيْلَهُ. هذا الغَدِيرُ تلْعَبُ بِهِ بَناتُ الجِنِّ لَيْلاً حَتَّى يُعْجِلَهُنَّ الصَّباحُ إذْ يَهْجُمَ عَلَيْهِنَّ فَيُسْرِعْنَ خَوْفَ أنْ يَفْضَحَهُنَّ ضَوْؤُهُ

---

١ سقط الزند ج ١، ص ٨٦.
٢ نَفسُهُ ص ٤٩.

فيَهْرُبْنَ مُسْرِعَاتٍ، مُخلِّفاتٍ وراءَهُنَّ على هذا الغَديرِ جاناً أيْ سِواراً قَدْ انْكَسَرَ وصَارَ فَصِيْماً أيْ نِصْفَيْنِ، نِصْفٌ قَدْ بَدا في الماءِ، والآخَرُ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِهِ السَّمَاءُ، يُرِيدُ الهِلالَ الذي يَتَراءَى في الماءِ.

وثَمَّةَ صُورٌ قَلِيلَةٌ جَدِيرَةٌ بِأنْ نَقِفَ عِنْدَها مأخُوذَةٌ مِنَ الفِقْهِ، مِثْلُ قَولِهِ:

وصَلَّى ثُمَّ أذَّنَ مُسْتَقِيلاً   وقَبْلَ صَلاتِهِ وَجَبَ الأَذَانُ[1]

وثَمَّةَ أُخْرَى غامِضَةٌ وبَعِيدَةُ التَّخْرِيجِ، كَقَوْلِهِ :

كأنَّهُنَّ غُرُوبٌ مِلْؤُها تَعَبٌ   فَهُنَّ يُمْتَحْنَ بِالأَرْسَانِ تَقْوِيدا[2]

يَتَحَدَّثُ عَنْ إبِلِهِ التي كَلَّتْ مِنْ طُولِ الأسفارِ فأَضْناها السَّيْرُ فصَارَتْ كأنَّها غُرُوبٌ أيْ دِلاءٌ مُلِئَت تَعَباً بَدَلاً عَنِ الماءِ فَصَارَ عَسِيراً عَلَى الماتِحِ مَتْحُها فَجَعَلَتْ تُجْتَذَبُ بالأَرْسانِ اجْتِذَاباً، فَذَلِكَ مَتْحُها. ولَعَلَّ الاستعاراتِ التي اسْتَوْفَاها أبو العلاء مِنَ الفِقْهِ تُعَدُّ إشاراتٍ مُنْبِئَاتٍ بِمَا سَيَصِيرُ إلَيهِ أبو العلاء مِنْ وَلَعٍ بِمُصْطَلَحاتِ العُلَماءِ ومُسمَّيَاتِهِمْ؛ فأمَّا الغامِضُ مِنْها فإنَّما هُنَّ لَمحَاتٌ خافِتَاتٌ لِأَثَرِ أبي تَمَّامٍ عَلَيهِ.

---

١ نَفْسُهُ ص ٤٦.

٢ سقط الزند ج ١، ص ٢٨.

(ج) الحِكَمُ والأقوالُ السائِرَةُ:

كان أبو العَلاء يُدْرِكُ أنَّ الإتيانَ بِالحِكْمةِ طَلَباً لِذَاتِها أَمْرٌ مُسْتَكْرَهٌ ويُكْسِبُ الشِّعْرَ فُتُوراً وبُرُوداً مُمِضّاً. ولِكَي لا يَقَعَ في أمْرٍ كَهَذا عَمَدَ إلى تَقْلِيدِ أُسْلُوبِ المتنبِّي الذي يَقُومُ عَلَى البَدِيهَةِ والعَفْوِيَّةِ وإسْمَاحِ الخاطِرِ في تَعاطِي الحِكْمَةِ في شِعْرِهِ مِمَّا قوّى في شِعْرِهِ صِفَةَ الشَّاعِرِيَّةِ ورَوْنَقَها. ويُمكِنُنا مُقارَنةُ الحِكْمَةِ الوَارِدَةِ في ما يَلِي مِن شِعْرِ أبي العلاء بِما يقابِلُها مِن شِعْرِ المتنبِّي:

قالَ أبو العلاء:

فأُطْعِمُها لِأَجْعَلَها طَعَامِي وَرُبَّ قَطِيعةٍ جَلَبَ الوِدادُ[1]

وقال المتنبِّي:

وكَمْ ذَنْبٍ مُوَلِّدُهُ دَلَالٌ وكَمْ بُعْدٍ مُوَلِّدُهُ اقْتِرابُ[2]

وقالَ أبو العلاء:

لَوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإحْسَانِ زُرْتُكُمُ والعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإفْراطِ في الخَصَرِ[3]

وقال المتنبِّي:

يُجَمِّشُكَ الزَّمانُ هَوىً وحُبّاً وقَدْ يُؤذَى مِنَ المِقَةِ الحَبِيبُ[4]

وقالَ أبو العلاء:

---

١ نَفْسُهُ ص ٧١.

٢ ديوانه، ص ٣٧٨.

٣ سقط الزند ج ١، ص ٣١.

٤ ديوانه، ص ٣٣٣.

وعِيْشَتِيَ الشَّبَابُ ولَيْسَ مِنْها صِباايَ ولا ذُؤابَتِيَ الهِجانُ[1]

وقالَ المتنبّي:

آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وشَبَابٌ فإذا وَلَّيَا عَنِ المرْءِ وَلَّى[2]

(د) المُبَالَغَة:

وهذِهِ تأتي عَلَى أَضْرُبٍ ثلاثةٍ:

١- مُبالَغَةٍ تَنْطَوِي عَلَى تَجْدِيفٍ وكُفْرٍ، كَمَا فِي:

يَكادُ مُحَيَّنٌ لاقَى المَنَايا بِسَيْفِكَ لا يَكونُ لَهُ مَعَادُ[3]

أيْ يَكادُ مَنْ تَقْتُلُهُ بِسَيْفِكَ لا يُنْشَرُ يَوْمَ البَعْثِ؛ وهو مِنْ قوْلِ المتنبِّي:

أَوْ كانَ صادَفَ رَأْسَ عازَرَ سَيْفُهُ في يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لَأَعْيَا عِيْسَى

أيْ لَوْ أصابَ عُزَيراً بِسَيْفِهِ في مَعْرَكَةٍ لَعَجَزَ حَتَّى عِيْسَى عِنْ إحْيائِهِ.

٢- مُبالغَةٍ تَنْطَوِي عَلَى غَلَقٍ واستحالةٍ، أو لا مَعْقُوليَّةٍ، كَمَا فِي:

يُحِسُّ وَقْعَ المنايا وهْيَ نازِلَةٌ فيُنْهِبُ الجَرْيَ نَفْسَ الحادِثِ المكِرِ[4]

---

١ سقط الزند ج ١، ص ٤٣.

٢ ديوانه، ص ٤٠٠.

٣ سقط الزند ج ١، ص ٧٣.

٤ نَفْسُهُ ص ٣٦.

يَصِفُ فَرَساً كَرِيْماً بِصِدْقِ الحِسِّ، إذ يَشْعُرُ بِالحَوَادِثِ فيُعْجِزُها جَرْياً فتَمُوتَ مِنَ الجَرْيِ وَراءَه. وهذا البَيْتُ، كَمَا تَرى، يُوْشِكُ أنْ يَكُونَ مُسْتَغْلِقاً عَصِيّاً عَلَى الفَهْمِ عَوِيْصاً وهُوَ، بَعْدُ، مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ المتنبِّي:

ولَوْلا أنَّنِي في غَيْرِ نَوْمٍ لَكُنْتُ أَظُنُّنِي مِنِّي خَيالا[1]

وقَوْلِهِ كذلك:

وضاقَتِ الأرْضُ حتَّى إنَّ هَارِبَهُمْ إذا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلا[2]

فَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ هُنَا يَصِفُ المتنبِّي ما صارَ إلَيْهِ مِنَ النُّحُولِ والهُزَالِ حَتَّى إنَّهُ ظَنَّ نَفْسَهُ خَيَالاً وشَبَحاً لَوْلا أنَّهُ يَقِظٌ. وفي الثانِي يَصِفُ خَوْفَ الهارِبِيْنَ مِنْ أمِيرِهِ المَمْدُوحِ وقَدْ ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ حَتَّى كان الهارِبُ مِنهُمْ إذا توهَّمَ أو رَأَى (لا شَيْءٍ) ظَنَّهُ رَجُلاً مِمَّنَ يَتعَقَّبُهُمْ فَزادَ خَوْفُهُ.

٣- مُبالغةٌ تَنْطَوِي عَلَى سُوقِيَّةٍ وابْتذالٍ، كَمَا في:

إذا سَمَّيْتَهُ في أرْضِ جَدْبٍ نَزَلْتَ وكُلُّ رَابِيَةٍ خِوَانُ[3]

أيْ إذا ذَكَرْتَ اسْمَهُ في أرْضٍ مُجْدِبَةٍ رَأَيْتَ خَيْراتٍ وصادَفْتَ عَلَى كُلِّ رَبْوَةٍ مائِدَةً. فَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ المبَالَغَةِ شَبِيةٌ بِما في قَوْلِ المتنبّي:

وإنْ ما رَيْتَنِي فارْكَبْ حِصَاناً ومَثِّلْهُ تَخِرَّ لَهُ صَرِيْعَا[4]

---

١ ديوانه، ص ١٢٩.

٢ نفسه، ص ١٢.

٣ سقط الزند، ج ١، ص ٥٢.

٤ ديوانه، ص ٨٣.

أيْ فإنْ لَمْ تُوافِقْني فِيما قُلْتُ في هذا المَمْدُوْحِ فارْكَبْ حِصاناً وصَوِّرْ هَذا المَمْدُوحَ في نَفْسِكَ فَإنَّكَ ستَخِرُّ عَلَى الأرْضِ صَرِيعاً.

السَّرِقَةُ[1]:

بِإمكانِنا أنْ نُصَنِّفَ الأبْياتَ التي سَرَقَها أبو العلاءِ مِنَ المتنبِّي هذا التَّصْنِيفَ:

١- أبياتٌ أَخَذَ فِيْها أبو العلاء مِنَ المتنبِّي الصُّوَرَ أو المعَانِي.

٢- أبياتٌ أَخَذَ فِيْها مِنهُ الألْفاظَ والأساليبَ .

٣- أبياتٌ أَخَذَ فِيْها الألفاظَ والمعاني مَعاً.

وفِيْما يَلِي أَمْثِلَةٌ تُبَيِّنُ ما قُلْنا؛ قالَ أبو العلاء:

فَيُفْني الدِّرْعَ لُبْساً واليَمَانِي   صِحَاباً والرُّدَيْنِيَّ اعْتِقَالا[2]

وقالَ المتنبِّي:

هُوَ المُفْنِي المذَاكِي والأعَادِي   وبِيضَ الهِنْدِ والسُّمْرَ الطِّوَالا[3]

وقال أبو العلاء:

دَعِ اليَراعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرونَ بِهِ   وبِالطِّوَالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فافْتَخِرِ
فَهُنَّ أَقْلامُكَ اللَّاتِي إذا كَتَبَتْ   مَجْداً أَتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ[4]

---

١ يُمْكِنُنا اعتبارُ الكَلِمَةَ الإنجليزية (Plagiarism) هنا مُقابِلاً لِلْكَلِمةِ العَرَبيَّةِ (سَرِقة)؛ مَعَ أنَّ كَلِمَةَ (سَرِقَةَ) العَرَبيَّةَ لا تعْنِي ما تَعْنِيْهِ كَلِمةُ (Plagiarism)؛ إذْ لا تعْنِي دَائِماً كَوْنَ شاعِرٍ سارِقاً مِنْ آخَرَ مَعانِيَهُ وكَلِماتِهِ؛ فَقَد تَعْنِي مُجَرَّدَ التَّقْلِيدِ؛ وهو المعْنى المرَادُ هُنا لِكَلِمةِ (سَرِقة) أو لِكَلِمَةِ (Plagiarism).

٢ سقط الزند، ج ١، ص ٣١.

٣ ديوانه، ص ٣٠.

٤ سقط الزند، ج ١، ص ٣٧.

أيْ دَعِ القَلَمَ لِمَنْ يَفخَرُونَ بِالكتابَةِ، وافْتَخِرْ أنْتَ بِرِمَاحِكَ الطِّوَالِ، فإنَّهُنَّ أقلامُكَ التي تَخُطُّ المجْدَ جاعِلَةً مِنَ الدَّمِ مِداداً وحِبْراً؛ وهُوَ مِن قَوْلِ المتنبِّي :

حَتَّى رَجَعْتُ وأقْلامِي قَوائِلُ لِي ... المجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ المجْدُ لِلْقَلَمِ

اكْتُبْ بِنا أبَداً بَعْدَ الكِتابِ بِهِ ... فإنَّما نَحْنُ لِلأسْيافِ كالخَدَمِ[1]

أيْ حتى عُدْتُ خائِبَ المسْعَى وأقْلامِي تُخْبِرُنِي: (تُدْرَكُ الأمْجادُ بِالأسْيَافِ لا بِالأقْلامِ، فأعْمِلْ سَيْفَكَ أوَّلاً بِضَرْبِ الرِّقابِ ثُمَّ اكْتُبْ بِنَا ما فَعَلْتَ بِالسَّيْفِ فَمَا نَحْنُ إلا خَدَمٌ لَهُ). وقال أبو العلاءِ:

تَغايَرَتْ فِيهِ أرْواحٌ تَمُوتُ بِهِ ... مِنَ الضَّراغِمِ والفُرْسَانِ والجُزُرِ[2]

مِنْ قَوْلِ المتنبّي:

تَجْرِي النُّفُوسُ حَوالَيْهِ مُخَلَّطَةً ... مِنْها عُداةٌ وأَغْنامٌ وآبَالُ[3]

وقالَ أبو العلاء:

وأضْعَفَ الرُّعْبُ أيْدِيَهُمْ فَطَعْنُهُمُ ... بِالسَّمْهَرِيَّةِ دُوْنَ الوَخْزِ بِالإِبَرِ[4]

أيْ أرْعَبَهُمْ الخوفُ مِنَ المَمْدُوحِ فَوَهَنَتْ مِنْ ذَلِكَ أيْدِيهِمْ فَصَارَ طَعْنُهُمْ بِالرِّماحِ أقَلَّ تَأْثِيراً في العِدَى مِنْ وَخزِ الإبَرِ؛ وهُوَ مِنْ قَوْلِ المتنبّي:

يَنْفُضُ الرَّوْعُ أيْدِياً لَيْسَ تَدْرِي ... أَسُيُوْفاً حَمَلْنَ أمْ أَغْلالا[1]

---

١ ديوانه، ص ٥١٢.

٢ سقط الزند، ج ١، ص ٣٨.

٣ ديوانه، ص ٥٠٤.

٤ سقط الزند، ج ١، ص ٣٧.

أي قامَ الرَّوْعُ بِنُفُوسِ أعْدَائِكَ فارتَجَفَتْ مِنهُمُ الأيْدِي فأَمْسَكَتْ عَنْ إعْمالِ السُّيُوفِ حَتَّى عادَتْ هذِهِ السُّيُوفُ عَلَيْها كأنَّها أغْلالٌ بِها تَعُوقُها عَنِ القِتالِ. وقَوْلُ أبِي العلاء:

إذا خَفَقَتْ لِمَغْرِبِها الثُّرَيَّا تَوَقَّتْ مِنْ أَسِنَّتِهِ اغْتِيالا[2]

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي :

وقَدْ زَعَمُوا أنَّ النُّجُومَ خَوالِدٌ ولَوْ حارَبَتْهُ ناحَ فِيْها الثَّواكِلُ[3]

وقالَ أبو العلاء:

وأُقْسِمُ لَوْ غَضِبْتَ عَلَى ثَبِيرٍ لَأَزْمَعَ عَنْ مَحَلَّتِهِ انْتِقالا[4]

مِنْ قوْلِ المتنبِّي:

وأُقْسِمُ لَوْ صَلَحْتَ يَمِينَ شَيْءٍ لَمَا صَلَحَ الأَنَامُ لَهُ شِمَالا[5]

وقالَ أبوالعلاء:

أَقائِدَها تُغِصُّ الجَوَّ نَقْعاً وفَوْقَ الأرْضِ مِنْ عَلَقٍ جِسَادُ[6]

مِنْ قوْلَ المتنبِّي[7]:

أقائِدَها مُسَوَّمَةً خِفَافاً إلى بَلَدٍ تُصَبِّحُهُ ثِقَالا

---

١ ديوانه، ص ٤٠٥.

٢ نفسه، ص ٢٥.

٣ ديوانه، ص ٣٦٧.

٤ نفسه، ج١، ص ٢٧، وفي شرح التنوير (ارتحالاً) (المترجم).

٥ ديوانه، ص ١٣١.

٦ نفسه، ص ٦٩.

٧ ديوانه، ص ١٣٠

وقَوْلُ أبي العلاء[1]:

ومَنْ صَحِبَ اللَّيالِي عَلَّمَتْهُ خِدَاعَ الإلْفِ والقِيلَ المحَالا

مِنْ قَوْلِ المتنبّي[2]:

ومَنْ صَحِبَ الدُّنيا طَوِيْلاً تَنَكَّرَتْ عَلَى عَيْنِهِ حتَّى يَرَى صِدْقَها كِذْبا

وقَوْلُ أبي العلاء[3]:

أَخَفَّ مِنَ الوَجِيهِ يَداً ورِجْلاً وأَكْرَمَ في الجِيَادِ أَباً وخَالا

مِنْ قَوْلِ المتنبّي[4]:

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفّاً وسَيْفاً ومَحْمِيَةً ومَقْدِرَةً وآلا

وأشْرَفُ فاخِرٍ نَفْساً وقَوْماً وأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمّاً وخَالا

وقَوْلُ أبي العلاء[5]:

ولو طَرِبَ الجَمَادُ لَكَانَ أوْلَى شُرُوبِ الرَّاحِ بِالطَّرَبِ الدِّنَانُ

مِنْ قَوْلِ المتنبّي[6]:

ولَوْ لَمْ يَعْلُ إلَّا ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الجَيْشُ وانْحَطَّ القَتَامُ

---

١ نفسه، ج ١، ص ٢٤.

٢ ديوانه، ٣١٨.

٣ نفسه، ج ١، ص٢٦.

٤ ديوانه، ص ١٣٠.

٥ نفسه، ص ٤٦.

٦ ديوانُهُ، ص ٩٢.

وقَوْلُ أبي العلاء[1]:

مِنْ كُلِّ أزْهَرَ لَمْ تأْشَرْ ضَمَائِرُهُ   لِلَثْمِ خَدٍّ ولا تَقْبِيلِ ذِيْ أُشُرِ
لكنْ يُقبِّلُ فُوْهُ سامِعَيْ فَرَسٍ   مُقَابِلَ الخَلْقِ بَيْنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ

مِنْ قَوْلَ المتنبِّي[2]:

أعْلَى المَمَالِكِ ما يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ   والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيْهِنَّ كالقُبَلِ

وقَوْلُ أبي العلاء[3]:

تَغْنَى عَنِ الوِرْدِ إنْ سَلُّوا صَوَارِمَهُمْ   أَمَامَها لاشْتِبَاهِ البِيضِ بِالغُدُرِ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي:[4]

وخَيْلٍ تَغْتَذِي رِيْحَ الموامِي   ويَكْفِيها مِنَ الماءِ السَّرابُ

وقَوْلُ أبي العلاء:

ومُضْطَغِنٍ عَلَيْكَ ولَيْسَ يُجْدِي   ولا يُعْدِي عَلَى الشَّمْسِ اضْطِغانُ

مِنْ قَوْلِ المتبنِّي[5]:

وفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها   ويَجْهَدُ أنْ يأْتِي لَها بِضَرِيْبِ

وقَوْلُهُ[1]:

---

١ نفسه، ج ١، ص ٣٥ – ٣٦.

٢ ديوانه، ٢٦٥.

٣ نفسه، ج ١، ص ٣٦.

٤ ديوانه، ص ٣٧٢.

٥ ديوانه، ص ٣١٧.

إذا البِرْجِيْسُ والمِرِّيخُ رَامَا سِوَى ما رُمْتَ خانَهما الكِيَانُ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[٢]:

لَوِ الفَلَكُ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرانِ

ولَعَلَّ فِيما أَوْرَدْنَا مِنْ هَذِهِ الشَّواهِدِ مَقْنَعاً بِأَنَّ أَثَرَ المتنبِّي عَلَى شاعِرِنا كانَ قَدْ بَلَغَ فِي وَاقِعِ الأَمْرِ حَدّاً مِنَ العِظَمِ جَعَلَ شَخْصِيَّةَ أبي العلاء يُوشِكُ أَنْ تَنْطَمِسَ مَعَالِمُها بِتَقْلِيدِهِ الأَعْمَى لِلْمُتنبِّي. غَيْرَ أَنَّ هُناك شاعِرَيْنِ كانا أَقَلَّ حَظّاً مِنِ اهْتِمَامِهِ والْتِفاتِهِ فَجَاءَ أَثَرُهُما عَلَيْهِ أَقَلَّ ظُهُوراً مِنْ أَثَرِ المتنبِّي، ولَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَثَرُهُما هَذا بِالقَدْرِ الذي لا يُعْتَدُّ بِهِ ضَآلَةً وزَهَادَةً. هَذَانِ الشَّاعِرانِ هُما أبو تَمَّامٍ والبُحْتُرِيُّ. ويُمْكِنُنا أَنْ نَلمُحَ لَمْسَةً مِنْ أَثَرِ أبي تَمَّامٍ في بَعْضِ صُوَرِ أبي العلاء الغامِضَةِ وفِي اسْتِخْدامِه لِلجِناسِ التَّامِّ وشِبْهِ التامِّ[٣] وفِي تَعَاطِيهِ لِلإشارَاتِ التارِيخِيَّةِ، وكَذَلِكَ فِي بَعْضِ الكَلِماتِ والتَّعابِيرِ التي أَخَذَها شاعِرُنا مِنهُ أخذاً. فَمَا أَشْبَهَ بَيْتَ أبي العلاءِ[٤]:

وَقَفْتُ بِهِ لِصَوْنِ الوُدِّ حَتَّى أَذَلْتُ دُمُوعَ جَفْنٍ ما تُصَانُ

بِبَيْتِ أبي تمام[٥]:

عَلَى مِثْلِها مِنْ أَرْبُعٍ ومَلاعِبِ أُذِيْلَتْ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

---

١ نفسه، ج ١، ص ٤٧ – ٤٨.

٢ ديوانُهُ، ص ٤٧٤.

٣ كالمشاكلةِ اللَّفظِيةِ عِنْدَه.

٤ سقط الزند، ج ١، ص ٤٢.

٥ ديوان أبي تمام، بيروت، ص ٤٠ .

وأعْظَمُ مِنْ أَثَرِ أبي تَمَّامٍ فِيهِ أَثَرُ البُحْتُرِيِّ. ولَعَلَّ مَرَدَّ ذلك أَنَّ أُسلُوبَ البُحْترِيِّ أسْهَلُ مَتْناً وأدْنَى أنْ يُقَلَّدَ. وكُلُّ قصائِدِ أبِي العَلاءِ القَصِيرَةِ التي نَظَمَها عَلَى بَحْرِ الكامِلِ إنَّما حَذَا فِيْها حَذْوَ البُحْتُرِيِّ، حتى باتَ الشَّبَهُ بينَهُما في هَذا الضَّرْبِ مِنَ النَّظْمِ أوْضَحَ مِنْ أنْ يُدَلَّ عَلَيْهِ، وذَلِكَ ما يُمْكِنُ أنْ تَسْتَبِيْنَهُ في ما يَلِي مِن اسْتِشْهَاداتٍ.

قَالَ أبو العلاء[1]:

واهْجُمْ عَلَى جُنْحِ الدُّجَى ولَوَ انَّهُ أَسَدٌ يَصُولُ مِنَ الهِلالِ[2] بِمِخْلَبِ

وقَالَ البُحتريُّ [3]:

وتَرَاهُ فِي ظُلَمِ الوَغَى فَتَخَالُهُ قَمَراً يَكُرُّ عَلَى الرِّجالِ بِكَوْكَبِ

وقالَ أبو العلاء[4]:

قَدْ أوْرَقَتْ عُمْدُ الخِيَامِ وأعْشَبَتْ شُعَبُ الرِّحَالِ ولَوْنُ رأسِيَ أَغْبَرُ

وقالَ البُحْتُرِيُّ[5]:

لاحَتْ تَباشِيْرُ الخَرِيْفِ وأعْرضَتْ قِطَعُ الغَمَامِ وشَارَفَتْ أنْ تَهْطُلا

---

[1] سقط الزَّنْدِ ج ٢، ص ٣٣.

[2] وروايَةُ المؤلِّفِ (عَلَى الهلالِ) والذي أثْبَتْنَاهُ هُوَ رِوَايةُ شرْحِ التَّنْويْرِ وبَعْضِ طَبْعَاتِ الدِّيوَانِ الحَدِيْثَةِ، وذَلِكَ عَلَى مَعْنَى أنْ تَهْجُمَ عَلَى جُنْحِ الدُّجَى ولَوْ كانَ هَذا الجُنْحُ أَسَداً يَصُولُ عَلَى الكائِنَاتِ بِمِخْلَبٍ هُوَ الهلالُ، كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ ظُلْمَتِهِ لِأنَّ قَمَرَهُ ما زالَ هِلالاً. وعَلَى هذا فلا وَجْهَ لِرِوَايَةِ المؤَلِّفِ كَمَا تَرَى، فَلَعَلَّها سَهْوٌ أو خطأٌ طِباعِيٌّ، وإلّا فالمؤَلِّفُ، بِما عَلِمْتَ دِقَّةً وتَعَمُّقاً فِي الفَهْمِ. (المترجم)

[3] دِيْوَانُ البُحْتُرِيِّ، أستانبول، ١٣٠٠هـ، ج ٢، ص ١٣٥.

[4] نفسه، ج ٢، ص ٣١.

[5] ديوانه، ج ١، ص ٩١.

ونَرَى أبا العَلاء يَسْتَخْدِمُ كَثِيْراً مِنَ الأَدواتِ التي تُكْسِبُ الكامِلَ عِنْدَ البُحْتُرِيِّ إيْقَاعَهُ الطَّرُوبَ وهَيْئَتَهُ البَهِيجَةَ وأنْغامَهُ بالِغَةَ الإمْتاعِ، مِثْلَ:

١. المخَالَفَةُ والمعَاقَبَةُ بَيْنَ الأحْرُفِ السَّاكِنَةِ والمتَحَرِّكَةِ (أوِ الصَّوَائِتِ والصَّوَامِتِ)، نَحْوُ[1]:

وهَجِيرَةٍ كالهَجْرِ مَوْجُ سَرابِها ... كالبَحْرِ لَيْسَ لِمَائِها مِنْ طُحْلُبِ

٢. التَّقْسِيمُ، كَقَوْلِهِ[2]:

قَدْ أَوْرَقَتْ عُمْدُ الخِيَامِ وأعْشَبَتْ ... شُعَبُ الرِّحَالِ ولَوْنُ رَأْسِيَ أغْبَرُ

٣. اسْتِخْدَامُ الثُّلاثِيِّ مِنَ الكَلِمَاتِ أوِ المصَادِرِ القَصِيرَةِ في عَجُزِ البَيْتِ، نَحْوُ[3]:

سَنَحَ الغُرَابُ لَنَا فَبِتُّ أَعِيفُهُ ... خَبَراً أَمَضُّ مِنَ الحِمَامِ لَطِيْفُهُ

٤. استِخدامُ التَّشْبِيْهاتِ التي تَشْتَمِلُ عَلَى أَدَاةِ الاسْتِثْناءِ (إلَّا) بَعْدَها حَرْفُ النَّفي (لا) أو (لَمْ)، كَقَوْلِهِ[4]:

أَوْفَى بِهَا الحِرْباءُ عُوْدَيْ مِنْبَرٍ ... لِلظُّهْرِ إلَّا أنَّهُ لَمْ يَخْطُبِ

٥. تَخَيُّرُ أَلْفاظٍ بَسِيطةٍ وتَعْبِيراتٍ يُوشِكُ أنْ تكونَ ساذِجَةٍ، مِثْلِ قَولِهِ[5]:

وهَوَاكِ عِنْدي كالغِناءِ لِأَنَّهُ ... حَسَنٌ لَدَيَّ ثَقِيلُهُ وخَفِيفُهُ

---

١ سقط الزند، ج ٢، ص ٣٣.

٢ نفسه، ج ٢، ص ٣١.

٣ نفسه، ج ٢، ص ٢٨.

٤ نفسُهُ، ج٢، ص ٣٣.

٥ نفسه، ج ٢، ص ٢٩.

وسِوَى قَصائِدِ الكامِلِ، تَجِدُ أَثَرَ البُحْتُرِيِّ عَلَى أبي العلاءِ واضِحاً في مَوضُوعِ (طَيْفِ الخَيالِ) الذي يَرِدُ في أغْلَبِ قصائِدِ أبي العَلاءِ[1].

١ انْظُرْ سَقْط الزند، ج ١، ص ٢٦.

خاتِمَةٌ:

١- لَقَدْ أظْهَرَ أبو العلاء الصَّبِيُّ مِنَ المهارَةِ والبَراعَةِ في اسْتِخْدَامِ الأساليبِ الشِّعْرِيَّةِ كالجِنَاسِ والطِّبَاقِ ونَحْوِهِ ما يَكْفِي لِأنْ يُعَدَّ بِهِ شاعِراً ماهِراً مُقْتَدِراً قَدْ تَكامَلَتْ عِنَدَهُ المواهِبُ والأدَوَاتُ. وما تَرَسُّمُهُ أَثَرَ المتنبِّي واسْتِخْدَامُهُ أحيْاناً لِأساليبِ البُحْتُرِيِّ وأبي تَمَّامٍ الفَنِّيَّةِ إلَّا دَليلٌ عَلَى حَذْقِهِ في الشِّعْرِ وبَصَرِهِ بِهِ وتَفَنُّنِهِ فِيهِ وشاهِدٌ عَلَى قَرِيحَةٍ شِعْرِيَّةٍ صَحِيحةٍ ومَلَكَةٍ فِيهِ مَكِينةٍ.

٢- لَقَدْ كانَتِ الألْفَاظُ عِنْدَ أبي العلاء وتَمَكُّنُهُ مِنْ أوْزَانِهِ الشِّعْرِيَّةِ وقَوافِيهِ أعْمالاً ناجِحَةً قَلَّ أنْ تُنالَ في مِثْلِ سِنِّهِ، ونَجاحاتٍ عَزَّ أنْ تُصابَ فِيْها. وقَدْ تَفَوَّقَ أبو العلاء ناظِماً – وإنْ لَمْ يَكُنْ حِينَها شاعِراً مَطْبُوعاً – عَلَى المتنبِّي، الصَّبِيَّ، كَمَا أنَّهُ ضَاهَي كُلّاً مِنْ أبِي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ وعَدَلَهُما وهُما في مَراحِلِهِما الأُوْلَى.

القسم الثالث

فَتْرَةُ أَوَاخِرِ العِشْرِينَيَّات وأَوَائِلِ الثَّلاثِينَيَّاتِ مِنْ عُمُرِهِ

٣٨٦هـ-٣٩٨هـ

الجدول (١):

البَحْرُ	عددُ القَصائِدِ المَنْظُومَةِ عَلَيْهِ	عَدَدُ الأبياتِ المَنْظُومَةِ عَلَيْهِ
الطَّوِيلُ	١٤	٣٧٤
البَسِيطُ	٣	٦٩
الوَافِرُ	٦	١٩٥
الكامِلُ	٥	١١١
الرَّجَزُ	١	١٤
السَّرِيع	٣	٤٧
المُنْسَرِحُ	١	٢٣
الخَفِيفُ	٦	١٧٠
المُتَقارِبُ	٢	٨
	٥١	١٠١١

وكما تَرَى فالبُحُورُ التي تَجاهَلَها في هذِهِ الفَتْرَةِ هِيَ المدِيدُ والهَزَجُ والرَّمَلُ والمجْتَثُّ والمقْتَضَبُ والمضارِعُ. وسَتُلاحِظُ أنَّ هذِهِ البُحُورَ والأَوْزانَ الشِّعْرِيَّةَ لا يَعُودُ الشَّاعِرُ إلى استخْدامِها كَثِيراً في أَوَاخِرِ نَظْمِهِ في سَقْطِ الزَّنْدِ، ما عَدَا السَّرِيْعَ.

الجدول (٢):

القافِيَةُ	عَدَدُ الأبياتِ المَنْظُومَةِ عَلَيْها
د	٢٤٥
م	٢٤٥
ل	١٢٢
ر	١٠٢
ن	٨٦
ح	٥٥
ق	٣٣
س	٣٤
ب	٢٩
ث	٣٠
ز	١٤
ك	٤

ونادَراً ما جاءَتْ الأحْرُفُ السِّتَّةُ الأخِيرةُ في دِيوانِ سَقْطِ الزند. ومَعَ أنَّ حَرْفَ الباءِ كانَ يُعَدُّ عُمُوماً مِنْ سَهْلِ القَوافِي إلَّا أنَّ أبا العلاء لَمْ يَستخْدِمْهُ بِالكَثْرَةِ المتَوَقَّعَةِ، وهُوَ هُنا يُشْبِهُ المتَنبِّي. ونَرى أبا العلاء، شأْنَ المتنبّي كَذَلِكَ، يُفضِّلُ النَّظْمَ عَلَى قَوافِي الدَّالِ والمِيْمِ واللَّام.

تَطَوُّرُ أسْلُوبِ أبِي العَلاءِ خِلالَ هَذِهِ الفَتْرَةِ:

كانَ نَظْمُ أبِي العلاءِ خِلالَ هذِهِ الفَتْرَةِ البالِغَةِ اْثْنَتيْ عَشْرَةَ سَنَةً أقَلَّ نَظْمٍ شَهِدَتْهُ أيُّ فَتْرَةٍ أُخْرَى مِنْ فَتْرَاتِ حَيَاتِهِ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ يَتَعَاطَى نَظْمَ الشِّعْرِ إلَّا إذا دَعَتْ إليْهِ دَواعِي

اللِّيَاقَةِ والتَّلَطُّفِ والمدَاراةِ والحَصَافةِ؛ فَلَسْنَا نَملِكُ لَهُ خِلالَ هذِهِ الفَتْرَةِ إلا أَرْبَعَ قِطَعٍ وقَصَائِدَ بَلَغَتْ في مَجْمُوعِها ثَلاثَةً وتِسْعِينَ بَيْتاً، أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ نَظَمَها لِدوافِعَ شَخْصِيَّةٍ لَيْسَ غَيْرَ. وأَمَّا بَقِيَّةُ الشِّعْرِ فكانَتْ:

١) قَصَائِدُ مَدِيحٍ أرسَلَها يُجِيْبُ بها أصدقاءً لَهُ كانُوا قَدْ مَدَحُوهُ.

٢) قَصَائِدُ مَدْحٍ يَمْدَحُ بَها بَعْضَ سَرَاةِ مُجْتَمَعِهِ وعِلْيَتِهُ.

٣) قَصَائِدُ نَظَمَها اسْتِجَابةً لِطَلَبِ بَعْضِ أصدقائِهِ.

٤) مَرَاثٍ.

٥) قَصِيْدةٌ في التَّوْدِيعِ.

٦) قَصائِدُ نَظَمَها يُهَنِّئُ بِهَا أصدقاءً أو مَعارِفَ لَهُ في زَواجِهِمْ.

ويَبْدو أنَّ أبا العلاء كانَ يَرى مِنْ نَفْسِهِ خِلالَ هذِهِ الفَتْرَةِ عالِماً أكْثَرَ مِنهُ شاعِراً؛ ذَلِكَ أنَّ جَوَّ المعَرَّةِ القانِعَ القاتِمَ كان قَدْ غَضَّ مِنْ شِرَّةِ شَبابِهِ وخَفَّفَ مِنْ عُنْفُوانِهِ؛ وهُوَ الذِي كانَتْ تَشْرَئِبُّ نَفْسُهُ وتَتَوْقُ لِأَنْ تَعْتَرِفَ بِهِ عُقُولُ أهْلِ بَلْدَتِهِ وتُقِرَّ لَهُ بِالتَّفَوُّقِ والتَّمَيُّزِ. وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّهُ أَدْرَكَ طِلْبَتَهُ هَذِهِ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلاتٍ مِنْ رُجوعِهِ مِنْ حَلَبٍ وغَيْرِها مِنْ مُدُنِ الشَّام، حَيْثُ كانَ يَتَلَقَّى دِرَاساتِهِ وهُوَ دُونَ العِشْرِينَ. هذا، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّهُ كانَ قَدْ طُلِبَ إلَيْهِ وهُوَ فِي الخَامِسَةِ والعِشرِينَ مِنْ عُمُرِهِ أنْ يَكْتُبَ رِسَالَةً عَلَى لِسانِ أهْلِ بَلْدَتِهِ يَرُدُّ بِهَا عَلَى رِسَالَةٍ بعَثَ بِها إلَيْهِمْ المغْرِبِيُّ. وإنَّ نَشْأَةَ أَبِي العلاء الدِّينِيَّةَ وعَمَاهُ وما كانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ تَوَرُّعٍ مِنَ النَّاحِيَةِ الأخْلاقِيَّةِ، كُلُّ أُوْلَئِكَ كانَ قَدْ وَقَفَ سَدّاً مَنِيعاً حَالَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الجَرْيِ وَرَاءَ الملَذَّاتِ والشَّهَوَاتِ الحِسِّيَّةِ، وبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَبعِ الإِلْهَامِ الوَحِيدِ الذِي كانَ مُتاحاً لِشُعَرَاءِ عَصْرِهِ. ولَعلَّهُ كانَ قَدْ فكَّرَ

مَلِيّاً في تَرْكِهِ الشِّعْرَ وانْصِرافِهِ عَنْهُ إلى الدَّرْسِ لِيَنْقَطِعَ لَهُ مُشْتَغِلاً بِتَدْرِيسِ عُلُومِ اللُّغَةِ. فَقَدْ جاءَ في قَصِيدَةٍ نَظَمَها لِأَحَدِ الأُمَراءِ، قَوْلُهُ[1]:

أَبَا فُلانٍ دَعاكَ اللهُ مُقْتَدِراً — أَخَا المكارِمِ وابْنَ الصَّارِمِ الخَلِسِ[2]

لا يُوهِمَنَّكَ أَنَّ الشِّعْرَ لِي خُلُقٌ — وأَنَّني بِالقَوافِي دَائِمُ الأَنَسِ

فإنَّما كانَ إلْمَامِي بِساحَتِها — في الدَّهْرِ إلْمامَ طَيْرِ الماءِ بالعَلَسِ

والنَّاسُ فِي غَمراتٍ مِنْ مَقالِهِمِ — لا يَظْفَرُونَ بِغَيْرِ المَنْطِقِ الوَدِسِ

ولا يُفيدُونَ نَفْعاً فِي كَلامِهِمِ — وهَلْ تُفِيدُكَ مَعْنىً نَغْمَةُ الجَرَسِ

عَساكَ تَعْذِرُ إنْ قَصَّرْتُ فِي مِدَحِي — فإنَّ مِثْلِي بِهِجْرانِ القَرِيضِ عَسِ

(أيْ اعْلَمْ أَيُّها الأَمِيرُ، يا مَنْ حَباكَ اللهُ بِهَذِهِ الأَسْماءِ، أَنَّ الشِّعْرَ لَيْسَ مِنْ أَرَبِي ولا الاشْتِغَالُ بِالقَوافِي مِنْ شَأْنِي، وما إلمامِي بِساحَتِها إلَّا كإتْيانِ طَيْرِ العَلَسَ لِتَأْكُلَهُ، والعَلَسُ ضَرْبٌ مِنَ الحِنْطَةِ، وطَيْرُ الماءِ لا يَأْكُلُ الحُبُوبَ، أيْ رَغْبَتِي في قَوْلِ الشِّعْرِ كَرَغْبَةِ طَيْرِ الماءِ فِي الحُبُوبِ. فالنَّاسُ يُكْثِرُونَ القَوْلَ والكَلامَ ثُمَّ لا يَحْصُلُونَ مِنهُ إلَّا عَلَى ما يَعِيبُ ولا يَنْتَفِعُونَ مِنهُ شَيْئاً كَمَا لا يُفِيدُ الجَرَسُ بِصَوْتِهِ مَعْنىً؛ ولِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ تَعْذُرَنِي في تَقْصِيرِي في مَدْحِيكَ، فَذَلِكَ ما يُوافِقُ حَالِي، ومِثْلِي جَدِيرٌ بِتَرْكِ الشِّعْرِ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُقَدَّرْ لِأَبِي العلاء أنْ يَتْرُكَ الشِّعْرَ كما كانَ يُرِيدُ. بَلْ، عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذِلكَ، صَارَ أَحَدَ الشُّعَراءِ الذِينَ عادَ الشِّعْرُ عِنْدَهُم أَدَاةً طَبِيعِيَّةً سَهْلَةً لِلتَّعْبِيرِ. ويَجِبُ أَنْ يُعْزَى هذا اليَأْسُ الباكِرُ مِنهُ إلى حَقِيقَةٍ ثابِتَةٍ هِيَ أَنَّ مَوْطِنَهُ مِنَ الشَّام في هذا الوَقْتِ لَمْ يَكُنْ بِهِ إلا النَّزْرُ اليَسِيرُ مِنْ سِماتِ الآدَابِ ومِنْ رُعاةِ هَذِهِ الآدابِ والقَلِيلُ جِدّاً مِن

---

١ لَمْ تَرِدْ هذه الأبياتُ في النّصِّ الأصليّ، بل اكْتَفَى المؤَلِّفُ بإيْرَادِ شَرْحِها وتَفْسِيرِها، فرأينا إيرادَها إكمالاً للفائدة (المترجم).

٢ سقط الزند، ج ١، ص ١٥٢.

القُرَّاءِ، وكادَ يَخْلُو مِنْ أيِّ مَصْدَرٍ لِلإلْهامِ أو أيِّ حَافِزٍ يَدْفَعُ لِمُزَاولَةِ عَمَلٍ أَدَبِيٍّ. إذ يَبْدُو أنَّ الشِّعْرَ كانَ قَدْ خَبَا لَمْعُهُ وأَفَلَ نَجْمُهُ وتلاشَتْ الثَّقافَةُ وسَعَةُ المعْرِفَةِ عُموماً بِمَوْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، وذَلِكَ قَبْلَ مِيْلادِ أَبِي العلاء بِسَنَواتٍ قَلائِلَ. ومَنْ اتَّصَلَ بِهِ أبو العلاء مِنَ الشُّعَراءِ فِي بِلادِهِ إمَّا كانُوا مِنَ العُلَماءِ التَّقْليديِّينَ المقِيمِينَ بِالمعَرَّةِ أو حَلَبٍ كأَبِي إبراهِيمَ الشَّرِيفِ أو كانُوا مِنَ الشُّعَراءِ الذِيْنَ هُمْ دُونَ الوَسَطِ مِمَّنْ كانُوا قَدِ ارْتَحَلُوا إلى العِرَاقِ وعَادُوا دُونَ أنْ يُصِيبُوا نَجَاحاً فِي اجْتِذَابِ رِجَالاتِ الأَدَبِ فِي بَغْدادَ ومُدُنِ الشَّرْقِ، كابْنِ الجَلَبَاتِ[1]. وفِي قَصَائِدِ المدِيْحِ وغَيْرِها مِنَ القَصَائِدِ التي كَتَبَها أبو العلاء لِهَؤُلَاءِ الشُّعَراءِ – وهيَ جُلُّ ما نَظَمَهُ خِلالَ هَذِهِ الفَتْرَةِ – كانَ عَلَى أبي العلاء أنْ يَمْدَحَ مَهارَتَهُمْ ويَصِفَ أشْعَارَهُمْ بِأَنَّها لَآلِئُ ودُرٌّ وجَواهِرُ، ويَنْسُبَ إِلَيْهِمْ صِفَاتِ البَسالَةِ والإِقْدَامِ والكَرَمِ وهِيَ صِفَاتٌ كانَتْ آنئِذٍ مَوقُوفَةً عَلَى الأُمَراءِ وحِكْراً عَلَيْهِمْ. كَمَا كانَ عَلَيْهِ أن يَتَملَّقَ ذَوْقَهُمُ الأَدَبِيَّ وذَلِكَ بِأَنْ يُجارِيَهُم فِي اعْتِمَادِ الزَّخْرَفَةِ فِي النَّظْمِ واستِخْدَامِ التَّشْبِيهاتِ والاسْتِعاراتِ الشَّائِعَةِ عصْرَئِذٍ؛ مَعَ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ القُيُودِ والأَغْلالِ، قَدْ كانَ قَادِراً عَلَى أنْ يَشُقَّ لِمَلَكَتِهِ طَرِيْقاً ويَأْذَنَ لِلشَّاعِرِ الكامِنِ فِيهِ أنْ يَبْرُزَ لِلْعَيانِ.

وقَدْ بَدَأَ تأْثِيْرُ المتنبِّي الذي كانَ ظَاهِراً جدّاً فِي أَوَائِلِ نَظْمِ أبي العلاءِ يَخْفَى وَرَاءَ تأْثِيراتٍ أَقْوَى مِنهُ وإنْ لَمْ يَطُلْ مَدَاها، يَحْسُنُ بِنا أنْ نَقِفَ عِنْدَها هُنا؛ فَهُوَ لا يَعُودُ واضِحاً إِلَّا فِي قَصِيدَتَيْهِ الفَخْرِيَّتَيْنِ[2]:

أَلَا فِي سَبِيْلِ المجْدِ ما أنَا فاعِلُ   عَفَافٌ وإِقْدامٌ وصَبْرٌ ونائِلُ

و:

---

[1] سقط الزند ج ١، ص ٩٩، ولِلْوُقُوفِ على ترجمةِ ابْنِ الجَلَبَاتِ انْظُرْ يتيمة الدَّهْرِ، ج ٢، ص ٢٧٠.

[2] الأُولَى في سقط الزند، ج ١، ص ١٠٩، والثَّانِيَةُ في ج ١، ص ١١٥ مِنهُ.

أَرَى العَنْقَاءَ تكْبُرُ أنْ تُصَادا　　فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَه عِنادا

وفي مِدْحَتَيْهِ[1]:

لَقَدْ آنَ أنْ يَثْنِي الجَمُوحَ لِجامُ　　وأنْ يَمْلِكَ الصَّعْبَ الأَبِيَّ زِمَامُ

و:

هُوَ الصَّدُّ حَتَّى مَا يُلِمُّ خَيالُ　　وبَعْضُ صُدُودِ الزَّائِرِينَ وِصَالُ

عَلَى أنَّهُ عَلَيْنا أَنْ نُلاحِظَ أنَّ هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ تَدُورانِ حَوْلَ جِهَادِ الرُّوْمِ وهُوَ مَوْضُوعٌ ظَلَّ يَحْتَلُّ الجُزْءَ الأَبْرَزَ مِنْ مَدَائِحِ المتَنبِّي التي ساقَها في سَيْفِ الدَّوْلَةِ.

وقَدْ كانَتْ مَطالِبُ أصْدِقاءِ أبِي العلاء عَلَى حِسَابِ اقْتِدَائِهِ الصَّادِقِ بِالمتنبِّي؛ إذْ لَمْ يَبْقَ لِهَذا الاقْتِدَاءِ عِنْدَ أبِي العلاء إلا مَجالٌ ضَيِّقٌ؛ لِأنَّهُ كانَ عَلَيهِ مَعَ هذِهِ المطَالِبِ أنْ يَنْظِمَ قصائِدَهُ عَلَى غِرارِ الأساليبِ التي تَحْظَى بِقَبُولِ عامَّةِ أهْلِ عَصْرِهِ، وذَلِكَ بِأَنْ يَجْعَلَ مِنْ شُعَراءِ الشَّامِ والعِراقِ المحْبُوبِينَ كالصَّنَوْبَرِيِّ والخَالِدِيَّيْنِ والسَّرِيِّ الرَّفَّاءِ وكُشاجِمَ والوَأْوَاءِ الدِّمَشْقِيِّ، وابْنِ المعْتَزِّ وأبِي الفَتْحِ البُسْطِيِّ أُسَىً لَهُ ونَمَاذِجَ يَحْتذِي حَذْوَها. إذْ كانَ هَؤُلاءِ الشُّعَراءُ هُمُ الذِينَ يُمَثِّلُون ذَوْقَ طَبَقَةِ المثقَّفِيْنَ والمفكِّرِيْنَ في هَذِهِ الأزْمُنِ أكْمَلَ تَمْثِيلٍ ويُعَبِّرُونَ عَنْهُ أتَمَّ تعْبِيرٍ، ويُصَوِّرُونَ حَياتَهُمْ أصدقَ تَصْوِيرٍ. وكان شِعْرُهُمْ مُنْصَرِفاً أشَدَّ الانْصِرافِ إلى وَصْفِ مَجالسِ الأُنْسِ والمنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وكُلِّ ما تَدُورُ عَلَيْهِ العَيْنُ في مَجْلِسٍ مِنْ مَجالِسِ الإمْتاعِ البَهِيجَةِ. فَقَدْ كانَ لَهُمْ ذَوْقٌ مُمَيَّزٌ في تَشْبِيهاتِهِمْ واخْتِيارِ أَنِيقِ القَوافِي وبارِعِ التَّشْبِيهاتِ والاستعاراتِ والأَخْيِلَةِ والأساليبِ الأدَواتِ اللَّفْظِيَّةِ والزُّخْرُفِيَّةِ. وكانَ الشِّعْرُ عِنْدَهُمْ هُوَ الفَنَّ الذي حَوَى كُلَّ الفُنُونَ؛ فَمَا كانَ حَقُّهُ مِنَ المَوْضُوعاتِ والأفْكَارِ أنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بالرَّسْمِ والتَّلْوِينِ والنَّحْتِ عَبَّرُوا هُمْ عَنْهُ بِالشِّعْرِ؛ إذْ كانَتْ هَذِهِ

---

[1] الأُوْلَى نفسه، ج ١، ص ١٢٥، والثَّانِيَةُ ج ٢، ص ١٥

الفُنُونُ البَصَرِيَّةُ المرْئِيَّةُ بَغيضَةً فِي مُجْتمَعِهِمْ المسْلِمِ الرَّافِضِ لِعِبَادَةِ الصُّوَرِ والتَّمَاثِيلِ؛ فالأَلْوانُ وتَبايُناتُ الضَّوْءِ والظِّلِّ وتَدَاخُلُهُما مِمَّا كان حَقُّهُ أنْ تَحْكِيَهُ الفِرْشاةُ كانَ يَجِبُ عِنْدَهُمْ أنْ تَتَوَلَّى رَسْمَهُ الكَلِماتُ؛ فالحَدِيْقَةُ تُصْبحُ عِنْدَهُم تَطْرِيزَةً وتَشْكِيلَةً مِنَ الزُّهُوُرِ، والنُّجُومُ يَرَوْنَها أزْهارَ زَنْبَقٍ نُثِرَتْ عَلَى بِسَاطٍ لازَوَرْدِيٍّ. وكانَ هَؤُلاءِ الشُّعَراءُ، مَعَ هَذِهِ التَّشْبيهاتِ الباهِتَةِ التي لَيْسَ فِيْها غَناءٌ، يُفرِطُونَ في اسْتِخْدَامِ التَّلاعُبِ اللَّفْظيِّ إفْرَاطاً، فَذَلِكَ كانَ عِنْدَهُم أمْراً لازِماً وأداةً مِنْ أدواتِ التَّعْبِيرِ لا يَجُوزُ إسْقاطُهَا، لِأنَّهُ بِهِ كانُوا يُعَوِّضُونَ ما كانَتْ تَصْبُو إلَيْهِ الأنْفُسُ مِنَ الطِّرازِ والشَّكْلِ اللَّذَيْنِ لا يُلْفَيانِ إلَّا فِي الفُنُونِ البَصَرِيَّةِ المرْئِيَّةِ؛ وبِذَلِكَ احْتَلَّ الجِنَاسُ[1] والطِّبَاقُ[2] مَكاناً رَئِيساً في فَنِّ النَّظْمِ عِنْدَهُمْ. ومَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ مِنَ المِمْكِنِ مُقابَلَةُ ضَآلَةِ الفُنُونِ البَصَرِيَّةِ وقِلَّتِها بِتَوْسِيعِ مَجالِ هذا الشِّعْرِ بِقَدْرٍ كافٍ؛ فَوَاقِعُ الأمْرِ أنَّ الشِّعْرَ نَفْسَهُ كانَ قَدْ تَعَرَّضَ لِمُعاناةٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْها بُدٌّ؛ وهِيَ أنَّهُ كانَ قَدْ أُجْهِدَ إجْهاداً وأرْهِقَ إرْهَاقاً؛ إذْ بَدَلاً مِنْ أنْ تُستَخْدَمَ تَشْبِيْهاتُهُ واسْتِعاراتُهُ لِإشاعَةِ جَوٍّ مِنَ الخِفَّةِ والحَيَوِيَّةِ وبَعْثِ الرُّوْحِ ونَشاطِ النَّفْسِ صَارَتْ هَذِهِ التَّشْبِيهاتُ والاسْتِعاراتُ تُستَخْدَمُ لِذاتِها عَلَى نَحْوٍ مِنَ النَّمَطِ الرِّياضِيِّ؛ فَالمنَاظِرُ والمشَاهِدُ الطَّبِيْعِيَّةُ بَلْ والتَّجارِبُ العاطِفِيَّةُ، كلُّ ذَلِكَ صارَ يُوْضَعُ فِي قَوَالِبَ وضْعاً ويُصَاغُ بِطَرِيْقَةٍ نَمَطيَّةٍ رَسْمِيَّةِ الطابَعِ. فَقَدْ كانَ عَلَى الشَّاعِرِ مِنهُمْ أنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ الرِّياضِيِّ فَيَنْطَلِقَ مِنْ بَيَاناتٍ مُعْطاةٍ لِيَتَوَصَّلَ إلى نَتِيْجَةٍ مَطلُوبَةٍ، وكانَ يَجِبُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ النَّتِيْجَةُ مَقْبُوْلَةً لِذاتِها؛ لِأنَّها لَمْ تَكُنْ إلَّا أمْراً حَتْماً.

وعَسَى أنْ تَشْهَدَ هَذِهِ الاسْتِشْهَاداتُ عَلَى ما ذَكَرْنا:

١- وَصْفُ النَّمِرِ:

---

١ كالمشَابَهَةِ اللَّفْظِيَّةِ.

٢ كالمقَابَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ.

(أ) تَنافَسَ الليلُ فِيهِ والنَّهارُ مَعاً   فَقَمَّصاهُ بِجُلْبابٍ مِنَ المقَلِ[1]

أيِ تَنازَعَ اللَّيْلُ والنَّهارَ عَلَى هذا النَّمِرِ، ثُمَّ تَوَصَّلا إلى تَراضٍ بَيْنَهُما فِيهِ بِأَنْ أَلْبَسَاهُ جُلْبَاباً مِنَ العُيُونِ[2]. وقَرِيبٌ مِن هَذا القَوْلِ قَوْلُ الآخَرِ:

(ب) ونَقَّطَتْهُ حِبَاءً كَيْ يُسالِمَها   على المَنَايا ظِباءُ الرَّمْلِ بِالحَدَقِ[3]

٢/ وصْفُ زهرةٍ صَفْراءَ ذاتِ بَتَلاتٍ سَوْداءَ[4]:

عُيونُ تِبْرٍ كأنَّما   سَرَقَتْ سَوادَ أَحْدَاقِها مِنَ الغَسَقِ
فإنْ دَجا لَيْلُها بِظُلْمَتِهِ   ضُمِمْنَ مِنْ خَوْفِها عَلَى السَّرَقِ[5]

أيْ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ أَزْهارِ العَرَارِ أوِ البَهَارِ يُشْبِهُ عُيُوناً مِنَ الذَّهَبِ سَرَقَتْ سَوَادَها مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، لِأَنَّ الزَّهْرَةَ صَفْراءُ وبَتَلاتُها سَوْداءُ، فَصَارَتْ إذا أقبلَ اللَّيْلُ خَافَتْ مِنهُ أنْ يَسْتَرِدَّ ما سَرَقَتْهُ مِنهُ فأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ جُفُونَها أيْ أَوْراقَها.

٣/ وَصْفُ القَمَرِ وهو يَبْدُو بِضَبابِيَّةٍ مِنْ خَلْفِ سَحَابَةٍ:

البَدرُ مُنْتَقِبٌ بِخَدٍّ أبيضٍ   هو فيهِ بَيْنَ تَخَفُّرٍ وتَبرُّجِ
كَتنفُّسِ الحَسناءِ في مرآتِها   كمُلَتْ محاسِنُها ولم تتزوَّجِ

---

[1] المَثَلُ السَّائِرُ، لِنَصْرِ اللهِ بْنِ الأَثِيرِ، القاهرة، ١٢٨٢هـ، ص ١٩١.

[2] كانَ هذا التَّراضِي بِالمقَلِ لأنَّ العَيْنَ تَتَكَوَّنُ مِنَ البَيَاضِ وهُوَ حَظُّ النَّهارِ؛ والسَّوَادِ الذي هو إنْسانُها وهُوَ حَظُّ اللَّيْلِ. (التَّرْجُمان)

[3] ذَكَرَ ابْنُ الأَثِيرِ في مَثَلِهِ السَّائِرِ ص ١٩١ عَنِ البَيْتِ الأَوَّلِ في وَصْفِ هذا النَّمِرِ أنَّهُ لِلشَّاعِرِ المعْرُوفِ بابْنِ السَّرَّاجِ، ثُمَّ قالَ عَنِ البَيْتِ إنَّهُ لَيْس مِنَ المعَانِي الغَرِيبَةِ، ولَكِنَّهُ تَشْبِيهٌ حَسَنٌ واقِعٌ في مَوْقِعِهِ. وعَنْ البَيْتِ الثاني قالَ إنَّهُ لِشاعِرٍ مِنْ أَهْلِ الموفيلِ يُقالُ لَهُ ابنُ مُسَهِّرٍ، ثُمَّ وَصَفَ البَيْتَ بِقَوْلِهِ إنَّهُ مَعْنىً غَرِيبٌ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهِ في مَقْصَدِهِ الذِي قُصِدَ إلَيهِ. (التَّرْجُمان).

[4] نفسه، ص ١٩٧.

[5] قال عنهُ ابْنُ الأَثِيرِ إنَّهُ (للحافِظِ) وإنَّهُ تَشْبِيهٌ بَدِيعٌ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهِ، ومِنَ اللَّطافَةِ عَلَى ما لا خَفاءَ بِهِ. (المترجم).

(فَهُوَ يُشْبِهُ امْرَأَةً جَمِيلَةً كامِلَةَ الحُسْنِ وهِيَ تَقِفُ أَمَامَ مِرْآةٍ تَتَنَفَّسُ عَلَيْها بِشِدَّةٍ؛ لِأَنَّها لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ)[1]

٤/وصْفُ زخَّاتِ الرَّبِيْعِ:

ما تَرَى نِعْمةَ السَّماءِ على الأَرْ ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ لِلأمطارِ

وغِناءَ الطُّيورِ كُلَّ صَباحٍ وانْفِتاقَ الأسْحارِ بِالأَنوارِ

فكأَنَّ الرَّبيعَ يَجْلُو عَرُوساً وكأَنَّا مِنْ قَطْرِهِ في نِثارِ

(فالطَّبِيعةُ هُنا عَرُوسُ الرَّبِيْعِ، وما زخَّاتُهُ إِلَّا نِثَارُهُ عَلَيْها)[2]

٥/ وصْفُ خَدٍّ مُتَوَرِّدٍ[3]:

أشْعلْتَ قلْبِي فارْتَمَى بِشَرارةٍ عَلِقَتْ بِخَدِّكَ فانْطَفَتْ في مائِهِ

(لَقَدْ أشْعَلَتْ في قَلْبِي ناراً، فَطارَتْ مِنهُ شَرَارةٌ وَقَعَتْ على خَدِّها فأُطْفِئَتْ مِنْ مَائِهِ)[4]

ولِأَنَّ أبا العلاء كانَ أعْمَى فَقَدْ كانَ عَسِيراً عَلَيْهِ أنْ يُنافِسَ مُعاصِرِيْهِ في وَصْفِ المرْئِيَّاتِ؛ فكانَ عَلَيْهِ عَلَى الأَغْلَبِ أنْ يأخُذَ مِنْ غَيْرِهِ. ونُوْرِدُ لَكَ هُنا مِنْ تَشبِيهاتِهِ أَمْثَلَةً عَلَى تَقْلِيدِهِ غَيْرَهُ أوْ عَلَى (سَرِقَتِها) مِنهُمْ؛ قالَ أبو العلاء[1]:

---

[1] قال المؤلِّفُ فِي هامِشِهِ هناك عنِ البيتين: (التُّحْفَةُ البَهِيَّةُ، استانبول ١٣٠٢هـ وبهامِشِهِ كِتابُ (مَنْ غابَ عَنْهُ المطْرِب) لِلثَّعالِبِيِّ، ومِنهُ أَخَذْنا الشَّاهِدَ، فانظُرْهُ ص٢٦٠). ولكنَّهُ لم يُوردْ الشاهدَ بل اكتفى بذكر المعنى وحَسْب، فأَوْرَدناهُ (المترجم)

[2] دِيْوان ابْنِ المعتز، القاهرة، ١٨٩١، ج٢، ص ٤٣. (لم يُوردِ المؤلفُ نَصَّ الأبياتِ فِي الأَصْلِ، فأوردناها هُنا) (المترجم)

[3] المثل السَّائر، ص ١٩٧، وهذا البيتُ لَمْ يَرِدْ فِي الأَصْلِ بَلْ وَرَدَ شَرْحُهُ المذْكُورُ فأثْبَتناهُ. (المترجم).

[4] نسَبَ ابْنُ الأَثِيْرِ هذا البَيْتِ لابنِ حَمْدِيسَ الصِقِلِّيِّ، وأورَدَهُ ثانِيَ اثْنَيْنِ، والذي قَبْلَهُ:

يا سَالِياً قَمَرَ السَّماءِ جَمَالَهُ أَلْبَسْتَنِي لِلحُزْنِ ثَوْبَ سَمَائِهِ

ثُمَّ قالَ يُصدِرُ حُكْمَهُ على البَيْتَيْنِ:(وهذا المعْنَى دَقِيْقٌ جِدّاً، وقَدْ سَمِعْتُ فِي الحَالِ ما شاءَ اللهُ أنْ أَسْمَعَ فَلَمْ أَجِدْ مِثْلَ هذا) (المترجم)

رُبَّ لَيْلٍ كأَنَّهُ الصُّبْحُ في الحُسْـ ... ـنِ وإنْ كانَ أَسْوَدَ الطَّيْلَسَانِ

أخَذَهُ من قَوْلِ الصَّنَوْبَرِيِّ[2]:

يا لَيْلَةً طَلَعَتْ بِأَحْسَنِ طالِعٍ ... تاهَتْ عَلَى ضَوْءِ النَّهارِ الطَّالِعِ

وقَوْلُهُ [3]:

وسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ ... نِ وقَلْبِ المحِبِّ في الخَفَقَانِ

مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ البُسْطِيِّ[4]:

البَرْقُ يَخْفِقُ مِثْلَ قَلْبٍ هائِمٍ ... والغَيْثُ يَهْمِي مِثْلَ طَرْفٍ هامِ

وقَوْلُهُ[5]:

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْـ ... ـجِ عَلَيْها قَلائِدٌ مِنْ جُمَانِ[6]

مِنْ قوْلِ التَّنُوخِيِّ[7]:

كأَنَّ سَوادَ اللَّيْلِ والفَجْرُ ضاحِكٌ ... يَلُوحُ ويَخْفَى أَسْوَدٌ يَتَبَسَّمُ

وقَوْلُهُ[8]:

كأَنَّ دُجاهُ الهَجْرُ، والصُّبْحُ مَوْعِدٌ ... بِوَصْلٍ، وضَوْءُ الفَجْرِ حِبٌّ مُمَاطِلُ

---

[1] سقط الزند، ج ١١، ص ٩١.

[2] التحفةُ البَهيَّة، ص ٢٥٦.

[3] سقط الزند، ج ١، ص ٩٢.

[4] التحفة البهيَّة، ص ٢٦٤.

[6] سقط الزند، ج ١، ص ٩١.

[7] التحفة البهيّة، ص ٢٥٨.

[8] سقط الزند، ج ١، ص ١١٤

مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ ابْنِ طَباطَبا[1]:

أَمْ كَمَا عَادَ وَصْلُ حِبِّيَ هَجْراً عَادَ أَيْضاً بِهِ نَهارِيَ لَيْلا

وقَدِ انْتَهَجَ أبو العلاء في تَرْكِيْبِ تَشْبِيْهَاتِهِ أَحْيَاناً نَهْجاً مُهَلْهَلاً فَجّاً يَعُوْزُهُ النُّضْجُ والإتْقَانُ؛ فالحِصْنُ الأَسْوَدُ وقَدْ عَلَتْ طَيْرُ الرَّخَمِ البِيْضُ بُرْجَهُ يُشبِهُ رَجُلاً أَسْوَدَ قد شَابَ مِنْهُ مَفْرِقُ رَأْسِهِ:

كَأَنَّ الأَنُوْقَ الخُرْسَ فَوْقَ غُبَارِهِ طَوالِعُ شَيْبٍ في مَفَارِقِ أَسْوَدِ[2]

والأَيَّامُ السَّبْعَةُ مَعَ اللَّيَالِي السَّبْعِ يُشَبِّهُهُنَّ بِسَبْعِ إماءٍ يُنْكَحْنَ لِسبْعَةِ أَعْبُدٍ مِنَ الرُّوْمِ:[3]

ودَانَتْ لَكَ الأَيَّامُ بِالرَّغْمِ وانْضَوَتْ إِلَيْكَ اللَّيالِي فارْمِ مَنْ شِئْتَ تُقْصِدِ

بِسَبْعِ إِمَاءٍ مِنْ زَغَاوةَ زُوِّجَتْ مِنَ الرُّومِ في نَعْمَاكَ سَبْعَةَ أَعْبُدِ

وهَلُمَّ جرّاً.

ولَكِنَّ أبَا العلاء كَثِيراً ما كانَ يَعْمِدُ إلى التَّوَسُّعِ والتَّفْصِيلِ في ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ لِيُخْفِيَ (سَرِقَاتِهِ)، وذَلكَ عَنْ طَرِيْقِ:

١. تَأْلِيْفِ صُورتَيْنِ ودَمْجِهِما بِمُقَابَلَةٍ لَفْظِيَّةٍ فِيها بَرَاعةٌ وذَكاءٌ، كَمَا في قَوْلِهِ:

وسُهَيلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ نِ وقَلْبِ المحِبِّ في الخَفَقَانِ

أيْ أَنَّ سُهَيْلاً يَبْدُو بِصِفَتَيْنِ إحْدَاهُما صِفَةُ الحَبِيبِ وهِيَ حُمْرَةُ الوَجْهِ وبَرِيقُهُ والثانِيَةُ صِفَةُ المحِبِّ وهِيَ خَفَقَانُ القَلْبِ؛ وكَمَا في قوْلِهِ:

رُبَّ لَيْلٍ كأَنَّهُ الصُّبْحُ في الحُسْـ ـنِ وإنْ كان أَسْوَدَ الطَّيْلَسَانِ

---

[1] التحفة البهيَّة، ص ٢٥٧.

[2] لَمْ يَرِدْ نَصُّ البَيْتِ فِي الأَصْلِ، بَلْ وَرَدَ الشَّرْحُ فأثبتناهُ (التُّرجُمان). وانْظُرْهُ في سقط الزند، ج ١، ص ٨٠.

[3] سقط الزند، ج ١، ص ٧٩.

أيْ ما أَكْثَرَ اللَّيالِي التي نَعُمْنا فِيْها بِنَيْلِ الأَمَانِيِّ ولِقاءِ الأَحِبَّةِ حتى كانَتِ اللَّيْلَةُ مِنْها كالنَّهارِ حُسْناً، وإنْ تَدرَّعَتْ بِالسَّوادِ.

٢. اسْتِخْدَامِ اسْتِعاراتٍ وتَشْبِيهاتٍ خَيَالِيَّةٍ يَغْلُبُ أَنْ تَأْتِيَ نَتِيْجةَ تَرْكِيْبٍ بَسِيطٍ لِأَلْفاظٍ تَدُلُّ عَلَى أشياءٍ لَهَا ذَاتُ لَوْنِ الأَشْيَاءِ التي أَرَادَ الشَّاعِرُ وَصْفَها أو ذَاتُ مَظْهَرِها؛ كَقَوْلِهِ مَثَلاً يَصِفُ نُجُوماً[1]:

كأَنَّها سِرْبُ حَمَامٍ واقِعٍ   في شَبَكٍ مِنَ الظَّلامِ تَنْتَزِي

أيْ هَذِهِ الأَنْجُمُ تُشْبِهُ جَماعةً مِنَ الحَمَامِ وقَعَتْ في شَبَكَةٍ مِنَ الظَّلامِ، فَهِي ما تَنِي تَثِبُ وتَتَقافَزُ فِيها في اضْطِرابٍ واهْتِياجٍ طَلَباً لِلخَلاصِ.

٣. تَخَيُّرِ الأَلْفَاظِ الأَنِيْقَةِ الرَّشِيقةِ، كَمَا في قَوْلِهِ[2]:

أَقْبَلُوا حامِلِي الجَداولِ في الـ   أَغْمادِ مُسْتَلْئِمِينَ بِالغُدْرانِ

ومَجِيْئُهُ بِعِبَارةٍ مِثْلِ (فِي الأَغْمادِ)[3] وبكَلِمةٍ كَكَلِمَةِ (الغُدْران)[4] إتْباعاً بَعْدَ كَلِمَةِ (الجَداوِلِ)؛ لابُدَّ أنْ يَكُونَ قَدْ حَظِيَ بِالثَّناءِ البالِغِ والإشادَةِ الوَافِيَةِ مِنْ قِبَلِ النُّقادِ الأوائِلِ.

٤. اسْتِخْدَامُ الخُرَافةِ؛ كَمَا في قَوْلِهِ[5]:

ضَرَّجَتْهُ دَماً سُيُوفُ الأَعَادِي   فَبَكَتْ رَحْمَةً لَهُ الشِّعْرَيَانِ

أي أنَّ سُهَيْلاً هذا كأنَّهُ، لِفَرْطِ حُمْرَتِهِ، قَدْ نَالَتْ مِنْهُ سُيُوفُ أَعْدَائِهِ فَتَلَطَّخَ مِنْ أَثَرِ ذلكَ بِدِمَائِهِ فَبَكَتْ الشِّعْرَيانِ رِقَّةً لُهُ؛ والشِّعْرَيانِ هُمَا الشِّعْرَي العَبُورُ والشِّعْرَي الغُمَيْصاءُ؛

---

[1] سقط الزند ج ١، ص ٨٩.

[2] نفسه، ج ١، ص ٩٦.

[3] تَوْسِيْعُ الموضُوعِ أو التَجْرِيدُ؛ انْظُرْ فيما يلي (فَتْرَة بَغْدادَ) مِن هذا الكتاب.

[4] جاءَتَ هَذِهِ الاسْتِعارةُ التي في كَلِمَةِ (الغُدْرانِ) في تَلاؤُمٍ وتَوافُقٍ مَعَ الاستعارةِ الأُوْلَى (جَداوِل)

[5] نفسُهُ، ص ٩٢.

وكانَتِ العَرَبُ تَزْعُمُ أنَّ الشِّعْرَيَيْنِ كانَتَا أُخْتَيْ سُهَيْلٍ؛ فَلَمَّا عَدَتْ عَلَيْهِ أعْدَاؤُهُ بِالسَّيْفِ أَسْرَعَتْ إحْدَاهما لِنَجْدَتِهِ فَعَبَرَتْ إلَيْهِ المجرَّةَ فَهِيَ العَبُورُ، وأمَّا الثانِيَةُ فَقَدْ غَمِصَتْ عَيْنُها مِنَ البُكاءِ عَلَيْهِ فَعَمِيَتْ فَهِيَ الغُمَيْصَاءُ.

٥. استخدامُ الأحْكامِ والمصطَلَحاتِ الفِقْهِيَّةِ[١]، وذلك كَما في قولِهِ[٢]:

حَتَّى تَرَكْنَ الماءَ لَيسَ بِطاهِرٍ والتُّرْبَ لَيسَ يَحِلُّ لِلْمُتَيَمِّمِ

فمِنَ المعْلُومِ عِنْدَ المسْلِمِيْنَ أنَّهُ لا تَجُوزُ الطَّهارةُ التَّعَبُّدِيَّةُ بِما تَلَوَّثَ بِدَمٍ مِنْ ماءٍ أو تُرابٍ؛ فأبو العلاء في هذا البَيْتِ يَزْعُمُ أنَّ خَيْلَ رِجَالِ مَمْدُوحِهِ الأشِدَّاءِ في القِتالِ رَدَّتْ كُلّاً مِنَ الماءِ والتُّرابِ مِمَّا لا يَصْلُحُ لِلطَّهارةِ مِنْ كَثْرَةِ ما أراقَتْ مِنَ الدِّماءِ عَلَى الأرْضِ.

ومَعَ ذلك فَيُمْكِنُنا إدْرَاكُ تأثِيرِ كُلٍّ مِنْ البُسْطِيِّ[٣] وأبِي تَمَّامٍ عَلَى أبي العلاء في نَظْمِهِ في هَذِهِ الفَتْرَةِ أكْثَرَ مِنْ أيِّ شاعِرٍ آخَرَ. وقَدْ كانَ البُسطيُّ اشْتُهِرَ بِأُسْلُوبِهِ المعْرُوفِ (بِجِناسِ المتَشَابِه) وهُوَ أُسْلُوبٌ طَرِيْفٌ اسْتَحْدَثَهُ هُو، كَمَا اشْتُهِرَ بِاسْتِعاراتِهِ وتشْبِيهاتِه التي كانَ يَسْتَوْحِيْها مِنْ عُلُومِ التَّنْجِيْمِ والفَلَكِ. وقَدْ أخَذَ أبو العلاءِ مِنَ البُسطِيِّ، أو قُلْ بارَاهُ، في هذا الأخِيْرِ.

فَقَدْ كانَ لِشاعِرِنا عِلْمٌ بِالنُّجُومِ ومَعْرِفَةٌ بِها اسْتَقاها مِنْ دِراساتِهِ اللُّغَوِيَّة. فَمِنَ الطَّبِيْعِيِّ إذَنْ أنْ نَتوقَّعَ مِنهُ إبْرَازَ هَذِهِ المعْرِفَةِ لِأَصْدِقائِهِ وصَحْبِهِ (والذين يَبْدُو أنَّ مِنهُمْ مَنْ كانَ يَعْتَقِدُ في التَّنْجِيْمِ والمنَجِّمِينَ كأبِي إبراهيمَ الذي نَظَمَ لَهُ قَصيدَتَهُ (عَلِّلاني)). فَوَجَدَ أبو العلاء في أُسْلُوبِ البُسطِيِّ أدَاةً مُناسِبَةً لِإبْرَازِ هَذِهِ المعْرِفَةِ. ويَظْهَرُ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ

---

[١] هذا لَمْ يَذْكُرْهُ المؤَلِّفُ مِنَ الطُّرُقِ التي كان يُفَصِّلُ فِيها أبو العلاء لِيُخفِيَ بِها سَرِقاتِهِ بِهَذِهِ العِبارَةِ ولَكِنَّهُ ذَكَرَ هذا الرَّقْمَ بِهَذا التَّرْتِيبِ وذَكَرَ البَيْتَ المذْكُورَ، وأغْلَبُ ظَنِّنا أنه أفْلَتَهُ الإثْباتُ سَهْواً فَقَدَّرْناهُ مِنْ كلامِهِ تَقْدِيراً وأثْبَتناهُ عَلَى هَذا النَّحْوِ وبِهَذِهِ العِبارة، (المترجم)

[٢] نفسه، ج ١، ص ٧٧.

[٣] عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ (٣٥٠-٤٠٠هـ)؛ انظُرْ يَتِيمَةَ الدَّهْرِ، ج ٤، ص ٢٠٤ وما بَعْدَها

تَعرَّفَ شِعْرَ البُسْطِيِّ مِنْ طَرِيْقِ بَعْضِ صَدِيقِهِ الذِينَ كانُوا قَدْ رَجَعُوا حَدِيْثاً مِنَ العِرَاقِ، وذَلِكَ عَلَى نَحْوِ ما نَرَى مِنْ مَدحِهِ لإحْدَى قَصائِدِهِ وكان نَظَمَها على لِسَانِ أَحَدِ رِجَالاتِ بَلْدَتِهِ[1]؛ إذ يَقُولُ فِيها[2]:

جاءَتْكَ لَيْلِيَّةٌ شآمِيَّةً　　كأنَّها بِالعِراقِ مَوْلِدُها

وقد جاءَ وصْفُ الكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ ومَجْمُوعاتِ النُّجُومِ الثَّابِتَةِ المَوْضُوعَ الرَّئِيْسَ لِقَصِيدتِهِ الطَّوِيلَةِ (عَلِّلانِي) ولِبَعْضِ قَصَائِدِهِ الأُخَرِ الأَقْصَرِ مِنْها. فَفِي هذِهِ القَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ، مَدَحَ صديقَهُ أبا إبراهيمَ الشَّرِيفَ بِأَنَّهُ هو وأسرتُهُ مَنِيعُونَ وفَوْقَ أَنْ يَطالَهُمْ تَأْثِيرُ النُّجُومِ بَلْ هُمْ أَعْلَى مِنْها مَنْزِلَةً. وتَكادُ أَلَّا تَعْثُرَ عَلَى قِطْعَةٍ نَظَمَها خِلالَ هذِهِ الفَتْرَةِ إِلَّا وقَدْ احْتَوَتْ صُورَةً ولو واحِدَةً اسْتَوْحَاها مِنْ عُلُومِ التَّنْجِيْمِ والنُّجُوم. فالنُّجُومُ لا تَعْدُو أَنْ تَكُوْنَ خَدَماً لِأَصْدِقَاءِ أَبِي العَلاءِ ولا يَنْفُذُ تأثِيرُها في النَّاسِ إِلَّا بإشارَتِهِمْ إِلَيْها بِالقَوْلِ[3]:

خاضِعَاتٍ لَكَ الكَوَاكِبُ تَخْـ　　ـتَصُّ مَوالِيْكَ بِالمَحَلِّ الأَثِيرِ

لا يُؤَثِّرْنَ في الوَلِيِّ ولا الحا　　سِدِ حَتَّى تُشِيرَ بِالتَّأْثِيرِ[4]

ثُمَّ إِنَّ شِعْرَ أَصْدِقاءِ أبي العلاء يَصِيدُ الأَنْجُمَ، أَيْ يَزْهُو بِنَفْسِهِ ويَسْمُو حَتَّى يَحْتَلَّ مَنْزِلَةً فِي العُلُوِّ لا تُرَامُ، شَأنَ شأوِ النَّجْمِ الذي لا يُدْرَكُ[5]. وإِنَّ المرْءَ لَيُوشِكُ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ أبا العلاء كانَ، شَأْنَ كَثِيرٍ مِنْ مُعاصِرِيْهِ، يَعْتَقِدُ في التَّنْجِيْمِ، غَيْرَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ في أُخْرَياتِ سِنِيِّهِ كانَ يُناهِضُ كُلَّ أَشْكالِ المعْتَقَداتِ الباطِلَةِ وتِلْكَ القائِمَةَ عَلَى الطِّيَرَةِ والخُرَافةِ

---

[1] هُوَ أبو عَبْدِ الله بْنِ السَّقَّاء الكاتِبُ، وقَدْ مَرَّ خَبَرُهُ هُنا (المترجم).

[2] سقط الزند ج ١، ص ١٧٦.

[3] نفسه، ص ٥٣.

[4] لَمْ يَرِدْ هذانِ البيتانِ في الأَصْلِ فأثبتُّهُما لِتمامِ الفائدَةِ، (المترجم).

[5] نفسه، ص ١٤٣.

ويُسفِّهُها. مَعَ أَنَّهَ يُحْتمَلُ أَنَّهُ كانَ، وهُوَ شابٌّ حَدَثٌ، قَدْ تأَثَّرَ في هَذا بِمُحِيطِهِ وبِيئَتِهِ التي نَشَأَ فِيها.

وأمَّا تأْثِيرُ أبي تَمَّامٍ عليهِ فكانَ أكثَرَ دِقَّةً وخفَاءً وأَشَدَّ عُمْقاً مِنْ تأْثِيرِ البُسْطِيِّ. ولكِنَّهُ مَعَ ذَلكَ يَأْتِي في المرْتبَةِ الثَّانيةِ بَعْدَ المتَنبِّي مِنْ حَيْثُ بُلُوغُ الأَثَرِ وبُعْدُهُ في شاعِرِنا. لَقَدْ كانَ أبو تَمَّامٍ شاعِرَ مَدِيحٍ مُحْتَرِفاً جاءَ بَعْدَ زَمَانِ أَبِي نُوَاسٍ ومُسْلِمٍ وبَشَّارٍ؛ وهَؤُلاءِ كانُوا شُعَراءَ مَطْبُوعِينَ يُوشِكُ أنْ يَكونُوا قَدْ غَيَّرُوا نَهْجَ القَصِيدة العَرَبيَّةِ، وأنْشَؤُوا لَها أُسْلوباً جَدِيداً وطَوَّرُوها فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ حَتَّى بَلَغُوا بِها شَكْلَها المِثالِيَّ. وكانَ أبو تَمَّامٍ يَرَى أنَّ أصَالَةَ الشِّعْرِ لا تَزُولُ قَطُّ وأنَّ (الشِّعْرَ الأَصِيلَ المطْبُوعَ مَعِينٌ لا يَنْضُبُ، إذْ هُوَ صَوْبُ العُقُولِ إذا ذَهَبَتْ مِنهُ سَحَابَةٌ جاءَتْ أُخْرَى مَكانَها فأَفْرَغَتْ ماءَها)؛ وذَلِكَ إذْ يَقُولُ[1]:

ولوْ كان يَفْنَى الشِّعْرُ أفْنَاهُ ما قَرَتْ ... حِيَاضُكَ مِنهُ في العُصُورِ الذَّوَاهِبِ

ولَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ إذا انْجَلَتْ ... سَحَائِبُ مِنهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ[2]

وقَدْ كانَ أُسْلُوبُهُ نَسِيجَ وَحْدِهِ وفَرِيداً في بَابِهِ يَقُومُ، تَقْرِيباً، عَلَى هَذِهِ المميِّزاتِ:

١- اسْتِخْدَامِ الجِنَاسِ والطِّبَاقِ طَلَباً لِذَاتِهِما.

٢- اسْتِخْدَامِ الإشَاراتِ إلى تاريخِ العَرَبِ القَدِيمِ والطَّرائِفِ والحِكاياتِ وآيِ القرءانِ، وما إلى ذَلِكَ.

٣- اسْتِخْدَامِ الاسْتِعارةِ فِيما عُرِفَ بالطَّرِيقَةِ الجَدِيدَةِ.

---

[1] ديوان أبي تمام، ص ٤٣.

[2] لَمْ يُوْرِدِ المؤَلِّفُ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ، بَلْ شَرَحَهُما الشَّرْحَ الذي تَرْجَمْناهُ هُنا، فأوْرَدْناهُما إكْمالاً لِلفائِدَةِ ولِجَمَالِ مَعْناهُما، كَمَا تَرَى (المترجم).

والحَقُّ أنَّ هذا مِنهُ كانَ إضافَةً للشِّعْرِ أصِيلَةً، فَعادَةً ما كانَتِ الاسْتِعارَةُ عِنْدَهُ تَتَألَّفُ بإضْفَاءِ ما كان حِسِّيّاً مِنَ الصِّفَاتِ عَلَى الأفْكَارِ المعْنوِيَّةِ التَّجْرِيدِيَّةِ والأشْيَاءِ شِبْهِ التَّجْرِيدِيَّة، كَمَا تَتَأَلَّفُ مِنْ تَجْسِيدِ الأفْكَارِ وما لا يُحَسُّ مِنَ الأشْياءِ ومِمَّا هُوَ نَقِيضُ ذَلِكَ وهُوَ تَجْرِيدُ المادِيَّاتِ والمحْسُوسَاتِ.

٤- اسْتِخْدَامِ الأَلْفاظِ العلمية

وقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي شِعْرِ أبي العلاءِ الذِي نَظَمَهُ في هَذِهِ الفَتْرَةِ؛ فَكَثِيرٌ مِنِ اسْتِعاراتِهِ وأبْياتِهِ التي ضَمَّنَها الإشاراتِ وأصنافِ الجِناسِ، كلُّ ذَلِكَ يُذَكِّرُكَ بأبِي تَمَّامٍ. وهَذِهِ الأبْياتُ أمْثِلَةٌ شاهِدَةٌ عَلَى هَذا:

١) فَمِثالُ الجِنَاسِ أوِ المشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ قَوْلُهُ:

تَطَاوَلَ عَهْدُ الوَارِدِينَ بِمَائِهِ وعُطِّلَ حتى صَارَ كالصَّارِمِ الصَّدِي[1]

وقَوْلُهُ:

واخْلَعْ حِذاءَكَ إنْ حاذَيْتَها وَرِعاً كَفِعْلِ مُوسَى كَلِيمِ اللهِ في القُدُسِ[2]

ومِثالُ الطِّبَاقِ أو المقَابَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ قَوْلُهُ[3]:

عَجِبَ الوَرَى مِنْ طُولِ هِمَّةِ ماجِدٍ أوفَى بِهِ قِصَرٌ على أصْحابِهِ[4]

وقولُهُ[5]:

---

[1] سقط الزند، ج ١، ص ٨٣.

[2] نفسه ج ١، ص ١٤٨.

[3] نفسه، ج١، ص ١٥٤.

[4] نفسه، ج١، ص ١٥٤.

[5] نفسه، ج ١، ص ١٠٩.

إذا اشتاقتِ الخَيْلُ المَناهِلَ أعْرَضَتْ عَنِ الماءِ فاشْتاقَتْ إلَيْها المَناهِلُ

ومِثالُ الإشاراتِ، قَوْلُهُ:[1]

كُنْتَ مُوسَى وَافتْكَ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أنْ لَيسَ فِيْكُما مِنْ فَقِيرِ

وقَوْلُهُ[2]:

مِثْلَمَا فاتَتِ الصَّلاةُ سُلَيْمَا نَ فأنْحَى عَلَى رِقابِ الجِيادِ

ومِثَالُ الاسْتِعاراَتِ قَوْلُهُ[3]:

سَرَى نَحْوَهُ والصُّبْحُ مَيْتٌ كأنَّهُ يُسَائِلُ بِالوَخْدِ الثَّرَى عَنْ رِمَامِهِ

وضَوءُ الصَّباحِ هنا يَراهُ الشاعِرُ جُثَّةً مِنْ فِعْلِ هذا السَّارِي الذي أمْضَى لَيْلَهُ سَيْراً حَثِيثاً نَحْوَ غايَتِهِ؛ فكانَ السُّرَى سؤالاً لِلثَّرَى عَنْ رِمَامِ الصُّبْحِ الميِّتِ أينَ هيَ. وكَذَلِكَ قَوْلُهُ[4]:

كأنَّكَ حَوْضُ المُزْنِ طأْطَأَ رَأْسَهُ إلى وِرْدِهِ حَتَّى ارْتَوَى مِن جِمامِهِ

وهو هُنا يُشَبِّهُ صَدِيقَهُ بِالغَيْثِ في عَطائِهِ وكرَمِهِ، ثُمَّ يَنْسَى الشاعِرُ أمْرَهُ ويَأْخُذُ في وَصْفِ هذا الغَيْثِ. فأوَّلُ شَيْءٍ عَلَيْنا أنْ نَنْظُرَ إلى المُزْنِ أوِ السُّحُبِ التي تَحْمِلُ هذا الغَيْثَ أنَّها حَوْضٌ مَلِيْءٌ بِالماءِ، ثُمَّ يَدْنُو هذا الحَوْضُ بِنَفْسِهِ، شَأْنَ البَشَر، ويُطأْطِئُ رأْسَهُ لِيَكُونَ في مُتَناوَلِ أيْدِي طالِبِيْهِ مِنْ وُرَّادِهِ.

---

[1] نفسه، ج ١، ص ٥٣.

[2] نفسه، ج١، ص ٢١٤.

[3] نفسه، ج١، ص ١٠٣.

[4] نفسه، ج١، ص ١٠١.

وكَثِيْرٌ مِنِ اسْتِعارَاتِ أبي العلاء تأْتِي عَلَى هذهِ الشَّاكِلَةِ مُتَّسِمَةً بِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ. ومِنَ صَوابِ الحُكْمِ أنْ نَحْكُمَ عَلَيْها بأنَّها بَعِيْدَةُ المأْخَذِ، بَعْيَدةُ التَّخْرِيجِ، يَكْتَنِفُها الغُمُوضُ. وقَدْ رُمِيَ أبو تَمَّامٍ بِذاتِ التُّهْمةِ فِي كَثِيرٍ مِنِ اسْتِعارَاتِهِ ؛ فَقَدْ عابُوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ[1] :

وتَقاسَمَ الناسُ السَّخَاءَ مُجَزّأً   فَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وسَنَامِهِ
وتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الإهابَ وما بَقِي   مِن فَرْثِهِ وعُرُوْقِهِ وعِظامِهِ

ولكنَّ أبَا العلاءِ، كأَبِي تَمَّامٍ وإنْ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَهُ، يُصِيبُ أحْياناً نَجَاحاً فِي هذا الفَنِّ القائِمِ عَلَى التَّعْبِيْرِ المجازِيِّ التَّمْثِيْلِيِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ[2] :

كأَنِّي فِي لِسانِ الدَّهْرِ لَفْظٌ   تَضَمَّنَ مِنهُ أَغْرَاضاً بِعَادَا
يُكَرِّرُنِي لِيَفْهَمَنِي رِجالٌ   كَمَا كَرَّرْتَ مَعْنىً مُسْتَفَادَا

فأبو العلاء هُنا يُفاخِرُ بِمَقْدِرَاتِهِ ومَواهِبِهِ، فَيَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ لَفْظاً يَتَلَفَّظُ بِهِ الزَّمان يُعرِبُ بِهِ عَنْ مَقاصِدِه وأغْراضِهِ ومَعَانِيهِ البَعِيدَةِ العَمِيقَةِ؛ ولِذَلِكَ احْتاجَ رِجالٌ إلى فَهْمِهِ فأَخَذُوا فِي تَكْرارِهِ.

٥- الألفاظُ العِلْمِيَّة[3] :

مِثْلُ قَوْلِهِ: (ومُلْتَثِمٍ بالغَلْفَقِ الجَعْدِ)، مِنْ قَوْلِهِ[4] :

[1] لَمْ يُوْرِدْ عَبْدُ اللهِ الطَّيِّب هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ بِنَصِّهِما، بَلْ جاءَ بِشَرْحٍ لَهُما، فَأَوْرَدْنا نَصَّهما، وتَرَكْنا تَرْجَمَةَ شَرْحِهِما لِوُضُوحِ مَعْناهُما. (المترجم)

[2] سَقْط الزَّنْد، ج١، ص ١١٧.

[3] لَمْ تَرِدِ الأَبْياتُ المأْخُوذُ مِنْها عباراتُ الاسْتِشْهادِ، تَحْتَ هذا العُنْوانِ الصَّغِيرِ فِي الأَصْلِ باللُّغَةِ الإنْجِلِيزِيَّةِ، فأَوْرَدْناها مِنْ مَصادِرِها لِتَمَامِ الفائِدَةِ. (المترجم)

[4] نفسه، ج ١، ص ١٠.

وَمُلْتَثِمٍ بالغَلْفَقِ الجَعْدِ عَرَّسَتْ عَلَيْهِ فَلَمْ تَكْشِفْ خَفِيَّ لِثَامِهِ

وَقَوْلِهِ: (كَأَنِّي إِذْ نَبَذْتُ لَهُ عِصَاماً)، مِنْ قَوْلِهِ[1]:

كَأَنَّي إذ نَبَذْتُ لَهُ عِصَاماً وَهَبْتُ لَهُ المَطِيَّةَ والمَزَادا

وَقَوْلِهِ: (وطَرَّحَتْ لِلَّرِيْحِ كُلَّ مِعْوَزِ)، مِنْ قَوْلِهِ:

جَرَّدَتِ الحَيَّاتُ فِيْها لُبْسَها وطَرَّحَتْ لِلَّرِيْحِ كُلَّ مِعْوَزِ

وَقَوْلِهِ: (كما تَتَصَيَّدُ الأُسْدُ النِّقَادا)، مِنْ قَوْلِهِ[2]:

يَصِيدونَ الفَوَارِسَ كُلَّ يَوْمٍ كَمَا تَتَصَيَّدُ الأُسْدُ النِّقَادا

وثَمَّةَ مَلْحُوظاتٌ أُخْرى يَحْسُنُ بِنا ذِكْرُها هنا.

أَوَّلاً : تَظْهَرُ شَخْصِيَّةُ أبي العلاء جَلِيَّةً في قصائِدِهِ التي نَظَمَها في هذه الفَتْرَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ السِّتَارِ الكَثِيْفِ الذي يُغَشِّيها مِنْ أدوَاتِ الزَّخْرَفَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. فَتَعَاطِيْهِ بَحْرَ الطَّوِيْلِ في أغْلَبِ مُقَطَّعاتِهِ يُشِيرُ إلى تَوَخِّيهِ الفَخامَةَ والجَلالَ في أُسْلُوبِهِ، وهُوَ ما سَيَسْتَحْوِذُ عَلَى أبِي العلاءِ بَعْدَ هَذِهِ الفَتْرَةِ ويَصِيرُ أُلْهُوجةً لَهُ وشَاغِلاً. وإنَّ ما يَبْدُو ظَاهِرِيّاً مِنْ تَواضُعٍ عُرْفِيٍّ يُظْهِرُهُ أبو العلاء لِأصدقائِهِ في أمَادِيحِهِ التي نَظَمَها لَهُمْ يَكْشِفُ لَنا عَنْ خَجَلٍ وحَياءٍ فِيهِ أصِيلٍ، ويَشِي بِنُزُوعِهِ إلى هَضْمِهِ نَفْسَهُ وحَمْلِها عَلَى ما تَكْرَهُ، وبِتِلْكَ الصِّفَةِ المَرْكُوْزَةِ فِيهِ وهِيَ السُّخْرِيَةُ المنطَوِيَةُ على الفُكاهَةِ والهزْلِ، ولَهِي صِفَةٌ ولَّدتْ عِنْدَهُ إحْكامَ التَّقِيَّةِ[3] واتقانَها في أشعارِهِ وكِتاباتِهِ فِيما بَعْدُ.

---

[1] نفسه، ج١، ص ١٢٤.

[2] نفسه ج ١، ص ١٢١.

[3] وهِي استخدامُهُ لأفكارِهِ لُغَةً فِيها مِنَ الاحْتِرَازِ والاحْتِرَاسِ ما يُقِيمُهُ سِتَاراً يَقِي بِهِ نَفْسَهُ مِنْ هُجومِ النَّاسِ عَلَيْهِ.

ثانياً: في هذهِ القصائِدِ جعَلَ يَظْهَرُ لَنا وَعْيُ أبي العلاء بِمَفاسِدِ مُجْتَمَعِهِ ومَساوِئِهِ وبالانْحِلالِ والانْحِطاطِ السِّياسِيِّ الذي تَرَدَّى إليه في عَصْرِهِ؛ إذْ نَراهُ في قَصائِدِهِ التي تَناوَلَ فِيْها مَوْضُوعَ الجِهَادِ يُصَوِّرُ الرُّوْمَ على أنَّهُمْ قَوْمٌ أهْلُ جِلادٍ مُحِبُّونَ لِلحَرْبِ وذَوُو صَلَفٍ وغَطْرَسَةٍ، عَلَى حِيْنِ يُظْهِرُ المسْلِمِينَ في مَوقِفِ المدافِعِ لَيْسَ غَيْرَ[1] (أينَ هَذِهِ مِنْ قصائِدِ المتنبِّي الفَخِيْمةِ). ويُحَدِّثُونَنا أنَّ ناحِيَةَ الرِّيفِ مِنَ الشَّآمِ كانَ قَدْ تَغَشَّتْها قُطَّاعُ الطُّرُقِ وتَفَشَّى فِيْها اللُّصُوصُ وأهْلُ الحَسْرَةِ والأَسَفِ مِنْ خَلَفِ العَرَبِ الذين كانَ أسْلافُهُمْ مِنْ أهْلِ الفُرُوسِيَّةِ والنَّجْدَةِ والمرُوءَةِ. فَلَمْ يَكُنْ غَرِيباً ولا عَجِيباً أنْ يَنْجُوَ أبو العلاء الشَّاعِرُ بِنَفْسِهِ ويَفِرَّ مِن انْحِطاطِ مُجْتَمَعِهِ وفَسَادِهِ ويَلُوذَ بِأَحَدِ أُمَراءِ الصَّحْراءِ الذي لَمْ يَكُنْ يَخْشَى اللهَ ولا يَرْجُو مَعَاداً في الآخِرَةِ والذي يَبْذُلُ لِأبي العلاء دِرْعَهُ غِطاءً وتُرْسَهُ فِراشاً، والذي يَتَّخِذُ مِنْ جُلُودِ أعْدَائِهِ نِعَالاً ومِنْ أكْوامِ رُؤُوسِهِم نِضادا، والذي يُفْنِي مَالَهُ سَخاءً وجُوْداً ولا يَدَّخِرُ إلَّا حَدَّ السَّيْفِ لَهُ عَتَادَا. يَقولُ أبو العلاءِ في ذَلِكَ[2]:

تَذَكَّرْتُ البَداوَةَ في أُناسٍ ... تَخَالُ رَبِيْعَهُمْ سَنَةً جَمَادا

يَصِيدُونَ الفَوارِسَ كُلَّ يَوْمٍ ... كَمَا تَتَصَيَّدُ الأُسْدُ النِّقَادا

طَلَعْتُ عَلَيْهِمُ واليَوْمُ طِفْلٌ ... كأنَّ عَلَى مَشارِقِهِ جِسَادا

إذا نَزَلَ الضُّيوفُ ولَمْ يُرِيحُوا ... كِرَامَ سَوَامِهِمْ عَقَرُوا الجِيَادا

بُنَاةُ الشِّعْرِ ما أكْفَوْا رَوِيّاً ... ولا عَرَفُوا الإجَازَةَ والسِّنَادا

عَمَدْتُ لِأَحْسَنِ الحَيَّيْنِ وَجْهاً ... وأَوْهَبِهِمْ طَرِيْفاً أَوْ تِلادَا

وأَطْوَلِهِمْ إذا رَكِبُوا قَنَاةً ... وأَرْفَعِهِمْ إذا نَزَلُوا عِمَادا

فَتَىً يَهَبُ اللُّجَيْنَ المحْضَ جُوْداً ... ويَدَّخِرُ الحَدِيدَ لَهُ عَتَادا

---

[1] انظر سقط الزند، ج ١، الصفحتان ١٢٧-١٢٨

[2] لَمْ تَرِدْ هذه الأبياتُ في الأصْلِ وإنما وَرَدَ شرحُها الذي ترجمناهُ وقد تَرَى أنَّ ذلك مما يُناسبُ النَّصَّ بالإنجليزية، وإنَّما أثبتْناها إمعاناً في الإيضاحِ، ولِأنَّهُ الأنسَبُ لِهَذا النَّصِّ العَرَبِيِّ، ثُمَّ لِجَمالِها كما تَرَى. سقط الزند ج١، ص ١٢٢. (المترجم)

ويَلْبَسُ مِنْ جُلُودِ عِدَاهُ سِبْتاً ويَرْفَعُ مِنْ رُؤُسِهِمُ النِّضَادا
أَبَنَّ الغَزْوَ مُكْتَهِلاً وبَدْراً وعُوِّدَ أنْ يَسُودَ ولا يُسَادا
جَهُولٌ بِالمَنَاسِكِ لَيْسَ يَدْرِي أَغَيّاً بَاتَ يَفْعَلُ أَمْ رَشادا
طَمُوحُ السَّيْفِ لا يَخْشَى إلَهاً ولا يَرْجُو القِيَامَةَ والمَعَادا
ويَغْبِقُ أَهْلَهُ لَبَنَ الصَّفايا ويَمْنَحُ قُوْتَ مُهْجَتِهِ الجَوَادا
يَذُودُ سَخَاؤُهُ الأَذْوادَ عَنْهُ ويُحْسِنُ عَنْ حَرَائِبِهِ الزِّيادا
يَرُدُّ بِتُرْسِهِ النَّكْباءَ عَنِّي ويَجْعَلُ دِرْعَهُ تَحْتِي مِهَادا
فَبِتُّ وإنَّمَا أَلْقَى خَيَالاً كَمَنْ يَلْقَى الأَسِنَّةَ والصِّعَادا

وقد كانَ أبو العلاء يَرْقُبُ بِحَسْرَةٍ بَالِغَةٍ تَدَنِّيَ الثَّقَافَةِ والمَعْرِفَةِ في بِلادِهِ وتَضَاؤُلَ الآدَابِ والفُنُونِ فِيْها؛ حتى إنَّا لَنَرَاهُ يَنْصَحُ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ بِتَرْكِها إلى بِلَادٍ أُخْرى عَسَاهُ يَجِدُ بِهَا قَوماً خَيْراً مِنْ قَوْمِهِ يُقَدِّرُونَ الآدَبَ ويَتَذَوَّقُونَ الفَنَّ، وعَسَاهُ يَلْقَى بِهَا سَادَاتٍ وحُكَّاماً هُمْ أَجْدَرُ بِالعَيْشِ فِي كَنَفِهِمْ مِنْ سَاداتِ قَوْمِهِ وحُكَّامِهِمْ[1].

ثالثاً: لابُدَّ أنَّ أبا العلاء كانَ، وهو يَقْتَرِبُ مِنَ الثَّلاثِينَ، قَدْ بَلَغَ بِهِ الضَّجَرُ مِنْ بِيْئَتِهِ المحِيطَةِ مَبْلغاً وسَئِمَها سَأَماً مُمِضّاً؛ فَقَدْ جَعَلَ يَنْظُرُ إلى الحَيَاةِ عَلَى أَنَّها لا طائلَ مِنْ وَرَائِها، ولَيْسَ لِلمَرْءِ مِنْها إِلَّا أَنْ يَزْهَدَها ويَسْتَعِدَّ لِلحَيَاةِ الأُخْرَى. فَمَا كانَ وَاقِعُهُ الذي يَعِيشُهُ فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ سِوَى المَوْتِ الذِي جَلَبَتْهُ هَزِيمَةُ جُيُوشِ المسْلِمِينَ عَلَى حُدُودِ الرُّومِ، وتَرَدِّي المَعْرِفَةِ والثَّقَافَةِ بَيْنَ أُهَيْلِ مُجْتَمَعِهِ، وفَسَادِ حُكَّامِهِمْ وسَنَواتُ سَغَابَةٍ ومَجَاعَةٍ لا تَنْقَضِي. غَيْرَ أَنَّهُ كانَ هُناك شَيْءٌ مِنَ الأَمَلِ، أَوْ فلا أَقَلَّ مِنْ أنْ يَنْظُرَ المرْءُ لَعَلَّهُ يَجِدُ شَيْئاً مِنْ أَمَلٍ، وعَسَى إذاً أنْ يَتَطلَّعَ إلى الآخِرَة.

---

[1] نفسه، ج ١، ص ١٤٥.

لَقَدْ دَهَمَ أبا العلاء حُزْنٌ عَمِيْقٌ لَمَّا طَوَى المَوْتُ بَعْضَ أصْدِقائِهِ، فَجَدَّدَ هذا الحُزْنُ عِنْدَهُ نَغْمَةَ أسَىً قَدِيمَةً كانَتْ قَدِ انْطَوَتْ بِقَلْبِهِ لَمَّا مَاتَ أَبُوْهُ؛ يَظْهَرُ لَكَ ذَلِكَ في نَمَطٍ ناضِجٍ وَقُورٍ جَاءَ بِهِ في المَرْثِيَةِ التي نَظَمَها يَرْثي بِها أبا حَمْزَة[1]، وفي قَصِيدَتِهِ العَزائِيَّةِ التي بَعَثَ بِها إلى أَحَدِ أصْدِقائِهِ يُعزِّيهِ بِهَا في مَوْتِ عَزِيْزٍ[2]. فَفِي كِلْتا هاتَيْنِ القَصِيدَتَيْنِ يَقْرِنُ أبو العلاء إلى ما كانَ أَظْهَرَهُ قَبْلُ مِن مَهارَةٍ في قَصَائِدِهِ الأُخَرِ، مَهارَتَهُ العَقْلِيَّةَ في التَّفْكِيْرِ المتَماسِكِ. وكِلْتا القَصِيدَتَيْنِ دِيْنِيَّةٌ تَقْلِيدِيَّةٌ في مادَّتِها ورُوْحِها وتُعَبِّرُ عَنْ إيمَانٍ بِالآخِرَةِ رَاسِخٍ. لَكِنَّ أبا العلاء يَسْتَخْدِمُ فِي كِلْتَيْهِمَا لُغَةً فلْسَفِيَّةَ الطَّابَعِ[3]، ويَقِفُ مَقْدِراتِهِ ومَلَكاتِهِ عَلَى مَوضُوعاتِهِ التأمُّلِيَّةِ التَّفَكُّرِيَّةِ، وهِيَ مَوْضُوعاتٌ كُنَّ لَهُ حَقّاً طَبِيعيّاً بِالميلادِ.

أَمْثِلَةٌ مِنْ شِعْرِ أبي العلاءِ في هذِهِ الفَتْرَةِ[4]:

عَلِّلانِي فَإنَّ بِيْضَ الأمَانِي ... فَنِيَتْ والظَّلامُ لَيْسَ بِفَانِي
إنْ تَناسَيْتُما وِدَادَ أُناسٍ ... فاجْعَلانِي مِنْ بَعْضِ مَنْ تَذْكُرانِ

---

[1] هِيَ دالِيَّتُهُ: (غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي واعْتِقَادِي   نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ)؛ وأبوحَمْزَةَ هذا فَقِيهٌ حَنَفِيٌّ، انظُرْ سَقْطَ الزَّنْد ج ١ ص ٢٠٨ (المتَرْجِم)

[2] هي قَصِيدتُهُ التي في السَّقْط، ج٢، ص ١٠:

يا رَاعِيَ الوُدِّ الذي أفْعَالُهُ ... تُغْنِي بِظَاهِرِ أمْرِها عَن نَعْتِها

(التُّرْجُمان)

[3] نَفْسُهُ، ج٢، ص ١٢، البيتان ٢، ٣.

[4] سَبَقَ لِلمُؤَلِّفِ الإشارَةُ إلى هَذِهِ القَصِيدة، وقَدْ أجابَ بِها أبو العلاء الشريف أبا إبْرَاهِيمَ عَنْ قَصِيدَتِهِ :

غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ وِصالُ الغَوَانِي ... بَعْدَ سِتِّينَ حِجَّةً وثَمَانِ

وإنَّما أثْبَتُّها كامِلَةً هُنا لِما رَأَيْتُ مِن اعْتِمادِ المؤَلِّفِ عَلَيْها فِي شَواهِدِهِ هُنا، كَمَا تَرَى، ولِإشارَتِهِ إلَيْها في عِدَّةِ مَواضِعَ (التُّرْجُمان)

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصُّبْحُ فِي الحُسْـ ـنِ وإنْ كانَ أسْوَدَ الطَّيْلَسَانِ

قَدْ رَكَضْنا فِيهِ إلَى اللَّهْوِ لَمَّا وَقَفَ النَّجْمُ وِقْفَةَ الحَيْرَانِ

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ فَشُغِلْنا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانِ

فَكَأنِّي ما قُلْتُ والبَدْرُ طِفْلٌ وشَبَابُ الظَّلْمَاءِ فِي عُنْفُوَانِ:

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوْسٌ مِنَ الزَّنْـ ـجِ عَلَيْها قَلائِدٌ مِنْ جُمَانِ

هَرَبَ النَّوْمُ عَنْ جُفُوْنِيَ فِيْها هَرَبَ الأمْنِ عَنْ فُؤَادِ الجَبَانِ

وَكَأَنَّ الهِلالَ يَهْوَى الثُّرَيَّا فَهُما لِلْوَدَاعِ مُعْتَنِقَانِ

قَالَ صَحْبِي فِي لُجَّتَيْنِ مِنَ الحِنْـ ـدِسِ والبِيْدِ إذْ بَدَا الفَرْقَدَانِ:

نَحْنُ غَرْقَى فَكَيْفَ يُنْقِذُنا نَجْـ ـمَانِ فِي حَوْمَةِ الدُّجَى غَرِقَانِ؟

وسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ فِي اللَّوْ نِ وقَلْبِ المحِبِّ فِي الخَفَقَانِ

مُسْتَبِدّاً كَأَنَّهُ الفارِسُ المعْـ ـلَمُ يَبْدُو مُعارِضَ الفُرْسانِ

يُسْرِعُ اللَّمْحَ في احْمِرَارٍ كَمَا تُسْـ ـرِعُ في اللَّمْحِ مُقْلَةُ الغَضْبَانِ

ضَرَّجَتْهُ دَماً سُيُوفُ الأعادِي فَبَكَتْ رَحْمَةً لَهُ الشِّعْرَيَانِ

قَدَمَاهُ وَرَاءَهُ وهُوَ فِي العَجْـ ـزِ كَسَاعٍ لَيْسَتْ لَهُ قَدَمَانِ

ثُمَّ شَابَ الدُّجَى وخافَ مِنَ الهَجْـ ـرِ فَغَطَّى المشِيْبَ بِالزَّعْفَرَانِ

ونَضا فَجْرُهُ عَلَى نَسْرِهِ الْوا قِعِ سَيْفاً فَهَمَّ بِالطَّيَرَانِ

وبِلادٍ وَرَدْتُها ذَنَبَ السِّرْ حانِ بَيْنَ المهَاةِ والسِّرْحَانِ

وعُيُونُ الرِّكابِ تَرْمُقُ عَيْناً حَوْلَها مَحْجِرٌ بِلا أجْفَانِ

وعَلَى الدَّهْرِ مِنْ دِمَاءِ الشَّهِيْدَيْـ ـنِ عَلِيٍّ ونَجْلِهِ شاهِدَانِ

فَهُما فِي أَوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجْرَا نِ وفِي أُوْلَيَاتِهِ شَفَقَانِ

ثَبَتا فِي قَمِيْصِهِ لِيَجِيءَ الحَشْـ ـرَ مُسْتَعْدِياً إلَى الرَّحْمَنِ

وجَمَالُ الأوَانِ عَقْبُ جُدُودٍ كُلُّ جَدٍّ مِنهُمْ جَمَالُ أَوَانِ

يا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوْفِ بِبَدْرٍ ومُبِيْدِ الجُمُوْعِ مِنْ غَطَفَانِ

أحَدِ الخَمْسَةِ الذِيْنَ هُمُ الأغْ رَاضُ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ والمعاني

والشُّخُوصُ التي خُلِقْنَ ضِياءً قَبْلَ خَلْقِ المرِّيخِ والمِيْزانِ

قَبْلَ أنْ تُخْلَقَ السماواتُ أو تُؤْ مَرَ أفْلاكُهُنَّ بِالدَّوَرَانِ

لَوْ تأتَّى لِنَطْحِها حَمَلُ الشُّهْ بِ تَرَدَّى عن رَأْسِهِ الشَّرَطانِ

أوْ أرادَ السِّمَاكُ طَعْناً لَهَا عَا دَ كَسِيْرَ القَنَاةِ قَبْلَ الطِّعَانِ

أوْ رَمَتْها قَوْسُ الكواكِبِ زَالَ الـ عَجْسُ مِنْها وخَانَها الأبْهَرَانِ

أو عَصَاها حُوْتُ النُّجُومِ سَقَاهُ حَتْفَهُ صَائِدٌ مِنَ الحِدْثَانِ

أنْتَ كالشَّمْسِ فِي الضِّيَاءِ وإنْ جَا وَزْتَ كَيْوَانَ فِي عُلُوِّ المكَانِ

وَافَقَ اسْمُ ابْنِ أحْمَدَ اسْمَ رَسُوْ لِ اللهِ لَمَّا تَوَافَقَ الغَرَضَانِ

وسَجَايَا مُحَمَّدٍ أعْجَزَتْ فِي الْ وَصْفِ لُطْفَ الأفْكَارِ والأذْهَانِ

وجَرَتْ في الأنَامِ أوْلادُهُ السِّـ تَّةُ مَجْرَى الأرْوَاحِ فِي الأبْدَانِ

فَهُمُ السَّبْعَةُ الطَّوالِعُ والأصْـ غَرُ مِنهُمْ فِي رُتْبَةِ الزِّبْرِقانِ

وبِهِمْ فَضَّلَ المليْكُ بَنِي حَوَّا ءَ حَتَّى سَمَوْا عَلَى الحَيَوَانِ

شَرُفُوا بِالشِّرَافِ والسُّمْرُ عِيدَا نٌ إذا لَمْ يُزَنَّ بِالخِرْصَانِ

وإذا الأرْضُ وَهْيَ غَبْرَاءُ صَارَتْ مِنْ دَمِ الطَّعْنِ وَرْدَةً كالدِّهَانِ

أقْبَلُوا حَامِلِي الجَداوِلِ في الأغْـ ـمَادِ مُسْتَلْئِمِيْنَ بِالغُدْرَانِ

يَضرِبُوْنَ الأقْرَانَ ضَرْباً يُعِيْدُ الـ ـسَّعْدَ نَحْساً فِي حُكْمِ كُلِّ قِرَانِ

وجَلَوْا غَمْرَةَ الوَغَى بِوُجُوهٍ حَسُنَتْ فَهْي مَعْدِنُ الإحْسَانِ

قَدْ أجَبْنا قَوْلَ الشريفِ بِقَوْلٍ وأثَبْنا الحَصَى عَنِ المرْجَانِ

أطْرَبَتْنا ألْفاظُهُ طَرَبَ الْـ عُشَّاقِ لِلْمُسْمِعَاتِ بِالألْحَانِ

فاغْتَبقْنا بَيْضَاءَ كالفِضَّةِ المحْـ ـضِ، وعِفْنا حَمْرَاءَ كالأُرْجُوانِ

ولَوْ أنَّا جُزْنا إلَى شُرْبِها النَّهْـ ـيَ عُنِيْنا بِكُلِّ أصْهَبَ عانِ

وهَجَرْنا شُرْبَ الكُؤُوْسِ احْتِقَاراً وشَرِبْنا مَسَرَّةً بِالدِّنَانِ

أيُّها الدُّرُّ! إنَّما فِضْتَ مِنْ بَحْـ ـرٍ مُخَلَّى الطَّرِيْقِ لِلْجَرَيَانِ
مَا امْرُؤُ القَيْسِ بِالمصَلِّي، إذا جا رَاهُ في الشِّعْرِ بَلْ سُكَيْتُ الرِّهَانِ
فاقْتَنِعْ بِالرَّوِيِّ والوَزْنِ مِنِّي فَهُمُومِي ثَقِيْلَةُ الأوْزَانِ
مِنْ صُرُوفٍ مَلَكْنَ فِكْرِي ونُطْقِي فَهْيَ قَيْدُ الفُؤَادِ قَيْدُ اللِّسَانِ
يَا أبا إبْرَاهِيْمَ ! قَصَّرَ عَنْكَ الشِّعْـ ـرُ لَمَّا وُصِفْتَ بِالقُرْآنِ
أُشْرِبَ العالَمُونَ حُبَّكَ طَبْعاً فَهْوَ فَرْضٌ فِي سائِرِ الأَدْيَانِ
بَانَ لِلْمُسْلِمِيْنَ مِنْكَ اعْتِقَادٌ ظَفِرُوا مِنهُ بِالهُدَى والبَيَانِ
وحُدُودُ الإِيْمَانِ يَقبِسُها مِنْـ ـكَ ويَمْتَاحُها أُوْلُو الإِيْمَانِ
ومُحَيَّاكَ لِلَّذِي يَعْبُدُ الدَّهْـ ـرَ وإهْباءُ طِرْفِكَ الفَتَيانِ
وإِلَهُ المجُوسِ سَيْفُكَ إنْ لَمْ يَرغَبُوا عَنْ عِبادَةِ النِّيْرَانِ
حَلَباً حَجَّتِ المطِيُّ ولَوْ أنْـ ـجَمْتَ عَنْها مَالَتْ إلَى حَرَّانِ
صَلِيَتْ جَمْرَةَ الهَجِيْرِ نَهَاراً ثُمَّ بَاتَتْ تَغَصُّ بِالصِّلْيَانِ
أرْزَمَتْ ناقَتَايَ شَوْقاً فَظَنَّ الرَّكْـ ـبُ أنِّي سَرَى بِيَ المرْزَمَانِ
عِشْ! فِدَاءٌ لِوَجْهِكَ القَمَرانِ فَهُما فِي سَنَاهُ مُسْتَصْغَرَانِ

١- وَصْفُ اللَّيْلِ:

لَيْلَتِي هذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْـ ـجِ عَلَيْها قلائِدٌ مِنْ جُمَانِ

أيْ تُشْبِهُ لِيلَتِي هذِهِ عروُساً سَوْداءَ قد أُلْبِسَتْ عُقُوداً مِنَ الجُمَانِ، أيْ هِيَ لَيْلَةٌ حالِكَةُ السَّوَادِ شَدِيدَةُ ظُهُورِ النُّجُومِ لِذَلِكَ[1]

وكأنَّ الهِلالَ يَهْوَى الثُّرَيَّا فَهُما لِلْوَدَاعِ مُعْتَنِقَانِ

[1] نَفْسُهُ، ج١، ص ٩١.

أيْ كأنَّ الهِلالَ والثُّريَّا عاشِقَانِ، فانْظُرْنَ إلَيْهِما! إنَّهُما يَتعانَقانِ لِوشِيْكِ فِراقٍ قُضِيَ بَيْنَهُما.

٢- وصْفُ طُلُوعِ الفَجْرِ:

ثُمَّ شابَ الدُّجَى وخافَ مِنَ الهَجْـ ـرِ فَغَطَّى المشِيبَ بِالزَّعْفرانِ

أيْ ظَهَرَ الشَّيْبُ على شَعْرِ اللَّيْلِ- يُشِيرُ إلى بَياضِ الصُّبْحِ- فخافَ مِنْ هَجْرِ مَنْ يُحِبُّهُ فخَضَبَ شَيْبَهُ بِالزَّعْفَران، يُشِيرُ إلى الحُمْرَةِ التي تظْهَرُ مع طُلُوعَ الفَجْرِ.

ونَضَا فَجْرُهُ عَلَى نَسْرِهِ الوَا قِعِ سَيْفاً فَهَمَّ بِالطَّيَرَانِ

أي إنَّ الفَجْرَ قَدْ جَرَّدَ سَيْفَهُ لِيَبْطِشَ بِالنَّسْرِ الوَاقِعِ[1]؛ فَهُوَ الآنَ مُسْتعِدٌّ لِلْقِتالِ وسَيْفُهُ، لِذَلِكَ، صَلْتٌ.

٣- وصْف الشَّفَقِ والغَسَقِ[2]:

وعَلَى الدَّهْرِ مِنْ دِمَاءِ الشَّهِيْـ ـدَيْنِ عَلِيٍّ ونَجْلِهِ شَاهِدَانِ
فَهُمَا فِي أَوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجْرَا نِ وفِي أُوْلَيَاتِهِ شَفَقَانِ
ثَبَتَا فِي قَمِيْصِهِ لِيَجِيءَ الـ ـحَشْرَ مُسْتَعْدِياً إلى الرَّحْمَنِ

(أيْ هُناكَ شاهِدَانِ خالِدانِ على وَجْهِ الزَّمان؛ إذ يَظْهَرُ دَمُ الشَّهِيدَيْنِ عليِّ بْنِ أبي طالِبٍ وابْنِهِ الحُسَيْنِ في أوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجْرَيْنِ، أيْ الفَجْرِ الصادِقِ والكاذِبِ- يَعْني بِذَلِكَ الحُمْرَةَ التي تُرَى أوَّلَ الصُّبْحِ- كما يَظْهَرُ هذا الدَّمُ في أوائِلِ اللَّيْلِ شَفَقَيْنِ - ويَعْني بِالشَّفَقَيْنِ الحُمْرَةَ والصُّفْرَةَ التي تَبْقَى في أُفُقِ المغْرب بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ- فهكذا ثَبَتَ

---

[1] أو (العُقابِ الوَاقِعِ) وهو نَجْمٌ مُضِيءٌ مِن ثَلاثةِ أنْجُمٍ هي مجموعةُ النَّسْرِ الواقع معجم لَين، ص ٢٧٨٩

[2] هُما الشَّفَقانِ اللَّذانِ يَظْهَرانِ عِنْدَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ ومَغْرِبِها. وعِبارةُ المؤَلِّف الإنجليزيَّة:(Twilight at Dawn and Sunset) (التَّرْجُمان)

هذا الدَّمُ على قَمِيْصِ الدَّهْرِ لِيَأْتِيَ يَوْمَ القِيامَةِ شاهِداً مُتَظَلِّماً إلى اللهِ تَعَالى طالِباً الانْتِصافَ لِهَذَيْنِ الشَّهِيْدَيْنِ مِنْ خُصُومِهِما).

٤- وصْفُ الشَّمْعَةِ[1]:

وصَفْراءَ لَوْنَ التِّبْرِ مِثْلِي جَليدَةٍ عَلَى نُوَبِ الأيَّامِ والعِيشَةِ الضَّنْكِ
تُرِيكَ ابْتِسَاماً دَائِماً وتَجَلُّداً وصَبْراً على ما نَابَها وهْيَ في الهُلْكِ
ولو نَطَقَتْ يوماً لَقَالَتْ أَظُنُّكمْ تَخَالُونَ أَنِّي مِنْ حِذَارِ الرَّدَى أبْكِي
فلاتَحْسَبُوا دَمْعِي لِوَجْدٍ وَجدتُهُ فَقَدْ تَدْمَعُ الأَحْداقُ مِنْ كَثْرَةِ الضِّحْكِ

(أيْ رُبَّ شَمْعَةٍ صَفْرَاءَ صَفارَ النُّضارِ، قَدْ أَشْبَهَتْنِي في الصَّبْرِ وقُوَّةِ الاحْتِمالِ لِحَوادِثِ الأيَّامِ وضِيْقِ العَيْشِ- يَعْنِي احْتِراقَها- فَهِيَ لا تُظْهِرُ لَكَ إلَّا صَلابَةً وجَلادَةً وابتِسَاماً عَلَى ما يُصِيْبُها مِنَ الاحْتِرَاقِ والهَلاكِ، ولَوْ كانَتْ ناطِقَةً لَقالَتْ: (لَسْتُ أبْكِي، كَمَا تَظُنُّونَ، حَذَرَ الموْتِ؛ فَلا تَحْسَبُوا دُمُوعِيَ مِنْ كَرْبٍ أُكابِدُهُ، فَقَدْ تَدْمَعُ العَيْنَانِ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ).

٥- المدِيْحُ: مَدْحُ بَيْتِ أَبِي إبراهيم الأشْرافِ[2]:

يَقُولُ: (يا ابنْ بَعْضِ الذينَ خُلقوا مِنَ النُّورِ خَلْقَ الكَوَاكِبِ والبُرُوجِ (المرِّيْخِ والميْزَانِ) أيْ مَنْ سَبَقَتْ أرْوَاحُهُمْ في الوُجُودِ، وقَبْلَ خَلْقِ السماواتِ وأمْرِ أفلاكِها بِالدَّورَانِ، حَتَّى إنَّهُ لَوْ أَرادَ الحَمَلُ (أيْ بُرْجُه) أنْ يَتعرَّضَ لَهُم بِالنَّطْحِ أيْ لِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ، لَسَقَطَ عَنْ رَأْسِهِ الشَّرَطانِ، [وهُمَا الكَوْكَبَانِ المضِيْئَانِ يُقَالُ لَهُما قَرْنا الحَمَلِ])؛

---

[1] نفسه، ج ٢، ص ١٣٦.

[2] نفسه، ج ١، ص ٩٤.

ولَوْ أَرَادَ السِّمَاكُ[1] طَعْنَهُمْ لَعَادَ رُمْحُهُ كَسِيراً قبلَ إذْ يُقْبِلُ؛ ولَوْ شاءَتِ القَوْسُ رَمْيَهُم عَدْواً بِسَهْمٍ لَزَالَ عَنْها مَقْبِضُها وخانَها جانِبَاها فَلَمْ تقْوَ عَلَى ما شاءَتْ؛ ولَوْ عَصَاهُمُ الحُوْتُ لأَهْلَكَهُ الدَّهْرُ بِصَائِدٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَجَرَّعَهُ كأْسَ المَنِيَّةِ؛

(لَقَدْ أقبلوا إلى المُنَاجَزَةِ يَحْمِلُونَ بأيْدِيهِم الجَدَاوِلَ في أغْمادِها، ويَلْبَسونَ الغُدْرانَ؛ يُرِيْدُ بِذَلِكَ السُّيُوْفَ والدُّرُوعَ؛

(ولَقَدْ جَلَوْا ظُلْمَةَ القِتَالِ بِحُسْنِ وُجُوهِهِمْ وطلاقَتِها).

أو كَمَا قالَ[2]:

والشُّخُوصُ التي خُلِقْنَ ضِياءً	قَبْلَ خَلْقِ المِرِّيخِ والمِيْزانِ
قَبْلَ أنْ تُخْلَقَ السماواتُ أو تُؤْ	مَرَ أفْلاكُهُنَّ بِالدَّوَرانِ
لَوْ تأتَّى لِنَطْحِها حَمَلُ الشُّهْـ	ـبِ تَرَدَّى عن رَأْسِهِ الشَّرَطانِ
أوْ أرادَ السِّمَاكُ طَعْناً لَهَا عا	دَ كَسِيْرَ القَنَاةِ قَبْلَ الطِّعَانِ
أوْ رَمَتْها قَوْسُ الكواكِبِ زَالَ الـ	ـعَجْسُ مِنْها وخَانَها الأبْهَرانِ
أو عَصَاها حُوْتُ النُّجُومِ سَقَاهُ	حَتْفَهُ صَائِدٌ مِنَ الحِدْثانِ
أقْبَلُوا حَامِلِي الجَدَاوِلِ في الأغْـ	ـمادِ مُسْتَلْئِمِيْنَ بِالغُدْرانِ
وجَلَوْا غَمْرَةَ الوَغَى بِوُجُوهٍ	حَسُنَتْ فَهْيَ مَعْدِنُ الإِحْسَانِ

٦- نُصْحُهُ صَدِيْقاً لَهُ[3]:

يَقُولُ لَهُ أبو العلاء ناصِحاً: (انْهَضْ إلى قَوْمٍ يَصُوْبُ جَوُّهُمْ فِضَّةً بَدَلاً عَنِ الوَابِلِ الهَطَّالِ، ويَحْلِبُونَ نُوقَهُم في آنِيَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، واتْرُكَنْ قَوْماً عَطَاؤُهُمْ نَكِدٌ لا يَكونُ إلَّا

---

[1] هُناكَ سِمَاكانِ السِّمَاكُ الأعْزَلُ وهو ما لا نَجْمَ قُرْبَهُ والسِّمَاكُ الرَّامِحُ وهذا لَهُ نَجْمٌ قُرْبَهُ وهُوَ رُمْحُهُ وهُوَ الذي أرادَهُ الشاعِرُ هُنا، انْظُرْ مُعْجَمَ لَيْن، ص١٤٣٠.

[2] أثبتنا أبياتَ هذِهِ المعاني ولَمْ تَرِدْ في الأَصْلِ (المترجم).

[3] نفسه، ج١، ص١٤٥.

لُؤْماً ومَنّاً، فَهُمْ إنَّما يُشْبِهُونَ الشِّتاءَ؛ إذْ هَذا يَسْلُبُ الأشْجَارَ ما كانَ كَسَاها الصَّيْفُ مِنْ أوْرَاقٍ)؛ يَقُولُ أبو العلاء:

وانْهَضْ إلى أرْضِ قَوْمٍ صَوْبُ جَوِّهِمُ ذَوْبُ اللُّجَيْنِ مَكانَ الوَابِلِ الغَدِقِ

يَغْدُو إلى الشَّوْلِ راعِيْهِمْ ومِحْلَبُهُ قَعْبٌ مِنَ التِّبْرِ أو عُسٌّ مِنَ الوَرِقِ

ودَعْ أُناساً إذا أجْدَوْا عَلَى رَجُلٍ رَنَوْا إلَيْهِ بِعَيْنِ المغْضَبِ الحَنِقِ

كأنَّما القُرُّ مِنهُمْ فَهْوَ مُستَلِبٌ ما الصَّيْفُ كاسِيْهِ أشجاراً مِنَ الوَرَقِ

٧- افْتِخارُهُ ومَدْحُهُ نَفْسَهُ[١]:

تَجَنَّبْتُ الأنامَ فلا أُواخَى وَزِدْتُ عَنِ العَدُوِّ فَمَا أُعَادَي

فأيُّ الناسِ أجْعَلُهُ صَدِيْقاً وأيُّ الأرْضِ أَسلُكُهُ ارْتِيادا

ولَوْ أنَّ النُّجُومَ لَدَيَّ مَالٌ نَفَتْ كفَّايَ أكْثَرَها انْتِقادا

أيْ لَمْ يَعُدْ لِي أعْدَاءٌ، فَلَوْ كانَ لِي فَقَدْ هَلَكُوا حَسَداً لِي، إذْ كَبُرْتُ عَلَيْهِم؛ ولَيْسَ لِي مِنْ صَدِيقٍ لِأنَّني تَجَنَّبْتُ صُحْبَةَ النَّاسِ، فَلَوْ أنَّ النُّجُومَ جاءَتْني دَراهِمَ ودَنانيرَ لَنبَذَتْها يَدَاي إذْ تَتبيَّنانِ زيْفَها. ويَقُولُ أبو العلاء:

ولَوْ أنِّي حُبِيْتُ الخُلْدَ فَرْداً لَمَا أحْبَبْتُ بِالخُلْدِ انْفِرَادا

فلا هَطَلَتْ عَلَيَّ ولا بِأَرْضِي سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلادا

أيْ فلَوْ أنَّني خُصِصْتُ دُونَ الناسِ بِدَوامِ البَقاءِ ما أرَدْتُهُ منفرداً دُونَهُمْ، فلا سَقانِيَ غَيْثٌ خَصَّ أرضِيَ وحْدَها دونَ سَائِرِ البلاد.

٨- وصْفُهُ أعْرَابِيّاً فِيهِ بُخْلٌ وحِرْصٌ[٢]، يَقولُ:

---

[١] نَفسُهُ، ج ١، ص ١١٧.

[٢] نفسه، ج ١، ص ١٠٦.

أَشَدُّ الرَّزايا عِنْدَهُ عَقْرُ نَابِهِ ... وأبْعَدُ شَيْءٍ ضَيْفُهُ مِنْ طَعَامِهِ
أخو طَمَعٍ لا يَنْزِلُ الرَّكْبُ أرْضَهُ ... فَيَرْحَلُ إلَّا مُوْقَراً مِنْ مَلامِهِ
إذا أعْرَضَتْ نارُ الحُباحِبِ في الدُّجَى ... سَعَى قابِساً مِنْ نَارِها بِضِرَامِهِ
وإنْ ضُرِبَتْ أطْنَابُهُ بِتَنُوفَةٍ ... نَأى الضَّبُّ عَنْها خِيفَةً مِنْ عُرَامِهِ
إذا هِيضَ عَظْمُ البَكْرِ وَدَّ لَو انَّهُ ... فَدَاهُ مِنَ الإعْنَاتِ بَعْضُ عِظَامِهِ
وما نَغَمُ الأوْتارِ في سَمْعِ أُذْنِهِ ... بِأَحْسَنَ صَوْتاً مِنْ رُغَاءِ سَوَامِهِ
فيا رَبِّ لا يَمْرُرْ بِدَارٍ يَحُلُّها ... مِنَ المُزْنِ إلَّا خالِياتُ جَهَامِهِ
وإنْ كانَ غَيْثٌ فاعْدُهُ عَنْ بِلادِهِ ... وإنْ كانَ مَوْتٌ فاسْقِها مِنْ زُؤَامِهِ

فَهُوَ غَرِيْبٌ عَنِ الرُّشْدِ، ومُقَدَّمٌ في الرَّذائِلِ والقَبَائِحِ، يَخْشَى كُلَّ الخَشْيَةِ أنْ يَنْحَرَ ناباً مِنْ إبِلِهِ طَعَاماً لِضَيْفِهِ، فذَلِكَ عِنْدَه أَشَدُّ البَلايَا، حتى إنَّهُ لَوْ نَحَرَ هذا النَّابَ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَفَائِسِ الأمْوَالِ، فَمَا أبْعَدَ الضَّيْفَ عَنْ طَعَامِهِ مِمَّا نَحَرَ، فَمَا يُطِيقُ فِكْرَةَ أنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ؛ وهُوَ لِشِدَّةِ بُخْلِهِ وطَمَعِهِ يَسْعَى إلى إشْعالِ نارِهِ قابِساً مِنْ أيِّ نارٍ مَتَى عَرَضَتْ لَهُ وأمْكَنَتْ؛ وكَيْفَ يَأْوِي إلَيْهِ الأضْيافُ وهَذِهِ الضِّبَابُ تَفِرُّ مِنْ مَضْرَبِ خِيامِهِ خَوْفاً مِنْ شِدَّتِهِ وبَطْشِهِ، وهُوَ يَلَذُّ سَمَاعَ رُغاءِ إبِلِهِ وصِياحِ بَهَائِمِهِ كأنَّهُ بِذَلِكَ يَسْمَعُ المُوْسِيْقَى؛ فَيَا رَبِّ لا تَسْقِ دِيَارَهُ، ولا يَمْرُرْ بِهَا مِنَ السَّحابِ إلَّا مَا كانَ جَهاماً قَدْ تَحَلَّبَ ماؤُهُ. وإنْ كانَ النَازِلُ غَيْثاً فَعَدِّهِ عَنْ دايارِهِ ومَوطِنِهِ، وإنْ كانَ مَوتاً فاسْقِها مِنْهُ شَدِيدَهُ!

٩- بُكاؤُهُ عَلَى أبي حَمْزَةَ[١]:

---

[١] نفسه ج ١ ص ٢١٤، وأبو حَمْزَةَ هذا هُوَ الفَقِيْهُ الحَنَفِيُّ المذكورُ آنِفاً. وقد أثْبَتُّها كُلَّها لِكَثْرَةِ اسْتِشهادِ المؤَلِّفِ مِنْها كَذَلِكَ ولِعَمِيقِ التَّفَكُّرِ فِيها، وتَرَى مِنْ هَذِهِ القَصِيدة بِداياتِ أبي العلاء مُفَكِّراً، وبَعْضُ مَنازِعِ تَفَكِيرِهِ هُنا مَبَاحِثُ قائِمَةٌ بِذَاتِهَا في دِيوانِ لُزُومِهِ القادِمِ. وبَعْضُ ما اسْتَوْقَفَني في هَذِهِ القَصِيدة رَأْيُهُ في عِلْمِ هذا الفَقِيْهِ. وقَدْ تَعْلَمُ أيُّها القارِئُ الكَرِيمُ أنَّ لِأبِي العلاءِ آرَاءً في عُلَماءِ الدِّينِ والدُّعاةِ تَرَدَّدَتْ في مَوَاضِعَ عِدَّةٍ مِنْ لُزُومِهِ. ويَبْدُو أنَّهُ مِنْ تارِيْخِ هَذِهِ القَصِيدَةِ عَلَى الأقَلِّ قَدْ بَدَأَ في التَّفَكُّرِ في هذا المَوْضُوعِ، ألا تَرَاهُ يُصْدِرُ حُكْماً نَقْدِيّاً عَلَى عِلْمِ هذا الفَقِيْهِ قَدْ رَضِيَ عَنْهُ كُلَّ الرِّضا بِقَوْلِهِ:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي واعْتِقادِي   نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وشَبِيْهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إذا قِيْـ   ـسَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ

أبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أمْ غَنَّـ   ـتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِها المَيَّادِ؟

صَاحِ! هَذِي قُبُورُنا تَمْلأُ الرُّحْـ   ـبَ فأيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عادِ؟

خَفِّفِ الوَطْءَ! ما أظُنُّ أدِيْمَ الْـ   أرْضِ إلَّا مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ

وقَبِيْحٌ بِنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ   ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدَادِ

سِرْ، إنِ اسْتَطَعْتَ، فِي الهَوَاءِ رُوَيْداً   لا اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ العِبادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً   ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدَادِ

ودَفِيْنٍ عَلَى بَقَايا دَفِيْنٍ   فِي طَوِيْلِ الأزْمَانِ والآبَادِ

فاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أحَسَّا   مِنْ قَبِيْلٍ، وآنَسَا مِنْ بِلادِ

كَمْ أقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ   وأنَارَا لِمُدْلِجٍ فِي سَوَادِ

تَعَبٌ كُلُّها الحَيَاةُ فَمَا أعْـ   ـجَبُ إلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ

إنَّ حُزْناً فِي سَاعَةِ المَوْتِ أضْعَا   فُ سُرُوْرٍ فِي سَاعَةِ المِيْلادِ

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ   أُمَّةٌ يَحْسَبُوْنَهُمْ لِلْنَّفَادِ

إنَّمَا يُنْقَلُوْنَ مِنْ دَارِ أعْمَا   لٍ إلَى دَارِ شِقْوَةٍ أوْ رَشَادِ

ضَجْعَةُ المَوْتِ رِقْدَةٌ يَسْتَرِيْحُ الْـ   جِسْمُ فِيْها والعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

أَبَنَاتِ الهَدِيْلِ! أسْعِدْنَ أوْ عِدْ   نَ قَلِيْلَ العَزَاءِ بالإسْعادِ

إيْهِ! لِلهِ دَرُّكُنَّ فَأنْتُنَّ الْـ   لَوَاتِي تُحْسِنَّ حِفْظَ الوِدَادِ

ما نَسِيْتُنَّ هالِكاً فِي الأوَانِ الْـ   خَالِي أوْدَى مِنْ قَبلِ هُلْكِ إيَادِ

-أنْفَقَ العُمْرَ نَاسِكاً يَطْلُبُ العِلْـ   ـمَ بِكَشْفٍ عَنْ أصْلِهِ وانْتِقادِ

فَهَذا بَعْضُ مَرَدِّ انْتِقادِهِ العُلَماءَ، إذ وصفُهُ للعلمِ بِعبارةِ (كشفٍ عن أصلِهِ وانتقادِ) يَدُلُّكَ على اعتمادِ أبي العلاءِ العَقْلَ دونَ النَّقْلِ فِيما يَتَلقّى من علومٍ. (التُّرْجُمان)

بَيْدَ أنِّي لا أرْتَضِي مَا فَعَلْتُـ   ـنَّ وأطْوَاقُكُنَّ فِي الأجْيَادِ

فَتَسَلَّبْنَ واسْتَعِرْنَ جَمِيْعاً   مِنْ قَمِيْصِ الدُّجَى ثِيَابَ حِدَادِ

ثُمَّ غَرِّدْنَ فِي المآتِمِ وانْدُبْـ   ـنَ بشَجْوٍ مَعَ الغَوَانِي الخِرَادِ

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أبِي حَمْزَةَ الأوَّ   ابِ مَوْلَى حِجىً وخِدْنَ اقْتِصَادِ

وفَقِيْهاً أفْكَارُهُ شِدْنَ لِلنُّعْـ   ـمَانِ مَا لَمْ يَشِدْهُ شِعْرُ زِيَادِ

فالعِرَاقِيُّ بَعْدَهُ لِلْحِجَازِ   يِّ قَلِيْلُ الخِلافِ سَهْلُ القِيَادِ

وخَطِيْباً لَوْ قَامَ بَيْنَ وُحُوْشٍ   عَلَّمَ الضَّارِيَاتِ بِرَّ النِّقَادِ

رَاوِياً لِلْحَدِيْثِ لَمْ يُحْوِجِ المعْـ   ـرُوفُ مِنْ صِدْقِهِ إلَى الإسْنادِ

أنْفَقَ العُمْرَ ناسِكاً يَطْلُبُ العِلْـ   ـمَ بِكَشْفٍ عَنْ أصْلِهِ وَانْتِقادِ

مُستْقِي الكَفِّ مِنْ قَلِيْبِ زُجَاجٍ   بِغُرُوبِ اليَرَاعِ ماءَ مِدَادِ

ذا بَنَانٍ لا تَلْمَسُ الذَّهَبَ الأحْـ   ـمَرَ زُهْداً في العَسْجَدِ المسْتَفَادِ

ودِّعا أيُّها الحَفِيَّانِ ذَاكَ الـ   ـشَّخْصَ إنَّ الوَدَاعَ أيْسَرُ زَادِ

واغْسِلاهُ بِالدَّمْعِ إنْ كانَ طُهْراً   وادْفِنَاهُ بَيْنَ الحَشَا والفُؤَادِ

واحْبُوَاهُ الأكْفَانَ مِنْ وَرَقِ المصْـ   ـحَفِ كِبْراً عِنْ أنْفَسِ الأبْرَادِ

واتْلُوَا النَّعْشَ بِالقِرَاءَةِ والتَّسْـ   ـبِيْحِ لا بِالنَّحِيْبِ والتَّعْدَادِ

أسَفٌ غَيْرُ نافِعٍ واجْتِهَادٌ   لا يُؤَدِّي إلَى غَنَاءِ اجْتِهادِ

طالَمَا أخْرَجَ الحَزِيْنُ جَوَى الحُزْ   نِ إلَى غَيْرِ لائِقٍ بِالسَّدَادِ

مِثْلَ ما فاتَتِ الصَّلاةُ سُلَيْمَا   نَ فَأنْحَى عَلَى رِقَابِ الجِيَادِ

وهو مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإنْسُ والجِـ   ـنُّ بِمَا صَحَّ مِنْ شَهَادَةِ صَادِ

خافَ غَدْرَ الأنَامِ فاستَوْدَعَ الرِّيـ   ـحَ سَلِيْلاً تَغْذُوْهُ دَرَّ العِهَادِ

وَتَوخَّى لَهُ النَّجَاةَ وقَد أيْـ   ـقَنَ أنَّ الحِمَامَ بِالمرْصَادِ

فَرَمَتْهُ بِهِ عَلَى جانِبِ الكُرْ   سِيِّ أُمُّ اللُّهَيمِ أُختُ النَّآدِ

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلِّكَ بَعْدِي   يا جَدِيْراً مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَادِ

قَدْ أقَرَّ الطَّبِيْبُ عَنْكَ بِعَجْزٍ   وتَقَضَّى تَرَدُّدُ العُوَّادِ

وانْتَهَى الْيأَسُ مِنْكَ واسْتَشْعَرَ الوَجْـ   ـدُ بِأَنْ لا مَعَادَ حَتَّى المعَادِ

هَجَدَ السَّاهِرُوْنَ حَوْلَكَ لِلْتَّمْـ   ـرِيْضِ وَيْحٌ لِأَعْيُنِ الهُجَّادِ

أَنْتَ مِنْ أُسْرَةٍ مَضَوْا غَيْرَ مَغْرُو   رِيْنَ مِنْ عِيْشَةٍ بِذَاتِ ضِمَادِ

لا يُغَيِّرْكُمُ الصَّعِيْدُ وكُونُوا   فِيهِ مِثْلَ السُّيُوفِ فِي الأغمادِ

فَعَزِيْزٌ عَلَيَّ خَلْطُ اللَّيالِي   رِمَّ أَقْدَامِكُمْ بِرِمِّ الهَوَادِي

كُنْتَ خِلَّ الصِّبا فَلَمَّا أَرَادَ الْـ   ـبَيْنَ وَافَقْتَ رَأْيَهُ فِي المرَادِ

ورَأَيْتَ الوَفَاءَ، لِلصَّاحِبِ الأَ   وَّلِ مِنْ شِيْمَةِ الكَرِيْمِ الجَوَادِ

وخَلَعتَ الشَّبابَ غَضّاً فَيَا لَيْـ   ـتَكَ أبْلَيْتَهُ مَعَ الأَنْدَادِ

فاذْهَبا خَيْرَ ذَاهِبَيْنِ حَقِيْقَيْـ   ـنِ بِسُقَيا رَوَائِحٍ وغَوَادِ

ومَرَاثٍ لَوْ أنَّهُنَّ دُمُوعٌ   لَمَحَوْنَ السُّطُورَ فِي الإنْشَادِ

زُحَلٌ أَشْرَفُ الكَوَاكِبِ دَاراً   مِنْ لِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِيْعَادِ

ولِنَارِ المرِّيْخِ مِنْ حِدْثَانِ الدَّ   هْرِ مُطْفٍ وإنْ عَلَتْ فِي اتِّقَادِ

والثُّرَيَّا رَهِيْنَةٌ بِافْتِرَاقِ الشَّـ   ـمْلِ حَتَّى تُعَدَّ فِي الأفرادِ

فَلْيَكُنْ لِلْمُحَسِّنِ الأَجَلُ المـْ   ـدُودُ رَغْماً لِآنُفِ الحُسَّادِ

ولْيَطِبْ عَنْ أخِيْهِ نَفْساً وأَبْنَا   ءِ أَخِيْهِ جَرَائِحِ الأَكْبَادِ

وإذا البَحْرُ غاضَ عَنِّي ولَمْ أَرْ   وَ، فلا رِيَّ بِادِّخَارِ الثِّمَادِ

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ، ما تَبْتَنِي الوَرْ   قَاءُ والسَّيِّدُ الرَّفِيْعُ العِمَادِ

والفَتَى ظَاعِنٌ ويَكْفِيهِ ظِلُّ السِّـ   ـدْرِ ضَرْبَ الأَطْنَابِ والأَوْتَادِ

بَانَ أَمْرُ الإلَهِ واختَلَفَ النَّا   سُ فَدَاعٍ إلى ضَلالٍ وهَادِ

والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فِيْـ   ـهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

واللَّبِيْبُ اللَّبِيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْـ   ـتَرُّ بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلفَسَادِ

وقِفْ مِنْها عِنْدَ هَذِهِ الأَبْيَاتِ:

واغْسِلاهُ بِالدَّمْعِ إنْ كانَ طُهْراً وادْفِنَاهُ بَيْنَ الحَشَا والفُؤَادِ
واحْبُوَاهُ الأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ المِصْـ ـحَفِ كِبْراً عَنْ أَنْفَسِ الأَبْرَادِ
واتْلُوَا النَّعْشَ بِالقِرَاءَةِ والتَّسْـ ـبِيحِ لا بِالنَّحِيْبِ والتَّعْدَادِ

أَيْ اغْسِلُوه بِالدُّمُوعِ، إذا كانَتْ طاهِرَةً[1]، ولا تَدفِنُوهُ في التُّرْبِ، بَلْ بَيْنَ الحَشا والفُؤَادِ؛ وكَفِّنُوهُ لا بِالأَكْفانِ بَلْ بِأَوْرَاقِ المِصْحَفِ، فلا يُوجَدُ كَفَنٌ يَلِيقُ بِهِ بَالغاً ما بَلَغَتْ نَفَاسَتُهُ. وشَيِّعُوا جَنَازَتَهُ بِتِلاوَةِ القُرْءانِ وتَسْبِيحِ اللهِ تَعالَى، لا بِالإعْوالِ والنُّوَاحِ.

١٠. وانْظُرْ هَذِهِ الأبْياتَ في التأمُّلاتِ وحَتْمِيَّةِ الفَنَاءِ[2]:

زُحَلٌ أَشْرَفُ الكَوَاكِبِ دَاراً مِنْ لِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِيْعَادِ
ولِنَارِ المِرِّيْخِ مِنْ حِدْثَانِ الدَّ هْرِ مُطْفٍ وإنْ عَلَتْ فِي اتِّقادِ
والثُّرَيَّا رَهِيْنَةٌ بِافْتِرَاقِ الشَّـ ـمْلِ حَتَّى تُعَدَّ فِي الأَفْرادِ

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ، ما تَبْتَنِي الوَرْ قَاءُ والسَّيِّدُ الرَّفِيْعُ العِمَادِ
والفَتَى ظاعِنٌ ويَكْفِيهِ ظِلُّ السِّـ ـدْرِ ضَرْبَ الأَطْنَابِ والأَوْتَادِ
بَانَ أَمْرُ الإلَهِ واختَلَفَ النَّا سُ فَدَاعٍ إلى ضَلالٍ وهَادِ
والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فِيْـ ـهِ حَيْوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
واللَّبِيْبُ اللَّبِيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْـ ـتَرُّ بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلفَسَادِ

---

[1] هذا يدُلُّ عَلَى أنَّ الدَّمْعَ مِنهُمْ كانَ قَدْ خالَطَهُ الدَّمُ

[2] نَفْسُهُ، ص ٢١٦، و٢١٧، و٢١٨.

إنَّ زُحَلَ أشَدَّ الكَواكِبِ لَمَعاناً لَموعُودٌ بِالفَناءِ؛ ونارُ المرِّيخِ لا بُدَّ لها أنْ يَدْهَمَها القَدَرُ بِعَارِضِ الإطْفاءِ؛ والثُّرَيَّا المجْتَمِعُ شَمْلُ كواكِبِها السَّبْعِ لابُدَّ مُلاقِيةٌ يَوْماً يُقْضَى عَلَيْها فِيْه بِتَفْرِيقِهِ. وكلُّ بَيْتٍ مَقْضِيٌّ عَلَيْهِ بِالهَدْمِ والزَّوالِ، ما كان مِنهُ أعْشاشاً وَضِيعَةً وما كان قُصُوراً مَنِيعَةً، فما المرءُ إلَّا مُتَرَحِّلٌ، قد كانَ لَهُ في ظِلالِ السِّدْرِ غَناءٌ عَنْ مَضْرُوبِ الخِيامِ ومُشَيَّدِ البِنَاءِ؛

والنَّاسُ يختلِفُونَ في مُحْكَمِ أمْرِ اللهِ وجَلِيِّهِ، فكانَ مِنهُم مَنْ أخْلَدَ إلى الشَّر فغَوَى، ومِنهُمْ مَنِ اسْتَعْصَمَ بالخَيْرِ فاهْتَدَى؛ وما الإنْسانُ إلَّا حَيْوانٌ خُلِقَ مِنَ الطِّيْنِ؛ وما لَنا نَذْهَلُ بِالدُّنيا عَنْ غايَتِها التي إلى فَناءٍ ومَصِيْرِها الذي إلى زَوَالٍ؟.

١١. التَّوَاضُعُ[١]:

قالَ أبو العلاء:

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظُنُّ أَدِيْمَ الْـ أرْضِ إلَّا مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ

سِرْ إنِ اسْتَطَعْتَ في الهَوَاءِ رُوَيْداً لا اخْتِيَالاً عَلَى رُفاتِ العِبَادِ

فَقَبِيْحٌ بِنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدَادِ

خَفِّفْ وَطْئَكَ على الأرْضِ وامْشِ عَلَيْها هَوْناً، إذْ إنَّني أحْسِبُ أدِيمَها تَكَوَّنَ مِنْ أجْسادِ الخَلْقِ الذينَ دُفِنُوا فِيْها على مَرِّ الأزْمانِ؛ فَطِرْ، إنِ اسْتَطَعْتَ، في الهَوَاءِ ولا تَمْشِ اخْتِيالاً عَلَى رُفَاتِ مَنْ كانُوا قد عَبَدُوا اللهَ عَلَيْها، فَهُمْ آباؤُنا وأجْدَادُنا، فَلَمِمَّا يَشِيْنُ أنْ نَطَأَ بأقْدَامِنا أجْسَادَهُمْ وإنْ طالَتْ عَلَيْهِمُ الدُّهُورُ وامْتَدَّتِ الآبادُ.

---

[١] نفسه.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

شعرُهُ بِبغدادَ وبعدَها والدّرعِيَّاتُ

الفَصْلُ الرَّابِعُ

القسم (أ)

شِعْرُهُ بِبَغْدادَ

نَظَمَ المَعَرِّيُّ أُوْلَى قَصَائِدِهِ فِي بَغْدَادَ إِثْرَ مَقدمِهِ إِلَيْها يَمْدَحُ بِها أبا حامِدٍ الإِسْفَرَايِيْنِيَّ[1]، أَحَدَ أَبْرَزِ فُقَهائِها. وآخِرُ قَصَائِدِهِ بِها قَصِيْدَةٌ طَوِيْلَةٌ وَدَّعَها بِها. هذا، ويُمْكِنُنا أنْ نَتَّخِذَ مِنْ هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ مَعْلَماً ومِقْياساً لِصُعُودِ شِعْرِ أَبِي العلاءِ فِي بَغْدَادَ؛ إِذْ تُمَثِّلُ أُوْلاهُما أَسْفَلَ مُرْتَفَعٍ فَنِيٍّ أُسْلُوبِيٍّ صار له فِيما بَعْدُ مَسْكَناً ومَوْطِناً، وأَمَّا الأَخِيْرَةُ فتُمَثِّلُ قِمَّةَ هذا المُرْتَفَعِ وأَوْجَهُ.

فَأَمَّا قَصِيدَتُهُ فِي أَبِي حامِدٍ الإِسْفَرايِينِيِّ فَهِيَ:

لا وَضْعَ لِلرَّحْلِ إِلَّا بَعْدَ إِيْضاعِ	فَكَيْفَ شاهَدْتِ إِمْضَائي وإِزْماعِي؟
يا ناقُ! جِدِّي فَقَدْ أَفْنَتْ أَناتُكِ بِي	صَبْرِي وعُمْرِي وأَحْلاسِي وأَنْسَاعِي
إذا رَأَيْتِ سَوَادَ اللَّيْلِ فانْصَلِتِي	وإِنْ رَأَيْتِ بَيَاضَ الصُّبْحِ فانْصَاعِي
ولا يَهُوْلَنْكِ سَيْفٌ لِلصَّباحِ بَدا	فَإِنَّهُ لِلْهَوَادِي غَيْرُ قَطَّاعِ
إلى الرَّئِيسِ الذِي إِسْفارُ طَلْعَتِهِ	فِي حِنْدِسِ الخَطْبِ ساعٍ بِالهُدَى شَاعِ
يَمَّمْتُهُ وبِوُدِّي أَنَّنِي قَلَمٌ	أَسْعَى إِلَيْهِ ورَأْسِي تَحْتِيَ السَّاعِي
عَلَى نَجَاةٍ مِنَ الفِرْصادِ أَيَّدَها	رَبُّ القَدُومِ بِأَوْصالٍ وأَضْلاعِ
تُطْلَى بِقَارٍ ولَمْ تَجْرَبْ كأَنْ طُلِيَتْ	بِسَائِلٍ مِنْ ذَفارِي العِيْسِ مُنْباعِ
ولا تُبالِي بِمَحْلٍ إِنْ أَلَمَّ بِها	ولا تَهَشُّ لإِخْصابٍ وإِمْرَاعِ
سارَتْ فَزَارَتْ بِنا الأَنْبارَ سالِمَةً	تُزْجَى وتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ ودُفَّاعِ

[1] سَقْطُ الزَّنْدِ ج ١، ص ١٥ فَمَا بَعْدَها.

والقادِسِيَّةُ أَدَّتْها إلَى نَفَرٍ   طافُوا بِها فَأَناخُوْها بِجَعْجَاعِ
ورُبَّ ظُهْرٍ وَصَلْناها عَلَى عَجَلٍ   بعَصْرِها فِي بَعِيْدِ الوِرْدِ لَمَّاعِ
بِضَرْبَتَيْنِ لِطُهْرِ الوَجْهِ واحِدَةٌ   ولِلذِّرَاعَيْنِ أُخْرَى ذَاتُ إِسْرَاعِ
وَكَمْ قَصَرْنا صَلاةً غَيْرَ نافِلَةٍ   فِي مَهْمَهٍ كَصَلاةِ الكَسْفِ شَعْشاعِ
وما جَهَرْنا ولَمْ يَصْدَحْ مُؤَذِّنُنا   مِنْ خَوْفِ كُلِّ طَوِيْلِ الرُّمْحِ خَدَّاعِ
فِي مَعْشرٍ كَجِمارِ الرَّمْيِ أَجْمَعُها   لَيْلاً وفِي الصُّبْحِ أُلْقِيْها إلَى القَاعِ
يا حَبَّذا البَدْوُ حَيْثُ الضَّبُّ مُحْتَرَشٌ   ومَنْزِلٌ بَيْنَ أَجْرَاعٍ وأَجْزاعِ
وغَسْلُ طِمْرِيَ سَبْعاً مِنْ مُعاشَرَتِي   فِي البِيْدِ كُلَّ شُجَاعِ القَلْبِ شَرَّاعِ
وبِالعِرَاقِ رِجَالٌ قُرْبُهُمْ شَرَفٌ   هاجَرْتُ فِي حُبِّهِمْ رَهْطِي وأَشْيَاعِي
عَلَى سِنِيْنَ تَقَضَّتْ عِنْدَ غَيْرِهِمِ   أَسِفْتُ لا بَلْ عَلَى الأَيَّامِ والسَّاعِ
اِسْمَعْ أبا حامِدٍ فُتْيَا قُصِدْتَ بِها   مِنْ زَائِرٍ لِجَمِيْلِ الوُدِّ مُبْتَاعِ
مُؤَدَّبِ النَّفْس أَكَّالٍ عَلَى سَغَبٍ   لَحْمَ النَّوائِبِ شَرَّابٍ بِأَنْقَاعِ
أرْضَى وأُنْصِفُ إِلَّا أَنَّنِي رُبَّمَا   أَرْبَيْتُ غَيْرَ مُجِيْزٍ خَرْقَ إِجْمَاعِ
وذَاكَ أَنِّيَ أُعْطِي الوَسْقَ مُنْتَحِياً   مِنَ المَوَدَّةِ مُعْطِي الوُدِّ بِالصَّاعِ
ولا أُثَقِّلُ فِي جَاهٍ ولا نَشَبٍ   ولَوْ غَدَوْتُ أَخَا عُدْمٍ وإِدْقاعِ
مَنْ قَالَ صَادِقٌ لِئَامَ النَّاسِ! قُلْتُ لَهُ   قَوْلَ ابْنِ أَسْلَتَ قَدْ أَبْلَغْتِ أَسْماعِي
كأَنَّ كُلَّ جَوَابٍ أَنْتَ ذَاكِرُهُ   شَنْفٌ يُناطُ بِأُذْنِ السَّامِعِ الوَاعِي
إنَّ الهَدَايا كَرَامَاتٌ لِآخِذِها   إنْ كُنَّ لَسْنَ لِإِسْرَافٍ وأَطْماعِ
ولا هَدِيَّةَ عِنْدِي غَيْرُ ما حَمَلَتْ   عَنِ المسَيَّبِ أَرْوَاحٌ لِقَعْقاعِ
ولَمْ أَكُنْ ورَسُولِي حِيْنَ أُرْسِلُهُ   مِثْلَ الفَرَزْدَقِ فِي إِرْسالِ وَقَّاعِ
مَطِيَّتِي فِي مَكانٍ لَسْتُ آمَنُهُ   عَلَى المطايا وسِرْحانٌ لَهُ رَاعِ
فارْفَعْ بِكَفِّي فإِنِّي طائِشٌ قَدَمِي   وامْدُدْ بِضَبْعِي فإِنِّي ضَيِّقٌ باعِي
وما يَكُنْ فَلَكَ الحَمْدُ الجَمِيْلُ بِهِ   وإنْ أُضِيْعَتْ فإِنِّي شاكِرٌ دَاعِ

وقَدِ امْتازَتْ قَصِيدَتُهُ هَذِهِ فِي مَدْحِ أَبِي حامِدٍ الإِسْفَرَايِينِيِّ عَنْ أماديحِهِ الأُوَلِ بِهَذِهِ الصِّفاتِ:

١- جاءَ فِيْها بِتَوْقِيرِ ناقِدٍ فَذٍّ فِي شَخْصِ أَبِي حامِدٍ.

٢- تَعَمَّدَ أَنْ يَسْتَخْدِمَ فِيْها الكِنَاياتِ والتَّعَابِيرَ المَنْطَوِيَةَ عَلَى الإِشارَاتِ الخَفِيَّةِ، حَتَّى يَظْفَرَ باسْتِحْسانِ جُمْهُورٍ عُرِفَ بِالمعرِفةِ والثَّقافَةِ (فَقَدْ رَجَعَ فِيْها إِلى الفِقْهِ والمخْتَارَاتِ الشِّعْرِيَّةِ القَدِيْمَةِ).

٣- تَأَنَّقَ في اخْتِيَارِ الأساليْبِ اللَّفْظِيَّةِ أوِ الكَلِمَاتِ ذَاتِ الجَرْسِ اللَّفْظِيِّ أَوِ المشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ، والتي كانَ قَدْ غَلَبَ اسْتِخْدَامُها إلى زَمَانِ أَبِي العلاء عَلَى النَحْوِ المتعارفِ عَلَيْهِ كَثِيراً كانَ أو قَلِيلاً، مِثْلِ (فانْصَاعِي)، (فانْصَلِتِي) و(سَاعٍ بِالهُدَى شَاعٍ).

٤- ضَمَّنَها لَمْسَةً وَاقِعِيَّةً، (إِذْ يَظْهَرُ في هذِهِ القَصِيْدةِ طلَبُ أبي العلاءِ مُساعَدَةَ أبي حامدٍ فِي اسْتِرْدَادِ قارِبِهِ).

ويَظْهَرُ أبو العلاءِ في هذِهِ القَصِيدة أشْبَهَ شَيْءٍ بِتِلْمِيذٍ يَشْحَذُ كُلَّ مَوَاهِبِهِ ويَسْتَجْمِعُ كُلَّ قُدْرَاتِهِ اسْتِعْدَاداً لامْتِحانِ قَبُولٍ. فَقَدْ كانَتْ المعْضِلَةُ التي أمَامَهَ هِيَ أَنْ يَمْزُجَ سَعَةَ عِلْمِهِ وتَبحُّرَهُ العِلْمِيَّ بِالشَّاعِرِيَّةِ الحَقَّةِ، ثُمَّ أَنْ يَعْمِدَ إلى أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ هَذَيْنِ وبَيْنَ طَلَبِهِ الجوهرِيِّ. وقَدْ دَلَّهُ نَجاحُهُ في هَذِهِ القَصِيدة عَلَى طَرِيقٍ مَهْيَعٍ نَحْوَ أُسْلُوبٍ فَنِيٍّ جَديدٍ.

ولِنَفْهَمَ التَّغَيُّرَاتِ المهِمَّةَ التي طَرَأَتْ عَلَى شِعْرِ أبي العلاء خِلالَ فَتْرَةِ إِقامَتِهِ بِبَغْدادَ، عَلَيْنا أَنْ نأْخُذَ فِي الاعْتِبارِ الأَغْرَاضَ التي كانَ يَنْظِمُ لِأَجْلِها شِعْرَهُ، والجُمْهُورَ الذِي كانَ يَبْغِي أَنْ يَبْلُغَ رِضاهُ واسْتِحْسَانَهُ. فَقَدْ كَتَبَ أبو العلاء أَرْبَعَ قَصَائِدَ مِنْ شِعْرِهِ فِي هذِهِ الفَتْرَةِ لِاعْتِبَارَاتٍ رَاقِيَةٍ جَلِيْلَةٍ، شَأْنَهُ فِي أَغْلَبِ كِتَاباتِهِ الأُوْلَى.

وهَذِهِ القَصَائِدُ الأَرْبَعُ هِيَ:

١- مَرْثِيَتُهُ التي نَظَمَها فِي الشريف ذِي المَنَاقِبِ[1].

٢- القَصِيدة التي هَنَّأَ بِها التَّنُوخِيَّ في مَوْلُودٍ لَهُ[2]

٣- القَصْيِدَةُ التي كَتَبَها لابْنِ فُوُرَّجَةَ[3]

٤- القَصِيدة التي كَتَبَها إلى مَنْ أَسْماهُ البَرْقِيَّ[4]

ولَكِنْ كانَ مِنْ وَرَاءِ الدَّوَافِعِ غَيْرِ الشَّخْصِيَّةِ الظَّاهِرَةِ التي أَمْلَتْ عَلَيْهِ نَظْمَ هذهِ القَصَائِدِ الأَرْبَعِ، دَافِعٌ آخَرُ مُوْغِلٌ في الصِّفَةِ الشَّخْصِيَّةِ كانَ هُوَ مَدْفَعَ الإِلْهامِ لِهَذِهِ القَصَائِدِ. فَمَرْثِيَتُهُ فِي الشَّرِيفِ كانَ قَدْ نَظَمَها لِيَبْلُغَ بِها رِضَا وَلَدَيْهِ اللَّذَيْنِ كانا مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ ومِنْ أَبْرَزِ رِجَالاتِ الأَدَبِ المعْرُوفَةِ فِي بَغْدادَ. ومِنَ المهِمِّ أنْ نُلاحِظَ أَنَّنا لا نَجِدُ لِلْمَعَرِّيِّ في هذهِ المرْثِيَةِ تِلْكَ التأمُّلاتِ الرَّائِعَةَ وذَلِكَ التَّفَكُّرَ الممْتِعَ في (الموْتِ) و(الآخِرَةِ) مِمَّا كانَ سادَ سابِقَتَها (غيرُ مُجْدٍ)، ولَنْ يَفُوتَ المرْءَ أنْ يُلاحِظَ غِبْطَةَ أبي العلاء لِابنَيْ الشريفِ عَلَى ما احْتَلَّاهُ مِنْ مَكَانَةٍ عالِيَةٍ ومَنْزِلَةٍ لا تُرَامُ وعَلَى ما كانا عَلَيْهِ مِنْ ثَرَاءٍ عَرِيضٍ.

ونَرَى فِي القَصَائِدِ التي كَتَبَها أبو العلاء إلى أصْدِقَائِهِ الذِيْنَ هُمْ أَقَلُّ خَطَراً وأدْنَى مَنْزِلَةً مِنِ ابنَيْ الشريفِ، أَنَّ أغْرَاضَهُ الكُبْرَى فِيْها دَارَتْ عَمَّا كانَ يَشْغَلُهُ مِنْ هُمُومٍ وبَلابِلَ، ومالَ فِيْها إلى أنْ يَصِفَ حَيَاتَهُ ويُصَوِّرَها، لا أنْ يَسْتَرْسِلَ فِي مَوْضُوعاتِهِ التقليديَّةِ السابِقةِ. مِنْ ذَلِكَ، مَثَلاً، أنَّ الشَّاعِرَ في قَصِيْدَتِهِ لِابْنِ فُوُرَّجَةَ كانَ يَنتابُهُ جَزَعٌ مِنْ هَوْلِ فِرَاقِهِ الوَشِيْكِ لِبَغْدادَ. وفِي قَصِيْدَتِهِ التي كَتَبَها لِلْبَرْقِيِّ شَكَا مِنْ مَرَضٍ كانَ قَدْ أَلْزَمَهُ

---

[1] سَقْطِ الزَّنْدِ ج٢ ص٥٥ وما بعدها، وذو المَنَاقِبِ هُوَ الشريفُ أبو كُلٍّ مِنَ الرَّاضِي والمرْتَضَى. وسَبَقَتِ الإشارةُ إِلَيْهِ في الفَصْلِ الأوَّلِ مِنْ هَذَا الكِتابِ

[2] نفسه ج١، ص ٦٦ وما بعدها.

[3] نفسه ج ٢، ص ٨٠ وما بعدها.

[4] نفسه ج ٢، ص ٩٨ وما بعدها.

الفِرَاشَ، ولَامَ صَدِيْقَهُ هذا إذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ عادَهُ فِيهِ. وفي ذَاتِ القَصِيدة وَصَفَ مَسْكَنَهُ وَصْفاً حَيّاً ناضِراً، فصَوَّرَ بَرْدَهُ القارِصَ وغَرابَةَ نارِهِ[1]

هذا، وقَدْ نَظَمَ أبو العلاء ثَلاثَ قَصَائِدَ أُخْرَى لِدافِعَيْنِ شَخْصِيِّيْنِ جِدّاً هُما حَنِينُهُ إلى المعَرَّةِ وحُزْنُهُ مِنْ فِرَاقِهِ المزْمَعِ لِبَغْدادَ[2]. وهُناك قِطْعَتَانِ نُرَجِّحُ أنَّهما نُظِمَتا بُغْيَةَ أن تُغَنَّيا[3] (عُرِفَتْ إحْدَاهُما بأَنَّها قَدْ لُحِّنَتْ حِيْنَما كانَ الشَّاعِرُ بِبَغْدادَ)[4] وفي كِلْتَا هَاتَيْنِ القِطْعَتَيْنِ تَجِدُ اهْتِمامَ الشاعِرِ بِنَفْسِهِ ظاهِراً واضِحاً.

فَهَذِهِ القصائِدُ مَعَ تِلْكَ التي كُتِبَتْ لِأبِي حامدٍ والتي تَبْلُغُ في جُمْلَتِها عَشْراً تُمَثِّلُ لنا كُلَّ ما كَتَبَهُ أبو العلاءِ بِبَغْدَادَ. ولِذَلِكَ يُمْكِنُنا الزَّعْمُ أنَّ كُلَّ شِعْرِهِ فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ إنَّما نَظَمَ بَعْضَهُ لِيُظْهِرَ مَوَاهِبَهُ وقُدْرَاتِهِ الفَنِّيَّةَ لِمَنْ تَعَرَّفَهُمْ حَدِيْثاً بِصِفَةٍ خاصَّةٍ، ولِأهْلِ بَغْدادَ الذِيْنَ عُرِفُوا بِالعِلْمِ والثَّقافَةِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ، ونَظَمَ بَعْضَهُ الآخَرَ لِيُرْضِيَ دافِعاً لَهُ شَخْصِيّاً.

ولَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ السَّنَتَانِ اللَّتانِ قَضَاهُما في بَغْدادَ، بَعْدَ شَبَابٍ هادِئٍ لَمْ يَشْهَدْ أحْدَاثاً تُذْكَرُ بِالمعَرَّةِ، وحَيْثُ قُدِّرَ لَهُ أنْ يَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِيما بَعْدُ، كأنَّهُما تَرْوِيحَةٌ مُوْسِيقِيَّةٌ بَهِيْجَةٌ. ولَقَدْ كانَتْ مُعانَاتُهُ العاطِفِيَّةُ هِيَ الجُزْءَ الأكْثَرَ حَيَوِيَّةً في مِزَاجِهِ وتَرْكِيْبَتِهِ النَّفْسِيَّةِ، ولا رَيْبَ أنَّ ذَلِكَ قَدْ أحْدَثَ تَغْيِيْراً كَبِيْراً في نَظْرَةِ أبي العلاء نَحْوَ الشِّعْرِ؛ لِأنَّهُ مِنَ الآنَ فَصاعِداً قَدْ ذَهَبَ عَنْهُ ما كان بِهِ مِنْ مَيْلٍ لِأَنْ يَتْرُكَ الشِّعْرَ. وإذَنْ فَقَدْ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَكْتُبَ ما يُرِيْدُ كِتَابَتَهُ شِعْراً، لِسَبَبَيْنِ أَوَّلُهُما أنَّ الشِّعْرَ كانَ هُوَ أَدَاةَ التَّعْبِيْرِ المهَيَّأَةَ لَدَيْهِ وطَرِيْقَهُ المهْيَعَ، والسَّبَبُ الثَّانِي (ولا يَقِلُّ خطَراً ولا أَهَمِيَّةً عَنِ السَّبَبِ الأَوَّلِ) هُوَ أنَّهُ كانَ يُرِيْدُ أنْ يُصِيبَ نَجاحاً أَدَبِيّاً في بَغْدادَ.

---

[1] نفسه ص ٩٩، الأبيات من ٣ — ٤.

[2] انظُرْ (قَصَائِدُ بَغْدادَ) مِنَ الفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ هذا الكِتاب.

[3] نفسه

[4] نفسه

ولَقَدْ كانَ الجُمْهُورُ والمجْتَمَعُ الذي كان المعَرِّيُّ يَبْغِي أنْ يَبلُغَ رِضاهُ ويَطْلُبُ اسْتِحْسانَهُ مُثقَّفاً رَفِيعَ الثَّقافَةِ ومُتنوِّعاً واسِعَ التَنوُّعِ؛ فَقَدْ كانَ فِيهِ عُلَماءُ اللُّغَةِ المتَحذْلِقُونَ الذِيْنَ كانَتْ آرَاؤُهُمْ في جَوْدَةِ الشِّعْرِ والتَّميُّزِ فِيهِ تَحْكُمُها مَعايِيرُ الأزْمُنِ القَدِيمَةِ وكانَتْ على الأغْلَبِ باردةً وباهِتَةً لا غَناءَ فِيها؛ كَما كانَ فِيهِ مَشاهِيرُ الشُّعَراءِ والكُتَّابِ والمغَنِّينَ الذِينَ كانَتِ الزَّخْرَفَةُ اللَّفظِيَّةُ والمهَارَةُ الإيْقاعِيَّةُ مَطْلَبَينِ أساسَيْنِ لَهُمْ في المقْدِرَةِ الفَنِّيَّةِ. وكانَ هذا المجْتَمَعُ يَضُمُّ كَذلِكَ طَبَقَةً مُتفَرِّدَةً قِوامُها عُلَماءٌ عَلَى قَدْرٍ عَالٍ مِنَ الثَّقافَةِ والعِلْمِ الذِينَ كان يُعْجِبُهُمُ المحْدَثُ مِنَ الشِّعْرِ بِقَدْرِ ما كان يُعْجِبُهُمُ القَديمُ مِنهُ؛ فَكانُوا يَطْلُبُونَ فِيهِ مَعايِيرَ ومُسْتَوَياتٍ أعْلَى مِمَّا كانَ يَشِيعُ في عَصْرِهِمْ[1]. وكانَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ مِنْ مُجْتَمَعِ بَغْدادَ هِيَ التي اهْتَمَّ أبو العلاء واجْتَهَدَ فِي أنْ يَظْفَرَ باسْتِحْسانِها لَهُ واعْتِرافِها بِفَضْلِهِ، ولَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى أنْ يَسْتَرْضِيَ العُلَماءَ ويَسْتَمِيلَهُمْ إلَيْهِ، ولا كانَ لِيَزْدَرِيَ أوْ يَنْصَرِفَ بِهَؤُلاءِ عَنِ الغَالِبِيَّةِ العُظْمَى مِنْ مُعاصِرِيهِ الذِينَ هُمْ أقَلُّ خَطَراً وأدْنَى حَذْقاً.

ولَقَدْ كانَتِ الأشْكَالُ التي أخَذَ بِها أبو العلاء في شِعْرِهِ في هَذِهِ الفَتْرَةِ مُتَوافِقَةً ومُتَّسِقَةً اتِّساقاً حَسَناً مَعَ أغْراضِهِ وبَواعِثِهِ ومَعَ أذْواقِ جُمْهُورِهِ المتَبايِنَةِ. فَقَدْ جاءَتْ قَصائِدُهُ الشَّخْصِيَّةُ الثَّلاثُ، وبَلَغَتْ ثَمانِيَةً وخَمْسِينَ ومِائةَ بَيْتٍ، هِيَ تَقْرِيباً نِصْفُ ما كَتَبَهُ في هَذِهِ الفَتْرَةِ (٣٥٨ بيتاً)، جاءَتْ هَذِهِ القَصائِدُ الثَّلاثُ في شَكْلٍ يُمْكِنُنا أنْ نُسمِّيَهُ هُنا شَكْلَ (المعَلَّقَةِ المحْدَثَةِ)؛ إذ إنَّ طَرِيقَةَ النَّظْمِ فِي هذا الضَّرْبِ مِنَ القَصائِدِ تَنْحُو مَنْحَى أنْ يَبْتَدِئَ الشَّاعِرُ القَصِيدَةَ بِمُقَدِّمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى حُزْنٍ وحَنِينٍ (مَنخوليا) فَيَشْكُو زَمانَهُ

[1] كالرَّضِي والمرْتَضَى

ويُظْهِرَ شَوْقَهُ إلى وَطَنٍ نأى عَنْهُ، عَلَى نَحْوٍ يُشْبِهُ النَّسِيبَ إلى حَدٍّ بَعيْدٍ لَكِنْ في الأثَرِ لا في المَوْضُوعِ، عَلَى نَحْوِ ما صنَعَ البُحْتُرِيُّ في سِيْنِيَّتِهِ[1]:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدا كُلِّ جِبْسِ

وما صنَعَ المتنبِّي في قصيدتِهِ[2]:

مَلُوكُما يَجِلُّ عَنِ المَلامِ ووَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الكَلامِ

وبَعْدَ مُقَدِّمَةِ الحَنِينِ يَأْتِي مَوْضُوعُ الشَّاعِرِ الأساسُ الذي مِنْ أجْلِهِ أنْشَأَ قَصِيدَتَهُ لِيُعالِجَ تَجْرِبَةً أوْ أكْثَرَ مِنْ تَجارِبِ الشاعِرِ العاطِفِيَّةِ، ورُبَّما تَخَلَّلَ ذَلِكَ هُنا وهُناكَ مَدْحُ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ والتَّنْوِيهُ بِفَضْلِهِ، عَلَى ألَّا يَظْهَرَ ذَلِكَ مِنهُ عَلَى أنَّهُ مَوْضُوعُ الشَّاعِرِ الأَوَّلُ وإلَّا كانَتِ القَصِيدَةُ قَصِيدَةَ فَخْرٍ وتَباهٍ. فَمَوْضُوعُ سِينِيَّةِ البُحْتُرِيِّ هُوَ التَّنْوِيهُ بِالإيوانِ والإشَادَةُ بِهِ، وهُوَ قَصْرٌ مَلَكِيٌّ كانَ لِمُلُوكِ آلِ ساسَانَ مِنَ الفُرْسِ، لِكَوْنِهِ أثَراً عَمَارِيّاً خالِداً، ووَصْفُ ما كان يُحَلِّي جُدْرانَهُ مِنَ الرُّسُوماتِ. وأمَّا الغَرَضُ الوَاضِحُ في قَصِيدَةِ المتَنَبِّي فَوَصْفُ حُمَّى الملارِيا أو حُمَّى الوِرْدِ التي قاسَى حَرَّها ولَفْحَها في القاهِرَةِ. وعادةً مَّا يَكُونُ الجُزْءُ الأخِيرُ مِنَ القَصِيدة تَلْخِيصاً لِلْغَرَضِ الذِي مِنْ أجْلِهِ نُظِمَتْ. ولَقَدْ كانَ الغَرَضُ في قَصِيدَةِ البُحْتُرِيِّ في الإيوانِ إعْمَالَ الفِكْرِ والتأمُّلَ والنَّظَرَ وإنْصَافَ عَبْقَرِيَّةِ غَيْرِ العَرَبِ، وكانَتْ قَصِيْدَةُ المتَنَبِّي سُخْطاً عَلَى الحياةِ وتَبَرُّماً بِها، وقَدِ انْطَوَتْ عَلَى سَوْدَاوِيَّةٍ عَمِيقَةٍ. وقَدْ كانَ هَذا الشَّكْلُ مِنَ الشِّعْرِ والذِي أطْلَقْنا عَلَيْهِ مُصْطَلَحَ (المعَلَّقَةِ المحْدَثَةِ) عَبَّاسِيّاً، ولَرُبَّما عادَ أصْلَهُ إلى شِعْرِ الخَوارِجِ والصَّعالِيْكِ واللُّصُوصِ والمغامِرِيْنَ كَأَعْشَى

---

[1] ديوانه، ص ١٠٨ – ١١٠.

[2] ديوانه، ص ٤٧٥ – ٤٧٨.

هَمْدَانَ[1]، ومَالِكِ بْنِ الرَّيْبِ[2] والطِّرِمَّاحِ[3]. بَلْ لَرُبَّما رَجَعَ أَصْلُهُ إلى مُعَلَّقاتِ امْرِئِ القَيْسِ وطَرَفَةَ وعَنْتَرَةَ. وشَاعَ اسْتِخْدَامُهُ وفَشَا في حَوالَيْ النِّصْفِ الثاني مِنَ القَرْنِ الثَّالِثِ مِنَ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ بِسَبْقٍ مِنَ البُحْتُرِيِّ. وقَدْ كانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أنْ يُصْبِحَ هذا الشَّكْلُ مِنَ الشِّعْرِ مُفَضَّلاً لَدَى الشُّعَراءِ الذِينَ لَمْ يَكُونُوا في حَاجَةٍ تُذْكَرُ لِلنَّظْمِ في المدِيحِ كابْنِ المعْتَزِّ وأَبِي فِرَاسٍ[4] والشَّرِيْفِ الرَّضِيِّ.

---

[1] الأغاني ج ٥ ص ١٤٦–١٦١؛ وُلِدَ في أَوَاخِرِ خِلافَةِ عُمَرَ في ٢٢هـ وقَتَلَهُ الحجَّاجُ سَنَةَ ٧٧هـ وفِي الأغانيّ قَصِيْدَتانِ لَهُ طَوِيْلَتَانِ.

[2] جَمْهَرَةُ أشْعارِ العَرَبِ، لِلْقُرَشِيِّ، بولاق ١٣٠٨هـ ص١٤٣– ١٤٥. تَمِيمِيٌّ مِنَ الشُّعَراءِ الإسْلامِيِّيْنَ، كان شجاعاً فاتِكاً وقاطِعَ طَرِيْقٍ لا يَنامُ إلاَّ مُتَوَشِّحاً سَيْفَهُ. خَرَجَ مَعَ سَعِيدِ بْنِ عُثْمانَ بْنِ عَفَّانَ مُجاهِداً بِأَرْضِ خُراسَانَ وعِنْدَ عَوْدَتِهِ مَرِضَ في الطَّرِيْقِ مَرَضاً شَدِيداً أَحَسَّ مَعَهُ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ فَنَظَمَ قَصِيْدَتَهُ اليَائِيَّةَ الشَّهِيرَةَ يَرْثِي بِها نَفْسَهُ وهِيَ مِنْ فاخِرِ المراثِي ومِنْ أَجْمَلِ ما نُظِمَ في رِثا المرْءِ نَفْسَهُ إنْ لَمْ يَكُنْ أَجْمَلَهُ على الإطْلاقِ:

أَلا لَيْتَ شِعْرِيَّ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِجَنْبِ الغَضَا أُزْجِي القِلاصَ النَّوَاجِيَا

(التُّرْجُمان)

[3] نفسه ص١٩٠. الطِّرِمَّاحُ بْنُ حَكِيْمٍ، طائِيٌّ ثُمَّ قَحْطانِيٌّ، مِنَ الشُّعَراءِ الأَمَوِيِّيْنَ وُلِدَ بالشَّامِ وماتَ بِالكُوْفَةِ، ومَعَ أَنَّهُ كانَ مِنَ الخَوارِجِ الذين عُرِفُوا بِأَنَّهُمْ أَهْلُ جِلادٍ وقِتالٍ وفِيهِمْ غِلْظَةٌ وتَشَدُّدٌ إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يُرْوَ عَنْهُ أَنَّهُ شارَكَهُمْ فِي قِتالٍ قَطُّ، بَلْ رَوَوْا أَنَّهُ كانَ رَقِيقَ الحاشِيَةِ لَطِيفاً عالِيَ الهِمَّةِ حَتَّى إِنَّهُ كانَ صَدِيقاً مُقَرَّباً لِلْكُمَيْتِ بْنِ زَيْدٍ الأَسَدِيِّ، لا يَكادُ يُفارِقُهُ مَعَ أَنَّهُ كانَ يَخْتَلِفُ عَنْهُ اخْتِلافاً شَدِيْداً، إذْ كانَ هُوَ شامِيّاً قَحْطانِيّاً خارِجِيّاً وكانَ الكُمَيْتُ عِراقِيّاً عَدْنانِيّاً شِيعِيّاً، وقَدْ كانَ ذَا أَنِفَةٍ فَلَمْ يَمْدَحْ مُتَكَسِّباً بِشِعْرِهِ وإنْ كانَ مَدَحَ مِنْ أُمَراءِ العِرَاقِ يَزِيدَ بْنَ المهَلَّبِ وخالِدَ بْنَ عَبْدِاللهِ القَسْرِيَّ، وكِلاهُما كان قَحْطانِيّاً، ويُعْجِبُنِي مِنْ شِعْرِهِ، وهُوَ مِنْ جَيِّدِهِ:

لَقَدْ زَادَنِي حُبّاً لِنَفْسِيَ أَنَّنِي ... بَغِيضٌ إلى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طائِلِ
وأَنِّي شَقِيٌّ بِاللِّئَامِ ولا تَرَى ... شَقِيّاً بِهِمْ إلاَّ كَرِيْمَ الشَّمَائِلِ
إذا ما رآنِي قَطَّعَ الطَّرْفَ بَيْنَهُ ... وبَيْنِي فِعْلَ العارِفِ المتَجاهِلِ

(التُّرْجُمان)

[4] هُوَ الحارِثُ بْنُ سَعِيْدٍ، انْظُرْ يَتِيمَةَ الدَّهْرِ ج ١ ص٢٢. وانظر، كَذَلِكَ (العاطِفَةُ والغِنائِيَّةُ في اللُّزُومِ) بالفَصْلِ السَّادِسِ مِنْ كِتابِنا هَذا

ولَقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاء هَذَا الشَّكْلَ مِنَ الشِّعْرِ، عَلَى النَّحْوِ الذي ذَكَرْنا، في ثَلاثٍ مِنْ أطْوَلِ قَصَائدِهِ[1] وأمَّا بَقِيَّةُ شِعْرِهِ فَهِيَ، باسْتِثْنَاءِ القِطْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ رُبَّما أغْفَلْناهُما[2]، شَيْءٌ بَيْنَ (المعَلَّقَةِ المحْدَثَةِ) وقَصِيْدَةِ المدِيْحِ الإخْوَانِيَّةِ. وقَدِ اسْتَخْدَمَ الشَّاعِرُ ما كانَ مَعْرُوفاً مِنْ (نَسِيبٍ) و(وَصْفٍ)[3] و(رِحْلَةٍ) بِأُسْلُوبٍ يُوْشِكُ أنْ يَكُونَ شَخْصِيّاً. وذَلِكَ بِأَنْ يَعْمِدَ إلَى مَسَائِلَ تَجْمَعُ بَيْنَ الشَّاعِرِ وأصْدِقائِهِ، وبِذَلِكَ تَتَحَوَّلُ الأشْكالُ التَّقْلِيدِيَّةُ المذْكُورَةُ مِنْ نَسِيبٍ ووَصْفٍ ورِحْلَةٍ إلى وَسَائِلَ وأَدَوَاتٍ تَصِلُهُ إلى اسْتِطْرَاداتٍ تَتَّسِمُ بِالذَّكَاءِ وسُرْعةِ البَدِيْهَةِ وتُظْهِرُ سَعةَ عِلْمِهِ بِهِ وتَبَحُّرَهُ فِيهِ. فَفِيْ قَصِيدَتِهِ التي نَظَمَها لِابْنِ فُوْرُّجَةَ، عَالَجَ الجُزْءَ مِنْها الخاصَّ بِالنَّسِيبِ عَلَى نَحْوٍ غَلَبَ عَلَيْهِ التَّعْبِيرُ عَنْ تأمُّلاتٍ سَوْدَاوِيَّةٍ في الحَيَاةِ عَلَى نَحْوِ ما صَنَعَ في شِعْرِهِ لَاحِقاً. ثُمَّ إنَّهُ قَدْ وَجَدَ في الجُزْءِ الخاصِّ بِالمدِيحِ فُرْصَةً سانِحَةً لِيُظْهِرَ بَرَاعَتَهُ اللُّغَوِيَّةَ وإحَاطَتَهُ بِلُغَةِ العَرُوضِيِّينَ والهَنْدَسَةِ الإقْلِيدِسِيَّةِ[4]. وفِي قَصِيْدَتِهِ التي رَثَا بِها ذا المنَاقِبِ، ضَمَّنَ مُقَدِّمَتَها إشاراتٍ إلى شُعَراءَ جاهِلِيِّينَ أمْثالِ سُحَيْمٍ وخُفافٍ اللَّذَيْنِ كانا يَحظَيَانِ بِتَقْدِيرٍ عِنْدَ الكُتَّابِ لِمَا كانَ يَتَّصِلُ بِحَياتِهِما مِنْ أحادِيثَ لِطافٍ وحكاياتٍ طِرافٍ[5].

---

[1] (طَرِبْنَ) سَقْطَ الزَّنْدِ ج ١ ص ٤٣٨، و(مَغَانِي اللِّوَى) ص ٤٦، و(نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ) ص ٦٨.

[2] سقط الزند ج١، ص ١٣٧-١٣٩، وج٢، ص ١٤-١٥.

[3] وَصْفَ الأشياءِ المرْئِيَّةِ كالنُّجُومِ مَثَلا، انظُرْ سَقْطَ الزند، ج٢، ص١٠٠

[4] انظر سقط الزند، ج ٢، الصفحات ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، و٨٦

[5] وَرَدَتِ الإشارةُ إليهما في بَيْتِ أبي العَلاءِ:

لا خابَ سَعْيُكَ مِن خُفافٍ أسْحَمٍ　　　كَسُحَيْمٍ الأَسَدِيِّ أو كَخُفافِ

وسُحَيمٌ عبدُ بني الحَسْحاس، وُلِدَ في الجاهِلِيَّةِ وقتِلَ في زمانِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، وبنو الحسحاس بَطْنٌ مِن بَني أسَدٍ، كان أسودَ نوبِيّاً، وشاعِراً مُفلِقاً يُجِيدُ الغَزَلَ، قُتِلَ بِسبَبِ شِعْرِهِ الغَزَلِيِّ. وخفافُ بنُ نُدْبة أحَدُ فِرسانِ العَرَبِ الأشدَاءِ وشُعَرائِها الكبارِ، وأحدُ أغْرِبَتِها لِسوادِهِ، ابن عمِّ الخنساءِ الشاعِرة وصخرٍ ومعاوِيةَ، شَهِدَ مَعركةَ حُنَيْنٍ، ماتَ في خِلافة عُمر. (المترجم)

وعَلَى نَحْوِ ما يُمْكِنُ مُلاحَظَتُهُ، فإنَّ شَكْلَ القَصِيدَةِ الذي اسْتَخْدَمَهُ المعَرّيُّ في قَصَائدِهِ الشَّخْصِيَّةِ أوِ الخاصَّةِ وذَلِكَ الذِي اسْتَخْدَمَهُ في إخْوانِيّاتِهِ مُتقارِبانِ أَشَدَّ التَّقارُبِ. ويُؤَكِّدُ هذا التَّقارُبَ والتَّشابُهَ بَيْنَ شَكْلَيْ القصائِدِ الشَّخْصِيَّةِ وتِلْكَ الإخْوَانِيَّةِ مِنْ شِعْرِ المعَرّيِّ صِفَةٌ مُمَيِّزَةٌ شاعَتْ فِيهِما جَمِيعاً وهِيَ اسْتِعْمالُ المعَرّيِّ أُسْلُوباً عُرِفَ عِنْدَ النُّقّادِ العَرَبِ (بِالجَزَالَةِ).

وقَدْ تَوَسَّعَ هَؤُلاءِ النُّقّادُ العَرَبُ في اسْتِخْدَامِ مُصْطَلَحَيْ (الجَزَالَةِ) و(الرِّقَّةِ) في كِتاباتِهِمْ. وتُعَدُّ صِفَةُ الجَزَالَةِ هَذِهِ عُنْصُراً أصِيلاً ومُكَوِّناً مِنْ مُكَوِّناتِ القَصِيدة في مَوْضُوعِها وشَكْلِها جَمِيْعاً[1]، ولَكِنَّ صِلَتَها بِمَوْضُوعِ القَصِيدة تَبْدُو عَرَضِيَّةً؛ وعلى ذَلِكَ فَيُمْكِنُنا مَعالجتُها على أنَّها جانِبٌ شَكْلِيٌّ في القَصِيدَةِ. وقَدِ اسْتُخْدِمَ مُصْطَلَحُ الجَزَالَةِ فِي الأصْلِ لِيَدُلَّ عَلَى صِفَةِ الذُّكُورةِ بِسبَبِ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ القَوِيَّةِ الشَّدِيدَةِ، وبِهَذَا المعْنَى فالجَزَالَةُ تُضادُّ مُصْطَلَحَ الرِّقَّةِ التي كانَتْ تَدُلُّ عَلَى صِفَةِ الأُنُوثَةِ مُوْحِيَةً بِمَعَانِي اللَّطَافَةِ والنُّعُومَةِ واللُّيُونَةِ مِمَّا هُوَ لازِمٌ وجَوْهَرِيٌّ في المَوْضُوعاتِ المتَّصِلَةِ بِالعِشْقِ والغَرَامِ والتَآلِيْفِ ذَاتِ الشَّجْوِ الطَّرُوبِ والغِنَاءِ العَذْبِ.

ومَعَ هَذا فَلَمْ تكُنِ المقابَلَةُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ جِدَّ واضِحةٍ. فَعَلَى حِينَ يُمكنُ تحقُّقُ نَسِيبُ جَرِيْرٍ بِصِفَةِ الرِّقَّةِ، وفَخْرُ الفَرَزْدَقِ بِصِفَةَ الجَزَالِةِ، اقْتَضَى شِعْرُ الغَزَل عِنْدَ كُثَيِّرٍ[2]، مَثَلاً، التَّحَقُّقَ بِالصِّفَتَيْنِ جَمِيعاً، ومَرَدُّ ذَلِكَ هُوَ مَسْحةُ التَّفْكِيرِ والعَقْلانِيَّةِ في أشْعَارِ الأخِيرِ.

---

[1] تَعْنِي الجَزَالَةُ الضَّخَامَةَ والفَخَامةَ، وتَعْنِي الرِّقَّةُ النَّحافةَ والنُّحُولَ.

[2] كُثَيِّرُ بْنُ عبدِالرَّحْمَنِ مِنْ كِبارِ شُعَرَاءِ العَصْرِ الأمَوِيّ،عُرِفَ بِحُبِّهِ لِعَزَّةَ التي وَقَفَ عَلَيها مُعْظَمَ شِعْرِهِ وبِحُبِّهِ وتحيُّزِهِ لِآلِ عَليٍّ (الأغاني ج٨ ص٢٧-٤٤)

هذا ويَبْدُو أنَّ هَذَيْنِ المعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ يُعطيانِها مُصْطَلَحا (الرِّقَّةِ) و(الجَزالَةِ) قَدْ تَغَيَّرا لَدَى شُعَراءِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ؛ إذْ صارَتِ (الجَزالَةُ) تُسْتَخْدَمُ لِتَدُلَّ عَلَى اتِّباعِ أساليبِ الكَلامِ وأَلْفاظِهِ الصافيةِ، أيْ اسْتِخْدامِ لُغَةِ شُعَراءِ ما قَبْلَ العَصْرِ العبَّاسيِّ. وقَدْ تُرِكَتِ الفُحُولَةُ التي كانَتِ المعْنَى الحَقَّ لِلَفْظَةِ الجَزالَةِ جَرْياً مَعَ هَوَى النُّقَّادِ. ولِهَذا السَّبَبِ كانَ عَلَى كُلٍّ مِنْ أبِي تَمَّامٍ والمتَنَبِّي أنْ يُواجِها عَدَمَ اسْتِحْسَانِ النُّقَّادِ لِجَزالَتِهِما بِالمعْنَى الأَصِيلِ لِلْجَزالَةِ، عَلَى حِسابِ سَلامَةِ اللُّغَةِ وصفائِها. غَيْرَ أنَّ (الرِّقَّةَ) كانَتْ قَدِ احْتَفَظَتْ بِمَعْناها الأصِيلِ فِي بَعْضِ الاعتبارات وأُضِيفَ إِلَيْهِ صِفَةُ التعبيرِ المهذَّبِ الجَدِيدَةُ.

ومَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ نَجَحَ بَعْضُ الشُّعَراءِ فِي اتِّباعِ أُسْلُوبِ الجَزالَةِ بِمَعْناها العَبَّاسِيِّ دُوْنَما جُنُوْحٍ إِلَى الحُوْشِيِّ المهْجُورِ مِنَ اللُّغةِ وبَلا تَكَلُّفٍ أو تَحَذْلُقٍ. مِنْ هَؤُلاءِ البُحْتُرِيُّ وأبو فِراسٍ. بَلْ إنَّ هَذَا الأخِيرَ مِنهُما كانَ قَدْ وُفِّقَ إلى إنْشَاءِ رُوحٍ مِنَ السَّلاسَةِ واللَّطافَةِ مَزَجَ بِهِ ما كانَ عُرِفَ بِهِ مِنْ رُوحِ الفُرُوسِيَّةِ والبُطُولَةِ وما عُرِفَ بِهِ مِنْ صَفاءِ اللَّفْظِ وسلامتِهِ. وقَدْ مَثَّلَ هُوَ والبُحْتُرِيُّ كِلاهُما المثالَ الأعْلَى والنَّمُوذَجَ المحْتَذَى لِلشُّعَراءِ بالنَّظَرِ إلى مَقَايِيسِ عُلَماءِ اللُّغةِ ومَعَايِيرِهِمْ، فَضْلاً عَمَّا حَظِيا بِهِ مِنَ التَّقْديرِ الكَبِيرِ وما احْتَلَّاهُ مِنْ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ في عالَمِ الأَدَبِ.

فأمَّا أبو العلاءِ، فَلِأنَّهُ كان حَرِيصاً عَلَى أن يُقِرَّ لَهُ الشُّعَراءُ بِالسَّبْقِ والفَضْلِ وكَذا العُلَماءُ، فَقَدْ قادَهُ ذلِكَ على نَحْوٍ طَبِيعِيٍّ لِأَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ كُلٍّ مِنْ أبِي فِراسٍ والبُحْتُرِيِّ ويَنْحُوَ نَحْوَهُما فِي الأُسْلُوبِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ تَحَيُّزِهِ لِأبِي تَمَّامٍ والمتنبِّي. وهُنا كانَ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ، أنْ يَعْمِدَ إلى طَرِيقَةٍ تَوَافُقِيَّةٍ، ولِيَتِمَّ لَهُ ذلِكَ فقَدْ صارتِ الجَزالَةُ عِندَهُ مَزِيجاً دَقِيقاً مِنْ حَيَوِيَّةِ المتَنَبِّي وشِدَّةِ أسْرِهِ، وصَفاءِ البُحْتُرِيِّ، وسُمُوِّ أبي فِراسٍ ونُبْلِهِ، وتَعَمُّقِ أبي تَمَّامٍ ونَزْعَتِهِ التَّفَكُّرِيةِ. ونَتِيجَةً لِذَلِكَ فَقَدْ جاءَ شِعْرُهُ يَشُوبُهُ شَيءٌ مِنِ اسْتِخْدَامِ الحُوْشِيِّ المهْجُورِ مِنَ الألْفاظِ وبِدَرَجَةٍ أَقَلَّ مِنهُ الحَذْلَقَةُ في الأُسْلُوبِ؛ وقَدْ جاءَ

عُموماً بَعِيداً عَنْ حَاقِ السُّهُولةِ مُقارَنَةً بِالشِّعْرِ المعَاصِرِ لَهُ. ومِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نُلاحِظَ أنَّ في كُلِّ شِعْرِهِ الذي نَظَمَهُ بِبَغْدادَ جاءَتْ بِضْعَةُ تَعَابِيْرَ كانَ يُمْكِنُ أنْ يُطْلِقَ عَلَيْها ناقِدٌ تَقْليدِيٌّ (غَيْرَ شِعْرِيَّةٍ)، وهِيَ:

١) مَعَانيكِ شَتَّى والعِبَارَةُ واحِدٌ[١]

٢) حُرُوفُ سُرىً جاءَتْ لِمَعْنىً أردْتُهُ[٢]

٣) بُنيتْ على الإيطاءِ سالِمَةً من الإقْواءِ[٣]

٤) وأنْتَ فِكاكُ دائِرَتَيْ قَرِيضٍ وهَنْدَسَةٍ[٤]

والحقُّ أنَّهُ مِنَ الآنَ فَصاعِداً، صارَ إيْثَارُ العُسرِ والصُّعُوبةِ عَلَى اليُسْرِ والسُّهُولَةِ سِمَةً طبَعَتْ شِعْرَ أبي العلاء. ومِنْ حُسْنِ حَظِّهِ وحَظِّ جُمْهُورِهِ في بَغْدادَ، أنَّ هَذِهِ النَّزْعَةَ في مَرَاحِلِ تَطَوُّرِها، إنَّما جَعَلَتْ تَظْهَرُ قُبَيْلَ مُغادَرتِهِ، وبَلَغَتْ ذِرْوَتَها في أُخْرَياتِ قَصائِدِهِ من سَقْطِ الزَّنْدِ بَعْدَ رُجُوعِهِ المعَرَّةَ. وفي قصائِدِ أبي العلاء البَغْدَادِيَّةِ، كانَ مَوْضُوعُ القَصِيدَةِ طَرِيفاً مُسْتَحْدَثاً في كَثِيرٍ مِنْ جَوَانِبِهِ مُقارَنَةً بِالقصائِدِ التي نَظَمَها قَبْلَ مَجِيْئِهِ بَغْدادَ. لقَدْ داخلَتْ (شِعْرَ)[٥] أبي العلاءِ في بَغْدَادَ مَسْحَةُ الرُومَانْسِيِّ. وفِيْها يَبْدُو العالَمُ بِأَسْرِهِ يَدُورُ حَوْلَ شَخْصِهِ ومُبْتَكَراتِهِ ومِن يَوَدُّ مِنَ الرِّفاقِ والصَّحْبِ، وابْتِهاجِهِ وحالاتِ تَفْكُّرِهِ العَمِيقِ الحزينِ. وظَهَرُ ذَلِكَ في مَوْضُوعاتِ شِعْرِهِ وما تَضَمَّنَهُ مِنْ لُغةٍ مَجازِيَّةٍ. ويُمْكِنُنا تَقْسِيمُ مَوضُوعاتِهِ إلى قِسْمَينِ:

١. المَوْضُوعاتِ التي تُمَثِّلُ الأغْراضَ الرَّئِيْسَةَ التي مِنْ أجْلِها نَظَمَ قصائِدَهُ.

---

[١] سقط الزند، ج ٢، ص ٤٧.

[٢] نفسه ص ٥٤.

[٣] نفسه ص ٥٨.

[٤] نفسه ص ٨٦.

[٥] ما بَيْنَ القَوْسَيْنِ تَقْدِيرٌ مِنَ المتَرجِمِ لِعَبَارَةٍ أو كَلِمَةٍ تَبْدُو مَحْذُوفةً مِنَ الأصْلِ ص ١٣٥

٢. مَوْضُوعاتٍ يُمْكِنُنا أنْ نُطلِقَ عَلَيْها – هُنا – المَوْضُوعاتِ الرَّسْمِيَّةَ.

ويَنْدَرِجُ تَحْتَ القِسْمِ الأوَّلِ مِنْ هَذَيْنِ القِسْمينِ أمْثَالُ مَوْضُوعاتِ الحَنِينِ إلى المعَرَّة، وحُزْنِهِ لِفِراقِهِ بَغْدَادَ، واسْتِيائِهِ مِنْ صَدِيقٍ لَمْ يَعُدْهُ في مَرَضِهِ. فَقَدْ صَوَّرَ أبو العلاء ما أَلَمَّ بِهِ مِنْ تَغَيُّراتٍ وتَقَلُّباتٍ تَصْوِيراً غايَةً في الصِّدْقِ. فَهُوَ قَدْ صَوَّرَ حُبَّهُ لِبَغْدادَ (أيْ حبَّهُ لِلثَّقَافةِ والجَديدِ فِيْها مِنَ البِيئَةِ والصَّحْبِ والفوائدِ) في قَصِيدَةِ الوَدَاعِ[1] تَصْوِيراً ناضِراً نابِضاً بِالحَيَوِيَّةِ والبَيانِ. كَمَا أَنَّهُ قَدْ خَلَّدَ في قَصِيدَتَيْهِ اللامِيَّتَيْنِ[2] حُبَّهَ لِلْمَعَرَّةِ (وهُوَ حُبُّ شيْءٍ مَوْقُوفٍ عَلَى الوَطَنِ). وقَدْ ظَهَرَتْ كِبْرِيَاؤُهُ واعْتِزازُهُ بِنَفْسِهِ ورَفْضُهُ لِلعطاءِ وفِرَارُهُ مِنَ المنِّ في قَصِيدَتِهِ في رِثاءِ الشَّرِيفِ وفِي قَصِيدَتَيْهِ (طَرِبْنَ) و(مَغانِي اللِّوَى). فَهُو في المرْثِيَةِ قد أفاضَ في مَدْحِ سَماحِ كُلٍّ مِنَ الرَّضِي والمرْتَضَى وكَرَمِهِما وبَسالَتِهِما وتَمَيُّزِهِمَا الأَدَبِيِّ، ولَكِنَّهُ عادَ فَنَوَّهَ بِفَضْلِهِ هُوَ وأَكَّدَ ما لَهُ مِنْ عَظَمَةٍ لَمَّا أعْلَنَ أَنَّهُ لا يَرْتَجِي عَطاءً ولا يَطْلُبُ مِنْحَةً، ولَمَّا ذكَرَ لَهُما أَنَّهُ لَوْ كانَ يُماثِلُهُما ثَراءً لَكَانَ أَرْسَلَ إِلَيْهِما هَدِيَّةً أعْلَى قِيمَةً مِنْ شِعْرِهِ المتَواضِعِ تُناسِبُ مَنْزِلَتَهُما الرَّفِيْعَةَ[3]. ولَمْ يَكُنْ مَدْحُهُ لَهُما مِنْ قَبِيلِ مَدْحِ المتَكَسِّبِينَ ولَكِنَّهُ كان مَدْحَ مَنْ يَطمَحُ لِأنْ يَكُونَ لَهُما نِدّاً ونَظِيْراً. لَقَدْ كانَ مَدِيحاً جَلِيلاً صادِقاً مَعاً. وفِي قصائدِهِ التي كَتَبها لِابْنِ فُورَّجَةَ التَّنُوخِيِّ والبَرْقِيِّ أظْهَرَ لَهُما فِيْها حَرارَةَ الوُدِّ والفُكَاهَةَ وخِفَّةَ الظِّلِّ. غَيْرَ أَنَّ الشُّعُورَ الأصِيلَ المسْتَكِنَّ في هَذِهِ القَصَائِدِ كانَ ضَرْباً مِنَ الحُزْنِ قَدْ قارَبَ التَّشَاؤُمَ. فَفِي القَصِيدَةِ التي كَتَبَها يُهَنِّئُ التَّنُوخِيَّ بِمِيلادِ طِفْلٍ لَهُ، شَكَا مِنْ وَحْدَتِهِ ووَحْشَتِهِ، وكَشَفَ عَنْ شُعُورِهِ المناقِضِ لِرَغْبَتِهِ في الإقَامَةِ بِبَغْدَادَ[4]:

---

[1] سقط الزند، ج١، ص ٦٨ – ٨٠.

[2] هُما قَصِيْدَتاهُ (طَرِبْنَ) و(مَغَانِي اللِّوَى)، سَقْطُ الزَّنْد، صَفحَتَيْ ٣٨ و٤٦ من الجزء ٢.

[3] سقط الزند ج ٢، ص ٦٥-٦٦

[4] نفسه ص ٦٨

هَناءٌ من غَرِيْبٍ أو قَرِيْبٍ كِلا وَصْفَيْهِ حَقٌّ لا فَرِيُّ

ولَولا ما تُكَلِّفُنا اللَّيالِي لَطالَ القَوْلُ واتَّصَلَ الرَّوِيُّ

ولَكِنَّ القَرِيْضَ لَهُ مَغانٍ وأَوْلاها بِهِ الفِكْرُ الخَليُّ

إذا نأتِ العِراقَ بِنَا المطَايا فلا كنَّا ولا كانَ المطِيُّ

عَلَى الدُّنْيا السَّلامُ، فما حَياةٌ إذا فارقْتُكُمْ إلَّا نَعِيُّ[1]

وفي قَصِيْدَتِهِ التي أجابَ فِيْها ابْنَ فُوْرُّجَةَ عَلَى قَصِيْدَتِهِ، أظْهَرَ يأْسَهُ مِنْ أنْ يَجِدَ إلى طِيبِ الحَياةِ سَبِيلاً، أوْ أنْ تتحقَّقَ لَهُ فِيها غايةٌ، وذَهَبَ فِيْها إلى أنَّ الحَياةَ مَقْصُورةٌ عَلَى أحَدِ الرَّجُلَيْنِ، مَلِكٍ ذِي حَظٍّ مِنْها وافرٍ، أوْ رَاهبٍ قد زَهِدَها وعَنْها تَوَلَّى[2]:

تَأَمَّلْنا الزَّمان فَمَا وَجَدْنا إلى طِيْبِ الحَيَاةِ بِهِ سَبِيلا

ذَرِ الدُّنْيا إذا لَمْ تَحْظَ مِنْها وكُنْ فِيْها كَثِيْراً أوْ قَلِيلا

وأصْبِحْ وَاحِدَ الرَّجُلَيْنِ إمَّا مَلِيْكاً في المعَاشِرِ أوْ أَبِيلا

وتَنْتَهِي القصيدةُ بِقِطْعَةٍ حَزِيْنَةٍ يُعَبِّرُ فِيْها الشَّاعِرُ عَنِ امْتِنانِهِ لابْنِ فُوْرُّجةَ ويُظهِرُ حَسْرَتَهُ وأَسَفَهُ أنْ حِيلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَغبَتِهِ في الإقامةِ بِبَغْدادَ[3]:

وَرَدْنا مَاءَ دِجْلَةَ خَيْرَ مَاءٍ وزُرْنا أشْرَفَ الشَّجَرِ النَّخِيلا

وزُلْنَا بِالغَلِيْلِ ومَا اشْتَفَيْنا وغايَةُ كُلِّ شَيْءٍ أنْ يَزُولا

ولَوْ لَمْ أَلْقَ غَيْرَكَ في اغْتِرَابِي لَكانَ لِقَاؤُكَ الحَظَّ الجَزِيلا

سَتَحْمِلُ ناجِيَاتُ العِيْسِ مِنِّي صَدِيْقاً عَنْ وِدَادِكَ لَنْ يَحُولا

---

[1] هَذِهِ هِيَ الأبياتُ التي تحدَّثَ عَنْها المؤلِّفُ، ولَمْ يَكُن أوْرَدَها في الأصْلِ، فَجِئْنا بِها لِتَمامِ الفائدةِ ولِمَزِيدِ الإيضاحِ لِكلامِ المؤلِّفِ ولِوَصْلِ الكلامِ لِلْقارئِ الكَرِيمِ، (الترجمان)

[2] نفسه ص ٨١

[3] نفسه ص ٨٦-٨٧

يُؤَمِّلُ فِيْكَ إسْعَافَ اللَّيَالِي وَيَنْتَظِرُ العَوَاقِبَ أنْ تُدِيلا

وفي القَصِيدَةِ التي كَتَبَها أبو العلاء لِلبَرْقِيِّ، عاتَبَهُ فِيْها ولاَمَهُ لَوْماً فِيهِ لِيْنٌ وتَلَطُّفٌ؛ لِأنَّ البَرْقِيَّ هذا كانَ قدْ طَلَبَ إلى شاعِرِنا طَلَباً فِيهِ رُعُونةٌ وعَبَثٌ، إذْ سأَلَهُ أنْ يُجارِيَهُ في نَظْمِ قَصِيدَةٍ خَمْرِيَّةٍ يَصْفِ فيها المُدامَ، عَلَى حِيْنِ أنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أنَّ شاعِرَنا مَرِيضٌ وفي حاجَةٍ إلى مَنْ يَعُودُهُ [ولَمْ يَكُنِ البَرْقِيُّ قَدْ عادَهُ] لا مَنْ يَطْلُبُ إلَيْهِ المجَاراةَ والمنافَسَةَ[1]:

أَمُعَاتِبِي فِي الهَجْرِ إنْ جَارَيْتَنِي طَلْقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ

حُوْشِيْتَ مِنْ شَكْوَى تُعادُ وإنَّما شَكْواكَ مِنْ نَظَرٍ بِدِجْلَةَ عَارِمِ

فاكْفُفْ جُفُونَكَ عَنْ غَرائِرِ فَارِسٍ فالضَّرْبُ يَثْلِمُ فِي غِرارِ الصَّارِمِ

وعِيادَةُ المَرْضَى يَراها ذُو النُّهَى فَرْضاً ولَمْ تُفْرَضْ عِيادَةُ هَائِمِ

تَصِفُ المُدَامَةَ فِي القَرِيْضِ وإنَّما صِفَةُ المُدَامِةِ لِلْمُعَافَى السَّالِمِ

ثُمَّ يُخْبِرُ أبو العلاءِ البَرْقِيَّ أنَّهُ مِمَّا لا مَعْنَى لَهُ أنْ يَكْتُبَ لَهُ قَصِيدَةً فِي وَصْفِ الرَّاحِ ومَدْحِها وهُوَ الذي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ تَعاطَاها؛ إنَّما كانَ شُرْبَهُ الماءُ، ولَمَّا كانَ ذَلِكَ الفَصْلُ شِتَاءً، فَعادَةً ما كانَ يُغَطِّي كُوْزَهُ رقائِقُ الثَّلْجِ فَتُصَيِّرَ مَشْرُوبَهُ مِنَ الماءِ كأنَّهُ قِطَعٌ مِنَ الدَّرَاهِمِ:

والماءُ وِرْدِي لَا تَزَالُ نَوَاجِذِي فِي مُنْتَضَاهُ سَوَابِحاً كَأَوَازِمِ

يُمْسِي ويُصْبِحُ كُوْزُنا مِنْ فِضَّةٍ مَلأَتْ فَمَ الصَّادِي كُسُوْرَ دَرَاهِمِ

ثُمَّ يَصِفُ حالَهُ المتَوَاضِعَةَ ويَشْكُرُ صَدِيقَهُ عَلَى امْتِدَاحِهِ إيَّاهُ[2]:

بِمَحِلَّةِ الفُقَهاءِ لا يَعْشُو الفَتَي نارِي ولا تُنْضِي المطِيَّ عَزَائِمِي

---

[1] سقط الزند، ج٢، ص ٩٨

[2] نفسه ص ٩٩ — ١٠٠.

وَلَقَدْ أَبِيْتُ مَعَ الوُحُوْشِ بِبَلْدَةٍ   بَيْنَ النَّعائِمِ فِي نَسِيْمِ نَعَائِمِ
وتَسُوفُ رَائِحَةَ الخُزَامَى أَيْنُقِي   فَتَقُوْدَها ذُلُلاً بِغَيْرِ خَزَائِمِ
ويَزُوْرُنِي أَسَدُ العَرِيْنِ وقَدْ هَمَى   أَسَدُ النُّجُوْمِ عَلَى الرُّبَى بِهَمَائِمِ
غَرْثَانَ يَقْتَنِصُ الظِّبَاءَ وماطِراً   يُرْعِي الظِّباءَ بِكُلِّ نَوْءٍ سَاجِمِ

وقَدْ ظَهَرَتْ بَرَاعةُ أبي العلاء وتَجَلَّى ذَكَاؤُهُ فِي ما اسْتَخْدَمَ فِي هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ مِنَ الكِنَاياتِ والإشاراتِ والتَّلْمِيْحاتِ والتَّلاعُبِ بِالألفاظِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ[1]:

وتَقْتُلُ أمَّ لَيلَى أمُّ عَمْرٍو   لِمَنْ يَغْذُو سَمِيَّتَها قَتِيلا

وحِسُّ النُّكْتَةِ يَكْمُنُ خَلْفَ أغْلَبِ الأبْيَاتِ، غَيْرَ أنَّهُ لا يَجِدُ حَظَّهُ من التَّعْبِيرِ والظُّهُورِ عَلَى نَحْوٍ مُكْتَملٍ لِطُغْيَانِ عَواطِفِ الحُزْنِ والأسَى. ولَعَلَّكَ تُحِسُّ شَيْئاً مِنْ هذا فِي وَصفِهِ نارَهُ المتَقَلِّبَةَ ذَاتَ البَدَواتِ[2]:

ولَدَيَّ نارٌ لَيتَ قَلْبِي مِثْلُهَا   فَيَكُونَ فاقِدَ وَقْدَةٍ وسَخَائِمِ
عَبِثَتْ بِثَوْبِي والبِسَاطِ وغَادَرَتْ   فِي نُمْرُقِي أَثَراً كَوَشْمِ الواشِمِ

كَمَا أنَّكَ يُمْكِنُكَ أنْ تُحِسَّ رُوْحَ الفُكاهَةِ هَذِهِ فِي مَدْحِ شاعِرِنا كَرَمَ الرَّضِيِّ والمرْتَضَى وجُوْدَهُما وسَمَاحَهُما، إذْ يَقُولُ: (إنَّ النَّعامَ إذا تَضَيَّفَتْ دَارَ الشريفَيْنِ أو نُزُلَهُما فَلَسَوْفَ

---

[1] سقط الزند، ج٢، ص ٨٢

[2] سقط الزند ج٢، ص ٩٩. لَمْ يُوْرِدِ المؤَلِّفُ البَيْتَيْنِ بَلْ أَوْرَدَ شَرْحَهُما؛ وفِي الدِّيوانِ (كَوَسْمِ الوَاسِمِ) بالسِّيْنِ المهْمَلَةِ والمعْنَيَانِ مُتَقارِبانِ؛ لَكِنَّ رِوَايَةَ المؤَلِّفُ أقْوَى لأنَّ الوَشْمَ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ أظْهَرُ لِلعَيانِ مِنَ الوَسْمِ وهذا ما تَسْتَدْعِيْهِ لَفْظَةُ (أَثَر) وتَقْتَضِيهِ فِي مَعْنَى البَيْتِ؛ وأَخْفَى مِنهُما مَعاً مِن جِهَةِ اللُّغَةِ كذلكَ (الوَصْمُ) فهُو فِي مَعْناهُما غَيْرَ أنَّهُ مَعْنَوِيٌّ؛ فتأمَّلْ؛ (التُّرْجُمان).

تُكْرَمُ ويُحْمَلُ إِلَيْها الهَبِيْدُ (وهُوَ حَبُّ الحَنْظَلِ يُعالَجُ حَتَّى تَذْهَبَ مَرارَتُهُ)[1] مَعَ غَيْرِهِ مِنَ التُّحَفِ والأَلْطَافِ).

وأَمَّا القِسْمُ الثَّانِي الذي أَطْلَقْنا عَلَيْهِ المَوْضُوعاتِ الرَّسْمِيَّةَ، فَيُمْكِنُنا أَنْ نُقَسِّمَهُ كَذَلِكَ إِلى مَجْمُوْعَتَيْنِ:

١) مَجْمُوعَةِ المَوْضُوْعاتِ التي لَمْ تَطَّرِدْ ضِمْنَ مُكَوِّناتِ القَصِيدَةِ لَدَى أَغْلَبِ شُعَراءِ المَدِيْحِ العَباسِيِّينَ.

٢) مَجْمُوعَةِ المَوْضُوْعاتِ التي جاءَتْ عَناصِرَ مُنْتَظِمَةً أَوْ مُطَّرِدَةً في مُكَوِّناتِ القَصِيدَةِ لَدَى أَغْلَبِ شُعراءِ المَدِيحِ العَبَّاسِيِّيْنَ؛ ويُمْكِنُنا أَنْ نُسَمِّيَ هَذِهِ (المَوْضُوعاتِ المَأْلُوفَةَ).

فَمِثالُ المَجْمُوعَةِ الأُوْلَى مِنْ هاتَيْنِ المَجْمُوعَتَيْنِ تَصْوِيْرُهُ الحَمَامَ المغَرِّدَ، وهُوَ ما تَرَدَّدَ في أَشْعَارِهِ في هذِهِ الفَتْرَةِ، وكَذَلِكَ وَصْفُهُ النَّارَ[2] ووَصْفُهُ السَّيْفَ، وجاءَ ذَلِكَ في خَمْسٍ مِنْ قَصَائِدِهِ. وقِدْماً ارْتَبَطَتِ الحَمامةُ عِنْدَهُم بِالحَنِيْنِ إلى الوَطَنِ والدَّارِ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ دَائِمَةُ النَّدْبِ والبُكاءِ عَلَى سَلَفٍ أسطوريٍّ مِنْ أَسْلافِها الماضِينَ يُسَمَّى (الهَدِيلَ) الذي ماتَ، كَما يَرَى المَعَرِّيُّ، قَبْلَ عَهْدِ عادٍ. وقَدْ ظَهَرَ هذا المَوْضُوعُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في المَرْثِيَةِ التي رَثا بِها أَبا حَمْزَةَ، وذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِ إلى بَغْدادَ[3]. ثُمَّ استخدَمَ الشاعِرُ بُكَاءَ الحَمامَةِ ونَوْحَها يرومُ بِهِ زِيَادَةَ الشُّعُورِ بالحُزْنِ المنَاسِبِ للنَّدْبِ والرِّثاءِ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ شُعُورُ الشَّاعِرِ وتَذَوُّقُهُ (لِغِناءِ الحَمامة) واضِحاً مَحْسُوساً. فَفِي قَصَائِدِهِ التي نَظَمَها بِبَغْدادَ صارَ هذا الإِعْجابُ الشَّخْصِيُّ بِتَغْرِيْدِ الحَمامِ وصَدْحِهِ هَمّاً لَهُ ماثِلاً وغَرَضاً مُتَلَئِبّاً. فَنَراهُ في قَصِيدَةِ

---

[1] لَمْ يَرِدْ هذا التَّفْسِيْرُ فِي النَّصِّ الإِنْجِلِيْزِيِّ (المترجم)

[2] النَّارُ المَوْصُوفَةُ أُسطُورِيَّةٌ أَكثَرُ مِنْ كَوْنِهَا وَاقِعِيَّةً. وكانَتْ العَرَبُ تُوْقِدُها في زمانِ جاهِلِيَّتِها لِيَهْتَدِيَ بِها أَخُو الصَّحْرَاءِ إلى حَيْثُ يُصِيْبُ الطَّعامَ ويَحْظَى بالقِرى؛ ثُمَّ صارَتْ فِيما بَعْدُ رَمْزاً لِلكَرَمِ وكِنايَةً عَن القِرى.

[3] سقط الزند، ج١، ص ٢١١.

(مَغَانِي اللِّوَى)، قَدْ تَخَيَّلَ الحَمامةَ سَعِيدَةً جَذْلَى وهِيَ تُغَنِّي عَلَى شَجَرةٍ مأْهُولَةٍ بِبَناتِ جِنْسِها مِنَ الوُرْقِ وقَدِ ازدَهاها مَرْأَى الأَغْصَانِ المَيَّادَةِ وزَهْرِ الرَّبِيْعِ ونَوْرِهِ، غيْرَ أنَّهُ كيْفَما بَلَغَتْ أنْغامُها وغِنَاؤُها إطْرَاباً وإسْعَاداً، فَقَدْ اختارَ شَاعِرُنا أنْ يرَى هَذا الغِناءَ إعْوالاً، إذْ كانَ أضْنَاهُ الحَنِينُ إلى الوَطَنِ والأَهْلِ[1]:

وغَنَّتْ لَنا فِي دَارِ سَابُوْرَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الوُرْقِ مِطْرَابُ الأصَائِلِ مِيْهَالُ

رَأَتْ زَهَراً غضّاً فَهَاجَتْ بِمِزْهَرٍ ... مَثَانِيْهِ أحْشَاءٌ لَطُفْنَ وأوْصَالُ

فَقُلْتُ تَغَنَّيْ كَيْفَ شِئْتِ فَإنَّما ... غِناؤُكِ عِنْدِي يا حَمَامَةُ إعْوَالُ

وفِي قَصِيْدَتِهِ فِي تَوْدِيْعِ بَغْدادَ، نَرَى أنَّ طَرَبَهُ لِسَماعِهِ الحَمَامةَ قَدْ غَطَّى ما كانَ بِهِ مِنَ الحُزْنِ والأَسَى وفاضَ عَلَيْهِ؛ فابْتِهاجُ الحَمَامةِ قَدْ مَلأَ عَلَيْهِ حِسَّهُ وكِيَانَهُ، ألَا تَراهُ يَذْكُرُ أنَّ سَجْعَ الحَمَامةِ قَدْ فاقَ سَجْعَ كُهَّان الجاهِلِيَّةِ وبَزَّهُ، فَهِيَ تُجاوِبُ حَماماتٍ مِنْ بَناتِ جِنْسِها سَماوِيَّاتِ اللَّوْنِ قَدْ سَكِرْنَ مِنَ الشَّوْقِ أو سَكِرْنَ مِنَ البِتْعِ وهُوَ خَمْرُ العَسَلِ، وهِيَ خَطِيبٌ يَتَزَيَّا حُلَّةً خَضْراءَ وقَدْ عَلا أغْصاناً غَضَّةً وأفْناناً يانِعَةً[2]:

وشَكْلَيْنِ ما بَيْنَ الأثافِيِّ واحِدٌ ... وآخَرُ مُوفٍ مِنْ أراكٍ عَلى فَرْعِ

أَتَى وهُو طَيَّارُ الجَناحِ وإنْ مَشَى ... أشاحَ بما أعْيا سَطِيحاً مِنَ السَّجْعِ

يُجِيْبُ سَماوِيَّاتِ لَوْنٍ كَأَنَّما ... شَكِرْنَ بِشَوْقٍ أو سَكِرْنَ مِنَ البَتْعِ

تَرَى كُلَّ خَطْباءِ القَمِيْصِ كأنَّها ... خَطِيْبٌ تَنَمَّى في الغَضِيْضِ مِنَ اليَنْعِ

إذا وَطِئَتْ عُوداً بِرِجْلٍ حَسِبْتَها ... ثَقِيْلَةَ حِجْلٍ تَلْمِسُ العُودَ ذا الشَّرْعِ[3]

---

[1] نفسه ج٢، ص٥١.

[2] نفسه ج٢، ص ٧٠ — ٧١.

[3] أورَدْنا هذِهِ الأبياتَ ولَمْ تَرِدْ فِي الأصلِ. والشَّكلانِ أيْ المتَشابِهانِ، وأرادَ الرَّمادَ، وهُو الذِي بَيْنَ الأثافِيِّ، والحمامةَ وهِيَ الموفِي عَلَى الفرْعِ، إذْ يَتَشابَهانِ في اللَّوْنِ كما تَرَى. وسَطِيْحٌ هو رَبِيعُ بْنِ رَبِيْعةَ مِن بَنِي مازِنٍ، أزْدِيٌّ، مِن كُهَّانِ العَرَبِ المشهُورِينَ؛

(يُمْكِنُ مُقارَنَةُ هَذِهِ المعَانِي بِما جاءَ في هَذِهِ الأبْياتِ التي نُورِدُها هُنا مِنْ قَصِيدَةِ شِيْلِي الرُّومانْسِيَّةِ: (أُنْشُودَةِ القُبُّرَة)[1]:

What objects are the fountains
Of thy happy strain?
What fields or waves or mountains?
What shape of sky or plain?
What love of thine own kind?
What ignorance of pain?

أيُّ أشْيَاءٍ تَكُونُ يَنابِيعُ لَحْنِكِ الطَّرُوْبْ؟

أيُّ حُقُولٍ فِسَاحٍ أوْ أيُّ أمْواجٍ أوْ أيُّ أجْبالٍ وسُهُوبْ؟

أيُّ شَكْلٍ لِلسَّماءِ الزَّرْقاءِ

يَكُونُ، أوْ لِلأَرْضِ الفَضاءِ؟

أيُّ حُبٍّ لِبَنِي جِنْسِكِ في الأجْناس؟

وأيُّ تَجاهُلٍ لِلآلامِ عِنْدَكِ وتَناس؟

وعِنْدَ وَصْفِ النِّيْرانِ والسُّيُوفِ لا يحتفِلُ أبو العلاءِ بالجانِبِ المادِيِّ المرْئِيِّ مِنْها إلَّا قَلِيْلاً؛ فَهُوَ يَرَى النَّارَ كُتْلَةً[2] حَمْراءَ ضَخْمةً تَمْلأُ الجُزْءَ المقَدَّمَ مِنَ الإحْسَاسِ، رَامِزَةً لِلكَرَمِ والضِّيافَةِ والشَّهامَةِ العَرَبِيَّةِ التَّلِيدَةِ؛ ثُمَّ هُوَ يُخْبِرُنا أنَّها إرْثٌ تَلِيدٌ مِنْ أسْلافٍ كِرَامٍ ومَكانٌ

-ويَذْكُرونَ أنَّهُ وكاهِناً آخَرَ مَعَهُ يُسمَّى شِقّاً كانا قد تَنَبَّآ لِربيعةَ بْنِ نَصْرٍ، أحَدِ مُلوكِ حِمْيَرَ بِاليَمَنِ، ويُقالُ بَلْ لِكِسْرَى عَظِيمِ الفُرْسِ، بِبَعثةِ الرسولِ الكريمِ، في خَبَرٍ يَطُولُ. وكان سَطِيحٌ يُقِيمُ في بادِيةِ الشامِ، وشِقٌّ في الحِجازِ. هذا، وكان الكُهَّانُ يَتكلَّمُونَ سَجْعاً. وقوله: شَكِرْنَ امْتَلأنَ، أو لَعلَّهُ أرادَ اكْتَسَيْنَ شَوْقاً بَدَلَ الرِّيْشِ. والعُودُ الأُولى الغُصْنُ والثانِيَةُ الآلةُ الموسيْقِيَّةُ المعروفةُ، أيْ إذا غرَّدتْ هذِهِ الحمامةُ فكأنَّها ثَقِيْلةُ الحِجْلِ أيْ الجارِيةُ تُغَنِّي بِالعُودِ. (المترجم)

[1] مِنْ أسْماءِ القُبُّرَةِ (القَوْبع)؛ وهذا الطَّائِرُ مَعْرُوفٌ بِصَدْحِهِ الجَمِيْلِ وهُوَ يُرَفْرِفُ جَناحَيْهِ يَهُمُّ بِالطَّيَرَانِ في جَوِّ السماءِ؛ ويَتَعالَى شَدْوُهُ كُلَّما علا في طَيَرانِهِ، ويَعِيشُ في قاراتِ أُوْرُبَّا وأفْرِيْقِيا وآسيا، وأبْيَاتُ الشَّاعِرِ الجاهِلِيِّ طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ فِيها مَشْهُورةٌ، وقَدْ قارَنَ عَبْدالله الطَّيِّب بيْنَها وبَيْنَ أبياتِ شَيْلِي هَذِهِ. (التُّرْجُمان).

[2] يُخبِرُنا الذَّهبِيُّ أنَّ أبا العلاء كانَ ما يَزالُ وهُوَ شَيْخٌ قادِراً على تَذَكُّرِ لَوْنِ حُمْرَةِ النَّارِ.

يُقْصَدُ لِيُصابَ عِنْدَهُ القِرى ومَأْوىً لِلّائِذِ الخائِفِ ونُزُلٌ لِمَنْ يَطْلُبُ الرّاحَةَ[1]، وهِيَ نارٌ مُفْتَنَّةٌ تتَّصِفُ بِخاصِيَّةٍ لا يَشْرَكُها فِيْها غَيْرُها مِنَ النّيرانِ؛ إذْ هِيَ تَهَبُ بَرْداً في الصَّيْفِ ودِفْئاً في الشِّتاءِ[2]، جَوْهَرُها النُّبْلُ ونُورُها الحَقُّ ودارُها العِراقُ. وماذا عَسَى أنْ يُقالَ عَنْ هَذِهِ النّارِ إلّا أنَّها إنّما كانَتْ رَمْزاً لِكُلِّ ما عَرَفَهُ أبو العلاءِ عَلَى أنَّهُ خَيْرٌ في حاضِرَةِ العِراقِ:

المُوْقِدِي نارِ القِرَى الآصالَ والْ	أَسْحارَ بِالأهْضامِ والأشْعافِ
حَمْراءَ ساطِعَةُ الذَّوائِبِ في الدُّجَى	تَرْمِي بِكُلِّ شَرارَةٍ كَطِرَافِ
نارٌ لَها ضَرَمِيَّةٌ كَرَمِيَّةٌ	تَأْرِيثُها إرْثٌ عَنِ الأسْلافِ
تَسْقِيْكَ والأرْىَ الضَّرِيْبَ ولَوْ عَدَتْ	نَهْيَ الإلَهِ لَثَلَّثَتْ بِسُلافِ
يُمْسِي الطَّرِيْدُ أَمامَها وكَأنَّهُ	أسَدُ الثَّرَى أوْ طائِرٌ بِشَرَافِ
وإذا تَضَيَّفَتِ النَّعامُ ضِياءَها	حُمِلَ الهَبِيْدُ لَها مَعَ الألْطافِ
مُفْتَنَّةٌ في ظِلِّها وحَرُورِها	تُغْنِيْكَ في المَشْتَى وفي المَصْطافِ
زَهْراءُ يَحْلُمُ في العَواصِفِ جَمْرُها	وتَقَرُّ، إلّا هَزَّةَ الأعْطافِ
سَطَعَتْ فَمَا يَسْطِيْعُ إطْفاءً لَها	زُحَلٌ ونُورُ الحَقِّ لَيْسَ بِطافِ
تَصِلُ الوُقُودَ ولا خُمُودَ ولَوْ جَرَى	بالْيَمِّ صَوْبُ الوابِلِ الغَرّافِ
شُبَّتْ بِعالِيَةِ العِرَاقِ، ونُوْرُها	يَغْشَى مَنازِلَ نائِلٍ وإسافِ

ومِثْلُ الذي قُلْناهُ في وَصْفِ أبي العلاء لِلنّارِ يُمْكِنُنا قَوْلُهُ في وَصْفِهِ لِلسُّيُوفِ؛ فَقَدْ كانَ مُهْتَمّاً بِقِيْمَتِها الرَّمْزِيَّةِ وعُنْصُرِ ضَوْئِها ورَوْنَقِها ولَمَعانِها أكْثَرَ مِنْ مَظْهَرِها المحْسُوسِ. أَوَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ إذاً أن نَزْعُمَ أنَّهُ لَمّا كانَ أبو العلاء مَحْرُوماً مِنَ الضِّياءِ، فَقَدْ ظَهَرَ

---

[1] سقط الزند، ج٢، ص ٦٤.

[2] نفسه

اشْتِهاؤُهُ لَهُ وافْتِقادُهُ إيَّاهُ في وَلَعٍ مَهْوُوسٍ بِكُلِّ الكَلِمَاتِ التي تُوْحِي بِصِفَةِ البَرِيقِ واللَّمَعانِ؟. والأبْياتُ التَّالِيَاتُ مِثالٌ شاهِدٌ عَلَى هذا[1]

صَحِبْتُ إلَيْكُمْ كُلَّ أطْلَسَ شاحِبٍ	يَنُوطُ إلى هادِيْهِ أبْيَضَ كالرَّجْعِ
عَلَيْهِ لِباسُ الخُلْدِ حُسْناً ونَضْرَةً	ولَمْ يُرْبَ إلَّا فِي الجَحِيْمِ مِنَ الصُّنْعِ
وأبْرَزَهُ مِنْ نارِهِ القَيْنُ أخْضَراً	كأنْ غِيثَ فِيْها بالتَّلَهُّبِ والسَّفْعِ
تَلَوَّنَ لِلأَقْرانِ في هَبَواتِهِ	تَلَوُّنَ غُوْلِ الفَقْرِ لِلْعَاجِزِ المِجْعِ
تَقُولُ بَدَا في سُنْدُسٍ أو مُوَرَّدٍ	مِنَ اللِّبْسِ أو عَصْبٍ يَرُوْقُكَ أو نَصْعِ

فَهَذِهِ الأبْيَاتُ الخَمْسَةُ فِي وَصْفِ سَيْفٍ مِنَ السُّيُوفِ، احْتَوَتْ إحْدَى عَشْرَةَ كَلِمَةً مِنْ كَلِمَاتِ اللَّوْنِ. فأنْتَ تَلْمَسُ هَهُنا شَغَفَ أبي العلاء بِالضِّيَاءِ وشَوْقَهُ إِلَيْهِ.

المَوْضُوعاتُ التَّقْلِيْدِيَّةُ العَامَّةُ:

ويُمْكِنُنا تَقْسِيْمُها إلى نَوْعَيْنِ:

النَّوْعُ الأوَّلُ: المَوْضُوعاتُ التي رَامَ بِها أداءَ عاطِفَةٍ شَخْصِيَّةٍ.

النَّوْعُ الثاني: المَوْضُوعاتُ التي جاءَتْ مُتَخَلِّلَةً مَوْضُوعاتٍ أخْرَى وإنَّما جاءَ بِها أبوالعلاء هَهُنا لِتُؤَدِّيَ لَهُ نَوْعاً مِنَ الوَصْلِ والرَّبْطِ بَيْنَ تِلْكَ المَوْضُوعاتِ. وقَبْلَ أنْ نَمْضِيَ قُدُماً في الكَلامِ عَنْ هَذِهِ المَوْضُوعاتِ، لَعَلَّهُ مِنَ المعِيْنِ لَنا أنْ نُورِدَ هُنا الموضُوعاتِ التي كَوَّنَتْ مُجْمَلَ الأغْرَاضِ العامَّةِ لِقَصائِدِ أبِي العلاءِ الطَّوِيلَةِ التي نَظَمَها وهُوَ بِبَغْدادَ.

فالقَصِيدة الأُوْلَى هِيَ الحَنِيْنُ إلى الوَطَنِ والأَهْلِ أوْ قَصِيدَةُ (طَرِبْنَ):

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البارِقِ المتَعالِي	بِبَغْدَادَ وَهْناً ما لَهُنَّ وما لِي
سَمَتْ نَحْوَهُ الأبْصارُ حَتَّى كأنَّها	بِنارَيْهِ مِنْ هَنَّا وثَمَّ صَوَالِ
إذا طالَ عَنْها سَرَّها لَوْ رُؤُوْسُها	تُمَدُّ إلَيْهِ فِي رُؤُوسِ عَوَالِ

---

[1] نفسه ج١، ص ٧٧-٧٨.

تَمَنَّتْ قُوَيْقاً والصَّرَاةُ حِيالَها تُرابٌ لَها مِنْ أيْنُقٍ وجِمالِ

إذا لاحَ إيْماضٌ سَتَرْتُ وُجُوْهَهَا كَأَنِّيَ عَمْرٌو والمطِيُّ سَعالِي

وكَمْ هَمَّ نِضْوٌ أنْ يَطِيْرَ مَعَ الصَّبا إلَى الشّأمِ لَوْلا حَبْسُهُ بِعِقَالِ

ولَوْلا حِفاظِي قُلْتُ لِلْمَرْءِ صَاحِبِي بِسَيْفِكَ قَيِّدْها فَلَسْتُ أُبالِي

أأَبْغِي لَها شَرّاً، ولَمْ أرَ مِثْلَها سَفايِرَ لَيْلٍ أوْ سَفائِنَ آلِ

وهُنَّ مُنِيْفَاتٌ إذا جُبْنَ وادِياً تَوَهَّمْننا مِنهُنَّ فَوْقَ جِبَالِ

لَقَدْ زَارَنِي طَيْفُ الخَيالِ فَهَاجَنِي فَهَلْ زارَ هَذِي الإبْلَ طَيْفُ خَيالِ؟

لَعَلَّ كَراها قَدْ أَرَاها جِذَابَها ذَوائِبَ طَلْحٍ بِالعَقِيْقِ وضَالِ

ومَسْرَحَها فِي ظِلِّ أحْوَى، كأنَّها إذا أظْهَرَتْ فِيهِ ذَوَاتُ حِجَالِ

حَلُمْنَا بَأَسْنانِ الكُهُولِ وهَذِهِ شَوَارِفُ تَزْهَاهَا حُلُوْمُ إفَالِ

تَرَى العَوْدَ مِنْها بَاكِياً فَكَأَنَّهُ فَصِيْلٌ حَمَاهُ الخِلْفَ رَبُّ عِيالِ

فآبِكَ هَذا أخْضَرُ الحالِ مُعْرِضاً وأزْرَقُ فَاشْرَبْ وارْعَ ناعِمَ بَالِ

سَتَنْسَى مِياهاً بِالفَلاةِ نَمِيْرَةً كَنِسْيانِها وِرْداً بِعَيْنِ أثَالِ

وإنْ ذَهِلَتْ عَمّا أجَنُّ صُدُورُها فَقَدْ أَلْهَبَتْ وَجْداً نُفُوْسَ رِجَالِ

ولَوْ وَضَعَتْ فِي دِجْلَةَ الهَامَ لَمْ تُفِقْ مِنَ الجَزْعِ إلّا والقُلُوْبُ خَوَالِ

تَذَكَّرْنَ مُرّاً بِالمَنَاظِرِ آجِناً عَلَيْهِ مِنَ الأَرْطَى فُرُوعُ هَدَالِ

وأعْجَبَها خَرْقُ العِضاهِ أُنوفَها بِمِثْلِ إبَارٍ، حُدِّدَتْ، ونِصالِ

تَلَوْنَ زَبُوْراً فِي الحَنِيْنِ مُنَزَّلاً عَلَيْهِنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلالِ

وأنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ المطَايا قَصِيْدَةً وأوْدَعْنَها فِي الشَّوْقِ كُلَّ مَقَالِ

أَمِنْ قِيْلِ عَوْدٍ رَازِمٍ أمْ رِوَايَةٍ أَتَتْهُنَّ عَنْ عَمٍّ لَهُنَّ وَخَالِ؟

كأنَّ المثَانِي والمثالِثَ بِالضُّحَى تَجَاوُبُ فِي غِيْدٍ رُفِعْنَ طِوَالِ

كأنَّ ثَقِيْلاً أوَّلاً تَزْدَهَى بِهِ ضَمَائِرُ قَوْمٍ فِي الخُطُوبِ ثِقَالِ

بَكَى سَامِرِيُّ الجَفْنِ إنْ لامَسَ الكَرَى لَهُ هُدْبَ جَفْنٍ مَسَّهُ بِسِجَالِ

فَلَيْتَ سَنِيْراً بَانَ مِنهُ لِصُحْبَتِي بِرَوْقَيْ غَزَالٍ مِثْلُ رَوْقِ غَزَالِ
وَمَنْ لِي بِأنِّي فِي جَنَاحِ غَمَامَةٍ تُشَبِّهُهَا فِي الجُنْحِ أُمَّ رِئَالِ
تَهَادَانِيَ الأرْوَاحُ حَتَّى تَحُطَّنِي عَلَى يَدِ رِيْحٍ بِالفُرَاتِ شِمَالِ
فيا بَرْقُ! ليس الكَرْخُ داري، وإنما رَماني إليه الدهرُ مُنْذُ لَيالِ
فَهَلْ فِيْكَ مِنْ مَاءِ المَعَرَّةِ، قَطْرَةٌ تُغيْثُ بِها ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِ؟
دَعا رَجَبٌ جَيْشَ الغَرَامِ فَأَقْبَلَتْ رِعَالٌ تَرُوْدُ الهَمَّ بَعْدَ رِعَالِ
يُغِرْنَ عَلَيَّ اللَّيْلَ إذْ كُلُّ غَارَةٍ يَكُوْنُ لَهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ تَوَالِ
ولاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُوْنٍ أَجادَها بِجَارِي النُّضَارِ الكاتِبُ ابْنُ هِلالِ
فَذَكَّرَنِي بَدْرَ السَّمَاوَةِ بادِياً شَفا لاحَ مِنْ بَدْرِ السَّمَاءَةِ، بَالِ
وقَدْ دَمِيَتْ خَمْسٌ لَهَا عَنَمِيَّةٌ بِإدْمانِها فِي الأَزْمِ شَوْكَ سِيَالِ
تَقُولُ ظِبَاءُ الحَزْمِ والدَّمْعُ ناظِمٌ عَلَى عَقَدِ الوَعْساءِ عِقْدَ ضَلالِ:
لَقَدْ حَرَمَتْنا أثْقَلَ الحَلْيِ أُخْتُنَا فَمَا وَهَبَتْ إلَّا سُمُوْطَ لَآلِي
فإنْ صَلَحَتْ لِلنَّاظِمِيْنَ دُمُوعُنا فَأَنْتُنَّ مِنْها والكَثِيْبُ حَوَالِ
جَهِلْتُنَّ أنَّ اللُّؤْلُؤَ الذَّوْبَ عِنْدَنا رَخِيصٌ وأنَّ الجامِدَاتِ غَوَالِ
ولَوْ كانَ حقّاً ما ظَنَنْتُنَّ لاغْتَدَتْ مَسَافَةُ هَذا البَرِّ سِيْفَ أَوَالِ
أَإِخْوَانَنا بَيْنَ الفُرَاتِ وجِلَّقٍ يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحَالِ
أُنَبِّئُكُمْ أنِّي عَلَى العَهْدِ سَالِمٌ ووَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤَالِ
وانِّي تَيَمَّمْتُ العِرَاقَ لِغَيْرِ ما تَيَمَّمَهُ غَيْلانُ عِنْدَ بِلالِ
فأصْبَحْتُ مَحْمُوداً بِفَضْلِيَ وَحْدَه عَلَى بُعْدِ أنْصَارِي وقِلَّةِ مَالِي
نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ العَوَاصِمِ بَعْدَما غَدَوْتُ بِها فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالِ
ومِنْ دُوْنِها يَوْمٌ مِنَ الشَّمْسِ عاطِلٌ ولَيْلٌ بِأَطْرَافِ الأسِنَّةِ حَالِ
وشُعْثٌ مَدَارِيْها الصَّوَارِمُ والقَنَا ولَيْسَ لَهَا إلَّا الكُمَاةَ فَوَالِ
أَرُوحُ فَلا أَخْشَى المَنَايا وأتَّقِي تَدَنُّسَ عِرْضٍ أوْ ذَمِيْمَ فِعالِ

إذا مَا حِبَالٌ مِنْ خَلِيْلٍ تَصرَّمَتْ عَلِقْتُ بِحَلٍّ غَيْرِهِ بِحِبَالِ
ولَوْ أنَّنِي فِي هَالَةِ البَدْرِ قاعِدٌ لَمَا هابَ يَوْمِي رِفْعَتِي وجَلالِي

وتُطَالِعُنا فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ هَذِهِ المَوْضُوعاتُ:

١- حَنِيْنُ المطَايا لَمَّا رَأَتْ ضَوْءَ البَرْقِ (تسعة أبيات).

٢- طَيْفُ الخَيالِ (تسعة أبيات).

٣- حَنِيْنُ النُّوْقِ (سبعة أبيات).

٤- حَنِيْنُ الشَّاعِرِ وشَوْقُهُ إلَى مَوْطِنِهِ مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ (تسعة أبيات).

٥- الفَتَاةُ البَاكِيَةُ (سبعة أبيات).

٦- الإعْلانُ عَنْ رَفْضِهِ السُّؤَالَ والاسْتِجْدَاءَ (أربعة أبيات).

٧- حَنِيْنُ الشَّاعِرِ إلَى وَطَنِهِ وأهْلِهِ (ستة أبيات).

القَصِيدة الثَّانِيَةُ فِي حَنِيْنِهِ وشَوْقِهِ إلَى وَطَنِهِ أو (مَغَانِي اللِّوَى):

مَغَانِي اللِّوَى مِنْ شَخصِكِ اليَوْمَ أطْلالُ وفِي النَّوْمِ مَغْنًى مِنْ خَيالِكِ مِحْلالُ
مَعَانِيْكِ شَتَّى والعِبَارَةُ واحِدٌ فطَرْفُكِ مُغْتالٌ وزَنْدُكِ مُغْتالُ
وأبْغَضْتُ فِيْكِ النَّخلَ والنَّخلُ يَانِعٌ وأَعْجَبَنِي مِنْ حُبِّكِ الطَّلْحُ والضَّالُ
وأهْوَى لِجَرَّاكِ السَّمَاوَةَ والقَطا ولَوْ أنَّ صِنْفَيْهِ وُشَاةٌ وعُذَّالُ
حمَلْتِ مِنَ الشَّامَيْنِ أطْيَبَ جُرْعَةٍ وأنْزَرَها والقَوْمُ بَالقَفْرِ ضُلَّالُ
يَلُوْذُ بِأَقْطَارِ الزُّجَاجَةِ بَعْدمَا أُرِيْقَتْ لِما أهْدَيْتِ فِي الكُثْرِ أمْثَالُ
فَسَقْياً لِكَأْسٍ مِنْ فَمٍ مِثْلِ خاتِمٍ مِنَ الدُّرِّ لَمْ يَهْمُمْ بِتَقْبِيْلِهِ خَالُ
صَحِبْتِ كَرَانا والرِّكابُ سَفائِنٌ كَعَادِكِ فِيْنا والرَّكائِبُ أجْمَالُ
أَعُمْتِ إلَيْنا أمْ فَعَالَ ابْنِ مَرْيَمٍ فَعَلْتِ وهَلْ يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكْسَالُ؟
كأنَّ الخُزَامَى جَمَّعَتْ لَكِ حُلَّةً عَلَيْكِ بِها فِي اللَّوْنِ والطِّيْبِ سِرْبَالُ

عَجِبْتُ وقَدْ جُزْتِ الصَّراةَ، رِفَلَّةً   وما خضِلَتْ مِمَّا تَسَرْبَلْتِ أذْيَالُ

مَتَى يَنْزِلُ الحَيُّ الكِلابِيُّ بَالِساً   يُحَيِّيْكِ عَنِّي ظاعِنُوْنَ وقُفَّالُ؟

تَحِيَّةَ وُدٍّ ما الفُرَاتُ وماؤُهُ   بِأَعْذَبَ مِنْها وهْوَ أزْرَقُ سَلْسالُ

فَإنْ زَعَمُوا أنَّ الهَجِيْرَ اسْتَشَفَّهُمْ   إلَيْها فَمِنْها فِي المَزَايِدِ أسْمَالُ

أتَعْلَمُ ذَاتُ القُرْطِ والشَّنْفِ أنَّنِي   يُشَنِّفُنِي بِالزَّأْرِ أغْلَبُ رِئْبَالُ؟

فَيَا دَارَها بِالحَزْنِ إنَّ مَزارَها   قَرِيْبٌ، ولَكِنْ دُوْنَ ذَلِكَ أهْوَالُ

إذا نَحْنُ أهْلَلْنا بِنُؤَيْكِ سَاءَنا   فَهَلَّا بِوَجْهِ المالِكِيَّةِ إهْلالُ

تُصاحِبُ فِي البَيْدَاءِ ذِئْباً وذَابِلاً   كِلا صَاحِبَيْها فِي التَّنُوفَةِ عَسَّالُ

إذا أغْرَبَ الرُّعْيَانُ عَنْها سَوَامَها   أُرِيْحَ عَلَيْها اللَّيْلَ هَيْقٌ وذَيَّالُ

تُسِيءُ بِنا يَقْظَى فَأَمَّا إذا سَرَتْ   رُقَاداً فَإحْسَانٌ إلَيْنا وإجْمَالُ

بَكَتْ فَكَأَنَّ العِقْدَ نَادَى فَرِيْدَهُ   هَلُمَّ لِعَقْدِ الحِلْفِ قُلْبٌ وخَلْخالُ

وهَلْ يَحْزُنُ الدَّمْعَ الغَرِيْبَ قُدُوْمُهُ   عَلَى قَدَمٍ كادَتْ مِنَ اللِّيْنِ تَنْهَالُ؟

تَحَلَّى النَّقا دُرَّيْنِ دَمْعاً ولُؤْلُؤاً   ووَلَّتْ أصِيْلاً وَهْيَ كالشَّمْسِ مِعْطالُ

بِأَشْنَبَ مِعْطارِ الغَرِيْزَةِ مُقْسِمٍ   لِسائِفِهِ أنَّ القَسِيْمَةَ مِتْفَالُ

فَلا أَخْلَفَ الدَّمْعَ الذِي فاضَ شأْنُها   دُعَاءً لَها بَلْ أخْلَفَ النَّظْمَ لأْآلُ

وغَنَّتْ لَنا فِي دَارِ سَابُوْرَ قَيْنَةٌ   مِنَ الوُرْقِ مِطْرَابُ الأصَائِلِ مِيْهَالُ

رَأَتْ زَهَراً غَضّاً فَهاجَتْ بِمِزْهَرٍ   مَثَانِيْهِ أحْشَاءٌ لَطُفْنَ وأوْصَالُ

فَقُلْتُ تَغَنَّيْ كَيْفَ شِئْتِ فَإنَّما   غِناؤُكِ عِنْدِي يا حَمَامَةُ إعْوَالُ

وتَحْسُدُكِ البِيْضُ الحَوَالِي قَلادَةً   بِجِيْدِكِ فِيْها مِنْ شَذَا المِسْكِ تِمْثالُ

ظَلَمْنَ وبَيْتِ اللهِ كَمْ مِنْ قَلائِدٍ   تُؤَازِرُها سُوْرٌ لَهُنَّ وأحْجالُ

فَآلَيْتُ ما تَدْرِي الحَمائِمُ بِالضُّحَى   أأَطْوَاقُ حُسْنٍ تِلْكَ أمْ هُنَّ أغْلالُ

بَدَتْ حَيَّةٌ قَصْراً فَقُلْتُ لِصَاحِبِي   حَيَاةٌ وشَرٌّ بِئْسَ ما زَعَمَ الفالُ!

أتُبْصِرُ ناراً أُوْقِدَتْ لِخُوَيْلِدٍ   ودُوْنَ سَنَاها لِلنَّجائِبِ إرْقَالُ

وأَقْتَالُ حَرْبٍ يُفْقَدُ السِّلْمُ فِيهِمُ ... عَلَى غَيْرِهِمْ أَمْضَى القَضَاءِ وإقْتَالُ

وعَرْضُ فَلاةٍ يُحْرِمُ السَّيْفُ وَسْطَها ... أَلا إنَّ إحْرَامَ الصَّوَارِمِ إحْلالُ

إذا قُدِحَتْ فَالمشْرَفِيُّ زِنادُها ... وإنْ هِيَ حُشَّتْ فَالعَوَامِلُ أجْذَالُ

تَمَنَّيْتُ أنَّ الخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ ... تُجَهِّلُنِي كَيْفَ اطْمَأَنَّتْ بِيَ الحَالُ

فَأذْهَلُ أَنِّي بِالعِرَاقِ عَلَى شَفَا ... رَزِيِّ الأمانِي لا أَنِيسٌ ولا مَالُ

مُقِلٌّ مِنَ الأهْلَيْنِ يُسْرٍ وأُسْرَةٍ ... كَفَى حَزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقْلالُ

طَوَيْتُ الصِّبَي طَيَّ السِّجِلِّ وزَارَنِي ... زَمانٌ لَهُ بِالشَّيْبِ حُكْمٌ وإسْجَالُ

مَتَى سَأَلَتْ بَغْدادُ عَنِّي وأهْلُها ... فَإِنِّيَ عَنْ أَهْلِ العَوَاصِمِ، سَأَّآلُ

إذا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ لُبِّي وزَائِدٌ ... خُفُوْقُ فؤَادِي كُلَّمَا خَفَقَ الآلُ

وماءُ بِلادِي كانَ أَنْجَعَ مَشْرَباً ... ولَوْ أَنَّ مَاءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالُ

حُرُوفُ سُرىً جاءَتْ لِمَعْنًى أرَدْتُهُ ... بَرَتْنِيَ أسْماءٌ لَهُنَّ وأفْعَالُ

يُحاذِرْنَ مِنْ لَدْغِ الأَزِمَّةِ لا اهْتَدَى ... مُخَبِّرُها أَنَّ الأَزِمَّةَ أصْلالُ

فَيَا وَطَنِي! إنْ فاتَنِي بِكَ سابِقٌ ... مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعِمْ لِسَاكِنِكَ البَالُ

فإِنْ أَسْتَطِعْ فِي الحَشْرِ آتِكَ زَائِراً ... وهَيْهاتَ لِي يَوْمَ القِيامَةِ أشْغالُ

وكَمْ ماجِدٍ في سِيْفِ دِجْلَةَ لَمْ أَشِمْ ... لَهُ بارِقاً والمرْءُ كالمزْنِ هَطَّالُ

مِنَ الغُرِّ تَرَّاكُ الهَوَاجِرِ، مُعْرِضٌ ... عَنِ الجَهْلِ قَذَّافُ الجَوَاهِرِ مِفْضَالُ

سَيَطْلُبُنِي رِزْقِي الذِي لَوْ طَلَبْتُهُ ... لَمَا زَادَ والدُّنْيا حُظُوْظٌ وإقْبالُ

إذا صَدَقَ الجَدُّ افْتَرَى العَمُّ لِلْفَتَى ... مَكارِمَ لا تُكْرِي وإنْ كَذَبَ الخَالُ

وتُطالِعُنا فِيْها هَذِهِ الموْضُوْعاتُ:

١. طَيْفُ الخَيَالِ، (أربعة عشر بيتاً).

٢. التأَمُّلاتُ الغَرَامِيَّةُ أوِ الغَزَلُ، (ستة أبيات).

٣. الفَتَاةُ الباكِيةُ، (خمسة أبيات).

٤. وَصْفُ الحَمَامَةِ الصَّادِحَةِ، (ستة أبيات).

٥. وَصْفُ الحَيَّةِ (رَمْزِ الشَّرِّ)، (بيت واحد).

٦. وَصْفُ النَّارِ والسَّيْفِ والفَلاةِ، (أربعة أبيات).

٧. حَنِيْنُ الشَّاعِرِ لِوَطَنِهِ وأَهْلِهِ، (أحد عشر بيتاً).

مَرْثِيَتُهُ فِي أبِي المَنَاقِبِ[1]:

أوْدَى فَلَيْتَ الحادِثَاتِ كَفَافِ ... مالُ المسِيفِ وعَنْبَرُ المسْتافِ

الطاهِرُ الآباءِ والأَبْنَاءِ والْـ ... أثْوَابِ والآرَابِ والأُلَّافِ

رَغَتِ الرُّعُودُ وتِلْكَ هَدَّةُ واجِبٍ ... جَبَلٍ هَوَى فِي آلِ عَبْدِ مَنَافِ

بَخِلَتْ فَلَمَّا كانَ لَيْلَةُ فَقْدِهِ ... سَمَحَ الغَمامُ بِدَمْعِهِ الذَّرَّافِ

ويُقالُ إنَّ البَحْرَ غاضَ وإنَّها ... سَتَعُودُ سِيْفاً لُجَّةُ الرَّجَّافِ

ويَحِقُّ فِي رُزْءِ الحُسَيْنِ تَغَيُّرُ الْـ ... ـحَرَسَيْنِ بَلْهَ الدُّرَّ فِي الأصْدَافِ

ذَهَبَ الذي غَدَتِ الذَّوابِلُ بَعْدَهُ ... رُعْشَ المتُونِ كَلِيْلَةَ الأطْرَافِ

وتَعَطَّفَتْ لَعِبَ الصِّلالِ مِنَ الأَسَى ... فالزُّجُّ عِنْدَ اللَّهْذَمِ الرَّعَّافِ

وتَيَقَّنَتْ أبْطالُها مِمَّا رَأَتْ ... أَلَّا تُقَوِّمَها بِغَمْزِ ثِقَافِ

شَغَلَ الفَوَارِسَ بَثُّها وسُيُوفُها ... تَحْتَ القَوَائِمِ جَمَّةُ التَّرْجافِ

ولَوَ أنَّهُمْ نَكَبُوا الغُمُودَ لَهالَهُمْ ... كَمَدُ الظُّبَى وتَفَلُّلُ الأسْيَافِ

طارَ النَّوَاعِبُ يَوْمَ فادَ نَوَاعِياً ... فَنَدَبْنَهُ لِمُوافِقٍ ومُنافِ

أَسَفٌ أَسَفَّ بِها وأُثْقِلَ نَهْضُها ... بِالحُزْنِ فهْيَ على التُّرَابِ هَوافِ

ونَعِيْبُها كَنَحِيْبِها وحِدادُها ... أبَداً سَوَادُ قَوادِمٍ وخَوَافِ

لا خابَ سَعْيُكَ مِن خُفافٍ أَسْحَمٍ ... كَسُحَيْمٍ الأسَدِيِّ أوْ كَخُفافِ

---

[1] سقط الزند، ج٢، ص ٥٥.

مِنْ شاعِرٍ لِلبَيْنِ قالَ قَصِيْدَةً ... يَرْثِي الشَّرِيفَ على رَوِيِّ القافِ
جَوْنٍ كَبِنْتِ الجَوْنِ يَصْرُخُ دائِباً ... وَيَمِيْسُ في بُرْدِ الحَزِيْنِ الضَّافِي
عُقِرَتْ رَكائِبُكَ ابْنَ دَأْيَةَ غادِياً ... أَيُّ امْرِئٍ نَطْقٍ وأيُّ قَوَافِ
بُنِيَتْ عَلَى الإيْطاءِ سالِمَةً مِنَ الْ ... إقْوَاءِ والإكْفاءِ والإصْرَافِ
حَسَدَتْهُ مَلْبَسَهُ البُزَاةُ ومَن لَهَا ... لَمَّا نَعاهُ لَهَا بِلُبْسِ غُدافِ
والطَّيْرُ أغْرِبَةٌ عَلَيْهِ بِأَسْرِها ... فُتْخُ السَّرَاةِ وساكناتُ لَصَافِ
هَلَّا اسْتَعاضَ مِنَ السَّرِيْرِ جَوَادَهُ ... وَثَّابَ كُلِّ قَرارَةٍ ونِيَافِ
هَيْهَاتَ! صادَمَ لِلْمَنايا عَسْكَراً ... لا يَنْثَنِي بِالكَرِّ والإيْجافِ
هَلَّا دَفَنْتُمْ سَيْفَهُ في قَبْرِهِ ... مَعَهُ فَذاكَ لَهُ خَلِيْلٌ وَافِ
إنْ زارَهُ المَوْتَى كَسَاهُمْ في البِلَى ... أَكْفَانَ أَبْلَجَ مُكْرِمِ الأضيافِ
واللهُ إنْ يَخْلَعْ عَلَيْهِمْ حُلَّةً ... يَبْعَثْ إلَيْهِ بِمِثْلِها أضعافِ
نُبِذَتْ مَفاتِيْحُ الجِنَانِ وإنَّما ... رُضْوانُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلإتْحافِ
يا لابِسَ الدِّرْعِ الذي هُوَ تَحْتَها ... بَحْرٌ تَلَفَّعَ في غَدِيْرٍ صافِ
بَيْضاءُ زُرْقُ السُّمْرِ وارِدَةٌ لَهَا ... وِرْدَ الصَّوَادِي الوُرْقِ زُرْقَ نِطافِ
والنَّبْلُ تَسْقُطُ فَوْقَها ونِصالُهَا ... كالرِّيشِ فَهْوَ عَلَى رَجاها طافِ
يُزْهَى إذا حِرْباؤُها صَلِيَ الوَغَى ... حِرْباءُ كُلِّ هَجِيْرَةٍ مِهْيافِ
فَلِذاكَ تُبْصِرُهُ لِكِبْرٍ عادَهُ ... يُوفِي عَلَى جِذْلٍ بِكُلِّ قَذافِ
الرَّكْبُ إثْرَكَ آجِمُونَ لِزادِهِمْ ... واللُّهْجُ صادِقَةٌ عَنِ الأخْلافِ
والآنَ أَلْقَى المَجْدُ أخْمَصَ رِجْلِهِ ... لَمْ يَقْتَنِعْ جَزَعاً بِمِشْيَةِ حافِ
تَكْبِيْرَتانِ حِيالَ قَبْرِكَ لِلْفَتَى ... مَحْسُوبَتانِ بِعُمْرَةٍ وطَوَافِ
لَوْ تَقْدِرُ الخَيْلُ التي زايَلْتَها ... أَنْحَتْ بِأَيْدِيها عَلَى الأعْرافِ
فارَقْتَ دَهْرَكَ ساخِطاً أفْعالَهُ ... وهْوَ الجَدِيْرُ بِقِلَّةِ الإنْصافِ
ولَقِيْتَ رَبَّكَ فاسْتَرَدَّ لَكَ الهُدَى ... ما نالَتِ الأيَّامُ بِالإتْلافِ

وسَقاكَ أمْواهَ الحَيَاةِ مُخَلَّداً ... وكَسَاكَ شَرْخَ شَبَابِكَ الأفْوَافِ

أبْقَيْتَ فِيْنا كَوْكَبَيْنِ سَناهُما ... في الصُّبْحِ والظَّلْماءِ لَيْسَ بِخافِ

مُتأنِّقَيْنِ وفي المكارِمِ أرْتَعا ... مُتألِّقَيْنِ بِسُؤْدَدٍ وعَفافِ

قَدَرَيْنِ في الإرْداءِ بَلْ مَطَرَيْنِ في الْـ ... إجْداءِ بَلْ قَمَرَيْنِ فِي الإسْدافِ

رُزِقا العَلاءَ فأهْلُ نَجْدٍ كُلَّما ... نَطَقَا الفصاحَةَ مِثْلُ أهْلِ دِيَافِ

ساوَى الرَّضِيُّ المرْتَضَى وتَقاسَما ... خِطَطَ العُلى بتَناصُفٍ وتَصافِ

حِلْفا نَدًى سَبَقا وصَلَّى الأطْهَرُ الْـ ... ـمَرْضِيُّ، فَيَا لَثلاثةٍ أحْلافِ

أنْتُمْ ذَوُو النَّسَبِ القَصِيْرِ فَطَوْلُكُمْ ... بادٍ عَلَى الكُبَراءِ والأشْرافِ

والرَّاحُ إنْ قِيْلَ ابْنَةُ العِنَبِ اكْتَفَتْ ... بِأَبٍ عَنِ الأسْماءِ والأوْصافِ

ما زاغَ بَيْتُكُمُ الرَّفِيْعُ وإنَّما ... بِالوَجْدِ أدْرَكَهُ خَفِيُّ زِحَافِ

والشَّمْسُ دائِمَةُ البَقاءِ وإنْ تُنَلْ ... بِالشَّكْوِ فَهْيَ سَرِيْعَةُ الإخْطافِ

ويُخالُ مُوسَى جَدُّكُمْ لِجَلالِهِ ... في النَّفْس صاحِبَ سُورَةِ الأعْرافِ

الموْقِدِي نارِ القِرَى الآصالَ والْـ ... أسْحارَ بِالأهْضامِ والأشْعافِ

حَمْراءَ ساطِعَةُ الذَّوائِبِ في الدُّجَى ... تَرْمِي بِكُلِّ شَرارةٍ كَطِرَافِ

نارٌ لَهَا ضَرَمِيَّةٌ كَرَمِيَّةٌ ... تَأْرِيثُها إرْثٌ عَنِ الأسْلافِ

تَسْقِيْكَ والأرْيَ الضَّرِيْبَ ولَوْ عَدَتْ ... نَهْيَ الإلَهِ لَثَلَّثَتْ بِسُلافِ

يُمْسِي الطَّرِيْدُ أَمامَها وكَأَنَّهُ ... أسَدُ الشَّرَى أوْ طائِرٌ بِشَرَافِ

وإذا تَضَيَّفَتِ النَّعامُ ضِياءَها ... حُمِلَ الهَبِيْدُ لَهَا مَعَ الألْطافِ

مُفْتَنَّةٌ في ظِلِّها وحَرُورِها ... تُغْنِيْكَ في المشْتَى وفي المصْطافِ

زَهْراءُ يَحْلُمُ في العَواصِفِ جَمْرُها ... وتَقَرُّ، إلَّا هَزَّةَ الأعْطافِ

سَطَعَتْ فَمَا يَسْطِيْعُ إطْفاءً لَهَا ... زُحَلٌ ونُورُ الحَقِّ لَيْسَ بِطافِ

تَصِلُ الوُقُودَ ولا خُمُودَ ولَوْ جَرَى ... باليَمِّ صَوْبُ الوابِلِ الغَرَّافِ

شُبَّتْ بِعَالِيَةِ العِرَاقِ، ونُورُها ... يَغْشَى مَنازِلَ نائِلٍ وإسافِ

وقُدُوْرُهمْ مِثْلُ الهِضابِ رَواكِداً وجِفانُهُمْ كَرَحِيْبَةِ الأفيافِ
مِنْ كُلِّ جَائِشَةِ العَشِيِّ مُفِيْئَةٍ بِالمِيْرِ خَيْرَ مَرَافِدٍ وصِحافِ
دهْماءَ رَاكِبَةٍ ثَلاثَةَ أجْبُلٍ عِظَماً وإنْ حُسِبتْ ثَلاثَ أثَافِ
يا مالِكَيْ سَرْحِ القَرِيْضِ أتَتْكُما مِنِّي حَمُولَةُ مُسْنِتِيْنَ عِجافِ
لا تَعرِفُ الوَرَقَ اللَّجِيْنَ وإنْ تُسَلْ تُخْبِرْ عَنِ القُلّامِ والخِذْرافِ
وأنا الذِي أُهْدِي أقَلَّ بَهَارَةٍ حُسْناً لِأحْسَنِ رَوْضَةٍ مِئْنافِ
أوْضَعْتُ في طُرُقِ التَّشَرُّفِ سامِياً بِكُما ولَمْ أسْلُكْ طَرِيْقَ العافِي

١- تَغَيُّرُ الظَّواهِرِ الطَّبِيْعِيَّةِ لِمَوْتِ الشرِيف، (أحد عشر بيتاً).

٢- وَصْفُ الغُرابِ، (عشرة أبيات).

٣- وَصْفُ الفَقِيدِ، (بيتان).

٤- مَدْحُ الفَقِيدِ، (أربعة أبيات).

٥- وَصْفُ دِرْعِ الفَقِيدِ، (خمسة أبيات).

٦- وَصْفُ الحُزْنِ، (أربعة أبيات).

٧- سَوْدَاوِيَّةٌ خَفَّفَها التديُّنُ والجزاءُ عندَ الله، (ثلاثة أبيات).

٨- مَدْحُ الرَّضِي والمُرْتَضَى، (ثمانية أبيات).

٩- التَّعْزِيَةُ، (ثلاثة أبيات).

١٠- وَصْفُ النَّارِ وقُدُورِ الطَّعَام، (أربعة عشر بيتاً).

١١- اعْتِذَارٌ، (أربعة أبيات).

قَصِيْدَتُهُ فِي وَدَاعِ بَغْدَادَ[1]:

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعِ ... يُخَبِّرُنا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى الصَّدْعِ

أُصَدِّقُهُ فِي مِرْيَةٍ وَقَدِ امْتَرَتْ ... صَحَابَةُ مُوْسَى بَعْدَ آياتِهِ التِّسْعِ

كأنَّ بِفِيهِ كاهِناً أَوْ مُنَجِّماً ... يُحَدِّثُنا عَمَّا لَقِيْنا مِنَ الفَجْعِ

وما كانَ أَفْعَى أَهْلِ نَجْرانَ مِثْلَه ... ولَكِنَّ لِلإِنْسِ الفَضِيْلَةَ فِي السَّمْعِ

وما قامَ فِي عُلْيا زُغاوَةَ مُنْذِرٌ ... فَمَا بَالُ سُحْمٍ يَنْتَجِيْنَ إِلَى بُقْعِ؟

تَلاقٍ تَفَرَّى عَنْ فِراقٍ تَذُمُّهُ ... مَآقٍ وتَكْسِيرُ الصَّحائِحِ فِي الجَمْعِ

وشَكْلَيْنِ ما بَيْنَ الأَثافِيِّ واحِدٌ ... وآخَرُ مُوْفٍ مِنْ أَراكٍ عَلَى فَرْعِ

أَتَى وهْوَ طَيَّارُ الجَنَاحِ وإِنْ مَشَى ... أَشاحَ بِمَا أَعْيا سَطِيْحاً مِنَ السَّجْعِ

يُجِيْبُ سَماوِيَّاتِ لَوْنٍ كَأَنَّما ... شَكِرْنَ بِشَوْقٍ أَوْ سَكِرْنَ مِنَ البِتْعِ

تَرَى كُلَّ خَطْباءِ القَمِيْصِ كَأَنَّها ... خَطِيْبٌ تَنَمَّى فِي الغَضِيْضِ مِنَ اليَنْعِ

إِذا وَطِئَتْ عُوْداً بِرِجْلٍ حَسِبْتَها ... ثَقِيْلَةَ حِجْلٍ تَلْمِسُ العُوْدَ ذا الشِّرْعِ

مَتَى ذَنَّ أَنْفُ البَرْدِ سِرْتُمْ فَلَيْتَه ... عَقِيْبَ التَّنائِي كانَ عُوقِبَ بالجَدْعِ

وما أَوْرَقَتْ أَوْتادُ دارِكَ بِاللِّوَى ... ودَارَةَ حَتَّى أُسْقِيَتْ سَبَلَ الدَّمْعِ

ذَكَرْتُ بِها قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ وافِياً ... مَضَى كَمُضِيِّ السَّهْمِ أَقْصَرَ مِنْ قِطْعِ

وما شَبَّ ناراً فِي تِهامَةَ سامِرٌ ... يَدَ الدَّهْرِ إِلَّا أَبَّ قَلْبُكَ فِي سَلْعِ

حَكَتْ وهْيَ تُجْلِي ناظِرَ السَّبُعِ اجْتَلَى ... مَعَ اللَّيْلِ أَكْلَى والرِّكَابُ عَلَى سَبْعِ

حَمَلْتُ لَها قَلْبَ الجَبَانِ ولَمْ أَزَلْ ... شُجَاعَ الهَوَى لَوْلا رَحِيْلُ بَنِي شَجْعِ

وفِي الحَيِّ أَعْرابِيَّةُ الأَصْلِ مَحْضَةٌ ... مِنَ القَوْمِ، أَعْرابِيَّةُ القَوْلِ بِالطَّبْعِ

وقَدْ دَرَسَتْ نَحْوَ السُّرَى فَهْيَ لَبَّةٌ ... بِما كانَ مِنْ جَرِّ البَعِيْرِ أَوِ الرَّفْعِ

أَلِفْتِ المَلا حَتَّى تَعَلَّمْتِ بِالفَلا ... رُنُوَّ الطَّلا أَوْ صَنْعَةَ الآلِ فِي الخَدْعِ

---

[1] نفسه ج٢، ص ٦٨.

ومَنْ يَتَرَقَّبْ صَوْلَةَ الدَّهْرِ يَلْقَها　　وَشِيْكاً وهَلْ تُرْضِي الأَسَاوِدُ بالوَكْعِ

إذا الضَّبُعُ الشَّهْباءُ حَلَّتْ بِساحَتِي　　نَضَوْتُ عَلَيْها كُلَّ مَوَّارَةِ الضَّبْعِ

وقالَ الوَلِيْدُ النَّبْعُ لَيْسَ بِمُثْمِرٍ　　وأَخْطَأَ سِرْبُ الوَحْشِ مِنْ ثَمَرِ النَّبْعِ

أَوَدِّعُكُمْ يا أَهْلَ بَغْدادَ والحَشَا　　عَلَى زَفَراتٍ ما يَنِيْنَ مِنَ اللَّذْعِ

وَدَاعَ ضَنًى لَمْ يَسْتَقِلَّ وإِنَّما　　تَحامَلَ مِنْ بَعْدِ العِثارِ عَلَى ظَلْعِ

إذا أَطَّ نِسْعٌ قُلْتُ والدَّوْمُ كارِبِي　　أَجِدَّكُمُ! لَمْ تَفْهَمُوا طَرَبَ النِّسْعِ

فَبِئْسَ البَدِيْلُ الشَّأْمُ مِنْكُمْ وأَهْلُهُ　　عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمِي وبَيْنَهُمُ رَبْعِي

ألا زَوِّدُوْنِي شَرْبَةً ولَوَ انَّنِي　　قَدَرْتُ إذاً أَفْنَيْتُ دِجْلَةَ بِالجَرْعِ

وأَنَّى لَنا مِنْ ماءِ دِجْلَةَ نُغْبَةٌ　　عَلَى الخِمْسِ مِنْ بُعْدِ المَفاوِزِ والرِّبْعِ

وساحِرَةِ الأَطْرافِ يَجْنِي سَرابُها　　فَتَصْلُبُ حِرْباءً بَرِيّاً عَلَى جِذْعِ

وما الفُصَحاءُ الصِّيْدُ، والبَدْوُ دارُها　　بِأَفْصَحَ قَوْلاً مِنْ إمائِكُمُ الوُكْعِ

أَدِرْتُمْ مَقَالاً فِي الجِدالِ بِأَلْسُنٍ　　خُلِقْنَ فَجَانَبْنَ المَضَرَّةَ لِلنَّفْعِ

سأُعْرِضُ إِنْ نَاجَيْتُ مِنْ غَيْرِكُمْ فَتًى　　وأَجْعَلُ زَوّاً مِنْ بَنَانِيَ فِي سَمْعِي

غُذِيْتُ النَّعامَ الرُّوْحَ دُونَ مَزارِكُمْ　　وأَسْهَرَنِي زَأْرُ الضَّراغِمَةِ الفُدْعِ

وما ذادَ عَنِّي النَّوْمَ خَوْفُ وُثُوبِها　　ولَكِنَّ جَرْساً حالَ فِي أُذُنَيْ سِمْعِ

وكَمْ جُبْتُ أَرْضاً ما انْتَعَلْتُ بِمَرْوِها　　وجاوَزْتُ أُخْرَى ما شَدَدْتُ لَها شِسْعِي

وبِتُّ بِمُسْتَنِّ اليَرابِيْعِ راقِداً　　يُطَوِّفْنَ حَوْلِي مِنْ فُرادَى ومِنْ شَفْعِ

أَبَيْتُ فَلَمْ أَطْعَمْ نَقِيْعَ فِراقِكُمْ　　مُطاوِعَةً حَتَّى غُلِبْتُ عَلَى النَّشْعِ

فَنادَيْتُ عَنْسِي مِنْ دِيارِكُمُ هَلاً!　　وقُلْتُ لِسَقْبِي عَنْ حِياضِكُمُ هِدْعِ

صَحِبْتُ إِلَيْكُمْ كُلَّ أَطْلَسَ شاحِبٍ　　يَنُوْطُ إِلَى هادِيْهِ أَبْيَضَ كالرَّجْعِ

عَلَيْهِ لِباسُ الخُلْدِ حُسْناً ونَضْرَةً　　ولَمْ يُرْبَ إِلَّا فِي الجَحِيْمِ مِنَ الصُّنْعِ

وأَبْرَزَهُ مِنْ نارِهِ القَيْنُ أَخْضَراً　　كَأَنْ غَيْثَ فِيها بِالتَّلَهُّبِ والسَّفْعِ

ولَوْلا الوَغَى فِي الحَرْبِ أَسْمَعَ رَبَّهُ　　أَلِيْلَ المَنايا فِي المَثارِ مِنَ النَّقْعِ

ويَأبَى ذُبَابٌ أنْ يَطُوْرَ ذُبَابَهُ ولَوْ ذَابَ مِنْ أرْجائِهِ عَمَلُ الرُّضْعِ

تَلَوَّنَ لِلأَقْرَانِ فِي هَبَوَاتِهِ تَلَوُّنَ غُوْلِ القَفْرِ لِلْعَاجِزِ المِجْعِ

تَقُولُ بَدا فِي سُنْدُسٍ أوْ مُوَرَّدٍ مِنَ اللَّبْسِ أو عَصْبٍ يَرُوقُكَ أوْ نَصْعِ

يَدِرُّ بِهِ خِلْفُ المَنُونِ دَمَ الطُّلَى ويَكْبُرُ عَنْ فَطْرِ الوَلائِدِ والرَّضْعِ

فيا لكَ مِنْ أمْنٍ تَقَلَّدَهُ الفَتى، وباتَ بِهِ الأعْدَاءُ فِي خِطَّةٍ بِدْعِ

ولَمَّا ضَرَبْنَا قَوْنَسَ اللَّيْلِ مِنْ عَلٍ تَسَرَّى بِنَضْخِ الزَّعْفَرَانِ أوِ الرَّدْعِ

كأنَّ الدُّجَى نُوْقٌ عَرِقْنَ مِنَ الوَنِى وأنْجُمُها فِيْها قَلائِدُ مِنء وَدْعِ

لَبِسْتُ حِدَاداً بَعْدَكُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الدُّهْمِ لا الغُرِّ الحِسَانِ ولا الدُّرْعِ

أظُنُّ اللَّيَالِي وهْيَ خُوْنٌ غَوَادِرٌ بِرَدِّي إِلَى بَغْدادَ ضَيِّقَةَ الذَّرْعِ

وكانَ اخْتِيارِي أنْ أمُوْتَ لَدَيْكُمُ حَمِيْداً فَمَا أَلْفَيْتُ ذَلِكَ فِي الوُسْعِ

فَلَيْتَ حِمَامِي حُمَّ لِي فِي بِلادِكُمْ وجَالَتْ رِمَامِي فِي رِياحِكُمُ المِسْعِ

ولَيْتَ قِلاصاً مِلْعِرَاقِ خلَعْنَنِي جُعِلْنَ ولَمْ يَفْعَلْنَ ذَاكَ مِنَ الخَلْعِ

فَدُونَكُمُ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإِنَّنا نَصَبْنا المَطَايا بِالفَلاةِ عَلَى القَطْعِ

تَعَجَّلْتُ إنْ لَمْ أُثْنِ جُهْدِي عَلَيْكُمُ سَحَابَ الرَّزَايا وهْيَ صائِبَةُ الوَقْعِ

وتَظْهَرُ لَنا مِنَ هَذِهِ القَصِيدَةِ هَذِهِ المَوْضُوعاتُ:

١. وَصْفُ الغُرَابِ، (ستة أبيات).

٢. وَصْفُ الحَمَامِ السَّاجِعِ، (خمسة أبيات).

٣. غَزَلٌ، (ثلاثة أبيات).

٤. وَصْفُ النارِ، (بيتان).

٥. تأمُّلاتٌ غَرَامِيَّةٌ، (أربعة أبيات).

٦. تأمُّلاتٌ شَخْصِيَّةٌ، (ثلاثة أبيات).

٧. الثَّنَاءُ عَلَى بَغْدادَ، (عشرة أبيات).

٨. الرِّحْلَةُ، (أربعة أبيات).

٩. حُزْنُهُ لِتركِهِ بَغْدادَ، (بيتان).

١٠. وَصْفُ السَّيْفِ، (تسعة أبيات).

١١. وَصْفُ اللَّيْلِ والنُّجُومِ، (بيتان).

١٢. ثَناءٌ عَلَى بَغْدادَ، (سبعة أبيات).

فالمَوْضُوعاتُ التَّقْلِيْدِيَّةُ التي جاءَتْ في هَذِهِ القَصائِد هِيَ:

١- حَنِيْنُ النُّوْق.

٢- طَيْفُ الخَيالِ.

٣- الفتاةُ البَاكِيَةُ.

٤- الغزَلُ.

٥- الغُرَابُ.

٦- الرِّحْلَةُ.

٧- وَصْفُ اللَّيْلِ والنُّجُومِ.

فالمَوْضُوعُ الأَوَّلُ لَمْ يَأْتِ إِلَّا فِي قَصِيْدَةِ (طَرِبْنَ)؛ إِذْ إِبِلُ أبي العلاء هَهُنا لَمْ تَكُنْ تِلْكَ البَهائِمَ التَّقْلِيدِيَّةَ التي يُصِيبُها الحَنِينُ إلى أرْضِها نَتِيْجَةَ التَّعَبِ والظَّمأ. بَلْ هِيَ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّها قَدْ كانَتْ فِي مَرْعَىً خَصِيبٍ ومَاءٍ وَفِيْرٍ وشَجَرٍ كَثِيرٍ، غَيْرَ أَنَّهُنَّ قَدْ تَمَلَّكَتْهُنَّ الرَّغْبَةُ العَارِمَةُ في العَوْدَةِ إلى الشَّامِ، وقَدْ هَمَمْنَ بِأَنْ يَطِرْنَ إِلَيْهِ مَعَ رِيحِ الصَّبَا لَوْلا أَنَّهُنَّ كُنَّ حَبِيساتِ العُقُلِ. بَلْ لَقَدْ هَمَّ شاعِرُنا بِأَنْ يَأْمُرَ بِقَطْعِ أَرْجُلِهِنَّ بِالسَّيْفِ

لِيَعُوقَ ثَوْرَتَهُنَّ لَوْلا أَنَّهُ يَحْفَظُ ذِمامَهُنَّ ويَرْعَى حَقَّهُنَّ عَلَيْهِ. وفي حَقِيقَةِ الأَمْرِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الإِبِلُ سِوَى تَجْسِيدٍ لِأَحاسِيسِ الشَّاعِرِ ومَشاعِرِهِ.

والموضُوعُ الثاني، طَيْفُ الخَيَالِ، شَأْنُهُ شَأْنُ الأَوَّلِ، اسْتَخْدَمَهُ الشَّاعِرُ أداةً يُعَبِّرُ بِها عَنْ تأمُّلاتٍ في سِيْرَةِ حَيَاتِهِ هُو. وقَدْ زَعَمَ أبو العلاء أَنَّهُ إِنَّما هاجَ شَوْقَهُ إِلَى الوَطَنِ طَيْفُ خَيالِ مَحْبُوبَتِهِ الذي رَآه في مَنامِهِ لَيْلَةً مَضَتْ، فإذا كان ذَلِكَ ما هَاجَهُ هُوَ، فَما الذي هاجَ هَذِهِ الإِبِلَ؟ أَمْ لَعَلَّها هِي، كَذَلِكَ، رَأَتْ في كَرَاها أَنَّها تَرْعَى في أشْجَار العَقِيقِ التي تُحِبُّها بِالشَّام، تُجاذِبُ أغْصَانَ طَلْحِهِ وضَالِهِ. أو لَعَلَّها رَأَتْ في مَنامِها هذا أنَّها تَرْعَي في ظلِّ مَرْعَىً أحْوَى ضارِبٍ إلى السَّوادِ مِنْ شِدَّةِ خُضْرَتِهِ تَسْتَكِنُّ فِيهِ عِنْدَ الهاجِرَةِ اتِّقاءَ شِدَّةِ الحَرِّ. ثُمَّ يُصَوِّرُ أبو العلاء ما أثارَتْهُ هَذِهِ الأَحْلامُ في هَذِهِ الإِبِلِ مِنَ التِهابِ العَاطِفَةِ وشِدَّةِ الشَّوْقِ إلى مَواطِنِها ومَعاطِنِها بِالشَّامِ.

فَهَهُنا، كَمَا قَدْ تَرَى، جاءَتْ مُعالجَةُ (طَيْفِ الخَيَالِ) مِنْ أَبِي العلاء شَيْئاً طَرِيفاً مُسْتَحْدَثاً.

وفي قَصِيْدَةِ (مَغَانِي اللِّوَى) وَصَفَ أبو العلاء زَوْرَةَ خَيَالِ مَحْبُوبَتِهِ وحُلُولَهِ عِنْدَهُ بَعْدَ أَنْ طَوَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ المحْبُوبَةُ بِخَيالِها هذا الصَّحْرَاءَ الواسِعَةَ المُمْتَدَّةَ بَيْنَ الشَّامَ والعِراقِ حَيْثُ يُقِيمُ هُوَ، وجازَتْ إِلَيْهِ نَهْرَ الصَّرَاةِ بإِعْجازٍ أَوْرَثَهُ إِعْجاباً لِتُهْدِيَ إِلَيْهِ تَقْبِيلَةً حَلَتْ رِيقَتُها عِنْدَهُ، ولَهْيَ هَدِيَّةٌ ما كان لِيَظْفَرَ بِها في صَحْوِهِ.

عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ لَمْ تَكُنْ تَأْلِيفاً عَلائِيّاً أَصِيلاً، إِذْ هُوَ قَدْ أَخَذَها مِنَ البُحْتُرِيِّ أَخْذاً قَرِيباً، وإنْ كانَ قَدْ أَرْبَى عَلَى الأَخِيرِ وزَادَ، بِما لَهُ مِنْ ذَكاءٍ فَذٍّ وبَراعةٍ في الكِنايَةِ واللَّعِبِ اللَّفْظِيِّ.

فَخُذِ هَذِهِ المعَانِيَ التي نُثْبِتُها هَهُنا مِنْ قَصِيدَةِ أَبِي العَلاء ثُمَّ قارِنْها بِالمعانِي التي نُورِدُها بَعْدَها مِنْ قَصِيدَةِ البُحْتُرِيِّ:

أ- **مَعَانِي قَصِيدَةِ أَبِي العَلَاءِ:**

صَحِبْتِ كَرَانا والرِّكابُ سَفائِنٌ	كَعادِكِ فِيْنا والرَّكائِبُ أجْمَالُ
أَعُمْتِ إِلَيْنا أَمْ فَعَالَ ابْنِ مَرْيَمٍ	فَعَلْتِ وهَلْ يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكْسَالُ؟
كأَنَّ الخُزَامَى جَمَّعَتْ لَكِ حُلَّةً	عَلَيْكِ بِها فِي اللَّوْنِ والطِّيْبِ سِرْبَالُ
عَجِبْتُ وقَدْ جُزْتِ الصَّراةَ، رِفَلَّةً	وما خَضِلَتْ مِمَّا تَسَرْبَلْتِ أذْيَالُ
مَتَى يَنْزِلُ الحَيُّ الكِلابِيُّ بَالِساً	يُحَيِّيْكِ عَنِّي ظاعِنُوْنَ وقُفَّالُ؟
تَحِيَّةَ وُدٍّ ما الفُرَاتُ وماؤُهُ	بِأَعْذَبَ مِنْها وهْوَ أزْرَقُ سَلْسالُ
فَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ الهَجِيْرَ اسْتَشَفَّهُمْ	إِلَيْها فَمِنْها فِي المَزَايِدِ أسْمَالُ
أَتَعْلَمُ ذَاتُ القُرْطِ والشَّنْفِ أَنَّنِي	يُشَنِّفُنِي بِالزَّأْرِ أَغْلَبُ رِئْبَالُ؟
فَيَا دَارَها بِالحَزْنِ إِنَّ مَزَارَها	قَرِيْبٌ، ولَكِنْ دُوْنَ ذَلِكَ أهْوَالُ
إذا نَحْنُ أَهْلَلْنا بِنُؤْيِكِ سَاءَنا	فَهَلاً بِوَجْهِ المالِكِيَّةِ إِهْلالُ
تُصاحِبُ فِي البَيْدَاءِ ذِئْباً وذَابِلاً	كِلا صَاحِبَيْها فِي التَّنُوفَةِ عَسَّالُ
إذا أَغْرَبَ الرُّعْيَانُ عَنْها سَوَامَها	أُرِيْحَ عَلَيْها اللَّيْلَ هَيْقٌ وذَيَّالُ
تُسِيءُ بِنا يَقْظَى فَأَمَّا إذا سَرَتْ	رُقَاداً فَإِحْسَانٌ إِلَيْنا وإِجْمَالُ

(لَقَدْ صَحِبْتِنا في كَرَانا أيْ في أحْلامِنا ونَحْنُ سَفْرٌ عَلَى جِمَالِنا فِي البِيدِ بَرّاً، ثُمَّ ونَحْنُ سَفْرٌ عَلَى السَّفائِنِ فِي الماءِ بَحْراً؛ وقَدْ عَجِبْتُ لَكِ كَيْفَ جُزْتِ إِلَيْنا نَهْرَ الصَّرَاةِ وقَدْ نَجَتْ أذْيَالُ مَلْبَسِكِ النَّاعِمِ مِنَ الرَّشَاشِ والبَلَلِ وقَدْ ضَاعَ مِنْها الطِّيبُ كَأَنَّ نَبْتَ الخُزَامَى قَدْ حَاكَ لَكِ مِنْ نَفْسِهِ سِرْبَالاً هُوَ ما تَتَسَرْبَلِينَ بِهِ؛

(وهَلْ عُمْتِ إِلَيْنا أَمْ إِنَّكِ فَعَلْتِ فَعَالِ ابْنِ مَرْيَمَ، عِيْسَى، فَمَشَيْتِ عَلَى الماءِ؟ ولَكِنْ هَلْ تُعْطَى امْرَأَةٌ مِكْسَالٌ النُّبُوَّةَ، حتى تَمْشِيَ عَلَى الماءِ فِعْلَ الأَنْبِيَاءِ؟[1]؛

---

[1] عِيْسَى عِنْدَ المسْلِمِيْنَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ.

(وقَدْ حَملتِ إلَيْنا مِنْ أرْضِ الشَّامِ أطْيَبَ جُرْعةٍ وأنْزرَها والقَوْمُ هُنا ضُلَّالٌ تائِهُونَ بِالدَّوِّيَّةِ القَفْرِ؛

(فَلَهْيَ قُبْلَةٌ جَنَيْتُ مِنْها هَذِهِ الرِّيقَةَ البَالِغَةَ مِنَ القِلَّةِ والنَّزْرِ قَدْراً يُماثِلُ ما يَبْقَى بِالزُّجاجةِ بعْدَ أنْ يُراقَ مِنها ما بِها، وسَقْياً لِتِلْكَ الكَأْسِ، أو ذَلِكَ الفَمِ الشَّبِيْهِ بِخَاتَمِ الدُّرِّ، ولَكِنَّهُ فَمٌ مَنِيعٌ مَصُونٌ لا يَجْرُؤُ أعْظَمُ النَّاسِ خُيَلاءً وعِظَماً عَلَى أنْ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بِتَقْبِيلِهِ)[1]

ب- مَعَانِي قَصِيْدَةِ البُحْتُرِيِّ:-

أخَيَالَ عَلْوةَ كَيْفَ زُرْتَ وعِنْدَنا ... أرَقٌ يُشَرِّدُ بِالخَيالِ الزَّائِرِ؟
طَيْفٌ أَلَمَّ بِنا ونَحْنُ بِمَهْمَهٍ ... مَرْتٍ يَشُقُّ عَلَى المُلِمِّ الخاطِرِ
أفْضَى إلى شُعْثٍ تُطِيْرُ كَراهُمُ ... رَوْحاتُ قُوْدٍ كالقِسِيِّ ضَوَامِرِ
حتى إذا نَزَعُوا الدُّجَى وتَسَرْبَلُوا ... مِنْ فَضْلِ هَلْهَلَةِ الصَّبَاحِ الغائِرِ
ورَمَوْا إلى شُعَبِ الرِّحالِ بأَعْيُنٍ ... يَكْسِرْنَ مِنْ نَظَرِ النُّعَاسِ الفاتِرِ
أهْوَى فأسْعَفَ بِالتَّحِيَّةِ خِلْسَةً ... والشَّمْسُ تَلْمَعُ في جَنَاحِ الطَّائِرِ
سِرْنا وأنْتِ مُقِيمَةٌ ولَرُبَّما ... كانَ المُقِيمُ عَلاقَةً لِلسَّائِرِ
إمَّا انْجَذَبْنَ بِنا فَكَمْ مِنْ عَبْرَةٍ ... تَثْنِي إلَيْكِ بِلَفْتَةٍ مِنْ ناظِرِ

(أيْ طَيْفَ عَلْوَةَ! كَيْفَ تَجَشَّمْتَ أعْبَاءَ الزِّيارةِ فَطَرَقْتَنا ونَحْنُ نُعَانِي أرَقاً يُشَرِّدُهُ الخَيَالُ الزَّائِرُ؟ فَلَقَدْ أَلَمَّ بِنا هذا الطَّيْفُ ونَحْنُ نُزُولٌ بِهَذا المَهْمَهِ الجَدِيبِ الأجْرَدِ الذِي يَصْعُبُ عَلَى عَلْوَةَ أنْ تُلِمَّ بِهِ. جاءَ هَذا الطَّيْفُ قَوْماً شُعْثاً قَدْ أطارَ نَوْمَهُمْ ذَمِيْلُ مَطَايَاهُمُ الذُّلُلِ الضَّامِرةِ كالقِسِيِّ، فَمَا تَزالُ تَخِدُ بِهِمْ لَيْلَهُمْ حَتَّى يَنْقَشِعَ الدُّجَى وتَلُفَّهُمْ كِلَّةُ الصَّبَاحِ الرَّقِيقَةُ فَيَنْظُرُوا قُبالَةَ الأُفُقِ بِأَعْيُنٍ حَسِيرةٍ ناعِسَةٍ قَدْ أضْناها التَّعَبُ ونالَ مِنْها النَّصَبُ؛ فَجَاءَنا هذا الطَّيْفُ والشَّمْسُ تَلْمَعُ فِي جَناحِ الطَّائِرِ فأسْعَفَنا بِالتَّحِيَّةِ خِلْسَةً. ولَقَدْ سِرْنا

[1] لَمْ نُراعِ هُنا تَرْتِيْبَ الأبْياتِ كما جاءَتْ في القَصِيدَةِ، فتَأَمَّلْ.

مُتَرَحِّلينَ وأَنْتِ، عَلْوَةُ، مُقِيمَةٌ وَادِعَةٌ ولَرُبَّما كانَ المقِيمُ عَلاقَةً لِلسَّائِرِ. ولَئِنْ أسْرَعَتْ بِنا مَطِيُّنا فَكَمْ مِنْ عَبْرَةٍ سَالَتْ فَثَنَتْنا إِلَيْكِ نَتَلَفَّتُ صَوْبَ الدِّيارِ حَيْثُ تُقِيمِينَ وادِعةً).

وأما الموْضُوعُ الخامِسُ، الغُرابُ، فَقَدْ جاءَ في القَصِيدَتَيْنِ المرْثِيَةِ وتَوْدِيعِ بَغْدادَ، وكِلْتَاهُما مِمَّا يُناسِبُهُ (وقد كان الغُرابُ مُرْتَبِطاً عِنْدَ العَرَبِ بِسُوءِ الفَأْلِ والطَّالِعِ ووشْكِ وُقُوعِ الشُّرُورِ كالموْتِ والفِراقِ). وجاءَ وَصْفُ أبي العلاءِ لِلغُرابِ في كِلْتا القَصِيدَتَيْنِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الظَّرْفِ والفُكاهةِ وإنْ كان جَرَى عَلَى العُرْفِ في مَادَّتِهِ. فَفِي المرْثِيَةِ جَعَلَ الغُرابَ شاعِراً يَبْنِي قَوافِيَهُ عَلَى عَيْبِ (الإيْطاءِ) (وهُوَ تَرْدِيدُ القافِيَةِ عَلَى صِيغَةٍ واحِدَةٍ، كَمَا هُوَ في غَاقْ، غاقْ، غاقْ ...)[1]:

طارَ النَّوَاعِبُ يَوْمَ فادَ نَوَاعِياً ... فَنَدَبْنَهُ لِمُوافِقٍ ومُنافِ
أَسَفٌ أَسَفَّ بِها وأُثْقِلَ نَهْضُها ... بالحُزْنِ فهْيَ على التُّرابِ هَوافِ
ونَعِيْبُها كَنَحِيْبِها وحِدادُها ... أبَداً سَوَادُ قَوادِمٍ وخَوَافِ
لا خابَ سَعْيُكَ مِن خُفافٍ أَسْحَمٍ ... كَسُحَيْمٍ الأَسَدِيِّ أَوْ كَخُفافِ
مِنْ شاعِرٍ لِلبَيْنِ قالَ قَصِيْدَةً ... يَرْثِي الشريفَ على رَوِيِّ القافِ
جَوْنٍ كَبِنْتِ الجَوْنِ يَصْرُخُ دائِباً ... ويَمِيسُ في بُرْدِ الحَزِيْنِ الضَّافِي
عُقِرَتْ رَكائِبُكَ ابْنَ دَأْيَةَ غادِياً ... أيُّ امْرِئٍ نَطْقٍ وأيُّ قَوَافِ
بُنِيَتْ عَلَى الإِيْطاءِ سالِمَةً مِنَ الْـ ... إقْوَاءِ والإِكْفاءِ والإِصْرافِ
حَسَدَتْهُ مَلْبَسَهُ البُزاةُ ومَن لَها ... لَمَّا نَعاهُ لَها بِلُبْسِ غُدافِ

ولَكِنَّهُ في قَصِيدةِ الوَداعِ الفِراقِيَّةِ جَعَلَهُ نَبِيّاً عَلَى غَيْرِ شَرْعٍ ولا كِتابٍ مُنْزَلٍ ولَكِنَّهُ يَتَنَبَّأُ بِالفَجائِعِ مِنْ صَدْعِ الشُّعُوبِ وتَفَرُّقِ الأَحِبَّةِ[2]:

---

[1] سقط الزند ج ٢، ص ٥٨.

[2] نفسه ص ٦٨.

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعٍ يُخَبِّرُنا أنَّ الشُّعُوبَ إلَى الصَّدْعِ
أُصَدِّقُهُ في مِرْيَةٍ وقَدِ امْتَرَتْ صَحَابَةُ مُوْسَى بَعْدَ آياتِهِ التِّسْعِ
كأنَّ بِفِيهِ كاهِناً أوْ مُنَجِّماً يُحَدِّثُنا عَمَّا لَقِيْنا مِنَ الفَجْعِ

وأمَّا المَوْضُوعاتُ الأرْبَعَةُ الأُخَرَ، مِمَّا ذَكَرْنا آنِفاً، فَغَالِباً ما تَأْتِي إثْرَ تِلْكَ التي تَتَناوَلُ الانْفِعالاتِ الخاصَّةَ. وهِيَ ثابِتَةُ الوُرُودِ شَأْنَ النَّسِيبِ غَيْرَ أنَّها تَخْتَلِفُ عَنْ هَذا في شَيْءٍ واحِدٍ وهُوَ أنَّها لا تَأْتِي في مُفْتَتَحِ القَصِيدَةِ. هَذا، وقَدْ كانَ الغَرَضُ مِنْها جَمِيعاً إحْدَاثَ نَوْعٍ مِنَ الشُّعُوْرِ المَلَنْخُولِيِّ المُنْطَوِي عَلَى الحُزْنِ يَأْتِي عَقِبَ مَوْضُوعِ الانْفِعالِ الشَّخْصِيِّ لِيُخَفِّفَ مِنْ ثائِرَتِهِ ويُحِدَّ مِنْ هَيَجانِهِ ويُهَيِّئَ السَّامِعَ للانْتِقالِ إلَى الجُزْءِ التَّالِي مِنْ أجْزاءِ القَصِيدَةِ.

الفَتاةُ الباكِيَةُ:

لا يفُوتُ المرءَ أنْ يُلاحِظَ الطَّبِيعَةَ الزُّخْرُفِيَّةَ الخالِصَةَ لِلصُّوَرِ والتَّشْبِيهاتِ في هَذا المَوْضُوعِ. فَثَمَّةَ صُورَةٌ تَظْهَرُ فِيْها فَتاةٌ تَجْلِسُ عَلَى دِعْصٍ مِنَ الرَّمْلِ الوَعْساءِ تَبْكِي فَتَتَناثَرُ دُمُوعُها مِنْها عِقْداً مِنَ اللَّآلِئِ عَلَى عَقْدٍ مِنَ الرَّمْلِ، ثُمَّ تَنْصَرِفُ عائِدَةً إلى دارِها. ثُمَّ تَأْتِي أخواتٌ لَها مِنَ الظِّباءِ لِيَجِدْنَ هذا اللُّؤْلُؤَ الذّائِبَ أوِ اللُّؤْلُؤَ الذَّوْبَ ويَعْجَبْنَ لِمَ اسْتَأْثَرَتْ هَذِهِ الجَمِيلَةُ دُوْنَهُنَّ بِثَقِيلِ اللُّؤْلُؤِ أيْ الأَسْوِرَةِ والخَلاخِيلِ، ولَمْ تَتْرُكْ لَهُنَّ إلَّا هَذا اللُّؤْلُؤَ الذَّوْبَ[1] أيْ الدُّمُوعَ:

فَذَكَّرَنِي بَدْرَ السَّمَاوَةِ بادِياً ... شَفا لاحَ مِنْ بَدْرِ السَّمَاءَةِ بَالِ

وقَدْ دَمِيَتْ خَمْسٌ لَها عَنَمِيَّةٌ ... بِإدْمانِها فِي الأَزْمِ شَوْكَ سِيَالِ

تَقُولُ ظِبَاءُ الحَزْمِ والدَّمْعُ ناظِمٌ ... عَلَى عَقَدِ الوَعْساءِ عِقْدَ ضَلالِ:

لَقَدْ حَرَمَتْنا أثْقَلَ الحَلْيِ أُخْتُنا ... فَمَا وَهَبَتْ إلَّا سُمُوْطَ لَآلِي

فإنْ صَلَحَتْ لِلنَّاظِمِيْنَ دُمُوعُنا ... فَأنْتُنَّ مِنْها والكَثِيْبُ حَوالِ

جَهِلْتُنَّ أنَّ اللُّؤْلُؤَ الذَّوْبَ عِنْدَنا ... رَخِيْصٌ وأنَّ الجامِدَاتِ غَوالِ

ولَوْ كانَ حقّاً ما ظَنَنْتُنَّ لاغْتَدَتْ ... مَسَافَةُ هَذا البَرِّ سِيْفَ أَوَالِ

وهُناك صورةٌ أخرى لِفتاةٍ تَبْكِي وهي جالِسَةٌ عَلَى كَثِيبٍ مِن الرَّمْلِ، ولَكِنَّها هذِهِ المَرَّةَ تَتْرُكُ عَلَى الرَّمْلِ كُلَّ حُلِيِّها ودُرِّها، ما كان مِنْهُ دَمْعاً وما كان لُؤْلُؤاً، فَتَحَلَّى الرَّمْلُ مِنْها دُرَّيْنِ دَمْعاً ولُؤْلُؤاً، ثُمَّ انْصَرَفَتْ إلى دَارِها عِنْدَ الأصِيلِ عاطِلاً أيْ دَوْنَ حَلْيٍ كأنَّها الشَّمْسُ الغارِبَةُ[2] جَمالاً ولا زِيْنَةَ:

بَكَتْ فَكَأَنَّ العِقْدَ نَادَى فَرِيْدَهُ ... هَلُمَّ لِعَقْدِ الحِلْفِ قُلْبٌ وخَلْخالُ

---

[1] نفسه ج٢، ص ٤٤ — ٤٥.

[2] نفسه ج٢، ص ٥٠.

وهَلْ يَحْزُنُ الدَّمْعَ الغَرِيْبَ قُدُوْمُهُ   عَلَى قَدَمٍ كادَتْ مِنَ اللَّيْنِ تَنْهَالُ؟
تَحَلَّى النَّقا دُرَّيْنِ دَمْعاً ولُؤْلُؤاً   وولَّتْ أصِيْلاً وَهْيَ كالشَّمْسِ مِعْطالُ
بَأشْنَبَ مِعْطارِ الغَرِيْزَةِ مُقْسِمٍ   لِسَائِفِهِ أنَّ القَسِيْمَةَ مِتْفَالُ
فَلا أَخْلَفَ الدَّمْعَ الذي فاضَ شأْنُها   دُعَاءً لَهَا بَلْ أخْلَفَ النَّظْمَ لأآلُ

ولَمْ يأخُذْ أبو العلاء أيّاً مِنْ هَاتَيْنِ الصُّوْرَتَيْنِ مِنْ شاعِرٍ مِنَ الشُّعَراءِ قَبْلَهُ، غَيْرَ أنَّهُما كِلْتاهما تُمَثِّلُ مَزيجاً بارِعاً مِنَ المعَانِي والأفْكَارِ التَّقْلِيْدِيَّةِ المعْرُوْفَةِ لا تُعْطِي صُورَةً ذاتَ مَغزىً يُذْكَرُ، ولَكِنَّها تُعْطِي شُعُوراً عامّاً بِالحَنِيْنِ إلى الدِّيارِ والوَطَنِ. وعَناصِرُ هاتَيْنِ الصُّوْرَتَيْنِ هِيَ بُكاءُ الفَتاةِ المتَقَطِّعُ، واللُّؤْلُؤُ الذَّائِبُ وهْيَ الدُّمُوعُ ودِعْصُ الرَّمْلِ التَّقْلِيدِيُّ والظَّبْيَةُ الجَمِيلَةُ والشَّمْسُ الغارِبَةُ. والتَّشْبِيهاتُ التي اسْتَخْدَمَها هُنا قَدِيمَةٌ مُبْتَذَلَةٌ ولَكِنَّهُ ابْتِذالٌ قَدْ سَتَرَهُ تأنُّقُ أبي العلاءِ في اخْتِيَارِ أَلْفاظِهِ؛ فالهِلالُ، مَثَلاً، يُشَبَّهُ بِالنُّونِ العَرَبِيَّةِ خَطَّها ابْنُ هَلالٍ، أَحَدُ كِبارِ مُعاصِرِي أبِي العلاءِ:

ولاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُونٍ أجادَها   بِجَارِي النُّضَارِ الكاتِبُ ابنُ هِلالِ[1]

فَهَذا الهِلالُ يَراهُ الشَّاعِرُ بَدْراً نَحِيلاً – أَهْزَلَهُ شَهْرٌ مِنَ التَّرَحُّلِ والسَّفَرِ الشَّاقِّ، وذَكَّرَهُ هذا بِمَحْبُوبَتِهِ التي هِيَ- عِنْدَهُ- بَدْرٌ كامِلٌ في بَدانَتِها (كانَتِ البَدانَةُ قِيمَةً جَمالِيَّةً جَوْهَرِيَّةً ومِقْياساً أساساً لِجَمَالِ المرْأَةِ بِمَقايِيْسِ تِلْكَ الأيَّامِ):

فَذَكَّرَنِي بَدْرَ السَّمَاوةِ بادِناً   شَفَا لاحَ مِنْ بَدْرِ السَّمَاءَةِ بَالِ

الغزَلُ:

ويَجِيْءُ الغَزَلُ عندَهُ لِيَخْدُمَ ذاتَ الغَرَضِ الذي تَخْدُمُهُ صُورَةُ الفَتاةِ الباكِيةِ. وفَتاتُهُ في غَزَلِهِ فَتاةٌ بَدَوِيَّةٌ عَلَى طَرِيْقَةِ المتنبِّي الذِي كان قَدْ جَعَلَ مِن جَمالِ المرْأَةِ البَدَوِيةِ أُسْلُوب وطَرِيقاً

---

[1] نفسه ج١، ص ٤٤.

لاحِباً فِي الشِّعْرِ. وبَعْضُ أبْياتِ أبي العلاء في الغَزَل ذاتُ حَرارةٍ ودِفْءٍ عَظِيمٍ، وغَزَلُهُ في عُمُومِهِ يُمْكِنُ أنْ يُضاهِيَ حَقّاً غَزَلَ المتَقَدِّمِينَ مِنْ شُعَراءِ العَبَّاسِيِّينَ جَوْدةً وجَمالاً.

وقَدْ كانَتْ هُناكَ نَزْعةٌ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النُّقَّادِ العَرَبِ المعَاصِرِيْنَ نَحْوَ الاسْتِهانَةِ بِمَقْدِرَةِ أبي العلاء في مُعَالجةِ الغزَل[1] وتَبْخِيْسِها، وذَلِكَ مَا لا أساسَ لَهُ من الصِّحَّة على الإطلاق؛ فلو صَحَّ أنْ يَعِيبُوا عَلَيهِ كَوْنَهُ تَقْلِيدِيّاً لَلَزِمَ أن يُوَجَّهَ ذَاتُ العَيْبِ إلَى أُولَئِكَ الشُّعَراءِ الذِيْنَ أحَبَّهَمُ الناسُ حبّاً عَظِيماً لِمَهارَتِهِمْ في الغَزَلِ ولِفَنِّهِمُ الجَمِيلِ فِيهِ مِنْ أمْثَالِ البُحْتُرِيِّ والمتنبِّي. ولَقَدْ رَمَوْهُ بِتُهْمَةٍ أُخْرَى وهِيَ قَوْلُهُمْ إنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ خاضَ تَجْرِبَةً عَمَلِيَّةً فِي الحُبِّ وإنَّهُ، لِذَلِكَ، كانَ مَبْخُوسَ الحَظِّ في الصِّدْقِ عِنْدَما نَظَمَ في الغَزَلِ. وهَذِهِ كَذَلِكَ تُهمةٌ مُجْحِفةٌ وجائِرَةٌ؛ فَلَيْسَ مِنْ حَقِّنا أنْ نُقَرِّرَ ما إذا كان أبو العلاءِ قَدْ أحَبَّ في حَياتِهِ أو لَمْ يُحِبَّ؛ إذْ إنَّنا لا نَمْلِكُ دَلِيْلاً تارِيْخِيّاً شاهِداً عَلَى هذا الحُبِّ أو عَدَمِهِ. ولَكِنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ لَنا بُدٌّ مِن أنْ نَحْكُمَ عَلَيْهِ انْطِلاقاً مِنْ شَهادَةِ أبْياتِهِ الغَزَلِيَّةِ في سَقْطِ الزَّنْدِ، وكَفَى بِذَلِكَ شَهادةً، فَأَجِدُنا مَيَّالِينَ جِدّاً لِأنْ نَفْتَرِضَ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ بِعَاطِفَةِ حُبٍّ قَوِيَّةٍ إبَّانَ شَبابِهِ[2]. ومَعَ هذا فإنَّهُ مِنْ وِجهةِ نَظَرِ المهارَةِ الشِّعْرِيَّةِ والمقْدِرَةِ الفَنِّيَّةِ الخالِصَةِ أنَّكَ لستَ تَجِدُ ناقِداً مِنَ النُّقادِ يَرَى أنَّه يَلْزَمُ الشاعِرَ أنْ يَكُونَ قد أَحَبَّ فِعْلاً لِيُجِيدَ النَّظْمَ في الغَزَل. وقَدْ ذَكَرُوا أنَّ كُثَيِّراً، وهُوَ أحَدُ كِبارِ شُعَراءِ الغَزَلِ في الأدَبِ العَرَبِيِّ، كانَ مُتَكَلِّفاً ومُتَصَنِّعاً في إظْهارِ حُبِّهِ لِعَزَّةَ. ويُشاعُ عَنْ جَرِيرٍ، وهُوَ أحَدُ زُعَمَاءِ النَّسِيبِ، أنَّهُ كانَ في حَيَاتِهِ الخاصَّةِ بَعِيداً عَنْ قَصَصِ العِشْقِ والمغامَراتِ الغَرَامِيَّةِ. ولِذَلِك عَلَيْنا أنْ نَحْكُمَ عَلَى شِعْرِ الغَزَلِ عِنْدَ أبي العلاء بِما هُوَ عَلَيْهِ وبِما يَسْتَحِقُّ دُونَ سابقِ افْتِرَاضٍ مِنَّا أنَّهُ يَنْبَغِي أنْ تَنْقُصَهُ المقْدِرَةُ عَلَى نَظْمِ شِعْرِ الغزَل الجيِّدِ

---

[1] تَجْدِيدُ ذِكْرَى أبِي العلاء، ص ٢١٥.

[2] انْظُرِ الصَّفحاتِ ٥١٢-٥١٥ مِنْ هَذا الكِتابِ

لا لِشَيْءٍ إِلّا لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ أَحَبَّ امْرَأَةً. ولَقَد تَوَفَّرَ شِعْرُ أَبِي العلاء الذي نَظَمَهُ وهُوَ فِي بَغْدَادَ عَلَى أَمْثِلَةٍ صالِحَةٍ تَشْهَدُ عَلَى مَقْدِرَتِهِ عَلَى نَظْمِ هَذا اللَّوْنِ مِنَ الشِّعْرِ، ولَهِيَ مَقْدِرَةٌ حَقَّ لَهَا أَنْ تُضاهِيَ مَقْدِرَةَ أَيٍّ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ شُعَرَاءِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ مِنْ أَمْثَالِ البُحْتُرِيِّ وأَبِي تَمَّامٍ والمتنبِّي، وقَدْ نَبَّهَ ياقُوْتٌ عَلَى جَمَالِ قَصِيدَةِ أَبِي العلاء القَصِيْرَة:[1]

أَسَالَتْ أَتِيَّ الدَّمْعِ فَوْقَ أَسِيلِ ... ومَالَتْ لِظِلٍّ بِالعِرَاقِ ظَلِيلِ

أَيَا جارَةَ البَيْتِ المُمَنَّعِ جارُهُ ... غَدَوْتُ ومَنْ لِي عِنْدَكُمْ بِمَقِيلِ؟

لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جَمالٍ فَإِنْ تَكُنْ ... زَكاةُ جَمَالٍ فاذْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ

وأَرْسَلْتِ طَيْفاً خانَ لَمَّا بَعَثْتِهِ ... فَلَا تَثِقِي مِنْ بَعْدِهِ بِرَسُولِ

خَيَالٌ أَرَانا نَفْسَهُ مُتَجَنِّباً ... وقَدْ زارَ مَنْ صافِي الوِدادَ وَصُولِ

نَسِيْتِ مَكَانَ العِقْدِ مِنْ دَهْشِ النَّوَى ... فَعَلَّقْتِهِ مِنْ وَجْنَةٍ بِمَسِيلِ

وكُنْتِ لِأَجْلِ السِّنِّ شَمْسَ غُدَيَّةٍ ... ولَكِنَّها لِلْبَيْنِ شَمْسُ أَصِيلِ

أَسَرْتِ أَخَانا بِالخِدَاعِ وإِنَّهُ ... يُعَدُّ إذا اشْتَدَّ الوَغَى بِقَبِيلِ

فإِنْ تُطْلِقِيهِ تَمْلِكِي شُكْرَ قَوْمِهِ ... وإِنْ تَقْتُلِيهِ تُؤْخَذِي بِقَتِيلِ

وإِنْ عَاشَ لَاقَى ذِلَّةً واخْتِيَارُهُ ... وَفَاةُ عَزِيزٍ لا حَيَاةُ ذَلِيلِ

وكَيْفَ يَجُرُّ الجَيْشَ يَطْلُبُ غَارَةً ... أَسِيرٌ لِمَجْرُورِ الذُّيُولِ كَحِيلِ؟

وفِي إِحْدَى الطَّرَائِفِ الأَدَبِيَّةِ التِي أَوْرَدَها ياقُوْتٌ عَنْ أَبِي العلاء، أَشَارَ إِلى أَنَّ أَبْيات الغَزَلِ مِنْ قَصِيْدَةِ (مَغَانِي اللِّوَى) كانَتْ قَدْ نَالَتْ مِنْ بُعْدِ الصِّيْتِ فِي بَغْدادَ ما كانَتْ تَحْظَى بِهِ أَبْياتُ عَلِيِّ بْنِ الجَهْمِ النَّسِيْبِيَّةُ المشْهُورَةُ مِنْ قَصِيْدَتِهِ:

عُيُوْنُ المهَا بَيْنَ الرُّصافَةِ والجِسْرِ ... جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي ولا أَدْرِي

---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١٤.

ويُحدِّثُنا يُوسُفُ البَدِيعِيُّ أنَّ قَصِيْدَةَ أبي العلاء القَصِيْرَةَ الأُخْرَى (مِنْكَ الصُّدودُ) كانَتْ قَدْ لُحِّنَتْ وهُوَ في بَغْدَادَ، وأنَّهُ كانَ يَسْمَعُ النَّاسَ يَتغَنَّوْنَ بِها تِلْكَ اللَّيْلَةَ وهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ[1]

والحقُّ أنَّا لَسْنا في حاجَةٍ لِلبَحْثِ في إقامَةِ الدَّلِيْلِ عَلَى اعْتِرَافِ النُّقَّادِ القُدَماءِ بِمَقْدِرَةِ أبي العلاءِ في الغَزَلِ وإقْرَارِهِمْ لَهُ بِها؛ فَمَوْضُوعاتُ (طَيْفِ الخَيالِ) و(بُكاءِ الحَبِيْبَةِ) و(الغَزَلِ) لَمْ تَتْرُكْ لَنا مِنْ شَكٍّ في مَهارَةِ أبي العلاءِ في هَذا الفَنِّ واقْتِدارِهِ فِيهِ.

مَوْضُوعُ الرِّحْلَةِ:

لَعَلَّهُ كانَ مِنَ المُتَوَقَّعِ مِنْ أبِي العلاء أنْ يَكُونَ وَاقِعِيّاً في وَصْفِهِ لِرِحْلَتِهِ وأسْفارِهِ؛ لِأنَّهُ كانَ قَدْ قامَ بأكْبَرِ رِحْلَةٍ لَهُ في حَيَاتِهِ. ولَكِنَّهُ عَلَى النَّقِيْضِ مِنْ ذَلِكَ، جاءَتْ مَوْضُوعاتُ الرِّحْلَةِ في قَصَائِدِهِ، باسْتِثْناءِ ما جاءَ في قَصِيدَتِهِ لِأبي حامِدٍ الإسْفَرايِيْنِيِّ[2]، بَعِيدَةً حَقّاً عَنِ الوَاقِعِ وشَدِيدَةَ الشَّبَهِ بِغَزَلِهِ مِنْ حَيْثُ طَبِيْعَتُها الرَّسْمِيَّةُ المَلَنْخُولِيَّةُ الحَزِيْنَةُ.

فَالشَّاعِرُ هُنا أشَدُّ انْصِرَافاً إلى انْتِقَاءِ ألْفاظِهِ وتَخَيُّرِ الجِناسِ والطِّبَاقِ مِنْ أنْ يَصِفَ رِحْلَةً وَاقِعِيَّةً. والبَيْتَانِ التَّالِيَانِ مِثَالٌ صالِحٌ لِما ذَكَرْنا:

غُذِيْتُ النَّعَامَ الرُّوحَ دُوْنَ مَزَارِكُمْ وأسْهَرَنِي زَأْرُ الضَّرَاغِمَةِ الفُدْعِ
وما ذادَ عَنِّي النَّومَ خَوْفُ وُثُوبِها ولَكِنَّ جَرْساً حَال في أُذُنَيْ سِمْعِ

ولَكِنَّهُ أحْيَاناً رُبَّما تَبدَّتْ مُقارَبَةٌ وَاقِعِيَّةٌ، كَمَا في قَوْلِهِ:

وبِتُّ بِمُسْتَنِّ اليَرَابِيْعِ رَاقِداً يُطَوِّفْنَ حَوْلِي مِنْ فُرادَى ومِنْ شَفْعِ

---

[1] تَعْرِيْفُ القُدَماءِ بِآثارِ أبي العلاءِ، القاهرة ١٩٤٤، ص ٨١

[2] رَاجِعْ رِحْلَتَهُ إلَى بَغْدادَ في الفَصْلِ الأوَّلِ مِنْ هذا الكِتابِ

وصْفُ اللّيْلِ:

جاءَ وَصْفُ اللّيْلِ فِي قِطْعَةِ (مِنْكَ الصُّدُودُ)، وفِي قَصِيْدَةِ تَوْدِيعِ بَغْدَادَ وقَصِيدَتِهِ فِي البَرْقِيِّ. وإنَّما جاءَ في قَصِيدَةِ التَّوْدِيعِ في بَيْتَيْنِ فَقَطْ، إذْ شَبَّهَ اللّيْلَ ونُجُومَهُ بِنُوقٍ عَرِقَتْ لِأنَّ عَرَقَ الإِبِلِ أَسْوَدُ، وعَلَيْها قَلائِدُ مِنَ الوَدْعِ[1]:

كأنَّ الدُّجَى نُوقٌ عَرِقْنَ مِنَ الوَنَى　　　وأَنْجُمُها فِيْها قَلائِدُ مِنْ وَدْعِ

ويَبْدُو أنَّ كُلّاً مِنَ هَذِهِ القِطْعَةِ وقَصِيدَتِهِ فِي البَرْقِيِّ إنَّما نَظَمَهُما بَعْدَ حُلُولِهِ فِي بَغْدادَ، لِأنَّ نِصْفَ أبْياتِ الأُولَى وخَمْسَةَ أبْياتٍ مِنَ الثَّانِيَةِ وَقَفَها أبو العلاءِ جَمِيعاً عَلَى وَصْفِ اللّيْلِ وبِمَجْمُوعَةِ كَواكِبِهِ. وأمّا بَقِيَّةُ شِعْرِهِ الذِي نظَمَهُ وهُوَ بِبَغْدادَ، فَيَبْدُو أنَّ أبا العلاءِ قَدْ ضَلَّ فِيهِ تَماماً وَلَعَهُ القَدِيمَ بِمَوْضُوعِ اللّيْلِ. ومَعَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَخْلُ شِعْرُهُ الذي نَظَمَهُ فِيما بَعْدُ مِنَ الالْتِفاتِ إلى اللّيْلِ خُلُوّاً تامّاً.

اللغةُ المجازية والزَّخْرَفةُ وغيرُهما مِن خَوَاصِّ الأُسلُوب:

لَابُدَّ أنْ يَكُونَ أبو العلاءِ خِلالَ إقامَتِهِ بِبَغْدادَ قَدِ اسْتَمَعَ كَثِيراً إِلَى أَرْبابِ المُوسِيقَى والغِناءِ بِها فقَرَّبُ نَفْسَهُ أكْثَرَ إلى فُنُونِهِمْ. فَفِي كِتَابِهِ (الفُصُولُ) الذي كَتَبَهُ بَعْدَ رَجْعَتِهِ إِلَى المعَرَّةِ فُصُولٌ حَوَتْ مُصْطَلَحاتٍ مُوْسِيقِيَّةً[2]. ومِنَ المسْتَبْعَدِ جِدّاً أنْ يَكُونَ أبو العلاءِ كانَ قَدْ تَوَفَّرَ عَلَى هَذِهِ المعْرِفَةِ فِي المُوْسِيْقَى قَبْلَ أنْ يَنْهضَ بِرِحْلَتِهِ إِلَى العِرَاقِ. وتَكادُ أشْعارُهُ الأُوَلُ تَخْلُو مِنْ أيَّةِ إشارَةٍ إِلَى مُصْطَلَحاتِ المُوْسِيقَى؛ كَمَا ولا يُلْفِي المرْءُ أَثَراً لِلْمُوسِيقَى عَلَى أُسْلُوبِهِ فِيْها. ولَكِنَّكَ تَجِدُ فِي قَصائِدِهِ التي نَظَمَها وهُوَ بِبَغْدادَ كَثْرَةً كاثِرَةً مِنَ اللُّغَةِ المجازِيَّةِ الزُّخْرُفِيَّةِ وضُرُوبِ المشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ جِناساً وسَجْعاً وغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأدَواتِ والأساليبِ الشِّعْرِيَّةِ التي لَعَلَّهُ رَامَ بِها إحْدَاثَ نَوْعٍ مِنَ التَّنْغِيمِ أوِ الخَلْفِيَّةِ

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ٧٩.

[2] الفُصُولُ والغَاياتُ، ص ٨٨ — ٨٩.

الموْسِيقِيَّةِ لِمُخْتَلِفِ الموْضُوعاتِ. فَفِي مُعالَجَتَيْنِ لِمَوْضُوعِ (طَيْفِ الخَيالِ) وفي وَصْفِهِ لِنارِ (ابْنَيْ الشريف) وقِصَّةِ رِحْلَتِهِ مِنَ الشَّام، وفي الأبْياتِ التي مَدَحَ فِيْها غِناءَ الحَمامةِ الوَرْقاءِ ضُرُوبٌ بِعَيْنِها مِنَ التَّجْنِيسِ والمشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ تُوْحِي بِالأصْوَاتِ المتَّصِلَةِ والمتَناغِمَةِ عادَةً مَعَ مُخْتَلِفِ أَوْجُهِ هَذِهِ الموْضُوعاتِ. فَالتَّجْنِيسُ الصَّوتِي الذِي يَحْكِي صَوْتَيْ (را – را) و(ذا – ذا) في البَيْتِ:

لَعَلَّ كَرَاها قَدْ أَرَاها جِذَابَها ذَوَائِبَ طَلْحٍ بِالعَقِيْقِ وضَالِ

يُؤَدِّي ويَحْكِي صَوْتَ الإبِلِ وهِيَ مُنْهَمِكَةٌ في مَضْغِ أغْصانِ أشْجارِ الطَّلْحِ. وتَكْرارُ الصَّوْتَيْنِ (مِمْ) و(مِنَ) فِي البَيْتِ:

فَسُقْياً لِكَأْسٍ مِنْ فَمٍ مَثْلِ خَاتِمٍ مِنَ الدُّرِّ لَمْ يَهْمُمْ بِتَقْبِيْلِهِ خَالُ

يُمَثِّلُ فِكْرَةَ قُبْلَةِ الحَبِيْبِ التي مُنِحَها الشَّاعِرُ في خَيالِهِ. والكَافَاتُ الطَّرُوبةُ الجَذِلَةُ وأحْرُفُ العِلَّةِ في قَوْلِهِ:

صَحِبْتِ كَرَانا والرِّكابُ سَفَائِنٌ كَعَادِكِ فِيْنَا والرَّكَائِبُ أجْمَالُ

تُوْحِي بِفِكْرَةِ خَشْخَشَةِ أثوابِ المحْبُوْبَةِ. وتُوشِكُ أنْ تَسْمَعَ حَوْشَكَةَ ضَرَمِ النَّارِ وحَسِيْسَ لَهِيْبِها مِنْ هَذِهِ الأحْرُفِ الصَّوَامِتِ مِنْ قَوْلِهِ:

نارٌ لَهَا ضَرَمِيَّةٌ كَرَمِيَّةٌ تَأْرِيْثُها إرْثٌ عَنِ الأسْلافِ

وتَفِيْضُ قَصَائِدُهُ الأرْبَعُ الطِّوَالُ (طَرِبْنَ) و(مَغَانِي اللِّوَى) و(المرْثِيَةِ) و(تَوْدِيعِ بَغْدادَ) بِنَحْوِ هَذِهِ الأمْثِلَةِ.

هَذا، وقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاء الجِناسَ[1] والطِّباقَ[2] والسَّجْعَ لِيُضْفِيَ عَلَى لُغَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ تَزْوِيقاً وتَنْمِيقاً وَنَمْنَمَةً ووَشْياً، ولِيُكْسِبَ وَزْنَهُ الشِّعْرِيَّ مَزِيدَ إِيقَاعٍ مِنْ طَرِيقِ هذا الجَرْسِ اللَّفْظِيِّ. فَهُوَ هُنا اسْتَخْدَمَ ضُرُوباً مِنَ التَّشْبِيهاتِ والاسْتِعاراتِ التَّقْلِيدِيةِ أَدَواتٍ يُظْهِرُ بِها أصنافَ هذا الجِناسِ والطِّباقِ وضُرُوبَ السَّجْعِ؛ خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

ولاحَ هلالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَها	بِجَارِي النُّضَارِ الكاتِبُ ابْنُ هَلالِ
فَذَكَّرَنِي بَدْرَ السَّمَاوَةِ بادِناً	شَفَا لاحَ مِنْ بَدْرِ السَّماءَةِ بَالِ
وقَدْ دَمِيَتْ خَمْسٌ لَهَا عَنَمِيَّةٌ	بِإِدْمانِها فِي الأَزْمِ شَوْكَ سِيَالِ
تَقُوْلُ ظِبَاءُ الحَزْمِ والدَّمْعُ ناظِمٌ	عَلَى عَقَدِ الوَعْساءِ عِقْدَ ضَلَالِ
لَقَدْ حَرَمَتْنا أَثْقَلَ الحَلْيِ أُخْتُنا	فَما وَهَبَتْ إِلَّا سُمُوطَ لَئَالِي
جَهِلْتُنَّ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ الذَّوْبَ عِنْدَنا	رَخِيصٌ وأَنَّ الجامِداتِ غَوَالِ
ولوْ كانَ حقّاً ما ظَنَنْتُنَّ لاغْتَدَتْ	مَسَافَةُ هذا البَرِّ سِيْفَ أَوَالِ

فَهَهُنا تَقُومُ الصُّوْرَةُ الشِّعْرِيَّةُ عَلَى خَمْسَةِ تَشْبِيْهاتٍ تَقْلِيْدِيَّةٍ هِيَ:

أ. تَشْبِيْهُ الهِلالِ بِالنُّونِ العَرَبِيَّةِ، هَكَذَا (ن).

ب و ج. تَشْبِيْهُ المحْبُوبَةِ بِالبَدْرِ ثُمَّ بِالغزالَةِ.

د. تَشْبِيْهُ أسْنانِها بِشَوْكِ السَّيالِ.

هـ. تَشْبِيْهُ دُمُوعِها بِاللُّؤْلُؤِ الذَّوْبِ.

---

[1] هُوَ المشاكَلَةُ اللَّفْظِيَّةُ وهُناكَ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الجِناسِ هِيَ: الجِناسُ التامُّ مِثْلُ كَلِمَةِ (هِلال) بِمَعْنَى هِلالِ الشَّهْرِ و(هِلالِ) بِمَعْنَى الثُّعْبانِ. والجِناسِ شِبْهِ التامِّ، مِثْلِ سَلْمَى اسْمُ امْرَأَةٍ، وذُو سَلَمٍ اسْمُ مَوْضِعٍ، والجِناسُ النَّاقِصُ وهُوَ المشَاكَلَةُ اللَّفْظِيَّةُ بَيْنَ الأَحْرُفِ الأُوْلَى مِنَ الكَلِمَاتِ.

[2] هُوَ ضَرْبٌ مِنَ المقابَلَةِ

وإنَّما اسْتَخْدَمَ الشَّاعِرُ هَذهِ التَّعابِيرَ التَّقْلِيْدِيَّةَ المبْتَذَلَةَ لِيَتَمَكَّنَ مِنِ اسْتِخْدَامِ أَكْبَرِ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ أَصْنافِ الجِناسِ التامِّ وشِبْهِ التامِّ والطِّباقِ، وليَسْتَرْسِلَ ما وَسِعَهُ الاسْتِرْسالُ في الفُكَاهَاتِ والطُّرَفِ المْمتِعَةِ التي يأْتِي بِها مِنَ الصُّوَرِ الأصلِيَّةِ. فَأَصابِعُ الفَتَاةِ المصْبُوغَةُ بَالحِنَّاءِ يَرَاها دَامِيَةً لِأَنَّها مِنْ فَرْطِ حُزْنِها عَضَّتْ عَلَيْها بِأَسْنانِها الشَّوْكِيَّةِ. ثُمَّ وَرَدَتْ الظِّبَاءُ مَوْضِعَ الرَّمْلِ حَيْثُ كانَتْ تَبْكِي الفَتاةُ بَعْدَ أنْ وَلَّتْ إلى بَيْتِها، لِتَجِدَ ما خَلَّفَتْهُ وَرَاءَها مِنَ اللُّؤْلُؤِ الذَّوْبِ، فَتَعَجَّبْنَ كَيْفَ لَمْ تَتْرُكْ لَهُنَّ أخْتُهُنَّ هَذِهِ، أيْ الفَتاةُ، إلَّا رَخِيْصَ اللُّؤْلُؤِ واسْتَأْثَرَتْ هِيَ دُوْنَهُنَّ بِأَثْقَلِ الحَلْيِ وهُوَ الأساوِرُ والخَلاخِيلُ. (أيَّتُها الظِّباءُ المِسْكِيْنَةُ! أنْتُنَّ لا تَعْلَمْنَ أنَّ اللآلِئَ الذَّائبَةَ عِنْدَنا، بَنِي البَشَرِ، زَهِيدَةُ القِيمَةِ، لِأنَّها إنَّما يُمْرِيها الشَّوْقُ وهُوَ عِنْدَنا كَثِيرٌ، وهِيَ لِذَلِكَ كَثِيْرَةٌ رَخِيصَةٌ، وإنَّما النَّفِيسُ مِنْها عِنْدَنا الجَواهِرُ والأساوِرُ والخَلاخِيلُ، وإلاَّ لامْتَلأَ جانِبُ الصَّحْرَاءِ لآلِئَ وَدُرّاً ولَصارَ بِذَلِكَ شاطِئَ جَزِيرَةٍ لِلآلِئِ والدُّرِّ). وقَدْ وَظَّفَ أبو العلاءِ حَذْقَهُ ومَهارَتَهُ وصِناعَتَهُ مَعَ ما كانَ طَوْعَهُ مِنْ أدواتِ الأُسْلُوبِ لِيُظْهِرَ ذلِكَ وَلَعَهُ بِالألْفاظِ وخَصائِصَهُ العِلْمِيَّةَ المعْرِفِيَّةَ التي تَفَرَّدَ بِها. وقَدِ اسْتَعارَ اسْتِعارَاتِهِ وأَخَذَ تَشْبِيهَهُ ومَجازَهُ مِنْ كُلِّ مَيادِينِ الخِبْرَةِ والدُّرْبَةِ، واسْتَخْدَمَ مَلَكاتِهِ الفِطْرِيَّةَ ومَهارَتَهُ المكْتَسَبَةَ لِيُزَيِّنَ شِعْرَهُ ويُزَوِّقَهُ بفاخِرِ التعابِيْرِ وزاهِي اللُّغَةِ المجازِيّةِ البرّاقةِ. وفِي حَدِيْثِهِ عَنِ المرْأَةِ الأعْرابِيَّةِ، وَصَفَها بِأَنَّها (إعْرابِيَّةُ القَوْلِ بالطَّبْعِ) أيْ هِيَ مَطْبُوعَةٌ عَلَى صِحَّةِ الكَلامِ وإعْرابِهِ، ثُمَّ إنَّها قَدْ أتْقَنَتْ دَرْسَ (نَحْوِ) السُّرَى في الصَّحْرَاءِ، فَهِيَ عالِمَةٌ (بِجَرِّ) البَعِيْرِ و(رَفْعِهِ)، وذَلِكَ جَرُّهُ بِالزِّمامِ ورَفْعُهُ أيْ جِدُّهُ ومُبالَغَتُهُ في السَّيْرِ[1]:

وفي الحَيِّ أَعْرابِيَّةُ الأَصْلِ مَحْضَةٌ ... مِنَ القَوْمِ إعْرابِيَّةُ القَوْلِ بِالطَّبْعِ
وقَدْ دَرَسَتْ نَحْوَ السُّرَى فَهْيَ لَبَّةٌ ... بِما كانَ مِنْ جَرِّ البَعِيْرِ أوِ الرَّفْعِ

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ٧٣.

أَلِفْتِ المِلا حَتَّى تَعَلَّمْتِ بِالفَلا رُنُوَّ الطَّلا أَوْ صَنْعَةَ الآلِ بِالخَدْعِ

وقَدْ عبَّرَ عَنْ فِكْرَةِ مَرارَةِ فِراقِ مكانٍ بَعْدَ إِلْفِهِ والتَّعلُّقِ بِهِ، بأَنْ وَظَّفَ كَلِمَةَ (جَمْع) بِمَعْنَيَيْها الاصْطِلاحِيِّ النَّحْوِيِّ واللُّغَوِيِّ الدَّلالِيِّ العامِّ لَها. لِأَنَّكَ في اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ، غالِباً ما تَعْمِدُ إِلَى كَسْرِ بِنْيَةِ الكَلِمَةِ طَلَباً لِجَمْعِها، فالجَمْعُ عَلَى ذَلِكَ قَدْ يُوجِبُ تَكْسِيرَ الأَسْماءِ الصَّحِيحَةِ. وبِمِثْلِ هذا فاجْتِماعُ قَوْمٍ بَعْدَ افْتِرَقٍ غالِباً ما يُؤَدِّي إِلَى كَسْرِ قُلُوبِهِمْ لَوْشِيكِ فِراقِهِمْ مُجَدَّداً، وهُوَ مِمَّا يُؤْذِي ويُؤْلِمُ؛ يَقُولُ[1]:

تَلاقٍ تَفَرَّى عَنْ فِراقٍ تَذُمُّهُ مَآقٍ وتَكْسِيرُ الصَّحائِحِ في الجَمْعِ

وما أَرْوَعَ السَّجْعَ الدَّاخِلِيَّ في قَوْلِهِ: (تَلاقٍ) و(فِرَاقٍ) و(مآقٍ). وقَدْ جاءَ مِثْلُ هذا التَّتابُعِ في الكَلِماتِ المسْجُوعَةِ في كَثِيرٍ مِنَ الأبياتِ، نَحْوُ قَوْلِهِ[2]:

أَلِفْتِ المِلا حَتَّى تَعَلَّمْتِ بِالفَلا رُنُوَّ الطَّلا أَوْ صَنْعَةَ الآلِ بِالخَدْعِ

وكَثِيراً ما أَسْهَمَتْ بَرَاعَةُ أَبِي العلاء ورَشاقَتُهُ في الحِيَلِ الزُّخْرُفِيَّة إلى تَمَيُّزِ شِعْرِهِ، غَيْرَ أَنَّها أَحْياناً تَسْفُلُ بِهِ فَيَصِيْرَ مُجَرَّدَ أُنْمُوْذَجٍ مِنَ التَّلاعُبِ الذَّكِيِّ العَقِيْمِ الجافِّ. ويَغْلُبُ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ في شَعْرِهِ عِنْدَما يَقَعُ أبو العلاءِ تَحْتَ تَأْثِيرِ دِراساتِهِ المتَحَذْلِقَةِ المتَنَطِّسَةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُصْبِحُ أَسِيْرَ الأَلْفاظِ المقَفَّاةِ والكَلِماتِ المسْجُوعاتِ والزَّخْرَفَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِمَّا يَتَعَمَّدُ تَعاطِيَهُ؛ فَتَأْتِيَ تَشْبِيْهاتُهُ واسْتِعاراتُهُ آلِيَّةً قَدِ اسْتَجْلَبَتْها قَواعِدُ البَلاغةِ العَرَبِيَّةِ المرْعِيَّةِ اسْتِجْلاباً، ولَيْس عَفْواً بإِسْماحِ الإِلْهامِ الشِّعْرِيِّ. ويَبْدُو أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الاسْتِعارَاتِ والتَّشْبِيْهَاتِ يَجِيْءُ مِنْ طَرِيْقِ الصِّناعةِ المدَبَّرَةِ تَدْبِيْراً مَتْعُوباً فِيهِ. فإذا تَقَرَّرتْ عِنْدَهُ كَلِمَةُ (عَسَّال) قَافِيَةً لِلْبَيْتِ، وأَمْكَنَهُ اسْتِخْدَامُها صِفَةً لِذِئْبٍ (ذِئْبٍ يَعْسِلُ أَيْ يُرَهْوِنُ في

---

[1] نفسه ج ٢، ص ٧٠.

[2] نفسه ج ٢، ص ٧٤.

مِشْيَتِهِ، أو صِفَةً لِرُمْحٍ (رُمْحٍ يَعْسِلُ أيْ يَهْتَزُّ)، فَمَاذا عَسَى أنْ تَكُونَ بَقِيَّةُ البَيْتِ؟ وأغْلَبُ الظَّنِّ أنْ تَكُونَ إجابَةُ هَذَا السُّؤَالِ عَلَى هَذا النَّحْوِ:

إنَّها تُصاحِبُ في الصَّحْرَاءِ ذِئْباً ورُمْحاً وكِلا صاحِبَيْها هَذَيْنِ عَسَّالٌ:

تُصَاحِب في البَيْدَاءِ ذِئْباً وذَابِلاً كِلا صاحِبَيْها في التَّنُوفَةِ عَسَّالُ

ولابُدَّ أَنَّهُ اتَّبعَ ذَاتَ الصَّنِيعِ في نَظْمِ هَذِهِ الأبْياتِ:

حُرُوْفُ سُرىً جاءَتْ لِمَعْنَىً أرَدْتُهُ بَرَتْنِيَ أسْماءٌ لَهُنَّ وأفْعَالُ

إذا صَدَقَ الجَدُّ افْتَرَى العَمُّ لِلْفَتَى مَكارِمَ لا تُكْرِي وإنْ كَذَبَ الخَالُ

دَهْمَاءَ رَاكِبَةٍ ثَلاثَةَ أَرْجُلٍ عِظَماً وإنْ حُسِبَتْ ثَلاثَ أَثَافِ

فَدُوْنَكُمُ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإنَّنا نَصَبْنا المطَايا بِالفلاةِ عَلَى القَطْعِ

تُسِيءُ بِنا يَقْظَى فأمَّا إذا سَرَتْ رُقاداً فإحْسَانٌ إلَيْنا وإجْمَالُ

وما بِالبَيْت الأخِيرِ مِنْ أَثَرِ الصِّناعَةِ قَدْ سَتَرَتْهُ الفِكْرَةُ الذَّكِيَّةُ التي يُؤَدِّيْها. ولا يَخْفَى أنَّ هَذَا البَيْتَ سَرَقَهُ أبو العلاء كُلَّهُ مِنَ البُحْتُرِيِّ دُوْنَ أنْ يُحْدِثَ فِيهِ تَغْيِيراً، وبَيْتُ البُحْتُرِيِّ المسْرُوقُ هُوَ[1]:

جَذْلانُ يَسْمَحُ في الكَرَى بِعِناقِهِ ويَضَنُّ في غَيْرِ الكَرَى بِسَلامِهِ

ولَقَدْ كانَ مِنَ البَلِيَّةِ حَقّاً أنْ يَسْتَمِرَّ أبو العلاءِ في تَأْلِيفِ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الأبياتِ المصْنُوعةِ حَتَّى أَوَاخِرِ حَياتِهِ؛ فَقَدْ بَقِيَتْ شَائِنَةً في أعْمَالِهِ العَبْقَرِيَّةِ التي لا تُدَانَى. ومِمَّا لا شكَّ فِيهِ أنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأبْياتِ كانَ مِمَّا يُعْجِبُ مَنْ عاصَرَهُ مِنَ البَلاغِيِّينَ وعُلَماءِ البَيَانِ

[1] دِيْوَانُ البُحْتُرِيِّ، ج ٢، ص ٢١.

واللُّغَةِ ويُرْضِي ذَوْقَهُمْ. فَعِنْدَهُمْ كانَ يُحْكَمُ عَلَى الاسْتِعارةِ أوِ التَّشْبِيْهِ بِالجَوْدَةِ أوْ بِعَدَمِها لا عَلَى أسَاسِ ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ القِيمَةِ الفَنِّيَّةِ، ولَكِنْ أخْذاً بِالشَّكْلِ اللُّغَوِيِّ الذِي يُقامُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّشْبِيهُ أوْ تِلْكَ الاسْتِعارَةُ. فَكُلُّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الكَلامِ تُعْطِي تَشْبِيهاً أوْ تَشْخِيصاً، تَنْقَسِمُ عِنْدَهُمْ إلى مُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ. ويَتَكَوَّنُ التَّشْبِيْهُ التامُّ مِنْ أرْبَعَةِ أرْكانٍ، فَفِي قَوْلِكَ مثلاً: وَجْهُ الفتاةِ مِثْلُ القَمَرِ في الجَمَالِ، تَكُونُ أركانُ هذا التَّشْبِيْهِ هَي:

١- وَجْهُ الفَتاةِ، هو المشَبَّهُ؛

٢- مِثْلُ: هي أدَاةُ التَّشْبِيْهِ، (أو أيّ أداةٍ أُخْرَى مِثل (الكَافِ) و(كَأَنَّ) و(يُشْبِهُ).

٣- القَمَرُ: هو المشَبَّهُ بِهِ؛

٤- الجَمَالُ: هو وَجْهُ الشَّبَه.

ولَرُبَّما اخْتُزِلَ التَّشْبِيهُ اخْتِزَالاً بِصُوَرٍ وصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ فَالتَّشْبِيهُ مِن وِجْهَةِ النَّظَرِ البَلاغِيّةِ يَعلُو ويَزِيدُ قُوَّةً كُلَّما اخْتُصِرَتْ الصُوْرَةُ التي يَجِيْءُ بِها، وهاكَ مِثَالاً عَلَى ذَلِكَ:

١. وَجْهُها قَمَرٌ.

٢. قَمَرُ وَجْهِها.

فَالاسْتِعارةُ تَشْبِيهٌ في أكْثَرِ صُوَرِهِ اخْتِصاراً، كَمَا في قَوْلِكَ: (الخَطِيبُ في غِمْدِي) وأنْتَ تُرِيدُ (سَيْفِي). فالمشَبَّهُ هُنا هُوَ السَّيْفُ، وإنَّما كانَ التَّشْبِيهُ أصْلاً: السَّيْفُ كالخَطِيبِ. وثَمَّةَ نَوْعٌ مِنَ الاسْتِعارَةِ أعْلَى، تُسْنَدُ فِيهِ لَازِمَةٌ مِنْ لَوَازِمِ المشَبَّهِ بِهِ، بَعْدَ حَذْفِهِ، إلى المشَبَّهِ، مِثْلُ:

١- اللِّسَانُ الصَّيْرَفِيُّ في غِمْدِي.

٢- ما بِغِمْدِي سَيَتَكَلَّمُ لُغَةَ الموْتِ الرَّهِيبَةَ.

وكانَتِ المبالَغَةُ تُعَدُّ أمْراً لازِماً في صَوْغِ الاسْتِعارَاتِ والتَّشْبيهاتِ. فَلَوْ أنَّ شاعِراً قَالَ، مَثَلاً، (جَذْوَةُ النَّارِ كَالياقُوتَةِ الحَمْرَاءِ)، ثُمَّ طَرَقَ هذا المعْنى شاعِرٌ آخَرُ، لزِمَ هذا الأخِيرَ أنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ المبالَغةِ أو التَّوسيعِ بِالزِّيادَةِ والإرْباءِ، كأنْ يَقُولَ مَثَلاً: (نارٌ كَجَبَلٍ مِنَ اليَاقُوتِ). وكانَ الزَّمَخْشَرِيُّ مُحِقّاً إذِ انْتَقَدَ أبا العلاءِ وعنَّفَهُ[1] لاسْتِخْدَامِهِ لِهَذَا الأُسْلُوبِ المنْطَوِي عَلَى الإرْباءِ والزِّيادةِ أو المبالَغَةِ فِي بَيْتِهِ[2]:

حَمْرَاءُ ساطِعَةُ الذَّوَائِبِ في الدُّجَى   تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

فَرَأَى أنَّ تَشْبِيهَ أبِي العلاءِ[3] هُنا مُحاوَلَةٌ لِلإرباءِ والزِّيادَةِ عَلَى التَّشْبِيْهِ القُرْءانِيِّ ﴿إنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ﴾. ولَقَدْ كانَ لِقَواعِدِ البَلاغَةِ، وهِيَ غَيْرُ كافِيَةٍ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ ولا وَافِيَةٍ لِلدِّرَاسَةِ النَّقْدِيَّةِ لِأيٍّ مِنْ أعْمَالِ الشِّعْرِ، أثَرٌ بالِغٌ عَلَى أُوْلَئِكَ الكُتَّابِ الذِيْنَ كانوا يُقَدِّرُونَ المهَارةَ وإتْقانَ الأُسْلُوْبِ، لا سِيَّما في النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ وما تَلاهُ مِنْ حِقَبٍ. وخِلالَ القُرُونِ الهِجْرِيَّةِ السَّادِسِ والسَّابِعِ والثَّامِنِ، سَيْطَرَتِ المقايِيْسُ

---

[1] هُو العلَّامةُ مَحْمُود بْنُ عُمَرَ المعْتَزِلِيُّ (٤٦٧ – ٥٨٣هـ) كان حُجَّةً في اللُّغَةِ والقُرْءانِ والحَدِيْثِ، وقَدْ كَتَبَ عَدَداً مِنَ التآلِيْفِ النَّفِيسةِ، أَهَمُّها تَفسِيْرُهُ المسَمَّى بِالكشَّافِ ومُعْجَمُهُ النَّفِيْسُ المسَمَّى بِالأساسِ. وانظرْ تَفْسِيرَهُ لِلآيَةِ ٣٢ من سُورَةِ المرْسَلَات، في كتابِهِ: الكَشَّاف، طَبْعة القاهِرة، ١٣٥٤هـ، المجلد الرابع، صفحة ١٧٥

[2] سقط الزند، ج ٢، ص ٦٣.

[3] بَلْ شَنَّ عَلَيْهِ هُجوماً عَنِيْفاً واصِفاً إيَّاهُ بِالخُبْثِ، وداعِيَاً عَلَيْهِ بِأنْ يجمعَ اللهُ لَهُ عَمَى الدَّارَيْنِ. وقد انتَصَرَ لَهُ عَبدُ الرحمَنِ بْنُ محمَّدٍ القماش فِي كِتابِ (الحاوِي)قائِلاً، بَعْدَ أنْ أوْرَدَ تَفسيرَ الزَّمَخْشَرِيِّ البلاغِيَّ ورأيَهُ في أبِي العَلاءِ: (أقولُ: والزَّمَخْشَرِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ- يَتَحكَّكُ بِأبِي العَلاءِ فِي مَوَاطنَ كَثِيرةٍ وهُو- كما نَرى في نَقْدِهِ لِبَيْتِ المعرِّيِّ الجمِيْلِ- ظاهِرُ التحانُفِ والمَيْلِ وقَدْ تعوَّدْنا مِن الزمخشَرِيِّ أنْ يَعْرِضَ لِخُصُومِ المعتزلَةِ، ولَيْسَ أبو العلاءِ مِنْهُم، ولَكِنَّ الزمخشَرِيَّ كان رَجُلاً أدِيْباً قَرَأَ رَسائِلَ المعرِّيِّ وَفطِنَ لِمَوْقِفِهِ مِن النُّحاةِ فَحَمَلَهُ كُرْهُهُ على التَّحَرُّشِ بِهِ. وهَذِهِ الخصومةُ النَّحْوِيَّةُ قَد جَنَتْ عَلَى أبِي العلاء، فإنَّ النُّحاةَ أهْمَلُوا شِعْرَهُ ونَدَرَ جِدَّاً أنْ تَعَرَّضُوا لَهُ بِشَرْحٍ أو استِشهادٍ أو نَقْدٍ وقد عُنُوا بِشِعْرِ أبي تمَّامٍ والمتنبِّي لِمَا فِيْهما مِن تَصَرُّفٍ في اللُّغَةِ وفي الأَساليْبِ النَّحْوِيَّةِ وقَد كانَ في شِعْرِ أبِي العلاءِ ما يُغْرِيْهِمْ بِدَرْسِهِ ولكِنَّهُم أعْرَضُوا عَنْهُ؛ وقد مَرَّ في هذا الكِتابِ نَقْدُ أَبِي العَلاءِ لِلُنحاةِ فَجَدَّدَ بِهِ عَهْداً). قلتُ: بَلْ أَرى أنَّ سَبَبَ هُجومِ الزَّمَخْشَرِيِّ الحقِيْقِيَّ هو هُجومُ أبِي العَلاءِ عَلَى المعْتَزِلَةِ وتَعْنِيْفُهُ لَهُمْ، كما ورَدَ في اللُّزُومِ (المترجم)

البَلاغيَّةُ ومَعايِيرُها عَلَى أغْلَبِ الأُدَباءِ، وتَحَكَّمَتْ فِيهِمْ أيَّما تَحَكُّمٍ. فابْنُ الأَثِيرِ، وهُوَ أحَدُ أعْظَمِ النُّقَّادِ العَرَبِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ في أنْ يَسْتَشْهِدَ بأَشْعَارِهِ هُوَ، عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّفاخُرِ والتجرُّؤِ والعُجْبِ، يَسْتَدِلُّ بِها عَلَى نَماذِجَ بِعَيْنِها مِنَ التَّشْبِيهاتِ والاسْتِعارات يَرَى فِيْها بَراعةً فائِقَةً[1]. ومَعَ زَعْمِهِ أنَّهُ إنَّما نَظَمَ هذا الذِي اسْتَشْهَدَ بِهِ مِنْ شِعْرِهِ طَوَاعِيَةً وبِالبدِيْهةِ، إلَّا أنَّهُ لَنْ يَفُوتَ القارِئَ أنْ يُلاحِظَ أنَّها نِتاجُ قَدْرٍ مِنَ الصِّناعَةِ عَظِيْمٍ.

ولَقَدْ كانَ لِتَحْلِيلِ عَناصِرِ الكَلامِ وأسالِيْبِهِ من قبلِ النُّقَّادِ المعاصِرِينَ لِأَبِي العَلاءِ ومَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ كابْنِ الأَثِيرِ، ثُمَّ اكْتِشافِ قاعِدَةِ المسْنَدِ والمسْنَدِ إِلَيْهِ، فَضْلٌ كَبِيرٌ على نُظَّامِ الشِّعْرِ، إذْ زَوَّدَهُم ذَلِكَ بِأَداةٍ بارِعَةٍ في صِناعةِ التَّشْبِيْهاتِ والاسْتِعَاراتِ. وقَدْ كانَ أبو العلاءِ، وهُوَ مَنْ كانَ دائِمَ الحِرْصِ عَلَى إدْراكِ الكَمالِ في عالَمِ الأَدَب، أحَدَ الرُّوَّادِ الأَوَائِلِ الذِينَ أفَادُوا مِنْ هَذِهِ الأَدَاةِ الخَطِيرَةِ الشَّأْنِ في شِعْرِهِ. ولْنَضْرِبْ عَلَى ذَلِكَ مَثَلاً:

ويَأْبَى ذُبابٌ أنْ يَطُوْرَ ذُبابَهُ ... ولَوْ ذَابَ في أرْجَائِهِ عَمَلُ الرَّضْعِ

فالشَّاعِرُ هُنا يَجْرِي وَرَاءَ الجِناسِ التَّامِّ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (ذُبابٍ) بِمَعْنَى حَدِّ السَّيْفِ، و(ذُبَابٍ) بِمَعْنَى الحَشَرَةِ المنزلِيَّةِ المعْرُوفَةِ، وقَدْ كانَتِ الفِكْرَةُ التي رَبَطَ بِها هَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ لِتَتَّسِقَا فِي بَيْتٍ واحِدٍ بَسِيطَةً، هِيَ (أَنَّ هَذا السَّيْفَ مَرْهُوبُ الحَدِّ حَتَّى إنَّهُ لَوْ سَالَ مِنْ جوانبِهِ العَسَلُ ما تَجَرَّأَ الذُّبابُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنهُ) ولَكِنْ كانَ يَلْزَمُ الشَّاعِرَ أنْ يَأْتِيَ بِالقَافِيَةِ الأَخِيْرَةِ وأنْ يَمْلأَ تَقاطِيعَ البَيْتِ؛ فاسْتَخْدَمَ الشَّاعِرُ لِكَلِمَةِ (العَسَلِ) عِبارَةَ (عَمَل الرَّضْع) والرَّضْعُ فِرَاخُ النَّحْلِ، ثُمَّ لِيُحافِظَ عَلَى إقامَةِ الوَزْنِ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَلْجَأَ إِلَى الرُّخْصَةِ الشِّعْرِيَّةِ فاسْتَخْدَمَ هَذِهِ الكَلِمَةَ بِالسُّكُونِ (الرَّضْع) بَدَلاً عَنِ الصِّيغَةِ الصَّحِيحَةِ وهِيَ (الرَّضَعَ) بِالفَتْحِ. ثُمَّ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَجِيءَ بالاسْتِعارَةِ الذَّكِيَّةِ ولكنَّها بَعِيدَةٌ، وهِيَ كَلِمَةُ (يَطُور)

---

[1] انظر المثل السائر، ص ٢٤٢ — ٢٤٣.

لِيُؤَدِّيَ بِها مَعْنَى كَلِمَةَ (يَدْنو)؛ لِأَنَّ (يَطُورُ) تَعْنِي يَأْتِي طِوارَهُ أَوْ مَجالَهُ، وهَذا يُوَلِّدُ فِكْرَةَ تَخَيُّلِ أنْ يَكُونَ لِلسَّيْفِ مَجالٌ لا يَجْرُؤُ الذُّبابُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ.

ويُمْكِنُكَ أنْ تَلْحَظَ هَذا النَّحْوَ مِنَ الصِّناعَةِ والعَمَلِ في هَذِهِ الأَبْياتِ:

وَلَمَّا ضَرَبْنا قَوْنَسَ اللَّيْلِ مِنْ عَلٍ تَسَرَّى بنَضْخِ الزَّعْفَرانِ أوِ الرَّدْعِ

يُحاذِرْنَ مِنْ لَدْغِ الأَزِمَّةِ لا اهْتَدَى مُخَبِّرُها أنَّ الأَزِمَّةَ أَصْلالُ

وشَكْلَيْنِ ما بَيْنَ الأَثافِيِّ واحِدٌ وآخَرُ مُوفٍ مِنْ أَراكٍ عَلَى فَرْعِ

فَقَدْ جاءَتِ صُوَرُ هَذِهِ الاسْتِعاراتِ في جَمِيعِ هَذِهِ الأَبْياتِ وقَدْ صُنِعَتْ صِناعَةً لِتُوَلِّدَ لَوْناً مُعَيَّناً مِنْ أَلْوانِ المشاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ أبو العلاء أَكْثَرَ مِنْ ناظِمِ شِعْرٍ مُجْتَهِدٍ. فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوالِ يُخْفِي ذَوْقُهُ الرَّفِيْعُ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ صَبْغَةَ التَّعَمُّلِ وأَثَرَ الصِّناعَةِ في بَعْضِ أشْعارِهِ ويَمْنَحُها تَوهُّجاً شِعْرِيّاً لا يُجْحَدُ، فَخُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

حَكَتْ وهْيَ تُجْلَى ناظِرَ السَّبُعِ اجْتَلَى مَعَ اللَّيْلِ أَكْلَى والرِّكابُ عَلَى سَبْعِ

وما أَوْرَقَتْ أَوْتادُ دارِكَ بِاللِّوَى ودارَةَ حَتَّى أُسْقِيَتْ سَبَلَ الدَّمْعِ

وقَدْ تأَثَّرَتْ مُعْظَمُ اسْتِعارَاتِهِ التي أُلْهِمَها مِنْ مَدْفَعِ القَرِيْحَةِ الشِّعْرِيَّةِ الحَقَّةِ بِحَذْلَقَتِهِ في الأُسْلُوْبِ تأثُّراً كَبِيْراً. وهَذَا ما عَسَى أنْ يُفَسِّرَ لَنا شُيُوْعَ الاسْتِعارَاتِ المكْنِيَّةِ في قَصائِدِهِ. وهِيَ الاسْتِعارَةُ التي يُحْذَفُ فِيْها المشَبَّهُ بِهِ ويُرْمَزُ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ لَوازِمِهِ، يُسْنَدُ إلى المشَبَّهِ وغَالِباً ما تَجِيءُ هَذِهِ الاسْتِعارَاتُ في صِيَغِ الأَفْعالِ أَوْ مُشْتَقَّاتٍ مِنْها؛ فَقَصِيْدَةُ (التَّوْدِيعِ) وَحْدَها ضَمَّتْ عِشْرِينَ ونَيِّفاً مِنْ هَذِهِ الاسْتِعارَاتِ، مِثْل:

فَيَا لَكَ مِنْ أَمْنٍ تَقَلَّدَهُ الفَتَى وباتَ بِهِ الأَعْداءُ فِي خِطَّةٍ بِدْعِ

وأَبْرَزَهُ مِنَ نارِهِ القَيْنُ أَخْضَراً كأنْ غَيْثَ فِيْها بِالتَّلَهُّبِ والسَّفْعِ

يَدِرُّ بِهِ خِلْفُ المَنُوْنِ دَمَ الطُّلَى ويَكْبُرُ عَنْ فَطْرِ الوَلائِدِ والرُّضْعِ

وجاءَتْ بَعْضُ هَذِهِ الاسْتِعارَاتُ وَلِيْدَةَ أفْكَارٍ أوْ عاداتٍ بَلَغَتْ حَدّاً مِنَ العُرْفِ والذُّيُوعِ بِحَيْثُ يَكْفِي أنْ تَسْتَخْدِمَ مِنْها كَلِمَةً وَاحِدَةً استِخْدَاماً مجازِيّاً حَتَّى تَتداعَى الفِكْرَةُ كُلُّها أوِ العَادَةُ كُلُّها إلى ذِهْنِ المسْتَمِعِ، كَمَا فِي:

إذا نَحْنُ أهْلَلْنا بِنُؤْيكِ سَاءَنا   فَهَلَّا بِوَجْهِ المالِكِيَّةِ إهْلالُ

وعَرْضُ فلاةٍ يُحْرِمُ السَّيْفُ وَسْطَها   ألا إنَّ إحْرَامَ الصَّوَارِمِ إحْلالُ

ومِمَّا يَجْدُرُ مُلاحَظَتُهُ أنَّ أبا العلاء يَسْتَخْدِمُ مَعَ أغْلَبِ هَذِهِ الاسْتِعارَاتِ ما يُعْرَفُ بِالتَّجْرِيْدِ والتَّرْشِيْحِ[1]. ولِبَيانِ هَذَيْنِ يَحْسُنُ بِنا أنْ نَعُودَ إلى صُوْرَةِ السَّيْفِ خَطِيباً؛ فَلَوْ أنَّ قائِلاً قالَ: (الخَطِيبُ الذي فِي غِمْدِي سَيَقْطَعُ رُؤُوْسَ عِدَايَ) كانَ الجُزْءُ الأخِيْرُ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ هُوَ التَّجْرِيدُ. ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: (الخَطِيبُ الذي في غِمْدِي سَيَتَكَلَّمُ بِعِبارَاتِ الموْتِ إلى أعْدَائِي) كانَ الجُزْءُ الأخِيْرُ هُنا هُوَ ما يُسَمُّونَهُ (التَّرْشِيْحَ). ثُمَّ إنَّ هَذَا البَيْتُ مِنْ أمْثِلَةِ التَّجْرِيدِ عِنْدَ أبِي العلاء:

تَرَى كُلَّ خَطْباءِ الجَناحِ كَأَنَّها   خَطِيبٌ تَنَمَّى فِي الغَضِيْضِ مِنَ اليَنْعِ

وفِيْما أوْرَدْنا آنِفاً مِنَ الأبْياتِ أمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ لِلتَّرْشِيحِ.

وقَصائِدُ أبي العلاء الأرْبَعُ الطِّوَالُ جَمِيعُها مَلأَى بِأَمْثِلَةِ هَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ مِنَ الاسْتِعارَةِ. فَفِي وَصْفِهِ لِلنُّوقِ بِعُبَّادٍ يَهُوْدٍ يُرَتِّلُونَ سِفْرَ المزامِيرِ، وبِرُجَّازٍ قُدامَى يُنْشِدُونَ شِعْراً في الحَنِيْنِ والشَّوْقِ، يَسْتَخْدِمُ أبو العلاءِ التَّرْشِيحَ لِيَتَوَسَّعَ في صُوَرِهِ ويَجْعَلَها أكْثَرَ حَيَوِيَّةً.

---

[1] كِلاهُما مِن أوصافِ الاستعاراتِ، فـ(التَّجْريدُ) هُو ذِكْرُ ما يَتعلَّقُ بِالمشَبَّهِ أو ذِكْرُ صِفةٍ من صِفاتِهِ، فإذا تَعَلَّقَ ذَلِكَ بِالمشَبَّهِ بِهِ فَهُو (التَّرْشِيحُ). فمِثالُ التَّجْرِيدِ، قولُ أحمدَ شوقِيّ:

وسَلا مِصْرَ هَلْ سَلا القَلْبُ عَنْها   أوْ أسَا جُرْحَهُ الزَّمانُ المؤَسِّي

والتجْرِيدُ في كَلِمةِ (المؤَسِّي)، وَصَفٌ يَتَعلَّقُ بالمشبَّهِ وهو الزَّمانُ، فهو شبَّهَ الزَّمانَ بِطبيبٍ وحَذَفَهُ ورَمَزَ إليه بِكَلِمةِ (أسا) (المترجم)

وهُوَ هُنا لا يَكْتَفِي بِاسْتِخْدَامِ أَدواتِ عُلماءِ البَلاغةِ وحَسْبُ ولَكِنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى مَقْدِرَتِهِ الفَنِّيَّةِ وبَصِيرَتِهِ الفِطْرِيَّةِ. فَمَزامِيرُ الزَّبُورِ التي تُرَتِّلُها هذه الإبِلُ هُنا وتترَنَّمُ بِها يُنْظَرُ إلَيْها عَلَى أنَّها كِتابٌ مُقَدَّسٌ، كالقُرْءانِ مَثَلاً، يُحَرِّمُ عَلَيْهِنَّ الصَّبْرَ تَحْرِيماً، فَهُنَّ لِذَلِكَ لا يَنْقَطِعْنَ عَنِ الحَنِيْنِ. وأمَّا قَصِيدَةُ شِعْرِ الحَنِيْنِ الذي يُنْشِدْنَهُ فَمِيراثٌ تَلِيدٌ نَفِيسٌ، أَتَتْهُنَّ مِنْ طَرِيقِ الرِّوايَةِ عَبْرَ أجْيَالٍ مِنَ الأعْمامِ والأخْوالِ:

تَلَوْنَ زَبُوراً في الحَنِيْنِ مُنَزَّلاً ... عَلَيْهِنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلالِ
وأنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ المطايا قَصِيْدَةً ... وأوْدَعْنَها فِي الشَّوْقِ كُلَّ مَقَالِ
أمِنْ قِيْلِ عَوْدٍ رَازِمٍ أمْ رِوَايَةٍ ... أَتَتْهُنَّ عَنْ عَمٍّ لَهُنَّ وخَالِ

(وتَرَى العَوْدَ، المسِنَّ مِنْ هَذِهِ الإبِلِ، يَبْكِي شَوْقاً إلى وَطَنِهِ، كَأَنَّهُ فَصِيلٌ مَنَعَهُ مِنْ رَضاعَةِ لِبانِ أُمِّهِ رَبُّ عِيَالٍ لِيُؤْثِرَ بِهِ عِيالَهُ):

تَرَى العَوْدَ مِنْها بَاكِياً فَكَأَنَّهُ ... فَصِيْلٌ حَمَاهُ الخِلْفَ رَبُّ عِيَالِ

والحَقُّ أنَّ لُغَةَ أبي العلاء المجازِيَّةَ الحَقَّةَ مِنْ تَشْبِيهٍ واسْتِعارةٍ، لا تَجِدُها إلَّا في المَوْضُوعاتِ التي يُعَبِّرُ فِيْها عَنْ شُعُورِهِ وعَواطِفِهِ الخاصَّةِ؛ إذْ لا يَسْتَخْدِمُ هُنا تَشْبِيهاتٍ مَأْلُوفَةً ولا اسْتِعارَاتٍ مَصْنُوعَةً، بَلْ ولا يَسْتَعِيرُ مِنْ تَشْبِيهاتِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ التي تُسْتَمَدُّ مادَّتُها مِنَ العَالَمِ المرْئِيِّ، عَلَى نَحْوِ ما صَنَعَ في شِعْرِهِ البَاكِرِ. فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ في هَذِهِ المَوْضُوعاتِ عَيْنَ عَقْلِهِ وما لَهُ مِنْ مَلَكاتٍ حسَّاسَةٍ في السَّمْعِ والشَّمِّ والذَّوْقِ والشُّعُورِ، فالحَمامَةُ عِنْدَهُ قَيْنَةٌ تُغَنِّي بِمِزْهَرٍ أَوْتارُهُ أوْصالُها:

وغَنَّتْ لَنا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الوُرْقِ مِطْرَابُ الأصَائِلِ مِيْهَالُ
رَأَتْ زَهَراً غَضّاً فَهاجَتْ بِمِزْهَرٍ ... مَثانِيْهِ أحْشاءٌ لَطُفْنَ وأوْصالُ

ونَبَأُ وَفاةِ الشريف هَدَّةُ جَبَلٍ رَغَتْ لَهَا الرُّعُودُ:

جَبَلٍ هَوَى فِي آلِ عَبْدِ مَنافٍ ... رَغَتِ الرُّعُودُ وتِلْكَ هَدَّةُ وَاجِبِ

والماءُ الجامِدُ في كُوْزِ شُرْبِ الشَّاعِرِ يَحُزُّهُ ويؤْلِمُهُ كأنَّهُ حَدُّ السَّيْفِ، فإذا أقْدَمَ فَشَرِبَهُ شَعَرَ كأنَّ نَواجِذَهُ قَدْ عَضَّتْ عَلَى الجَمَدِ:

والماءُ وِرْدِي لا تَزالُ نَواجِذي ... فِي مُنْتَضاهُ سَوابِحاً كَأَوَازِمِ

يُمْسِي ويُصْبِحُ كُوْزُنا مِنْ فِضَّةٍ ... مَلأتْ فَمَ الصَّادِي كُسُوْرَ دَراهِمِ

بَلْ إنَّ أبا العلاءِ يُصَوِّرُ لِنَفْسِهِ السَّعادَةَ التي تَشْعُرُ بِها إبِلُهُ عِنْدَ تَذَكُّرِها شَجَرَ العِضاهِ بِمَوْطِنِها فَيسُرُّها أنْ يَخْدِشَ آنافَها شَوْكُهُ:

وأعْجَبَها خَرْقُ العِضاهِ أُنُوفَها ... بِمِثْلِ إبارٍ حُدِّدَتْ ونِصَالِ

وإنَّا لَيُوشِكُ أنْ نَشْتَمَّ طِيبَ رائِحَةِ الخُزَامَى مِنْ تَصْوِيرِ أبي العلاءِ لَها وهِيَ تَصْنَعُ حُلَّةً مِنْ نَفْسِها وتُقَدِّمُها إلَى مَحْبُوبَتِهِ، فَتَكُونَ قَدْ كَسَتْها مِنْها نَوْرَها الأزْهَرَ وطِيبَها الأذْفَرَ، قالَ أبو العلاءِ:

كأنَّ الخُزَامَى جَمَّعَتْ لَكِ حُلَّةً ... عَلَيْكِ بِها فِي اللَّوْنِ والطِّيبِ سِرْبَالُ

لَقَدْ أثَّرَتْ بَغْدادُ فِي شاعِرِنا مِنْ طَرِيقَيْنِ هُما عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ؛ فَهُوَ قَدْ أفادَ مِنْها خِبْرَةً جَدِيدَةً ومَعْرِفةً طَرِيفَةً، وعَرَفَ كَيْفَ يَفْهَمُ الحَياةَ مِنْ جَوانِبِها المُخْتَلِفَةِ دُونَ أنْ يَعُوقَهُ عَماهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. وهذا قَدْ فَتَحَ ذِهْنَهُ عَلَى طُرُقٍ جَدِيدَةٍ فِي التَّعْبِيرِ؛ فَأَخَذَ يُصَوِّرُ تأمُّلاتِهِ وأفْكارَهُ ومُخْتَلِفَ نَواحِي خِبْراتِهِ ومَعْرِفَتِهِ بِصَفاءٍ ووُضُوحٍ وصِدْقٍ ومَهارَةٍ فَنِّيَّةٍ. وما اكْتَسَبَهُ في بَغْدادَ حَدِيثاً مِنْ حُبٍّ لِلْمُوْسِيقَى وما تَوَفَّرَ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ وَاسِعَةٍ بِلُغَةِ العَرَبِ، كُلُّ أُوْلَئِكَ قَدْ مَنَحَهُ إمكاناً واقْتِداراً عَلَى انْتِقاءِ ألْفاظِهِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الإحْكامِ والإتْقانِ والموهِبَةِ التي قَلَّ أنْ أصابَهُ شاعِرٌ.

ولَكِنْ مِنْ ناحِيَةٍ أُخرى، فَإِنَّ طُوْلَ صُحْبَةِ أبي العلاء لِعُلَماءِ اللُّغَةِ وأساطِينِ البلاغةِ والبَيانِ في بَغْدادَ، وما كان يُكِنُّهُ مِنِ احْتِرامٍ لِمَعْرِفَتِهِمْ وتَبْرِيزِهِمُ الأَدَبِيِّ جَعَلَهُ يُغَالِي في تَقْدِيرِهِ لِقِيمَةِ مَقاييسِهِمِ ومَعَايِيرِهِمْ إِزاءَ الطَّبِيعَةِ الجَمَالِيَّةِ لِفَنَّيِ الشِّعْرِ والنَّثْرِ.

فَأَبُو العلاءِ الشَّاعِرَ كانَ يُعْجِبُهُ مَذْهَبُ أَبِي تَمَّامٍ التَّفْكِيرِيُّ العَقْلانِيُّ الجرِئ، وعَفْوِيَّةُ البُحْتُرِيِّ السَّلِسةُ وبَدَاهَتُهُ المنْسابَةُ انسِياباً، وشِدَّةُ أَسْرِ التَّعْبِيرِ عِندَ المتنبِّي وحَيَوِيَّتُهُ. وأمَّا أبو العلاء العالِمُ، فَكانَ يُؤْثِرُ صَفاءَ دِيْباجةِ الجاهِلِيِّينَ القُدامَى وإتقانَ الزَّخْرَفَةِ الذِي كان يَنْشُدُهُ مُعاصِرُوهُ مِنْ عُلَماءِ البَلاغَةِ والبَيانِ. ولِذَلِكَ حَاوَلَ أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ أُسْلُوباً خاصّاً بِهِ يَجْمَعُ كُلَّ هَذِهِ المناقِبِ والمطالِبِ في آنٍ واحِدٍ. فأمَّا مُحِبُّوهُ والمعْجَبُونَ بِهِ في بَغْدادَ فَكانُوا يَعُدُّوْنَ قَصائِدَهُ الأَرْبَعَ الطِّوالَ رَوائِعَ جَمَعَتْ جَزالَةَ الأَقْدَمِيْنَ ورِقَّةَ المحْدَثِينَ مَعاً. ولِهَذِهِ القصائِدِ الأَرْبَعِ ولِشَبِيهَاتِهِنَّ في الأَناقَةِ اللَّفْظِيَّةِ، يَدِينُ دِيْوَانُ سَقْطِ الزَّنْدِ بِما نَالَ مِنَ السَّيْرُورَةِ وما حَظِيَ بِهِ مِنَ المنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ بَيْنَ جُمْهُورِ النُّقَّادِ المسْلِمِينَ حَتَّى إِنَّهُمْ قَدَّمُوهُ عَلَى دِيوانِ (اللُّزُومِ) وآثَرُوهُ عَلَيْهِ. والحَقُّ أَنَّ هَذِهِ القَصائِدَ الأَرْبَعَ الطِّوالَ التي نُظِمَت بِبَغْدادَ، مَعَ أُخرَياتٍ كُثْرٍ فِي سَقْطِ الزَّنْدِ، تُعَدُّ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وأَرْفَعِهِ، فَقَطْ بِما حَوَيْنَ مِنْ عُمْقِ العاطِفَةِ وما سَمَحْنَ بِهِ مِنْ ثَراءٍ مُوْسِيْقِيٍّ لَفْظِيٍّ. غَيْرَ أَنَّهُنَّ لَمْ يَنْفِينَ حَيْرَةَ أَبِي العلاء واضْطِرابَهُ في هَواهُ الذِي انْشَطَرَ مِنهُ شَطْرَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ، شَطْرٌ نَراهُ يَسْتَجِيبُ لِمَقايِيسِ اللُّغَوِيِّينَ وشَطْرٌ يُلَبِّي مَطَالَبَ التَّعْبِيرِ الشِّعْرِيِّ الخَالِصِ؛ وقَدِ اسْتَمَرَّتْ مِنهُ هَذِهِ الازْدِوَاجِيَّةُ في الهَوَى تُؤَثِّرُ في أُسْلُوبِهِ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى حَتَّى أَواخِرِ حَياتِهِ.

القِسْمُ (ب)

شِعرُهُ بَعْدَ بَغْدَادَ

أَوَائِلُ فَتْرَةِ العُزْلَةِ:

كانَتْ أهَمُّ أشْعارِ أبي العلاء فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ:

١- العَيْنِيَّةَ التي أرسلَها إلَى عبْدِ السَّلامِ البَصْرِيِّ، وهِيَ[١]:

تَحِيَّةَ كِسْرَى فِي السَّناءِ وتُبَّعِ   لِرَبْعِكِ لا أرْضَى تَحِيَّةَ أَرْبُعِ

٢- الطَّائِيَّةَ التي أرسَلَها إلَى مَن سَمَّاهُ خازِنَ دارِ العِلْمِ بِبَغْدادَ، ولَعَلَّهُ عَبْدُ السَّلام البَصْرِيُّ، وهِيَ[٢]:

لِمَنْ جِيْرَةٌ سِيمُوا النَّوالَ فَلَمْ يُنْطُوا   يُظَلِّلُهُمْ ما ظَلَّ يُنْبِتُهُ الخَطُّ

٣- التَّائِيَّةَ التي أرسلَها إلَى أبي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ، وهِيَ[٣]:

هَاتِ الحَدِيثَ عَنِ الزَّوْراءِ أوْ هِيتَا   ومَوْقِدَ النَّارِ لا تَكْرَى بِتَكْرِيتا

٤- الرَّائِيَّةَ التي أرسلها إلى أبِي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ، وهِيَ:

لَوْلا مَسَاعِيْكَ لَمْ تُحْسَبْ مَسَاعِيْنا   ولَمْ نُباهِ بِأَحْسَابِ العُلا مُضَرا[٤]

٥- القِطْعَةَ الصَّغِيرَةَ التي أَرْسَلَ بِها إلى ابْنِ نَصْرٍ المالِكِيِّ وكانَ زَارَ أبا العلاءِ وهُوَ في طَرِيْقِهِ إلى الغَرْبِ، وهِيَ:

أَيَبْسُطُ عُذْرِي مُنْعِمٌ أمْ يَخُصُّنِي   بِما هُوَ حَظِّي مِنْ أَلِيمِ عِتابِ

---

[١] سقط الزند، ج ٢، ص ١٠١

[٢] نفسه، ص ١٢١

[٣] نفسه، ص ١١٢

[٤] نفسه ص ١٣٩.

٦- اللَّامِيَّةَ التي (لَعَلَّهُ) أَرْسَلَ بِها إلى أَحَدِ أَقارِبِهِ أَوْ أَحَدِ سُكَّانِ بَلْدَتِهِ الذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ ارْتَحَلَ إلى مِصْرَ، وهِيَ:

مَتَى يُضْعِفْكَ أَيْنٌ أَوْ مَلالُ   فَلَيْسَ عَلَيْكَ لِلزَّمَنِ ابْتِهالُ

٧- المرْثِيَةَ التي رَثا بِها جَعْفَرَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ المهَذَّبِ، وهِيَ:

أَحْسَنُ بِالوَاجِدِ مِنْ وَجْدِهِ   صَبْرٌ يُعِيْدُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ

٨- الزُّهْدِيَّةَ التي قالَها عَلَى لِسَانِ سائِقِ الحَجِيْجِ، وهِيَ:

دُنْياكَ تَحْدُو بِالمسا   فِرِ والمقِيْمِ جِمَالَها

فَعَّالَةٌ غَيْرَ الجَمِيْـ   ـلِ فَكَمْ هَوِيتَ جَمَالَها

٩- الدِّرْعِيَّاتِ، أوِ القَصائِدَ التي وَصَفَ بِها الدِّرْعَ.

وأَمَّا المرْثِيَتانِ اللَّتانِ رَثا بِهِما أُمَّهُ فنُغْفِلُهُما هُنا إِذْ لا تَبْلُغانِ مَبْلَغَ أَيٍّ مِنَ القَصائِدِ التي أَوْرَدْنا هُنا. وإذا نَشَدْتَ رِثاءَهُ الجَيِّدَ لَها فالْتَمِسْهُ في نَثْرِهِ لا في شِعْرِهِ.

فالقَصائِدُ السِّتُّ الأُوَلُ مِمّا أَورَدْنا أَعْلاهُ إِنَّما كانَتْ رَسائِلَ في طابَعِها العَامِّ، وفِيها يَبْدُو أَنَّ النِّزاعَ بَيْنَ أَبي العَلاءِ العالِمِ وأَبي العلاءِ الشَّاعِرِ كانَ قَدْ احْتَدَّ أَيَّما احْتِدادٍ. وقَدْ جاءَ الأُسْلُوبُ الذي نُظِمَتْ بِهِ هَذِهِ القَصائِدُ ناحِياً مَنْحَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ أَشَدَّ الاخْتِلافِ، أَحَدُهُما عَسِيرٌ مُفرِطٌ في العُسْرِ، والآخَرُ يَسِيرٌ ظاهِرُ اليُسْرِ. وقَدْ نُظِمَتْ كُلٌّ مِنَ القَصِيدَةِ الأُوْلَى والثَّانِيَةِ والخامِسَةِ عَلَى بَحْرِ الطَّوِيلِ ونُظِمَتِ الثَّالِثَةُ والرَّابِعَةُ عَلَى البَسِيطِ والسادِسَةُ عَلَى الوافِرِ؛ وجاءَتِ القَصِيدةُ الثانِيَةُ مَنْظُومَةً عَلَى رَوِيِّ حَرْفِ الطَّاءِ، وهِيَ قافِيَةٌ حُوْشِيَّةٌ عَسِيرَةٌ بالِغَةُ العُسْرِ، وجاءَتِ الثَّالِثَةُ عَلَى قَافِيَةِ المقْطَعِ (إِيْتَا) أَوْ (أُوْتَا) وهُو نظْمٌ صَعْبٌ كَذلِكَ.

ويَبْدُو أنَّ كِتابَةَ شِعْرِ الرَّسائِلِ أوِ الرَّسائِلِ الشِّعْرِيَّةِ كانَتْ عَلَى عَهْدِ أبي العلاء حِكْراً لِفِئَةٍ مِنَ الكُتَّابِ مَعْرُوفَةٍ باحْتِرافِها الكِتابَةَ، عُرِفُوا بِالكُتَّابِ، جَمْعُ كاتِبٍ، وكانَ بَعْضُهُمْ قَدْ تَوَلَّى مَناصِبَ عُلْيا فِي الدَّوْلَةِ. ورُبَّما رَجَعَ أصلُ هذا الضَّرْبِ مِنَ الكِتابَةِ إلى أوَائِلِ العَصْرِ الإسْلامِيِّ، بَلْ لَعَلَّهُ إلى العَصْرِ الجاهِلِيِّ. حَتَّى إذا دَخَلَ القَرْنُ الثالِثُ الهِجْرِيُّ، اتَّفَقَ أنْ كانَ بَعْضُ هَؤُلاءِ الكُتَّابِ الذِيْنَ تَوَلَّوْا مَناصِبَ وِزارِيَّةً شُعَراءَ مَطْبُوعِيْنَ كَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيَّاتِ[1]. فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا بِحَاجَةٍ لِاسْتِخْدامِ مَواهِبِهُمْ ومَهاراتِهِمْ في كِتابَةِ قصائِدِ المَدِيْحِ والإطْرَاءِ، فَلِذا كانُوا يُسَلُّونَ أنْفَسَهُمْ بِنَظْمِ قصائِدِ الرَّسَائِلِ يَدْعُونَ بِها أصْدِقَاءَهُم إلى حَفْلَةٍ مِنْ حَفْلاتِ القَصْفِ والمُجُونِ أو مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ المَرَحِ أوْ إلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ دَواعِي الاسْتِمْتَاعِ. ولَمَّا زادَ تَأْثِيرُ هَؤُلاءِ الكُتَّابِ صَارَتْ أساليْبُهُمْ وطَرائِقُهُمْ في الكِتَابَةِ نَماذِجَ يَحْتَذِي حَذْوَها غَيْرُهُم مِنَ المتَأَدِّبِيْنَ المقلِّدِيْنَ. وإبَّانَ القَرْنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مِنْ شَكٍّ في أيِّهِما أرْفَعُ شَأْناً الكاتِبُ أَمِ الشَّاعِرُ؛ إِذْ كانَ الشُّعَراءُ ما يَزَالُونَ عُفاةً مُجْتَدِينَ مُتعَرِّضِينَ لِعَطاءِ السَّادةِ والقَادَةِ وعِلْيَةِ القَوْمِ، عَلَى حِيْنِ كانَ الكُتَّابُ مَبْذُولاً لَهُمْ كُلُّ ما يُفْضِي بِهِمْ إلَى اعْتِلاءِ مَرَاكِزِ السُّلْطانِ. حَتَّى إذا صِرْنا إلى القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ وَجَدْناهُمْ مُنافِسِينَ وغُرَمَاءَ لِعُلَماءِ اللُّغَةِ في صِراعِهِمْ مِنْ أجْلِ الزَّعامَةِ في دُنْيَا الأَدَابِ[2]. وهُمْ يَتَوَلَّوْنَ كِبْرَ اللائِمَةِ في ابْتِداعِ المعايِيرِ المفْسِدَةِ لِلإتْقانِ الزُّخْرُفِيِّ التي غَلَبَتْ عَلَى الشِّعْرِ والنَّثرِ جَمِيعاً طَوالَ قُرُونٍ تَلَتْ. فَقَدْ كانَ ابْنُ المعْتَزِّ، وهُوَ إمَامُ فَنِّ البَدِيْعِ[3]، يَحْجُلُ في قَيْدِ تأْثِيرِ مَناهِجِهِمُ المنْحطَّةِ فِي الشِّعْرِ. فالشِّعْرُ عِنْدَهُمْ أحدُ المقْتَنياتِ العَصْرِيَّةِ النفيسةِ يَمْلِكُها الواحِدُ مِنْهم، شَأْنُهُ شَأْنُ خطِّ اليَدِ الأنِيقِ وغَيْرِهِ مِنْ قَواعِدِ الذَّوْقِ

---

[1] كانَ قَدْ وَزَرَ لِلْمُعْتَصِم والوَاثِقِ والمتَوَكِّلِ، وقَدْ سَجَنَهُ الأَخِيرُ، ثُمَّ انْتَهَى بِهِ الأَمْرُ أنْ ماتَ بَعْدَ أرْبَعِيْنَ يَوْماً مِنَ التَّعْذِيْبِ، فِي العام ٢٣٣هـ، انْظُرْ وَفَيَات الأعيان، ج٣، ص ٧٠ – ٧٤.

[2] عَلَى نَحْوِ ما كانَ مِنْ أمْرِ الصَّاحِبِ بْنِ عبَّادٍ.

[3] أوْ لعلَّهُ مِنْ رُوَّادِهِ الأَوَائِلِ.

والسُّلُوكِ الاجْتِماعِيِّ الرَّاقِي. وقَدْ كانَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ[1] وابْنُ العَمِيدِ[2] أَكْثَرَ الكُتَّابِ تَأْثِيراً فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ، وكِلاهُما كانَ قَدْ تَقَلَّدَ مَنْصِبَ الوِزارَةِ. وقَدْ هَجَا أَبُو حَيَّانِ التَّوْحِيْدِيُّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ ووَصَفَهُ بِخُشُونةِ الذَّوْقِ والتمسُّكِ بِالقَدِيمِ أَوْ عَدَمِ الاهْتِمامِ بِالفَنِّ والفِكْرِ. وفِي مُعْجَمِ إِرْشادِ الأَرِيْبِ[3]، وهو مُعْجَمٌ لا غِنَىً عنهُ، بَعْضُ مَقَاطِعٍ مِنْ أَدَبِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ؛ وقَدْ كانَ مُوْلَعاً أَشَدَّ الوَلَعِ بِالكِناياتِ والسَّجْعِ، يَجْرِي وَراءَهُما لا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ غَيَّرَ مَسَارَ رِحْلَةٍ لَهُ لِيَمُرَّ بِبَلْدَةٍ بِعَيْنِها، هِيَ نَوْبَهارُ، مِنْ أَجْلِ أن يُساجِعَ بِلَفظَتِها لَفْظَةً جاءَتْ فِي رِسالةٍ لَهُ إلى ابْنِ العَمِيدِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ وهُوَ بِنَوْبَهارَ: (كِتابِي إِلَيْكَ وأنا بِالنَّوْبَهارِ، يَوْمَ السَّبْتِ نِصْفَ النَّهارِ)[4]. ولَقَدْ كانَ لافْتِنانِ الصَّاحِبِ بِالسَّجْعِ والكِناياتِ وتَكَلُّفِهِ فِيما كانَ يَكْتُبُ شِعْراً ونَثْراً شَرُّ الأَثَرِ عَلَى خَمْسِيْنَ ونَيِّفٍ مِمَّنْ كانَ فِي كَنَفِهِ مِنَ الشُّعَراءِ. ولَعَلَّكَ تُلاحِظُ ما كانَ لِابْنِ العَمِيدِ، وهُوَ أَقَلُّ صِناعَةً وتَكَلُّفاً مِنَ الصَّاحِبِ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ، مِنْ أَثَرٍ سَيِّئٍ عَلَى المتنبِّي فِي إِحْدَى أَمادِيْحِهِ فِيْهِ، أَعْنِي قَصِيْدَتَهُ:

جاءَ نَيْرُوزُنا وأَنْتَ مُرادُهُ[5]

لِأَنَّ المتَنَبِّي فِي هَذِهِ القَصِيدة تَنَكَّبَ أُسْلُوبَهُ المعْتَادَ القائِمَ عَلَى التعْبِيرِ الواضِحِ الجَرِيْءِ واسْتَخْدَمَ مِنْ أَسَالِيبِ التَّدْقِيْقِ والتَّفْصِيْلِ والتأَنُّقِ ما يُظْفِرُهُ بِرِضَا مَمْدُوحِهِ ووَلِيِّ نِعْمَتِهِ. وبِهَذا فَقَدْ طَبَعَ أَمْثَالُ ابْنِ العَمِيْدِ والصَّاحِبِ وأَضْرابُهُما مِنْ تابِعِيهِم مِمَّنْ دَارُوا حَوْلَهُما

---

[1] هُوَ اسْماعِيْلُ بْنُ عَبَّادٍ، وَزِيْرُ رُكْنِ الدَّوْلَةِ البُوَيْهِيِّ. وُلِدَ فِي ٣٢٦هـ وتُوُفِّيَ فِي ٣٨٥ هـ (إرشاد الأريب، ج ١، ص ٢٧٣).

[2] هُوَ أَبُو الفَضْلِ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ، المعْرُوفُ بِابْنِ العَمِيْدِ، تُوُفِّيَ فِي ٣٦٠هـ – انظر يتيمة الدهر، ج٣، ص ٢.

[3] إِرْشادُ الأَرِيْبِ، ج١، ص ٢٨١ – ٣٠٠، وج ٥، ص ٣٨٢ – ٣٩٧.

[4] نَفْسُهُ ج ١، ص ٢٩٨.

[5] دِيْوَانُهُ، ص ٥٤٢ – ٥٤٥.

مِنْ مُحْتَرِفِي الكُتّابِ والشُّعَراءِ مِمَّن هُمْ دُوْنَهُمْ مَنْزِلَةً، طَبَعُوا الشِّعْرَ العَرَبِيَّ بِما جَعَلَهُ يَحْجُلُ فِي قُيُوْدِ البَهْرَجةِ ويَرْسُفُ في أغْلالِ التَّمْوِيْهِ والتَّلاعُبِ اللَّفْظِيِّ حَتَّى بِداياتِ هذا القَرْنِ العِشْرِينَ حِيْنَ أَخَذَ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ في التَّحَرُّرِ مِنْ رِبْقَةِ هذا الاسْتِعْبادِ المتَطاوِلِ. وإذا نَظَرْتَ في (يَتِيمَةِ الدَّهْرِ)، المختاراتِ الشَّهِيْرَةِ، الذي صَنَّفَهُ الثَّعالِبِيُّ في القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ وَجَدْتَ اسْتِشْهاداتٍ وافِرَةً لِأَشْعارِ الرَّسائِلِ هَذِهِ التي كان يَكْتُبُها الكُتّابُ وأتْباعُهُمْ مِنَ الشُّعَراءِ. فَهَؤُلاءِ إنما كانُوا انعِكاساً لِخَدَمِ البِلاطِ الملَكِيِّ الضِّعافِ الذيْنَ كانُوا يَتَنَفَّسُونَ هَواءَ الانْحِطاطِ الفاسِدَ. وبَدَلاً مِنْ أنْ يَزْدَرِيَ أبو العَلاءِ طَرَائِقَ هَؤُلاءِ الكُتّابِ وأَسَالِيبَهُمْ، إذا هُوَ أحَدُ ضَحَايا تَأْثِيْرِهِمْ عَلَيْهِ بِمَدىً عظيمٍ، فجاءَ بِما أَسْمَيْناهُ (الوَجْهَ الصَّعْبَ) مِنْ أُسْلُوْبِهِ؛ إذْ تَجِدُ في هَذَا الوَجْهِ الصَّعْبِ مِنْ أُسْلوبِهِ تَعَبُّداً ذَلِيلاً لِلأَلْفاظِ وتلذُّذاً مَرِيضاً بِتَأْلِيْفِ ضُرُوبٍ بارِدَةٍ مِنَ الجِناسِ والطِّباقِ[٢] وسَلاسِلِ السَّجْعِ، ومَيلاً إلى التَّباهِي والتَّفاخُرِ. ولَوْلا ما يَشْفَعُ لِأبي العلاء مِمَّا عُرِفَ بِهِ مِنَ الذَّكاءِ والظَّرْفِ والطَّبْعِ المحَبَّبِ مِمَّا تَجِدُهُ في شِعْرِهِ لَزَعَمْنا حَقّاً أَنَّهُ عِنْدَهُ بَلَغَ الانْحِطاطُ ذِرْوَتَهُ. وأنْتَ وَاجِدٌ فِي (أُسْلُوبِهِ الصَّعْبِ) هَذا كُلَّ الخَصَائصِ الصِّناعِيَّةِ التِي عَرَضْنا لَها فِيما يَتَّصِلُ بِقَصائِدِهِ التي نَظَمَها وهُوَ بِبَغْدادَ ولَكِنْ عَلَى نَحْوٍ أَشَدَّ مُبالَغَةً. فَمَوْضُوعُ النَّسِيْبِ، وهُوَ المَوْضُوعُ الذي يَعْرِضُ فِيهِ أبو العلاء أُسْلُوبَهُ الصَّعْبَ، يَحْتَلُّ القَدْرَ الأَكْبَرَ مِنَ القَصائِدِ. فَتَجِدُ هُنا وَصْفَ المرْأَةِ البَدَوِيَّةِ (عَيْنَيها السَّوْداوَيْنِ وخَصْرَها الضَّامِرَ المهَفْهَفَ وأَرْدافَها الضِّخامَ)، كَمَا تَجِدُ ذِكْراً لِلْمَناقِبِ التَّقْليدِيَّةِ التي يَتَّصِفَ بِها رِجالُ قَبِيلَتِها (الشَّجاعَةِ والغَيْرَةِ وإكْرامِ الضَّيْفِ)، وكَذَلِكَ وَصْفِ السُّيُوفِ والثَّناءِ عَلَيْها ووَصْفِ الإبِلِ الذي لَمْ يَكُنْ يَنْفَكُّ يُوْرِدُهُ. وقَدْ عادَتْ بَعْضُ خَصائِصِ شِعْرِ أبي العلاء الباكِرِ إلى الظُّهُورِ بَعْدَ اخْتِفاءٍ، كَتَرَدُّدِ أَسْماءِ الكَوَاكِبِ ومَوْضُوعِ اللَّيْلِ، ولَكِنَّها تَجِيْءُ هَذِهِ المرَّةَ في المرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ

مِنِ اهْتِمَامِ الشَّاعِرِ بَعْدَ غَرَضِ المهارَةِ اللَّفْظِيَّةِ ولَيْسَ لِيُبَارِيَ غَيْرَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ كَمَا كانَتْ هِيَ نَزْعَتَهُ العامَّةَ في أشعارِهِ التي نَظَمَها إبَّانَ عَهْدِ شَبابِهِ.

كانَ أبو العلاءِ وهُوَ بِبَغْدادَ يُدْرِكُ أنَّ ثَمَّةَ جُمْهُوراً عَرِيضاً، ما هُوَ مِنْ فِئَةِ العُلَماءِ ولا مِنْ زُمْرَةِ النُّقَّادِ المحْتَرِفِيْنَ. ولَكِنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إلى المعَرَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ جُمْهُورٍ إلَّا نُظَراءُهُ ذَوِي الْعِلْمِ ومُرِيدِيهِ، ولَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ أنَّهُ يَلْزَمُهُ أنْ يُعِيرَ غَيْرَ هَؤُلاءِ مِنْ طَبَقاتِ دُنْيا الأدَبِ اهْتِمَاماً. وكانَ أبو العَلاءِ، وهُوَ رَهِيْنُ مَحْبَسِهِ الذِي دَخَلَهُ طَوْعاً وقَدِ اسْتَتَرَ بِسِتَارِ الزُّهْدِ واحْتِقَارِ النجاحِ الدُّنْيَوِيِّ، يَنْظُرُ إلى عامَّةِ الجُمْهُورِ بازْدِراءٍ بالِغٍ؛ ولِذَلِكَ تَراهُ قَدْ سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِالتَّقَلُّبِ فِي ألفاظِ الجاهِلِيِّينَ، ودَقائِقِ اللُّغَوِيِّينَ وتَفاصِيلِهِمْ والأسالِيْبِ والأدواتِ الشِّعْرِيَّةِ والكِنَاياتِ الغامِضَةِ والخَواطِرِ بَعِيدَةِ المأْخَذِ والتَّخْرِيْجِ. وأبْرَزُ خَصَائِصِ هذا الأُسلُوبِ الصَّعْبِ ومُمَيِّزَاتُهُ هِي:

١) **الأخْذُ بِلُغَةِ الجاهِلِيِّينَ**: لا سِيَّما في الأبْياتِ الأُوْلَى مِنَ القَصِيدَةِ؛ فَقَصِيدَتُهُ التي خاطَبَ بِها عَبْدَ السَّلامِ البَصْرِيَّ يَسْتَهِلُّ أبْياتَها بِتَحِيَّةِ الأَطْلالِ بِطَرِيقَةٍ قَدِيمَةٍ[1]:

تَحِيَّةَ كِسْرَى فِي السَّنَاءِ وتُبَّعِ   لِرَبْعِكَ لا أَرْضَى تَحِيَّةَ أَرْبُعِ

ثُمَّ إنَّ قَصِيدَتَهُ الأُخْرَى التي نَظَمَها لِخَازِنِ دارِ العِلْمِ يَبْدَؤُها بِنَسِيبٍ يَصِفُ بِهِ امْرَأَةً بَدَوِيَّةً؛ فهُو يُصَوِّرُ عاداتِ قَوْمِها البَدَوِيَّةَ بِأُسْلُوبٍ يُذَكِّرُنا زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى:

لِمَنْ جِيْرَةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فَلَمْ يُنْطُوا   يُظَلِّلُهُمْ ما ظَلَّ يُنْبِتُهُ الخَطُّ
يَمانُونِ أحْيَاناً شآمُونَ تارَةً   يُعالُونَ عَنْ غَوْرِ العِراقِ لِيَنْحَطُّوا

---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١٠١.

فَهذانِ البَيْتانِ الافْتِتَاحِيَّانِ مِن قَصِيدَةِ أَبِي العلاء يَشِيانِ بِتَقْلِيدٍ مُتَأَنٍّ لِبَيْتِ زُهَيْرٍ[1]:

تَبصَّرْ خَلِيْلِي هَلْ تَرى مِنْ ظَعَائِنٍ   تَحَمَّلْنَ بِالعَلْياءِ مِنْ فَوقِ جُرْثُمِ

إلى آخَرِ الأبْياتِ. ولَعَلَّكَ تُلاحِظُ، كَذَلِكَ، أَثَرَ زُهَيْرٍ عَلَى أبي العلاء في أَجْزاءٍ أُخْرى عَدِيدَةٍ مِنْ قَصِيدَةِ أبي العلاءِ هَذِهِ. خُذْ مَثَلاً قَوْلَ أَبِي العلاء[2]:

ولا فِتْنَةٌ طَائِيَّةٌ عَامِرِيَّةٌ   يُحَرِّقُ في نِيْرَانِها الجَعْدُ والسَّبْطُ

تَجِدْهُ شَدِيدَ الشَّبَهِ بِقَوْلِ زُهيرٍ[3]:

قُضَاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتُها مُضَرِيَّةٌ   يُحَرِّقُ في حافاتِها الحَطَبُ الجَزْلُ

ولِيُخْفِيَ أبو العلاء مُحاكاتِهِ زُهَيْراً جاءَ بِكَلِمَةِ (نِيْرانِها) في عَجُزِ بَيْتِهِ بَدَلاً عنْ كَلِمَةِ زُهَيرٍ (حافاتِها).

وتُسْتَهَلُّ القَصِيدَةُ التي نَظَمَها لِأَبِي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ باسْتِهْلالٍ قَدِيْمٍ:

هاتِ الحَدِيثَ عَنِ الزَّوْراءِ أو هِيْتا   ومُوْقَدِ النَّارِ لا تَكْرى بِتَكْرِيْتا

ولَكَ أنْ تَعُدَّ جُمْلَةَ لا تَكْرى المَوْضُوعِ تَحْتَها خَطٌّ تَرْكِيْباً جاهِلِيّاً.

عَلَى أنَّ اسْتِخْدَامَ أَدَاةِ التَّخْيِيرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ قَدْ نَدَرَ وُقُوعُهُ في الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ.

وقَدْ كان أبو العلاء يَصُوغُ كَثِيْراً مِنْ أَشْعَارِهِ ناظِراً فِيْها إلى الشِّعْرِ الأمَوِيِّ والجاهِلِيِّ ومُحْتَذِياً حَذْوَهُ؛ يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ إشاراتُهُ إلى أَشْعَارٍ قَدِيْمَةٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ[4]:

لَيْسَتْ كنَارِ عَدِيٍّ نارُ عَادِيَةٍ   باتَتْ تُشَبُّ عَلَى أَيْدِي مَصالِيْتا

---

[1] انظُرْ دِيْوَانَهُ، طَبْعَةَ القاهرة، ١٩٤٤، ص ٩ – ١٠.

[2] سقط الزند، ج ٢، ص ١٢٦.

[3] دِيْوَانُهُ

[4] سقط الزند، ج ٢، ص ١١٢.

وتَوْرِياتُهُ بِأَسْماءِ حَيَوانِ الصَّحْرَاءِ التي تَتَرَدَّدُ كَثِيراً في القَصائِدِ القَدِيمَةِ، كَقَوْلِهِ:[1]

بَرٌّ وبَحْرٌ مُبِيْدٌ لا تُحِسُّ بِهِ ضَبَّ العَرَارِ ولا ظَبْياً ولا حُوْتا

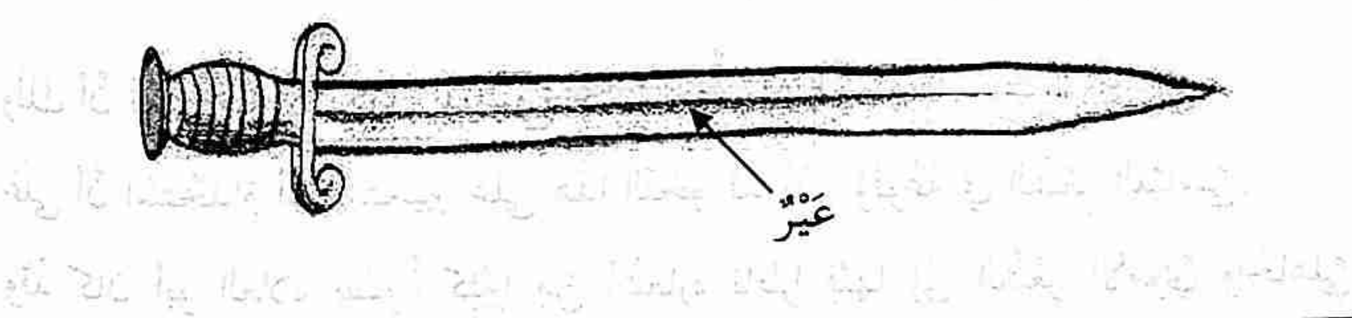
٢) **الإفراطُ في استخدامِ التَّوْرِيَةِ:** وعادَةً ما يُورِدُها مَعَ الجِنَاسِ التَّامِّ؛ فَكَلِمَةُ (غُرَابٍ) مَثَلاً استُخْدِمَتْ مَرَّتَيْنِ في بَيْتٍ واحدٍ لِتَعْنِيَ أَوَّلاً الغُرَابَ الطَّائِرَ المعْرُوفَ وتَعْنِي في اسْتِخْدَامِها الثَّاني أَعْلَى وَرِكِ البَعِيرِ. قَالَ أبو العلاء[2]:

يَكادُ غُرَابٌ غَيَّرَ الخَطْرَ لَوْنُهُ يُنادِي غُرَاباً رَامَ رِيْبَتَها قَعِ

ويَأْتِي أبو العلاء بِتَوْرِيَةٍ كَذَلِكَ بِإِيْرَادِ مَعْنَيَيْنِ لِكَلِمَةِ (عَيْرٍ) لِيُنْشِئَ لَنا هَذِهِ الصُّوْرَةَ[3]:

طَرِيْقَةِ مَوتٍ قُيِّدَ العَيْرُ وَسْطَهَا لِيَنْعَمَ فِيْها بَيْنَ مَرْعَىً ومَشْرَعِ
كأَنَّ الأَقَبَّ الأَخْدَرِيَّ بِأَنَّهُ سَمِيٌّ لَها في آلِ أَعْوَجَ مُدَّعِ

فَكَلِمَةُ (عَيْرٍ) هُنا رُبَّما عَنَتِ الحِمارَ الوَحْشِيَّ وهُو (الأَخْدَرِيَّ) أَوْ عَنَتْ البُرُوزَ أو الخَطَّ النَّاتِئَ الذي يَمْتَدُّ عَلَى طُوْلِ وَسْطِ نَصْلِ السَّيْفِ العَرَبِيِّ[4]. فَقَدْ جَعَلَ أبو العلاء السَّيْفَ



---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١١٤.

[2] لَمْ يَرِدْ هذا البَيْتُ في الأَصْلِ فأَوْرَدْتُهُ لِيَظْهَرَ المعْنَى المرَادُ. وَكَأَنَّ الأَقْرَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى غُرابِ الأُولَى هُوَ أَعْلَى وَرِكِ البَعِيْرِ، والثَّانِي الطَّائِرَ الأَسْوَدَ المعْرُوفَ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ هُنا يَصِفُ هُزَالَ إِبِلِهِ مِنْ شِدَّةِ سَيْرِها، حَتَّى إِنَّ وَرِكَ البَعِيْرِ بِهُزَالِهِ يُطْمِعُ غِرْبانَ الفَلا فِيهِ فَكَأَنَّهُ بِهُزَالِهِ يَدْعُوها لِأَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ لِتَأْكُلَهُ، واللهُ أَعْلَمُ (التُّرْجُمان).

[3] سَقْطُ الزَّنْد ج ٢، ص ١٠٩.

[4] في مُعْجَمِ إِدْوَارْدْ لَيْنْ ص ٢٢٠٨-٢٢٠٩: (العَيْرُ هُوَ البُرُوزُ أَوِ النُّتُوءُ الشَّاخِصُ أَوِ الطَّرَائِقُ التي تَمْتَدُّ في وَسْطِ الحَدِيدَةِ أَوِ النَّصْلِ مِنْ سَهْمٍ أَو رُمْحٍ أَو سَيْفٍ أَو سِكِّيْنٍ أو نحوه).

هُنا (طَرِيْقَةَ الموْتِ) وفِرِنْدَهُ مَشْرَعا وهُو الماءُ، ثُمَّ جَعَلَ شُطَبَهُ أوْ مَا يَتَراءَى مِنهُ مِنْ ألْوانٍ خَضْرَاءَ وزَرْقَاءَ مَرْعَىً أو مُرُوجاً. ثُمَّ جَعَلَ عَيْرَ السَّيْفِ كأنَّهُ مُقَيَّدٌ مِثْلَ الحِمارِ الوَحْشِيِّ في وَسْطِهِ الذِي هُوَ طَرِيْقَةُ الموْتِ، وذَلِكَ لِيَرْتَعَ في خُضْرَةِ السَّيْفِ (المرْعَى) ويَكْرَعَ مِنْ مَائِهِ (المشْرَعِ). ثُمَّ يَزْعُمُ أبو العلاء أنَّ الحِمارَ الوَحْشِيَّ الأخْدَرِيَّ أوِ المنْسُوبَ إلى الفَحْلِ، أَخْدَرَ، كأنَّهُ يُفاخِرُ لِكَوْنِهِ سَمِيّاً لِعَيْرِ السَّيْفِ حَتَّى كأنَّهُ مِنْ سُلالَةِ الخَيْلِ الأَعْوَجِيَّةِ أوْ يَدَّعِي أَنَّهُ يَنْتَسِبُ إلى أَعْوَجَ وهُوَ أَحَدُ الفُحُولِ تُنْسَبُ إِلَيْهِ أَفْضَلُ الخَيْلِ العَرَبِيَّةِ الكَرِيْمَةِ. وأحْيَاناً يَسْعَى أبو العلاء لِوَضْعِ عِبارَةٍ أو جُمْلَةٍ يَكُوْنُ لَها ذَاتُ الصَّوْتِ الذِي تُنْطَقُ بِهِ كَلِماتٌ طَوِيلَةٌ، وذَلِكَ كُلُّهُ في بَيْتٍ واحِدٍ. وهُوَ فِي هَذَا كَثِيراً ما يُصِيبُ نَجاحاً في تَأْلِيفِ بَعْضِ أذْكَى الأشْعَارِ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ كُلِّهِ، خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ[1]:

مَطا يا مَطَايا وَجْدُكُنَّ مَنازِلٌ   مَناً زَلَّ عَنْها لَيْسَ عَنِّي بِمُقْلِعِ

أَلِفتِ خُوْصَ المطَايا إنَّ مُنكَرَةً   إِلْفُ الغزَالِ مَقَا لِيْتاً مَقالِيْتا[2]

ومُعْظَمُ تَوْرِيَاتِ أَبِي العلاء بَعِيْدَةُ المأْخَذِ، وغامِضَةٌ؛ وبَعْضُها فِيهِ نَظَرٌ إلى عَناءِ الحَرِيْرِيِّ الذِي لا غَناءَ فِيهِ، كَمَا فِي[3]:

وحَرْفٍ كَنُونٍ تَحْتَ رَاءٍ ولَمْ يَكُنْ   بِدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ

وبَعْضُهُنَّ يَحْمِلْنَ عَلَى اتِّهَامِ أبِي العلاءِ بِهَذَيانِ المعَاتِيْهِ، مِثْلُ ما فِي قَوْلِهِ:

نَكَسْتِ قُرْطَيْكِ تَعْذِيْباً وما سَحَرا   أَخِلْتِ قُرْطَيْكِ هَارُوتاً ومَارُوْتا

---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١٠٤.

[2] نفسه ج ٢، ص ١١٦

[3] نفسه ج ٢ ص ١٢٢. والحَرْفُ النَّاقَةُ، وقَدْ شَبَّهَها بِالنُّونِ لِشِدَّةِ ضُمُورِها، والرَّائِي اسْمُ فاعِلٍ بِمَعْنَى ضارِبِ رِئَتِها، والدَّالِي الرَّفِيقُ المتَأنِّي، والنَّقْطُ المطَرُ، أيْ رُبَّ ناقَةٍ ضامِرَةٍ تُشْبِهُ في هُزالِها رَسْمَ حَرْفِ النُّونِ وعَلَيْها سائِقٌ عَنِيفٌ حُطَمٌ لا يَرْفُقُ بِها يُرِيدُها أنْ تُسْرِعَ بِهِ إلى أطْلالِ أحِبَّتِهِ التي غَيَّرَتْ رُسُومَها الأمْطارُ. (التَّرْجُمان).

وقَدْ أقامَ أبو العلاء البِناءَ الغَرِيْبَ لِهذا البَيْتِ عَلَى الفِعْلِ (نَكَّسَ) الذي وَرَدَ أصلاً في قِصَّةِ الملَكَيْنِ هَارُوْتَ ومَارُوْتَ اللَّذَيْنِ أُهْبِطَا مِنَ السَّماءِ إلى الأَرْضِ، فَلَمَّا نَزَلا إِلَيْها جَعَلا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ إضْلالاً لَهُمْ؛ فَعَاقَبَهُمَا اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلك فَنُكِّسَا مُعَلَّقَيْنِ مِنْ بُرْجِ بَابِلَ. فَأَبُو العَلاء هُنا رَأَى في وَضْعِ قُرْطَيْ مَحْبُوبَتِهِ المتَدَلِّيَيْنِ شَبَهاً بِهَذَيْنِ الملَكَيْنِ المعَلَّقَيْنِ مِنْ بُرْجِ بَابِلَ، ثُمَّ راحَ يَسْأَلُها: لِماذا تُعَذِّبِينَ قُرْطَيْكِ عَلَى هذا النَّحْوِ تَنْكِيساً، هَلْ خِلْتِهِما هَارُوتَ ومَارُوتَ؟ والحالُ أَنَّهُما لَمْ يَتَعاطَيَا سِحْراً. وعَلَى نَحْوِ مَا تَرى مِن إغْرَابِ هَذَا البَيْتِ فإنَّ مَعْنَاهُ يُخَالِفُ الفَهْمَ المتَعَارَفَ عَلَيْهِ الذِي يَنْسِبُ فِعْلَ السِّحْرِ إلى جَمَالِ الأُنْثَى ومَا لَهَا مِنْ زِيْنَةٍ وحِلْيَةٍ.

وتَبدُو بَدَواتُ أبي العلاءِ ونَزَواتُهُ اللُّغَوِيَّةُ في جانِبٍ أَقَلَّ فَظَاعَةً وشَنَاعةً، وذلِكَ في اسْتِخْدامِهِ المتَكَرِّرِ لِأسْماءِ النُّجُومِ والكَواكِبِ ومَجْمُوعاتِها. ولأَنَّها جَمِيعَها لَهَا أَسْماءُ حَيْواناتٍ أَوْ أَشْيَاءُ مِنْ مِثْلِ القُرُونِ والرِّماحِ والقِرَبِ، فَقَدْ أَطْلَقَ أبو العلاء لِنَفْسِهِ العِنانَ في أنْ يُسَمِّيَها بِكَلِماتٍ وعِباراتٍ مُرَادِفَةٍ، وطَفِقَ يَلْعَبُ عَلَى ظِلالِ المعاني المتَّصِلَةِ بِها بِما أَحْدَثَ ظَرْفاً وفُكَاهَةً أحْيَاناً. والتَّعْبِيْراتُ الموْضُوعُ تَحْتَها خَطٌّ مِنَ الأبْياتِ التي نُوْرِدُها لَكَ هُنا شَواهِدُ عَلَى ما ذَكَرْنا:

سَقَتْها الذِّرَاعُ الضَّيْغَمِيَّةُ جُهْدَها ... فَمَا أَغْفَلَتْ مِن بَطْنِهَا قِيْدَ إصْبَعِ[1]

بِهَا رَكَزَ الرُّمْحَ السِّمَاكُ وقُطِّعَتْ ... عُرَى الفَرْغِ في مَبْكَى الثُّرَيَّا بِمُمَّعِ[2]

وتَبْتَسِمُ الأَشْرَاطُ فَجْراً كأَنَّها ... ثَلاثُ حَمَامَاتٍ سَدِكْنَ بِمَوْقِعِ[3]

---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١٠٦.

[2] نفسه.

[3] نفسه ج ٢، ص ١٠٧.

إذا ما نَعَامُ الجَوِّ زَفَّ حَسِبْتَها   مِن الدَّوِّ خِيطانَ النَّعَامِ المفَزَّعِ[1]

٣) اسْتِخْدامُ المُصْطَلَحاتِ النَّحْوِيَّةِ عناصرَ وأساليْبَ لِلكَلامِ:

ومِثالُ ذَلِكَ أنَّهُ جَعَلَ رِحْلَتَهُ إلى المعَرَّةِ كأنَّها كَلامٌ عَرَبِيٌّ قَدْ كُتِبَ وأُعرِبَ بِحِبْرٍ مِنْ سَوادِ اللَّيْلِ، يُشِيْرُ إلَى مَواقِعِ أخْفَافِ مَطِيِّهِ عَلَى ظَهْرِ البَيْداءِ وقَدْ صَارَتْ كأنَّها كِتَابَةُ سُطُورٍ مُعْرَبَةٍ بِحِبْرٍ مِنْ سَوادِ اللَّيْلِ، قالَ:

كَتَبْنا وأَعْرَبْنا بِحِبْرٍ مِنَ الدُّجَى   سُطُوْرَ السُّرَى في ظَهْرِ بَيْدَاءَ بَلْقَعِ[2]

ويَنْظُرُ إلى الزَّمَنِ الذي اضطرَّهُ إلى العُزْلَةِ بِالمعَرَّةِ كأنَّهُ عالِمٌ نَحْوِيٌّ مَاهِرٌ بالتَّصرِيفِ، قَدْ صَرَّفَهُ كأنَّهُ فِعْلٌ شَاذٌّ، فَيَقُولُ في ذَلِكَ:

وصَرَّفَنِي فَغَيَّرَنِي زَمَانٌ   سَيُعْقِبُنِي بِحَذْفٍ وادِّغامِ[3]

ومَهَارةُ أبي العلاء في هذا الجانِبِ لا يُعْلَى عَلَيْها ولا يُشَقُّ لَهُ فِيْها غُبَارٌ.

٤) الإشاراتُ:

وأَبْرَزُ هذِهِ الإشَاراتِ إشاراتُهُ إلى الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ وإلى العَاداتِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمةِ وإلى آيِ القرءانِ وقَصَصِهِ. وإشَاراتُهُ إلى آيِ القُرْءانِ وقَصَصِهِ أَكْثَرُ مِنْ إشاراتِهِ إلى القَدِيمِ مِنْ شِعْرِ العَرَبِ وعاداتِهِمْ؛ لِأنَّكَ تَجِدُها في الصَّعْبِ وفِي السَّهْلِ مِنْ أجزاءِ قَصَائِدِهِ.

وهَاكَ هَذِهِ الأمْثِلَةَ:

كَأَنَّ أهْلَ قُرَى نَمْلٍ عَلَوْنَ قُرَى   رَمْلٍ فَغَادَرْنَ آثاراً مَخَافِيْتا[1]

لَوْ قُلْتِ مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ مُفْتَرِياً   لَخِفْتُ أنْ تُنْصَبِي فِي الأَرْضِ طاغُوْتَا[2]

---

[1] نفسه.

[2] نفسه ص ١٠٦.

[3] نفسه ص ٩٠.

لَسْتَ الكَلِيْمَ وفِي دَارٍ مُبَارَكَةٍ حَلَلْتَ والجَانِبَ الغَرْبِيَّ نُوْدِيْتَا[3]

رَأَتْ كَوثَرَيْ رِسْلٍ وخَمْرٍ بِجَنَّةٍ شامِيَّةٍ مَا أُكْلُ ساكِنِها خَمْطُ[4]

وما سَارَ بِي إلّا الَّذِي غَرَّ آدماً وحَوَّاءَ حَتَّى أَدْرَكَ الشَّرَفَ الهَبْطُ[5]

وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ حَفِظَ القُرْءانَ كُلَّهُ في بَاكِرِ سِنِيِّ عُمُرِهِ قَبْلَ بُلُوغِهِ العِشْرِينَ. ولَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ انْقَطَعَ عَنْهُ لِفَترَةٍ طَوِيلَةٍ خِلالَ سَنَواتِهِ الأُوْلَى بِالمعَرَّة، ثُمَّ عَادَ إِلَيهِ يُنْفِقُ في دَرْسِهِ أَكْثَرَ وَقْتِهِ وهُوَ بِبَغْدَادَ؛ لِأَنَّ القُرْءانَ بِبَغْدادَ كانَ مَدارَ أَغْلَبِ دِراساتِ عُلَماءِ اللُّغَةِ والبَيَانِ. وبَعْدَ رُجُوعِهِ إلى المعَرَّةِ ودُخُولِهِ في عُزْلَتِهِ كانَ كأنَّ مِمَّا أَلْزَمَ بِهِ نَفْسَهُ تِلاوةَ أجْزَاءٍ مِنَ القُرْءانِ بِحِرْصٍ في العَشِيِّ ومِنَ اللَّيْلِ أو زُلَفٍ مِنْهُ؛ فَقَدْ كان مُعْجَباً بِأُسْلُوبِهِ إِعْجَاباً لَا يُدانِيْهِ الشَّكُّ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ مُتَشَكِّكاً فِي كَوْنِهِ كَلامَ اللهِ القَدِيمَ. وأنْتَ واجِدٌ أُسْلُوبَ القُرْءانِ فاشِياً وسائِداً في كِتَابِهِ (الفُصُول) الذي كانَ قَدْ كَتَبَهُ في ذاتِ الفَتْرَةِ التي نَظَمَ فِيْها قَصَائِدَهُ التي أَوْرَدْنا مِنْها الاسْتِشْهَادَاتِ أَعْلاهُ.

٥) تَرَدُّدُ أَسْماءِ الحَيْوَانِ:

ويَعُودُ أَصْلُ هَذا إلى اثْنَتَيْنِ مِنْ صِفاتِ أبي العلاء الشَّخْصِيَّةِ المميِّزَة هُما: حُبُّهُ العِلْمِيُّ لِلأَلْفاظِ المهْجُورَةِ والحُوْشِيَّةِ وهُوَ ما يَظْهَرُ في مَعْرِفَتِهِ وتلاعُبِهِ بِأسماءٍ غَرِيْبَةٍ لِحَيْواناتِ الصَّحْراءِ اللَّبُونَةِ وزَواحِفِها وحَشَراتِها؛ وعَطْفُهُ وحُنُوُّهُ الأخَوِيُّ عَلَى كُلِّ الحَيْواناتِ عَلَى اعْتِبارِ أَنَّها مَخْلُوقاتٌ شَرِيْكَةٌ لَنا في الوُجُودِ، وكانَ يَرَى أَنَّ تَعْذِيبَها وقَتْلَها جُرْمٌ كَبِيرٌ.

---

[1] نفسه ص ١١٤.

[2] نفسه ص ١١٧.

[3] نفسه ص ١١٨.

[4] نفسه ص ١٢٣.

[5] نفسه ص ١٢٥.

فالطَّرِيقَةُ التي يُعَالِجُ بِها أبو العلاءِ أَسْماءَ الحَيْوانِ والاسْتِعاراتِ والتَّشْبيهاتِ التي يَسْتَوْحِيْها مِنَ عالَمِ الحَيْوانِ، كلُّ ذَلِكَ يَحْمِلُ طابَعَيْ كِلا هذَيْنِ الجانِبَيْنِ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ. يَظْهَرُ لَكَ ذَلِكَ فِي ما يَلِي:

(أ) مُعامَلَتُهُ لِلْحَيْوانِ كأنَّهُ بَشَرٌ أو عَلَى أنَّهُ بَشَرٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ[1]:

وقَالَ لِعِرْسِهِ بِيْنِي ثَلاثاً فَمَا لَكِ في العَرِيْنَةِ مِنْ مُقَامِ

فَهذا أَسَدٌ قَدْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ ثلاثاً، وقَوْلِهِ[2]:

كَتَابِعِ أُمٍّ تَبْتَغِي تُبْعاً لَهُ وَمَا ضَاعَها نَجْلٌ سِوَاهُ ولا سِبْطُ
إذا شَرِبَ الأُرْقِيَّ مَالَ بِهِ الكَرَى إلى سِدْرَةٍ أَفْنَانُها فَوْقَهُ تَغْطُو

ولَوْلا ما أخبَرَنا بِهِ الشُّرَّاحُ أنَّ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ في وَصْفِ ظَبْيَةٍ والِدَةٍ تَعْتَنِي بِوَلَدِها لَفَهِمْناهُما عَلَى أنَّهُما يُصَوِّرانِ امْرأَةً مِنْ بَنِي البَشَرِ مَعَ وَلَدِها. ويُشِيرُ أبو العلاءِ فِي أَحَدِ أَبْيَاتِهِ إلى النَّمْلِ عَلَى أنَّهُ (أَهْلُ قُرَى نَمْلٍ) مُستخْدِماً لِلنَّمْلِ كَلِمَةَ (أَهْلٍ) وهِيَ لَفْظَةٌ لا تَكُونُ إلَّا لِلبَشَرِ، وفِي بَيْتٍ آخَرَ يُخاطِبُ النَّمْلَةَ عَلَى أنَّها (أُمُّ مَازِنٍ). وقَدْ كانَتِ العَرَبُ تَمْتازُ بِرُوحِ الدُّعابَةِ وتَذَوُّقِ النُّكْتَةِ فَكَانَتْ تَمْنَحُ الحَيْواناتِ أَسْماءً شَخْصِيَّةً تُمَيِّزُها (أيْ كُنَىً وأعْلاماً) بَلْ وأعْلامَ جِنْسٍ. ولَكِنْ بِبُلُوغِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ تُرِكَتْ هَذِهِ الأشْيَاءُ وهُجِرَتْ. عَلَى أنَّ تَعاطِيَ أبِي العلاءِ لَها كان يُرضِي تَحْذْلُقَهُ ويُشْبِعُ مَا بِهِ مِنَ رُوحِ الدُّعابَةِ والنُّكْتَةِ وما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ حُبٍّ لِلْحَيْوانِ وعَطْفٍ عَلَيْهِ.

(ب) إيْرادُهُ الغَرِيْبَ لِأَسْماءِ الحَيْوَاناتِ في الكِناياتِ والنِّكاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ[3]:

---

[1] نفسه ص ٩١.
[2] نفسه ص ١٢٣.
[3] نفسه ص ١١٤.

بَرٌّ وبَحْرٌ مُبِيْدٌ لا تُحِسُّ بِهِ   ضَبَّ العَرَارِ ولا ظَبْياً ولا حُوْتا

(ج) إيْرادُهُ نُعُوتاً وصِفَاتٍ تُظْهِرُ مَا بِأَبِي العلاءِ مِنِ اهْتِمَامٍ واعْتِنَاءٍ لَطِيفٍ بِسُلُوكِ الحَيْوانِ، مِثْلُ قَوْلِهِ:

تَرَى آلَها في عَيْنِ كُلِّ مُقَابِلٍ   ولَوْ فِي عُيُونِ النَّازِياتِ بِأَكْرُعِ[1]

فَهُوَ هُنَا يُشِيْرُ إلى الجَرادِ بِهذا الوَصْفِ: أَنَّها تَثِبُ عَلَى أَرْجُلِها؛ وكَقَوْلِهِ[2]:

كَأَنَّ أَهْلَ قُرَى نَمْلٍ عَلَوْنَ قُرَى   رَمْلٍ فَغَادَرْنَ آثاراً مَخَافِيتا

فَالنَّمْلُ هُنا دَبَّتْ عَلَى ظَهْرِ كَثِيْبٍ مِنَ الرَّمْلِ فَخَلَّفَتْ وَراءَها آثاراً خَفِيفَةً تَكادُ لا تُرَى لِدِقَّتِها.

وعادةً ما تَأْتِي الأَجْزَاءُ السَّهْلَةُ مِنْ قَصائِدِ أبي العَلاء عَقِبَ الأَجْزَاءِ الصَّعْبَةِ مِنْها لِتُعالِجَ مَوْضُوعاتٍ أَعْظَمَ وأَكْبَرَ أَهَمِيَّةً. وفِي هَذِهِ الأَجْزَاءِ غابَتِ الزَّخْرَفَةُ والتَّلاعُبُ اللَّفْظِيُّ بِالنَّظَرِ إلى ما كانَ لِأَبِي العلاء مِنْ وَلَعٍ بِها، وقَلَّمَا تَعاطَى فِيْها المصْطَلَحاتِ النَّحْوِيَّةَ والفِقْهِيَّةِ أساليْبَ لِلْكَلامِ. وقَدْ جاءَتْ فِيْها بَعْضُ الإشاراتِ، ولَكِنْ عَلَى نَحْوِ مَنْ يُحادِثُ زَمِيلاً أو نِدّاً أو مَنْ يُحاضِرُ تَلامِيذَ ولَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ الأُرُسْتُقْرَاطِيِّ الأَدِيبِ الحاذِقِ. ولا نَكادُ نَجِدُ في الرَّائِيَّةِ التي نَظَمَها لِلتَّنُوخِيِّ الحُوْشِيَّ المهْجُورَ مِنَ اللُّغَةِ ولا لُغَةَ الحَذْلَقَةِ؛ فَلابُدَّ أَنَّ الشَّاعِرَ كانَ قَدْ حَذَفَ الأَبْياتَ التي جاءَ فِيها شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ قُبَيلَ تَعْدِيلِهِ وإِصْلاحِهِ النِّهائِيِّ لِدِيوانِ سَقْطِ الزَّنْدِ، وقَدِ اسْتَنْتَجْنا ذَلِكَ مِنْ هَيْئَةِ مَطْلَعِ هَذِهِ الرَّائِيَّةِ، كَمَا جاءَ في سَقْطِ الزَّنْدِ:

لَوْلا مَساعِيْكَ لَمْ تُحْسَبْ مَساعِيْنا   ولَمْ نُباهِ بِأَحْسَابِ العُلا مُضَرا[1]

---

[1] نفسه ص ١٠٨.

[2] نفسه ص ١١٤.

فَصَدْرُ هذا البَيْتِ مُضْطَرِبٌ مِنْ جِهَةِ العَرُوضِ؛ إِذْ لا نَراه يَنْتَهِي بِقافِيَةِ القَصِيدَةِ كما هُوَ الشَّأْنُ في مَطَالِعِ قَصائِدِ أبي العَلاءِ؛ وعَلى ذلك فَيُمْكِنُنا أَنَّ نُقَدِّرَ باطْمِئْنانٍ أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ حَذَفَ قَبْلَهُ أبْياتاً عَدِيدَةً؛ وأَنَّ ما بَقِيَ مِنْ أَبْياتِ هَذِهِ القَصِيدَةِ، الدالَّ عَلَى رِضَا الشَّاعِرِ عَنْهُ مِنْ ناحِيَةٍ، ونُفُورِهِ مِمَّا حَذَفَهُ مِنْها مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى؛ بَلَغَ مِنَ السُّهُولَةِ واليُسْرِ مَبْلَغَ البَساطَةِ– إلى حدِّ السَّذاجَةِ– مُقارَنَةً بِمَا يُناظِرُهُ مِنْ أجْزاءٍ لِلْقصائِدِ الأُخْرى.

ولَمْ يَكُنِ الأُسْلُوبُ السَّلِيْمُ غَيْرُ المتَكَلَّفِ في قَصائِدِ أَبِي العلاءِ، بَعْدَ تباهِيْهِ السابق، أَدَاةً شاعِرِيَّةً مُحَبَّبَةً وحَسْبُ، بَلْ كان تَعْبِيراً عَنْ رَفْضِ مَعايِيرِ الأُسْلُوبِ المعْرُوفَةِ عَصْرَئِذٍ والتَّمَرُّدِ عَلَيْها، وقَدْ كانَ إِلَى حَدٍّ مّا وبِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ مُحاوَلَةً لِإِطْلَاقِ الشِّعْرِ فِي التَّعْبِيرِ بَعِيداً عَنْ تَكَلُّفِ المعَانِي والأفْكَارِ وتَصَنُّعِ الخِبْرَةِ العاطِفِيَّةِ مِمَّا كانَ أَلْهَمَ الشَّاعِرَ. ومِمَّا لَهُ دَلالَةٌ أنَّ الاسْتِعَارَاتِ والتَّشْبِيهاتِ هُنا لا يَكادُ يُحَسُّ؛ فَأَبُو العَلاءِ هُنا يَعْتَمِدُ عَلَى ذِكْرِ أَسْماءِ الأَمَاكِنِ بِبَغْدادَ وذِكْرِ أَسْماءِ طُرُقَاتِها وأحْيائِها، وعَلَى التحدُّثِ عَمَّا تَعَرَّضَ لَهُ في حَيَاتِهِ فِيْها مِنْ أحْداثٍ وعَنِ الصِّراعاتِ الأَهْلِيَّةِ فِي مَوْطِنِهِ، كَمَا يَعْتَمِدُ عَلَى اسْتِخْدَامِهِ لُغَةَ (الحَدِيْثِ عَنِ الصَّنْعَةِ) مَعَ رُصَفَائِهِ مِنْ أجْلِ بَعْثِ جَمِيْلِ ذِكْرَياتِهِ التي شَهِدَتْها السَّنَتانِ اللَّتانِ قَضَاهُما بِهَذِهِ الحاضِرَةِ ومِنْ أجْلِ تَصْوِيرِ سَخَطِهِ عَلَى الحَيَاةِ بِالمعَرَّةِ ووَصْفِ شَوْقِهِ إلى بِيْئَةٍ ثَقَافِيَّةٍ أَغْنَى وأخْصَبَ. ويَتَظاهَرُ أبو العلاءِ فِي أُسْلُوبِه السَّهْلِ بأنَّهُ يَجْهَلُ فَنَّ صِناعَةِ الشِّعْرِ عَلَى النَّحْوِ الذي كان مَعْرُوفاً في زَمانِهِ ويَنتحِلُ هَيْئَةَ مُعلِّمٍ مُتواضِعِ الحالَةِ يَتَّخِذُ مِنْ أَوْزانِ الخَلِيلِ[2] مَطِيَّةً يُؤَدِّي بِها آراءَهُ وأَفْكارَهُ (غَيْرَ الشَّاعِرِيَّةِ) عَلَى نَحْوِ ما كانَ

---

[1] نفسه ص ١٣٩.

[2] هُوَ الخَلِيْلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَرَاهِيْدِيُّ، شَيْخُ سِيبَوِيْهِ ووَاضِعُ نِظامَ العَرُوضِ العَرَبِيِّ.

يَصْنَعُ نُظَّامُ الشِّعْرِ التَّعْلِيْمِيِّ الذِيْنَ كانُوا يَنْظِمُونَ عَلَى بَحْرِ الرَّجَزِ الأَحْداثَ التارِيْخِيَّةَ وقَوَاعِدَ المَنْطِقِ والعَقَائِدَ الدِّيْنِيَّةَ. فَقَدْ حاوَلَ أبو العلاء عَنْ قَصْدٍ أَنْ يُظْهِرَ شِعْرَهُ مَظْهَرَ شِعْرِ العُلَماءِ الذِي كانَ مَعْرُوفاً بِجَفافِهِ وفَقْرِهِ الفَنِّيِّ؛ فَقَدْ كَتَبَ، مَثَلاً، إلى التَّنُوخِيِّ[1]:

أُهْدِي السَّلامَ إِلَى عَبْدِ السَّلامِ فَمَا ... يَزَالُ قَلْبِي إِلَيْهِ الدَّهْرَ مَلْفُوتا

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ ... إِلَيْكَ دِيوانَ تَيْمِ اللَّاتِ مَا لِيْتا

أيْ أُبْلِغُ سِلامِي إلى عَبْدِ السَّلامِ فَمَا أَزالُ أَتَلَفَّتُ إِلَيْهِ بِقَلْبِي، وكُنْتُ طَلَبْتُ مِنهُ قَبْلَ تَرْكِيَ بَغْدادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ بِدِيوانِ (تَيْمِ اللَّاتِ) المسْتَعارِ كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ. وكَقَولِهِ[2]:

والآنَ أَشْرَحُ حالِي غَيْرَ مُعْتَمِدٍ ... فِيهِ الإِطالَةَ كَيْمَا تَعْلَمُ الخَبَرا

أيْ فأَنَا الآنَ أَشْرَحُ لَكَ أَمْرِي بِقَوْلٍ مُوْجَزٍ فِي غَيْرِ ما إطالةٍ كَيْ تَقِفَ عَلَى خَبَرِي.
ولَعَلَّ ادِّعاءَ أبي العلاء شَخْصِيَّةَ ناظِمِ الشِّعْرِ الوَضِيعِ القَدْرِ وتَظاهُرَهُ بِشَخْصِيَّةِ العَالِمِ لا بِشَخْصِيَّةِ الشَّاعِرِ ناتِجٌ مِنْ تَصَوُّرٍ لَهُ مُستَغْرَبٍ، هو تَناقُضُ أَنْ تَكُونَ أَدِيْباً شاعِراً مَعَ أَنْ تَكُونَ ناسِكاً زَاهِداً. ولِأَنَّهُ كانَ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ مَا فَرَضَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قُيودٍ صارِمةٍ كخُشُونَةِ العَيشِ وما إِلَيْهِ مِنْ مَظاهِرِ الزُّهْدِ كأَنَّهُ إِنَّما كانَ بِدَواعِي الدِّيْنِ ودَوافِعِ الوَرَعِ، فَقَدْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَظَاهَرَ بِمَوْقِفٍ مُعادٍ لِلشِّعْرِ، حَتَّى يَكُونَ عَلَى وِفاقٍ واتِّساقٍ مَعَ تَعالِيمِ القُرْءانِ ﴿والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُوْنَ﴾. وقَدْ كانَ ذَلِكَ مِنْ أَبِي العلاء تَصَرُّفاً رَاشِداً وخُطَّةً عاقِلَةً وهُوَ مِنْ قَبِيلِ اتِّخاذِ التَّقِيَّةِ اتِّخاذاً عَبْقَرِيّاً . وإذا كانَ دِفاعُ أَبِي العلاء عَنْ نَفْسِهِ هو الدَّافِعَ، وهُوَ ما يَبْدُو فِي الواقعِ، فَعَلَيْنا إِذنْ أَنْ نُقَدِّرَ لَهُ عبقرِيَّتَهُ فِي هَذِهِ

---

[1] سقط الزند، ج ٢، ص ١٢٠.

[2] نفسه ج٢ ص ١٤١

الأَجْزاءِ السَّهْلَةِ مِنْ قَصائِدِهِ، وأنْ نَغْفِرَ لَهُ، كَذَلِكَ، إسْرافَهُ وغُلُوَّهُ في الأَجْزاءِ الصَّعْبَةِ مِنْها. ونُورِدُ لَكَ هُنا بَعْضَ أبْياتِ الرَّائِيَّةِ التي بَعَثَ بِها إلى أبي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ[1]:

أَذاكِرٌ أَنْتَ عَصْراً مَرَّ عِنْدَكَ لِي	فَلَيْسَ مِثْلِي بِناسٍ ذَلِكَ العُصُرا
أَيَّامَ وَاصَلْتَنِي وُدّاً وتَكْرِمَةً	وبِالقَطِيْعَةِ دارِي تَحْضُرُ النَّهَرا
وحَمْلَكَ الشِّعْرَ مِنْ أَشْعارِ طائِفَةٍ	وَحْشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُنْكِرُ الجُدُرا
جُزْءٌ بِدَرْبِ جَمِيْلٍ في يَدَيْ ثِقَةٍ	سَأَلْتُهُ رَدَّ مَضْمُونٍ إذَا قَدَرا
وكَمْ بَعَثْتُ سُؤالاً كاشِفاً نَبأً	عَنْهُ فَلَمْ أَقْضِ مِنْ عِلْمِي بِهِ وَطَرا
والمالِكِيُّ ابْنُ نَصْرٍ زارَ في سَفَرٍ	بِلادَنا فَحَمِدْنا النَّأْيَ والسَّفَرا
إذا تَفَقَّهَ أَحْيا مالِكاً جَدَلاً	ويَنْشُرُ الملكَ الضِّلِّيْلَ[2] إنْ شَعَرا
فَظَلَّ يُثْنِي عَلَيْكَ الخَيْرَ مُجْتَهِداً	ولَمْ تَغِبْ عَنْ ذُرَى مَجْدٍ مَتَى حَضَرا
والآنَ أَشْرَحُ أَمْرِي غَيْرَ مُعْتَمِدٍ	فِيهِ الإطالَةَ كَيْما تَعْلَمَ الخَبَرا
مُدَّ الزَّمانُ وأَشْوَتْنِي حَوادِثُهُ	حَتَّى مَلِلْتُ وذَمَّتْ نَفْسِيَ العُمُرا
وحُلْتُ كُلِّي سِوَى شَيْبٍ تَجاوَزَنِي	ولَمْ يُبَيِّضْ عَلَى طُولِ المَدَى الشَّعَرا

هَذا، وقَدْ نُظِمَتْ كُلٌّ مِنْ قَصِيْدَةِ أبي العلاء في رِثَاءِ جَعْفَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ المهَذَّبِ[3] وزُهْدِيَّتِهِ التي نَظَمَها عَلَى لِسانِ سائِقِ الحَجِيْجِ[4] بِأُسلوبٍ شَبِيهٍ بِالأُسْلُوبِ الذي نُظِمَتْ عَلَيْه الأَجْزاءُ السَّهْلَةُ مِن قَصائِدِهِ الرَّسائِلِيَّةِ. فَفِي المرْثِيَةِ استخدَمَ أبو العلاءِ بَحْرَ السَّرِيعِ والقافِيَةَ (دِهِ). وذاتُ البَحْرِ مَعَ قافِيَةِ (بِهِ) — وهِيَ شَدِيدَةُ الشَّبَهِ بِالقافِيَةِ (دِهِ) — اسْتَخْدَمَهُما المتنبِّي في قَصِيدَتِهِ التي رَثا بِها عَمَّةَ عَضُدِ الدَّوْلَةِ البُوَيْهِيِّ. فالتَّشابُهُ بَيْنَ

---

[1] لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الأَبْياتُ في الأَصْلِ بالإنجليزِيَّةِ، بَلِ اكْتَفَى الكاتبُ بِشَرْحِ مَعانِيْها إلى (المتَرْجِمُ)

[2] هُوَ امْرُؤُ القَيْسِ، الشَّاعِرُ الجاهِلِيُّ

[3] سقط الزند ج ٢ ص ١ فما بعدها

[4] نفسه ص ٢١٩ فما بعدها

قَصِيدَةِ الرِّثاءِ لِأبي العلاءِ والجُزْءِ الرِّثَائيِّ مِنْ قَصِيدَةِ المتنبِّي جِدُّ عَظِيْمٍ. فأبو العلاء في هَذِهِ المرْثِيَةِ يُفكِّرُ مَلِيّاً في حَتْمِيَّةِ الموْتِ ويُضَمِّنُ تأمُّلاتِهِ مِنْ حِيْنٍ إلَى آخَرَ أَفْكاراً فَلْسَفِيَّةَ الطَّابَعِ. قَارِنْ مَثَلاً بَيْتَ أبي العَلاءِ:

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبْلَةٍ خَدَّهُ   سُلِّطَتِ الأرْضُ عَلَى خَدِّهِ[1]

بِبَيْتِ المتنبِّي:

لَوْ فَكَّرَ العاشِقُ في مُنْتَهى   حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ[2]

وقَارِنْ بَيْتَ أبي العلاء:

مَا رَغْبَةُ الحَيِّ بِأَبْنائِهِ   عَمَّا جَنَى الموْتُ عَلَى وُلْدِهِ[3]

بِبَيْتِ المتنبِّي:

نَحْنُ بَنُو الموْتِ فَمَا بَالُنَا   نَعافُ مَا لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ[4]

وقَارِنْ بَيْتَ أبي العلاء:

والوَاحِدُ المفْرَدُ في حَتْفِهِ   كالحاشِدِ المكْثِرِ في حَشْدِهِ[5]

بِبَيْتِ المتنبِّي:

يَمُوْتُ رَاعِي الضَّأْنِ في جَهْلِهِ   مِيْتَةَ جَالِيْنُوسَ في طِبِّهِ[1]

---

[1] نفسه ج ٢، ص ٨

[2] ديوان المتنبي، ص ٥٧٣

[3] سقط الزند ج ٢، ص ٦

[4] ديوان المتنبي ص ٥٧٣

[5] سقط الزند ج ٢ ص ٦

وربَّما زادَ عَلَى عُمرِهِ وزادَ فِي الأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

فَهَذِهِ القَصِيدَةُ لِأبِي العلاءِ مَلْأَى بِأنْفاسِ الحِكْمَةِ ومأْثُورِ القَوْلِ، كما تَسُودُها أقْوالٌ مِنهُ تُنْبِئُ عَنْ سَوْداوِيَّةٍ وتَشاؤُمٍ. ويُنْبِئُنا أبو العلاء أنَّ الزَّاهِدَ إنَّما يَزْهَدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيا لِخبْرَتِهِ بِها وتَجْرِبَتِهِ إيَّاها وعِلْمِهِ بِوَشْكِ زَوَالِها وبِاسْتِحالَةِ دَوَامِ البَقَاءِ فِيْها؛ غَيْرَ أنَّهُ فِي أعْمَاقِ نَفْسِهِ يَمِيلُ إلى الدُّنيا ويَهْوَى زَهْرَتَها فَيَعْبُدَ الدُّنيا عِبادَةَ الكافِرِ الصَّنَمَ:

تَجْرِبَةُ الدُّنْيا وأحْوَالِها حَثَّتْ أخَا الزُّهْدِ عَلَى زُهْدِهِ

والقَلْبُ مِنْ أهْوَائِها عابِدٌ مَا يَعْبُدُ الكافِرُ مِنْ بُدِّهِ

ومِنْ الطَّرِيفِ أنْ نُلاحِظَ هُنا أنَّ أبا العلاء لا يَذْكُرُ الحَياةَ الآخِرَةَ فِي هَذِهِ المرْثِيَةِ، إذْ قَدْ صَرَفَ فِكْرَتَها عَنْ ذِهْنِهِ بِتأْمِيلِهِ أنْ يَشْمَلَ جَنَاحُ الرَّحْمَةِ الفَقِيدَ فِي قَبْرِهِ[2]:

إنَّ الذِي الوَحْشَةُ فِي دَارِهِ تُؤْنِسُهُ الرَّحْمَةُ فِي لَحْدِهِ[3]

فَهُوَ يَدْعُو لِمَنْ تَوَحَّشَتْ دارُهُ بِمَوْتِهِ أنْ يُؤْنِسَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ فِي قَبْرِهِ

وأمَّا الزُّهْدِيَّةُ فَمَا يَسُودُها مِنْ سَوْداوِيَّةٍ وتَشاؤُمٍ أَشَدُّ وأعْمَقُ مِمَّا سادَ هَذِهِ المرْثِيَةَ. فَقَدْ نُظِمَتْ هَذِهِ الزُّهْدِيَّةُ عَلَى بَحْرٍ صَغِيرٍ مَجْزُوءٍ هُوَ بَحْرُ الكَامِلِ الخامِسِ، وهُوَ ما يُذَكِّرُنا بِبُحُورِ أبِي العَتاهِيَةَ الخَفِيفَةِ. ويَنْظُرُ شاعِرُنا إلى الدُّنْيا عَلَى أنَّها حَسْناءُ مُومِسٌ تُمَارِسُ خِداعَها وحِيَلَها عَلَى النَّاسِ لِتُغْوِيَهُمْ وتَدْفَعَ بِهِمْ إلى حِبالَةِ الإغْراءِ وشَرَكِ الغِوايَةِ. وهِيَ صُورَةٌ تَرَدَّدُ، عَلَى نَحْوِ ما ذَكَرْنا آنِفاً، فِي شِعْرِ المتَنَبِّي[4]:

---

[1] ديوان المتنبي ص ٥٧٣

[2] سقط الزند، ج ٢ ص ١٠

[3] نفسه، ولَمْ يَرِدْ هذا البَيْتُ ولا ما أَتْبَعْناهُ مِنْ شَرْحٍ في النَّصِّ الأصْلِ، وإنَّما أَثْبَتْناهُ هُنا حَتَّى يَتَّضِحَ المعْنَى (المترجم)

[4] انظر ص ٨١ مِنْ كتابِنا هذا.

فَذِي الدَّارُ أخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ   وأخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحابِلِ
تَفَانَى الرِّجَالُ عَلَى حُبِّها   وما يَحْصُلُونَ عَلَى طائِلِ

وأَبْياتُ أبي العلاءِ فِي الحَجِّ في هَذِهِ القَصِيدَةِ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِهَا لا تَمْدَحُهُ عَلَى أَنَّهُ نُسُكٌ وشَعِيرَةٌ دِينِيَّةٌ، تُوحِي بِسُخْرِيَةٍ مِنهُ ومِنْ مَنْ يَحُجُّونَ. فَنَحْنُ نَلْمَسُ هُنا إشْفَاقَ أَبِي العلاء عَلَى هَذِهِ الرَّكَائِبِ والنُّوقِ التي تُلْجِئُها مَشَقَّةُ التَّرْحالِ والتَّسْفَارِ إلى الأَنِينِ وتَشَكِّي الأيْنِ والكَلالِ والإعْيَاءِ حَتَّى إنَّها لَتَنْفُقُ في عُرْضِ الفَلاةِ، فَتُتْرَكُ على قارِعَةِ الطَّرِيقِ تَنْتَابُها الطَّيْرُ تَأْكُلُها وتَنْقُرُ أعْضَاءَها وأشْلاءَها. ولا يَفُوتُنا أنْ نَلْحَظَ هُنا ابْتِسَامَةً مَبْعَثُها الشَّكُّ في فِكْرَةِ الحاجِّ الذِي يَتَجَشَّمُ عَنَاءَ رِحْلَةٍ مُقَدَّسةٍ تَكْتَنِفُها الأَهْوَالُ والأَخْطَارُ وهُوَ يَسْرِي لِيَقْطَعَ بَيْداءَ مَهْمَهاً لَيْسَ بِها مِنَ الطَّعَامِ إلَّا صَمْغُ الطَّلْحِ ذِي الشَّوْكِ ولا مِنَ الشَّرابِ إلا الآلُ والسَّرابُ[1]. ويشتَدُّ ظُهُورُ سُخْرِيَةِ أَبِي العلاءِ هَذِهِ في قَوْلِهِ[2]:

حَتَّى قَضَيْتَ طَوافَها   سَبْعاً وزُرْتَ جِبالَها
وسَمِعْتَ عِنْدَ صَباحِها   ومَسَائِها إهْلالَها
تَرْجُو رِضا المَلِكِ الذِي   مَنَحَ المُلُوكَ جَلالَها

وعِبَارَةُ (زُرْتَ جِبالَها) تَكْشِفُ عَنْ نَظْرَةٍ مِلْؤُها الاسْتِهَانَةُ وعَدَمُ التَّوْقِيرِ لِجَبَلِ عَرَفَاتٍ المقَدَّسِ[3].

هَذَا، وقَدْ كانَ مِنَ المُمْكِنِ جِدّاً أنْ تَنْتَظِمَ هَذِهِ الزُّهْدِيَّةُ بَيْنَ مَقْطُوعَاتِ اللُّزُومِيَّاتِ لَوْلا أنَّها خَلَتْ مِنْ حَرْفِ الرَّوِيِّ الثانَوِيِّ؛ فَهِيَ تَحْمِلُ ذَاتَ أنْفَاسِ الهَرْطَقَةِ والكآبَةِ التي

---

[1] لَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ الشَّرَابِ في كَلامِ المؤَلِّفِ ولَكِنَّها مَوْجُودةٌ في القَصِيدَةِ فَلَعَلَّها سَقَطَتْ مِنَ النَّصِّ سَهْواً، فَأَثْبَتْناها لِيَكْتَمِلَ المعْنَى المرَادُ (المترجم).

[2] سقط الزند، ج ٢، ص ٢٢٢

[3] هل مُجَرَّدُ كَلِمَةِ (جِبالها) تَكْفِي لِلْحُكْمِ على أبي العلاءِ؟ أَلَيْسَ الوزنُ والقافيةُ مَنْ أَمْلَيَا عَلَيهِ هذه الصياغَةَ. (المترجم)

حَمَلَتْها أغْلَبُ قَصَائِدِ أبِي العلاءِ التي نَظَمَها بعْدَ زُهدِهِ في دُنْيا النَّاسِ واعْتِزالِهِ فِي دارِهِ بِمَعَرَّةِ النُّعْمَانِ يَحْيَا فِيْها حَياةً تَقُومُ عَلَى التَّقَشُّفِ وشَظَفِ العَيْشِ.

الدِّرْعِيَّات[1]

أَمْلَى أَبُو العَلاءِ المعَرِّيُّ في أُخْرَيَاتِ دِيْوَانِهِ (سَقْطِ الزَّنْدِ) إِحْدَى وثَلاثِيْنَ كَلِمَةً شِعْرِيَّةً مِنْها عَشْرُ مُقَطَّعاتٍ، وإِحْدَى وعِشْرُونَ بيْنَ طَوِيْلَةٍ وقَصِيْرَةٍ، كُلُّها في وَصْفِ الدِّرْعِ، وأَسْمَاها جَمِيْعاً (الدِّرْعياتِ)، ونَصَّ عَلَى أَنَّها لَيْسَتْ مِنْ مَتْنِ (سَقْطِ الزَّنْدِ) مَعَ أَنَّهُ أَلْحَقَها بِهِ. ولا نَدْرِي عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيْقِ مَتَى نُظِمَتْ هَذِهِ القَصائِدُ؛ لَكِنْ يَتَرَجَّحُ عِنْدَنا أَنَّها نُظِمَتْ جَمِيْعاً في فَتْرَةِ عُزْلَتِهِ بِالمعَرَّةِ، بُعَيْدَ رُجُوعِهِ مِنْ بَغْدادَ، وقُبَيْلَ شُرُوعِهِ في (اللُّزُومِيَّات). والدَّلِيْلُ عَلَى ذَلِكَ ما نَجِدُهُ مِنْ ذِكْرِ العُزْلَةِ فِيْها؛ وأَنَّهُ فَرَغَ مِنْ جَمْعِها مَعَ الفُرُوغِ مِنْ جَمْعِ (السَّقْطِ) ونَحْنُ نَعْلُم أَنَّهُ قَدْ فَرَغَ مِنْهُ قَبْلَ (اللُّزُومِيَّاتِ). وبِما أَنَّ أُخْرَيَاتِ القَصَائِدِ التي فِي (السَّقْطِ) نُظَمَتْ حَوالَيْ سَنَةِ ٤١٤هـ[2] – وهُوَ العامُ الذي شَبَّتْ فِيهِ فِتْنَةُ حَسَّانٍ الطائيِّ وأَصْحَابِهِ مِنْ عامِرٍ وكَلْبٍ – فَإِنَّنا نُوشِكُ أَنْ نَجْزِمَ أَنَّ الدِّرْعِيَّاتِ فَرَغَ مِنْها بَعْدَ هَذَا العام بِزَمَانٍ، رُبَّما يَكُونُ عاماً أو عامَيْنِ أو ثَلاثَةً. وفِي (اللُّزُومِيَّاتِ) ما يُفِيْدُ أَنَّ الشَّاعِرَ شَرَعَ في نَظْمِها سَنَةَ ٤١٧هـ[3]، فَلْنَعْتَبِرْ هَذَيْنِ التارِيْخَيْنِ مَعاً.

---

[1] هذا الجُزْءُ مِنَ الفَصْلِ الرَّابِعِ (الدِّرْعِيَّاتِ) كانَ قَدْ تَرْجَمَهُ المؤَلِّفُ نَفْسُهُ مُنْذُ زَمانٍ طَوِيْلٍ ونَشَرَهُ في كِتابِهِ (القَصِيدَةُ المادِحةُ ومَقَالاتٌ أُخَرُ) الذِي طَبَعَتْهُ دَارُ التَّأْلِيْفِ والتَّرْجَمَةِ والنَّشْرِ بِجَامِعَةِ الخُرْطُومِ، ط أولى ١٩٧٣، وقالَ ثَمَّ فِي المقَدِّمَةِ: (بَلْ مِنْ حَقِّ هَذِهِ الكَلِمَةِ – الدِّرْعِيَّاتِ- أَنْ أُبْرِزَها مِنْ ظُلُمَاتِ الانْزِوَاءِ فِي أَضَابِيْرِ المجَلَّاتِ المخْتَصَّةِ إلى حَيِّزِ سِفْرٍ تُنِيْرُ بِهِ ويُنِيْرُ بِها إِنْ شاءَ اللهُ، ذَلِكَ بِأَنَّها فَصْلٌ مِنَ الرِّسالَةِ التي تَقَدَّمْتُ بِها إلى الدُّكْتُوْرَاةِ عامَ ١٩٥٠ وقَدْ كانَ مَوْضُوعُها (أَبُو العَلاءِ شاعِراً) وهِيَ كُلُّها بِالإِنْجِلِيْزِيَّةِ. وقَدْ وَجَدْتُنِي أَبْخَلُ بِزَمَنِي أَنْ أُنْفِقَهُ عَلَى تَرْجَمَةِ أَمْرٍ فَرَغْتُ مِنهُ. وقَدْ حاوَلْتُ اخْتِصارَها ونَشْرَها بِاللُّغَةِ الإِنْجِلِيْزِيَّةِ عامَ ١٩٥٩ عِنْدَ شَرِكَةِ لُوْزَاكْ، واتَّفَقَ آنذاكَ أَنْ أَضْرَبَتِ المطَابِعُ، وطالَ إِضْرَابُها فَأَخَذْتُ مِنهُمْ نُسَخَ الكِتَابِ المطْبُوعَةِ بِالآلَةِ الكَاتِبَةِ إِعْدَاداً لَها لِلْنَشْرِ ثُمَّ نَدَّ عَنِّي مَوْضِعُها إلى زَمانٍ قَرِيْبٍ. وقَدْ كُنْتُ في مَوْجَةٍ مِنَ النَّشاطِ تَرْجَمْتُ هَذَا الفَصْلَ عَنِ الدِّرْعِيَّاتِ ونَشَرْتُهُ بِمَجَلَّةِ كُلِّيَةِ الخُرْطُوْمِ الجامِعِيَّةِ وأَعَدْتُ نَشْرَهُ بِمَجَلَّةِ المجْمَعِ.. وكُلُّ ذَلِكَ زَمانٌ بَعِيْدٌ). هذا، وقد أَوْرَدْتُ هذا الجُزْءَ من هذا الفصْلِ كما هو لم أَزِدْ عَلَيْهِ شَيْئاً، على الرّغْمِ من اختلافِهِ عمَّا في الرِّسالةِ، فهُنا شيءٌ من اختِصارٍ وتَغْيِيرٍ (المترجم)

[2] رَاجِعْ شُرُوحَ سَقْطِ الزَّنْدِ – دار الكتب سنة ١٩٤٨ – القسمين الرابع والخامس.

[3] اللزوميات – عزيز زند ( ) ١ – ٣٠٢.

ومِمَّا يَسْتَرْعِي النَّظَرَ أنَّ فِي الدِّرْعِيَّاتِ نَحْواً مِنْ ثَلاثَ عَشْرَةَ كَلِمَةً مُقَدَّماً لَها بِنَحْوِ: (وقالَ عَلَى لِسانِ رَجُلٍ يَصِفُ دِرْعَيْنِ)،[1] وقالَ عَلَى لِسانِ دِرْعٍ تُخاطِبُ سَيْفاً[2] وهَكَذا، فَهَلْ هَذِهِ المقَدِّمَاتُ مِنْ وَضْعِ الشُّرَّاحِ؟ أَسْتَبْعِدُ ذَلِكَ، إذْ قَدْ خلَتْ مِنْها القصائِدُ الثَّمانِي عَشْرَةَ الأُخْرَيَاتُ ولَنا أَنْ نُحْدِسَ فَنزْعُمَ أنَّ المعَرِّيَّ أرادَ هَذِهِ التَّقْدِمَاتِ لِتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ العَناوِيْنِ، ويَكُونُ بِهَذا مِمَّنْ سَبَقُوا إلى (عَنْوَنَةِ) القصائِدِ مِنْ شُعَرائِنا[3] عَلَى أنَّ الرَّاجِحَ عِنْدِي أنَّهُ اقْتَدَى في هَذِهِ المقَدِّمَاتِ بأبِي الطَّيِّبِ، الذي كان كثيراً ما يَشْرَحُ الأَغْرَاضَ التي نَظَمَ مِنْ أجْلِها ويُؤَرِّخُ القصائِدَ ويَذْكُرُ مَمْدُوحِيْها.

وأُسْلُوبُ الدِّرْعِيَّاتِ مِمَّا يَسْتَحِقُّ الدَّرْسَ والعِنَايَةَ، وهُوَ عِنْدِي تُحْفَةٌ مِنْ تُحَفِ النَّظْمِ العَرَبِيِّ. ولِلنَّاقِدِ الأدَبِيِّ في فُنُوْنِهِ المخْتَلِفَةِ مُتَأَمَّلٌ أيَّما مُتَأمَّلٍ. فَهُوَ يُمَثِّلُ مِنْ جِهَتَيْ النَّظْمِ والأَدَاءِ المعْنَوِيِّ فَتْرَةً مُهِمَّةً لِلْغَايَةِ في تَطَوُّرِ المعَرِّيِّ الفَنِّيِّ، إذْ هُوَ دُوْنَ أَدْنَى رَيْبٍ ذُو أُسْلُوبٍ وَسَطٍ بَيْنَ أُسْلُوبِ السَّقْطِ واللُّزُومِيَّات. وهُوَ أيْضاً يُمَثِّلُ فَتْرَةً مُهِمَّةً في تَطَوُّرِ المعَرِّيِّ الفَلْسَفِيِّ الرُّوْحِيِّ، إذْ هُوَ مُفْعَمٌ بِرُوْحِ اليَأْسِ المتَمَسِّكِ بِالدُّنْيا، كَما هُوَ مُفْعَمٌ بِرُوْحِ الصَّبْرِ المتَوَطِّنِ عَلَى قَبُولِ الوَحْشَةِ والعُزْلَةِ. ومِنْ أجْلِ هَذَا فَهُوَ أَمْلأُ بِالحَرارَةِ والانْفِعَالِ العاطِفِيِّ مِنَ اللُّزُومِيَّاتِ، الذِي خَضَعَتْ فِيهِ عَوَاطِفُ الشَّاعِرِ، إلى حَدٍّ مَّا، لِلْقُيُودِ التي فَرَضَها عَلَى نَفْسِهِ. والدِّرْعِيَّاتُ بَعْدُ كِتابُ فَنٍّ مَذْهوبٍ بِهِ مَذْهَبَ العِلْمِ، وعِلْمٍ مَذْهُوبٍ بِهِ مَذْهَبَ الفَنِّ. فَكُلُّ هَذَا يَجْعلُهُ مِنَ الآثارِ القَيِّمَةِ الباعِثَةِ عَلَى التَّنْقِيْبِ والدَّرْسِ.

---

[1] الشروح، ص ١٨١٥.

[2] نفسه ص ١٧٦٠.

[3] ويَحْسُنُ أيضاً أنْ نَذْكُرَ في هذا الموْضِعِ أنَّهُ أيْضاً مِمَّنْ سَبَقُوا إلى تَسْمِيَةِ دَوَاوِيْنِهِمْ بِأَسْمَاءٍ مُمَيِّزَةٍ لَها، سِوَى ما دَرَجَتْ عَلَيهِ العادَةُ مِنْ قَوْلِهِم دِيوانُ فُلانٍ ودِيْوَانُ فُلانٍ – وذلك لِتَسْمَيَتِهِ الدِّيْوَانَ الأَوَّلَ (سَقْطَ الزَّنْدِ) والثانِي (لُزُومَ مالا يَلْزَمُ) وهَلُمَّ جَرَّاً .. وأَحْسِبُ أنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ إلى هذا البابِ مِنَ الشُّعَراءِ إلاَّ أبو تَمَّامٍ في تَسْمِيَتِهِ لِلاخْتِيارَاتِ التي جَمَعَها (دِيوانَ الحَمَاسَةِ).

والمتأمّلُ لِطَرِيْقَةِ الوَزْنِ والقَوَافِي فِي الدِّرْعِيَّاتِ يَجِدُ أنَّ المعَرِّيَّ ذَهَبَ فِيهِ شَوْطاً بَعِيْداً نَحْوَ المسْلَكِ الذي صَيَّرَهُ مَهْيَعاً في اللُّزُوْمِ. مَثَلاً تَجِدُ أنَّ المعَرِّيَّ أكْثَرَ فِيهِ مِنِ اسْتِعْمَالِ (السَّرِيْعِ)، وتَعَاطَى (المنْسَرِحَ) وأطَالَ، وهُما بَحْرَانِ يُوشِكُ أنْ يَتَحاماهُما في سَقْطِ الزَّنْدِ، وتَجِدُهُ قَدِ اسْتَعْمَلَ الخَفِيْفَ الخامِسَ[1]، وهُوَ وَزْنٌ شاقٌّ عَسِرٌ لا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ لا يَحْمِلُ نَفْسَهُ عَلَى الكُلَفِ. وأمّا في القَوَافِي فَنَجِدُ أنَّ المعَرِّيَّ قَدْ جَرَّبَ أصْنافاً مِنَ الصُّعُوبَاتِ، مِنْها جِيْمُ الوَافِرِ الحَسَّانِيَّةُ[2] وسِيْنُ الطَّوِيْلِ المرَقَّشِيَّةُ، والعَيْنُ المتْبَعَةُ هَاءَ الخُرُوجِ في الكامِلِ؛ وهاءُ التأْنِيْثِ المقَيَّدَةُ مَعَ النُّوْنِ فِي الطَّوِيْلِ، مِنْ كَلِمَتِهِ[3]:

نَزَلْنا بِهَا فِي القَيْظِ وهْيَ كَرَوْضَةٍ ... سَقَتْها عِنَانَ الشِّعْرَيَيْنِ عَنَانَهْ

فَلَمَّا رَأَتْ ضِمْنَ الحَقِيْبَةِ جَوْنَةً ... أَبَرَّتْ عَلَى طُوْلِ الكَمِيِّ بَنَانَهْ

وفي هَذَا القَرِيِّ عُسْرٌ لا يَخْفَى ولَمْ يَقِفِ المعَرِّيُّ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، ولَكِنَّما تَجاوَزَهُ إلى الْتِزَامِ الرِّدفِ مَعَ القافِيَةِ المطْلَقَةِ في المتَوَاتِرِ، والمقَيَّدَةِ في المتَرَادِفِ، ثُمَّ الْتِزَامِ الهَمْزَةِ الأَصْلِيَّةِ التي تَجَهَّمَهَا قُدَامَةُ، ثُمَّ الْتِزَامِ حَرْفَيْنِ عَلَى النَّحْوِ الذِي فِي اللُّزُومِ – فَعَلَ هَذا فِي خَمْسِ قصائِدَ، ثِنْتَانِ مِنْها ذَوَاتا قُيُودٍ آيَةٍ في الإعْرَابِ وهُما قَوْلُهُ[4]:

عَلَيْكَ السَّابِغَاتِ فَإِنَّهُنَّهْ ... يُدَافِعْنَ الصَّوَارِمَ وَالأَسِنَّهْ

وقَوْلُهُ[5]:

غَدا فَوْدَايَ كَالفَوْدَيْنِ ثِقْلاً ... وأَضْحَى الشَّيْبُ بَيْنَهُما عِلاوَهْ

---

[1] الشروح، ص ١٨٨٢.

[2] نفسه، ص ١٧٦٠.

[3] نفسه، ص ١٩١١.

[4] الشروح، ص ٢٠٤١.

[5] نفسه، ص ١٩١٨.

وكِلْتَا هاتَيْنِ مِمَّا لَمْ يَرُبُ المعَرّيُّ عَلَيْه في الْتِزاماتِهِ المشْهُوْرَةِ مِنْ بَعْدُ.

وقَدْ وَجَدَ المعَرّيُّ فى الدِّرْعِ مَادَّةً خِصْبَةً لِإرْضاءِ جَانِبِ اللُّغَوِيّ والأُسْتَاذِ المعَلِّمِ مِنْ نَفْسِهِ. فَضَمَّنَ قَصَائِدَهُ الدِّرْعِيَّاتِ ثَرْوَةً ضَخْمَةً مِنْ مَجَازِ العَرَبِ القُدَماءِ وتَشْبِيْهِهِمْ فِي هَذَا البابِ، وتَلَطَّفَ فَحَبَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي وَشْيٍ امْتَزَجَ فِيهِ خَيَالُ الفَنِّ بِمَنْهَجِ العَالِمِ. ومَا عَلَيْكَ إِلَّا أنْ تَتَصَفَّحَ الدِّرْعِيَّاتِ عَنْ عُرُضٍ لِتَجِدَ فِيْها مَا ذَكَرَهُ واصِفُو الدُّرُوعِ مِنْ لَدُنْ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ إلى المتَنَبِّي، مِنْ وَصْفِ الدِّرْعِ بِصَلابَةِ المعْدِنِ وَلِيْنِهِ، وسُبُوغِ النَّسْجِ وتَمامِهِ، وأنَّ حَلَقَها كالقَفْعاءِ، ونُطَقَها كَنُطَقِ الغَدِيْرِ وهَيْئَتَها كَقَمِيْصِ الحَيَّةِ، وقَتِيْرَها كَعُيُونِ الجَرَادِ، وأنَّها تُصَانُ فلا تُبْذَلُ، وأنَّ الفارِسَ يَسْتَتِرُ فِيْها، والقَعْبَ يَحْوِيْها، وأنَّها تُنَظَّفُ بِالكَرِّ والرَّمادِ.

والمعَرّيُّ لا يَسْرُدُ الأَوْصَافَ سَرْداً جَافّاً عَلَى طرِيْقَةِ التَّعْلِيْمِيِّيْنَ، ولَكِنَّهُ يُضَمِّنُها النَّادِرَةَ والبَادِرَةَ، خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

كَبُرْدَةِ الأَيْمِ العَرُوسِ ابْتَغَى بِهَا جِلاَءَ الحَيَّةِ الأَيِّمُ[1]

فَهُوَ يَعْرِضُ لَنا صُوْرَةَ ثُعْبانٍ عَرُوْسٍ تَزَوَّجَ حَيَّةً أَيِّماً (أى لا زَوْجَ لَها، أيْ بِكْراً) وقَدَّمَ لَها قَمِيْصاً فى هَدِيَّةِ الإمْلاكِ. والصُّوْرَةُ بِلا رَيْبٍ طَرِيْفَةٌ.

وتأَمَّلْ قَوْلَهُ:

وَقَدْ أَهْوَتْ إلى دِرْعِي لَمِيْسٌ لِتَمْلأَ مِنْ جَوَانِبِها الإِدَاوَهْ[2]

---

[1] الشروح، ص ١٨٩٠.

[2] نفسه، ص ١٩١٨.

فَهُنا إشارةٌ إلى أنَّ الدِّرْعَ تُشَبَّهُ بِالنِّهْيِ والضَّحْضَاحِ مِنَ الماءِ. وصُوْرَةٌ طَرِيْفَةٌ لِلْجَارِيَةِ تُرِيْدُ أنْ تَمْلأَ إدَاوَةَ الوُضُوءِ فَتلْمِسُ الدِّرْعَ تَظُنُّها ماءً، ولا يَخْفَى عَلَيْكَ بَعْدُ أَيُّها القارئُ بُعْدُ الإشارةِ فى قَوْلِهِ لَمِيْس، إذْ أنْتَ تَعْلَمُ قِصَّةَ ابْنِ عَبَّاسٍ وإنْشَادَهُ بَيْتَ الرَّاجز:

وَهُنَّ يَمْشِيْنَ بِنَا هَمِيْسا

وَهُوَ يَتَوَضَّأُ.

ومِنْ أطْرَفِ تَشْبِيْهاتِهِ لِلدِّرْعِ بِالغَدِيْرِ والسَّيْلِ قَوْلُهُ:

يَحْسِبُها الضَّبُّ إذا أُلْقِيَتْ ... في أرْضِها الغَبْرَاءِ عُثْنُونَ سَيْلْ
يَشْتَدُّ خَوْفاً بَعْدَ إخْبَارِهِ ... حُسَيْلَهُ عَنْها وأمَّ الحُسَيْلْ[1]

والعَرَبُ تَزْعُمُ أنَّ الضَّبَّ يَفْرَقُ مِنَ الماءِ، وأنَّ الحِسْلَ وَلَدُ الضَّبِّ، والمعَرِّيُّ هُنا يَجْعَلُ لِلضَّبِّ زَوْجاً وَيكْنِيْها بِوَلَدِهَا الحُسَيْلِ.

والمعَرِّيُّ يَحْرِصُ فى نَظْمِهِ وسَرْدِهِ عَلَى أُسْلُوبِ الجَزَالَةِ العَرَبِيَّةِ كأصْفَى مَا يَكونُ ويُبَالِغُ في ذَلِكَ فَيَعْمِدُ إلى الجُمُوعِ الغَرَائِبِ كَمَا فى قَوْلِهِ:

لَهَا خَدَمٌ وأَقْرِطَةٌ ووُشْحٌ ... وأَسْوِرَةٌ ثَقَائِلُ إنْ وُزِنَّهْ

تأمَّلْ قَوْلَهُ (ثَقَائِلُ) والمشْهُورُ فيْهِ الاستِغْناءُ بِالمفْرَدِ المؤَنَّثِ.

ويَعْمِدُ أحْياناً إلى أَلْفاظٍ مِمَّا كانَتْ تَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ، كَهَاءِ السَّكْتِ مَعَ فِعْلِ الأَمْرِ، كَمَا فِى قَوْلِهِ:

تَغَنَّتْ مِنْ غِنَى مَالٍ وصَبْرٍ ... وأمَّا بِالقَرِيْضَ فَلَمْ تَغَنَّهْ

وأحْياناً يَتَكَلَّفُ الإيْجَازَ عَلَى الطَّرِيْقَةِ الجاهِلِيَّةِ كَمَا في قَوْلِهِ[1]:

---

[1] نفسه، ص ١٩٧١.

كَلَمْعِ الشُّنُوْفِ العَسْجَدِيَّاتِ أَوْ كَمَا   أَشَارَتْ بِأَخْفَى سُوْرِهِنَّ العَرَائِسُ

والشَّاهِدُ اسْتِعْمَالُ (كَمَا) عَلَى هذهِ الطَّرِيْقَةِ.

وكَقَوْلِهِ[2]:

قِصَارُ الخُطا يَدْرِمْنَ أَوْ مِشْيَةَ القَطَا   فَكَيْفَ إذا مَا سِرْنَ في الحَلَقِ الدُّرْمِ

والمرَادُ أَوْ يَمْشِيْنَ مِشْيَةً لِلْقَطَا، واخْتِزَالُ الأَدَاءِ هَكَذا بِالاكْتِفَاءِ بِالمَفْعُولِ المطْلَقِ وَحْدَهُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الفَصَاحَة العَذْبَةِ.

هَذا وَيُذَكِّرُكَ المعَرِّيُّ بِحَضَرِيَّتِهِ وعَبَّاسِيَّتِهِ وعِلْمِهِ وأَنَّهُ مِنَ الخَوَاصِّ المتَوَفِّرِيْنَ على الدَّرْسِ، حِيْنَ يُطْعِمُ هَذِهِ الجَزَالَةَ البَدَوِيَّةَ المنْحَى، القَوِيَّةَ المتَّجَهِ، بِعِبَارَاتِ العُلَماءِ المتَنَطِّسِيْنَ، كأَنْ يَتَقَرَّى أَوَابِدَ التَّرْكِيْبِ النَّحْوِيَّةَ أحْياناً – مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي مُدَامَةَ بَابِلٍ   هَجَرْتُ ولَمْ أَقْبَلْ خَبِيْئَةَ عَانَهْ[3]

وقَوْلُهُ:

ولَيْسَ أَبُوها بِالَّذِي أنا بَائِعٌ   ولَوْ سَاقَ فِيْها إِبْلَهُ وحِصَانَهْ[4]

والشَّاهِدُ هُنا رَفْعُ الأَبِ، ويَصِحُّ جَعْلُها مَعْمُوْلاً لِ (بائِع)، على طَرِيْقَةِ مَنْ أَنْشَدَ:

وقَالُوا تَعَرَّفْها المنازِلَ مِنْ مِنَىً   ومَا كُلَّ مَنْ وَافَى مِنَىً أنا عَارِفُ

بِنَصْبِ (كُلَّ).

---

[1] الشروح، ص ٢٠٠٩.

[2] نفسه، ص ٢٠٣٦.

[3] الشروح، ١٩١٤.

[4] نفسه، ص ١٩١٣.

وكأنَّ المعرِّيَّ اعْتَدَّ باءَ الزِّيادَةِ حائِلَةً دُوْنَ عَمَلِ خَبَرِ الصِّلَةِ فِيْمَا قَبْلَهُ. وهذِهِ النُّكْتَةُ بِخَاصَّةٍ مِمَّا يَكُونُ مِثْلُهُ مَوْضِعَ جَدَلٍ عِنْدَ النَّحْوِيِّيْنَ. وفي الدِّرْعِيَّاتِ، بَعْدُ، شَوَاهِدُ كَثِيْرَةٌ مِمَّا قَصَدَ فِيهِ أبو العَلاءِ تَعَمُّدَ الشَّوَاذِّ وأشْبَاهِهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ:

كَذَاتِ الغُوَيْرِ أمْنَتْ قَصِيْرَا

بِسُكُوْنِ الميْمِ، وكَقَوْلِهِ:

أَعِيْدِي إلَيْها نَظْرَةً لا مُرِيْدَةً ... لَهَا البَيْعَ واعْصِي الخادِعِي لَكِ بِالخَالِ[1]

بِحَذْفِ نُوْنِ الجَمْعِ السَّالِمِ غَيْرَ إِضَافَةٍ عَلَى سَبِيْلِ التَّخْفِيْفِ.

رُبَّ بَحْرٍ لِلْحَرْبِ في لَيْلِ هَيْجَا ... ءَ أَبَى مُقْمِراً فَعُدَّ نُمَيْرَا[2]

وهُنا إشارَةٌ إلى قَوْلِهِمْ لِلْقَمَرِ ابْنَ نُمَيْرٍ.

ولَعَلَّ مِمَّا تَفَرَّدَ بِهِ المعَرِّيُّ مِنَ الإغْرَابِ مُحَاوَلَةُ الشَّرْحِ في مَعْرِضِ النَّظْمِ، والمعَرِّيُّ مُغْرَمٌ بِالشَّرْحِ لا يَكادُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ مِنْهُ في نَثِيْرٍ أو نَظِيْمٍ، خُذْ قَوْلَهُ:

وتِلْكَ أَضَاةٌ صَانَهَا المرْءُ تُبَّعٌ ... وداوُودُ قَيْنُ السَّابِغَاتِ أذالَهَا

ولَمْ تَلْقَ هُوْناً بِالإذَالَةِ إنَّمَا ... مُرَادِيَ وَفَّى ذَيْلَها وأطَالَهَا

فَالبَيْتُ الثَّانِي كَمَا تَرَى فِيهِ شَرْحٌ لِمَعْنَى الإذَالِةِ الذِي في البَيْتِ الأَوَّلِ.

هَذَا، والمعَرِّيُّ يَأْبَى إلَّا أنْ يُعَقِّدَ هَذِهِ الجزَالَةَ المطَعَّمَةَ بِالتَّنَطُّسِ العِلْمِيِّ، بِإخْضَاعِها لِفَنِّ البَدِيْعِ الذِي كانَ عُنْوَانَ البلاغَةِ عِنْدَ مُعَاصِرِيْهِ، فَنَجِدُهُ يُكْثِرُ مِنَ الطِبَاقِ والتَّجْنِيْسِ والتَّوْشِيْعِ والتَّرْصِيْعِ، كُلُّ ذَلِكَ مَعَ رَصَانَةٍ وإحْكَامٍ. ويُضِيْفُ إلى هَذَا كُلِّهِ عُنْصُرَ الإشَارَةِ

---

[1] نفسه، ص ١٨٧٢.

[2] نفسه، ص ١٨٣٩.

وَضَرْبِ المثَلِ، عَلَى نَحْوِ ما كانَ يَفْعَلُهُ أَبُو تَمَّامٍ. فَمِنْ إشاراتِهِ الطَّرِيْفَةِ فى الدِّرْعِيَّاتِ قَوْلُهُ[1]:

مِثْلُ وَشْيِ الوَلِيْدِ لَانَتْ وإنْ كا   نَتْ مِنَ الصُّنْعِ مِثْلَ وَشْيِ حَبِيْبِ

وفِي هَذَا إشارةٌ لِكَلامِ النُّقَّادِ مِنْ نَحْوِ الآمِدِيِّ وأضْرَابِهِ فِي الموَازنَة بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ، وانظُرْ إلى قَوْلِهِ[2]:

إنَّما جَارَتَايَ جَارِيَتَا حَـ   ـيٍّ وما زَالَتِ النِّسَاءُ كَثِيْرَا

والبَرَاعَةُ هُنَا أنَّ قَوْلَهُ (وما زالَتِ النِّسَاءُ كَثِيْراً) مُنْسَاقٌ مَعَ سَائِرِ البَيْتِ بِحَيْثُ لا تَشْعُرُ أنَّ الشَّاعِرَ يُشِيْر بِهِ إلى قِصَّةِ الإفْكِ، وقَوْلِ عِليِّ بْنِ أبي طالِبٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: النِّسَاءُ كَثِيْرٌ، يَنْصَحُهُ بِذَلكِ أَنْ يُطَلِّقَ عَائِشَةَ.

وقَدْ يَبْلُغُ بِالمعَرِّيِّ حُبُّ الإشارَةِ والتَّضْمِيْنِ أحْياناً أنْ يَتكلَّفَ وَيَتَعَمَّلَ ويأْتِيَ بِنَظْمٍ أشْبَهِ شَيْءٍ بِتَلْفِيْقِ الفُقَهَاءِ، كَقَوْلِهِ[3]:

لَمْ أَقُلْ فِيهِ مَازِ رَأْسَكَ والسَّيْـ   ـفَ كَمَا قَالَها المرِيْدُ بَجِيْرَا

ويُشِيْرُ هُنا إلى ما حَدَثَ يَوْمَ المرُوتِ مِنْ أَنَّ قَعْنَباً الرِّياحِيَّ رَأَى بَجِيْراً مَأْسُوراً وكان ذا ثَأْرِهُ، فاسْتَلَّ سَيْفَهُ وقَالَ: (مَازِ رَأْسَكَ والسَّيْفَ) يُحَذِّرُ الآسِرَ مِنْ أَنْ يُصِيْبَهُ السَّيْفُ؛ ومَازِ مُرَخَّمُ (مَازِنٍ) وجعَلَهُ كاللَّقَبِ لِزَيْدِ بْنِ أزْهَرَ المازِنِيِّ الذي كانَ بَجِيْرٌ فى أسْرِهِ.

وقَوْلُهُ المرِيْدُ بَجِيرا – يَعْنِي قَعْنَباً – صَفِيْقٌ فى تَعَمُّلِهِ وما كانَ أَغْنَى المعَرِّيَّ عَنْهُ، ولِهَذَا البَيْتِ فِي الدِّرْعِيَّاتِ نَظائِرُ غَيْرَ أنَّها لَيْسَتْ كَثِيرةً.

---

[1] الشروح، ص ١٩٢٣.

[2] نفسه، ص ١٨٣٣.

[3] الشروح، ص ١٨٤٠.

هَذَا، ومِمَّا يَحْسُنُ التَّنْبِيْهُ عَلَيْهِ أنَّ لِلْمَعَرِّيِّ كَثِيْراً مِنَ الإشاراتِ فى الدِّرْعِيَّاتِ وفِى غَيْرِها، نَشْتَمُّ مِنْها نَفَسَ التَّشَيُّعِ. مِنْ ذَلِكَ بَيْتُ الإفْكِ الذِى ذَكَرْنَاهُ آنِفاً.
وقَوْلُهُ[1]:

والوُدُّ غَرَّارٌ ونَجْوَى عَلِيٍّ وَلَدَيْهِ غَيْرُ نَجْوَى كُمَيْلْ

وهذا المعْنَى جاءَ نَفْسُه مُكَرَّراً عِنْدَ المعَرِّيِّ فى (الفُصُولِ والغَايَاتِ) حَيْثُ قَالَ: (وقَرَّبَ عَلِيٌّ كُمَيْلا). ويَقُولُ فى لامِيَّتِهِ الطَّوِيْلَةِ[2]:

ـــ ولا تَدْفِنِيْها الجَهْرَ بَلْ دَفْنَ فَاطِمٍ وَدَفْنَ ابْنِ أرْوَى لَمْ يُشَيَّعْ بِإعْوَالِ

هَذَا، ولَعَلَّكَ بَعْدُ أيُّها القارِئُ الكَرِيْمُ لا تَعْدُو أنْ تَعُدَّ الدِّرعِيَّاتِ ضَرْباً مِنَ الفُسَيْفِسَاءِ اللَّفْظِيَّةِ لا طائِلَ وَرَاءَها، ولَعَمْرِي لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْها إلَّا إتْقانُ الصِّنَاعَةِ، وهَلْهَلَةُ النَّسْجِ والافْتِنانُ فى البَدِيْعِ عَلَى نَحْوٍ قَلَّ نَظِيْرُهُ لَكَفاهَا ذَلِكَ، وَلكانَتْ وَحْدَها مِثَالاً بارِعاً مِنْ أمْثِلَةِ الجَمَالِ الأدَبِيِّ المطْلَقِ المتَأنِّقِ فيْهِ؛ عَلَى أنَّ الدِّرْعِيَّاتِ أبْعَدُ غَوْراً مِنْ هَذَا، وفِيْها مِنَ المعَرِّيِّ الشاعِرِ ذِي العاطِفَةِ المنْفَعِلَةِ ما لا يُمْكِنُ دَفْعُهُ، وبَعْضُها مِن رَوَائِعِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ بِلا جِدَالٍ.
والقارِئُ كَثِيْراً ما يَجِدُ فى الدِّرْعِيَّاتِ أفْكاراً تُشْبِهُ ما عُرِفَ بِهِ المعَرِّيُّ مِنْ بُعْدٍ مِنْ تَزَهُّدٍ وتَشاؤُمٍ، فى دِيْوانِهِ (اللُّزُومِيَّاتِ). والنَّظْرَةُ السَّطْحِيَّةُ قَدْ تُوحِي أنَّ هَذِهِ الآرَاءَ ما هِيَ إلَّا تَكْرَارٌ لِمَا فِي (اللُّزُومِيَّات) عَلَى عَادَةِ المعَرِّيِّ فِى التَّكْرارِ ولَكِنَّ تَدَبُّراً قَلِيْلاً يُرِيْنا أنَّها تُبايِنُها مِنْ جِهَتَيْنِ: أوَّلاً صِيَاغَتُها أكْثَرُ أنَاقَةً وأدْخَلُ فى البَدِيْعِ وأمْلأُ بِالحَرَارَةِ وأحْكَمُ تَخَيُّراً

---

[1] نفسه، ص ١٩٨٠.

[2] نفسه، ١٨٧٥.

لِلألْفَاظِ الجَزلَةِ. وهذا يجْعَلُها أقْرَبَ إلى أُسْلُوبِ (السَّقْطِ) مِنْها إلى أُسْلُوبِ (اللُّزُومِ). ولِهَذا أَلحَقَها المعَرِّيُّ بِهِ، وإنْ كانَ نَصَّ على أنَّها مُسْتَقِلَّةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِها.

وثانِياً رُوْحُ الغَضَبِ والتَحَسُّرِ عَلَى نَجاحٍ فاتَ أَوْضَحُ فِيْها مِنهُ فِي (اللُّزُوْمِ)، وسِرُّ هذا عِنْدَنا أنَّها نُظِمَتْ قَبْلَ (اللُّزُومِ) بِزَمَانٍ والشَّاعِرُ لا يَزَالُ يَذْكُرُ بَغْدادَ وآمالَهُ التي تَحَطَّمَتْ هُناكَ، خُذْ قَوْلَهُ[1]:

أسْتَغْفِرُ اللهَ ولا أنْدُبُ الْـ ... أطْلالَ فَذَّ الشَّخْصِ كالتَّوْأَمِ

هَلْ سَمْسَمٌ فِيْما مَضَى عَالِمٌ ... بِوَقْفَةِ العَجَّاجِ فى سَمْسَمِ

ولَسْتُ بِالنَّاسِبِ غَيْثاً هَمَى ... إلَى السِّمَاكَيْنِ ولا المِرْزَمِ

ولَيْسَ غِرْبَانِي بِمَزْجُوْرَةٍ ... ما أنا مِنْ ذِي الخِفَّةِ الأسْحَمِ

مِثْلَ خُفَافٍ سَادَ فى قَوْمِهِ ... عَلَى اجْتِيابِ الحَسَبِ المظْلِمِ

يا مُلْهِمَ السَّخْلِ ولا أتْبَعُ الْـ ... أظْعَانَ كالنَّخْلِ عَلَى مَلْهَمِ

مَالِيَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالميْتِ بَعْـ ... ـدَ السَّبْعِ لَمْ آسَفْ ولَمْ أنْدَمِ

عَلَى أُناسٍ مَنْ يُعَاشِرُهُم ... تُعْوِزْهُ فِيهِمْ عِشْرَةُ المكْرِمِ

فَفِي هَذِهِ الأبْياتِ –كَمَا تَرَى– تَهَكُّمٌ بِالشُّعَرَاءِ ومَذَاهِبِهِمْ فِى النَّسِيْبِ والوُقُوفِ عَلَى الأطْلالِ وزَجْرِ الطَّيْرِ، كَمَا فِيْها غَضْبَةٌ على المجْتَمَعِ واتِّهَامٌ لَهُ بِالنِّفَاقِ واللُّؤْمِ. وهذا عَيْنُ ما يَجِدُهُ القَارِئُ فى اللُّزُوْمِ. ولكنَّ فِيْها أشياءَ تُشْعِرُنا باضْطِرابِ نَفْسِ المعَرِّيِّ، وغَلَبَةِ النَّدَمِ والشُّعُورِ بالحَسْرَةِ والخَيْبَةِ عَلَيْه، أوَّلُ شَيْءٍ أَلْفِتُ نَظَرَكَ إلى هَذِهِ الإشاراتِ التي يُذَكِّرُكَ فِيْها بالتَّوْأَمِ صَاحِبِ امْرِئِ القَيْسِ، وبالعَجَّاجِ وخُفَافٍ والمرَقِّشِ، ألا تَرَاهُ هُنا يَتَلَذَّذُ بِذِكْرِ هؤلاءِ الشُّعَرَاءِ الذيْنَ يُرِينا التَّهَكُّمَ بِهِمْ والزِّرَايَةَ عَلَيْهِم.

---

[1] الشروح، ص ١٨٠٦ – ١٨١١.

ثُمَّ انْظُرْ إلى قَوْلِهِ: (ولَيسَ غِرْبَانِي بِمَزْجُورَةٍ)، وقَوْلِهِ (مِثْلَ خُفَافٍ)، يَعْنِي خُفَافَ بْنَ نُدْبَةَ السُّلَمِيّ، أَلا تُحِسُّ هُنا إشارةً خَفِيَّةً إلى قَوْلِهِ وهو يُوَدِّعُ بغدادَ:

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبَانِ لَيسَ عَلَى شَرْعِ يُخَبِّرُنا أَنَّ الشُّعُوْبَ إلى صَدْعِ

وإلى قَوْلِهِ يَرْثِي الشَّرِيفَ يَذْكُرُ الغُرَابَ:

لِلهِ دَرُّكَ مِنْ خُفَافٍ أَسْحَمٍ كَسُحَيْمِ الأسَدِيِّ أو كَخُفَافِ
مِنْ شَاعِرٍ لِلْبَيْنِ قالَ قَصِيدَةً يَرْثِي الشَّرِيفَ عَلَى رَوِيِّ القَافِ

أَلا تَرَاهُ بِقَوْلِهِ (ولَيْسَ غِرْبَانِي بِمَزْجُوْرَةٍ) كأنَّما يَعْتِبُ عَلَى نَفْسِهِ أنْ مَدَحَ ورَثَا بَغْدادَ وأَزْجَى الآمَالَ إلى قَوْمٍ لِئَامٍ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُحْسِنُ العُشْرَةَ الكرِيْمَةَ، ثُمَّ أَلا تَجِدُ فى قَوْلِهِ:

مَالِيَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالمَيْتِ بَعْـ ـدَ السَّبْعِ لَمْ آسَفْ ولَمْ أنْدَمِ
عَلَى أُناسٍ مَنْ يُعاشِرْهُم تُعْوِزْهُ فِيهِمْ عِشْرَةُ المكْرِمِ

لَذْعاً مُحْرِقاً مِنَ الأسَفِ والنَّدَمِ؟.

ويَقُولُ المعَرِّيُّ مِنْ كَلِمَةٍ لامِيَّةٍ طَوِيْلَةٍ:

وقد طالَ فَوْقَ الأرْضَ كَوْنِي وشَبَّهَتْ ثَغَاماً بِجَوْنِي عَاذِلاتِي وعُذَّالي
وحَرَّمْتُ شُرْبَ الرَّاحِ لا خَوْفَ سائِطٍ ولكِنَّها تَرْمِي العُقُوْلَ بِعُقَّالِ
أُبِلُّ مِنَ الأمْرَاضِ والعِلْمُ واقِعٌ بِعِلَّةِ يَوْمٍ جَانَبَتْ كُلَّ إبْلاَلِ
ومَنْ سَرَّهُ ثَوْبٌ يَعِزُّ بِلُبْسِهِ فلا تَجْرِ مِنهُ أُمُّ دَفْرٍ عَلَى بَالِ
هَلُوكٌ تُهِيْنُ المسْتَهامَ بِحُبِّها وتَلْقَى الرِّجَالَ المُبْغِضِيْنَ بِإجْلاَلِ
بَنُو الوَقْتِ إنْ غَرُّوْكَ مِنهُمْ بِحِكْمَةٍ فَمَا خَلْفَهَا إلَّا غَرَائِزُ جُهَّالِ
لِذَاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُها مِنَ الإنْسِ ما إخْلاءُ رَبْعٍ بإخْلاَلِ

والأبيْاتُ الأخِيْرَةُ هُنا نَصٌّ واضِحٌ في التَّعْرِيْضِ بِبغْدادَ، إذْ مِنْها خَرَجَ عَازماً عَلَى الاعْتِزَالِ والتَّنسُّكِ. ولا أرْتابُ أنَّهُ يُشِيْرُ بِقَوْلِهِ (بَنُو الوَقْتِ) إلى بَغْدادَ وأهْلِها، فَهُمُ الذِيْنَ سَمِعَ مِنهُمُ الحِكْمَةَ، فَفَتَنُوْهُ وكادُوا يَغُرُّونَهُ، حَتَّى إذا فَتَّشَ عَنْ دَخائِلِهِمْ وجَدَهُم أهْلَ نِفاقٍ ومَكْرٍ وجَهْلٍ. وقَدْ ذَكَرَ هذا المعْنَى صَرِيْحاً في رِسَالَتِهِ إلى خَالِهِ أبي القاسِمِ بْنِ سُبَيْكَةَ.

وفي الدِّرْعِيَّاتِ بَعْدُ أَشْياءُ كَثِيْرَةٌ تَدُلُّ دَلالَةً وَاضِحةً على حُزْنِ المعَرِّيِّ وتأسُّفِهِ لِفِراقِ بَغْدادَ، مِنْها مِمَّا صَرَّحَ بِهِ ولَمْ يُلَمِّحْ:

فَرَتْكَ أَوَاذِيُّ الفُرَاتِ صَبَابَةً ... وأَبْلَسْتَ لَمَّا أَعْرَضَتْ لَكَ بَالِسُ[1]

ومِنْها مَاكَنَى فِيهِ عَنْ بَغْدادَ وعَنْ آمالِه الضَّائِعَةِ بِبُكاءِ الشَّبابِ، وذِكْرِ الضَّعْفِ والهَرَمِ وكَثِيْراً ما نَجِدُ المعَرِّيَّ يَتَحَدَّثُ في دِرْعِيَّاتِهِ بِلِسَانِ شَيْخٍ طَعَنَ في السِّنِّ وعَجَزَ عَنْ حَمْلِ الدِّرْعِ وازْدَرَتْهُ النِّسَاءُ؛ مِثَالُ هَذَا:

أَرَانِي وَضَعْتُ السَّرْدَ عَنِّي وعَزَّنِي ... جَوادِي ولَمْ يَنْهَضْ إلى الغَزْوِ أمْثالِي

وقَيَّدَنِي العَوْدُ البَطِيءُ وقِيلَ لِي ... وَراءَكَ إنَّ الذِّئْبَ مِنْكَ عَلَى بالِ

وهَذَا فِي مَطْلَعِ القَصِيدَةِ التي اقْتَبَسْنا مِنْها الأبْياتَ السَّالِفَةَ الذِّكْرِ.

ومِثالٌ آخرُ قَوْلُهُ فى الدِّرْعِيَّةِ الأُوْلَى[2]:

رَأَتْنِي بِالمطِيْرَةِ لا رَأَتْنِي ... قَرِيْباً والمخِيْلَةُ قَدْ نَأَتْنِي

وأَخْلَقْتُ الشَّبَابَ وكانَ بُرْدِي ... وفارَقْتُ الحُسَامَ وكانَ جِتْنِي

أَعَاذِلَ طالَمَا أَتْلَفْتُ مَالِي ... ولَكِنَّ الحَوَادِثَ أَتْلَفَتْنِي

---

[1] الشروح، ص ٢٠١٠.

[2] نفسه، ص ١٩٤٧.

وكَثِيراً ما يَتَحدَّثُ المعَرّيُّ بِلِسَانِ أشْخَاصٍ خَيالِيِّيْنَ، ثُمَّ يُضَمِّنُ أَحادِيْثَهُم أشْيَاءَ مِنْ خَبايا ضَمِيرِهِ، ولا يَمْلِكُ القارِئُ حِينئَذٍ إلّا أنْ يَعُدَّ هؤلاءِ الأشْخَاصَ الخَيالِيِّينَ رُمُوزاً كَنَّى بِهَا الشاعِرُ عَنْ نَفْسِهِ لَيسَ إلاَّ، مِنَ ذَلكَ نُوْنِيَّتُهُ التي يَذْكُرُ فِيْها امْرَأَةً سامَهُ أَبُوهَا دِرْعَهُ، وجاءَتْ هِيَ لِتُخادِعَهُ عَنْها فَألْقَتْ إلِيْهِ حِبَّيْهَا أيْ قُرْطَيْها، ثُمَّ حاوَلَتْ إغْواءَهُ بِالكَأْسِ، قالَ[1]:

رَمَتْنِي بِحِبَّيْها وآخرَ صامِتٍ	مِنَ النَّضْرِ لا أَعْنِي بِهِ ابْنَ كِنَانَهْ
ولَيْسَتْ وإنْ جَاءَتْ بِحَلْيٍ وزِيْنَةٍ	عَلَى كَدِرْعِي عِزَّةً وصِيَانَهْ
وليْسَ أبُوها بالذِى أنا بائِعٌ	ولَوْ سَاقَ فِيْها إبْلَهُ وحِصَانَهْ
وما سَامَحَتْ نَفْسِى بِهَا عِنْدَ حَادِثٍ	فُلاناً فَمَا بَالِي وبَالُ فُلاَنَهْ
وجاءَتْ بِكَأْسٍ مِنْ سُلافٍ تُرِيْغُنِي	خِلاَباً عَلَى قَضَّاءَ ذَاتِ رَصَانَهْ
أَلَمْ تَعْلَمِي أنِّي مُدَامَةَ بَابِلٍ	هَجَرْتُ ولَمْ أَقْبَلْ خَبِيْئَةَ عَانَهْ

وهذا البَيْتُ الأَخِيْرُ فِيهِ تَصْرِيْحٌ واضِحٌ مِنَ المعَرّيِّ عَنْ نَفْسِهِ. ولا أَدَعُ هُنا أنْ أُنَبِّهُ القارِئَ إلى مُفَاضَلَةِ المعَرّيِّ بَيْنَ المرْأَةِ والدِّرْعِ، وذِكْرِ إعْراضِهِ عَنِ النِّسَاءِ فى قَوْلِهِ: (فَمَا بَالِي وبَالُ فُلانَهْ) ويَجْرِي هذا المجْرَى قَوْلُهُ فى السِّيْنِيَّةِ[2]:

فَرَتْكَ أَوَاذِيُّ الفُرَاتِ صَبَابَةً	وأَبْلَسْتَ لَمَّا أعْرَضَتْ لَكَ بَالِسُ
تَنَكَّرْتَ فاعْرِفْ لِلشَّبِيْبَةِ مَوْضِعاً	لِكُلِّ ضَمِيرٍ مِنْ هَوَاهُ وَسَاوِسُ
تَمَنَّاهُ إنْسِيٌّ وأَعْيَسَ بَازِلٌ	وأسْحَمُ طَيَّارٌ وأعْفَرُ كَانِسُ
أرَى أُمَّ دَفْرٍ أُخْتَ هَجْرٍ ولاَ أَرَى	لَهَا سَالِياً مَا غَيَّبَتْهُ الرَّوَامِسُ
يَهِيْمُ بِهَا الإنْسَانُ ثُمَّ تُحِلُّهُ	ذَرَى الأَرْضِ وَصْفَاهَا زَرُوْدٌ وراكِسُ

[1] الشروح، ص ١٩١٢ – ١٩١٤.

[2] نفسه، ٢٠١٠ – ٢٠١١.

وفي هَذِهِ الأبْيَاتِ -كَمَا تَرى- تَحسُّرٌ صَرِيْحٌ، وإقْرَارٌ مِن المعَرّيِّ بِأَنَّ نَفْسَهُ تَنزعُ إلى الهوَى وهُو يَصُدُّها عَنْهُ، وتَرْغَبُ فى الدُّنْيا وهُو يُزَهِّدُها فِيْها.

هذا، ولِلْمَعَرِّيِّ فى الدِّرْعِيَّاتِ مَقْدِرَةٌ فائِقَةٌ عَلَى إزْجَاءِ القَصَصِ والحُوَارِ مَعَ التَّصْويْرِ الخَيَاليِّ، تُحِسُّها مِنْ أثْناءِ تأمُّلاتِهِ واسْتِطْرَادَاتِهِ ومَزَاعِمِهِ التي يَزْعُمُها على لِسَانِ بائِعِ دِرْعٍ أو طالِبِ شِرَائِها أو آسِفٍ على ضَيَاعِها. وقَصِيْدَتُهُ النُّونِيَّةُ[1]:

عَلَيْكَ السَّابِغَاتِ فَإنَّهُنَّهْ

آيَةٌ فَرِيْدَةٌ فِي هَذَا البَابِ. وفِيْها يَذْكُرُ أُمّاً تَنْصَحُ ابْنَها ألّا يَتَزَوَّجَ وتُحَسِّنُ لَهُ أَنْ يُنْفِقَ أَمْوَالَهُ فِي الاسْتِكْثَارِ مِنَ الدُّرُوعِ والتَقَوّي بِها عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ، وقَدْ عَرَضْنا لِهَذِهِ القَصِيدَةِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّحْلِيْلِ فى كِتَابِ المرْشِدِ[2] فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ. وقَدْ يَقَعُ في الوَهْمِ، أنَّ الشَّيْخَةَ العَجُوْزَ، التي تَنْهِي ابْنَها عَنِ الزَّوَاجِ، مُخَالِفَةً فِي ذَلِكَ المأْلُوفَ مِنْ طَبَائِعِ الأُمَّهَاتِ، ما هِي إِلَّا بُوْقٌ اتَّخَذَهُ المعَرّيُّ لِيُؤَدِّيَ بِهِ أفْكَارَهُ الشَّاذَّةَ وآرَاءَهُ الغَرِيْبَةَ. ولكِنَّ المعَرِّيَّ بِبَراعَتِهِ الفائِقَةِ وحِرْصِهِ عَلَى تَمْثِيْلِ الوَاقِعِ مَعَ حَيَوِيَّةٍ وخُصُوْبَةٍ فى الخَيَالِ قَدْ قَدَرَ أنْ يُثْبِتَ لِهَذِهِ العَجُوْزِ شَخْصِيَّةً أُنْثَوِيَّةً تَتَنَازَعُها عَوَاطِفُ الأُمُوْمَةِ والغَيْرَةُ عَلَى الوَلَدِ والرَّغْبَةُ فِي الانْفِرَادِ بِحُبِّهِ والخَوْفُ مِنْ أنْ تَنْفَرِدَ بِوُدِّهِ امْرَأَةٌ دُوْنَها والشُّعُورُ بِكِبَرِ السِّنِّ والزَّهْوُ بِمَاضِي الشَّبَابِ ومُنْصَرِمِ الجَمَالِ، كُلُّ ذَلِكَ مَشُوْباً بِعُنْصُرٍ مِنَ المكْرِ والتَدَلُّهِ والحَنَانِ، عَلَى النَّحْوِ الذي تَجِدُهُ عِنْدَ أكْثَرِ النِّسَاءِ.

ولا يَسْتَطِيْعُ نَاقِدٌ أنْ يَصْرِفَ ذِهْنَهُ بِحَالٍ عَنْ تَرَدُّدِ ذِكْرِ المرْأَةِ فى الدِّرْعِيَّاتِ فَتَارَةً هِيَ مُشَبَّهٌ، وتارَةً مُشَبَّهٌ بِهِ، وآناً نَجِدُها مُقْحَمَةً إقْحَاماً كَمَا في قَوْلِهِ:

وقَدْ أَهْوَتْ إلى دِرْعِي لَمِيْسٌ ... لِتَمْلأَ مِنْ جَوَانِبِها الإدَاوَهْ

---

[1] الشروح، ص ٢٠٤١.

[2] المرْشِدُ إلى فَهْمِ أشْعَارِ العَرَبِ وصِنَاعَتِها، مِصْرُ ١٩٥٥ الجُزْءُ الأوَّلُ ٦٦ — ٦٩.

وهذا البَيْتُ لا يَخْلُو مِنْ مَعْنَى الرَّمْزِ.

وفِي القَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ، نَرَى المعَرِّيَّ يَذْكُرُ جارِيَةً عَزَّهُ أبُوها عَلَى دِرْعِهِ التي كانَ اسْتَعَارَهَا مِنهُ. والرَّمْزُ هُنا مُقْتَبَسٌ مِنْ قِصَّةِ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ. وفِي الثَّالِثَةِ بَعْدَ العِشْرِيْنَ، يَتَحَدَّثُ الشاعِرُ بِلِسَانِ رَجُلٍ يَشْكُو جَشَعَ صِهْرِهِ. الذى لَمْ يَرْضَ دِرْعَهُ وحْدَهَا مَهْراً لِبِنْتِهِ. وفِي الثَّانِيَةِ بَعْدَ العِشْرِيْنَ يَتَكَلَّمُ المعَرِّيُّ عَنِ امْرَأَةٍ جَمِيْلَةٍ تُشْبِهُ حَبِيْبَةَ أبِي النَّجْمِ فى الحُسْنِ والصُّدُودِ والقَسْوَةِ. وفى الرَّابِعَةِ بَعْد العِشْرِيْنَ يَذْكُرُ فارِساً دَفَعَ مَهْرَ عَرُوْسِهِ دِرْعاً مُحْكَمَةً مُخَالِفاً فِي ذَلِكَ ناصِحِيْهِ وخِلاَّنَهُ. وفِي الثَّامِنَةِ بَعْدَ العِشْرِيْنَ يَصِفُ نِسَاءً أرَامِلَ اضْطَرَّهُنَّ التَّأَيُّمُ إلى لُبْسِ الدِّرْعِ. وفِي هَذِهِ القَصِيدَةِ يُشِيْرُ المعَرِّيُّ فِي نَوْعٍ مِنَ السُّخْرِيَةِ والزِّرَايَةِ إلى حَالَةِ الشَّامِ المتَضَعْضِعَةِ وعَجْزِ وُلاةِ الأمْرِ فِيْها أنْ يَمْنَعُوا حُدُودَها مِنْ غُزَاةِ الرُّوْمِ، وذَلِكَ قَوْلُهُ[1]:

وأيْنَ رِجَالٌ كانَ يَحْمِي عَلَيْهِمُ   حَدِيْدٌ فَيَحْمُونَ القَطِيْنَ كَما يَحْمِي

والتَّاسِعَةُ بَعْدَ العِشْرِيْنَ هِيَ النُّوْنِيَّةُ القَصَصِيَّةُ المشَارُ إلَيْها آنِفاً. وفِيْها يَفْتَنُّ الشاعِرُ فى نَعْتِ العَرَائِسِ وزِيْنَتِهِنَّ.

ولَنا هُنا أنْ نَتَساءَلَ: لِماذَا أكْثَرَ المعَرِّيُّ مِنْ حَدِيْثِ النِّسَاء وكَرَّرَ ذَلِكَ ورَدَّدَهُ فى دِرْعِيَّاتِهِ؟ أتُرَاهُ فَعَلَ ذَلك عَبَثاً، أمْ جَرْياً عَلَى عَادِةِ الشُّعَرَاءِ فى النَّسِيْبِ؟

أَسْتَبْعِدُ هَذَا جِدّاً، ويَغْلُبُ عَلَى الظَّنِّ أنَّ المعَرِّيَّ ما كانَ لِيُرَدِّدَ اسْمَ المرْأَةِ كُلَّ هَذَا التَّرْدِيْدِ لَوْ لَمْ يَكُنْ بِأَمْرِهَا حَقَّ مَشْغُوْلٍ.

وأُذَكِّرُ القارِئَ هُنا أنَّ شاعِرَنا نَظَمَ دِرْعِيَّاتِهِ هَذِهِ وهُوَ فى أُخْرَيَاتِ الكُهُوْلَةِ وأَوَائِلِ الشَّيْخُوْخَةِ، بَعْدَ أنْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى التَّبَتُّلِ والعُزْلَةِ والنُّسُكِ. ويَبْدُو لِي أنَّهُ فِي هَذِهِ

---

[1] الشروح، ص ٢٠٣٩.

الفَتْرَةِ قَدِ اقْتَنعَ كُلَّ الاقْتِنَاعِ، مِنَ النَاحِيَةِ المَنْطِقِيَّةِ الفِكْرِيَّةِ، بِضَرُوْرَةِ العُزُوْفِ عَنِ الغزَلِ، وبِأَنَّ النَّسْلَ ذَرِيْعَةٌ مِنْ ذَرائِعِ الشَّرِّ، يَنْبَغِي الابْتِعَادُ عَنْها مَا أَمْكَنَ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتَنِعْ، مِنَ النَّاحِيَةِ العاطِفِيَّةِ، بِصِدْقِ هذِهِ القَضِيَّةِ التي دَلَّهُ عَلَيْها عَقْلُهُ وحَزْمُهُ وتَفْكِيْرُهُ. فَقَدْ كانَ يَجِدُ فى نَفْسِهِ دَوَافِعَ الهَوَى والغَرَامِ، ويُحِسُّ فى قَرَارَةِ ضَمِيْرِهِ خَوْفاً مِنْ إِغْرَاءِ المرْأَةِ وتَطَلُّعاً إِلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَخْلُو مِنْ جَزَعٍ عَلَى أنْ تَفُوتَهُ آخِرُ فُرَصِ النَّشْوَةِ واللَّذَّةِ بَعْدَ أنْ نَضَا عَنْهُ حَرَارَةَ الشَّبَابِ ودِفْءَ الكُهُولَةِ، وتُوْشِكُ أنْ تَغْمُرَهُ الشَّيْخُوخَةُ بِبَرْدِها وهُمُودِهَا وعُبُوْسِها الذِى تُكشِّرُ مِنهُ أَنْيابَ الموْتِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ بَدَأَ يُحِسُّ الشَّغَفَ والحاجَةَ إلى مُعِيْنٍ يَرْحَمُ عَمَاهُ ويَتَفَقَّدُ حَالَهُ ويَبُثُّ إِلَيْهِ العَطْفَ ويُشْعِرُهُ بِالحَنَانِ كَما كانَتْ تَفْعَلُ أُمُّهُ فى غَابِرِ الأَيَّامِ، وفِي كُلِّ هذا دَافِعٌ قَوِيٌّ إلى طَلَبِ النِّسَاءِ والرَّغْبَةِ في الزَّوَاجِ.

ويُضَافُ إلى هَذَا جَمِيْعِهِ أَنَّ المعَرِّيَّ كانَ رَجُلاً مُفْعَمَ القَلْبِ بِالعَوَاطِفِ، مُضْطَرِمَ النَّفْسِ بِأَسْبَابِ الغَرَامِ، ولَعَلَّهُ كانَ يَلْذَعُ فُؤَادَهُ ويُقِضُّ مَضْجَعَهُ ويَحُزُّ في كَبِدِهِ أَلَّا يَجِدَ مَنْ يُشارِكُهُ هَذِهِ العَوَاطِفَ ويُبَادِلُهُ الهَوَى ويُصْفِيهِ الوُدَّ.

فَهَلْ لَنا إذَنْ أَنْ نَزْعُمَ أَنَّ هَذِهِ الدِّرْعَ التي يَصِفُها المعَرِّيُّ فِي قَصائِدِهِ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا رَمْزاً كَنَى بِهِ عَنِ المرْأَةِ والمعَانِي الغامِضَةِ التى كانَ يُثِيْرُها فى نَفْسِهِ ذِكْرُ المرْأَةِ — كالرَّغْبَةِ فى المأْوَى والرِّفْقِ والطُّمَأْنِيْنَةِ والسَّلامِ والموَدَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي العَيْشِ التى لا يَجِدُها الرَّجُلُ إِلَّا عِنْدَ أُنْثَاهُ؟

أَمْ تُرَى أَنَّ هَذِهِ الدِّرْعَ التى أَفاضَ المعَرِّيُّ في وَصْفِها إِنَّما كانَتْ كِنَايَةً عَنْ هَذا القَانُوْنِ الصَّارِمِ الذِى فَرَضَهُ عَلَى نَفْسِهِ، غَيْرَ أنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَزَلْ يُحَدِّثُهُ بَيْنَ حِيْنٍ وآخَرَ بِالخُرُوْجِ عَنْهُ إلى فُسْحَةِ الدُّنْيا الرَّحِيْبَةِ، لِيَشَمَّ عِطْرَ الحَيَاةِ قَبْلَ أنْ يَتَصَوَّحَ زَهْرُهُ ويَسْحَبَ عَلَيْهِ الموْتُ أَذْيَالَ العَفَاءِ؟

أَمْ هَلْ تُرى أَنَّهُ اتَّخَذَ مِنَ الدِّرْعِ كِنَايَةً عَنِ المرْأَةِ وعَنِ القَانُونِ الصَّارِمِ الذِي فَرَضَهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعاً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَلكَ مِحْوَراً يَنْسِجُ مِنْ حَوْلِهِ تَجَارِبَهُ التى اكْتَسَبَها مِمَّا عَانَاهُ مِنْ آلامٍ وآمَالٍ وتَأَمُّلٍ لِعَقْلِيَّاتِ الأفْرَادِ والجَمَاعَاتِ، وَتَوَفُّرٍ عَلَى دِرَاسَةِ الكُتُبِ وأخْبَارِ الماضِيْنَ، واسْتِمْتَاعٍ بِمَا يَمُدُّهُ مَعِيْنُ العِلْمِ مِنْ فَيْضٍ لا يَنْقَطِعُ وسَلْوَى لا تَنْضُبُ؟.

الجزء الثالث

الفَصْلُ الخامسُ

اللزوم أو اللزوميات

الجزء الثالث

الفَصْلُ الخامسُ

اللُّزُوْمُ أو اللُّزُومِيَّاتُ

مُقَدِّمَة:

كانَ اللُّزُومُ أوَّلَ مُؤَلَّفٍ شِعْرِيٍّ أتَمَّهُ أبوالعلاء بَعْدَ دِيْوَانِهِ (سَقْطِ الزَّنْدِ). عَرَفْنا هذا مِنْ مُقَدِّمَتِهِ في اللُّزُومِيَّاتِ، والتي اعْتَذَرَ فِيْها لِرُجُوْعِهِ إلى نَظْمِ الشِّعْرِ بَعْدَ أنْ كانَ أعْلَنَ في سَقْطِ الزَّنْدِ أنَّهُ تَرَكَ الشِّعْرَ ورَفَضَهُ رَفْضَ السَّقْبِ غِرْسَهُ، والرَّأْلِ تَرِيْكَتَهُ[1].

ويَضُمُّ اللُّزُومُ اثنينِ وتِسْعِيْنَ وخَمْسَمِائةَ وألْفَ قِطْعَةٍ تَتَفاوتُ في طُوْلِها تفاوُتاً كَبِيْراً، مِنْ بَيْتَيْنِ إلى ما فَوْقَ السَّبْعِيْنَ. ويُمَثِّلُ في تَرْتِيْبِهِ نِظَاماً مُفَصَّلاً، مَعَ أنَّهُ لا يُمَثِّلُ نِظاماً شامِلاً بِحَالٍ مِنَ الأحْوَالِ. وبِالنَّظَرِ إلى مَقَايِيْسِنا الحَدِيْثَةِ، كُنَّا نَوَدُّ أنْ لَوْ كانَ اللُّزُومُ مُرَتَّبَةً مُحْتَوَيَاتُهُ بِحَسَبِ مَادَّةِ المَوْضُوعِ. ولَكِنَّ المؤلِّفَ، شأْنَ غيْرِهِ مِنْ مُعَاصِرِيْهِ، جَرَى في ذَلِكَ عَلَى سَنَنِ تَقْلِيْدٍ أقَرَّتْهُ القَصِيدة الجاهِلِيَّةُ، مَعَ تَنَوُّعِ مَوْضُوعاتِهِ وخَلْفِيَّتِهِ الشِّفاهِيَّة. ولِذَلِكَ اتَّخَذَ مِنَ القافِيَةِ، لا مِنَ المَوْضُوعِ، عامِلاً مُوَحِّداً لِأيِّ عَمَلٍ شِعْرِيٍّ؛ ثُمَّ يَأْتِي البَحْرُ تالِياً لِلْقَافِيةِ في الأَهَمِيَّةِ.

وسَتَجِدُ أنَّ فِكْرَةَ الوَحْدَةِ هَذِهِ هِيَ التي تُحَدِّدُ عَلَى نَحْوٍ قاطِعٍ تَصْنِيْفَ مُحْتَوَياتِ اللُّزُومِ أوْ تَقْسِيْمَها. ولِذَلِكَ، فَإنْ ذَهَبْنا نَحْنُ نُعِيْدُ تَرْتِيْبَ مَادَّةِ المَوْضُوعِ في اللُّزُومِيَّاتِ كَمَا هُوَ هَوَانا، لَارْتَدَّ هذا الصَنِيْعُ مِنَّا غيْرَ ذِي نَفْعٍ، ولَذَهَبَ جُهْدُنا سُدىً؛ لِأنَّنا بِذَلِكَ نَقْضِي عَلَى وَحْدَةِ مُكَوِّناتِهِ التي يَقُومُ عَلَيْها.

---

[1] سَقْطِ الزَّنْدِ ج ١ ص٧. أيْ كَما يَتْرُكُ وَلَدُ النَّاقةِ الجِلْدَةَ التي يُوْلَدُ بِها عَلَى رَأْسِهِ، لِأنَّها إنْ تُرِكَتْ قَتَلَتْهُ، وَكَما يَتْرُكُ وَلَدُ النَّعَامِ بَيْضَتَهُ.(المتَرْجم)

وقَدَ بَنَى أبو العلاء لُزُوْمَهُ عَلَى نَسَقِ حُرُوْفِ المعْجَمِ المعْرُوفَةِ [لا التي رَتَّبَها العُلَماءُ بِحَسَبِ مَجَارِي الحُرُوفِ، كما يَقُولُ هُوَ] ونَسَقِ الحَرَكاتِ الإعْرابِيَّةُ. فَكُلُّ فُصُولِ اللُّزُومِ الثَّمانِيَةِ والعِشرينَ إِنَّما تَبْدَأُ بِحَرْفِ الهَمْزَةِ وتَنْتَهِي بِحَرْفِ الياءِ. ولِكُلِّ فَصْلٍ مِنْها، ما خلا الهَمْزَةَ، أرْبَعَةُ أقْسَامٍ يُسَمِّيْها أبو العلاء فُصُوْلاً.

وفِي كُلِّ فَصْلٍ يَأْتِي حَرْفُ الرَّوِيِّ أَوّلاً عَلَى حَرَكَةِ الضَّمِّ، ثُمَّ حَرَكَةِ الفَتْحِ فَالكَسْرِ فالسُّكُونِ. ولِفَصْلِ الهَمْزَةِ قِسْمٌ اسْمُهُ (الألِفُ) جاءَ عَقِبَ الفَصْلِ الرَّابِعِ لِلْهَمْزَةِ مَعَ السُّكُونِ. ورُبَّما عُدَّتِ الألِف هَمْزَةً ساكِنَةٍ مُخَفَّفَةً مَنْحُوّاً بِها نَحْوَ صَوْتِ (آ)، وهَذا ما عَسَى أنْ يُفَسِّرَ لَنا مَجِيءَ فَصْلِها بَعْدَ فَصْلِ الهَمْزَةِ السَّاكِنَةِ.

ومِنْ جَرَّاءِ هَذَا التَّقْسِيمِ صارَ قِوَامُ الفُصُولِ ثَلاثَةَ عَشْرَ ومِائةَ فَصْلٍ. وفِي كُلِّ فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الفُصُولِ يَتَوَقَّعُ القارِئُ أنْ يُرَتِّبَ المؤَلِّفُ القِطَعَ فِيهِ على نسَقِ حُرُوفِ المعْجَمِ لِحَرْفِ الرَّوِيِّ الثَّانِي، فَيَتَوَقَّعُ مَثَلاً أنْ تَأْتِيَ قَصِيْدَةٌ تَنْتَهِي بِنَحْوِ (النَّسَمُ) بَعْدَ قَصِيْدَةٍ تَنْتَهِي بِنَحْوِ (القَزَمُ)؛ ولَيْسَ هَكَذَا الأمْرُ. إذ يَظْهَرُ أنَّ أبا العلاء لَمْ يَعْتَدَّ بِحَرْفِ الرَّوِيِّ الثَّانِي فِي تَرْتِيْبِ القِطَعِ فِي كُلِّ فَصْلٍ، فَقَدْ اعْتَمَدَ نَسَقَ البَحْرِ بَدَلاً عَنْهُ في تَرْتِيْبِها، وإنْ كانَتْ هُناكَ بَعْضُ الحالاتِ الشَّاذَّةِ مِنَ السَّهْلِ الإغْضَاءُ عَنْها وتَغافُلُها.

ولِنَفْهَمَ كَيْفَ أَلَّفَ أبو العلاء هَذِهِ اللُّزُومِيَّاتِ ومَتَى كانَ هَذَا التأْلِيْفُ؟ أَجِدُنَا أَمَامَ خِيارَيْنِ اثْنَيْنِ يَحْسُنُ بِنَا الوُقُوْفُ عِنْدَهُما مَلِيّاً.

فَإمَّا أنْ يَكُونَ أبو العلاء قَدْ كَتَبَ هَذِهِ اللُّزُمِيَّاتِ فِي فَتَرَاتٍ مُتَباينةٍ عَدِيْدَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ المدِيْدَةِ، ثُمَّ عَمَدَ فِي أَوَاخِرِ عُمُرِهِ إلى مُراجَعَتِها وجَمْعِها في دِيْوَانٍ واحِدٍ[1].

وأمَّا أنْ يَكُونَ، وهُوَ مَا نُرَجِّحُهُ، قَدْ بَدَأَ العَمَلَ كُلَّهُ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ مُتَكامِلٌ وانْتَوَى العَمَلَ فِيهِ بِجِدٍّ وَكَدٍّ مِنْ لَدُنْ حَرْفِ الهَمْزَةِ إلى حَرْفِ الياءِ؛ ولَكِنَّهُ كانَ خِلالَ سَيْرِهِ في

---

[1] انظرْ المهْرَجانَ الألفِي لأبي العلاء، مقالةَ د. عَزّام، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

هَذا العَمَلِ يُضِيْفُ قَصَائِدَ بِعَيْنِها يَطْلُبُ إلى كاتِبِيْهِ أو مَنْ كانَ يُمْلِي عَلَيْهِمْ إثْبَاتَها في مَوَاضِعِها مِنَ الفُصُولِ الخاصَّةِ بِهَا.

ويَظْهَرُ أَنَّ الافْتِرَاضَ الأَوَّلَ هُنا يُعَضِّدُهُ ما نُورِدُهُ لَكَ فِيْما يَلِي مِنْ شَوَاهِدَ، لَكِنَّها لا تَلْبَثُ أَنْ تَتَدَاعَى بِشَيْءٍ مِنْ إنْعَامِ النَّظَرِ والتَّدْقِيْقِ وهِيَ:

١. رُوَيْدَكَ إنْ ثَلاثُونَ استَقَلَّتْ ولَمْ يُنِبِ الفَتَى فَمَتَى يُنِيْبُ

٢. وما بَعْدَ مَرِّ الخَمْسَ عَشْرَةَ مِنْ صِبًا ولا بَعْدَ مَرِّ الأَرْبَعِيْنَ صَبَاءُ

٣. تَنَسَّكْتُ بَعْدَ الأربَعِيْنَ ضَرُورَةً ولَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَقُومَ الصَّوَارِخُ

٤. ومَتَى سَرَى عَنْ أربَعِيْنَ حَلِيْفُها فالمَرْءُ يَصْغُرُ والحَوَادِثُ تكْبُرُ

٥. خَبَرَ الحَيَاةَ شُرُوْرَها وسُرُوْرَها مَنْ عاشَ عِدَّةَ أَوَّلِ المتَقَارِبِ
وافَى بِذَلِكَ أَرْبَعِيْنَ فَمَا لَهُ عُذْرٌ إذا أُلْفِي قَلِيْلَ تَجَارِبِ

والمتَقَارِبُ مِنْ بُحُورِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعْرُوفَةِ، أَوَّلُهُ بِعِدَّتِهِ أَرْبَعُونَ حَرْفاً، فَمَنْ عاشَ حَتَّى بَلَغَ هَذَا العَددَ مِنْ سَنَوَاتِ العُمْرِ، فلا بُدَّ أَنَّهُ قَدْ خَبَرَ الحَيَاةَ خَيْرَها وشَرَّها وأصابَ مِنْها ما أصابَ مِنْ شَهْدٍ وصَابٍ، فَمَا يَكُونُ لَهُ، بَعْدُ، عُذْرٌ إذا وُجِدَ قَلِيْلَ الخِبْرَاتِ والتَّجارِبِ.

وكَمَا تَرَى فقَدْ جَرَى ذِكْرُ (الأَرْبَعِيْنَ) في هَذِهِ الشَّوَاهِدِ، ولَكِنَّ ذَلكَ لا يَعْنِي ضَرْبَةَ لَازِبٍ أَنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ بَلَغَ الأَرْبَعِيْنَ لَمَّا أَمْلَاها أَوْ حِيْنَ نَظَمَها؛ فَمَا ذِكْرُها هُنا إِلَّا كَذِكْرِ (الثَّلاثِيْنَ) في البَيْتِ الأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ. وجَمِيْعُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ إِنَّما تُصَوِّرُ رَجُلاً شَيْخاً يُعْرِبُ عَنْ حَقَائِقَ عامَّةٍ تَعْتَرِي أطْوَاراً بِعَيْنِها في حَيَاةِ البَشَرِ.

٦. ورَمَيْتُ أعْوَامِي وَرَائي مِثْلَمَا رَمَتِ المطِيُّ مَهامِهَ السُّفَّارِ
ورَكِبْتُ مِنْها أَرْبَعِيْنَ مَطِيَّةً لَمْ تَخْلُ مِنْ عَنَتٍ وسُوْءِ نِفارِ

و(أَرْبَعُونَ) هُنا أدَلُّ عَلَى مَعْنَى (سَنَوَاتِ الأرْبَعِيْنَ) مِنْ مَعْنَى عُمُرِ الأرْبَعِيْنَ؛ يَدُلُّكَ عَلَى هذا البَيْتُ الحادِي عَشَرَ (ص ٤١٠) مِنْ ذات القَصِيدَةِ التي مِنْها الأبياتُ أَعْلاهُ، والذي يَذْكُرُ فِيهِ أبو العلاء أنَّ رَأْسَهُ قَدِ اشْتَعَلَ شَيْباً إِلّا مِنْ أَهْدَابِهِ. وإنَّما ابْيَضَّ رَأْسُ أبي العلاء بَعْدَ أنْ بَلَغَ الخَمْسِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ.

٧. شَرِبْتُ سِنِيَّ الأربَعِيْنَ تَجَرُّعاً فَيَا مَقِراً ما شُرْبُهُ فِيَّ نَاجِعُ[1]

وإنَّما تَعْنِي عِبَارَةُ (سِنِيَّ الأرْبَعِيْنَ) الأرْبَعِيْنِيّاتِ ولَيْسَ الأرْبَعِيْنَ حَدّاً. واسْتَخْدَمَها أبو العلاء بِهذا المعْنَى فِي البَيْتِ:

قَدْ مَضَتْ مِنهُ الأرْبَعُونَ بِلا حَمْدٍ وذَاكَ الأجَلُّ مِنْ عُمُرَيْهِ[2]

ولَعَلَّهُ مِن الجَيِّدِ أنْ نُلاحِظَ أنَّ (الأَرْبَعِيْنَ) فِي البَيْتِ السَّابِقِ لِهَذَا جاءَتْ عَطْفَ بَيَانٍ لِكَلمةِ (سِنِيَّ) أو بَدَلاً مِنْها، فَذَلِكَ أدْعَى أنْ تَدُلَّ عَلَى مَعْنَى (الأرْبَعِيْنِيَّاتِ) بَأَقْوَى مِنْ دَلالَتِها عَلَى مَعْنَى (الأَرْبَعُونَ) التي فِي البَيْتِ الأخِيْرِ هُنا التي تَعْنِي العَدَدَ حَدّاً.

٨. عِشْ يا ابْنَ آدَمَ عِدَّةَ البَحْرِ الَّذِي يُدْعَى الطَّوِيْلَ ولا تُجاوِزْ ذَلِكا

فإذا بَلَغْتَ وأَرْبَعِينَ ثَمَانِياً فَحَيَاةُ مِثْلِكَ أنْ يُوَسَّدَ هَالِكا[3]

ووَصَاتُهُ هُنا (ولا تُجاوِزْ ذَلكا) تُوحِي بِأَنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ تَجَاوَزَ الثَّمَانِيَةَ والأَرْبَعِيْنَ. وإنَّما خَصَّ أبو العلاء العَدَدَ (ثَمَانِيَةً وأَرْبَعِيْنَ) بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ اقْتَضاهُ إيَّاهُ اقْتِضاءَ ذِكْرُهُ (الطَّوِيْلَ)، وهو بَحْرٌ مِنْ بُحُورِ الشِّعرِ العَرَبِيِّ عِدَّتُهُ ثَمَانِيَةٌ وأَرْبَعونَ حَرْفاً، وإنَّما اخْتَارَ بَحْرَ الطَّوِيْلِ لِلتَّمْثِيْلِ وتَقْرِيْرِ المعْنَى الذِي يُرِيْدُهُ. وهذا مِثَالٌ، فِي وَاقِعِ الأَمْرِ،

---

[1] اللزوم، ج ٢، ص ٧٧.

[2] نفسه، ج ٢، ص ٣، ٤ .

[3]- نفسه، ج٢، ص ١٥٦.

يَكشِفُ لَكَ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلُغَةِ التَّنَطُّسِ والحَذْلَقَةِ أنْ تَسْتَعْبِدَ كاتِباً أوْ شاعِراً بالِغاً ما بَلَغَ مِنَ الكَمالِ في فَنِّهِ أوِ التَمَكُّنِ مِنهُ.

٩- والقَصِيدة التي وَرَدتْ فِيْها الأبْيَاتُ التالِيَةُ تَتناوَلُ مَوْتَ (الحاكِمِ) [الفاطِمِيِّ] مَلِكِ مِصْرَ الذي تُوُفِّيَ في ٤١١هـ:

مَضَى قَيْلُ مِصْرَ إلى رَبِّهِ وخَلَّى السِّياسَةَ لِلْخائِلِ
وقالوا يَعُودُ فقُلْنا يَجُوزُ بِقُدْرةِ خالِقِنا الآئِلِ
إذا عَادَ زيْدٌ إلى طَيِّءٍ وعادَ كُلَيْبٌ إلى وَائِلِ

أيْ مَضَى هَذَا المِلكُ إلى رَبِّهِ وخَلَّفَ وَرَاءَهُ أدْعِيَاءَ السِّياسَةِ يَعْبَثُونَ بِها، وقَدْ قَالُوا إنَّهُ سَيَعُوْدُ مِنَ البِلَى، فَقُلْنا يَجُوزُ ذَلِكَ بِقُدْرَةِ اللهِ، ولَكِنْ إذا عادَ مِنَ الموْتِ زَيْدٌ إلى قَبِيْلَتِهِ طَيْءٍ، وعادَ كُلَيْبٌ إلى قَوْمِهِ مِنْ بَني وَائِلٍ[1].

ومِنَ الوَاضِحِ مِنَ الموْضُوعِ الأساسِ لِهَذِهِ الأبْياتِ والقَصِيدةِ التي جَاءَتْ فِيْها، ذِكْرُ تارِيْخٍ طَرَأَ بَعْدَ سَنَةِ ٤١١هـ. فَكُلٌّ من تَأْلِيْهُ الحاكِمِ وفِكْرَةِ عَوْدَتِهِ مِنَ المَوْتِ والبِلَى، وهو ما أدَّى في نِهَايَةِ الأمْرِ إلى تَأسِيْسِ طائِفَةِ (الدُّرُوْزِ)، قَدْ أَثَارَ جَدَلاً حامِياً فِي السَّنَواتِ التي أعْقَبَتْ مَوْتَهُ.

١٠. مَنْ عاشَ سَبْعِيْنَ فهْوَ في تَعَبٍ ولَيْسَ فِي العَيْشِ بَعْدَها خِيَرَهْ[2]

---

[1] نفسه ج ٢ص ٢٤٣. زَيْدٌ هو زَيْدُ الخَيْلِ، كانَ مِنْ أبْطَالِ الجاهِلِيَّةِ، لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وأسْلَمَ فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ (زَيْدَ الخَيْرِ)، وطَيْءٌ قَبِيْلَتُهُ، انظُرْ الأغانِي ج٤ ص٥٠. وكُلَيْبٌ هُوَ كُلَيبُ بْنُ رَبِيْعَةَ، مِنْ بَنِي وَائِلٍ، إحْدَى بُطُوْنِ تَغْلِبَ، وكانَ مِنْ أبْطالِ الجاهِلِيَّةِ، الأغاني ج ٤ ص ١٤٠.

[2] - اللُّزوم، ج١، ص ٣٦٩ .

أيْ (فَمَنْ يَعِشْ سَبْعِينَ سَنَةً يَكُنْ عُرْضَةً لِلسَّآمَةِ والضَّجَرِ والكَلالِ والملالِ، فَمَا بَعْدَ السَّبْعِيْنَ فِي العَيْشِ مِنْ خيْرٍ). فَهَذَا البَيْتُ يَبْدُو مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ شَيْخٍ فِي حَوالَيْ السَّبْعِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ، ولَكِنْ قارِنْ سِياقَهُ[1] بِسِيَاقِ هَذِهِ الأبْيَاتِ:

تَزَوَّجَ بَعْدَ واحِدَةٍ ثَلاثاً ... وقَالَ لِعِرْسِهِ يَكْفِيْكِ رُبْعِي

فَيَرْضَاها إذا رَضِيَتْ بِقُوتٍ ... ويَرجُمُها إذا مَالَتْ لِتِبْعِ

وعَقْلُكَ يا أَخَا سَبْعِيْنَ وَاهٍ ... كَأَنَّكَ فِي مَلاعِبِكَ ابْنُ سَبْعِ[2]

أيْ (لَقَدْ تَزَوَّجَ عَلَى زَوْجَتِهِ ثَلاثَ زَوْجاتٍ، وقَالَ لِلأُولَى يَكْفِيْكِ مِنِّيَ الرُّبْعُ، فَهُوَ يَرْضَى عَنْها إذا قَنِعَتْ مِنهُ بِالطَّعَامِ ويَقْتُلُها الحَدَّ إذا طَلَبَتْ الحُبَّ [الذي لَمْ تَجِدْهُ عِنْدَهُ] عِنْدَ غَيْرِهِ، فَيَا مَنْ بَلَغْتَ السَّبْعِينَ قد ضَعُفَ مِنْكَ العَقْلُ، فَصِرْتَ تَلْعَبُ لَعِبَ غُلامٍ لَمَّا يُجَاوِزِ السَّبْعَ).

فإذا قارَنْتَ السِّيَاقَ الذي وَرَدَتْ فِيهِ (السَّبْعُوْنَ) في البَيْتِ السابِقِ بِسِيَاقِ (السَّبْعِيْنَ) في هَذِهِ الأبْيَاتِ، لَرُبَّمَا تَوصَّلتَ إلى أنَّ أبا العلاء لَمَّا كَتَبَها كانَ فِي ذِهْنِهِ رِجالٌ مِنَ المعَرَّةِ يَعْرِفُهُم (فِي السَّبْعِيْنَ أوِ السِّتِّيْنَ) كانُوا قَدْ تَزَوَّجُوا فَتَيَاتٍ شابَّاتٍ وهُمْ شُيُوخٌ. فَيُمْكِنُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ الأبْياتُ قَدْ نُظِمَتْ لَمَّا بَلَغَ أبو العلاء الخَمْسِيْنَ أوْ بُعَيْدَها بِسَنَوَاتٍ، شأْنَ بَقِيَّةِ اللُّزُومِ.

وعَلَى نَحْوِ ما عَسَى أنْ تَكُونَ لاحَظْتَ لا يُمْكِنُنا بَعْدُ التَّسْلِيْمُ بِهَذِهِ الاسْتِشْهَاداتِ التي تَدَبَّرْناها آنِفاً عَلَى أنَّها شَوَاهِدُ وأَدِلَّةٌ عَلَى صِحَّةِ الافْتِرَاضِ الأَوَّلِ. ولَوْ كانَ عَلَيْنا أنْ نُؤَيِّدَ هَذَا الافْتِرَاضَ الأوَّلَ، مُعْتَبِرِيْنَ مِنْ هَذِهِ الاسْتِشْهَادَاتِ أنَّ (الأرْبَعِيْنَ) أوِ (الثَّلاثِيْنَ)

---

[1] نفسه، البَيْتَانِ ١١-١٢:

مُلُوكُنا الصَّالِحُونَ كُلُّهُمُ ... زِيْرُ نِساءٍ يَهَشُّ لِلزِّيَرَهْ.

أيْ صالِحُ حُكَّامِنا فَجَرَةٌ مُسْتَهْتِرُونَ يَصْحَبُونَ فَجَرَةً مُسْتَهْتِرِيْنَ.

[2] - اللزوم، ج٢، ص ٩١ .

وغيْرِهُما مِمَّا وَرَدَ فِيْها، إنَّما تُشِيْرُ إلى أزْمَانِ نَظْمِهَا، فَلَنْ يَلْزَمَ مِنْ هَذَا أنْ يَكُوْنَ ما تَبَقَّى مِنَ اللُّزُومِ قَدْ نُظِمَ خِلالَ هَذِهِ الفَتَرَاتِ شَدِيْدَاتِ التَّفَاوُتِ. ولَوْ أنَّنا افْتَرَضْنا أنَّ هَذِهِ القِطَعَ غَيْرَ المتَّصِلَةِ التي جِئْنَا مِنْها بِهَذِهِ الاسْتِشْهَاداتِ إنَّما نُظِمَتْ فِي الأزْمَانِ المذْكُورَةِ فِيْها، فَمِنَ المُمْكِنِ أنْ نَفْهَمَ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الاطْمِئْنَانِ أنَّها أُضِيْفَتْ إلى دِيْوَانِ اللُّزُومِ أثْنَاءَ تَأْلِيْفِهِ أوْ بَعْدَهُ.

وأمَّا الافْتِراضُ الثَّانِي، فَيَبْدُو لَنَا أصْوَبَ حُسْبَاناً وأرْجَحَ مِيْزَاناً فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَأْلِيْفِ اللُّزُومِ وزَمَانِ هَذَا التَّأْلِيْفِ. فَتَرتِيْبُ اللُّزُومِيَّاتِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ التَّفْصِيْلِ والعِنَايَةِ والعَمَلِ المتْعُوبِ فِيهِ يُشْعِرُ بِأنَّ قِطَعَهُ إنَّما كانَتْ قَدْ وُضِعَتْ فِي مَوَاضِعِها مِنْ أقْسَامِها فِي الأوْقَاتِ التي أُمْلِيَتْ فِيْها عَلَى كاتِبِيْها أوَّلَ مَرَّةٍ . ولِذَلِكَ فالكَثْرَةُ الكاثِرَةُ مِنْها، عَلَى الأقَلِّ، تُعْطِيْنا بِوَضْعِها الكائِنِ الآنَ فِي اللُّزومِ تَرْتِيْباً زَمَنِيّاً، مَعَ تَرَاتِيْبِ التَّبْوِيْبِ الأُخْرَى التي تَنَاوَلْناها آنِفاً . فَمِنْ غَيْرِ المرَجَّحِ عِنْدَنا أنْ يَكُونَ ما اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ اللُّزُومُ مِنَ التَّرْتِيْبِ الآنَ قَدْ تَمَّ بَعْدَ أنْ دَوَّنَ كُتَّابُهُ مُحْتَوَياتِهِ فِي أزْمَانٍ مُخْتَلِفاتٍ. ولَعَلَّ ما عَرَفْنَاهُ مِنْ شَخْصِيَّةِ أبِي العلاءِ يُسَوِّغُ لَنا أنْ نَفْتَرِضَ افْتِرَاضاً يُباعِدُهُ الخَطأُ ويُشَايِعُهُ الصَّوَابُ أنَّهُ كانَ شاكِراً لِكُتَّابِهِ ومُدَوِّنِيْهِ هَذِهِ المساعَدَاتِ والخِدْماتِ الطَّوْعِيَّةَ التي كان يَتَلَقَّاها مِنهُمْ، مُمْتَنّاً لَهُمْ إزاءَها أشَدَّ الامْتِنَانِ إلى حَدٍّ لا يُمْكِنُهُ مَعَهُ أنْ يَدَعَ لَهُمْ مُهِمَّةَ التَّدْوِيْنِ الأوَّلِ الشَّاقَّةَ هَذِهِ، ثُمَّ أنْ يَقُومُوا، مَعَ ذَلِكَ، بِتَبْوِيْبِ مُحْتَوَياتِ اللُّزُومِ. والذي نُرَجِّحُهُ بِقُوَّةٍ أنَّهُ أمْلَى هَذِهِ المحْتَوَياتِ مُبْتَدِئاً مِنَ الفُصُولِ ثُمَّ الأقْسَامِ وهَكَذا . فَذَلِكَ ما نَرَاهُ الطَّرِيْقَةَ الوَحِيْدَةَ التي كانَ يُمْكِنُ لِأبِي العلاءِ أنْ يُعاوِنَ بِها كُتَّابَهُ ومُدَوِّنِيْهِ الذِيْنَ كان يُمْلِي عَلَيهِمْ مِنْ أجْلِ أنْ يُخَفِّفَ عَلَيْهِمْ مُهِمَّتَهُمْ الشَّاقَّةَ هَذِهِ. يُضَافُ إلى هَذَا أنَّ طَبِيْعَةَ الحالاتِ الشَّاذَّةِ التي خالَفَتْ خُطَّةَ التَّبْوِيْبِ مِمَّا يُقَوِّي رَأْيَنا هَذَا . فَهُناكَ حالَتَانِ شاذَّتانِ شُذُوذاً خَفِيْفاً يُمْكِنُنا

التَّغاضِي عَنْهُما لِذلِكَ[1]. ولَكِنَّ بَقِيَّةَ الحَالاتِ الشَّاذَّةِ عَنِ التَّبْوِيْبِ وهِيَ عَدّاً سَبْعٌ تَقَعُ إمَّا في أوَّلِ الفَصْلِ تَماماً وإمَّا في آخِرِهِ تَماماً[2].

ومِنْ ثَمَّ فَيُمْكِنُنا أنْ نَفْتَرِضَ باطْمِئْنانٍ وأنْ نُقَدِّرَ تَقْدِيْراً نَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ أنَّ اللُّزُومَ قَدْ نُظِمَ وأُلِّفَ خِلالَ فَتْرَةٍ أقْصَرَ بِالنَّظَرِ إلى الافْتِراضِ الأوَّلِ، وأنَّ صاحِبَهُ قَدْ عاوَنَ كاتِبِيْهِ بِنَظْمِهِ أغْلَبَ القَصَائِدِ حَسْبَما اقْتَضَاهُ تَرْتِيْبُ الدِّيْوانِ الذي يَظْهَرُ عَلَيهِ الآنَ. وقَدْ ذَكَرَ رَجلٌ كانَ قَدْ زَارَ أبا العلاءِ فِي الفَتْرَةِ التي كانَ يَنْظِمُ فِيْها اللُّزُومِيّاتِ أنَّ الشاعِرَ كانَ يُمْسِكُ عَنِ الكَلامِ فَيَلْزَمَ الصَّمْتَ زَمَناً طَوِيْلاً ثُمَّ يُمْلِي بَعْدَ ذلكَ نَحْواً مِنْ خَمْسِمائةِ بَيْتٍ في جَلْسَةٍ واحِدةٍ[3]. ولَوْ سَمَحْنا بِهَذِهِ المُبالَغَةِ هُنا واسْتَسَغْنَاها، فإنَّ هَذَا الوَصْفَ يُقارِبُ جِدّاً ما ذَهَبْنَا إليهِ مِنَ الرَّأْيِ في كَيْفِيَّةِ نَظْمِ اللُّزُومِ. وأخْذاً بِهَذا الافْتِرَاضِ واسْتِناداً عَلَيْهِ، يُمْكِنُنَا تَقْدِيْمُ هَذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ:

الرَّأْيُ الأوَّلُ: هُوَ أنَّ قَصَائِدَ اللُّزُومِ الأُوَلَ لَمْ تَكُنْ قَدْ نُظِمَتْ قَبْلَ سَنَةِ ٤١٤هـ.

والرَّأْيُ الثاني: هُوَ أنَّ القَصَائِدَ الأخِيْرَةَ مِنهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ نُظِمَتْ بَعْدَ سَنَةِ ٤٢٠هـ.

ويُعَزِّزُ هَذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ عِنْدَنا مُلاحَظاتُنا هَذِهِ:

أوَّلاً: مِمَّا يُعَزِّزُ الرَّأْيَ الأوَّلَ هُنا أنَّنا لاحَظْنَا أنَّ الفَرَاغَ مِنْ سَقْطِ الزَّنْدِ كانَ في سَنَةِ ٤١٤هـ، وأنَّ أبا العلاء يُشِيرُ إلَيْهِ في مُقَدِّمَةِ اللُّزُومِ عَلَى أنَّهُ عَمَلٌ قَدِيْمٌ، ثُمَّ إنَّ في اللُّزُومِ قَصَائِدَ تَتَضَمَّنُ ذِكْراً وإشاراتٍ إلى أحْدَاثٍ بِعَيْنِها، عَلَى نَحْوٍ لا يُمْكِنُنا مَعَهُ أنْ نَقُولَ إنَّها قَدْ نُظِمَتْ بَعْدَ وُقُوعِ هَذِهِ الأحْدَاثِ بِزَمانٍ طَوِيْلٍ. مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ القصائِدِ قِطَعٌ تَصِفُ ثَوْرَةَ صالِحِ بْنِ مِرداسٍ وغَسَّانَ الطائِيِّ وسِنانٍ الكَلْبِيِّ التي وَقَعَتْ في سَنَةِ

---

[1] - اللزوم، ج١، ص ٣٤٦، وص ٤٣٥ – ٤٣٨ .

[2] - نفسه، ج١، ص ٦١، الأبيات ٩ – ١٣، وص ٦٤– ٦٥ – ٦٦، وص ٧٨ – ٧٩، وص ١٤٩–١٥٠، وص ٢٢٢، والبيتان ٦ – ٧، والبيتان ٨ – ٩ .

[3] - تعريف القدماء، ص ٢٤٩ .

٤١٤هـ. فَهَذِهِ تَبْدُو أَوَّلَ قَصَائِدِ اللُّزُومِ؛ وثَمَّةَ أَحْدَاثٌ أُخْرَى جاءَتِ الإشارَةُ إِلَيْها في اللُّزُومِ وَقَعَتْ في زَمانٍ مُتَأَخِّرٍ عَنْ زَمانِ هَذِهِ.

ثانياً: يُقَوِّي عِنْدَنَا رَأْيَنا الثاني ما لاحَظْناهُ مِمَّا جاءَ في رِسالةِ الغُفْرانِ، والتي كُتِبَتْ في زَمَنٍ لَمْ يَتَجاوَزْ سَنَةَ ٤٢٤هـ، فَنَقْرَأُ ثَمَّ: (وقَدْ حَدَّدْتُهُ ما أجْدَرَ أن يَكُونَ سُبِقَ إِلَيْهِ إلّا أنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ، وهُوَ أنْ يُقَالَ: الزَّمانُ شَيءٌ أَقَلُّ مِنهُ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ المدْرَكاتِ، وهُوَ في ذَلِكَ ضِدُّ المكَانِ .. فأمَّا الكَوْنُ فَلا بُدَّ مِنْ تَشَبُّثِهِ بِما قَلَّ أو كَثُرَ)[1].

فَلِماذا كانَ عَلَى أبِي العلاء أنْ يَسْتَخْدِمَ كَلِمَةَ (الكَوْنِ) هُنا بَدَلاً عَنْ كَلِمَةِ (الزَّمانِ) وهِيَ الكَلِمَةُ الأكْثَرُ مُناسَبَةً لِلاسْتِخْدَامِ في النَّثْرِ؟ أمْ هَلْ هُناكَ صِلَةٌ بَيْنَ (الكَوْن) هُنا و(الكَوْنِ) في البَيْتِ:

وأيْسَرُ كَوْنٍ تَحْتَهُ كُلُّ عَالَمٍ ... ولَنْ تُدْرِكَ الأكْوانَ جُرْدٌ صَلادِمُ[2]

ومِمَّا لَهُ مَغْزَى ومَرْمَى خاصٌّ هُنا أنَّ هَذَا البَيْتَ يُعْطِي ذَاتَ مَعْنَى الزَّمانِ الذي جاءَ في الفَقْرَةِ التي أورَدْناها هُنا. وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ كَلِمَةَ (الكَوْنِ) في التَّعْرِيْفِ النَّثْرِيِّ أُرِيدَ مِنْها الكَشْفُ عَنْ مَعْنَى كَلِمَةِ (الكَوْنِ) في التَّعْرِيْفِ الشِّعْرِيِّ الذي كانَ بِحَاجَةٍ إلى الشَّرْحِ والتَّبْيِينِ. ثُمَّ إنَّهُ مِمَّا يُقَوِّي أيْضاً الرَّأْيَ الثانِي الذي افْتَرَضْنَاهُ آنِفاً مَجِيئُ ذِكْرِ الملِكِ مَحْمُودٍ الغَزْنِيِّ[3] في كَثِيرٍ مِنْ أبْياتِ اللُّزُومِ، ودَائِماً ما يأْتِي الكَلامُ عَنْهُ، تَلْمِيحاً كانَ أو تَصْرِيحاً، عَلَى أنَّهُ مُعاصِرٌ لِأبِي العلاء ما زالَ عَلَى قَيْدِ الحياةِ، كَقَوْلِهِ مَثَلاً:

---

[1]- رسالة الغُفران، ص ١٣٨. وقد جاءَ المؤَلِّفُ بِتَرجَمَةٍ لِأصْلِ هذا النَّصِّ العَرَبِيِّ بِاللِّسانِ الإنجليزيِّ، وقالَ إنَّهُ اعْتَمَدَ فِيها عَلَى تَرْجَمَةِ نِيكِلْسُون لِهَذا النَّصِّ في مَجَلَّةِ الجَمْعِيَّةِ الملَكِيَّةِ الآسْيَوِيَّةِ، ١٩٠٢، ص ٩٥ .

[2]- اللزوم، ج ٢، ص ٢٦١، أي أنَّ أقَلَّ جُزْءٍ مِنَ الزَّمَانِ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كلُّ العَوَالِمِ، وإنَّ الأَزْمَانَ لَتَمُرُّ حَثِيثاً حَتَّى لَتَعْجِزُ عَنْ إدراكِها أجْوَدُ الخَيْلِ وأسْرَعُها .

[3]- يُشَارُ إِلَيْهِ في كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ والأَدَبِ(بِالغَزْنَوِي) كَذَلِكَ وهُوَ محمودُ بْنُ سَبُكْتَكِين، أَمِيرُ المعَرَّةِ ومَسعودٌ ابْنُهُ.(المترجم)

لا كانَتِ الدُّنيا فَلَيس يَسُرُّنِي   أَنِّي خَلِيْفَتُها ولا مَحْمُودُها[1]

وكَقَوْلِهِ:

يَسْلُكُ مَحْمُودٌ وأَمْثَالُهُ   طَرِيْقَ خاقانَ وكُنْدَاجِ[2]

وكَقَوْلِهِ:

سَيَمُوْتُ مَحْمُودٌ ويَهْلِكُ آلِكٌ   وَيَدُومُ وَجْهُ الوَاحِدِ الخَلاَّقِ[3]

ولَمْ يَحْدُثْ قَطُّ أَنْ وَرَدَ ذِكْرُ الملِكِ مَحْمُودٍ فِي أيِّ بَيْتٍ مِنَ اللُّزُومِيَّاتِ عَلَى أَنَّهُ مَيْتٌ، ولا حَدَثَ أَنْ وَرَدَ اسْمُ ابْنِهِ مَسْعُوْدٍ الذِي خَلَفَهُ وَحدَهُ في كُلِّ اللُّزومِ، بَلْ يَرِدُ مُتَّصِلاً باسْمِ مَحْمُودٍ، وعادَةً ما تَسْتَدْعِيْهِ القافِيَةُ، كَمَا فِي:

مَحْمُودُنا اللهُ والمسْعُودُ خائِفُهُ   فَعَدِّ عَنْ ذِكرِ مَحْمُودٍ ومَسعودِ[4]

ومِنْ هُنا يُمْكِنُنا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ دِيْوَانَ اللُّزُومِيَّاتِ قَدْ كانَ اكْتَمَلَ نَظْمُهُ قَبْل مَوْتِ الملِكِ مَحْمُودٍ الذي ماتَ في سَنَةِ ٤٢١هـ .كَما أَنَّ صَالِحَ بْنَ مِرْداسٍ وما اتَّصَلَ بِهِ مِنَ الأَحْدَاثِ، قَدْ كانَ مادَّةَ مَوْضُوعِ كَثِيْرٍ مِنْ قِطَعِ اللُّزُومِ، ومَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَرِدْ ذِكْرُ مَوْتِهِ الذي وَقَعَ في سَنَةِ ٤٢٠هـ في مَعْرَكَةٍ لَهُ مَعَ الفاطِمِيِّيْنَ في هَذَا (الدِّيوانِ).

هذا وعَلاوَةً عَلَى ما ذَكَرْنا هُنا، فَثَمَّةَ مَلْحُوظاتٌ نُوْرِدُها إِلَيْكَ أَيُّها القَارِئُ الكَرِيْمُ فِيْما يَلِي:

---

[1]- اللزم، ج١، ص ٢٥٢ .

[2]- نفسه، ج١، ص ٢٢١. وخاقان مَلِكُ التُّرْكِ

[3]- نفسه، ج ٢، ص ١٤٠.

[4]- نفسه، ج١، ص ٢٨٩.

أَوّلاً: جاءَ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الأبْياتِ في مُخْتَلِفِ فُصُولِ اللُّزُومِ أنَّ الشَّاعِرَ يُخْبِرُنا أنَّهُ تَجاوَزَ الخَمْسِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ[1] عَلَى حِيْنِ أنَّكَ لا تَجِدُ بَيْتاً واحِداً يَذْكُرُ فِيهِ أنَّهُ بَلَغَ السِّتِّيْنَ فما فَوْقَها. وقَدْ بَلَغَ الشَّاعِرُ الخَمْسِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ في سَنَةِ ٤١٣هـ – ٤١٤هـ.

ثانِياً: ما أكْثَرَ ما تَحَدَّثَ الشَّاعِرُ عَنْ نَفْسِهِ عَلَى أنَّهُ رَجُلٌ أشْيَبُ أشْمَطُ في كَثِيْرٍ مِنْ فُصُولِ الدِّيْوَانِ[2] وقَلَّما تَحَدَّثَ عَنْ بِدايَةِ ظُهُورِ الشَّيْبِ عَلَى رَأْسِهِ. وقَدْ أَخَذَ شَعْرُ رَأْسِهِ يَسْتَحِيْلُ مِنْ سَوَادِهِ إلى البَيَاضِ بَعَدَ أنْ تَجاوَزَ سِنَّهُ الخَمسِينَ.

ثالِثاً: هُناكَ أَحْدَاثٌ ثَلاثَةٌ وَقَعَتْ في سَنَةِ ٤١٨هـ، جاءَتِ الإشَارَةُ إلَيْها في الفُصُولِ: الثَّامِنِ والعَاشِرِ والثَّامِنِ والعِشْرِيْنَ[3]. وهَذِهِ الأحْدَاثُ هِيَ تَوَسُّطُ أَبِي العلاء إلى صَالِحٍ نِيَابَةً عَنْ أهلِ بَلدَتِهِ[4]، وقِصَّةُ المرْأَةِ جامِعَ[5] التي تَلَقَّتِ الإهانَةَ مِنْ بائِعِ خَمْرٍ، ومَوْتُ أبي القاسِمِ الوَزِيْرِ، وقَدْ بَكاهُ بِالمرْثِيَةِ الوَحِيْدَةِ في اللُّزومِيَّاتِ[6].

فَمِنْ هذِهِ الملاحِيْظِ، يُمْكِنُنا أنْ نَسْتَنْتِجَ أنَّ الجُزْءَ الأكْبَرَ مِنَ اللُّزُومِ إنَّما هُوَ وَلِيدُ الفَتْرَةِ القَصِيرَةِ في حَوالِي سَنَةِ ٤١٨هـ. وفي هَذِهِ السَّنَةِ كانَ أبو العلاء رَجُلاً في الخامِسَةِ والخَمْسِينَ، قَدْ عَسَا في رأْسِهِ المشِيْبُ فاسْتَحالَ بَيَاضاً كُلُّهُ، وهُوَ مُدْرِكٌ بِحَبْوِهِ إلى الشَّيْخُوخَةِ، وهُوَ ما يَبْدُو مُتَطابِقاً مَعَ وَصْفِهِ نَفْسَهُ الذي تَجِدُهُ مَبْثُوثاً في الكَثِيْرِ مِنْ أجْزَاءِ اللُّزُومِ

---

[1] - كَقَوْلِهِ مَثَلاً : لَعَمْرِي، لَقَدْ جازوتُ خَمْسِيْنَ حِجَّةً   وحَسْبِيَ عَشْرٌ في الشَدَائِدِ أو خَمْسُ

انظرِ اللُّزُوم، ج٢، ص ٢، البيت ٦.

[2] - اللُّزُوم، ج١، ص ٣٤٥، البيت ١٥.

[3] - الثَّامِنُ هُوَ فَصْلِ (الدَّالِ) والعاشِرُ فَصْلُ (الرَّاءِ) وهَكَذَا حَسَبَ تَرْتِيْبِ الحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، عَلَى تَرْتِيْبِ: أ،ب،ت،ث،ج،ح،خ،د...إلخ

[4] - نفسه، ج ١، وج ٢، ص ٢٣٤.

[5] - نفسه، ج ١، ص ٣٥٥ – ٣٥٦.

[6] - نفسه، ج ٢، ص ٤٣٤.

شِعْرُ اللُّزُوم

(أ) الخصائِصُ النَّحْويَّةُ واللُّغويةُ فِيهِ:

لَقَدْ كانَ عَلَى أَبِي العلاءِ، اللُّغَوِيِّ والمعَلِّمِ، أنْ يَضْرِبَ المَثَلَ لِطُلَّابِهِ ويَجْعَلَ لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ القُدْوَةَ وذَلِكَ بِأَنَّ يُطَبِّقَ ما كَانَ يَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ ويَحُضُّهُم عَلَيْهِ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَخْدَمَ الكَلِماتِ والتَّعابِيْرَ والجُمَلَ بِطَرِيْقَةٍ تَتَّسِقُ مَعَ مَعَايِيْرِ صَفَاءِ اللُّغةِ وأَصَالَتِها. ولَكِنَّهُ لَمْ يَطْرَحِ المفْرَدَاتِ والاصْطِلاحاتِ التي يتَعَاطاها الفُقَهاءُ وعُلَماءُ المَنْطِقِ والنُّحَاةُ والفلاسِفَةُ ولَمْ يَتْرُكْها بِحُجَّةِ أنَّ العَرَبَ الأَوَائِلَ لَمْ يَسْتَخْدِمُوها في كَلامِهِمْ.

وقَدْ كانَ اسْتِخْدَامُ اصْطلاحاتِ العُلَماءِ في الشِّعْرِ في زَمَنِ أَبي العَلاءِ يُعَدُّ ضَرْباً مِنَ الحَذْلَقَةِ والتَّنَطُّسِ، ولَكِنَّ مَسْأَلَةَ جَوَازِ اسْتِخْدَامِ لُغَةِ الفَلاسِفَةِ في الشِّعْرِ أَوْ رَفْضِهِ كانَتْ أَمْراً مُخْتَلَفاً فِيهِ. وقَدْ ذَكَرَ ابْنُ رَشِيْقٍ في كِتابِهِ (العُمْدَة)[1]، وقَدِ اتَّخَذَ في هَذِهِ المسْأَلَةِ مَوْقِفاً وَسَطاً بَيْنَ الجَوَازِ ورَفْضِهِ، أَنَّ مُناقَشَةَ المسائِلِ الفَلْسَفِيَّةِ وسَرْدَ الأَحْدَاثِ التَّارِيْخِيَّةِ لَيْسَتْ مِنَ الشِّعْرِ في شَيْءٍ، وأنَّه إنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مَجِيْئِها فِيهِ فَلْيَكُنْ نَزْراً يَسِيراً ومُقْتَصَداً فِيهِ اقْتِصَاداً. ومَعَ كُلِّ هَذا فَقَدِ اتَّخَذَ أبو العلاء لِنَفْسِهِ في ذَلِكَ مَوْقِفاً مُسْتَقِلّاً، إِذِ اعْتَبَرَ اصْطِلاحاتِ الفَلاسِفَةِ والمتَعَلِّمِيْنَ جُزْءاً مِنْ لُغَةِ العَرَبِ لا تَنْفَصِلُ عَنْها، ومِمَّا لا يَسْتَغْنِي عَنهُ رُجُلٌ في ثَقَافَتِهِ وعِلْمِهِ المَوْسُوعِيِّ، لا بَلْ ذَهَبَ فِي مُقَدِّمَةِ لُزُومِهِ إلى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ مُصْطَلَحاتِ النَّحْوِ والعَرُوْضِ إِنَّما أُخِذَتْ مِنَ العَرَبِ الأَوَائِلِ[2] .فالذي يَرَاهُ أبو العلاء لُوْثَةً ورَكَاكةً ومُفَارَقَةً لِلْفَصاحَةِ هُوَ اسْتِخْدَامُ النَّحْوِ خطأً وكَذَلِكَ العِبَارَاتُ العَبَّاسِيَّةُ الجارِيَةُ وتَعابِيْرُ الصُّوْفِيَّةِ وأَقْوَالُهُمُ المُبْهَمَةُ

---

[1]- هو الحسنُ بْنُ رَشِيقٍ، توفى في ٤٥٦ بِصِقِلِّيَةَ، وانظُرْ وَفَيَاتِ الأعيان ج١ص ١٦٥؛ ويَقُولُ ابْنُ خَلْدُونَ عَنْ عُمْدَتِهِ هَذا إِنَّهُ أَعْظَمُ كِتابٍ كُتِبَ فِي مَوْضُوعِهِ، انْظُرْ تارِيْخَ ابْنِ خَلْدُونَ .

[2]- اللُّزُوم ج١، ص ٢٠ .

الغامِضَةُ ولُغَةُ العامَّةِ السُّوقِيَّةُ. ويَعْرِضُ اللُّزُومِيَّاتُ وَجْهَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ أوْجُهِ الأَسَالِيْبِ، لا بُدَّ أنَّ مَنْ عاصَرَهُ مِنَ النُّقَّادِ كانُوا يَرَوْنَ أنَّهُما لا يَكادَانِ يأْتَلِفَانِ أوْ يَتَّفِقَانِ، وأنَّ الجَمْعَ بَيْنَهُما مِمَّا لا يَكادُ يُسْتَطاعُ. وهُما كَثْرَةُ اسْتِخْدَامِ اصْطِلاحاتِ العُلَماءِ والمتَعَلِّمِيْنَ وتَعابِيْرِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ، وتَمَسُّكُهُ الشَّدِيْدُ بِمَقَايِيْسِ صَفَاءِ اللُّغَةِ ونَقَائِها وصِحَّةِ اسْتِخْدَامِها. واللُّزُومُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ النَّحْوِيِّيْنَ تَأْلِيْفُ عالِمٍ مِنَ العُلَماءِ وقَدْ جاءَتْ فِيهِ بِضْعَةُ شَوَاهِدَ لِلضَّرُوْرَةِ الشِّعْرِيَّةِ العامَّةِ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ، نَحْوُ (مَكَّةٍ) بَدَلاً عَنْ (مَكَّةَ)[1] .

لَكِنَّ ثَمَّةَ أمْثِلَةً لاسْتِخْدَاماتٍ نَحْوِيَّةٍ مُتَقَادِمَةِ العَهْدِ مَهْجُوْرَةٍ، لا يَجْرُؤُ عَلَى اسْتِخْدَامِها إِلَّا عالِمٌ ضَلِيْعٌ، خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

مَتَى ما تُحَاوِلْ فارِساً مِنْ فِرَاسَةٍ فإِنِّيَ مِنْ زَيْدٍ وبِسْطَامَ أفْرَسُ[2]

وقَوْلَهُ:

فاءَ لَكَ الحِلْمُ فَالْهُ عَنْ رَشَأٍ خالَط مِنهُ عَرْفُ المُدَامَةِ فا

---

[1]- اللُّزُومِيَّات ج٢، ص ٢٧٠ .

[2] زَيْدُ الخَيْرِ الطَّائِيُّ وبِسْطامُ بْنُ قَيْسٍ الشَّيْبَانِيُّ، كِلاهُما كانَ مِنْ فُرسانِ العَرَبِ المشْهُوْرِيْنَ فِي الجاهِلِيَّةِ، ولَكِنَّ زَيْداً أدْرَكَ الإسْلامَ وأسْلَمَ، وقَدْ مَرَّ خَبَرُهُ هُنا. ومِمَّا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ هُنا عَنْ بِسْطَامٍ ما رَوَوْهُ، أنَّهُ كانَ يُكَنَّى بأَبِي الصَّهْباءِ، والصَّهْبَاءُ ابْنَتُهُ، والصَّهْباءُ عِنْدَ العَرَبِ مِنْ أسْماءِ الخَمْرِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِصُهْبَةِ لَوْنِها وهو ما يَمِيلُ إلى البَيَاضِ مِنْ حُمْرَةٍ. فقال أبو بكرِ بْنِ عَبْدَوْنَ مَسْتَخدِماً ما يُسَمِّيْهِ عُلَماءُ البَيَانِ (الجِناسَ المعْنَوِيَّ)، وكانَ قَدْ اصْطَبَحَ بِخَمْرٍ وتَرَكَ بَقِيَّةً مِنْها إلى المساءِ فَصارَتْ خَلّاً:

أَلا فِي سَبِيْلِ اللَّهْوِ كَأْسُ مُدَامَةٍ أَتَتْنا بِطَعْمٍ عَهْدُهُ غَيْرُ ثابِتِ
حَكَتْ بِنْتَ بِسْطامِ بْنِ قَيْسٍ صَبِيْحَةً وأَمْسَتْ كَجِسْمِ الشَّنْفَرَى بَعْدَ ثابِتِ

أيْ كانَتْ صَهْباءَ صَباحاً، وصارَتْ خَلّاً مَساءً، يُشِيْرُ بِذَلِكَ إلى كَلِمَةِ (خَلٍّ) بِمَعْنَى مَهْزُولٍ، مِنْ بَيْتِ الشَّنْفَرَى الأزْدِيِّ، الشاعِرِ الجاهليِّ الذي حَزِنَ عَلَى مَوْتِ خالِهِ ثابِتٍ، وهُوَ تَأَبَّطَ شَرّاً، فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

اسْقِنِيْها يا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو إنَّ جِسْمِيَ مِنْ بَعْدِ خالِي لَخَلُّ

(المترجم)

وقَوْلُهُ:

لَعَنَّكَ يَنْجابُ الظَّلامُ فَتَهْتَدِي ... إذا عَنْكَ فِي رَادِ الضُّحَى ذَهَبَ العَنْكُ

وقَوْلَهُ:

لِمَنَ تُؤاخِذُ بِالجِرِّي التي سَلَفَتْ ... وما تَحَرَّكَ حَتى حُرِّكَ الجَرَسُ

وقَوْلَهُ:

إذا قَصَّ آثارِي الغُوَاةُ لِيَحْتَذُوا ... عَلَيْها فَوُدِّي أنْ أَكُوْنَ قَصِيْصا

مِنَ الطَّيْرِ أوْ نَبْتاً بِأَرْضٍ مُضِلَّةٍ ... وإلاَّ فَظَبْياً في الظِّباءِ حَصِيْصا

فَفِي المِثَالِ الأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ مُخالَفَتانِ لِلْقَوَاعِدِ والأُصُولِ النَّحْوِيَّةِ هُما مَجِيْئُهُ (بِمِنْ) قَبْلَ صِيْغَةِ التَّفْضِيلِ (أفْرَس)، ومَنْعُهُ الاسْمَ العَلَمَ (بِسْطام) مِنَ الصَّرْفِ عَلَى حِيْنِ أَنَّهُ يَجِبُ صَرْفُهُ. فأمَّا المخَالَفَةُ الأُوْلَى فَقَدْ جاءَتْ في الشِّعرِ القَدِيْمِ، وأمَّا الثانِيَةُ فَقَدْ أَجازَهَا الكُوْفِيُّوْنَ مِنَ النُّحاةِ[1]. وفِي البَيْتِ الثَّانِي مِنْ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ حَذَفَ (المِيْمَ) مِنْ كَلِمَةِ (فَمْ) حَيْثُ لَمْ تَقَعْ (فَمٌ) هُنا وُقُوعَ الأَسْماءِ السِّتَّةِ[2]، أَمْ لَعَلَّ أبا العلاء هُنا أَرَادَ بِهَذا الاسْتِخْدَامِ النَّادِرِ الإِشَارَةَ إلى بَيْتِ العَجَّاجِ:

خَالَطَ مِنْ سَلْمَى خَياشِمَ وفَا ... صَهْبَاءَ خُرْطُوماً عُقَاراً قَرْقَفَا

وأَمَّا البَيْتُ الثَّالِثُ مِنْ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ فَحَوَى اسْتِخْدَامَيْنِ نادِرَيْنِ، أَحدُهُما صَوْتِيٌّ في قَوْلِهِ (لَعَنَّكَ) يُرِيْدُ (لَعلَّك) والثَّانِيُّ نَحْوِيٌّ تَرْكِيْبِيٌّ في قَوْلِهِ (يَنْجابُ الظَّلامُ فَتَهْتَدِي). وإنَّما اسْتَخْدَمَ أبو العلاء لَفْظَةَ (لَعَنَّك) لِيُنْشِئَ جِناساً في عَدَدٍ مِنْ أَلْفَاظِ هَذَا البَيْتِ في

---

[1]- خِزَانَةُ الأَدَب، لِلْبَغْدَادِيِّ، القاهِرَة، ١٣٤٨هـ، ج١، ص ١٤١ .

[2]- نفسه ج ٣، ص ٤٠٥؛ وحَاشِيَةُ الصَّبَّانِ عَلَى الأَشْمُوْنِي، القاهرة ١٣٢٩هـ، ج ١، ص ٦٥.

(عَنْكَ) و(العَنْكُ) و(لَعَنَّكَ). وأمَّا قَوْلُهُ (يَنْجابُ الظَّلامُ فَتَهْتَدِي) فَمِثَالٌ لِتَرْكِيبٍ نَحْوِيٍّ قُحٍّ، إذْ لَمْ يَشْتَمِلْ خَبَرُ (لَعَنَّ)، وَهُوَ (يَنْجابُ الظَّلامُ)، عَلَى أيِّ ضَمِيرٍ ظاهِرٍ أوْ مُضْمَرٍ يَرْبِطُهُ باسْمِها، بَلْ يُلْتَمسُ هَذَا الضَّمِيرُ الرَّابِطُ في الجُمْلَةِ التي تَلِي الخَبَرَ مُبَاشَرَةً، وهِيَ جُمْلَةُ (فَتَهْتَدِي). فالضَّمِيرُ (أنْتَ) المفْهُومُ فِي قَوْلِهِ (تَهْتَدِي) أوْ قُلْ حَرْفُ المضَارَعةِ هُنا وهُوَ التَّاءُ فِي أوَّلِ هَذَا الفِعْلِ يَعُودُ عَلَى الضَّمِيرِ (ك) أوْ حَرْفِ الخِطَابِ مِنْ (لَعَنَّكِ)؛ إذْ يَرَى أغْلَبُ النُّحاةِ جوازَ هَذَا التَّرْكِيبِ في حَالِ اسْتِخْدَامِ أدواتِ العَطْفِ (ثُمَّ) و(الفاءِ) و(الوَاوِ) فَجَازَ مَثَلاً قَوْلُكَ (عُمَرُ مَاتَ خالِدٌ فَرَثَاهُ)[1].

وفِي البَيْتِ الرَّابِعِ مِنْ هَذِهِ الأمْثِلَةِ مُخَالَفَةٌ أوِ اسْتِخْدَامٌ شاذٌّ يَكادُ يَكُونُ خَطأً نَحْوِيّاً، ويَظْهَرُ أنَّ أبا العَلاءِ كانَ قَدِ اضْطُرَّ لِهَذَا الاسْتِخْدَامِ الشَّاذِّ فِراراً مِنَ التَّقْطِيعِ المعِيبِ لِلبَيْتِ أوِ لِحُسْنِ إقامَةِ وَزْنِهِ. فَالمفْعُولُ بِهِ هُنا وهُوَ (مَنْ) مِمَّا لَهُ الصَّدَارَةُ، كَمَا يَقُولُ النَّحْوِيُّونَ، أيْ فلا بُدَّ مِنْ وُقُوعِها في أوَّلِ الجُمْلَةِ، ولِذَلِكَ لا تَحْتاجُ إلى التَّقْوِيَةِ باللاَّمِ. فاللاَّمُ المكْسُورَةُ في قَوْلِ أبي العلاء (لِمَنْ) حَشْوٌ أوْرَثَ ضَعْفاً في التَّرْكِيبِ. ومَعَ ذَلِكَ فَلَنا أن نَحْتَجَّ لِأبي العلاءِ فَنَزعُمَ أنَّ العَرَبَ الأَوَائِلَ كانُوا يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ اللاَّمَ المكْسُورَةَ (لِ) و(إلى) بتَوَسُّعٍ وأنَّهُمْ عِنْدَ أبي العلاءِ أوْثَقُ مِنْ جُمْهُورِ النُّحاةِ. وشِعْرُ الفَرَزْدَقِ يَفِيضُ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ[2]. وكَمْ تَرَدَّدَ فِي القُرْءانِ كَثِيراً مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى(يَهْدِ لَهُمْ)[3] بِزِيَادَةِ اللاَّمِ (لَ) وهِيَ مِنْ صُوَرِ اللاّمِ المكْسُورَةِ (لِ) . ولَكِنَّ ما سُقْناهُ مِنْ هَذا الاحْتِجاجِ لِأَبِي العلاء

---

[1]- نفسه، ج ١، ص ١٦١ .

[2]- النَّقائِض (طبعة بيفان) ليدن ١٩٠٧م، ج١، ص ١٢٧، البيت الثاني .

[3] سُورَةُ الأعْرَاف،الآية ١٠٠ (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)؛ وفي الآيَةِ ١٢٨مِن سُورَةِ طَه (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) وفي السَّجْدةِ، الآية ٢٦ مِنْها (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ).

لَيسَ بِقَوِيٍّ ولا مُقْنِعٍ. وأمَّا الاسْتِخْدَامُ الشَّاذُّ فِي الشَّاهِدِ الخامِسِ والأخِيْرِ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ في البَيْتَيْنِ الخامِسِ والسَّادِسِ مِنْ هَذِهِ الأبْياتِ، فَدَاخِلٌ في حَيِّزِ العَرُوضِ لا فِي حَيِّزِ النَّحْوِ. فَقَدْ كانُوا يَرَوْنَ أنَّ مِنْ غَيْرِ المهارَةِ أنْ يُعَلِّقَ الشَّاعِرُ بَيْتاً مِنْ أَبْياتِهِ بِبَيْتٍ آخَرَ، أيْ لا يَكُونُ هَذَا مُسْتَقِلاً في مَعْناهُ ولا مَبنَاهُ. وهَذَا مِنْ أبِي العلاء الشَّاهِدُ الوَحِيْدُ لِهَذا الاسْتِخْدَامِ في عُمُومِ اللُّزُومِ، وربَّما تَعمَّدَ أبو العلاء نَظْمَهُ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ تَقْلِيْداً مِنْهُ لِلشُّعَرَاءِ القُدَماءِ كالفَرَزْدقِ وعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيْعَةَ، اللَّذَيْنِ جاءَ هَذَا النَّمُوْذَجُ في شِعْرِهِما أحْياناً[1].

وقَدْ جَاءَ في اللُّزُومِيَّاتِ طائِفَةٌ مِنَ الكَلِماتِ والألْفاظِ لَمْ نَجِدْها في المعَاجِمِ المشْهُورةِ كاللِّسانِ والقَامُوسِ. ولا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ أبو العلاء قَدْ وَضَعَها مِن عِندِهِ وَضْعاً أو أنْشأَها إنْشَاءً، وعَسَى أنْ يَضُمَّها مُعْجَمٌ حَدِيْثٌ شامِلٌ يُوْضَعُ لِلُّغةِ العَرَبِيَّةِ؛ فَقَدْ كانَ أبو العلاء حُجَّةً ثِقَةً، ومَنْزِلةُ لُغَتِهِ لا تَقِلُّ عَنْ مَنْزِلةِ الشِّعْرِ القَدِيمِ لِغَرَضِ الاسْتِشْهادَيْنِ النَّحْوِيِّ واللُّغوِيِّ[2].

(ب) الأَوْزَانُ ونِظامُ التَّقْفِيَةِ:

كان أبو العلاء يَنْتَمِي إلى مَدْرَسَةِ العَرُوْضِيِّيْنَ القَدِيمَةِ الذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ سِوَى خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْراً في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، تَنْتَمِي إلى خَمْسِ دَوائِرَ عَرُوْضِيَّةٍ. والدَّائِرَةُ لَفْظٌ أطْلَقَهُ العَرُوضِيُّونَ عَلَى مَجْمُوعةٍ مِنَ البُحُورِ يَتَقَارَبُ بَعْضُها مِن بَعْضٍ عَلَى نَحْوٍ يَزِيدُ أوْ يَقِلُّ، وهُناكَ خَمْسٌ مِنْ هَذِهِ الدَّوَائِرِ رَتَّبُوها عَلَى هَذَا النَّسَقِ:

١- الدَّائِرَةُ الأُوْلَى: وتَشْتَمِلُ عَلَى بُحُورِ الطَّوِيْلِ والمدِيْدِ والبَسِيْطِ .

٢- الدَّائِرَةُ الثَّانِيَةُ: وتَشْتَمِلُ عَلَى بَحْرَيْ الوَافِرِ والكامِلِ .

---

[1]- دِيْوَانُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيْعَةَ بِتَحْقِيْقِ العِنابي، القاهرة ١٣٣٠هـ، ص ١٨٤، البيتان ٦-٧ .

[2]- هذه الكلماتُ ضمَّنَّاها المذكِّرةَ المضافةَ الأُولى الملحقةَ بهذا الكتابِ، ثم انظُرْ مُقدِّمةَ خِزانةِ الأدَبِ .

٣- الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ: وفِيْها الهَزَجُ والرَّجَزُ والرَّمَلُ .

٤- الدَّائِرَةُ الرَّابِعَةُ: وتَضُمُّ السَّرِيْعَ والمنْسَرِحَ والخَفِيْفَ والمضَارِعَ والمقْتَضَبَ والمجْتَثَّ.

٥- الدائِرَةُ الخامسةُ : وليسَ فيها إلا المتَقَارِبُ.

وقَدْ تَعَاطَى أبو العلاء بُحُوْرَ الدَّوَائِرِ الأُوْلَى والثَّانِيَةِ والرَّابِعَةِ، وأَمَّا بُحُورُ هَذِهِ الأَخِيْرَةِ فَلَمْ يَنْظِمْ عَلَيْها في سَقْطِ الزَّنْدِ كَثِيْراً.

ويُعَدُّ بَحْرُ الطَّوِيلِ في كُلِّ ضُرُوبِهِ وأنْواعِهِ أَفْخَمَ هَذِهِ البُحُورِ جَمِيعاً وأجَلَّها، وهُوَ الذِي آثَرَهُ أبو العلاء وأحَبَّهُ، وأمَّا المدِيدُ فَلَمْ يَنْظِمْ عَلَيْهِ شُعَراءُ العَرَبِيَّةِ فِي صُوْرَتِهِ الأَصْلِيَّةِ، ولَكِنْ وُجِدَتْ مِنهُ بَعْضُ أنْوَاعِهِ كَقَصِيْدَةِ مُهَلْهِلِ بْنِ رَبِيْعَةَ [1].

يا لَبَكْرٍ أَنْشُرُوا لِي كُلَيْباً   يا لَبَكْرٍ أيْنَ أيْنَ الفِرَارُ

وقَصِيْدَةِ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ[2]:

يا لُبَيْنَى أَوْقِدِي النَّارا   إنَّ مَنْ تَهْوَيْنَ قَدْ حَارا

وقَدْ كانَ هَذَانِ يُعَدَّانِ عُمُوماً فِي مُسْتَوَىً دُوْنٍ. وقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاء ثانِيَهُما في اللُّزُومِيَّاتِ مَرَّتَيْنِ[3].

وتُعَدُّ أنْوَاعُ البَسِيْطِ فِي المنْزِلَةِ الثَّانِيَةِ فِي الفَخَامَةِ والجَلالِ بَعْدَ ضُرُوبِ الطَّوِيْلِ الثَّلاثَةِ، فَتَعَاطاها أبو العلاء كَثِيْراً . لَكِنَّ ثَمَّةَ أنْوَاعاً مِنهُ تُعَدُّ دُوْناً فالنَّوْعُ السَّادِسُ مِنهُ، كَمَا فِي:

ويا بِلاداً مَشَى عَلَيْها   أُولُو افْتِقَارٍ وأَغْنِيَاءُ

نَدَرَ مَجِيْئُهُ فِي اللُّزُومِيَّاتِ.

---

[1] - سقط الزند، ج ١، ص ١٠ .

[2] - نفسه ج ٢، ص ١١٢ .

[3] - اللُّزُومِيَّات ج ٢، ص ١٠، وص ٢٢، البَيْتُ الأوَّل وما بَعْدَهُ .

والدَّائِرَةُ الثَّانِيَةُ لَيْسَ بِهَا سِوَى بَحْرَيْنِ اثْنَيْنِ أَكْثَرَ أبو العلاء مِنِ اسْتِخْدَامِهِما، وقَدْ جاءَ نَوْعَا الكامِلِ الأَدْنَى مَنْزِلَةً فِي بَعْضِ فُصُولِ اللُّزُومِ، أَعْنِي الخَامِسَ مِنهُ والثَّامِنَ. وهُناكَ مِثَالٌ وَاحِدٌ لَهُ مِنَ النَّوْعِ الخامِسِ في اللُّزُوم[1] يُشْبِهُ إلى حَدٍّ بَعِيدٍ وَزْنَ المرَقِّشِ المضْطَرِبَ في قَوْلِهِ:

هَلْ بِالدِّيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمْ　　　لَو كَانَ رَسْمٌ ناطِقٌ كَلَّمْ[2]

وَبعْضُ أَوْزَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ كانَتْ تُعَدُّ مُبْتَذَلَةً مسترْذَأَةً، وهِيَ المضَارِعُ والمقْتَضَبُ والمجْتَثُّ[3]. ولَمْ يَجِئِ الأَوَّلانِ فِي اللُّزُومِيَّاتِ قَطُّ، وأَمَّا المجْتَثُّ فَنَظَمَ عَلَيهِ مَرَّتَيْنِ وحَسْبُ[4]. وقَدْ أَكْثَرَ مِنَ النَّظْمِ عَلَى السَّرِيْعِ[5]. ويَبْدُو أَنَّ كُلّاً مِنَ المنْسَرِحِ والخَفِيْفِ عِنْدَ أَبي العلاء فِي مَنْزِلَةٍ دُوْنَ السَّرِيْعِ، إِذْ جاءَ نَظْمُهُ عَلَيْهِما أَقَلَّ مِمَّا نَظَمَ عليهِ. وأَمَّا المتَقارِبُ فَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ مَرَّةً عَلَى الأَقَلِّ فِي خَمْسةٍ وعِشْرِيْنَ فَصْلاً مِنَ اللُّزُومِ، فَلَمْ يَخْلُ مِنهُ إِلَّا الفُصُولُ السَّابِعُ والسَّادِسُ والعِشْرُونَ والسَّابِعُ والعِشْرُونَ. ولِهَذا البَحْرِ فِي وَزْنَيْهِ الأَوَّلِ

---

[1]- نفسه ج٢ ص ٣٢٢، السطر الثاني

[2]- المفَضَّلِيَّات، ص ٤٨٥ .

[3]- الفُصُولُ والغاياتُ ص ١٣١ و١٣٢. ويَعْنِي عَبْدَ الله الطَّيِّب قَوْلَ أَبِي العلاء فِي إِحْدَى غاياتِهِ: (وأَعْمَالِي فِي الخَيْرِ قِصارٌ كَثَلاثَةِ أَوْزَانٍ رَفَضَها المتَجَزِّلُونَ فِي قَدِيْمِ الأَزْمَانِ ولَا بُدَّ لِلْوَتِدِ مِنْ حَذٍّ والسَّبَبِ مِنْ جَذٍّ، ورُبَّ فَرِحٍ طُوِيَ طَيَّ المنْسَرِحِ، فارْحَمْنِي رَبِّ إذا صِرْتُ فِي الحافِرَةِ، كالمتَقارِبِ وَحِيْداً فِي الدَّائِرَةِ، وهَجَرَنِي العالَمُ هَجْرَ النُّونِ العُجُماتِ). والمتَجَزِّلُونَ هنا الفُصَحاءُ الذِيْنَ يَتَخَيَّرُونَ جَزْلَ الكَلامِ، والحافِرَةُ القَبْرُ، والأَوْزَانُ الثَّلاثَةُ هِيَ المضَارِعُ والمقْتَضَبُ والمجْتَثُّ، وقَلَّ ما وُجِدَتْ فِي أَشْعارِ المتَقَدِّمِيْنَ. والوَتِدُ فِي العَرُوضِ نَوْعانِ: مَجْمُوعٌ مِثْلُ سَمَا وعَلاَ (أي أنْ يَأْتِيَ مُتَحَرِّكانِ بَعْدَهُما ساكِنٌ) ومَفْرُوقٌ مِثْلُ فاقَ وسادَ (أيْ أنْ يَأْتِيَ مُتَحَرِّكانِ بَيْنَهُما ساكِنٌ). والحَذُّ فِي حُكْمِ العَرُوضِ قَطْعُ الوَتِدِ مِنَ التَّفْعِيلَةِ (مُتَفَاعِلُنْ) في الكَامِلِ. وأَمَّا السَّبَبُ فَخَفِيفٌ وثَقِيلٌ وجَذُّهُ قَطْعُهُ مِنْ أَصْلِهِ. (التُّرْجُمان).

[4]- اللُّزُوم ج١ ص ١١٥–٧، وص ١١٨، السَّطْرانِ الأَوَّل والثانِي.

[5]- سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنا لَكَ أَنَّ أَبا العلاء أَكْثَرَ مِنَ النَّظْمِ عَلَى السَّرِيْعِ فِي الدِّرْعِيَّاتِ مِنْ دِيْوَانِ سَقْطِ الزَّنْدِ، فَرَاجِعْ فَصْلَ الدِّرْعِيَّاتِ.

والثَّانِي سِحْرٌ مُوْسِيْقِيٌّ عَظِيمٌ فَأَكْثَرَ أبو العلاء مِن تَعَاطِيهما. وجاءَ أَحَدُ أوْزَانِهِ المسْتَرْدأةِ ولَكِنْ في مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ[1].

ولَمْ تَكُنِ الدَّائِرَةُ الثَّالِثَةُ بِمُحَبَّبَةٍ إلى أبِي العلاء، فَقَلَّمَا نَظَمَ عَلَى بُحُورِها، فاسْتَعْمَلَ الهزَجَ والرَّمَلَ في قِلَّةٍ قَلِيْلَةٍ مِنْ قَصائِدِ اللُّزُومِ. وكانَ أبو العلاء يَعُدُّ هَذَا الوَزْنَ أرْدَأَ أوْزَانِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ قاطِبَةً، ويَصِفُ مَنْ يَنْظِمُونَ عَلَى الرَّجَزِ بِأَنَّهُمْ أَقَلُّ الشُّعَراءِ حظّاً مِنَ الموْهِبَةِ والبَرَاعَةِ الشِّعْرِيَّةِ[2].

وقَدْ كانَ أبو العلاء يَنْتَقِي أوْزَانَهُ بِعِنَايةٍ فائِقَةٍ، ومِنْ غَيْرِ اليَسِيرِ عَلَيْنا أنْ نُحَدِّدَ المقَايِيْسَ التي تَكُوْنُ فِي ذِهْنِهِ حِيْنَما يَنْتَقِي أَوْزَانَهُ، ولا نَكادُ نَظْفَرُ إلى يَوْمِنا هَذَا بِدِراسَةٍ نَقْدِيَّةٍ تُعالِجُ مَسْأَلَةَ صِلَةِ المَوْضُوعِ بِالوَزْنِ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ[3]. ومَعَ ذَلِكَ لِلْمَرءِ هُنا أنْ يُبَيِّنَ عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّعْمِيْمِ أنَّ لِبَحْرِ الطَّوِيْلِ وُسْعاً أوْسَعَ مِمَّا لِلْبَسِيْطِ، لِأنَّ الأَوَّلَ تَعاطاهُ شُعَراءُ الغَزَلِ الأمَوِيُّوْنَ كَثِيْراً عَلَى حِيْنِ نَدَرَ اسْتِخْدَامُهُم لِلثَّانِي، ومِنَ الملاحَظِ المشْهُودِ أنَّ أَصْحَابَ الأُسْلُوبِ الفَخِيْمِ مِنَ الشُّعَرَاءِ أَمْثالِ النَّابِغَةِ وزُهَيْرٍ والأخْطَلِ كانُوا ذَوِي مَيلٍ إلى بَحْرِ البَسِيْطِ ووَلَعٍ بِهِ شَدِيْدٍ. وهَذَا الفَرْقُ الدَّقِيقُ بَيْنَ هَذَيْنِ البَحْرَيْنِ مَوْجُودٌ في اللُّزُومِ إذْ تَجِدُ أفْخَمَ التَّعْبِيْرِ عَنْ قَنَاعاتِ أبِي العلاء الشَّخْصِيَّةِ وتأمُّلاتِهِ في ذَاتِ نَفْسِهِ إنَّما تَجِيْءُ في بَحْرِ الطَّوِيْلِ[4]؛ عَلَى حِيْنِ أنَّ كَراهِيَتَهُ لِلنِّفاقِ والرِّياءِ والفَسَادِ والبَهْرَجِ قَدْ

---

[1]- انْظُرْ مَثَلاً ص٣٢٠ – ٣٢١ مِنَ الجُزْءِ الثَّانِي من اللُّزُومِ .

[2]- اللُّزُوم، ج١، ص ٤٣٤، ورسالة الغفران، ص ١١٥ .

[3]- أتَى أبُو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ بِشَيْءٍ مُخْتَصَرٍ أَشَدَّ اخْتِصَارٍ فِي هَذَا المَوْضُوعِ لا يَكادُ يَفِي بِشَيءٍ. انْظُرْ كِتابَهُ الصِّناعَتَيْنِ، اسْتانْبُوْلُ، ١٣٢٠ص ١٠٤.

[4] اللُّزُوم ج١ ص ٤٣ – ٧، وص ٢٣٢–٤؛ وج ٢، ص ٢٥٧ –٢٦٠ و٣٥٩ – ٣٦٢، و٣٦٦ – ٧ و ٣٦٨ –٩.

وَجَدَتْ فِي بَحْرِ البَسِيْطِ أَقْوَى مُعَبِّرٍ عَنْها عِنْدَهُ[1]. وأَمَّا (الكامِلُ) فَمَعَ أَنَّهُ أَقْصَرُ مِنَ (الوَافِرِ) إِلَّا أَنَّهُ يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِ ويَفْضُلُهُ فِي قُدْرَتِهِ التي تُمَكِّنُهُ مِنِ اسْتِيْعَابِ ضُرُوْبِ البَيَانِ وأَصْنَافِ الغِنَاءِ. وكانَ يَتعاطاهُ أَحْيَاناً بَعْضُ الشُّعَرَاءِ الكِبَارِ مِنْ ذَوِي الأُسْلُوبِ حَسَنِ الدِّيْبَاجَةِ مِنْ أَصْحَابِ مَذْهَبِ الفَخَامَةِ والأُبَّهَةِ أَمْثَالِ لَبِيْدٍ فِي القُدَماءِ وأَبِي تَمَّامٍ فِي العَبَّاسِيِّيْنَ، ولَكِنَّهُ بَحْرٌ أَكْثَرُ مُنَاسَبَةً لِلْبَساطةِ وأَقْرَبُ لِلَّعِبِ اللَّفْظِيِّ، كَمَا هُو الحالُ فِي شِعْرِ عَنْتَرَةَ والبُحْتُرِيِّ. وأَطْوَلُ قَصَائِدِ اللُّزُومِ التي حَوَتْ نَقْدَ أَبِي العَلاءِ لِلدِّينِ وأَفْكَارَهُ فِي الحَيَاةِ والمجْتَمَعِ البَشَرِيِّ إِنَّما جاءَتْ فِي (الوَافِرِ)[2]. وقَصَائِدُ الكَامِلِ فِي اللُّزُومِ بَدَّتْ وتَفَوَّقَتْ فِي التَّأَنُّقِ اللَّفْظِيِّ وفِي اسْتِخْدَامِ القِصَّةِ والحِكَايَةِ أَحْيَاناً[3]. وبَحْرَا الخَفِيفِ والمتَقارِبِ نَظَمَ عَلَيْهِما القُدَماءُ أَحْياناً لِأَغْرَاضِهِمْ المهِمَّةِ الجَادَّةِ، كَمَا فِي مُعَلَّقَتَيْ الحارِثِ والأَعْشَى، وكما فِي رَائِيَّةِ امْرِئِ القَيْسِ ومِيْمِيَّة رَبِيْعَةَ بْنِ مَقْرُوْمٍ[4].

---

[1]- نفسه ج ١، ص ٤٨ -٩، و٢٤٨ -٩، و٢٧٢-٣، و٣٨٣ -٤ و٣٨٥؛ وج ٢ ص ٩٦-٧، و١٠٠-١، و١٣١-٢، و١٧٧-٨.

[2]- نفسه ج ١ ص ١٦٣-٨، و١٨٨ - ١٩٤؛ وج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٥٠، و٣٥٠-٣، و٤٠٣-٧، و٤١٥-٨.

[3]- نفسه ج ٢ ص ٢٦٩-٧٠.

[4]- مُعَلَّقَةُ الحارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيِّ (آذنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ) عَلَى وَزْنِ الخَفِيْفِ، وأَمَّا الأَعْشَى مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ فَمُعَلَّقَتُهُ:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ   وهَلْ تُطِيْقُ وَداعاً أَيُّها الرَّجُلُ

فَلَيْسَتْ مِنَ الوَزْنَيْنِ المذْكُوْرَيْنِ فِي شَيْءٍ بَلْ عَلَى وَزْنِ البَسِيْطِ المخْبُونِ كَمَا تَرَى، ولَكِنْ يَبْدُو أَنَّ المؤَلِّفَ يُرِيْدُ بِها لَامِيَّتَهُ التي عَلَى بَحْرِ الخَفِيْفِ:

ما بُكاءُ الكَبِيْرِ بِالأَطْلالِ   وسُؤَالِي وما تَرُدُّ سُؤَالِي

وأَمَّا مِيْمِيَّةُ رَبِيْعَةَ بْنِ مَقْرُومٍ الضَّبِّيِّ، فَهِيَ التي عَلَى بَحْرِ المتَقارِبِ:

أَمِنْ آلِ هِنْدٍ عَرَفْتَ الرُّسُوما   بِحُمْرانَ قَفْراً أَبَتْ أَنْ تَرِيْمَا

ورَائِيَّةُ امْرِئِ القَيْسِ بْنِ حُجْرٍ التي يَعْنِيها المؤَلِّفُ عَلَى بَحْرِ المتَقارِبِ كَذَلِكَ وهِيَ:

أَحارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِرْ   ويَعْدُو عَلَى المرْءِ ما يَأْتَمِرْ

(المترجم).

ونَجِدُ في اللُّزُومِ قَصِيْدَتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ جِدّاً فِي كُلٍّ مِنْ هَذَيْنِ البَحْرَيْنِ[1]. وما عَدا بَحْرَ الطَّوِيْلِ فإنَّ المجْزُوءاتِ الصُّغْرَى لِكُلِّ البُحُوْرِ مَعَ البُحُورِ القَصِيرَةِ، أصْلَحُ شَيْءٍ لِضُرُوبِ الأوْصَافِ اللِّطافِ ومَوْضُوعاتِ الغَرامِ والغَزَلِ و(الزُّهدِيَّاتِ) أوِ القَصائِدِ الدِّيْنِيَّةِ. وفي دِيوانِ اللُّزُومِيَّاتِ، تَحُلُّ أفْكَارُ أبي العلاء القاتِمَةُ السَّوْداوِيَّةُ الطابَعِ وتَأمُّلاتُهُ الذَّاتِيَّةُ الغامِضَةُ مَحَلَّ ضُرُوبِ الوَصْفِ التَّقْلِيدِيَّةِ وقَصَصِ الغَرامِ ومُغامَراتِهِ؛ ولِذَلِكَ تَراها أكْثَرَ ما تَشِيْعُ وتَكْثُرُ في قَصائِدِهِ التي نَظَمَها عَلَى البُحُوْرِ القِصَارِ[2].

وطَرِيْقَةُ القَوَافِي في اللُّزُومِ مُعَقَّدَةٌ جِدّاً، لِأنَّها تَقُومُ عَلَى إلْزَامِ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ قُيُوداً لا تَلْزَمُها، وهِيَ:

١- اسْتِخْدَامُهُ كُلَّ حُرُوفِ المعْجَمِ في قَوافِيهِ .

٢- مَجِيءُ الرَّوِيِّ مِنْ كلِّ حُرُوفِ المعْجَمِ بِالحركاتِ الإعْرَابِيَّةِ الثَّلاثِ، ثُمَّ بِالسُّكُونِ، فَهَذَا يُعْطِيْنا ثَلاثَةَ عَشْرَ ومِائَةَ فَصْلٍ في اللُّزُومِ، يُمَثِّلُ كُلُّ فَصْلٍ مِنْها حَرَكَةً واحِدَةً مِنْ حَرَكاتِ الإعْرابِ مَعَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، أيْ أنَّ لِكُلِّ حَرْفٍ أرْبَعَةَ فُصُولٍ، فتأَمَّلْ.

٣- لُزُوْمُهُ نَوْعاً وَاحِداً مِنَ (الرِّدْفِ) مَتَى جاءَ في أيٍّ مِنْ قَصَائِدِهِ. وهُناكَ خَمْسَةُ أنْواعٍ مِنَ الرِّدْفِ[3]. فَرِدْفُ الألِفِ يَجِيْءُ دَائِماً فِي شَكْلِ (آ) كَمَا فِي (ناب) و(مُنْتَاب) وهَكَذَا؛ فلا عُسْرَ فِيها وعَادَةً ما يَلْزَمُها كُلُّ شاعَرٍ إذا جاءَتْ في قافِيَتِهِ. وأمَّا رِدْفا (الوَاوِ) و(اليَاءِ) فَلَرُبَّما وَقَعَا حَرْفَيْنِ صَحِيْحَيْنِ[4]، (فَعُلَماءُ الصَّوْتِيَّاتِ العَرَبُ لَمْ يَكُونُوا

---

[1]- اللُّزُوم ج١ ص ٥١-٦١؛ وج ٢ ص ٣٨٦-٩١.

[2]- نفسه ج ١ ص ١١٥- ٧، وص ٢٥٨- ٩؛ وج٢ ص١٩٠- ١، وص ٢٢٥ الأبْيَات ٥-١٠، وص٣٢٧ الأبْيَات٣ - ١٣.

[3]- انْظُرِ اللُّزُومَ ج١، ص ١٠ - ٤٣؛ وانْظُرْ كَذَلِكَ العُمْدَةَ ج١، ص ٩٩-١١١ .

[4]- أيْ حُرُوفاً صامِتَةً كَما يَقُولُ اللِّسانِيُّونَ المعاصِرُونَ (التُّرْجُمان).

يَعُدُّونَ هاتَيْنِ الصِّيغَتَيْنِ مِنْ حُرُوفِ اللِّيْنِ أَوِ المدِّ) كَمَا فِي قَوْلِكَ (أَوْبِ) و(رَيْب)[1]
وقَدْ كانَ مَجِيءُ مِثْلِ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ أو وُقُوعُهُما قافِيَتَيْنِ في قَصِيدَةٍ واحِدَةٍ يُعَدُّ عَيْباً
يُسَمُّوْنَهُ (السِّنَادَ)؛ ولِهَذا كَانَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ أنْ يَتَجَنَّبَ أبو العلاءِ هذا السِّنادَ في لُزُومِهِ.
وأَكْثَرُ ما يَجِيْءُ رِدْفا الوَاوِ واليَاءِ حَرْفَيْ عِلَّةٍ، كَمَا في (نُوْب) في حالَةِ رِدْفِ الوَاوِ،
و(نِيْب) في حَالةِ رِدْفِ الياءِ؛ ويَجُوْزُ لِلشُّعَراءِ عُمُوماً أنْ يَجِيْئُوا بِكَلِماتٍ نَحْوِ (نُوْب)
و(نِيْب) و(نَجِيْب) و(قَلِيْب) و(قُتُوْب) و(تَصُوْب) قَوَافِيَ في قَصِيدَةٍ واحِدَةٍ. وهذا بِلا
شَكٍّ أَثَارَةٌ وبَقِيَّةٌ مِنْ أَسَالِيبِ الجَوازاتِ الشِّعْرِيَّةِ المتَقادِمَةِ، مِمَّا كانَ يأْتِيْهِ الشُّعَرَاءُ في أيَّامِ
الجاهِلِيَّةِ، مِثْلِ (الإقْواءِ)، وهُوَ اخْتِلافُ حَرَكَةِ القافِيَةِ في القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ؛ فَهَذا مِمَّا لَمْ
تُصْفِهِ ذَائِقَةُ أَبِي العلاءِ فاطَّرَحَهُ، واخْتَارَ أنْ يَلْتَزِمَ بِضَرْبٍ واحِدٍ مِنْ ضُرُوبِ الرِّدْفِ مَتَى
جاءَ بِهِ في شِعْرِهِ. وهَذَا المذْهَبُ الذي ذَهَبَهُ اقْتَضَاهُ أَلَّا تَأْتِيَ مِثْلُ كَلِمَةِ (نِيْب) قافِيَةً إِلَّا
مَعَ أَمْثالِ (مُنِيب) و(جَنِيْب) و(شَنِيْب) وهَلُمَّ جَرّاً، وأنْ تَأْتِيَ مِثْلُ كَلِمَةِ (نُوْب) مَعَ
أمْثالِ (مَنُوْب) و(جَنُوْب) وما هُوَ عَلَى شاكِلَتِها مِنَ الكَلِمَاتِ، لَيْسَ غَيْرُ.

٤ – الْتِزَامُهُ بِحَرْفِ قافِيَةٍ ثانَوِيٍّ، أيْ بِحَرْفٍ آخَرَ مَعَ حَرْفِ القافِيَةِ الأصْلِيِّ، يُعَزِّزُ بِهِ هَذِهِ
القافِيَةَ ويُقَوِّي نَغَمَتَها؛ فَقَواعِدُ العَرُوضِ العَرَبِيِّ تَقْضِي أنْ يَلْتَزِمَ الشَّاعِرُ بِقافِيَتِهِ الأَخِيْرَةِ
وَحْدَهَا الْتِزاماً لَا تَساهُلَ فِيهِ. فَلِلْشَّاعِرِ مَثَلاً أنْ يَسْتَخْدِمَ أمْثالَ (رَادِمُ) مَعَ (ساجِمُ)،
ونَحْوَ (رادِمْ) مَعَ (ساجِمْ)، لَكِنَّ أبا العلاءِ طَلَبَ أنْ يُقَوِّيَ القَافِيَةَ عِنْدهُ ويُعَزِّزَ رَنِيْنَها
بِحَرْفٍ آخَرَ يَسْبِقُها مُبَاشَرَةً فالْتَزَمَ بِهِ مَعَ القَافِيَةِ الْتِزامَ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ بِالقَافِيَةِ، فَكَلِمَةُ
(رَادِمُ) عِنْدَه، لا يَجِيْءُ مَعَها في القَصِيدَةِ إِلَّا أمْثالُ (نادِمُ) و(هادِمُ) وما جَرَى مَجْراهُما؛
و(رَادِمْ) إِنَّما يَجِيْءُ مَعَها أمْثالُ (نادِمْ) و(هادِمْ) وأمْثالُهُما. ولِتَمَامِ التَّنْغِيْمِ وكَمَالِ التَّرَنُّمِ

---

[1]ـ قالَ أبو العلاء في هَذَا المقَامِ: (فإذا انْضَمَّ ما قَبلَ الوَاوِ، وانْكَسَرَ ما قَبْلَ الياء كَمُلَ فِيهِما اللِّيْنُ)؛ اللُّزُوم ص٢١ مِنْ ج١ (المترجم).

الْتزَمَ أبو العلاءِ أنْ تَكُونَ حَرَكَةُ الإعْرَابِ لِهَذِهِ القَافِيَةِ الثَّانَوِيَّةِ وَاحِدَةً في جَمِيعِ القَصِيدَةِ التي تَرِدُ فِيْها. فَكَلِمَةُ (حَسَدِ)، عَلَى هَذَا، يَجِبُ ألّا تَأْتِيَ مَعَ مِثْلِ (أَسُدِ) إذْ إنَّ هَذَا عَلَى قانُونِهِ شَبِيهٌ بِالإِقْوَاءِ أو عَدَمِ اتِّساقِ حَرَكَةِ حَرْفِ الرَّوِيِّ، لِأَنَّ (السِّينَ) في هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ قافِيَةٌ عِنْدَ أبِي العلاءِ مِثْلُ (الدَّالِ) فِيهِما. غَيْرَ أنَّ أبا العلاءِ أَبَاحَ لِنَفْسِهِ هُنا، اسْتِخْدَامَ الرُّخْصَةِ الشِّعْرِيَّةِ، يَقُوْلُ:

مازَالَتِ الرُّوْحُ قَبْلَ اليَوْمِ في دَعَةٍ	حَتَّى اسْتَقَرَّتْ بِحُكْمِ اللهِ فِي الجَسَدِ
فالآنَ تِلْكَ وهَذَا مِنْ قَذىً وأذىً	لا يُخْلِيانِكَ بَلْهَ الغِلِّ والحَسَدِ
قالَ الدَّنِيُّ لِمالٍ كانَ سَادَ بِهِ	لَأُكْرِمَنَّكَ لولا أنْتَ لَمْ أَسُدِ

فَحَرَكَةُ حَرْفِ القَافِيَةِ الثَّانَوِيَّةِ عِنْدَهُ لَيْسَتَ تَضْطَّرِدُ دَائِماً في القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ، فَلَرُبَّما رَأَى أبو العلاءِ أنَّهُ لَمَّا تَساهَلَ قُدَماءُ الشُّعَراءِ في ارْتِكابِ عَيْبِ (الإِقْوَاءِ) الحَقِيقِيِّ، حُقَّ لَهُ هُوَ أنْ يَأْتِيَ نَوْعاً خَفِيفاً مِنْ هَذَا الإِقْوَاءِ، فَذَلِكَ أَمْرٌ مُغْتَفَرٌ لَهُ وهُوَ يَرْكَبُ خُطَّةً بالِغَةَ العُسْرِ في أَمْرِ التَّقْفِيَةِ. ومَعَ أنَّ أبا العلاءِ لَمْ يَبْتَكِرْ أيّاً مِنْ هَذِهِ القُيُودِ، إِلَّا أنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ قَطُّ مَنْ جَمَعَها مَعاً لِيَتَّخِذَ مِنْها مَنْهَجاً صارِماً في طَرِيقَةِ التَّقْفِيَةِ لِدِيوانٍ كامِلٍ. وقَدْ ذَكَرَ أبو العلاءِ فِي مُقَدِّمَةِ لُزُومِهِ عَدَداً مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الشُّعراءِ فِي اسْتِخْدَامِ هَذِهِ القافِيَةِ الثانَوِيَّةِ، وعَدَّ كُثَيِّراً أَوَّلَ مَنْ تَعَاطَى ذَلِكَ فِي قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِهِ[1]. ولَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ شَاعِراً أُمَوِيّاً آخَرَ، هُوَ يَزِيدُ بْنُ ضَبَّةَ[2] الذِي يَبْدُو أَنَّهُ تَعاطَى اسْتِخْدَامَ القافِيَةِ الثَّانَوِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ كُثَيِّرٍ. ومَعَ هذا فَلَمْ يَغْشَ هذا النَّحْوَ مِنْ نَهْجِ القافِيَةِ ولَمْ يَتَّبِعْ طَرِيقَةً فَنِّيَّةً

---

[1] اللُزوم ج١، ص ٣٧-٣٨، وج ٢، ص ٢٦٥ .

[2] كانَ مِنَ الطَّائِفِ وكان مُقَرَّباً مِنَ الوَلِيْدِ الثَّانِي، أثِيْراً عِنْدَهُ، وكَان مُوْلَعاً بِالأَساليْبِ الصَّعْبَةِ والأَلْفاظِ الغَرِيْبَةِ المَهْجُورة، انْظُرِ الأغاني ج ٦ ص١٤٦-١٥٠.

مُتَّبعَةً حَتَّى بَعَثَها البُحْتُرِيُّ ثانِيَةً في إحْدَى قَصائِدِهِ الطِّوالِ[1]. وقَدْ بَدَأَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي اسْتِخْدَامِها فِي عَدَدٍ مُعْتَبَرٍ مِنْ أَبْياتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وجاءَ بِقَيدِ الْتِزامِ نَوْعٍ واحِدٍ (الرِّدْف). كَمَا أَنَّهُ أحْيَاناً أَلْزَمَ نفْسَهُ بِمِثْلِ هَذِهِ القُيُوْدِ، مِثْلِ الْتِزامِ حَرَكَةٍ إعْرَابِيَّةٍ واحِدةٍ قَبْلَ حَرْفِ القافِيَةِ[2].

وبِحُلُولِ القَرْنِ الرَّابعِ صَارَ إِلْزَامُ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ بِشَيءٍ مِنَ القُيُودِ لا يَلْزَمُها أمْراً شائِعاً يَتعاطَاهُ الشُّعَراءُ (أَوْ صارَ موْدَةً) فَقَدْ تَعاطَى الشُّعَراءُ هَذِهِ (المودَةَ) بِدافِعٍ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي التَّظَاهُرِ والتَّباهي وبِشَغَفٍ نَحْوَ الأساليبِ والأَدواتِ والحِيَلِ الشِّعْرِيَّةِ طَلَباً لِذاتِها، وقَدْ حاوَلَ ابْنُ دُرَيْدٍ أَنْ يَسْتَخْدِمَ كُلَّ حُرُوفِ المعْجَمِ بِقَوافِيهِ، وأَنْ يُبايِنَ ويُغايِرَ فِي حَرَكَةِ الإعْرابِ النِّهائِيَّةِ ما وَسِعَتْهُ المبايَنَةُ والمغايَرَةُ[3]. وجاءَ أبْو الفَتْحِ البُسْطِيُّ بِتَجْدِيدٍ في اسْتِخْدَامِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ القَوافِي الثَّانَوِيَّةِ، وذَلِكَ لِيَجْعَلَ الكَلِمَاتِ النِّهائِيَّةَ التي تَشْمَلُ القَوافِيَ مُتَطابِقَةً في الصَّوْتِ أَوِ النُّطْقِ، وهُوَ مِثالٌ نادِرٌ لِلجِناسِ التَّامِّ، مِثْلُ قَوْلِهِ[4]:

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الجَا مَ ولا جَامَ لَنَا

ما الَّذِي ضَرَّ مُدِيْرَ الـ رَّاحِ لَوْ جَامَلَنَا

وقَدِ اسْتَمَرَّ أُسْلُوْبُ لُزُوْمِ ما لا يَلْزَمُ، وهُوَ مُصْطَلَحٌ كانَ أُطْلِقَ عَلَى إِلْزَامِ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ ما لا يَلْزَمُها مِنَ القُيُودِ، فِي أَنْ يَشْهَدَ تَفَنُّناً بِمُخْتَلِفِ الطُّرُقِ حَتَّى بَلَغَ ذِرْوَتَهُ ومُنْتَهَاهُ أخِيراً فِي (مَقاماتِ الحَرِيْرِيِّ) وهُوَ عَمَلٌ عالِي الصَّنْعَةِ والدِّقَّةِ[5] ومَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، كانَ

---

[1] ديوانه، ج١، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

[2] – دِيْوَانُهُ بِتَحْقِيْقِ كامل كيلاني، القاهرة (الطبعة الأولى)، ص ١٨٦ – ٢١١، وانظر كذلك العمدة، ج١، ص١٠٢ .

[3] – رسالة الغفران، ص ٢٥، ١٦٥ .

[4] شَرْح الرُّعَيْنِيِّ لِبَدِيْعِيَّاتِ ابْنِ جَابِرٍ، المتحف البَرِيْطَانِيُّ، ص ٢٧

[5] – انْظُرِ المذَكِّرَةَ المضافَةَ الثَّانِيَةَ فِي ذَيْلِ هَذا الكِتابِ، فَهِيَ تَكْشِفُ عَنْ مَبْلَغِ تَأَثُّرِ الشُّعَراءِ مِنَ الأَجْيالِ التَّالِيَةِ بِأَبِي العلاء .

شَكْلُ اللُّزُومِ الذِي اسْتَخْدَمَهُ أبو العلاء أَصْعَبَ هَذِهِ الأشْكَالِ جَمِيعاً وأعْسَرَها. فَقَدْ كانَ بِلا رَيْبٍ أصْعَبَ اخْتِبَارٍ لِمَلَكَةِ الشَّاعِرِ ومَقْدِرَتِهِ مِنْ أيِّ مِنْ أَلْغازِ الحَرِيْرِيِّ. وقَدْ كانَ أبو العلاء في إلْزَامِهِ نَفْسَهُ بِقُيُودِهِ الأَرْبَعَةِ التي فَرَضَها عَلَيْهَا مُتَأَخِّراً جِدّاً بِمَا كانَ عَلَيْهِ مِنْ عاداتِ التَّزَهُّدِ وما كانَ يُؤْثِرُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ عَسِيرِ الأَشْيَاءِ وقاسِيها. ولَقَدْ كانَ الْتِزَامُ أبي العلاء بِمَا أَلْزَمَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ القُيُودِ نِعْمَةً لهُ وخَيراً؛ فَقَدِيماً جِدّاً عَلَى عَهْدِ أيَّامِ بَغْدادَ، كانَ شِعْرُهُ مَيْداناً لِبَداوَتِهِ ونَزواتِهِ المتَحَذْلِقَةِ، وحُبِّهِ الجَمِّ لِلصِّناعَةِ وأَدَواتِها وكَلَفِهِ بِأَلْفاظِ الجاهِلِيِّينَ. وتَحْتَوِي قَصائِدُهُ الرَّسائِلِيَّةُ والدِّرْعِيَّاتُ التي نَظَمَها بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ بَغْدَادَ أَصْعَبَ شِعْرِهِ وأَشَدَّهُ عُسْراً. ولَوْ كانَ أبو العلاء نَظَمَ اللُّزُومِيَّاتِ بِأُسْلُوبٍ لا مُبالاةَ فِيهِ، كَذَلِكَ الذِي نَظَمَ عَلَيْهِ أشْعارَهُ البَاكِرَةَ، مُسْتَمِرّاً فِي مُواجَهَةِ حَيْرَةِ الشَّاعِرِ إزْاءَ اللُّغَوِيِّ، والنَّاسِكِ إزْاءَ البُوْهَيْمِيِّ المسْتَهْتِرِ، لَكَانَ رُبَّمَا نَظَمَ أَعْوَصَ أشْعارِهِ وأشَدَّها اسْتِغْلاقاً واسْتِعْجَاماً. (فالفُصُولُ) التي أَمْلاها نَثْراً تَنْطَوِي عَلَى ضِعْفِ عُسْرِ أَعْسَرِ المقَطَّعَاتِ فِي شِعْرِهِ. ولَقَدْ كانَ لِمَا أَلْزَمَ بِهِ أبو العلاء نَفْسَهُ مِمَّا لَيْسَ يَلْزَمُها مِنْ هَذِهِ القُيُودِ لاسِيَّما القافِيَةَ الثَّانَوِيَّةَ أَثَرٌ مُلَطِّفٌ رَائِعٌ عَلَى ذِهْنِيَّتِهِ ومَقْدِرَتِهِ العَقْلِيَّةِ، فَقَدْ كُنَّ لَهُ كأنَّهُنَّ شَارَةُ وَلَاءٍ وطاعَةٍ يُؤَدِّيْها إلى مَعْبُودَيْهِ (اللَّعِبِ اللَّفْظِيِّ والتَّنَطُّسِ) مِمَّا سَاعَدَ عَلَى فَتْحِ طَرِيقٍ لَاحِبٍ أَمَامَ طَبْعِهِ الشِّعْرِيِّ وعَقْلِهِ المتَمَرِّدِ. فَأَكْثَرُ مَهارَتِهِ المفْرِطَةِ التي كانَ يُنْفِقُها فِيمَا قَبْلُ فِي صِناعَةِ أَصْنافِ التَّورِيَةِ والجِناسِ وضُرُوبِ اللَّعِبِ اللَّفْظِيِّ صارَ الآنَ يُوَجِّهُها نَحْوَ إيجادِ القَوافِي الصَّعْبَةِ أوِ الحُوْشِ مِنْها، عَلَى حِيْنِ تَرَكَ مَقْدِرَتَهُ فِي تَدَفُّقِها الاعْتِيادِيِّ تَعْمَلُ عَلَى إنْشاءِ البِناءِ العَامِّ لِأَبْياتِهِ وتَمْلَؤُها بِالتَّعْبِيرِ العاطِفِيِّ والفِكْرِيِّ، مِمَّا يَكُونُ الشَّاعِرُ المستَكِنُّ فِيهِ قَدْ صَفَّهُ فِي نَفْسِهِ لِيُدْلِيَ بِهِ.

ومَعَ هَذَا فَهَذِهِ القُيُودُ التي الْتَزَمَ بِها أبو العلاء رُبَّما آدَتْهُ أحْياناً وثَقُلَتْ عَلَيْهِ، حتَّى ذَهَبَ بَعْضُ مُنْتَقِدِيهِ مُشْتَطِّينَ إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ أبا العلاءِ كانَ صَيَّاداً يُطارِدُ كَلِماتِ القافِيَةِ. ومَعَ

أنَّ هَذا القَوْلَ قَدْ صَحَّ في شَأْنِ أبِي العلاء في بَعْضِ الحالاتَ، عَلَى نَحْوِ ما كانَ مَرَّ بِنا مِنْ تَقْيِيدِ أبِي العلاء لِكَلِمْاتِ القافِيَةِ في بَعْضِ أبْياتِ سَقْطِ الزَّنْدِ، إِلَّا أنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ بِمَكانٍ أنْ نُطْلِقَ هذا القَوْلَ على نَحْوٍ مِنَ التَّعْمِيمِ في حَقِّ دِيوانِ اللُّزُومِ جُمْلَةً هَكَذا، فَفِي فُصُولِهِ السَّهْلَةِ أمْثَلَةٌ قَلِيلَةٌ لِقَوافٍ مُكْرَهَةٍ بَعِيدَةِ المأْتَى، مِثْلُ قَوْلِهِ[1]:

فَهَلْ قَامَ مِنْ جَدَثٍ مَيِّتٌ   فَيُخْبِرَ عَنْ مَسْمَعٍ أوْ مَرَى

وقَدْ جاءَتْ أقْبَحُ قَوافِيهِ في حَالَتَيْنِ:

الحالَةُ الأُوْلَى حِيْنَما يَنْظِمُ عَلَى القَوافِي النَّادِرَةِ التي يَغْلُبُ أنْ يَتَحاماها الشُّعَراءُ كالذَّالِ والضَّادِ والطَّاءِ والظَّاءِ والغَيْنِ. فَكُلُّ الأبْياتِ التي نَظَمَها في فُصُولِ هَذِهِ الأَحْرُفِ إنَّما نَظَمَها طَلَباً لِذَاتِ القافِيَةِ، وأغْلَبُها لا يَعْدُو أنْ يَكُونَ هُرَاءً لا غَنَاءَ فِيهِ. وقَدْ أقَرَّ هُوَ في مُقَدِّمَتِهِ أنَّهُ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ نَظْمُها قَضاءً لِحَقِّ التَّأْلِيفِ ووَفَاءً لِمَا قَطَعَهُ مِنْ عِدَةٍ أنْ يَنْظِمَ دِيوانَهُ عَلَى كُلِّ حُرُوفِ المعْجَمِ[2]. ومِنْ عَجَائِبِ الأُمُورِ أنْ نَجِدَ أبا العلاءِ يَسْتَعِينُ بِأَشْعارِ القُدَماءِ ويَسْتَنْجِدُ بِها في نَظْمِهِ عَلَى هَذِهِ القَوافِي المهْجُورَةِ، وهُوَ ما كانَ نَعَاهُ عَلَى أبِي تَمَّامٍ وعابَهُ عَلَيْهِ[3].

والحالَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ حِيَنَما يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِمَا أَلْزَمَها بِهِ مِنَ القَيْدِ الثَّانِي مَعَ الأحْرُفِ التي تَصْعُبُ مَعَها صُعُوبَةً بالِغَةً، كَحَرْفِ الجِيْمِ. وهَذا كَثِيْراً ما دَفَعَ أبا العلاء إلى تَكْرارِ الألْفاظِ والمعَانِي عَلَى نَحْوٍ يُثِيرُ الغَيْظَ ويُورِثُ الضَّيْقَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ[4]:

المُلْكُ يَحْتَاجُ أعْوَاناً لِتَنْصُرَهُ   والمَوْتُ لَيْسَ إلَى شَيءٍ بِمُحْتَاجِ

---

[1]- نفسه، ج ١، ص ٧٥ .

[2]- نفسه، ج ١، ص ٤٣ .

[3]- رسالة الغفران، ص ١٦٥ .

[4]- اللزوم ج ١، ص ٢١٥ .

فَقَدْ تَكَرَّرَ مِنهُ ذَاتُ مَعْنَى هَذَا البَيْتِ وقافِيَتُهِ فِي قَوْلِهِ[1]:

العَيْشُ أفْقَرَ مِنَّا كُلَّ ذاتِ غِنَيً والمَوْتُ أغْنَى بِحَقٍّ كُلَّ مُحْتاجِ

ثُمَّ جاءَ بِذَاتِ القافِيَةِ وذَاتِ المعْنَى مُكَرَّراً فِي صَدْرِ هَذَا البَيْتِ[2].

هَذَا، وفَضْلاً عَمَّا ألْزَمَ أبو العلاء بِهِ نَفْسَهُ مِمَّا لَيْسَ يَلْزَمُها مِنَ القُيُودِ، فَإِنَّ بَعْضَ قَوافِيهِ مُتَفَرِّداتٌ في بابِها. فَكَثِيراً ما اسْتَخْدَمَ الضَّمائِرَ الظَّاهِرَةَ فِي أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ (أرْهَقَتْهُ) و(أزْهَقَتْهُ) وهَلُمَّ جَرّاً[3]. فَنَجِدُ الضَّمِيْرَيْنِ يَعْقُبُ أحَدُهُما الآخَرَ. وفِي بَعْضِ الحالاتِ تَجِدُ الضَّمائِرَ مَتْبُوْعَةً بِهاءِ السَّكْتِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: (خَنَسْنَهْ) و(لُطِسْنَهْ) وما إلَيْهِما[4]. فالهَاءُ هُنا لَيْسَتْ ضَمِيْراً بَلْ جاءَ بِها الشَّاعِرُ أَدَاةً صَوْتِيَّةً يُعَزِّزُ بِها صَوْتَ الفَتْحَةِ التي عَلى النُّوْنِ. بَلْ إنَّ الشَّاعِرَ أحْيَاناً يُلْحِقُ هاءَ الضَّمِيْرِ إلَى كَلِمَاتِ القافِيَةِ لِتُؤَدِّيَ لَهُ ذَاتَ الغَرَضِ الذِي تُؤَدِّيْهِ هَاءُ السَّكْتِ، مِثْلُ قَوْلِهِ (يُزَكُّوْنَهْ) و(تَحْكُوْنَهْ) وهَلُمَّ جرّاً[5]. وقَدْ مَرَّ بِنا أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ أخَذَ فِعْلاً، مِنْ قَبْلِ اللُّزومِ، فِي اسْتِخْدَامِ الضَّمائِرِ قَوَافِيَ لَهُ، وذَلِكَ عَلَى نَحْوِ ما رَأَيْنا فِي دِرْعِيَّاتِهِ[6]. فَلَمَّا أخَذَ فِي نَظْمِ اللُّزُوْمِ كانَ قَدْ صارَ مِنَ البَراعَةِ والحَذْقِ فِي اسْتِخْدَامِها بِمَكَانٍ. فَفَصْلُ (الهَاءِ) مِنَ اللُّزُومِ أَقَامَهُ صاحِبُنا عَلَى أحْرُفِ قَوافٍ مُعَقَّدَةٍ قِوامُها الضَّمائِرُ، كَمَا فِي (شَافِيهِ) و(كافِيهِ)[7] وقَوْلِهِ (يَرْكَبُوْهُ) و(تَجْذِبُوْهُ)[8]. وفِي فَصْلِ اليَاءِ مِنهُ، كَثِيْراً ما يَسْتَخْدِمُ الأَدَوَاتِ اللَّفْظِيَّةَ مِنَ

---

[1] - نفسه، ص ٢١٦ .

[2] - نفسه، ص ٢١٢ .

[3] - نفسه، ج٢، ص ٤٠٠ .

[4] - نفسه، ص ٣٥٠ .

[5] - نفسه، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

[6] - سقط الزند، ج ٢، ص ٢١٣ – ٢١٦ .

[7] - اللزوم، ج ٢، ص ٤٢٠ .

[8] - نفسه، ص ٤٠٣

الفَتْحَةِ الأَخِيْرَةِ وأَلِفِ المدِّ، مِثْلِ قَوْلِهِ (جَارَتَيَّا) و(دَارَتَيَّا) وما إِلَيْهِما[٣]، وهاءِ السَّكْتِ كَمَا فِي (ضُحَايَةْ) و(مُنْتَحَايَةْ)[١]، وهَذِهِ القَافِيَةُ الأَخِيْرَةُ هُنا تَدُلُّكَ عَلَى تَأَثُّرِهِ بِالقرءانِ الكَرِيْمِ. فأَنْتَ تَجِدُ فِي السُّوَرِ المكِّيَّةِ أَمْثالَ (مَالِيَهْ) و(سُلْطانِيَهْ)[٢]. ولِهَاءِ السَّكْتِ هُنا مَعَ الضَّمِيْرِ (ياءِ) سِحْرٌ مُوْسِيْقِيٌّ أَخَّاذٌ. وهُنا لا يَمْلِكُ المرْءُ إِلَّا أَنْ يَعْجَبَ كَيْفَ لَمْ يَشِعْ مِثْلُ هَذِهِ القافِيَةِ بَيْنَ شُعَرَاءِ الإِسْلامِ الأَوَائِلِ، ومِنَ الملاحَظِ أَنَّ مِنْ بَيْنِ الشُّعَراءِ الأَمَوِيِّيْنَ جَمِيْعاً لَمْ يَتَعاطَ أَمْثَالَ هَذِهِ القافِيَةِ إِلَّا ابْنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ[٣]، وهُوَ قُرَشِيٌّ. فَقَدْ تَعَاطَاها كَثِيْراً فِي أَشْعَارِهِ، ورُبَّمَا كانَ تَعاطِي هَاءِ السَّكْتِ هَذِهِ قافِيَةً أَمْراً مَقْصُوراً عَلَى قُرَيْشٍ دُوْنَ غَيْرِها مِنَ القبائِلِ.

ولَقَدْ كانَ بَشَّارٌ، الشَّاعِرُ العَبَّاسِيُّ، الأَوَّلَ الذِي أَدْرَكَ جَمَالَ كَلِمَاتِ القَافِيَةِ المنْتَهِيَةِ بِالضَّمَائِرِ، واسْتَخْدَمَها كَثِيْراً في أَشْعَارِهِ[٤]. ولَكِنْ لَمْ يَحْذُ حَذْوَهُ هَذا كَثِيْرٌ مِنَ الشُّعَراءِ. وقَدْ تَفَوَّقَ عَلَيْهِ أبو العلاء تَفَوُّقاً بَيِّناً وبَذَّهُ بِمَا لا يُدانِيهِ مِنهُ، وذَلِكَ بإِنْشائِهِ ضُرُوباً مُتَنَوِّعَةً مِنَ القَوافِي، وطَبْعِها بِطابَعِ الأَصَالَةِ. وجَمِيعُ قصائِدِهِ تَقْرِيباً التي تَعاطَى فِيها هَذِهِ القَوافِي البَدِيعَةَ تَقَعُ في مَصَافِ أَجْوَدِ أَشْعَارِهِ.

---

[١] -نفسه، ص ٤٣١ .

[٢] نفسه، ص ٤٣٤ .

[٣] هُوَ عُبَيْدُ اللهِ أوعَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيَّات، كانَ مِنْ أَنْصارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، الذي قَتَلَهُ الخَلِيْفَةُ الأَمَوِيُّ عَبْدُ الملِكِ بْنِ مَرْوَان، وقَدْ نَظَمَ ابْنُ قَيْس الرُّقَيَّات أمادِيْحَ عَدَداً فِي مُصْعَبٍ أَخِي ابْنِ الزُّبَيْرِ، وهَجَا الأَمَوِيِّيْنَ بِمُقَطَّعاتٍ عَدِيدَةٍ، ضَمَّنَها طَعْناً فِيهِمْ وقَذْعاً لَاذِعاً، ومَكَانُ ابْنِ قَيْسٍ فِي مَصَافِ كِبَارِ شُعَرَاء الإِسْلامِ الأَوَائِلِ، انظُرِ الأغانِي، ج٤، ص ١٥٥ – ١٥٨

[٤] - نفسه، ج٣، ص٣٥،و ٥٥

القسم (ج)

الأَشْكالُ الشِّعْرِيَّةُ فِي اللُّزُومِ

لَقَد حَار نُقَّادُ دِيْوَانِ اللُّزُومِ وهُمْ يَبْحَثُونَ طَبِيْعَةَ الأَشْكالِ الشِّعْرِيَّةِ المسْتَخْدَمَةِ فِيهِ، وعَلاقَتَها بِالقَصِيدة التَّقْلِيْدِيَّةِ، إذْ وَجَدُوا هذا الدِّيْوَانَ قَدْ خَلا مِنْ أشْكالِ القَصِيدَةِ المعْرُوفَةِ، كَقَصِيْدَةِ المدِيْحِ[1] والرِّثاءِ[2] والهِجَاءِ[3] والغزَلِ والخَمْرِيَّاتِ وهَلُمَّ جرّاً، فاضْطَرَبُوا فِي نَقْدِهِمُ اضطِراباً. وقَدْ أدّى بِهِمْ هَذَا الاضْطِرَابُ إلَى إطْلاقِ كَثِيرٍ مِنَ التَّعْمِيْمَاتِ والنَّظَرِيَّاتِ، مِنْها نَظَرِيَّتَانِ إحْدَاهُما لِلأُسْتاذِ مَرْجُلْيُوثَ والأُخْرَى لِلأُسْتاذِ نِيْكِلْسُوْنَ، وكِلْتَاهُما جَدِيْرَةٌ عِنْدَنا بِالنَّظَرِ هُنا والبَحْثِ.

نَظَرِيَّةُ مَرْجُلْيُوْثَ :

يَقُوْلُ الأُسْتاذُ مَرْجُلْيُوث في مُقَدِّمَةِ (رَسائِل أَبِي العلاء) في صفحةِ ٣٥، وقَدْ كانَ حَقَّقَها: (تَقُوْمُ قَصَائِدُ اللُّزُوْمِ فِي الغَالِبِ الأَعَمِّ عَلَى فِكْرٍ تَشَائُمِيِّ الطَّابَعِ وتَأَمُّلاتٍ زُهْدِيَّةٍ، عَلَى طَرِيْقَةِ أَبِي العَتَاهِيَةِ وأُسْلُوْبِهِ).

فَهَذَا القَوْلُ مِنهُ لَهُ مَعْنَىً ذُو شِقَّيْنِ:

---

[1] القَصِيدة الوَحِيْدَةُ في اللُّزُوْمِ التي يُمْكِنُ أنْ تُعَدَّ مَدْحاً لامِيَّةٌ قَصِيْرَةٌ (ج٢، ص ٢١٤) مَدَحَ أبو العلاءِ فِيها النَّبِيَّ (ص). وهِيَ:

دَعَاكُمْ إلَى خَيْرِ الأُمُورِ مُحَمَّدٌ ... ولَيْسَ العَوَالِي فِي القَنَا كالسَّوَافِلِ

[2] المرْثِيَةُ الوَحِيْدَةُ التي جاءَتْ فِي اللُّزومِ قَصِيْدَةٌ قَصِيْرَةٌ رَائِعَةٌ (ج٢، ص ٤١٤) بكا فيها مَوْتَ أَبِي القاسِمِ المغْرِبِيِّ، الوَزِيْرِ، وهِيَ:

لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيْلُ عَلَى الدَّهْـ ... ـرِ ولا ذُو العَبَالَةِ الدِّرْحَايَةْ

فَتَمَنَّى فِيها أنْ لَوْ مات قَبْلَهُ وتَعَجَّبَ كَيْفَ بَقِيَ بَعْدَهُ (إذْ كانَ أبو العلاء قَصِيراً نَحِيفاً، وأبو القاسِمِ طَوِيْلاً بَدِيناً). ورَأَى مَوْتَ صَدِيقِهِ خَسارَةً لِلعِلْمِ، وأَسِفَ ألّا يَأْخُذَ صَدِيقُهُ هَذَا مَعَهُ شَيْئاً مِنْ كُتُبِهِ الثَّمِينَةِ فِي رِحْلَتِهِ الرَّهِيبَةِ. ويَخْتِمُ الشَّاعِرُ القَصِيدَةَ بِأَمَلِهِ أنْ تُمَحِّي فَضَائِلُ أبي القاسم ما خَطَّهُ عَلَيْهِ الملَكانِ الحَفِيظانِ مِنْ ذُنُوبِهِ اليَسِيرَةِ.

[3] انْظُرْ قِسْمَ الهِجَاءِ في الفَصْلِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الكِتَابِ.

الأَوَّلُ: أنَّ أبا العلاء مُفَكِّراً يُشْبِهُ أبا العَتَاهِيَةِ .

الثَّانِي: أنَّ قَصائِدَ اللُّزُومِ حَذَا بِها صاحِبُها حَذْوَ زُهْدِيَّاتِ أَبِي العَتَاهِيَةِ، فَهِيَ لِذَلِكَ تُشْبِهُها مِنْ حَيْثُ الأُسْلُوْبُ.

وهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ رُبَّما أَغْرَتِ المرْءَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، لِأَنْ يَقْبَلَها ويُسِلِّمَ بِهَا، لِأَنَّ قَصائِدَ اللُّزُوْمِ، كَقَصَائِدِ أَبِي العَتَاهِيَةِ تَبْدُو عَلَى الأَغْلَبِ قائِمَةً عَلَى (التَّفَكُّرِ فِي الموْتِ، وتَقَلُّباتِ الأَقْدَارِ والحَثِّ عَلَى الصَّلاحِ والتَّواضُعِ). غَيْرَ أَنَّ ثَمَّةَ عَوَامِلَ تَمْنُعُنا مِنْ أَنْ نَعُدَّ أبا العلاء ضِمْنَ مَدْرَسَةِ أَبِي العَتَاهِيَةِ، مِنْ حَيْثُ مُقْتَضَى الأُسْلُوبِ الشَّعْرِيِّ، مَعَ أَنَّ شاعِرَنا قَدْ تَأَثَّرَ بِلارَيْبٍ بِأَبِي العَتَاهِيَةِ فِي مَعَانِيْهِ تَأَثُّراً كَبِيْراً. فَأَبُو العَتَاهِيَةِ كانَ يَنْظِمُ شِعْرَهُ كَأَنَّهُ واعِظٌ يَبْغِي أَنْ يُكَرِّرَ عَدَداً مَحْدُوْداً مِنَ المعَانِي فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَجْلِ أنْ يُحْدِثَ أَثَراً فِي نُفُوسِ سامِعِيْهِ، وقَدْ كانَ في هذا مُجَدِّداً. وكانَ يَسْتَخْدِمُ لُغَةَ الشَّارِعِ، ويَنْظُرُ إلى الأَنْماطِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِازْدِرَاءٍ. ولَمْ يَدْرُسِ النَّحْوَ قَطُّ ولاغَيْرَهُ مِنَ الْعُلُومِ إِبَّانَ شَبَابِهِ، وكانَ قَدْ نَشَأَ أَوَّلاً بَيْنَ السَّقَّائِيْنَ بِالبَصْرَةِ، ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى بَغْدادَ حَيْثُ تَعَلَّمَ نَظْمَ الشِّعْرِ وانْفَتَحَ عَلَى الثَّقافَةِ، ولا رَيْبَ أنَّ أُسْلُوْبَهُ السَّهْلَ يَنِمُّ عَنْ سُوْقِيَّةٍ[1].

وأَمَّا أَبُو العلاءِ فَكانَ يَنْظِمُ كما يَنْظِمُ الشَّاعِرُ العَرَبِيُّ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعْنِيّاً بِأَنْ يَعِظَ بِمَعْنًى واحِدٍ فِي كُلِّ قَصِيْدَةٍ أو مَعْنَيَيْنِ، بَلْ كانَ يَتَغَنَّى بِأَفْكارِهِ وعَواطِفِهِ عَلَى طَرِيْقَةِ العَرَبِ الحُرَّةِ الخالِصَةِ المتَدَاخِلَةِ[2]. ولَمْ تَكُنِ المعَانِي الجُزْءَ الأَهَمَّ فِي قَصِيْدَتِهِ أَوْ بِنائِهِ الشِّعْرِيِّ، كَمَا كانَتْ لِأَبِي العَتَاهِيَةِ. والأَلْفاظُ، كَذَلِكَ، كانَتْ قَدِ اكْتَسَبَتْ عِنْدَهُ قِيْمَةً تُعْجِزُ عَنْ تَقْدِيرِها. ولِأَنَّهُ كانَ يَنْظِمُ عَلَى نَهْجِ العَرَبِ السَّابِقِيْنَ فَقَدْ كانَتِ الجَزَالَةُ تُمَثِّلُ لَهُ عُنْصُراً

---

[1]- الأغاني، ج ٣، ص ١٢٦ .

[2]- أيْ دُوْنَ مُراعاةِ وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ.

أَسَاساً وجَوْهَرِيّاً لِلْجَمَالِ الشِّعْرِيِّ. ولَكِنَّ هَذِهِ الجَزَالَةَ هِيَ آخِرُ صِفَةٍ يُمْكِنُ أنْ تُلْتَمَسَ فِي أيٍّ مِنْ أشْعارِ أبِي العَتَاهِيَةِ.

نَظَرِيَّةُ الأُسْتاذِ نِيْكِلْسُوْن:

يَقُوْلُ نِيْكِلْسُون فِي كِتَابِهِ (دِرَاسَاتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ): (... وعَلَى نَحْوِ ما رَأَيْنا فَإنَّ النَّوْعَ المُتَلَئِبَّ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ هُوَ القَصِيدَةُ، غَيْرَ أنَّ المَعَرِّيَّ في دِيْوَانِهِ (اللُّزُومِ) قَدِ اطَّرَحَ هَذَا النَّمَطَ العَتِيقَ العَرِيقَ اطِّرَاحاً، مُسْتَبْدِلاً بِهِ نَظْماً مُبَسَّطاً، يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ عِدَّةُ أبْيَاتِهِ مِنَ البَيْتَيْنِ أوِ الثَّلاثَةِ إلى الثَّمَانِيْنَ أوِ التِّسْعِيْنَ)[1].

ولَنا هُنا أنْ نَسْأَلَ: هَلْ قصائِدُ أبِي العلاء في اللُّزُوْمِ نَظْمٌ مُبَسَّطٌ؟ وهَلْ يُمْكِنُ أنْ نَعُدَّها أشْكالاً طَرِيفَةً مُسْتَحْدَثَةً فِي الشِّعْرِ بِالنَّظَرِ إلَى الأنْماطِ التي كانَتْ تُوْجَدُ قَبْلَها؟ وهَلْ تُمَثِّلُ هَذِهِ القصائِدُ انْحِرَافاً كامِلاً عَنِ القَصِيدة العَرَبِيَّةِ القَدِيْمَةِ واطِّرَاحاً لَها؟

لَقَدْ أقامَ نِيْكِلْسُونُ نَظَرِيَّتَهُ عَلَى افْتِرَاضِ أنَّ القَصِيدَةَ عَلَى زَمانِ أبِي العلاء كانَتْ قَدْ آلَتْ إلَى زَوالٍ أوِ انْتَهَتْ إلى أَدَاةِ تَعْبِيْرٍ وَاهِيَةٍ مُنْحَلَّةِ العُرَى. يَقُولُ: (ولَمَّا تَلاشَتْ هَذِهِ الأَوْضَاعُ (يعنِي الإسْلامِيَّةَ) صارَتِ القَصِيدَةُ غَرِيْبَةً فِي زَمانٍ غَيْرِ زَمانِها وظُرُوفٍ غَيْرِ التي كانَتْ تَعْرِفُ، ولَكِنَّها مَعَ ذَلِكَ اسْتَمَرَّتِ الأَدَاةَ الرَّئِيْسَةَ لِلتَّعْبِيرِ، إذْ لَمْ تَكُنْ أيٌّ مِنَ الأنْوَاعِ الأُخْرَى الأَقَلِّ مِنْها قادِرَةً عَلَى أنْ تَسُدَّ مَسَدَّها)[2] . والحَقُّ أنَّ القَصِيدَةَ كانَتْ قَدْ مَرَّتْ خِلالَ تَارِيخِها الطَّوِيلِ بِمَراحِلَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الانْحِلالِ والضَّعْفِ. ولَكِنَّها كانَتْ دَائِماً تُطِلُّ مِنْ جَدِيدٍ ناضِرَةً طَلْقَةً قَدِ اسْتَعادَتْ قُوَّتَها وجِدَّتَها، مَهْمَا لَحِقَها مِنَ التَّغْيِيْرِ بَوَجْهٍ أَوْ بَآخَرَ. وقَدْ ثَارَ قِلَّةٌ مِنَ الشُّعَراءِ عَلَى العاداتِ المُتَّبَعَةِ فِيها أوْ حَاوَلُوا إحْدَاثَ تَغْيِيراتٍ جَوْهَرِيَّةٍ عَلَى أشْكالِها. فَأَمَّا أَصْحابُ الثَّوْرَةِ فَمِنْهُمْ أبُو العَتَاهِيَةِ، وأَمَّا أَصْحابُ

---

[1]- دراسات في الشعرِ الإسلامي، ص ٥١ .

[2]- دراسات في الشعرِ الإسلامي، ص ٤٩ .

التَّغْيِيْرِ، فَمِنهُمُ السَّيِّدُ الحِمْيَرِيُّ[1] ولَمْ تَكُنْ مُحاوَلاتُ الآخَرِيْنَ كأَبِي نُوَاسٍ وأَصْحَابِ مَدْرَسَتِهِ مِنَ الموالِي إِلَّا سَطْحِيَّةً ضَحْلَةً؛ فَهؤُلاءِ الشُّعَراءُ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ تَرَكُوا مَوْضُوعاتِ المقَدِّمَةِ التَّقْلِيدِيَّةَ واسْتَخْدَمُوا بَدَلاً مِنْها مَوْضُوعاتٍ شَبِيهَةً بِها، لا يَبْعُدُ أَنْ تَجْرِيَ هِيَ أَيْضاً مَجْرَى العُرْفِ والتَّقْلِيدِ. ومِثالٌ عَلَى هَذَا الذِي نَذْكُرُ بَيْتُ أَبِي نُوَاسٍ[2]:

عاجَ الشَّقِيُّ عَلَى رَسْمٍ يُسائِلُهُ   ورُحْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةِ البَلَدِ

فَأَنْتَ تَرَى هُنا أَنَّهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَحَلَّ الخَمَّارَةَ مَحَلَّ آثارِ الدِّيَارِ ودِمَنِها. فَمَعَ أَنَّ أبا نُوَاسٍ وأَصْحَابَهُ قَدْ حاوَلُوا التَّمَرُّدَ والثَّوْرَةَ عَلَى التَّقَالِيدِ القَدِيمَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ كانُوا مِنْ أَتْباعِها، وقَدْ حاوَلَ ابْنُ الرُّوْمِيِّ في بَعْضِ قصائِدِهِ أَنْ يُدْخِلَ أُسْلُوباً جَدِيداً. فَقَدْ حاوَلَ مُحاكاةً لِكُتَّابِ عَصْرِهِ، كالجاحِظِ مَثَلاً، أَنْ يُدْخِلَ في شِعْرِهِ العَرَبِيِّ ما يُمْكِنُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَيْهِ (التَّوْلِيْدَ الرُّوْمِيَّ). فَقَدْ نَظَمَ فِي مَوْضُوعاتٍ أَمْثالِ عِرْفَانِ الجَمِيْلِ والثَّأْرِ ورُكُوبِ البَحْرِ والسَّفَرِ بِالبَرِّ، وما إلى ذَلِكَ، يُطِيلُ النَّظْمَ أَحْيَاناً طُولاً عَظِيماً ويَسْتَخْدِمُ الأُسْلُوبَ التَّعْلِيْمِيَّ المدْرَسِيَّ المنْطِقِيَّ والجَدَلَ طلَباً لِلْجَدَلِ، ويَتَعَمَّدُ التَّمَسُّكَ بِمَبْدَإِ التَّماسُكِ ووَحْدَةِ المَوْضُوعِ[3]. ومَعَ أَنَّ أُسْلُوبَهُ هَذَا رَاقَ الكَثِيرَ مِنَ الشُّعَراءِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجْرِ مِنهُمْ

١- كانَ السَّيِّدُ الحِمْيَرِيُّ شاعِراً شِيْعِيّاً مِنَ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ، وكانَ مُنْقَطِعاً إلى عَلِيٍّ وآلِهِ، فَنَظَمَ كَثِيْراً مِنْ قَصائِدِهِ فِي مَدْحِهِمْ، عُرِفَتْ هَذِهِ القصائِدُ بِرَوْنَقِها وظَرَافَتِها وسُهُوْلَةِ أُسْلُوبِها، وكانَ عادَةً ما يَفْتَتِحُ قَصَائِدَهُ بِالنَّسِيْبِ، ثُمَّ يَأْخُذُ في مَدْحِ أَبْطالِهِ. وقَدْ صَوَّرَ مَعارِكَ عَلِيٍّ مَعَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ ومَرْحَبٍ الخَيْبَرِيِّ تَصْوِيراً حَيّاً ناطِقاً. ويَصِفُ كَثِيْراً مِنْ أَعْمالِ عَلِيٍّ الَّتِي تُظْهِرُ قُوَّتَهُ الخارِقَةَ، وقَدْ نَوَّهَ في شِعْرِهِ بِصَلاحِ عَلِيٍّ ووَرَعِهِ وثَبَّتَ حَقَّهُ فِي الخِلافَةِ بِعِبارَاتٍ قَوِيَّةٍ، وسَبَّ عُمَرَ وأَبا بَكْرٍ سَبّاً قارِصاً . وقصائِدُ السَّيِّدِ تَعُجُّ بِالقَصَصِ والحِكاياتِ، ونَفَسُ البُطُوْلَةِ والمَلْحَمَةِ فِيها ظاهِرٌ. وأَحْسَنَ صاحِبُ الأَغاني إِذْ نَبَّهَ (ج٧ ص ١٣) إِلَى أَنَّ أُسْلُوبَ هَذَا الشَّاعِرِ لا يُشْبِهُ الأُسْلُوبَ العَرَبِيَّ المعْرُوفَ عَلَى أَنَّ شِعْرَ السَّيِّدِ كانَ سَيِّءَ السُّمْعَةِ وكالمعْرَضِ عَنْهُ لِعَدَمِ تَوْقِيرِهِ صَحَابَةَ النَّبِيِّ، ويُمْكِنُ أَنْ تَجِدَ أَثَرَ السَّيِّدِ في الأَجْزاءِ البُطُوْلِيَّةِ مِنْ قَصَائِدِ المدِيْحِ النَّبَوِيِّ الشَّهِيْرَةِ كَقَصِيْدَةِ البُرْدَةِ. انْظُرْ قَصِيْدَةَ السَّيِّدِ الذَّهَبِيَّةَ، فِي (أَعْيَانُ الشِّيْعَةِ) لِلْعامِلِيِّ، دِمَشْقُ ١٩٣٩، ج ١٢ ص ٢٢٢-٢٣٦.

٢- ديوانه، ص ٢٦٦ .

٣- ديوانه، ص ٢٥٨- ٢٦٦ .

عَلَى سَنَنِهِ ويُحاكِهِ إِلَّا القَلِيلُ. وقَدْ كانَ لِأبي العلاءِ خاصَّةً رَأْيٌ لا يُرْضِي هَذا الشَّاعِرَ بِسَبَبِ ضَعْفِ لَفْظِهِ ومَسَالِكِهِ السَّخِيفَةِ[1] .

والحَقُّ أنَّ تَقَالِيدَ القَصِيدَةِ كانَتْ قَدْ تَغَلَّبَتْ عَلَى الهَجْمَاتِ التي شَنَّها عَلَيْها الموالِي، فَهِيَ لَمْ تَسْتَوْعِبْ أصْنَافَ التَّجْدِيدِ والإضَافاتِ التي جاءَ بِها هَؤُلاءِ الأغْرابُ عَنْها فَحَسْبُ، بَلِ اسْتَطاعَتْ أنْ تَحْتَفِظَ بِمُقَوِّماتِ شَخْصِيَّتِها القَدِيْمَةِ وأُسُسِها، وهِيَ:

- مَعْنَى الوَحْدَةِ ورُوْحُها غَيْرُ الظَّاهِرِ القائِمُ عَلَى التَّعَمُّقِ اللَّفْظِيِّ والعاطِفِيِّ لا المَوْضُوعِ.
- والصِّفَةُ الشَّخْصِيَّةُ التي تَتَّضِحُ أحْياناً فِي مِثْلِ مَوْضُوعِ الفَخْرِ، وتَسْتَخْفِي أحْياناً أُخرَى فِي مِثْلِ مَوْضُوعاتِ الحَنِيْنِ.
- والحِرْصُ عَلَى التَّأَنُّقِ فِي الأُسْلُوبِ وذِكْرُ الأماكِنِ والمَوَاضِعِ والأَعْلامِ.

وكُلُّ هَذِهِ الأَوْصافِ لِلْقَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ مَوْجُودٌ فِي اللُّزُومِ، وهذا كافٍ لِإبْطالِ نَظَرِيَّةِ نِكِلْسُونَ القائِلَةِ بِأَنَّ مُحْتَوى اللُّزُومِ نَظْمٌ مُتَبَسِّطٌ غَيْرُ جادٍّ .

ويَحْسُنُ بِنا هُنا أنْ نَسْتَشْهِدَ بِبَيْتٍ مِنَ اللُّزُومِ يُظْهِرُ وَلاءَ أَبِي العلاءِ لِتَقَالِيْدِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ ومَنْهَجِها، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ[2]:

ويُعْجِبُنِي بَعْدَ النُّهَى قَوْلُ قائِلٍ　　　سَقَى بارِقاً مِنْ جانِبِ الغَوْرِ بارِقُ

وعَلَى نَحْوِ ما رَأَيْنا، فَقَدْ عَجَزَتْ كُلٌّ مِنْ نَظَرِيَّتَيْ مَرْجُلْيُوثَ ونِكِلْسُونَ أنْ تُفَسِّرا الطَّبِيعَةَ الحَقِيْقِيَّةَ لِلأَشْكالِ الشِّعْرِيَّةِ فِي اللُّزُومِ. وقَدْ تَبَيَّنَ لَنا أنَّ قَصائِدَ هَذا الدِّيْوانِ لَمْ يُحْذَ بِها حَذْوَ زُهْدِيَّاتِ أَبِي العَتاهِيَةِ، عَلَى ما ذَهَبَ إِلَيْهِ الأَوَّلُ، ولا هِيَ تُمَثِّلُ اطِّرَاحاً كامِلاً

[1] - رسالة الغفران، ص ١٦١ .

[2] - اللزوم، ج ٢، ص ١١٩ .

لِتَقالِيْدِ القَصِيدَةِ، عَلَى مَذْهَبِ الأَخِيرِ. ولِذَلِكَ سَنَأْخُذُ نَحْنُ فِي دِرَاسَتِها عَلَى هَدْيِ الأُصُولِ القَدِيْمَةِ التي تَعُدُّ كُلّاً مِنَ القِطْعَةِ والقَصِيدة الشَّكْلَيْنِ المعْتَادَيْنَ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ.

لَقَدْ كانَ كُلٌّ مِنَ (القِطْعَةِ) و(القَصِيدَةِ) مُصْطَلَحَيْنِ يُسْتَخْدَمانِ يُفَرِّقُ بِهِما بَيْنَ القَصِيرِ مِنَ النَّظْمِ الشِّعْرِيِّ والطَّوِيلِ مِنهُ، فَكُلُّ نَظْمٍ تَجاوَزَ العَشَرَةَ أَبْياتٍ فَهُوَ (قَصِيْدَةٌ) والقِطْعَةُ ما كانَ دُوْنَ العَشْرَةِ مِنهُ. وقَدْ كانَتِ القِطْعَةُ عُمُوماً أَكْثَرَ تَحَرُّراً مِنَ القُيُودِ مِنَ القَصِيدَةِ وأَكْثَرَ عَفْوِيَّةً، نَظَراً لِقِصَرِ القِطْعَةِ، فَمَا كانَ يَحْكُمُها مِنَ القَوَاعِدِ المرْعِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ إِلّا القَلِيْلُ، وكانَتْ أَصْلَحَ شَيْءٍ لِلدُّعابَةِ والظَّرْفِ والنُّكْتَةِ والجِدَالِ وأَقْوالِ الحِكْمَةِ، والتَّأَمُّلاتِ الشَّخْصِيَّةِ القَصِيرَةِ. وأَمَّا القَصِيدَةُ فَمَعَ كَوْنِها أَكْثَرَ تَقَيُّداً بِالتَّقالِيْدِ والشَّكْلِيَّاتِ العُرْفِيَّةِ، إِلّا أَنَّها تُعْطِي مَجالاً أَوْسَعَ لِلتَّعْبِيْرِ المطَوَّلِ المفَصَّلِ. وكانُوا يَرَوْنَ أَنَّ مِنْ آيَةِ تَمَكُّنِ الشَّاعِرِ وقُوَّةِ شاعِرِيَّتِهِ أَنْ يَنْظِمَ القِطَعَ الجِيادَ كَمَا يَنْظِمُ القَصَائِدَ [1].

فَهُناكَ كَثِيْرٌ مِنْ قَصَائِدِ اللُّزُومِ مِمَّا يَدْخُلُ حَقّاً في مَعْنَى القِطْعَةِ وهِيَ:

١. القِطَعُ القَصِيْرَةُ فِي الحِكْمَةِ، وتَتَرَاوَحُ بَيْنَ البَيْتَيْنِ إِلَى الثَّمانِيَةِ، وجَمِيْعُها وَحْدَةٌ مُؤْتَلِفَةٌ فِي ذَاتِها، تُعَبِّرُ إِمَّا عَنْ فِكْرٍ رَاشِدٍ أَوْ عَنْ نَصْيحةٍ فِي الأَخْلاقِ أَوْ وَصِيَّةٍ يَنْحُو بِها مَنْحَى المثَلِ، مِثْلُ القِطْعَةِ التِي خاطَبَ بِها تِلْمِيْذاً:

العِلْمُ كالقُفْلِ إِنْ أَلْفَيْتَهُ عَسِراً   فَخَلِّهِ ثُمَّ عَاوِدْهُ لِيَنْفَتِحَا

وقَدْ يَخُوْنُ رَجاءً بَعْدَ خِدْمَتِهِ   كالغَرْبِ خانَتْ قُوَاهُ بَعْدَما مَتَحَا

وتِلْكَ التِي خاطَبَ بِها شَخْصاً يَقْرِي ضَيْفاً [2]:

لا تَسْأَلِ الضَّيْفَ إِنْ أَطْعَمْتَهُ ظُهُراً   بِاللَّيْلِ هَلْ لَكَ فِي بَعْضِ القِرَى أَرَبُ

---

[1]- العُمْدَة ج ١، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

[2]- اللُّزوم ج ١، ص ٢٢٩، وص ٨٥ .

فإنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلٍ يُلَقِّنُهُ   لا أشْتَهِي الزَّادَ وهْوَ السَّاغِبُ الحَرِبُ

٢. القِطَعُ الظَّرِيْفَةُ الأنِيْقَةُ التي هاجَمَ بِها الفاسِدِيْنَ والذِيْنَ يَتَّخِذُونَ الدِّيْنَ سِتَاراً في حَيَاتِهِمْ وكَسْبِهِمْ مِنَ الزُّعَماءِ والقَادَةِ الدِّيْنِيِّيْنَ، وعُلَماءِ العقائِدِ وأوْغَادِ المنَجِّمِيْنَ، ولا نَجِدُ هُنا لِلتَّأنُّقِ اللَّفْظِيِّ أهَمِّيَّةً تُذْكَرُ، بَلْ أكْثَرُ ما اسْتَخْدَمَ لُغَةَ المنْطِقِ والفِقْهِ والجَدَلِ. وأُسْلُوْبُ هَذِهِ القِطَعِ يَغْلُبُ عَلَيْهِ الإيْجازُ والحِدَّةُ. ومِنْ أمْثِلَتِها القِطْعَةُ التي تَحَدَّثَ فِيْها عَنْ أبِي حَنِيْفَةَ والشَّافِعِيِّ[1]:

أجَازَ الشَّافِعِيُّ فَعَالَ شَيءٍ   وقالَ أبوحَنِيْفَةَ لا يَجُوْزُ
فَضَلَّ الشِّيْبُ والشُّبَّانُ مِنَّا   وما اهْتَدَتِ الفَتاةُ ولا العَجُوْزُ
لَقَد نَزَلَ الفَقِيْهُ بِدَارِ قَوْمٍ   فَكانَ لِأمْرِهِ فِيهِمْ نُجُوزُ
ولَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهاءِ حَبْساً   إذا ما قِيْلَ لِلأُمَناءِ: جُوْزُوا[2]

والقِطْعَةُ التي تَحَدَّثَ فِيْها عَنِ الخالِقِ والزَّمانِ[3]، وتِلْكَ التي ذَكَرَ فِيْهَا الوَاعِظَ الفاسِدَ الذِي يَغُرُّ النَّاسَ ويَغُشُّهُمْ لِلْحُصُولِ عَلَى المالِ لِيُنْفِقَهُ في الغِوَايَةِ والفَسَادِ[4]، ومَطْلَعُها:

---

[1]- نفسه ص ٤٣٢ .

[2] كانَ أبو العلاءِ شَدِيدَ الاتِّهامِ لِلْفُقهاءِ. وهو هنا يَجْعَلُ الفُقَهاءَ في مُقابِلِ الأُمَناءِ إذ يَتَّهِمُهُمْ بِعَدَمِ الأمانةِ ويُحَمِّلُهُمْ مَسْؤُولِيَّةَ ضَياعِ الحَقِّ، فهو لا يأمَنُ ألَّا يَجُوزَ هؤلاءِ الفُقَهاءُ يومَ القيامةِ الصِّراطَ إذا أُذِنَ لِأهْلِ الأمانةِ بِجَوازِهِ. وهَذِهِ القِطْعَةُ تُمَثِّلُ قِطاعاً كبيراً مِنْ نَقْدِ أبي العلاءِ الاجتماعِيِّ الدِّيْنِيِّ، ودِيوانُ اللُّزومِ مَلِيْءٌ بِهَذا الضَّرْبِ مِنَ النَّقْدِ. وفي القِطْعَةِ التالِيَةِ يَتَّهِمُهُم بِأنَّهُمْ أهْلُ أغْراضٍ ومَصَالِحَ في عِلْمِهِمْ ودَعْوَتِهِمْ. وأظُنُّ أنَّ هذا مِنهُ بَعْضُ سَبَبِ تَعْوِيلِهِ عَلَى عَقْلِهِ واعْتِصامِهِ بِهِ. وقَدْ ساقَ عبد اللهِ الطَّيِّب نَفْسُهُ نَقْداً لِهَؤُلاءِ القَوْمِ قَرِيْباً مِنْ هَذا في كِتابِهِ الذي طُبِعَ بُعَيْدَ مَوْتِهِ بِعُنْوانِ (نظرات في المجتمع الإسلامي) عَلَى نَحْوِ ما بَيَّنَّا في مُقَدِّمةِ المترجم، (التُّرْجُمان).

[3]- اللُّزُوم، ج٢، ص ١٧٩ .

[4]- نفسه، ج١، ص ٦١ .

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وأنْتَ حُرٌّ   بِصاحِبِ حِيْلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ

٣. قِطَعُ التأمُّلاتِ والتَّفكُّرِ، ويَسُودُ كُلّاً مِنْها مَوْضُوعٌ واحدٌ، وعادَةً ما يُقَدِّمُ المَوْضُوعَ في أَوَّلِ بَيْتٍ مِنَ القِطْعَةِ ويَخْتِمُهُ في البَيْتِ الأخِيْرِ. هَذَا وتَجِدُ مِنَ جَلالِ اللَّفْظِ وفُحُولَتِهِ في هَذَا النَّوْعِ مِنَ القِطَعِ ما يُذَكِّرُ بِالقِطَعِ القَصِيْرَةِ فِي الحَمَاسةِ. ويُمْكِنُكَ أنْ تَلْتَمِسَ أمْثِلَةَ هَذا النَّوْعِ مِنَ القِطَعِ فِي قِطْعَةِ الغُرَابِ[1] والقِطْعَةِ التي يِتَحَدَّثُ فِيْها عَنْ أهْلِ الميِّتِ[2] وتِلْكَ التي وَصَفَ فِيْها آثارَ السُّكْرِ وعَوَاقِبَهُ[3] .

وهُناكَ كَثِيْرٌ مِنْ شِعْرِ اللُّزُومِ يَدْخُلُ حَقّاً، كَذَلِكَ، فِي مَعْنَى القَصِيدَةِ وأقْصَرُ هَذِهِ القَصَائِدِ بَلَغَ نَحْواً مِنَ العِشْرِيْنَ بَيْتاً. وقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاء في أغْلَبِ هَذِهِ القَصائِدِ التَّصْرِيْعَ[4]. وَتَناوَلَ فِيْها أغْلَبَ الموْضُوعاتِ ولَكِنَّهُ عَالَجَ في بَعْضِهِنَّ – وعادَةً ما كُنَّ مِنْ ذَوَاتِ الطَّابَعِ الزُّهْدِيِّ – مَوْضَوعاً واحِداً مِثْلَ قَضَاءِ اللَّيْلَةِ واليَوْمِ، ووَشْكِ زَوالِ الحَيَاةِ، وحَتْمِيَّةِ الموْتِ، وضَعْفِ الإنْسانِ وعَجْزِهِ. وفِي بَعْضِ القصائِدِ تَحْتَلُّ الموْضُوعاتُ الأُخْرَى الجُزْءَ الأكْبَرَ مِنَ القَصِيدَةِ، كما في مِيْمِيَّةِ (الدِّيْكِ) فَقَدْ بَلَغَتْ أبْياتُها أرْبَعِيْنَ ونَيِّفاً، عِشْرُونَ مِنْها في مَدْحِ الدِّيْكِ[5] وهِيَ التي أَوَّلُها:

أيَا دِيْكُ عُدَّتْ مِنْ أيادِيْكَ صَيْحَةٌ   بَعَثْتَ بِها مَيْتَ الكَرَى وهْوَ نائِمُ

---

[1]- نفسه، ص ٣٨٥ .

[2]- نفسه، ص ٢٦٨ .

[3]- نفسه، ص ١٤٤ .

[4]- وهُوَ المجِيْءُ بِالقافِيَةِ فِي صَدْرِ البَيْتِ الأَوَّلِ وعَجُزِهِ جَمِيْعاً، وانْظُرِ العُمْدَةَ ج ١ ص ١١٤ .

[5]- اللُّزُوم ج٢، ص٢٥٧-٢٦٠

ولَكِنْ ظَلَّ البَيْتُ في نَظَرِ أبي العلاءِ الوَحْدَةَ الوَحِيدَةَ ذَاتَ الأَهَمِّيَّةِ الكُبْرَى، جَرَى عِنْدَهُ ذَلِكَ مَجْرَى القاعِدَةِ العامَّةِ.

وفي القصائِدِ التي تَنْتَظِمُها وحَدْةُ المَوْضُوعِ، لا يَجِدُ المرْءُ صِفَةَ التَّماسُكِ لا فِي المعَانِي ولا في الأَخْيِلَةِ والصُّوَرِ. فالأَبْياتُ التي تَحْمِلُ المعانِي لِمَوْضُوعٍ مِنَ المَوْضُوعاتِ العامَّةِ تَتَوَالَى أحْياناً باتِّصَالٍ وَثِيْقٍ ولَكِنْ فِي أغْلَبِ الأحيان يَنْتَفِي هذا الاتِّصَالُ الوَثِيْقُ. ويَشْعُرُ المرْءُ في القصائِدِ الطِّوَالِ التي تُعالِجُ شَتَّى المشْكِلاتِ والموْضُوعاتِ اتِّجاهاً نَحْوَ التَّصْنِيفِ، أوْ مَسْحَةً مِنهُ، دُوْنَ أنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُحاوَلَةً جادَّةً نَحْوَهُ، فَقَدْ يَأْتِي البَيْتانِ أوِ الثَّلاثَةُ قَبْلَ مَوْضِعِها، أوْ تَتَوَسَّطُ مَوْضُوعاتٍ لا تَمُتُّ إلَيْها بِصِلَةٍ. فَهَذَا يَرِدُ كَثِيْراً جِدّاً، ولِهَذَا لا يُمْكِنُ أنْ يُقالَ فِي حَقِّ القصائِدِ الطِّوَالِ إنَّهُنَّ مُقَسَّماتٌ إلَى أقْسَامٍ.

وسَنُحاوِلُ هُنا عَرْضاً عَجِلاً لِبَعْضِ قصائِدِ أبي العلاءِ، فَسَنُوْرِدُ لَكَ تَلْخِيْصاً لِمَوضُوعِ القَصِيدَةِ مَعَ بيَانِ عَدَدِ الأبْياتِ التي عالجَتْهُ. ونَزْعُمُ أنَّ هَذَا العَرْضَ كَفِيْلٌ بِأَنْ يُعْطِيَ بَياناً بِالأَجْزَاءِ التي تُؤَلِّفُ قَصِيْدَةَ أبي العلاء والطَّرِيْقَةَ الفَنِّيَّةَ التي أَخَذَ بِها[1].

القَصِيدة الأُوْلَى:

وهِيَ اللامِيَّةُ:

كَمْ تَنْصَحُ الدُّنيَا ولا نَقْبَلُ ... وفائِزٌ مَنْ جَدُّهُ مُقْبِلُ

إنَّ أذاهَا مِثْلُ أفْعَالِنَا ... ماضٍ وفي الحَالِ ومُسْتَقْبَلُ

أَجْبَلَتِ الأَبْحُرُ فِي عَصْرِنا ... هذا كما أبْحَرتِ الأَجْبُلُ

فاتْرُكْ لِأَهْلِ المُلْكِ لَذَّاتِهِمْ ... فَحَسْبُنَا الكَمْأَةُ والأَحْبَلُ

ونَشْرَبُ الماءَ بِراحَاتِنَا ... إنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِنا جُنْبُلُ

تَسَوَّقَ النَّاسُ بِفُرْقَانِهِمْ ... وانْتَبَلُوا جَهْلاً فَلَمْ يَنْبُلُوا

---

[1] - سَنَعْرِضُ المَوْضُوعَ كَما جاءَ فِي القَصِيدة دُوْنَ أيَّةِ مُحاوَلَةٍ مِنَّا لِعَرْضِهِ فِي نَسَقٍ جَدِيْدٍ.

وليْسَ مَا يُنْقَلُ عن عَاصِمٍ كَمَا رَوَي عَنْ شيْخِهِ قُنْبُلُ

لا تَأْمَنُ الأَغْفَارُ في النِّيْقِ أَنْ تُصْبِحَ مَوْصُولاً بِهَا الأَحْبُلُ

يُغْنِيْكَ قَطْرٌ بَلَّ مِنْكَ الصَّدَي في العَيْشِ أَنْ تُزْدَارَ قُطْرُبُّلُ

والفَذُّ يَكْفِيْكَ إذا فَاتَكَ الرَّ قِيْبُ والنَّافِسُ والمسبِلُ

لَوْ نطَقَ الدَّهْرُ هَجَا أَهْلَهُ كأَنَّهُ الرُّوْمِيُّ أَوْ دِعْبِلُ

وَهْوَ لَعَمْرِي شَاعِرٌ مُغْرِزٌ بِالفِعْلِ لَكِنْ لَفْظُهُ مُجْبِلُ

إنْ كُفَّ ما بَيْنَهُمْ حَازِمٌ فَلُبُّهُ المطْلَقُ لا يُكْبَلُ

و(فَاعِلاتِنْ) و(مَفاعِيْلُها) تُكَفُّ في الوَزْنِ ولا تُخْبَلُ

لا تَغْبِطِ الأَقْوَامَ يَوْماً عَلَى ما أَكلوا خَضْماً وما سُرْبِلُوا

يَذْبُلُ غُصْنُ العَيْشِ حَقّاً ولَوْ أَضْحَى ومِنْ أَوْرَاقِهِ يَذْبُلُ

فَلَيْتَ حَوَّاءَ عَقِيْمٌ غَدَتْ لا تَلِدُ النَّاسَ ولا تَحْبَلُ

ولَيْتَ شِيْثاً أوْ أبانَا الذِي جاءَ بِنا أَهْبَلَهُ المهْبِلُ

ولَيْتَنَا تُتْرَكُ أَجْسَادُنَا كَما يَزُولُ السَّمُرُ المحْبِلُ

تَفَكَّرُوا بِاللهِ وأَسْتَيْقِظُوا فإنَّها داهيةٌ ضِئْبِلُ

في سُنْبُلٍ يُخْلَقُ مِنْ حَبَّةٍ ثُمَّتَ مِنْهَا يُخْلَقُ السُّنْبُلُ

أرادَ مَنْ يَجْهَلُ تَقْوِيْمَنَا ونَحْنُ أَخْيَافٌ كما نُجْبَلُ

يَكْرَهُ عَوْلَ الشَّيخِ أَبْنَاؤُهُ وهَلْ يَعُولُ الأَسَدَ الأَشْبُلُ

نَنْزِلُ في دَارٍ لنا رَحْبَةٍ تُطِلُّ بِالآفاتِ أَوْ تُوْبَلُ

وكُلُّ مَنْ حَلَّ بِهَا يَكْرَهُ الرِّ حْلَةَ عَنْها وهِيَ تُسْتَوْبَلُ

إنَّ أَدِيْماً لِي أَنَا وَقْتُهُ فأَيْنَ مِنِّي الشَّجَرُ المعْبِلُ

١. حَضٌّ عَلى التَّفَكُّرِ في الحَياةِ الزَّائِلَةِ واسْتِشْرَاءِ الشَّرِّ والفَسادِ في النَّاسِ. (ثلاثة أبيات)

٢. مَدْحُ التَّوَاضُعِ والقَنَاعَةِ ،فَيَجِبُ أَنْ نَتْرُكَ اللَّذَّاتِ لِأَهْلِ المُلْكِ وَحْدَهُمْ. (بيتان)

٣. فَسَادُ الفُقَهاءِ والعُلَماءِ الذِيْنَ يَتَسَوَّقُونَ بِالقِراءاتِ. (بيتان).

٤. حِكْمَةٌ: وَصايا بِعَدَمِ شُرْبِ الخَمْرُ ومَدْحُ القَناعَةِ. (ثلاثة أبيات)

٥. تَشْنِيْعُ البَشَرِ: يَقُوْلُ: (لَوْ كانَ الدَّهْرُ شاعِراً لَبَذَّ دِعْبِلاً وابْنَ الرُّوْمِيِّ في هِجائِهِما). (أربعة أبيات)

٦. حِكْمَةٌ: وَصِيَّةُ بِنَبْذِ الطَّمَعِ وتَحْذِيْرٌ بِزَوَالِ هَذِهِ الحَيَاةِ. (بيتان)

٧. تَشْنِيْعٌ عَلَى الناسِ: فَقَدْ تَمَنَّى أبو العلاء أنْ لَوْ كانَتْ حَوَّاءُ عَقِيْماً، أوْ لَوْ فُجِعَ آدَمُ في نَسْلِهِ فَلَمْ يَتَوَاصَلْ. (ثلاثة أبيات)

٨. حِكْمَةٌ: فَمَثلاً تُحِبُّ الأمُّ بَنِيْها، ويَعُقُّوْنَها، والدُّنْيا مَذْمُومَةٌ ولَكِنَّ الناسَ يُحِبُّونَها، وهَكَذا. (سبعة أبيات).

القصيدة الثانية [1]:

وهِيَ قَصِيْدَةٌ مِنْ أرْبَعَةٍ وخَمْسِيْنَ بَيْتاً، ومُصَرَّعَةٌ:

سَحَائِبُ مُبْرِقَاتٌ مُرْعِدَاتٌ ... لِمُهْجَةِ كُلِّ حَيٍّ مُوْعِداتُ

وكَيْفَ يُقَامُ في أَمْرٍ مُهِمٍّ ... لِيُفْعَلَ والمَقَادِرُ مُقْعِداتُ

وأَنْفُسُ هَذِهِ الأَجْسَامِ طَيْرٌ ... بُزَاةٌ حِمَامِها مُتَصَيِّداتُ

فَمَا لَكَ والهُنُوْدَ مُنَعَّمَاتٌ ... كأَنَّ قُدُودَهُنَّ مُهَنَّداتُ

يُفَنِّدْنَ الحَلِيمَ بِغَيْرِ لُبٍّ ... وهُنَّ وإِنْ غَلَبْنَ مُفَنَّداتُ

يُخَلِّدْنَ الإِماءَ نِضادَ صَوْغٍ ... فَهَلْ تِلْكَ الشُّخُوْصُ مُخَلَّدَاتُ

تَقَلَّدَتِ المَآتِمَ بِاخْتِيَارٍ ... أَوَانِسُ بِالفَرِيْدِ مُقَلَّداتُ

إذا عُوْتِبْنَ فِي جَنَفٍ وظُلْمٍ ... أَبَتْ إِلَّا السُّكُوتَ مُبَلَّداتُ

يُغَادِرْنَ الجَلِيْدَ قَرِيْنَ ضَعْفٍ ... صَوَابِرُ لِلنَّوَى مُتَجَلِّداتُ

---

[1] – اللزوم، ج١، ص ١٦٣ .

لَقَدْ عَابَتْ أَحادِيْثَ البَرَايَا شُكُولٌ فِي الزَّمَانِ مُوَلَّداتُ

أَتَعْبُدُ مِنْ إِثَامٍ تَتَّقِيْهِ طَوَالِمُ بِالأَذَى مُتَعَبِّداتُ

تُرِيْقُ بِذَاكَ فِي قَتْلٍ دِمَاءً رُؤُوْسٌ فِي الحَجِيْجِ مُلَبَّداتُ

تَعَالَى اللهُ لَمْ تَصْفُ السَّجايَا وأَفْعالُ المعَاشِرِ مُؤْيَداتُ

إذا ما قِيلَ حَقٌّ فِي أُناسٍ فأَوْجُهُهُمْ لَهُ مُتَرَبِّداتُ

مَخَازِيْهِمْ أَوَابِدُ فِي اللَّيالِي فلا تَهِجِ الأَسَى مُتَأَبِّداتُ

وأَطْهَرُ مِنْ ضَوَارِبَ فِي نَعِيْمٍ نَعَامٌ بالفَلا مُتَهَبِّداتُ

تُقَيِّدُ لَفْظَها عَنْ كُلِّ بِرٍّ مَوَاشٍ بِالحُلِيِّ مُقَيَّداتُ

عَجِلْنَ إِلَى مَسَاءَةِ مُسْتَجِيْرٍ لَوَاهٍ فِي الخُطَا مُتَأَيِّداتُ

وتَنْقُصُ خَيْرَها أَشَراً وفَتْكاً صَوَاحِبُ مَنْطِقٍ مُتَزَيِّداتُ

ولَسْنَ الهائِدَاتُ ولا النَّصَارَى ولَكِنْ فِي المقَالِ مُهَوِّداتُ

مَضَتْ لِعَوَائِدِ الكَذِبِ المُوَرَّى سَوَادِكُ بِالخَنا مُتَعَوِّداتُ

تُأَوِّدُ مِنْكَ عَقْلاً فِي سُكُوْنٍ غُصُونُ خَوَاطِرٍ مُتَأَوِّداتُ

فلا يَجْلِسْ عَلَى الصُّعَدَاتِ لاهٍ فَأَنْفاسُ الفَتَى مُتَصَعِّداتُ

تَمُرُّ بِهِ حَوَالَكُ فَوْقَ بِيْضٍ وخُضْرٌ فِي العَقِيْقِ مُسَبَّداتُ

ومَنْ تُخْلِقْهُ أَيَّامٌ طِوَالٌ فإِنَّ شُجُوْنَهُ مُتَجَدِّداتُ

وتَسْنَحُ بِالضُّحَى ظَبَيَاتُ مَرْدِ بِكُلِّ عَظِيْمَةٍ مُتَمَرِّداتُ

وقد أُغْمِدْنَ فِي أُزُرٍ ولَكِنْ سُيُوفُ لِحَاظِهِنَّ مُجَرَّداتُ

ووَرَّدَتِ اللِّباسَ بِلَوْنِ صِبْغٍ خُدُودٌ بِالشَّبَابِ مُوَرَّداتُ

ومَنْ فَقَدَ الشَّبِيْبَةَ فالغَوَانِي لَهُ عِنْدَ الوُرُوْدِ مُصَرِّداتُ

هَواجِرُ فِي التَّيَقُّظِ أَوْ عَوَاصٍ وفِي طَيْفِ الكَرَى مُتَعَهِّداتُ

إذا سَهَّدْنَهُ بِطَوِيْلِ هَجْرٍ فَما أَجْفانُهُنَّ مُسَهَّداتُ

خَوَاطِئُ غيرُ أَسْهُمِها خَوَاطٍ لِكُلِّ كَبِيْرَةٍ مُتَعَمِّداتُ

تَخالَفَتِ الغَرائِزُ والمعَانِي ... فَكَيْفَ تَوافُقُ المتَجَسِّداتُ

فَمَا بَيْنَ المقابِرِ نَادِباتٌ ... ومَا بيْنَ الشُرُوبِ مُغَرِّداتُ

قَدَحْنَ زِنادَ شَوْقٍ مِنْ زُنُوْدٍ ... بِنَارِ حُلِيِّها مُتَوَقِّداتُ

ولَمْ تُنْصِفْ بَياضَ الشَّيْبِ أَيْدٍ ... لِوَافِدِ شَيْبِهِنَّ مُسَوِّداتُ

تَأَخُّرُ أبْيَضِ الفَوْدَيْنِ ظُلْمٌ ... إذا شَحِطَ القَرائِنُ واللِّدَاتُ

تَحَيَّرَتِ العُقُولُ وما أَسَاءَتْ ... دَوَائِبُ في التُّقَى مُتَهَجِّداتُ

وفي مُهَجِ الأنِيْسِ مُثَلِّثاتٌ ... عَلَى عِلاَّتِها ومُوَحِّداتُ

فَمَا عُذْرِي وعِنْدَ اللهِ عِلْمِي ... إذا كَذَبتْ قَوائِلُ مُسْنِداتُ

فَهَلْ عَلِمَتْ بِغَيْبٍ مِنْ أُمُورٍ ... نُجُومٌ لِلمَغِيْبِ مُعَرِّداتُ

ولَيْسَتْ بِالقَدَائِمِ فِي ضَمِيْرِي ... لَعَمْرُكَ بَلْ حَوَادِثُ موجَداتُ

فَلَوْ أَمَرَ الذِي خَلَقَ الثُّرَيَّا ... تَهَاوَتْ لِلدُّجَى مُتَسَرِّداتُ

وأَمْسَى اللَّيْثُ مِنْها لَيْثَ غابٍ ... تُحاذِرُ فَرْسَهُ المتَوَحِّداتُ

وآضَ الفَرْغُ لِلسَّاقَيْنَ فَرْغاً ... تُحاوِلُ ماءَهُ المتَوَرِّداتُ

وهَبَّ يَرُوْمُ سُنْبُلَةَ السَّوَارِي ... خَبِيْرٌ والزَّرائِعُ مُحْصَداتُ

ونالَ فَرِيْرَها بِمُدَاهُ فارٍ ... ذُنُوْبُ ضُيُوْفِهِ مُتَغَمَّداتُ

كأَنَّ نَعامَها واللهُ قاضٍ ... نَعائِمُ بِالفَلاةِ مُطَرَّداتُ

وقَدْ زَعَمُوا بِأَنَّ لَها عُقُوْلاً ... وأَقْضِيَةُ المَلِيْكِ مُؤَكَّداتُ

وأَنَّ لِبَعْضِها لَفْظاً وفِيْها ... حَوَاسِدُ مِثْلُنا ومُحَسَّداتُ

أَتَحْمِلُنِي إلى الغُفْرانِ عِيْسٌ ... عَلَى نَصِّ الوَجِيْفِ مُؤَجَّداتُ

ولا تَخْشَى الخُطُوبَ مُسَبِّحاتٌ ... بِعِزَّةِ رَبِّهِنَّ مُمَجِّداتُ

أَرَى حُسْنَ الشَّمَائِلِ مِنْكَ حَثَّتْ ... عَلَيْهِ الأَيْمُنُ المتَوَسِّداتُ

فَإِنَّ الطَّبْعَ يَطْمَعُ بِالمعالِي ... وإنَّ كِلابَ شَرِّكَ مُوَسَّداتُ

١. القَدَرُ: يُشَبِّهُهُ بِسَحائِبَ مُرْعِدَاتٍ تُنْذِرُ بِأَنْ تُمْطِرَ خَسَاراً وهَلاكاً، ويُصَوِّرُ المَوْتَ كَأَنَّهُ بَازِيٌّ جارِحٌ يَتَصَيَّدُ هَذِهِ الأَنْفُسَ، إِذْ شَبَّهَها بِالطَّيْرِ. (ثلاثة أبيات)

٢. النِّسَاءُ: يُدَافِعُ أبا العلاء عَنِ العُزُوبَةِ، والكَفِّ عَنِ الزَّوَاجِ، ويَرَى النِّسَاءَ غَيْرَ ذَوَاتِ لُبٍّ ومَغْرُورَاتٍ، ولَكِنَّهُ يَتَوَرَّطُ في وَصْفِ مَحاسِنِهِنَّ الحِسِّيَّةِ. (ستة أبيت)

٣. النِّفاقُ: إِذْ يَرَى أبو العلاء أَنَّ مِنَ الغَبَاءِ أَنْ يُرْضِيَ النَّاسُ رَبَّهُمْ بِنَحْرِهِمْ حَفْنَةً مِنَ الأنْعامِ بِمَكَّةَ. (ستة أبْيات).

٤. النِّساءُ: وهُنا يَتَحَدَّثُ أبو العلاء عَنْ نِسَاءٍ لاهِيَاتٍ بِهِنَّ انْحِلالٌ، فَيَنْهَى الرِّجالَ عَنِ الجُلُوسِ عَلَى الطُّرُقاتِ لِيُغازِلُوْهُنَّ.

٥. الشَّبَابُ والعُمر: يَصِفُ الشَّاعِر شَيْبَهُ ويَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ شَبَابِه، ويَتَغَنَّى بِجَمالِ النِّسَاءِ، فَهُنَّ يَصِلْنَهُ في أَحْلامِهِ، ويَهْجُرْنَهُ عِنْدَ صَحْوِهِ. (اثنا عشر بيتاً).

٦. الدِّيْنُ: يَتَسَاءَلُ أبو العلاء إذا كانَ شَكُّهُ في الدِّيْنِ ذَنْباً. (ثلاثة أبيات).

٧. النُّجُومُ واللَّعِبُ بِالكَلِماتِ: إِنَّ أبا العلاء، وهو في شَكِّهِ يَطْلُبُ الحِكْمَةَ مِنَ النُّجُوْمِ وهُوَ يُسَلِّمُ بِأَنَّها لَيْسَتْ مُخَلَّدَةً، بَلْ إلى زَوَالٍ، ثُمَّ يَتَلاعَبُ بِأَسْمائِها كما كانَ شأْنُهُ فِي الدِّرْعِيَّاتِ. (عشرة أبيات).

٨. أفكارٌ دِينِيَّةٌ: يَأْمُلُ أبو العلاء في الغُفْرَانِ ويَتَمَنَّى لَوْ حَمَلَتْهُ إِلَيْهِ عِيْسٌ جَسْرَةٌ قَوِيَّةٌ، ثُمَّ يَحُثُّ عَلَى حُسْنِ الشَّمائِلِ، وفِعْلِ الخَيْرَاتِ. (ثلاثة أبيات)

القَصِيدة الثَّالِثَةُ:

وهِيَ قَصِيْدَتُهُ البائِيَّةُ هَذِهِ ولَمْ يَأْتِ فِيْها بِالتَّصْرِيْعِ[١]:

قَدِ اخْتَلَّ الأَنَامُ بغَيْرِ شَكٍّ فَجَدُّوا في الزَّمانِ وأَلْعَبُوهُ

١- نفسه، ج ٢، ص ٤٠٣ .

وظَنُّوا أَنَّ بُوَهَ الطَّيْرِ صَقْرٌ بِجَهْلِهِمُ وأَنَّ الصَّقْرَ بُوْهُ
ووَدُّوا العَيْشَ في زَمَنٍ خَؤُوْنٍ وقَدْ عَرَفُوا أذَاهُ وجَرَّبُوهُ
ويَنْشَأُ ناشِئُ الفِتْيانِ مِنَّا عَلَى ما كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ
ومَا دَانَ الفَتَي بِحِجَىً ولَكِنْ يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ
وطِفْلُ الفَارِسِيِّ لَهُ وُلاةٌ بَأَفْعَالِ التَّمَجُّسِ دَرَّبُوهُ
وضَمَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ هَوَاءٌ يُذَلِّلُ بِالحَوَادِثِ مُصْعَبُوهُ
لَعَلَّ المَوْتَ خَيْرٌ لِلبَرَايا وإِنْ خَافُوا الرَّدَي وتَهَيَّبُوهُ
أَطَاعُوا ذَا الخِدَاعِ وصَدَّقُوْهُ وكَمْ نَصَحَ النَّصِيْحُ فَكَذَّبُوهُ
وجَاءَتْنا شَرَائِعُ كُلِّ قَوْمٍ عَلَى آثارِ شَيْءٍ رَتَّبُوهُ
وغَيَّرَ بَعْضُهُمْ أَقْوَالَ بَعْضٍ وأبْطَلَتِ النُّهَى مَا أَوْجَبُوهُ
فَلا تَفْرَحْ إذا رُجِّبْتَ فِيهِمْ فَقَدْ رَفَعُوا الدَّنِيَّ ورَجَّبُوهُ
وبَدَّلَ ظاهِرَ الإِسْلامِ رَهْطٌ أَرَادُوا الطَّعْنَ فِيهِ وشَذَّبُوهُ
وما نَطَقُوا بِهِ تَشْبِيبُ أَمْرٍ كما بَدَأَ المدِيْحَ مُشَبِّبُوهُ
ويُذْكَرُ أَنَّ فِي الأَيَّامِ يَوْماً يَقُوْمُ مِنَ التُّرَابِ مُغَيَّبُوهُ
وما يَحْدُثْ فإِنَّا أَهْلُ عَصْرٍ قَلِيلٌ في المَعَاشِرِ مُنْجِبُوهُ
صحِبْنَا دَهْرَنا كُرْهاً وقِدْماً رَأَى الفُضَلاءُ أَلَّا يَصْحَبُوهُ
وغِيْظَ بِهِ بَنُوْهُ وغِيْظَ مِنهُمْ فَعَذَّبَ سَاكِنِيْهِ وعَذَّبُوهُ
ومِنْ عَاداتِهِ فِي كُلِّ جِيْلٍ غَذَاهُ أَنْ يَقِلَّ مُهَذَّبُوهُ
أَسَاءَ بِغَيهِ أَدَباً عَلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ حِيْلَةٍ فَيُؤَدِّبُوهُ
ومَا يَخْشَى الوَعِيْدَ فَيُوْعِدُوهُ ولا يَرْعَى العِتَابَ فَيَعْتِبُوهُ
فَهَلْ تُرْجَى الكَرَامَةُ مِنْ أَوَانٍ وقَدْ غَلَبَ الرِّجالَ مُغَلَّبُوهُ
وهُمْ مِنْ وَقْتِهِمْ أبْغَى وأَطْغَى عَلَى أيِّ المَذاهِبِ قَلَّبُوهُ
أَجَلُّوا مُكْثِراً وتَنَصَّفُوهُ وعَابُوا مَنْ أَقَلَّ وأَنَّبُوهُ

وَلَمْ يَرْضَوْا لِمَا سَكَنُوهُ شَيْداً إلى أنْ فَضَّضُوهُ وأذْهَبُوهُ
فإنْ يأكُلْهُمُ أَسَفاً وحِقْداً فَقَدْ أَكَلَ الغَزَالَ مُرَبِّبُوهُ
وتلْكَ الوَحْشُ ما جادُوا عَلَيْها بِعُشْبٍ غِبَّ نِدٍّ عَشَّبُوهُ
يَسُورُ الكَلْبُ مُجْتَهِداً إلَيْها ويَحْظَى بالقَنِيْصِ مُكَلِّبُوهُ
رَجَوْا أَلَّا يَخِيْبَ لَهُمْ دُعَاءٌ وكَمْ سَأَلَ الفَقِيرُ فخَيَّبُوهُ
وما شأْنُ اللَّبِيْبِ لِغَيْرِ سِلْمٍ وإنْ شَهِدَ الوَغى مُتَلَبِّبُوهُ
أَلَظُّوا بِالقَبِيْحِ فَتَابَعُوْهُ ولَوْ أُمِرُوا بِهِ لَتَجَنَّبُوهُ
نَهَاهُمْ عَنْ طِلابِ المالِ زُهْدٌ ونَادَى الحِرْصُ وَيْبَكُمُ اطْلُبُوهُ
فألْقَاهَا إلَى أسْماعِ غُثْرٍ إذا عَرَفُوا الطَّرِيقَ تنكَّبُوهُ
سَعَوا بَيْنَ اقْتِرابٍ واغْتِرابٍ يَمُوْتُ بِغَصَّةٍ مُتَغَرِّبُوهُ
غَدَوْا قُوْتاً لِمِثْلِهِمُ تَساوَى خَبِيثُوهُ لَدَيْهِ وطَيِّبُوهُ
مَضَتْ أُمَمٌ عَلَي شَرْخِ اللَّيالِي إذا عَمَدُوا لِعَقْدٍ أَرَّبُوهُ
وكَمْ تَرَكُوا لَنا أثَراً مُنِيْفاً يَعُوْدُ بَآيَةٍ مُتَأَوِّبُوهُ
لَقَدْ عَمَرُوا وأقْسَمَتِ الرَّزَايا لَبِئْسَ الرَّهْطُ رهْطٌ خَرَّبُوهُ
فإمَّا عاشَ فِيهِ حاسِدُوْهُ وإمَّا غَالَهُ مُتَكَسِّبُوهُ
ولِلأَزْمَيْنِ خَطْبٌ مُسْتَفِيْضٌ يَعُوْمُ بِلُجَّهِ مُتَعَجِّبُوهُ
ولَوْ قَدَرُوا عَلَى إيْوَانِ كِسْرَى لَسَامُوهُ الرَّدَى وتَعَقَّبُوهُ
وقَدْ مَنُّوا بِرِزْقِ اللهِ جَهْلاً كَأَنَّهُمُ لِبَاغٍ سَبَّبُوهُ
إذا أصْحَابُ دِيْنٍ أحْكَمُوهُ أَذَالُوا ما سِوَاهُ وعَيَّبُوهُ
وقَدْ شَهِدَ النَّصَارى أَنَّ عِيسَى تَوَخَّتْهُ اليَهُوْدُ لِيَصْلِبُوهُ
وَمَا أَبِهُوا، وقَدْ جَعَلُوْهُ رَبّاً لِئَلَّا يَنْقُصُوهُ ويَجْدُبُوهُ
تَمُجُّ قُلُوْبُهُمْ ما أَوْدَعَتْهُ لِسُوْءٍ في الغَرَائِزِ أُشْرِبُوهُ
أَضَاعُوا السِرَّ لَمَّا اسْتُحْفِظُوْهُ وقَدْ صَانُوا الأَدِيْمَ وسَرَّبُوهُ

لَهُمْ نَسَبُ الرَّغامِ وذاكَ طُهْرٌ ... ولَمْ يَطْهُرْ بِهِ مُتَنَسِّبُوهُ

ونُبِّئَ فِي بَنِي يَعْقُوْبَ مُوْسَى ... بِشَرْعٍ ما تَخَلَّصَ مُتْعَبُوهُ

وكَمْ نَضَتِ النَّوَاظِرُ كُلَّ عَامٍ ... وأَتْرَابُ السَّعادَةِ مُتْرِبُوهُ

عَلَى حَجَرٍ لَهُمْ تَهْوِي جِبالٌ ... ولَمْ يَستَعْفِ ذَنْباً مُذْنِبُوهُ

ودَوْنَ الأبْيَضِ المِشْتَارِ زُغْبٌ ... لَوَاسِبُ عُقْنَهُمْ أَنْ يَلْسِبُوهُ

وقَدْ رَكِبَ الذِيْنَ مَضَوْا سَبِيْلاً ... إلى عَلْيَائِهِمْ لَمْ يَرْكَبُوهُ

وحَبْلُ العَيْشِ مُنْتَكِثٌ ضَعِيْفٌ ... ونِعْمَ الرَّأْيُ أَلَّا تَجْذِبُوهُ

ومَا فَعَلُوا ولَكِنْ بَاكَرُوْهُ ... بِأَسْبَابِ الحِمامِ فَقَضَّبُوهُ

فَمِنْ سَيْفٍ ومِنْ رُمْحٍ وسَهْمٍ ... ونَصْلٍ أَرْهَفُوهُ وذَرَّبُوهُ

وما دَفَعَتْ عَنِ الملِكِ المَنَايا ... مَقانِبُهُ ولا مُتَكَتِّبُوهُ

حَسِبْتُمْ يا بَنِي حَوَّاءَ شَيْئاً ... فَجَاءَكُمُ الذِي لَمْ تَحْسِبُوهُ

وَجِيْرَانُ الغَرِيْبِ مُبَغِّضُوْهُ ... إِلَى جُلَّاسِهِمْ ومُحَبِّبُوهُ

فإنْ يُوْلُوا قَبِيْحاً يَذْكُرُوْهُ ... وإنْ يَحْبُوا يُشِيْعُوا ما حَبُوهُ

تَقولُ الهِنْدُ آدمُ كانَ قِنَّاً ... لنا فَسَرَى إِلَيْهِ مُخَبِّبُوهُ

أُوْلَئِكَ يَحْرِقُونَ المَيْتَ نُسْكاً ... ويُشْعِرُهُ لُبَاناً مُلْهِبُوهُ

ولَوْ دَفَنُوهُ فِي الغَبْرَاءِ جَاءَتْ ... بِمَا يَسْعَى لَهُ مُتَأَلِّبُوهُ

أُدِيْلَ الشَّرُّ مِنْكُمْ فاحْذَرُوهُ ... ومَاتَ الخَيْرُ مِنْكُمْ فانْدُبُوهُ

١- تَأَمُّلاتٌ فِي أَحْوَالِ الأَنَامِ المضْطَرِبَةِ واخْتِلَالِها (ثلاثةُ أبياتٍ) .

٢- أَثَرُ العادَةِ: إِذْ يَرَى أبو العلاء أَنَّ لِلعَادَةِ والتَّنْشِئَةِ أَكْبَرَ الأَثَرِ فِي إِسْلامِ المسْلِمِ، ونَصْرَانِيَّةِ النَّصْرانِيِّ ومَجُوسِيَّةِ المجُوْسِيِّ، ويَقُوْلُ إِنَّ النَّاسَ قَلَّما كانُوا أُصَلاءَ، فَلَعَلَّ المَوْتَ خَيْرٌ لَهُمْ، إِذْ إِنَّهُمْ يُطِيْعُونَ الخَدَّاعِيْنَ ويُصَدِّقُوْنَهُمْ، ويُبْغِضُونَ النُّصَحاءَ لَهُمْ ويُكَذِّبُوْنَهُم (سبعةُ أبيات) .

٣- الإسْلامُ وغَيْرُهُ مِنَ الدِّياناتِ السَّماوِيَّةِ: إذْ يَشُكُّ أبو العلاءِ في صِحَّةِ الكِتَابِ المقَدَّسِ عِنْدَ اليَهُوْدِ والأحادِيْثِ عِنْدَ المسْلِمِيْنَ، كما أَنَّهُ يُهَاجِمُ أعْدَاءَ الإسْلامِ، ويَعِيْبُ عَلَيْهِمْ نَشْرَهُمْ لِعَقَائِدِهِمُ الفاسِدَةِ تَحْتَ سِتارِ تَفْسِيْرِ بَاطِنِ القرءان (يُعَرِّضُ أبو العلاء هُنا بِفِرْقَةِ الإسْماعِيْلِيَّةِ) (خمسةُ أبياتٍ).

٤- النَّاسُ ومُعْتَقَداتُهُمْ والقَدَرُ: يُعَلِّقُ عَلَى البَعْثِ فِي تَهَكُّمٍ، ويَذُمُّ النَّاسَ عَلَى غَفْلَتِهِمْ وغَبَائِهِمْ، والأقْدَارَ عَلَى تَقَلُّبَاتِهَا، ويُشَخِّصُ القَدَرَ عَلَى أَنَّهُ شَخْصٌ وَغْدٌ مُتجاسِرٌ لا تَرُدُّهُ خَشْيَةٌ ولا يَرْدَعُهُ وَرَعٌ، ويَذْكُرُ النَّاسَ عَلَى أَنَّهُمْ لا يَقِلُّوْنَ عَنْهُ شَرّاً، لِأَنَّهُمْ إنَّما هُمْ عُبَّادُ مالٍ وأتْباعُ بَهْرَجٍ وزُخْرُفٍ، فالقَدَرُ يَفْتَرِسُ النَّاسَ أَسَفاً وحِقْداً وهُمْ يَفْتَرِسُونَ الحَيْوَانَ أَسَفاً وحِقْداً كَذَلِكَ (اثنا عشر) .

٥- قَضِيَّةُ الشَرِّ والقَبِيْحِ: يَذُمُّ قَسْوَةَ النَّاسِ عَلَى الحَيْوَانِ، داجِنِهِ ووَحْشِهِ، ونِفاقَ النَّاسِ وزُوْرَهُمْ، فَهُمْ مَثَلاً يَرْجُونَ أَلَّا يَخِيْبَ لَهُمْ دُعاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وهُمُ الذِيْنَ طالَما خَيَّبُوا دُعاءَ السَّائِلِ الفَقِيْرِ، ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ عِنادِ الإنْسانِ وتَعَنُّتِهِ وشَكاسَتِهِ، إذْ يُؤْمَرُ بِتَرْكِ القَبِيْحِ فَيَلْزَمُهُ ولَوْ أُمِرَ بِإِتْيَانِهِ لَتَجَنَّبَهُ إنْفاذاً لِعِصْيانِهِ وتَمَرُّدِهِ (تِسْعةُ أبياتٍ) .

٦- البُكاءُ عَلَى الأُمَمِ الماضِيَةِ: فَقَدْ أَظْهَرَ إكْبارَهُ لِآثارِهِمُ العُمْرَانِيَّةِ الخالِدَةِ، وأبانَ أنَّ مَنْ سامَها الخَرَابَ والدَّمارَ خَبِيْثٌ، لَمْ يَكُنْ دَافِعَهُ إلى ذَلِكَ سِوَى الحَسَدِ أوْ حُبِّ الكَسْبِ العاجِلِ أوِ التَّعَصُّبِ الدِّيْنِيِّ، ومَتَى تَمَكَّنَ أصْحابُ دِيْنٍ مِنَ الدِّياناتِ سَعَوْا إلى إهانَةِ الدِّياناتِ الأُخْرَى وحاوَلُوا نَفْيَها (ثَمانِيَةُ أبياتٍ).

٧- حَدِيْثُهُ عَنِ الدِّياناتِ السَّماوِيَّةِ: إذْ يَنْتَقِدُ النَّصْرَانِيَّةَ ويُحاجُّها بِأَنَّ الاعْتِقادَ بِصَلْبِ المسِيْحِ يُناقِضُ الاعْتِقادَ بِأُلُوهِيَّتِهِ. ويَتَّهِمُ أبو العلاء النَّصارَى بِأَنَّهُمْ أضاعُوا جَوْهَرَ تَعالِيْمِ المسِيْحِ ولُبَّ ما اسْتَحْفَظَهُمْ عَلَيْهِ، ولَمْ يَسْتَمْسِكُوا إلَّا بِالجانِبِ السَّطْحِيِّ مِنْها، ويُشِيْرُ ساخِراً مُتَهَكِّماً إلى تَرَقُّبِ اليَهُودِ لِلْمَسِيْحِ المخَلِّصِ، ويَلُوْمُ حُجَّاجَ المسْلِمِيْنَ عَلَى

تَجَشُّمِهِمْ رِحلَةً لا جَدْوَى مِنْها إلى مَكَّةَ، تُصِيبُهُمْ فِيْها ورَوَاحِلَهُمْ المشَاقُّ الجِسامُ. (ثمانِيَةُ أبْياتٍ).

أقْوالٌ في الحِكْمَةِ: مِنْها، مَثَلاً، أنَّ القُوَّةَ مُعِيْنٌ لا يُسْتَهانُ بِهِ في إدْرَاكِ الأمْجادِ، وأنَّهُ خَيْرٌ لِلْمَرْءِ يَكُونُ غَرِيْباً في غَيْرِ مَوْطِنِهِ، وأنْ يَسْعَى في إرْضَاءِ جِيْرَانِهِ ويَتَحَبَّبَ إلَيْهِمْ. (تسعة أبياتٍ).

٩- ذِكْرُ الهُنُوْدِ: إذْ يُشِيْرُ إلى مُعْتَقَداتِ الهُنودِ فِي آدَمَ، وطُقُوْسِهِمُ القاضِيَةِ بِحَرْقِ الميِّتِ، التي يَرَى أنَّها عادَةٌ رَائِعَةٌ. (ثلاثةٌ)

١٠- ذِكْرُهُ سِيَادَةَ الشَّرِّ واسْتِحْكامَ دَوْلَتِهِ وحَتْمِيَّةَ الموْتِ. (بَيْتٌ واحِدٌ)

القَصِيدة الرَّابِعَةُ :

وهِيَ هَذِهِ النُّوْنِيَّةُ التي تَبْلُغُ اثْنَيْنِ وخَمْسِيْنَ بَيْتاً وقَد جاءَ فِيْها بِالتَّصْرِيْعِ: [1]

إذا وَقْـتُ السَّـعادَةِ زالَ عَـنِّي ... فَكِلْـنِي، إنْ أرَدْتَ، ولا تُكَـنِّي

نَبَذْتَ نَصِيْحَتِي أنْ رَثَّ جِسْمِي ... وكَـمْ نَقْـعَ الغَلِيْـلَ خَـبِيءُ شَـنِّ

وقَـدْ عُـدِمَ التَّـيَقُّنُ فِي زَمـانٍ ... حَصَلْنا مِنْ حِجَاهُ عَلَى التَّظَنِّي

فَقُلْنَـا لِلْهِزَبْـرِ: أَأَنْـتَ لَيْـثٌ؟ ... فَشَـكَّ وقـالَ: عَلِّـي أو كـأَنِّي

وَضَـعْتُ عَلَى قَـرَ الأيّـامِ رَحْلِـي ... فَمـا أنـا لِلْمُقـامِ بِمُطْمَـئِنِّ

ولا قَتَـبِي عَلَـى العَـوْدِ المزَجَّـى ... ولا سَرْجِي عَلَـى الفَرَسِ الأدَنِّ

ولَكِـنْ تَرْقُـلُ السَّـاعاتُ تَحْـتِي ... بَـرِئْنَ مِـنَ التَّمَكُّـثِ والتَّـأَنِّي

أَجِـنُّ ومـا أُجِـنُّ سِـوَى غَـرَامٍ ... بِغَـيْرِ الحَـقِّ مِـنْ جِـنٍّ وجِـنِّ

نَصَحْتُكِ، ناقَتِي، سَلَبي ونَفْسِي ... ونَحْـرُكِ في الحَنِـيْنِ فـلا تَحِـنِّي

أَضَـيْفَ الفَقْـرِ! ضَـيْفُنكَ ادّلاجٌ ... فَهَلْ لَكَ مِنْ ذُؤَالَةَ، فِي ضِفَنِّ؟

[1] - نفسه، ص ٣٧ .

غِـنَىً وتَصَـعْلُكٌ وكَـرَىً وسُـهْدٌ فَقَضَّـينا الحَيـاةَ بِكُـلِّ فَـنِّ
زَمـانٌ لا يَنـالُ بَنُـوهُ خَـيْراً إذا لَمْ يَلْحَظُـوهُ مِـنَ التَّمَـنِّي
عَرَفْـتُ صُـرُوْفَهُ فَأَزَمْـتُ مِنهـا عَلَـى سِـنِّ ابْـنِ تَجْرِبَـةٍ مُسِـنِّ
وأَفْقَـرَنِي إلى مَـنْ لَـيْسَ مِثْلِـي كما افتَقَـرَ السِّنانُ إلى المِسَـنِّ
أَنـا ابْنُ التُّـرْبِ ما نَسَـبِي سِوَاهُ قَلِلْـتُ عَـنِ التَّسَـمِّي والتَّكَـنِّي
إذا أَلْهَمْتَـنِي الغَبْـرَاءَ يَوْمـاً فَقَـدْ أُمِـنَ التَّجَنُّـبُ والتَّجَـنِّي
ومـا أَهْـلُ التَّحَنُّـؤِ والتَّحَلِّـي إلَى أهْـلِ التَّحَلُّـؤِ والتَّحَـنِّي
ويَكْفِيْـكَ التَّقَنُّـعُ مِـنْ قَرِيْـبٍ عَظـائِمَ لَـيْسَ تُبْلَـغُ بِـالتَّوَنِّي:
صَـرِيْرَ الـرُّمْحِ في زَرَدٍ مَنِيْـعٍ وَوَقْـعَ المَشْـرَفِيِّ عَلَـى المِجَـنِّ
وحَمْـلَ مُهَنَّـدٍ يَسْـطُو بِعَـيْرٍ وفُـورٍ لَـيْسَ بِالأَشِـرِ المِـرَنِّ
ولا شَـلاَّلِ عانَـاتٍ خِمـاصٍ ولَكِـنْ خَيْـلَ جَـيْشٍ مُـرْجَحِنِّ
يَـرَى عَـذْمَ الأَوَابِـدِ غَيْـرَ حِـلٍّ ويَعـذِمُ هامَـةَ البَطَـلِ الـرِّفَنِّ
ومـا يَنْفَـكُّ مُحْـتَمِلاً ذُبابـاً أبَى التَّغْرِيْـدَ في الخَصِـرِ المِغَـنِّ
تَـذُوبُ، حِـذارَهُ، زُرْقُ الأعـادِي ويَسْـخَى بِالحَياةِ حَلِيْـفُ ضَـنِّ
ويَنْفُـثُ في فَـمِ الحَيَّـاتِ سُمّـاً ويَمْـلأُ ذِلَّـةً أَنْـفَ المِصِـنِّ
وخَـرْقَ مَفـازَةٍ كُسِـيَتْ سَـرَاباً يُعَـرِّي الـذِّئْبَ مِـنْ وَبَـرٍ مُكِـنِّ
شَـكَتْ سَحَراً مِنَ السَّبَراتِ قُـرّاً فَأَوْسَـعَها الهَجِيْـرُ مِـنَ القُطُـنِّ
وتَعْـزِفُ جِنُّهـا واللَّيْـلُ دَاجٍ إذا خَلَـتِ الجنـادِبُ مِـنْ تَغَـنِّ
يَخـالُ الغِـرُّ سَـرْحَ بَـنِي أُقَـيْشٍ يُؤَنِّـقُ في مَرَاتِعِهـا بِسَـنِّ
أراكَ إذا انفَـرَدتَ كُفِيـتَ شَـرّاً مِـنَ الخِـلِّ المعاشِـرِ والمِعَـنِّ
ومَنْ يَحْمِلْ حُقُوقَ النَّاسِ يُوْجَدْ لَـدَى الأَغْـرَاضِ كـالفَرَسِ المِعَـنِّ
أتَعْجَبُ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ أمْسَوْا لِلَـذَّاتِ النُّفُـوسِ عَبِيْـدَ قِـنٍّ؟
فَـإِنْ دَانَيْـتَهُمْ لَمْ تَعْـدُ ظُلْمـاً ومَنّـاً فِي الأُمُـورِ بِغَـيْرِ مَـنِّ

نَهَيْتُكَ عَنْ خِلاطِ النَّاسِ فاحْذَرْ	أَقارِبَـــكَ الأَدَانِي واحْـــذَرَنِّي
وإنْ أَنَـا قُلْـتُ لا تَحْمِـلْ جُـرَازاً	فَهُـزَّ أخـا السَّفاسِقِ واضْـرِبَنِّي
فَنَصْلُ السَّيْفِ وهْوَ اللُّجُّ يَرْمِي	غَرِيقـاً فَـوْقَ سِـيْفٍ مُـرْفَئِنِّ
وضَـاحِيْهِ يُزِيْـلُ غُضُـونَ وَجْـهٍ	ويَبْسُـطُ مِـنْ وِدَادِ المكْبَـئِنِّ
فَمـا حَمَلَـتْ يَـدَاهُ بِـهِ خَؤُوْنـاً	ولا نَبَراتُـــهُ نَـــبَراتُ وَنِّ
سَنا العَيْشِ الخُمُولُ فلا تَقُولُوا:	دَفِـيْنُ الصِّيْتِ كالميْـتِ المجَـنِّ
وتُـؤْثِرُ حالَـةَ الزِّمِّيْـتِ نَفْسِـي	وأَكْـرَهُ شِـيْمَةَ الرَّجُـلِ المِفَـنِّ
كَفَـى حُزُنـاً رَحِيْـلُ القَـوْمِ عَـنِّي	ولَـيْسَ تَخَـيُّرِي وَطَـنُ المِـبَنِّ
تَبَنَّـوْا خَـيْمَهُمْ فَوُقُـوا هَجِـيْراً	وأعْـــوَزَنِي مَكَـــانٌ لِلتَّبَـــنِّي
يُصـافِحُ راحَـةً باليَـأْسِ قَلْـبِي	ولَـدْنُ الشَّرخِ حُـوِّلَ مِنْ لَـدُنِّي
ومـا أَنـا والبُكـاءُ لِغَيْرِ خَطْـبٍ	أُعِـيْنُ بِـذَاكَ مَـنْ لَمْ يَسْـتَعِنِّي
حَسِـبْتُكَ لَـوْ تُـوَازِنُ بِي ثَبِـيْراً	ورَضْـوَى في المكـارِمِ، لَمْ تَـزِنِّي
ومـا أَبْغِـي كِفـاءَكَ عَـنْ جَمِيْـلٍ	وأَمَّـا بِـالقَبِيْحِ فَـلا تَـدِنِّي
ولا تَـكُ جازِيـاً بِـالخَيْرِ شَـرّاً	وإنْ أنا خُنْتُ فِي سَبَبٍ، فَخُنِّي
جَلِيْسِـي مـا هَوِيْـتُ لَـكَ اقْتِرابـاً	وصُنْتُكَ عَنْ مُعاشَرَتِي، فَصُنِّي
أَرَى الأَقْــوَامَ خَيْـرُهُمُ سَـوَامٌ	وإنْ أُهِـنِ ابْـنَ حادِثَـةٍ يُهِـنِّي
إذا قُتِـلَ الفَـتَى الشِّـرِّيْبُ مِـنهُمْ	فَـلا يَهِـجِ الغـرامَ كَسِـيْرُ دَنِّ
رَأَيْتُ بَنِي النَّضِيْرِ مِنَ آلِ مُوْسَى	أعـارَهُمُ الشَّـقَاءُ حَطِـيْمَ ثِـنِّ
سَـعَوْا وسَـعَتْ أَوَائِلُهُـمْ لِأَمْـرٍ	فَمـا رَبِحُـوا سِـوَى دَأْبٍ مُعَـنِّ

١- الشَّبَابُ والعُمُرُ: يَتَحَسَّرُ أبو العلاء عَلَى شبابِهِ الذَّاهِبِ ويَسْتَعِيْدُ ماضِي ذِكْرَيَاتِهِ عَنْ أسْفارِهِ وتَجارِبِهِ، يَخْلِطُ ذَلِكَ بِتَأَمُّلاتٍ أو تَفَكُّرٍ في سُرْعَةِ مَرِّ الأَيَّامِ، فَيَرَى نَفْسَهُ في الدَّهْرِ كأَنَّهُ مُسافِرٌ يَرْكَبُ راحِلَةً لا تَعْرِفُ التَّوَقُّفَ والتَّأَنِّيَ هِيَ السَّاعَاتُ ثُمَّ يَتَأَمَّلُ في قِلَّةِ

مَعْرِفَةِ النَّاسِ، ويَرَى انْتِفاءَ اليَقِيْنِ وسِيَادَةَ الشَّكِّ، حَتَّى إنَّهُ لَوْ سُئِلَ الأَسَدُ: هَلْ أنْتَ أَسَدٌ؟ لَشَكَّ وقال : لَعَلّي أوْ كأنّي. ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلُ خِبْرَاتٍ ودِرايَةٍ، ومِنْ ثَمَّ يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ خَوَادِعِ الآمالِ وخُلْفِ الظُّنُونِ (أرْبَعَةَ عَشَرَ بَيْتاً).

٢- (ا) فَخْرُهُ بِنَفْسِهِ: فَهُوَ قَنوعٌ، فالقناعَةُ عِنْدَهُ تَكْفِيكَ العَظائِمَ التي تُحُوجُ إلى اعْتِقالِ الرُّمْحِ واحْتِقابِ السَّيْفِ وتَجَشُّمِ أهْوَالِ الأَسْفارِ.

(ب) وَصْفُ السَّيْفِ والمفازَةِ: إنَّ فِكْرَةَ كُلٍّ مِنَ السَّيْفِ والرُّمْحِ والرِّحْلَةِ أعْطَتْ أبا العلاء ذَرِيْعَةً لِيَعُوْدَ إلى مَوْضُوعِهِ القَدِيْمِ في الوَصْفِ واللَّعِبِ اللَّفْظِيِّ، فَقَدْ جَعَلَ يَلْعَبُ هُنا، كَمَا فَعَلَ فِي سَقْطِ الزَّنْدِ[1] عَلَى الكَلِمَاتِ (عَيْرٍ) و(ذُبابٍ). ثُمَّ أَخَذَ في وَصْفِ الفَلاةِ وما بِها مِنْ سَرَابٍ نَهاراً، وعُوَاءِ الذِّئابِ وعَزِيْفِ الجِنِّ لَيْلاً في دُجُنَّاتِ الظُّلَمِ .

٣- حِكْمَةٌ: إذْ يَرى أنَّ مِنْ حَزْمِ المرْءِ وحُسْنِ تَفَطُّنِهِ أنْ يَنْفَرِدَ عَنِ النَّاسِ فلا يُخالِطُهُمْ، لِأنَّهُمْ لا يُوْقَفُ لَهُمْ عَلَى حالٍ، ولا يَحْصُدُ المرْءُ مِنهُمِ إلَّا ظُلْماً ومَنّاً، فَمِنَ الخَيْرِ اعْتِزَالُهُمْ، ثُمَّ يُرْدِفُ قَائِلاً: (فإنْ أنا قُلْتُ لَكَ لا تَصْحَبِ السَّيْفَ، فَعِنْدَها اشْهِرْهُ وهُزَّهُ واضْرِبْ بِهِ عُنُقِي) (أرْبَعَةُ أبياتٍ) .

٤- مَدْحُهُ نَفْسَهُ: يَثْنِي أبو العلاء عَلَى مَنْهَجِهِ في الحَيَاةِ وطَرِيْقَةِ عَيْشِهِ القائِمَةِ عَلَى خُمُولِ الذِّكْرِ، ويُفَضِّلُ الاسْتِكانَةَ عَلَى المغَامَرَةِ والبَطْشِ فِيْها ومُمارَسَةِ الخُصُومِ. (ثلاثَةُ أبياتٍ).

٥- بُكَاءٌ : يَبْكِي أبو العلاء شَبَابَهُ الذَّاهِبَ وفَقْدَ مَنْ طَوَاهُ الموْتُ مِنْ أعِزّائِهِ وأصدقائِهِ (أربعةُ أبياتٍ)

٦- نَظْرَاتٌ وآرَاءٌ شَخْصِيَّةٌ: يُصَرِّحُ أبو العلاء هُنا بِأنَّهُ يُبْغِضُ أنْ يَمْدَحَهُ الآخَرُونَ، إذْ يَطْلُبُ ألّا يُكافَأَ عَلَى جَمِيْلٍ صَنَعَهُ لِغَيْرِهِ، ولَكِنْ أنْ يُعاقَبَ إذا صَنَعَ قَبِيْحاً، ويُدَافِعُ أبو

---

[1]- رَاجِعْ كَلِمَتَنا عَنْ إفْرَاطِ أبي العلاء في اسْتِخْدَامِ الكِناياتِ، في الفَصْلِ الرَّابِعِ مِنْ كِتابِنا هذا .

العلاء عَنْ ما اتَّخَذَهُ مِنْ عادَةِ العُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ، ويَسْتَرْذِلُ السُّكْرَ ويَسْتَقْبِحُهُ (سِتَّةُ أبْياتٍ) .

٧- ذِكْرُ اليَهُودِ: يُشِيْرُ أبو العلاء إلى هَزِيْمَةِ اليَهُودِ (بَنِي النَّضِيْرِ) في مَعَارِكِ الإسْلامِ الأُوْلَى، ويَعْجَبُ لِما يُظْهِرُوْنَهُ مِنْ إخْلاصٍ لِدِيْنِهِمْ (بيتانِ) .

القصيدة الخامسة:

وهِيَ هَذِهِ الهَمْزِيَّةُ التي تَبْلُغُ واحِداً وأرْبَعِيْنَ بَيْتاً، وهَمْزَتُها مَضْمُومَةٌ، وجاءَ فِيْها بِالتَّصْرِيْعِ[1]:

فُقِدَتْ في أَيَّامِكَ العُلَماءُ   وادْلَهَمَّتْ عَلَيْهِمُ الظَّلْماءُ

وتَغَشَّى دَهْماءَنا الغَيُّ لَمَّا   عَطِلَتْ من وضُوحِها الدَّهْماءُ

لِلْمَلِيْكِ المذَكَّرَاتُ عَبِيْدٌ   وَكَذَاكَ المؤَنَّثَاتُ إماءُ

فالهِلالُ المنِيْفُ والبَدْرُ والفَرْ   قَدُ والصُّبْحُ والثَّرَى والْمَاءُ

والثُّرَيَّا والشَّمْسُ والنَّارُ والنَّثْ   رَةُ والأَرْضُ والضُّحَى والسَّماءُ

هَذِهِ كُلُّها لِرَبِّكَ ما عا   بَكَ في قَوْلِ ذَلِكَ الحُكَماءُ

خَلِّنِي يا أُخَيَّ أَسْتَغْفِرُ اللهَ   فلَمْ يَبْقَ فِيَّ إلَّا الذَّمَاءُ

وَيُقَالُ الكِرامُ قَوْلاً وما في   المِصْرِ إلَّا الشُّخوصُ والأَسْمَاءُ

وأَحادِيْثُ خَبَّرَتْها غُوَاةٌ   وافتَرَتْها للمَكْسَبِ القُدَماءُ

هَذِهِ الشُّهْبُ خِلْتُها شَبَكَ الدَّهْ   رِ لَها فَوْقَ أَهْلِهِ إلْمَاءُ

عَجَباً لِلْقَضَاءِ تَمَّ عَلَى الإِنْ   سِ فَهَمَّتْ أَنْ تَبْسِلَ الحُزَمَاءُ

أَوَ ما يُبْصِرُونَ فِعْلَ الرَّدَى كَيْ   فَ يَبِيدُ الأَصْهارُ والأَحْماءُ

غَلَبَ المَيْنُ مُنْذُ كانَ عَلَى الخَلْ   قِ وماتَتْ بِغَيْظِها الحُكَماءُ

فارْقُبِي يا عَصْماءُ يَوْماً ولوْ أَنْ   لكِ في رَأسِ شاهِقٍ عَصْمَاءُ

---

[1]- نفسه، ج١، ص ٥٧ .

وأَرَى الأَرْبَعَ الغَرَائِزَ فِيْنا وَهْيَ فِي جُثَّةِ الفَتَى خُصَماءُ
إِنْ تَوَافَقْنَ صَحَّ أَوْ لا فَمَا يَنْـ فَكُّ عَنْهُ الإِمْرَاضُ والإِغْمَاءُ
وَوَجَدْتُ الزَّمانَ أَعْجَمَ فَظّاً وجُبَارٌ فِي حُكْمِهَا العَجْمَاءُ
إِنَّ دُنْياكَ مِنْ نَهارٍ وَلَيْلٍ وَهْيَ فِي ذَاكَ حَيَّةٌ عَرْماءُ
والبَرَايا حازُوْا دُيُوْنَ مَنايا سَوْف تُقْضَى ويَحْضُرُ الغُرَماءُ
وَرَدَ القَوْمُ بَعْدما فاتَ كَعْبٌ فَارْتَوَى بالنَّمِيرِ وَفْدٌ ظِمَاءُ
حَيَوانٌ وَجَامِدٌ غَيْرُ نَامٍ ونَبَاتٌ لَهُ بِسُقْيا نَمَاءُ
وَلَوَ انَّ الأَنَامَ خَافُوا مِنَ العُقْـ بى لما جارَتِ المِيَاهَ الدِّماءُ
أَجْدَرُ النَّاسِ فِي العَوَاقِبِ بالرَّحْـ ـمَةِ قَوْمٌ فِي بَدِيِّهِمْ رُحَمَاءُ
وغَضِبْنا مِنْ قَوْلِ زَاعِمِ حَقٍّ أَنَّنا فِي أُصُوْلِنا لُؤَماءُ
أَنْتَ يا آدَمٌ آدَمُ السِّرْبِ حَوَّا ؤُكَ فِيهِ حَوَّاءُ أَوْ أَدْماءُ
قَرَمَتْنا الأَيَّامُ هَلْ رَثَتِ النَّحْـ ـامَ لما ثَوَى بِها قَرَماءُ
عَالَمٌ حائِرٌ كَطَيْرِ هَوَاءٍ وَهَوَافٍ تَضُمُّها الدَّأْمَاءُ
وكأنَّ الهُمَامَ عَمرَو بْنَ دَرْمَا ءَ فَلَتْهُ مِنْ أُمِّهِ دَرْمَاءُ
وَعَرَانا عَلَى الحُطَامِ ضِرَابٌ وطِعَانٌ فِي باطِلٍ ورِمَاءُ
أَسْودُ القَلْبِ أَرْقَمٌ ومَتَى ما تَصْغِ أُذْنِي فَأُذْنُهُ صَمَّاءُ
والبَهَارُ الشَّمِيءُ تَحْمِيْهِ مِنْ وَطْـ ءٍ مُعَادِيْكَ أَرْنَبٌ شَمَّاءُ
قَدْ رَمَى نَابِلٌ فَأَنْمَى وأَصْمَى وَلَيَالِيكَ ما لَهَا إِنْماءُ
إِنَّ رَبَّ الحِصْنِ المشِيْدِ بِتَيْما ءَ تَوَلَّى وخُلِّفَتْ تَيْماءُ
أَوْمأَتْ لِلْجِوارِ كَفُّ الثُّرَيْـ ـا ثُمَّ صُدَّ الحَدِيْثُ والإِيْمَاءُ
شَهِدَتْ بِالمِلْيَاكِ أَنْجُمُها السِّتْـ ـةُ ثُمَّ الخَضِيْبُ والجَذْماءُ
فَهِمُ النَّاسِ كَالجَهُولِ وما يَظْـ فَرُ إِلَّا بِالحَسْرَةِ الفُقَهاءُ
تَلْتَقِي فِي الصَّعِيْدِ أُمٌّ وبِنْتٌ وتَسَاوَى القَرْنَاءُ والجَمَّاءُ

وأَنِيْقُ الرَّبِيْعِ يُدْرِكُهُ القَيْـ ـظُ وفيهِ البَيْضاءُ والسَّحْماءُ

وطَرِيقِي إلَى الحِمَامِ كَرِيهٌ لَمْ تُهَبْ عِنْدَ هَوْلِهِ اليَهْمَاءُ

وَلَوَ انَّ البَيْدَاءَ صَارِمُ حَرْبٍ وَهْيَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ صَرْماءُ

كَيْفَ لا يُشْرِكُ المضِيْقِيْنَ في النَّعْـ ـمَةِ قَوْمٌ عَلَيْهِمُ النَّعْماءُ

١- اسْتِشْرَاءُ الجَهْلِ والعَمَى وقِلَّةُ العُلَماءِ (بَيْتانِ) .

٢- الثَّناءُ عَلَى اللهِ: إذْ يَذْكُرُ أبو العلاء أنَّ للهِ الماءَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والثُّرَيا وغَيْرَها مِنَ الكَوَاكِبِ والأَنْجُمِ وأنَّها شاهِدَةٌ عَلَى قُوَّتِهِ ومُلْكِهِ (خمسةُ أبياتٍ) .

٣- النَّاسُ والأدْيانُ: إذْ يَرى النَّاس شَرّاً، قَدْ خَلَوْا مِنَ الكِرامِ إلَّا مِنَ الشُّخُوْصِ والأسْماءِ، ويَرى أنَّ الكُتُبَ المقَدَّسَةَ قَدِ احْتَوَتْ مُقْحَماتٍ مِنَ الافْتِرَاءِ والزَّيْفِ. (بَيْتانِ)

٤- القَدَرُ وهَيْمَنَتُهُ: فَيَرى اللَّيْلَ والشُّهُبَ شَبَكَةً عَظِيمَةً قَدْ أَلْقَاها القَدَرُ يَتَصَيَّدُ بِها الأَنامَ. (ثلاثةُ أبياتٍ)

٥- حِكْمَةٌ: فالحُكَماءُ والأَلِبَّاءُ قَدْ ماتُوا غَيْظاً مِنْ تَصارِيْفِ الحَياةِ وأَحْوَالِها. (بيتانِ)

٦- حَدِيثُهُ عَنِ الأَمْزِجَةِ أوِ الأخْلاطِ الأَرْبَعَةِ. (بيتانِ)

٧- الزَّمَانُ وتَعاقُبُ اللَّيْلِ والنَّهارِ: ويُشِيْرُ أبو العلاء هُنا إلى خَبَرِ كَعْبِ بْنِ مَامَةَ[1] (خَمْسةُ أبياتٍ)

٨- حَدِيْثُهُ عَنِ السَّلامِ والرَّحْمَةِ: وهُنا تأَمُّلاتٌ وأبْياتٌ فِي الحِكْمَةِ، فَلَوْ كانَ الأنامُ عُقَلاءَ لَما قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَجَرَتِ الدِّماءُ مِنهُمْ مَجْرى المِيَاهِ، وإِنَّ الرَّاحِمِيْنَ هُمْ أجْدَرُ النَّاسِ بِالرَّحْمَةِ. وهُنا يَتَلاعَبُ أبو العلاء بِالألفاظِ بَيْنَ الكَلِمَتَيْنِ (أدْماء) التي تَعْنِي الظَّبْيَةَ

[1]- كَعْبُ بْنُ مامَةَ الإيادِيُّ، ثالِثُ ثَلاثَةٍ، عُرِفُوا في الجاهِلِيَّةِ بِالكَرَمِ والإيثارِ، ويَذْكُرُونَ أنَّهُ ماتَ عَطَشاً لِأَنَّهُ آثَرَ غَيْرَهُ بِالماءِ، والآخَرَانِ هُما حاتِمُ الطائِيُّ، وهَرِمُ بْنُ سِنانٍ، مَمْدُوحُ زُهَيْرٍ، انْظُرِ المفَضَّلِيّاتِ ص ٤٩.

التي خَالَطَ سَوَادَها بَيَاضٌ و(آدَم)، وبَيْنَ الكَلِمَتَيْنِ (قَرَمَاءَ)[1] و(قَرَمْتَنا) بِمَعْنَى أَكَلْتَنا، وقَرَماءُ اسْمُ المَوْضِعِ الذي قَضَى فِيهِ نَحَّامُ، فَرَسُ السُّلَيْكِ بْنِ سُلَكَةَ[2] (عَشَرَةُ أبياتٍ) .

٩- قَضَاءُ المَوْتِ وتَفَكُّرٌ في الخَلْقِ والخالِقِ؛ فالمَوْتُ يَقْضِي عَلَى الأَرْضِ الجَرْدَاءِ ومُرُوجِ الرَّبِيعِ الأَنِيقَةِ عَلَى السَّوَاءِ، كَمَا أنَّ الأُمَّ وبِنْتَها تَسْتَوِيانِ أمامَ افْتِرَاسِهِ والْتِهامِهِ. (تِسْعَةُ أبياتٍ) .

١٠- دَعْوَةُ أَبِي العلاءِ الأَغْنِيَاءَ وأَهْلَ الثَّرَاءِ بِأَنْ يُشْرِكُوا الفُقَرَاءَ فِيما أُعْطُوْا مِنَ الثَّرَاءِ والنَّعْمَاءِ. (بَيْتٌ واحِدٌ).

القصيدة السادسة :

وهِيَ هَذِهِ المِيْمِيَّةُ ذَاتُ التَّصْرِيْعِ[3]:

أَدُنْيايَ اذْهَبِي وسِوَايَ أُمِّي	فَقَدْ أَلْمَمْتِ لَيْتَكِ لَمْ تُلِمِّي
وَكَانَ الدَّهْرُ ظَرْفاً لا لِحَمْدٍ	تُؤَهَّلُهُ العُقُولُ ولا لِذَمِّ
وأَحْسَبُ سَانِحَ الإِرْزِيْمِ نَادَى	بِبَيْنِ الحَيِّ عَنْ صَحْرَاءِ زَمِّ
إذا بَكْرٌ جَنَى فتَوَقَّ عَمْراً	فَإِنَّ كِلَيْهِما لِأَبٍ وأُمِّ
وخَفْ حَيْوَانَ هَذِي الأَرْضِ واحْذَرْ	مَجِيءَ النَّطْحِ من رُوقٍ وَجُمِّ
وفِي كُلِّ الطِّبَاعِ طِبَاعُ نُكْرٍ	ولَيْسَ جَمِيعُهُنَّ ذَوَاتِ سُمِّ
وَمَا ذَنْبُ الضَّرَاغِمِ حِيْنَ صِيْغَتْ	وصُيِّرَ قُوتُهَا مِمَّا تُدَمِّي
فَقَد جُبِلَتْ عَلَى فَرْسٍ وضَرْسٍ	كما جُبِلَ الوَقُودُ عَلَى التَّنَمِّي
ضِيَاءٌ لَمْ يَبِنْ لِعُيُونِ كُمْهٍ	وقَولٌ ضَاعَ في آذَانِ صُمِّ
لَعَمْرُكَ ما أُسَرُّ بِيَوْمِ فِطْرٍ	ولا أَضْحَى ولا بِغَدِيْرِ خُمِّ

---

[1]- هَكَذا وَرَدَتْ في مُعْجَمِ ياقُوتٍ، ج ٤، ص ٦٧ – ٦٨، ولَكِنَّها وَرَدَتْ مَطْبُوعَةً في اللُّزُوْمِ (فَرَماء) بِالفاء.

٢- السُّلَيكُ بْنُ سُلَكَةَ أَحَدُ كِبارِ العَدَّائِيْنَ مِنَ العَرَبِ الأَقْدَمِيْنَ، وكانَتْ أُمُّهُ أَمَةً حَبَشِيَّةً.

[3]- نفسه، ج ٢، ص ٣٠٩ .

وكَمْ أبْدَى تَشَيُّعَهُ غَوِيٌّ لِأجْلِ تَكَسُّبٍ بِبِلادِ قُمِّ
وَمَا زَالَ الزَّمَانُ بِلا ارْتِيابٍ يُعِدُّ الجَدْعَ لِلأنْفِ الأشَمِّ
أحَاضِنَةَ الغُلامِ ذَمَمْتِ مِنهُ أذَاكِ فَأرْضِعِي حَنَشاً وضُمِّي
فَلَوْ وُفِّقْتِ لَمْ تَسْقِي جَنِيْناً ولَمْ تَضعِي الوَلِيدَ ولَمْ تُهَمِّي
لَهَانَ عَلَى أقَارِبِكِ الأدَانِي قِيَامُكِ عَنْ خَدِيْجٍ غَيْرِ تَمِّ
سَألْتِ عَنِ الحَقَائِقِ وهْيَ سِرٌّ ويَخْشَاكِ المخَبِّرُ أنْ تَنُمِّي
وكَيْفَ يَبِيْنُ لِلأفْهَامِ مَعْنًى لَهُ مِنْ رَبِّهِ قَدَرٌ مُعَمِّي
وعِنْدِي لَوْ أمِنْتُكِ عِلْمُ أمْرٍ عَنِ الجُهَّالِ غَيَّبَهُ مُكِمِّ
وسَمَّى أنْ أرَاقَ المَاءَ جِبْسٌ يُرَاقِبُ جِنَّةً أنْ لا يُسَمِّي
رَأيْتُ الحَقَّ لُؤْلُؤَةً تَوارَتْ بِلُجٍّ مِنْ ضَلالِ النَّاسِ جَمِّ
أحُثُّ الخَلْقَ مِنْ ذَكَرٍ وأنْثَى عَلَى حُسْنِ التَّعَبُّدِ والتَّأمِّي
وقَدْ يُلْفَى الغَرِيْبُ عَلَى نَوَاهُ أعَزَّ عَلَيْكَ مِنْ خَالٍ وعَمِّ
ونَحْنُ مُيَمِّمُونَ مَدًى بَعِيْداً كأنَّا عَائِمُونَ غِمارَ يَمِّ
مَتَى يَتَبَلَّجُ المُبْيَضُّ يَرْعَى لِقَوْمٍ تَحْتَ أخْضَرَ مُدْلَهِمِّ

١- مُخَاطَبَتُهُ الدُّنْيا: فَهُوَ يَطْلُبُ مِنْها أنْ تَذْهَبَ عَنْهُ وتَغُرَّ غَيْرَهُ. (بَيْتانِ)

٢- قَضِيَّةُ الشَّرِّ؛ فَيَرَى أبو العلاء أنَّ الشَّرَّ مُتَأَصِّلٌ غَرِيْزَةً في جَمِيْعِ الأَحْيَاءِ، وإلَّا فَلِمَ إذَنْ جُبِلَتِ الأُسُوْدُ عَلَى الفَرْسِ والضَّرْسِ لِتَقْتَاتَ لَحْماً. (ثلاثَةُ أبياتٍ).

٣- مَدْحُه نَفْسَهُ : يَرَى أبا العلاء نَفْسَهُ رَجُلاً واضِحَ التَّفْكِيْرِ صافِيَهُ، لا يَلْتَزِمُ بِعَقِيْدَةٍ، ولا يُرَاعِي مُحابَاةً لِطائِفَةٍ مِنَ الطَّوائِفِ أَوْ فِرْقَةٍ مِنَ الفِرَقِ، ولا يُسَرُّ بِعِيْدِ فِطْرٍ ولا أَضْحَى[1] . كَمَا ولا يَسُرُّهُ يَوْمُ غَدِيْرِ خُمٍّ[2] (ثلاثَةُ أبْياتٍ)

٤- حَدِيْثٌ عَنْ غَدْرِ الحَيَاةِ وحَمَاقَةِ الأُمَّهاتِ اللائي يُكَرِّسْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِأَبْنائِهِنَّ ويَقِفْنَها عَلَيْهِمْ. (ثلاثَةُ أبْياتٍ)

٥- فَخْرُهُ بِنَفْسِهِ: إذْ يَتَّهِمُ النَّاسَ بِالجَهْلِ والغَبَاءِ، ويُقِرُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ الكَثِيْرَ مِمَّا لا يَعْرِفُوْنَهُ، ولَيْسَ بِمُفْضِيْهِ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُ لا يَأْمَنُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، ويُعْلِنُ ازْدِرَاءَهُ لِخُرَافاتِ النَّاسِ وتَطَيُّرِهِمْ بِالجِنِّ. (أَرْبَعَةُ أبْياتٍ)

٦- حِكْمَةٌ: إذْ يَنْصَحُ النَّاسَ بِحُسْنِ الفَعَالِ وخَيْرِ الأعْمالِ ويَقُوْلُ إنَّ الغَرِيْبَ رُبَّما أُلْفِيَ خَيْراً مِنْ قَرَاباتِ المرْءِ، عُمُوْمَةٍ أو خُؤُوْلَةٍ.

وعَسَى أنْ تُلاحِظَ هُنا بِوُضُوْحِ الصِّلَةِ بَيْنَ هَذِهِ القصائِدِ مِنَ اللُّزُومِ و(المعَلَّقاتِ المحْدَثَةِ) مِنْ دِيوانِ سَقْطِ الزَّنْدِ، إذْ تَجِدُ هُنا ذاتَ الصِّفاتِ المميِّزَةِ (لِمُعَلَّقَةِ) أبي العلاءِ المحْدَثَةِ حِيْنَما يَأْخُذُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ في مُعالجَةِ مَوْضُوعاتِ اللَّيْلِ ووَصْفِ الأسْيَافِ والحُمُرِ الوَحْشِيَّةِ ومَشَاهِدِ الصَّحَراءِ والحَرْبِ. وإنَّما يَسْتَخْدِمُ هَذِهِ الموْضُوعاتِ طَلَباً لِلأَغْراضِ الفَنِّيَّةِ، عَلَى نَحْوِ ما مَرَّ بِنا في مَوْضُوعِ الفَتاةِ الباكِيَةِ في قصائِدِ بَغْدادَ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الموْضُوعاتِ أنْ تُنْشِئَ عُنْصَراً مِنَ التَّنَوُّعِ فِي القَصائِدِ التي تَجِيءُ فِيْها، فَتُعْطِيَ الشَّاعِرَ فُرْصَةً لِيَسْتَرْسِلَ فَيُشْبِعَ تَذَوُّقَهُ لِلأَلْفاظِ، وتَجِدُ فِي الأجْزاءِ الافْتِتاحِيَّةِ لِلْقصائِدِ حِرْصَ الشَّاعِرِ عَلَى خَلْقِ جَوٍّ مِنَ الحَنِيْنِ مُلاحَظاً مَحْسُوساً. فأَحْيَاناً يَأْخُذُ فِي التَّفَكُّرِ فِي

---

[1] - عِيْدُ الفِطْرِ فِي أَوَّلِ شَهْرِ شَوَّالٍ عَقِبَ رَمَضَانَ، وعِيْدُ الأَضْحَى فِي العاشِرِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ، الشَّهْرِ الثانِي عَشَرَ مِنَ التَّقْوِيْمِ الإسْلامِيِّ.

[2] - يَذْكُرُ الشِّيْعَةُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ جَمَعَ أَصْحابَهُ بِبِئْرِ خُمٍّ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ المدِيْنَةِ عِنْدَ رُجُوْعِهِ مِنْ مَكَّةَ، وأَخْبَرَهُمْ أَنَّ عَلِيّاً خَلِيْفَتُهُ، انظُرْ (أَعْيانَ الشِّيْعَةِ) ج٢ ص ٣٨٨، وتَفْسِيْرَ الطَّبَرِيِّ، بُوْلاق ج٦، ص ١٩٩.

حَالِ النَّاسِ ويَغْتَمِزُ فِيهِمْ رُعُونَتَهُمْ وغَبَاءَهُمْ، وأحْياناً يَتَفَكَّرُ فِي اضْمِحْلالِ الحَيَاةِ وزَوالِها ووَشْكِ وُقُوعِ الموتِ. فَكُلُّ هَذِهِ الموْضُوعاتِ تُنْشِئُ نَوْعاً مِنَ الحَنِيْنِ، ولِذَلِكَ يَصِحُّ أنْ تَتَّصِلَ حَقّاً بِمَوْضُوعِ النَّسِيبِ المعْرُوفِ، وأحْيَاناً يَتَعاطَى أبو العلاء هَذا النَّسِيبَ نَفْسَهُ، ولَكِنْ عادةً ما لا يَأْتِي بِهِ فِي الأبْياتِ الافْتِتاحِيَّةِ، وإنَّما يَتَعاطَاهُ أبُو العلاء صَرِيحاً هَكَذَا حِيْنَما يَأْخُذُ في مُعَالجَةِ قَضَايا الزَّوَاجِ والأخْلاقِ. وأكْثَرُ ما يَرْسُمُ أبو العلاء صُوَراً حَيَّةً ناضِرَةً ناطِقَةً لجَمَالِ المرْأَةِ وأُنُوثَتِها، حِيْنَما يُحاوِلُ تَحْذِيرَ الرِّجالِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلإغْرَاءِ ويَنْتَصِرُ لِقَضِيَّةِ الطَّهارَةِ والعَفَافِ والعُزُوبَةِ. وما كانَ أصْدَقَ زُهَيْراً حِيْنَ قَالَ[1]:

ومَهْما تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيْقَةٍ وإنْ خَالَها تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فَمَعَ تَزَهُّدِ أبِي العلاء وما كانَ يَظْهَرُ مِنهُ مِنْ تَبَتُّلٍ وتَجَنُّبٍ لِلنِّساءِ والزَّوَاجِ، إلَّا أنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُمْسِكَ عَنِ التَّفَكُّرِ المتَلَذِّذِ فِيهِنَّ والتَّلَذُّذِ بِذِكْرِهِنَّ، أَوَ لَيْسَ هُوَ مَنْ قَالَ فِي أَحَدِ أبْياتِهِ[2]:

والمرْءُ لَيْسَ بِزاهِدٍ في غادَةٍ لَكِنَّهُ يَتَرَقَّبُ الإمْكانا

هَذا، وأمَّا قصائِدُ اللُّزُوْم الأُخْرَى، مِمَّا لا يُمْكِنُنا أنْ نَعُدَّهُ في القِطَعِ ولا فِي القصائِدِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الدِّقَّةِ، فإنَّهُنَّ ذَواتُ طبائِعَ مُخْتَلِفَةٍ ومُمَيِّزَاتٍ مُتبايِنَةٍ، ولَكِنَّهُنَّ جَمِيْعاً يَعْتَلِقْنَ بِسَبَبٍ مِنَ الأسْبَابِ بِالقِطْعَةِ أوْ بِالقَصِيدَةِ. فَبَعْضُهُنَّ قِصارٌ بَالِغاتُ القِصَرِ، فَحَقُّهُنَّ لِهَذا السَّبَبِ وَحْدَهُ أنْ يُعْدَدْنَ فِي القِطَعِ، وإنْ لَمْ يَصْدُق عَلَيْهِنَّ وَصْفُها. ولا رَيْبَ أنَّ أبا العلاء كان يَرُوْمُ إطالَتَهُنَّ لَولا مَرَاكِبُ قَوَافِيهِنَّ الصَّعْبَةِ. ومِثَالُ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ النَّظْمِ

---

[1]- دِيْوَانُهُ، ص ٣٢ .

[2]- اللُّزُوم، ج٢، ص ٣٥٤ .

في اللُّزُومِ، قِطْعَةٌ مِنْ خَمْسةِ أبْياتٍ يَتَأمَّلُ فِيْها أبو العلاء الموْتَ الذي حَلَّ بِالخَلِيْلِ بْنِ أحْمَدَ، وسِيْبَوَيْهِ ويُونُسَ بْنِ حَبْيبٍ، كِبارِ نُحَاةِ العَرَبِيَّةِ، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ[1]:

تَوَلَّى سِيْبَوَيْهِ وجاشَ سَيْبٌ ... مِنَ الأيَّامِ فاخْتَلَّ الخَلِيْلُ

ويُوْنُسُ أوْحَشَتْ مِنهُ المغَانِي ... وغَيرُ مُصَابِهِ النَّبأُ الجَلِيْلُ

أَتَتْ عِلَلُ المنُوْنِ فَمَا بَكاهُمْ ... مِنَ اللَّفْظِ الصَّحِيْحُ ولا العَلِيْلُ

ولَوْ أنَّ الكَلامَ يُحِسُّ شَيْئاً ... لَكانَ لَهُمْ وَرَاءَهُمُ أَلِيْلُ

ودَلَّتْهُمْ إلَى حُفَرٍ أيَادٍ ... لَنا بِوُرُدِها وَضَحَ الدَّلِيلُ[2]

وعَلَى نَحْوِ ما تَرَى، يُنْهِي أبو العلاء هَذِهِ القِطْعَةَ في ذَاتِ الوَقْتِ الذي جَعَلَتْ تَصِيْرُ فِيهِ إلَى إمْتاعٍ وتَسْتَأْثِرُ فِيهِ بِاهْتِمَامِ السَّامِعِ وانْتِبَاهِهِ، أعْنِي حِيْنَما أَخَذَ الشَّاعِرُ في فِكْرَةِ أنَّ مُخْتَلِفَ أقْسامِ الكَلامِ (كالصَّحِيْحِ مِنَ الأَفْعالِ والمعْتَلِّ مِنْها) لَمْ تَتَفَجَّعْ عَلَى مَوْتِ هَؤُلاءِ الرِّجالِ ولَمْ تُبْدِ حُزْناً عَلَى فَقْدِهِم.

فَلَيْسَ مِنْ عادةِ أبي العلاء مَتَى أَخَذَ في اللَّعِبِ بِالألْفاظِ أنْ يُمْسِكَ عَنِ الاسْتِرْسالِ فِيهِ وأنْ يُقْلِعَ عَنهُ هَذَا الإقْلاعَ النَّابِي فَيَقِفَ هذا الموْقِفَ الجافِي. وثَمَّةَ مِثالٌ آخَرُ عَلَى هَذَا النَّظْمِ مِنْ أبِي العلاء، وهُوَ القِطْعَةُ التي خاطَبَ بِها نَمْلَةً، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ[3]:

اسْتَرَدَّ الحَيَاةَ مِنْكِ لَعَمْرُ اللهِ ... مَنْ كانَ لِلْحَيَاةِ مُعِيْراً

رُبَّما تَدْرُجِيْنَ فِي أوَّلِ النَّمْـ ... ـلِ إذا ما عَدَوْنَ عِيْراً فَعِيْرَا

وَتَحُلِّيْنَ قَرْيَةً فَسَقَاكِ الْـ ... ـمَوْتَ كَأْساً كَما سَقَاها البَعِيْرَا

أتُرَجِّيْنَ مِنْ إلهِكِ عَفْواً ... وتَخافِيْنَ في الحِسَابِ السَّعِيْرَا

---

[1] - نَفْسُه، ج٢، ص ١٨٠ .

[2] - لَمْ يُوْرِدْ صاحِبُ الكِتابِ هَذِهِ الأبْياتَ نَصاً فأوردناها لِتَتَّضِحَ حُجَّةُ الكاتِبِ، ولِيَظْهَرَ مَعْنَى كَلامِهِ.

[3] - نفسه، ج ١، ص ٣٧٠ .

لُعِنَ الحِرْصُ كَمْ تَحَكَّرتِ قُوْتاً ثُمَّ خَلَّفْتِ بُرَّهُ والشَّعِيْرا[1]

فَهَذِهِ الأَبْياتُ تَبْدَأُ بِبَيْتٍ مِنَ الفَخَامةِ والجلالِ بِمَكانٍ، وهَذَا يَسْتَوْجِبُ أنْ يَتَوالَى بَعْدَهُ عَدَدٌ كَبِيْرٌ مِنَ الأبْيات في قَرِيِّهِ. ولَكِنَّ الشَّاعِرَ بَدَلاً مِنْ ذَلِكَ، أَخَذَ في وَصْفِ النَّمْلَةِ التي تَتَقَدَّمُ قِطارَ بَنِي جِنْسِهَا وهِيَ تَكْدَحُ وتَشْقَى لِجَمْعِ قُوْتِها مُحْتَكِرَةً لَهُ إلَى وَقْتِ الشِّتَاءِ، فَهُوَ يَعِيبُ عَلَى هَذِهِ المخْلُوقَةِ المِسْكِيْنَةِ حِرْصَها، ويُحَذِّرُها أنَّها لا بُدَّ يَوْماً مُلاقِيَةُ الموْتَ، وهُوَ المصِيْرُ الذِي لَنْ يُخْطِئَهُ مِنَ الأَحْيَاءِ حَيٌّ، أَنِمَالٌ أَوْ أَجْمَالٌ. ثُمَّ يُعْرِبُ عَنْ إشْفاقِهِ عَلَيْها، ويَعْجَبُ هَلْ تَرْجُو الآخِرَةَ ويَوْمَ الحِسَابِ، وهُنا كُنَّا نَتَوَقَّعُ مِنَ الشَّاعِرِ أنْ يَسْتَرْسِلَ في ضُرُوبِ مَزْجِهِ المتَفَرِّدِ لِلْخَيَالِ والتخيُّلِ والتَّصْوِيرِ، ولَكِنْ بَدَلاً مِنْ ذَلِكَ تَنْتَهِي الأَبْياتُ هَذَا الانْتِهاءَ المفاجِئَ.

وبَعْضُ القصائِدِ التي حَوَتْ أكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ أَبْياتٍ تَبْدُو كَأَنَّها كانَ يُرَادُ لَها أنْ تَكُوْنَ قصائِدَ طِوَالاً، ولَكِنَّ قِلَّةَ قَوَافِيْها أعْجَلَتْ هَذَا الطُّوْلَ فَعَاقَتْهُ، فارْتَدَّتْ هَذِهِ القصائِدُ قِصَاراً. وأَكْثَرُ ما يُلاحَظُ هَذَا فِي القصائِدِ التي أَتَى أبو العلاء في أَوَائِلِها بِالتَّصْرِيعِ. وتَجِدُ عَدَداً مِنْ هَذَا النَّوْعِ في فَصْلِ الرَّاءِ المكْسُوْرَةِ. ويُوْجَدُ هذا الضَّرْبُ عَلَى نَحْوٍ أَقَلَّ في القصائِدِ الخَالِيَةِ مِنَ التَّصْرِيعِ، ولَكِنْ مِنَ المحْتَمَلِ أنَّ الإطالَةَ كانَتْ وَارِدَةً في ذِهْنِ الشَّاعِرِ عِنْدَ نَظْمِها.

والقصائِدُ التَّالِيَةُ أمْثِلَةٌ عَلَى هَذَا الضَّرْبِ:

القَصِيدة السَّابِعَةُ:

وهِيَ رَائِيَّتُهُ:[2]

---

[1] - لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الأَبْياتُ في الأَصْلِ ولَكِنْ أوْرَدْناها لِيَتَّضِحَ كَلامُ المؤلف ويَبِيْنَ مُرَادُهُ .

[2] - نفسه، ص ٣٩٦ .

أَصَابَ الأَخْفَشَيْنِ بَصِيرُ خَطْبٍ　　أَعادَ الأَعْشَيَيْنِ بلا جِوَارِ

وغِيْلَ المازِنِيُّ مِنَ اللَّيالِي　　بِزَنْدٍ في خُطُوبِ الدَّهْرِ وَارِ

ولِلْجَرْمِيِّ ما اجْتَرَمتْ يَدَاهُ　　وحَسْبُكَ مِنْ فَلاحٍ أَوْ بَوَارِ

فأَمَّا فَرْخُهُ فَبِلا جَناحٍ　　يَطِيْرُ بِحَمْلِ أَقْلامٍ جَوَارِ

وَلَمْ يَهْمُمْ بِلَقْطِ الحَبِّ يَوْماً　　فَيُوْجَدُ رَهْنَ أَشْرَاكٍ دَوَارِ

ولا يَرِدُ المِيَاهَ إذا هَوَافٍ　　مِنَ الأَفْرَاخِ مُتْنَ مِنَ الأُوَارِ

أَتَمُّ مِنَ النُّسُورِ بَقاءَ عُمْرٍ　　نسورِ الطَّيْرِ لا الشُّهْبِ السَّوَارِي

وأَكْبَرُ ما شَكاهُ مِنَ الرَّزَايا　　عَوَارِيٌّ لِضَيْعَتِهِ عَوَارِ

فَطَوْراً بِالمغارِبِ مُسْتَشاراً　　وطَوْراً في المشَارِقِ في عِوارِ

ولَمْ يَخَفِ الحِمامَ فَأَلْجَأَتْهُ　　مُطِلاَّتُ الصُّقُورِ إِلَى تَوَارِ

أَجَلُّ مِنَ الفَرِيْدِ لِخَازِنِيْهِ　　وأَبْقَى في الأَكُفِّ مِنَ السِّوَارِ

وما نَفَعَ المـُبَرِّدُ مِنْ حَمِيمٍ　　وصادَتْ ثَعْلباً نُوَبٌ ضَوَارِ

١- الموْتُ: الذِي لَمْ يُخْطِئِ الأَخْفَشَيْنِ ولا الأَعْشَيَيْنِ ولا المازِنِيَّ ولا الجَرْمِيَّ[1] (ثلاثَةُ أبْياتٍ)

٢- كِتابُ الجَرْمِيِّ (الفَرْخُ)[1]: إذْ يُقارِنُهُ أبو العلاء بِطائِرٍ، فَهُوَ يَطِيْرُ كالطَّيْرِ، ولَكِنْ بِلا جَنَاحَيْنِ وهُوَ يَفْضَلُ الأَطْيَارَ في أَنَّهُ لا يَحْتَاجُ ماءً يَرِدُهُ ولا حَبّاً يَلْقُطُهُ، وهُوَ بِلا شَكٍّ

[1] - الأخْفَشانِ الأَخْفَشُ الكَبِيرُ والصَّغِيرُ نَحْوِيَّانِ كَبِيرانِ، والأَعْشَيَانِ أعْشَى قَيْسٍ وهُوَ مَيْمُونُ أبو بَصِيرٍ الشاعِرُ الجاهِلِيُّ المعروف، تَعَلَّمَ الشِّعْرَ صَغِيراً مِنْ خالِهِ المسَيَّبِ بْنِ عَلَسٍ (مِنْ شُعَراءِ المفَضَّلِيَّاتِ). وكانَ كَثِيرَ التَّطْوَافِ والتَّسْفارِ في بِلادِ العَرَبِ وخارِجَها مِمَّا جَعَلَ مِنهُ شاعِراً مُثَقَّفاً وفي شِعْرِهِ رِقَّةٌ مَعَ جَزَالَتِهِ. مَدَحَ مُلُوكَ الفُرْسِ والغَساسِنَةِ وأشْرافَ اليَمَنِ، وكانَ مُحِبّاً لِلْخَمْرِ والنِّساءِ عاكِفاً عَلَيْهِما، ولَمَّا جاءَ الإسلامُ أرَادَهُ فَمَدَحَ النَّبِيَّ (ص) بِدَالِيَّةٍ مَشْهُورةٍ ذَكَرَ فِيها بَعْضَ أَبْرَزِ قِيَمِ الإسْلامِ. وأما أعْشَى هَمْدَانَ فَهُوَ عَبْدُالرَّحمنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحارِثِ، هَمْدَانِيٌّ يَمانِيٌّ أَمَوِيٌّ، شاعِرٌ وفارِسٌ، قَتَلَهُ الحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ صَبْراً سَنَةَ ٨٣هـ؛ إذ كانَ خَرَجَ مُقاتِلاً الأَمَوِيِّيْنَ مَعَ عَبْدِالرحمنِ بْنِ الأَشْعَثِ. وأَبُو عُثْمانَ المازِنِي وأبو عُمَرَ الجَرْمِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ. (التُّرْجُمان).

أبْقَى عُمُراً مِنْ كُلِّ الأطْيارِ حَتَّى نُسُوْرِ لُقْمانَ الخُرافِيَّةِ، ولَكِنَّهُ يُشَكِّكُ فِي أنْ يُطاوِلَ عُمُرُهُ عُمُرَ الأَنْجُمِ المعْرُوفَةِ بِالنَّسْرِ، وأَشَدُّ بَلاءٍ يُمْكِنُ أنَّ يَحِلَّ بِهِ هُوَ إهْمالُهُ وسُوْءُ التَّعامِلِ بِهِ مِنْ قِبَلِ مُعِيرِيهِ، وقَدْ صَارَ ذَائِعَ الصِّيتِ مَعْرُوفاً فِي مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبِها، ولَهُوَ أغْلَى مِنَ الأحْجارِ الكَرِيْمَةِ. (ثَمانِيَة أبياتٍ)

٣- تَفَجُّعُهُ عَلَى مَوْتِ ثَعْلَبٍ[٢]، والمبَرِّدِ[٣]. (بَيْتُ واحِدٌ).

فَأَنْتَ تَرَى هُنَا بِجَلاءٍ انْتِهاءً مُفاجِئاً.

القَصِيدة الثَّامِنَةُ:

وهِيَ قَصِيْدَتُهُ اليَائِيَّةُ[٤] :

أَصْبَحْتُ أَلْحِي خَلَّتَيَا	هَاتِيْكَ أُبْغِضُها وتَيَّا
ودُعِيْتُ شَيْخاً بَعْدَما	سُمِّيتُ فِي زَمَنٍ فُتَيَّا
وَكَفَيْتُ صَحْبِي اللَّتَيَّا	بَعْدَ اللَّتَيَّا واللُّتَيَّا
سَقْياً لِأَيَّامِ الشَّبابِ	وَمَا حَسَرْتُ مَطِيَّتَيَّا
أَيَّامَ آمُلُ أَنْ أَمَسَّ	الفَرْقَدَيْنِ بِرَاحَتَيَّا
وأُفِيْضُ إِحْسَانِي عَلَي	جَارَيَّ ثُمَّ وجَارَتَيَّا
فَالآنَ تَعْجِزُ هِمَّتِي	عَمَّا يُنَالُ بِخُطْوَتَيَّا
أَوَصَى ابْنَتَيْهِ لَبِيْدٌ الْ	مَاضِي ولا أُوْصِي ابْنَتَيَّا
واللهُ يَرْحَمُنِي إذا	أُوْدِعْتُ أَضْيَقَ سَاحَتَيَّا
لا تَجْعَلَنْ حَالِي إذا	غُيِّبْتُ أَبْأَسَ حَالَتَيَّا

---

[١] هُوَ اسْمُ كِتابِ أبِي عُمَرَ الجَرْمِيِّ، كما سَبَقَ بَيَانُهُ فِي هَذا الكِتابِ.

[٢]- أَبُو العَبَّاسِ أحمَدُ بْنُ يَحْيَى، إمامُ نُحاةِ الكُوْفَةِ (٢٠٠هـ-٢٩١هـ)؛ وانْظُرْ وَفَيَات الأَعْيَان ج١ ص ٣٦ .

[٣]- هو أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيْدَ، إمَامِ نُحاةِ البَصْرَةِ؛ وانْظُرِ الوَفَيَاتِ ج ١ ص ٦٢٦ .

[٤]- اللُّزُوم، ج٢، ص ٤٣١ .

لَسْتُ المفَاخِرَ فِي الرِّجا ... لِ بِعَمَّتَيَّ وخَالَتَيَّا
لَكِنْ أُقِرُّ بِأَنَّني ... ضَرَعٌ أُمَارِسُ دَارَتَيَّا

١- شَبَابُهُ وشَيْخُوخَتُهُ: يَبْكِي الشَّاعِرُ أيَّامَ شَبابِهِ حِيْنَما كانَ يُكِنُّ آمالاً تَدْفعُهُ لِمُلامَسَةِ الفَرْقَدَيْنِ أوِ النُّجُومِ بِيَدَيْهِ، وأَيَّامَ كانَ غَنِيّاً يُفِيْضُ بإحْسَانِهِ عَلَى جِيْرَانِهِ، رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ. (ثمانيةُ أبياتٍ).

٢- ثَنَاؤُهُ عَلَى نَفْسِهِ : يَرَى أبو العلاء نَفْسَهُ أعْزَبَ مُتَوَاضِعاً يُجافِي الغُرُوْرَ ويَتَحامَى ما يَغُرُّ، ولا يُفاخِرُ بِكَرَمِ أَصْلِهِ. (بيتانِ)

٣- أفْكارٌ دِيْنِيَّةٌ: إذْ يُعَبِّرُ عَنْ آرَاءٍ وَرِعَةٍ حَوْلَ الدَّارِ الآخِرَةِ. (بَيْتانِ)

فالقافِيَةُ هَهُنا عَسِرَةٌ عَصِيَّةٌ، كَمَا تَرَى، ولَوْلا ذَلِكَ لَكانَ أبو العلاء قَدْ أَفَاضَ في مَوضُوعِهِ مَوْضُوْعِ الآخِرَةِ وتَوَسَّعَ فِيهِ، بِطَرِيقَتِهِ المعْهُودَةِ، إذْ يُعْرِبُ عَنْ أفْكارٍ فِي الوَرَعِ والتَّدَيُّنِ، ثُمَّ يَطْرَحُ شُكُوكاً، ثُمَّ يَتَناوَلُ قَضِيَّةَ حَقِيقَةِ الدِّينِ، وهَكَذَا .

وأَغْلَبُ قصائِدِ اللُّزُوْم تَتَفاوَتُ في طُولِها بَيْنَ أَحَدَ عَشَرَ بَيْتاً واثْنَيْ عَشَر، وأنْتَ وَاجِدٌ فِيْها مُمَيِّزَاتِ (القَصِيدَةِ) و(القِطْعَةِ) وخَصائِصَهُما. ويُمَثِّلُ بَيْتُ الحِكْمَةِ المسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ جُزْءاً عَظِيماً فِي أُسْلُوبِها، غَيْرَ أَنَّهُ أحْياناً تَرِدُ فِيْها مَوْضُوعاتٌ طَوِيْلَةٌ وتَأَمُّلاتٌ يَسُوْدُها جَوٌّ مِنَ الحَنِيْنِ.

والقَصائِدُ التَّالِيَةُ أمْثِلَةٌ عَلَى ما ذَكَرْنَا:

القَصِيدة التَّاسِعَةُ:

وهِيَ القافِيَّة[1]:

مارَاعَها فِي قُرَى عَمٍّ وجارِمِها ... إلَّا الأَبَارِيْقُ يَحْمِلْنَ الأَبَارِيقَا

[1]- نفسه، ص ١٣ .

ومُوْمِساتٌ تُوَافِيْها حَنادِسُها بِطارِقِيْنَ يُخَالُوْنَ البَطَارِيقَا
لَمْ يَكْفِهِمْ رِيْقُ كَرْمٍ فِي شَرَابِهِمِ حتى أَضَافُوا إِلَيْهِ مِنْ فَمٍ رِيقَا
لَوْ عُجِّلَتْ لِغَوِيٍّ فاجِرٍ سَقَرٌ لأُشْعِرُوا جَمَرَاتِ النَّارِ تَحْرِيقَا
لَقَدْ تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيا وسَاكِنِها فَأَحَدَثَ الفِكْرُ أَشْجَاناً وتَأْرِيقَا
قَدْ أَغْرَقُوا فِي مَعَاصِيهِمْ فَمَا لَهُمُ لا يُؤْنِسُونَ مِنَ الطُّوفَانِ تَغْرِيقَا
وصَيَّرُوا لِأُنَاسٍ فِي الأذَى طُرُقاً وذَلَّلُوا الإِثْمَ إِعْمَالاً وتَطْرِيقَا
أَعِرْقُ آدَمَ هَذَا لا يُمَازِجُهُ سِوَاهُ؟ أَمْ مَسَّ مِنْ إِبْلِيسَ تَعْرِيقَا
يَخْشَى ذَوِيَّ رَطِيْبٍ حَامِلٍ ثَمَراً مُؤَمَّلٌ مِنْ غُصُونِ اليُبْسِ تَوْرِيقَا
كَمْ تَطْلُبُ المالَ فِي سَهْلٍ وفِي جَبَلٍ وتَقْطَعُ الأَرْضَ تَغْرِيْباً وتَشْرِيقَا
وكَمْ شَهِدْتَ مَخَارِيقَ الوَرَى لَعِبَتْ مُجِيْدَةً لِدُرُوْعِ القَوْمِ تَخْرِيقَا
فَرَاقِبِ اللهَ إِنَّ السَّعْدَ يَتْبَعُهُ نَحْسٌ وإِنَّ لِجَمْعِ الدَّهْرِ تفرِيقَا
وَمَرَّ مُوْسَي ولَمْ يَتْرُكْ لِأُمَّتِهِ إِلَّا أَحَادِيْثَ يُوْدَعْنَ المَهَارِيقَا

١- حَدِيْثٌ عَنِ الانْحِلالِ الخُلُقِيِّ: إذْ يَصِفُ كَيْفَ يَقْضِي الغُوَاةُ الفاجِرُونَ أَوْقاتَهُمْ فِي بُيُوتِ الدَّعارَةِ وحَانَاتِ الشُّرْبِ، ويَرَى أَنَّ الإقامَةَ عَلَى الإِثْمِ والإِغْرَاقَ فِي الفُجُورِ والمَعَاصِي يُشَجِّعُ الخَطِيئَةَ واسْتِشْراءَ الرَّذِيلَةِ، ويَعْجَبُ هَلْ عِرْقُ آدَمَ فِي هَؤُلاءِ مَحْضٌ خالِصٌ لا يُمَازِجُهُ غَيْرُهُ أَمْ قَدْ مازَجَهُ دَمُ إِبْلِيسَ. (ثَمَانِيَةُ أَبياتٍ).

٢- حِكْمَةٌ: إذْ يَصِفُ النَّاسَ بِالحِرْصِ والطَّمَعِ. (بَيْتٌ واحِدٌ)

٣- خِطابُهُ لِرَجُلٍ طَمُوْحٍ يَطْلُبُ المالَ ويُغَامِرُ بِرُوْحِهِ فِي الحُرُوْبِ مِنْ أَجْلِهِ، ثُمَّ يُعْطِي أبو العلاء وَصْفاً مُخْتَصَراً لِمَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ الحَرْبِ، ثُمَّ يَحُثُّ هذا الرَّجُلَ عَلَى التُّقَى والوَرَعِ والتَّوَاضُعِ، ويَنْصَحُهُ أَلَّا يَثِقَ بِقُوَّتِهِ وحَظِّهِ. (ثلاثَةُ أَبْياتٍ)

٤- ذِكْرُ مُوْسَى: يَقُولُ عَنهُ أبو العلاء إِنَّهُ مَضَى ولَمْ يَتْرُكْ لِأُمَّتِهِ سِوَى أَحادِيْثَ مَلَأَتْ كُتُباً ضَخْمَةً.

القَصِيدة العاشِرَةُ:

وهِيَ رائِيَّتُهُ المكْسُورةُ [1] البالغةُ سَبْعَةَ عَشَرَ بَيْتاً:

وَجَدْتُ النَّاسَ كالأَرْضِيْنَ شَتَّى ... فمِن دَمِثٍ يُرِيِّعُ أو حِرارِ

جَلِيْسُ الخَيْرِ كالدَّارِيِّ أَلْقَى ... لَكَ الرَّيَّا كَمُنْتَسَمِ العَرارِ

ولَكِنْ ضِدُّهُ في الرَّبْعِ قَيْنٌ ... أَطارَ إِلَيْكَ مُفْتَرِقَ الشَّرارِ

يُباكِرُ ظَالِمٌ جَنَفاً وَعَرّاً ... كَمَا بَكَرَ الظَّلِيْمُ عَلَى العِرارِ

وحُبُّ العَيْشِ أَعْبَدَ كُلَّ حُرٍّ ... وعَلَّمَ ساغِباً أَكْلَ المرارِ

يُوَقِّرُهُ الكَرَى فَيَقِرَّ طَوْراً ... ويَمْنَعُهُ الحِذَارُ مِنَ القَرارِ

أَلاحَ فَلَمْ يَعُجْ بِغِرارِ نَوْمٍ ... لِبَيْضَاتٍ وُضِعْنَ عَلَى غِرارِ

فما لِلْمَيْنِ يُنْطَقُ فِي التَّنَادِي ... وما لِلْحَقِّ يُهْمَسُ في السِّرارِ

أَصاحِ كَأَنَّ هَذَا الدَّهْرَ شَهْرٌ ... خُلِقْنَا منهُ في لَيْلِ السِّرارِ

وكَمْ عادٍ أَبَادَ وكَمْ ثَمُودٍ ... أَتاهَا صالِحٌ ذَاتَ المرارِ

فَمَهْلاً يا مُتَمِّمُ إِنَّ فِهْراً ... حَوَتْ مِنْ مَالِكٍ دِيَةَ الفُرارِ

عِتَابُكَ خالِداً لَمْ يُجْدِ شَيْئاً ... ولا نَصُّ الْمَلامِ إلى ضِرارِ

لَجَأْتُ إلى السُّكُوْتِ مِنَ التَّلاحِي ... كَمَا لَجَأَ الجَبَانُ إلى الفِرارِ

ويَجْمَعُ مِنِّي الشَّفَتَيْنِ صَمْتِي ... وأَبْخُلُ فِي المحَافِلِ بافْتِرارِ

وكانَ تَأَنُّسِي بِهِمُ قَدِيْماً ... عِثاراً حُمَّ فِي شَأْوِ اغْتِراري

يَئِسْتُ مِنِ انْتِصَافِ الحُرِّ لَمَّا ... رَأَيْتُ الخَيْرَ وُفِّرَ لِلشِّرارِ

ولَمْ نَحْلُلْ بِدُنْيانا اخْتِيَاراً ... ولَكِنْ جاءَ ذاكَ عَلَى اضْطِرارِ

---

[1] - نفسه، ج١، ص ٣٩٤ .

١- حِكْمَةٌ: فالنَّاسُ شَتَّى في طَبائِعِهِمْ، فَجَلِيْسُ الخَيْرِ مِنهُمْ كالعَطَّارِ أوْ بائِعِ المِسْكِ إذا جالَسْتَهُ ظَفِرْتَ مِنهُ بزَكِيِّ الرَّوائحِ يُحْذِيكَها عَفْواً، وضِدُّهُ جَلِيسُ السُّوْءِ يَرَاهُ الشَّاعِرُ قَيْناً، وهُوَ الحَدَّادُ وصانِعُ السُّيُوفِ، لا تَظْفَرُ مِنهُ بِسِوَى الشَّررِ يَتطايَرُ إلَيْكَ مِنهُ، ويُشَبِّهُ الشَّاعِرُ (الظَّالِمَ) (بِالظَّلِيمِ) وهُوَ ذَكَرُ النَّعامِ. (وإنَّما أغْراهُ بِهَذا التَّشْبِيْهِ ما فِي الكَلِمَتَيْنِ مِنْ تَجْنِيسٍ). (خمسةُ أبْياتٍ)

٢- الظَّلِيمُ: إذْ يُشِيْرُ إلى ما يَتَّصِفُ بِهِ طَبْعُهُ مِنْ حِذَارٍ لا يَرُدُّهُ إلى قَرَارٍ، كما يُشِيْرُ إلى حَدْبِهِ على بَيْضِهِ وما لَهُ مِنْ صِغارٍ. (بَيْتانِ)

٣- تَنْدِيدُهُ بِالنَّاسِ وتَبَرُّمُهُ مِنهُمْ: فَهُمْ كَذَّابُونَ قَدِ امْتَهَنُوا المَيْنَ، فلا بُدَّ أنَّهُمْ خُلِقُوا مِنَ الدَّهْرِ في لَيالِي السِّرارِ، وهِيَ اللَّيالِي حالِكَةُ السَّوَادِ في أعْقابِ الشُّهُورِ القَمَرِيَّةِ، ولَسَوْفَ يأْتِي عَلَيْهِمُ القَدَرُ بِحُكْمِهِ فَيُبِيْدَهُمْ كما أبَادَ مِنْ قَبْلُ عاداً وثَمُودَ [1]. (ثلاثةُ أبْياتٍ)

٤- مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَة [2]: يَذْكُرُهُ أبو العلاء ويُظْهِرُ الإشْفاقَ عَلَيْهِ، ويَتَفَكَّرُ في أنَّ مَنِ احْتَجُّوا لَهُ ما أجْدَاهُمُ الاحْتِجاجُ نَفْعاً ولَمْ يُؤْبَهْ بِهِمْ. (ثلاثةُ أبياتٍ)

٥- مَدْحُهُ نَفْسَهُ : يَمْدَحُ نَفْسَهُ عَلَى كَوْنِهِ صَمُوْتاً، فَما تَتَحَرَّكُ مِنهُ شَفَتاهُ وإنْ كانَ لابْتِسامٍ، ثُمَّ يَلْحَى نَفْسَهُ عَلَى مُخالَطَتِهِ النَّاسَ واسْتِئْناسِهِ بِهِمْ في شَبَابِهِ. ويَذْكُرُ أنَّ ذَلِكَ وَقَعَ مِنهُ عَلى حِيْنِ اغْتِرَارِه ثُمَّ يُعْلِنُ يَأْسَهُ مِنْ خَيْرٍ في هَذِهِ الحَيَاةِ، وإذاً فلا سَبِيْلَ لِلْحُرِّ إلى أنْ يَنْتَصِفَ فِيْها.(ثلاثةُ أبياتٍ)

٦- حَدِيْثُهُ في الجَبْرِيَّةِ: إذْ يَرى أنَّهُ لَمْ يَأْتِ إلَى الدُّنْيا اخْتِيَاراً مِنهُ ولَكِنَّهُ اضْطَرَّهُ القَدَرُ إلى ذَلِكَ اضْطِرَاراً. (بَيْتٌ واحِدٌ).

---

[1] - قَبِيْلَتانِ عَرَبِيَّتانِ قَدِيمَتانِ ذُكِرَتا فِي القُرْءانِ.

[2] - أخُو مالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ، قُتِلَ في حُرُوبِ الرِّدَّةِ بِأَمْرِ أبِي بَكْرٍ، الخَلِيْفَةِ الأوَّلِ، ولَكِنَّ خالِدَ بْنِ الوَلِيْدِ، قائِدَ أبِي بَكْرٍ، هُوَ مَنْ كانَ مَسْئُوْلاً عَنْ قَتْلِهِ، انظُرِ المَفَضَّلِيَّات، ص ٥٢٦؛ وخِزانَةَ الأَدَبِ ج٢، ص ٢٠ .

القَصِيدة الحادِيَةَ عَشْرَةَ:

وهِيَ مِيْمِيَّتُهُ[1]:

العَالَمُ العَالِي بِرَأْيِ مَعَاشِرٍ ... كالعَالَمِ الهَاوِي يُحِسُّ ويَعْلَمُ
زَعَمَتْ رِجالٌ أَنَّ سَيَّارَاتِهِ ... تَسِقُ العُقُولَ وأَنَّها تَتَكَلَّمُ
فَهَلِ الكَوَاكِبُ مِثْلُنَا في دِيْنِها ... لا يَتَّفِقْنَ: فَهَائِدٌ أَوْ مُسْلِمُ
ولَعَلَّ مَكَّةَ فِي السَّماءِ كَمَكَّةٍ ... وبِهَا نَضَادِ ويَذْبُلٌ ويَلَمْلَمُ
والنُّورُ في حُكْمِ الخَوَاطِرِ مُحْدَثٌ ... والأَوَّلِيُّ هُوَ الزَّمانُ المظْلِمُ
والخَيْرُ بَيْنَ النَّاسِ رَسْمٌ دَارِسٌ ... والشَّرُّ نَهْجُ في البَرِيَّةِ مُعْلَمُ
طَبْعٌ خُلِقْتَ عَلَيْهِ لَيْسَ بِزائِلٍ ... طُوْلَ الحَيَاةِ وآخَرٌ مُتَعَلَّمُ
إِنْ جَارَتِ الأُمَرَاءُ جاءَ مُؤَمَّرٌ ... أَعْتَى وأَجْوَرُ يَسْتَضِيْمُ ويَكْلِمُ
كَحَمَائِمٍ ظَلَمَتْ فَنَادَي أَجْدَلٌ: ... إِنْ كُنْتِ ظَالِمَةً فَإِنِّيَ أَظْلَمُ
أَرَأَيْتَ أَظْفَارَ الضَّرَاغِمِ عُوِّدَتْ ... فِرَةً وأَظْفَارَ الأَنِيْسِ تُقَلَّمُ
وكَذَاكَ حُكْمُ الدَّهْرِ في سُكَّانِهِ: ... عَيْرٌ لَهُ أُذُنٌ وهَيْقٌ أَصْلَمُ
إِنْ شِئْتَ أَنْ تُكْفَى الحِمَامَ فلا تَعِشْ ... هَذِي الحَيَاةُ إِلَى المنِيَّةِ سُلَّمُ
مَاذَا أَفَدْتَ بِأَنَّ دَهْرَكَ خَافِضٌ ... وغِنَاكَ مُنْبَسِطٌ وعِرْسُكَ غَيْلَمُ
أَحْسِنْ بِدُنْيَا القَوْمِ لَوْ كَانَ الفَتَي ... لا يُقْتَضَي وأَدِيْمُهُ لا يَحْلَمُ
وكَأَنَّما الأُخْرَى تَيَقُّظُ نَائِمٍ ... وكَأَنَّما الأُولَى مَنَامٌ يُحْلَمُ
يَتَشَبَّهُ الطَّاغِي بِطَاغٍ مِثْلِهِ ... فأَخُو السَّعَادَةِ بَيْنَهُمْ مَنْ يَسْلَمُ
في النَّاسِ ذُو حِلْمٍ يُسَفِّهُ نَفْسَهُ ... كَيْما يُهَابُ وجَاهِلٌ يَتَحَلَّمُ
وَكِلاهُمَا تَعِبٌ يُحَارِبُ شِيْمَةً ... غَلَبَتْ فآضَ بِحَرْبِها يَتَأَلَّمُ
فالزَمْ ذَرَاكَ وإِنْ تَشَعَّثَ جِذْرُهُ ... فَالعُسُّ قَدْ يُرْوِيْكَ وهُوَ مُثَلَّمُ

---

[1] اللُّزُوم ج ٢ ص ٢٧١

١- النُّجُومُ: إذْ يُشِيْرُ أبو العلاء إلى ما كانَ سائِداً في عَصْرِهِ مِنْ أفْكارٍ كَعَزْوِ المعْرِفَةِ والحِكْمَةِ إلَى النُّجُومِ، ومِنْ ثَمَّ يَتَساءَلُ هَلْ لِلْكَوَاكِبِ كَمَا لَنَا، أدْيانٌ وعَقَائِدُ لا تَقِفُ عَلَيْها، كَمَا هُوَ حالُنا، وهَلْ لَها أَماكِنُ مُقَدَّسَةٌ كَمَكَّةَ عِنْدَنا. (أربعةُ أبْياتٍ)

٢- الخَيْرُ والشَّرُّ: إذْ يَرى أنَّ النُّوْرَ مُحْدَثٌ وأنَّ الظَّلامَ سابِقٌ عَلَيْهِ في الوُجُودِ، وعَلَى ذَلِكَ فالشَّرُّ صِفَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ في نُفُوْسِ البَشَرِ، والخَيْرُ مُكْتَسَبٌ يَتَعَلَّمُونَهُ تَعلُّماً.(ثلاثةُ أبياتٍ).

٣- كَلامٌ فِي الحُكْمِ والسِّياسَةِ: فالأُمَرَاءُ والحُكَّامُ عُتَاةٌ مُتَجَبِّرُون، إذا ذَهَبَ ظالِمٌ مِنهُمْ خَلَفَهُ أظْلَمُ مِنهُ. (بَيْتانِ)

٤- تَقَلُّبُ قَوَانِيْنِ الطَّبِيْعَةِ، وتَفَاوُتُها، فَبَرَاثِنُ الأُسْدِ طَوِيْلَةٌ وافِرَةٌ، وأظافِرُ الإنْسِ مُقَلَّمَةٌ، وحِمارُ الوَحْشِ طَوِيْلَةٌ أُذُناهُ، ولَيْس مِثْلَهُ ذَكَرُ النَّعَامِ الذِي هُوْ أصْلَمُ، بلا أُذُنَيْنِ. (بَيْتان)

٥- الحَيَاةُ: يَرَاها سبيلاً إلى الموْتِ، مُفْضِيَةً إلَيهِ، ويَرَى لَذَّاتِها مُتَقَضِّيَةً. (أربعةُ أبياتٍ)

٦- حَيَاةُ الآخِرَةُ: فَمَا كانَ أحْسَنَ الدُّنْيا لَوْ أنَّها كانَتْ خالِدَةً، فلا يَمُوتُ فِيْها الفَتَى ولا يَفْنَى، فَمَا حَيَاتُنا إلَّا نَوْمٌ وذُهُوْلٌ وما الآخِرَةُ إلَّا تَيَقُّظٌ وانْتِباهٌ مِنْهُ[1].

٧- حِكْمَةٌ: فالطُغاةُ مَثَلاً يَتَشَبَّهُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ ذا حِلْمٍ ولَكِنَّهُ يُظْهِرُ سَفَهاً لِيَهابَهُ النَّاسُ، ومِنهُمْ جاهِلٌ يَتَظاهَرُ بِالحِلْمِ، فَمِنَ العَنَاءِ بِمَكانٍ أنْ يُحارِبَ المرْءُ شِيْمَتَهُ ويُدَافِعَ ما جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الخَلِيْقَةِ. (ثلاثةُ أبْياتٍ).

٨- التَزَهُّدُ: فَقَدْ مَدحَ أبو العلاءِ اعْتِزَالَ النَّاسِ، ولُزُوْمَ المرْءِ دَارَهُ قانِعاً بِمَا عِنْدَهُ. (بَيْتٌ واحِدٌ)

---

[1] - يُشْبِهُ هذا الكلامُ قَوْلَ وِلْيَمْ وُردذوُرث (ما مِيلادُنا إلا نومٌ ونِسْيان ..إلخ) انظُرْ قَصِيْدَتَهُ (إرْهاصاتُ الخُلُودِ).

القَصِيدة الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ[1]:

غَدَوْتَ مَرِيْضَ العَقْلِ والدِّيْنِ فالْقَنِي لِتَسْمَعَ أنْباءَ الأُمُورِ الصَّحائِحِ
فَلا تَأْكُلَنْ ما أَخْرَجَ الماءُ ظالِماً ولا تَبْغِ قُوْتاً مِنْ غَرِيْضِ الذَّبائِحِ
ولا بَيْضَ أُمَّاتٍ أرادَتْ صَرِيْحَهُ لِأَطْفالِها دُوْنَ الغَوانِي الصَّرائِحِ
ولا تَفْجَعَنَّ الطَّيْرَ وهْيَ غَوافِلٌ بِما وَضَعَتْ فالظُّلْمُ شَرُّ القَبائِحِ
ودَعْ ضَرَبَ النَّحْلِ الذِي بَكَرَتْ لَهُ كَوَاسِبَ مِنْ أزْهارِ نَبْتٍ فَوَائِحِ
فَمَا أحْرَزَتْهُ كَيْ يَكُوْنَ لِغَيْرِها ولا جَمَّعَتْهُ لِلْنَدَى والمنَائِحِ
مَسَحْتُ يَدِي مِنْ كُلِّ هَذا فَلَيْتَنِي أَبِهْتُ لِشَأْنِي قَبْلَ شَيْبِ المسائِحِ
بَنِي زَمَنِي هَلْ تَعْلَمُوْنَ سَرَائِراً عَلِمْتُ ولَكِنِّي بِها غَيْرُ بائِحِ
سَرَيْتُمْ عَلَى غَيٍّ فَهَلَّا اهْتَدَيْتُمُ بِمَا خَبَّرَتْكُمْ صَافِيَاتُ القَرَائِحِ
وصَاحَ بِكُمْ دَاعِي الضَّلَالِ فَمَا لَكُمْ أَجَبْتُمْ عَلَى ما خَيَّلَتْ كُلَّ صائِحِ
مَتَى ما كُشِفْتُمْ عَنْ حَقَائِقِ دِيْنِكُمْ تَكَشَّفْتُمُ عَنْ مُخْزِياتِ الفَضَائِحِ
فإِنْ تَرْشُدُوا لاتَخْضِبُوا السَّيْفُ مِنْ دَمٍ ولا تُلْزِمُوا الأَمْيالَ سَبْرَ الجَرَائِحِ
ويُعْجِبُنِي دَأْبُ الَّذِيْنَ تَرَهَّبُوا سِوَى أَكْلِهِمْ كَدَّ النُّفُوْسِ الشَّحائِحِ
وأطْيَبُ مِنهُمْ مَطْعَماً فِي حَيَاتِهِ سُعاةُ حَلالٍ بَيْنَ غادٍ ورائِحِ
فَمَا حَبَسَ النَّفْسَ المسِيْحُ تَعَبُّداً ولَكِنْ مَشَى فِي الأَرْضِ مِشْيَةَ سائِحِ
يُغَيِّبُنِي فِي التُّرْبِ مِنْ هُوَ كارِهٌ إذا لَمْ يُغَيِّبْنِي كَرِيْهُ[2] الرَّوَائِحِ
ومَنْ يَتَوَقَّى أنْ يُجاوِرَ أعْظُماً كَأَعْظُمِ تِلْكَ الهَالِكاتِ الطَّرَائِحِ
ومِنْ شَرِّ أخْلاقِ الأَنِيْسِ وفَعْلِهِمْ خُوَارُ النَّواعِي والْتِدامُ النَّوَائِحِ
وأصْفَحُ عَنْ ذَنْبِ الصَّدِيْقِ وغَيْرِهِ لِسُكْنَايَ بَيْتَ الحَقِّ بَيْنَ الصَّفائِحِ

---

[1] اللُّزُوم ج١ ص ٢٣٢.

[2] انظُرِ الحاشِيَةَ فِي الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ.

وأزْهَدُ عَنْ مَدْحِ الفَتَى عِنْدَ صِدْقِهِ فَكَيْفَ قَبُوْلِي كاذِبَاتِ المَدَائِحِ
ومازَالَتِ النَّفْسُ اللَّجُوْجُ مَطِيَّةً إلى أنْ غَدَتْ إحْدَى الرَّذَايا الطَّلائِحِ
وما يَنْفَعُ الإنْسانَ أنَّ غَمائِماً تَسُحُّ عَلَيْهِ تَحْتَ إحْدَى الضَّرَائِحِ
ولَوْ كانَ فِي قُرْبٍ مِنَ الماءِ رَغْبَةٌ لَنافَسَ ناسٌ فِي قُبُوْرِ البَطائِحِ

١. مَذْهَبُ النَّباتِيِّيْنَ: يَدْعُو أبو العلاء النَّاسَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ المعْرِفَةَ، إذْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَنْباءِ صَحِيحِ الأُمُورِ، ويَأْمُرُهُمْ أنْ يُمْسِكُوا عَنْ أَكْلِ ما خَرَجَ مِنَ الحَيْوَانِ مِنْ أَسْمَاكٍ ولَحْمٍ وبَيْضٍ وعَسَلٍ وطَيْرٍ وما إلَى ذَلِكَ مِنْ أصْنافِ الحَيْوَانِ؛ بَلْ تَمَنَّى أبو العلاءِ أنْ لَوْ كانَ صارَ نَباتِيّاً مُنْذُ باكِرِ حَياتِهِ. (سَبْعةُ أبْياتٍ).
٢. غَبَاءُ النَّاسِ وضَلَالُهُمْ: يَفْخُرُ أبوالعلاء بِأَنَّهُ يَعْلَمُ كَثِيْراً مِنَ الأسْرَارِ مِمَّا لا يَعْلَمُهُ النَّاسُ ولَكِنَّهُ لَنْ يَبُوْحَ بِها إلَيْهِمْ، ويَحُثُّ النَّاسَ عَلَى نَبْذِ الحُرُوبِ وتَرْكِها، ويَرَى الأَدْيَانَ مَدْخُوْلَةً ومُخْزِيَةً. (خَمْسةُ أبْياتٍ).
٣. ذِكْرُ الرُّهْبانِ، يُشِيْدُ أبوالعلاء بِحَياتِهِمُ القائِمَةِ عَلَى الزُّهْدِ والعُزْلَةِ، ولَكِنَّهُ يَذُمُّ فِيهِمُ اعْتِمادَهُمْ في قُوْتِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وأكْلَهُمْ كَدَّ الكادِحِيْنَ، ويَذْكُرُ أنَّهُمْ لَيْسُوا بِالأتْباعِ المخْلِصِيْنَ لِلْمَسِيْحِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَبَّدِ اللهَ بِحَبْسِ النَّفْسِ بَلْ بِالمشْيِ في الأرْضِ. (ثلاثَةُ أبْياتٍ)
٤. عِلَّةُ دَفْنِ الميِّتِ؛ فَالميِّتُ يُدْفَنُ لا لِقِيْمَتِهِ ونَفَاسَتِهِ أوْ لِأَنَّهُ جَدِيْرٌ بِالإخْفَاءِ والحِفْظِ، بَلْ لِرَوائِحِهِ الكَرِيْهَةِ[1]. (بَيْتانِ)

---

[1] تَرْجَمَ نِكِلْسُونُ (كَرِيْه الرَّوَائِح) مِنَ البَيْتِ:
يُغَيِّبُنِي فِي التُّرْبِ مَنْ هُوَ كارِهٌ إذا لَمْ يُغَيِّبْنِي كَرِيهُ الرَّوائِحِ

٥. ذَمُّهُ عادَةَ النُّوَاحِ والعَوِيْلِ عَلَى الميّتِ؛ فأبُو العلاء يَغْفِرُ ذَنْبَ الصَّدِيْقِ إذا أخْطَأَ ويَكْرَهُ أنْ يَمْدَحَهُ الآخَرُوْنَ ولَوْ حَقّاً؛ وقَدْ أطالَ مُحَارَبَتَهُ نَفْسَهُ اللَّجُوْجَ وراضَها حَتَّى ذَلَّتْ لَهُ فَقَادَها. (ثلاثَةُ أبْياتٍ).

٦. إزْرَاؤُهُ بِما كانَ سائِداً قَدِيْماً مِنَ الدُّعاءِ لِلْمَيِّتِ بِالسُّقْيا. (بَيْتانِ).

خاتمة:

١. لَمْ يَخْرُجْ أبوالعلاء فِي (لُزُوْمِهِ) عَنْ أشْكالِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعْرُوفَةِ مِنْ قَدِيْمٍ، فَجَمِيْعُ أشْكالِ الشِّعْرِ التي جاءَتْ فِي اللُّزُوْمِ مَوْصُولَةٌ بِسَبَبٍ مِنَ الأسْبَابِ (بِالقِطْعَةِ) أوْ (بِالقَصِيدَةِ).

٢. يَظْهَرُ شَكْلُ القِطْعَةِ المعْرُوفُ فِي كَثِيْرٍ مِنْ قِطَعِ اللُّزُوْمِ، غَيْرَ أنَّ أكْثَرَ القَصائِدِ القِصَارِ التي يُمْكِنُنا أنْ نُصَنِّفَها قِطَعاً تَبْدُو كَما لَوْ كانَ أرِيد بِها فِي الأَصْلِ أنْ تُنْظَمَ قَصائِدَ، لَكِنَّها تُرِكَتْ هَكَذا قِصَاراً لِأَنَّهُ قَصَّرَ بِها عَنْ بُلُوْغِها مَبْلَغَ القَصَائِدِ قِلَّةُ قَوَافِيْها.

٣. إنَّ شَكْلَ القَصِيدةِ الذِي هُوَ قَرِيْبُ الشَّبَهِ مِنَ النَّوْعِ الذِي أسْمَيْنَاهُ (المعَلَّقَةَ المحْدَثَةَ) قَدْ جاءَ فِي عَدَدٍ كَبِيْرٍ مِنَ القَصائِدِ، أغْلَبُها طَوِيْلٌ ولَكِنَّ بَعْضَها مُتَوَسِّطُ الطُّوْلِ. وبَعْضُ القصائِدِ التي بُنِيَتْ عَلَى اثْنَيْ عَشَر بَيْتاً أوْ ثَلاثَةَ عَشَرَ يَبْدُو أنَّ الشّاعِرَ كانَ يَنْوِي نَظْمَها قَصائِدَ مِنْ هذا النَّوْعِ.

الذِي تُقَزِّزُ رَائِحَتُهُ ونَتَنُهُ (وهو الضَّبُعُ)، وذَلِكَ عَلَى رِوَايَةِ الرَّفْعِ فِي (كَرِيْهُ)؛ انظُرْ كِتابَهُ: (دِرَاساتٌ فِي الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ). وذاتُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ وَقَعَتْ فِي (اللزوم) المتْحَفُ البِرِيْطانِي، ٣١٦٠؛ وفِي الطَّبْعَةِ الحَالِيَّةِ لِلْمُخْتارَاتِ المسَمَّاةِ (المنْتَخَبُ مِنْ أَدَبِ العَرَبِ)، القاهرة، ١٩٤٦، بِتَحْقِيْقِ كُلٍّ مِنَ الاسكندرانِيِّ، وأحمدَ أمين، وعليِّ الجارِمِ، وعبدِ العزيز البِشْرِيِّ وأحمدَ ضيف، ج٣ ص ٧٩. على أنَّهُ يَبْدُو أنَّ الرِّوَايَةَ الصَّحِيْحةَ بِنَصْبِ كَلِمَةِ (كريه)، هكذا:

يُغَيِّبُنِي فِي التُّرْبِ مَنْ هُوَ كارِهٌ   إذا لَمْ يُغَيِّبْنِي كَرِيْهَ الرَّوائِحِ

٤. وأمّا الشَّكْلُ الذي حَوَى مُمَيِّزَاتِ كُلٍّ مِنَ القِطْعَةِ والقَصِيدةِ مَعاً فَقَدْ جاءَ في العَدَدِ الأَكْبَرِ مِنْ شِعْرِ اللُّزُومِ. ويُمْكِنُنا أنْ نُسَمِّيَ هَذَا الشَّكْلَ مِنَ القصائِدِ (القَصِيدة التَّفَكُّرِيَّة). ولَمْ يَكُنْ أبوالعلاء أَوَّلَ مَنْ تَعَاطَى هَذَا الشَّكْلَ مِنَ الشِّعْرِ أَدَاةً لِلتَّعْبِيرِ الشِّعْرِيِّ. فَأَنْتَ تَجِدُ هَذَا الشَّكْلَ في قَصِيْدَةِ المتَنَبِّي الشَّهِيْرَةِ[1]:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنا ذا الزَّمانَا　　　وعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ ما عَنَانَا

ولَكِنَّ ما تَمَيَّزَ بِهِ أبوالعلاء هُنا هُوَ أَنَّهُ تَوَسَّعَ فِي اسْتِخْدَامِ القَصِيدة التَّفَكُّرِيَّةِ فِي لُزُوْمِهِ بِما يَسْتَحِقُّ مَعَهُ أنْ نَعُدَّهُ إمامَها الأَوَّلَ.

[1] دِيْوَانُ المتَنَبِّي ص ٤٧٠

الفَصْلُ السَّادِسُ

الجانب الفني في اللزوم

الفَصْلُ السادس

القسم الأول

الجانِبُ الفَنِّيُّ لِلّزُومِ

لا تَجِدُ في الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ قاطِبَةً، عَلَى غَزارَتِهِ، دِيْوَاناً واحِداً يَضُمُّ أَلْوَاناً مُخْتَلِفاتٍ مِنَ المَوْضُوعاتِ ويُمَثِّلُ أَكْثَرَ جَوَانِبِ صاحِبِهِ الشَّخْصِيَّةِ كَدِيوانِ اللُّزُوْمِ. وقَدْ أَوْرَثَ هَذَا التَّنَوُّعُ فِي المَوْضُوعاتِ تَنَوُّعاً في الأَسَالِيْبِ الشِّعْرِيَّةِ التِي، بِكَلِمَاتِ نِكِلْسُون، (تَسْحَرُنا وتَشُدُّنا وأَحْياناً تَصُدُّنا)[1]

ولِنَفْهَمَ طَبِيعَةَ هَذِهِ الأَسالِيْبِ ولِمَاذا اسْتَخْدَمَها الشَّاعِرُ، عَلَيْنا أَوَّلاً أَنْ نَنْظُرَ فِي القَضِيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ البالِغَةِ الأَهَمِّيَّةِ وهِيَ قَضِيَّةُ (اللَّفْظِ والمعْنَى). وثَمَّةَ حَقِيقَةٌ كانَ شاعِرُنا عَلَى إِدْرَاكٍ بِها تَامٍّ وهِيَ أَنَّهُ لَوْ صَاغَ مَعانِيَهُ أَوْ عَبَّرَ عَنْها بِطَرِيقَةٍ تَقُومُ عَلَى السُّهُولَةِ والبَساطَةِ لَقَصَّرَ نَظْمُهُ عَنْ بُلُوغِ مَصَافِ الشِّعْرِ الجَيِّدِ؛ لِأَنَّ لَفْظَهُ سَيَسُوءُ ويُسِفُّ، وسَيَفْتَقِرُ إِلى صِفَاتِ الشِّعْرِ الجَوْهَرِيَّةِ الحَقَّةِ مِنَ الرَّوْنَقِ والفُحُولَةِ والإِيْقاعِ؛ ولَوْ أَنَّهُ ذَهَبَ يَسْتَرْسِلُ في حِيَلِهِ ولَعِبِهِ اللَّفْظِيِّ القَدِيمِ لَسَفُلَ الجانِبُ الفِكْرِيُّ لِنَظْمِهِ ولَمَا اسْتَوْفَى الغَرَضَ الذِي كانَ يَبْغِي مِنْ وَرَاءِ تَأْلِيفِهِ اللُّزُومَ، أَعْنِي (تَوَخِّي صِدْقَ الكَلِمَةِ وتَنْزِيهِهَا عَنِ الكَذِبِ والمَيْطِ)[2]..

ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ تَقْلِيدِيّاً فِي نَظْرَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ واحْتَفَلَ أَشَدَّ الاحْتِفالِ بِالأَنَاقَةِ اللَّفْظِيَّةِ وفُحُولَةِ البَدَاوَةِ مَعَ فَخَامَةِ الأَلْفاظِ.

ولِيَشْغَلَ أبو العلاء ذَلِكَ الجانِبَ مِنْ عَقْلِهِ الذِي تَسْتَهْوِيهِ الكَلِماتُ فَقَدْ عَمَدَ إِلى اسْتِخْدَامِ عَدَدٍ مِنَ القُيُوْدِ والقَوَانِيْنِ الصَّارِمَةِ التي أَلْزَمَ بِها نَفْسَهُ، ولَمْ تَكُنْ تَلْزَمُها، في طَرِيقَتِهِ التي أَخَذَ بِها في نِظامِ التَّقْفِيَةِ. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ القُيُوْدَ لَمْ تَكُنْ فِي ذَاتِها كافِيَةً لِحَلِّ

---

[1] دراسات في الشِّعْرِ الإسلامي، ص ٤٥.

[2] اللزوم ج ١ ص ٩. والمَيْطُ الجَنَفُ والبُعْدُ عن القَصْدِ

مُشْكِلَةِ الألْفاظِ والمعانِي. فَقَدْ كانَ عَلَى أبي العلاء أنْ يُتْبِعَها عَدَداً مِنَ الأَدَوَاتِ الأُسْلُوبيَّةِ وأنْ يُغايِرَ في فَنِّيَّاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وذَلِكَ حَتَّى تَسْتَقِرَّ ألْفاظُهُ ومَعَانِيْهِ إلى حالَةٍ مِنَ التَّوازُنِ الموَفَّقِ. ومَعَ ذَلِكَ فإنَّكَ لابُدَّ وَاجدٌ بَعْضَ القصائِدِ في اللُّزُومِ لَمْ يَشْغَلْ أبو العلاءِ فِيْها نَفْسَهُ بِمَسْألَةِ الألْفاظِ هَذِهِ. كَما وإنَّ ثَمَّةَ قصائِدَ فِيهِ لَمْ يَهْتَمَّ فِيْها بِالمعَانِي إلَّا قَلِيْلاً ولَمْ يَقْصِدْ فِيها إلَّا إلَى الإتْقانِ الزُّخْرُفِيِّ. فَهَذَانِ النَّوْعانِ مِنَ قصائِدِ اللُّزْومِ لا يُمَثِّلانِ إلَّا مِقْدَاراً يَسِيراً جِدّاً، ولَكِنْ لِأنَّهُ بِسَبَبِهِما وَحْدَهُما مِنْ سائِرِ النَّظْمِ فِيهِ تَعَرَّضَ اللُّزومِ إلى الهُجُومِ والانْتِقادِ المضَادِّ، سَنَبْدَأُ أَوَّلاً بِتَوْجِيهِ نَقْدٍ مُوْجَزٍ سَرِيْعٍ لَهُما.

القسم الثاني

أسلوب شعر العلماء

هُناكَ القَلِيْلُ مِنَ قصائِدِ أبي العلاءِ بدا فيها وَاعِظاً أخْلاقِيّاً لا شاعِراً طَرُوباً؛ كَقَصِيدَتهِ[1]:

تَرَنَّمْ في نَهارِكَ مُسْتَعِيْناً بِذِكْرِ اللهِ فِي المتَرَنِّماتِ

وقَصِيدَتِهِ[2]:

قَدْ أصْبَحَتْ ونُعَاتُها نَعَّاتُها وكَذَلِكَ الدُّنْيا تَخِيْبُ سُعَاتُها

وبِذَلِكَ نَرَاهُ قَدْ ضَحَّى بِالألفاظِ مِنْ أجْلِ المعَانِي. ولا يُمْكِنُنا أنْ نَعُدَّ مِثْلَ هَذِهِ القصائِدِ أعْمالاً فَنِّيَّةً، أوْ نُدْخِلَها في بابِ الفَنِّ؛ لِأنَّ أُسْلُوبَها مِمَّا يَصِحُّ أنْ نُطْلِقَ عَلَيْهِ (شِعْرَ العُلَماءِ). وقَدْ يَلُوْحُ لَكَ شُعَاعٌ شِعْرِيٌّ يَرِفُّ هُنا وهُناكَ وقَدْ تَتَبَيَّنُ وَمْضَةً فَنِّيَّةً فِي التَّشْبِيهاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ حَوْلَ النِّساءِ والخَمْرِ، مِمَّا يَجِيءُ في بَعْضِ أَبْياتِها[3]. ولَكِنْ يَصْعُبُ عَلَيْكَ أنْ تُدرِكَ مِثْلَ هَذِهِ الوَمْضَةِ، أو تَتَبَيَّنَ مِثْلَ ذَلِكَ الشُّعاعِ بَيْنَ الأَفْعَالِ الآمِرَةِ والوَصَايا البارِدَةِ والأمثالِ الجافَّةِ التي لا حَياةَ فِيْها أوْ حَيَوِيَّةَ. وفِيْما يَلِي قَدْرٌ صَالِحٌ مِنَ الاستِشْهادِ مِنَ القَصِيدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أشَرْنا إِلَيْهِما هُنا، (تَرَنَّمْ في نَهارِك) و(قَدْ أصْبَحَتْ) يُعْطِيْكَ أَمْثِلَةً صادِقَةً عَلَى ما ذَكَرْنا.

يَقُولُ أبو العلاءِ:

ولا تُخْبِرْ شِئُوْنَكَ واجْعَلَنْها سَرائِرَ فِي الضَّمِيْرِ مُكَتَّماتِ
ومَنْ جاوَرْتَ مِنْ إنْسٍ فَحاذِرْ غَوَائِلَ مُرَّدٍ مُتَهَكِّماتِ

---

[1] اللزوم، ج ١، ص ١٨٨-١٩٤.

[2] نَفْسُهُ، ص ١٧٠-١٧٣.

[3] انظُرْ مَثَلاً اللُزُوم، ص ١٨٨، الأبيات ٧-٩.

وأبْعِدْهُنَّ مِنْ رَبّاتِ مَكْرٍ سَوَاحِرَ يَغْتَدِيْنَ مُعَزَّماتِ

دُنْياكَ مُشْبِهَةُ السَّرَابِ فَلا تَزُلْ بِرَزِيْنِ حِلْمِكَ مُوْشِكاً خُدَعَاتُها
ودَعِ القِراءَةَ إنْ ظَنَنْتَ جَهِيْرَها ذَكَرَتْ بِهِ الحاجاتِ مُسْتَمِعَاتُها
فالصَّوْتُ هَدْرُ الفَحْلِ تَعْرِفُ رِكْزَهُ أُلاَفُهُ فَتُجِيْبُ مُمْتَنِعَاتُها

وفَضْلاً عَنْ ما بِهَذِهِ الأَبْياتِ مِنْ طَبِيْعَةٍ جافَّةٍ فإنَّ التَّرْكِيْبَ فِيْها غالِباً ما جاءَ رَكِيْكاً غَثّاً، وأغْلَبُ كَلِماتِ القَوَافِي جاءَتْ حَشْواً، لا مَعْنَى لَها. وعَسَى أنْ تُلاحِظَ هَذا في كَلِمَاتِ القَوَافِي لِلأَبْياتِ الأَرْبَعَةِ التي أوْرَدْناها هُنا لِغَرَضِ الاسْتِشْهادِ. ولا يَفُوتَنَّكَ هُنا أنَّ الكَلِمَةَ التي وَقَعَتْ حالاً في البَيْتِ الرَّابعِ مِنْ هَذِهِ الأَبْياتِ (مُوْشِكاً) إنَّما جاءَتْ بِلا مَعْنَى ولِغَيْرِ غَرَضٍ يُرَادُ.بَلْ إنَّ أبا العلاء رُبَّما جاءَ في بَعْضِ أبْياتِهِ بِكَلِمَاتٍ وعِبَاراتٍ لا تَصِحُّ، كَمَا في قَوْلِهِ[1]:

رَقْشَاءُ فِيْها لَيْلُها ونَهارُها تِلْكَ الضَّئِيْلَةُ شَأْنُها لَسَعاتُها

فَكَلِمَةُ (لَسَعاتٍ) هُنا ضَعِيْفَةٌ كَمَا تَرَى، ولَعَلَّهُ لَوْ جاءَ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ بِالمَصْدَرِ (لَسْعٌ) لَكانَ أَصَابَ ولَكِنَّ (لَسْعٌ) هَذِهِ لا تُماشِي القافِيَةِ هُنا، فكانَ عَلَى الشاعِرِ أنْ يَجِيءَ بِما جاءَ بِهِ مِنْ جَمْعِ المؤَنَّثِ السَّالِمِ. وهُناكَ مَعْلَمٌ مِنْ مَعَالِمِ شِعْرِ العُلَماءِ عَنْدَ أبي العلاءِ يُثِيْرُ الغَيْظَ والحَنَقَ، وهُوَ اسْتِخْدَامُهُ لِكَلِمَةِ (أَعْنِي) وما هُوَ فِي مَعْنَاها مِنَ المتَرَادِفاتِ، كَمَا في قَوْلِهِ[2]:

والدَّفْنُ دِفْءٌ فِي الشِّتاءِ وظُلَّةٌ فِي القَيْظِ حُقَّ لِمِثْلِها أنْ يُؤْثَرا

---

[1] نفسه، ص ١٧١.

[2] نفسه، ص ٣٦٦.

أَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ لِي مُؤْمِنٌ   مِن كُلِّ رُزْءٍ فِي حَيَاتِيَ أَثَّرا

وفي اسْتِخدامِهِ لِكَلِمَةِ (أعْنِي) تَقْلِيْدٌ لِأبِي تَمَّامٍ؛ إذْ جاءَ في بَعْضِ أشعارِ هَذَا قَوْلُهُ[1]:

بَلَدُ الحِرَاثَةِ لَوْ أَتاها جَرْوَلٌ   أَعْنِي الحُطَيْئَةَ لاغْتَدَى حَرَّاثا

وربَّما ذَهَبَ أبو العلاء أحْيَاناً في هَذَا الصَّددِ إلى أبْعَدِ مِمَّا ذَهَبَ إلَيْهِ أبو تمَّامٍ؛ فَهُوَ تَسْتَهْوِيْهِ أحْيَاناً طَرِيْقَةُ عُلَماءِ اللُّغَةِ فِي شَرْحِ كَلامِهِمْ فَيَسْتَخْدِمُ هَذِهِ الطَّرِيْقَةَ فِي شِعْرِهِ كأنَّهُ يُباهِي بِها، وانْظُرْ قَوْلَهُ:

وكُلٌّ أَدِيْبٌ أيْ سَيُدْعَى إلَى الرَّدَى   مِنَ الأَدْبِ، لا أنَّ الفَتَى يَتَأَدَّبُ

أيْ كُلُّ النّاسِ (أدِيْبٌ) مِنَ الأَدْبِ وهو الدَّعْوةُ لا مِنَ الأَدَبِ، أيْ كُلُّنا مَدْعُوٌّ إلَى المَوْتِ ولَسَوفَ تُلَبِّي الدَّعوةُ يوماً.

وثَمَّةَ خَصْلَةٌ أُخرَى ومَيْزَةٌ تَمَيَّز بِها أبو العلاء في هَذَا النَّوْعِ مِنَ القَصَائِدِ، مَذْمُوْمَةٌ فِي الشِّعْرِ، وهِيَ مَجِيْئُهُ بِأبْياتٍ تُتَرْجِمُ وتَشْرَحُ أمْثالاً مَعْرُوفَةً في الأحادِيْثِ النَّبَوِيَّةِ والقُرْءانِ، كَما في قَوْلِهِ[2]:

جَلِيْسُ الخَيْرِ كالدَّارِيِّ أَلْقَى   لَكَ الرَّيَّا كَمُنْتَسَمِ العَرَارِ
ولَكِنْ ضِدُّهُ فِي الرَّبْعِ قَيْنٌ   أطارَ إلَيْكَ مُنْتَثِرَ الشَّرَارِ

---

[1] ديوانه، ص ٦٥.

[2] نَفسه ص ٣٩٥. مِنَ الوَاضِحِ أنَّ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ يَشْرَحانِ الحَدِيْثَ النَّبَوِيَّ المعْرُوفَ، عَنْ أبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ (إنَّما مَثَلُ الجَلِيْسِ الصالِحِ وجَلِيْسِ السُّوْءِ كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيْرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ وإمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنهُ وإمَّا أنْ تَجِدَ مِنهُ رِيحاً طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيْرِ إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وإمَّا أنْ تَجِدَ مِنهُ رِيحاً مُنْتِنَةً). وأمَّا البَيْتُ الذي بَعْدَهُما فَفِي مَعْنَى الآيَةِ القُرْآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ (واسْتَعِيْنوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنَّها لَكَبِيْرَةٌ إلاَّ عَلَى الخاشِعِيْنَ) مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ (التُّرْجُمان).

وكَمَا في قَوْلِهِ:

وتَرَى الصَّلاةَ عَلَى الغَوِيِّ ثَقِيْلَةً مِثْلَ الهِضابِ تَؤُوْدُهُ رَكَعاتُها

وقد كانَ أوّلَ مَنْ تعاطَى تَرْجَمَةَ مَأْثُورِ الحَدِيْثِ والقُرْءَانِ وشَرْحِهِ شُعَراءُ الإسلامِ السياسِيُّونَ الأَوَائِلُ كالكُمَيْتِ[1]. ثمَّ شاعَ استخدامُها في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ لَدَى كُلٍّ مِنَ السَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ وأبي العَتاهِيَةِ. وفِيْما بَعْدُ فَشَا هذا الأُسْلُوبُ وصارَ طَرِيْقَاً مَهْيَعاً يَسِيرُ عَلَيْهِ عُلماءُ الفِقْهِ وأدْعِياءُ الصَّلاحِ والتُّقَى. ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ أبا العلاءِ كانَ قد دَرَسَ الحديْثَ إبَّان شَبابِهِ؛ فلم يَكُنْ بِمَقْدُورِهِ أنْ يقاوِمَ إظْهارَ مَعْرِفَتِهِ.

وأمَّا المَلْمَحُ الثَّالِثُ مِنْ مَلامِحِ شِعْرِ العُلَماءِ والذِي نَرَاهُ لا يَخْتَصُّ قصائِدَهُ القَلِيْلَةَ كالقَصِيْدَتَيْنِ (تَرَنَّمْ) و(قَدْ أصْبَحَتْ) وَحْدَها ولَكِنَّهُ يُجاوِزُها لِيَظْهَرَ في بَعْضِ أبْياتِ قِطَعِهِ الأُخْرَى، القَصِيْرَةِ مِنْها والطَّوِيْلَةِ، وهُوَ اسْتِخْدَامُ التَّشْبِيْهَاتِ ذَاتِ الحَذْلَقَةِ. وقَدْ سَبَقَ لَنا أنْ لاحَظْنا هَذِهِ الخَصْلَةَ في دِرْعِيَّاتِهِ وقَصائِدِهِ الرَّسائِلِيَّةِ[2].

غَيْرَ أنَّ أبا العلاء يَسْتَخْدِمُ فِي اللُّزُومِ تَنَوُّعاً أوْسَعَ مِنَ المادَّةِ العِلْمِيَّةِ لِصُوَرِهِ وتَصْويرِهِ. فَتَشْبِيْهاتُهُ النَّحْوِيَّةُ هُنا، كَما في أشْعَارِهِ الأُخْرَى، جاءَتْ مُنْطَوِيَةً عَلَى النُّكْتَةِ والظَّرْفِ وسُرْعَةِ البَدِيْهَةِ والحَذْقِ والمَهارَةِ، حَتى إنَّها ليُمْكِنُ أنْ تُعَدَّ مِنْ مَزَايا أُسْلُوبِهِ ومَناقِبِهِ، لا مِنْ مَذَامِّهِ ومَثَالِبِهِ. ولَكِنَّ تَشْبيهاتِهِ العَرُوْضِيَّةَ وتَشْبيهاتِهِ الفِقْهِيَّةَ –وإنْ تَكُنْ بِقَدْرٍ أقلَّ– مِمَّا يُمْكِنُ أنْ تُشَبِّهَهُ بِأحاجي أو ألغازِ الصُّوَرِ المقَطَّعةِ أوْ، كَما سَيُشَبِّهُ مُعاصِرُوهُ، بِتعاوِيذِ

---

[1] الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ الأسدِيُّ، كانَ مِن شُعَراء العَصْرِ الأمَوِيِّ ومَوالِياً لِلشِّيْعةِ، اشْتُهِرَ بِمَقْدِراتِهِ الخطابِيَّةِ وبِمَعْرِفتِهِ المتفردةِ بِغَرِيْبِ الألْفَاظِ وبأهْل القرون القديمةِ وآثارِهِم. انْظُرْ الأغاني، ج ١٥، ص ١١٣.

[2] انظُرْ الفَصْلَ الرابعَ، القِسْمَيْن (ب)، و(ج).

العَقَارِبِ. إذْ هِيَ تَشْبيهاتٌ بَعِيْدَةُ المأْتَى بَعِيْدَةُ التَّخْريْجِ، وفِيْها تَعَبٌ وتَعَمُّلٌ وغَيْرُ مُستساغَةٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ[1]:

عِشْ يا ابْنَ آدم عِدَّةَ البَحْرِ الذِي   يُدْعَى الطَّوِيْلَ ولا تُجاوِزْ ذَلِكا

وقَوْلِهِ[2]:

وسلامَةٌ كَسَلامَةِ الجُزْءِ الذِي   بِالضَّرْبِ لُزَّ مِنَ الطَّوِيْلِ الثَّالِثِ

وقَوْلِهِ[3]:

لَيْسَ حالُ المخْبُولِ فِيْما يُلاقِي   مِثْلَ حالِ المطْوِيِّ والمخْبُونِ

وقَدْ عَدَّ الحافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أُسْلُوبَ اللُّزُومِ أُسْلُوباً وَسَطاً[4]؛ مُنْطَلِقاً فِي حُكْمِهِ هَذا مِنْ نَظَرِهِ فِي أَمْثالِ (تَرَنَّمْ) و(قَدْ أصبَحَتْ) مِنَ القَصائِدِ، وفِي الأَشْعارِ الضَّعِيْفَةِ التِي اسْتَشْهَدَ بِها مَنْ تَرْجَمُوا لِأَبِي العلاء عَلَى زَنْدَقَتِهِ وهَرْطَقَتِهِ. وهَذِهِ التُّهْمَةُ مُجْحِفَةٌ غايَةَ الإجْحافِ، فِي حَقِّ هَذَا الدِّيوانِ، جائِرَةٌ عَلَيْهِ أَشَدَّ الجَوْرِ لِأَنَّها لا تَصْدُقُ إِلَّا عَلَى جُزْءٍ مِنهُ يَسِيرٍ لا يُعْتَدُّ بِهِ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أصابَتْ هَذِهِ التُّهْمَةُ حَظّاً وَافِراً مِنَ الشُّهْرَةِ والذُّيُوعِ؛ إذْ جَعَلَ يُرَدِّدُها ويُعِيْدُها أَجْيالٌ مِنَ المتَرَفِّضِيْنَ والمكابِرِيْنَ والمتَعَصِّبِيْنَ مِنْ مَنْ ظَهَرُوا بِمَظْهَرِ الدُّعاةِ الدِّيْنِيِّيْنَ الذِيْنَ كانُوا يَسْعَوْنَ لِتَجْرِيْدِ شاعِرِنا مِنْ كُلِّ مَزِيَّةٍ وفَضِيْلَةٍ؛ بِمَا فِي ذَلِكَ ما كانَ لَهُ

---

[1] اللُّزوم، ج ٢، ص ١٥٦.

[2] اللزوم، ج ١، ص ٢٠١.

[3] اللزوم، ج ٢، ص ٣٨٥.

[4] تعريف القدماء، ص ٣١٨.

مِنْ تَمَيُّزٍ شِعْرِيٍّ. والحَقُّ أنَّ ما يُدْهِشَ المرْءَ أنْ يَجِدَ كَثيْراً مِنْ نُقَّادِ أبي العلاءِ المفَكِّرِينَ المسْتَنِيْرِينَ المتَحَرِّرِينَ مايَزَالُوْنَ يُرَدِّدُونَ ذاتَ التُّهْمَةِ[1].

[1] المهرجان الألفي، ص ٤٥.

القسم الثالث

نقاد اللزوم (ابن الأثير وابن الحديد وابن حجر)

وثَمَّةَ تُهْمَةٌ أَشَدُّ وأَشْنَعُ رَمَى بِها أبا العلاء ابْنُ الأَثِيْرِ وابْنُ أَبِي الحَدِيْدِ. فَقَدْ أَوْرَدَ لَهُ ابْنُ الأَثِيْرِ مِثَالاً اخْتَارَهُ مِنْ فَصْلِ حَرْفِ الهَاءِ عَلَى أَنَّهُ نَمُوذَجٌ مِنْ شِعْرِ اللُّزُوم، ثُمَّ جَعَلَ يُظْهِرُ سُخْطَهُ بِضَغِيْنَةٍ وحِقْدٍ[1] على تُهْمَةِ التَّكَلُّفِ. وأَمَّا ابْنُ أَبِي الحَدِيْدِ فَمِنَ الوَاضِحِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ ظَهَرَ عَلَى دِيْوانِ اللُّزُومِ أَصْلاً، ولِذَلِكَ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ كرَّرَ كَلِمَاتِ ابْنِ الأَثِيْرِ واكْتَفَى مِنَ الاسْتِشْهادِ بِبَيْتَيْنِ وحسْب، جاءَ بِهِما مِثَالاً عَلَى جيِّدِ شِعْرِهِ فِي اللُّزُومِ، والبَيْتانِ هما:

لا تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ حَالَةً ... قَلَمُ البَلِيْغِ بِغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ

سَكَنَ السِّماكانَ السَّماءَ كِلاهُما ... هَذا لَهُ رُمْحٌ، وهَذا أعْزَلُ

وقالَ ابْنُ أَبِي الحَدِيْدِ قَبْلَهُما (وقَدْ صَنَعَ أبو العلاء المعَرِّيُّ كِتاباً في اللُّزُومِ فَأَتَى فِيهِ بِالجَيِّدِ والرَّدِيءِ وأَكْثَرُهُ مُتَكلَّفٌ ومِنْ جَيِّدِهِ قَوْلُهُ ...)

---

[1] ما جاءَ بِهِ ابْنُ الأثيرِ مِن شِعْرِ أبي العلاء مِنْ حَرْفِ الهاءِ فِي اللُّزُوم مِثالانِ ولَيْسَ مِثالاً واحِداً وسَبَقَهما بِمِثالَيْنِ آخَرَيْنِ من قِسْمَيْ التاءِ واللامِ؛ وكُلُّ ذَلِكَ جاءَ بِهِ في فَصْلِهِ (لُزُومُ ما لا يَلْزَمُ) مِنْ مَثَلِهِ السَّائِرِ، والمِثالانِ اللَّذانِ أَوْرَدَهُما مِن فَصْلِ الهاءِ، هُما مِنْ قَصِيْدَتِهِ:

تُنازِعُ في الدُّنْيا سِوَاكَ وما لَهُ ... ولا لَكَ شَيءٌ بِالحَقِيقَةِ فِيها

وقَصِيْدَتِهِ:

أَخُوْكِ مُعَذَّبٌ يا أُمَّ دَفْرٍ ... أَظَلَّتْهُ الخُطُوبُ وأَرْهَقَتْهُ

هَذا، ووَصْفُ الخُبْثِ الذي رَمَى بِهِ المؤَلِّفُ هُنا ابْنَ الأثيرِ إنَّما جاءَ بِهِ مِنْ قَوْلِ هَذا الأَخِيْرِ (وأمَّا ما تَكَلَّفَ لَهُ تَكَلُّفاً ظاهِراً – وإنْ أَجادَ – فَقَوْلُهُ....) فانُظُرْ كَيْفَ رَمَاهُ بِالتَّكَلُّفِ (الظَّاهِرِ)، ثُمَّ رَجَعَ رُجُوعاً باهِتاً مُنْكَسِراً فَقَالَ (وإنْ أجادَ) وهُوَ ما لا يَكادُ يَتَّفِقُ، فتَأَمَّلْ! (المترجم).

عَلَى أنَّ تُهْمَةَ التَّكَلُّفِ هَذِهِ رُبَّما ساغَ تَوْجِيهُها إلَى طائِفَةٍ ضَئِيلَةٍ جِدّاً مِنْ قصائِدِ هذا الدِّيْوَانِ، وهِيَ القصائِدُ التي لَمْ يَعْتَنِ أبو العلاء فِيها كَثِيْراً بِالمعانِي، وقَصَدَ فيها فَقَطْ قَصْداً إلَى الإتْقَانِ الزُّخْرُفِيِّ واحْتَفَلَ بِهِ احْتِفالاً كَقَصِيدَتَيْهِ:

خَوَى دَنُّ شَرْبٍ فاسْتَرَاحُوا إلى التُّقَى   فَعِيْسُهُمُ نَحْوَ الطَّوافِ خَوادِ

والقَصِيدةِ:

أَنْوَارُ تُحْسَبُ مِنْ سَنا الأنْوَارِ   ومِنَ البَوَارِ مَهاً عَرَضْنَ بَوَارِي

فَالأُسْلُوبُ في هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ شَبِيْهٌ بِذَلِكَ الأُسْلُوبِ الذِي تَجِدُهُ فِي الأَجْزَاءِ الصَّعْبَةِ مِنَ القصائِدِ الرَّسائِلِيَّةِ[1]. فَكَلِماتُ القَوَافِي في أغْلَبِ هَذِهِ القصائِدِ تَبْدُو كأَنَّ الشَّاعِرَ كانَ قَدْ فَكَّرَ في القافِيَةِ أوَّلاً قَبْلَ أنْ يُنْشِئَ البَيْتَ الذِي جاءَتْ فِيهِ. وتَبْدُو أغْلَبُ الأبْياتِ فِيْها كأنَّ الشَّاعِرَ ما نَظَمَها إلَّا لِأَجْلِ ما وَجَدَ مِنَ القَوَافِي. وهَذِهِ الطَّرِيْقَةُ الآلِيَّةُ فِي النَّظْمِ والتي سَبَقَ لَنَا أنْ لاحَظْناها في بَعْضِ أبْياتٍ مِنْ قصائِدِ بَغْدادَ[2]، تَجِيءُ هُنا أَشَدَّ ظُهُوراً وأظْهَرَ اسْتِكْمَالاً. وعادَةً ما كانَ مَوْضُوعُ قصائِدِ أبِي العلاء المصْنُوعَةِ واحِداً في صِفَةِ الحَياةِ الانْتِقَالِيَّةِ وفَضَائِلِ الزُّهْدِ والتَّواضُعِ. وبِمَا أنَّ أبا العلاء كانَ قَدْ تَجَمَّعَتْ عِنْدَه كَثْرَةٌ كاثِرَةٌ مِنَ المعَانِي حَوْلَ هَذَا المَوْضُوعِ، فَلَمْ يَكُنِ النَّظْمُ فِيهِ يُكَلِّفُهُ جَهْداً فِكْرِيّاً كَبِيراً. ولِذَلِكَ فَقَدْ اتَّخَذَ مِنهُ وَسِيْلَةً لِغايَةٍ هِيَ التَّأَنُّقُ والمشاكَلَةُ اللَّفْظِيَّةُ. فَقَدْ كانَ يُفَكِّرُ أوَّلاً في كَلِمةِ القافِيَةِ كَكَلِمةِ (خوادِي)، مَثَلاً، ثُمَّ يُفَكِّرُ في كَلِمَةٍ أُخْرَى تُشاكِلُها مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ أوْ تُنْشِئُ مَعَها جناساً، مِثْلِ (خَوَى دَنُّ)، وعادَةً ما يَجْعَلُ الكَلِمَةَ المجَانِسَةَ هَذِهِ فِي أوَّلِ البَيْتِ مَتَى أمْكَنَهُ الأمْرُ؛ ثُمَّ يَمْلأُ ما بَيْنَ كَلِمَتَيْ الجِناسِ – القافِيَةِ فِي آخِرِ

---

[1] انْظُرْ القِسْمَ (ب) مِنَ الفَصْلِ الرَّابِعِ مِنْ هَذا الكِتابِ.

[2] انْظُرْ القِسْمَ (أ) مِنَ الفَصْلِ الرَّابِعِ مِنْ هَذا الكِتابِ

البَيْتِ ومُجانسَتِها فِي أَوَائِلِهِ - كَيْفَما اتَّفَقَ لَهُ. خُذْ مَثَلاً هَذِهِ الأَبْياتَ مِنَ الجُزْءِ الأَوَّلِ مِنَ اللُّزُوم الصفحات (٢٨٢، و٣٨٦، و٣٨٧):

خَوَى دَنٌّ شَرْبٍ فاسْتَراحُوا إلى التُّقَى فَعِيْسُهُمُ نَحْوَ الطَّوافِ خَوادِ

مَرَّ آنٌ مِنَ الزَّمانِ عَلَى الشَّخْ صِ فَقَدْ خِلْتُ أنَّ دَهْراً مَرانِي

تَوَى دَيِّنٌ في ظَنِّهِ ما حَرَائِرٌ نَظائِرُ آمٍ وُكِّلَتْ بِتَوادِي

زَوَانِيَ خَوْفُ المقامِ الذَّمِيْـ ـمِ عَنْ أنْ أَكُوْنَ خَلِيْلَ الزَّوانِي

فإنْ لَمْ يُمْكِنْهُ أنْ يَضَعَ الكَلِماتِ المجانِسَةَ في أَوَّلِ البَيْتَ وَضَعَها في أقْرَبِ مَكانٍ مُمْكِنٍ مِنهُ، كَما في قَوْلِهِ:

أَمَّا فَوَارِي المِيْنِ عَنْكَ فَصادَفَتْ سَمْعاً، وأَمَّا الوَجْدُ مِنْكَ فَوَارِ

وَكُلُّ رَوَادٍ لا تُصابُ أَبِيَّةٍ مَتَى نُوْزِعَتْ في مَنْطِقٍ لِرَوَادِ

فإنْ لَمْ يُمْكِنْهُ وَضْعُها في صَدْرِ البَيْتِ وَضَعَها في عَجُزِهِ، كَما فِي:

فَهَلْ قاتِلٌ مِنهُنَّ غَيْداءَ مَرَّةً فَوَادٍ، وهَلْ لِلْمُومِسَاتِ فَوَادِ

هَذَا، وتَعْرِضُ قصائِدُ الصِّناعَةِ هَذِهِ أَمْثِلَةً جَمَّةً مِنْ هَذِهِ الحِيَلِ والتَّلاعُبِ اللَّفْظِيِّ. فالقَصِيدَة:

أَوَانِيَ هَـمٌّ فَأَلْقَى أَوَانِي وقَدْ مَرَّ فِي الشَّرْخِ والعُنْفُوانِ

والتي بَلَغَتْ مِنَ الأَبْياتِ سِتِّيْنَ ونَيِّفاً قَدْ نُظِمَتْ جَمِيْعُها تَقْرِيْباً عَلَى هَذا القَرِيِّ[1].

وَمِمَّا يَلْفِتُ النَّظَرَ أَنَّ الجِناسَ يَحْتَلُّ المكانَ الأَوَّلَ في قصائِدِ أَبِي العلاءِ ذاتِ الصِّناعَةِ والتَّكَلُّفِ. ويَسْتَخْدِمُهُ أحْياناً بِغَرَضِ اسْتِجْلابِ التَّوْرِيَةِ، كَمَا فِي هَذِهِ الأَبْياتِ مِنَ الجُزْءِ الأَوَّلِ، كما في قَوْلِهِ:

أَكْفِئْ سَوَامَكَ فِي الدُّنْيا مُيَاسَرَةً وأَعْرِضَنْ عَنْ قَوَافِي الشِّعْرِ تُكْفِئُها

كَرِيَتْ فَسُرَّتْ بِالكَرَى وحَيَاتُها أَكْرَتْ فَجَرَّ نَوَائِباً إِكْرَاؤُها

مِثْلُ الصُّوارِ إذا شَمَمْتَ صُوَارَها فَشُجُونُ قَلْبِكَ لِلْهُمُوْمِ صَوَارِ

فَوَاضِحٌ هُنا أَنَّ الكَلِماتِ المشْتَقَّةَ مِنْ ذَاتِ الأَصْلِ والمخْتَلِفَةَ في دَلالاتِها تُسْتَخْدَمُ في كُلِّ بَيْتٍ طَلَباً لِلتَّلاعُبِ اللَّفْظِيِّ لَيْسَ غَيْر. وأَحْياناً يَسْتَخْدِمُ أبو العلاء هذا الجِناسَ ذَرِيْعَةً لاسْتِخْدَامِ الإِشَاراتِ، واقْرأْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

أَطْرِبُونِي ومَا ابْنُ سَبْرَةَ فِي السَّبْـ ـرَةِ إِلَّا مَنِيَّةُ الأَطْرَبُونِ

وقَوْلَهُ :

قَرَمَتْنا الأَيَّامُ هَلْ رَثَتِ النَّحَّـ ـامَ لَمَّا ثَوَى بِهَا قَرَماءُ

فابْنُ سَبْرَةَ والنَّحَّامُ فِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ جِيْءِ بِهِما فِي غَيْرِ مَوضِعِهِما، ونابِيَانِ عَنِ المعْنَى المرَادِ فِي كُلِّ بَيْتٍ. ولَكِنَّ كَلِمةَ (أَطْرِبُونِي) مُتَجانِسَةٌ مَعَ كَلِمةِ (الأَطْرَبونِ) الذي قَتَلَهُ ابْنُ سَبْرَةَ فِي حُرُوبِ الإِسْلامِ الأُوْلَى؛ كما أَنَّ (قَرَمَتْنا) مُتَجانِسَةٌ مَعَ (قَرَماء) وهُوَ المَوْضِعُ

---

[1] اللزوم، ج ٢، ص ٣٨٦.

الذي طَوَى الموْتُ فِيهِ نَحّامَ، فَرَسَ السُّلَيْكِ بْنِ السُّلَكةِ[1]. وأحْياناً يَسْتَخْدِمُ أبو العلاء الجِناسَ يُرِيْدُ بِهِ إحْدَاثَ نَوْعٍ مِنَ الجَوِّ العاطِفِيِّ الغِنائيِّ الشَّجِيِّ. وغالِباً ما يَقَعُ مِنهُ هذا حِيْنَما تَكُونُ الكَلِمَةُ المكَوِّنَةُ لِلْجِناسِ مِنْ أسْماءِ الأَماكِنِ والمَوَاضِعِ، مِثْلُ قَوْلِهِ:

يا شائِمَ البارِقِ لا تُشْجِكَ الْـ   أظْعَانُ فَوَّضْنَ إلِى أرْضِ بَبْنْ
أَبَبْنَ لِلْأَوْطانِ في عَازِبِ الرَّ   وْضِ فَما وَجْدُكَ لَمّا أبَبْنْ

---

[1] ذكَرَه أبو تمَّام في كتابِ (الحَمَاسة)، القاهرة، ١٣٣٥هـ؛ ج ١ص١٩١. ويُخْبِرُنا التِّبْرِيزِيُّ، في شرحه للحماسة، بوناي، ١٨٢٨، ٢٣٩، أنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ سَبْرَةَ كانَ فارِساً وصُعْلُوكاً فِي أَوَائِلِ الإسْلامِ، وجاءَ لَهُ بِقِطْعَةٍ مِنْ شِعْرِهِ رَائِعَةٍ يَصِفُ فِيها قَتْلَهُ المقاتِلَ الرُّوْمِي الأطْرَبُونَ. ولَكِنَّ لَمْ يُوْرِدْ فِيها البَيْتَ الذِي يُشِيْرُ إلَيْهِ أبو العلاء وهُوَ:

فإنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّوْمِ قَطَّعَها   فَقَدْ تَرَكْتُ بِها أَوْصالَهُ قِطَعَا

القسم الرابع

موضوعات شعر اللزوم

الآنَ وقَدْ أَلْقَينا نَظْرَةً نَقْدِيَّةً مُوْجَزَةً عَلَى تِلْكَ القصائِدِ التي عِيْبَ أبو العلاء بِسَبَبِها وقَرَّعَهُ عَلَيْها ابْنُ الأَثِيْرِ وابْنُ أَبِي الحَدِيْدِ وابْنُ حَجرٍ، فَلْنَنْظُرْ بَعْدَ هَذا فِي الجُزْءِ الأَكْبَرِ مِنْ شِعْرِ اللُّزومِ، والذِي هُوَ عِنْدَنا أَعْلَى إنْجازٍ أَقْدَمَ عَلَيْهِ شاعِرُنا، لَيْسَ فِي مَيْدانِ المعَانِي وحَسْبُ ولَكِنْ فِي مَيْدانِ الأَلْفاظِ والمهَارَةِ الشِّعْرِيَّةِ والأَسْلُوبِ الشِّعْرِيِّ كَذَلِكَ.

يَدُوْرُ مَوضُوعُ اللُّزُومِ حَوْلَ الأَغْرَاضِ والأَفْكارِ التَّالِيَةِ:

١. الأفكارُ التَّشاؤُمِيَّةُ الطابَعِ، وهِيَ:

(أ) الموْتُ

(ب) تَقَلُّباتُ الدَّهْرِ وتَصارِيْفُ الزَّمانِ.

(ج) شَرُّ الدُّنْيا وخُبْثُها.

(د) خُبْثُ الإِنْسانِ وفُجُوْرُهُ.

(هـ) حماقةُ انْجَابِ الأَطْفَالِ.

٢. مَوْضُوعاتُ الأَخْلاقِ:

(أ) الأَقْوَالُ المأْثُوْرَةُ.

(ب) حَدِيْثُهُ عَنِ العُزُوْبَةِ، ومَدْحُهُ حَيَاةَ التَّبَتُّلِ.

(ج) مَدْحُهُ لَعَزْلِ المرْأَةِ.

(د) اسْتِنْكارُهُ لِلْسُّكْرِ وشَجْبُهُ تَعاطِيَ المسْكِرَاتِ.

(هـ) إكْرَامُ الجَارِ.

(و) اسْتِنْكارُ الرِّياءِ والنِّفاقِ.

(ز) الحَثُّ عَلَى التَّوَاضُعِ والتُّقَى.

٣/ المَوْضُوعاتُ الإنْسانِيَّةُ:

(أ) الإحْسانُ إلَى الحَيَوَانِ والرِّفْقُ بِهِ.

(ب) مَدْحُهُ لِمَذْهَبِ النَّباتِيَّةِ.

(ج) شُرُورُ الحُرُوبُ ووَيْلاتُها.

(د) مَدْحُ الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ.

٤/ الدِّيْنُ والمُجْتَمَعُ:

(أ) الشَّكُّ فِي حَقِيْقَةِ الأدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ.

(ب) نَقْدُ المعتقداتِ والشَّعائِرِ لَدَى المسلِمِينَ.

(ج) انتقادُ القياداتِ الدِّيْنِيَّةِ

(د) انْتِقادُ الحُكَّامِ والتُّجَّارِ والمتَطَفِّلِيْنَ الاجْتِمَاعِيِّيْنَ.

٥/ آراءٌ فَلْسَفِيَّةٌ في الرُّوْحِ والجَسَدِ والأُلُوْهِيَّةِ والبَعْثِ والدَّهْرِ .... إلخ.

٦/ المَوْضُوعاتُ الشَّخْصِيَّةُ:

(أ) ذِكْرَياتُ الشَّبَابِ.

(ب) العُزْلَةُ والشَّيْخُوْخَةُ.

(ج) ذِكْرَيَاتُ بَغْدَادِ.

٧/ المَوْضُوعاتُ التقْلِيْدِيَّةُ:

(أ) وَصْفُ الإبِلِ.

(ب) وَصْفُ الخَيْلِ وَمشَاهِدِ الحُرُوبِ، ومَيادِيْنِ المعَارِكِ.

(ج) وَصْفُ الحُمُرِ الوحْشِيَّة.

(د) وصْفُ النُّجُوم.

(هـ) طَيْفُ الخَيالِ.

(و) وَصْفُ القَطا.

(ز) غِناءُ الحَمام.

وقد سَبَقَ لنا في هذهِ الدِّراسةِ أنْ وَصَفْنا لَكَ النَّسَقَ الذي تَرِدُ عَلَيْهِ هَذِهِ المَوْضُوعاتُ في قَصائِدِ اللُّزُومِ[1]. عَلَى أنَّ مَوضُوعَاتِهِ التَّشاؤُمِيَّةَ كانَتْ هِيَ الأَكْثَرَ وُرُوْداً فِيْها، وبِسبَبِها أطْلَقَ عَلَيْهِ بَعْضُ نُقَّادِهِ، فَأَخْطَأُوا، فَيْلَسُوفاً. وقَدْ تَجاهَلَ النُّقَّادُ عُمُوماً أَهَمِّيَّةَ وعِظَمِ مَوضُوعاتِهِ التَّقْلِيْدِيَّةَ والشَّخْصِيَّةَ مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ الفَنِّيَّةِ. بَلْ إنَّ النُّقَّادَ، عَلَى الأَقَلِّ المعَاصِرِيْنَ مِنهُمْ، رَأَوْا في مَوْضُوعاتِهِ الانْتِقادِيَّةِ والإنْسانِيَّةِ أَهَمَّ إنْتاجٍ شِعْرِيٍّ لِأبي العلاء؛ وبِهذِهِ المَضُوعاتِ وحدَها حَظِيَ شاعِرُنا بما حَظِيَ مِنْ مَنْزِلَةٍ بَيْنَ النُّقَّادِ الغَرْبِيِّيْنَ.

هَذَا، ويُمْكِنُنا أَنْ نَعُدَّ أُسْلُوبَ اللُّزُومِ عُموماً آخِرَ ما انْتَهَى إِلَيْهِ تَطَوُّرُ الشِّعْرِ الكِلاسِيْكِيِّ المحْدَثِ كَمَا هُوَ عِنْدَ أبي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ والمتَنَبِّي. وَلَرُبَّما رَجَعَ أَصْلُ مَدْرسَتِهِمْ هَذِهِ إِلَى جَرِيْرٍ[2] والفَرَزْدقَ[3] اللَّذَيْنِ مَثَّلا الشِّعْرَ العَرَبِيَّ التَّقْلِيْدِيَّ في وَاحِدٍ مِنْ أَخَصِّ أطْوَارِهِ. فَعَلى حِيْنِ مَثَّلَ الفَرَزْدَقُ الزَّعِيْمَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ، وَهُوَ يَنْزِلُ لِيَهْجُوَ مَنْ هُمْ دُوْنَهُ بِلُغَةٍ نابِيَةٍ صَفِيقَةٍ، مَثَّلَ جَرِيْرٌ الأَعْرَابِيَّ البَدَوِيَّ، وهُوَ يَثُورُ تَحْتَ لِوَاءِ المنَاضِلِينَ الأُمَوِيِّينَ لِيُنَافِسَ ويُزَاحِمَ مَنْ هُمْ أعْلَى مِنهُ ويَتَحَدَّى ما لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وسَطْوَةٍ بِأَفْحَشِ خُلُقٍ عِنْدَهُ وأجْلَفِهِ. فَفِي أَشْعارِهِما تَظْهَرُ القَصِيدَةُ القَدِيْمَةُ وهِيَ تَمُرُّ بِمَرْحلَةِ أُفُولٍ وذَهَابٍ يُؤَدِّي إِلَى انْتِفاضٍ مُفاجِئٍ.

---

(1) رَاجِعْ تَحْليْلَنا لِقَصائِدِ اللُّزُومِ في الجُزْءِ الخاصِّ بِالأشْكالِ الشِّعْرِيَّةِ المسْتَخْدَمَةِ في اللُّزُوْمِ، مِنَ الفَصْلِ الخامِسِ مِنْ هَذا الكِتَابِ.

(2) جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ بْنِ الخَطَفَى، وُلِدَ حوالي سَنَةِ ٢٠هـ، خِلالَ خِلافَةِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وتُوُفِّيَ سَنَةَ ١١١هـ، خِلالَ خِلافَةِ هِشامِ بْنِ عَبْدِ الملِكِ، الوَفَيات ج١ ص١٢٧.

(3) الفَرَزْدَق، هو هَمَّامُ بْنَ غالِبٍ، وُلِدَ حَوَالي سنةِ ١٣٠هـ، وتُوفِّيَ في سَنَةِ ١١٠هـ، الوفيات ج٢، ص٢٥٩.

وقَدْ كان لِكِلَيْهِما مَخْزُونٌ وَافِرٌ مِنْ تَارِيْخِ القَبائِلِ وأخْبارِها وقَصَصِها ومَثالِبِها والمطَاعِنِ المعْرُوفَةِ عَنْها. أمَّا جَرِيرٌ فَقَدِ احْتَفَظَ فِي أشْعارِهِ بِالإتْقانِ المعْرُوفِ قَدِيماً لِلتَّعبِيْرِ القائِمِ عَلَى مَأْثُوْرِ الأَقْوَالِ والحِكْمَةِ، وإتْقانِ التأنُّقِ اللَّفْظِيِّ. وأمَّا الفَرَزْدقُ فَقَدْ حافَظَ عَلَى الوَصْفِ الأُرُسْتُقَراطِيِّ لِلنَّزْعَةِ الفَرْدِيَّةِ وما لَها مِنْ عُنْجُهِيَّةٍ وصَلَفٍ. وقَدْ تَفَوَّقَ عَلَى جَرِيرٍ بِفِطْنَتِهِ الفَذَّةِ وفَهْمِهِ العالِي، ثُمَّ بِاتِّساعِ دَائِرَةِ مَعْرِفَتِهِ. ويُلْفِي المرْءُ فِي شِعْرِهِ أَمْثِلَةً لِلتَّفْكِيْرِ المسْتَقِلِّ ونَزْعةً نَحْوَ أُسْلُوبٍ ثَوْرِيٍّ، تَتَبَيَّنُهُ فِي مُحاوَلَتِهِ إبْدَالَ العِبارَةِ العَرَبِيَّةِ الموْجَزَةِ المحْكَمَةِ بِجُمْلَةٍ مُعَقَّدَةٍ ذَاتِ تَوابِعَ مِنَ الجُمَلِ وتَعْلِيقاتٍ مُدْرَجةٍ وجُمَلٍ اعْتِرَاضِيَّةٍ، بِما كانَ يُنْبِئُ بِأُسْلُوبِ النَّثْرِ فِي فَتْرَةٍ لاحِقَةٍ[1]. وهَذِهِ النَّزْعَةُ مِنهُ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ صَفَاءَ الاسْتِخْدَامِ النَّحْوِيِّ والتَّرْكِيْبِيِّ فِي شِعْرِهِ.

وقَدْ مَثَّلَ الشُّعَراءَ العَبَّاسِيِّيْنَ الذيْنَ وَرِثُوا هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ- ويَلْزَمُنا أنْ نُدْرِجَ مَعَهُمْ شَخْصِيَّةَ أبِي العلاءِ المتَأَخِّرِ عَنْهُمْ فِي الزَّمانِ- مَثَّلَهُمْ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، هَؤُلاءِ الشُّعَراءُ:

أَوَّلاً: أَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِيُّ:

وقَدْ زَعَمَ أنَّهُ مِنْ قَبِيْلَةِ طَيْءٍ فَتَغَنَّى بِمَدْحِهِمْ[2]. وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَلْفِيَّتِهِ العَبَّاسِيَّةِ المتَطَوِّرَةِ، إلَّا أَنَّهُ مَثَّلَ طَرِيْقَةَ الفَرَزْدَقِ تَمْثِيْلاً لا يَكادُ يَبِيْنُ. فَقَدْ كانَ مَعْرُوفاً بِغَرَابَةِ اسْتِعاراتِهِ، وخُرُوْجِهِ أحْياناً عَلَى القَواعِدِ والقُيُودِ، وانْخِراطِهِ فِي الزَّخْرَفَةِ، وتَعاطِيْهِ الجَدَلَ والمنْطِقَ والحُجَجِ المسْنُوْدَةَ بِالإشَارَاتِ والاقْتِبَاسِ مِنَ التَّارِيْخِ والقَصَصِ، كَمَا عُرِفَ بِعَقْلانِيَّتِهِ وحَبْكاتِ الخَيالِ المتَفَرِّدَةِ. ويَبْدُو أنَّهُ كانَ قَدْ قَصَدَ أَلَّا يَسْتَمْتِعَ بِأَمادِيْحِهِ إلَّا مَنْ

---

[1] انظُرْ مَثلاً، النَّقائِضَ، الصفحات ١٨٩، و٤٩٢- ٤٩٣.

[2] دِيْوَانُهُ الصفحات ٤٧٤-٤٧٧، و ٤٨٠. ويُحَدِّثُنا صاحِبُ الأغاني مُؤَكِّداً أنَّ أبا تَمَّام كانَ مِنْ سُلالةٍ عَرَبِيَّةٍ قُحَّةٍ (ج١٥ ص١٠٠) ولَكِنَّ الأرْجَحَ أنَّهُ كان ابْنَ أحَدِ الخَمَّارِيْنَ النَّصارَى (فَهَلْ يَكُونُ رُوْمِيّاً؟) يُسَمَّى تَدُوْسَ. (الوَفَيات ج١ ص١٥٠. وقَدْ حاوَلَ صاحِبُ كِتابِ (شُعَرَاءُ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ الإسْلامِ) لُوِيْس شيْخُو إثْباتَ نَصْرَانِيَّةِ أبِي تَمَّام ولَكِنْ بدا أنَّ إثْباتَهُ هذا باءَ دُونَ الإقناعِ، انْظُرْهُ، بَيْرُوت ١٩٢٢، ص ٢٥٦.

أُوتِيَ عِلْماً ومَعْرِفَةً (ومِنْ عَجَائِبِ الأَقْدَارِ أَنَّ مَمْدُوْحَهُ كانَ أَبْعَدَ ما يَكُونُ عَنْ وَصْفِ العُلَماءِ، فاعْجَبْ!) [1]

ثانياً: البُحْتُرِيُّ، الوَلِيْدُ بْنُ عُبَيْدِ الطَّائِيُّ (٢٠٦هـ -٢٨٤هـ):

وقَدْ كانَ تِلْمِيذاً لِأبِي تَمَّامٍ[2] فاسْتَخْدَمَ، كأُسْتاذِهِ، الزَّخْرَفَةَ والإشَارَاتِ ولَكِنْ في اعْتِدَالٍ وقَصْدٍ؛ وكانَ يُظْهِرُ وَلاءً ووَفاءً واضِحاً لِقَبِيْلَتِهِ طَيْءٍ[3]. وهُوَ يُذَكِّرُ بِجَرِيْرٍ في إِيْثارِهِ البَساطَةَ والسُّهُوْلَةَ وفِي رَغْبَتِهِ أنْ يَجْعَلَ شِعْرَهُ في مُتَنَاوَلِ فَهْمِ جَمِيْعِ النَّاسِ. وقَدْ تَمَيَّزَتْ أَلْفاظُهُ بِالصَّفاءِ والأَنَاقَةِ؛ وقَدْ سَارَ عُموماً عَلَى القُيُوْدِ والقَوَاعِدِ المرْعِيَّةِ وأَظْهَرَ مَقْدِرَةً فَنِّيَّةً عَظِيْمَةً في مُعَالَجَةِ بَعْضِ المَوْضُوعاتِ التَّقْلِيْدِيَّةِ، وتَجِدُ فِي شِعْرِهِ رِقَّةً ومَسْحَةً مِنْ سَلاسةِ الخُلُقِ ورِقَّةِ الطَّبْعِ، مِمَّا جَعَلَهُ ذا قِيْمَةٍ فُوْقَ أنْ تُقَدَّرَ.

ثالثاً: المُتَنبِّي، أَحْمَدُ بْنُ الحُسَيْنِ الكِنْدِيُّ الكُوْفِيُّ (٣٠٣هـ -٣٥٤هـ):

وهُو يُشْعِرُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بالفَرَزْدَقِ. وكانَ قَدْ تَأَثَّرَ بِأَشْعارِ ابْنِ الرُّومِيِّ[4] وبالأَدَبِ الفَلْسَفِيِّ الذِي كانَ سادَ عَصْرَهُ. ويُحَدِّثُنا مَنْ تَرْجَمُوا لَهُ أَنَّهُ كانَ يَقْضِي أَغْلَبَ وَقْتِهِ في القِراءَةِ[5]. وقَدْ نَظَمَ قصائِدَ فِي المدِيحِ دافَعَ فِيها عَنِ العَرَبِ وانْتَصَرَ لِقَضِيَّتِهِم ومَدَحَ نَفْسَهُ فِيْها ما شاءَ، وضَمَّنَها تأَمُّلاتٍ اتَّسَمَتْ بِعُمْقِ التَّفْكِيْرِ. ووقَعَتْ في شِعْرِهِ كَثِيْرٌ مِنْ تَجاوُزاتٍ لِقَوَاعِدِ النَّحْوِ، كَمَا جاءَ فِيهِ عَدَدٌ مِنَ المصْطَلَحاتِ والتَّعْبِيراتِ الفَلْسَفِيَّةِ؛ حَتَّى إنَّ ابْنَ خَلْدُونَ اشْتَطَّ وتَجاوَزَ القَصْدَ إذْ أخْرَجَهُ وشاعِرَنا مِنْ زُمْرَةِ الشُّعَراءِ؛ لِأَنَّ

---

(1) الوفيات، ج٢، ص٧١.

(2) الوفيات، ج٢، ص٢٣١.

(3) انظُرْ دِيْوَانَهُ، ج٢ ص ٣٣-٣٥.

(4) الوفيات، ج١، ص٤٤٢.

(5) نفسه ص٤٤.

الشِّعْرَ عِنْدَهُ يَجِبُ أَلَّا يُدَاخِلَ الفَلْسَفَةِ أَوْ يُجانِسَها [1]، مَعَ أَنَّ الفَلْسَفَةَ كانَتْ وَقْفاً عَلَيْهِ وحِكْراً لَهُ. وابْنُ خَلْدُونَ عُرِفَ مُؤَرِّخاً مَشْهُوراً وضَلِيْعاً في قَضَايا الاجْتِماعِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَاعٌ في النَّقْدِ الأَدَبِيِّ. ولَمَّا كانَ شاعِراً مُتَوَسِّطاً فَقَدْ كانَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ أُسْلُوبِهِ في النَّظْمِ، وهُوَ الأُسْلُوبُ التَّقْلِيدِيُّ الذِي يُعْجِبُ أَساتِذَتَهُ وشُيُوخَهُ.

وَقَدْ كانَ أبو العلاءِ، مِثْلَ هَؤُلاءِ الشُّعَراءِ الثَّلاثَةِ الكِلاسِيكِيِّينَ الجُدُدِ، عَرِبيّاً لَهُ تَحامُلُهُ عَلَى غَيْرِ العَرَبِ. وقَد جاءَ شِعْرُهُ، في عُمُومِهِ، نابِعاً مِنْ ذَاتِ مَنْبَعِ شِعْرِ المتَنبِّي؛ ولَكِنَّهُ وَرِثَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَلَعَهُ بِتَارِيخِ العُصُرِ والأُمَمِ الغابِرَةِ وآثارِها وذَوْقَهُ الأَبِيْقُورِيَّ، وعَنِ البُحْتُرِيِّ نَصِيباً ضَخْماً وقَدْراً جَمّاً مِنَ المقْدِرَةِ العَرُوضِيَّةِ والإيقاعِيَّةِ، وإيْثاراً لِمَقايِيسِ الصَّفاءِ التَّقْلِيدِيَّةِ.

---

[1] تعريف القدماء، ص٤١١، ومُقدّمة ابنِ خَلدون، ص ٥٠٤.

القسم الخامس

استخدامُ أبي العلاءِ لِلأَدَوَاتِ الزَّخْرَفِيَّةِ

إنَّ الجِناسَ الذي تَعاطاهُ أبو العلاءِ في (سَقْطِ الزَّنْدِ) عُنْصُراً طاغِياً فِيهِ ثُمَّ تَعاطاهُ في تِلْكَ القَصائِدِ مِنَ اللُّزُومِ والتي وَصَفْناها بِالتَّكَلُّفِ والصِّناعَةِ، قَدْ تعاطاهُ في الجُزْءِ الأكْبَرِ مِنَ اللُّزُومِ في قَصْدٍ واعْتِدالٍ. وقَلَّما يُلاحِظُهُ القارِئُ وهُوَ مُسْتَغْرِقٌ في الجَوِّ الغِنائيِّ العاطِفيِّ التأمُّلِيِّ، أوْ مأخُوذٌ بِمُتْقَنِ مسحاتِ الذِّهْنِ وسَبَحاتِ الخَيالِ. ومِنْ أدَواتِ الزَّخْرَفةِ التي تَعاطاها أبو العلاء كَثِيْراً وبِمَهارَةٍ فائِقَةٍ التَّقْسِيمُ[١]. وقَدْ كانَ هَذا التَّقْسِيمُ مَعْرُوفاً مُتَداوَلاً بَيْنَ شُعَراءِ مَدْرَسَةِ زُهَيْرٍ والنَّابِغَةِ القَدِيْمَةِ[٢]. وقَدْ بَعَثَهُ مِنْ جَدِيدٍ كُلٌّ مِنَ البُحْتُرِيِّ في كامِلِيَّاتِهِ والمُتَنَبِّي في طَوِيلِيَّاتِهِ وبَسِيطِيَّاتِهِ[٣]. وقَدْ تَعَلَّمَ أبو العلاءِ مِنْ دَرْسِهِ لِلْمُتَنَبِّي اسْتِخْدامَ هَذا النَّوْعِ مِنَ الزَّخْرَفةِ بِمِثْلِ ما تَعاطاهُ المُتَنَبِّي سُهُولَةً وسَلاسَةً. وأعْظَمُ ما لِلتَّقْسِيمِ مِنَ المزَايا هِيَ أنَّهُ يُقَطِّعُ كُلَّ بَيْتٍ إلى وَحْداتٍ أصْغَرَ ويُنْشِئُ خِلالَها ضُرُوباً مِنَ الأنْماطِ الإيْقاعِيَّةِ؛ حَتَّى إذا تَبايَنَتْ هَذِهِ الأَنْماطُ الإيْقاعِيَّةُ مِنْ بَيْتٍ إلى بَيْتٍ أمْكَنَ التَّغَلُّبُ عَلَى الرَّتابَةِ التي تَكُونُ البُحُورُ الكَبِيرَةُ عُمُوماً عُرْضَةً لَها كُلِّيّاً. خُذْ مَثَلاً قَوْلَ أبي العلاء مِنَ اللُّزُومِ، من الجُزْءِ الأَوَّلِ:

القَبْرُ لا شَكَّ مَنْزُولٌ فَمَا أَرَبِي ... إلَى ارْتِقَاءِ رَفِيْعِ السَّمْكِ مَصْعُوْدِ
قُوْتِي غَنائي وطِمْرِي ساتِرِي وتُقَى ... مَوْلايَ كَنْزِي وَوِرْدُ الموْتِ مَوْعُودِي

وقَوْلَهُ بِالجُزْءِ الثَّانِي:

وُجُوْهُكُمْ كُلْفٌ وأفْوَاهُكُمْ عِدَا ... وأَكْبادُكُمْ سُوْدٌ وأعْيُنُكُمْ زُرْقُ

---

(١) (انظُرْ العُمْدة، ج٢، ص ١٨ وما بَعْدَها).

(٢) (انظُرْ، مثلاً، دِيوانَ زُهَيْرٍ، ص ١١٢ — ١١٥).

(٣) (دِيوانُهُ ص ٢٩١ — ٢٩٢ و٤١٩).

وما بِيَ طِرْقٌ لِلْمَسِيْرِ ولا السُّرَى لِأَنِّي ضَرِيْرٌ لا تُضِيءُ لِيَ الطُّرْقُ

وأَكْثَرُ ما يُجْعَلُ لِلوَحْدَاتِ الصَّغِيْرَةِ كَلِمَاتٌ ساجِعَةٌ أوْ قَوَافٍ، حَتَّى تَكُونَ أَقْوَى إيْقاعاً، فإذا اسْتُخْدِمَتْ هَذِهِ السَّجْعاتُ أوِ القَوَافِي بِمَهارَةٍ وحَذْقٍ، لا سِيَّما مَعَ بَحْر البَسِيْطِ، تَضاعَفَ النَّغَمُ والإيْقاعُ، كقَوْلِهِ في الجُزْءِ الثاني:

وَيْحٌ لِجِيْلِيَ والأجْيالِ إنْ بُعِثُوا إلَى حِسَابِ قَدِيْمِ المُلْكِ عَلَّامِ
مُحْصِي الجَرَائِمِ فَعَّالِ العَظَائِمِ نَصَّـ ـارِ الهَضَائِمِ جَازٍ غَيْرِ ظَلَّامِ

هذا، وأمَّا الإشاراتُ في اللُّزومِ فَتَخْتَلِفُ عَنْ تِلكَ التي في الدِّرْعِيَّات اخْتِلافاً كَبِيراً. إذ إنَّ الإشاراتِ في الدِّرْعِيَّاتِ، وكَذَلِكَ في الأجْزاءِ الصَّعْبَةِ مِنْ قِطَعِ اللُّزُومِ ذاتِ التَّكَلُّفِ والصِّناعَةِ، إنَّما كانَتْ يُؤْتَى بِها طَلَباً لِذاتِها. وكَما رَأَيْنا في القصائِدِ ذاتِ الصِّناعَةِ والتَّكَلُّفِ، أنَّ الجِناسَ أَحْياناً لا يُستَخْدَمُ إلَّا لِدَافِعٍ واحِدٍ هُوَ المجِيءُ بِالإشارَةِ التي أرادَها الشَّاعِرُ. لَكِنَّ الإشاراتِ هُنا أَكْثَرُ ما اسْتُخْدِمَت لِتَقْوِيَةِ الحُجَجِ وتَعْزِيزِ البَراهِيْنِ عَلَى طَرِيقَةِ أبِي تمَّامٍ. بَلْ يُمْكِنُكَ مُلاحَظَةُ تَأْثِيرِ أبِي تَمَّامٍ على شاعِرِنا حَتَّى في اسْتِخْدَامِ كَلِمَاتٍ وتَعْبِيراتٍ بِعَيْنِها وفَنِّيَّاتٍ في الإشارةِ طَبَعَتْ شِعْرَ أبي تَمَّامٍ. فَخُذْ مَثَلاً قَوْلَ أبي العلاءِ، من الجزء الأوَّلِ:

أَظَنَنْتَ دَهْرَكَ عَنْ حِسَابِكَ غافِلاً وإذا أَبِهْتَ فَإنَّهُ مِكْثارُ
هذا امْرُؤُ القَيْسِ بْنُ حُجْرٍ فِي الثَّرَى دَثَرَتْ مَعَالِمُهُ فَأَيْنَ دِثارُ

فَكِلمةُ (هَذَا) هُنا تُعادِلُ كَلِمَةَ (تِلْكُمْ) مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ[1].

حَسَدُ العَشِيْرَةِ لِلْعَشيرةِ قُرْحَةٌ تَلَدَتْ وَسَائِلُها وجُرْحٌ أَقْدَمُ

---

(1) ديوانه ص ٢٧٣.

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ لَمْ تَكُنْ أحْلامُها تَخْبُو ولا آراؤُها تَتَقَسَّمُ

وكَثِيْراً ما اسْتَخْدَمَ أبو تَمَّامِ الإشارَاتِ بَدائِلَ عَن كَلِماتٍ وتَعَابِيْرَ بَسِيطَةٍ، كَمَا في قَوْلِهِ[1]:

تَخِذَ الفِرَارَ أخاً وأيْقَنَ أنَّهُ صِرِّيُّ عَزْمٍ مِنْ أبِي سَمَّالِ

وقَوْلِهِ:

فَإذا ابْنُ كافِرَةٍ يُسِرُّ بِكُفْرِهِ وَجْداً كَوَجْدِ فَرَزْدَقٍ بِنَوارِ

فأمَّا البَيْتُ الأوَّلُ هنا فَتَضَمَّنَ الإشارةَ إلى قِصَّةِ أبي سَمَّالٍ وكانَ أقْسَمَ ألَّا يَعْبُدَ اللهَ إن لَمْ يَجِدْ ناقَتَهُ التي كانَ قَدْ ضَلَّها، فقال: (أيْمُنْكَ، لَئِنْ لَمْ تَرُدَّها عَلَيَّ لا عَبْدُتَكَ)[2]. فالعِبَارَةُ التي تَضَمَّنَتِ الإشَارَةَ إلى هَذِهِ القِصَّةِ تَعْدِلُ تَماماً العِبارَةَ البَسِيْطَةَ (عَزْمٌ شَدِيْدٌ). والتَّشْبِيْهُ في البَيْتِ الثَّانِي هُنا الذِي يُشِيْرُ إلى خَبَرِ الفَرَزْدَقِ وزَوْجِهِ نَوَارَ يَعْدِلُ العِبَارَةَ البَسِيْطَةَ (وَجْداً عَظِيماً) غَيْرَ أنَّ الشَّاعِرَ لَوْ كانَ اسْتَخْدَمَ هَاتَيْنِ العِبَارَتَيْنِ لَخَسِرْنا سِحْرَ إشاراتِهِ. وفي لُزُومِ أبِي العلاءِ نَجِدُ أمْثِلَةً كَثِيْرَةً تَحْمِلُ شَبَهاً شَدِيْداً لِهَذِهِ الخاصِيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ لِأبِي تَمَّامٍ. خُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ:

ويُوْجَدُ الصَّقْرُ في الدَّرْماءِ مُعْتَقِداً رأْيَ امْرِئِ القَيْسِ في عَمْرِو بْنِ دَرْماءِ

فَهَهُنا يُمْكِنُ لِعِبارَةِ (اعْتِقاداً حَسَناً) أنْ تَحُلَّ مَحَلَّ امْرِىءِ القَيْسِ وصَدِيقِهِ ابْنِ دَرْماءَ. وَكَذَلِكَ خُذْ قَوْلَهُ:

---

(1) نَفْسَهُ، ص٢٦١، وص ١٥٣.

(2) أبُوسَمَّالِ الأَسَدِيُّ الذِي يُشِيْرُ إِلَيْهِ ابو تَمَّامٍ هُنا عاشَ في زَمانِ مُعاوِيَةَ وكانَ مَعْرُوفاً بِفَصاحَتِهِ (انظُر العِقْد الفَرِيد، لِابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، القاهِرَة، ١٩٤٠ ج٢ ص٢٦٧. ولَمَّا وَجَدَ أبو سَمَّالٍ ناقَتَهُ أخَذَها وقالَ: (عَلِمَ رَبِّي أنَّها مِنِّي صِرَّى)، أيْ يَمِيْنٌ حازِمَة، انْظُرْ لِسَانَ العَرَبِ ج١٩ ص ١٩٣.

ونَحْنُ وما فِرَاسَتُنا بِمَيْنٍ كَلَفْظِ الدّارِمِيِّ أَبِي فِراسِ

والتَّشْبِيْهُ القَوِيُّ هُنا جاءَ بِهِ لِيُبَيِّنَ اخْتِلافَ النَّاسِ في طِبَاعِهِم ورُتَبِهِمْ.

هَذَا، ولَعَلَّهُ مِنَ الجَيِّدِ أَنْ نُبَيِّنَ فِيما يَلِي بِالمِثالِ الشَّبَهَ بَيْنَ أُسْلُوبِ أبي العلاء في الإشارَةِ وأُسْلُوبِ أبي تَمَّامٍ فِيْها:

أوَّلاً : أبو تَمَّامٍ ؛ وذَلِكَ إذْ يَقُولُ[1] :

فأقِلْ أُسامةَ جُرْمَها واصْفَحْ لَها	عَنْهُ وهَبْ ما كانَ لِلوَهَّابِ
لَكَ في رَسُولِ اللَّهِ أعْظَمُ أُسْوَةٍ	وأَتَمُّها في سُنَّةٍ وكِتابِ
أعْطَى المؤَلَّفةَ القُلوبِ حُقُوقَهُم	كَمَلاً وردَّ أخائذَ الأحْزابِ
والجَعْفَرِيُّونَ استقلَتْ ظُعْنُهُمْ	عن حَيِّهِمْ وهُمُ نُجُوْمُ كِلابِ
حَتَّى إذا أخَذَ الفِرَاقُ بِقِسْطِهِ	مِنهُمْ وشَطَّ بِهِمْ عَنِ الأحْبابِ
ورَأَوْا بِلادَ اللَّهِ قدْ لَفَظَتْهُمُ	أَكْنافُها رَجَعُوا إلى جَوَّابِ
فَرَأَوْا كَرِيْمَ الخِيْمِ مِثْلَكَ مُضْرِباً	عَنْ ذِكْرِ أحْقادٍ مَضَتْ وضِبابِ
لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ	لكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المتَغَابِي

أَيْ اصْفَحْ عَنْ بَنِي أُسامَةَ واغْفِرْ جُرْمَهُمْ واحْتَسِبْ أجْرَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ، ولَكَ في ذَلِكَ أُسوَةٌ في رَسُولِ اللهِ (ص) لَمَّا أَعْطَى المؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ كامِلَ حُقُوقِهِمْ، ورَدَّ عَلَى الأَحْزَابِ السَّبَايا مِنَ النِّساءِ[2]. كما أنَّ بَنِي جَعْفرِ بْنِ كِلابٍ، الذِيْنَ كانُوا نُجُومَ بَنِي كِلابٍ تَرَكُوا قَوْمَهُمْ وفارَقُوهُمْ، فَلَمَّا ذاقُوا وَيْلاتِ التَّفَرُّقِ والتَّمَزُّقِ وضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ

---

(1) (ديوانُهُ ص١٩).

(2) انظُرْ سيرة ابْنِ هشام، ج٤، ص ١٣٥.

رَجَعُوا إلى جَوَّابٍ[1] سَيِّدِ بَنِي كِلابٍ، فَوَجَدُوهُ مِثْلَكَ، كَرِيمَ الطِّبَاعِ، تَارِكاً لِلأَحْقادِ والعَداواتِ القَدِيمَةِ؛ فَلَيْسَ الذي يَسُودُ قَوْمَهُ بِالغَبِيِّ ولَكِنَّ الذي يَسُوْدُهُمْ هو المتَغابِي أو مَنْ يَتغافَلُ عَنْ أخْطاءِ غَيْرِهِ.

ثانياً : أبو العلاء؛ في قَوْلِهِ[2]:

لا تَصْحَبَنَّ يَدَ اللَّيالِي فاجِراً	فَالجارُ يُؤْخَذُ أنْ يَعِيْبَ الجارُ
هَذِي سَجَايا آلِ آدَمَ إنَّهُمْ	لِثِمارِ كُلِّ ظُلامةٍ أشْجَارُ
واللّهُ لَيْسَ بِآخِذٍ مِنْ جابِرٍ	ما نَالَ أَبْجَرُ وابْنُهُ حَجَّارُ
ضَرَبَتْ كِنانَةَ نَجْرَ خُشْبٍ فِتْيَةٌ	لَقَبٌ مَضَى لِأَبِيْهِمُ النَّجَّارُ
ثُمَّ استُبِيْحُوا عَنْوَةً فَكَأَنَّهُمْ	جارُوا وما كانُوا الرَّسُولَ أجَارُوا

أيْ لا تَصْحَبْ فاجِراً قَطُّ؛ لِأَنَّ الجارَ يُؤْخَذُ بِجَرِيْرَةِ جارِهِ، فَهَذِهِ عَدَالَةُ بَنِي آدَمَ الذِيْنَ هُمْ أَشْجَارٌ تُثْمِرُ كُلَّ ظُلْمٍ. ولَكِنَّ اللهَ تَعالَى لَنْ يُؤَاخِذَ جابِراً عَلَى ما صَنَعَ أَبْجَرُ وابْنُهُ حَجَّارٌ[3]. وقَدْ تَعَرَّضَتْ كِنَانَةُ[4] إلى ضَرْبٍ كَنَجْرِ الخَشَبِ مِنْ قِبَلِ بَنِي النَّجَّارِ[5] ثُمَّ دَارَتْ عَلَى بَنِي النَّجارِ رَحَى الأيَّامِ وقَلَبَ لَهُمُ الدَّهْرُ ظَهْرَ المِجَنِّ فاستُبِيْحُوا عَنْوَةً، فَكَأَنَّهُمْ كانُوا قَدْ أخْطَأُوا وكأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصُروا الرَّسُولَ (ص)[6].

---

(1) واسْمُهُ مالكُ بْنُ كعْبِ بْنِ عُبَيْدٍ؛ كان سَيِّدَ بَنِي بَكْرِ بْنِ كِلابٍ في حَرْبِهِمْ عَلَى بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كِلابٍ. انظُر(النَّقائِضَ) ص٥٣٢.

(2) اللُّزُوم، ج١، ص ٣٣٣.

(3) حَجَّارُ بْنُ أَبْجَرَ، كانَ أحَدَ سَرَاةِ الكُوْفَةِ الذِيْنَ غَدَرُوا الحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ، انظُرْ (تارِيْخ الأُمَمِ والملُوكِ) لِلطَّبَرِيِّ، بُولاق، ج٦ ص١٩٧. وكانَ جَدُّ أبِيْهِ، أَبْجَرُ بْنُ جابِرٍ سَيِّدَ بَنِي عِجْلٍ (مِنْ بُطُوْنِ شَيْبَانَ) في مَوقِعَةِ جَدُود (المفضليات٧٤٠–٧٤١). وقد شارَكَ جَدُّهُ جابِرُ بْنُ أبْجَرَ في يَوْمِ ذِي قارٍ (النَّقائِض) ص ٦٤٣.

(4) كَقُرَيْشٍ وقَرَاباتِهَا.

(5) سُكَّان المدِيْنَةِ.

(6) الإشارةُ هُنا إلى مَوْقِعَةِ الحَرَّةِ التي كانَتْ في سَنَةِ ٦٣هـ، تاريخ الطَّبَرِيِّ، ج٧، ص ٨.

القسم السادس

الهِجاءُ والسُّخْرِيةُ والظُّرْفُ في اللُّزُوم

حَوَى اللُّزُومُ عَدَداً كَبِيراً مِن أشْعارِ التَّهَكُّمِ والهِجاءِ، فَمَا مِنْ جانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ المجْتَمَعِ الذي عاشَ فِيهِ أبو العَلاءِ إلَّا وقد كانَ عُرْضَةً لِكَشْفِهِ وفَضْحِهِ وغَرَضاً لِسُخْرِيَتِهِ وتَهَكُّمِهِ. وقَدْ كانَ أبو العلاء في أشْعارِهِ الهِجائِيَّةِ هَذِهِ مُهْتَمّاً أكْثَرَ شَيْءٍ بِتَعْزِيْزِ المَبَادِئِ والمُثُلِ العُلْيَا في هذا المجْتَمَعِ، ومُنْصَرِفاً في الأغْلَبِ إلَى احْتِقارِ ما يَعْتَرِيْهِ مِنْ نِفاقٍ ورِياءٍ، وما يُعانِيْهِ مِنْ تَعالٍ وتعَصُّبٍ. ولَمْ يَكُنْ يَدْفَعُهُ في هِجائِهِ هَذا مِنَ الدَّوَافِعِ ما كان يَدفَعُ أكْثَرَ شُعَراءِ عَصْرِهِ الذِيْنَ كانُوا يَتَعاطَوْنَ الهِجاءَ لِلطَّعْنِ في مُنافِسِيْهِمْ والنَّيْلِ مِنْ مُعارِضِيْهِمْ وأعْدائِهِم أو لِلثَّأْرِ والنَّيْلِ مِنْ مَمْدُوحِيهِمْ الذِينَ لَمْ يُنِيلُوهُمْ مِنَ العَطاءِ ما كانُوا يُرَجُّونَ. وقَدْ جاءَتْ أبْياتُ هَذَا الهِجَاءِ في اللُّزُومِ، وإنْ كانَتْ تُشِيْرُ إلى خُصُومٍ لِأبِي العلاءِ، مِثْل :

رَماكَ بالقَوْلِ مَلْحِيٌّ تُعَدُّ لَهُ سَيْفاً أحَدَّكَ بِالنَّكْراءِ أوْ صَقَلَكْ
رَآكَ شَوْكَ قَتَادٍ لَيْسَ يُمْكِنُهُ وَلَوْ رَآكَ غَضِيضَ النَّبْتِ لابْتَقَلَكْ

أَقُولُ: جاءَتْ مِثْلُ هَذِهِ الأبْياتُ الهِجائِيَّةُ دائِماً رَزِيْنَةً شرِيفةَ اللَّفْظِ قَدْ تَسامَتْ عَنْ سُمُومِ الأحْقَادِ وترَفَّعَتْ عن أوحالِ الضَّغائِنِ، لَمْ تَدْنَسْ مِنْ دَناءَةِ الحَسَدِ والغَيْرَةِ أوْ يَشِنْها نابِي الشَّتَائِمِ. وقَدْ كانَ شاعِرُنا مِنَ الرِّفْعَةِ والاعْتِزازِ بِنَفْسِهِ بِحَيْثُ كانَ يَرْبأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أنْ يُسِفَّ أوْ يَهْبِطَ لِيَتَبادَلَ الألْفاظَ النابِيَةَ والعِبَاراتِ السُّوْقِيَّةَ مَعَ خُصُومِهِ الذِيْنَ دَفَعَهُمْ كُرْهُهُمْ لَهُ وعَداوتُهُمْ لِأنْ يُبَهِّتُوهُ ويَتَقَوَّلُوا عَلَيْهِ باطِلاً بَيْتَيْنِ فِي الزَّنْدَقةِ ثُمَّ يَرْمُوْهُ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ[1]:

---

[1] (تعريف القدماء، ص٨).

كَلْبٌ عَوَى بِمَعَرَّةِ النُّعْمَانِ لَمَّا خَلا مِنْ رِبْقَةِ الإِيْمَانِ
أَمَعَرَّةَ النُّعْمانِ ما أَنْجَبْتِ إِذْ أَخْرَجْتِ مِنْكِ مَعَرَّةَ العُمْيَانِ

وقَدْ كانَ أبو العلاء يَكْتَفِي بِالإشارةِ إِلَيْهِمْ بازْدِرَاءٍ واسْتِهَانةٍ في جَمْعِهِمْ مُعْرِباً عَنْ تَحَدِّيهِ لَهُمْ وثِقَتِهِ فِي تَوْطِينِ نَفْسِهِ لَهُمْ وجَلَدِهِ ورَباطَةِ جأْشِهِ، كقَوْلِهِ :

غَرِيَتْ بِذَمِّي أُمَّةٌ وبِحَمْدِ خالِقِها غَرِيْتُ
وعَبَدْتُ رَبِّي ما اسْتَطَعْـ ـتُ ومِنْ بَرِيَّتِهِ بَرِيْتُ
وفَرَتْنِيَ الجُهَّالُ حا سِدةً عَلَيَّ وما فَرِيْتُ
سَعَرُوا عَلَيَّ ولَمْ أُحِسَّ وعِنْدَهُمْ أَنِّي هُرِيْتُ

أيْ (أُوْلِعَ قومٌ بِذَمِّي ولَمْ أُبادِلْهُمُ الذَمَّ، بَلْ لَهِجْتُ بِحَمْدِ مَنْ خَلَقَهُمْ؛ فَأَنا مُقِيمٌ على عِبادَةِ رَبِّي ما وَسِعَتْنِي العِبادةُ، وبَرِئْتُ إِليهِ مِنْ خَلْقِهِ؛ وقَدْ سَعَى فِي قدْحِي واغْتِيابِي قَوْمٌ جَهَلَةٌ حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنفسِهِمْ، ولَمْ أَغْتَبْ مِنْهُم أحَداً؛ ولَقَدْ سَعَّرُوا نِيْرانَهُمْ يَبْغُونَ حَرْقِي، وظَنُّوا أَنَّهُمْ أَدْرَكُوا غايَتَهُم فِيَّ إِهْلاكاً، فما نالَتْ نِيرانُهُم مِنِّي مَنالاً).

وقَدِ اسْتَشْهَدَ بِهَذِهِ الأبْياتِ عَدَدٌ مِمَّنْ تَناوَلُوا سِيْرَةَ أبي العلاءِ[1]، وكُلُّها لَمْ تَرِدْ في طَبْعَةِ القاهِرَةِ لِلُّزُومِ، ولا فِي رَسائِلِ أبي العلاء، النُّسْخَةِ المحْفُوظَةِ بِالمتْحَفِ البِرِيْطانِيِّ، مَعَ أَنَّهُ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّها مِنَ اللُّزُومِ. ونَوْعُ الهِجاء في هَذِهِ الأَبْياتِ وما يُماثِلُها مِنْ أَبْياتِ اللُّزُومِ هُوَ ما يُسَمِّيْهِ النُّقَّادُ العَرَبُ بالتَّعْرِيضِ. يَقُولُ ابْنُ رَشِيْقٍ القَيْرَوَانِيُّ في كِتابِهِ العُمْدَة: (وأنا أرى أَنَّ التَّعْرِيْضَ أَهْجَى مِنَ التَّصْرِيحِ؛ لاتِّساعِ الظَّنِّ فِي التَّعْرِيْضِ وشِدَّةِ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِهِ والبَحْثِ عِنْ مَعْرِفَتِهِ وطَلَبِ حَقِيقَتِهِ؛ فإذا كانَ الهِجاءُ تَصْرِيحاً أَحاطَتْ بِهِ النَّفْسُ عِلْماً

---

(1) (إرشاد الأديب، ج١، ص١٧٩، وتعريف القدماء، ص ١٠٠).

وقَبِلَتْهُ يَقِيْناً في أوَّلِ وَهْلَةٍ فَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ في نُقْصانٍ لِنِسْيانٍ أوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ)[1]. فَهَذِهِ المِلاحَظَةُ مِنِ ابْنِ رَشِيْقٍ قِطْعَةٌ مِنَ النَّقْدِ الأدَبِيِّ المُتْقَنِ الصَّمِيمِ، واسْتِقْرَاءٌ مُمْتازٌ لِحَقِيقَةٍ نَفْسِيَّةٍ. ويُمْكِنُنا حَقّاً أنْ نأَخُذَ بِها في التَّعْرِيضِ في دِيْوَانِ اللُّزُومِ. فَلابُدَّ أنَّ مَنْ يَقْرأُ لِأبي العلاء يَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ عارِمةٍ في مَعْرِفَةِ الكَثِيْرِ عَنْ عَيْنِ ذَوَاتِ الأشْخَاصِ المعْنِيِّيْنَ بِهَذَا التَّعْرِيْضِ. ويُخْبِرُنا ابْنُ العَدِيْمِ في تَرْجَمَتِهِ لِشاعِرِنا بِاسْمِ أحَدِ أعْدَاءِ الشَّاعِرِ هَؤُلاءِ؛ إذْ يَذْكُرُ أنَّ مَنْ كانَ يُعْرَفُ بِالشَّرِيفِ ابْنِ المِحْبَرَة كانَ هُوَ وأحَدُ أهْلِ المعَرَّةِ يَخْتَلِقانِ أشْعَاراً في الزَّنْدَقَةِ والهَرْطَقَةِ ويُقْحِمَانِها في دِيْوَانِ اللُّزُومِ. وقَدْ شَكاهُما أبو العلاءِ إلى حاكِمِ حَلَبٍ في رِسالةٍ عُرِفَتْ (بِرِسَالةِ الضَّبْعَيْنِ)[2]. ويُمْكِنُنا أنْ نَزْعُمَ مِنْ لَقَبِ ابْنِ المِحْبَرَةِ هَذا (الشريف) الذي عادَةً ما يَعْنِي شرِيفاً مِنَ العَلَوِيِّيْنَ، أنَّهُ كانَ أحَدَ غُلاةِ الشِّيْعَةِ وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّهُ عَمِيلٌ إسْماعِيْلِيٌّ[3].

وقَدِ احْتَفَظَ لَنا الصَّفَدِيُّ والقِفْطِيُّ وسِبْطُ بْنُ الجَوْزِيِّ بِقَصِيدَةٍ قَصِيرَةٍ عَرَّضَ فِيْها أبو العلاء بِجَمِيعِ خُصُومِهِ (ومِنهُم بِطَبِيْعَةِ الحالِ ابْنُ المِحْبَرَةَ مَعَ أنَّ اسْمَهُ لَمْ يُذْكَرْ فِيهْا)؛ ولَعَلَّهُ مِنَ المناسِبِ هُنا أنْ نُورِدَها، لِأنَّها تُشْبِهُ في أُسْلُوبِها أبْياتَ اللُّزُومِ التي تُشِيْرِ إلى خُصُومِ الشَّاعِرِ؛ ولِأنَّها تَزِيْدُ عَلَى هَذِهِ الأبْياتِ بِكَوْنِها قَصِيْدَةً نَوْعاً ما أطْوَلَ، أعْرَبَ فِيْها الشَّاعِرُ بِصَرِيْحِ العِبارَةِ عَنْ احْتِقارِهِ وازْدِرائِهِ لِلْمُتَقَوِّلِيْنَ عَلَيْهِ والمفْتَرِيْنَ لَهُ الأكاذِيْبَ، يَقُولُ أبو العلاء:

أستَغْفِرُ اللهَ في أمْنِي وأوْجَالِي ... مِنْ غَفْلَتِي وتَوَالِي سُوْءِ أعْمَالِي

قَالُوا هَرِمْتَ ولَمْ تَطْرُقْ تِهَامَةَ في ... مُشاةِ وَفْدٍ ولا رُكْبانِ أجْمالِ

---

[1] (العمدة، ج٢، ص١٤٠).

[2] (تعريف القدماء، ص٥٢٦).

[3] (انظُرْ (الجانبُ الفكريُّ لِلُّزُوم) فيما يلي).

فَقُلْتُ: إنِّي ضَرِيْرٌ والذِيْنَ لَهُمْ رأْيٌ رَأَوْا غَيْرَ فَرْضٍ حَجَّ أمْثالِي

ما حَجَّ جَدِّي ولَمْ يَحْجُجْ أَبِي وأخِي ولا ابْنُ عَمِّي ولَمْ يَعْرِفْ مِنَىً خالِي

وحَجَّ عَنْهُمْ قَضَاءً بَعْدَما رَحَلُوا قَوْمٌ سَيَقْضُونَ عَنِّي بَعْدَ تَرْحالِي

فإنْ يَفُوْزُوا بِغُفْرَانٍ أفُزْ مَعَهُمْ أوْ لا فإنِّي بِنارٍ مِثْلَهُمْ صَالِ

ولا أَرُومُ نَعِيْماً لا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ نَصِيْبٌ وهُمْ رَهْطِي وأشْكالِي

فَهَلْ أُسَرُّ إذا حُمَّتْ مُحاسَبَتِي أمْ يَقْتَضِي الحُكْمُ تَعْتابِي وتَسْآلِي

مَنْ لِي بِرِضْوَانَ أدْعُوهُ أُرَخِّمُهُ ولا أُنادِي مَعَ الكُفَّارِ يا مَالِ

بَاتُوا وحَتْفِي أَمانِيهِمْ مُصَوَّرَةً وبِتُّ لَمْ يَخْطُرُوا مِنِّي عَلَى بَالِ

وفَوَّقُوا لِي سِهَاماً مِنْ سِهامِهِمُ فأصْبَحَتْ وُقَّعاً عَنِّي بِأمْيالِ

فَمَا ظُنُوْنُكَ إذْ جُنْدِي مَلائِكَةٌ وجُنْدُهُمُ بَيْنَ طَوَّافٍ وبَقَّالِ

لَقِيْتُهُمْ بِعَصَا مُوْسَى التي حَرَمَتْ فِرْعَوْنَ مُلْكاً ونَجَّتْ آلَ إسْرَالِ

أُقِيْمُ خَمْسِي وصَوْمَ الدَّهْرِ آلَفُهُ وأُدْمِنُ الذِّكْرَ أبْكاراً لِآصالِ

عِيْدَيْنِ أُفْطِرُ مِنْ عامِي إذا حَضَرا عِيْدَ الأضاحِيِّ يَقْفُو عِيْدَ شَوَّالِ

إذا تَنافَسَتِ الجُهَّالُ في حُلَلٍ رأيْتُنِي وخَسِيْسُ القُطْنِ سِرْبالِي

لا آكُلُ الحَيَوَانَ الدَّهْرَ مِأْثَرَةً أَخافُ سُوْءَ أعْمالِي وآمالِي

وأعْبُدُ اللهَ لا أرْجُو مَثُوبَتَهُ لَكِنْ تَعَبُّدَ إكْرامٍ وإجْلالِ

أصُوْنُ دِيْنِيَ عَنْ جُعْلٍ يُدَنِّسُهُ إذا تَعَبَّدَ أقْوَامٌ بِأجْعَالِ

يَبْدأُ أبو العلاءِ هَذِهِ القَصِيدةَ مُسْتَغْفِراً اللهَ تَعالَى فِي حالَيْهِ أمْنِهِ وخَوْفِهِ، مِنْ غَفْلَتِهِ وتَتَابُعِ سُوْءِ عَمَلِهِ، ثُمَّ يُعَرِّجُ عَلَى مَنِ اتَّهَمُوهُ فِي دِيْنِهِ بِأنَّهُ لَمْ يَحُجَّ بَيْتَ اللهِ، وقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ، رَادّاً عَلَيْهِمْ بِأنَّهُ مَعْذُورٌ بِعَمَاهُ، وأنَّهُ لَمْ يَحُجَّ مِنْ أهْلِهِ قَبْلَهُ جَدُّهُ ولا أبُوهُ ولا أخُوْهُ ولا ابْنُ عَمِّهِ ولا خالُهُ؛ فَقَدْ حَجَّ عَنْهُمْ جَمِيْعاً قَوْمٌ بَعْدَ مَوتِهِمْ، وسَيَحُجُّونَ عَنْهُ هُوَ بَعْدَ مَوْتِهِ كَذَلِكَ. فإنِ انْتَفَعُوا بِذَلِكَ وفازُوا بِغُفْرَانِ اللهِ فَقَدِ انْتَفَعَ هُوَ مَعَهُمْ وفازَ بِهِ، وإلَّا

فَسَيَرِدُ مَعَهُمُ النَّارَ. ثُمَّ يَتَمَنَّى دُخُولَ الجَنَّةِ بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَدْعُو بِالتَّرْخِيمِ رِضْوَانَ، خازِنَ الجِنَانَ، ولَيْسَ مالِكاً[1]. ثُمَّ يَتَحَدَّثُ الشَّاعِرُ عَنْ خُصُومِهِ وأعْدَائِهِ فيَذْكُرُ أَنَّهُمْ يَبِيتُونَ وأمانِيهِمْ مَوْتُهُ، ويَبِيتُ هُوَ خَلِيّاً مِنْ ذِكْرِهِمْ، وكَمْ صَوَّبُوا سِهامَهُمْ نَحْوَهُ فَضَلَّتْ مَرْماها وطاشَتْ بَعِيْداً عَنْهُ بِأَمْيالٍ، كَيْفَ لا وحُرَّاسُهُ المَلائِكَةُ، وحُرَّاسُهُمْ شُذَّاذُ الآفاقِ والأَوْبَاشُ والبَقَّالُونَ؛ فإذا رَمَوْهُ بِسِهامِهِمُ التي لَنْ تُصِيبَهُ فَهُوَ لاقِيهِمْ بِعَصا مُوْسَى التي سَلَبَتْ فِرْعَونَ مُلْكَهُ وأَنْقَذَتْ بَنِي إسْرَائِيلَ، أيْ فَهُمْ لا يَضُرُّونَهُ شَيْئاً، ولَكِنَّهُ يَلْقاهُمْ بِمَا هُوَ فَعَّالٌ فِيهِم، يَعْنِي انْتِصَارَهُ عَلَيْهِم في بَغْيِهِمْ عَلَيْهِ؛ وتَرَاهُ يَقُولُ لَهُمْ: وأنا مُحافِظٌ عَلَى صَلَوَاتِي الخَمْسِ، صائِمٌ دَهْرِي، ذاكِرٌ اللهَ بِالغُدُوِّ والآصالِ لا أُفْطِرُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ في دَهْرِي، في عِيْدِ الفِطْرِ، وعِيْدِ الأَضْحَى. وأنا أَلْبَسُ زَهِيدَ الثِّيابِ إذا تَبَاهَى أَعْدَائِي بِنَفِيسِها جَهْلاً، وأَعْبُدُ اللهَ لا طَلَباً لِلثَّوابِ ولَكِنْ لِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ، أَهْلٌ لِلإجْلالِ وأنا لا أَقْبَلُ ثَمَناً لِدِينِي وإيمانِي، إذا كانَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْبَلُ في دِيْنِهِمُ الرِّشا والأَثْمانَ.

وفي اللُّزُومِ قَصِيْدَتانِ تُشْبِهانِ قصائِدَ الهِجَاءِ التَّقْلِيدِيَّةَ فِي أُسْلُوبِهِما الفَنِّيِّ أَكْثَرَ مِنْ قِطَعِ أَبِي العلاء التي يُعَرِّضُ فِيْها ويَهْجُو؛ وهُما:

ألا هَلْ أَتَى قَبْرَ الفَقِيرةِ طارِقٌ ... يُخَبِّرُها بِالغَيْبِ عَنْ فِعْلِ طارِقِ

والأُخْرَى :

ألا تَتَّقُونَ اللهَ رَهْطَ مُسَلِّمٍ ... فَقَدْ جُرْتُمُ في طاعَةِ الشَّهَوَاتِ

---

[1] مَالِ في الأَبْياتِ أعْلاهُ مُرَخَّمُ مالِكٍ، وهُوَ المَلَكُ المُوَكَّل بِالنَّارِ. ويُشِيْرُ أبو العلاء هُنا إلى الآيةِ الكَرِيْمَةِ: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) مِنْ سُوْرَةِ الزُّخْرُفِ. ويُرْوَى أنَّ عَلِيّاً وابْنَ مَسعودٍ قَرَآ (يا مَالِ) مُرَخَّماً؛ ولَكِنَّهُم ذَكَرُوا أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَدَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ عَلَى أساسِ أنَّ الكافِرِيْنَ يكُوْنُونَ في ذُهُولٍ مِنَ العَذَاب لا يُمْكِنُهُمْ مَعَهُ أنْ يُفَكِّروا في تَرْخِيْم الاسْمِ. ورُدَّ عَلَيْهِ مَذْهَبُهُ هذا بِأَنَّهُ رُبَّما عَمَدَ الكافِرُونَ إلى التَّرْخِيْمِ تَلَطُّفاً إلى مالِكٍ ...، انظُرْ الكَشَّافَ ج٣ ص٤٢٦. عَلَى أنَّ الصَّفَدِي رَوَى (أمْثالِي) بَدَلاً عَنْ (يا مالِ) والظَّاهِرُ أنَّهُ خَطأٌ مِنهُ.

فَالقَصِيدةُ الأُوْلَى هُنا تَتَحَدَّثُ عَنْ أحَدِ سُكَّان المعَرَّة ويُدْعَى طارِقاً، وكانَ قَدْ تَنصَّرَ في الثَّلاثِيْنَ مِنْ عُمُرِه. وتَبْتَدِئُ القَصِيدةُ بِبَيْتَيْنِ يُذَكِّرانِنا بِالشِّعْرِ القَدِيْمِ، إذْ يُعْلِنَانِ النَّبأَ الغَرِيْبَ بِرِدَّةِ طارِقٍ ويَتَساءَلانِ بِأُسْلُوبٍ بَيَانِيٍّ إنْ كانَتْ أمُّ طارِقٍ (وكانَتْ في عِدَادِ الأَمْواتِ) قَدْ عَلِمَتْ بِفَعْلَتِهِ النَّكْراءِ. ثُمَّ تَأْخُذُ القَصِيدةُ في التَّدْلِيْلِ عَلَى غَباءِ طارِقٍ وذَلِكَ بِمُقَارنَةٍ عَقَدَها الشَّاعِرُ بَيْنَ الإسْلامِ والنَّصْرَانِيَّةِ. ثُمَّ يُخْبِرُنا أنَّ طارِقاً إنَّما تَنَصَّرَ مَنْ أجَلِ حُبِّهِ لِلخَمْرِ ولَحْمِ الخِنْزِير (وكِلاهُما مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي الإسْلامِ)؛ أوْ لَعَلَّهُ كانَ يَرْغَبُ في الزَّواجِ مِنِ امْرَأَةٍ نَصْرَانِيَّةٍ.

وأمَّا القَصِيدةُ الثانِيَةُ فَعَنْ رَجُلٍ يُدْعَى مُسَلِّماً[1]، كانَ يَدِيْنُ بِمَذْهَبِ الفَوْضَوِيَّة، ولَعَلَّهُ كانَ قَرْمَطِيّاً. وقَدْ كانَ لِهَذا الرَّجُلِ، إذا صَحَّ كَلامُ أَبِي العلاء، مَجْمُوعةٌ مِنَ الأَتْباعِ يَحُضُّهُمْ عَلَى عَقِيدَةِ الفَوْضَوِيَّةِ، ويَأْمُرُهُمْ بِمُعامَلَةِ الأَمْوَالِ والنِّساءِ عَلَى أنَّها مِلْكٌ عامٌّ مُشَاعٌ؛ يَقُولُ أبو العلاءِ في ذَلِكَ:

فَمَا استَحْسَنَتْ هَذِي البَهائِمُ فِعْلَكُمْ	مِنَ الغَيِّ في الأُمَّاتِ والحَمَواتِ
وأيْسَرُ ما حَلَّلْتُمُ نَحْرُ ذارِعٍ	يَعُمُّكُمُ بِالسُّكْرِ والنَّشَواتِ
جَعَلْتُمْ عَلِيّاً جُنَّةً وهُوَ لَمْ يَزَلْ	يُعاقِبُ مِنْ خَمْرٍ عَلَى حَسَواتِ
سأَلْنا مَجُوساً عَنْ حَقِيْقَةِ دِيْنِها	فَقَالَتْ نَعَمْ لا نَنْكِحُ الأَخَواتِ
وذَلِكَ في أصْلِ التَّمَجُّسِ جائِزٌ	ولَكِنْ عَدَدْناهُ مِنَ الهَفَواتِ
ونأْبَى فَظِيْعاتِ الأُمُورِ ونَبْتَغِي	سُجُوداً لِنُوْرِ الشَّمْسِ في الغَدَواتِ
وأعْذَرُ مِنْ نِسْوَانِكُمْ في احْتِمالِها	فُضُوْحَ الرَّزايا آتِنُ الفَلَواتِ
فَلا تَجْعَلُوا فِيْها الغَوِيَّ مُسَلَّطاً	كَمَا سُلِّطَ البازِي عَلَى القَطَواتِ

---

[1] رِوَايَةُ نِكِلْسُون (مُسَيْلِمْ) مُرَخَّمُ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ انظُرْ: دِرَاساتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ ص٢٣٨.

أيْ إنَّ البهائِمَ لَتَسْتَفْظِعُ ما تَأْتُونَ مِنْ زِنا الأُمّهاتِ والحَمَواتِ وغَيْرِهِ مِنْ فاحِشِ أفْعالِكُمُ التي أيْسَرُ ما فِيْها بَزْلُكُمْ وبَقْرُكُمْ زِقاقَ الخَمْرِ تَشْرَبُونَهَا فَتَسْكَرُوا وتَنْتَشُوا؛ وقَدْ جَعَلْتُمُ الإمامَ عَلِيّاً دِرْعاً لَكُمْ تَسْتَتِرُونَ بِأَفْعالِكُمُ القَبِيحَةِ خَلْفَهُ، ولَكِنَّ عَلِيّاً كانَ يُعَاقِبُ عَلَى الخَمْرِ حَتَّى عَلَى الحَسَواتِ مِنْها القَلِيْلاتِ. واسْتِفْظَاعاً لِأَفْعالِكُمْ سَأَلْنا حَتَّى المجُوسَ عَنْ حَقِيقَةِ دِيْنِهِمْ في ذَلِكَ، فَقَالُوا نَحْنُ لا نُبِيحُ نِكاحَ الأَخَواتِ، وإنْ كانَ جائِزاً في أَصْلِ المجُوسِيَّةِ ولَكِنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ مِنْ أخطاءِ تَعالِيْمِها، فَنَحْنُ لا نقْبَلُ بِأُمُورٍ فَظِيْعَةٍ كَهَذِهِ، ونَسْجُدُ لِنُورِ الشَّمْسِ كُلَّ صَباحٍ؛ فاحْمُوا نِساءَكُمْ مِنَ الغُواةِ، ولا تَتْرُكُوا هَذَا الغَوِيَّ مُسَلَّطاً عَلَيْهِنَّ، تَسَلُّطَ البازِيِّ عَلَى طَيْرِ القَطَا.

فَالهِجاءُ والتهكُّمُ هُنا في كُلٍّ مِنْ طارِقٍ ومُسَلِّمٍ إنما كانَ دِفَاعاً عَنْ قَضِيَّةِ الإسْلامِ وعَنِ الأخْلاقِ، وصَدىً لاسْتِنْكارِ عامَّةِ النَّاسِ لِصَنِيعِ هَذَيْنِ المجْرِمَيْنِ. ولا يَظْهَرُ مِنْ أَبي العلاءِ في كِلْتا هاتَيْنِ القصِيدَتَيْنِ رَغْبَةٌ خَبِيْثَةٌ فِي الطَّعْنِ والتَّشْهِيرِ في كُلٍّ مِنْ طارِقٍ ومُسَلِّمٍ في شَخْصَيْهِما، مَعَ أَنَّهُ قَدْ هاجَمَهُما هُجُوماً قاسِياً بِوَصْفِهِ مُسْلِماً غَيُوْراً عَلَى الأَخْلاقِ. ولابُدَّ أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ كانا قَدْ أثارا حَفِيظَةَ النَّاسِ بِالمعَرَّةِ وسُخْطَهُمْ فَشارَكَهُمْ شاعِرُنا، حَكِيْمُ قَوْمِهِ، هذا السُّخْطَ والغَضَبَ.

وسِوَى هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ في الهِجاءِ والتَّعْرِيْضِ، وبَعْضِ أبْيَاتٍ في إحْدَى سِينِيَّاتِهِ، تُشِيْرُ إلى طارِقٍ[1] وأشْعارِهِ التَّعْرِيْضِيَّةِ التي عَرَضْنا لَهَا آنِفاً، فَإِنَّ جَمِيْعَ شِعْرِهِ الهِجائِيِّ وَجَّهَهُ إلى كُبَراءِ النَّاسِ لا إلى عامَّتِهِمْ. فَقَدْ كانَ أبو العلاءِ قَدْ قالَ لِلْقَزْوِيْنِيِّ، أحَدِ أبْناءِ بَلْدَتِهِ ومِنَ الشُّعَراءِ، إنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ قَصَائِدَ في الهِجَاءِ والسُّخْرِيَةِ والشَّتْمِ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ القَزْوِيْنِيُّ بِحِدَّةٍ: (إلَّا فِي الأَنْبِيَاءِ)[2]. وكانَ للقَزْوِيْنِيِّ أنْ في رَدِّهِ هَذَا الأُمَراءَ وأَئِمَّةَ الدِّيْنِ. وقَدْ تَحَدَّثَ شاعِرُنا

---

(1) (اللزوم، ج٢، ص٤٤).

(2) أوْج التَّحرِّي ص٤٠.

فِي لُزُومِهِ عَنْ مُحَمَّدٍ وعِيْسَى ومُوْسَى مِثْلَما يَسْتَخْدِمُ أسْماءَهُمْ أَحَدُ طُلَّابِ التَّارِيْخِ المعَاصِرِيْنَ فِي رِسالَةٍ بَحْثِيَّةٍ؛ وهِيَ طَرِيْقَةُ تَعْبِيْرٍ لَمْ تَكُنْ تُسْتَخْدَمُ عَلَى عَهْدِ أبي العلاءِ إلَّا لِلإشَارةِ إلى النُّظَرَاءِ والأنْدادِ. ولِذَلِكَ عُدَّ ذَلِكَ مِنهُ عَدَمَ تَوْقِيْرٍ لِلرُّسُلِ. وقَدْ هَجَا أبو العلاءِ صالِحَ بْنَ مِرْدَاسٍ وغَيْرَهُ مِنَ الحُكَّامِ الذِيْنِ سَيْطَرُوا عَلَى مَوْطِنِهِ، والذِيْنَ لَوْ شاءُوا لَعاقَبُوهُ عَلَى تَحْرِيْضِ النَّاسِ ضِدَّهُمْ وهاجَمَ القُضاةَ والوُعَّاظَ والعامِلِيْنَ فِي العَدَالَةِ والكَتَبَةَ والتُّجَّارَ فِي بَلَدِهِ وبِجَراءَةٍ وجَسَارَةٍ لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيها سابِقٌ. فَقَدْ كانَ يَشْحَذُ أقْوَالَهُ وحِكَمَهُ ويَطْعَنُ بِها مُجْتَمَعَهُ فِي مَقَاتِلِهِ فَتَقَعَ عَلَيْهِ كأنَّها السّيُوفُ.

القسم السابع

سُخْريةُ أبي العلاءِ، ودَهاؤُهُ وذَكاؤُهُ

السُّخْرِيَةُ عِنْدَ أبي العلاء دَقيقَةٌ لاتَكادُ تُدْرَكُ ولاذِعَةٌ أشَدَّ اللَّذْعِ. وقد وَصَفَ نِيكِلْسُون في رِسالَتِهِ البارِعَةِ المسَمَّاةِ (تأمُّلاتُ أبي العلاءِ) أضْرُباً مُخْتَلِفَةً مِنَ هَذِهِ السُّخْرِيةِ وكَشَفَ بِجلاءٍ ووُضوحٍ عَنِ اسْتِخْدَامِ أبِي العلاء لِلتَّقِيَّةِ[1]. ولَعَلَّهُ يَكْفِينا هُنا أنْ نَسْتَشْهِدَ مِنْ عَمَلِهِ هَذَا بِشاهِدٍ أو اثْنَيْنِ، ثُمَّ نُتْبِعُهُما شَيْئاً مِنَ التَّعْلِيْقِ والاسْتِدْرَاكِ بِمَا يُناسِبُ المقَامَ. فَقَدْ كَتَبَ نِيكِلْسُونُ وهُوَ يُحَلِّلُ إحْدَى قِطَعِ اللُّزُومِ قائلاً: (وثَمَّةَ طَرِيْقَةٌ أُخْرَى مِنْ طُرُقِهِ وهِيَ إعلانُهُ قَوْلاً صحيحاً، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أنْ يُكَذِّبَهُ ما بَعْدَهُ) (٢٤٤)[2]

بَنَتِ النَّصارَى لِلْمَسِيْحِ كَنَائِساً كانَتْ تَعِيْبُ الفِعْلَ مِنْ مُنْتابِها

ومَتَى ذَكَرْتُ مُحَمَّداً وكِتابَهُ جاءَتْ يَهُوْدُ بِجَحْدِها وكِتابِها

أفَمِلَّةَ الإسْلامِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ وقَضاءُ رَبِّكَ صاغَها وأتَى بِها

أيْنَ الهُدَى فَنرُومُهُ بِمَشَقَّةٍ فِي البِيْدِ ساطِيَةٍ عَلَى مُجْتابِها

(ولَمَّا كانَ كُلٌّ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ على السَّوَاءِ (قَضاءَ رَبِّكَ صاغَهُ وأتَى بِهِ) فإطْرَاءُ الإسْلامِ يَبْدُو شَيْئاً ما في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وما هُوَ إلَّا أنْ نَتجاوَزَ هذا حَتَّى نَكْتَشِفَ في البَيْتِ التَّالِي أنَّ الدِّيْنَ (الذي لَيْسَ بِمَقْدُورِ أحَدٍ إنْكارُهُ) لا يُطابِقُ الحَقَّ. وقَدْ عَزَا بَعْضُ النُّقَّادِ المسْلِمِيْنَ آرَاءَ أبِي العلاء الغَرِيبَةَ إلَى ضَرُوراتِ القافِيَةِ الصَّعْبَةِ. ولْنَقُلْ بِلا مُوارَبَةٍ إنَّ هَذَا التَّبْرِيرَ مِنهُمْ هُرَاءٌ لا يُعْتَدُّ بِهِ؛ فالمعَرِّيُّ لا يَنْظِمُ ولا يَكْتُبُ هَكَذا كَيْفَما اتَّفَقَ، بَلْ تَأْتِي آراؤُهُ الغَرِيبَّةُ هَذِهِ فِي خِلالِ مَجالٍ مُعَيَّنٍ مَقْصُودةً ومَعقُولَةً).

كَمَا كَتَبَ نِيكِلْسُونُ في تَحْلِيْلِهِ قِطْعَةً أُخرى هِيَ:

---

(1) دِراساتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ ص١٥١ وما بعدها.

(2) هُوَ الرَّقَمُ التَّسَلْسُلِيُّ الذي يَأْتِي بِهِ نِكِلْسُون في رِسالَتِهِ ص ١٦٩؛ وانظرِ اللُّزُوم ج١، ص١٤١.

قَالَتْ مَعَاشِرُ لَمْ يَبْعَثْ إِلَهُكُمُ إِلَى البَرِيَّةِ عِيْسَاها ولا مُوْسَى
وإِنَّما جَعَلُوا لِلْقَوْمِ مَأْكَلَةً وصَيَّرُوا لِجَمِيْعِ النَّاسِ نامُوْسَا
ولَوْ قَدَرْتُ لَعَاقَبْتُ الذِيْنَ طَغَوْا حَتَّى يَعُودَ حَلِيْفُ الغَيِّ مَرْمُوْسا

يَقُوْلُ نِيكِلْسُونُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ[1]:

(لا تُثِيرُ هَذِهِ الأَبْياتُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ رِيبَةً ولا تُشْعِرُ تُهْمَةً، لِأَنَّ صاحِبَها يَعْنِي أَنَّ الكافِرِيْنَ بِالنُّبُوَّةِ مُجَدِّفُونَ وأَنْذالٌ يَجِبُ أَنْ يَلْقَى الموتَ عُقُوبةً، وهَذَا بِطَبِيْعَةِ الحالِ رَأْيُ المسْلِمِ[2]. ولَكِنَّ المعَرِّيَّ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى الطَّعْنِ فِي النُّبُوةِ وإِنْكارِها بِصَرِيْحِ العِبارَةِ، ورُبَّما هَمَّ بِذَلِكَ هُنا؛ غَيْرَ أَنَّ القارِئَ المدْرِكَ لِأُسلُوبِهِ لَنْ يَفُوتَهُ أَنْ يُلاحِظَ أَنَّ عِبارَةَ (قالَتْ مَعَاشِرُ) أَكْثَرُ ما يَسْتَخْدِمُها المعَرِّيُّ لِيَعْرِضَ بِها آراءً أَوْ أَحْكاماً عَقْلانيَّةً يَأْبَى أَنْ يَكُونَ هُوَ مَسْؤُولاً عَنْها. بَلْ إِنَّ كَلِمَةَ (جَعَلُوا) فِي البَيْتِ الثانِي هُنا مُبْهَمَةٌ وتَنْطَوِي عَلَى نَوْعٍ مِنْ الْتِباسٍ؛ إِذْ يُمْكِنُنا أَنْ نَرُدَّ الضَّمِيْرَ البارِزَ فِيْها إِلى مَنْ نَشاءُ، فإِنْ شِئْنا رَدَدْناهُ إِلَى مُنْكِرِي الرِّسالَةِ أَوْ إِلَى الرُّسُلِ أَنْفُسِهِمْ)[3].

ويَقُوْلُ نِيكِلْسُون عَنْ تَقِيَّةِ أَبِي العلاءِ: (إِنَّ التَّقِيَّةَ أَوِ التَّسَتُّرَ الدِّيْنِيَّ مَعْرُوفٌ جِدّاً عِنْدَ المسلِمِيْنَ؛ يَسْتَخْدِمُها تَقْرِيباً كُلُّ زِنْدِيقٍ (مُفكِّرٍ حُرٍّ) يَدْفَعُ بِها عَنْ نَفْسِهِ، وقَدْ كانَتْ تُرْعَى عَلَى أَنَّها فَنٌّ جَمِيْلٌ. وإِنَّ تَذَوُّقَ مَقْدِرَةِ شاعِرِنا عَلَى اسْتِتَارِهِ وراءَ هَذَا النَّوْعِ مِنَ السُّخْرِيةِ هُوَ المِفْتاحُ لِكَثِيْرٍ مِمَّا حَيَّرَ قُرَّاءَ اللُّزُومِ الأُوْرُبِّيِّيْنَ)[4].

---

(1) بَعْدَ أَنْ تَرْجَمَها (نيكِلْسُون) إِلى الإِنجِلِيْزِيَّةِ كما تَرْجَمَ الأَبْياتَ التي قَبْلَها، وأَوْرَدَ المؤَلِّفُ كِلْتَا تَرْجَمَتَيْهِ هاتَيْنِ (المترجم).

(2) كانَ الحَقُّ أَنْ يَقُولَ: الرَّأْيُ الشَّائِعُ فِي النَّاسِ، لِأَنَّ المسْلِمِيْنَ فِي الوَاقِعِ كانُوا ذَوِي تَسامُحٍ وسَعَةِ صَدْرٍ.

(3) دراسات في الشعر الاسلامي، ص ١٧١، رقم ٢٤٨، واللزوم، ج٢، ص ٢٢.

(4) نَفْسُهُ، ص ١٥١.

ولَعَلَّنا هُنا نَزيْدُ عَلَى ما قَالَ نِيكِلْسُون أنَّ المرْءَ كَثِيْراً ما يَجِدُ في أشْعارِ أبِي العلاء مَسْحَةً مِنْ شَيْطَنَةٍ وعَفْرَتَةٍ مِمَّا يُمْكِنُ أنْ تُشَبِّهَهُ بِتِلْمِيْذِ مَدْرَسَةٍ عِفْرِيتٍ. وتَقَعُ مِنهُ هَذِهِ الشَّيْطَنَةُ أحْياناً بِأَنْ يَجِيءَ بأقْوالٍ مُبْهَمَةٍ فيها لَبْسٌ وغُمُوضٌ، وأحْيَاناً بِاسْتِخْدَامِهِ تَعْلِيقَاتٍ مُتَناقِضَةً، كَمَا تَقَعُ أحْيَاناً عَنْ طَرِيقِ ضُرُوبِ التَّوْرِيَةِ والإشَارةِ. وعَسَى أنْ تَجِدَ فِيما نُوْرِدُهُ لَكَ هُنا مِنِ اسْتِشْهَاداتٍ ما يَشْهَدُ عَلَى ما قُلْنا:

الشاهِدُ الأوَّلُ[1] :

دَعَا مُوْسَى فَزَالَ وقَامَ عِيْسَى ... وجاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ
وقِيْلَ يَجِيءُ دِيْنٌ بَعْدَ هَذَا ... فَأَوْدَى النَّاسُ بَيْنَ غَدٍ وأَمْسِ
ومَنْ لِي أنْ يَعُودَ الدِّيْنُ غَضّاً ... فَيَنْقَعَ مَنْ تَنَسَّكَ بَعْدَ خِمْسِ

أيْ دعا مُوْسَى قَوْمَهُ ومَضَى ثُمَّ تَلاهُ عِيْسَى ثُمَّ مُحَمَّدٌ الذِي جاء بِخَمْسِ صَلَواتٍ. ويَقُولُونَ إنَّهُ سَيَأْتِي بَعْدَا هَذَا دِيْنٌ، فَبِهَذا يَضِيْعُ النَّاسُ بَيْنَ الغَدِ والأمْسِ؛ (بِمَعْنَى أنَّ الناسَ الذِيْنَ يَأْتُونَ بَيْنَ زَمانِ الدِّيْنِ القَدِيْمِ، الإسْلامِ، وزَمَانِ الدِّيْنِ الآتِي بَعْدَهُ سَيَشْقَونَ؛ لِأَنَّهُمْ سَيمُوتُونَ ويَذْهَبُونَ سُدَىً فلا يَكُونُونَ قَدْ أَفَادُوا لا مِنِ اتِّباعِهِمْ دِينَهُم القَدِيمَ ولا مِنْ رَجائِهِمُ الدِّيْنَ الآتِي؛ فَمَنْ يَضْمَنُ لِي أنْ يَعُودَ الدِّيْنُ غَضّاً كَما كانَ (رُبَّما أَرَادَ بِالدِّيْنِ هُنا الإسْلامَ أوِ الإيْمانِ بِمَعْناهُ العَامِّ) حَتَّى يَرْتَوِيَ مِنهُ النَّاسِكُ المتَعَبِّدُ المتَعَطِّشُ إلى النُّسُكِ ارْتِواءَ الإبِلِ التِي لَمْ تَرِدِ الماءَ لِأَرْبَعَةِ أيَامٍ. وقَدْ يُفْهَمُ البَيْتُ الأخِيرُ هُنا عَلَى أنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ رَغْبَةٍ أَمْلاها التُّقَى مِنْ أبِي العلاء، الرَّغْبَةِ فِي أنْ يَسْتَعِيْدَ الإسْلامُ قُوَّتَهُ وحَيَوِيَّتَهُ ويُلْهِمَ أَتْبَاعَهُ الإيْمانَ الصَّادِقَ؛ أوْ رُبَّما فُهِمَ عَلَى أنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ فِكْرٍ هَرْطَقِيٍّ؛ فَكَلِمَةُ (مَنْ) مِنْ

---

[1] (اللُّزوم، ج٢، ص ٣٦).

قَوْلِهِ (مَنْ لِي) رُبَّما عَنَتْ (لَيْسَ لِيْ)؛ إذ إنَّ الاسْتِفْهامَ والنَّفْيَ كَثِيراً ما يَتناوَبانِ؛ وعَلَى ذَلِكَ فَالبَيْتُ:

وَمَنْ لِي أنْ يَعُودَ الدِّيْنُ غضّاً   فَيَنْقَعَ مَنْ تَنَسَّكَ بَعْدَ خِمْسِ

يَعْنِي أنَّ الدِّيْنَ (دِيْنَ الإسْلامِ أوْ أيَّ دِيْنٍ آخَرَ) لَنْ يَعُودَ مُتَجَدِّداً غَضّاً قَطُّ[1]، وأنَّ ظَمَأَ النَّاسِكِ الذي يُرِيدُ أنْ يَرْتَوِيَ مِنْ نَبعِ الدِّينِ بَعْدَ أرْبَعةِ أيَّامٍ (وفِي حالَةِ أبِي العلاء، أرْبَعةِ قُرُونٍ مِنَ الزَّمانِ؛ لِأنَّهُ نَظَمَ هَذِهِ الأَبْياتَ في أَوائِلِ القَرْنِ الخامِسِ، بَعْدَ أرْبَعِمائةٍ وخَمْسَ عَشْرَةَ أوْ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً مِنَ الهِجْرَةِ) لَنْ يَذْهَبَ أَبَداً. ولَعَلَّنا نَلْفِتُ الانْتِباهَ هُنا بِصِفَةٍ خاصَّةٍ إلى اسْتِخْدَامِهِ البارِعِ لِكَلِمَتَيْ (يَعُودُ) و(خِمْسِ)؛ فَعَلَى مَعْنَى الوَرَعِ تَعْنِي الأُوْلَى الرُّجُوعَ، وتَعْنِي الثَّانِيَةُ أُوَارَ العَطَشِ الذِي يُشْبِهُ هَيَمَ الإبِلِ التي لَمْ تَرِدِ الماءَ أرْبَعَةَ أيَّامٍ؛ ولَكِنْ عَلَى مَعْنَى الزَّنْدَقَةِ والهَرْطَقَةِ تَعْنِي الأُوْلَى الرُّجُوعَ، وجاءَتِ الثَّانِيَةُ مَجازاً أرادَ بِهِ القَرْنَ الخامِسَ.

الشاهِدُ الثاني: قَالَ أبو العلاءِ[2]:

مَضَى الأَنامُ فَلَوْلا عِلْمُ خالِقِهِمْ   لَقُلْتُ قَوْلَ زُهَيْرٍ أَيَّةً سَلَكُوا
في المُلْكِ لَمْ يَخْرُجوا مِنهُ ولا انْتَقَلُوا   مِنهُ فَكَيْفَ اعْتِقَادِي أَنَّهُمْ هَلَكُوا

(أيْ تَقاطَرَتْ جُمُوعُ النَّاسِ إلَى الموْتِ؛ ولَوْلا عِلْمُ خالِقِهِمْ لَقُلْتُ كَمَا قالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى (أَيَّةً سَلَكُوا). فَهُمْ مَعَ مَوْتِهِمْ ما زالُوا في المَلَكُوتِ لَمْ يَخْرُجُوا عَنْهُ، ولا انْتَقَلُوا مِنهُ

---

[1] انظُرْ اللُّزُوم، ج٢، ص ٤٢٧، البَيْتَ الخامسَ، وانظُرْ، كذلك، فيما يلي (الجانِبُ الفِكْرِيُّ لِلُزوم) مِنْ هذا الكِتابِ.

[2] نفسه، ج٢، ١٤٥).

إلى غَيْرِهِ فكَيْفَ لِيَ أنْ أَعْتَقِدَ في هَلاكِهِمْ كُلِّيَّةً). وقَوْلُ زُهَيرٍ الذي يُشِيْرُ إلَيْهِ أبو العلاءِ هُوَ[1] :

بَانَ الخَلِيْطُ ولَمْ يَأْوُوْا لِمَنْ تَرَكُوا ... وزَوَّدُوْكَ اشْتِيَاقاً أَيَّةً سَلَكُوا

(أيْ لَقَدِ ارْتَحَلَ الرَّهْطُ إلى حَيْثُ لَنْ يَعُوْدُوا إلَى مَنْ خَلَّفُوْهُ وَرَاءَهُمْ، وأَوْدَعُوْكَ الاشْتِياقَ والحَنِيْنَ إلَيْهِمْ، أيْنَما كانَتْ وِجْهَتُهُمْ)

فإذا نَحْنُ تَذَكَّرْنا هَذَا البَيْتَ باتَ مِنَ الوَاضِحِ لَنا أنَّ عِبارَةَ أبي العلاءِ (لَوْلا عِلْمُ خالِقِهِمْ) إنَّما جاءَ بِها سِتَاراً يُخْفِي وَرَاءَهُ مُرَادَهُ الحَقِيْقِيَّ. فَقَدْ جاءَ بِالفِعْلِ (مَضَى) بَدَلاً عَنْ كَلِمةِ زُهَيْرٍ (بَانَ) لِيَصْرِفَ الانْتِبَاهَ عَنْ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ في ذِهْنِهِ عبارَةُ زُهَيْرٍ (أَيَّةً سَلَكُوا) وحَسْبُ بَلْ كانَ فِي ذِهْنِهِ كَذَلِكَ (لَمْ يَأْوُوْا لِمَنْ تَرَكُوا)؛ فَلَعَلَّ أبا العلاءِ، بِهَذَا، كانَ يُرِيْدُ أنْ يَقُوْلَ صَرَاحَةً:

بَانَ الأَنَامُ ولَمْ يَأْوُوْا لِمَنْ تَرَكُوا ... وقُلْتُ قَوْلَ زُهَيْرٍ: أَيَّةً سَلَكُوا

(أيْ ذَهَبَتْ جُمُوعُ النَّاسِ في طَيِّ المَوْتِ ولَنْ يَعُوْدُوا إلَى مَنْ تَرَكُوْهُمْ وَرَاءَهُمْ قَطُّ؛ فَقُلْتُ مُتَأَسِّياً بِزُهَيْرٍ: (أَيَّةً سَلَكُوا)). وأمَّا البَيْت الثَّانِي، فالظَّاهِرُ أنَّهُ مُتَّسِقٌ مَعَ الاسْتِقامَةِ والدِّيْنِ، ولَكِنْ يُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ مِنهُ الشَّكُّ في الآخِرَةِ، وهُوَ الوَاضِحُ هُنا.

الشاهِدُ الثالِثُ: قالَ أبو العلاءِ[2]:

كَمْ يَنْظِمُ الدَّهْرُ مِنْ عِقْدٍ ويَنْثُرُهُ ... ولَيْسَ عِقْدُ ثُرَيَّاهُ بِمُنْتَثِرِ

ومَرَّ وَقْتٌ عَلَى ماضٍ فَغَادَرَهُ ... بِلا جِهَارٍ ولا أُثْرٍ ولا أَثَرِ

---

(1) (ديوانه، ص١٥٤).

(2) اللزوم، ج١، ص ٣٨٢.

وقَدْ وَرَدَ عَجُزُ البَيْتِ الثَّاني في نُسْخَةِ (رَسائِل أبي العلاء) المحْفُوظَةِ فِي المتْحَفِ البرِيْطانِيِّ (بِلا جِهازٍ ولا أثْرٍ ولا أُثَرِ). وتَظْهَرُ المخْطُوطةُ الأُولى في طَبْعةِ القاهِرةِ وفِي مُخْتاراتِ نِيكلسون[١]. ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ كَلِمَةَ (أُثُرٍ) تَعْنِي بَرِيْقَ السَّيْفِ أوْ كَما قَالَ عُلَماءُ اللُّغَةِ: جَوْهَرَ السَّيْفِ؛ كَمَا نَعْلَمُ أنَّ (أُثْرَ) تَعْنِي أثَرَ النَّدْبَةِ أوِ الجُرْحِ، أوِ تَعْنِي السَّائِلَ المحْضَ الذِي يَتَمَخَّضُ عَنِ قَلْيِ الزُّبْدَةِ[٢]، كَمَا تَعْنِي ما يَبْقَى مِنَ اللَّبَنِ بَعْدَ اسْتِخْلاصِ السَّمْنِ أوِ الزُّبْدَةِ مِنهُ[٣]. وعَلَى ذَلِكَ فَتَكُونُ الفِكْرَةُ المعَبَّرُ عَنْها في البَيْتِ:

ومَرَّ وَقْتٌ عَلَى ماضٍ فَغَادَرَهُ ... بِلا جِهارٍ ولا أُثْرٍ ولا أُثَرِ

هي: مَعَ مُرُوْرِ الوَقْتِ يَكُونُ الميِّتُ قَدْ غُوْدِرَ أَوْ تُرِكَ بِلا أَرْبَعَةِ (جِهارٍ)[٤]، يَعْنِي دُوْنَ أيِّ مِنْ عَناصِرِهِ الأَرْبَعَةِ، وهِيَ الهَوَاءُ والتُّرَابُ والنَّارُ والماءُ؛ ودُوْنَ جَوْهَرٍ ودُوْنَ أَثَرٍ أوْ عُنْصُرٍ أوْ بَقَايا. وبِعِبَارةٍ أُخْرَى، مَعَ مُرُورِ الوَقْتِ يَفْنَى الميِّتُ تَمَاماً ولا يَبْقَى مِنهُ باقٍ.

الشاهِدُ الرابعُ: قالَ أبو العلاءِ[٥]:

وقَدْ طَوَتْنِي اللَّيالِي طَيَّ مُنْسَرِحٍ ... فَيَا لَطَيِّ لِطَيٍّ غَيْرِ مُنْتَشِرِ

واللهُ يَنْشُرُ أرْواحاً بِقُدْرَتِهِ ... ويَبْعَثُ الغَيْثَ فِي أَرْوَاحِهِ النُّشُرِ

---

(١) دِرَاساتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ ص١٥١، الشَّاهِدُ رَقَم ٢٢٣. ولَكِنْ نَجِدُ في طَبْعَةِ القاهِرَةِ لِلُزُوم (أثْر) بَدَلاً عَنْ (أُثُر)، وهُوَ ما عَسَى أنْ يَكُونَ خطأً طِبَاعِيّاً، لِأنَّ (أثْر) تعْنِي ذاتَ مَعْنَى (أُثُر)؛ فإن صَحَّتْ قِرَاءَةُ (أثْر) فَسَيَكُونُ البَيْت (بلا أُثْرٍ ولا أُثَرٍ).

(٢) لِسَان العَرَب ج٥، ص٦٤.

(٣) نفسه.

(٤) مِنَ الكَلِمَةِ الفارِسِيَّةِ (تَشَهَر). والصِّيْغَةُ المعَرَّبةُ المعْرُوفةُ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ هِيَ اسْتَار، غَيْرَ أنَّهُ يَظْهَرُ أنَّ (جهار) كانَ قَدْ غَلَبَ اسْتِعْمالُها فِي زَمانِ أبِي العلاء كَمَا هُوَ الحالُ في زَمانِنا هذا. انظُر (تاج العروس)، ج٣، ص٢٦٥. ولا يُمكِنُ أنْ تكونَ (جهار) فِي هذا البيْتِ مَصْدَراً لِجَهَرَ أو جاهِر، لِأنَّهُ لَنْ يكونَ له مَعْنًى. وأمَّا كَلِمَةُ (جهاز) فَيَبْدُو أنَّها تَصْحِيْحٌ أوْ خَطأٌ مِنْ قِبَلِ الناسخ.

(٥) اللُّزُوم ج١، ص ٣٨٢.

فَالشَّاعِرُ يَبْدُو في هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ طارِحاً رُؤًى مُتناقِضَةً؛ فَهُو يَقُولُ في البَيْتِ الأوَّلِ مُسْتَخْدِماً مُصْطَلَحاتِ العَرُوضِ العَرَبِيِّ: إنَّ الزَّمانَ قَدْ طَوَاهُ طَيّاً، أيْ صَيَّرَهُ أضْعَفَ وأهْزَلَ وإنَّهُ لا نَشْرَ لَهُ مِنْ طَيِّهِ هذا قَطُّ، أيْ لَنْ يَعُودَ قَوِيّاً كَما كانَ. فَمَنْ يَتَّهِمُ أبا العلاء في دِيْنِه يَرَى أنَّ مُرَادَ الشاعِرِ الحَقَّ مِنْ هذا البَيْتِ أنْ يَقُولَ (إنَّ الزَّمانَ هُو مَنْ أبْلانِي، فَلَنْ أَقُومَ بَعْدَها). ولِكَي يَتَّقِيَ شاعِرُنا مِثْلَ هَذَا الاتِّهَامَ قالَ فِي البَيْتِ الثَّانِي: (إنَّ اللهَ يَبْعَثُ الأَرْوَاحَ بِقُدْرَتِهِ ويُرْسِلُ الغَيْثَ في رِياحِهِ التي تَنْشُرُ رَحْمَتَهُ في النَّاسِ).
فَذلِكَ هُوَ المعْنَى الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ:

والله يَنْشُرُ أرْواحاً بِقُدْرَتِهِ ويَبْعَثُ الغَيْثَ في أرْوَاحِهِ النُّشُرِ

وهُوَ ما يَتَوَافَقُ مَعَ العَقِيْدَةِ المأْلُوفَةِ. غَيْرَ أنَّهُ إذا ذَهَبْنا نُدَقِّقُ أكْثَرَ في كَلِمَتَيْ (يَنْشُرُ) و(أرْوَاح)، لَرُبَّما تَكَشَّفَ مَعْنَى هَذَا البَيْتِ لِيَكُوْنَ: (إنَّ اللهَ يُهِبُّ الرِّياحَ بِقُدْرَتِهِ ويُرْسِلُ الغَيْثَ في رِيَاحِهِ التي تَنْشُرُ الرَّحْمَةَ). وهَكَذا، وإنْ بَدَا هَذَا البَيْتُ مُبَدِّداً لِأيِّ شُكُوْكٍ في البَعْثِ يُمْكِنُ أنْ يُثِيْرَها البَيْتُ السَّابِقُ، إلَّا أنَّهُ في الوَاقِعِ يَطْرَحُ مُوضُوعاً مُخْتَلِفاً تَماماً. وبِذَلِكَ يَكُونُ شاعِرُنا قَدْ نَجَحَ في اسْتِحْمَاقِ مَنْ يَنْظُرُ في عَقِيْدَتِهِ والضَّحِكِ عَلَيْهِ.
ومِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نَجِدَ شاعِرَنا يَسْتَخْدِمُ التَّوْرِيَةَ لا لِيُخْفِيَ زَنْدَقَتَهُ، عَلَى نَحْوِ ما رَأَيْنا في البَيْتِ السَّابِقِ، ولَكِنْ لِيَجْعَلَ نَفْسَهُ يَظْهَرُ كأنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالكُفْرِ وأحْياناً كأَنَّهُ مَعْتُوهٌ يَهْذِي بِمَحْضِ هُراءٍ. وهذا أمْرٌ مِنَ الغرابَةِ بِمَكانٍ. ولْنَقْرأْ مَثَلاً هَذِهِ القِطْعَةَ النَّثْرِيَّةَ مِنْ كِتابِهِ (الصَّاهِلُ والشَّاحِجُ)[1]:
(العِلْمُ يَدُلُّ عَلَى أنَّ الحَسَنَ لَمْ يَرَ الحُسَيْنَ قَطُّ، وأنَّ فاطِمَةَ لَمْ تَرَ عَلِيّاً. وقَدْ يَجُوزُ أنْ تَكُونَ أبْصَرَتْهُ عَلَى بَابِ البَيْتِ. وكانَ عَلِيٌّ رَحِمَهُ اللهُ يَرْحَمُ الأَرْمَلَةَ ويَبَرُّ اليَتِيْمَ، ويَضْرِبُ

[1] تعريف القُدَماء، ص٤٥٠.

بِحَدِّ سَيْفِهِ أُمَّ الصَّبِيَّيْنِ؛ وقَطَعَ يَدَ الفِيْلِ عَلَى السَّرَقِ، وجَلَدَهُ عَلَى شُرْبِ الخَمْرِ؛ وكانَ يأْمُرُ بِقَتْلِ الأعْرَجِ والأُعَيْرِجِ. وهُما في الحَرَمِ؛ ويَكْرَهُ دُخُولَ الأعْمَى المسْجِدَ؛ وكانَ يُنْصِفُ الخَسِيْسَ مِنْ أهْلِ الأَقْدارِ؛ ويُوْطَأُ الجَلِيلُ في زَمانِهِ بِالقَدَمِ).

فَظَاهِرُ هَذِهِ القِطْعَةِ أنَّها، فِي بَعْضِ أجْزائِها، سُخْفٌ وباطِلٌ يُناقِضُ المعْقُولَ، وفِي أجْزَاءٍ أُخْرَى مِنْها، افْتِراءٌ عَلَى الخَلِيفةِ الرَّابِعِ عَلِيٍّ وطَعْنٌ فِيهِ؛ وهُوَ مالا يَصْدُرُ إلَّا عَنْ زِنْدِيقٍ أو مُهَرْطِقٍ أوْ كافِرٍ. فأبو العلاء هُنا يُخْبِرُنا أنَّ الحَسَنَ لَمْ يَرَ الحُسَيْنَ قَطُّ، ولَكِنَّنا نَعْلَمُ أنَّهُما كانا أخَوَيْنِ وكانَ كِلاهُما مُحِبَّاً لِلآخَرِ حَتَّى آخِرِ أيَّامِهِما، بَلْ نَعْلَمُ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ أيٌّ مِنهُما أعْمَى. كَما يُخْبِرُنا أبو العلاءَ أنَّ فاطِمَةَ لَمْ تَرَ عَلِيّاً قَطُّ في بَيْتِها مَعَ جَوَازِ كَوْنِها قَدْ رأَتْهُ لَدَى بابِ بَيْتِها. وهَذَا بالطَّبْعِ سُخْفٌ مِنَ القَوْلِ؛ لِأَنَّ عَلِيّاً كانَ زَوْجَها. ويُخْبِرُنا أبو العلاء أنَّ عَلِيّاً كانَ رَحِيْماً بِالأرامِلِ والأيْتامِ بَرّاً بِهِمْ، وأنَّهُ كانَ يَضْرِبُ بِحَدِّ سَيْفِهِ كُلَّ أمٍّ لِصَبِيَّيْنِ؛ وأنَّهُ (عَلِيّاً) كان يَقْطَعُ يَدَ الفِيْلِ عَلَى السَّرِقَةِ، ويَجْلِدُ هَذَا الحَيْوَانَ عَلَى شُرْبِ الخَمْرِ؛ وأنَّهُ كانَ يَأْمُرُ بِقَتْلِ الأعْرَجِ والأُعَيْرِجِ وهُما في الحَرَمِ وكانَ يَكْرَهُ دُخُولَ الأعْمَى المسْجِدَ، ويَفْرِضُ عَلَى أشْرَافِ النَّاسِ ونُبَلائِهِمْ يَسِيْرَ الضَّرائِبِ، وكانَ جَلِيلُ القَوْمِ وشَرِيفُهُمْ فِي زَمانِهِ يُوْطَأُ بِالأقْدَامِ.

فَما أسْخَفَ هَذَا الكَلامَ ومَا أفْسَدَهُ. غَيْرَ أنَّنا ما أنْ نَظْهَرَ عَلَى حَقِيْقَةِ دَلَالاتِ بَعْضِ الكَلِمَاتِ التي اسْتَخْدَمَها أبو العلاءِ حَتَّى يَذْهَبَ سُخْفُ هَذا الكَلامِ ويَنْقَشِعَ ما بِهِ مِنْ فسادٍ وباطِلٍ وتَقُّولٍ. فَمَا الحَسَنُ والحُسَيْنُ إلَّا جَبلانِ مَعْرُوفانِ[1] وبِطَبِيْعَةِ الأشْيَاءِ لَيْسَ بِمَقْدُورِ الجِبَالِ رُؤْيَةُ بَعْضِها بَعْضاً. و(عَلِيٌّ) الأُوْلَى في هَذِهِ القِطْعَةِ لا يُرَادُ بِها الاسْمُ العَلَمُ، بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ تَعْنِي فَرَساً كَرِيْماً (ولَوْ كانَتِ الكِتَابَةُ العَرَبِيَّةُ تُمَيِّزُ الأسْمَاءَ الأعْلامَ عَنْ

---

(1) مُعْجَمُ البِلدانِ لِيَاقُوتٍ ج٢، ص٢٦٩، والفُصُول ص٢٢٣.

غَيْرِها مِن مُشْبِهاتِها مِنَ الأسْماءِ في الرَّسْمِ بِالأحْرُفِ الكَبِيْرَةِ[1] لَمَا تَيَسَّرَ لِأبي العلاءِ اسْتِخْدامُ هَذِهِ التَّوْرِيَةِ). وكَلِمَةُ (الفِيْلِ) هُنا لا تَعْنِي الحَيَوانَ الضَّخْمَ المعْرُوفَ بَلْ تَعْنِي المحْتالَ الرَّذْلَ الخَبِيْثَ[2]. وبِذَلِكَ بَدَأْنا نَتَبَيَّنُ أنَّ هَذِهِ القِطْعَةَ، بَعْدَ هَذَا التَدَبُّرِ، لَيْسَتْ عَبَثِيَّةً ولا بِذاتِ تَجْدِيْفٍ كَما بَدَتْ لَنا لِلْوهلَةِ الأُوْلَى. فَشاعِرُنا يَقُوْلُ إنَّ عَلِيّاً كانَ يَقْطَعُ أيْدِيَ المحتالِيْنَ عَلَى السَّرِقَةِ ويَجْلِدُهُمْ عَلَى شُرْبِ الخَمْرِ وقَدْ كانَ رَؤُوْفاً مُعِيْناً لِلأرامِلِ والأيْتامِ ويَضْرِبُ رِقابَ أعْدَائِهِ بِالسَّيْفِ، وكانَ يُنادِي بِقَتْلِ الغِرْبانِ والحيَّاتِ في الحَرَمِ المكيِّ (يَحْرُمُ سَفْكُ دَمِ الحَيْوانِ في الأَرْضِ الحَرامِ مِنْ مَكَّةَ؛ ولَكِنَّ عَلِيّاً كانَ يَرى قَتْلَ كُلِّ ما يُؤْذِي مِنَ الحَيْوَانِ كالغِرْبانِ والحَيَّاتِ)[3] وكانَ يَكْرَهُ دُخُولَ الكافِرِ المسْجِدَ؛ وكانَ مَعَ وُضَعاءِ النَّاسِ ومَساكِيْنِهِم عَلَى نُبَلائِهِمْ وأَشْرَافِهِمْ؛ وكانَ جَبَلُ جَلِيْلٍ فِي زَمانِهِ تَطَؤُهُ الأَقْدامُ[4].

أَحْسِبُ أنْ لَوْ رَامَ شِيْعِيٌّ مَدْحَ عَلِيٍّ والثَّناءَ عَلَيْهِ لَعَجَزَ عَنْ أنْ يَرْبُوَ عَلَى هَذا الثَّناءِ أَوْ يَجِيءَ بِأحْسَنَ مِنْهُ.

وكِتَابُ (الصَّاهِلُ والشَّاحِجِ) الذي مِنْهُ هَذِهِ القِطْعَةُ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ اليَوْمَ[5]. ويُحَدِّثنا الكَلاعِيُّ الذي يَبْدو أنَّهُ كان مُلِمّاً بِهِ وبِغَيْرِهِ مِنْ تَصَانِيْفِ أَبِي العلاءِ أنَّ هَذَا الكِتابَ

---

[1] كاللُّغَةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ مَثَلاً. (المترجِم)

[2] القاموس، ج٤، ص٣٣.

[3] لا يَجُوزُ قَتْلَ الحيوانِ فِي أيَّامِ الحَجِّ، انظُرْ الآية ٩٥ من سُورةِ المائدةِ والكَشَّافَ، ج١، ص٣٦٤.

[4] إشارةٌ إلى مَوقِعةِ صِفِّيْنَ؛ مَعَ أنَّ جُيُوشَ عَلِيٍّ لَمْ تَتَوَغَّلْ إلى دَاخِلِ الشَّامِ.

[5] هُوَ (رِسالَةُ الصَّاهِلِ والشَّاحِجِ) ولَمْ يَكُنْ هَذا الكتابُ مُتاحاً عَلَى أيَّامِ كِتَابةِ رِسَالَةِ المؤَلِّفِ هَذِهِ، أيْ سَنَةَ ١٩٥٠. ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ أنْ عُثِرَ عَلَى نُسْخَتَيْنِ مِنْهُ مُمْتَازَتَيْنِ بِالخزانةِ الملَكِيَّة بِالرِّباط. وفي سَنَةِ ١٩٧٥ أقْدَمَتْ دارُ المعَارِفِ المِصْرِيَّةُ عَلَى طِبَاعَةِ هَذَا الكِتابِ ضِمْنَ سِلْسِلَةِ ذَخائِرِ العَرَب بِالرَّقْمِ (٥١)، بِتَحْقِيْقِ الدُّكْتورةِ عائِشةَ بِنْتَ الشَّاطِئ، وظَهَرَتْ عَلَى الطَّبْعَةِ الثانِيَةِ ١٩٨٣، وهِيَ جيِّدةٌ ورائِعَةُ التَّبْوِيْبِ والفَهارِسِ. وكَلامُ الأستاذِ المؤَلِّفِ يُوحِي بأنَّهُ كانَ يَتَوَقَّعُ ظُهُورَها. ولا رَيْبَ أنَّه اطَّلَعَ عَلَيْها ولَكِنْ بَعْد فَرَاغِهِ مِنْ كِتابَةِ هَذِهِ الرِّسالَةِ بِما يَقْرُبُ مِنْ رُبْعِ القَرْنِ. (المترجِم)

يَفِيْضُ بِمِثْلِ هَذِهِ القِطَعِ المحيِّرَةِ الملْغِزَة. وثَمَّةَ تأْلِيْفٌ آخَرُ لِأَبي العلاء مَفْقُودٌ وهُوَ نَظْمٌ شِعْرِيٌّ يُسَمَّى (جامِعُ الأَوْزَان) أَوْ (كِتابُ الألْغازِ)، يَبْدُو أَنَّهُ مَكْتُوبٌ كُلُّهُ بِهَذا الأُسْلُوبِ. وقَدْ أَمْلى أبو العلاء كِلا هَذَيْنِ الكِتَابَيْنِ بِلا أَدْنَى شَكٍّ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنَ اللُّزُومِ. وكانَ غَرَضُهُ مِنْ تَأْلِيْفِهِما ذا شِقَّيْنِ هما أَنْ يُشْبِعَ حُبَّهُ لِضُرُوْبِ التَّوْرِيَةِ والكِنَايَةِ، وأَنْ يُقْنِعَ بَعْضَ قُرَّائِهِ أَنَّ تِلْكَ القِطَعَ التي تَتَخَلَّلُ كِتاباتِهِ مِمَّا يَبْدُو زِنْدِقِيّاً وهَرْطَقِيّاً (كَأَبْياتِ اللُّزُومِ الصَّرِيحةِ مَثَلاً) رُبَّما كانَتْ مَعَ ذَلِكَ صَحِيْحَةً رَاشِدَةً بَرِيْئَةً مِنَ الزَّنْدَقَةِ إذا اسْتَقْصاها قارِئُها وسَبَرَ غَوْرَها وأَنْعَمَ نَظَرَهُ فِيها. وقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ شاعِرَنا كان يُدافِعُ عَنْ نَفْسِهِ أمامَ بَعْضِ مُنْتَقِدِيْهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ أَبْيَاتَهُ الهَرْطَقِيَّةَ تَنْطَوِي عَلَى مَعَانٍ باطِنَةٍ خَفِيَّةٍ[1]. ولا رَيْبَ أَنَّ أبا العلاءِ باستخدامِهِ لِمِثْلِ هذِهِ الحُجَّةِ الغَرِيبَةِ، يَكونُ قَدْ تفوَّقَ عَلَى أَلَدِّ أَعْدَائِهِ مَكْراً ودَهَاءً، وهُمُ الإسْمَاعِيْلِيَّةُ الذِيْنَ كانُوا يَزْعُمُونَ في تَعَالِيْمِهِم أَنَّ لِلْقُرْءَانِ مَعْنًى بَاطِناً ولَكِنَّهُ لَمْ يُفلِحْ في أَنْ يُقْنِعَ الفُقَهَاءَ الرَّاسِخِيْنَ.

إنَّ مَقْدَرَةَ أبي العلاء كاتِباً وشاعِراً دَاهِيَةً، لَمْ تَظْهَرْ في أَشْعارِهِ التَّعْرِيْضِيَّةِ التَّهَكُّمِيَّةِ وحَسْبُ، بَلْ ظَهَرَتْ كَذَلِكَ في أَشْعارِهِ ذاتِ النَّقْدِ الصَّرِيْحِ التي يَسْتَخْدِمُ فِيْها أُسْلُوبَهُ الذَّكِيَّ لِيَكْشِفَ عَنْ حَماقَةِ الآخَرِيْنَ وعَمَايَتِهِمْ ورُعُونَتِهِمْ ونِفاقِهِمْ. ولْنَنْظُرْ في هَذِهِ الأَمْثِلَةِ شَوَاهِدَ عَلَى قَوْلِنا هَذَا:

الشاهِدُ الخامِسُ: قَالَ[2]:

فِي البَدْوِ خُرَّابُ أَذْوَادٍ وسائِمَةٍ ... وفِي الجَوَامِعِ والأَسْوَاقِ خُرَّابُ
فَهَؤُلاءِ تَسَمَّوْا بِالعُدُولِ أَوِ التُّـ ... ـجَّارِ واسْمُ أُولاكَ البَدْوِ أَعْرَابُ

---

(١) تعريف القدماء، ص ١٠.

(٢) اللُّزوم، ج١، ص٨٧.

(أيْ تَجِدُ في البادِيَةِ قُطَّاعَ طُرُقٍ ولُصُوصاً يَنْهَبُونَ الإبِلَ والبَهَائِمَ السَّائِمَةَ؛ ولَكِنْ فِي المسَاجِدِ والأَسْوَاقِ كَذَلِكَ قُطَّاعُ طُرُقٍ ولُصُوْصٌ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أنَّ هَؤلاءِ أَسْمَوْا أَنْفُسَهُم فُقَهاءَ وعُلَماءَ وتُجَّاراً، ومَنْ بِالبادِيَةِ عُرِفُوا بِالأعْرَابِ).

الشاهدُ السادِسُ: قال أبو العلاء؛[1]:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِيْنٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دِيْنارِ

تَنَاقُضٌ مالَنا إلَّا السُّكُوْتُ لَهُ ... وأنْ نَعُوْذَ بِمَوْلانا مِنَ النَّارِ

(أيْ كَيْفَ لِيَدٍ دِيَّتُها خَمْسُمائةِ دِيْنارٍ أنْ تُقْطَعَ إذا سَرَقَتْ رُبْعَ دِيْنارٍ؛ فَهَذا تناقُضٌ لَيْسَ لَنا إلَّا أنْ نَسْكُتَ عَنْهُ وأنْ نَعُوذَ بِمَوْلانا وخالِقِنا مِنَ النَّارِ). وقَدْ رَدَّ أحَدُ الفُقَهاءِ عَلَى هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ رَدّاً مُفْحِماً، وكانَ قَرَأَهُما بَعْدَ مَوْتِ أَبِي العلاء بِسَنَوَاتٍ، فَقَالَ[2]:

عِزُّ الأَمَانَةِ أغْلاها وأرْخَصَها ... ذُلُّ الخِيَانَةِ فافْهَمْ حِكْمَةَ البارِي

(أيْ كانَ قَدْ أغْلاها عِزُّ أمَانَتِها، فَلَمَّا سَرَقَتْ خانَتَ فَذَلَّتْ فَأَرْخَصَها هَذَا الذُّلُّ فَقُطِعَتْ فِي رُبْعِ الدِّيْنارِ. ولَكِنَّ سَماحةَ الفَقِيْهِ في هَذَا الرَدِّ المتْقَنِ، لَمْ يَلْتَفِتْ إلى ما فِي البَيْتَيْنِ مِنْ لُزُومِ ما لا يَلْزَمُ مِنْ القَيْدِ).

الشاهدُ السَّابِعُ؛ قَوْلُ أبي العلاءِ [3]:

دِيْنٌ وكُفْرٌ وأنْبَاءٌ تُقَصُّ وفُرْ ... قَانٌ يُنَصُّ وتَوْرَاةٌ وإنْجِيْلُ

في كُلِّ جِيْلٍ أَبَاطِيْلٌ يُدَانُ بِها ... فَهَلْ تَفَرَّدَ يَوْماً بِالهُدَى جِيْلُ

---

[1] (نفسه، ص٣٨٦).

[2] (تعريف القدماء، ص٤٠٦).

[3] (اللزوم، ج٢، ص١٧٧).

(أيْ دِيْنٌ ولا دِيْنٌ وأخبارٌ تُرْوَى وكُتُبُ فُرْقانٍ وتَوْراةٍ وإنْجِيْلٍ تُدَرَّسُ؛ وفي كُلِّ جِيْلٍ مِنَ النَّاسِ تُوْجَدُ أباطِيْلُ يَعْمَلُ بِها، فَهَلِ انْفَرَدَ جِيْلٌ مِنهُمْ يَوْماً بِالهُدَى ومَعْرِفَةِ الحَقِّ؟)

وقَدْ صَفَعَ أحَدُ الفقهاء بِرَدٍّ عَلَى البَيْتِ الأخِيْرِ مِنهُما بِقَوْلِهِ[1]:

نَعَمْ مُحَمَّدٌ الهادِي وشِيْعَتُهُ   فَهَلْ سَمِعْتَ بِهَذا يا دُجَيْجِيْلُ

(أيْ، نَعَمْ هُناك جِيْلٌ تَفَرَّدَ بِالهُدَى، وهُوَ جِيْلُ مُحَمَّدٍ وشِيْعَتِهِ، فَهَلْ سَمِعْتَ بِهِما أيُّها الدَّجّالُ).

الشاهدُ الثامِنُ؛ قَوْلُ أبي العلاء[2]:

لَوْ كُنْتُمُ أهْلَ صَفْوٍ قَالَ ناسِبُكُمْ   صَفْوِيَّةٌ فَأَتَى بِاللَّفْظِ، ما قُلِبَا

جُنْدٌ لإبْلِيْسَ في بَدْلِيْسَ آوِنَةً   وتارةً يَحْلِبُوْنَ العَيْشَ في حَلَبَا

هَذانِ البَيْتانِ في الصُّوْفِيَّة؛ يَقُولُ مُخَاطِباً لَهُمْ:

(لَوْ كُنْتُمْ أهْلَ صَفْوٍ، أيْ لَوْ كانَ لَفْظُ (الصُّوْفِيَّة) مأْخُوذاً مِنَ الصَّفْوِ لَكانَ لَفْظُ النَّسْبِ إِلَيهِ الصَّحِيْحُ (صَفْوِيَّة) ولَيْسَ (صُوْفِيَّة)[3] كَمَا تُسَمُّونَ أنْفُسَكُمْ، فَما أنْتُمْ مِنْ الصَّفاءِ بَلْ مِنَ الصُّوْفِ؛ وما أَنْتُمْ إلَّا جُنُودٌ لِلشَّيْطانِ؛ فَيَوْماً تُصِيْبُونَ يُسْراً وثَرَاءً في بَدْلِيْسَ، ويَوْماً تَحْلِبونَ دَرَّ السُّحْتِ في حَلَبٍ).

الشاهدُ التاسِعُ[4]:

فَاكْتُمْ حَدِيْثَكَ لا يَشْعُرْ بِهِ أحَدٌ   مِنْ رَهْطِ جِبْرِيْلَ أوْ مِنْ رَهْطِ إبْلِيْسِ

---

(1) (رسائل أبي العلاء، النصّ العربي، ١٣١).

(2) (اللزوم، ج٢، ١٠٤).

3 أي أنَّ لَفْظَ (صُوْفِيَّة) إنَّما هُوَ نَسَبٌ إلى الصُّوْفِ ولَيْسَ إلى الصَّفْوِ. (المترجم).

(4) (اللزوم، ج٢، ص٣٤).

(أيْ أُكْتُمْ آرَاءَكَ وأفْكارَكَ ولا تُبْدِيَنْها إلى أَحَدٍ، إنْ كانَ مِنَ الملائِكَةِ أوْ كانَ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ، أيْ سَوَاءٌ أكانَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَمْ كانَ مِنْ شِرَارِهِمْ).

الشاهدُ العاشِرُ[1]:

بِالخُلْفِ قامَ عَمُودُ الدِّيْنِ، طائِفَةٌ   تَبْنِي الصُّرُوحَ وأُخْرَى تَحْفِرُ القُلُبا

(القُلُبُ جَمْعُ قَلِيْبٍ وهُوَ البِئْرُ؛ أيْ تأسَّسَ عَمُودُ الدِّيْنِ بِالاخْتِلافِ بَيْنَ النَّاسِ فِيْهِ؛ فَعَلى حِيْنِ تَبْنِي جَمَاعَةٌ مِنهُمْ صُرُوحاً إلى عَنانِ السَّماءِ، تَحْفِرُ أُخْرَى إلى باطِنِ الأرْضِ).

الشاهدُ الحادِي عَشَر[2]:

تَلَوْا باطِلاً وجَلَوْا صارِماً   وقَالُوا صَدَقْنا فَقُلْتُمْ نَعَمْ

(أيْ نَطَقُوا بَاطِلاً وأَشْهَرُوا سَيْفاً، وقالُوا: صَدَقْنا فِيْما نَطَقْنا فَقُلْتُمْ لَهُمْ: نَعَمْ، صَدَقْتُمْ).

الشاهدُ الثاني عشر[3]:

وبَصِيْرُ الأقْوَامِ مِثْلِيَ أعْمَى   فَهَلُمُّوا في حِنْدِسٍ نَتَصادَمْ

(أيْ إنَّ لِمَنْ يُبْصِرُ مِنَ القَوْمِ عَمَى الأعْمَي؛ وإذَنْ فَهَلُمَّ نَتَصادَمُ فِي الظَّلامِ، إذِ اسْتَوَيْنا في العَمَى).

فَهَذِهِ النَّماذِجُ مِنَ النَّقْدِ القُحِّ تَجِدُها كَثِيْراً في أَبْياتِ أبي العلاء الهِجَائِيَّةِ الانْتِقادِيَّةِ. وإنَّما بِفَضْلِها نالَ اللُّزُومُ ما نالَ مِنَ السَّيْرُورَةِ والذُّيُوعِ بَيْنَ قُرَّاءِ أبي العلاء المعَاصِرِيْنَ.

---

[1] (نفسه، ج١، ص١٠٥).

[2] (نفسه، ج٢، ص٣٢٨).

[3] (نفسه، ص٣٢٧).

القسم الثامن

الغِنائيَّةُ والتَّرنُّمُ في شِعْرِ اللُّزُومِ

يُنْظَرُ إلى اللُّزُومِ عُموماً عَلَى أنَّهُ دِيْوانٌ جادٌّ؛ لا يَتَوقَّعُ المرْءُ أنْ يُصِيبَ فِيهِ سِحْرَ تَأْلِيفِ أبي العلاءِ الجزْلِ ونَظْمِهِ الحَيَوِيِّ. ولَكِنَّ هَذِهِ النَّظْرَةَ أبْعَدُ ما تَكُونُ عَنْ الحَقِّ؛ فَعَلَى ما في اللُّزُومِ مِنَ الآرَاءِ والأَفْكارِ الجِدِّيَّةِ العَميقةِ في الحَيَاةِ الإنسانيَةِ، إلَّا أنَّهُ احْتَوَى أَمْثِلَةً عَدَداً مِنْ ضُرُوبِ الشِّعْرِ الغِنائِيِّ الذَّاتِيِّ والتَّقْلِيدِيِّ والتَّفْكُّرِيِّ. فَهُناكَ كَثِيْرٌ مِنَ الأَبْياتِ تَنَاوَلَتْ الأَجْرَامَ السَّمَاوِيةَ ولَكِنَّها حافِلةٌ بِالخَيالِ والذَّوْقِ، غَنِيَّةٌ بِرائِعِ الكَلِماتِ وأَنِيقِها[1]. كَما أنَّ فِيهِ أَشْعَاراً غَزَلِيَّةً ومُحاوَلاتٍ مُتَكَرِّرَةً لِمَوْضُوعِ طَيْفِ الخَيالِ عَلَى طَرِيْقَةِ البُحْتُرِيِّ، تُذَكِّرُ بِمُقَدِّماتِهِ في شِعْرِ سَقْطِ الزَّنْدِ كَقَصِيدَةِ (مَغَانِي اللِّوَى) وقَصِيدَةِ (طَرِبْنَ)، مِثْلَ قِطْعَتِهِ التي يَسْتَهِلُّها بِقَوْلِهِ[2]:

سَرَتْ بِقَوَامٍ يَسْرِقُ اللُّبَّ ناعِمٍ   إلى مُدْلِجٍ تُلْقِي البُرَى أُخْتُ مُدْلِجِ

وفِيْها يَقُولُ أبو العلاء:

تُكابِدُ خَضْراءَ الحَنادِسِ جَوْنةً   ذَخِيْرَتُها مِنْ بَدْرِها نِصْفُ دَمْلَج

فَهَذا البَيْتُ شَبِيْهٌ بِبَيْتِهِ مِنْ (مَغَانِي اللِّوَى):

عَجِبْتُ وقَدْ جُزْتِ الصَّرَاةَ رِفَلَّةً   وما خَضَلَتْ مِمَّا تَسَرْبَلْتِ أَذْيالُ

---

(1) انظرْ مَثلاً الجزْءَ الأوَّلَ ص٢٢٠، و٩٨ — ٩٩ و١٦٧، والجزْءَ الثاني ١٨١— ١٨٢.

(2) (للاستزادةِ مِنْ هذِهِ الأمْثلةِ انظرْ الجزء الأوَّل، ص ٢١٩ — ٢٢٠، والجزءَ الثاني، الصفحات ٢٠٢، و٢٥٠ و٢٨٢).

وتجِدُ في اللُّزومِ، بَعْدُ، كَثيْراً مِنَ الأَبْياتِ التي تَصِفُ مَيادِيْنَ الحُروبِ ومَشاهِدَ القِتالِ والخَيْلَ العِتاقَ. ويُظْهِرُ أبو العلاء مَهارةً عَظِيْمَةً ومَقْدِرةً خَيالِيَّةً فائِقَةً يُناسِبُ بِها المَوْضُوعَ التَّقْلِيْدِيَّ الأَساسَ مَعَ شِعْرِهِ التَّفكُّرِيِّ. وخُذْ، مَثَلاً، القِطْعَةَ الجِدِّيَّةَ التَّفكُّرِيَّةَ:

ألا تَرْحَمُ الأَشْياخَ لَمَّا تَأَوَّدُوا　　　يَقُوْلُونَ قَدْ كُنَّا الغَطارِفَةَ المُرْدَا

يَصِفُ فِيْها أبو العلاءِ شُيُوخاً قَدْ حَناهُمُ الكِبَرُ، وهُمْ يَحْكُونَ قِصَصَ شَبابِهِم وكَيْفَ كانُوا يَلْبَسُونَ الدُّرُوعَ ويَرْكَبُون جُرْدَ الخَيْلِ ويَذْهَبُونَ إِلَى الحُرُوبِ وهُمْ يُغِيْرُون بِكَتائِبَ ضَخْمَةٍ كَثِيفَةٍ كَأَنَّها سَوْمُ الجَرادِ. أَوْ لِنَأْخُذِ القِطْعَةَ :

تَوَهَّمْتُ خَيْراً في الزَّمَانِ وأَهْلِهِ　　　وكانَ خَيالاً لا يَصِحُّ التَوَهُّمُ

ويُخاطِبُ فِيْها جَسَدَ حِصانٍ قَدْ ماتَ، وكانَ غَدا بِهِ إلى الوَغَى فَأُمْطِرَ بِوَابِلٍ مِنَ السِّهامِ والنَّبْلِ حَتَّى عادَ يُشْبِهُ القُنْفُذَ. وأَحْياناً يَصِفُ أبو العلاء الإِبِلَ والرَّحْلَ؛ ويَجِيءُ مِنْهُ هَذَا الوَصْفُ في بَعْضِ قَصائِدِهِ لا يَبْغِي بِهِ إِلَّا فُحُولَةَ الأُسْلُوبِ أَوِ الجَزالَةَ؛ مِثْلَ القِطْعَةِ:

عَنْ لاعِجٍ باتُو بِرَمْلَةِ عالِجٍ　　　في رَبْوَتَيْ عَوْدٍ كَظَهْرِ الفالِجِ
في مُقْفِرٍ يَنْآهُ سَلْما مَدْلَجٍ　　　مِن بَعْدِ طِيَّتِهِ وسَلْما دَالِجِ
مِثْلُ الأَسَاوِرِ والدَّمالِجِ في الطَّوَى　　　أُنْسُوا ذَوَاتِ أساوِرٍ ودمَالِجِ
والأَرْضُ قَدْ لَفَظتْ حُشَاشَةَ نُوْرِها　　　فَدَجَى الظلامُ سِوَى الوَمِيْضِ الخالِجِ
فَزِعُوا إِلَى ذِكْرِ المَلِيْكِ وحَسْبُهُمْ　　　أُنساً بِذَلِكَ في الضَّمِيْرِ الوَالِجِ

[فَهَؤُلاءِ جَماعَةٌ مُضْناةٌ أَضْناهُمُ السَّفَرُ فَباتُوا بَيْنَ هاتَيْنِ الرَّبْوَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُشْبِهانِ ظَهْرَ الجَمَلِ ذِي السَّنامَيْنِ، في هَذِهِ الأَرْضِ الدَّوِّيَّةِ القَفْرِ التي شَحَّ فِيْها الماءُ؛ وقَدْ رَدَّهُمُ الجُوعُ مَهازِيْلَ حتى صارُوا يُشْبِهُوْنَ الأَسَاوِرَ والدَّمالِيْجَ مِنَ الهُزالِ وأَذْهَلَهُمْ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ

النِّسَاءِ وصَرَفَهُمْ عَنِ الحَنِيْنِ إِلَيْهِنَّ، فَفَزِعُوا إلى ذِكْرِ اللهِ تَعالَى فِي هَذَا الظَّلامِ ذِكْراً رَعَتْهُ ضَمائِرُهُمْ فَأَنِسُوا بِهِ][1]

ويَبْدو أنَّ هَذِهِ القِطْعَةَ قَد حَذا فِيْها أبو العلاء حَذْوَ قِطْعَةِ الحَماسَةِ[2]:

صَلَّى الإلَهُ عَلَى صَفِيِّيْ مُدرِكٍ　　　يَوْمَ الحسَابِ ومَجْمَعِ الأَشْهَادِ

فَكِلْتا القِطْعَتَيْنِ تَبْدأُ بِوَصْفِ جَماعَةِ سَفْرٍ أضْنَاهُمُ السَّفَرُ في مَجاهِلِ الصَّحْراءِ، ومازالُوا بَعِيْدِيْنَ عَنْ وِجْهَتِهِمْ. وقَدْ جاءَ مَوْضُوعُ الوَصْفِ في كِلْتَيْهِما مُقَدِّمَةً لِلْمَوْضُوعِ الأَساسِ الذي يَجِيءُ في البَيْتِ الأَخِيْرِ. فَفِي قِطْعَةِ الحَماسَةِ يُخْبِرُنا الشَّاعِرُ أنَّ جَماعَةً سَفْراً تَذَكَّرُوا صَدِيْقاً لَهُمْ كانَ قَدْ مَاتَ في الطَّرِيْقِ أوْ قَبْلَ ارْتِحالِهِمْ فَأَنْساهُمْ ذَلِكَ كُلَّ ما بِهِمْ مِنْ أَيْنِ التَّسَفارِ وعَنَائِهِ؛ ثُمَّ أَخَذُوا في البُكاءِ عَلَيْهِ:

لَمَّا رَأَوْهُمْ لَمْ يُحِسُّوا مُدْرِكاً　　　وَضَعُوا أَنامِلَهُمْ عَلَى الأَكْبادِ

فَيُخْبِرُنا في آخِرِ بَيْتٍ مِنْ قِطْعَتِهِ أنَّ أُوْلَئِكَ السَّفْرَ قَدْ فَزِعُوا مِمَّا أَصابَهُمْ مِنْ شِدَّةٍ وكَرْبٍ إلى ذِكْرِ رَبِّهِمْ ودُعائِهِ، فَوَجَدُوا في ذَلِكَ الأُنْسَ والسَّلْوَى :

فَزِعُوا إلى ذِكْرِ المَلِيْكِ وحَسْبُهُمْ　　　أُنْساً بِذَلِكَ في الضَّمِيْرِ الوَالِجِ

وكَثِيْراً ما يَسْتَخْدِمُ أبو العلاء مَوضُوعَ الرِّحْلَةِ يَسْتَدْعِي بِهِ ذِكْرَيَاتِ شَبابِهِ وأَيَّامَهِ في بَغْدادَ. وكانَ شاعِرُنا لمْ يَزَلْ بَعْدَ رُجُوْعِهِ المعَرَّةَ بِزمانٍ طَوِيْلٍ قادِراً عَلَى رَسْمِ صُوَرٍ حَيَّةٍ نابِضَةٍ بِالحَيَوِيَّةِ لِضُرُوبِ المشَاقِّ والعَنَاءِ مِمَّا كانَ لَقِيَهُ وهُوَ فِي طَرِيْقِهِ إلى العِرَاقِ ولِسَيْرِ النِّياقِ الرَّتِيْبِ ولِصَخَدِ الصَّحْرَاءِ الحارِقِ وحَرِّها اللاهِبِ. وكانَ لا يَزَالُ يَذْكُرُ ما كانَ يَمْلأُ

[1] الأبياتُ بَعْدَ البَيْتَ الأَوَّلِ لَمْ تَرِدْ في الأَصْلِ؛ كما أنَّ هَذَا الشَّرْحَ بهذا التفصِيْلِ لَمْ يَرِدْ كَذَلِكَ وإنَّما جِئْنا بِهِ لِمَزِيْدِ الإِيْضاحِ. (المترجِم)

[2] (ديوان الحماسة، ج١، ص٤٥٨).

قَلْبَهُ مِنْ طُموحٍ وتَطَلُّعٍ دَفعا بِهِ في تِلْكَ الأَيَّامِ إلى تَجَشُّمِ الأَسْفارِ واقْتِحامِ الأَخْطَارِ في نائي الأقْطارِ[1]؛ وكانَ كَذَلِكَ لا يَزَال يَتبَيَّنُ صُوَراً لِنَفْسِهِ وهُوَ يَسِيْرُ وَحِيداً فَرْداً في طُرُقاتِ بَغْدَادَ وقَدْ قَلَّ المسَاعِدُ وعَزَّ المعِيْنُ، يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِعَصَاهُ نابِحاتِ الكِلابِ التي كانَتْ، وقَدْ رَأَتْهُ أَعْمَى، (تَعْجَبُ مِنْ جَأْشِهِ الرَّابِطِ)[2].

هَذَا، ونَرَى الحَمَامَةَ، التي بَرَزَتْ بُرُوْزاً عالِياً في قَصائِدِ بَغْدادَ، مُصَوَّرَةً تَصْوِيْراً ومَثْنِيّاً عَلَيْها في أحْلَى قَصائِدِ الغِناءِ في اللُّزُومِ. إذْ يَجِدُ شاعِرُنا، وقَدْ تَزَهَّدَ الآنَ وصارَ نباتِيّاً وصَدِيْقاً وَدُوداً لِكُلِّ أَنْواعِ الحَيْوَانِ، لَذَّةً في اسْتِمَاعِهِ إلى صَدْحِ الحَمَامِ وتَرَنُّمِهِ، فَكانَ يَهْتَزُّ لِغِنائِهِ ويَشْجُوهُ شَدْوُهُ شَجْواً عَمِيْقاً[3]. وقَدْ كان يُعْجِبُهُ في الحَمَامَةِ ما فِيْها مِنْ بَرَاءَةٍ وبَسَاطَةٍ؛ وكانَ مَهموماً أَشَدَّ الهَمِّ بِسَلامَتِها مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ وغادِرِ النَّاسِ؛ فَفِي إحْدَى مِيْمِيَّاتِهِ التي نَظَمَها عَلَى غِرَارِ مِيْمِيَّةِ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الهِلالِيِّ[4]:

وما هَاجَ هَذَا الوَجْدَ إلَّا حَمَامَةٌ دَعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّما

وأَوَّلُ قَصِيْدَةِ أَبِي العلاء[5]:

أعِكْرِمَ إنْ غَنِّيْتِ أَلْفَيْتِ نادِباً فلا تَتَغَنَّيْ في الأَصَائِلِ عِكْرِما

ويُخَاطِبُ هَذِهِ الحَمَامَةَ (عِكْرِمَةَ) بِقَوْلِهِ: (إنِّي حَزِيْنٌ فلا تَتَغَنَّيْ أَيَّتُها الحَمَامَةُ في أَوْقاتِ الأَصِيْلِ؛ لا تُرْسِلِي تِلْكَ الأَنْغَامَ التي طالَما شَجَتْ أَهْلَ الجاهِلِيَّةِ، وراقَتْ المخَضْرَمِيْنَ والموَلَّدِيْنَ مِنَ الشُّعَرَاءِ وأَطْرَبَتِ النَّاسِكَ والفاجِرَ؛ أَمَا إِنِّي لَأَنْصَحُ لَكِ فَأَمْحَضُكِ النُّصْحَ؛

---

(1) اللُّزوم ج١، ص٣٤٤، وص ٣٤٦).

(2) نَفْسُهُ ج٢، ص ٧٣.

(3) نفسه ج١، ص ١٧٩.

(4) الحَيْوَان لِلْجاحِظِ ج٣، ص١٩٧، والأغاني، ج٤، ص٩٧.

(5) اللُّزوم، ج٢، ص٢٨٢.

لَكِ عَلَيَّ أَلَّا أُغادِيَكِ ماكِراً صائِداً، ولَكِنْ أُغادِيْكِ مُكْرِماً؛ وإذا حَذِرْتِ الصَّقْرَ يَوْماً فاحْذَرِي الإنْسانَ أيّاماً؛ فلا تأْمَنِي لَهُ مَكْراً وإنْ كانَ مُحْرِماً[1]، إذ يَغْدُو الغاوِي مِنهُم وقَدْ صاغَ لَكِ قِلادَةً مِنَ الدَّمِ تَقْضِي عَلَيْكِ فَيَخْبُو مِنْكِ حَبُّكِ الضَّرِمُ؛ فَكَمْ مِثْلِكِ سَحَقَها وهِيَ فِي رَيْعانِ شَبابِها، وكَمْ أصابَ الجَناحَ مِنْكِ بِجُرْحٍ فَأَعْيَاهُ النُّهُوْضُ، وعادَ الطَّيَرانُ عَلَى الرِّيْشِ مُحَرَّماً؛ وقَدْ يُحَمُّ قَضاؤُكِ ويَحِيْنُ حَيْنُكِ عَلَى يَدَيْ صَبِيٍّ ناشِئٍ يَلْعَبُ بِخَيْطٍ فَيَعْلَقَ بِجِيْدِكِ ويَشُدُّهُ مُحْكِماً شَدَّهُ؛ وذَلِكَ مِثْلُما يَقْضِي السُّلْطانُ عَلَى المجْرِمِيْنَ مِنهُمْ أو يَقْتَصُّ مِنهُمْ لِدَفْعِ إتاوةٍ؛ أَلَا فَفِرِّي مِن بَنِي الإنْسِ، وزُوْرِي زَوَاحِفَ القِفارِ، أوْ فاتَّخِذِي لَكِ مَلاذاً فِيْما وَرَاءَها مِنَ الجِبَالِ، حَيْثُ لا تَلْقَيْنَ إنْساناً، وحَيْثُ وَفْرَةُ الماءِ والغَيْثِ؛ ومَتَى تَمَكَّنْتِ مِنْ بُلُوْغِ (القافِ)[2] فاتَّخِذِي لَكِ مَحَلَّ إقَامَةٍ ثَمَّ، ثُمَّ اقْضِي فِيهِ ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِكِ)؛ أوْ كَمَا قالَ:

---

(1) سَبَقَتْ مِنّا الإشارةُ هُنا إلى أنَّهُ لا يَجُوزُ للمُحْرِمِ قَتْلُ الحيوانِ ولا صَيْدُهُ.

(2) جَبَلٌ كانُوا يَعْتَقِدونَ أنَّهُ يُحِيطُ بِالأرْضِ أوْ هو أبْعَدُ الجِبالِ، مُعْجَمُ البِلدانِ، ج٤، ص١٨.

أعِكْرِمَ إنْ غَنَّيْتِ أَلْفَيْتِ نادِباً ... فلا تَتَغَنَّيْ فِي الأَصَائِلِ عِكْرِمَا
بِنَظْمٍ شَجَا في الجاهِلِيَّةِ أَهْلَها ... ورَاقَ مَعَ البَعْثِ الحَنِيْفَ المخضْرَما
وقَد هاجَ فِي الإِسْلامِ كُلَّ مُوَلَّدٍ ... وأطْرَبَ ذا النُّسْكِ وآخَرَ مُجْرِما
لَكِ النُّصْحُ مِنِّي لا أُغادِيْكِ خاتِلاً ... بِمَكْرٍ ولَكِنِّي أُغادِيْكِ مُكْرِما
إذا ما حَذِرْتِ الصَّقْرَ يَوْماً فَحَاذِرِي ... أخا الإنْسِ أيَّاماً وإنْ كانَ مُحْرِما
يَصُوْغُ لَكِ الغَاوِي قِلادَةَ هَالِكٍ ... مِنَ الدَّمِ تُخْبِي وَجْدَكِ المتَضَرِّما
وكَمْ سَحَقَتْ كَفَّاهُ مِثْلَكِ فِي ضُحَى ... شَبِيْبَتِها إذْ لَمْ تَرَ الدَّهْرَ مَهْرَما
ورَاعَ بِقَهْرٍ مِنْ جَناحِكِ آمِناً ... فَظَلَّ عَلَى الرِّيْشِ النُّهُوْضُ مُحَرَّما
وقَدْ يُبْرِمُ الحَيْنَ القَضَاءُ بِنَاشِئٍ ... يُرَاوِحُ خَيْطاً شَدَّهُ بِكِ مُبْرِما
كَما قَيَّدَ السُّلْطانُ حِلْفَ جِنايَةٍ ... لِيَقْتَصَّ مِنهُ أَوْ لِيَغْرَمَ مَغْرَما
فَزُوْرِي وَبارَ القَفْرِ مِنْ كُلِّ وَابِرٍ ... وإلاَّ فَرُوْمِي خَلْفَ ذَلِكِ مَخْرَما
بِحَيْثُ تُوافِيْنَ الصَّحابِيَّ مُعْوِزاً ... مِنَ النَّاسِ والماءَ السَّحابِيَّ خَضْرَما
وخُلِّي بِقَافٍ إنْ أطَقْتِ بُلُوْغَهُ ... فَأَفْنِي لَدَيْهِ عُمْرَكِ المتَصَرِّما

فَشَاعِرُنا فِي هَذِهِ القَصِيدةِ يُخاطِبُ هَذِهِ الحَمامَةَ عَلَى أَنَّهُ صَدِيْقٌ لَهَا وَدُودٌ، ويَطْلُبُ إلَيْها أنْ تَثِقَ فِيهِ وأنْ تَأْخُذَ مِنهُ النُّصْحَ. فالشُّعُورُ الإنسانِيُّ الدَّافِقُ هُنا المُنْبَعِثُ مِنْ طَرِيْقَةِ التَّعْبِيرِ الوَدُوْدَةِ هُوَ الذي أَكْسَبَ هَذِهِ القَصِيدةَ ما بِها مِنْ قِيْمَةٍ غِنائِيَّةٍ خالِصَةٍ.

ويَسْتَخْدِمُ أبو العلاء ذَاتَ الطَّرِيْقَةِ الفَنِّيَّةِ في عَدَدٍ مِنَ القَصَائِدِ التي خاطَبَ بِها أَنْوَاعاً مِنَ الحَيْوَانِ. كَرَائِعَتِهِ العَبْقَرِيَّةِ في الدِّيْكِ[١]، وكالقَصِيدةِ القَصِيْرَةِ التي يُخاطِبُ بِها الذِّئْبَ[١]، وفِي هَذِهِ الأَخِيْرَةِ يَقُولُ:

---

(١) (اللزوم، ج٢، ص٢٥٧).

(يا أَوْسُ،[اسْمٌ لِلذِّئْبِ] كَم أصَبْتَ عَتُوْداً مِنْ بَيْنِ قَطِيْعٍ لِلْمَعِيْزِ فَفَرَّيْتَ مِنهُ الجِلْدَ وبَعَجْتَ البَطْنَ ونَزَعْتَ مِنهُ حَوَايَاهُ؛ وأَنْتَ تَحْيا هَكَذا مُتجَوِّلاً تَتَهادَاكَ التَّنائِفُ، لا تَنْصِبُ خِيَاماً تَتَّقِي بِها حَرَّ الهاجِرَةِ، ولا يَهُمُّكَ إذا انْهَدَمَ بَيْتُكَ[2]؛ ولا تَكْتَسِي اتِّقَاءً لِبَرْدٍ، أوْ تَنْتَعِلُ حِذارَ الوَجَى؛ وما مِنْ مَوْرِدِ مَاءٍ إلَّا أَصَبْتَ فِيهِ سَرَقاً وقَتَلْتَ عِنْدَهُ نَفْساً؛ فَهَلَّا سَرَقْتَ خُبْزاً وناراً، فَقَدْ يَقْدَعُ المنِيْبُ نَفْسَهُ للهِ فَيَجْتَزِئُ مِنَ القُوْتِ بِالخُبْزِ وَحْدَهُ تارِكاً ما كانَ عَلَيْهِ مِنْ أطايِبِ الطَّعامِ وَلَذِيْذِ الإدَامِ[3]، ولَكِنَّكَ لا تَصُومُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ؛ أمْ إنَّكَ أمْسَيْتَ تَطْعَمُ هُمُوْمَ الحياةِ؛ وهَلْ أضْمَرْتَ التَّوْبَةَ عَنْ ما سَبَّبْتَهُ لِقَطِيْعِ الضَّأْنِ مِنَ بَلاءٍ وبأْساءٍ؛ أمْ إنَّ جِبِلَّةَ العُدْوانِ دَاءٌ فِيْكُمْ، مَعَاشِرَ الذِّئَابِ، قَدِيْمٌ لا بُرْءَ مِنهُ؛ فأنْتَ إنْ ظَفِرْتَ بِامْرَأَةٍ حالِيَةٍ مِنَ الأَساوِرِ والخَلاخِيْلِ فَسَتُمَزِّقُ جَسَدَها وتَرْمِي بِزِيْنَتِها مِنْ هَذِهِ الأساوِرِ والخلاخِيْلِ؛ وهَلْ حَدَثَ أنِ اسْتَشْعَرْتَ النَّدَمَ عَلَى قَتْلِك طِفْلاً فَجَعْتَ بِهِ أُمَّهُ، وأَنَّى لِمِثْلِكَ اسْتِشْعارُ النَّدَمِ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ؛ وأنْتَ كائِنٌ إذا حَضَرَهُ المَوْتُ لا يُوَارَى جَسَدُهُ، ولا يُرْدَمُ الغَارُ الذِي ماتَ فِيهِ؛ وكَمْ ماتَ لَكَ جَدٌّ، ولَكِنْ لَمْ يَدْرِ أيٌّ مِنْ ذَوِي الفِطْنَةِ مِنْكُمُ الذي جَرَى لِمَنْ سَبَقَهُ بِالموْتِ)[4]. يَقُولُ أبوالعلاءِ:

لَوْ كانَ يَدْرِي أُوَيْسٌ ما جَنَتْ يَدُهُ ... لاخْتَارَ دُوْنَ مُغارِ الثُّلَّةِ العَدَما
فإنَّ مِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ يَفْعَلُهُ ... شَاكِي المجاعَةِ يَوْماً أنْ يُرِيْقَ دَمَا
يا أَوْسُ هَيْهَاتَ كَمْ قابَلْتَ هاجِرَةً ... أذْكَتْ عَلَيْكَ وَقُوْدَ الحرِّ فاحْتَدَما
وكَمْ طَرَقْتَ عَتُوْداً بَيْنَ أَعْنُزِهِ ... يَوْماً فَفَرَّيْتَ مِنْ أَحْشَائِهِ الأَدَما
مُطَرَّداً بَتَّ لَمْ تَبْنِ الخِيَامَ ضُحَىً ... ولا تُرَاعِ إذا ما بَيْتُكَ انْهَدَما

([1]) نَفْسُهُ، ص٢٨٤.

([2]) لِأَنَّهُ لا بَيْتَ لَهُ.

([3]) المنِيْبُ هُنا هو الشاعِرُ نفسه.

([4]) مِن الواضِحِ هُنا أنَّ أبا العلاءِ لَمْ يُرِدْ جِنْسَ الذِّئابِ، بَلْ البَشَرِيَّةَ أجْمَعَ.

وما كَسَوْتَ إذا قُرٌّ أَتَى جَسَداً ... ولا حَذَوْتَ حِذَاراً لِلْوَجَى قَدَما

جَمَّعْتَ فِي كُلِّ رِيٍّ سَلَّةً وَرَدَى ... نَفْسٍ فَهَلَّا سَرَقْتَ القُرْصَ والحَذَما

قَدْ يَقْصُرُ النَّفْسَ إعْظاماً لِبارِئِها ... عَلَى القِفارِ مُنِيبٌ طالَما ائْتَدَما

ولا تَصُوْمُ لِوَجْهِ اللهِ مُحْتَسِباً ... أَمْ غَيْرَ صَوْمِكَ أَمْسَى الهَمَّ والسَّدَما

أَتُضْمِرُ التَّوْبَ مِنْ ضَأْنٍ تُرَوِّعُها ... أَمْ كانَ ذَلِكَ داءً فِيْكُمُ قِدَما

ولَوْ ظَفِرْتَ عَلَى حَالٍ بِجَالِيَةٍ ... جَزَأْتَها ونَبَذْتَ السُّوْرَ والحَذَما

وهَلْ نَدِمْتَ عَلَى طِفْلٍ فَجَعْتَ بِهِ ... أُمّاً ومِثْلُكَ لا يَسْتَشْعِرُ النَّدَما

ولا يُوَارَى إذا حَلَّتْ مَنِيَّتُهُ ... ولا إذا مَاتَ فِي غَارٍ لَهُ رُدِما

وكَمْ ثَوَى لَكَ جَدٌّ ما دَرَى فَطِنٌ ... مِنْكُم عَلَى أيِّ أَمْرٍ إذْ مَضَى قَدَما

فَهَذِهِ القِطْعَةُ هِيَ النَّمُوذَجُ المثاليُّ لِتَفَكُّرِ أبي العلاءِ الخَيَالِيِّ الخَصِيْبِ. ولَقَدْ كانَ أبو العلاء مِثْلَ القِدِّيْسِ فَرَانْسِسْ الإيْسِيْزِي[1] لايَكْتَفِي بِوَعْظِ النَّاسِ بَلْ يُجَاوِزُهُ إلى وَعْظِ الذِّئابِ والطَّيْرِ والنَّمْلِ ويَدْعُوها إلَى الأخذِ بِمَبادِئِهِ الرَّفِيْعَةِ ومُثُلِهِ السَّامِيَّةِ في العَدْلِ والإنْصافِ والرَّحْمَةِ.

([1]) إيْطالِيٌّ مَشْهُورٌ وُلِدَ فِي ١١٨٢م بِمَدِيْنَةِ أَسِيْزِي بَأَوَاسِطِ إيْطاليا وبِها اشْتَهَرَ وبِهِ عُرِفَتْ (Saint Francis of Assisi). كان قُسّاً مَعْروفاً بِبَساطَتِهِ فِي الدَّعْوَةِ والمَوْعِظَةِ فَرُفِعَ بِذْلِكَ إلى مَصَافِ القِدِّيْسِيْنَ. ولَهُ كاتِدْرَائِيَّةٌ مَشْهُوْرَةٌ في أسيْزي مَعْرُوفةٌ بِاسْمِهِ أَصابَها زِلْزالِ سَنَةِ ١٩٩٧. بَذَلَ فَرَانْسِسْ الإسِيْزِي جَهْدَ كَبِيْراً فِي تَطْوِيْرِ المفاهِيْمِ الكاثُوْلِيْكِيَّةِ البالِيَةِ وأَسَّسَ ما عُرِفَ بِمَذْهَبِ الفِرانْسِسْكانْ الذِي أقامَهُ عَلَى التَّفانِي فِي التَّبْشِيْرِ والتَّدَافُعِ لِأعْمالِ الخَيْرِ والبِرِّ. وقَدْ أُعْجِبَ الفَنَّانُ الفُلُوْرَنْسِيُّ الكَبِيْرُ جوتو بوندوني بِهِ وبِمَذهَبِهِ فَجَعَلَ مِنهُ مَوْضُوعاً مُمْتَدّاً لِأَعْمالِهِ الفَنِّيَّةِ، فَصَوَّرَ بَساطَتَهُ التي اسْتَطابَها بِعُمْقٍ؛ فأظْهَرَ مَثَلاً في بَعْضِ أعْمالِهِ مِنْ لَوْحَاتِ الكاتِدْرَائِيَّة قِصَّةً مَرْوِيَّةً عَنْ فَرانْسِس تَحْكِي عَنْ تَضَرُّعِهِ لِلسَّماءِ لِيَنْفَجِرَ نَبْعٌ يَشْرَبُ مِنهُ أَحَدُ الفلاحِيْنَ البُسَطاءِ، وقَدْ كادَ يَقْضِي عطشاً، وكانَ يَحْمِلُهُ عَلَى حِمارِهِ. وقَدْ صَارَ كُلٌّ مِنْ فَرانْسِسْ الإسِيزي وجوتو بوندوني عُمُوماً كَأَنَّهُما مِنْ رُمُوزِ التَّحَرُّرِ الفِكْرِيِّ والتَّمَرُّدِ عَلَى هَيْمَنَةِ العُصُوْرِ الوُسْطَى، والانْفِتاحِ عَلَى العَلْمَنَةِ والأَخْذِ بِالبَساطَةِ بِالأَخْذِ بِالتَّرْغِيْبِ والمَوْعِظَةِ والبُعْدِ عَنِ التَّرْهِيْبِ والغُلُوِّ اللَّذَيْنِ بِهِما زَرَعَتِ العُصُورُ الوُسْطَى الخَوْفَ في قُلُوْبِ النَّاسِ. (التُّرْجُمان)

ويَحْتَلُّ مَوضُوعا الفَخْرِ وهَضْمِ النَّفْسِ جُزْءاً مُقَدَّراً مِنَ الشِّعْرِ الغِنَائِيِّ في اللُّزُومِ. فَمِنْ أَمْثِلَةِ هَضْمِهِ نَفْسَهُ ولَوْمِها قَوْلَهُ [1]:

لَقَدْ عَلِمَ اللهُ رَبُّ الكَمَالِ	بِقِلَّةِ عِلْمِي ودِيْنِي ومالِي
وأنَّ التَّجَمُّلَ قَدْ ضاقَ بِي	فَكَيْفَ أُنافِسُ أَهْلَ الجمالِ
أريد الإناحَةَ فِي مَنْزِلٍ	وقَدْ حُدِيَتْ لِسِوَاهُ جِمَالِي
لَقَدْ خَابَ مَنْ يَبْتَغِي نُصْرَتِي	وعاجِزَةٌ عَنْ يَمِيْنِي شِمَالِي
فَمَنْ مُخْبِرِي أَغَرِيْقَ البِحَا	رِ أَلْقَى الرَّدَي أمْ دَفِيْنَ الوِصَالِ
هَوِيْتُ انْفِرَادِيَ كَيْمَا يَخِفُّ	عَمَّنْ أُعَاشِرُ ثِقْلُ احْتِمَالِي
فَمَاذا أَقُوْلُ وبَيْنَ الأَنَا	مِ خُلْفٌ عَلَى جَهْلِهِمْ أَوْ تَمَالِي
أمَا لِيَ فِيْمَا أَرَى رَاحَةٌ	مَدَى الدَّهْرِ مِنْ هَذَيَانِ الأَمَالِي

(أيْ أنَّ اللهَ تعالَى عَلِمَ بِكَمَالِهِ أنَّنِي ضَعِيْفُ الدِّيْنِ قَلِيْلُ المالِ وَاهِي الصِّحَّةِ والقُوَّةِ، وأنَّنِي طالَما تَجَمَّلْتُ لِأُنافِسَ أَهْلَ الجَمَالِ فَلَمْ أُفْلِحْ حَتَّى مَلَّنِيَ التَّجَمُّلُ؛ فَكَمْ تَهْوَى نَفْسِي المقَامَ فِي مَنْزِلٍ ولَكِنَّ جِمَالِي مَصْرُوْفَةٌ إِلَى غيْرِهِ، مَأْمُوْرَةٌ بِالإناخَةِ لَدَى سِوَاهُ [2]؛ ولا يُفْلِحُ مَنْ يُرِيدُ نُصْرَتِي، بَلْ عَجزَتْ شِمَالِي عَنْ نُصْرَةِ يَمِيْنِي؛ ولَقَدْ أحْبَبْتُ الوَحْدَةَ والانْفِرَادَ حَتَّى لا أُثْقِلَ عَلَى مَنْ أعِيْشُ بَيْنَهُمْ؛ وماذا عَسايَ أنْ أَقُولَ ومافَتِئَ النَّاسُ في اخْتِلافٍ واتِّفَاقٍ أمْلاهُما عَلَيْهِمْ مَحْضُ جَهْلِهِمْ؛ وحَتَّامَ أَظَلُّ أَهْذِي بِالأشْعارِ أُمْلِيْها عَلَى النُّسَّاخِ، أَلا أُصِيْبُ رَاحَةً مِنْ هَذَا العَناءِ مَدَى الدَّهْرِ؟).

وتَأَمَّلْ، كَذَلِكَ، قَوْلَهُ وهُوَ يَلْتَفِتُ إلى نَفْسِهِ بِالقَدْعِ والتَّقْرِيْعِ:

---

[1] (الجزء ٢، ص ٢٤٢).

[2] يَعْني تَعلُّقَ نَفْسِهِ بالدُّنيا مَعَ حَتْمِيَّةِ المَوْتِ؛ فَهُوَ يَهْوَى أنْ يُقِيْمَ بِهَذِهِ الدَّارِ ولَكِنَّ جِمَالَهُ مَأْمُورةٌ بِالرَّحِيْلِ الى غَيْرِها وهِيَ الآخِرَةُ. (المترجم)

كِلابٌ تَغاوَتْ أوْ تَعاوَتْ لجِيْفَةٍ وأَحْسَبُنِي أصْبَحْتُ أَلْأمَها كَلْبَا

(أيْ ما النَّاسُ إلَّا كِلابٌ يَنبَحُ بَعْضُها بَعْضاً مَكْراً لِتَتَهافَتَ عَلَى جِيفَةٍ، وأَرَانِي أَلْأَمَ هَذِهِ الأَكْلُبِ). وقَوْلَهُ:

يَزُورُنِي القَوْمُ هَذَا دَارُهُ يَمَنٌ مِنَ البِلادِ وهَذَا دَارُهُ الطَّبَسُ

قَالُوا سَمِعْنا حَدِيْثاً عَنْكَ قُلْتُ لَهُمْ لا يُبْعِدِ اللهُ إلَّا مَعْشَراً لَبَسُوا

يَبْغُونَ مِنِّيَ مَبْنَىً لَسْتُ أُحْسِنُهُ فإنْ صَدَقْتُ عَرَتْهُمْ أوْجُهٌ عُبُسُ

أَعَانَنَا اللهُ كُلٌّ فِي مَعِيْشَتِهِ يَلْقَى العَنَاءَ فَدُرِّي فَوْقَنا دُبَسُ

ماذا تُرِيْدُونَ لا مَالٌ تَيَسَّرَ لِي فَيُسْتَمَاحُ ولا عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

أَتَسْأَلُوْنَ جَهُوْلاً أنْ يُفِيْدَكُمْ وتَحْلِبُونَ سَفِيّاً ضَرعُها يَبَسُ

(أيْ يَزُورُنِي النَّاسُ، فَهَذا مِنَ اليَمَنِ وذَاكَ مِنْ طَبَسٍ[1]، يَقُولُونَ لِي لَقَدْ سَمِعْنا عَنْكَ فَأَقُولُ لَهُمْ: أبعَدَ اللهُ مَنْ يُشِيْعُونَ الأخْبَارَ الكَاذِبَةَ؛ لَقَدْ نَقَلُوا لَكُمْ باطِلاً فَخَدَعُوْكُمْ؛ لَقَدْ جاءَنِي هَؤُلاءِ الأَقْوَامُ يَطْلُبُونَ مِنِّي مِنْ مَبانِي الحَدِيْثِ مَا لا أُحْسِنُ[2]، فإذا حَدَّثْتُهُمْ بِمَا أُحْسِنُ صادِقاً إيَّاهُمُ الحَدِيْثَ اكْفَهَرَّتْ وُجُوهُهُمْ وعَراها العُبُوسُ، فَأَسْأَلُ اللهَ أنْ يُعِينَنَا؛ فَكُلُّنا يَكْدَحُ في مَعِيشَتِهِ فَيَلْقَى فِيها العَنَاءَ والمَشَقَّةَ؛ أَلَا فَلْيَصُبِ الغَيْثُ فَوْقَنا جَمِيعاً؛ ولَكِنْ ماذا تُرِيدُونَ مِنِّي؛ فَلَسْتُ الرَّجُلَ المُوْسِرَ حَتَّى تَمْتاحُوا عِنْدَهُ النَّوالَ الغَمْرَ، ولَسْتُ العَلِيمَ فَأَعُودَ عَلَيْكُمْ بِقَبَسِ العِلْمِ؛ ثُمَّ كَيْفَ لَكُمْ سُؤَالُ رَجُلٍ جَهُولٍ أنْ يُعَلِّمَكُمْ؛ فَمَا أَرَاكُمْ إلَّا كَمَنْ يَحْلِبُ عَنْزاً عَجْفاءَ قَدْ جَفَّ مِنْها الضَّرْعُ فَأَنَّى تَجُودُ لَهُ باللَّبَنِ؟).

---

[1] مِنْ نَوَاحِي خُرَاسانَ، وهِيَ الآنَ مَرْكَزٌ بلدِيّةٍ بِشمالِ شِرقِ إيرانَ، دمَّرها زِلْزالٌ سنة ١٩٨٧، وأُعِيدَ بِناؤُها مِن جَدِيدٍ. (المترجِم).

[2] يَعْنِي باطِلَهُ وغُرورَهُ، وهو ما يُرْضِيهِمْ وما جاءُوهُ لِأَجْلِهِ. (المترجِم).

وقَدْ كانَ أبو العلاء دَقِيقَ الشُّعُورِ، مُرْهَفَ الحِسِّ مُعْتزّاً بِنفسِهِ، يَخْشَى انْتِقادَ الآخَرِيْنَ، إذْ كانَ سَرِيْعَ التأذِّي مِنْه؛ ولِذا فَقَدْ كانَ يَتَوَقَّعُ أنْ يُقالَ في حَقِّهِ أَسْوأُ ما يُمْكِنُ قَوْلُهُ فكانَ يَسْبِقُ إلَيْهِ ويُبادِرُ إلَيْهِ هُوَ فَيَقُولُهُ عَنْ نَفْسِهِ قَبْلَ أنْ يَأْتِيَهُ مِنْ غَيْرِهِ، وهْوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ في الدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ غايَةٌ فِي الذَّكاءِ؛ ثُمَّ هُوَ في وَاقِعِ الأمْرِ أُسْلُوبٌ دَقِيقٌ قَلَّما يُلْحَظُ في مَدْحِ المرْءِ نَفْسَهُ، لِأنَّهُ يَثِقُ أَنَّ الآخَرِيْنَ سَيَمْتَدِحُوْنَهُ ويُثْنُونَ عَلَيْه خَيْراً إذا ما أنْكَرَ ذَاتَهُ وتَخَوَّنَ نَفْسَهُ وتَحَامَلَ عَلَيْها. وهُناكَ أُسْلُوبٌ آخَرُ خَفِيٌّ لِمَدْحِ المرْءِ نَفْسَهُ يَدِقُّ عَلَى الفَهْمِ أيْضاً؛ وهُوَ ما نَجِدُهُ في بَعْضِ الأَبْيَاتِ التي يَصِفُ فِيْها أبو العلاء أَسَالِيْبَ تَقَشُّفِهِ، أَوْ تِلْكَ التي يَتَحَدَّثُ فِيْها عَنْ شِعْرِهِ. وأَحْياناً يَطْرَحُ التَّوَاضُعَ وظُهُوْرَهُ بِمَظْهَرِ الذَّلِيْلِ مِمَّا يُصاحِبُ عادةً أَقْوَالَهُ التَزهُدِيَّة، كَمَا في قَوْلِهِ:

وكَفَانِي مِمَّا يُعَبُّ لُجَيْنِيٌّ   إذا عَبَّ صِرْفَكَ الذَّهَبِيُّ(١)

وقَوْلِهِ:

فاتْرُكْ لِأهْلِ الملْكِ لَذَّاتِهِمْ   فَحَسْبُنا الكَمْأَةُ والأحْبَلُ
ونَشْرَبُ الماءَ بِرَاحَاتِنا   إنْ لَمْ يَكُنْ ما بَيْنَنا جُنْبُلُ٢

ويُحِلُّ مَحَلَّهُ رُوْحاً مِنَ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ والتَّعَالِي الفِكْرِيِّ، عَلَى نَحْوٍ يُذَكِّرُكَ بِالمتَنَبِّي. فانْظُرْ في هَذِهِ الأَبْيَاتِ التي خاطَبَ بِها أُدَباءَ عَصْرِهِ:

بَنِي الآدَابِ غَرَّتْكُم قَدِيْماً   زَخارِفُ مِثْلُ زَمْزَمَةِ الذُّبابِ
ومَا شُعَرَاؤُكُم إلّا لُصُوْصٌ   تَلَصَّصُ فِي المدَائِحِ والسِّبَابِ

---

(١) اللُّجَيْنِيُّ الماءُ القَرَاحُ، والذَّهَبِيُّ الخَمْرُ، أيْ إنَّما أكْتَفِي أنا في شُرْبِي بالماءِ السَّلْسَلِ، إذا اسْتَحْبَبْتَ أنْتَ شُرْبَ الخَمْرِ. (التُّرْجُمان).

٢ الكَمْأَةُ ضَرْبٌ مِنَ النَّبْتِ والأَحْبَلُ اللُّوبِيَاءُ والجُنْبُلُ قَدَحٌ كَبِيْرٌ مِنْ خَشَبٍ، وقَدْ سَبَقَتِ الإشارَةُ إلى هَذِهِ الأبْياتِ مِنْ قِبَلِ المؤَلِّفِ. (التُّرْجُمان)

أَأُذْهِبُ فِيْكُمْ أَيَّامَ شَيْبِي كَمَا أَذْهَبْتُ أَيَّامَ الشَّبَابِ
ذَرُونِي يَفْقِدِ الهَذَيانَ لَفْظِي وأُغْلِقْ لِلْحِمَامِ عَلَيَّ بَابِي

فَهُوَ يُخاطِبُ رِجالاتِ الأدَبِ قائِلاً: (إِنَّكُمْ طالَما خَدَعَتْكُمْ طَنْطَنَاتُ الزَّخارِفِ اللَّفْظِيَّةِ المصْنُوعَةِ التي تَسْتَجْلِبُونَهَا اسْتِجْلاباً فَتُحْدِثُ لَكُمْ ما يُشْبِهُ أَزِيْزَ الذُّبابِ، وما الشُّعَرَاءُ مِنْكُمْ إِلَّا لُصُوصٌ يَسْرِقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مَعانِيَ الأمادِيْحِ والأَهَاجِي؛ فَمَا أنا بِالذي يُضِيعُ بَيْنَكُمْ أيَّامَ شَيْبِهِ كَمَا أَضَاعَ أَيَّامَ الشَّبَابِ؛ فَذَرُوْنِي، لا أُعَدُّ مِنْكُم حَتَّى يَطْهُرَ لَفْظِي مِنَ فُضُولِ الكَلامِ، ويَتَنَزَّهَ عَنِ الإِكْثَارِ والإِسْهابِ، ودَعُونِي أُغْلِقْ عَلَيَّ بابِيَ اسْتِعْدَاداً لِلمَوْتِ والذَّهابِ). فَهَذِهِ الأَبْياتُ تُشْبِهُ أبْياتَ المتنبِّي[1]:

إِلَى كَمْ ذا التَّخَلُّفُ والتَّوانِي وكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
وشَغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المعَالِي بِبَيْعِ الشِّعْرِ في سُوْقِ الكَسَادِ
وما ماضِي الشَّبابِ بِمُسْتَرَدٍّ وما يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ

(أيْ حَتَّى مَتَى أنَا في هذا التَّرَدُّدِ والتَّماطُلِ والتَّوانِي؟ وإلى مَتَى أَشْغَلُ نَفْسِي بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِي سُوقٍ كاسِدةٍ لا تُنِيْلُ نَفْعاً ولا تُكْسِبُ رِبْحاً؛ وإِذنْ فَعَلَيَّ تَرْكُ هَذَا كُلِّهُ والإِقْدامُ عَلَى أمْرٍ آخَرَ هُوَ طَلَبُ المعالِي بِحَقِّها، فَلَيْسَ الشَّبابُ إذا وَلَّى بِمُرْتَجَعٍ، ولَيْسَ اليَوْمُ الذِي يَمْضِي يَعُودُ). فَأَبُو العلاء، شأْنَ المتنبِّي، كَثِيراً ما لا يُحاوِلُ إِخْفَاءَ اسْتِيَائِهِ مِنْ غَبَاءِ النَّاسِ ورُعُونَتِهِمْ ويُعْلِنُ بِصَرِيْحِ العِبارَةِ أَنَّهُ يَعْرِفُ مِنَ الأَسْرارِ ما لا يَعْرِفُونَ؛ كَقَوْلِهِ:

بَنِي آدَمٍ هَلْ تَعْلَمُونَ سَرائِراً حَوَيْتُ ولَكِنِّي بِها غَيْرُ بَائِحِ
سَرَيْتُمْ عَلَى غَيٍّ فَهَلَّا اهْتَدَيْتُمُ بِمَا خَبَّرَتْكُمْ صافِيَاتُ القَرَائِحِ

---

(1) (ديوانه، ص ٧٨).

فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ عَلَى رَشادٍ وحِكْمَةٍ عَظِيْمَةٍ وأَنَّهُ جَرَّبَ الغِنَى والفَقْرَ جَمِيْعاً، وأَنَّهُ قَدْ مَنَحَتْهُ الحياةُ مِنْ تَجارِبِها أَنْواعاً وعانَى مِنْ شَدائِدِها أَلْواناً. واسْمَعْهُ إِذْ يُعْلِنُ وَاثِقاً أَنَّهُ ما مِنْ أُمَّةٍ عاشَتْ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ إِلَّا وعِنْدَهُ مِنْ خَبَرِها طَرَفٌ:

ما كانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيا بَنُو زَمَنٍ   إِلَّا وعِنْدِيَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ طَرَفُ

فَهَذا الإِعْلانُ الجَبَّارُ مِنْ أَبِي العلاءِ قَدْ رَدَّ بَيْتَ عَدِيِّ بْنِ الرِّقاعِ(١):

وعَلِمْتُ حَتَّى ما أُسائِلُ وَاحِداً   عَنْ عِلْمِ وَاحِدَةٍ لِكَيْ أَزْدادَها

ضَئِيْلاً قَزَماً لَيسَ غَيْرَ، مِنْ بَعْدِ تَفاخُرٍ وتَباهٍ. وأَمَّا فِي مَدْحِ أَبِي العلاء نَفْسَهُ فَيُشْبِهُ المتنبِّي مِنْ حَيْثُ جَزالَةُ التَّعْبِيرِ ومِنْ حَيْثُ اسْتِخْدامُهُ طَرِيْقَةً فَنِّيَّةً دَقِيْقَةً فِي المدْحِ غَيْرِ المباشِرِ عَزَّ أَنْ تُدْرَكَ. فَالمتنبِّي كَثِيْراً ما يَمْدَحُ نَفْسَهُ بِطَرِيْقَةٍ غَيْرِ مُباشِرَةٍ؛ وذَلِكَ بأَنْ يَمْدَحَ سَيْفَ الدوْلَةِ بِصِفاتٍ جَلِيْلَةٍ، يَطْلُبُ مِنَ القارِئِ بإشارةٍ دَقِيْقَةٍ أَنْ يَنْسُبَها كَذَلِكَ إِلَى شَخْصِ المتنبِّي، كَقَوْلِهِ(٢):

قَدْ زُرْتُهُ وسُيُوْفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ   وقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ والسُّيُوْفُ دَمُ

فَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ   وكانَ أَحْسَنَ ما فِي الأَحْسَنِ الشِّيَمُ(٣)

---

(١) شاعِرٌ أُمَوِيٌّ مِنَ الشَّام، نَظَمَ عَدَداً مِنْ قَصائِدِ المديحِ في الوَلِيْدِ بْنِ عَبْدِ الملِكِ؛ انظُرِ الطَّرائِفَ الأَدَبِيَّة، بِتَحْقِيْقِ الميْمني، القاهرة ١٩٣٧، ص ٨٩.

(٢) ديوانه، ص٣٢٢.

(٣) أيْ لَقَدْ بَلَوْتُهُ في حالَتَيْ السِّلْمِ والحَرْب، فكانَ أَحْسَنَ الخَلْقِ، وكانَ أَحْسَنَهُم شِيَماً وصِفاتٍ، فالشِّيَمُ أَحْسَنُ الأَحْسَنِ. قُلْتُ: والشَّاهِدُ الذي أَرادَهُ المؤَلِّفُ هُنا أَنَّ الشَّاعِرَ شَهِدَ كُلَّ المشَاهِدِ التي شَهِدَها مَمْدُوحُهُ وقامَ كُلَّ مَقاماتِهِ بِدَلِيلِ شَهادَتِهِ التي جاءَتْ مِنْ وَاقِعِ مُصاحَبَتِهِ إِيَّاهُ سِلْماً وحَرْباً، ثُمَّ هُوَ القاضِي الذي حَكَمَ لِلْمَمْدُوحِ بِأَحْسَنِ الصِّفاتِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى اتِّصافِ المتنبِّي بِها. (التَّرْجُمان).

فَأَمَّا أبو العلاء فَيَمْدَحُ نَفْسَهُ بِطَرِيْقَةٍ خَفِيَّةٍ دَقِيْقَةٍ، إِذْ يَصِفُ أخلاقَ الرَّجُلِ الكَرِيْمِ النَّفْسِ ويَمْتَدِحُ صِفاتِهِ في بَعْضِ قصائِدِهِ، ثُمَّ يَزْعُمُ لِنَفْسِهِ كَثِيْراً مِنْ أَوْصافِ كِرَامِ النَّاسِ في قصائِدَ أُخْرَى. لَكِنَّ المتَنَبِّي عادَةً ما يَكُونُ في مَدْحِهِ نَفْسَهُ صَفِيْقاً مُتَفَيْهِقاً، يَعُوزُهُ الوَقارُ والجَلالُ، مِمَّا يُلازِمُ شِعْرَ صاحِبِنا لا يَنْفكُّ عَنْهُ. والشَّاعِرُ الأَنْسَبُ لِأَنْ نَجْعَلَهُ قَرِيْناً لِأبي العلاء وشَبِيْهاً بِهِ في الجَانِبِ الغِنائِيِّ مِنْ شِعْرِ مَدْحِ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ هُوَ أبو فِراسٍ الحَمْدَانِيُّ. ولَكِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنا هُنا أَنْ نَضَعَ في الاعْتِبارِ أَنَّ الشَّاعِرَيْنِ يَتَغَنَّيَانِ بِمَوْضُوعاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ؛ فَعَلَى حِيْنِ يَتَغَنَّى أبو العلاء بِصَرُوْرَتِهِ أَوْ تَرْكِهِ الزَّوَاجَ وبِصَوْمِهِ وعُزْلَتِهِ وعَقْلِهِ، يَتَغَنَّى أبو فِراسٍ بِشَجاعَتِهِ وبُطُوْلَتِهِ وإِقْدامِهِ في الحَرْبِ، وكَرَمِ أَصْلِهِ وشَرَفِ قَبِيْلَتِهِ. ولَكِنَّ ثَمَّةَ عُنْصُرَ تَشَابُهٍ رَائِعٍ مُلْفِتٍ لِلنَّظَرِ بَيْنَ النَّغمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَتَغَنَّيَانِ بِها فِيما يَتَّصِلُ بِإِعْجَابٍ بِالنَّفْسِ فِيهِ فَخَامةٌ وسَنَاءٌ وسُمُوٌّ. فَقَدْ كانَ أبو فِراسٍ أَسِيْرَ حَرْبٍ لَدَى الرُّوْمِ وكانَ يَأْمُلُ أَشْهُراً وَرَاءَ أَشْهُرٍ أَنْ يُؤَدِّيَ سَيْفُ الدَّوْلةِ فِدَاءَهُ ويَفُكَّ أَسْرَهُ لِيَعُوْدَ إِلى الشَّامِ لِأُمٍّ تَقَدَّمَتْ بِها السِّنُّ تَنْتَظِرُ عَوْدَهُ بِقَلَقٍ وتَرَقُّبٍ، ولِيَعُوْدَ ثانِيَةً إِلى نَعِيْمِ الحَيَاةِ ولَذاذاتِها ولِيُعاوِدَ شَنَّ هَجَماتٍ ناجِحَاتٍ عَلَى الرُّوْمِ. ولَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلةِ أَبْطَأَ عَنْهُ وأَخْلَفَ ظَنَّهُ، كَمَا أَنَّ أَصْحَابَهُ وأَقْرِبَاءَهُ لَمْ يَكُوْنُوا يُلْقُوْنَ بالاً لِحَالِهِ البائِسَةِ ولَمْ يأْبَهُوا لِأَسْرِهِ. فَظَلَّ حَبِيْسَ السِّجْنِ لِسَنَوَاتٍ عَدِيْدَةٍ يُعَانِي شُعُوْرَ الوَحْدَةِ والأَسَفِ ويُصارِعُ خَيْبَةَ الأَمَلِ[1]. ولَقَدْ كانَ يُعَزِّي نَفْسَهُ في وَحْدَتِهِ بِنَظْمِ قَصَائِدِهِ المشْهُوْرَةِ المعْرُوفَةِ بِالرُّوْمِيَّاتِ؛ فَذَكَرَ فِيْها ما في النَّاسِ مِنْ كَوَامِنِ الغَدْرِ والخِيَانَةِ والتَّقَلُّبِ، واسْتَعادَ فِيْها ذِكْرَيَاتِ أَيَّامٍ لَهُ خَوَالٍ كانَ يُوْقِدُ فِيْها نارَهُ عَلَى الأَعْلامِ ونُجُوْدِ الأَرْضِ لِيَهْتَدِيَ بِها إِلَيْهِ أَخُو الصَّحْراءِ وابْنُ

(1) أُسِرَ أبو فِراسٍ مِنْ قِبَلِ الرُّومِ في ٣٥١هـ، أنظرْ وَفَياتِ الأعيان، ج١، ص١٥٨.

السَّبِيْلِ لِيُصِيْبَ عِنْدَهُ القِرَى وكَرِيْمَ الضِّيافَةِ، كَمَا تَذَكَّرَ فِيْها أَيَّامَهُ التي كانَ يُغْدِقُ فِيْها عَطاءَهُ عَلَى الأقارِبِ والأباعِدِ عَلَى السَّوَاءِ[1].

ولَقَدْ كانَتْ حالُ شاعِرِنا (بِكَوْنِهِ حَبِيْسَ سِجْنِهِ الذي دَخَلَهُ طَوَاعِيَةً، وبِفَخْرِهِ الشَّدِيْدِ بِعِلْمِهِ وانْحِدَارِهِ مِنْ بَيْتٍ عَرَبِيٍّ أَصِيْلٍ) شَبِيْهَةً في بَعْضِ وُجُوهِها بِحالِ أَبِي فِراسٍ. ومِنْ ثَمَّ تَنْعَقِدُ المشابَهَةُ بَيْنَهُما في مَدْحِ كُلٍّ مِنهُما نَفْسَهُ. ومِمَّا يَحْسُنُ أَنْ نذكُرَهُ هُنا، لِأَنَّ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ، أَنَّهُما كِلَيْهِما يَستَخْدِمُ لَفْظَ البُحْتُرِيِّ ذا الصَّفاءِ والرَّوْنَقِ، كَمَا أَنَّ كِلَيْهِما يُشْجِيْهِ نَوْحُ الحَمَامِ وغِناؤُهُ شَجْواً عَمِيْقاً[2] (وقَدْ كانَتِ الحَمَامَةُ تَرْمُزُ إلى الغَرَامِ والعَاطِفَةِ)[3]. وتَفَكُّرَاتُ كُلٍّ مِنهُما في ذَاتِهِ يُخالِطُها تَوَاضُعٌ ويَكْسُوها حَيَاءٌ وهُوَ ما عَسَى أَنْ يُفسِّرَ لَنا ما يَشِيْعُ فِي شِعْرِهِما الذِي يَمْدَحانِ بِهِ نَفْسَيْهِما مِنْ رُوْحِ الوَقارِ والجَلالِ. ويَظْهَرُ أبو فِراسٍ في رُومِيَّاتِهِ شَرِيفاً لَطِيْفاً، رَفِيْقاً رَقِيْقاً، بادِيَ الاعْتِزارِ؛ فَهُوَ يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَذَكَّرُوا مآثِرَهُ لِيُحْسِنُوا بِهِ الظَّنَّ ويَغْفِرُوا ما كانَ لَهُ مِنْ زَلَّاتٍ. فَقَدْ قالَ يُخاطِبُ ابْنَتَهُ فِي قِطْعَةٍ صَغِيْرَةٍ نَظَمَها وهُوَ عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ إِثْرَ فَكِّ أَسْرِهِ[4]:

نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكِ والحِجَابِ
قُوْلِي إذا نادَيْتِنِي وعَيِيْتُ عَنْ رَدِّ الجَوَابِ
زَيْنُ الشَّبابِ أَبُو فِرا سٍ لَمْ يُمَتَّعْ بِالشَّبَابِ

([1]) انظُر دِيوانَ أبي فِراس، بتحقيق الدَّهَّان، بَيْرُوت، ١٩٤٤؛ص ٢٢– ٢٥، وص ٣١٣–٣١٨.

([2]) انظُرْ دِيوانَ أبي فِراسٍ، ص٣٢٥

([3]) طَوْقُ الحَمَامَةِ، لِابْنِ حَزْمٍ، (٣٨٤ – ٤٠٠هـ)، وهو كِتابٌ في الغَرَامِ والهُيَامِ، وقد أخذَ عُنْوانَهُ مِن هذا المَفْهُومِ؛ انْظُرْ لِتَرْجمةِ ابْنِ حَزْمٍ الوَفَيَات ج١ ص٤٢٨.

([4]) نفسه، ص ٤٧١.

وأمَّا شاعِرُنا فَيذْكُرُ ذَاهِبَ شَبابِهِ وآمالِهِ التي صَوَّحَتْ دُوْنَ أنْ يَقْضِيَ مِنْها أَرَباً أو يُدْرِكَ فِيْها طَلَباً[1] بِقَوْلِهِ:

سَقْياً لِأَيَّامِ الشَّبا ... بِ وما حَسَرْتُ مَطِيَّتَيَّا

أيَّامَ آمُلُ أنْ أَمَسَّ الفَرْقَدَيْنِ بِراحَتَيَّا

وأُفِيْضُ إحْسَانِي عَلَى جارَيَّ ثَمَّ وجارَتَيَّا

فَالآنَ تَعْجِزُ هِمَّتِي عَمَّا يُنَالُ بِخُطْوَتَيَّا

أَوْصَى ابْنَتَيْهِ لَبِيْدٌ الـ ... ـمَاضِي ولا أُوْصِي ابْنَتَيَّا

لَسْتُ المفاخِرَ في الرِّجا ... لِ بِعَمَّتَيَّ وخالَتَيَّا

لكِنْ أُقِرُّ بِأَنَّنِي ضَرَعٌ أُمارِسُ دارَتَيَّا

واللهُ يَرْحَمُنِي إذا أُودِعْتُ أَضْيَقَ ساحَتَيَّا

لا تَجْعَلَنْ حالِي إذا غُيِّبْتُ أَيْأَسَ حالَتَيَّا

ومَعْنَى هَذِهِ الأَبْياتِ إجْمالاً: (أيْ سَقَى اللهُ أيَّامَ الشَّبابِ، حِيْنما كُنْتُ أُقْلِقُ ناقَتَيَّ وأُكلِّفُهُما عَنَاءَ الأسفارِ والرِّحَلِ، وكُنْتُ طَمُوحاً مُتطلِّعاً أُأَمِّلُ نَفْسِيَ أنْ أنالَ الفَرْقَدَيْنِ بِيَدَيَّ، وأُفِيضُ نَوَالِي وعَطَائِي عَلَى جِيْرَانِي رِجالاً ونِساءً؛ ولَكِنَّنِي اليَوْمَ صِرْتُ أعْجِزُ عَنْ أنْ أنالَ ما هُوَ فِي مُتَناوَلِ اليَدِ أوْ في مَدَى خُطْوَتَيْنِ، ولَقَد أَوْصَى لَبِيْدٌ مِنْ قَبْلُ ابْنَتَيْهِ بالبُكاءِ عَلَيْهِ[2]؛ وأمَّا أنا فلا أُوْصِي ابْنَتَيَّ لِأنَّنِي لا وَلَدَ لِي، كَيْفَ وأنا لَمْ أَقْرَبْ زَوَاجاً؛

---

(1) الجزء الثاني، ص ٤٣٢.

(2) هو لَبِيْدٌ بْنُ رَبيعةَ العامِرِيُّ، شاعِرٌ جاهِلِيٌّ أَدْرَكَ الإسلامَ فأسْلَمَ وعاش مُعمَّراً إلى زَمانِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ، عاشَ حتى مَلَّ الحَيَاةَ وشَكا طُوْلَ العُمُرِ، وهُوَ مِنْ أصحابِ المعَلَّقاتِ السَّبْعِ المزْمُوقِيْنَ، رثا نَفْسَهُ، وأوْصَى ابْنَتَيْهِ بِالبُكاءِ عَلَيْهِ، فَقالَ:

ولَسْتُ الرَّجُلَ يُفاخِرُ في الرِّجالِ بِعُمُومةٍ أوْ خُؤُوْلَةٍ؛ فأنَا أُقِرُّ بأنَّني شَيْخٌ وَاهِنٌ وَاهٍ، مَشْغُولٌ بِدارَتيَّ، ويَرْحَمُني اللهُ إذا دُلِّيتُ في لحْدِي؛ فأتَوَسَّلُ إليْكَ ألَّا تجْعَلَ حالِي وأنَا في الآخِرَةِ أَشَدَّ يأْساً أوْ بأساً مِنْ حالِي فِي الدُّنْيا).

ومَهْما يَكُنْ مِنْ شَيءٍ، فَعَلَيْنا ألَّا نَمُرَّ مُرُوْرَ عابِرٍ مُتَعَجِّلٍ فَنَغْفُلَ مَسْأَلَةَ أنَّ كُلَّاً مِنْ شاعِرِنا وأبِي فِراسٍ كانا يَتَغَنَّيانِ بِمَوْضُوعاتٍ شَتَّى وأنَّ لِكُلٍّ مِنهُما طائِفَةً مِنَ القِيَمِ والمَبادِئِ في الحَياةِ. فأمَّا أبو فِراسٍ فَكانَ أمِيْراً يَمْتلِكُ مَوْهِبَةً شاعِرِيَّةً فَذَّةً، عَلَى حِيْنِ كانَ شاعِرُنا يَتَمَلَّكُ مُثُلاً أسْنَى وفِكْراً أسْمَى وقرِيحةً أَذْكَى اسْتَوْعَبَتْ تأمُّلاتِهِ وتَفكُّرَهُ التَزَهُّدِيَّ التَّقَشُّفِيَّ.

فَبِجانِبِ وَصْفِ النُّجُومِ والخَيْلِ والخَيالِ الزَّائِرِ والحَمَامِ، ومَوضُوعَيْ مَدْحِ النَّفْسِ وذَمِّها؛ هُناكَ الكَثِيرُ مِنَ العَناصِرِ الأُخْرَى التي تُكَوِّنُ صِفَةَ الغِنائيَّةِ أو الجانِبَ التَرَنُّمِيَّ في دِيْوانِ اللُّزُومِ، مِثْلُ تَفكُّرِ أبي العلاء فِي شَبابِهِ وشَيْخُوخَتِهِ واسْتِعادَةِ ذِكْرَياتِ بَغْدادَ وتَأمُّلاتِهِ في

-تَمَنَّى ابْنَتايَ أنْ يَعِيْشَ أبُوهُما ... وهَلْ أنا إلَّا مِن رَبِيْعَةَ أوْ مُضَرْ

فَقُوْمَا فَنُوْحا بِالذِي تَعْلَمَانِهِ ... ولا تَخْمِشا وَجْهاً ولا تَحْلِقا شَعَرْ

وقُوْلا هُوَ المرْءُ الذِي لَيْسَ جارُهُ ... مُضاعاً ولا خَانَ الصَّدِيْقَ ولا غَدَرْ

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما ... ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

قُلْتُ: وقَد فاقَ لَبِيداً في هذا المعْنَى مُحَمَّدُ بْنُ يَسِيرٍ بِأبْياتٍ تُقَطِّعُ نِياطَ القُلُوبِ، ومِمَّا يَزِيدُ المرْءَ حُزْناً فِيها وإشفاقاً وَاقِعِيَّتُها بَيْنَ النَّاسِ:

لَوْلا البُنَيَّةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ العَدَمِ ... ولَمْ أَجُبْ في اللَّيالِي حِنْدِسَ الظُّلَمِ

وزَادَنِي رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَتِي ... ذُلَّ اليَتِيمَةِ يَجْفُوها ذَوُو الرَّحِمِ

أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أوْ جَفاءَ أخٍ ... وكُنْتُ أخْشَى عَلَيْها مِن أذَى الكَلِمِ

إذا تَذَكَّرْتُ بِنْتِي حِيْنَ تَنْدُبُنِي ... جَرَتْ لِعَبْرَةِ بِنْتِي عَبْرَتِي بِدَمِ

(التَّرْجُمان).

شَخْصِيَّاتٍ وأَحْدَاثٍ تاريْخِيَّةٍ غابِرَةٍ، وبُكَائِهِ عَلَى اسْتِبَاحَةِ مَدِيْنَةٍ مُجاوِرَةٍ لَهُمْ أوْ عَلَى فَقْدِهِ صَدِيْقاً. ولَكِنَّ المَوْضُوعاتِ الغِنَائِيَّةَ الأَهَمَّ فِي اللُّزُومِ هِيَ تِلْكَ التي تَتَناوَلُ المَوْتَ وتَقَلُّبَاتِ الدَّهْرِ وما بِالنَّاسِ مِنْ لُؤْمٍ وشَرٍّ. فَالمَوْتُ عِنْدَ أبي العلاء حَقِيْقَةٌ حَتْمِيَّةٌ وأَمْرٌ لا مَفَرَّ مِنهُ ومُرَحَّبٌ بِهِ عِنْدَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَذْكُرُهُ أحياناً فَيَرْتَدُّ مُرْتَعِداً مُضْطَرِباً؛ واسْمَعْ إنْ شِئْتَ قَوْلَهُ:

يُهَالُ التُّرَابُ عَلَى مَنْ ثَوَى   فَآهٍ مِنَ النَّبَأِ الهَائِلِ

وقَوْلَهُ:

وتُخَلِّيْنَ قَرْيَةً فَسَقَاكِ الْـ   ـمَوْتُ مِنْها كَمَا سَقَاها البَعِيْرَا

وهذا البَيْتُ الأَخِيْرُ يُخاطِبُ بِهِ نَمْلَةً لائِماً إيَّاها عَلَى ادِّخارِ القُوْتِ واحْتِكارِهِ، مَعَ أَنَّها تَمُوتُ وتَتْرُكُهُ؛ أيْ فَحَتْماً سَتَشْرَبِيْنَ مِنَ المَنِيَّةِ كَأْساً شَرِبَها قَبْلَكِ البَعِيْرُ، يَعْنِي سَتَلْقَيْنَ أَمْراً لا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ الجَسِيْمِ كالبَعِيْرِ، والصَّغِيْرِ كالنَّمْلَةِ. ومِنَ السَّدادِ هُنا أنْ نُقارِنَ فِكْرَةَ أبِي العلاء في هَذَا البَيْتِ الأَخِيْرِ بِفِكْرَةِ المَلِكِ لِيْرْ[1] الذي قَالَ في آخِرِ حَدِيْثٍ لَهُ وهُوَ يَتَفَجَّعُ عَلَى مَوْتِ كُوْرْدِيْلِيا:

---

(1) مَأْسَاةُ المَلِكِ لِيْرْ، إحْدَى أعْظَمِ أعْمالِ شِكْسِبِيْرَ المسرَحِيَّةِ، إنْ لَمْ تَكُنْ أعْظَمَها عَلَى الإطْلاقِ (الفَصْل الخامس، المَشْهَدُ الثَّالِثُ)، وتَحْكِي عَنِ المَلِكِ (لِيْرْ) مَلِكِ بِرِيْطانيا، وكان مَلِكاً عَظِيْمَ المُلْكِ، وكانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ، قُوْنِيرِيْلُ كُبْرَاهُنَّ ورِيْقَانُ الوُسْطَى وكُوْرْدِيْلِيَا صُغْرَاهُنَّ، وهِيَ التي ذَكَرَها المُؤَلِّفُ هُنَا، وأرَادَ المَلِكُ اخْتِبَارَ حُبِّ بَناتِهِ لَهُ لِيُوَزِّعَ عَلَيْهِنَّ مُلْكَهُ بَعْدَ أنْ شَعَرَ بِتَقَدُّمِ سِنِّهِ، فنافَقَتْهُ الكُبْرَيَانِ ودَاهَنَتَاهُ وأَظْهَرَتا لَهُ مِنَ الحُبِّ ما لَا تَحْمِلانِ؛ وأمَّا الصُّغْرَى، كُوْرْدِيْلِيا، فأخْبَرَتْهُ بِحُبِّها الشَّدِيْدِ لَهُ الذِي هُوَ حُبُّ الفتاةِ أبَاها دُوْنَ تَزَيُّدٍ، ودُونَ أن تُبْدِيَ لَهُ مِنَ النِّفاقِ والمُدَاهَنَةِ ما أبْدَتْهُ أُخْتاها. فَغَضِبَ مِنْها المَلِكُ وطَرَدَها مِنْ مَمْلَكَتِهِ وأعْطَى مُلْكَهُ لِمَنْ دَاهَنَتَاهُ. وذَهَبَتْ كُوْرْدِيْلِيا وتَزَوَّجها مَلِكُ فَرَنْسا. ثُمَّ قَلَبَتْ هاتانِ لِأَبِيْهِما المَلِكِ ظَهْرَ المِجَنِّ وسَجَنَتَاهُ؛ فَلَمَّا سَمِعَتْ كُورديليا بِذَلِكَ أَرْسَلَتْ جَيْشاً لإِنْقاذِ أَبِيْها وحَرَّرَتْهُ، فَعَرَفَ أَصَالَةَ شَخْصِها وما فِيها مِنَ الخَيْرِ والفَضْلِ والصِّدْقِ. وهَذِهِ المَسْرَحِيَّةُ لَقِيَتْ اهْتِماماً كَبِيراً مِنَ القُرَّاءِ والأُدَباءِ والمُفَكِّرِيْنَ، وأكْثَرُوا مِنْ تَحْلِيْلِها إكْثاراً، لِمَا رَأَوْا فِيها مِنْ رَمْزِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ تُشِيرُ إلى رَأْيِ شِكْسبِيْر في فِكْرَةِ العَدَالَةِ والخَيْرِ عَلَى الأَرْضِ. هَذَا، ومِنَ العَجِيْبِ هُنا أَنَّ فِكْرَةَ المَسْرَحِيَّةِ

Why should a dog, a horse, a rat have life!
And thou no breath at all?

وتَرْجَمَةُ هَذَا الشِّعْرِ عَلَى التَّقْرِيْبِ:

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ يَنْعُمُ بِالحَيَاةِ كِلابٌ فِيْها وخَيْلٌ وجِرْذَانٌ
وأنتِ لا تَطْعَمِيْنَ مِنْها بِنَفسٍ واحِدٍ؟[1]

فالفِكْرَةُ في أصْلِها واحِدَةٌ في الحالَتَيْنِ جَمِيْعاً. فأبو العلاءِ يُحاوِلَ أنْ يُعَزِّيَ النَّمْلةَ ويُسَلِّيَها بِأنَّهُ عَلَيْها ألَّا تَأْسَى إذا أَلَمَّ بِها الموْتُ، إذْ إنَّهُ مَصِيرٌ مَحْتُومٌ لا تُفْلِتُ مِنهُ حتَّى ضِخامُ الأجْسامِ مِنَ الحَيْوَانِ كالإبِلِ. لَكِنَّ (لِيْرِ) يعْكِسُ الأمْرَ، فَهُوَ يَأْبَى أنْ يَتعَزَّى في فَقْدِهِ ابْنَتَهُ لِأنَّهُ يَرَى حَيْوَاناتٍ وَضِيْعَةً تَتَمَتَّعُ بِالحَيَاةِ عَلَى حِيْنِ تَفْقِدُها ابْنَتُهُ إلَى الأبَدِ.

- كُلّها تُشبِهُ إلى حَدٍّ بَعِيْدٍ أصْلاً مِنَ الأُصُولِ الفِكْرِيَّةِ التي يَقُومُ عَلَيْها (دِيوَانُ لُزُوم) أبي العلاء. إذْ كَثِيراً ما يُشِيرُ أبو العلاء إلى ما بِالنَّاسِ مِنَ النِّفاقِ والرِّياءِ والأَثَرَةِ والظُّلْمِ، وأنَّ الشَّرَّ في النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ هُوَ الأصْلُ الغالِبُ والخيْرُ طارِئٌ يُطْلَبُ طَلَباً. فالشَّرُّ في هَؤُلاءِ البَناتِ الثَّلاثِ هُوَ الأغْلَبُ بِنِسْبَةِ الثُّلُثَيْنِ إلى الثُّلُثِ وهِيَ نِسْبَةٌ كَبِيْرَةٌ تَكْفِي لِشُيُوْعِ البُؤْسِ في الحَيَاةِ لِيَكُونَ النِّفاقُ والكَذِبُ والظُّلْمُ هُوَ أوَّلَ ما يَسْبِقُ في التَّعامُلِ. هذا ومِنْ طَرِيْفِ ما لاحَظْتُ فِيْما يَتَعلَّقُ بِأَمْرِ هَذِهِ المسْرَحِيَّةِ أنَّ هُناكَ قَمَراً صَغِيْراً تابِعاً لِكَوْكَبِ أُوْرَانُسَ، الكَوْكَبِ السَّابِعِ مِنَ الشَّمْسِ يُسَمَّى كُوْرْدِيْلِيا، كانَ اكْتُشِفَ في العامِ ١٩٨٦ عَنْ طَرِيقِ المِسْبارِ الفَلَكِيِّ (فُيُوتْشَرْ الثاني)، وأنَّ هَذَا التَّابِعَ (الصَّغِيْرَ) لَهُ مِنْ قُوَّةِ تَأْثِيْرِ الجاذِبِيَّةِ ما يُحافِظُ بِهِ عَلَى ثَبَاتِ الطَّوْقِ الخارِجِيِّ كُلِّهِ لِكَوكَبِ أُوْرَانُسَ. فانْظُرْ إلى دِقَّةِ إصابَةِ تَسْمِيَةِ هذا التَّابِعِ الصَّغِيرِ بِكُوْرْدِيْلِيا؛ ورَمْزِيَّةُ التَّسْمِيَةِ هُنا واضِحةٌ؛ إذْ إنَّ كُوْرْدِيْلِيا ابْنَةَ المَلِكِ هِي مَنْ أنْقَذَه وثَبَّتَ مُلْكَهُ مَعَ كَوْنِها الصُّغْرى، وكُوْرْدِيْلِيا القَمَرُ التابِعُ هُوَ ما يُثَبِّتُ الحَلْقةَ الخارِجِيَّةَ لِهَذَا الكَوْكَبِ العَظِيْمِ (يُورانُسِ) عَلَى صِغَرِهِ وتابِعِيَّتِهِ. وما كانَ أصْدَقَ الشَّاعِرَ حِيْنَ قالَ، وإنْ اخْتَلَفَ السِّياقُ ولكِنَّ الفِكْرَةَ واحِدَةٌ:

لا تَحْقِرَنَّ صَغِيْراً في مُخاصَمَةٍ   إنَّ الذُّبابَةَ أَدْمَتْ مُقْلَةَ الأَسَدِ

(التُّرْجُمان).

[1] قَد ترجَمتُ بَيْتَيْ شكسبِيْرَ هذَيْنِ شِعْراً، فَقُلْتُ :

أَكَلْبٌ يُنَعَّمُ بِالحَيَاةِ وَامُهْرٌ   وجِرذَانُ هَذِي الأرْضِ تُحْبَى كَذَا بِها
فَمَا أنْصَفَتْ هَذِي الحَيَاةُ إذَ ابْدَلَتْ   مَكَانَ رَخِيْمِ الصَّوْتِ نُبْحَ كِلابِها

(التُّرْجُمان).

ويُحاوِلُ أبو العلاء، شَأْنَ هامْلِت[1]، أنْ يُقْنِعَ نَفْسَهُ مِنْ حِيْنٍ إلى آخَرَ باعْتِقادِ أنَّ المَوْتَ رُبَّما كانَ حالَةً مِنَ الوُجُودِ أفْضَلَ مِنْ حَالَةِ الحَيَاةِ هَذِهِ. وعَسَى أنْ يَكُونَ المَوْتُ مِثْلَ نَوْمٍ طَوِيْلٍ أوْ لَعَلَّنا في حَياتِنا لَسْنا سِوَى نِيَامٍ أخَذَهُمُ الحُلْمُ، وما المَوْتُ إلَّا انْتِبَاهَةٌ مِنْ هَذا النَّوْمِ:

وكَأَنَّما رُؤْيَاكَ رُؤْيا نَائِمٍ ... بِالعَكْسِ في عُقْبَى الزَّمانِ تُعَبَّرُ

فَلَوْ كانَ المَوْتُ حالَةً سَيِّئَةً حَقّاً لَما كانَ مَوْتُ النَّاسِ عَسِيْراً هَكَذا:

ويَدُلُّنِي أنَّ المَمَاتَ فَضِيْلَةٌ ... كَوْنُ الطَّرِيْقِ إلَيْهِ غَيْرَ مُيَسَّرِ

لَوْلا نَفَاسَتُهُ لَسُهِّلَ نَهْجُهُ ... كَأَذَى الضَّعِيْفِ عَلَى اللَّئِيْمِ المكْسَرِ

فَلَمَّا يَدُلُّ عَلَى أنَّ المَمَاتَ أفْضَلُ وأنَّهُ رَاحَةٌ لِهَيْكَلِ الجِسْمِ أنَّ الطَّرِيْقَ إلَيهِ صَعْبٌ:

يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ المَمَاتِ وَكَوْنِهِ ... إرَاحَةَ جِسْمٍ أنَّ مَسْلَكَهُ صَعْبُ

ألَمْ تَرَ أنَّ المجْدَ تَلْقَاكَ دُوْنَهُ ... شَدَائِدُ مِنْ أمْثالِها وَجَبَ الرُّعْبُ

إذا افْتَرَقَتْ أجْزاؤُنا حُطَّ ثِقْلُنا ... ونَحْمِلُ عِبْئاً حِيْنَ يَلْتَئِمُ الشَّعْبُ

وأمْسِ ثَوَى رَاعِيْكَ وَهْوَ مُوَدَّعٌ ... ولَوْ كانَ حَيّاً قامَ فِي يَدِهِ قَعْبُ

وكَذَلِكَ:

يُحاوِلُ مَنْ عاشَ سَتْرَ القَمِيْصِ ... ومَلْءَ الخَمِيْصِ وبُرْءَ الضَّنَى

ومَنْ ضَمَّهُ جَدَثٌ لَمْ يُبَلْ ... عَلَى ما أَفَادَ ولا ما اقْتَنَى

يَصِيْرُ تُرَاباً سَوَاءٌ عَلَيْـ ... ـهِ مَسُّ الحَرِيْرِ وطَعْنُ القَنَا

---

[1] هَلْ يُرِيْدُ بروفيسر عبد الله الطيب هُنا وعِنْدَ مُقارَنَتِهِ التي مَرَّتْ لِفِكْرَتَيْ أبي العلاء وشِكْسِبِيْر عن المَوْتِ المعْكُوسَتَيْنِ أنْ يُوقِعَ فِي أنْفُسِنا مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أنَّ الأَخِيْرَ أَخَذَ مِنَ الأَوَّلِ؟ فاللهُ أعْلَمُ، وانْظُرْ حاشِيَتَنا الآتِيَةَ في هَذِهِ المسْأَلَةِ، صَفْحَةَ ٤٠٠. (التَّرْجُمان)

ولا يَزْدَهِي غَضَبٌ حِلْمَهُ أَلَقَبَهُ ذَاكِرٌ أَمْ كَنَا

ولَقَدْ وَرَدَ مَعْنَى أنْ يَصِيرَ الإنْسانُ تُراباً تَطَؤُهُ الأقْدامُ أوَّلَ مَرَّةٍ في شِعْرِ أبي العلاء في مَرْثِيَتِهِ الدَّالِيَّةِ (غَيْرُ مُجْدٍ)[1]، ثُمَّ جاءَ بِهِ أيْضاً في مَرْثِيَتِهِ لِجَعْفَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ المهَذَّبِ[2].

وأبْياتُ الدَّالِيَّةِ:

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الْ أرْضِ إلَّا مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ
وقَبِيحٌ بِنا وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ هَوَانُ الآباءِ والأجْدَادِ
سِرْ إنِ اسْتَطَعْتَ في الهوَاءِ رُوَيْداً لا اخْتِيالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ

ووَاضِحٌ، كما تَرَى، أنَّ أبا العلاء قَدْ تأثَّرَ بِالمتَنبِّي في قَوْلِهِ[3] :

يُدَفِّنُ بَعْضُنا بَعْضاً ويَمْشِي أَوَاخِرُنا عَلَى هَامِ الأَوَالِي

وفي مَرْثِيَةِ عَلِيِّ بْنِ جَعْفرٍ، يَقُوْلُ أبو العلاء:

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبْلَةٍ خَدَّهُ سُلِّطَتِ الأرْضُ عَلَى خَدِّهْ
وحامِلٍ ثِقْلَ الثَّرى جِيْدُهُ وكانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عِقْدِهِ

فَهَذانِ البَيْتانِ مَذْهُوْبٌ بِهِما مَذْهَبَ المتَنبِّي في قَوْلِهِ[4] :

لَوْ فَكَّرَ العاشِقُ في مُنْتَهَى حُسْنِ الذي يَسْبِيْهِ لَمْ يَسْبِهِ

---

(1) سقط الزند، ج1، ص208.

(2) نفسه، ص2.

(3) (ديوانه، ص 257).

(4) (ديوانه، 573).

وقَدْ طَوَّرَ أبو العلاء هذا المعْنَى في اللُّزُومِ وزَادَ عَلَيْهِ. ومانَزَالُ نَرَى أثَرَ المتَنبِّي عَلَى شِعْرِهِ هُنا، غَيْرَ أنَّ شاعِرَنا يَتَفَوَّقُ عَلَى المتَنبِّي في عُمْقِ فِكْرِهِ وخُصُوْبَةِ خَيَالِهِ. وخُذْ مَثَلاً قَوْلَهُ في اللُّزُومِ:

فَلا يَكُ فَخَّاراً مِنَ الفخْرِ عائِدٌ ... إلَى عُنْصُرِ الفَخَّارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ

لَعَلَّ إناءً مِنهُ يُصْنَعُ مَرَّةً ... فَيأْكُلَ مِنهُ مَنْ يَشَاءُ ويَشْرَبُ

ويُنْقَلُ مِنْ أَرْضٍ لِأُخرَى بَعِيْدَةٍ ... فَآهٍ لَهُ بَعْدَ البِلَى يَتَغَرَّبُ

(أيْ لا يَفْخَرَنَّ مَنْ يَعُوْدُ يَوْماً إلَى أصْلِهِ الطِّيْنِ أوِ الفَخَّارِ فَتُصْنَعُ مِنهُ آنِيَةٌ يَسْتَخْدِمُها النَّاسُ في أكْلِهِمْ وشُرْبِهِمْ ويَنْقُلُوْنَها مِنْ بِلادٍ إلَى أُخْرَى بَعِيْدَةٍ؛ فَيَا بُؤْسَهُ حتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ وفَنَائِهِ مايَزَالُ يَتَغرَّبُ). ولا يَزَالُ أبو العلاء يُعاقِرُ التَّفْكِيْرَ في هذا المعْنَى حَتَّى يَحْمِلَهُ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيْما عَسَى أنْ يَصِيْرَ لَهُ هُوَ فِي خاصَّةِ نَفْسِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فَيَذْكُرَ فِي إحْدَى قِطَعِ الجُزْءِ الثَّانِي مِنَ اللُّزُومِ أنَّهُ مَتَى صارَ إلى باطِنِ الأرْضِ فَسَيَكُوْنُ مُحَصَّناً مِنَ الأمْرَاضِ والأوْصَابِ ويَطْلُبُ مِنَ الناسِ أنْ يَتَّخِذُوا مِنْ تُرابِهِ طَهُوْراً في تَيَمُّمِهِمْ عَسَى اللَّهُ أنْ يُنِيْلَهُ مِنْ ثَوَابِ هَذِهِ العِبَادَةِ؛ ثُمَّ يُخْبِرُ أنَّهُ سَيَكُوْنُ شاكِراً سَعِيْداً إذا ما اسْتُخْدِمَ تُرَابُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ خَزَفاً يُوْضَعُ فِيهِ ماءُ الاغْتِسالِ:

إذا غَدَوْتُ بِبَطْنِ الأرْضِ مُضْطَجِعاً ... فَثَمَّ أَفْقِدُ أوْصابِي وأمْرَاضِي

تَيَمَّمُوا بِتُرَابِي عَلَّ فِعْلَكُمُ ... بَعْدَ الهُمُودِ يُوَافِيْنِي بِأَغْرَاضِي

وإنْ جُعِلْتُ بِحُكْمِ اللهِ في خَزَفٍ ... يَقْضِي الطُّهُوْرَ فَإنِّي شاكِرٌ رَاضِي

ولَعَلَّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذا الصَّدَدِ الآنَ أنْ نُقِيْمَ مُقارَنَةً سَرِيْعَةً مُوْجَزَةً بَيْنَ أَبِي العَتَاهِيَةِ الذي أكْثَرَ مِنَ النَّظْمِ في الموْتِ وغُرُورِ الحَيَاةِ وبَهْرَجِها، وبَيْنَ شاعِرِنا. فَقَدْ كانَ لِأَبِي العَتَاهِيَةِ

مَيْلٌ نَحْوَ التَّرْوِيْعِ والتَّخْوِيْفِ وبَدا مُتَقَلِّباً في أفْكارِ الدِّيْدانِ والرَّوَائحِ القَذِرةِ المقَزِّزة [لِلْجُثَثِ]، حتى إنَّ بَعْضَ أجْوَدِ أبْياتِهِ يَعْرِضُ هَذَا الهَوَسَ بِهَذِهِ الرَّوَائِح[1]:

أَحْسَنَ اللهُ بِنا أنَّ الخَطَايا لا تَفُوْح

غَيْرَ أنَّ أفْكَارَ شاعِرِنا في الموْتِ بَعِيْدَةٌ حَقّاً مِنْ أنْ تَكُوْنَ هَوَسِيَّةً، فَهِيَ شَبِيْهةٌ بِأَفْكارِ (هامْلِت) فِي (أَكُوْنُ أوْ لا أَكُوْنُ)، وبِأفْكارِ المتَنبِّي في قَصِيْدَتِهِ[2]:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ يا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ   كِنَايَةً بِهِما عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

وغَيْرِها مِنْ مَرَاثِيْهِ. فَهِيَ أفْكارٌ فَلْسَفِيَّةٌ في كَوْنِها لَيْسَتْ شَدِيْدَةَ التَّعَلُّقِ بِظَاهِرَةِ الموْتِ في حَدِّ ذَاتِهِ، كَالذي يُمْكِنُ أنْ يَكُوْنَ بَعْدَ الموْتِ. وهِيَ أفْكارٌ فَنِّيَّةٌ جِدّاً مِنْ حَيْثُ إنَّ الاسْتِعارةَ والتَّشْبِيهَ والخَيالَ تَحْتَلُّ الجُزْءَ الأهَمَّ في تَكْوِيْنِها؛ فَلَوْ قَرَأَها مَنْ يُرِيدُ تَحْلِيلَها بِهِمَّةٍ فاتِرةٍ لَبَدَتْ لَهُ تُرَّهاتٍ؛ ولَكِنْ لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ أدَبِيٍّ يَقْصِدُهُ النَّاظِرُ فِيهِ بِفُتُوْرِ هِمَّةٍ. فَالوَقْتُ (أوِ الدَّهْرُ) يُسْتَخْدَمُ في اللُّزُومِ لِيَدُلَّ عَلَى القَدَرِ وتَقَلُّبِ الحُظُوظِ وتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ. ويُعَرِّفُ أبو العلاءِ الوَقْتَ عَلَى أنَّهُ ما يَكْتَنِفُ كُلَّ شَيْءٍ ويَحْتَوِيْهِ:

وأَيْسَرُ كَوْنٍ تَحْتَهُ كُلُّ عالَمٍ   ولَنْ تُدرِكَ الأَكْوَانَ جُرْدٌ صَلادِمُ

إذا هِيَ مَرَّتْ لَمْ تَعُدْ ووَرَاءَها   نَظَائِرُ والأَوْقَاتُ ماضٍ وقادِمُ

(أيْ أنَّ أَقَلَّ كَوْنٍ مِنَ الأكْوَانِ–وفي رِوايَةِ بَعْضِ النُّسَخِ لِلُّزُومِ (كَوْرٍ) بِمَعْنَى الكَوْكَبِ الكُرَوِيِّ– يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كُلُّ عالَمٍ يَخْطُرُ بِبالِكَ، وهُوَ يَمُرُّ مَرّاً سَرِيْعاً، لا يَتَوَقَّفُ ولا يُدْرَكُ وَلَوْ طَلَبْتَهُ بِخَيْلٍ عِتَاقٍ سِرَاعٍ، قَوِيَّاتِ الحَوَافِرِ. فإذا مَرَّ، لَمْ يَعُدْ، بَلْ أَتَى بَعْدَهُ مِثْلُهُ ونَظِيْرُهُ فِي المرُورِ والسُّرْعةِ واشْتِمالِهِ عَلَى العَوَالِمِ؛ وما الأوْقاتُ في حَقِيْقَةِ الأمْرِ إلّا ما

---

(1) (ديوانه، ص٦٦).

(2) (ديوانه، ص٤٢٢).

مَضَى وما هُوَ آتٍ)[١]. وحَتَّى الإلَهُ عِنْدَ أبي العلاء لا يُمْكِنُ القَوْلُ بِوُجودِهِ خارِجَ الزَّمانِ. وهَذا المعْنَى مُتَأَصِّلٌ في أمْثالِ هَذا البَيْتِ مِنْ أبْياتِ اللُّزُومِ:

مَكَانٌ ودَهْرٌ أحْرَزا كُلَّ مُدْرَكٍ ... وما لَهُما لَوْنٌ يُحَسُّ ولا حَجْمُ

(أيْ أنَّ الزَّمانَ والمكانَ كِلاهُما اشْتَمَلا عَلَى كُلِّ المدْرَكاتِ، ولَكِنَّهُما لا يُدْرَكانِ، لا بِلَوْنٍ ولا بِحَجْمٍ)[٢]. وكَمَا ذَكَرْنا لَكَ مِنْ قَبْلُ في بَعْضِ أجْزاءِ هَذا الكِتابِ، أنَّ أبا العلاء أعادَ هَذا المعْنَى في رِسالةِ الغُفْرانِ، وزَعَمَ لَهُ أَصالَةً. وأمَّا نَحْنُ فَيَبْدُو لَنا أنَّ نَظْرَةَ شاعِرِنا هَذِهِ قَدِ انْطَوَتْ عَلَى مَسْحَةِ حَداثةٍ مُلْفِتَةٍ لِلنَّظَرِ. فَلَرُبَّما قَصَدَ أبو العلاء أنْ يَقُوْلَ إنَّ الزَّمَنَ قِيمَةٌ عَقْلِيَّةٌ نِسْبِيَّةٌ لا تَنْفَكُّ عَنِ الشَّيْءِ الذِي نُدْرِكُهُ. أوْ لَعَلَّهُ عَنَى أنْ يَقُوْلَ إنَّ الزَّمَنَ هُوَ اللَّحْظَةُ الآنِيَّةُ حَقّاً؛ ومَا الماضِي إلَّا مُسْتَقْبَلٌ آتٍ. وهَذِهِ الفِكْرَةُ عَنْ الزَّمَنِ قَدْ خَرَجَتْ عَلَى الفِكْرَةِ العامَّةِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ النَّاس أنَّ الزَّمَنَ ظاهِرَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ ناشِئَةٌ عَنْ دَورانِ الأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ وحَرَكاتِ الكَواكِبِ السَّيَّارَةِ والنُّجُومِ عُمُوماً. فَعِنْدَ أبي العلاء تُوْجَدُ دَائِماً لَحْظَةٌ آنِيَّةٌ تَحْتَوِي كُلَّ الأَشْياءِ والأَكْوانِ بِمَا فِيها الإلَهُ؛ وفِكْرَةُ الإدْراكِ عِنْدَ أبي العلاء تَسْتَلْزِمُ فِكْرَةِ الزَّمَنِ لِأَنَّها تَقُوْمُ عَلَيْهِ؛ ولِذَلِكَ فالزَّمانُ أَبَدِيٌّ وقَدِيْمٌ قِدَمَ الإلَهِ[٣]. ولَيْتَ أبا العلاء كانَ شَرَحَ نَظْرَتَهُ هَذِهِ وفَسَّرَها، إذَنْ لَكانَ قَدْ تَخِذَ مَكانَهُ بَيْنَ

---

(١) لَمْ يَرِدْ هذا الشَّرْحُ في أصْلِ هذا الكِتابِ. (المترجم).

(٢) يُشِيرُ أبو العلاء بِاللَّوْنِ والحَجْمِ هُنا إلى المعْرُوفِ عِنْدَ المناطِقَةِ والفَلاسِفَةِ، فالحَجْمُ مُرادٌ بِهِ الجِرْمُ أوِ الذَّاتِ أو المادَّةِ، واللَّوْنُ يُرَادُ بِهِ العَرَضُ وهُوَ ما لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهُ إلاَّ إذا قامَ بالجِرْمِ أوِ المادةِ كالألْوَانِ والشَّجاعَةِ والكَرَمِ والصِّدْقِ. (المترجم).

(٣) انظُرْ قَوْلَه فِي اللزوم، ج٢، ص١٧٩:

قُلْتُمْ لَنا خالِقٌ حَكِيْمٌ ... قُلْنا صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوْهُ بِلا زَمَانٍ ... ولا مَكانٍ أَلَا فَقُولُوا
هذا كَلامٌ لَهُ خَبِيءٌ ... مَعْناهُ لَيْسَتْ لَنا عُقُولُ

كِبارِ فلاسِفَةِ المسْلِمِيْنَ؛ ولَكِنَّهُ بَدَلاً عَنْ ذلك آثَرَ عَلَى الأَغْلَبِ أنْ يَسْتَخْدِمَ لُغَةَ الشِّعْرِ القائِمَةَ عَلَى المجازِ والكِنَايةِ واخْتَارَ أنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الزَّمَنِ عَلَى أنَّهُ رَمْزٌ لِلْقَدَرِ ولِلْحُظُوظِ ولِلدُّنيا ولِلْحَياةِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ العُمُومِ والإطْلاقِ. وتَحْمِلُ صُوَرُهُ شَبَهاً عَظِيْماً مِنْ صُوَرِ شِكْسبِيْرَ[1]. وهَاكَ أَمْثِلَةً على ما نَجِدُهُ في أعْمالِ شِكْسبِيْرَ إذْ يَقُوْلُ عَنِ الزَّمَنِ إنَّهُ:

١- (مُتَسَوِّلٌ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ وَفْضَةً يَضَعُ فِيْها أشْيَاءً لِلنِّسْيانِ).

٢- (إنَّهُ مَخْلُوقٌ مِسْخُ الخِلْقَةِ يَهُولُ جُحُوداً ونُكْراناً).

ويُدَلِّلُ شِكْسبِيْرُ عَلَى هَذَا المعْنَى في (يُولْيُوس قَيْصَر) بِأَبْياتِهِ التي سَارَتْ كُلَّ مَسِيْرٍ[2]:

The evil that men do lives after them,
The good is often interred with their bones.

وتَرْجَمَةُ هَذَا الشِّعْرِ عَلَى التَّقْرِيب:

=ولَكِنَّ الغَزَاليَّ يَرى أنَّ الزَّمَنَ شيءٌ نِسْبِيٌّ بَدَأَ بِبِدَايةِ العالَمِ. انظُرْ (تَهافُت الفلاسفةِ)،بَيْرُوت ١٩٢٧، تَحْقِيقُ مُورِيْس بُويِْج، جَمْعِيَّة عِيْسى ص٥٢، ٥٣..الخ).

([1]) كأنَّ العلَّامةَ عبد الله الطَّيِّب هُنا يُشِيْرُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بِاعتقادٍ لَهُ أنَّ شِكْسبِيْرَ (١٥٦٤-١٦١٦م) أخَذَ مَعَانِيَهُ التي ذَكَرَها هُنا مِنْ أشْعارِ أبي العلاءِ ونَثْرِهِ، وإلَّا فَكَيْفَ تَحْمِلُ صُوَرُ أبي العلاء (٩٧٣-١٠٥٨م) شَبَهاً (عَظِيْماً) مِنْ صُوَرِ شِكْسبِيْرَ؟ ألَمْ يَكُنْ أبو العلاء مَثارَ اهْتِمامِ مُفَكِّري الغَرْبِ وأُدَبائِهِ حَتَّى لَقَدْ تَرْجَمُوا أعْمَالَهُ إلى لُغَاتِهِمْ في أوْقاتٍ مُبَكِّرَةٍ ؟ أَلَمْ يَسْتَلْهِمْ دَانْتِي أَلِيْغِيْرِى الإيْطالِيُّ (١٢٦٥-١٣٢١م) أحَدُ أعْمِدَةِ النَّهْضَةِ الأوْرُبِّيَّةِ كُومِيْدِياهُ الإلَهِيَّةَ مِنْ رِسَالَةِ الغُفْرانِ؟ أم هُوَ الخاطِرُ عَلَى الخاطِرِ ووَقْعُ الحافِرِ عَلَى الحافِرِ، كَما يَقُولُونَ؛ ولَهِيَ قَوْلةٌ قَلَّما آمَنَ بِها عبد الله الطَّيِّب في مِثْلِ هَذِهِ المواطِنِ، كَما تَشْهَدُ كَثِيرٌ مِنْ دِراساتِهِ الأَدَبِيَّةِ. وكَأنِّي بِعَبْد الله الطَّيِّب لَمْ يَشَأْ أنْ يُصَرِّحَ بِهَذا الاعْتِقادِ-إنْ صَحَّ عَنْهُ- آنَئِذٍ إذْ كان ذلِكَ سَيُدْخِلُهُ في دائِرَةٍ جَدَلِيَّةٍ وَاسِعَةٍ بِحُكْمِ قَوَاعِدِ البَحْثِ العِلْمِيِّ يَضِيْقُ عَنْها سِيَاقُ دِراستِهِ، وتُخْرِجُهُ عَنْ مَوْضُوعِها، فاكْتَفَى بِالإشارةِ عَنِ العِبارةِ، واستَغْنَى بِالتَّلْمِيْحِ عَنِ التصْريحِ فَقَالَ، وتَعَمَّدَ أنْ يَعْكِسَ الأمْرَ: (تَحْمِلُ صُوَرُ أبي العلاء شَبَهاً عَظِيْماً)؛ فأبُو العلاء مُتَقَدِّمٌ في الزَّمانِ عَلَى شِكْسبِيْرَ كما تَرى. ولَعَلَّهُ لَوْ كانَ المؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَرْجَمَ كِتابَهُ هذا أوْ تُرْجِمَ في حَيَاتِهِ لَصَرَّحَ بِذَلِكَ وكَشَفَ عَنْهُ، إذا صَحَّ ظَنُّنا هَذا، واللهُ أعْلَمُ. ومَعَ ذَلِكَ عَلَى فَعَلَيْنا أنْ نَذْكُرَ هُنا أنَّ مِثْلَ هَذِهِ المَوْضُوعاتِ مِمَّا يُمْكِنُ أنْ يَقَعَ فِيهِ الحافِرُ عَلَى الحافِرِ؛ لا سِيَّما أنَّها دائِماً مَثارُ اهْتِمامِ أهْلِ النَّظَرِ والفِكْرِ في كُلِّ العُصُورِ والأُمَمِ، ما لَمْ يَثْبُتْ خِلافُ هَذَا. (التَّرْجُمان).

([2]) يوليوس قَيْصَر، الفصل الثالث، المشهد ٣ من كلامِ أنطُوْنيُوس. (التَّرْجُمان).

تَبْقَى شُرُورُ النَّاسِ بَعْدَ فَنائِهِمْ

فهْيَ فينا تَدُوْمْ

ولَكِنْ صَنِيعُ الخَيْرِ مِنْهُمْ

يُعفِّيهِ الفَناءُ مَعَ الرَّمِيْمْ[1]

فَهذا الشِّعْرُ مِنْ شِكْسبِيْرَ يُشْبِهُ قَوْلَ أَبِي العلاءِ:

والشَّرُّ يُنْشَرُ بَعْدَ الخيْرِ مَيِّتُهُ   كما أصابَ عُمَيْراً ما جَنَى ضابِي[2]

٣- رَامٍ يُنَكِّلُ بِضَحاياهُ (وهُمُ النَّاسُ) يَرْمِيْهِمْ بِمَقَالِيْعِهِ وأَسْهُمِهِ فَيُصْمِيَهِمْ[3].

٤- جَلَّادٌ يَجْلِدُ الناسَ بِسَوْطِهِ[4].

عَلَى حِيْنِ نَقْرأُ فِي اللُّزُومِ أنَّ الزَّمانَ:

١. شاعِرٌ هَجَّاءٌ يهْجُو النَّاسَ جَمِيْعاً:

---

(1) قَدْ تَرْجَمْتُ هَذا الكَلامَ مِنْ شِكْسبِيْرَ شِعْراً فَقُلْتُ :

تَبْقَى الشُّرُورُ طَوِيْلاً، لا تُدَانِيْها   أيْدِي الفَناءِ التي أوْدَتْ بِدَانِيْها

والخَيْرُ يَصْحَبُ أَهْلِيْهِ إذا دَرَجُوا   تَطْوِيْهِ أرْضٌ ثَوَتْ أجْسَادُهُمْ فِيها

(التُّرْجُمان).

(2) قد مَرَّ هذا البَيْتُ، وخَبَرُهُ أنَّ عُمَيْراً هذا قَتَلَهُ الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ بِجَرِيرةٍ جرَّها أَبُوهُ ضابِئٌ البُرْجُمِيُّ التَّمِيْمِيُّ أيَّامَ عُثْمانَ ابْنِ عفَّانَ، وكانَ عثمانُ حَبَسَ أَبَاهُ وهو شَيْخٌ، فَيَذْكُرُونَ أنَّ عُمَيْراً لِذَلِكَ شارَكَ فِي قَتْلِ عثمانَ يَوْمَ الدَّارِ، وهُوَ القائِلُ:

هَمَمْتُ ولَمْ أفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي   تَرَكْتُ عَلَى عُثْمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

فِي أخْبارٍ تَسْتَطِيلُ لِعُمَيرِ بْنِ ضابِئٍ لاخْتِلافٍ في الرِّوَاياتِ كَثِيرٍ.

قلتُ، وأبياتُ شكسبيرَ المذكورةُ هنا أشْبَهُ فِي المعْنَى بِقَوْلِ أبِي العلاءِ:

والخَيْرُ بَيْنَ النَّاسِ رَسْمٌ دَارِسٌ   والشَّرُّ نَهْجٌ فِي البَرِيَّةِ مُعْلَمُ

طَبْعٌ خُلِقْتَ عَلَيْهِ لَيْسَ بِزَائِلٍ   طُوْلَ الحَيَاةِ وآخَرٌ مُتَعَلَّمُ

(التُّرْجُمان).

(3) هاملت، الفصل الثالث، المشهد الأوَّل، كلامُ هامْلِت: (أكُونُ أوْ لا أكُونُ).

(4) نَفْسُهُ.

والدَّهْرُ شاعِرُ آفاتٍ يَفُوْهُ بِها   لِلنَّاسِ يَفْكُرُ تاراتٍ ويَرْتَجِلُ

٢. كائِنٌ شِرِّيرٌ يُعَذِّبُ أصْحابَهُ ويُعَذِّبُهُ أصْحَابُهُ :

صَحِبْنا دَهْرَنا دَهْراً وقِدْماً   رَأَى الفُضَلاءُ أنْ لا يَصْحَبُوهُ

فَعَذَّبَ ساكِنِيْهِ وعَذَّبُوهُ   وغِيْظَ بِهِ بَنُوهُ وغِيْظَ مِنهُمْ

٣. جِهَةٌ تَتَّصِفُ بِالإفْلاسِ والتَّفْلِيْسِ:

نُطالِبُ الدَّهْرَ بِالأحْرَارِ وهْوَ لَنا   مُبِيْنُ عُذْرَيْنِ: إفلاسٍ وتَفْلِيْسِ

٤. بَحْرٌ يَرْكَبُهُ النَّاسُ مُسافِرِيْنَ:

تَسِيْرُ بِنا هَذِي اللَّيالِي كَأنَّها   سَفائِنُ بَحْرٍ ما لَهُنَّ مَراسِ

كأنَّا في السَّفَائِنِ عائِمَاتٍ   وعِنْدَ الموْتِ أُلْقِيَتِ المَرَاسِي

رَكِبْنَا عَلَى الأعْمَارِ والدَّهْرُ لُجَّةٌ   فَمَا صَبرَتْ لِلَمَوْجِ تِلْكَ السَّفَائِنُ

٥. شَيْخٌ يَفَنُّ:

إنْ خرِفَ الدَّهْرُ فَهْوَ شَيْخٌ   يَحِقُّ بِالهتْرِ والزَّمَانَهْ

٦. غَرِيْبٌ أعْجَمُ:

أعْجَمُ قَدْ بَيَّنَ الرَّزَايا   أوْ جَعَلَ الشَّرَّ تَرْجُمَانَهْ

ولَعَلَّ مِنَ الطَّرِيْفِ أنْ نُلاحِظَ أنَّ المتَنبِّي لا يَقِلُّ عَنْ شاعِرِنا عَداوَةً لِلزَّمَانِ، وذَلِكَ في الاسْتِعاراتِ التي جاءَ لَهُ بِها في الأَجْزاءِ الشَّخْصِيَّةِ أوِ الذَّاتِيَّةِ مِنْ أشْعارِهِ. فالزَّمانُ عِنْدَ المتنبِّي:

- صَاحِبٌ لا يَفِي لِأَصْحابِهِ، يُؤْذِيْهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَسُرُّهُم[١]:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنا ذا الزَّمَانَا   وعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ ما عَنَانا

- عَدوٌّ لِكِرَامِ النَّاسِ[٢]:

أَفاضِلُ النَّاسِ أغْرَاضٌ لَدَى الزَّمَنِ   يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أخْلَاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

- ماسِخٌ يَغْتذِي عَلَى جُوْعِ الناس، ويَرْوَى على ظَمَئِهِم[٣]:

عَرَفْتُ اللَّيالِي قَبْلَ ما صَنَعَتْ بِنا   فَلَمَّا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِي بِها عِلْمَا

مَنَافِعُها ما ضَرَّ فِي نَفْعِ غيْرِها   تَغَذَّى وتَرْوَى أنْ تَجُوعَ وأنْ تَظْمَا

- صيَّادٌ أَبَداً وَرَاءَ طَرَائِدِهِ مِنَ النَّاسِ[٤]:

قَدْ كانَ قاسَمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُما   وعاشَ دُرُّهُما المفْدِيُّ بِالذَّهَبِ

وعادَ فِي طَلَبِ المتْرُوكِ تارِكُهُ   إنَّا لَنَغْفُلُ والأيَّامُ فِي الطَّلَبِ

وغَيْرُ هَذِهِ النَّظْرَاتِ مِنَ المتَنَبِّي فِي الزَّمانِ كَثِيرٌ.

فَهَذا التَّشابُهُ، عَلَى نَحْوِ ما سَنَرَى بَعْدُ، مَحْضُ تَصادُفٍ عَلَى غَيْرِ اتِّفَاقٍ؛ لِأَنَّ شِعْرَ أبي العلاءِ إلى حَدٍّ ما دُوْنَ شِعْرِ المتَنبِّي هُنا، وإنْ كانَ أَشَدَّ تَعَمُّقاً فِي الفِكْرِ ويَكْشِفُ عَنْ شَخْصِيَّةٍ أعْلى نُبْلاً.

---

[١] (ديوانه، ص٤٧٠).

[٢] (نفسه، ١٥٥).

[٣] (نفسه، ١٦٠).

[٤] (نفسه، ٤٢٥).

وكثيراً ما يُقَسِّمُ أبو العلاء الزَّمَنَ إلى عامِلِيْنِ رَمْزِيَّيْنِ من اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ فَيُطْلِقُ عَلَيْهما ألفاظاً نَحْوَ (اللَّيالي)، و(الأيَّامَ)، و(الجَدِيْدَينِ)، و(الفَتَيَيْنِ). فَفِي إِحْدَى قصائِدِهِ[1] يُسَمِّي الوَقْتَ (فَتَيَينِ) يَصِفُهُما بِأَنَّهُما يَحْكُمَانِ العالَمَ بِتَعَاقُبٍ بَيْنَهُما لا يَنْقَضِي، ولا يَصِحُّ وَصْفُهُما بِعَدْلٍ ولا جَوْرٍ، لِأَنَّهُ لا عَقْلَ لَهُما؛ فَهُما يَسْلُبانِ الأَغْنِيَاءَ غِناهُمْ ويُنْزِلانِ الفِرْسَانَ عَنْ ظُهُورِ أَفْرَاسِهِمْ أَمْوَاتاً أَوْ أَسْرَى؛ وَكَم حَلَّا في المَهَامِهِ القِفارِ يُقِيْمَانِ في نَجْدِها ووَهْدِها ثُمَّ يَرْتَحِلانِ عَنْها دُونَ أَنْ يُسْمَعَ لَهُما صَوْتٌ؛ وهُما بَتَوالِيْهِما عَلَى الأَحْياءِ يَبْرِيانِ العَظْمَ ويَأْخُذَانِ اللَّحْمَ ويُفْسِدانِ الجِلْدَ؛ أيْ يُبْلِيانِ الجَسَدَ البَشَرِيَّ بِمُرُورِهِما؛ وما يَزالانِ يَهْدُرانِ فِيْنا كالفَحْلَيْنِ هَدِيراً لَوْ أُزِيلَ عَنْهُ الغِطاءُ لَتَكَشَّفَ عَنْ وَعِيدٍ وتَهْدِيدٍ؛ وعَلَى ما بِهِما مِنْ خَرَسٍ وبَكَمٍ فإِنَّهُما لا يَزالانِ يَقُصَّانِ عَلَيْنا العِبَرَ نُطْقاً فَصِيحاً أَوْ رَسْماً مَكْتُوباً؛ ولا يَزالانِ شاهِرَيْنِ سَيْفَيْهِما (الشَّمْسَ والقَمَرَ) في كُلِّ قَوْمٍ، يَقْتُلانِهِمْ بِهِما أَوْ يَجْرَحانِهِم:

هُما الفَتَيَانِ اسْتَوْلَيا بِتَعاقُبٍ ... ومالَهُما لُبٌّ فَكَيْفَ يَشِطَّانِ

وَكَمْ غَنِيٍّ يَسْلُبانِ مِنَ الغِنَى ... وَكُلَّ كَمِيٍّ عَنْ جَوَادٍ يَحُطَّانِ

وَكَمْ نَزَلا في مَهْمَهٍ وتَحَمَّلا ... بِغَيْرِ حَسِيْسٍ عَنْ جِبالٍ وغِيْطانِ

وما حَمَلا رَحْلَيْنِ طَوْراً فَيُؤْنِسا ... إذا حفَزَ الوَشْكُ الرِّحالَ يَئِطَّانِ

ويَبْتَرِيانِ العَظْمَ والنَّحْضَ دَائِباً ... لِيَنْتَقِياهُ والأَدِيْمَ يَعُطَّانِ

وقَدْ خَطَرَا فَحْلَيْنِ لَوْ زَالَ عَنْهُما ... غِطَاءٌ لَكانا بالوَعِيْدِ يَغِطَّانِ

وما بَرِحا والصَّمْتُ مِنْ شِيْمَتَيْهِما ... يَقُصَّانِ فِيْنا عِبْرَةً أَوْ يَخُطَّانِ

وقَدْ شَهَرَا سَيْفَيْنِ في كُلِّ مَعْشَرٍ ... يَقُدَّانِ ما هَمَّا بِهِ أو يَقُطَّانِ

---

(1) (اللزوم، ج٢، ص٣٥٩).

وفي قَصِيْدَةٍ أُخرَى يَتَحدَّثُ أبو العلاء عَنْ نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ نَبْتٌ أَوْ عُشْبٌ يَحُشُّهُ اللَّيْلُ والنَّهارُ بَعْدَ أَنْ نَفَدَ زادُهُما؛ فَهُما أعْرابِيَّانِ بَدوِيَّانِ مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ تَعَرَّضا طَرِيْقَهُ فَسَلَباهُ ثَوْبَ شَبابِهِ بَعْد أَنْ غَلَبَاهُ عَلَيْهِ لِقُوَّتِهما؛ وعَزَّاهُ في ذَلِكَ أَنَّهُما أَنْزَلا بِغَيْرِهِ ما أَنْزَلاهُ بِهِ فاسْتَوَى النَّاسُ عِنْدَهُما. يَقُولُ: (وقَدْ نَزَلا بِي ضَيْفاً ولَكِنَّهُما لَمْ يأْكُلا زَادِي بَلْ أَكَلْتُهُ أنا ولَمْ يَرْضَيا مِنِّي إلَّا نَفْسِيَ زاداً لَهُما أيْ هَلاكِي؛ فَكَيْفَ لِي أنْ أَبْخَلَ عَلَى ضَيْفِي بِتَقْدِيمِ الطَّعَامِ والزَّادِ ولَوْ كانَ نَفْسِي؛ فَذَلِكَ يَكُونُ مَسَبَّةً وعاراً). ثُمَّ يَتَرَفَّعُ الشَّاعِرُ عَنِ الانْفِعالاتِ العاطِفِيَّةِ فَلَيْسَ ما يُضْنِي قَلْبَهُ البُرُوقُ؛ ولَيْسَ لَمْعُها مِمَّا يَهِيْجُ شَجِيَّ الذِّكْرَياتِ ولا الشَّوْقُ إلى رَبَّاتِ الحِجَالِ وكَنِيناتِ الخُدُورِ مِنْ نِسَاءِ القَبائِلِ (قَبِيلَةِ هِزَّان)، بَلْ ما يُضْنِي قَلْبَهُ هُوَ ما يَعُودُ بِهِ (الفَتَيانِ) عَلَيْهِ مِنَ الأَذَى عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ وذَلِكَ بِشَهْرِهِما أَسْيافَ المَوْتِ في وَجْهِهِ يُذَكِّرانِهِ قُرْبَ الأَجَلِ وحَتْمِيَّةَ المَوْتِ. وما عَزَّ هَذانِ الفَتَيانِ فَغَلَبَا إلَّا بِقُوَّةِ اللهِ؛ فَيُذِلَّانِ بِأَمْرِهِ ويُعِزَّانِ؛ وكَمْ فَتَكا دُونَ أَنْ يَشْعُرا بِسُكَّانِ الأَرْضِ جَمِيْعاً، مَنْ سَكَنَ مِنهُمْ نَجْدَها أَوْ وهْدَها أَوْ هَضْبَها؛ أَوْ كَمَا قالَ:

كأَنِّيَ نَبْتٌ مَرَّ يَوْمٌ ولَيْلَةٌ ... عَلَيَّ وكانا مُنْفِضَيْنِ فَجَزَّانِي

هُما بَدَوِيَّانِ، الطَّرِيْقَ تَعَرَّضَا ... وبُرْدَيَّ مِنْ نَسجِ الشَّبِيْبَةِ بَزَّانِي

قَوِيَّانِ عَزَّانِي عَلَيْهِ فَأَوْقَعَا ... بِغَيْرِيَ ما بِي أَوْقَعَاهُ فَعَزَّانِي

وما ضَيَّقا أرْضِي ولَكِنْ أَرَاهُما ... إلى الضَّنْكِ مِنْ وَجْهِ البَسِيْطَةِ لَزَّانِي

وما أَكلا زادِي ولَكِنْ أَكَلْتُهُ ... وقَدْ نَبَّهانِي لِلسُّرَى واسْتَفَزَّانِي

ولَمْ يَرْضَيا إلَّا بِنَفْسِي مِنَ القِرَى ... ولَوْ صُنْتُهُ عَنْ طارِقَيَّ لَأَخْزانِي

وما هاجَ ذِكْرَى بارِقٌ نَحْوَ بارِقٍ ... ولا هَزَّنِي شَوْقٌ لِجارَةِ هِزَّانِ

بَلِ الفَتَيَانِ اعْتادَ قَلْبِي أَذاهُما ... يَشِيْمانِ أَسْيافَ الرَّدَى ويَهُزَّانِ

عَزِيْزَانِ بِاللهِ الذِي لَيْسَ مِثْلَهُ ... يُذِلَّانِ فِي مِقْدارِهِ ويُعِزَّانِ

وَكَمْ فَتَكا والجِسُّ قَدْ بانَ عَنْهُما ... بِأَهْلِ وُهُودٍ أَوْ جِبالٍ وحِزَّانِ

وفي اللُّزُومِ، بَعْدُ، كَثِيرٌ مِنَ القَصائِدِ عَنِ الزَّمانِ أوِ الدَّهْرِ غَنِيَّةٍ بِالتَّشْبِيهاتِ والاسْتِعاراتِ والتَّأنُّقِ اللَّفْظِيِّ والشَّاعِرِيَّةِ الخِصْبَةِ. فَفِي فَصْلِ (النُّوْنِ) وَحْدَهُ أرْبَعٌ مِنْ هَذِهِ القصائِدِ يُمْكِنُ أنْ تُعَدَّ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ كُلِّهِ[1].

إنَّ كُلّاً مِنَ الدَّهْرِ والقَدَرِ والمَوْتِ وسائِرِ وُجُوهِ الحَيَاةِ يَرْمُزُ إلَيْها أبو العلاء في اللُّزُومِ ويَكْنِي عَنْها بِكَلِمةِ (الدُّنْيا) أوْ، كَمَا يُسَمِّيها، (أُمُّ دَفْرٍ) (أوْ قَرارَةُ القَذارةِ). وذَمُّ الدُّنيا هُوَ المَوْضُوعُ الغِنائِيُّ الرَّئِيْسُ في اللُّزُومِ؛ إذْ جاءَ فِيهِ أبو العلاء بِأَجْزَلِ أبْيَاتِهِ في الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ، مَعْنَىً وعِبَارةً ورَسَمَ فِيهِ أكْثَرَ صُوَرِهِ تَعْبِيراً، فالدُّنيا عِنْدَهُ:

١- امْرَأَةٌ مَشْغُولَةٌ بِوَلِيدِها عَنْ إجابَةِ عُشَّاقِها.

٢- ناقةٌ تَزْبِنُ النَّاسَ، أوْ تَدْفَعُهُمْ عَنْ دَرِّها.

٣- بَغِيٌّ خَوَّانَةٌ.

٤- خَطِيْبٌ بَلِيْغٌ يَتَكَلَّمُ لُغَاتٍ عَدِيدَةً ولَكِنَّهُ لا يَفُوهُ بِكَلِمةِ خَيْرٍ.

٥- امْرَأَةٌ مُتَجَبِّرَةٌ تُسِيءُ مَعامَلَةَ خَدَمِها.

٦- دَارٌ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُطارِدُ ضَوَارِيها أَرانِبَها.

٧- مَأْوَى خُبْثٍ يُقِيْمُ فِيهِ أَوْغادٌ لِئامٌ.

٨- خَطٌّ مُعْوَجٌّ، لا يَسْتَقِيْمُ قَطُّ.

٩- دَارٌ غَرَّارةٌ أَشْبَهُ بِرقْعَةِ شِطْرَنْجَ تُيَسِّرُ لِلبَيدَقِ الفَتْكَ بِالمَلِكَةِ.

١٠- طُوْفَانٌ غَمْرٌ مِنَ القَذَارةِ والأَدْنَاسِ[2].

ويَصِفُ شاعِرُنا خِيَانَةَ الدُّنْيا وغَدْرَها في قَصِيْدَتِهِ الهائِيَّةِ الرَّائِعَةِ[1]:

---

(١) انظُرْهُنَّ في الجزء الثاني، الصفحات ٣٥٩، و٣٦١، و٣٦٦، و٣٦٨.

(٢) انظُرْ لِهَذِهِ المعانِي ابْتِدَاءً مِنَ الرَّقْمِ ١إلى١٠ الصَّفْحاتِ ج١، ص٨٣، وج٢، ص٣٨٥، وص٤٠٠؛ وج١، ص٨٣؛ وج٢، ص٢٠٢؛ ص٣٨١، وج، ص٢٩٩، وج٢، ص٢١، وج٢، ص٣٨١، وج٢، ص٤١ .

(مَتَى ما أغنَتِ الدُّنْيا فَقِيْراً اسْتَعْبَدَتْهُ؛ وإنْ خِيْفَ شَرُّها عَجَّلَتْ بِهِ، أوْ رُجِّيَ خَيْرُها مَطَلَتْ بِهِ وأَبْطأَتْ؛ وهِيَ ذَاتُ مَكْرٍ وغَدْرٍ جَعَلَتْ مِنْ نَفْسِها شَرَكاً تَتَصَيَّدُ بِهِ أنْفُسَ الأَنِيْسِ؛ وأنا أنْظُرُ إلَى أسْهُمِها الفاجِعَةِ تُرْسِلُها إلَيْنا أوْ تُعِدُّها؛ فَلْيَحْذَرْ مِنْ حِيَلِها اللَّبِيْبُ العَاقِلُ مَهْما عادَتْ عَلَيْهِ بِالزِّيْنَةِ أوِ الثَّرَاءِ؛ وقَدْ تَعَلَّقَ بِها ابْنُ أُمِّكَ مُنْذُ صِباهُ ولَكِنَّهُ كانَ فِي ذَلِكَ كَمَنْ أحَبَّ امْرَأَةً كارِهةً لِزَوْجِها فَلَنْ تُوادَّهُ قَطُّ[2]؛

(وسَتُلْقَى آمَالَهُ بِالوُعُودِ الكاذِبَةِ؛ ولَنْ تَزالَ بِهِ هَكَذا حَتَّى تُخْلِفَ ظَنَّهُ وتُسْلِمَهُ إلى البِلَى؛ يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ لِأَجْلِها، ولَكِنَّها تَخْذُلُهُ فَيَعُودُ حَزِيناً قَدْ أَسِفَ لِطَلاقِهِ زَوْجَتَهُ؛ وتَعُوْدُ عَلَيْهِ نَهاراً بِالتَّعَبِ والنَّصَبِ ولَيْلاً بِالشَّكْوَى والأَرَقِ؛ وقَدْ أقَامَتْ عُمُرَهُ كُلَّهُ تُجَرِّعُهُ كُؤُوسَ المرارَةِ والحَنْظَلِ والسُّمُومِ؛ ثُمَّ جَعَلَتْ آخِرَ هَذِهِ الكُؤُوسِ كَأْسَ المنِيَّةِ؛ فَهِيَ لَمْ تُعْطِهِ صِحَّةً بَلْ مَرَضاً وهَلاكاً، ولَمْ تَهَبْهُ مَجْداً بَلْ جَعَلَتْ مَصِيرَ عِظامِهِ المِلْحَ عَظْماً عَظْماً؛

(فَنَحْنُ نَبْكِي عَلَى مَنْ نَدْفِنُهُ، وكانَ أحْرَى بِنا أَلَّا نَبْكِيَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ بِمَوْتِهِ يَكُوْنُ قَدْ تَحَرَّرَ مِنْها بَعْدَ أنْ كانَ مُسْتَرَقّاً عِنْدَها؛ إنَّها عَجُوزٌ خائِنَةٌ، حَضَنَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا كالوَلِيْدِ الصَّغِيْرِ وجَعَلَتْ تَسْقِيْهِ كَرْهاً فَيَغَصُّ بِمَا تَسْقِيْهِ ويَشْرَقُ بِهِ؛ ثُمَّ أطْمَعَتْهُ وشَهَّتْهُ بِأَنْ أذاقَتْهُ

---

(١) الجزء ٢، ص ٤٠٠.

(٢) كَرَاهِيَةُ المرْأَةِ زَوْجَها تُعْرَفُ بِالفَرْكِ، فَهِيَ فارِكٌ، بِلا تاءٍ، وفَرُوكٌ، وقَرَّرَ الجَوْهَرِيُّ في صِحاحِهِ أنَّ هذا الحَرْفَ لَم يُسْمَعْ في غَيْرِ الزَّوْجَيْنِ. وأرى أنَّ السَّبَبَ في ذَلِكَ هو قُرْبُ مَخْرَجِ الكافِ مِنْ مَخْرَجِ القافِ، لِيَشْمَلَ مَعْنَى الفَرْكِ مَعْنَى الفَرْقِ أو الفِراقِ، ولكنَّ دَلالَةَ الكافِ أقْرَبُ إلى مَعْنَى التَّقْرِيرِ والثَّباتِ، لأنَّ المفارقَةَ قَدْ تَكونُ لأسبابٍ عارِضَةٍ، لكنَّ المفاركةَ أسبابُها غَيْرُ مُتحوِّلَةٍ، كأنْ تكونَ تَوْطِيناً نَفْسِيّاً كما هُنا، أو لِعِلْمٍ يَقِينِيٍّ كَقَوْلِ عَبْدِ قَيْسِ بْنِ خُفافٍ البُرْجُمِيِّ يُوصِي ابْنَهُ جُبَيْلاً، مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ مُفَضَّلِيَّةٍ:

أَجُبَيْلُ إنَّ أباكَ كارِبَ يَوْمُهُ   فإذا دُعِيْتَ إلى العظائِمِ فاعْجَلِ

فَقَدْ قالَ كارِبَ ويَعْنِي بِها قارَبَ، فانْظُرْ كَيْفَ استخدَمَ هذا الحَرْفَ هنا لِمَقامٍ يَقِينِيَّةِ اقْتِرابِ يَوْمِ الموْتِ وحَتْمِيَّتِهِ ويَذْكُرُونَ أنَّ المرْأَةَ إذا فَرِكَتْ زَوْجَها لَمْ تَعُدْ إلى حُبِّهِ أبداً؛ قالَ المتَنَبِّي، وهُوَ مِنْ أعْلَمِ الناسِ بِطَبِيعَةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ:

وإنْ عَشِقَتْ كانَتْ أشَدَّ صَبابَةً   وإنْ فَرِكَتْ فاذْهَبْ فما فَرْكُها قَصْدُ

أيْ تَتَعَمَّقُ فِيها الكَراهِيَةُ، فَلَيْسَتْ تَقْتَصِدُ فِيها (التُّرْجُمان).

مِنْ حَلاوَتِها ثُمَّ صَرَفَتْ فَمَهُ عَنْها حِرْماناً، وماتَزالُ هَكَذا تُشَوِّقُهُ بِسُوءِ الطَّبْعِ لِيَظَلَّ يَشْقَى بِعَذابِ تَشَوُّقِهِ؛ لَقَدْ طالَ أذاها الصَّخْرَ فَهَدَّتْهُ وخاضَتِ الصَّفاءَ فَرَدَّتْهُ كَدَراً؛ وقَدْ جَعَلَتْ مِنَ الموْتِ أحَدَ جُنودِها فَفَرَّقَتْ بِهِ الكَتائِبَ والجُمُوعَ المتَماسِكَةَ وبَدَّدَتْ شَمْلَ كُلِّ مُؤتَلِفٍ؛ ولَقَدْ قَضَتْ دَيْنَ ابْنِ آمنةٍ [مُحَمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ]، واعْتَلَتْ إيْوانَ ابْنِ هُرْمُزَ، مَلِكِ الفُرْسِ كِسْرَى فَخَلَعَتْ ما كانَتْ ألَبسَتْهُ مِنْ ثَوْبِ الشَّبابِ، وكَفَّتْ عَنْهُ النَّسِيْمَ، ثُمَّ أسْلَمَتْهُ إلى المنُونِ)؛ يَقُوْلُ أبو العلاء:

أرَى الدُّنيا وما وُصِفَتْ بِبِرٍّ   مَتَى أغْنَتْ فَقِيْراً أوْهَقَتْهُ
إذا خُشِيَتْ لِشَرٍّ عَجَّلَتْهُ   وإنْ رُجِيَتْ لِخَيْرٍ عَوَّقَتْهُ
حَيَاةٌ كالحِبَالَةِ ذَاتُ مَكْرٍ   ونَفْسُ المرْءِ صَيْدٌ أعْلَقَتْهُ
وأنْظُرُ سَهْمَها قَدْ أرْسَلَتْهُ   إلَيَّ بِنَكْبَةٍ أوْ فَوَّقَتْهُ
فَلا يُخْدَعْ بِحِيْلَتِها أرِيْبٌ   وإنْ هِيَ سَوَّرَتْهُ ونَطَّقَتْهُ
تَعَلَّقَها ابْنُ أُمِّكَ فِي صِبَاهُ   فَهَامَ بِفارِكٍ ما عُلِّقَتْهُ
أجَدَّتْ في مُناهُ وُعودَ مَيْنٍ   إلَى أنْ أخْلَفَتْهُ وأخْلَقَتْهُ
يُطلِّقُ عِرْسَهُ إنْ مَلَّ مِنْها   ويَأْسَفُ إثْرَ عِرْسٍ طَلَّقَتْهُ
أكَلَّتْهُ النَّهارَ وأنْصَبَتْهُ   وأشْكَتْهُ الظَّلامَ وأرَّقَتْهُ
سَقَتْهُ زَمانَهُ مَقِراً وصَاباً   وكَأْسُ الموْتِ آخِرُ ما سَقَتْهُ
وما عافَتْهُ لَكِنْ عَيَّفَتْهُ   وما نَتَقَتْ عُلاهُ بَلِ انْتَقَتْهُ
نُبَكِّي لِلْمُغَيَّبِ فِي ثَراهُ   وذَلِكَ مُسْتَرَقٌّ أعْتَقَتْهُ
عَجُوزُ خِيانَةٍ حَضَنَتْ وَلِيْداً   فَلَدَّتْهُ الكَرِيْهَ وشَرَّقَتْهُ
أذاقَتْهُ شَهِيّاً مِنْ جَنَاها   وصَدَّتْ فاهُ عَمَّا ذَوَّقَتْهُ
تُشَوِّقُهُ إلَيْهِ بِسُوْءِ طَبْعٍ   لِيُشْقِيَهُ عَذَابٌ شَوَّقَتْهُ
أضَرَّتْ بِالصَّفا وتَخَوَّنَتْهُ   ومَرَّتْ بِالصَّفاءِ فَرَنَّقَتْهُ

عَدَدْنا مِنْ كَتائِبِها المَنَايا وكَمْ فتَكَتْ بِجَمْعٍ فَرَّقَتْهُ

قَضَتْ دَيْنَ ابْنِ آمِنَةٍ وجازَتْ بِإِيوانِ ابْنِ هُرْمُزَ فارْتَقَتْهُ

طَوَتْ عَنْهُ النَّسِيْمَ وقَدْ حَبَتْهُ وحَيَّتْهُ بِنَوْرٍ فَتَّقَتْهُ

كَسَتْهُ شَبَابَهُ ونَضَتْهُ عَنْهُ وكَرَّتْ لِلْمَشِيبِ فَمَزَّقَتْهُ

القسم التاسع
الحكمةُ والأقوالُ المَأْثُوْرَةُ

لا تَكادُ صَفْحَةٌ مِنْ صَفْحاتِ اللُّزُومِ تَخْلُو مِنْ أبْياتِ الحِكْمَةِ وثاقِبِ الفِكْرِ والبَصَرِ بِالأُمُورِ، حَتى إنَّ المرْءَ لَيُمْكِنُهُ أنْ يَصْنَعَ كِتاباً صَغِيْراً في مَلَكَاتِ شاعِرِنا في كِتابةِ الأَمْثالِ دُوْنَ عَناءٍ. ومَعَ ذَلِكَ فَلا نَجِدُ هَذِهِ الأبْياتَ مَحَلَّ اسْتِشْهادٍ لَدَى الكُتَّابِ العَرَبِ بِالكَثْرَةِ التي يَستشهدُوْن بِها بِأبياتِ الحِكْمَةِ لَدَى المتنبِّي. وتَجِدُ العَدَدَ الأكْبَرَ مِنْ أبْياتِ أبي العلاءِ هَذِهِ لا يَعْرِفُهُ إلَّا أُوْلَئِكَ الذِيْنَ انْفَرَدُوا بِحُبِّ كِتاباتِ أبي العلاءِ. ولَرُبَّما عادَ بعْضُ سَبَبِ هذا إلى ما لَحِقَ أبا العلاءِ مِنْ بَلِيَّةٍ، هِيَ أنَّ مَنْ كانُوا يَقْرَأُوْنَ شِعْرَهُ كانُوا مَشْغُولِيْنَ بِإيْمانِهِ وعَقِيْدَتِهِ أكْثَرَ مِنْ مَقْدِرَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ وفَنِّهِ. ولَكِنَّ السَّبَبَ الأكْبَرَ يَعُوْدُ إلَى شُهْرَةِ المتنبِّي التي مَلأَتِ الدُّنْيا وشَغَلَتِ النَّاسَ. فَقَدْ ظَلَّتْ حِكَمُ المتنبِّي ومَأْثُوراتُهُ مُسَيْطِرَةً عَلَى عالَمِ الآدابِ العَرَبِيَّةِ زَمَناً طَوِيْلاً، فَلَمْ يُنافِسْهَا خِلالَ هَذِهِ الفَتْرَةِ إلَّا القَلِيْلُ النَّزْرُ مِنْ أفْضَلِ ما نَظَمَهُ مَنْ جاءُوا بَعْدَ المتنبِّي. ومِنْ هَذَا القَلِيْلِ النَّزْرِ بَعْضُ ما جاءَ في سَقْطِ زَنْدِ أبي العلاءِ، مِثْلُ:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الجَهْلَ في النَّاسِ فاشِياً ... تَجَاهَلْتُ حَتَّى خِيْلَ أنِّيَ جاهِلُ

ومِنْها حَوَالَي عَشْرَةِ أمْثلَةٍ جاءَتْ في اللُّزُومِ، وهِيَ :

أ. أُوْلُو الفَضْلِ في أوْطانِهِمْ غُرَباءُ ... تَشُذُّ وتَنْأَى عَنْهُمُ القُرَباءُ

ب. إذا صاحَبْتَ فِي أيَّامِ بُؤْسٍ ... فلا تَنْسَ المَوَدَّةَ فِي الرَّخاءِ

ج. وأَصْبَحْتُ مَعَ الدُّنْيا أُدارِيْهَا ... كَمَنْ دارَى

د. قالُوا: فُلانٌ جَيِّدٌ، لِصَدِيْقِهِ ... لا يَكْذِبُوا، ما فِي البَرِيَّةِ جَيِّدُ

هـ. كَمْ تَنْصَحُ الدُّنْيا ولا نَقْبَلُ ۝ وفائِزٌ مَنْ جَدُّهُ مُقْبِلُ

و. فَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الجَمِيْلَ لِأَنَّهُ ۝ خَيْرٌ وأَحْسَنُ لا لِأَجْلِ ثَوابِها

ز. النَّاسُ بِالنَّاسِ مِنْ حَضْرٍ وبادِيَةٍ ۝ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

ح. ويَنْشَأُ ناشِئُ الفِتْيان مِنَّا ۝ عَلَى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبُوْهُ

ط. ولَمْ أَعْرِضْ عَنِ اللَّذَّاتِ إلاَّ ۝ لِأَنَّ خِيارَها عَنِّي خَنَسْنَهْ

ي. حَياةٌ عَنَاءٌ ومَوْتٌ عَنَا ۝ فَلَيْتَ بَعِيْدَ حِمامٍ دَنَا

وبِمَا أَنَّهُ مُؤَخَّراً جِدّاً أَقَرَّ النَّاسُ بِمَزَايا أبي العلاء الفِكْرِيَّةِ، فَمِنَ الضَّرُوْرَةِ بِمَكانٍ أَلَّا يَتَجاهَلَ النُّقَّادُ المعاصِرُونَ عَبْقَرِيَّتَهُ بِوَصْفِهِ كاتِبَ أقْوالٍ مَأْثُورَةٍ ورَبَّ حِكَمٍ وأَمْثَالٍ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ في الحَقِّ مَدِينَةٌ لَهُ بِوَفْرَةٍ وافِرَةٍ وكَثْرَةٍ كاثِرَةٍ مِنْ مَأْثُورِ الأَقْوالِ والأَمْثَالِ التِي حَوَتْ حِكْمَةً بَالِغَةً وأَعْرَبَتْ عَنْ أَسْمَى المَبَادِئِ والقِيَمِ الإِنْسانِيَّةِ. وهَذِهِ الأَقْوَالُ المأْثُورَةُ والأَمْثالُ تُجْمِلُ لَنا أَهَمَّ آرَاءِ شاعِرِنا وأَفْكارِهِ التي كانَ شَدِيدَ العِنايَةِ بِها والرِّعايَةِ لَها والحِرْصِ عَلَيْها، مِمَّا يَدُورُ حَوْلَ أَهَمِّيَّةِ العَقْلِ عِنْدَهُ والتَّسَامُحِ وفَضِيلَةِ التَّوَاضُعِ والعِفَّةِ والإِحْسانِ لِكُلِّ المخْلُوقاتِ بِمَا فِيهَا الحَيْوَانُ. ولْنَأْخُذْ مِنْها هَذِهِ الاسْتِشْهَادات:

أ. أَجْدَرُ النَّاس في العَوَاقِبِ بالرَّ ۝ حْمَةِ قَوْمٌ في بَذْلِهِمْ رُحَماءُ

ب. ولَوْ أَنَّ الأَنَامَ خافُوا مِنَ العُقْـ ۝ ـبَى لَمَا جارَتْ المِيَاهَ الدِّماءُ

ج. حَيَاةٌ ومَوْتٌ وانْتِظارُ قِيَامَةٍ ۝ ثَلاثٌ أفادَتْنا أُلُوْفَ مَعَانِ

د. وساوِ لَدَيْكَ أَتْرَابَ النَّصارَى ۝ وسِرْباً مِنْ يَهُودَ ومُسْلِماتِ

فإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَوَاءٌ وإِنْ ذَكَتِ الحُرُوبُ مُضَرَّمَاتِ

هـ. ومِنْ شَرِّ البَلِيَّةِ رَبُّ مُلْكٍ يُرِيْدُ رَعِيَّةً أَنْ يَسْجُدُوا لَهْ

و. أَحْسِنْ جِوَاراً لِلْفَتاةِ وعُدَّها أُخْتَ السِّماكِ عَلَى دُنُوِّ الدَّارِ

أيْ أحْسِنْ مُعامَلَةَ المرْأَةِ زَوْجةً كانَتْ أمْ بِنْتاً أمْ أُخْتاً أمْ جارَةً وأنْزِلْها مِنْ عُلُوِّ الشَّأْنِ مَنْزِلَةَ النُّجُومِ فِي عُلاها، عَلَى قُرْبِها المكانِيِّ مِنْكَ.

ز. كَذَبَ النَّاسُ لَا إِمامَ سِوَى العَقْـ ـلِ مُشِيْراً في صُبْحِهِ والمَساءِ

أيْ ضَلَّةً لِهَؤُلاءِ النَّاسِ ما أكْذَبَهُمْ إذْ زَعُمُوا ضَرُوْرَةَ الإمامَةِ، والحَقُّ أنَّهُ لا إمَامَ لَهُمْ سِوَى هَذَا العَقْلِ يَتَعَهَّدُ صاحِبَهُ بِالمشُوْرَةِ صَبَاحَ مساءَ.

ح. ما الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُوْنَ لَهُ ولا صَلَاةٌ ولا صُوْفٌ على الجَسَدِ
إنَّما هُو تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً ونَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسَدِ

ط. سَبِّحْ وصَلِّ وطُفْ بِمَكَّةَ زائِراً سَبْعِيْنَ لا سَبْعاً فَلَسْتَ بِناسِكِ
جَهِلَ الدِّيانَةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ لَهُ أطْماعُهُ لَمْ يُلْفَ بِالمتَماسِكِ

ي. إِنَّما هَذِهِ المذَاهِبُ أَسْبَا بٌ لِجَلْبِ الدُّنْيا إِلَى الرُّؤَساءِ

ك. كَيْفَ لا يُشْرِكُ المضِيْقِيْنَ فِي النِّعْمَةِ قَوْمٌ عَلَيْهِمِ النَّعْماءُ

ل. واحْفَظْ أخاكَ وإنْ عَلِمْتَ بِأَنَّهُ بالي الوِدَادِ ضَعِيْفُهُ مُخْتَلُّهْ

م. وكَثْرَةُ المالِ جَرَّتْ لِلفَتَى أَشَراً كالذَّيْلِ عَثَّرَ عِنْدَ المشْيِ ضَافِيهِ

ن. إذا ما تَبَيَّنَّا الأُمُوْرَ تَكَشَّفَتْ لَنَا وأَمِيْرُ القَوْمِ لِلقَوْمِ خادِمُ

س. فِي النَّاسِ ذُو حِلْمٍ يُسَفِّهُ نَفْسَهُ كَيْما يُهَابُ وآخَرٌ يَتحلَّمُ
وكِلاهُما تَعِبٌ يُحَارِبُ شِيْمَةً غَلَبَتْ فَآضَ بِحَرْبِها يَتَأَلَّمُ

ع. فَهِمُ النَّاسِ كالجَهُولِ وما يَظْفَرُ إِلَّا بِالحَسْرَةِ الفُهَماءُ

أيْ ذَكِيُّ النَّاسِ مِثْلُ غَبِيِّهِمْ؛ فَهُوَ لا يَجْنِي مِنْ ذَكائِهِ هَذا إِلَّا حَسْرَةً لِأَنَّهُ سَيَطَّلِعُ عَلَى حَقَائِقِ الأُمُورِ فَتَسُوءَهُ[1].

ف. ولا تَأْخُذْ وَدائِعَ ذَاتِ رِيْشٍ فَمَالَكَ أَيُّها الإِنْسَانُ بِضِنَّهْ

ص. إذا قُلْتُ المحالَ رَفَعْتُ صَوْتِي وإِنْ قُلْتُ اليَقِيْنَ أَطَلْتُ هَمْسِي

أي إذا قُلْتُ المسْتَحِيْلَ والباطِلَ رَفَعْتُ صَوْتِي لِأَنِّي لَمْ أَخْشَ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذا الأَنَامِ؛ فَهُوَ ما يُحِبُّونَهُ ولَكِنِّي إذا قُلْتُ الحَقَّ اضْطُرِرْتُ لِلْهَمْسِ بِهِ دُوْنَ الجَهرِ؛ فهُمْ يَكْرَهُوْنَهُ ويُؤْذُونَنِي بِسَبَبِهِ.

ق. والمرْءُ يُعْيِيْهِ قَوْدُ النَّفْسِ مُصْحِبَةً لِلْخَيْرِ وهْوَ يَقُودُ العَسْكَرَ اللَّجِبَا

أيْ عَجَباً لِلنَّاسِ يَقْدِرُ المرْءُ مِنهُمْ أنْ يَقُودَ جَيْشاً جَرَّاراً مِنَ الأَنْفُسِ، ولَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَعْجِزُ أنْ يَقُودَ نَفْسَهُ إلى الخَيْرِ وهِيَ وَاحِدَةٌ.

ر. وزَهَّدَنِي فِي هَضْبَةِ المجْدِ خِبْرَتِي بِأَنَّ قَرَاراتِ الرِّجالِ وُهُودُ

أيْ مِمَّا زَهَّدَنِي فِي اعْتِلاءِ قِمَّةِ المجْدِ والشُّهْرَةِ عِلْمِي بِأَنَّ دَواخِلَ أَنْفُسِ النَّاسِ فِي أعْماقِها وُهُودٌ عَمِيقَاتُ الغَوْرِ لا تُشْبِهُ ظَواهِرَهُمْ.

---

(1) ما أقربَ هذا البَيْتِ مِنْ بَيْتِ أبي الطَّيِّبِ المتَنَبِّي:
ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وأخُو الجَهالَةِ فِي الشَّقاوَةِ يَنْعَمُ. (التُّرْجمان).

ش. خَرَجْتُ إلى ذِي الدَّارِ كُرْهاً ورِحْلَتِي إلى غَيْرِها بِالرَّغْمِ واللهُ شاهِدُ
فَهَلْ أَنَا فِيما بَيْنَ ذَيْنِكَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلٍ أَمْ مُسْتَطِيعٌ فَجَاهِدُ

ت. تَصَدَّقْ عَلَى الطَّيْرِ الغَوادِي بِشَرْبَةٍ مِنَ الماءِ واعْدُدْها أَحَقَّ مِنَ الإنْسِ
فَمَا جِنْسُها جانٍ عَلَيْكَ أَذِيَّةً بِحالٍ إذا ما خِفْتَ مِنْ ذلِكَ الجِنْسِ

أيْ أَنَّ غادِياتِ الطَّيْرِ أحَقُّ مِنَ النَّاسِ بِأَنْ تَتَصدَّقَ عَلَيْها ولَوْ بِشَرْبَةِ ماءٍ، لِأَنَّ جِنْسَها لا يَعْتَدِي عَلَيْكَ فيُؤْذِيكَ بِطَبْعِهِ، ولَكِنَّ الناس بِطَبْعِهِم ظُلَّامٌ مُؤْذُونَ ولَرُبَّما استَخْدَمُوا صَدَقَتَكَ عَلَيْهِم في إيْذائِكَ.

ث. ومِمَّا أدامَ الرُّزْءَ تَكْذِيْبُ صادِقٍ عَلَى خِبْرَةٍ مِنَّا وتَصْدِيْقُ كاذِبِ

أيْ إنَّ مِمَّا أَدَامَ فِيْنا البَلايا الأخْلاقِيَّةَ وشُرُورَها أنَّنا لا نَنْفَكُّ نُكَذِّبُ الصادِقِينَ ونُصَدِّقُ الكاذِبِينَ مَعَ عِلْمِنا بِكِلَيْهِما.

خ. أرَى جُرَعَ الحَيَاةِ أَمَرَّ شَيءٍ فَشاهِدْ صِدْقَ ذَاكَ إذا تُقَاءُ

ذ. فيا غَضّاً مِنَ الفِتْيانِ خَيْرٌ مِنَ اللَّحْظاتِ أبْصارٌ غُضِضْنَهْ

ض. إذا رَامَ كَيْداً بِالصَّلاةِ مُقِيْمُهَا فَتَارِكُها عَمْداً إلى اللهِ أقْرَبُ

أيْ إذا كانَ الذي يُصَلِّي إنَّما يُصَلِّي لِبَواعِثَ فِيهِ خَفِيَّةٍ، لِإدْرَاكِ مَصْلَحَةٍ أوْ لِلتَّوَفُّرِ عَلَى عَرَضٍ أَوْ غَرَضٍ أوْ أَرَبٍ، فَأَقْرَبُ مِنهُ إلى اللهِ مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ عَمْداً.

ظ. إذا ما عَرَاكُمْ حادِثٌ فَتَحَدَّثُوا فإنَّ حَدِيْثَ القَوْمِ يُنْسِي المَصَائِبا

أيْ إذا أَلَمَّتْ بِكُمْ مُصِيْبَةٌ فالجَأُوا إلى الحَدِيْثِ بَيْنكُمْ فَذَلِكَ يُنْسِيْكُمْ وَقْعَها عَلَيْكُمْ.

غ. فَوَا عَجَباً نَقْفُوا أحادِيْثَ كاذِبٍ ونَتْرُكُ مِنْ جَهْلٍ بِنا ما نُشاهِدُ

النّاسُ لِلْأَرْضِ أَتْباعٌ ،إذا بَخِلَتْ ضَنُّوا وإنْ هِيَ جَادَتْ مَرَّةً جادُوا

أيْ النّاسُ أبْنَاءُ الأَرْضِ التي هُمْ عَلَيْها تُعْدِيهِمْ بأَخْلاقِها، فإنْ أمْسَكَتْ عَنْهُم خَيْرَها كانُوا بُخّالاً، وإنْ جادَتْ عَلَيْهم بِهِ جادُوا.

أ أ. لَمّا رَأَيْتُ سَجَايا العَصْرِ تُرْخِصُنِي رَدَدْتُ قَدْرِي إلى صَبْرِي فَأَغْلَى بِي

أيْ لَمّا وَجَدْتُ طِباعَ الزمانَ تَغُضُّ مِنْ قِيمَتِي وتَغْمِطُنِي حَقِّي، عُذْتُ بِالصَّبْرِ فألْفَيْتُهُ يُعْلِي شأْنِي ويَرْفَعُ قِيمَتِي.

ب ب. أيا والِيَ المِصْرِ لا تَظْلِمَنَّ فَكَمْ جاءَ مِثْلُكَ ثُمَّ انْصَرَفْ

ج ج. وما سَلُّ المهَنَّدِ لِلتَّوَقِّي كَسَلِّ المشْرِفِيَّةِ لِلتَّشَفِّي

أيْ لَيْسَ سَواءً إشْهارُ السِّلاحِ لِلدِّفاعِ وإشْهارُهُ لِلتَّشَفِّي بِالموْتِ.

د د. ورُبَّ كَمِيٍّ يَحْمِلُ السَّيْفَ صارِماً إلى الحَرْبِ والأَقْدارُ تَلْهُو وتَسْخَرُ

أيْ رُبَّما يُعِدُّ الفارِسُ عُدَّةَ الحَرْبِ كما يَجِبُ ومَعَ ذَلِكَ تَلْقاهُ الأَقْدارُ بِغَيْرِ ما أَرادَ[1].

ه ه. إنَّ الشَّبِيبَةَ إنْ أَرَدْتَ بِها أَمْراً فَبادِرْهُ، إنَّ الدَّهْرَ مُطْفِئُها

---

[1] هذا المعْنَى تعاوَرَهُ الشُّعَراءُ كَثِيراً، ومِمَّنْ أَخَذَهُ مِنَ المعاصِرِيْنَ فَأَحْسَنَ ما شاءَ حافِظٌ إبْراهِيْمَ، إذْ قَالَ مُسْتهِلّاً قصِيْدَتَهُ (غادةَ اليابانِ):

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السَّيْفُ نَبا صَحَّ مِنِّي العَزْمُ والدَّهْرُ أبَى
رُبَّ ساعٍ مُبْصِرٍ في سَعْيِهِ أَخْطَأَ التَّوْفِيْقَ فِيْمَا طَلَبا

فالبَيْتُ الأَوَّلُ هُنا، كما تَرَى، قَدِ اسْتَوْفَى كُلَّ مَعْنى بَيْتَ أبِي العلاءِ؛ ونُبُوُّ سَيْفِهِ مُرْتَدّاً عَنْ ضَرِيبَتِهِ لَيْس لِأَنَّهُ كَهَامٌ لا يَقْطَعُ بَلْ هُوَ صَارِمٌ ذَكَرٌ، ولَكِنْ لِأَنَّ الدَّهْرَ أَبَى؛ والدَّهْرُ وإباؤهُ هُنا فِي مُقابِلِ الأَقْدارِ وسُخْرِيَتِها فِي بَيْتِ أبِي العلاءِ؛ ولا رَيْبَ عِنْدِي أنَّ حافِظاً تَفَوَّقَ عَلَى أبِي العلاء هُنا، لِقَوْلِهِ (لا تَلُمْ كَفِّي) ولِعُذُوبَةِ الجَرْسِ فِي قَوْلِهِ (الدَّهْرُ أبَى) بَعْدَ قَوْلِهِ (السَّيْفُ نَبا). وأَمّا البَيْتُ الثانِي فَهُو فِي مَعْنى الأَوَّلِ، ولَكِنَّهُ تَلْخِيصٌ مَذْهُوبٌ بِهِ مَذْهَبَ الحِكْمةِ ومَأْثُورِ القَوْلِ. (المترجم).

أيْ أنَّ الشَّبَابَ نارٌ مُتَّقِدَةٌ فإذا أردْتَ تَحْقِيقَ أمْرٍ بِهِ فَبَادِرْ إِلَيْهِ مُسْرِعاً؛ فإنَّ الدَّهْرَ لَنْ يَزالَ بِهَذِهِ النَّارِ حتى يُطْفِئَها، فأَنْجِزْ أمْرَكَ قَبْلَ إذْ يُطْفِئُها.

و و. مَتَى كَشَّفْتَ أخْلاقَ البَرَايا   تَجِدْ ما شِئْتَ مِنْ ظُلْمٍ وجَرْحِ

أيْ مَتَى سَبَرْتَ أَخْلاقَ النَّاسِ، وَجَدْتَ قِوامَها في أصْلِها كُلَّ ألْوانِ الظُّلْمِ والجَرْحِ.

ز ز. شذَّ التَّقِيُّ فما يُقَاسُ عَلَى أَبِي   ذَرٍّ وشِيْمَتِهِ رِجالُ غِفارِ[1]

أي لَقَد نَدَرَ التَّقِيُّ في الناسِ مِثْلَما نَدَرَ أنْ يَكُونَ في قَبِيْلَةِ غِفارٍ، رَهْطِ أَبِي ذَرٍّ، مِثْلُ أبي ذَرٍّ في وَرَعِهِ وتُقَاهُ[2].

ح ح. ما اسْوَدَّ حامٌ لِذَنْبٍ كانَ أحْدَثَهُ   لَكِنْ غَرِيزَةُ لَوْنٍ خَطَّها الملِكُ

ط ط. يُكْسَى الوَلِيْدُ جَدِيْدَ العُمْرِ يَلْبَسُهُ   وكُلَّ يَوْمٍ يَرِثُّ المَلْبَسُ الغالِي

ي ي. إذا أصْحَابُ دِيْنٍ أحْكَمُوهُ   أَذَالُوا ماسِوَاهُ وعَيَّبُوْهُ

ك ك. وجِيْرانُ الغَرِيْبِ مُبَغَّضُوهُ   إلى جِيْرَانِهِمْ ومُحَبَّبُوهُ

ل ل. وما العَيْشُ إلَّا لُجَّةٌ باطِلِيَّةٌ   ومَنْ بَلَغَ الخَمْسِيْنَ جاوَزَ غَمْرَها

م م. جاءَتْكَ لَذَّةُ ساعةٍ فَأَخَذْتَها   بِالعَارِ لَمْ تَحْفِلْ سَوَادَ العارِ

ن ن. وكَمْ أعانَكَ قَوْمٌ ما استَعَنْتَ بِهِمْ   أوِ اسْتَعَنْتَ بِقَوْمٍ لَمْ يُعِيْنُوكا

---

[1] (رِجالُ غِفارٍ) نائبُ فاعِلٍ لِلْفِعْلِ (يُقاسُ). (المترجم)

[2] أبو ذَرٍّ، جُنْدُبُ بْنُ جُنادة مِن أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ، عُرِفَ بالوَرَعِ والزَّهادةِ، غرَّبَهُ عثمانُ بْنُ عفَّان إلى الرَّبَذَةِ، خارجَ المدِينةِ، ولِذَلِكَ عَدَّهُ الشِّيْعةُ شَهِيداً؛ انظُرْ (شرْح نهج البلاغة)، ج٣، ص٢٤٠.

أيْ ما أكثَرَ ما أعانَكَ قَوْمٌ دُونَ أن تَسْتَعِيْنَهُمْ، ما أكثَرَ ما طَلَبْتَ إلى قَوْمٍ عَوناً فلَمْ يَبذُلُوْهُ.

فَهَذِهِ الأبْياتُ أمْثِلَةٌ صالِحَةٌ عَلَى ما يَفِيضُ بِهِ اللُّزُومُ مِنْ حِكَمِ أبي العلاء ومَأْثُورِ أقْوَالِهِ. وهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ مَلِيءٌ بِالتَّفَكُّرِ؛ وقَدْ صاغَهُ أبو العلاء في أجْوَدِ أُسْلُوبٍ عَرَبِيٍّ عُرِفَ في صِياغَةِ الأقْوالِ المأْثُورةِ. غَيْرَ أنَّ أصالَةَ شاعِرِنا وابْتِكارَهُ فِيْها وفي أبْياتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ في اللُّزُومِ رُبَّما كانَتْ مَحَلَّ شَكٍّ. فَبَعْضُها تَقْلِيْدِيٌّ كَقَوْلِهِ:

فَلَكٌ يَدُوْرُ بِحِكْمَةٍ ولَهُ بِلا رَيْبٍ مُدِيرُ

وقَوْلِهِ:

بِفَضْلِ مَوْلانا وإحْسانِهِ يُماطُ عَنَّا البُؤْسُ والضُّرُّ

وبَعْضُها رُبَّما عُدَّ نَظْماً شِعْرِيّاً لِأَقْوَالٍ سائِرَةٍ مَأْثُوْرَةٍ، مِثْلُ:

تَوَاضَعُوا فِي الخُطُوبِ تَرْتَفِعُوا فالشُّهْبُ عِنْدَ الرُّجُومِ تَنْكَدِرُ

ومِثْلُ قَوْلِهِ :

فاعذُرْ خَلِيلَكَ إنْ جَفَاكَ ولا تَجِدْ[1] وإذا الزِّيارَةُ ساعَفَتْكَ فلا تُدِمْ

---

[1] قولُهُ (لا تَجِدْ) أي لا تَغْضَبْ. ويُطْلَقُ (الوَجْدُ) ويُرادُ بهِ شِدَّةُ الحُبِّ الشَّوْقِ أوِ الغَضَبُ كما هُنا، ومِنهُ قَوْلُ النَّبِيِّ (ص) لِلأنصارِ لَمَّا قَسَمَ غنائِمَ حُنَيْنٍ، وكانُوا غَضِبُوا لَمَّا رَأَوْهُ يُؤْثِرُ بِها رُؤَساءَ القَبائِلِ وأَشْرافَ قُرَيْشٍ يَتَأَلَّفُهُمْ بِها: (أَوَجَدْتُمْ عليَّ في أنْفُسِكُمْ يا مَعْشَرَ الأنصارِ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنيا تَأَلَّفْتُ بِها قَوْماً لِيُسْلِمُوا ووَكَلْتُكُمْ الى إسْلامِكُمْ؟). اي أَغَضِبْتُمْ؟ ومِنَ الخَطَإِ الفاشِي في النَّاسِ اليَوْمَ قَوْلُهُمْ (هُوَ يَتَواجَدُ بِمكانِ كذا) يُرِيدُونَ يَكُونُ فِيهِ، لأنَّ المعنى هنا: اظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ الوَجْدَ أو ادَّعاهُ وتَظاهَرَ بِهِ. وللهِ دَرُّ الشاعِرِ السُّودانيِّ التجاني يُوسُف بَشِيْر (١٩١٢-١٩٣٧) إذْ يَقولُ في قَصِيدةِ (المَعْهَدِ العِلْمِيِّ)، وكانَ فَصِيحاً وضَلِيعاً في المَعْرِفَةِ واسِعَ الثَّقافَةِ؛ إذْ كانَ وَثِيْقَ الصِّلَةِ بِالصَّحافَةِ والفَلْسَفَةِ والأَدَبِ:

والمجْدُ أَجْدَرُ بِالشَّبابِ وإنَّما لِلنَّاسِ مَوْجِدةٌ عَلَى أصْحابِهِ

فَعَجُزُ هذا البَيْتِ مَأْخُوْذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: (زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً). وبَعْضُها رُبّما كانَ نَظْماً لِأقْوالٍ قُرْءَانِيَّةٍ، كما فِي قَوْلِهِ:

أما يَرَى الإنْسانُ في نَفْسِهِ ... آياتِ رَبٍّ كُلُّها غُرٌّ

مِن قَوْلِ الله تعالَى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. أو نَظْماً لِأَحادِيْث نَبَوِيَّةٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ:

ويَقولُ داري مَنْ يَقُوْلُ وأعْبُدِي ... مَهْ فالعَبِيْدُ لِرَبِّنا والدَّارُ

فَهَذا مِنَ الحَدِيْثِ المشْهُورِ: (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مالِي مالِي ... إلخ).

هَذَا، وبَعْضُ أَقْوَالِ أبِي العلاءِ المأْثُوْرَةِ رُبّما كانَتْ إعادةً وصِيَاغَةً جَدِيْدَةً بِكَلِماتِهِ هُو لِمَا قالَهُ شُعَرَاءُ آخَرُونَ، مِثْلُ قَوْلِهِ:

أ. لَذَّاتُنا إبِلُ الزَّمانِ يَنالُها ... مِنَّا أَخُو الفَتْكِ الذي هُوَ خارِبُ

أي ما لَذَّاتُنا إلَّا إبلٌ يَمْلِكُها هذا الزَّمانُ وإنَّما يَنالُها مَنْ يَعْتَرِضُ عَلَيْها طَرِيْقَها مِنَ الفُتَّاكِ؛ أيْ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّذَّاتِ مَنْزِلَ الإبِلِ، أَنْزَلَ مَنْ يَنالُها مَنْزِلَةَ قاطِعِ الطَّرِيقِ مِنَ اللُّصُوصِ. فَهَذَا مِنْ قَوْلِ بشَّارٍ[1]:

مَنْ راقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحاجَتِهِ ... وفازَ بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ[1]

-فالمَوْجِدَةُ هُنا الغَضَبُ يُنْشِئُهُ الحَسَدُ؛ وكانَ التحانيُّ هذا يَشْكُو الحَسَدَ حتى مِنْ أساتِذَتِهِ لِتَفَوُّقِهِ وذكائِهِ، وانْتَهَى بِهِ ذَلِكَ إلى اتِّهامٍ لَهُ بِالكُفْرِ وطَرْدِهِ مِنَ المَعْهَدِ الذي كان يدرُسُ بِهِ. وهُوَ مِنْ كِبارِ شُعَراءِ العَرَبِيَّةِ في هذا العَصْرِ الحَدِيْثِ، ودِيوانُهُ (إشراقة) قَبَسٌ مِنَ الشِّعْرِ الوِجدانِيِّ الصَّافِي، وكَثِيرٌ مِنْهُ مِنْ قَرِيٍّ أبِي العَلاءِ المعرّي، فِكْراً وشِعْراً، ولا يَضِيرُهُ فِي ذَلِكَ ألَّا يَعْرِفَهُ الناسُ خارِجَ السُّودانَ أو حتَّى داخِله. (التُرْجُمان)

([1]) بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ، شاعِرٌ عَبّاسِيٌّ، وُلِدَ فِي أوائِلِ العِقْدِ العاشِرِ من القَرْنِ الأوَّلِ الهِجْرِيِّ، كان شاعِراً مُجِيداً حقّاً، يُعَدُّ زَعِيمَ الشُّعَراءِ المحْدَثِيْنَ؛ أجادَ الغَزَلَ والهِجاءَ والمدْحَ والفَخْرَ، أغرَقَ فِي الغَزَلِ ونَحا بِهِ نَحْوَ الحِسِّ واللَّوْنِ المكْشُوفِ مِنهُ، وقد أسْرَفَ فِي الهِجاءِ والفَخْرِ، وكان هِجاؤهُ مُمِضّاً لاذِعاً؛ اتُّهِمَ بالزَّنْدقةِ وقُتِلَ عَلَيْها صَبْراً فِي زَمَنِ المهْدِيِّ. (المترجم).

وِمِنْ قَوْلِ سَلْمٍ[٢]:

مَنْ راقَبَ الناس ماتَ غَمّاً وفازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ

ومثْلُ قَوْلِ أبي العلاءِ:

ب. يَقْفُو اللَّئِيْمُ كَرِيْمَ القَوْمِ مُكْتَسِباً إنَّ السَّراحِينَ يَتْبَعْنَ السَّراحِيْا

أي أنَّ لِئَام الناسِ يَتْبَعُونَ كِرامَهُمْ طَلَباً لِلْكَسْبِ كما تَتْبَعُ الذِّئابُ الفِرْسانَ لِتَتَغذَّى عَلى جُثَثِ قَتْلاهُمْ. فَهَذا مأْخُوذٌ مِنْ بَيْتِ بَشَّارٍ:

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الحَبُّ وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَماءِ

ج. وإنْ سَلَّ سَيْفاً مِنْ كَلامٍ مُسَفَّةٌ عَلَيْكَ فقابِلْهُ بِصَبْرِكَ تُنْبِهِ[٣]

أي إنْ سابَّكَ رَذْلٌ مِنَ الناسِ فَقَابِلْ ذلِكَ مِنهُ بِصَبْرٍ مِنْكَ، فَهَذا يَرُدُّ سَيْفَ كلامِهِ كَهاماً، أيْ مُرْتَدّاً عَنْ ضَرِيْبَتِهِ دُونَ قَطْعِها. وهذا مِنْ قَوْلِ رَجُلٍ مِنْ سَلُولٍ[٤]:

ولَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيْمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِيْنِي

د. ومِنَ العجائِبِ أنَّ كُلّاً راغِبٌ في أُمِّ دَفْرٍ وهْوُ مِنْ عُيَّابِهَا

---

[١] انظر لِبَيْتِ بَشَّارٍ وَفَيَات الأَعْيَانِ ج ١، ص ٢٤٩؛ ولِبَيْتِ سَلْمِ الأغانِيَّ ج ٣، ص ٤٩

([٢]) هُو سَلْمٌ الخاسِرُ، شاعِرٌ عبَّاسيٌّ كان تِلْمِيْذاً لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ، ورَاوِيَةَ أشْعارِهِ، مَدَحَ أبا جَعْفَر المَنْصُور ولَكِنَّهُ أكْثَرَ مِنْ مَدْحِ ابْنِهِ المَهْدِيِّ، ومَدَح الهادِي وهارونَ الرَّشِيْدَ كما مَدَح مَعْنَ بْنَ زائِدَةَ الشَّيْباني ورَثاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ رِثاءً حاراً، تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٨٦هـ. (المترجم).

[٣] (تُنْبِهِ) أيْ تَجْعَلُهُ يَنْبُو؛ مِنَ الفِعْلِ (أَنْبَا)، ونَبَا السَّيْفُ إذا ارْتَدَّ عَنْ ضَرِيْبَتِهِ دُوْنَ قَطْعٍ، والكَهَامُ هو السَّيْفُ غَيْرُ الصَّارِمِ، غَيْرُ القاطِعِ وذلك بأنْ يَكُوْنَ مَفْلُولاً. (التُّرْجُمان).

([٤]) خِزانة الأَدَب، ج١، ص٣٢٣.

أيْ إنَّ مِنْ عَجائِبِ الناسِ أنَّهُ ما مِنهُمْ أحَدٌ إلّا وهُوَ رَاغِبٌ في الدُّنيا ومَعَ ذَلِكَ يَعِيبُها. فَهَذا مِنْ قَوْلِ القائِلِ[1]:

وذمُّوا لَنا الدُّنيا وهُمْ يَحْلِبُونَها   ولَمْ أرَ كالدُّنيا تُذَمُّ وتُحْلَبُ

هـ. نَهابُ أُمُوراً ثُمَّ نَرْكَبُ هَوْلَها   على عَنَتٍ مِنْ صاغِرِيْنَ قِمَاءِ

أيْ يَحْدُثُ أنْ نَخْشَى أُموراً ومَعَ ذَلِكَ نَأْتِيها وهي عَلَيْنا أَشَدُّ ما تَكُونُ، فَيَا لَنا مِنْ أقْزَامٍ أشْقَياءٍ. فَهَذَا مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ[2]:

ومَنْ يَعْصِ أطْرافَ الزُّجاجِ فإنَّهُ   يُطِيْعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

و. فاهْجُرْ صَدِيْقَكَ إنْ خِفْتَ الفَسادَ بِهِ   إنَّ المدِيْحَ لَمَبْدُوْءٌ بِتَشْبِيْبِ
والكَفُّ تُقْطَعُ إنْ خِيْفَ الفَسادُ بِها   عَلَى الذِّرَاعِ بِتَقْدِيرٍ وتَسْبِيْبِ

فَصُوْرَةُ الكَفِّ المقْطُوعَةِ هُنا مأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِ دِعْبِلٍ[3]:

فَهَبْكَ يَمِيْنِي اسْتَأْكَلَتْ فَقَطَعْتُها   وجَشَّمْتُ قَلْبِي صَبْرَةً فَتَشَجَّعا

([1]) يَتِيمةُ الدَّهْرِ، ج١، ص٨٧.

([2]) دِيوانُهُ، ص٣١، أيْ مَنْ لا يُطِعْ لَيِّنَ الكَلِماتِ أطاعَ مُكْرَهاً أسِنَّةَ الرِّماحِ؛ أو مَنْ عَصَى الصُّلْحَ طائِعاً أطاعَ الحَرْبَ كارِهاً؛ أو قُلْ مَنْ يَأْبَ الكَلَامَ يُقَاسِ الكِلَامَ. والزُّجُّ هُوَ طَرَفُ الرُّمْحِ الخَلْفِيُّ، عَكْسُ السِّنانِ الذي هُوَ الطَّرَفُ الأمامِيُّ مِنهُ الذي يُطْعَنُ بِهِ؛ وذَلِكَ أنَّ العَرَبَ كانُوا إذا أرَادُوا الصُّلْحَ والتَّفاوُضَ جاءُوا يَحْمِلُونَ الرِّماحَ مُنَكَّسَةَ الأَسِنَّةِ مُقَدَّمَةَ الزِّجاجِ، وإنْ أرادوا الحَرْبَ والقِتَالَ حَمَلُوا الرِّماحَ وأسِنَّتُها إلى أعْلَى. وكانَ زُهَيْرٌ مِنْ حُكَماءِ العَرَبِ وهَذَا البَيْتُ مِنْ مُعَلَّقَتِهِ المعْرُوفَةِ، وضَمَّنَها مِنَ الحِكْمَةِ ونافِذِ البَصَرِ شَيْئاً كَثِيراً. (التُّرْجُمان).

([3]) دِعْبِلُ بْنُ على الخُزَاعِيُّ، (١٤٨-٢٤٦هـ) عَبّاسِيٌّ ومِنْ شُعَرَاء الشِّيْعَةِ اشْتُهِرَ بِأَهاجِيْهِ وأَشْعَارِهِ التَّحْرِيْضِيَّةِ، انْظُرْ وَفَيات الأعْيان ج١، ٢٢٤ والأغاني ج١٨ ص ٤٧. ومَعْنَى بَيْتِهِ هذا: (هَبْ أنَّكَ يَدِي اليُمْنَى أصَابَتْها الأُكْلَةُ أَوْ داءُ الآكِلَة فَقَطَعْتُها، وجَرَّعْتَ قَلْبِي صَبْراً عَلَيْها فَصَبَرَ).

ز. إذا فَعَلَ الفَتَى ما عَنْهُ يَنْهَى فمِنْ جِهَتَيْنِ لاجِهَةٍ أَسَاءَ

فَهُو مِنْ قَوْلِ المتَوَكِّلِ اللَّيْثِي[1]:

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

ح. إذا صاحَبْتَ في أيَّامِ بُؤْسٍ فلا تَنْسَ المودَّةَ في الرَّخَاءِ

مَأْخُوذٌ مِنْ بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ[2]:

إنَّ الكِرامَ إذا ما أسْهَلوا ذَكَرُوا مَنْ كانَ يأْلَفُهُمْ في المنْزِلِ الخَشِنِ

أيْ أنَّ كِرَامَ النَّاسِ إذا أصابَهُم يُسْرٌ تَذَكَّروا مَنْ كانُوا يُوادُّنَهُمْ أيَّامَ العُسْرِ فَعَادُوا عَلَيْهِمْ بِيَسارِهِمْ يُشْرِكُونَهُمْ فِيهِ

ط. أبْكارُ هَذِى المعَانِي ثَيِّبَاتُ حِجاً في كُلِّ عَصْرٍ لَهَا جانٍ ومُفْتَرِعُ

أيْ الأبْكارُ مِنْ هَذِهِ المعَانِي لا تُزَوَّجُ إلَّا لِلْعُقُولِ التي تَطْلُبُها، فَفِي كُلِّ زَمانٍ لَها مِنْ هَذِهِ العُقُولِ مَنْ يَجْنِيْها ويَفْتَرِعُها[3]، مأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ أبِي تَمَّام:

ولو كانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أفْناهُ ما قَرَتْ حِياضُكَ مِنهُ في العُصُورِ الذَّوَاهِبِ

ولَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ إذا انْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

---

(1) الأغاني ج١١ ص٣٩.

(2) ديوانه، ص ٣٣٥.

(3) تَرْجَمَ نيكِلْسُون هَذَا البَيْتَ لِأبِي العلاء، وأوْردَ المؤَلِّفُ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ، انْظُرْ دِرَاساتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ، ص١٤٧. (التُّرْجُمان).

ي. إذا أَقْبَلَ الإنسانُ في الدَّهْرِ صُدِّقَتْ   أحادِيْثُهُ عَنْ نَفْسِهِ وهْوَ كاذِبُ

أيْ مَتَى أَثْرَى الإنْسَانُ صَدَّقَهُ النَّاسُ فِيما يَقُوْلُ عَنْ نَفْسِهِ وإنْ كانَتْ أَقْوَالُهُ كَذِباً، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ القَطَامِيِّ [1]:

والنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قائِلُونَ لَهُ   ما يَشْتَهِي، ولِأُمِّ المخْطِئِ الهَبَلُ

أيْ مَنْ يُصِبْ ثَراءً يَسْمَعْ مِنَ النَّاسِ ما يُحِبُّ، ولَكِنْ مَنْ يُخْطِئِ الثَّرَاءَ أو يُخْطِئْهُ الثَّراءُ فَيَعْدَمَ، فَوَيْلٌ لَهُ مِنهُمْ.

ك. أُكَاشِرُ مَنْ لَقِيْتُ عَلَى حِذَارٍ   ولَيْسَ عَلَى اعْتِقادِي مِنْ عَرِيْبِ

أيْ أَتَبَسَّمُ فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ أَلْقَى اتِّقَاءَ شَرِّهِ، وأنا أُضْمِرُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ، وهُوَ مِنْ قَوْلِ المتنبِّي :

ولَمَّا صارَ وُدُّ النَّاسِ خِبّاً   جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسامٍ بابْتِسامِ

أيْ لَمَّا رَأَيْتُ وُدَّ النَّاسِ قَدْ صارَ غِشّاً ونِفاقاً أَمْسَكْتُ عَنْ مُوادَّتِهِمْ واكْتَفَيْتُ بالابْتِسامِ فِي وَجْهِ مَنْ يِبْتَسِمُ لِي مِنهُمْ.

ل. وما فَسَدَتْ أخلاقُنا باخْتِيارِنا   ولَكِنْ لِأمرٍ سَبَّبَتْهُ المقَادِرُ

مِنْ قَوْلِ بَشَّارٍ:

طُبِعْتُ عَلَى ما فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ   هَوَايَ ولَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ المهَذَّبا
أُرِيد فَلَا أُعْطَى وأُعْطَى ولَمْ أُرِدْ   وقَصَّرَ عِلْمِي أنْ أَنَالَ المغَيَّبا

---

[1] القُطامِيُّ أوِ القَطَامِيُّ هو عُمَيْرُ بْنُ شُيَيمٍ التَّغْلِبِيُّ، ابْنُ أَخِي الأخْطَلِ المعْرُوفِ، وكانَ هُوَ نَفْسُه شاعِراً كَبِيراً، أسْلَمَ في أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ رُبَّما لِتَأَثُّرِهِ العَمِيْقِ بِكَرَمِ مَمْدُوْحِهِ زُفَرَ بْنِ الحارِثِ القَيْسِيِّ، انْظُر خِزَانَةَ الأَدَبِ ج٢،ص٢٢٣.

م. دَارَانِ أَمَّا هَذِهِ فَمُسِيْئَةٌ جِدّاً ولا خبرٌ لِتِلْكَ الدَّارِ

كَقَوْلِ أبي نُوَاسٍ[1]:

ما جاءَنا أَحَدٌ يُخَبِّرُ أنَّهُ فِي جَنَّةٍ مُذْ مَاتَ أَوْ فِي نارِ

ن. النَّفسُ عِنْدَ فِرَاقِها جُثْمَانَهَا مَحْزُونَةٌ لِدُرُوسِ رَبْعٍ عامِرِ

كَحَمَائِمٍ صِيْدَتْ فَثَنَّتْ جِيْدَها أَسَفاً لِتَنْظُرَ حَالَ وَكْرٍ دَامِرِ

مِنْ قَصِيْدَةِ ابْنِ سِينا[2]:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعزُّزٍ وتَمَنُّعِ

س. إذا لَمْ يَكُنْ لِي بِالشَّقِيقَةِ مَنْزِلٌ فَلا ظَهَرتْ غَرَّاؤُها والشَّقائِقُ

أيْ إذا لَمْ يَكُنْ لِي مَنْزِلٌ بِالشَّقِيقَةِ، فلا نَبتَ عَلَيها أَبْيَضُ الأَزْهارِ (الغَرَّاءُ) ولا أَحْمَرُها (الشَّقَائِقُ)، مِنْ قَوْلِ أبي فِرَاسٍ[3]:

مُعَلِّلَتِي بِالوَصْلِ والمَوْتُ دُوْنَهُ إذا مِتُّ ظَمْئَاناً فَلا نَزَلَ القَطْرُ

وهُناكَ كَثِيْرٌ مِن أَقْوَالِ أبي العلاءِ وحِكَمِهِ التي تَبْدُو أَصَالَتُهُ فِيْها لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ على نَحْوٍ لا يُجْحَدُ، غَيْرَ أَنَّهُ بِشَيءٍ مِنْ إنْعامِ النَّظَرِ أَمْكَنَ رَدُّها إلى المتنبِّي، مِثْلُ:

أ. هِيَ الدَّارُ يأْتِيها مِنَ النَّاسِ قَادِمٌ يَحُثُّ على أنْ يَسْتَقِلَّ مُقِيْمُها

---

[1] الوِساطةُ بَيْنَ المتَنبِّي وخُصُومِهِ، لِأَبِي الحَسَنِ الجرْجانِيّ، صيدا، ١٣٣١هـ، ص ٥٨.

[2] الوَفَيَات ج١ ص١٩٢.

[3] ديوانه، ص٢١٠.

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[1]:

تَمَلَّكَها الآتِي تَمَلُّكَ سالِبٍ وفارَقَها الماضِي فِرَاقَ سَلِيْبِ

ب. سَيُسْلِيْكَ أنَّ القابِضَ الرِّزْقَ بَاسِطٌ وأنَّ الذِي شادَ البَنِيَّةَ هادِمُ

مِنْ قَوْلِ أبِي الطَّيِّبِ[2]:

مُشِبُّ الذي يَبْكِي الشَّبابَ مُشِيْبُهُ فَكَيْفَ تَوَقِّيْهِ وبانِيْهِ هادِمُهْ

ج. وما الغَوَانِي الغَوَادِي في مَلاعِبِها إلاَّ خَيَالاتُ وَقْتٍ أشْبَهَتْ لُعَبا

أَلَا إنَّ النِّسَاءَ حِبَالُ غَيٍّ بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّلِيْدُ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[3]:

ومَنْ خَبَرَ الغَوَانِي فالغَوَانِي ضِيَاءٌ في بَوَاطِنِهِ ظَلامُ

وقَوْلِهِ[4]:

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ هَوُوا وما عَرَفُوا الدُّنْيا وما فَطِنُوا

تَفْنَي عُيُوْنُهُمُ دَمْعاً وأَنْفُسُهُمْ في إِثْرِ كُلِّ قَبِيْحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

---

[1] ديوانه، ص٣١٥.

[2] ديوانه، ص٢٤٦.

[3] ديوانه، ص٩٣.

[4] ديوانه، ص٤٨٨.

أيْ مِمّا آذَى العُشّاقَ أَنَّهُمْ أَحَبُّوا دُوْنَ خِبْرَةٍ مِنهُمْ بِالحَيَاةِ والدُّنْيا وفِطْنَةٍ بِالنَّاسِ، فتَرَاهُمْ يُفْنُونَ أَعْيُنَهُمْ بِالدَّمْعِ وأنْفُسَهُمْ بِالوَجْدِ مِنْ أجْلِ أَشْخَاصٍ تَكْسُوهُمْ وُجُوهٌ حَسَنَةٌ وَضِيئَةٌ ولَكِنَّ مَعْدِنَ أَشْخاصِهِمْ خَسِيْسٌ قَبِيْحٌ.

د. تَنَاهَبَتِ العَيْشَ النُّفُوسُ بِغِرَّةٍ فإِنْ كُنْتَ تَسْطِيْعُ النِّهابَ فَنَاهِبِ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[1]:

إِنَّمَا أَنْفُسُ الأَنِيْسِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً واغْتِيَالا

مَنْ أطاقَ الْتِماسَ شَيْءٍ غِلابا واغْتِصاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالا

أيْ ما النَّاسُ في قَرَارَاتِ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا وُحُوشٌ ضارِيَةٌ غَارِقَةٌ في البَهِيْمِيَّةِ تَقْتَتِلُ فِيما بَيْنَها سِرّاً وجَهْراً، فَمَتَى أَمْكَنَ أَحَدَهُمْ إِدْرَاكُ شَيْءٍ عَنْوَةً وقَسْراً لَمْ يُدْرِكْهُ سُؤَالاً وطَلَباً.

هـ. إِنَّا لَفِي زَمَنِ الغُرُوبِ وقَدْ قَضَى وَقْتُ الضَّحَاءِ وساعَةُ الإِظْهَارِ

كأَنَّما الدَّهْرُ مَاءٌ كانَ وارِدَهُ أَهْلُ العُصُورِ فَمَا أَبْقَوْا سِوَى العَكَرِ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[2]:

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوْهُ في شَبِيْبَتِهِ فَسَرَّهُمْ وأَتَيْنَاهُ عَلَى الهَرَمِ

أيْ جاءَ أَبْناءُ الزَّمانِ الزَّمَانَ لَمَّا كانَ شابّاً فَقَدَرَ على إِسْعادِهِمْ وسُرُورِهِمْ، فَأَمَّا نَحْنُ فَجِئْنَاهُ على حِيْنِ هَرَمِهِ وشَيْخُوْخَتِهِ فَلَمْ نَجِدْ عِنْدَهُ سُرُوْراً ولا أَصَبْنَا فِيهِ سَعَادَةً.

و. لَوْ صَحَّ ما قالَ رِسْطالِيْسُ مِنْ قِدَمٍ وهَبَّ مَنْ ماتَ لَمْ يَجْمَعْهُمُ الفَلَكُ

---

[1] ديوانه، ص٤٠٧.

[2] ديوانه، ص ٥١٣.

أيْ لَوْ صَحَّ ما قالَهُ أَرِسْطُو، إذْ كانَ قالَ بِقِدَمِ العالَمِ، ويَلْزَمُ مِنهُ أنْ يَقُومَ المَوْتَى، لَضَاقَ الكَوْنُ عَنْ أنْ يَسَعَ النَّاسَ، مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[1]:

سُبِقْنا إلى الدُّنيا فَلَوْ عاشَ أَهْلُها   مُنِعْنا بِها مِنْ جَيْئَةٍ وذُهُوْبِ

ز. وضَمَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ هَوَاءٌ   يُذَلِّلُ بِالحَوَادِثِ مُصْعَبُوهُ

لَعَلَّ المَوْتَ خَيْرٌ لِلْبَرَايا   وإنْ كَرِهُوا الرَّدَى وتَهَيَّبُوهُ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[2]:

إلْفُ هَذَا الهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الأَنْـ   ـفُسِ أنَّ الحِمَامَ مُرُّ المَذَاقِ

ح. وعَرَانا عَلَى الحُطَامِ طِعَانٌ   وضِرَابٌ في باطِلٍ ورِمَاءُ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[3]:

ومُرَادُ النُّفُوسِ أصْغَرُ مِنْ أنْ   نَتَعَادَى فِيهِ وأنْ نَتَفَانَى

ط. عَلَى الوُلْدِ يَجْنِي والِدٌ ولَوَ أَنَّهُمْ   وُلَاةٌ عَلَى أمْصارِهِمْ خُطَبَاءُ

وإذا أرَدْتُمْ بِالبَنِينَ سَعادَةً   فالحَزْمُ أَجْمَعُ تَرْكُهُمْ فِي الأَظْهُرِ

---

(1) ديوانه، ص٣١٥.

(2) ديوانه، ص٢٢٦.

(3) ديوانه، ص٤٧٠.

والفِكْرَةُ في هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ تَرَدَّدُ كَثِيراً في اللُّزومِ، وهِيَ أَحَدُ المَعَانِي الرَّئِيْسَةِ لِأَبِي العلاء. ويَذْكُرُونَ أَنَّهُ أَوْصَى أَهْلَهُ أَنْ يَكْتُبُوا عَلَى قَبْرِهِ:

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ ... وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

أيْ هَذَا الذِي تَرَوْنَ، مِنْ حَيَاتِي ثُمَّ مَوْتِي، هُوَ ما جَنَاهُ عَلَيَّ أَبِي بِأَنْ جَاءَ بِي إلى الدُّنيا عَنْ طَرِيْقِ وَصْلِهِ النَّسْلَ، لِأَلْقَى الموْتَ، ولَكِنَّنِي لَمْ أجْنِ عَلَى أحَدٍ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ لِأَنَّهُ لَا عَقِبَ لِي ولا نَسْلَ.

ومَعَ ذلك فأبو العلاء في دِفاعِهِ عَنِ التَّبَتُّلِ وتَرْكِ الزَّوَاجِ وفي وَعْظِهِ بِعَدَمِ التَّنَاسُلِ كانَ قَدْ سَبَقَهُ إلى ذَلِكَ المتنبِّي إذْ قَالَ:

هَلِ الوَلَدُ المحْبُوبُ إلَّا تَعِلَّةٌ ... وهَلْ خَلْوةُ الحَسْناءِ إلَّا أَذَى البَعْلِ

وما الدَّهْرُ أهْلٌ أنْ يُؤَمَّلَ عِنْدَهُ ... خُلُودٌ وأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إلَى النَّسْلِ

أيْ ما الوَلَدُ المحْبُوبُ إلَّا تَعَلُّلٌ عابِرٌ وَشِيْكُ الزَّوَالِ، وما ساعةُ الخَلْوةِ بِالزَّوْجَةِ إلَّا أذىً لِلزَّوجِ، وما الدَّهْرُ بِالظَّرْفِ الذي تُؤَمِّلُ فِيهِ خُلُوداً أوْ تَرْغَبُ فِيهِ بِتَمْدِيْدِ نَسْلِكَ.

ي. وَدُنْياكَ التي عُشِقَتْ وأَشْقَتْ ... كَذاكَ العِشْقُ مَعْرُوفاً شَقَاءُ

أيْ مِنْ شَأْنِ الدُّنْيا أنْ تُشْقِيَ مَنْ يَعْشَقُها، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ قَدِيْمٍ، أنَّ العِشْقَ يَعُودُ عَلَى العَاشِقِ بِالشَّقَاءِ. وأبو العلاء شَدِيدُ التَّمَسُّكِ بِهَذا المعْنَى شَدِيْدُ الوَلَعِ بِهِ، فَهُوَ ما يَنِي يُرَدِّدُهُ ويُعِيْدُهُ فِي (لُزومِهِ) بِأَسَالِيْبَ مُخْتَلِفَةٍ فَهُو، مَثَلاً، يُخْبِرُنا أنَّ النَّاسَ جَمِيْعاً، بِمَنْ فِيهِمْ زُهَّادُهُمْ ونُسَّاكُهُمْ يُحِبُّونَ الدُّنْيا ويَتَمَسَّكُوْنَ بِها تَمَسُّكاً:

وكُلٌّ يُوْصِّي النَّفْسَ عِنْدَ خُلُوِّها ... بِزُهْدٍ ولَكِنْ لا تَصِحُّ العَزَائِمُ

ويَقُوْلُ في سَقْطِ الزَّنْدِ[1]:

تَجْرِبَةُ الدُّنْيا وأَفْعَالِها حَثَّتْ أَخا الزُّهْدِ عَلَى زَهْدِهِ
والقَلْبُ مِنْ أَهَوَائِها عابِدٌ ما يَعْبُدُ الكَافِرُ مِنْ بُدِّهِ

وقَدْ سَبَقَ أبا العلاء إلَى هَذَا المعْنَى فِي وَاقِعِ الأَمْرِ كَثِيْرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ؛ غَيْرَ أَنَّ المتَنَبِّي كانَ الأَكْثَرَ تَوْفِيْقاً فِي الإعْرَابِ عَنْهُ، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ[2]:

أَرَى كُلَّنا يَبْغِي الحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيْصاً عَلَيْها مُسْتَهاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ البَقَا وحُبُّ الشُّجاعِ الحَرْبَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا

وإذْ يَقُولُ أيضاً [3]:

فَذِي الدَّارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ وأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحابِلِ
تَفَانَى الرِّجَالُ عَلَى حُبِّها وما يَحْصُلُونَ عَلَى طائِلِ

أيْ فَدارُ الدُّنْيا هَذِهِ أَشَدُّ خِيَانَةً مِنْ بائِعَةِ الهَوَى وأَمْضَى خِدَاعاً مِنْ شَرَكِ الصَّائِدِ، ومَعَ ذَلِكَ يَقْتُلُ الرِّجالُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنْ أجْلِ حُبِّها ولَكِنَّهُمْ لا يَحْصُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ يُفِيْدُ.

ك. وتَقَارُبُ الأَسْماءِ لَيْسَ بِمُوْجِبٍ كَوْنَ التَّقَارُبِ فِي الفَعَالِ الأَزْيَدِ

أيْ لا يُوْجِبُ تَقَارُبُ الأَسْماءِ تَقَارُبَ الأَفْعَالِ، مِنْ قَوْلِ أبي الطيِّب[4]:

وقَدْ يَتَقارَبُ الوَصْفانِ جِدّاً ومَوْصُوفاهُما مُتَباعِدَانِ

---

[1] سقط الزند، ج ٢ ص ٢٥٩

[2] ديوانه ص ٣٢٠

[3] نفسه ص ٢٥٩

[4] ديوانُهُ ص ٥٥٨

ل. الرَّوْحُ تَمْضِي فَلا يُدْرى بِمَوْضِعِها وفي التُّرَابِ لَعَمْرِي يُرْفَتُ الجَسَدُ

أيْ تَخْرُجُ الرُّوحُ مِنَ الجَسَدِ إلى حَيْثُ لا تُعْلَمُ، وأمَّا الجَسَدُ فيُوارَى التَّرَابَ حَيْثُ يَبْلَى. وفي اللُّزومِ العَدِيْدُ مِنَ الأَبْياتِ التي بَثَّ فِيْها أبو العلاء شُكُوْكَهُ في الآخِرَةِ. وهُوَ يُقِرُّ بِأنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئاً عَنِ الرُّوْحِ ولا عَنِ الغايَةِ مِنَ الحَيَاةِ، ويَذْهَبُ إلى أبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ إذْ يَجْزِمُ أنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أحَدٌ قَطُّ شَيْئاً عَنْ هَذِهِ المسَائِلِ البَالِغَةِ الأَهَمِّيَّةِ. ومَعَ ذَلِكَ نُلاحِظُ أنَّ أبا العلاء بَنَى كَثِيراً مِنْ أبْياتِهِ التي عَبَّرَ فِيْها عَنْ هَذِهِ المعاني والأَفْكارِ مُنْطَلِقاً مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[1]:

تَمَتَّعْ مِنْ سُهادٍ أوْ رُقادٍ ولا تَأْمُلْ كَرىً تَحْتَ الرِّجَامِ
فإنَّ لِثالِثِ الحالَيْنِ مَعْنَىً سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ والمنَامِ

أيْ تَمَتَّعِ الآنَ بِمَا شِئْتَ مِنْ نَوْمٍ أوْ يَقْظَةٍ ولا تَرْجُ نَوْماً تَحْتَ الحِجَارَةِ أيْ في القَبْرِ؛ لِأنَّ لِلْحالَةِ الثَّالِثَةِ وهِيَ حالَةُ الموْتِ مَعْنَىً آخَرَ يَخْتَلِفُ عَنْ مَعْنَيَي النَّوْمِ والْيَقْظَةِ. وكَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ[2] :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ إلاَّ عَلَى شَجَبٍ والخُلْفُ في الشَّجَبِ
فَقِيْلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المرْءِ سالِمَةً وقِيْلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المرْءِ في العَطَبِ
ومَنْ تَفَكَّرَ في الدُّنْيا وغايَتِها أَقامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ والتَّعَبِ

أيْ اخْتَلَفَ النَّاسُ وأمْعَنُوا في الاخْتِلافِ ولَمْ يَتَّفِقُوا إلَّا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وهُوَ الموْتُ؛ ثُمَّ اخْتَلَفُوا في الموْتِ ذَاتِهِ اخْتِلافاً كَبِيْراً فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إذا ماتَ المرْءُ سَلِمَتْ مِنهُ النَّفْسُ؛ وقالَ آخَرُونَ: بَلْ يُصِيْبُها ما يُصِيْبُ الجَسَدَ مِنَ العَطَبِ؛ ومَنْ تَفَكَّرَ في الدُّنْيا وغَايَةِ

---

[1] ديوانه، ص ٤٧٨
[2] نفسه ص ٤٢٦

الحَيَاةِ فَسَيَنْتَهِي بِهِ تَفَكُّرُهُ إمَّا إلَى العَجْزِ عَنِ التَّوَصُّلِ إلى شَيْءٍ وإمَّا إلَى التَّعَبِ مِنْ عَنَاءِ التَّفَكُّرِ.

م. أُوْلُو الفَضْلِ في أَوْطانِهِمْ غُرَباءُ تَشُذُّ وتَنَأى عَنْهُمُ القُرَباءُ

مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[1]:

وهَكَذا كُنْتُ في أَهْلِي وفِي وَطَنِي إنَّ النَّفِيْسَ غَرِيْبٌ حَيْثُما كانَا

ن. ولَمْ يَدْفَعْ رَدَى سُقْرَاطَ لَفْظٌ ولا بُقْرَاطُ حامَى عَنْهُ طِبُّ

أيْ لَمْ يَسْتَطِعْ سُقْرَاطُ الانْتِفاعَ بِلَفْظِهِ لِيَدْفَعَ بِهِ عَنْهُ الموْتَ، كما لَمْ يَمْتَنِعْ بُقْرَاطُ مِنهُ بِطِبِّهِ، مِنْ قَوْلِ المتنبِّي[2]:

يَمُوْتُ رَاعِي الضَّأْنِ في جَهْلِهِ مِيْتَةَ جالِيْنُوسَ في طِبِّهِ

س. مُلُوكُنا الصَّالِحُونَ كُلُّهُمُ زِيْرُ نِسَاءٍ يَهَشُّ لِلزِّيَرَهْ

ولَمْ يَزَلْ أبو العلاء يَرْمِي أُمَرَاءَ زَمانِهِ بِهَذِهِ التُّهْمَةِ فِي اللُّزُومِ. وذَاتُ المعنَى عِنْدَ المتنبِّي إذْ يَقُولُ[3]:

أَلْهَى المَمَالِكَ عَنْ فخرٍ قَفَلْتَ بِهِ شُرْبُ المدَامَةِ والأَوْتَارُ والنَّغَمُ

---

[1] نَفْسُهُ، ص ١٦٨

[2] نفسه، ص ٥٧٤

[3] نفسه، ص ٤٢١

أيْ لَقَدْ حَقَّقْتَ مَجْداً انْشَغَلَ عَنْهُ أَرْبابُ المَمَالِكِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ عُكُوفٍ عَلَى شُرْبِ الخَمْرِ وإقامَةٍ عَلَى سَمَاعِ الغِنَاءِ، كما عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ[1]:

ما الذِي عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايا　　　كالذِي عِنْدَهُ تُدارُ الشَّمُولُ

أيْ شَتَّانَ بَيْنَ مَنِ انْشَغَلَ بِالحُرُوبِ والقِتالِ، ومَنِ الْتَهَى بِالخَمْرِ والسُّكْرِ.

فَمِنْ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ يَتَّضِحُ لَكَ جَلِيّاً أَنَّ شاعِرَنا قَدِ احْتَذَى حَذْوَ المتنبِّي وتَأَسَّى بِهِ في نَظْمِ أَبْيَاتِهِ ذاتِ الحِكَمِ والأَمْثالِ، وأَنَّهُ كانَ مَدِيْناً لَهُ كَثِيْراً في مَعانِيْهِ فِيْها كما كانَ مَدِيْناً لَهُ في أَلْفاظِهِ. ولَكِنَّا نُسْرِعُ فَنَقُولُ إنْصافاً لِأَبِي العلاءِ إِنَّ المتنبِّي نَفْسَهُ تَأَثَّرَ وتَأَسَّى بِكَثِيْرٍ مِمَّنْ سَبَقَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ، لاسِيَّما أبوتَمَّامٍ، في المعانِي التِي أَخَذَها مِنهُ أَبُو العلاء. خُذْ مَثَلاً قَوْلَ أبِي العلاءِ:

غِنَى زَيْدٍ يَكُوْنُ لِفَقْرِ عَمْرٍو　　　وأَحْكامُ الحَوَادِثِ لا يُقَسْنَهْ

وقال أَبُو الطَّيِّب المتنبِّي[2]:

بِذَا قَضَتِ الأَيَّامُ ما بَيْنَ أَهْلِها　　　مَصائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

وقالَ أبو تَمَّامٍ[3]:

ما إنْ تَرَى شَيْئاً لِشَيْءٍ مُحْيِياً　　　حَتَّى تُلاقِيَهُ لِآخَرَ قاتِلا

وقالَ أبو العلاءِ:

إِقْرَأْ كَلامِي إذا ضَمَّ الثَّرَى جَسَدِي　　　فإنَّهُ لَكَ مِمَّنْ قالَهُ خَلَفُ

---

[1] نفسه، ص ٤٢٩

[2] ديوانه، ص٣١٣.

[3] ديوانه، ص٣٣٧.

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ المتنبِّي:

وما الدَّهْرُ إلَّا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إذا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وأَخَذَهُ المتنبِّي مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

ويَزِيْدُها مَرُّ اللَّيَالِي جِدَّةً وتَقَادُمُ الأَحْقَابِ حُسْنَ شَبَابِ

وقالَ أبو العلاء:

وإنْ أنا قُلْتُ لاتَحْمِلْ حُسَاماً فَهُزَّ أَخَا السَّفَاسِقِ واضْرِبَنِّي

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ المتنبِّي:

وماذاكَ بُخْلاً بِالنُّفُوْسِ عَنِ القَنَا ولَكِنَّ صَدْمَ الشَّرِّ بِالشَّرِّ أحْزَمُ

حَتَى رَجَعْتُ وأَقْلامِي قَوَائِلُ لِي المجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ المجْدُ لِلْقَلَمِ

وأَخَذَ المتنبِّي قَوْلَيْهِ هَذَيْنِ مِنْ قَوْلَيْ أبي تَمَّامٍ:

وأَخافُكُمْ أنْ تُغْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ إنَّ الدَّمَ المعْتَزَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

السَّيْفُ أَصْدَقُ أنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

والزَّعْمُ بِأَصالَةِ المتنبِّي وابْتِكارِهِ في شِعْرِهِ لَمْ يَكُنْ قائماً عَلَى قُدْرَاتِهِ الفِكْرِيَّةِ الابْتِكارِيَّةِ، ولَكِنْ عَلَى مَقْدِرَتِهِ عَلَى التَّعْبِيْرِ عَنِ المعَانِي التي يَأْخُذُها مِنْ غَيْرِهِ بِوُضُوْحٍ وصَفاءٍ وإِيْجَازٍ وسَبْكٍ مُتْقَنٍ، ثُمَّ لايَدَعُها حَتَّى يُفْرِغَ فِيْها رُوْحَهُ الحَيَوِيَّ الجَزْلَ. وذَاتُ هَذَا القَوْلِ يُمْكِنُ سَوْقُهُ في حَقِّ أَبِي العلاءِ، ولْنَسْتَشْهِدْ هُنا بِقَوْلِهِ:

أبْكارُ هَذِي المعَانِي ثَيِّبَاتُ حِجاً فِي كُلِّ عَصْرٍ لَهَا جَانٍ ومُفْتَرِعُ

عَلَى أَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَيْنا أنْ نَضَعَ فِي حُسْبانِنا أَنَّهُ عَلَى حِيْنِ أَنَّ حِكَمَ المتنبِّي وأَقْوَالَهُ السَّائِرَةَ لا تُمَثِّلُ إِلَّا وَمْضَاتٍ مِنْ قَرِيْحَتِهِ ومَلَكَتِهِ ولَحَظَاتِ تَفَكُّرٍ عارِضَةٍ فِي حَيَاة هَذا الشَّاعِرِ الأُخْرَى التي تَحْتَاجُ إِلَى تَهْذِيْبِ النَّفْسِ وإِصْلاحِها، تُمَثِّلُ حِكَمُ أَبِي العلاءِ وأَمْثالُهُ ذاتَ مادَّةِ اللُّزُومِ وجَوْهَرَهُ الذِي أقامَهُ عَلَيْهِ، أيْ تُمَثِّلُ المعْتَقَداتِ والقَناعاتِ العَقْلِيَّةَ والآرَاءَ والمعَانِيَ الأَخْلاقِيَّةَ التي شَغَلَتِ الجُزْءَ الأَكْبَرَ مِنْ مَعَانِيْهِ وأَفْكارِهِ، والتي كان يُلاحِظُها في حَيَاتِهِ اليَوْمِيَّةِ وسَعَى إِلَى إِفْهامِها لِمُعاصِرِيْهِ وكُلِّ الأَجْيَالِ الآتِيَةِ مِنْ خِلالِ نَقْلِها إِلَيْهِمْ عَنْ طَرِيْقِ الشِّعْرِ، فَقَدْ كانَ يَرى أَنَّ الشِّعْرَ الجَيِّدَ يُلْبِسُ المعْنَى والفِكْرَةَ ثَوْبَ الخُلُودِ؛ وذَلِكَ إِذْ يَقُولُ في اللُّزُومِ:

لا شَيْءَ مِثْلُ قَوافِي الشِّعْرِ جائلَةً ... أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ أعْناقاً وآطالا
إنْ يَنْقُلِ الدَّهْرُ عَنْ عاداتِهِ بَطَلاً ... فَمَا تَزالُ مَعَانِيهِنَّ أبْطَالا

(أيْ لَنْ تَجِدَ مِثْلَ خَيْلِ قَوافِي الشِّعْرِ السَّابِقَةِ فَهِيَ لا تَهِنُ قُوَاها ولا تَضْمُرُ أَعْضاؤُها عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، ولَئِنْ أَتَى الموْتُ عَلَى الأَبْطالِ، فَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ المعَانِي أبْطالاً عَلَى صَفْحاتِ الدَّهْرِ). ولِلنَّاقِدِ المعاصِرِ أنْ يُعِيْدَ النَّظَرَ فِيْما إذا كانَ المتنبِّي حَقّاً هُوَ أَشْهَرَ حَكِيْمٍ بَيْنَ الشُّعَرَاءِ العَرَبَ، وما إذا كانَتْ أبْياتُهُ الحِكَمِيَّةُ وأَقْوالُهُ السَّائِرَةُ هِيَ الأَجْوَدَ. ولا رَيْبَ أَنَّ إِيْجازَ العِبارَةِ وسَبْكَها عِنْدَ المتَنَبِّي مُتَفَرِّدٌ ولا مَثِيْلَ لَهُ بَيْنَ الشُّعَراءِ العَبَّاسِيِّيْنَ جَمِيْعاً، غَيْرَ أَنَّ فِي لُزُوْمِ أَبِي العلاءِ تُوْجَدُ كَثْرَةٌ كاثِرَةٌ مِنَ الأَبْياتِ جَيِّدَةِ السَّبْكِ تَعْدِلُ أَبْيَاتَ المتنبِّي في الإِيْقاعِ والتَّرَنُّمِ ولا تَقِلُّ عَنْها بِحَالٍ. وإذا تَذَكَّرْنا كَلِمَاتِ القِدِّيْسِ بُوْلُس: (إِنْ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ بِأَلْسِنَةِ الإِنْسِ والملائِكَةِ ولا مَحَبَّةَ لِي، فَقَدْ صِرْتُ إِذَنْ نُحاساً يَرِنُّ أَوْ صَنْجاً يَطِنُّ)[1] لَوَضَعْنا شاعِرَنا فِي مَرْتَبَةِ الشَّرَفِ الأُوْلَى بَيْنَ الحُكَماءِ العَرَبِ؛ لِأَنَّهُ طَبَّقَ

---

(1) مِنَ الإِصْحاحِ الرَّابعَ عَشَرَ مِنَ العَهْدِ الجَدِيْدِ (المترجم).

فِي نَفْسِهِ أَغْلَبَ ما كانَ يَعِظُ بِهِ ومارَسَ فِعْلاً ما كانَ يَدْعُو إِلَيْهِ، وأَخْلَصَ فِي الانْشِغَالِ بِكَثِيْرٍ مِنْ قَضَايا حَيَاةِ البَشَرِ ومَشَاكِلِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّنْ سَبَقُوْهُ عَلَى حِيْنٍ كانَ المتنبِّي أَحَدَ مَنْ نَطَقَتْ عَنْهُمُ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ ﴿يَقُوْلُوْنَ مَا لايَفْعَلُوْنَ﴾[1].

(1) الآيَةُ ٢٢٦ مِنْ سُوْرَةِ الشُّعَرَاءِ.

القِسْمُ العاشِرُ

اللُّزُومُ مُبَشِّراً بِرِسالَةِ الغُفْرَانِ

أَمْلَى أبو العلاء رِسالَةَ الغُفْرَانِ نَثْراً؛ ولَكِنَّها مَعَ ذَلِكَ تَحْمِلُ بَعْضَ أَجْمَلِ الصِّفاتِ التي تُوْجَدُ فِي شِعْرِه. فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِلُغَةِ المجازِ تَشْبِيهاً واستعارةً وَكَذَلِكَ بالإشارَاتِ، وحَوَتْ فِقَراتٍ فاخِراتٍ مِنْ تَهْوِيماتِ أبي العلاءِ التَّخَيُّلِيَّةِ وأَمْثِلَةً دَقِيْقَةً مِنْ تَهَكُّمِهِ وسُخْرِيَتِه. ونَحْنُ عازِمُونَ هُنا عَلَى أَنْ نُعْطِيَ عَنْها بَيَاناً مُوْجَزاً، ومِنْ ثَمَّ نُحاوِلُ أَنْ نَعْرِضَ لِلتَّشابُهِ بَيْنَ بَعْضِ جَوَانِبِ أُسْلُوْبِها وبَيْنَ أُسْلُوْبِ اللُّزُوْمِ.

فَقَدْ كَتَبَ أبو العلاء رِسَالَةَ الغُفْرَانِ رَدّاً عَلَى رِسَالَةٍ تَفِيْضُ بِالعِلْمِ والمعْرِفَةِ كانَ قَدْ بَعَثَ بِها إِلَيْهِ شَخْصٌ يُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ القارِحِ. وقَدْ أثارَ أبو العلاء في رِسالَتِهِ هَذِهِ عَدَداً مِنَ المشْكِلاتِ العِلْمِيَّةِ وضَمَّنَها آراءَهُ في بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ البارِزَةِ ومَشاهِيْرِ أربابِ التفْكِيرِ الحُرِّ. وهِيَ تَتَكَوَّنُ من جُزْئَيْنِ أَوَّلُهُما أَرَادَ بِهِ أَصْلاً مُقَدِّمَةً مَدْحِيَّةً لِلرِّسالَةِ (عَلَى نَحْوِ ما كان مَعْرُوفاً في الآدَابِ والفُنُونِ عَصْرَئِذٍ) وهُوَ الجُزْءُ الأَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ الفَنِّيَّةِ. ويَسْتَهِلُّ أبوالعلاء رِسالَةَ غُفْرَانِهِ بِالثَّناءِ عَلَى ابْنِ القارِحِ عَلَى كَلِمَتِهِ، أَيْ رِسالَتِهِ الكَرِيْمَةِ؛ ثُمَّ يُشْعِرُنا عَلَى نَحْوٍ غَرِيْبٍ أَنَّ عِبارَةَ (ابْنِ القارِحِ) هَذِهِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى شَجَرَةٍ مُعْجِزَةٍ في السَّماءِ، لِأَنَّ القرءانَ يَقُولُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ﴾ ثُمَّ يَأْخُذُ أبو العلاءِ فِي وَصْفِ المسَرَّاتِ التي يُصِيْبُها ابْنُ القارِحِ فِي الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْبِرُنا كَيْفَ اجْتَازَ ابْنُ القارِحِ امْتِحاناتِ الحِسابِ الصَّعْبَةَ وكَيْفَ جازَ مَمَرَّ الصِّرَاطِ وكَيْفَ تَمَكَّنَ بَعْدَ مُجادَلَةٍ طَوِيْلَةٍ مَعَ حُرَّاسِ الجَنَّةِ مِنَ الملائِكَةِ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ، يُساعِدُهُ في ذَلِكَ نَبِيُّ اللهِ إِبْرَاهِيْمُ. ثُمَّ يُفِيْدُ أبو العلاءِ مِنْ خَبَرِ المِعْرَاجِ[1]، ومِنْ وَصْفِ القرءانِ لِلْجَنَّةِ والنَّارِ

---

(1) رُبَّما كانَ مِنَ الخَطَأِ اسْتِخْدامُ كَلِمَةِ (مِعْرَاج) مَعَ كَلِمَةِ (إِسْراء)، والصَّحِيْحُ (العُرُوجُ) لِأَنَّ المِعْرَاجَ هُوَ آلَةُ العُرُوجِ ولَيْسَ مَصْدَراً كالإِسْراءِ. وخَبَرُ الإِسْرَاء ثابِتٌ بِسُوْرَةِ الإِسْرَاءِ، وعِنْدَ القَومِ أَنَّ خَبَرَ (العُرُوجِ) مَكانُهُ سُوْرَةُ النَّجْمِ. ولِلّهِ دَرُّ السُّهَيْلِيِّ

فَيُعْطِينا صُوَراً حَيَّةً نابِضَةً لِمَجالِسَ مُضْحِكَةٍ في الجَنَّةِ ولاجْتِماعاتِ قَصْفٍ وشُرْبٍ يُلاقِي فَيْها ابْنُ القارِحِ قُدَامَى الرُّجّازِ والشُّعَراءِ وكِبارَ الرُّوَاةِ ويَسْتَمْتِعُ بِصُحْبَتِهِمْ. كَمَا يُعْطِيْنا أبو العلاء صُوَراً لِمَناظِرَ مُفْظِعَةٍ مُفْزِعَةٍ لِلْعَذابِ في النّارِ التي يَزُوْرُها ابْنُ القارِحِ يَسْتَطْلِعُ أَخْبارَ أهْلِها بِدافِعِ الفُضُولِ؛ فَيَلْقَى فِيْها إبْلِيْسَ وبَعْضَ شُعَراءِ الجاهِلِيَّةِ والشّاعِرَ الأَعْمَى الزِّنْدِيْقَ بَشّارَ بْنَ بُرْدٍ وقَدْ صارَ بَصَرُهُ حَدِيْداً وهُوَ يُجْلَدُ باسْتِمْرارٍ بِسِياطٍ مِنَ الحَدِيْدِ المحْمَرِّ ناراً.

ويُخْبِرُنا أبو العلاء أنَّ ابْنَ القارِحِ زارَ، وهُوَ في طَرِيْقِهِ إلى النّارِ، مَدائِنَ الجِنِّ مِنَ الجَنَّةِ، ومَكانُهُمْ فِيْها سَبِخٌ ومُكْتِئِبٌ (ذُوْ أَدْحالٍ وغَمالِيْلَ) فَيَلْقَى فِيْها شُيُوخاً لَهُمْ ذَوِيْ شُعُورٍ ولِحًى شُمْطٍ ووُجُوْهٍ أَخْطَأَها بَهاءُ وُجُوْهِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الإنْسِ. ويُعَرِّفُ هَذِهِ المدائِنَ عَلَى أَنَّها جَنَّةُ العَفارِيْتِ أُدْخِلَهَا الجِنُّ المؤْمِنُوْنَ، ثُمَّ يَدْخُلُ فِي حِوارٍ مَعَ أَحَدِهِمْ فَيَجِدُهُ عالِماً ضَلِيْعاً في الأَدَبِ العَرَبِيِّ، قَدْ تَفَوَّقَ في عِلْمِهِ بِهِ عَلَى أَكْثَرِ عُلَماءِ الجَنَّةِ. ويُنْشِدُهُ هَذا الجِنِّيُّ قَصِيْدَتَيْنِ مِنْ شِعْرِ الجِنِّ قَدْ حَوَتا وَصْفَ مُغامَراتٍ فِي الدُّنْيا الفانِيَةِ. وبَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ النّارِ يَلْقَى ابْنُ القارِحِ أَبانا آدَمَ فَيُغايِظُهُ مُمازِحاً فِيْما يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الخَطِيْئَةِ الأُوْلَى فَيَقُوْلُ الشَّيْخُ مِمّا يَنْطَوِي عَلَى فَلْسَفَةٍ (أَعْزِزْ عَلَيَّ بِكُمْ مَعْشَرَ أُبَيْنِيَّ .. أَبَيْتُمْ إلّا عُقُوْقاً وأَذِيَّةً). ثُمَّ يَلْقَى ابْنُ القارِحِ إحْدَى حَيّاتِ الجَنَّةِ تَتَحَوَّلُ لَهُ فَتاةً تُحاوِلُ أَنْ تُغْرِيَهُ بِاللَّذَّةِ مَعَها، فَيُذْعَرُ مِنْها ويَذْهَبُ مُهَرْوِلاً إلَى الجَنَّةِ لِيَلْقَى الحُوْرِيَّةَ التي كانَ قَدْ لَقِيَها مِنْ قَبْلُ.

وبَعْدَ ذلكَ يَزُوْرُ جَنَّةَ الرُّجَّزِ أَوْ شُعَراءِ الرَّجَزِ الذِيْنَ يَعُدُّهُمْ أَدْنَى الشُّعَراءِ؛ إذْ يَرَى الرَّجَزَ مِنْ سَفْسافِ القَرِيْضِ؛ ثُمَّ يَنْتَقِدُهُمْ عَلَى تَعاظُلِهِمْ وتَكَلُّفِهِمْ ويُخْبِرُهُمْ أَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا

-إذْ ردَّ عَلَى مَنْ ساوَى بَيْنَ (أَسْرَى) و(سَرَى) في المعْنَى. ووَاضِحٌ مِنَ الآيَةِ الكَرِيْمَةِ أنَّ (أسْرَى) مُتَعَدٍّ لَيْسَ غَيْرُ، وغَيْرُهُ -إنْ وُجِدَ- فَغَيْرُ فَصِيْحٍ ولا مَعْنَى لَهُ. انظُرْ خَبَرَ الإسْراء بِسِيْرَةِ ابْنِ هِشامٍ، ج١ ص ٣٩٦؛ وأوَّلَ سُوْرَةِ الإسْرَاء وأَوَائِلَ سُوْرَةِ النَّجْمِ، بِحاشِيَةِ الصّاوِي عَلَى الجلالَيْنِ. (التُّرْجُمان).

المَنازِلَ المتَواضِعَةَ التي نَزَلُوها فِي الجَنَّةِ: (قَصَّرتُمْ أيُّها النَّفرُ فَقُصِّرَ بِكُمْ). ثُمَّ يَعُودُ ابْنُ القارِحِ فِي نِهايَةِ الأَمْرِ إلَى قَصْرِهِ لِيُخلَّدَ فِيهِ سَعِيْداً.

وأَمَّا الجُزْءُ الثَّانِي مِنْ رِسالَةِ الغُفْرانِ فَيَتَكَوَّنُ مِنْ مُذَكِّراتٍ نَقْدِيَّةٍ فِي الزَّنادِقَةِ والشُّعَراءِ والفَلاسِفَةِ والصُّوْفِيَّةِ وبَعْضِ مُعاصِرِي أَبِي العلاءِ. وقَدْ جاءَ بِذَلِكَ فِي قالَبٍ نَثْرِيٍّ صَرِيْحٍ، ولِذَلِكَ فَهُوَ لَيْسَ بِذِي إمْتَاعٍ مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ الشِّعْرِيَّةِ. فَكُلٌّ مِنْ قُدْراتِ أبِي العلاءِ الخَيالِيَّةِ وفُكاهَتِهِ وسُخْرِيَتِهِ وظُرْفِهِ وتَذَوُّقِهِ لِلنُّكْتَةِ وتَبَحُّرِهِ الفائِقِ فِي مَعارِفِ اللُّغَةِ والجِنِّ والعَفارِيْتِ والخُرافاتِ والأَساطِيْرِ وأَوابِدِ العَرَبِ ومَأْثُوْراتِهِمْ قَدْ تَجَلَّتْ حَقّاً فِي الجُزْءِ الأَوَّلِ مِنْ رِسالَةِ الغُفْرانِ. فَالطَّرِيْقَةُ التي سَبَكَ بِهَا آراءَهُ فِي النَّحْوِ وفِي المسَائِلِ الأَدَبِيَّةِ مَعَ المادَّةِ التي اسْتَعارَها مِنَ القرءانِ والحَدِيْثِ وشُرُوْحِ الشِّعْرِ فِي قِطْعَةٍ واحِدَةٍ مُتَماسِكَةٍ مِنَ الحِكَايَةِ التَّصْوِيْرِيَّةِ الفاخِرَةِ المَلِيْئَةِ بِالفُصُولِ ذَاتِ الدُّعَابَةِ والفُكاهَةِ كالملاحاةِ الدِّرامِيَّةِ بَيْنَ الأَعْشَى والنَّابِغَةِ الجَعْدِيِّ[1]، وكَنادِرَةِ الحَيَّةِ المسْتَطْرَفَةِ التي تَتَحَوَّلُ فِيْها الحَيَّةُ إلى امْرَأَةٍ جَمِيْلَةٍ[2]، وقِصَّتِهِ الخَيالِيَّةِ عَنِ الشَّجَرَةِ السِّحْرِيَّةِ التي كانَتْ تَسْتَكِنُّ فِي لُبِّ ثِمَارِها الحُوْرِيَّاتُ (وقَدْ أَخْبَرَنا أَنَّ إحْداهُنَّ تَبَدَّتْ لِابْنِ القارِحِ ولَمْ يُعْجِبْهُ ما بِها مِنْ هَيَفٍ وضُمُوْرٍ، ولَكِنَّ أَرْدَافَها صارَتْ، تَلْبِيَةً لِرَغْبَتِهِ، ضَخْمَةً كَكُثْبانِ رَمْلِ عالِجٍ[3])، هَذِهِ الطَّرِيْقَةُ لا نَظِيْرَ لَها فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ قاطِبَةً. ولَرُبَّما كُتِبَتْ بَعْضُ الأَعْمالِ الأَدَبِيَّةِ الشَّبِيْهَةِ بِرِسالَةِ الغُفْرانِ قَبْلَ زَمانِ أَبِي العلاءِ، عَلَى نَحْوِ ما ذَهَبَ إلَيْهِ أَسِيْنْ فِي كِتابِهِ (الإسْلامُ والكُومِيْدِيَا الإلَهِيَّةُ)[4] غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَنا مِنْها شَيْءٌ. ولَكِنَّ هُناكَ كِتاباً بِعُنْوانِ (الطَّوَابِعُ والزَّوَابِعُ) يَصِفُ رِحْلَةً فِي أَرْضِ الجِنِّ قامَ بِها صاحِبُ الكِتابِ أَبُو عامِرِ بْنُ

---

(1) رِسالَةُ الغُفْرانِ، ص٤٣.

(2) نفسه ص١١٣..

(3) نفسه ص٧٣.

(4) طبعة ١٩٢٦ ص٥٤ وما بعدها.

شُهَيْدٍ (أَحَدُ مُعَاصِرِيْ أبِي العَلاءِ الذِيْنَ عاشُوا في إسْبَانيا)[١]. وقَدْ بَقِيَ لَنَا مِنهُ جُزْءٌ صالِحٌ[٢]. ويَبْدُو أنَّ كِتابَ (الطَّوَابِعِ) هَذا كانَ قَدْ كُتِبَ قَبْلَ رِسالَةِ الغُفْرَانِ؛ لِأنَّ أبا عامِرٍ مَاتَ فِي سَنَةِ ٤٢٦هـ أيْ بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ تَأْلِيْفِ رِسالَةِ الغُفْرَانِ، وكانَ أَصَابَهُ مَرَضٌ خَبِيْثٌ قَبْلَ سَنَوَاتٍ مِنْ مَوْتِهِ. ويَصِفُ ابْنُ بَسَّامٍ في كِتابِهِ النَّقْدِيِّ (الذَّخِيْرَة)، أباعامِرٍ بِأَنَّهُ مُسْتَهْتِرٌ كَتَبَ كَثِيْراً وقَرَأَ قَلِيْلاً[٣]. ولِذَلِكَ يَبْعُدُ جِدّاً أنْ يَكُوْنَ قَدْ تَأَسَّى فِي كِتابِهِ بِرِسالَةِ غُفْرَانِ أَبِي العلاءِ، كَمَا يُسْتَبْعَدُ أنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ عَكْسُ ذَلِكَ، لِأنَّ أبا العلاء لَمْ يَذْكُرِ ابْنَ شُهَيْدٍ قَطُّ فِي أيِّ مِنْ كِتَابَاتِهِ.

وبَعْدَ هَذَا البَيَانِ الموْجَزِ عَنْ رِسالَةِ الغُفْرَانِ، يَحْسُنُ بِنا الآنَ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَى جَوَانِبَ أُسْلُوبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يُشارِكُ فِيْها اللُّزُومُ هَذِهِ الرِّسالَةَ. فالمعَانِي والأفْكارُ الخَيالِيَّةُ التِي نَجِدُها فِي (الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ) التِي تَصِيْرُ شَجَرَةً فِي الجَنَّةِ[٤]، وأَبْياتُ لَبِيْدٍ التي تَصِيْرُ قُصُوْراً بَدِيْعَةً في الجَنَّةِ[٥]، والغَزَالَةُ التي يَفْتَرِسُها الأَسَدُ لا تَتَأَذَّى مِنهُ بِظُفْرٍ ولا نابٍ بَلْ تَلْتَذُّ بِافْتِرَاسِهِ بِمِقْدَارِ ما يَلْتَذُّ هُوَ بِهِ[٦]، فَكُلُّ هَذِهِ المعانِي وأَمْثَالُها مِمَّا جاءَ فِي رِسَالَةِ الغُفْرانِ، يُمْكِنُنا أنْ نُقِرَّ بِها عَلَى أنَّها تَطَوُّرَاتٌ لِلتَّأَمُّلاتِ الخَيالِيَّةِ الغَرِيْبَةِ التي يَفِيْضُ بِها اللُّزُومُ. فَمَثَلاً كَثِيْراً ما يُرَدِّدُ أبو العلاء مَعْنَى أنَّ الكَوَاكِبَ في السَّماءِ مُصَوَّرَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَى الأَرْضِ حَيْوَاناتٍ عَلَى الأَرْضِ هِيَ الحَيْوَاناتُ المعْرُوفَةُ بِأَسْمَائِها[٧]. وهُوَ يَصِفُ كِتابَ الجَرْمِيِّ المسمَّى (الفَرْخَ)

---

(١) وَفَيَات الأعْيانِ ج١، ص٤٢. وقَدْ وُلِدَ أبوعامِرٍ أحمدُ بْنُ شُهَيْدٍ في ٣٨٢هـ).

(٢) الذَّخِيْرَة فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الجزِيْرَة، لابْنِ بَسّام، القاهرة، ١٩٣٩م، ج١، ص٢١٠، وما بعدها .

(٣) انْظُرْ مِنهُ ص ١٦٢.

(٤) رِسالَةُ الغُفْرَانِ، ص ٨.

(٥) نفسه ص ٦٣.

(٦) نفسه ص ٨٣.

(٧) اللزوم، ج١،ص ٩٨.

بِأَنَّهُ فَرْخٌ، ثُمَّ يُطَوِّرُ هَذِهِ الصُّوْرَةَ فِي القِطْعَةِ الرَّائِعَةِ البارِعَةِ التي سَبَقَ أنِ اسْتَشْهَدْنا بِها في هَذَا الكِتابِ. وتَرَاهُ يُشَبِّهُ سِكِّيْراً بِذِي الْقَرْنَيْنِ، الشَّخْصِيَّةِ القُرْءانِيَّةِ المعْرُوفَةِ، الذِي كانَ مَلِكاً صالِحاً وجَوَّاباً فِي الآفَاقِ وذا قُوَّةٍ عَظِيْمَةٍ، لِأَنَّهُ أُوْتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبباً (يُحَدِّثُنا القرءان أَنَّهُ ارْتَحَلَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ حَتَّى بَلَغَ مَطْلِعَها ووَجَدَ ثَمَّ قَوْماً مُتَوَحِّشِيْنَ لا يَكادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً، يَمْشُونَ عُرَاةً، فَأَقَامَ سَدّاً مِنَ الحَدِيْدِ وذَائِبِ النِّحاسِ لِيَمْنَعَ جُمُوْعَ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ المفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ قَتْلاً ونَهْباً). يَقُولُ أبو العلاء عَنِ الرَّجُلِ السِّكِّيْرِ: (عَجَباً لَهُ يَجْعَلُ مِنْ زُجاجِ خَمْرِهِ سَدّاً دُوْنَ عَقْلِهِ حَدِيْدِيّاً ولَمْ يَحْتَجْ في ذَلِكَ إلَى النِّحاسِ الذَّائِبِ، ولا هُوَ بِالرَّجُلِ ذِي القُوَّةِ، فَهُوَ يَرَى شَمْسَ خَمْرِهِ تَغْرُبُ فِي كَأْسِهِ وتَطْلُعُ مِنْ أُفُقِ كَأْسٍ مُلِئَتْ مِنْ جَدِيْدٍ، وهُوَ مُقِيْمٌ في مَكانِهِ لا يَنْهَضُ بِرِحَلٍ ولا أَسْفَارٍ، ويَكْتَفِي مِنْ جُمُوْعِ الأَتْبَاعِ بِنَدِيْمَيْنِ اثْنَيْنِ، وهُوَ بِذَلِكَ كَذِي القَرْنَيْنِ، إِلَّا أَنَّ ذا القَرْنَيْنِ حَكِيْمٌ سَدِيْدُ الرَّأْيِ، وهَذَا ضَالٌّ:

عَجِبْتُ لَهُ بَنَى بِزُجَاجِ رَاحٍ دُوَيْنَ العَقْلِ سَدّاً مِنْ حَدِيْدِ

ولَمْ يَحْتَجْ إلَى عَوْنٍ بِقِطْرٍ ولَمْ يَكُ صاحِبَ الأَيْدِ الشَّدِيْدِ

رَأَى شَمْسَ المدَامِ تَغُوْرُ فِيهِ وتَطْلُعُ فِي ذُرَى قَدَحٍ جَدِيْدٍ

مُقِيْماً غَيْرَ ذِي سَفَرٍ تَكَفَّا بِنَدْمَانَيْهِ مِنْ جَمِّ العَدِيْدِ

كَذِي القَرْنَيْنِ لَكِنْ ضَلَّ هَذا ويُسِّرَ ذَاكَ لِلرَّأْيِ السَّدِيْدِ

وأَكْبَرُ مَلْمَحٍ مِنْ مَلامِحِ التَّشَابُهِ بَيْنَ اللُّزُومِ ورِسالَةِ الغُفْرَانِ تَجِدُهُ في فُصُولِ الحِكايَةِ والقِصَّةِ، وإنْ تَكُنْ رِسالَةُ الغُفْرَانِ قَدْ مَنَحَتْ أبَا العلاء مَجَالاً مُتَّسِعاً لِيُظْهِرَ بِهِ مَقْدِرَاتِهِ القَصَصِيَّةَ بَيْنَما اكْتَفَى فِي اللُّزومِ باسْتِخْدَامِ الطَّرَائِفِ والنَّوَادِرِ الأَدَبِيَّةِ وقِطَعاً مِنْ حِكايَاتٍ قَصَّها أَدَوَاتٍ بَيَانِيَّةً يُؤَدِّي بِها أَفْكارَهُ ويُبَلِّغُ بِها آراءَهُ في الدِّيْنِ والأَخْلاقِ، ويُعْلِنُ بِها آراءَهُ الانْتِقادِيَّةِ فِي مُجْتَمَعِهِ المعاصِرِ. والأَوْصَافُ النَّاضِرَةُ النَّاطِقَةِ التي نَجِدُها

هُنا إنَّما تَحْمِلُ بَراعِمَ ذَلِكَ الأُسْلُوبِ الخَيَالِيِّ الذِي نَجِدُهُ فِي رِسالَةِ الغُفْرَانِ. فَحِكاياتُ اللُّزُومِ تُصَوِّرُ بَعْضَ مَلامِحِ بِيْئَةِ أَبِي العلاء تَصْوِيْراً حَيّاً، وتَكْشِفُ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ بَعْضَ الجَوَانِبِ المهِمَّةِ فِي نَفْسِيَّةِ البَشَرِ وهَاكَ هَذِهِ الأَمْثِلَةَ :

المِثالُ الأَوَّلُ(١)

لَوْ كانَ لِي أَمْرٌ يُطاوِعُ لَمْ يَشِنْ	ظَهْرَ الطَّرِيْقِ يَدَ الحَيَاةِ مُنَجِّمِ
أَعْمَى تَحَيَّلَ أَوْ بَصِيْرٌ فاجِرٌ	نَوْءُ الضَّلالِ بِهِ مُرِبٌّ مُثْجِمُ
يَغْدُو بِأَسْهُمِهِ يُحَاوِلُ مَكْسَباً	فَيُدِيْرُ أُسْطُرْلابَهُ ويُرَجِّمُ
وَقَفَتْ بِهِ الوَرْهَاءُ وهْيَ كَأَنَّمَا	عِنْدَ الوُقُوْفِ عَلَى عَرِيْنٍ تَهْجُمُ
سَأَلَتْهُ عَنْ زَوْجٍ لَهَا مُتَغَيِّرٍ	فاهْتَاجَ يَكْتُبُ بِالرِّقانِ ويُعْجِمُ
ويَقُوْلُ ما اسْمُكِ واسْمُ أُمِّكِ إِنَّنِي	بِالظَّنِّ عَنْ ما فِي الغُيُوبِ مُتَرْجِمُ
يُوْلِي بِأَنَّ الجِنَّ تَطْرُقُ بَيْتَهُ	ولَهُ يَدِيْنُ فَصِيْحُها والأَعْجَمُ
فالمرْءُ يَكْدَحُ فِي البِلادِ وعِرْسُهُ	فِي المِصْرِ تَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ يُوْجَمُ

فَهَذا مَشْهَدٌ مِنْ جَوَانِبِ مُجْتَمَعِ أَبِي العلاء تُصَوِّرُهُ هَذِهِ الأَبْياتُ الرَّائِعَةُ، فَلَوْ كانَ الأَمْرُ بِيَدِ أَبِي العلاءِ، لَمَا تَرَكَ مُنَجِّماً يُنَجِّسُ بِوُجُوْدِهِ الطُّرُقاتِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَعْمَى مُحْتالٌ أَوْ بَصِيْرٌ فاجِرٌ، يَصُبُّ عَلَى النَّاس شَرَّهُ كالمطَرِ، فَهُوَ يَغْدُو عَلَى النَّاسِ بِأَسالِيْبِهِ الخَبِيْثَةِ ويَحْمِلُ أُسْطُرْلابَهُ الذِي يُدِيْرُهُ ويُرَجِّمُ لَهُمْ بِهِ بِما لا يَعْلَمُ، وتَأْتِي إِلَيْهِ المرْأَةُ الحَمْقَاءُ تَقِفُ أَمَامَهُ خائِفَةً كأَنَّها تَلِجُ عَرِيْنَ أَسَدٍ، تَسْأَلُهُ عَنْ زَوْجِها المتَغَيِّرِ، فَيَهْتَاجُ ثُمَّ يُقْبِلُ يَكْتُبُ أَحْرُفَهُ وطَلامِسَهُ ويَسْأَلُها عَنِ اسْمِها واسْمِ أُمِّها زَاعِماً لَها أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يُخْبِرَ بِما فِي الغَيْبِ، ويُقْسِمُ لَهَا أَنَّهُ يَمْلِكُ الجِنَّ عَرَبِيَّهُ وعَجَمِيَّهُ، فالعَجَبُ لِلنِّساءِ يَكْدَحُ أَزْوَاجُهُنَّ فِي البِلادِ وهُنَّ يَجْلِنَ فِي المدُنِ يَأْكُلْنَ أَخْبَثَ الأَطْعِمَةِ.

---

(١) اللزوم، ج٢، ص٢٦٩.

المِثالُ الثَّاني[1]

(شَيْخٌ يتزَوَّجُ، ثُمَّ تجِدُهُ بَعْدَ حِيْنٍ كَأَنَّهُ جَمَلٌ مُثْقَلٌ في وَحَلٍ؛ وزَوْجَتُهُ مِنهُ في تَعَبٍ دَائِمٍ، لا تختَضِبُ ولا تَكْتَحِلُ؛ فَقَدْ مَلَّتْهُ، فَهِيَ ماتَزالُ تُؤَمِّلُ فِي نَفْسِها مَوْتَهُ وإنْ أَحْسَنَ إلَيْها (مَتَى يَموتُ لِأَتزَوَّجَ مَكانَهُ فَتىً، لِأَنَّهُ لايَزالُ في حَرَمٍ لا يحِلُّ مِنهُ):

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ فَأَلْفَيْتَهُ كَأَنَّهُ مُثْقَلُ إبِلٍ وَحِلْ
وعِرْسُهُ في تَعَبٍ دَائِمٍ لاتخْضُبُ الكَفَّ ولا تَكْتَحِلْ
مَلَّتْ وإنْ أَحسَنَ أيَّامَهُ تَقُوْلُ فِي النَّفْسِ مَتَى يَرْتَحِلْ
لَوْ ماتَ لاسْتَبْدَلَتْ مِنهُ فَتىً إنِّي أَرَاهُ مُحْرِماً لا يَحِلْ

المِثالُ الثَّالِثُ[2]

(أمَا كانَ أَوْلى بِكَ أنْ تُفَكِّرَ قَبْلَ أنْ تَلِدَ الأَوْلادَ، هَلْ هَذِهِ الدُّنْيا خَلِيْقَةٌ أنْ تَسْتَوْدِعَها نَسْلَكَ؛ فَأَنْتَ لا تَزالُ تَتَمَنَّى لِوَلَدِكَ نَعِيْمَ الدَّهْرِ، ولكِنَّكَ لا تَعْلَمُ أنَّ العَيْشَ يُشْقِيْهِ، يَشْكُو المرَضَ فَتَبِيْتَ اللَّيْلَ سَاهِراً مَعَهُ، ثُمَّ تَغْدُو بِهِ الفَتَاةُ إلِى عَجُوْزٍ شَمْطَاءَ لِتَرْقِيَهُ؛ وتَسْأَلُ أُمُّهُ العَرَّافَ عَنْ شِفَائِهِ وتَقْضِي عَنْهُ نُذُوْرَهُ لَعَلَّ اللهَ يُبْقِيْهِ لَها، وأَنْتَ تَكُوْنُ أَعْقَلَ مِنْها إذْ تحْمِلُهُ إلَى الطَّبِيْبِ لِيُعالِجَ مَرَضَهُ؛ ولَكِنْ لَوْ رَقاهُ عِيْسَى نَفْسُهُ (الذِي كانَ يُحْيِي المَوْتَى بِإذْنِ اللهِ) وبُعِثَ لَهُ بُقْراطُ ما كانَ ذَلِكَ يَعْصِمُهُ مِنَ الموْتِ):

أَلَا تَفَكَّرْتَ قَبْلَ النَّسْلِ فِي زَمَنٍ بِهِ حَلَلْتَ فَتَدْرِي أَيْنَ تُلْقِيْهِ
تَرْجُو لَهُ مِنْ نَعِيْمِ الدَّهْرِ مُمْتَنِعاً وما عَلِمْتَ بِأَنَّ العَيْشَ يُشْقِيْهِ
شَكا الأَذَى فَسَهِرْتَ اللَّيْلَ وابْتَكَرَتْ بِهِ الفَتَاةُ إلَى شَمْطاءَ تَرْقِيْهِ
وأُمُّهُ تَسْأَلُ العَرَّافُ قَاضِيَةً عَنْهُ النُّذُوْرَ لَعَلَّ اللهَ يُبْقِيْهِ

---

[1]) نفسه، ج٢، ص٢٤٧.

[2]) نفسه، ج٢،ص٤٢١.

وأَنْتَ أَرْشَدُ مِنْها حِيْنَ تَحْمِلُهُ إِلَى الطَّبِيْبِ يُدَاوِيْهُ ويَسْقِيْهِ

ولَوْ رَقَى الطِّفْلَ عِيْسَى أَوْ أُعِيْدَ لَهُ بُقْرَاطُ ما كان مِنْ مَوْتٍ يُوَقِّيْهِ

المثال الرابع[1]

(يُوْلَدُ الطِّفْلُ وهُوَ يَحْمِلُ عَنَاءً ثَقِيْلاً، فَلَيْتَهُ لَمْ يُوْلَدْ، فَهُوَ إِنْ تَرَكَتْهُ مِحَنُ الزَّمَانِ وأَمْهَلَتْهُ ولَمْ تُعَاجِلْهُ عَضَّتْهُ بِنَابٍ مِنْها حادٍّ، فَلَنْ يَزَالَ خائِفاً مُفَزَّعاً مِنْ طَوَارِقِ الأَيَّامِ واللَّيَالِي ومِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُبَادِرُها يَوْماً بُرْمِحٍ ويَوْماً بِسَيْفٍ؛ يَجِدُ نَفْسَهُ حائِراً فِي شِعابِ هَذِهِ الحَيَاةِ، فالدَّاعِيَةُ يَدْعُوهُ إِلَى الصَّلاةِ والمُلْحِدُ يَدْعُوهُ إِلَى تَرْكِها، ولَسَوْفَ يَغْدُو شَابّاً ثُمَّ يَشِيْبُ ويَهْرَمُ يَتَحَسَّرُ عَلَى شَبَابِهِ الذَّاوِي ويَظَلُّ يَدْعُو لَهُ بِالسُّقْيا[2]، ثُمَّ يَخْطَفُهُ المَوْتُ، فانْظُرْ عَلَى أيِّ شَيْءٍ تَحَصَّلَ:

أَتَى وَلَدٌ بِسِجِلِّ العَنَاءِ فَيَا لَيْتَ وَارِدَهُ ما وَصَلْ

وإِنْ أَنْظَرَتْهُ خُطُوْبُ الزَّمَا نِ عُضَّ بِنَابٍ شَدِيْدِ العَصَلْ

ورِيْعَ مِنَ الغِيَرِ الطَّارِقَا تِ بِالرُّمْحِ صَرَّ وبِالسَّيْفِ صَلْ

وقَالَ لَهُ صَلِّ دَاعِي الهُدَى وقالَ لَهُ مُلْحِدٌ لا تُصَلْ

وشَبَّ وشَابَ وأَفْنَى الشَّبَابَ وسَقْياً لَهُ مِنْ خِضَابٍ نَصَلْ

ومِنْ بَعْدِ ذَاكَ يَجِيْءُ الحِمَامُ فَانْظُرْ عَلَى أيِّ شَيْءٍ حَصَلْ

المِثالُ الخامِسُ:

(رُبَّمَا أَنْصَفَ النَّاسُ سَيِّدَهُمْ، ولَكِنَّهُمْ مَتَى تَمَكَّنُوا مِنْ ضُرِّهِ فَعَلُوا، ولَمَّا خافُوا مُقَابَلَتَهُ بِسَيِّءِ الكَلَامِ عابُوهُ في غِيَابِهِ، فَتَحَدَّثُوا سِرّاً بِعُيُوْبِهِ ومَخَازِيْهِ، فَلَمَّا لَقُوهُ قابَلُوْهُ بِالإِجْلالِ،

---

[1] نفسه ص ٢٤٩.

[2] كانَ مِنْ عادَةِ العَرَبِ أَنْ يُحَيُّوا دِيَارَ أَحِبَّتِهِمْ الذِيْنَ ارْتَحَلُوا عَنْها وفارَقُوها بِالدُّعاءِ لَهَا بِالسُّقْيَا، وأَلَّا تَزَالَ مُمْرِعَةً خَصِيْبَةً، لا يُصِيْبُها قَحْطٌ ولا يُدَانِيْها جَدْبٌ.

وَكَمْ أَرَادُوا لَهُ كَيْداً ولَكِنَّهُمْ لَمْ يُصِيْبُوا حَظّاً مِنَ النَّجاحِ فِي ذَلِكَ؛ لامُوْهُ لِأَنَّهُ أعْطاهُمْ عَطاءً نَزْراً ولَوْ كانَ أعْطاهُمْ وَفْراً لَأَكْثَرُوا زِيارَتَهُ حَتَّى أتْعَبُوهُ؛ ثُمَّ جَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَيْبَ المَنُوْنِ، فإِنَّ المَوْتَ آخِذُهُ لا مَحَالَةَ) :

قَدْ يُنْصِفُ القَوْمُ فِي الأَشْيَاءِ سَيِّدَهُمْ ... وَلَوْ أطاقُوا لَهُ رَيْباً لَرَابُوهُ
لَمْ يَقْدِرُوا أنْ يُلاقُوْهُ بِسَيِّئَةٍ ... مِنَ الكَلامِ فَلَمَّا غابَ عابُوهُ
تَحَدَّثُوا بِمَخازِيْهِ مُكَتَّمَةً ... وقابَلُوْهُ بِإِجْلَالٍ وهابُوهُ
وَكَمْ أَرَادُوا لَهُ كَيْداً بِيَوْمِ رَدَيً ... مِنَ الزَّمَانِ ولَكِنْ ما أَصَابُوْهُ
أكْدَى فلامُوهُ لَمَّا قَلَّ نائِلُهُ ... وَلَوْ حَبَا الوَفْرَ زَارُوْهُ ونابُوهُ
صَبْراً قَلِيْلاً فَإِنَّ المَوْتَ آخِذُهُ ... ومَا يُخَلِّفُ لا صَقْرٌ ولا بُوْهُ

المِثالُ السَّادِسُ[1]

(لَقَدْ جاءَتِ الخَنساءُ مَكَّةَ حاجَّةً كَمَجِيْءِ الثُّرَيَّا إلَيْها[2]، وقَدْ خَلَّفَتْ وَرَاءَها في دِيارِها وَلَدَيْها التَّوْأَمَيْنِ، ولَوْ أنَّها كانَتْ أقامَتْ في دَارِها تُصَلِّي وتَصُومُ لَأَدْرَكَتْ في بَيْتِها ما طَلَبَتْهُ بِحَجِّها، وهُوَ رِضا اللهِ تَعالَى؛ فَقَدْ ذَهَبَتْ تَرْمِي الجِمَارَ بِمِنَىً، فَجَعَلَ الغُوَاةُ يَنْظُرُونَ إِلَى يَدَيْها):

أتَتْ خَنْساءُ مَكَّةَ كالثُّرَيَّا ... وخَلَّتْ فِي المَوَاطِنِ فَرْقَدَيْها
ولَوْ صَلَّتْ بِمَنْزِلِها وصَامَتْ ... لَأَلْفَتْ ما تُحَاوِلُهُ لَدَيْها
ولَكِنْ جاءَتِ الجَمَرَاتِ تَرْمِي ... وأبْصَارُ الغُوَاةِ إِلَى يَدَيْها

---

(1) اللُّزُوم ج٢ ص ٤١٨

(2) هِيَ الثُّرَيَّا بِنْتُ عَلِيٍّ المشْهُورَةُ، خَلَّدَها عُمَرُ بْنُ أبِي رَبِيْعَةَ فِي شِعْرِهِ الغَزَلِيِّ؛ انْظُرْ خِزَانَةَ الأَدَبِ ج٢، ص٢٣-٢٧.

المِثالُ السَّابِعُ[1]

(رَجُلٌ يَخافُ الموْتَ، (مَعَ أنَّ المرْءَ لابُدَّ مَيِّتٌ)، يُدَقِّقُ في كِتابَةِ وَثائِقِهِ، فَقَدْ بَلَغَ بِهِ الحِرْصُ والجُبْنُ، أنْ يَسْعَى إلى مَنْعِ زَوْجَتِهِ أنْ تَرِثَ كُنُوْزَهُ وأَشْيَاءَهُ الثَّمِيْنَةَ، إذْ يَخْشَى أنْ تُزَيِّنَها صَوَاحِبُها لِغَيْرِهِ مِنَ الرِّجالِ بَعْدَ مَوْتِهِ):

تَنَطَّسَ فِي كُتْبِ الوَثائِقِ خائِفٌ   مَنِيَّتَهُ، والمرْءُ لا بُدَّ بائِنُ
يَضَنُّ عَلَيْها بِالثَّمِيْنِ حَلِيْلُها   وتُوْدَعُ في الأرْضِ الشُّخُوْصُ الثَّمائِنُ
يَخافُ إذا حَلَّ الثَّرَى أنْ يَقِيْنَها   لِآخَرَ مِنْ بَعْضِ الرِّجالِ القَوائِنُ

المِثالُ الثَّامِنُ[2]

(مَرِيْضٌ كَثِيْراً ما عِيْدَ في مَرَضِهِ ومارَضَهُ خَدَمُهُ، ثُمَّ ماتَ فلا مُمَارَضَةٌ ولا خَدَمٌ، واسْتَرَاحَ مِنهُ مَنْ كانَ يَرْجُو شِفَاءَهُ ومَنْ كانَ يَزُوْرُهُ مُعَلِّلاً لَهُ، عَلَى حِيْنِ تَعِبَتِ النَّوَائِحُ مِنْ لَطْمِ خُدُوْدِهِنَّ، ثُمَّ حَمَلُوْهُ مِنْ أُنْسِ قَصْرِهِ إلَى وَحْشَةِ قَبْرِهِ، ولَوْ كانَ مَيِّتٌ ناطِقاً لَسَأَلْتُهُ ماذَا أَحَسَّ وماذَا رَأَى لَمَّا نَزَلَ هُناكَ، ولَقُلْتُ لَهُ إنْ كانَتِ الجَنَّةُ مَثْوَاكَ فَلَقَدْ وُقِيْتَ نارَ الدُّنْيا المسْتَعِرَةَ):

عِيْدَ المرِيْضُ وعاوَنَتْهُ خَوَادِمٌ   ثُمَّ انْتَقَلْتِ فَمَا أُعِيْنَ ولا خُدِمْ
لَقَدِ اسْتَرَاحَ مُعَلِّلٌ ومُسَاهِرٌ   مِنهُ وإنْ غَدَتِ النَّوَائِحُ تَلْتَدِمْ
حَمَلُوهُ بَعْد مجَادِلٍ وأَسِرَّةٍ   حَمْلَ الغَرِيْبِ فَحُطَّ في بَيْتٍ رُدِمْ
لَوْ كانَ يَنْطِقُ مَيِّتٌ لَسَأَلْتُهُ   ماذا أَحَسَّ وما رَأَى لَمَّا قَدِمْ
إنْ تَثْوِ فِي دَارِ الجِنَانِ فإنَّما   فارَقْتَ مِنْ دُنْيَاكَ ناراً تَحْتَدِمْ

---

(1) اللّزوم ج٢ ص٣٣٠.

(2) نفسه ٣٢٢.

المثال التاسع[1]

(رَحِمُ الأمِّ يُنَادِي الجَنِيْنَ وهُوَ فِي أَحْشائِها: (وَيْحَكَ، لا تَخْرُجْ ومُتْ كَمَداً) فإنَّكَ إنْ خَرَجْتَ إلَى الدُّنْيا أَصَابَكَ أَذَاها مِنْ حَوَادِثِها، سِوَى ما سَتُعانِيْهِ مِنْ حَرِّها وقُرِّها، ولَنْ تَتخَلَّصَ يَوْماً مِنْ شُرُوْرِها، فَلا بُدَّ أنَّكَ بَالِغٌ فِيْها أَمَداً؛ فَكَمْ جاءَ إلى هَذِهِ الدُّنْيا مِثْلُكَ صَغِيْراً حَتَّى شاخَ ثُمَّ مَضَى عَنْها لَمْ يَأْتِ فِيْها شَيْئاً يُحْمَدُ عَلَيْهِ ولَمْ يَسُرُّهُ مِنْها شَيْءٌ يَحْمَدُها عَلَيْهِ؛ وفِيْها لا تَأْمَنُ الكَفُّ شَلَلاً، ولا العَيْنُ كَفّاً ولا رَمَداً؛ فَإنْ أَبَيْتَ نُصْحِي وخَرَجْتَ إلى الدُّنْيا، فاعْمِدْ إلَى عَمَلِ الخَيْرِ لا تُرَاعِ فِيهِ إلَّا الوَاحِدَ الصَّمَدَ، فَإنَّكَ سَتَجِدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيا آمَالاً عِرَاضاً فِسَاحاً، لا تَجُوزُ مِنْها مَدَىً إلَّا تَمَدَّدَ أَمامَكَ آخَرُ؛ ولَسَوْفَ تَرْكَبُ أَمْوَاجَ البِحارِ طَلَباً لِلْغِنَى وتَقْطَعُ لِذَلِكَ الأَرَاضِيَ الممْتَدَّةَ لا تُصِيْبُ فِيْها إلَّا ماءً نَزْراً؛ وإنْ سَعِدْتَ فِيْها فَلَنْ يُزَايِلَكَ تَعَبُها، وإنْ شَقِيْتَ تَمَنَّيْتَ أنْ لَوْ فَنِيَ جَسَدُكَ؛ ثُمَّ يُلِمُّ بِكَ الموْتُ، فَمَنْ ذَمَّكَ قَالَ: (سُحْقاً لَهُ مِنْ شِرِّيْرٍ)؛ ومَنْ مَدَحَكَ قالَ: (لَقَدْ قَضَى، يا لَهُ مِنْ نَجْمٍ خَبَا بَعْدَ الْتِمَاعٍ؛

(فالمرْءُ يُشْبِهُ السَّيْفَ، وحياتُهُ تُشْبِهُ سَلَّهُ، وأَصْوَنُ لِلسَّيْفِ أنْ يَظَلَّ في غِمْدِهِ؛

(فَلَوْ كانَ ذَاكَ الجَنِيْنُ مُتَكَلِّماً لَقالَ لِلرَّحِمِ: إلَيْكَ عَنِّي فَأَنا لَمْ أُخْلَقْ باخْتِيارِي، فَلِمَ أُلامُ عَلَى ما جرَى بِهِ قَدَرٌ يُمْضِي قَضَاءَهُ وأَحْكامَهُ عَلَى ذَوِي الجِدِّ مِنَّا واللَّهْوِ جَمِيْعاً):

نادَى حَشَا الأُمِّ بِالطِّفْلِ الذِي اشْتَمَلَتْ ... عَلَيْهِ: وَيْحَكَ لا تَظْهَرْ ومُتْ كَمَدا

فإنْ خَرَجْتَ إلَى الدُّنْيا لَقِيْتَ أَذَىً ... مِنَ الحَوَادِثِ بَلْهَ القَيْظَ والجَمَدا

وما تَخَلَّصُ يَوْماً مِنْ مَكَارِهِها ... وأنْتَ لا بُدَّ فِيْها بالِغٌ أَمَدَا

ورُبَّ مِثْلِكَ وَافَاها عَلَى صِغَرٍ ... حَتَّى أَسَنَّ فَلَمْ يُحْمَدْ ولا حَمِدَا

لا تَأْمَنُ الكَفُّ مِنْ أيَّامِها شَلَلاً ... ولا النَّوَاظِرُ كَفّاً عَنَّ أَوْ رَمَدا

---

[1] نفسه ج١ ص٢٧٢

فإنْ أَبَيْتَ قَبُوْلَ النُّصْحِ مُعْتَدِياً ... فاصْنَعْ جَمِيْلاً ورَاعِ الوَاحِدَ الصَّمَدا

فَسَوفَ تَلْقَى بِها الآمَالَ وَاسِعَةً ... إذا أَجزْتَ مَدَىً مِنْها رَأَيْتَ مَدَى

وتَرْكَبُ اللُّجَّ تَبْغِي أنْ تَفِيْدَ غِنَىً ... وتَقْطَعُ الأَرْضَ لا تَلْقَىَ بِها ثَمَدا

وإنْ سَعِدْتَ فَمَا تَنْفَكُّ فِي تَعَبٍ ... وإنْ شَقِيْتَ فَمَنْ لِلْجِسْمِ لَوْ هَمَدا

ثُمَّ المنَايا فإمّا أنْ يُقالَ مَضَى ... ذَمِيْمَ فِعْلٍ، وإمَّا كَوْكَبٌ خَمَدَا

والمرْءُ نَصْلُ حُسَامٍ والحَيَاةُ لَهُ ... سَلٌّ وأَصْوَنُ لِلْهِنْدِيِّ إنْ غُمِدَا

فَلَوْ تَكَلَّمَ ذَاكَ الطِّفْلُ قَالَ لَهُ: ... إلَيْكَ عَنِّي فَمَا أُنْشِئْتُ مُعْتَمَدا

فَكَيْفَ أَحْمِلُ عَتْباً أنْ جَرَى قَدَرٌ ... عَلَيَّ، أَدْرَكَ ذا جَدٌّ ومَنْ سَمَدا

وكَلامُ الطِّفْلِ هُنا يُشْبِهُ كَلِماتِ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ فِي رِسالَةِ الغُفْرَانِ ....ولَكِنَّ المغْفِرَةَ هُنا أَرْزَاقٌ كَأَنَّها النَّشَبُ (المالُ) في الدَّارِ العاجِلَةِ.[1]

المِثالُ العاشِرُ:[2]

(خَرَجَتْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هُطُولِ المطَرِ، لِتَلْقَى طَبِيْباً تَحْصُلُ مِنهُ عَلَى دَوَاءٍ لِتَحْمَلَ).

المثالُ الحادي عَشَرَ:[3]

الوَلَدُ العَاقُّ:

(قَدْ طَوَى عَنْ وَالِدَيْهِ خَسِيْسَ الطَّعَام بُخْلاً بِهِ عَلَيْهِما، وهُما اللَّذَانِ تَرَكا دِيارَهُما وارْتَحَلا عَبْرَ التِّلالِ والهِضَابِ مِنْ أجْلِهِ؛ ويُمْكِنُهُ أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُما ويُبْدِلَهُما بِعِجْلَيْ بَقَرَةٍ وَحْشِيَّةٍ؛ ولَكِنَّهُما يَرَيانِهِ أغْلَى مِنْ أَعْيُنِهِما (الفَرْقَدَيْنِ)؛ وهُوَ يَرَاهُما مِنْ لُؤْمِهِ وخِسَّتِهِ دُوْنَ شِرَاكِ نَعْلِهِ؛ عَلَى حِيْنِ أَنَّهُما يَرَيَانِهِ أَشْبَهَ بِأَنْوَارِ اللَّيْلِ؛ إذا اشْتَدَّ مَرَضُهُما نامَ

---

(1) رسالة الغفران، ص١٠٠.

(2) اللزوم، ج٢، ص٣٩٧.

(3) نفسه.

عَنْهُما، وإذا بَاتَ هُوَ يَشْكُو أَلَماً لَمْ تَكْتَحِلْ أَعْيُنُهُما بِنَوْمٍ قَطُّ؛ يُعْلِنانِ، فَيُصَدَّقانِ، أَنَّهُما بَلَغاَ فِي وُدِّهِ كُلَّ مَبْلَغٍ؛ وَكَمْ جَهِدَا في نُصْحِهِ فِي كُلِّ وُجُوهِ حَيَاتِهِ؛ ولَكِنَّهُ يَغُشُّهُما فِي أَهْوَنِ الأُمُوْرِ؛ يُسْعِدُهُما أَنْ يَتَمَتَّعَ بِمَوْفُورِ الصِّحَّةِ ولا يَقْرَبَهُ الموْتُ، وأَنْ يَزُورَهُما قَبْلَهُ؛ ولَوْ أُشِيْرَ إِلَيْهِما ولَوْ بِطَرْفِ العَيْنِ أَنْ يَتْرُكا الحَيَاةَ لِأَجْلِهِ لابْتَدَرَا ذَلِكَ مُسْرِعَيْنِ؛ يَوَدَّانِ لَوْ بَلَغَ مِنَ العُلُوِّ والرِّفْعَةِ أَنْ يَنْتَعِلَ الثُّرَيَّا ولَوْ بِأَنْ يَنْتَعِلا هُما فِي سَبِيْلِ ذَلِكَ الشَّوْكَ؛ وقَدْ بَلَغَ بِهِ أَنْ جَعَلَ يَذُمُّهُما عَلَى ما فَعَلاهُ مِنْ أَجْلِهِ وما كانَ أَحْسَنَ ما فَعَلا بِهِ وماكانَ أَجْمَلَهُ؛ لَقَدْ كانَا يَعُدَّانِهِ سَيْفاً لَهُما عَلَى عَدُوِّهِما ورُمْحاً، ولَكِنْ ما أَخْيَبَ ما ظَنَّا بِهِ؛ فَقَدْ كانَ يُوْلِي غَيْرَهُما ثِقَتَهُ فَيَسْتَوْدِعَهُ سِرَّهُ، فَيُصْبِحُ هَذا مُظْهِرَهُ لِلنَّاسِ، وما كان والِدَاهُ يُفْشِيَانِ لَهُ سِرّاً:

طَوَى عَنْهُما القُوْتَ الزَهِيْدَ نَفَاسَةً ... وجَرَّاهُ سارا الحَزْنَ وارْتَحَلاهُ

يَرَى فَرْقَدَيْ وَحْشِيَّةٍ بَدَلَيْهِما ... وما فَرْقَدَا مَسْرَاهُما بَدَلاهُ

ولامَهُما عَنْ فَرْطِ حُبِّهِما لَهُ ... وفِي بُغْضِهِ إِيَّاهُما عَذَلاهُ

أَساءَ فَلَمْ يَعْدِلْهُما بِشِرَاكِهِ ... وكانا بأَنْوَارِ الدُّجَى عَدَلاهُ

يُعِيْرُهُما طَرْفاً مِنَ الغَيْظِ شافِناً ... كأَنَّهُما فِيْما مَضَى تَبَلاهُ

يَنامُ إذا ما أَدْنَفا وإذا سَرَى ... لَهُ الشَّكْوُ باتَ الغَمْضُ ما اكْتَحَلاهُ

إِنِ ادَّعَيَا فِي وُدِّهِ الجَهْدَ صُدِّقا ... وما اتُّهِما فِيهِ فَيَنْتَحِلاهُ

يَغُشُّهُما فِي الأَمْرِ هانَ وطالَما ... أَفاءا عَلَيْهِ النُّصْحَ وانْتَحَلاهُ

يَسُرُّهُما أَنْ يَهْجَرَ الرَّيْمَ دَهْرَهُ ... وأَنَّهُما مِنْ قَبْلِهِ نَزَلاهُ

ولَوْ بِمَشَارِ العَيْنِ يُوْحَى إِلَيْهِما ... لِوَشْكِ اعْتِزَالِ العَيْشِ لاعْتَزَلاهُ

يَوَدَّانِ إِكْراماً لَوِ انْتَعَلَ السُّهَا ... وإِنْ حَذِيَا السُّلَّاءَ وانْتَعَلاهُ

يَذُمُّ لِفَرْطِ الغَيِّ ما فَعَلا بِهِ ... وأَحْسِنْ وأَجْمِلْ بِالذِي فَعَلاهُ

يَعُدَّانِهِ كالصَّارِمِ العَضْبِ فِي العِدَى ... بِظَنِّهِما والذَّابِلِ اعْتَقَلاهُ

ويُؤْثِرُ بِالسِّرِّ الكَنِيْنِ سِوَاهُما فَيَنْقُلُهُ عَنْهُ وما نَقَلاهُ

فَهَذِهِ القِطَعُ التي اسْتَشْهَدْنا بِها هُنا تُمَثِّل أُسْلُوباً قَلَّ أنْ وُجِدَ في أشْعارِ مَنْ سَبَقَ أبا العلاء . فَهِيَ بَلاغِيَّةٌ فَصِيْحَةٌ تَعْلِيْمِيَّةٌ؛ غَيْرَ أنَّها تَحْتَوِي عُنْصُراً مُهِمّاً مِنْ عَنَاصِرِ القِصَّةِ والحِكايَةِ لا يُمْكِنُ إغْفَالُهُ. فَقَدْ كانَ شاعِرُنا أسْتَاذاً ومُعَلِّماً، ومِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ كانَ قَدْ اكْتَسَبَ عادَةَ أنْ يَحْكِيَ قِصَصاً وحِكاياتٍ قَصِيْرَةً يَشْرَحُ بِها لِتَلامِيْذِهِ وطُلابِهِ عَسِيْرَ الدُّرُوْسِ وعَصِيَّها. ولَقَدْ كانَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ أنْ يَنْتَقِلَ هَذا الأُسْلُوبُ التَّعْلِيْمِيُّ إلى أعْمَالِهِ الأَدَبِيَّةِ . فَلَمْ يَكُنِ الشِّعْرُ عِنْدَهُ أوْزَاناً تُقامُ وتَرْتِيْباً أنِيْقاً لِلْعِبارَاتِ والزَّخارِفِ وحَسْبُ (كَمَا كانَ لَدَى أَكْثَرِ رِجالاتِ قَرْنِهِ)، بَلْ كانَ يَرَى أنَّ الشِّعْرَ إنَّما هُوَ أَدَبٌ حَيٌّ وفَنٌّ مُتَدَفِّقٌ يُرَادُ بِهِ التَّعْبِيْرُ الصَّادِقُ عَنِ المَعَانِي والأَحاسِيْسِ والشُّعُورِ والرُّؤَى في الحَيَاةِ. ولِذَلِكَ لَمْ يَتَرَدَّدْ أبو العلاء فِي أنْ يَسْتَخْدِمَ فِي أشْعارِهِ الأُسْلُوبَ الذي كانَ يِسْتَخْدِمُهُ لِتَلامِيْذِهِ. وقَدْ كانَ أوَّلَ ما اسْتَخْدَمَهُ (عَلَى وَجْهِ التَّجْرِيْبِ بلا رَيْبٍ)، فِي بَعْضِ قَصائِدِ الدِّرْعِيَّاتِ، كَقَصِيْدَتِهِ فِيْها:

عَلَيْكَ السَّابِغاتِ فَإنَّهُنَّ يُقاوِمْنَ الصَّوَارِمَ والأَسِنَّهْ

وقَدْ سَبَقَ لَنا أنْ تَحَدَّثْنا عَنْها[1].

وقَدِ اعْتَنَى في اللُّزُومِ بِتِلْكَ المسائِلِ التي كانَتْ تُشَكِّلُ المَوْضُوعاتِ العامَّةَ التِي كانَتْ مَحَلَّ اهْتِمامِ النَّاسِ ومَجَرَّ أَحَادِيْثِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ، وسَرَدَ قَصَصاً ورَوَى حِكايَاتٍ وجاءَ بِأَمْثِلَةٍ مِنْ حَياةِ النَّاسِ اليَوْمِيَّةِ يُؤَدِّي بِها مَعانِيَهُ ويُدَلِّلُ بِها عَلَى أفْكارِهِ ويُدْنِي بِها إلى عُقُوْلِ قُرَّائِهِ تَفَكُّرَهُ النَّاصِحَ في رُوْحِ عَصْرِهِ. وقَدْ قالَ فِي أَحَدِ أبْياتِهِ:

ومَنْ تَأَمَّلَ أبْياتِي رَأَى جُمَلاً يَظَلُّ فِيهِنَّ سِرُّ النَّاسِ مَشْرُوحا

---

[1] انظُرِ الفَصْلَ الرابعَ مِنْ هذا الكِتاب، القِسْمَ ج.

وما عَلَيْنا إِلّا أنْ نَقْرَأَ هَذِهِ الأَمْثِلَةَ التي اسْتَشْهَدْنا بِها آنِفاً لِنَجِدَ أَنَّها تَفِيضُ بِالمشَاهِدِ القَصَصِيَّةِ والصُّوَرِ الكارِيْكاتُوْرِيَّةِ لِطَبِيعَةِ البَشَرِ، ولِلْأُمُورِ والأَشْيَاءِ التي تَجْرِي كُلَّ يَوْمٍ عَلَى مَسْرَحِ الحَيَاةِ . وخُذْ مِنْ تِلْكَ القِطَعِ هَذِهِ الأَمْثِلَةَ:

صُوْرَةُ المنَجِّمِ المخَادِعِ والمرْأَةِ الجاهِلَةِ التي تَرَدَّدُ إِلَيْهِ؛ والزَّوْجَةُ المخاضِعَةُ التي تَتْرُكُ وَلَدَيْها وتَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ، والرَّجُلُ اللَّئِيمُ البَخِيلُ الذِي يُنْفِقُ وَقْتَهُ فِي كِتابَةِ صُكُوكِهِ ومُسْتَنَداتِهِ، والأُمُّ التي تَسْتَعِيْنُ بِالسَّاحِرِ لِيَبْقَى وَلَدُها عَلَى قَيْدِ حياةٍ. فالتَّصْويرُ الوَاقِعِيُّ والتَّهَكُّمُ والازْدِرَاءُ والعَرْضُ الفُكَاهِيُّ مِمَّا يُوْجَدُ في هَذِهِ الصُّوَرِ الكارِكاتُورِيَّةِ المتْقَنَةِ، كُلُّ أُوْلَئِكَ إِنَّما يُشِكِّلُ نَمُوْذَجاً لِلشِّعْرِ القَصَصِيِّ لِكُلِّ العُصُورِ.

والحَقُّ أَنَّ المرْءَ لَيَعْجَبُ إِذْ لا يَجِدُ لأبِي العلاءِ مُحاوَلَةً في لُزُوْمِهِ لِأَنْ يَكْتُبَ قِصَصاً شِعْرِيَّةً طَوِيْلَةً، يُصَوِّرُ فِيْها حالَةَ مُجْتَمَعِهِ عَلَى نَحْوِ ما صَنَعَ بُوكاشِيُو[1] وشُوْسَرْ[2]. ولَكِنَّ عَجَبَنا

---

(1) هُوَ جُيُوفانِي بُوكاشِيُو (١٣١٣-١٣٧٥) أَدِيْبٌ إِيْطالِيٌّ مَشْهُورٌ كانَ مِنْ دُعاةِ الإِنْسانِيَّةِ، وُلِدَ عَلَى الأَرْجَحِ فِي بارِيْسَ وكانَ أَبُوهُ أَحَدَ تُجّارِ فلُوْرِنْسا الإِيطالِيَّةِ، وأُمُّهُ إِحْدَى نَبِيْلاتِ فَرَنْسا. شارَكَ فِي الحَيَاةِ الملَكِيَّةِ فِي بِلاطِ رُوْبِرْتْ دانْجُو، مَلِكِ نَيْبَلْسَ الإِيطالِيَّةِ التي وَفَدَ إِلَيْها بُوْكاشِيو فِي سَنَةِ ١٣٢٣ لِلدِّراسَةِ. وقَدْ وَقَعَ فِي غَرَامِ مارِيَا دُو أَكْوِيْنُو، ابْنَةِ هَذا الملِكِ مِنْ غَيْرِ زَوْجَتِهِ وذَكَرُوا أَنَّها هِيَ التي أَلْهَمَتْهُ ثَلاثَةً مِنْ أَكْبَرِ أَعْمَالِهِ الأَدَبِيَّةِ النَّثْرِيَّةِ مِنْها والشِّعْرِيَّةِ. كان صَدِيْقاً حَمِيْماً لِفَرَانْشِيْسْكُو بِتْرَارْك، الشَّاعِرِ الإِيطالِيِّ الكَبِيرِ. وقَدْ عَمِلَ بُوكاشِيو مُحاضِراً وكانَ مِمَّا تَخَصَّصَ فِيهِ دانْتِي وكُومِيْدِياهُ الإِلَهِيَّةُ، فَكَتَبَ عَنْ حَياةِ دانْتِي وشَرَحَ كُومِيْدِياهُ هَذِهِ. وقَدْ كانَ أَكْبَرَ عَمَلٍ عُرِفَ بِهِ هُوَ (الأَيَّامُ العَشَرَةُ) أَوْ (الدِّيْكامِيْرُون) وهُوَ تَأْلِيْفُهُ الذِي بِهِ قَرَنَهُ المؤَلِّفُ هُنا بِأَبِي العلاءِ، والأَيَّامُ العَشَرَةُ هِيَ مِائَةُ حِكايَةٍ سَرَدَها بُوكاشِيْو عَلَى أَلْسِنَةِ عَشَرَةِ رُوَاةٍ، سَبْعِ بَنَاتٍ وثَلاثَةِ أَوْلادٍ يَسْتَشْرِفُ بِها مُسْتَقْبَلاً جَدِيْداً لِلحَيَاةِ الأُوْرُبِّيَّةِ، بَعْدَ عُصُوْرِها المظْلِمَةِ. فَقَدْ كانَتْ أُوْرُبّا قَدْ خَرَجَتْ حَدِيْثاً مِنْ وَباءِ الطَّاعُونِ الذِي أَهْلَكَ حوالَي رُبْعِ سُكَّانِها فِي القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ، لِتَجِدَ فِي قَبْضَةِ الكَنِيْسَةِ الحَدِيْدِيَّةِ بِمَحاكِمِ تَفْتِيْشِها وبَطْشِها بِالنَّاسِ، وقَوانِيْنِ الحَيَاةِ الإِقْطاعِيَّةِ طاعُوْناً آخَرَ لا يَزُولُ. فَقَدْ كانَ هذا العَمَلُ مِنهُ ثَوْرَةً اجْتِمَاعِيَّةً عَلَى الكَنِيْسَةِ وانْتِقاداً لَاذِعاً لِمَحَاكِمِ التَّفْتِيْشِ ومُبَشِّراً بِالنَّهْضَةِ. (التُّرْجُمان).

(2) شُوْسَر جيفْرِي (١٣٤٣-١٤٠٠) شاعِرٌ إِنْجِلِيْزِيٌّ وُلِدَ في لَنْدَنَ، تَدِيْنُ لَهُ اللُّغَةُ الإِنْجِلِيْزِيَّةُ بِأَنَّهُ هو الذِي جَعَلَها لُغَةَ آدابٍ مُعْتَرَفٍ بِها، إِذْ كَتَبَ بِها أَدَبَهُ عَلَى حِيْنِ كانَ الأُدَباءُ يَسْتَخْدِمُونَ الفَرَنْسِيَّةَ واللاَّتِيْنِيَّةَ فَأَضافَ إِلَيْها رَوْنَقاً وبَهاءً، كَما تَدِيْنُ لَهُ آدابُها بِوَزْنٍ شِعْرِيٍّ أَضافَهُ. عَمِلَ فِي الجَيْشِ والسِّياسَةِ والبَرْلَمانَ وعُيِّنَ كاتِباً بِالدِّيْوَانِ الملَكِيِّ، اشْتُهِرَ بِعَمَلِهِ الأَدَبِيِّ الكَبِيرِ

هَذَا لا يَنهَضُ إلَّا رَيْثَما يَنْهَدُّ فَيَزُولُ، إذْ تَلْقانا رِسالَةُ الغُفْرَانِ. فَقَدْ كانَ أبو العلاء رَجُلاً جادّاً في أعْمالِهِ وقَدْ كانَ وَاعِياً بِمَقْدِرَاتِهِ الفَنِّيَّةِ، فَما كانَ لِيُغامِرَ بِأَنْ يُنْشِئَ مَجالاً جَدِيْداً في التَّعْبِيرِ الشِّعْرِيِّ يَنْظِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنهَضَ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الجَوْلاتِ حَوْلَهُ يُجَرِّبُهُ، يَرُوزُ فِيهِ القَوْلَ ويُدَنْدِنُ حَولَهُ قَبْلَ إذْ يُقْدِمُ عَلَيهِ. فَنَحْنُ نُلاحِظُ هَذِهِ النَّزْعَةَ فِيهِ في عَدَدٍ مِنْ أعْمالِهِ. فَهُوَ لَمْ يُقْدِمْ عَلَى نَظْمِ الدِّرْعِيَّاتِ حَتَّى أَتْقَنَ أُسْلُوبَها في قَصائِدِهِ المِعْرِفِيَّةِ. ولَمْ يُقْبِلْ عَلَى نَظْمِ اللُّزُومِ حَتَّى أَلَّفَ (الفُصُول والغَايَات) وفِيهِما مَعاً كانَ قَدْ بادَرَ إلى اسْتِخْدَامِ أُسْلُوبِ رِسالَةِ الغُفْرَانِ. وأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ كَتَبَ رِسالَةَ الغُفْرَانِ هَذِهِ بَعْدَ كِتابَتِهِ (رِسالَةَ المَلائِكَةِ) (وهُوَ كِتابٌ في الاشْتِقاقِ، وهُوَ عِبارَةٌ عَنْ مُقابَلاتٍ سَرِيْعَةٍ يُجْرِيْها مَعَ المَلائِكَةِ وأَهْلِ الجَنَّةِ يَسْأَلُهُمْ فِيْها عَنْ أُصُوْلِ أَسْمائِهِمْ وأَسْماءِ ما يَأْكُلُونَ وما يَسْتَخْدِمُونَ مِثْلِ (الإسْتَبْرَقِ) و(طُوْبَى). ولَمَّا أَلَّفَ الشَّاعِرُ رِسالَةَ الغُفْرَانِ تَجَنَّبَ فِيْها الأَدَاةَ الشِّعْرِيَّةَ (أَغْلَبُ ظَنِّنَا خَوْفَ الإخْفَاقِ)، واسْتَخْدَمَ بَدَلاً عَنِ الشِّعْرِ أُسْلُوباً نَثْرِيّاً فَرِيْداً، حَبَّرَهُ وزَوَّقَهُ بِاسْتِشْهادَاتٍ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ، ولَكِنَّهُ بَعْدُ أُسْلُوبٌ لا يَنْقُصُهُ إلَّا نَمَطُ الوَزْنِ المَعْرُوفِ لِيَكُوْنَ شِعْراً. والأَلْفاظُ فِي هَذَا الأُسْلُوبِ هِيَ أَلْفاظُ القَصِيدةِ الجاهِلِيَّةِ، مَضَى عَهْدُها وتَقَادَمَتْ وصارَتْ مِنَ المَتْرُوكِ فِي آدابِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ. ويُمْكِنُكَ بِحَقٍّ أَنْ تَعُدَّ كَثِيراً مِنْ فِقَراتِها الوَصْفِيَّةِ شُرُوحاً نَثْرِيَّةً لِأَبْياتٍ قَدِيْمَةٍ. خُذْ مَثَلاً هَذِهِ الفَقْرَةَ الوَصْفِيَّةَ[1]:

-(حكاياتِ كانْتَرْبِري) وهُوَ العَمَلُ الذِي يُشِيْرُ إلَيْه المؤَلِّفُ هُنا، وبِهِ قَرَنَهُ بِأبِي العلاء، وهِيَ أرْبَعٌ وعِشْرُونَ قِصَّةً كَتَبَها بَيْنَ ١٣٨٧-١٤٠٠و انْتَقَدَ فِيها الكَنِيْسَةَ انْتِقاداً شَدِيْداً، ويَذْكُرُون أنَّهُ تَوَكَّأَ في عَمَلِهِ هَذا عَلَى أيَّامِ بُوكاشِيُو العَشَرَةِ . وقَدْ تَعْلَمُ أيُّها القارِئُ الكَرِيْمُ أنَّ (كانْتَرْبِري) مَدِيْنَةٌ بِالجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لإنْجِلْتَرا، وأنَّ كاتِدْرَائِيَّتَها هِيَ مَقَرُّ رِئاسَةِ النِّظامِ الدِّيْنِيِّ المَسِيْحِيِّ في عُمُومِ إنْجِلْتَرا. (التُّرْجُمان).

(١) رِسالَةُ الغُفْرَانِ ص٢٩.

(فإذا نَظَرَ إلَى صُوَارٍ تَرْتَعُ فِي دَقَارِي الفِرْدَوْسِ صَوَّبَ مَوْلايَ المِطْرَدَ لِأَخْنَسَ ذَيَّالٍ قَدْ رَتَعَ هُنَاكَ طَوِيْلَ أَيَّامٍ ولَيَالٍ. فإذا لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ السِّنَانِ إلَّا قَيْدُ ظُفْرٍ قالَ: (أَمْسِكْ رَحِمَكَ اللهُ فإنِّي لَسْتُ مِنْ وَحْشِ الجَنَّةِ التِي أَنْشَأَها اللهُ سُبْحَانَهُ، ولَمْ تَكُنْ فِي الدَّارِ الزَّائِلَةِ؛ ولَكِنِّي كُنْتُ فِي مَحَلَّةِ الغُرُوْرِ أَرُوْدُ فِي بَعْضِ القِفَارِ، فَمَرَّ بِي رَكْبٌ مُؤْمِنُونَ قَدْ كَرِيَ زَادُهُمْ فَصَرَعُونِي واسْتَعانُوا بِي عَلى السَّفَرِ، فَعَوَّضَنِي اللهُ جَلَّتْ كَلِمَتُهُ بِأَنْ أَسْكُنَ دَارَ الخُلُوْدِ).

(أيْ فإذا نَظَرَ مَوْلايَ (ابْنُ القارِحِ) إلَى قَطِيْعٍ مِنَ البَقَرِ الوَحْشِيِّ يَرْتَعُ فِي مُرُوجِ الفِرْدَوْسِ ورِيَاضِها، صَوَّبَ مِزْرَاقَهُ إلَى ثَوْرٍ مِنهُ أَخْنَسَ سابِغِ الذَّيْلِ، كانَ يَرْتَعُ هُناكَ أَيَّاماً ولَيَالِيَ طَوِيْلَةً. فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ سِنَانِ المِزْرَاقِ إلَّا مِقدارِ عَرْضِ الظُّفْرِ، قَالَ الثَّوْرُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ سِلاحَكَ يَرْحَمُكَ اللهُ، فَمَا أنَا مِنْ وُحُوشِ الجَنَّةِ التي أنْشَأَها اللهُ إنْشاءً، دُوْنَ أنْ تَكُوْنَ قَدْ خُلِقَتْ فِي دَارِ الدُّنْيا، بَلْ لَقَدْ كُنْتُ مِمَّنْ خُلِقَ فِي دَارِ الدُّنْيا؛ فَقَدْ كُنْتُ فِيْها أَرْتَعُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَعْضِ قِفَارِها، فَمَرَّتْ بِي قافِلَةٌ مِنَ المؤْمِنِيْنَ، قَدْ قَلَّ زَادُهُمْ فَصَادُوْنِي فَوَقَعَتْ صَرِيْعاً فَأَكَلُوا لَحْمِي فَأَعَانَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَفَرِهِمْ، فَعَوَّضَنِي اللهُ تَعالَى عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ أَسْكَنَنِي دارَ الخُلُوْدُ). فَأَنْتَ تَجِدُ فِي هذا المِثالِ هَذِهِ الكَلِماتِ والتَّعابِيْرَ:

صُوَارٍ، دَقَارِي، مِطْرَد، أَخْنَسُ ذَيَّالُ، رَتَعَ هُنَاكَ طَوِيْلَ أَيَّامٍ، كُنْتُ أَرُوْدُ، كَرِيَ زَادُهُم ...إلخ. فَهَذِهِ الكَلِماتُ والتَّعْبِيرَاتُ تَتَرَدَّدُ كَثِيْراً فِي الشِّعْرِ الجاهِلِيِّ، ولَكِنَّها قَلَّ أنْ وَرَدَتْ فِي النَّثْرِ العَبَّاسِيِّ. ومِنْ الوَاضِحِ أنَّ وَصْفَ صائِدِ القَطِيْعِ هُنا مَأْخُوذٌ مِنَ القَصائِدِ القَدِيْمَةِ. ولَقَدْ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَنْظِمَ أبو العلاء كُلَّ الجُزْءِ القَصَصِيِّ مِنْ رِسالَةِ الغُفْرَانِ شِعْراً، لَوْلا الضَّرُوْراتُ والصُّعُوْباتُ التي تَسْتَلْزِمُها هَذِهِ الوَسِيْلَةُ الأَدائِيَّةُ وهِيَ الشِّعْرُ، فإنَّها كانَتْ سَتَجْعَلُ مِنَ الوَصْفِ الحَيِّ الوَافِي لِكَثِيْرٍ مِنَ المشاهِدِ الدِّرَامِيَّةِ فِي رِسالَةِ الغُفْرانِ مُهِمَّةً عَسِيْرَةً حَقّاً، كَمَشْهَدِ الملاحاةِ بَيْنَ الأَعْشَى والجَعْدِيِّ، وهُوَ مَشْهَدٌ حَوَى أَكْثَرَ الأَمْثِلَةِ حَيَوِيَّةً عَلَى رُوْحِ النُّكْتَةِ والدُّعَابَةِ عِندَ أَبِي العلاء، وتَنْفِي كُلَّ شَكٍّ فِي

قَدْرَتِهُ عَلَى رَسْمِ الشَّخْصِيَّاتِ. غَيْرَ أَنَّهُ حَتَّى فِي هَذَا المَشْهدِ، تَجِدُ اللُّغَةَ المُسْتَخْدَمَةَ فِيهِ هِيَ لُغَةَ القَصِيدةِ القَدِيْمَةِ وجاءَ فِيهِ أبو العلاء بِعَدَدٍ لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنَ الاسْتِشْهادَاتِ مِنَ الشِّعْرِ الجاهِلِيِّ والعَبَّاسِيِّ جَمِيْعاً. ونُلاحِظُ أَنَّهُ قُبَيْلَ نِهايَةِ القِصَّةِ فِي رِسالَةِ الغُفْرانِ تَجاسَرَ أبو العلاء أَخِيْراً فَنَظَمَ قَصِيْدَتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ عَلَى لِسَانِ الجِنِّيِّ الذِي لَقِيَهُ ابْنُ القارِحِ فِي مَدَائِنِ الجِنِّ مِنَ الجَنَّةِ، وفِيهِمَا يُحَدِّثُ العِفْرِيْتُ الشَّيْخُ عَنْ مُغامَرَاتِهِ فِي دَارِ الدُّنْيا الزَّائِلَةِ. ولَقَدْ كانَ مِنْ بَرَاعَةِ أَبِي العلاءِ أَنْ نَسَبَ هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ إِلَى الجِنِّيِّ الشَّيْخِ، إِذْ مِنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يُبَرِّئَهُ أَمامَ قُرَّائِهِ مِنْ تُهْمَةِ التَّوَسُّطِ فِي مُسْتَوَى الجَوْدَةِ فِي حالَةِ أَلَّا تَخْرُجَ القَصِيْدَتانِ رَائِعَتَيْنِ. وسَنَأْتِي هُنا عَلَى مَعَانِي هاتَيْنِ القَصِيْدَتَيْنِ إِذْ إِنَّهُما مِثالانِ نادِرَانِ لِلشِّعْرِ القَصَصِيِّ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ[1].

القَصِيدة الأُوْلَى:[2]

حَمِدْتُ اللهَ الذِي حَطَّ عَنِّي أَوْزَارِي فَعُدْتُ بِفَضْلِهِ مَغْفُورَ الذَّنْبِ؛ فَقَدْ كُنْتُ فِيما مَضَى خَدِيْنَ شابَّةٍ ناعِمَةٍ مِنْ جَمِيْلاتِ قُرْطُبَةَ وخَلِيْلَ أُخْرَى فِي الصِّيْنِ، فَكُنْتُ أَزُوْرُ هَذِهِ وتِلْكَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ بُزُوْغِ الفَجْرِ لا أَرْهَبُ ظَلاماً ولا غيرَهُ؛ وكُنْتُ لا أَلْقَى شَيْئاً مِنَ الوَحْشِ أَوِ البَشَرِ إِلَّا مَلَأْتُهُ ذُعْراً ورَهَباً؛ أُرَوِّعُ الزُّنُوجَ بِأَنْ أَزُوْرَ نِساءَهُمْ، وكَذَلِكَ الرُّوْمَ والتُّرْكَ والصَّقَالِبَةَ والغُوْرَ؛ وقَدْ كُنْتُ أَرْكَبُ ذُكُوْرَ النَّعامِ فِي الظَّلامِ مُسْتَخِفّاً بِالأَخْطارِ، فإِنْ لَمْ أَجِدْ ذَكَرَ النَّعامِ رَكِبْتُ ثَوْرَ وَحْشٍ يَبِيْتُ مِنْ غُرُوْرِهِ يَمْشِي جِيْئَةً وذَهَاباً؛ وقَدْ أَلُمُّ بِالقَوْمِ يَشْرَبُونَ ويُغَنُّوْنَ بِآلاتِ الطَّرَبِ فَأُصِيْبُهُمْ بِداهِيَةٍ لا تُنْسَى، ولا أَتْرُكُهُمْ حَتَّى يَأْتُوا

---

[1] اضْطُرَّ المؤَلِّفُ إلى الاكْتِفاءِ بإيْرَادِ شَرْحِ القَصِيْدَتَيْنِ دُوْنَ نَصَّيْهِما لِطُولِهِما ولِطَبِيْعَةِ رِسالَتِهِ التي كَتَبَها بالإنجليزِيَّةِ؛ وإلاَّ لَكانَ أَوْرَدَ نَصَّيْهِما، لا سِيَّما بَعْدَ ما عَرَفْتَ مِنْ رَأْيِهِ النَّقْدِيِّ فِيهِما، أَنَّهُما (مِثالانِ نادِرَانِ لِلشِّعْرِ القَصَصِيِّ العَرَبِيِّ). ولِذا فَقَدْ أَوْرَدْناهُما بِنَصَّيْهِما مَعَ الشَّرْحِ. (التُّرْجُمان).

([2]) رِسالَةُ الغُفْرَانِ ص٧٧.

مِنَ الأفْعَالِ ما يُسَرُّ لَهُ إبْلِيْس؛ وأَغْشَى الرَّجُلَ الأَمِيْنَ فَأَخْدَعُهُ حَتَّى يَخُوْنَ أَمانَتَهُ وحَتَّى يَشْهَدَ شَهَادَةِ الزُّوْرِ، وكَمْ أَصَبْتُ امْرَأَةً فِي مُنْتَصَفِ عُمُرِها حَتَى تَرَكْتُها تَرْتَمِي إِلَى نَارٍ كانَتْ تَطْبُخُ عَلَيْها طَعَاماً لِأَطْفَالِها؛ وقَدْ دَفَعَنِي نُوْحٌ عَنْ سَفِيْنَتِهِ وضَرَبَنِي في ذَلِكَ حَتَّى كَسَرَ عَظْمَ ساقِي؛ وفِي زَمَنِ الطُّوْفانِ طِرْتُ مُرْتَفِعاً في الجَوِّ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الماءَ قَدِ انْحَسَرَ؛ وقَدْ ظَهَرْتُ لِلنَّبِيِّ مُوْسَى وهُوَ يَرْعَى الشَّاءَ؛ ولَمْ أَزَلْ أُوَسْوِسُ لَهُ وأُغْرِيْهِ بِحَدِيْثِي لَمَّا دَكَّ رَبُّكَ جَبَلَ الطُّوْرِ بِسَيْنَاءَ[1]. وقَدْ أَضْلَلْتُ رَأْيَ أَبِي سَاسَانَ[2] وقَدْ كانَ رَاشِداً؛ كَمَا أَنَّنِي سِرْتُ مُتَخَفِّياً في جَيْشِ المَلِكِ سابُورَ[3]؛ وقَدْ كانَ بَهْرَامُ جُور[4] تابِعاً لِي فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ ومَجْدِهِ، حِيْنَما كانَ يَبْنِي مَدِيْنَةَ (جُور)؛ فَتَارَةً أَبْدُو حَيَّةً وتَارَةً عُصْفُوراً؛ وكَذَا نَبْدُو نَحْنُ مَعْشَرَ الجِنِّ لِلإِنْسِ أَحْيَاناً عُوْراً وأَحْيَاناً حُوْلاً وما بِنَا عَوَرٌ ولا حَوَلٌ؛ ثُمَّ تُبْتُ بَعْدَ عِصْيَانِي هَذَا وصارَتْ تَوْبَتِي قُدْوَةً لِغَيْرِي؛ ولَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ الدُّنْيا ونُوْدِيَ إِسْرَافِيْلُ[5]: وَيْحَكَ أَنْفُخْ فِي الصُّوْرِ، عِنْدَها أَماتَنِيَ اللهُ هُنَيْهَةً، ثُمَّ أَيْقَظَنِي لِلْبَعْثِ ورَزَقَنِي الخُلُوْدَ مَبْرُوْراً.

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزارِي ومَزَّقَها ... عَنِّي فَأَصْبَحَ ذَنْبِي الآنَ مَغْفُوْرا
وكُنْتُ آلَفُ مِنْ أَتْرابِ قُرْطُبَةٍ ... خَوْداً وبِالصِّيْنِ أُخْرَى بِنْتَ يَغْبُورا
أَزُوْرُ تِلْكَ وهَذِي غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... فِي لَيْلَةٍ، قَبْلَ أَنْ أَسْتَوْضِحَ النُّورا
ولا أَمُرُّ بَوَحْشِيٍّ ولا بَشَرٍ ... إِلاَّ وغَادَرْتُهُ وَلْهَانَ مَذْعُورا

---

(1) الآيَةُ ١٤٣ مِنْ سُوْرَةِ الأَعْرَافِ.

(2) جَدُّ دَوْلَةِ الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الفُرْسِ، المَعْرُوفَةِ بِالسَّاسَانِيَّةِ. (التَّرْجُمان).

(3) هُوَ ابْنُ أَرْدَشِيْرَ حَفِيْدِ ساسانَ بْنِ بَابِكَ، ثانِي مُلُوكِ السَّاسَانِيِّيْنَ الفُرْسِ. (التُّرْجُمان).

(4) بَهْرامُ جُوْر بْنُ يَزْدَجِرْدَ، أَحَدُ مُلُوكِ الفُرْسِ القُدَماءِ. (التَّرْجُمان).

(5) هُوَ رَئِيْسُ الملائِكَةِ جَمِيْعاً، وهُو الذي يَأْمُرُ جِبْرِيْلَ ومِيْكائِيْلَ وعِزْرَائِيْلَ، يَنْفُخُ فِي الصُّوْرِ نَفْخَةً واحِدَةً فَتَمُوْتُ كُلُّ الخَلائِقِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُوَ البَعْثُ. وعِنْدَ عِفْرِيْتِ أَبِي العلاءِ، كَما تَرَى، أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُنادِي إِسْرَافِيْلَ كَمَا يُنَادِي أَعْرَابِيٌّ جَمَلَهُ أَوْ صَدِيْقاً لَهُ مُسْتَخْدِماً كَلِمَةَ (وَيْحَكَ). انْظُرْ نِهايَةَ الأَرَبِ، لِلنُّوَيْرِيّ، القاهرة، ١٩٢٣، ج٢ ص ٣٦.

أُرَوِّعُ الزَّنْجَ إلْمَاماً بِنِسْوَتِهَا والرُّوْمَ والتُّرْكَ والسِّقْلابَ والغُوْرا
وأَرْكَبُ الهَيْقَ في الظَّلْماءِ مُعْتَسِفاً أوْ لا، فَذَبَّ رِيادٍ باتَ مَغْرُورا
وأَحْضُرُ الشَّرْبَ أَعْرُوهُمْ بِآبِدَةٍ يُزْجُونَ عُوْداً ومِزْمَاراً وطُنْبُورا
فَلا أُفارِقُهُمْ حَتَّى يَكُوْنَ لَهُمْ فِعْلٌ يَظَلُّ بِهِ إبْلِيْسُ مَسْرُوْرَا
وأَصْرِفُ العَدْلَ خَتْلاً عَنْ أمانَتِهِ حَتَّى يَخُوْنَ، وحَتَّى يَشْهَدَ الزُّوْرا
وكَمْ صَرَعْتُ عَوَاناً في لَظَى لَهَبٍ قامَتْ تُمارِسُ لِلأطْفالِ مَسْجُورا
وذَادَنِي المرْءُ نُوْحٌ عَنْ سَفِيْنَتِهِ ضَرْباً إلى أنْ غَدا الظُّنْبُوبُ مَكْسُورا
وطِرْتُ في زَمَنِ الطُّوْفانِ مُعْتَلِياً فِي الجَوِّ حَتَّى رَأَيْتُ الماءَ مَحْسُورا
وقَد عَرَضْتُ لِمُوسَى في تَفَرُّدِهِ بِالشَّاءِ يُنْتِجُ عُمْرُوساً وفُرْفُورا
لَمْ أُخْلِهِ مِنْ حَدِيْثٍ ما ووَسْوَسَةٍ إذْ دَكَّ رَبُّكَ في تَكْلِيْمِهِ الطُّوْرا
أَضْلَلْتُ رَأْيَ أبِي ساسانَ عَنْ رَشَدٍ وَسِرْتُ مُسْتَخْفِياً في جَيْشِ سابُورا
وسَادَ بَهْرَامُ جُوْرٍ وهْوَ لِي تَبَعٌ أيَّامَ يَبْنِي عَلَى عِلَّاتِهِ جُوْرا
فَتَارَةً أنَا صِلٌّ فِي نَكَارَتِهِ ورُبَّما أَبْصَرَتْنِي العَيْنُ عُصْفُورا
نَلُوْحُ لِلإنْسِ عُوْراً أَوْ ذَوِي حَوَلٍ ولَمْ نَكُنْ قَطُّ لا حُوْلاً ولا عُوْرا
ثُمَّ اتَّعَظْتُ وصارَتْ تَوْبَتِي مَثَلاً مِنْ بَعْدِ ما عِشْتُ بِالعِصْيَانِ مَشْهُوْرا
حَتَّى إذا انْفَضَّتِ الدُّنْيا ونُوْدِيَ إسْـ ـرافِيْلُ وَيْحَكَ هَلاَّ تَنْفُخُ الصُّوْرا
أَمَاتَنِي اللهُ شَيْئاً ثُمَّ أَيْقَظَنِي لِمَبْعَثِي، فَرُزِقْتُ الخُلْدَ مَبْرُوْرا

القَصِيدة الثَّانِيَةُ[1]

(لَقَدْ خَلَتْ مَكَّةُ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيْسِ، أيْ أَبْناءِ المكْرِ والخُبْثِ، فَمَا يُسْمَعُ فِيْها صَوْتُ جِنِّيٍّ، وكُسِرَتْ أصْنامُها جَهَاراً بِالْفُؤُوْسِ؛ وجاءَ مِنْ صَفْوَةِ بَنِي هاشِمٍ رَجُلٌ أَزْهَرُ الوَجْهِ،

(1) رِسالَةُ الغُفْرانِ ص٧٩-٨٢.

كَرِيمٌ، ذُوْ خُلُقٍ، يَسْمَعُ ما أَوْحَى إِلَيْه رَبُّهُ القُدُّوْسُ وَحْياً كَصَلْصَلَةِ الجَرَسِ؛ يُعاقِبُ فِي شُرْبِ الخَمْرِ جلْداً، وفِي زِنا المحْصَنِ رَجْماً، لا يَقْبَلُ فِيهِمْ شَفَاعَةً ولَوْ مِنْ رَئِيسٍ؛ فَقَبْلَ مَبْعَثِهِ كُنْتُ كَثِيراً ما أَغِيْرُ عَلَى عَرُوسٍ مَنِيْعَةٍ عَزِيْزَةِ الأَصْلِ؛ فَأُصِيْبُها بالصَّرَعِ غَيْرَةً مِنّي فَأُصِيْبُها وقَدْ زُفَّتْ إِلَى زَوْجٍ لَها سَيِّدٍ لَيْسَ بِدَنِيءٍ ولا رِعْدِيْدٍ؛ فَأُبادِرُ إِلَيْها قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا؛ وقَدْ كُنْتُ أَهْجُمُ عَلَى الفَتَاةِ الغادَةِ وهِيَ فِي خِدْرِها أَوْ تَتَمَايَسُ تَبَخْتُراً بَيْنَ جَوارِيْها؛ ولِئَنْ كانَ يَنْتَهِي الأَسَدُ دُوْنَ فَرِيْسَتِهِ ما كُنْتُ أنا أَنْتَهِي أَوْ أَرْتَدِعُ دُوْنَ غَرَضِي الذِي أُرِيد وإنْ فَعَلُوا لِيَ الرُّقَى؛

(وقَدْ كُنْتُ أُسافِرُ لَيْلاً بِصُحْبَةِ فِتْيَةٍ مِنْ الجِنِّ فَوْقَ الأَرَاضِي الجافَّةِ الغَلِيْظَةِ؛ وفِي صَحارٍ لا تُرَى عَلَيْها آثارٌ، ولا يُسْمَعُ فِيْها إِلَّا عَزِيْفُ الجِنِّ، ولَيْسَ بِها إِلَّا شُجْعانُ العَفارِيْتِ؛ فَهَؤُلاءِ الفِتْيَةُ بِيْضٌ [1] سادَةٌ وأَهْلُ كَرَمٍ وحِلْمٍ، لايَتَحَدَّثُونَ إِلَّا هَمْساً؛

(وقَدْ كُنَّا نَرْكَبُ خَيْلاً ذَاتَ أَجْنِحَةٍ، لَيْسَتْ كَخَيْلِ الإِنْسِ وإِبِلاً تَسْبِقُ لَمْحَ البَصَرِ، خُلِقَتْ مِنْ بَيْنِ نَعامٍ وإِبِلٍ، تَقْطَعُ المسافَةَ مِنْ عَلْوَةَ إِلى قُرَى شاسٍ بِسَيْرٍ حَثِيْثٍ خَفِيٍّ لا يُرَى؛

(ولَيْسَ بَيْنَنَا مَعْشَرَ الجِنِّ عِبادَةٌ ولا نُسُكٌ، فَقَدْ كانَ الدِّيْنُ عِنْدَنا ضَعِيْفاً، وما نَعْقِلُهُ؛ فَالأَحَدُ الأَعْظَمُ والسَّبْتُ عِنْدَنا كالأَثْنَيْنِ والجُمُعَةُ كالخَمِيْسِ، ولَمْ نَكُنْ مَجُوْساً ولا هُوْداً ولا نَصارَى تَطْلُبُ الكَنائِسَ، وقَدْ كُنَّا نُمَزِّقُ التَّوْرَاةَ اسْتِهَانَةً بِها ونُحَطِّمُ الصُّلْبانَ كَمَا لَوْ كانَتْ خَشَباً يابِساً؛ كُنَّا نُحارِبُ اللهَ، جُنُوداً لِإِبْلِيْسَ ذِي الرَّأْيِ الخاسِرِ، نَتْرُكُ لَهُ الحُكْمَ فِي الأُمُوْرِ ونَقْتَنِعُ مِنهُ بِضَلالاتِهِ؛

---

(1) كَلِمَةُ أَبْيَضَ هُنا تَعْنِي الكَرِيْمَ الماجِدَ، ولاتَدُلُّ عَلَى اللَّوْنِ. وكانَ العَرَبِيُّ إذا أَرَادَ وَصْفَ فَتَاةٍ جَمِيْلَةٍ بَيْضَاءَ قالَ (حَمْرَاء) ولَمْ يَقُلْ بَيْضاءَ، فإذا قالَ بَيْضَاء فَقَدْ عَنَى أَنَّها كَرِيْمَةٌ نَبِيْلَةٌ شرِيفةٌ ظَرِيْفَةٌ وكُلَّ ما شِئْتَ مِنَ الأَوْصَافِ المعْنوِيَّةِ، انْظُرْ خِزَانَةَ الأَدَبِ ج٢، ص ٥٨.

(وقَدْ كُنَّا نُغْوِي الشَّابَّ والشَّيْخَ لِيُقِيْما عَلَى الغِوَايَةِ وكُنَّا نَتَتَبَّعُ جِنَّ سُلَيْمَانَ كَيْ نُطْلِقَ الغُوَاةَ مِنْ مَسَاجِينِهِمْ الذِيْنَ جُعِلُوا فِي قَوَارِيْرَ مِنَ الرُّصَاصِ، ولَمْ نَجِدْ فِيْها غَيْرَ بَقَايَا حَيَاةٍ؛

(وقَدْ كُنَّا نُخْرِجُ المرْأَةَ الحَسْنَاءَ مِنْ بَيْتِها بِأَنْ نَحْمِلَ زَوْجَها عَلَى الشَّكِّ فِيْها، فلا نَزَالُ بِهِ حَتَّى تَبِيْنَ مِنهُ طلاقاً بائِناً بَيْنُونَةً كُبْرَى فَتَصِيْرَ إلَى غَيْرِهِ مِنَ الأَزْوَاجِ فَيَنْتَهِيَ أَمْرُهُ إلَى وَجْدٍ بِها شَدِيْدٍ وحُزْنٍ عَلَيْها عَنِيْدٍ، ونَزِيْدُهُ وَجْداً وحُزْناً بِأَنْ نُذَكِّرَهُ ثَغْرَها الأَبْيَضَ الجَمِيْلَ الذِي يُشْبِهُ الدُّرَّ؛

(وكُنَّا نَخْدَعُ القِسِّيْسَ ونُغْوِيْهِ مِنْ بَعْدِ ما مُلِّئَ بِالإنْقِلِيْسْ[1] أيْ بَعْدَ أنْ عَهِدُوا إلَيْهِ بِشُئُوْنِ الكَنِيْسَةِ، حَتَّى وهُوَ فِي صَوْمِهِ الكَبِيْرِ، فَنَجْعَلُهُ يِشْتَاقُ الخَمْرَ صِرَفاً أوْ مَقْتُولَةً، فَيُقْسِمُ أَنَّهُ لَنْ يَشْرَبَ إلَى حَدِّ السُّكْرِ، ولَكِنَّ صِغَارَ الذُّنُوْبِ تَتْلُوها الكَبَائِرُ، فَقُلْنا لَهُ (ازْدَدْ قَدَحاً وَاحِداً، فَقَدَحٌ وَاحِدٌ زَائِدٌ لا يَرُدُّكَ خاسِراً، بلْ سَيَمْنَحُكَ ذَلِكَ دِفْئاً فِي هَذَا البَرْدِ الشَّدِيْدِ، فَشَرِبَ، وضَعُفَ عَقْلُهُ فَعُدَّ مِنَ الشَّيَاطِيْنُ المَلْعُوْنِيْنَ، ولَقَدْ شَرِبَ مِنْ هَذِهِ الخَمْرِ حَتَّى جَعَلَ يَقِيءُ عَلَى وَسائِدِهِ؛

(وأَمَّا ما كُنَّا نَصْنَعُ فِيْما يَلِي جانِبَ الحُكْمِ، فَقَدْ كُنَّا نَرُدُّ المَلِكَ ساخِطاً عَلى ناصِحِهِ الأَمِيْنِ؛

(وكُنْتُ أُعْجِلُ السِّعْلاةَ (أُنْثَى الغُوْلِ) عنْ طَعامِها وفِي يَدِها لَحْمُ بَقَرَةٍ وَحْشِيَّةٍ، فَتَدَعُهُ وتَفِرَّ مِنهُ لِأَنِّي أُفْزِعُها؛ ولَمْ أَكُنْ أَخْشَى أَهْوَالَ الأَرْضِ ولا بَرْدَ البَحْرِ؛

(وقَدْ نادَمْتُ قابِيْلَ وشَرِبْتُ مَعَهُمْ خَمْراً مُعَتَّقَةً؛ ونادَمْتُ صاحِبَيْ لَمْكٍ[2] مُجالِساً لَهُما مَعَ المِزْهَرِ الذي لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَتَرٌ نَشَازٌ قَطُّ؛

([1]) لَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ الإنْقِلِيْس فِي أيٍّ مِنَ المَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ، ولَكِنْ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّها تَعْنِي الكَنِيْسةَ .

([2]) هُوَ أبو نُوحٍ ويَذْكُرُوْنَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَ العُوْدَ، انظُرْ تاجَ العَرُوس، ج ٧ ص ١٧٥.

(وبَعْدَ أنْ تجَاوَزْتُ شَبَابِي عاشَرْتُ لُقْمانَ ورَهْطَهُ؛

(ثُمّ آمَنْتُ، ومَنْ يَظْفَرُ بِالإِيْمانِ يُصِبْ خَيْراً وَحَظّاً نَفِيْساً، وقَدْ شَهِدْتُ بَدْراً، وحَامِيْتُ فِي أُحُدٍ عَنِ النَّبِيِّ، وشَهِدْتُ الخَنْدَقَ وأَخَفْتُ فِيْها كَبِيْرَ الكُفّارِ؛ لَقَدْ قاتَلْتُ خَلْفَ جِبْرِيْلَ وِمِيْكائِيْلَ فَكُنْتُ مَعَهُما نَقْطَعُ رُؤُوْسَ القَوْمِ كأنَّها عُشْبٌ يابِسٌ، وقَدْ كُنْتُ أُمَيِّزُ المَلائِكَةَ فِي ظَلامِ غُبارِ المعْرَكَةِ بِعَمَائِمِهِمُ الصُّفْرِ كَأَنَّها مَصْبُوْغَةٌ بَالوَرْسِ؛ ولا يَزَالُ صَهِيْلُ حَيْزُومَ[1] يُصافِحُ أُذُنِي، فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ حِصانٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَطْرُدْ صَيْداً قَطُّ ولَمْ يُرْبَطْ بِحَبْلٍ ولَمْ يَشْكُ الوَجَى وأَلَمَ عَظْمِ الحافِرِ؛

(ومُنْذُ أنْ آمَنْتُ لَمْ يَحْدُثْ أنْ خافَتْنِيَ امْرَأَةٌ عَانِسٌ ولا شابَّةٌ ناهِدٌ، لا زَيْنَبُ مِنهُنَّ ولا لَمِيْسُ؛ وقُلْتُ لِلْجِنِّ:

(أَلا فَاسْجُدُوا لِلهِ وانْقَادُوا لَهُ عَبِيْداً[2] فَدُنْيَاكُمْ وَشِيْكَةُ الزَّوَالِ تَغْدِرُ بِالكَرِيْمِ واللَّئِيْمِ، وقَدْ ذَهَبَتْ بَلْقِيْسُ طَيَّ المَوْتِ وبادَ مُلْكُها، وقَدْ هَلَكَتْ أُسْرَةُ المنْذِرِ فَمَا عادَتْ تَمْلِكُ الحِيْرَةَ، فَقَدْ تَوَارَوْا تَحْتَ التُّرَابِ، وقَدْ لَمَسْنا السَّمَاءَ فِي غِيَابِكُمْ فاهْتَاجَتْ[3] وانْبَعَثَ مِنْها لَنَا خَوْفٌ ورُعْبٌ، فَقَدْ جَعَلَتْ تَرْمِي الشَّيَاطِيْنَ حَتَّى رَدَّتْهُمْ كَمِثْلِ الرَّمَادِ حَرْقاً؛

(عِنْدَ ذَلِكَ أطاعَنِي مِنهُم أُمَّةٌ فَفَازَتْ، وأُخْرَى تَبِعَتِ الشَّيْطانَ فَضَلَّتْ؛

---

(1) حِصانُ المَلَكِ جِبْرِيْلَ وقَدْ زَعَمَ بَعْضُ العَرَبِ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً أَنَّهُ سَمِعَ جِبْرِيْلَ يُنادِي فَرَسَهُ:(تَقَدَّمْ حَيْزُومُ) انْظُرْ سِيْرَةَ ابْنِ هِشامٍ ج٢ ص٢٧٤، ولَكِنْ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ أَنَّ حَيْزُومَ إِنَّما كانَ اسْمَ فَرَسٍ وحَسْبُ، انْظُرْ طَبَقَات ابْنِ سَعْدٍ، لِيْدِنْ ١٣٣٠ مجلد ٢ ج١ ص١٧

(2) الآية ٢٥ مِنْ سُوْرَةِ النَّمْلِ والكَشّاف ج٣، ص١٤٠ .

(3) الآية ٨ مِنْ سُوْرَةِ الجِنِّ.

(ويَـوْمَ اليَرْمُـوكِ [1] رَكِبْـتُ حِصَـاناً سابِحاً، والقَـوْمُ قَـدِ اسْـتَحَرَّ بِهِـمُ الضَّـرْبُ والطَّعْـنُ فَلَمَّا انْجَلَتِ المعْرَكَةُ كُنْتُ مِنْها كالجَمْرَةِ؛ وقَـدْ شَـهِدْتُ مَوْقِعَـةَ الجَمَـلِ [2]، فَيا لَـهُ مِنْ جَمَلٍ أَنْكَدٍ أَنْتَجَتْهُ ناقَةٌ قَوِيَّةٌ؛ وشَـهِدْتُ كَذلِكَ مَوْقِعَـةَ صِفِّيْنَ [3]. وكُنْـتُ يَوْمَئِـذٍ عَلَـى فَـرَسٍ سَـرِيْعَةٍ، ساسَـها سائِسٌ ماهِرٌ، فَعَمِلْـتُ فِي القَـوْمِ ضَـرْباً بِسَـيْفِي وقَـذَفْـتُ فِيهِـمْ صَـخْرَةً عَظِيْمَـةً، ومَشَيْتُ قُدَّامَ عَلِيٍّ حَتَّى هَزَمَ جَيْشَ عَدُوِّهِ؛

(لَقَـدْ كانَـتْ تَـوْبَتِي بِسَـبَبِ أَنِّي صـادَفْتُ واعِظـاً، ولَكِـنِّي كُنْـتُ أُضْـمِرُ الإِقْبـالَ عَلَيْهـا، فَنَتَجَتْ هَذِهِ التَّوْبَةُ، نِتاجَ النَّاقَةِ نَزَا عَلَيْها فَحْلٌ مُصْعَبٌ.

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيْسْ ... فَمَا لِجِنِّيٍّ بِها مِنْ حَسِيْسْ
وكُسِّرَتْ أَصْنامُها عَنْوَةً ... فَكُلُّ جِبْتٍ بِنَصِيْلٍ رَدِيْسْ
وقامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هاشِمٍ ... أَزْهَرُ لا يُغْفِلُ حَقَّ الجَلِيْسْ
يَسْمَعُ ما أُنْزِلَ مِنْ رَبِّهِ الْـ ... قُدُّوْسِ وَحْياً مِثْلَ قَرْعِ الطَّسِيْسْ
يَجْلِدُ فِي الخَمْرِ ويَشْتَدُّ فِي الْـ ... أَمْرِ ولا يُطْلِقُ شُرْبَ الكَسِيْسْ
ويَرْجُمُ الزَّانِيَ ذا العِرْسِ لا ... يَقْبَلُ فِيهِ سُؤْلَةً مِنْ رَئِيْسْ
وكَـمْ عَرُوسٍ باتَ حُرَّاسُها ... كَجُرْهُمٍ فِي عِزِّها أَوْ جَدِيْسْ

([1]) كانَتْ مَوْقِعَةُ اليَرْمُوك فِي سَنَةِ ١٥هـ/٦٣٦م بَيْنَ المسْلِمِيْنَ والرُّوْمِ أصحابِ الإمْبِراطُورِيَّةِ البِيْزَنْطِيَّةِ التي كانت تَمْلِكُ أَعْظَمَ جَيْشٍ فِي العالَمِ يَوْمَئِذٍ، وكانَتْ هَذِهِ المعركةُ مِنْ أَعْظَمِ مَعارِكِ الإسلامِ الفاصِلَةِ، فَبِها بَدَأَ فَتْحُ الشام ثُمَّ ما حَوْلَهُ مِنَ البُلْدانِ؛ واليَرْمُوكُ سَهْلٌ بَيْنَ سُوريا والأُرْدُنِّ، إلى الجَنُوْبِ الغَرْبِيِّ مِنْ مُرتَفعاتِ الجُولانِ. وأَكْثَرُ ما تَجَلَّتْ مَقْدِراتُ خالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ القِيادِيَّةُ الحَرْبِيَّةُ في هَذِهِ المعْركةِ. (المترجم).

[2] كانت بالبصرةِ سَنَةَ ٣٦هـ/٦٣٦م بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ والجَيْشِ الذي يَقُودُهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ والزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، تُرَافِقُهُما أُمُّ المؤْمِنِيْنَ السَّيِّدَةُ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ أَجْمَعِيْنَ. وكـانَ سَبَبُها المطالبةَ بِدَمِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكانُوا قَدِ اسْتَبْطأُوا مُحاسَبَةَ عَلِيٍّ لِقَتَلَتِهِ، وكانَ عَلِيٌّ يَنْتَظِرُ أَنْ تَهْدَأَ الفِتْنَةُ ويَسْتَحْكِمَ أَمْرُهُ لِيُحَقِّقَ فِي الأَمْرِ ويُحاسِبَ الجُناةَ. (التُّرْجُمان).

([3]) صِفِّيْنُ مَوْضِعٌ عَلَى شاطِئِ الفُرَاتِ شَهِدَ الوَقْعَةَ الشَّهِيْرَةَ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ ومُعاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ سَنَةَ ٣٩هـ. (التُّرْجُمان).

زُفَّتْ إلَى زَوْجٍ لَهَا سَيِّدٍ ... ما هُوَ بِالنِّكْسِ ولا بِالضِّبِّيْسْ

غِرْتُ عَلَيْها فَتَخَلَّجْتُها ... بِوَاشِكِ الصَّرْعَةِ قَبْلَ المسِيْسْ

وأَسْلُكُ الغادَةَ مَحْجُوْبَةً ... فِي الخِدْرِ أَوْ بَيْنَ جَوارٍ تَمِيْسْ

لا أَنْتَهِي عَنْ غَرَضِي بِالرُّقَى ... إذا انْتَهَى الضَّيْغَمُ دُوْنَ الفَرِيْسْ

وأُدْلِجُ الظَّلْماءَ فِي فِتْيَةٍ ... مِلْجِنِّ فَوْقَ الماحِلِ العَرْبَسِيْسْ

فِي طاسِمٍ تَعْزِفُ جِنَّانُهُ ... أَقْفَرَ إلَّا مِنْ عفارِيْتَ لِيْسْ

بِيْضٍ بِهَالِيْلَ ثِقالٍ يَعا ... لِيْلَ كِرَامٍ يَنْطِقُوْنَ الهَسِيْسْ

تَحْمِلُنا فِي الجُنْحِ خَيْلٌ لَهَا ... أَجْنِحَةٌ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الأَنِيْسْ

وأَيْنُقٌ تَسْبِقُ أَبْصارَكُمْ ... مَخْلُوْقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وعِيْسْ

تَقْطَعُ مِنْ عَلْوَةَ فِي لَيْلِها ... إلي قُرَى شاسٍ بِسَيْرٍ هَمِيْسْ

لا نُسْكَ فِي أَيَّامِنا عِنْدَنا ... بَلْ نُكِسَ الدِّيْنُ فَمَا إنْ نَكِيْسْ

فَالأَحَدُ الأَعْظَمُ والسَّبْتُ كالْ ... إثْنَيْنِ والجُمْعَةُ مِثْلُ الخَمِيْسْ

لا مُجُسٌ نَحْنُ ولا هُوَّدٌ ... ولا نَصارَى يَبْتَغُونَ الكَنِيْسْ

نُمَزِّقُ التَّوْرَاةَ مِنْ هُونِها ... ونَحْطِمُ الصُّلْبَانَ حَطْمَ اليَبِيْسْ

نُحارِبُ اللهَ جُنُوْداً لِإِبْـ ... لِيسَ أخِي الرَّأْيِ الغَبِيْنِ النَّجِيْسْ

نُسَلِّمُ الحُكْمَ إلَيْهِ إذا ... قَاسَ فَنَرْضَى بِالضَّلالِ المقِيْسْ

نَزِيْنُ لِلشَّارِخِ والشَّيْخِ أَنْ ... يُفْرِغَ كِيْساً فِي الخَنَا بَعْدَ كِيْسْ

ونَقْتَرِي جِنَّ سُلَيْمَانَ كَيْ ... نُطْلِقَ مِنْها كُلَّ غاوٍ حَبِيْسْ

صُيِّرَ فِي قارُوْرَةٍ رُصِّصَتْ ... فَلَمْ تُغَادِرْ مِنهُ غَيْرَ النَّسِيْسْ

ونُخْرِجُ الحَسْنَاءَ مَطرودَةً ... مِنْ بَيْتِها عَنْ سُوْءِ ظَنٍّ حَدِيْسْ

نَقُولُ: لا تَقْنَعْ بِتَطْلِيْقَةٍ ... واقْبَلْ نَصِيْحاً لَمْ يَكُنْ بِالدَّسِيْسْ

حَتَّى إذا صارَتْ إلَى غَيْرِهِ ... عادَ مِنَ الوَجْدِ بِجَدٍّ تَعِيْسْ

نُذْكِرُهُ مِنْها وقَدْ زُوِّجَتْ ... ثَغْراً كَدُرٍّ فِي مُدَامٍ غَرِيْسْ

ونَخْدَعُ القِسِّيْسَ فِي فِصْحِهِ ... مِنْ بَعدِ ما مُلِّئَ بِالأَنْقَلِيْسْ

أَصْبَحَ مُشْتَاقاً إِلَى لَذَّةٍ ... مُعَلَّلاً بِالصِّرْفِ أَوْ بِالخَفِيْسْ

أَقْسَمَ لا يَشْرَبُ إِلَّا دُوَيْـ ... ـنَ السُّكْرِ والبازِلُ تالِي السَّدِيْسْ

قُلْنا لَهُ: ازْدَدْ قَدَحاً وَاحِداً ... ما أَنْتَ إِنْ تَزْدَادَهُ بِالوَكِيْسْ

يُحْمِيْكَ فِي هَذا الشَّفِيْفِ الذِي ... يُطْفِئُ بِالقُرِّ الْتِهَابَ الحَمِيْسْ

فَعَبَّ فِيْها فَوَهَى لُبُّهُ ... وعُدَّ مِنْ آلِ اللَّعِيْنِ الرَّجِيْسْ

حَتَّى يَفِيْضَ الفَمُ مِنهُ عَلَى ... نُمْرُقَتَيْهِ بِالشَّرَابِ القَلِيْسْ

ونُسْخِطُ المَلْكَ عَلَى المشْفِقِ الْـ ... ـمُفْرِطِ فِي النُّصْحِ إذا المَلْكُ سِيْسْ

وأُعْجِلُ السَّعلاةَ عَنْ قُوْتِها ... فِي يَدِها كَشْحُ مَهَاةٍ نَهِيْسْ

لا أَتَّقِي البَرَّ لِأَهْوَالِهِ ... وأَرْكَبُ البَحْرَ أَوَانَ القَرِيْسْ

نادَمْتُ قابِيْلَ وشِيْثاً وهَا ... بِيْلَ عَلَى العاتِقَةِ الخَنْدَرِيْسْ

وصاحِبِي لَمْكَ لَدَي المِزْهَرِ الْـ ... ـمُعْمَلِ لَمْ يَعْيَ بِزِيْرٍ جَسِيْسْ

ورَهْطَ لُقْمَانَ وأَيْسَارَهُ ... عَاشَرْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ اللَّبِيْسْ

ثُمَّتُ آمَنْتُ ومَنْ يُرْزَقِ الْـ ... إِيْمَانَ يَظْفَرْ بِالخَطِيْرِ النَّفِيْسْ

جاهَدْتُ فِي بَدْرٍ وحامَيْتُ فِي ... أُحْدٍ وفِي الخَنْدَقِ رُعْتُ الرَّئِيْسْ

وَرَاءَ جِبْرِيْلَ ومِيْكَالَ نَخْـ ... ـلِي الهَامَ فِي الكَبَّةِ خَلْيَ اللَّسِيْسْ

حِيْنَ جُيُوْشُ النَّصرِ فِي الجَوِّ والـ ... ـطَّاغُوْتُ كالزَّرْعِ تَنَاهَى، فَدِيْسْ

عَلَيْهِمُ فِي هَبَوَاتِ الوَغَى ... عَمائِمٌ صُفْرٌ كَلَوْنِ الوَرِيْسْ

صَهِيْلُ حَيْزُوْمَ إِلَى الآنَ فِي ... سَمْعِيَ أَكْرِمْ بِالحِصَانِ الرَّغِيْسْ

لا يَتْبَعُ الصَّيْدَ ولا يَأْلَفُ الْـ ... ـقَيْدَ ولا يَشْكُو الوَجَى والدَّخِيْسْ

فَلَمْ تَهَبْنِي حُرَّةٌ عانِسٌ ... ولا كَعابٌ ذاتُ حُسْنٍ رَسِيْسْ

وأَيْقَنَتْ زَيْنَبُ مِنِّي التُّقَى ... ولَمْ تَخَفْ مِنْ سَطَوَاتِي لَمِيْسْ

وقُلْتُ لِلْجِنِّ: أَلا اسْجُدُوا ... لِلّهِ، وانْقَادُوا انْقِيَادَ الخَسِيْسْ

فَإِنَّ دُنْيَاكُمْ لَهَا مُدَّةٌ غادِرَةٌ بِالسَّمْحِ أَوْ بِالشَّكِيْسْ
بِلْقِيْسُ أَوْدَتْ وَمَضَى مُلْكُها عَنْها، فَمَا فِي الأُذْنِ مِنْ هَلْبَسِيْسْ
وأُسْرَةُ المُنْذِرِ حازُوا عَنِ الْـ حِيْرَةِ كُلٌّ فِي تُرَابٍ رَمِيْسْ
إِنَّا لَمَسْنا بَعْدَكُمْ فاعْلَمُوا بِرْقِعَ فاهْتَاجَتْ بِشَرٍّ بَئِيْسْ
تَرْمِي الشَّيَاطِيْنَ بِنِيْرَانِهَا حَتَّى تُرَى مِثْلَ الرَّمَادِ الدَّرِيْسْ
فَطَاوَعَتْنِي أُمَّةٌ مِنهُمُ فَازَتْ وأُخْرَى لَحِقَتْ بِالرَّكِيْسْ
وطَارَ فِي اليَرْمُوكِ بِي سَابِحٌ والقَوْمُ فِي ضَرْبٍ وطَعْنٍ خَلِيْسْ
حَتَّى تَجَلَّتْ عَنِّيَ الحَرْبُ كالْـ جَمْرَةِ فِي وَقْدَةِ ذَاكَ الوَطِيْسْ
والجَمَلُ الأَنْكَدُ شاهَدْتُهُ بِئْسَ نَتِيْجُ النَّاقَةِ العَنْتَرِيْسْ
بَيْنَ بَنِي ضَبَّةَ مُسْتَقْدَماً والجَهْلُ فِي العَالَمِ دَاءٌ نَجِيْسْ
وزُرْتُ صِفِّيْنَ عَلَى شَطْبَةٍ جَرْدَاءَ ما سائِسُها بِالأَرِيْسْ
مُجَدِّلاً بِالسَّيْفِ أَبْطَالَهَا وقاذِفاً بِالصَّخْرَةِ المِرْمَرِيْسْ
وسِرْتُ قُدَّامَ عَلِيٍّ غَدا ةَ النَّهْرِ حَتَّى فُلَّ غَرْبُ الخَمِيْسْ
صادَفَ مِنِّي وَاعِظٌ تَوْبَةً فَكانَتِ اللَّقْوَةُ عِنْدَ القَبِيْسْ

وعَلَى نَحْوِ ما عَسَاكَ تُلاحِظُ هُنا فَإِنَّ القَصِيدةَ الثَّانِيَةَ هُنا بَسْطٌ وتَوْسِيْعٌ لِلأُوْلى التي كانَ نَظَمَها أبو العلاء، عَلَى ما نَظُنُّ، يروز القول ويُعالِجُ تَجْرِبَتَهُ. وقَدِ اسْتَخْدَمَ أبو العلاء فِيها الأَلْفاظَ الغرائِبَ ورَكِبَ قافِيَةً عَسِرَةً لِيُشْعِرَ بِجَوِّ الجِنِّيِّ ويَسْتَحْضِرَ الإحْساسَ بِهِ[1]. فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِالإشارَاتِ إلى قَدِيْمِ الحكاياتِ وإِلَى الخُرافاتِ وكَذلِكَ إِلَى قَصَصِ القرءانِ الكَرِيْمِ وإِلَى الأَحْدَاثِ والوَقائِعِ مِنْ سِيْرَةِ النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ والخُلَفاءِ الرَّاشِدِيْنَ.

---

(1) الوَزْنُ والقافِيَةُ اللَّذانِ اسْتَخْدَمَهُما أبو العلاء في هَذِهِ القَصِيدةِ قَلَّ أنْ وَرَدَا فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، ورُبَّما كانَتِ القَصِيْدَتانِ الوَحِيْدَتانِ اللَّتانِ اسْتُخْدِمَ فِيهِما هَذا الوَزْنُ وهَذِهِ القافِيَةُ هُما سِينِيَّةُ الأَوْدِيّ (انْظُرِ التَّعارِيْفَ الأَدَبِيَّةَ ص١٦) وقَصِيْدَةُ أَبِي تَمّامٍ (جَرَتْ لَهُ أَسْماءُ حَبْلَ الشُّمُوْسْ)، انْظُرْ دِيْوَانَهُ ص١٧٨).

وقَدْ حَوَتْ وَصْفاً حَيَوِيّاً لِخُبْثِ الجِنِّ وفُجُوْرِهِمْ وخِداعِهِمْ وحِيَلِهِمْ التي يُطْلُونَها عَلَى الأِنْسِ. ولَعَلَّنا نُلاحِظُ هُنا أنَّ كَثِيْراً مِنْ مادَّةِ هَذِهِ القَصِيدةِ والقَصِيدَةِ الأُوْلَى جَمِيْعاً أخذَها أبو العلاءِ مِنَ القَصَائِدِ والقِطَعِ التي تَناوَلَتِ الشَّيَاطِيْنَ وأَحْوَالَهُمْ مِمَّا أَوْرَدَهُ الجاحِظُ في حَيْوَانِهِ[1]. غَيْرَ أنَّ هَذِهِ القَصائِدَ والقِطَعَ التي في الحَيْوَانِ إخْبَارِيَّةُ الطَّابَعِ مَلِيْئَةٌ بِالمَعْلُوْماتِ وتَفْتَقِرُ إلَى الطَّابَعِ الفَنِّيِّ أوِ السِّمَةِ الفَنِّيَّةِ مِمَّا نَجِدُهُ في كِلْتا قَصِيْدَتَيْ أبي العلاءِ هاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُعَدَّانِ بِحَقٍّ أرْوَعَ مِثَالَيْنِ مِنْ نَوْعِهِما فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ كُلِّهِ. وهُما تُمَثِّلانِ التَّطَوُّرَ الأَخِيْرَ لِعُنْصُرِ الحِكايَةِ والقِصَّةِ الذِي تُلاحِظُهُ هَكَذا في اللُّزُومِ: الحِكَايَةِ التَّهَكُّمِيَّةُ الساخِرةِ، والوَصْفُ الكَارِيْكَتُورِيُّ المعَبِّرُ ثُمَّ مَسْحَةُ الفُكاهَةِ.

وقَبْلَ أنْ نَخْتِمَ هَذَا الفَصْلَ، يَحْسُنُ أنْ نُعْطِيَ تَلْخِيْصاً في ما يَلِي:

أَوَّلاً: يَجْعَلُ اللُّزُومُ مِنْ حَيَاةِ البَشَرِ كُلِّها مَوْضُوعاً لَهُ ويَتَفَكَّرُ في أَعْمَقِ مَشاكِلِها[2]. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حافَظَ فِيهِ أبو العلاءِ، عَلَى الأَغْلَبِ، عَلَى تَوَافُقٍ مُتْقَنٍ وانْسِجَامٍ مُحْكَمٍ بَيْنَ أَلْفاظِهِ ومَعَانِيْهِ، وهُوَ صَنِيْعٌ قَلَّ أنْ تَجِدَهُ فِي الأَعْمالِ الفِكْرِيَّةِ، وإنْ يَكُنْ هُناكَ بَعْضُ القصائِدِ فِي اللُّزُومِ اعْتَرَى أَلْفَاظَها الضَّعْفُ، وبَعْضٌ آخَرُ كانَتِ الأَلْفاظُ فِيْها، لا المعَانِي، هِيَ أَهَمَّ جَوَانِبِها.

ثانِياً: جاءَتِ المَوْضُوعاتُ التَّقْلِيْدِيَّةُ ومَوْضُوعاتُ الأَجْرَامِ السَّماوِيَّةِ والتأَمُّلاتُ الغَرَامِيَّةُ ومَدْحُ الشَّاعِرِ نَفْسَهُ وذَمُّهُ إيَّاها في عَدَدٍ مِنْ قصائِدِ اللُّزُومِ. وهُناكَ الكَثِيْرُ مِنَ القِطَعِ والقصائِدِ الطِّوَالِ احْتَلَّ إشْفَاقُ الشَّاعِرِ عَلَى الحَيْوانِ فِيْها جُزْءاً مُقَدَّراً، مِنْ بَيْنِها القصائِدُ التي خاطَبَ بِها الحَمامةَ وطَيْرَ القَطا والدِّيْكَ، فَقَدْ حَوَتْ هَذِهِ القصائِدُ سِحْراً شِعْرِيّاً أخَّاذاً.

---

(1) انظُرْ مَثَلاً الجُزْءَ ٦ ص ٨٠ مِنْ كِتابِ (الحَيْوَانِ).

(2) المَوْسُوعَةُ الإسلامِيَّة ج١، ص ٧٦.

ثالثاً: لَقَدْ تَناوَلَ العَدَدُ الأَكْبَرُ مِنَ القِطَعِ والقصائِدِ الطِّوالِ في اللُّزُومِ التَّفكُّرَ في قَضِيَّةِ المَوْتِ وتَقَلُّباتِ الأَقْدارِ وخُبْثَ النَّاسِ وشُرُوْرَهُمْ. وأَغْلَبُ هَذِهِ القصائِدِ تَفِيْضُ بِالصورِ والأخْيِلَةِ والأَلْفاظِ الأنيقَةِ، وبَعْضُها مِنْ عُيُوْنِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ.

رابِعاً: احْتَوَى اللُّزُومُ عَدَداً ضَخْماً مِنَ الأَبْياتِ التي تَحْمِلُ حِكَماً وأَقْوَالاً مَأْثُوْرَةً وأَمْثالاً تُلَخِّصُ لَنا آراءَ أبي العلاءِ في الحَيَاةِ وتُعْطِيْنا خُلاصَةَ حِكْمَتِهِ وجَوْهَرَها. ومَعَ أَنَّ كَثِيْراً مِنْها أَقَامَهُ عَلَى أَساسِ أَبْياتِ المتَنبّي مِنْ هَذا النَّوْعِ إلّا أَنَّها ما تَزالُ جَدِيْرَةً بِالمقَامِ الأَرْفَعِ مِنْ تَذَوُّقِنا وتَقْدِيْرِنا؛ لِأَنَّها في جُمْلَتِها تُمَثِّلُ مُثُلاً أَسْمَى وتَحْمِلُ طابَعَ شَخْصِيَّةٍ أَشَدَّ نُبْلاً مِنْ شَخْصِيَّةِ المتَنَبِّي.

خامِساً: يَفِيْضُ اللُّزُومُ بِالهِجَاءِ ويَعُجُّ بِالسُّخْرِيَةِ والتَّهَكُّمِ. وأَنْتَ وَاجِدٌ فِيهِ عَدَداً كَبِيْراً مِنَ الأَبْياتِ والأَشْعارِ المؤْلِمَةِ المِمضَّةِ والإشَاراتِ الدَّقِيْقَةِ الخفِيَّةِ، عَنَى بِأَغْلَبِها ما عَلَيْهِ المسْلِمُوْنَ مِنْ اعْتِقَادٍ والسُّوْءَ الذي يَشِيْعُ في الحَيَاةِ الاجْتِماعِيَّةِ. وهَذَا الجانِبُ مِنْ أُسْلُوبِ أبي العلاءِ قَلَّ أنْ تَجِدَهُ في أشْعارِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ.

سادِساً: احْتَوَى اللُّزُومُ كَثِيْراً مِنَ القِطَعِ البيانِيَّةِ البَلاغِيَّةِ التي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَوْصافٍ حَيَّةٍ ناضِرَةٍ لِلْحَيَاةِ في عَصْرِ أبي العلاءِ؛ وتَعْرِضُ هَذِهِ القِطَعُ عُنْصُراً مُهِمّاً مِنْ عَناصِرِ الحِكايَةِ مِمَّا يَجْعَلُ مِنْ أُسلُوبِ أبي العلاءِ أُسْلُوباً مُتَفَرِّداً لا تُدارُ العَيْنُ مِنهُ على نَظِيْرٍ. وبِفَضْلِ هَذا العُنْصُرِ وُلِدَ أَفْضَلُ عَمَلٍ خَيَالِيٍّ لأبي العلاءِ، وهُوَ رِسالَةُ الغُفْرَانِ. وفي هَذِهِ الرِّسالَةِ قَصِيْدَتانِ نَظَمَهُما أبو العلاءِ عَلَى لِسَانِ جِنِّيٍّ شَيْخٍ فازَ بِعَفْوِ اللهِ ودَخَلَ الجَنَّةَ، وهُما في عِدَادِ الأَمْثِلَةِ النَّادِرَةِ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَصَصِيِّ.

سابعاً: تَلَقَّى اللُّزُومُ وَصْفاً جائِراً مِنْ قِبَلِ ابْنِ حَجَرٍ إذْ قالَ عَنْهُ إِنَّهُ شِعْرٌ وَسَطٌ، ومِنِ ابْنِ الأَثِيْرِ وابْنِ أبي الحَدِيْدِ إذْ وَصَفَاهُ بِالتَّكَلُّفِ والصَّنْعَةِ، ومِنِ ابْنِ خَلْدُونَ إذْ جَرَّدَهُ مِنْ صِفَةِ الشِّعْرِ. وقَدْ كَشَفْنَا لَكَ آنفاً أَنَّ وَصْفَ ابْنِ حَجَرٍ لِلُّزُومِ لا يَصِحُّ إلّا في قَصائِدَ

قَلِيْلَةٍ نَظَمَها أبو العَلاء بأُسْلُوبِ شِعْرِ العُلَماءِ، وأنَّ رَأْيَ ابْنِ الأثِيْرِ لا يَصِحُّ كَذَلِكَ إلَّا في القصائِدِ الصِّناعِيَّةِ التي تَعْرِضُ أسْوَأَ ضُرُوبِ الزَّخرَفَةِ عِنْدَ أبي العلاءِ. وأمَّا رأيُ ابْنِ خَلْدونَ فَقَدْ أَقامَهُ عَلَى مَبْدَأٍ أنَّ الشِّعْرَ يَجِبُ ألَّا يُدانِيَ الفَلْسَفةَ ولا يَضْرِبَ فِيْها بِسَهْمٍ؛ وهُو مَبْدأٌ لا يُمْكِنُ قَبُوْلُهُ بِحالٍ.

ثامِناً: لَعَلَّنا نُضِيْفُ هُنا إلى ما سَبَقَ أنَّ الباخَرْزِيَّ وياقُوْتاً وابْنَ خَلِّكانَ والمكِّيَّ وسِبْطَ بْنَ الجَوْزِيِّ والسُّيُوطِيَّ ويُوْسُفَ البَدِيْعِيَّ وابْنَ الوَرْدِيِّ، وغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ، قَدْ وَصَفُوا أُسْلُوبَ أبي العلاءِ في اللُّزُومِ بِأَنَّهُ جَيِّدٌ وفَصِيْحٌ وجَزْلٌ[1]. وقَدْ وَصَفَ ابْنُ بَسَّامٍ، النَّاقِدُ الأَنْدَلُسِيُّ الكَبِيرُ، أبا العلاء وهُوَ يُقارِنُهُ بِشاعِرٍ آخَرَ بِأَنَّهُ السَّماءُ والشَّاعِرُ الآخَرُ الأَرْضُ[2] وجَزَمَ الكَلاعِيُّ[3] وهُوَ ناقِدٌ أَنْدَلُسِيٌّ آخَرُ أنَّ أبا العلاء لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَظِيْرٍ، مَعَ إمْكانِ أنْ يُسْتَثْنَى المتَنَبِّي مِنْ هَذا الحُكْمِ. فَأَخْذاً بِآراءِ هَؤُلاءِ النُّقَّادِ الكِبارِ واعْتِباراً لِما حَوَى اللُّزُومُ، لا يَجِدُ المرْءُ سَبَباً واحِداً يُسَوِّغُ الرَّأْيَ السائِدَ بَيْنَ نُقَّادِ أبي العلاءِ المعَاصِرِيْنَ أنَّ اللُّزُومَ لا يَرْتَقِي عَلِيّاً مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ الفَنِّيَّةِ، إذِ الحَقُّ أنَّهُ مِنْ بَدائِعِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ ورَوائِعِهِ في كُلِّ العُصُورِ.

---

(1) تَعْرِيْفُ القُدَماء، الصفحات، ٨، ٦٧، ١٤٥، ١٨٢، ٣٣١، ٣٥١؛ وانْظُرْ كَذَلِكَ أوْج التَّحَرِّي، ص ١٦٠.

(2) الذَّخِيرةُ، القاهرة، ١٩٤٥، المجَلَّدُ ٣ ص ١٩٢.

(3) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الغَفُور الكَلاعِيُّ، أَحَدُ مُعاصِرِي ابْنِ بَسَّام، مِنْ رِجالاتِ القَرْنِ السَّادِسِ الهِجْرِيِّ، انظُرْ: تَعْرِيْف القُدَماء ص ٤٤٧.

الفَصْلُ السَّابِعُ

الجانِبُ الفِكْرِيُّ فِي اللُّزُومِ

الفصل السابع[1]

القسم الأَوَّلُ

الجانبُ الفِكْريُّ في اللُّزومِ

لَقد جاءَتْ الآراءُ الفَلْسفِيَّةُ الواردَةُ في اللُّزومِ دائِماً مَنْظومَةً شِعْراً مُنْتَثِرةً هَكَذا في القَصائِدِ عَلى غَيرِ اتِّفاقٍ ولا تَعْيِينٍ. وهِيَ لا تُمَثِّلُ لنا نَحْنُ عَقيدةً مَرْعِيَّةً صاغَها أبو العلاء صَوْغاً وتَعَهَّدَها، بِقَدْرِ ما يَنْبَغي اعْتِبارُها مُلاحَظاتٍ عَرَضِيَّةً تَعِنُّ لهُ فَيُعْرِبَ عَنْها في حالاتٍ نَفْسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. ويُمْكِنُنا تَبَيُّنُها مِنْ الأَمْثِلَةِ المتفرِّقَةِ التالِيَةِ:

لَنا خَالِقٌ لا يَمْتَري العَقْلُ أَنَّهُ   قَدِيمٌ فَمَا هذا الحدِيْثُ المولَّدُ

ولَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُوْدُ النُّجُومِ   ولا مَذْهَبِي قِدَمُ العالَمِ

وعَالَمٌ ظَلَّ فِيهِ القَوْلُ مُخْتَلِفاً   ومُحْدَثٌ هُوَ مِنْ رَبٍّ لَهُ القِدَمُ

حِكَمٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيْمٍ قادرٍ   مُتَفَرِّدٍ في عِزِّهِ بِكَمَالِ

تَوَرَّعُوا يا بَنِي حَوَّاءَ عنْ كَذِبٍ   فَمَا لَكُمْ عِنْدَ رَبٍّ صَاغكُمْ خَطَرُ

لَمْ تُجْدِبوا لقَبِيْحٍ مِنْ فَعَالِكُمُ   ولَمْ يَجِئْكُمْ لحُسْنِ التَّوْبَةِ المطَرُ

---

[1] وَقَفَ عبد الله الطيب هَذِهِ الفُصُولَ الثَّلاثَةَ مِنْ كِتابِهِ هذا ابتداءً من الفَصْلِ الخامِسِ إلى هذا الفَصْلِ السابِعِ عَلَى دَرْسِ دِيْوانِ اللُّزومِ، ومَعَ أَنَّهُ دَافعَ في هَذِهِ الفُصُولِ الثلاثةِ عَنْ هذا الدِّيوانِ مِنَ النَّاحِيَةِ الفَنِّيَّةِ لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ عادَ فَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ كالمعْتَذِرِ، وذَلِكَ فِي مَعْرِضِ كَلِمَتِهِ فِي رِثائِهِ الدكتور طه حسين في كِتابِهِ (القصيدَةُ المادِحَةُ ومَقالاتٌ أُخَرُ) إذْ قالَ ثَمَّ ما مَعْناهُ إنَّهُ كانَ دافَعَ عَنْهُ جَرْياً على سَنَنِ ما يُعْمَلُ بِهِ في الرّسالاتِ العِلْمِيَّةِ، أنْ يُدافِعَ الباحِثُ عَنْ ما يَكْتُبُ في أُطْرُوحَتِهِ. (التُّرْجُمان).

(أيْ إيّاكُمْ أيُّها النّاسُ والكذِبَ واحْذَرُوا غَضَبَ اللهِ الذِي لَنْ يُبالِيَ بِكُمْ ولا تُساوُوْنَ عِنْدَهُ شَيْئاً؛ فَما أَصابَكُمُ الجَدْبُ لِسُوْءِ أَفْعالِكُمْ، ولا أُنْزِلَ عَلَيْكُمُ الغَيْثُ لِمتابِ مِنكُمْ)[1]. وكَذَلِكَ هذه الأمثلة المتفرقة:

وقُدْرةُ اللهِ حقٌّ لَيْسَ يُعْجِزُها حَشْرٌ لِخَلْقٍ ولا بَعْثٌ لِأمْوَاتِ

لَسْتُ أنْفِي عَنْ قُدْرةِ الله أشْبـ ـاحَ ضِيْاءٍ بِغَيْرِ لَحْمٍ ولا دَمْ

قَدْ عِشْتُ عُمْراً طَوِيْلاً ما عَلِمْتُ بِهِ حِسّاً يُحَسُّ لِجِنِّيٍّ ولا مَلَكِ

جائِزٌ أنْ يَكُوْنَ آدمُ هَذَا قَبْلَهُ آدمٌ عَلَى إثْرِ آدَمِ

زعَمَ الفَلاسِفَةُ الذِيْنَ تَنطَّسُوا أنَّ المنِيَّةَ كَسْرُها لا يُجْبَرُ

قالو: وآدمُ مِثْلُ أوْبَرَ والورَى كَبَنَاتِهِ جَهِلَ امْرُؤٌ ما أوْبَرُ(٢)

ودَانَ أُناسٌ بِالجَزَاءِ وكَوْنِهِ وقالَ رِجالٌ إنّما أنْتُمْ بَقْلُ

لا تَحْمَدَنَّ ولا تَذُمَّنَّ امْرأً فِينا فَغَيْرُ مُقَصِّرٍ كَمُقَصِّرِ

أَلَمْ تَرَ أنَّ الخَيرَ يَكْسِبُهُ الحِجَى طَرِيْفاً وأنَّ الشَّرَّ فِي الطَّبْعِ مُتْلَدُ

---

[1] أعادَ الشّاعِرُ هَذَا المعْنَى عَلَى نَحْوٍ أوْضَحَ فِي رِسالَةِ الغُفْرَانِ، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ: (وما يُبالِي ربَّهُ أَصامَ عِبادُهُ خَشْيَةً لَهُ أمْ لا) ص ١٤٦؛ ولا رَيْبَ أنَّهُ أرادَ بِهَذا مُحاجَّةَ المعْتَزِلَةِ الذِيْنَ كانُوا يَقُوْلُونَ بِأَنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالأحْسَنِ. وكان أبو العلاء يَرَى أنَّ اللهَ لا يُبالِي بِالخَيْرِ والشَّرِّ، غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يَدُمْ عَلَى هذا الرَّأْيِ.

(٢) هذا رَدٌّ مِنهُ عَلَى الطَّبِيْعِيِّينَ الذِيْنَ يَرَوْنَ أنَّ مَنْ يَمُوتُ لا يُبْعَثُ وشَبَّهُوا آدمَ وذُرِّيَّتَهُ بِأَوْبَرَ وبَنَاتِهِ، وبَنَاتُ أَوْبَرَ كَمَأَةٌ، وهِيَ نَبَاتٌ مَعْرُوفٌ يَكْثُرُ أَيّامَ الأمْطارِ الكَثِيرَةِ، وهُوَ أقسامٌ أرْدَؤُها بَنَاتُ أَوْبَرَ، قال الشّاعِرُ القَدِيْمُ:

ولَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وعساقِلاً ولَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الأَوْبَرِ

ودُخُولُ (أَلْ) عَلَى (بَنَاتِ أَوْبَرَ) ضَرُورَةٌ شِعْرِيَّةٌ؛ لِأنَّ (بَنَاتِ أَوْبَرَ) اسْمٌ عَلَمٌ، على حدِّ قَوْلِ الأَصْمَعِيِّ. (التُّرْجُمان).

وغَضِبْنا مِنْ قَوْلِ زَاعِمٍ حَقٌّ أَنَّنا فِي أُصُوْلِنا لُؤَمَاءُ

نَعَمْ ثَمَّ جُزْءٌ مِنْ أُلُوفٍ كَثِيْرَةٍ مِنَ الخَيْرِ والأَجْزاءُ بَعْدُ شُرُورُ

قَدْ قِيْلَ إنَّ الرُّوْحَ تَأْسَفُ بَعْدَما تَنْأَى عَنِ الجَسَدِ الذِي غَنِيَتْ بِهِ

وقَدْ زَعَمُوا هَذِي النُّفُوْسُ بَوَاقِياً تُشَكَّلُ فِي أَجْسامِها وتُهَذَّبُ

وتُنْقَلُ مِنْها فَالسَّعِيْدُ مُكَرَّمٌ بِما هُوَ لاَقٍ والشَّقِيُّ مُشَذَّبُ

فَأُوْلَئِكَ الذِيْنَ يَبْتَغُونَ أنْ يَجِدُوا وَحْدَةً فَلْسَفِيَّةً مُتَكامِلَةً فِي اللُّزُوم آيِبُونَ دُونَ مُبْتَغَاهُمْ؛ إذْ سَيُخْلِفُ الوَاقِعُ ظَنَّهُمْ. فَقَدْ كانَ المعَرِّيُّ حَكِيماً وعَقْلانِيّاً وناقِداً لِمُجْتَمَعِ البَشَرِ ومُتَزَهِّداً وعالِماً وشاعِراً، ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ فَيْلسُوفاً. ولَنْ تَظْفَرَ فِي أَشْعارِهِ وكِتابَاتِهِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ مِنَ المعَانِي الفَلْسَفِيَّةِ (بِاسْتِثْناءِ تَعْرِيفَيْهِ المبْهَمَيْنِ لِلزَّمانِ والمكانِ)، ولَسْتَ بِوَاجِدٍ قَطُّ فِي لُزُومِهِ قَوْلاً لا يَنْقُضُهُ بِآخَرَ في ذَاتِ الدِّيوانِ. لَقَدْ كانَ أبو العلاء، كَأَغْلَبِ عُلَماءِ الأَزْمُنِ القَدِيمَةِ وطُلاَّبِها، رَجُلاً ذا وَلاءاتٍ مُتَضارِبَةٍ. وقَدِ انْطَوَتْ عَقْلِيَّتُهُ المعَقَّدَةُ التَّرْكِيبِ عَلَى تَلَوٍّ لُغَوِيٍّ. فعَلَى حِيْنِ أَنَّهُ كانَ يُحِبُّ عَلِيّاً حُبّاً عَظِيْماً ويُكِنُّ لهُ عَطْفاً، بَدَا فِي ذَاتِ الوَقْتِ مُوْلَعاً بِالخَوارِجِ الذِيْنَ كانُوا أَعْدَى أَعْدَاءِ عَلِيٍّ[1]. وحابَى الأَنْصارَ وفَضَّلَهُمْ عَلَى قُرَيْشٍ وأُعْجِبَ بِأَبْطالِ أَيَّامِ الجاهِلِيَّةِ[2]؛ وقَدْ كَرِهَ أَعْرابَ الشَّامِ المعاصِرِينَ لَهُ ولَكِنَّهُ أَحَبَّ قُدَماءَ أَعْرابِ البَادِيَةِ الجاهِلِيِّينَ وأُعْجِبَ بِبَعْضِ عاداتِهِمْ البَرْبَرِيَّةِ الغَلِيظَةِ[3]. وقَدْ وَجَدَ مُتْعَةً عَظِيمَةً في الحكاياتِ القَدِيمَةِ، كما أَصابَ لَذَّةً عابِثَةً

---

[1] انظُرْ اللُّزُوم ج١، ص ٩٨، و٣٨٣.

[2] نفسهُ، ص٤٦، وص ٣٣٣.

[3] نفسهُ، ص١٨٩.

فِي اسْتِشْهادِهِ بِشِعْرٍ فِيهِ رَفَثٌ ومُجُوْنٌ[1]. وقَدِ ازْدَرَى الجَهْلَ بِحِسِّ اللُّغَوِيِّ، وكانَ مُتَشَدِّداً عَلَى النَّاسِ لِعَدَمِ قُدْرتِهِمْ عَلَى فَهْمِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ الجَلِيْلِ الفَخِيْمِ[2]. وقَدْ بَدَا كَأَنَّ لَهُ ثَأْراً عَلَى النَّاسِ، لِأَنَّهُ أفْرَطَ في تَعَاطِي التَّهَكُّمِ وتَوَسَّعَ فِي اسْتِخْدَامِ أَلْفاظِ الحَذْلَقَةِ والإشارَاتِ الغامِضَةِ والاسْتِطْرَادَاتِ الغَرِيْبَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنهُ يُصَوِّرُهُ كَأَنَّهُ مُجانِبٌ لِلْبَشَرِ مُبْغِضٌ لَهُمْ، يَرَى الدُّنْيا بِأَسْرِها فارِغَةً لاشَيْءَ فِيْها إلَّا ما يَلُوْحُ لَهُ مِنْ أَشْبَاحٍ مَطْمُوسَةٍ لِقُدَماءِ العَرَبِ ومُجْتَهِدِي الدَّارِسِيْنَ لِمِيْراثِهِمْ الشِّعْرِيِّ. تِلْكَ كانَتْ عَقْلِيَّةُ أَبِي العلاء النَّادِرَةُ الغَرِيْبَةُ وقَدِ انْعَكَسَتْ بِحَقٍّ في مِرْآةِ أعْمَالِهِ الأَدَبِيَّةِ. ولِذَلِكَ لا أَرَانا نَسْتَغْرِبُ أنْ نَجِدَ اللُّزُومَ قَدْ حَوَى سخَافَاتٍ ومُفَارَقاتٍ فِكْرِيَّةً وأَقْوَالاً ذاتَ غُلُوٍّ وتَعَصُّبٍ جَنْباً إلي جَنْبٍ مَعَ الحِكْمَةِ المتَعَمِّقَةِ والإنْسانِيَّةِ الرَّحِيْبَةِ المتَسامِحَةِ التِي يُمَثِّلُها الدِّيْوَنُ في عُمُوْمِهِ.

[1] رِسالَةُ الغُفْرانِ، ص ٤٤-٤٥؛ وص ١٠٧-١٠٨؛ والفُصُولُ والغاياتُ ص ٤٦٤، وص ٢٤٦، وص ٢٥.

[2] اللزوم، ج١، ص ١٣٢ وج٢، ص ٦٥، ورسالة الغفران، ص١١٨.

القسم الثاني

قَضِيَّةُ عَقِيْدَةِ أبي العلاء

عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا جاهَرَ بِهِ المعَرِّيُّ مِنِ انْتِقادٍ لِلإسْلامِ إلَّا أنَّهُ ظَلَّ في قَرَارَةِ نَفْسِهِ مُخْلِصاً لِمَا كانَ يعْتَقِدُ أنَّهُ الحَقُّ فِي دِيْنِهِ. فَقَدْ كانَ الإسْلامُ بِكُلِّ ما رَآهُ فِيهِ مِنْ عِلَلٍ أَفْضَلَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ العَقَائِدِ الأُخْرَى؛ قَالَ فِي اللُّزُومِ:

وإنْ لَحِقَ الإسْلامَ خَطْبٌ يَغُضُّهُ   فَمَا وَجَدَتْ مِثْلاً لَهُ نَفْسُ وَاجِدِ

وقَدْ نشأَتْ مُحاباتُهُ الإسْلامَ[1] بِسَبَبِ أُسْرَتِهِ التِي حَظِيَتْ بِمَقامِها الرَّفِيْعِ فِي الشَّامِ لِمَنْزِلَتِها الدِّيْنِيَّةِ، وكَذَلِكَ بِسَبَبِ حُبِّهِ لِلْعَرَبِ الذِيْنَ مِنهُمُ انْتَشَرَ الإسْلامُ والذِيْنَ كانَ يُفاخِرُ أنَّهُ واحِدٌ مِنهُمْ، والذِيْنَ كانَ يُفَضِّلُهُمْ عَلَى سائِرِ الأجْناسِ الأُخْرَى، عَلَى نَحْوِ ما يُرَى مِنْ تَعْلِيْقاتِهِ المزْرِيَةِ فِي اللُّزُومِ عَنِ الفُرْسِ والتُّرْكِ[2]. ولَمَّا تَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِأبِي العلاء جَعَلَ تَمَرُّدُهُ عَلَى الإسْلامِ يَنْحَسِرُ، وأَخَذَتْ رُوْحٌ مِنَ التَّسامُحِ والتَّراضِي مَعَ الدِّيْنِ تَمَشَّى فِيهِ. ولَمْ يَنْسَ سابِقَ شُكُوْكِهِ، ولَكِنَّهُ حاوَلَ دَفْعَها إلَى الخَلْفِ واتِّخاذَ مَظْهَرِ الاسْتِقَامَةِ والرُّشْدِ المتَسامِحِ، كما كانَ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ مِنْ أُسْرَتِهِ، إنْ لَمْ يَكُنْ إلَّا لِيَسْلَمَ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يَدْرِي؟ فَلَرُبَّما صَحَّ الاعْتِقادُ فِي الإسْلامِ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ؛ يَقُولُ:

قالَ المنَجِّمُ والطَّبِيبُ كِلاهُما   لا تُحْشَرُ الأَجْسامُ، قُلْتُ إلَيْكُما

إنْ صحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بِخاسِرٍ   أوْ صَحَّ قَوْلِي فالخَسَارُ عَلَيْكُما

ويَكْشِفُ لَنا (مَلْقَى السَّبِيْل) الذِي أَمْلاهُ أبو العلاء في شَيْخُوخَتِهِ عَنْ هذا المَوْقِفِ المتَسامِحِ الذِي كانَ وَقَفَهُ حِيالَ الدِّيْنِ، ولَمْ يَرِدْ فِيهِ إلَّا بَيْتٌ واحِدٌ يُمْكِنُ أنْ يُشْعِرَ

---

[1] اللُّزوم ج٢، ص١٣٥، البيت ٣

[2] نَفْسُهُ ص ٤.

بِالشَّكِّ فِي الآخِرَةِ[1]. ويُؤَكِّدُ لَنا بَعْضُ مُحِبِّي أبي العلاء أنَّهُ كانَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ زَنْدَقَتِهِ وهَرْطَقَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ولَقِيَ رَبَّهُ مُؤْمِناً إيْماناً راسِخاً. فَقَدْ كَتَبَ ابْنُ الوَرْدِيِّ أَنَّهُ كانَ مُشايِعاً لِأَبِي العلاء لِأَنَّهُ كانَ مِنَ المعَرَّةِ، ثُمَّ إنَّهُ قَرَأَ كِتابَ أَبِي العلاءِ (اسْتِغْفِرْ واسْتَغْفِرِي) فَكَرِهَ أبا العلاء لِأَجْلِهِ، ثُمَّ كانَ أنْ طالَعَ كِتابَهُ (لُزُوْمُ ما لا يَلْزَمُ) فَانْتَهَى إلَى أَنَّهُ أحْكَمُ وأَعْقَلُ مِنْ أنْ تَكُوْنَ لَهُ بِهِ صِلَةٌ، وأنَّ هَذَيْنِ الكِتابَيْنِ يَدُلّانِ عَلَى أَنَّهُ كانَ غارِقاً فِي الشَّكِّ لَمّا كَتَبَهُما، ثُمَّ إنَّهُ قَرَأَ لَهُ (ضَوْءُ السَّقْطِ) الذِي أَمْلاهُ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ الإصْبَهانِيِّ، وكانَ قَدْ لَزِمَهُ حَتَّى وَفاتِهِ، وذَهَبَ بَعْدَ ذَلِكَ إلَى حَلَبٍ لِيَنْشُرَ مُؤَلَّفاتِ أَبِي العلاء؛ ويَرَى ابْنُ الوَرْدِيِّ في (ضَوْءِ السَّقْطِ) هَذا إبْراءً لِأبي العلاء مِنْ كُلِّ أخْطائِهِ وغَيِّهِ، وعلامَةً عَلَى رُجُوْعِهِ إلَى الحَقِّ، ودَلِيْلاً عَلَى صِحَّةِ اعْتِقادِهِ وإيْمانِهِ، وأَنَّهُ كانَ آخِرَ ما كَتَبَ، وإنَّما الأَعْمالُ بِخَوَاتِيْمِها[2]. فَلَوْ صَحَّ أنَّ (ضَوْءَ السَّقْطِ) كَمَا وَصَفَ ابْنُ الوَرْدِيِّ، فَلا يَمْلِكُ المرْءُ إذَنْ إلّا أنْ يُوَافِقَهُ عَلَى حُكْمِهِ المتفائِلِ فِي مَسْأَلَةِ إيمانِ أَبِي العلاء. ولَكِنَّ (ضَوْءَ السَّقْطِ) كَمَا وَصَفَهُ مَنْ تَرْجَمَ لِأبي العلاء مِراراً، إنَّما هُوَ شَرْحٌ لِدِيْوَانِ (سَقْطِ الزَّنْدِ) وهُوَ ما لَمْ يَحْوِ شَيْئاً مِنِ انْتِقادِ أَبِي العلاء الذِي جاهَرَ بِهِ لِلإِسْلامِ. ولَرُبَّما قَرَأَ ابْنُ الوَرْدِيِّ كُلّاً مِنَ (اللُّزُومِ) و(اسْتِغْفِرْ واسْتَغْفِرِي) قَبْلَ (سَقْط الزَّنْدِ) هَذا الذِي أَلَّفَهُ أبو العلاء باكِراً. ومَعَ ذَلِكَ فَمَا ذَهَبَ إلَيْهِ ابْنُ الوَرْدِيِّ مِنْ مَوْتِ المعَرِّيِّ عَلَى الإيْمانِ الصَّحِيْحِ أَمْرٌ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمَكانٍ. ثُمَّ إنَّهُ مِنَ البَيِّنِ مِنْ (مَلْقَى السَّبِيْلِ) وبَعْضِ قَصائِدِ اللُّزُومِ أنَّ المعَرِّيَّ رَغِبَ فِي شَيْخُوخَتِهِ أنْ يَتَصالَحَ مَعَ الدِّيْنِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ. ومَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَعَلَّهُ مِمّا يَلِيْقُ هُنا ويَحْسُنُ أنْ نَقُولَ قَوْلَ مَنْ سَلَفَ مِنْ عُلَماءِ المسْلِمِيْنَ (اللهُ أعْلَمُ).

---

[1] مَلْقَى السَّبِيْلِ، ص ١٧، السطر ٢٠.

[2] تعريف القدماء، وص ٢١١.

القسم الثالث

أبو العلاء مُفكِّراً

ونَعْتَزِمُ هُنا أنَّ نُقَدِّمَ لَكِ أَيُّها القارِئُ الكَرِيْمُ بَعْضَ أَهَمِّ الأَفْكارِ والآرَاءِ التي أَوْرَدَها أبو العلاء فِي (لُزُومِهِ) وأَنْ نَبْحَثَ بَعْضَ المَوَاضِيْعِ المفِيْدَةِ شَدِيْدَةِ التَّعلُّقِ بِها. ولَكِنَّا لَنْ نَنْظُرَ فِي مَسائِلِ تَشاؤُمِ أبِي العلاءِ وسَوْدَاوِيَّتِهِ إذْ لا مَزِيْدَ فِي ذَلِكَ عَلَى ما ذَكَرَهُ نِيكِلْسُونُ في (تَأَمُّلاتِ المعَرِّيِّ)[1] إلَّا القَلِيْلَ، ولا فِي مَسْأَلَةِ نَباتِيَّتِهِ، فَتِلْكَ مَسْأَلَةٌ عالَجَها مَرْجُلْيُوثُ باقْتِدارٍ في مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَتِهِ لِرَسَائِلِ المعَرِّيِّ وأبِي عِمْرَانَ[2].

نَقْدُهُ الموجَّهُ للدِّياناتِ السَّماوِيَّةِ:

إنَّ المعَرِّيَّ مُؤْمِنٌ رَاسِخُ الإِيْمانِ في وُجُوْدِ خالِقٍ. فَهُوَ ما يَنِي يَجْحَدُ الإلْحادَ ويُنْكِرُ الكُفْرَ (فاللهُ حَقٌّ وَاحِدٌ دَائِمٌ، بَاقٍ، قادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، حَكِيْمٌ؛ قَدْ شَهِدَتْ صَنَائِعُهُ عَلَى حِكْمَتِهِ). وعَلَى حِيْنِ يَلْزَمُ المرْءَ أنْ يُؤْمِنَ إيْماناً فَطِناً بِالذَّاتِ العَلِيَّةِ لا يُجْدِيهِ التَّخَرُّصُ وتَرْجِيْمُ الظُّنُونِ في ذَاتِهِ وصِفاتِهِ، كَيْفَ لا وقَدْ عَجَزَ العَقْلُ عَنْ فَهْمِها وقَصَّرَ عَنْ إدْرَاكِها[3]. وأمَّا فِيما يَلِي الدِّيْنَ الإِسْلامِيَّ وحَقِيْقَةَ الوَحْيِ عُمُوماً، فَمَوْقِفُهُ مِنْها مَوْقِفُ المتَشَكِّكِ، مَعَ أَنَّهُ كَمَا سَبَقَ لاحَظْنَا، كَثِيْراً ما طَلَبَ أنْ يَتَوافَقَ مَعَ الدِّيْنِ.

ويُمْكِنُ أنْ نُلَخِّصَ آرَاءَهُ الهَرْطَقِيَّةَ فِي الأَدْيَانِ السَّماوِيَّةِ فِي هَذِهِ المسائِلِ الثَّلاثِ:

---

[1] دراسات في الشعر الإسلامي، ص٩٥و ١٢٥

(٢) مَجَلَّةُ الدِّراساتِ الملَكِيَّةِ الآسْيَوِيَّةِ، ١٩٠٢، ص ٢٨٩، ٢٩٢؛ وَكَذَلِكَ (دِراساتٌ في الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ)، ص ١٣٦-١٣٨

(٣) دِراساتٌ فِي الشِّعْرِ الإسْلامِيِّ، ص١٥٨-١٥٩.

أولاً: الدِّيْنُ مِنْ وَضْعِ البَشَرِ؛ وعَلَى ذَلِكَ فَهُوَ خاضِعٌ لِمَا يَخْضَعُ لَهُ البَشَرُ مِنْ قَوَانِيْنِ الطَّبِيْعَةِ الماضِيَةِ وسُنَنِها التي لا تَسْتَلِيْنُ لِأَحَدٍ كالانْحِطاطِ والتَّدَنِّي والموْتِ الطَّبِيْعِيِّ. نَجِدُ ذَلِكَ فِي أَمْثالِ أَبْيَاتِهِ:

وَجَدْتُ الشَّرْعَ تُخْلِقُهُ اللَّيالِي ... كَمَا خَلُقَ الرِّدَاءُ الشَّرْعَبِيُّ

وقَوْلِهِ:

سَيَسْأَلُ قَوْمٌ ما الحَجِيْجُ ومَكَّةٌ ... كَمَا قالَ قَوْمٌ ما جَدِيْسٌ وما طَسْمُ

أيْ لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ يَسْأَلُ فِيهِ أُناسٌ ما مَعْنَى الحَجِيْجِ وما هِيَ مَكَّةُ، كمَا يَتساءَلُ اليَوْمَ قَوْمٌ ما كانَتْ جَدِيْسٌ وما كانَتْ طَسْمُ[١].

ويَبْدُو أنَّ القَوْلَ بِأَنَّ الدِّيْنَ مِنِ اخْتِلاقِ البَشَرِ كانَ سائِداً ومَعْرُوفاً بَيْنَ الزَّنادِقَةِ وأَرْبابِ الهَرْطَقَةِ عَلَى عَهْدِ أبي العلاء. إذْ يُحَدِّثُنا ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ (مِنْهاجُ السُّنَّةِ) أنَّ كَثِيْراً مِنْ زَنادِقَةِ عَصْرِهِ كانُوا يَرَوْنَ الأَدْيَانَ شَبِيْهَةً بِالمَذَاهِبِ الفِكْرِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ المخْتَلِفَةِ، يَتْبَعُ مِنْها مَنْ شَاءَ إذا اخْتارَهَا، وأَنَّهُمْ كانُوا يَعُدُّوْنَ النُّبُوَّةَ مِنْهَاجَ إحْسانٍ وُضِعَ لِخَيْرِ عامَّةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ[٢].

وثَمَّةَ رَأْيٌ آخَرُ كانَتْ تَدِيْنُ بِهِ بَعْضُ زُمَرِ الزَّنْدَقَةِ وفِرَقِها فِي زَمانِ أَبِي العلاء – لا سِيَّما إخْوَانُ الصَّفا – وهُوَ أَنَّ الدِّيْنَ يُمْكِنُ إصْلاحُهُ وذَلِكَ بِتَنْقِيَتِهِ عَنْ طَرِيْقِ الفَلْسَفَةِ. وقَدْ ذَكَرَ التَّوْحِيْدِيُّ في إحْدَى رَسائِلِهِ[٣] أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ عارَضَهُ أبو سُلَيْمَانَ، أَسْتَاذُ المَنْطِقِ،

---

(١) كانَتْ كُلٌّ مِنْ طَسْمَ بْنِ لاوُدَ بْنِ سامِ بْنِ نُوْحٍ وجَدِيْسَ بْنِ حائِرِ بْنِ إرَمَ بْنِ سامٍ قَبِيْلَةً عَرَبِيَّةً قَدِيْمَةً، وكانَتْ أُولاهُما تَسُودُ الأَخِيْرَةَ، ثُمَّ احْتَالَ زَعِيْمُ جَدِيْسَ لِيُبِيْدَ رِجالَ طَسْمٍ عَنْ طَرِيْقِ الغَدْرِ؛ ولَكِنَّ رِجالَ جَدِيْسَ لَمْ يَبْقَوْا طَوِيْلاً لِيَسْتَمْتِعُوا بِنَصْرِهِمْ، فَقَدْ غَزَاهُمْ حَسَّانُ اليَمَنِ فَأَفْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ؛ دِيْوَانُ الأَعْشَى، تَحْقِيقُ ر. جِيْيَرْ، لَنْدَن ١٩٢٨، ص ٧٤-٨٢.

(٢) مِنْهاجُ السُّنَّةُ، القاهرة، ١٣٢١هـ، ص ٢-٣.

(٣) تارِيْخُ الحُكَماء، لِلْقِفْطِيِّ، ليبرج، ١٣٢٠هـ، ص٨٤-٨٥.

الذي كانَ يَقُولُ إنَّ الفَلْسَفةَ التي تَسْتَقِي حَقِيْقَتَها مِنَ العَقْلِ لا يُمْكِنُها أنْ تَتَوافَقَ مَعَ الدِّيْنِ الذي يَسْتَمِدُّ حَقِيْقَتَهُ مِنَ الوَحْيِ. وقَدْ أَفادَ أبو العلاء مِنْ هَذِهِ الحُجَّةِ في كَثِيْرٍ مِمَّا نظَمَ، مِثْلِ قَوْلِهِ:

وقَدْ كَذَبَ الذِي يَغْدُو بِعَقْلٍ ... لِإِصْلاحِ الشُّرُوعِ إذا فَسَدْنَهْ

وقَوْلِهِ:

شَرَائِعُهُمْ وَهَتْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ... فَهَلْ عَقْلٌ تُشَدُّ بِهِ عُرَاها

ثانياً : إنَّ الإسْلامَ والنَّصْرانِيَّةَ مُسْتَمَدَّانِ مِنَ اليَهُوْدِيَّةِ؛ فَلَمْ يَأْتِيا مِنَ اللهِ مُباشَرَةً. فَقَدْ بَدَأَ اليَهُوْدُ أَوَّلَ الأَمْرِ يُسِرُّونَ قِصَصاً يُسْنِدُها بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضِهِمْ، ومَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ بَلَغَ رُوَاةُ هَذِهِ القِصَصِ مِنَ الجَرَاءَةِ والتَّطاوُلِ مَبْلَغاً جَعَلَهُمْ يُسْنِدُوْنَ مَزاعِمَهُمْ هَذِهِ إلَى اللهِ[(1)]:

ضَلَّتْ يَهُوْدُ وإنَّما تَوْرَاتُها ... كَذِبٌ مِنَ العُلَماءِ والأَحْبارِ

قَدْ أَسْنَدُوا عَنْ مِثْلِهِم ثُمَّ اعْتَلَوْا ... فَنَمَوْا بِإِسْنَادٍ الَى الجَبَّارِ

وإذا غَلَبْتَ مُناضِلاً عَنْ دِيْنِهِ ... أَلْقَى مَقَالِدَهُ إلَى الأَخْبارِ

ومِنْ ثَمَّ تَتابَعَ الكَذِبُ وزادَ التَّدْلِيْسُ إلَى اليَوْمِ؛ ولَمْ يَخْلُ حَتَّى صَحِيْحُ البُخارِيِّ مِنَ الأَكاذِيْبِ[2]، يَقُوْلُ أبو العلاءِ:

---

(١) اللُّزُوم، ج١، ص٤١١. لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الأبْياتُ في الأصْلِ. (المترجم)

٢ (نَفسهُ، ص٢٠٩). قُلْتُ: رُبَّما أرادَ المؤَلِّفُ بِكَلامِهِ هذا قَوْلَ أبي العلاءِ:

كُلُّ الذي تَحْكُونَ عنْ مَوْلاكُمُ   كَذِبٌ أَتَاكُمْ عَنْ يَهُودَ يُحَبَّرُ

يُحَبَّرُ أيْ يُؤَدَّى إِلَيْكُمْ مَكْتُوباً.

ومَتَى أخَذَ المرْءُ في قِرَاءَةِ اللُّزُومِ وَجَدَ نَفْسَهُ يَمِيْلُ إلى اتِّهامِ المعَرِّي بِالعَدَاءِ ضِدَّ اليَهُودِ؛ إذْ قَدْ حَوَى هَذَا اللُّزومُ عَدَداً مِنَ الأَبْيَاتِ الموَجَّهَةِ ضِدَّهُمْ، وقَدْ بَلَغَتْ مِنَ التَّهَكُّمِ بِهِمْ والاسْتِهْزَاءِ كُلَّ مَبْلَغٍ، كَقَوْلِهِ :

ومَاتَ مُوْسى ولَمْ يَتْرُكْ لِأُمَّتِهِ   إلاَّ أحادِيْثَ يُوْدَعْنَ المهارِيْقا

أي ماتَ نَبِيُّ اللهِ مُوْسَى ولَمْ يَتْرُكْ لِأُمَّتِهِ إلَّا حِكاياتٍ قَدْ حَفِظُوها بِكِتابَتِها في الأَرْقاقِ أَوْ رِقَاعِ الجُلُوْدِ. وكَقَوْلِهِ:

جَلَبْتُمْ بَاطِلَ التَّوْرَاةِ عَنْ عُرُضٍ   ورُبَّ شَيءٍ بَعِيْدٍ لِلفَتَى جُلِبا

وكَقَوْلِهِ:

ولا تَقْبَلْ مِنَ التَّوْرَاةِ حُكْماً   فَإِنَّ الحَقَّ عَنْهـا في تَـوَارِ

ولَكِنَّنا إذا ذَهَبْنا نَسْتَقْصِي هَذِهِ الأَبْيَاتَ ونَسِبْرُ غَوْرَها، وَجَدْنا أَنَّ غَرَضَ شاعِرِنا الحَقَّ مِنْها هُوَ أَنْ يَنْتَقِدَ دِيْنَهُ هُوَ مِنْ طَرِيْقٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ؛ فَمِنَ الوَاضِحِ أَنَّ ما أَبْدَاهُ مِنْ سُخْرِيَةٍ

- لا تُوْحِشُ الوَحْدَةُ أصْحابَها   إنَّ سُهَيْلاً وَحْدَهُ فَارِدُ
وكَمْ تَرى في الأُفْقِ مِنْ كَوْكَبٍ   يَعظُمُ أن يُرْمَى بِهِ المارِدُ
خَبَّرْتَنِي أمْراً فَقُلْ رَاشِداً   مِنْ أيْنَ هذا الخَبَرُ الشَّارِدُ
عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَلاحَظَّ لِي   فِي كَذِبٍ يَنْظِمُهُ السَّارِدُ
مَنْ يُدْنِ لِلشَّاكَةِ أثْوَابَهُ   يُصِبْهُ مِنْها غُصُنٌ هَارِدُ

(المترجم).

واسْتِهْزَاءِ بِالطَّرِيْقَةِ التي اعْتَادَ أنْ يَدْرُسَ بِها اليَهوُدُ كُتُبَهُمُ المقَدَّسَةَ إنَّما عَنَى بِهِ الاسْتِهْزَاءَ والسُّخْرِيَةَ مِنْ إخْوَتِهِ في دِيْنِهِ هُوَ فِي دِرَاسَاتِهِمْ لِلْأَحادِيْثِ والفِقْهِ.

ثالثاً: أنَّ الأَدْيانَ تَسْتَجْلِبُ العَدَاءَ بَيْنَ البَشَرِ:

يَحْتَجُّ أبو العلاء بِأَنَّ الأَدْيَانَ يَغارُ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ، فَما مِنْ دِيْنٍ إلَّا وعَدَّهُ أَهْلُهُ أَفْضَلَ الأَدْيَانِ وأَكْمَلَها وسَعَوْا يُبْطِلُون غَيْرَهِ مِنَ الأَدْيَانِ[1]. وذَلِكَ مَا أَوْرَثَ النَّاسَ نِزَاعاً بَيْنَهُمْ شَدِيْداً وشَحْنَاءَ مُسْتَحْكِمَةً.

إنَّ الشَّـرَائِعَ أَلْقَـتْ بَيْنَنَـا إحَنَـاً ... وأَوْرَثَتْنـا أفـانِيْنَ العَـدَاواتِ
وهَلْ أُبِيْحَتْ نِسَاءُ الرُّوْمِ عَنْ عُرُضٍ ... لِلعُـرْبِ إلَّا بِأَحْكَـامِ النُّبُـوَّاتِ

وقَدْ تَرْجَمَ نِيكِلْسُون هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ إلي الانكِلِيْزِيَّةِ شِعْراً[2].

وعِلاجاً مِنْ أَبِي العلاءِ لِهَذا الشَّرِّ الوَبِيْلِ فَقَدْ رَغَّبَ النَّاسَ ودَعَاهُمْ إلَي أنْ تَسُوْدَ فِيهِمْ جَمِيْعاً رُوْحٌ مِنَ التَّسامُحِ وسَعَةِ الصَّدْرِ والرِّضا وحُسْنِ النيَّةِ ووَصَّى المسْلِمِيْنَ وحَضَّهُمْ عَلَي احْتِرَامِ كَرَامَةِ اليَهُودِ والنَّصَارَى والصابِئِيْنَ وأنْ يُعامِلُوْهُمْ أَنْدَاداً لَهُمْ ونُظَرَاءَ؛ (فَكُلُّ النَّاسِ سَوَاءٌ وإنِ اشْتَعَلَتْ بَيْنَهُمْ نِيْرَانُ الحُرُوْبِ):

فَـإنَّ النَّـاسَ كُلَّهُـمْ سَـوَاءٌ ... وإنْ ذَكَتِ الحُرُوْبُ مُضَرَّماتِ

---

(١) نفسه، ج٢، ص٤٠٥.

(٢) جاءَ المؤَلِّفُ بِتَرْجَمَةِ نيكِلْسُوْنَ الإنجلِيْزِيَّةِ لِبَيْتَيْ أبي العلاء هَذَيْنِ ولا حاجَةَ بِنا أنْ نَرُدَّ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ إلي العَرَبِيَّةِ كَرَّةً أُخرى، إذْ مَعْنَى بَيْتَيْ أبِي العلاء واضِحٌ. وإنْ كانَ نيكلسونُ قد جاءَ بِكَلِمَةِ (أعداء) وهِي كَلِمةٌ مُطْلَقةٌ كما تَرى بدلاً عَنِ الكَلِمَةِ المقيَّدَةِ (الرُّوم). ونَصُّ تَرْجَمَةِ نِكِلْسُونَ لِلْبَيْتَيْنِ:

What feuds between us hath religion twined
And given us over to hates of every kind
Did not a prophet's ordinance bestow
On Arab lords the women of their foe

(التُّرْجُمان).

ويُعْلِنُ أبو العلاء في عَدَدٍ مِنْ أبياتِ شِعْرِهِ أنَّهُ بَرِيْءٌ مِنْ كُلِّ ضُرُوبِ التَّعَصُّبِ الدِّيْنِيِّ، كَقَوْلِهِ مَثَلاً:

إذا الإنْسانُ كَفَّ الشَّرَّ عَنِّي فَسَقْياً في الحَياةِ لَهُ ورَعْيا
ويَدْرُسُ إنْ أَرادَ كِتابَ مُوْسَى ويُضْمِرُ إنْ أحَبَّ وَلاءَ شِعْيا

أيْ مَتى كَفَّ الإنْسَانُ عَنِّي شَرَّهُ فَإنِّي أدْعُوْ لَهُ بِأَنْ لا يَزَالَ مُنَعَّماً بِالخَيْرِ والأَمْنِ، مادَامَ يُحْسِنُ مُعامَلَتِي، فَذَلِكَ هُوَ الذي يَهُمُّنِي مِنهُ، ولا يَهُمُّنِي بَعْدَ ذَلِكَ ما دِيْنُهُ، فَلْيَدْرُسْ إنْ شاءَ التَّوْرَاةَ ولْيُوَالِ إنْ أَحَبَّ شِعْيَا أوْ أشْعِيا [وهُوَ نَبِيٌّ فِي العَهْدِ القَدِيْمِ][1].

ولَكِنْ مَعَ هَذَا المذْهَبِ الإنسانِيِّ الرَّحِيْبِ مِنْ أبي العلاء، إلَّا أنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحْيَاناً أنْ يُحَرِّرَ نَفْسَهُ مَن رِبْقَةِ التَّعَصُّبِ الدِّيْنِيِّ. فَتُظْهِرُ لَنا بَعْضُ أبياتِهِ أَنَّهُ كانَ قَدْ هالَهُ حَقّاً أنْ يَرْتَقِيَ النَّصارَى واليَهُودُ مَنازِلَ اجْتِمَاعِيَّةً رَفِيْعَةً في عَصْرِهِ:

حالَتْ عُهُودُ الخَلْقِ كَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى يَرُومُ شَفاعَةً بِمُعَاهِدِ

أيْ لَقَدْ فَسَدَتِ الأَزْمَانُ لِأَنَّهُ أَمْسَى كَثِيْرٌ مِنَ المسْلِمِيْنَ يَطْلُبُونَ النَّصْرَانِيَّ أوِ اليَهُودِيَّ لِيَشْفَعَ لَهُمْ.

نَقْدُهُ الموجَّهُ إلى الإسْلامِ:

يَعُجُّ دِيْوَانُ اللُّزُوم بِأَقْوالِ السُّخْرِيةِ والأقوالِ الكُفْرِيَّةِ حَوْلَ البَعْثِ وغَيْرِهِ مِنْ مَوْضُوعاتِ العَقِيْدَةِ الإسْلامِيَّةِ. وقَدْ سَبَقَ لَنا أنِ اسْتَشْهَدْنا بِعَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ فِي مُخْتَلِفِ أَجْزاءِ هَذَا الكِتابِ. ولَكِنَّ أَغْلَبَ انْتِقادِهِ الذي جاهَرَ بِهِ لِلإسْلامِ تَجِدُهُ في هُجُومِهِ عَلَى شَعِيْرَةِ الحَجِّ. وقَدْ كانَ رَأْيُهُ فِي هَذا الصَّدَدِ مُخالِفاً مُخالَفَةً صَرِيْحَةً، وظَلَّ عَلَى ذَلِكَ في عُمُومِ

---

(١) أَوْرَدَ المؤَلِّفُ، كَذلِكَ، تَرْجَمَةَ لِنِيكِلْسُونَ لِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ إلى الإنْجِلِيْزِيَّةِ، ولَكِنَّها لَيْسَتْ شِعْراً هَذِهِ المرَّةَ، فَتَرْجَمْنا تَرْجَمَتَهُ هَذِهِ. (التُّرْجُمان).

لِزُوْمِهِ بِما لا تُخْطِئُهُ العَيْنُ. ولا رَيْبَ أَنَّهُ كانَ قَدْ وَجَدَ شَيْئاً كَثِيْراً مِنْ مادَّةِ الهَرْطَقَةِ عِنْدَ الزَّنادِقَةِ العَبَّاسِيِّيْنَ الأَوائِلِ، أفادَ مِنْها فِي انْتِقادِهِ الشَّنِيْعِ لِلْحَجِّ. ونَقْرَأُ في تارِيْخِ الأُمَمِ والمُلُوكِ لِلطَّبَرِيِّ أَنَّ مَنْ يُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ يَقْطِيْنَ كانَ قَدْ وَصَفَ الحَجِيْجَ وهُمْ يَطُوْفُونَ بِالكَعْبَةِ بِأَنَّهُمْ بَقَرٌ جُعِلَ يَدُورُ في مَكانِ طَحْنِ الحُبُوبِ[1]

ويُحَدِّثُنا المَعَرِّيُّ فِي رِسالَةِ الغُفْرانِ أَنَّ عَبْدَ القُدُّوسِ أبا الزِّنْدِيْقِ المَعْرُوفِ صالِحِ بْنِ عَبْدِ القُدُّوسِ، وكانَ قَدْ قَتَلَهُ الخَلِيْفَةُ الهادِي، قَدْ كانَ قالَ فِي مَكَّةَ[2]:

كَمْ أَهْلَكَتْ مَكَّةُ مِنْ زائِرٍ   خَرَّبَها اللهُ وأَبْياتَها

لا رَزَقَ الرَّحْمَنُ أَحْياءَها   وأَشْوَتِ الرَّحْمَةُ أَمْواتَها

وقَدْ أَقامَ أبو العلاء انْتِقادَهُ لِلْحَجِّ عَلَى أُسُسٍ عَقْلِيَّةٍ وأَخْلاقِيَّةٍ وإِنْسانِيَّةٍ. وقالَ عَنِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ إِنَّهُ لا يَزِيْدُ عَنْ كَوْنِهِ حَجَراً ولا مَزِيَّةَ لَهُ فِي ذاتِهِ، إِلَّا أَنَّ الحَظَّ قَدْ مَيَّزَهُ عَنْ بَنِي جِنْسِهِ مِنَ الأَحْجارِ والحَصَى. وكانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اسْتِلامَ الحَجَرِ وتَقْبِيْلَهُ ورَمْيَ الجَمَراتِ مِمَّا يَتَعارَضُ مَعَ طَبِيْعَةِ الإِسْلامِ الرّافِضَةِ لِتَعْظِيْمِ الصُّوَرِ والتَّماثِيْلِ. وذَهَبَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ فَسَمَّى ذَلِكَ بَقِيَّةً مِنَ الوَثَنِيَّةِ[3]:

ما الرُّكْنُ فِي رَأْيِ قَوْمٍ لَسْتُ أَذْكُرُهُمْ   إِلَّا بَقِيَّةُ أَوْثانٍ وأَنْصابِ

---

(١) تارِيْخ الطَّبَرِي ج١٠ ص٢٣. وقَدْ أَخْبَرَ شاعِرٌ أَعْمَى يُسَمَّى بِالعلاءِ بْنِ الحَدَّادِ الخَلِيْفَةَ الهادِي (أَشْهَرَ مَنْ عُرِفَ بِتَعَقُّبِ الزَّنادِقَةِ وتَعْذِيْبِهِمْ) بِهَذا الكَلامِ الكُفْرِيِّ، فَصُلِبَ ابْنُ يَقْطِيْنٍ لِساعَتِهِ. وبَعْدَ أَيامٍ قلائِلَ مِنْ صَلْبِهِ سَقَطَ الصَّلِيْبُ الذِي كانَ ثُبِّتَ عَلَيْهِ عَلَى الأَرْضِ فَقَتَلَ أَحَدَ الحُجّاجِ وحِمارَهُ وأَحَدَ أَقْرِباءِ الخَلِيْفَةِ، وكانَ يُدْعَى يَعْقُوبَ بْنَ الفَضْلِ، وكانَ زِنْدِيْقاً ومُتَّهَماً بِابْنَتِهِ).

(٢) رسالةِ الغُفرانِ، ص١٤٢.

(٣) اللُّزُوم ج١،ص١٣٠.

وقَدْ زَعَمَ عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّلْمِيحِ أنَّ أداءَ هَذِهِ الشَّعِيْرَةِ غَيْرُ كافٍ بِنَفْسِهِ لِتَبْرِيْرِ هَذِهِ المشَقَّةِ التي يَتَجَشَّمُها النَّاسُ ودَوَابُّهُمْ التي يَصْحَبُونَها مَعَهُمْ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ المقَدَّسَةِ إِلَى مَكَّةَ. ولَقَدْ كانَ أبو العلاء أَكْثَرَ تَصَرِيْحاً في زَعْمِهِ أنَّ تَجَمُّعَ الحَجِيْجِ فِي الحَرَمِ كَثِيْراً ما افْتَقَدَ الوَرَعَ وقَوِيْمَ الأَخْلاقِ(١):

أتَـتْ خَنْسـاءُ مَكَّـةَ كالثُّرَيَّـا وخَلَّـتْ في المـوَاطِنِ فَرْقَـدَيْها
ولَـوْ صَـلَّتْ بِمَنْزِلِهـا وصـامَتْ لَأَلْفَـتْ مـا تُحاوِلُـهُ لَـدَيْها
ولَكِـنْ جـاءَتِ الجَمْـرَاتِ تَرْمِـي وأبْصَـارُ الغُـوَاةِ إلَى يَـدَيْها
ولَيْـسَ مُحَمَّـدٌ فِيْمـا أَتَتْـهُ ولا اللهُ القَـدِيْرُ بِمُحْمَـدَيْها
إذا مـا رَامَـتِ الصَّلَوَاتِ خَـوْدٌ فَكِـنُّ البَيْـتِ أفْضَـلُ مَسْـجِدَيْها
فَـلا يَفْتَـأُ مُصَـلَّاها خَفِيّـاً يُظَـنُّ هُنـاكَ أَوَّلَ مُلْحَـدَيْها(٢)

---

(١) لَمْ تَرِدْ هذِهِ الأبْياتُ التي يُرِيدُها المؤَلِّفُ بِكَلامِهِ هَذَا، في الأصلِ. (المترجم)

(٢) سَبَقَتِ الإشارَةُ إلى هَذِهِ الأَبْياتِ في الفصل السادس. والثُّرَيَّا بِنْتُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ الحارِثِ؛ قال السُّهَيْلِيُّ: جَدَّتُها لِأَبِيْها قُتَيْلَةُ بِنْتُ النَّضْرِ التي مَدَحَتْ النَّبِيَّ (ص)، بِأَبْيَاتِها القافِيَّةِ المشْهُورَةِ وقَدْ جاءَتْ تَشْفَعُ لِأَخِيْها وكان أَسِيْراً عِنْدَهُ، فَوَجَدَتْهُ قَدْ سَبَقَ إِلَيْهِ مَوْتُهُ، فِي خَبَرٍ يَطُوْلُ. وقَدْ كانَتِ الثُّرَيَّا مِنْ أَجْمَلِ نِساءِ عَصْرِها وكان عُمَرُ بْنُ أبِي رَبِيْعَةَ قَدْ وَجَدَ بِها وَجْداً شَدِيْداً؛ فَكانَ يَتَحَيَّنُ فُرْصَةَ حَجِّها لِيَتَعَرَّضَ لَها هُناكَ فَيَلْقاها ويُنْشِدُها شِعْرَهُ. وقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ عُمَرَ كانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِلِقاءِ مَنْ يُرِيْدُ مِنْ جَمِيْلاتِ العَرَبِ وأَشْرَافِهِنَّ اللائي يَعْرِفُهُنَّ؛ حَتَّى لَقَدْ قالَ:

لَيْـتَ ذا الـدَّهْرَ كـانَ حَتْمـاً عَلَيْنـا كُـلَّ يَـوْمَيْنِ حَجَّـةً واعْتِمـارَا

وهُوَ مُرادُ أبِي العلاء مِنْ ذِكْرِ الثُّرَيَّا هُنا. وقَدْ يَحْسُنُ أنْ نَذْكُرَ هُنا أنَّ حازِماً المدِيْنِيَّ، وكانَ مِنْ مَشاهِيْرِ العُبَّادِ، رَأَى امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ خَلْقِ اللهِ وَجْهاً تَطُوْفُ بالبَيْتِ، وقَدْ فَتَنَتِ النَّاسَ بِحُسْنِها، فَقَالَ لَها: يا أَمَةَ اللهِ اتَّقِي اللهَ واضْرِبِي بِخِمارِكِ عَلَى جَيْبِكِ فَقَدْ شَغَلْتِ الناسَ عَنِ الطَّوَافِ؛ فَقَالَتْ: أَوَ ما تَعْرِفُنِي؟، قالَ: فَمَنْ أَنْتِ؟ فَضَحِكَتْ وقالَتْ:

مِنَ اللَّائِي لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِيْنَ حِسْبَةً ولَكِـنْ لِيَقْتُلْنَ الـبَرِيءَ المغَفَّـلا

وقالَ إنَّ بَنِي شَيْبَةَ الذِيْنَ كانَتْ لَهُمْ سِدَانَةُ الكَعْبَةِ وإرْشَادُ الحَجِيْجِ وخِدْمَتُهُمْ فِيْما يَلِي شَعَائِرَهُمْ قَوْمٌ أهْلُ فَسَادٍ وسُوْءٍ، وإنَّهُمْ إنَّما كانُوا يَنْتَفِعُونَ مِنَ الحَجِيْجِ ويَسْتَغِلُّوْنَهُمْ لِمَنَافِعِهِمُ الخَاصَّةِ مَا وَجَدُوا إلي ذَلِكَ سَبِيْلاً[1]:

أقِيْمِي لا أَعُدُّ الحَجَّ فَرْضاً	عَلَى عُجُزِ النِّسَاءِ ولا العَذَارَى
فَفِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ سِرُّ قَوْمٍ	ولَيْسُوا بِالحُمَاةِ ولا الغَيَارَى
وإنَّ رِجالَ شَيْبَةَ سَادِنِيْها	إذا رَاحَتْ بَكَعْبَتِها الجِمَارَا
قِيَامٌ يَدْفَعُونَ الوَفْدَ شَفْعاً	إلي البَيْتِ الحَرَامِ وهُمْ سُكَارَى
إذا أَخَذُوا الزَّوَائِفَ أوْلَجُوْهُمْ	ولَوْ كانُوا اليَهُودَ أوِ النَّصَارَى
مَتَى آذاكِ خَيْرٌ فافْعَلِيْهِ	وقُولِي إنْ دَعَاكِ البِرُّ: آرَا
فَلَوْ قِيْلُ الغُوَاةُ عَرَفْتِ كَشْفِي	مِنَ الكَذِبِ المُمَوَّهِ ما تَوَارَى
ولا تَثِقِي لِمَا صَنَعُوا وصاغُوا	فَقَدْ جاءَتْ خُيُوْلُهُمُ تَبَارَى
جَرَتْ زَمَناً وتَسْكُنُ بَعْدَ حِيْنٍ	وأقْضِيَةُ المُهَيْمِنِ لا تُجَارَى
لَعَلَّ قِرَانَ هَذا النَّجْمِ يَثْنِي	إلَى طُرُقِ الهُدَى أُمَماً حَيَارَى
فَقَدْ أُوْدَى بِهِمْ سَغَبٌ وظِمْءٌ	وأيْنُقُهُمْ بِمُتَّلِفَةٍ حَسَارَى
وظَنُّوا الطُّهْرَ مُتَّصِلاً بِقَوْمٍ	وأُقْسِمُ أنَّهُمْ غَيْرُ الطَّهَارَى
وما كَرِيَتْ عُيُونُ النَّاسِ جَمْعاً	ولَكِنْ فِي دُجُنَّتِها تَكَارَى

=وهُوَ بَيْتٌ لِلْعَرْجِيّ. فَقَالَ لَهَا: وأنا أَسْأَلُ اللهَ ألَّا يُعَذِّبَ هَذا الوَجْهَ بِالنَّارِ. فَقِيْلَ لَهُ: يا حازِمُ لَقَدْ فَتَنَتْكَ، فَقَالَ: لا ولَكِنَّ الحُسْنَ مَرْحُومٌ. وبَلَغَ هَذَا الخَبَرُ سَعِيْدَ بْنَ المسَيَّبِ، مِنْ كِبارِ التَّابِعِيْنَ، فَقَالَ: رَحِمَ اللهُ حازِماً، أمَا واللهِ لَوْ كانَ بَعْضَ عُبَّادِ العِرَاقِ لَقَالَ: أُغْرُبِي يا عَدُوَّةَ اللهِ؛ ولَكِنَّهُ ظُرْفُ أَهْلِ الحِجَازِ. قُلْتُ وقَبْلَ بَيْتِ العَرْجِيّ:

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الخَزِّ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا   وأَدْنَتْ إلَى الخَدَّيْنِ بُرْداً مُهَلْهَلا

(التُّرْجُمان)

[1] أوْرَدَ المؤَلِّفُ مَعْنَى هَذِهِ الأبْياتِ وحَسْبُ. (التُّرْجُمان)

لَهُـمْ كَلِـمٌ تُخَـالِفُ مـا أجَنَّـوا   صُـدُوْرُهُمُ بِصِـحَّتِهِ تَمَـارَى

لا بَـلْ يَـزْعُمُ أبـو العـلاء أنَّ الأَمـاكِنَ المقَدَّسَـةَ مَلِيْئَـةٌ بِفَسَـادِ النَّـاسِ وفُجُـوْرِهِمْ بَعْـدَ اسْتِبَاحَتِهِمْ إيَّاها. وقَدْ لاحَظَ، ورُبَّما كانَ مُحِقّاً، أنَّ كَثِيْراً مِنَ النِّسَاءِ فِي زَمَانِهِ كُنَّ يَخْرُجْنَ إلَى الحَجِّ ذَرِيْعَةً لِلْبُعْدِ عَنْ أَزْوَاجِهِنَّ وأهْلِهِنَّ.

وقَدِ اهْتَمَّ شاعِرُنا بِإرْشادِ الزَّوْجاتِ ألَّا يَبْعُدْنَ عَنْ بُيُوْتِهِنَّ لِيَزُرْنَ مَكَّةَ وأَعْلَنَ لَهُنَّ أنَّ الحَجَّ لَيْسَ فَرْضاً فِي حَقِّهِنَّ لِأنَّهُنَّ كُنَّ ضَعِيْفاتٍ ولا يَمْلِكْنَ دَفْعاً عَنْ أنْفُسِهِنَّ[1].

[1] نفسه، أو انْظُرْ أوَّلَ الأبياتِ أعْلاهُ

القِسْمُ الرَّابِعُ

مَذْهَبُهُ الزُّهْدِيُّ

١- تَرْكُهُ الزَّواجَ:

يُخْبِرُنا أبو العلاء أنَّهُ إنَّما تَرَكَ الزَّواجَ اعْتِقَاداً مِنهُ أنَّ الدُّنْيا مَوْطِنُ أَذىً وَبَلاءٍ وتَعَبٍ وأنَّهُ خَيْرٌ لِلذُّرِّيَّةِ ألَّا يَخْرُجُوا إلَيْها وأنْ يَظَلُّوا حَبِيْسِي ظُلْمَةِ العَدَمِ؛ فَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ وَصْلِ النَّسْلِ إلَى مَسْرَحِ المَآسِي هَذَا[1].

نادَى حَشَا الأُمِّ بِالطِّفْلِ الذِي اشْتَمَلَتْ ... عَلَيْهِ وَيْحَكَ لا تَظْهَرْ ومُتْ كَمَدا

فإنْ خَرَجْتَ إلَى الدُّنْيا لَقِيْتَ أذَىً ... مِنَ الحَوَادِثِ بَلْهَ القَيْظَ والجَمَدا

وما تَخَلَّصُ يَوْماً مِنْ مَكَارِهِها ... وأنْتَ لا بُدَّ فِيْها بالِغٌ أَمَدَا

وآرَاؤُهُ في المرْأَةِ ذَاتُ تَقَلُّبٍ وتَنَاقُضٍ عَلَى نَحْوٍ لا تُخْطِئُهُ الملاحَظَةُ. فَبَعْضُ هَذِهِ الآرَاءِ يُشْعِرُ بِأنَّهُ كانَ تَحْتَ تَأْثِيرِ تَعَالِيْمِ النَّصارى؛ واقْرَأْ قَوْلَهُ إنْ شِئْتَ(٢):

سُبْحَانَ مَنْ عَلَّمَ الأَجْنَاسَ كُلَّهُمُ ... أَمْراً يَقُوْدُ إلي خَبْلٍ وتَخْبِيْلِ

لَحْظَ العُيُونِ وأَهْوَاءَ النُّفُوسِ وإهْـ ... ـوَاءَ الشِّفَاهِ إلَى لَثْمٍ وتَقْبِيْلِ

---

[1] نفسه، ص٢٧٢-٢٧٣

(٢) أظهَرَ أبو العلاء في لُزُومِهِ إعْجاباً بِرُهبانِ النَّصارَى إذْ قالَ في ج١، ص٢٣٣:

ويُعْجِبُني دَأْبُ الذِيْنَ تَرَهَّبُوا ... سِوَى أكْلِهِمْ كَدَّ النُّفُوسِ الشَّحائِحِ

وأطْيَبُ مِنهُمْ مَطْعَماً في حَيَاتِهِ ... سُعَاةُ حَلالٍ بَيْنَ غادٍ ورَائِحِ

وما حَبَسَ النَّفسَ المسِيحُ تَعَبُّداً ... ولكِنْ مَشَى فِي الأَرْضِ مِشْيَةَ سائِحِ

وفي ج٢، ص٩٣، السطر ٦، فَضَّلَ قُساً نَصْرَانِيّاً عَلَى واعِظٍ مُسْلِمٍ

(ولَعَلَّكَ تَشْعُرُ فِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ بِتَلْمِيحٍ إِلَى الخَطِيئَةِ الأُوْلَى)

وبَعْضُ أبْياتِهِ يَكْشِفُ عَنْ تَأْثِيرٍ مانَوِيٍّ واضِحٍ، مِثْلُ:

وإذا أَرَدْتُمْ بِالبَنِينَ سَعَادَةً ... فالحَزْمُ أَجْمَعُ تَرْكُهُمْ فِي الأَظْهُرِ

ثُمَّ إنَّ بَعْضَ آرائِهِ فِيهِ تَأَثُّرٌ بِآراءِ العَرَبِ الوَثَنِيِّيْنَ[1]، مِثْلَ:

ودَفْنٌ والحَوَادِثُ فاجِعَاتٌ ... لإحْدَاهُنَّ إحْدَى المَكْرُماتِ

وتَأْتِي بَعْدَ هَذا أغْلَبُ آرائِهِ فِيهِنَّ شَبِيْهَةً بِآراءِ فَلاسِفَةِ الأَخْلاقِ التَّقْلِيْدِيِّيْنَ فِي عَصْرِهِ. فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ المَرْأَةِ عَلَى أَنَّها فِي مَرْتَبَةٍ دُوْنَ الرَّجُلِ؛ والنِّسَاءُ عُمُوماً عِنْدَهُ حِبالُ غَيٍّ:

ألاَّ إنَّ النِّسَاءَ حِبالُ غَيٍّ ... بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّلِيْدُ

ولا أَمانَ عِنْدَهُ عَلَى بَناتِ أَهْلِ العِزِّ والشَّرَفُ مِنَ الإغْوَاءِ:

فَمَا أَمِنَتْ نِسْوَانُ قَوْمٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَى عِزِّها أَنْ تُسْتَبَاحَ فُرُوْجُها

وما تَمْنَعُ الخَوْدَ الحَصَانَ حُصُوْنُها ... ولَوْ أَنَّ أَبْرَاجَ السَّمَاءِ بُرُوْجُها

ومِنَ الخَيْرِ عِنْدَهُ أنْ تُتْرَكَ المَرْأَةُ فِي جَهْلِها، وأَلاَّ تُعَلَّمَ إِلَّا الغَزْلَ والأَعْمَالَ البَيْتِيَّةَ:

عَلِّمُوهُنَّ الغَزْلَ والنَّسْجَ والرَّدْ ... نَ وخَلُّوا كِتَابَةً وقِرَاءَةْ

فَصَلاةُ الفَتَاةِ بِالحَمْدِ والإخْـ ... ـلاصِ تُجْزِي عَنْ يُوْنُسٍ وبَرَاءَةْ

تَهْتِكُ السِّتْرَ بِالجُلُوسِ أَمامَ السِّـ ... ـتْرِ إنْ غَنَّتِ القِيانُ وَرَاءَهْ

---

[1] لا أظنُّ أنَّ مَعْنَى الدَّفْنِ المراد هُنا هو ما عُرِفَ عِنْدَهم بِوَأْدُ البَناتِ، وهو دَفْنُهُنَّ حيَّاتٍ، إذ لا ريبَ أنَّ ذلك يُناقضُ مَبْدأَ الرَّحْمةِ في (مَنْظومةِ) أبي العلاء الأخلاقيَّةِ، وهو ما لم يَستَثْنِ منه حتى الحيوان. فما أشبهَ أنْ يكونَ عَنَى خُمُولَ ذِكْرِهِنَّ وعَدَمَ تَعْلِيْمِهِنَّ المشارِ إلَيهِ في الأبياتِ التاليَةِ لهذا البيتِ. ولكنْ يظل رأيُ أبي العلاء في المرأةِ أمراً غريباً عن هذه المنظومة إلى حدِّ الدَّهْشةِ والشذوذِ الممضّ، وهو ما لا تكادُ تجدُ لَهُ مُبرِّراً قطُّ. خاصةً وأنَّ أبا العلاء شَخصِيةُ مُحِبَّةٌ لِخَيْرِ البَشَرِ (Philanthropic) وأنَّ تَناوُلَهُ للأخلاقِ والقِيَمِ تَناوُلٌ مُطْلَقٌ يَتجاوزُ حُدودَ الزَّمانِ والمكانِ والبيئةِ. (المترجِم)

وإذا أرِيد تَعْلِيمُهُنَّ فَلا يُعَلِّمْهُنَّ إلَّا امْرأةٌ عَجُوزٌ قَدْ سَقَطَتْ أسْنَانُها مِنَ الكِبَرِ:

لِيَأْخُذْنَ التِّلاوَةَ عَنْ عَجُوزٍ   مِنَ اللائِي فَغَرْنَ مُهَتَّماتِ

ويَجِبُ ألَّا يُخَلَّى بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ رَجُلٍ ضَرِيرٍ يُعَلِّمُهُنَّ القرءان تَلْقِيناً (فَما بالُكَ بِمَنْ لَيْسَ أعْمَى) إلَّا إذا كانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ ما يُرْعِشُ يَدَيْهِ ويُشِيْبُ رَأْسَهُ:

ولا يُدْنَيْنَ مِنْ رَجُلٍ ضَرِيْرٍ   يُلَقِّنُهُنَّ آياً مُحْكَماتِ

سِوَى مَنْ كانَ مُرْتَعِشاً يَدَاهُ   ولِمَّتُهُ مِنَ المُتَثَغِّمَاتِ

ومَتَى بَلَغَ الصَّبِيُّ عَشْرَ سَنَوَاتٍ فَلا يَدْخُلْ عَلَى مَكانِ الحَرِيْمِ:

إذا بَلَغَ الوَلِيْدُ لَدَيْكَ عَشْراً   فلا يَدْخُلْ عَلَى الحُرَمِ الوَلِيْدُ

ولَكِنْ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ إنْسَانِيَّةٍ كان أبوالعلاء نَصِيْراً لِلْمَرْأَةِ. فَنَرَاهُ يَنْصَحُ الآباءَ بِطَلَبِ الأَزْوَاجِ لِبَنَاتِهِمْ (لَكِنْ عَلَيْهِمْ تَخْوِيْفُ أبْنَائِهِمْ مِنَ الزَّوَاجِ):

واطْلُبْ لِبِنْتِكَ زَوْجاً كَيْ يُرَاعِيَها   وخَوِّفِ ابْنَكَ مِنْ نَسْلٍ وتَزْوِيْجِ

ويَنْصَحُ الأَزْوَاجَ ويَرْشُدُهُمْ إلَى حُسْنِ مُعامَلَةِ نِسائِهِمْ وطِيْبِ صُحْبَتِهِنَّ وطَلَبِ رِضاهُنَّ، والبُعْدِ عَنْ إغْضابِهِنَّ:

فإنْ أنْتَ عاشَرْتَ الكَعابَ فَصادِها   وحاوِلْ رِضاها واحْذَرَنَّ غِضَابَها

وقَدْ شَجَبَ أبو العلاء تَعَدُّدَ الزَّوْجاتِ وسَمَّاهُ تَجاوُزاً وضُرّاً وأذىً:

وواحِدَةٌ كَفَتْكَ فلا تُجاوِزْ   إلَى أُخْرَى تَجِيْءُ بِمُؤْلِماتِ

وإنْ أرْغَمْتَ صاحِبَةً بِضُرٍّ   فَأَجْدِرْ أنْ تَرُوْعَ بِمُغْرِماتِ

زُجاجٌ إنْ رَفَقْتَ بِهِ وإلاَّ   رَأَيْتَ ضُرُوبَهُ مُتَفَصِّماتِ

ويَنْصَحُ أبو العلاء مِنْ لا يَجِدُ مِنَ الزَّوَاجِ بُدّاً أَلّا يَتَزَوَّجَ إلّا واحِدَةً، ويُفَضِّلُ أنْ تَكُونَ عَقِيماً:

إذا شِئْتَ يَوْماً وُصْلَةً بِقَرِيْنَةٍ　　فَخَيْرُ نِساءِ العالَمِيْنَ عَقِيْمُها

لَنا طُرُقٌ في كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ　　إلى الموْتِ أعْيا راكِباً مُسْتَقِيْمُها

كمَا يَنْصَحُ أَلّا يَتَزَوَّجَ شَيْخٌ يَعِيْشُ حالاً مِنْ ضِيْقِ ذَاتِ اليَدِ بِفتَاةٍ مُوْسِرَةٍ:

ولا يَتَأَهَّلَنْ شَيْخٌ مُقِلٌّ　　بِمُعْصِرَةٍ مِنَ المُتَنَعِّمَاتِ

ولَكِنَّ مَنْ كانَ ذا ثَرَاءٍ، سَلِيْمَ القُوَى فَشَيْبُهُ مُغْتَفَرٌ عِنْدَ الزَّوَاجِ:

ويَغْتَفِرُ الغِنَى وَخطاً بِرأْسٍ　　إذا كانَتْ قُواكَ مُسَلَّمَاتِ

وحِيْنَما يَأْخُذُ أبو العلاء في التَّفَكُّرِ فِي المرْأَةِ أُمّاً تَرَاهُ يَنْظُرُ إلَيْها نَظْرَةً مِلْؤُها الحُبُّ والإجْلالُ والتَّوْقِيْرُ، ويَرَاها أَكْثَرَ اسْتِحْقَاقاً لِلإكْرَامِ مِنَ الأَبِ وأَكْبَرَ جَدارَةً لِلْشُّكْرَانِ والامْتِنانِ:

وأَعْطِ أَباكَ النِّصْفَ حَيّاً ومَيِّتاً　　وفَضِّلْ عَلَيْهِ مِنْ كَرَامَتِها الأُمَّا

وحِيْنَما يَنْظُرُ أبو العلاءِ إلى المرْأَةِ بِعَيْنِ العَقْلِ يَجْزِمُ بِأَنَّها عَلَى قَدَمِ المساوَاةِ مَعَ الرَّجُلِ فِي عَقْلِها ومَقْدِرَتِها الذِّهْنِيَّةِ وقُدْرَتِها عَلَى اسْتِيْعابِ الخَيْرِ والشَّرِّ، وإنْ كانَتْ أَقَلَّ خَيْراً مِنهُ وأَكْثَرَ شَرّاً[1].

---

[1] انظُرِ اللُّزُوم، ج١ الصَّفْحَتَيْنِ ٤١٨ و٦٣. ويَعْنِي المؤَلِّفُ هنا بَيْتَيْ أبِي العلاء:

ورِجَالُ الأَنَامِ مِثْلُ الغَوَانِي　　غَيْرُ فَرْقِ التَّأْنِيْثِ والتَّذْكِيْرِ. وقولَه

تَهْتِكُ السِّتْرَ بِالجُلُوسِ أَمَامَ السِّـ　　ـتْرِ إنْ غَنَّتِ القِيَانُ وَرَاءَهْ

(التُّرْجُمان)

وَنَرَى أبا العلاء عِنْدَ خُلُوِّهِ إلى نَفْسِهِ وانْفِرادِهِ يَتَفَكَّرُ فِي المرْأَةِ بِعَقْلِ البَشَرِ وقَلْبِ الشَّاعِرِ؛ فَهُو يَحِنُّ إِلَيْها ويَهْوَى صُحْبَتَها:

والمـرْءُ لَـيْسَ بِزاهِـدٍ في غـادَةٍ   لَكِنَّـهُ يَتَرَقَّـبُ الإمْـكانا

ثُمَّ يَمْدَحُ أُنُوثَتَهـا وجَمالَهـا وسِحْرَها الـذِي لا يُقـاوَمُ، ويَتَغَنَّى بِهـا بِـأَحَرِّ انْفعـالٍ ويَشْـدُو بِأَشْجَى عاطِفَةٍ[1]:

هَـوَاجِرُ فِي التَّـيَقُّظِ أَوْ عَـوَاصٍ   وفِي طَيْـفِ الكَـرَى مُتَعَهِّـدَاتُ

ولَعَلَّ المرْءَ هُنا يَتَساءَلُ: ما هِيَ الأَسْبابُ الحَقِيْقِيَّةُ التي دَفَعَتْ أبا العلاء لِأَنْ يَتْرُكَ الزَّوَاجَ أَوْ يَتَبَتَّلَ؟. أَمَّا الدُّكْتُور طَهَ حُسَيْن فَقَدْ ذَهَبَ فِي ذَلِكَ إلى أَنَّ المعَرِّيَّ كانَ أَبِيْقُورِيّاً[2] وأَنَّهُ كانَ يَرَى أَنَّ اللَّذَّةَ هِيَ الغايَةُ مِنَ الحَيَاةِ؛ ولَكِنَّهُ لَمَّا كانَتِ اللَّذَّاتُ مُتَقَضِّيَةً وسَرِيْعَةَ الزَّوَالِ وأَغْلَبُ ما لَمْ تُنَلْ إِلَّا بِالأَلَمِ والأَذَى، فإِنَّهُ آثَرَ أَنْ يَطْلُبَ لَذَّاتٍ أَرْفَعَ وأَصْفَى. ويَرَى الدُّكْتُور طَهَ حُسَيْن أَنَّ ذَلِكَ هُوَ ما عَسَى أَنْ يُفَسِّرَ لَنَا لِماذا كانَ المعَرِّيُّ مُتَزَهِّداً وتارِكاً لِلزَّوَاجِ ومُتَشائِماً[3]. ومِنَ الواضِح أَنَّ هَذَا المذْهَبَ فِي الرَّأْيِ غَيْرُ مُجْدٍ ولا بِذِي

---

[1] وانظُرْ كَذَلِكَ اللُّزُومَ، الجُزْءَ الثَّانِي، ص ٢٠٢؛ و٢٨٢-٢٨٣.

[2] الأَبِيْقُوْرِيَّةُ مَذْهَبٌ فَلْسَفِيٌّ نَفْسِيٌّ أَسَّسَهُ الفَيْلَسُوْفُ اليُوْنَانِيُّ أَبِيْقُورُ فِي القَرْنِ الثَّالِثِ قَبْلَ المِيْلادِ، وبَنَاهُ عَلَى تَصَوُّرِهِ لِلسَّعادَةِ الكُبْرى، إِذْ كانَ يَرَى أَنَّها تَتَحَقَّقُ بِالجَمْعِ بَيْنَ مَطْلَبِ النَّفْسِ -وهُوَ الطُّمَأْنِيْنَةُ تَكُوْنُ بِالتَّحَرُّرِ مِنَ الخَوْفِ والقَلَقِ- ومَطْلَبِ الجَسَدِ -وهُوَ تَحْقِيْقُ قَدْرٍ مِنَ اللَّذَّةِ والمتْعَةِ قَلِيْلٍ يَكْتَفِي بِهِ عَنِ اللَّذَّاتِ الكُبْرى كالجِنْسِ والطَّعامِ؛ لِأَنَّ إِتْيانَ الجِنْسِ والمتَعَ الكُبْرى عِنْدَهُ مَجْلَبَةٌ لِلأَلَمِ والأَذَى، لِأَنَّهُ يَزِيْدُ مِنْ أُوَارِ الشَّهْوَةِ ويُفْضِي الى عَدَمِ الاكْتِفاء، مِمَّا يُوْرِثُ التَّعاسَةَ والشَّقاءَ. فَمَفْهُومُ اللَّذَّةِ عِنْدَهُ أَقْرَبُ إلى إِعْدَامِها مِنهُ إلى إِشْبَاعِها. وما أَحْرَى أَنْ يَكُوْنَ سِجْمُوْند فْرُوْيِدْ، العالِمُ النَّمْساوِيُّ (١٨٥٦-١٩٣٩)، قَدْ نَظَرَ الى تَعالِيْمِ أَبِيْقُورَ الفَلْسَفِيَّةِ هَذِهِ فِي بِناءِ مَذْهَبِهِ النَّفْسِيِّ الذي حاوَلَ بِهِ أَنْ يُقَدِّمَ تَفْسِيْراً لِشَخْصِيَّةِ الإِنْسانِ وسُلُوْكِ الفَرْدِ وعِلاقاتِهِ بِالآخَرِيْنَ بِتَحْلِيْلِ ما يَلِيْهِ مِنْ أَحْلامٍ ولا وَعْيٍ، ناظِراً إلى ما هُوَ مُتَأَصِّلٌ فِيهِ مِنَ الرَّغْبَةِ والشَّهْوَةِ. وكانَ لِنَظَرِيَّتِهِ تَأْثِيْرُها خِلالَ القَرْنِ الماضِي. (التُّرْجُمان)

[3] تَجْدِيد ذِكْرَى أبي العلاء، ص٣٠٢.

مَقْنَعٍ؛ ولَعلَّهُ مِنَ الوَهْمِ أنْ نَزْعُمَ أنَّ أبا العلاء كانَ فَيْلسوفاً وأنَّهُ كانَ يَتْبَعُ مَذْهَباً فِكْرِيّاً بَعَيْنِهِ. ونَرَى أَنَّ الأَسْبَابَ الحَقِيْقِيَّةَ وَرَاءَ تَرْكِ أبي العلاء الزَّواجَ يَنْبَغِي أنْ نَبْحَثَ عَنْها في ظُرُوفِ حَيَاتِهِ وفي ما اعْتَرَى شَخْصِيَّتَهُ مِنْ عُيُوبٍ. إذْ يُحدِّثُنا مَنْ ترْجَمُوا لَهُ أنَّهُ كانَ قَصِيْراً ونَحِيْلاً وأنَّ الدَّاءَ الذي كانَ قَدْ ذَهَبَ بِبَصَرِهِ قَدْ كانَ تَرَكَ آثارَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَشَوَّهَهُ بِبُقَعٍ ومَرْأًىً تَنْفِرُ النَّفْسُ مِنهُ؛ إذْ صارَتْ إحْدَى عَيْنَيْهِ غائِرةً والأُخرى ناتِئَةً[1]. وقد وَصَفَهُ رَجُلٌ رَآهُ إبّانَ فُتُوَّتِهِ بِأنَّهُ شَدِيْدُ القُبْحِ. أَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ إذَنْ أنْ نَزْعُمَ أنَّ أبا العلاء لَمْ يَكُنْ في شبابِهِ ذا حُظْوَةٍ عِنْدَ النَّساءِ شأْنَ الرِّجالِ الطَّبِيْعيِّيْنَ ثُمَّ رَامَ أنْ يَحْفظَ كَرامَتَهُ ومَاءَ وَجْهِهِ بِتَجنُّبِهِنَّ جَمِيْعاً لِيظَلَّ عَزِيْزَ النَّفْسِ وافِرَ الكِبْرياءِ كَما كانَ قَبْلُ؟ واَحْتِجاجاً مِنهُ عَلَى إخْفاقِهِ في هَذا الجانبِ المهمِّ مِنْ حَياةِ الرَّجُلِ فَقَدْ صارَ إلى حَياةِ التزَهُّدِ لِيَقْهَرَ عاطِفَتَهُ ويُخْمِدُ ثائِرَ انْفِعالاتِهِ الوُجْدانيَّةِ ويَقْتُلَ فِيهِ غَرِيْزَتَهُ ونُزُوْعَهُ. وإنَّا لَنَقْرَأُ فِي (سَقْطِ الزَّنْدِ) بَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ كانَ أبو العلاءِ قَدْ نَظَمَهُما لِيُطَرَّزا عَلَى سِجافٍ أو سِتارٍ[2] أرْسَلَ بِهِ إلى امْرأَةٍ شابَّةٍ[3]. ولَنا أنْ نَسأَلَ هُنا ماذا عَسَى أنْ تكونَ تِلْكَ العَلاقةِ بَيْنَ أبي العلاءِ وبَيْنَ هَذهِ المرْأَةِ الشَّابَّةِ؟ لِأنَّهُ يَكُونُ مِنَ المستَبْعَدِ أنْ يَتَجرَّأَ رَجُلٌ، في مُجْتَمَعٍ مُسْلِمٍ مِنْ تلكَ الحِقْبَةِ يُمارِسُ عَزْلَ النَّساءِ عَنِ الرِّجالِ، فيُقْدِمَ إسْماحاً مِنهُ ودُونَما دَوافِعَ شَخْصِيَّةٍ عَلَى أنْ يُقَدِّمَ هَدِيَّةً كَهَذِهِ إلى امْرَأَةٍ أجْنَبِيَّةٍ عَنْهُ. تُرَى هَلْ كانَتْ

---

(١) وفيات الأعيان، ج١، ص٤١.

(٢) كانت هذهِ السّتارَة عَلَيْها طُيُورٌ مُصوَّرةٌ . والبَيْتانِ هما:

الحُسْنُ يَعْلَمُ أنَّ مَنْ وارَيْتَهُ ... قَمَرٌ تَستَّرَ فِي غَمامٍ أبْيَضِ

غَشِيَ الطُّيُورَ غَوافِلاً فَتَحَيَّرَتْ ... مِنهُ فَلَم تَبْرَحْ ولَمْ تَتَنَفَّضِ

وقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُما فِي الفَصْلِ الرَّابِعِ. (التُّرْجُمان).

(٣) (سقط الزَّنْد، ج١، ص٨٦).

هَذِهِ المرْأةُ التي خَاطَبَها أبو العلاءِ بِذَيْنِكَ البَيْتَيْنِ إحْدَى قَرِيْباتِهِ مِنْ رَحِمِهِ ؟ إذَنْ لَكانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ التَّحَرُّجِ والحِرْصِ حَدّاً يَدْفَعُهُ إلى حَذْفِ هَذِهِ الوَاقِعةِ مِنْ مَا يُورِدُهُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ مِنْ تعَلِيْقاتٍ ضَئِيْلَةٍ بَيْنَ يَدَيْ بَعْضِ قَطَعِ سَقْطِ الزَّنْدِ. أَمَّا نَحْنُ فَنَرى كَأَنَّ هَذِهِ المرْأَةَ تَصِلُها بأبِي العلاءِ وَشائِجُ العاطِفَةِ هَوَىً وحُبّاً. وإذَنْ ألا يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ المرْأةُ هِيَ صاحِبَةَ (أطْيَافِ خَيَالِهِ) وفَتَاةَ مَوضُوْعاتِ غَزَلِهِ الفاخِرَةِ في قَصِيدَةِ (مَغَانِي اللِّوَى) وبَعْضِ قصائِدِ (اللُّزُوم) ؟ ثُمَّ أَلَيْسَ يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ هِي مَنْ كانَ أحْبَطَهُ وخَيَّبَ آمَالَهُ وصَدَّ حُبَّهُ ورَدَّ عَوَاطِفَهُ بِسَبَبِ عَمَاهُ ومَرْآهُ المنَفِّرِ؟ فَهَذا التَّخمِيْنُ يَبْدُو لَنا أقْرَبَ إلى القَبولِ إذْ تَسْنُدُهُ مِنْ أَبْياتِ اللُّزُومِ أمْثالُ:

ولَمْ أعْـرِضْ عَـنِ اللَّـذّاتِ إلَّا　　　لِأنَّ خِيارَهـا عَـنِّي خَنَسْـنَهْ

٢. آراؤهُ في الخَمْرِ:

لَقَدْ كانَ امْتِناعُ أبِي العلاءِ عَنِ الخَمْرِ يَعُودُ في الأغْلَبِ إلى تأثُّرِهِ بِالإسلامِ وما قامَ عَلَيْهِ مِنْ نَشْأَةٍ دِيْنِيَّةٍ. ولَكِنَّهُ كانَ أشَدَّ اعْتِزَازاً وكِبْرِيَاءً مِنْ أنْ يُقِرَّ أنَّ مُحاباتَهُ الدِّيْنِيَّةَ وخَشْيَتَهُ العارَ والشَّنَارَ هُما السَّبَبُ الحَقِيْقِيُّ وَرَاءَ هَذَا الامْتِناعِ ومِنْ ثَمَّ فَقَدْ حاوَلَ أنْ يُعَلِّلَ امْتِناعَهُ عَنِ الخَمْرِ تَعْلِيْلاً عَقْلانِيّاً زَاعِماً (ويُوْشِكُ أنْ يَكُونَ أقْنَعَ نَفْسَهُ بِهَذَا الزَّعْمِ) أنَّهُ لَمْ يَمْتَنِعْ عَنِ الخَمْرِ لِأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْها في الشَّرِيْعَةِ بَلْ لِأنَّ الخَمْرَ تَذْهَبُ بِلُبِّ المرْءِ وتَسْلُبُهُ وَقارَهُ واحْتِرَامَهُ [1]:

ومِنْ بَعْضِ جاراتِ العِرَاقَيْنِ بابِلٌ　　　وعانَةُ والصَّهْباءُ عِنْدَهُما جَمُّ
أَلَمْ تَرَ أنَّ الأَوَّلِيْنَ إِلَيْهِما　　　نَمَوْا حَسَبَ الخَمْرِ الذي رَفَعَ النَّظْمُ

---

(1) سقط الزند، ج٢، ص١٧٢.

فإيّاكَ والكَأْسَ التِي بِتَّ ناعِتاً فما شُرْبُها إلّا السَّفاهَةُ والإثْمُ[١]

وقَدْ وُفِّقَ أبو العلاء تَوْفِيقاً واضِحاً في كَشْفِ هذا المَوْضُوعِ والتَّوَسُّعِ فِيهِ في (اللُّزُوم)؛ إذْ نَرَاهُ ثَمَّ يُسَمِّي الخَمْرَ أُمَّ لَيْلَى ويَصِفُها بأنَّها امْرَأَةٌ عَجُوزٌ قَدْ أضلَّتْ قبائِلَ طَسْمٍ ومأْرِبٍ:

تَــوَخَّ بِهَجْــرٍ أُمَّ لَيْلَــى فإنَّهــا عَجُوزٌ أضلَّتْ حَيَّ طَسْمٍ ومَأْرِبِ

ويَقُولُ[٢]:

وأمَّا الخَمْرُ فَهْي تُزِيْلُ عَقْلاً فَتَحْتَ بِهِ مَغَالِقَ مُبْهَمَاتِ
ولَوْ ناجَتْكَ أقْداحُ النَّدَامَى عَدَتْ عَنْ حَمْلِها مُتَنَدِّماتِ
تُذِيْعُ السِّرَّ مِنْ حُرٍّ وعَبْدٍ وتُعْرِبُ عَنْ كَنَائِزَ مُعْجَمَاتِ
ويَنْفُضُ إلْفُها الرَّاحَاتِ حَتَّى تَعُوْدَ مِنَ النَّفائِسِ مُعْدَماتِ

---

(١) يُخاطِبُ مَنْ كانَ وَصَفَ الخَمْرَ وذَكَر ارْتِحالَهُ في طَلَبِها مِنْ جِهاتِ العِراقِ إلى الشَّام؛ فَيلْفِتُهُ أبو العلاء إلى أنَّهُ قَدْ كانَ في غِنَىً عَنْ تَجَشُّمِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ، فأقْرَبُ إلَيْهِ مِنَ الشَّام، بِلادِ أبي العلاء، بابِلٌ وعانَةٌ وهُما مِنْ نَوَاحِي العِرَاقِ وعُرِفَتا بِكَثْرَةِ الخَمْرِ وجَوْدَتِها حَتَّى نَسَبَ الأوَائِلُ إلَيْهِما الخَمْرَ فَقَالُوا (بابِلِيَّةٌ) و(عَانِيَّةٌ). وصِلَةُ الخَمْرِ بِالمُدُنِ في القَدِيمِ يُشْبِهُ ارْتِباطَها اليَوْمَ -مَثَلاً بِمَدِيْنَةِ بُورْدُو الفَرَنْسِيَّةِ وهِيَ مَدِيْنَةٌ جَمِيْلَةٌ تَقَعُ في الجَنُوبِ الغَرْبِيِّ مِنْ فَرَنْسا عَلَى نَهْرِ (قارون) (Garonne) الذِي يَجْرِي -مِن سِلْسِلَةِ جِبالِ بيريتر في إسْبانيا؛ فَقَدِ ارْتَبَطَتِ الخَمْرُ بِبُورْدُو (Bordeaux) ارْتِباطاً وَثِيْقاً حَتَّى صَارَتْ هَذِهِ المَدِيْنَةُ مَرْكَزاً تِجارِيّاً مُهِمّاً لِلخَمْرِ وحَتَّى نُسِبَتْ إلَيْها نَسَباً، فَتَسَمَّى نَوْعٌ جَيِّدٌ مِنْها باسْمِها- مِثْلِ البابِلِيَّةِ والعانِيَّةِ - فَقِيْلَ :يَشْرَبُ بوردو، ومِنْها أبْيضُ وأحْمَرُ (Claret). هذا، وليس من رابطٍ بَيْنَ الخُرْطُوم عاصِمَةِ السُّودانِ، وما سَمَّتْ بِهِ العَرَبُ الخَمْرَ خُرْطوماً. قالَ -المتَنَبِّي، وقَدْ حَلَفَ عَلَيْهِ أحَدُهُم أنْ يَشْرَبَ الخَمْرَ (الخرطومَ)، فَشَرِبَها المتنبي زاعِماً أنه قَدْ تَحَلَّلَ مِنْ إثْمِها بأنْ رَدَّ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ وحالَ بَيْنَها وبَيْنَ طلاقِها بِشُرْبِها، فَزَعَم أنَّهُ لذلك شَرِبَ دُوْنَ أنْ يَلْحَقَهُ إثْمٌ في الشُّرْبِ، وكانَ المتنبي لا يَشْرَبُ الخَمْرَ:

وأخٍ لَنا بَعَثَ الطَّلاقَ ألِيَّةً لأُعَلِّلَنَّ بِهَذِهِ الخُرْطُومِ
فَجَعَلْتُ رَدِّيَ عِرْسَهُ كَفَّارةً مِنْ شُرْبِها وشَرِبْتُ غَيْرَ أثِيْمِ

وإنَّما سَمَّتِ العَرَبُ الخَمْرَ خُرْطُوماً لِأنَّها تَجْعَلُ شارِبَها يَشْمُخُ بِخُرْطُومِهِ؛ وأمَّا الخرطومُ المدينةُ فَتَحْرِيفٌ عَنْ كَلِمةِ (كُرْتُوم) أو (كُرْتُم) وهو الجَبَلُ الصَّغِيْرُ ولَعَلَّهُ جَبَلُ كَرَري أو ما قِيْلَ إنَّ ثَمَّةَ بَقَايا جَبَلٍ صِغِيْرٍ كانَ مَوْجُوداً قدِيماً عَلَى الجانِبِ الغَرْبِيِّ مِنَ النِّيْلِ بِأُمْدُرمانَ، ولَمْ تُعْرَفْ مِنْ صِلَةٍ لِهَذِهِ المَدِيْنَةِ بِالخَمْرِ. (التُّرْجُمان).

(٢) (اللُّزُوم، ج١، ص٨٧ وص١٩٠).

وزَيَّنَتِ القَبِيْحَ فَباشَرَتْهُ نُفُوْسٌ كُنَّ عَنْهُ مُحْزَّماتِ
ويَشْرَبُها فَيَقْلِسُها غَوِيٌّ لَقَدْ شَامَ الخَفِيَّ مِنَ الشِّماتِ
ويَرْفَعُ شَرْبُها لَغْطاً بِجَهْلٍ كَأَسْرَابٍ وَرَدْنَ مُسَدَّماتِ
لَعَلَّ الرُّبْدَ عُجْنَ لَها بِرَبْعٍ فإِضْنَ مِنَ السَّفاهِ مُصَلَّماتِ
أوِ الغِرْبانَ مِلْنَ لَها بِبَيْضٍ نَواصِعَ فانْثَنَيْنَ مُحَمَّماتِ
فإِنْ هَلَكَتْ خُرُوسُكِ أُمَّ لَيْلَى فَمَا أنا مِنْ صِحَابِكِ واللُّمَاتِ
فعَنْكِ تَعُوْدُ أَبْنِيَةُ المعَالِي وأطْلالُ النُّهَى مُتَهَدِّماتِ

فَذَلِك ناتِجُ شُرْبِ الرَّجُلِ الخَمْرَ. فَأَمَّا إذا شَرِبَتْها المرْأَةُ تَمَلَّكَتْها شَهْوَتُها وصارَتْ جَسَداً عارِياً:

مَتَى شَرِبَتْ خَمْراً فَلَسْتُ بِآمِنٍ عَلَيْها غَوِيّاً أنْ يَحِلَّ خِمَارَها
فَقَدْ عَرِيَتْ بِالكَأْسِ عَنْ كُلِّ مَلْبَسٍ جَمِيْلٍ وأَلْقَتْ في حَشَاكَ خُمَارَها

ويَقُولُ أبو العلاء: إنَّ الخَمْرَ، البابِلِيَّةَ، بابٌ يُؤَدِّي إلى البَلاءِ والشَّقاءِ والمآسِي فاحْذَرْ أنْ تَلِجَ مِنهُ؛ فَمَنْ وَلَجَ مِنهُ خاصَمَ صَدِيْقَهُ وجَافاهُ، وآذَى نَداماهُ وهَجَرَ أَحِبَّتَهُ؛ وإنَّ الخَمْرَ تَهْتِكُ سِتْرَ الحَرائِرِ المحْصَنَاتِ رَبَّاتِ الصَّوْنِ وتَجْعَلُ المهِيْنَ الذَّلِيْلَ يَراهُنَّ، بَعْدُ، شَرِيفاتٍ.
هذا، وقد جَذَبَتْ بَعْضُ أبياتِ أبي العلاء في الخَمْرِ في دِيْوانِ اللُّزُومِ نُقَّادَهُ المعَاصِرِيْنَ فأقْبَلُوا عَلَيْها بِاهْتِمامٍ بالِغٍ وأَوْلَوْها عِنايَةً في النَّظْرِ، كَقَوْلِهِ :

أَيَأْتِي نَبِيٌّ يَجْعَلُ الخَمْرَ طَلْقَةً فَتَحْمِلَ عِبْئاً مِنْ هُمُومي وأحْزَاني
وهَيْهاتَ لَوْ حَلَّتْ لَمَا كُنْتُ شارِباً مُخَفِّفَةً في الحِلْمِ كِفَّةَ مِيزاني

وكَقَوْلِهِ :

يَقُولُ النّاسُ إنَّ الخَمْرَ تُوْدِي بِما فِي الصَّدْرِ مِنْ هَمٍّ قَدِيْمٍ

(١) [illegible]

ولَوْلا أنَّها بِاللُّبِّ تُوْدِي   لَكُنْتُ أَخَا المدَامةِ والنَّدِيْمِ

فَقَدْ ذَهَبَ عَبَّاس مَحْمُود العقَّاد إلى أنَّ شاعِرَنا رُبَّما كانَ يَشْرَبُ الخَمْرَ سِرّاً[1]. فثَمَّةَ دلائِلُ في (اللُّزُومِ) تُبَيِّنُ أنَّ المعَرِّيَّ كانَ قَدْ أَحَبَّ فِكْرَةَ الخَمْرِ. إذْ يَجِدُ المرْءُ بَيْنَ وَصاياهُ بِتَجَنُّبِ شُرْبِها أَوْصَافاً حَيَّةً لِطافاً لِلَوْنِها (الذي لَمْ يَكُنْ يَراهُ) ولِتَأْثِيرِ حُمَّياها فِيْمَنْ شَرِبَها؛ كما نَجِدُ كَثِيْراً مِنْ ما يَتَّصِلُ بِها مِنْ تَعَابِيرَ شاعِرِيَّةٍ وعِباراتٍ وأفْكارٍ مُبْتَذَلَةٍ. غَيْرَ أنَّ كُلَّ هذا لايُعَدُّ دَلِيْلاً كافِياً يَحْمِلُنا عَلَى مُوَافَقَةِ العَقَّادِ في أَنَّ المعَرِّيَّ رُبَّما كانَ يَتَعاطَى الخَمْرَ في السِّرِّ. فَكُلُّ ذَلِكَ لا يُظْهِرُ لَنا إلَّا أنَّ المعَرِّيَّ لَمْ يَكُنْ مُقْتَنِعاً اقْتِناعاً عَمِيْقاً بِصِحَّةِ الأَسْبابِ التي كان يَسُوقُها في لُزُومِهِ لِلنَّاسِ لِيَجْتَنِبُوا شُرْبَ الخَمْرِ.

---

[1] (رَجْعة أبي العلاء، لِعبَّاس محمود العقَّاد، القاهرة، ١٩٣٩، ص٤٦).

القِسْم الخامس

المُجْتَمَعُ الإسْلامِيُّ

١. الفِرَقُ الإسلامِيَّةُ: أبو العلاء والشِّيْعةُ:

لَمْ تَكَدْ تَنْجُو فِرْقَةٌ مِنَ الفِرَقِ الإسْلامِيَّةِ في عَصْرِ شاعِرِنا مِنْ هُجُومٍ فِي (اللُّزُوم). فَقَدْ عابَ عَلَى الأشاعِرَةِ تَصَلُّبَهُمْ وتَشَدُّدَهُمْ فِي اعْتِقادِهِمْ واسْتَهْجَنَ فِيْهم ضِيْقَ العَقْلِ، فَقَالَ:

قُلْتُمْ: لنا خالِقٌ حَكِيْمٌ قُلْنا: صَدَقْتُمْ، كذا نَقُولُ
زَعَمْتُموهُ بِلا مكانٍ ولا زَمانٍ، ألَا فَقُوْلُوا
هذا كَلَامٌ لَهُ خَبِيْءٌ مَعْناهُ لَيْسَتْ لَنا عُقُولُ

وبَكَّتَ المعْتَزِلَةَ وعَنَّفَهُمْ تَعْنِيْفاً شَدِيداً لِمُراوَغَتِهِمْ في الكَلامِ واشْتِغالِهِمْ بِغَوامِضِ الكَلِمَ وتَدْقِيقِهِمْ وتَنَطُّسِهِمْ فِي المسائِلِ الثّانَوِيَّةِ، فَقَالَ فِيهِمْ:

لَولا التَّنافُسُ فِي الدُّنيا لَمَا وُضِعَتْ كُتْبُ التَّناظُرِ لا المغْنِي ولا العُمَدُ
قَدْ بالَغُوا في كَلامٍ بانَ زُخْرُفُهُ يُوْهِي العُقُوْلَ ولَمْ تَثْبُتْ لَهُ عَمَدُ
وما يَزالُونَ فِي شامٍ وفِي يَمَنٍ يَسْتَنْبِطُونَ قِياساً ما لَهُ أَمَدُ
فَذَرْهُمْ ودَنَاياهُمْ فَقَدْ شُغِلُوا بِها ويَكْفِيْكَ مِنْها القادِرُ الصَّمَدُ

وأنْكَرَ عَلَى الشِّيْعَةِ ما عِنْدَهُمْ مِنْ مُعْتَقَداتٍ وَثَنِيَّةٍ وخُرافاتٍ، فَقَالَ فِيهِمْ:

يَرْتَجِي النّاسُ أنْ يَقُومَ إمامٌ ناطِقٌ في الكَتِيْبَةِ الخَرْساءِ
كَذَبَ الظَّنُّ لا إمامَ سِوَى العَقْـ ـلِ مُشِيْراً في صُبْحِهِ والمَساءِ

ووَصَفَ الصُّوْفِيَّةَ بِأنَّهُمْ كِباشُ أغْنامٍ يَرْتَدُونَ الصُّوْفَ مُجَرَّدِيْنَ مِنَ الصَّفاءِ الذي يَزْعُمُونَ أنَّ اسْمَهُمْ جاءَ مِنهُ، وذَلِكَ إذْ يَقُوْلُ فِيهِمْ:

صُوفِيَّةٌ ما رَضُوا لِلصُّوفِ نِسْبَتَهُمْ   حَتَّى ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنْ طاعةٍ صُوفُوا

تَبارَكَ اللّٰهُ دَهْرٌ حَشْوُهُ كَذِبٌ   فالمَرْءُ مِنَّا بِغَيْرِ الحَقِّ مَوْصُوفُ

وقالَ فِيهِمْ أَيْضاً :

لَوْ كُنْتُمُ أَهْلَ صَفْوٍ قالَ ناسِبُكُمْ   صَفْوِيَّةٌ فأَتَى باللَّفْظِ ما قُلِبَا

جُنْدٌ لإِبْلِيسَ في بُدْلِيسَ آوِنَةً   وتارَةً يَحْلِبُونَ العَيْشَ في حَلَبا

وحَتَّى الخَوارِجُ لَمْ يُفْلِتُوا مِنْ سُخْرِيَةِ أبي العلاء، مَعَ أَنَّ تَأْثِيرَهُمُ السِّياسِيَّ كانَ قَدِ انْتَهَى قَبْلَ عَصْرِهِ بِزَمانٍ طَوِيلٍ، فقالَ فِيهِم:

والنَّاسُ في ضَدِّ الهُدَى مُتَشَيِّعٌ   لِزَمَ الغُلُوَّ وناصِبِيٌّ شارِ[1]

هذا، ومَعَ كُلِّ هَذَا الهُجُومِ عَلَى الفِرَقِ الإسْلامِيَّةِ، حاوَلَ بَعْضُ نُقَّادِ أبي العلاءِ القُدَماءُ أَنْ يُدَلِّلُوا عَلَى أَنَّهُ كانَ شِيْعِيّاً[2]. فَهُناكَ بَعْضُ أبْياتٍ في (اللُّزُومِ) يَبْدُو أَنَّها تَسْنُدُ زَعْمَهُمْ هَذا، مِثْلُ قَوْلِهِ:

يا أبا السِّبْطَيْنِ لا تَحْفِلْ بِها   أَعَتِيْقٌ سادَ فِيْها أَمْ عُمَرْ

وكَقَوْلِهِ :

وخالَفَكَ النَّاسُ في مَذْهَبٍ   فَقُلْتَ عَلِيٌّ وقَالُوا عُمَرْ

---

(1) الشُّرَاةُ مِنَ الخَوَارِجِ، أسْمَوْا أنفُسَهُمْ بِهَذا الاسْمِ زَاعِمِيْنَ أنَّهُمْ باعُوا أنفُسَهم للهِ تَعَالَى، يُشِيْرُونَ إلَى آيَةِ التَّوْبَةِ (إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمِنِيْنَ أنفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ)، فالشُّرَاةُ جَمْعُ شارٍ والشَّارِي هُوَ البَائِعُ، قالَ تَعالَى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ)؛ خِلاف المشْتَرِي، فاللهُ مُشْتَرٍ، والمؤْمِنُونَ، كما في الآيَةِ، هُمُ الشُّرَاةُ. (التُّرْجُمان).

(2) (تعريف القدماء، ص٣٥٣).

غَيْرَ أنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأَبْياتِ لا تَكْشِفُ إلَّا عَنْ أنَّ شاعِرَنا كانَ مُوالِياً لِعَلِيٍّ ومُتَعاطِفاً مَعَ قَضِيَّتِهِ، وهُوَ الموقِفُ الذي كانَ مَعْرُوفاً بَيْنَ مُفكِّرِي القَرْنِ الرَّابعِ الهِجْرِيِّ وشائِعاً فِيهِمْ. ويَجِبُ عَلَينا كذَلِكَ أنْ نَتذكَّرَ أنَّ المعَرِّيَّ كانَ قَدْ وَقَعَ تَحْتَ تأْثِيرِ الشريفِ أبي إبْراهيمَ الذي يُذْكَرُ أنَّهُ كانَ مِنْ رُوَّادِ التَّشَيُّعِ الأَوائِلِ في الشَّام. وعَسَى أنْ يَكُونَ تَعَرُّفُ أبي العلاءِ، السُّنِّيِّ مُنْذُ مِيْلادِهِ، هذا الرَّجُلَ هُو ما أعانَهُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ ضُرُوبِ تَحامُلِ أهْلِ السُّنَّةِ وإجْحافِهِمْ والنَّظَرِ إلى الشِّيْعةِ بِتَعاطُفٍ أكْثَرَ مِمَّا كانَ اعْتادَهُ قَبْلُ. وذَلِكَ لا يَعْنِي بِطَبِيْعَةِ الحال أنَّهُ كانَ قَدْ تَشَيَّعَ. فالتَّشَيُّعُ بِمَعْنَى الاعْتِقَادِ بِأَنَّ لِآلِ البَيْتِ حَقّاً إلَهِيّاً في الخِلافَةِ وأنَّهُمْ يَمْلِكُونَ قُوَى خارِقَةً كانَ عِنْدَ أبي العلاء ضَرْباً مِنَ التَّوَثُّنِ اسْتَنْكَرَهُ أشَدَّ الاسْتِنْكارِ وعارَضَهُ كُلَّ المعَارَضَةِ. وأَرانا نَكُوْنُ قَدْ ظَلَمْناهُ أشَدَّ الظُّلْمِ وجُرْنا عَلَيْهِ أعْظَمَ الجَوْرِ إنْ نَحْنُ ذَهَبْنا نَسْتَنْبِطُ مِنْ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ أنَّ المعَرِّيَّ كانَ يُضْمِرُ عقائِدَ الشِّيْعَةِ:

لَقَدْ عَجِبُوا لِأَهْلِ البَيْتِ لَمَّا ... أَتاهُمْ عِلْمُهُمْ في مَسْكِ جِفْرِ
ومِرْآةُ المنَجِّمِ وهْيَ صُغْرَى ... أَرَتْهُ كُلَّ عامِرَةٍ وقَفْرِ

(أيْ لَقَدْ عَجِبَ النَّاسُ لِأهْلِ البَيْتِ لَمَّا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ عِلْمٌ (مَكْتوباً) في جِلْدِ بَقَرٍ. فالمنَجِّمُ يَرَى في مِرْآتِهِ عَلَى صِغَرِها كُلَّ الأَرْضِ مَعْمُورِها ومَهْجُورِها، عُمْرانِها وقِفارِها).

لَكِنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بأُسلُوبِ شاعِرِنا وطَرِيقَتِهِ في الأَدَاءِ سَيَجْزِمُ أنَّ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ قد أريد بِهِما السُّخْرِيَةُ والاسْتِهْزَاءُ بالنَّاسِ، لا المدْحُ والثَّناءُ لِآلِ البَيْتِ. إذْ يُبَيِّنُ شاعِرنا هُنا بِسُهُولَةٍ أنَّهُ إذا كانَ الناسُ قَدْ بَلَغُوا مِنَ السَّذَاجَةِ وسُرْعَةِ التَّصْدِيْقِ مَبْلَغاً جَعَلَهُمْ يُصَدِّقُونَ أكاذِيْبَ المنَجِّمِيْنَ، فَلِمَ يَرْفُضُونَ ما يَعْدِلُها مِنْ مَزاعِمِ الشِّيْعَةِ التَّوَهُّمِيَّةِ؟

المَعَرِّيُّ والإسماعِيْلِيَّةُ:

مِنَ النُّقَّادِ العَرَبِ المعاصِرِيْن مَنْ يُرِيدُنا أنْ نَعْتَقِدَ أنَّ أبا العلاء لَمْ يَكُنْ شِيْعِيّاً فَحَسْبُ، وإنَّما كانَ كَذلِكَ مُؤيِّداً لِمُعْتَقَدَاتِ الاسماعِيْلِيَّةِ. مِنْ هَؤُلاءِ مَنْ جَعَلَ، وهُوَ يُحاوِلُ إثْبَاتَ إسماعِيْلِيَّةَ أبي العلاءِ، يَلْوِي عَدَداً مِنْ أشعارِ شاعِرِنا لَيّاً ويُكْرِهُها قَسْراً لِتَحْمِلَ تَفْسِيْراً باطِنِيّاً[1]. وقَدْ جَعَلْنا نَتَساءَلُ: لِمَاذا يُحاوِلُ بَعْضُ النُّقَّادُ المعاصِرِيْنَ عَبَثاً إثْبَاتَ أنَّ أبا العلاءِ كانَ اسماعِيْلِيّاً؟ أَلِأَنَّهُ كانَ يُجِلُّ العَقْلَ ويُمَجِّدُهُ فيما كانَ يَكْتُبُ ويَنْظِمُ (فالاسماعِيْلِيَّةُ كانُوا يَعْبُدُونَ العَقْلَ على أنَّهُ الإلَهُ الأعْلى)؟ أَمْ لِأَنَّهُ كانَ زَعَمَ لِأحَدِ أُولئكَ الذيْنَ انْتَقَدُوهُ على أقْوالِهِ الهَرْطَقِيَّةِ أنَّ لِكَلِماتِهِ مَعْنىً خَفِيّاً يَتَّفِقُ مَعَ الاستقامَةِ والعَقِيدةِ؟[2]. وصَحِيحٌ أنَّ أبا العلاء قَدْ كانَ زَعَمَ ذلِكَ الزَّعْمَ، ثُمَّ تأكَّدَ أنَّهُ إنَّما صَنَعَ ذلك على سَبِيْلِ التَّهكُّمِ، على نَحْوِ ما لاحَظَ ابْنُ عَقِيْلٍ، وهِيَ مُلاحَظَةٌ صَحِيْحَةٌ[3]. وأمَّا مَدْحُ أبي العلاء العَقْلَ وثناؤُهُ عَلَيْهِ بأنَّهُ المرْشِدُ الأعْلَى والإمامُ الحَقُّ، فَذَلِكَ هُوَ وَحْدَهُ ما يُتَوَقَّعُ مِنْ رَجُلٍ لَهُ آراؤُهُ المتَحَرِّرَةُ ومَوقِفُهُ العَقْلِيُّ مِنَ الفِرَقِ والعقائِدِ. فلا يُمكِنُنا أنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْ مُجَرَّدِ مَدْحِهِ العَقْلَ أنَّهُ كانَ مُشايِعاً لِلإسْماعِيْلِيَّةِ . ودِيْوَانُ (اللُّزُومِ) مَلِيءٌ بِالطَّعْنِ فِي الإسْماعِيْلِيَّةِ وتَشْنِيْعِهِمْ؛ إذْ يُشِيْرُ أبو العلاء باحْتِقارٍ إلى عَقِيْدَةِ الإسْماعِيْلِيَّةِ على أنَّها وَثَنِيَّةٌ مُحَرَّفَةٌ لِلْقَدَّاحِ وهَجَرٍ، ويَتَّهِمُ أتْبَاعَها بالإباحِيَّةِ والكُفْرِ والنَّزْعاتِ الفَوْضَوِيَّةِ:

ما لِلْمَذَاهِبِ قَدْ أمْسَتْ مُغَيَّرَةً لَها انْتِسابٌ إلى القَدَّاحِ أوْ هَجَرِ
قَالُوا: البَرِيَّةُ فَوْضَى لا حِسَابَ لَهَا فإنَّما هِيَ مِثْلُ النَّبْتِ والشَّجَرِ

([1]) المعَرِّيُّ ذلِكَ المجْهُولُ، لِعَبْدِ اللهِ العَلايْلي، ١٩٤٤، ص٢٢ فما بَعْدَها.

([2]) تاريخ أبي الفِدَاء، استانبول، ١٢٨٥هـ، ج١١، ص١٨٥).

([3]) تَعْرِيْفُ القُدَماء، ص٢٠.

فالجاهِلِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ إباحَتِهِمْ — سَجِيَّةَ الحارِثِ الحَرَّابِ أَوْ حُجُرِ
فَمَا أفادُوا سِوَى إخْلالِ نِسْوَتِهِمْ — مُعَرَّضاتٍ لِأَهْلِ الباطِلِ الفُجُرِ
وإنَّ أحْسَنَ مِنْ تعْظِيْمِهِمْ رُجُلاً — صِفْراً مِنَ الحِكَمِ التَّعْظِيْمُ لِلْحَجَرِ[1]

لا بَلْ لَقَدْ صَرَخَ فِيهِمْ غاضِباً في إحْدَى قِطَعِهِ:

أَيَا شِيْعَةَ إسْمَاعِيْ — لَ إنَّ الصَّبْرَ قَدْ عِيْلا

ويَقُولُ في بَيْتٍ آخَرَ:

عَلِمَ الإمامُ ولا أَقُولُ بِظِنَّةٍ — أَنَّ الدُّعاةَ بِسَعْيِها تَتَكَسَّبُ

(أي لَقَدْ عَلِمَ الخليفةُ الفاطِمِيُّ حَقَّ العِلْمِ أنَّ دُعاتَهُ مُشتَغِلُونَ بِجَمْعِ المالِ والثَّراءِ لِأنْفُسِهِم بِدَعْوَتِهِمْ). وإذَنْ فَقَدْ شَهِدَ شِعْرُ (اللُّزُومِ) أنَّ شاعِرَنا كانَ أحَدَ نُقَّادِ الإسماعِيْلِيَّةِ الموْجِعِيْنَ لَهُمْ، لَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ في ذلكَ هَوادَةً ولا لِيْناً، ولَسْتَ تَجِدُ في مُؤَلَّفاتِهِ جَمِيْعاً، نَظْمِها ونَثْرِها، ما يُعْطِينا أوْهَنَ إيْماءٍ وأوْهَى إيْحاءٍ بِأَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ اعْتِقادَهُمْ أوْ يَتْبَعُ لَهُمْ. ومَعَ ذَلِكَ، فَيُحَدِّثُنا مَنْ تَرْجَمُوا لِأَبِي العلاءِ أنَّ كُلّاً مِنَ الحاكِمِ والمسْتَنْصِرِ، وكِلاهُما كانَ خلِيْفَةً إسْماعِيْلِيّاً عَلَى مِصْرَ، كانا قَدْ أظْهَرَا اهْتِماماً بِشَاعِرِ المعَرَّةِ. وقَدِ احْتَفَظَ لَنا ياقُوتٌ في مُعْجَمِ أُدَبائِهِ بِقَدْرٍ كَبِيْرٍ مِنَ المراسَلاتِ التي كانَ يتبادَلُها شاعِرُنا مَعَ هِبَةِ اللهِ بْنِ أبي عِمْرانَ، دَاعِي الدُّعاةِ بِمِصْرَ[2]. أَفَيُمْكِنُ أَنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْ هذا أَنَّ أبا

---

(1) القَدَّاحُ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَيْمُونٍ القَدَّاحُ، عَمِلَ هُوَ وأبُوْ مَيْمونٍ وابْنُهُ أحْمَدُ عَلَى نَشْرِ الإسْماعيلِيَّةِ فِي مِصْرَ وكانَ مِنْ رُؤُوسِ الاسْماعِيْلِيَّةِ. وهَجَرُ مَنْطِقَةٌ مَشْهُورةٌ بِالبَحْرَيْنِ كانَتْ أهَمَّ مَراكِزِ الخَوَارِجِ حَتَّى غَزَاها الحَسَنُ بْنُ بَهْرَامَ المعْرُوفُ بالجَنَّابِي في سَنَةِ ٢٨٧هـ واحْتَلَّها وجَعَلَها عاصِمةً لَهُ، وكانَ قَدْ خَلَفَ حَمْدانَ بْنَ قرمط الأشْعَثَ، مُؤَسِّسَ فِرْقَةِ القَرَامِطَةِ وهِيَ مِن فِرَقِ الاسْماعِيْلِيَّةِ. وحُجْرٌ هُوَ والِدُ امْرِئِ القَيْسِ. ومَعْلومٌ أنَّ رَهْطَ امْرِئِ القَيْسِ الشَّاعِرِ، بَنِي كِنْدَةَ، كانُوا مِمَّنْ يَدِيْنُ بِالدِّيانَةِ المزدكِيَّةِ، وكانَتْ إباحِيَّةً. (التَّرْجُمان).

(2) إرشادُ الأرِيْبِ ج٥، ص١٩٥ – ٢١٤، ومَجَلَّةُ الجَمْعِيَّةِ الملَكِيَّةِ الآسْيَوِيَّة، ١٩٠٢، ص٢٩٢، وما بَعْدَها.

العلاء كانَ إسْماعِيْلِيّاً؟ لَوْ أنّا ذَهَبْنا نَسْبِرُ غَوْرَ هَذا السُّؤَالِ لَظَهَرَ لَنا أنَّ أبا العلاء اتَّخَذَ الاسماعِيْلِيَّةَ أَلَدَّ أعْدَائِهِ؛ ولَمْ يَكُنْ إلّا حُسْنُ حَظِّهِ هُوَ ما أَفْلَتَهُ مِنْ مَكْرِ دَسائِسِهِمْ وغَدْرِ مَكائِدِهِمْ. فَقَدْ كانُوا فِئَةً شَرِسَةً تَطْلُبُ القُوَّةَ والسُّلْطانَ بِكُلِّ الوسائِلِ؛ ولَمْ يَكُونوا يَتَساهَلُونَ مَعَ أيِّ أحَدٍ يَقِفُ في طَرِيْقِهِمْ إلَى ما يَطْلُبُونَ ولا مَعَ أيِّ شَخْصٍ يَطْلُبُونَ عَوْنَهُ فَيَتَرَدَّدُ في ذَلِكَ أوْ يُخْفِقُ.

ولابُدَّ أنَّ الاسماعِيْلَّةَ كانُوا فِيْما مَضَى قَدْ طَمِعُوا فِي أنْ يَنْضَمَّ إلَيْهِمْ أبو العلاء ويُسَخِّرَ لِدَعْوَتِهِمْ مَلَكاتِهِ الأدَبِيَّةَ وتَأْثِيْرَ أُسْرَتِهِ عَلَى المعَرَّةِ؛ لِأَنَّهُ كانَ قَدْ أظْهَرَ تَعاطُفاً كَبِيْراً مَعَ عَلِيٍّ في بَعْضِ قصائِدِهِ في كُلٍّ مِنْ سَقْطِ الزَّنْدِ واللُّزُومِ. كَما أنَّهُ كانَ صَدِيقاً مُقَرَّباً لِأَبِي القاسِمِ الوَزِيْرِ[1]، الدَّاهِيَةِ الاسْماعِيْليِّ المشْهُورِ وناظِمِ إحْدَى أشَدِّ قَصائِدِ الشِّيْعةِ جَرَاءَةً ومُجاهَرَةً؛ إذْ عابَ فِيْها عَلَى النَّبِيِّ مُفاوَضَتَهُ لِغَطَفانَ أثْناءَ حِصارِ المدِيْنةِ، ووَصَفَ أبا بَكْرٍ بِالضَّعْفِ وعُمَرَ باللُّؤْمِ وعُثْمانَ بِالوَهَنِ، وسَمَّى الأنْصارَ حُماةَ الإسلام بِلُغَةٍ مِلْؤُها الصَّلَفُ والغَطْرَسَةُ، ودَفَعَ عَلِيّاً إلى الذِّرْوةِ فَجَعَلَهُ نَظِيْراً لِلنَّبِيِّ[2]. لَقَد كانَ الوَزِيْرُ قَدْ لَقِيَ أبا العلاء في سَنَةِ ٣٨٨هـ بِالمعَرَّةِ لَمّا كانَ أَبُوهُ الوَزِيْرُ الأكْبَرُ أوِ الصَّدْرُ الأعْظَمُ قَدْ ذَهَبَ إلَيْها لِيُحَرِّضَ أهْلَها عَلَى الحَمْدَانِيِّيْنَ. وبَعْدَ سَنَواتٍ قلائلِ أقْدَمَ الحاكِمُ الفاطِمِيُّ عَلَى قَتْلِ الوَزِيْرِ الأكْبَرِ، فكانَ عَلَى أَبِي القاسِمِ أنْ يَفِرَّ مِنْ مِصْرَ لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ؛ فَجَعَلَ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ ناشِراً دَعْوَتَهُ ضِدَّ سُلْطانِهِ عَلَى مِصْرَ وداعِياً النَّاسَ إلى التَّمَرُّدِ عَلَيْهِ، حَتَّى وَصَلَ بَغْدادَ حَيْثُ اسْتَقْبَلَهُ الخَلِيفَةُ العَبَّاسِيُّ بِحَفاوَةٍ وتَكْرِيْمٍ كبِيْرٍ. غَيْرَ أنَّهُ بَعْدَ مَوْتِ الحاكِمِ، بَدَا أنَّ أبا القاسِمِ جَعَلَ يَرْغَبُ عَنْ خَدْمَةِ خَلِيْفَةِ بَغْدَادَ السُّنِّيِّ وأَتْباعِهِ وحَنَّ إلى العَوْدَةِ إلى مِصْرَ. فَجَعَلَ الخَلِيْفَةُ ووُزراؤُهُ يَرْتابُونَ فِيهِ واعْتَرَاهُمُ الشَّكُّ

---

(1) انظُرْ لِتَرْجَمَتِهِ وَفَيَات الأعْيان ج١، ص١٩٥، وكامِلَ ابْنِ الأثِيْرِ ج٩ ص٢٥٥.

(2) شَرْح نَهج البَلاغَةِ ج٦، ص ٦ – ٧.

فِي تآمُرِهِ عَلَيْهِمْ مَعَ حُكَّامِ مِصْرَ الفاطِمِيِّيْنَ. ولِذَلِكَ فَرَّ مِنْ بَغْدادَ والْتَجأَ إلى الشَّامِ لَائِذاً بِهِ. وقَدْ كانَ أبو القاسِمِ خِلالَ سِيْرَتِهِ هَذِهِ مُتَواصِلَ التَّراسُلِ والمكاتَبَةِ مَعَ أَبِي العلاءِ. ويَبْدو أنَّ الصَّداقةَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ كانَتْ تَزْدادُ مَعَ مَرِّ السِّنِيْنَ. ولَعَلَّ ناشِطِي الاسْماعِيْلِيَّةِ في الشام قَدْ تَساءَلُوا: (أَلا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ أبو العلاء حامِلاً لِكَثِيرٍ مِنْ آراءِ صَدِيْقِهِ الوَزِيرِ؟) فَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ لا يُتَصَوَّرُ أنْ تُعْزَى صَداقَةٌ كَتِلْكَ التي نَشأتْ بَيْنَ أبي العلاء وأبي القاسِمِ إلى شَيْءٍ مِنَ الأَسْبابِ إلَّا إلَى الاّتفاقِ التَّامِّ في الآرَاءِ. ولِذَلِكَ عَسَى أنْ يَكُونَ الاسْماعِيْلِيَّةُ قَدْ تَوَصَّلُوا إلى أنَّ أبا العلاءِ إنَّما كانَ فِي قَرارَةِ نَفْسِهِ واحِداً مِنهُمْ وأنَّهُ يَجِبُ اسْتِمالَتُهُ إلى جانِبِهِمْ فِي الحالِ وتَسْخِيْرُهُ لِدَعْوَتِهِمْ. ألا يُفَسِّرُ ذَلِكَ لِماذا أَلَحَّ الفَلاحِيُّ وَزِيْرُ الحاكِمِ الفاطِمِيِّ عَلَى والِيْهِ عَلَى حَلَبٍ، عَزِيْزِ الدَّوْلَةِ، بِأَنْ يَسْتَقْدِمَ إِلَيْهِ أبا العلاء ويَبْنِيَ داراً لِلْعِلْمِ لِيُلْقِيَ فِيْها أبو العلاء دُرُوْسَهُ ويُنْفِقَ على التلامِيْذِ الذِيْنَ يَأْتُونَ مِنْ بُلْدانٍ بَعِيْدَةٍ؟[1]؟ أوْ يُفسِّرُ لَنا لِمَاذا قَدَّمَ المسْتَنْصِرُ لِأَبي العلاء خَزائِنَ أَمْوالِ المعَرَّةِ تَكُوْنُ تَحْتَ تَصرُّفِهِ؟[2] ولَكِنَّ أبا العلاء رَفَضَ قَبولَ هَذِهِ الخَزائِنِ. فَهُوَ لَمْ يكُنِ الرَّجُلَ يُغْرَى بِالرِّشا أو يُستَطارُ بالوَعْدِ الخُلَّبِ. ومِنْ ثَمَّ فَقَدْ قَرَّرَ الاسْماعِيْلِيَّةُ أنْ يَطْرحُوهُ ويَتَّخِذُوهُ عَدُوّاً لا يَسْتَحِقُ رَحْمَةً، فَسَعَوْا إلى تَدْبِيْرِ شَبَكَةٍ واسِعَةٍ مِنَ الدِّعايَةِ لِتَجُرَّ أبا العلاءِ إلى كَلالِيْبِ الاضْطهادِ والأَذَى بِتُهَمِ الزَّنْدَقَةِ والإلْحادِ وعَداءِ الإسْلامِ.

وقَدْ حارَبُوهُ أَوَّلَ الأَمْرِ سِرّاً مُسْتَخْدِمِيْنَ أَسْلِحَةً كالهِجاءِ والسَّبِّ والشَّتْمِ والذَّمِّ، فَلَمَّا لَمْ تُجْدِ مَعَهُ شَيْئاً لَجَأُوا إلى وَضْعِ أَشْعارٍ مُدَلَّسَةٍ وجَعَلُوا يَنْشُرُوْنَها بِاسْمِهِ وكانَ أَغْلَبُها زَنْدقِيّاً نابِياً قَدْ عازَهُ التَّهذِيْبُ والذَّوْقُ، وقَدْ صِيْغَتْ عَلَى نَحْوٍ يَسْهُلُ مَعَهُ حِفظُها وقِرَاءَتُها مِنْ

([1]) تَجِدُ جَوَابَ أبي العلاءِ لِلْفَلاحِيِّ فِي رَسائِلِ أبي العلاءِ، ص٥٩؛ ولَكِنْ عِنْدَ ابْنِ العَدِيمِ أنَّ اسْمَ الفَلاحِيِّ هو عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرَ بْنِ فَلاحٍ ولَيْس أبا نَصْرٍ صَدَقَةَ بْنِ يُوسُفَ (كما جاء في رَسائِلِ أبي العلاء)؛ وانظُرْ تَعْرِيْفَ القُدَماءِ ص٥٧٤ والحاشِيَة١ ص٤١٧.

([2]) تعريف القدماء، ص ٥٧٨.

قِبَلِ أَهْلِ الزُّوْرِ والبُهتانِ في كُلِّ مَكانٍ. وقَدْ أخافَ ذَلِكَ مِنهُمْ أبا العلاء، لِأَنَّهُ شكا إِلَى والِي حَلَبٍ، ثُمالِ بْنِ صالِحٍ مُدَلِّسَيْنِ اثْنَيْنِ يُعْرَفُ أَحَدُهُما بِابْنِ المِحْبَرَةَ. فاحْتَجَّ أبو العلاء بِأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ أغْلَبَ ما نُشِرَ باسْمِهِ، وطَلَبَ أَنْ تُراجَعَ نُسَخُ كُتُبِهِ الأَصْلِيَّةُ، التي نَسَخَها لَهُ بَنُو هاشِمٍ، أشْهَرُ نَسَّاخِي المعَرَّةِ الذِيْنَ لَمْ تَزَلْ أيدِيْهِمْ مُسْتَمْسِكَةً بِحَبْلِ التَّقْوَى والوَرَعِ، وتُضاهَى مَعَ النُّسَخِ المزَوَّرَةِ لِتَظْهَرَ بَراءَتُهُ مِنْها. وأخِيْراً قَرَّرَ الاسماعِيْلِيَّةُ حَرْبَ أبِي العلاء عَلَناً فتَحَدَّوْهُ إلى مُناظَرَةٍ حَوْلَ مَذْهَبِ النَّباتِيِّينَ ساعِيْنَ بالطَّبْعِ إلى مُحاكَمَتِهِ، بِكَلِماتِهِ وأقْوالِهِ، عَلَى أَنَّهُ زِنْدِيْقٌ كَبِيْرٌ يَجِبُ قَطْعُ رَأْسِهِ إرضاءً للهِ ولِصالِحِ المؤْمِنِيْنَ؛ لِأَنَّ أبا العلاء كانَ قد سَبَقَ بِأَنْ نَصَحَ بِتَرْكِ أَكْلِ اللَّحْمِ وكُلِّ ما خَرَجَ مِنَ الحَيْوانِ تَوَرُّعاً لازِماً لِصِحَّةِ الإيْمانِ. فَقَدْ كانَ ذلِكَ هُوَ الدَّافِعَ وَرَاءَ الرَّسائِلِ الجَدَلِيَّةِ حَوْلَ مَوضُوعِ النَّباتِيَّةِ التي كانَ يُرْسِلُ بِها أبو نَصْرٍ هِبَةُ اللهِ ابْنُ أَبِي عِمْرانَ، دَاعِي دُعاةِ اسْماعِيْلِيَّةِ مِصْرَ[1]. فَلَمْ يكُنْ غَرَضُ أبِي نَصرٍ طَلَبَ الحَقِّ كما كانَ يَزْعُمُ ظاهِراً ولَكِنَّهُ كانَ يَسْعَى لِأَنْ تَثْبُتَ لِأبِي العلاءِ مِنْ رُدُودِهِ عَلَيْهِ تُهْمَةُ هَرْطَقَةٍ واحِدَةٍ صَرِيْحَةٍ لِيَكُونَ تَعْذِيبُهُ بِذَلِكَ أو رُبَّما إعْدامُهُ، حَقّاً وشَرْعاً. وقَدْ كانَ أبو العلاءِ في مَوْقِفِ المدَافِعِ حَذِراً وهُوَ يَتَّقِي هَجَماتِ خَصْمِهِ الشَّدِيْدِ عَلَيْهِ بِمَكْرِهِ باسْتِخْدامِهِ الاسْتِطْراداتِ المتَنَطِّسَةَ والسَّجْعَ وعِبَاراتِ الإطْرَاءِ المتَمَلِّقِ. ولَكِنَّ عَدُوَّهُ كانَ يَعْرِفُ ما يُرِيْدُ فَطَلَبَ رُدُوْداً عَلَى رَسائِلِهِ واضِحَةً سَهْلَةً ،واحْتَجَّ بِأَنَّ حِيَلَ أبِي العلاء ذاتَ العُمْقِ المعْرِفِيِّ لَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ كَشْفِ الحَقِيْقَةِ وألَحَّ عَلَى أَبِي العلاء بِأَنَّهُ إنْ كانَ قَدْ قالَ في لُزُومِهِ:

غَدَوْتَ مَرِيْضَ الدِّيْنِ والعَقْلِ فالْقَنِي ... لِتَعْلَمَ أَنْباءَ الأُمُورِ الصَّحَائِحِ

([1]) مجلة الجمعيّة الملكية الآسيوية، ١٩٠٢، ص٢٩٢ وما بَعْدها.

فَإِنَّهُ لَزِمَهُ أنْ يُعَلِّمَ رَجُلاً جاهِلاً كَأَبِي نَصْرٍ الذِي كانَ يَتُوقُ لِلمَعْرِفَةِ وَيَحْتاجُ التَّوْجِيْهَ والإِصْلاحَ. وقَدْ بَلَغَ أبو نَصْرٍ مِن الخُبْثِ والشَّرِّ ما جَعَلَهُ يُطارِدُ أبا العلاء ويُلاحِقُهُ حَتَّى اضْطَرَّهُ إلى الاسْتِسْلامِ فادَّعَى لَهُ أنَّ إمْساكَهُ عَنْ أكْلِ اللَّحْمِ إنَّما كانَ بِسَبَبِ فَقْرِهِ وضَعْفِ بِنْيَتِهِ الجِسْمِيَّةِ، مُسْتَخْدِماً بِذَلِكَ آخِرَ طُرُقِهِ فِي التَّقِيَّةِ. ومِنْ حُسْنِ حَظِّ أبي العلاءِ أنَّهُ تُوُفِّيَ قَبْلَ أنْ تَنْتَهِيَ هَذِهِ المكَاتَبَةُ أوِ المرَاسَلَةُ بَيْنَهُما إلى قَرارٍ. أمْ هَلْ يُمْكِنُ الاعْتِقادُ بِأَنَّهُ قَد سَمَّمَ نَفْسَهُ إذْ كانَ أدْرَكَ أنَّ أبا نَصْرٍ سَيَحْمِلُهُ عَلَى تَرْكِ مَنْهَجِ حَياتِهِ والتَّبَرُّءِ مِنْ كُلِّ قَناعاتِهِ العَقْلِيَّةِ السَّابِقَةِ تَحْتَ التَّهْدِيْدِ بِالقَتْلِ؟[1]. ولا رَيْبَ أنَّ هَذِهِ القِصَّةَ مَحْضُ خَيالٍ واخْتِلاقٍ. ومِنَ المحْتَمَلِ أنْ يَكُونَ وَضَعَها أحَدُ غُلاةِ الاسْماعِيْلِيَّةِ يَسْتَدْرِكُ بِهَا إخْفاقَ جَماعَتِهِ فِي مَكائِدِها الخَبِيْثَةِ ضِدَّ أبي العلاءِ.

٢. التَّطَيُّرُ والعاداتُ والسِّحْرُ والتَّنْجِيْمُ:

كانَ أبو العلاء خَبِيْراً بِعقائِدِ العَرَبِ فِي الشَّياطِيْنِ وعارِفاً بالخُرافاتِ والمعْتَقَداتِ الشَّعْبِيَّةِ التي تَسُوْدُ بَيْنَ أَبْناءِ عَصْرِهِ. كما يَبْدُو أنَّهُ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى الكَثِيْرِ مِنْ عاداتِ الأجْناسِ الأُخْرَى ومُمارساتِهِمْ. فَنَحْنُ نَقْرأُ لَهُ فِي (لُزُومِهِ) حَمْدَهُ عادَةَ الانْتِسابِ إلى جِهَةِ الأُمِّ، وهِيَ عادَةٌ كانَتْ تُمارِسُها بَعْضُ القَبائِلِ فِي آسيا الصُّغْرَى[2].

---

[1] تَعْرِيْفُ القُدَماءِ ص ١١٨، وإرْشادُ الأَرِيْبِ ج٥، ص١٩٤.

[2] يُرِيْدُ المؤَلِّفُ قَوْلَهُ :

إنَّما نَحْنُ فِي ضَلالٍ وتَغْلِيـ ـلٍ فإنْ كُنْتَ ذا يَقِيْنٍ فَهَاتِهْ

ولِحِبٍّ الصَّحِيْحِ آثَرَتِ الرُّو مُ انْتِسابَ الفَتَى إلى أُمَّهاتِهْ

جَهِلُوا مَنْ أَبُوهُ إلَّا ظُنُوناً وطَلَى الوَحْشِ لاحِقٌ بِمَهَاتِهْ

(المترجم).

ونَجِدُ في رِسالةِ الغُفْرَانِ اسْتِنْكاراً لِطُقُوْسِ (السَّتِي) الهِنْدِيَّةِ[1].

ومِنَ (اللُّزُومِيَّات) يُمْكِنُنا مَعْرِفةُ الكَثِيْرِ عَنْ دِيْنِ عامَّةِ النَّاسِ في عَصْرِ أبِي العلاء. فَيُخْبِرُنا الشَّاعِرُ مَثَلاً فِي إحْدَى قَصَائِدِهِ أنَّ العَوَام الجَهَلَةَ أوِ الطَّغَامَ فِي بَلادِهِ يَعْتَقِدُونَ في الجِنِّ اعْتِقَاداً راسِخاً وأنَّهُمْ يَخْشَوْنَهُمْ ويَرْهَبُوْنَهُمْ رَهْبَةً تَجْعَلُ الوَاحِدَ مِنهُمْ لا يَتَجَرَّأُ فَيَشْرَبَ الماءَ مِنْ أيِّ إناءٍ قَبْلَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ[2] عِنْدَهُ لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الجِنِّ الذِي يَسْكُنُ الماءَ:

وسَمَّى إنْ أرَاقَ الماءَ جِبْسٌ   يُرَاقِبُ جِنَّةً ألَّا يُسَمِّي

وفِي قَصِيْدَةٍ أُخْرى يَصِفُ لَنا السَّوَاحِرَ اللَّائِي يَبْدُو أنَّهُنَّ كُنَّ في عَصْرِهِ مُنْتَشِراتٍ كَثِيْرَاتٍ؛ إذْ يَصِفُ أنَّهُنَّ يَزْعُمْنَ مَعْرِفَةَ كُنُوزِ المُلُوكِ المخَبَّأةِ في أمَاكِنَ خَرِبَةٍ، ويَفْتَخِرْنَ بِأنَّهُنَّ يَمْلِكْنَ القُوَّةَ عَلَى تَهْيِيْجِ مَنْ تَطُوْلُ غَيْبَتُهُ عَنْ ذَوِيْهِ حَتَّى يَعُوْدَ إلَيْهِمْ، وأنَّهُنَّ قادِراتٌ عَلَى جَعْلَ الزَّوجِ الذي يَمَلُّ زَوْجَتَهُ ويُجافِيْها يَرْجِعُ فَيُحِبُّها حُبّاً باقِياً أوْ يَوَدُّها وقَدْ تَرَكَ مِلالَهُ، ويَرَى أبو العلاء أنَّ مِثْلَ هَؤُلاءِ السَّوَاحِرِ الماكِرَاتِ يَجِبُ عَزْلُهُنَّ عَنْ حَرِيْمِ الرَّجُلِ:

وأَبعِدْهُنَّ مِنْ رَبَّاتِ مَكْرٍ   سَوَاحِرَ يَعْتَدِيْنَ مُعَزِّماتِ

يَقُلْنَ نُهَيِّجُ الغُيَّابَ حَتَّى   يَجِيْئُوا بِالرِّكابِ مُزَمَّماتِ

ونُعْطِفُ هاجِرَ الخِلَّانِ كَيْما   يَزُوْلُ عَنِ السَّجايا المسْئِماتِ

---

[1] رِسالَةُ الغُفْرَانِ ص١٥٣–١٥٤. والسَّتِي (Sutti) مُمَارَسَةٌ هِنْدُوسِيَّةٌ تَقْلِيدِيَّةٌ تُمارِسُها المرْأةُ الأرْمَلَةُ التي تُوُفِّيَ عَنها زَوْجُها فتَتَقَدَّمُ عَلَى تَقْدِيْمِ نَفْسِها قُرْباناً لِأجْلِ رُوْحِ زَوْجِها الميِّتِ فَتَحْتَرِقَ مَعَ جُثَّةِ زَوْجِها في مَرَاسِمِ حَرْقِها (Cremation). ويَصِفُونَ مَنْ تَأْتِي هَذِهِ العادَةَ بِالعِفَّةِ وطَهَارَةِ الذَّيْلِ. غَيْرَ أنَّ المرْأةَ لا تُجْبَرُ عَلَى إتْيانِها؛ وعُمُوماً تَقِلُّ مُمَارَسَةُ هَذِهِ العادَةِ. (المترجم).

[2] لَمْ يُسَمِّ أبو العلاء مَنْ يَذْكُرُ اسْمَ اللهِ عِنْدَ شُرْبِهِ جاهِلاً لِأنَّهُ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ وحَسْبُ، ولَكِنْ لِأنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ طاعَةً وقُرْبَى بَلْ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ اعْتِقادُهُ فِي الجِنِّ وخَوْفُهُ أذَى مَنْ يَسْكُنُ الماءَ مِنهُمْ (المترجم).

وقَدْ صارَ الإسلامُ عِنْدَ عامَّةِ الناس يومَئِذٍ إلى نَوْعٍ مِنَ التَّوَثُّنِ الرُّوْحِي قَدْ تَمَلَّكَ أنْفُسَ أَتْبَاعِهِ الخَوْفُ مِنَ الأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ وصارُوا يَعْتمِدُونَ لإنْقَاذِ أَرْوَاحِهِمْ عَلَى عِبادَةِ الصَّالِحِيْنَ وإتْيَانِ السَّحَرَةِ. وقَدْ كانَ أبو العلاء، وهُوَ في رُكْنِ عُزْلَتِهِ، يَرْقُبُ هَذا المشْهَدَ باسْتِيَاءٍ شَدِيْدٍ ويَشْمَئِزُّ مِنهُ اشْمِئْزَازاً؛ ويُهاجِمُ المتَرَفِّضِيْنَ المغالِيْنَ ذَوِي الضَّمائِرِ الميِّتَةِ والمشَعْوِذِيْنَ المدَّعِيْنَ المهْدِيَّةَ والمتَنَبِّئِيْنَ والمتَأَلِّهِيْنَ الذِيْنَ كانُوا يَسْتَغِلُّوْنَ سَذاجَةَ عامَّةِ النَّاسِ وغَرارَتَهُمْ ويُوسِرُونَ مُتَّخِذِيْنَ مِنْ جَهْلِهِمْ وغَبائِهِمْ طَرِيْقاً لَهُمْ مَهْيَعاً نَحْوَ الإثْرَاءِ والغِنَى[1]. فَنراهُ يُوَجِّهُ أَشَدَّ طَعْنِهِ وأَلْذَعَ تَشْنِيْعِهِ لِلْمُتَكَسِّبِيْنَ بِالدِّيْنِ والمنَجِّمِيْنَ؛ فَيَقُوْلُ أبو العلاء في ذلِكَ:

فُقِدتْ فِي أيَّامِكَ العُلَمَاءُ ... واذْلَهَمَّتْ عَلَيْهِمُ الظَّلْمَاءُ

وتَغَشَّى دَهماءَنا الغَيَّ لَمَّا ... عَطِلَتْ مِنْ وُضُوحِها الدَّهْمَاءُ

لِلْمَلِيْكِ المذَكَّرَاتُ عَبِيْدٌ ... وكَذَاكَ المؤَنَّثاتُ إمَاءُ

فالهِلالُ المنِيْفُ والبَدْرُ والفَرْ ... قَدُ والصُّبْحُ والثَّرَى والماءُ

والثُّرَيَّا والشَّمْسُ والنَّارُ والنَّثْ ... رَةُ والأَرْضُ والضُّحَى والسَّمَاءُ

هذِهِ كُلُّها لِرَبِّكَ ما عا ... بَكَ فِي قَوْلِ ذَلِكَ الحُكَمَاءُ

خَلِّنِي يا أُخَيُّ أَسْتَغْفِرُ اللهَ ... فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إلَّا الذَّمَاءُ

ويُقالُ الكِرَامُ قَوْلاً وما فِي الْـ ... عَصْرِ إلَّا الشُّخُوصُ والأسْمَاءُ

وأَحادِيثُ حَبَّرَتْها غُوَاةٌ ... وافْتَرَتْها لِلمَكْسَبِ القُدَماءُ

ويَقُولُ أيضاً:

أصْبحْتُ مَنْحُوساً كأنِّي ابْنُ مَسْـ ... ـعُودٍ وما أطْغَى بِأَنْ أَهْزِلا

لِي أَمَلٌ فُرْقانُهُ مُحْكَمٌ ... أَقْرَؤُهُ غَضّاً كَما أُنْزِلا

---

[1] رِسالَةُ الغُفْرانِ ص ١٣٤ – ١٧٥.

شَيْخاً أَرَانِي كَطُفَيْلٍ غَدَا يَرْكُضُ في غَارَاتِهِ قُرْزُلا

لا يكْذِبِ النَّاسُ عَلَى رَبِّهِمْ ما حُرِّكَ العَرْشُ ولا زُلْزِلا

فَلَيْتَ مَنْ يَفْرِي أَحَادِيْثَهُ ماتَ فَصِيْلاً قَبْلَ أَنْ يَبْزُلا[1]

فَأَمَّا المتَكَسِّبونَ بِالدِّيْنِ فَلِأَنَّهُم يُجِيْدُونَ اسْتِخْدَامَ الدِّيْنِ سِلاحاً فِي النَّاسِ البُسَطَاءِ، يُحَقِّقُونَ بِهِ مَصَالِحَهُمُ الدَّنِيَّةَ، وأَمَّا المنَجِّمُونَ فَلِأَنَّهُمْ يَتَظاهَرُونَ لِلنَّاسِ فِي مَظْهَرِ العُلَماءِ العُقَلاءِ والسَّحَرَةِ العُظَماءِ. ولَمْ يَكُنْ لِعامَّةِ النَّاسِ الذِيْنَ يَغْلُبُ عَلَيْهِمِ الجَهْلُ أَمَامَ هاتَيْنِ الفِئَتَيْنِ المتَطَفِّلَتَيْنِ عَلَى المجْتَمَعِ مِنْ حِيْلَةٍ ولا مَدْفَعٍ. ولِذَا فَقَدْ كانَ شاعِرُنا يَرَى فِيهِما أَلَدَّ أَعْدَاءِ الإِنْسانِيَّةِ.

أبو العلاء والتَّنْجِيْمُ:

لَو قُدِّرَ لَأَبِي العلاء أَنْ يَعُودَ لِهَذِهِ الحَياةِ الدُّنيا ثانِيَةً لَهَالَهُ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ بَعْضَ مَنْ تَناوَلُوا سِيْرَتَهُ وحَيَاتَهِ – ومِنهُمْ مَنْ كانَ مِنْ أَشَدِّ المتَعَصِّبِيْنَ لَهُ كالمكِّيِّ ويُوْسُفَ البَدِيْعِيِّ– قَدِ ادَّعَوْا لَهُ قُوَّةَ إجْراءِ المعْجِزاتِ مِنْ طَرِيْقِ التَّنْجِيْمِ[2]. لَقَدْ كانَ أبو العلاء إِبَّانَ حَياتِهِ شَخْصِيَّةً أَعْظَمَ قَدْراً وأَوْسَعَ ذِكْراً مِنْ حُدُودِ مَدِينَتِهِ الصَّغِيرةِ، بَلْ قَدْ كانَتْ فَوْقَ أَنْ تَسَعَها مَنْطِقَةُ العَوَاصِمِ بِأَسْرِها. ولِذَلِكَ يَبْدُو أَنْ قَدْ صارَ بَعْدَ مَوْتِهِ شَخْصِيَّةً أُسْطُوْرِيَّةً تُنْسَجُ حَوْلَها الحِكاياتُ الغَرَائِبُ والمبالَغَاتُ العَجائِبُ فِي مُتَعارَفاتِ تِلْكَ الأَنْحاءِ الرِّيْفِيَّةِ.

([1]) يُنْكِرُ أبو العلاء فِي هَذِهِ الأَبْياتِ رِوَايَةَ القَوْلِ فِي كُتُبِ السِّيْرَةِ بِأَنَّ عَرْشَ الرحمنِ قَدِ اهْتَزَّ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ، سَيِّدِ الأَوْسِ وكانَ طُعِنَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ، ويَرى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَذِبِ النَّاسِ عَلَى رَبِّهِمْ. ومِنَ البَيْتِ الأَخِيْرِ مِنَ الأبياتِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ، ومِنْ هَذِهِ الأبياتِ تَشْعُرُ كَأَنَّ أبا العلاءِ لا يَثِقُ فِي الأَحادِيْثِ المرْوِيَّةِ لا سِيَّما إذا تَأَمَّلْتَ البَيْتَ الثانِي مِنْ هَذِهِ الأَبْياتِ وإشارَتِهِ إلى القُرْءانِ وكَوْنِهِ مُحْكَماً يَقْرَؤُهُ غَضاً كَما أُنْزِلَ؛ فكَأَنَّهُ بِإِتْيانِهِ بِصِفَةِ الإِحْكامِ لِلقُرْءانِ يَتَّهِمُ رِوَايَةَ الحَدِيْثِ أَوْ لا يَثِقُ فِي رُوَاتِهِ إِذْ لَمْ يَتَعَرَّضِ القرءان لِمَا تَعَرَّضَ لَهُ الحدِيْثُ مِنْ تَدْلِيْسِ الرُّواةِ أَوْ فَرْيِهِمْ كما يَقُولُ؛ وقد مَرَّ فِي حَدِيْثِهِ عَنْ مُدَوَّناتِ اليَهُودِ مِنَ الفَصْلِ السَّابِقِ ما يُشْعِرُ بِهَذا، واللهُ أَعْلَمُ). (المترجم).

([2]) تَعْرِيفُ القُدَماء ص ٣٥٦–٣٥٨ وأَوْجُ التَّحَرِّي ص ٣٤.

وَلَقَدْ تَوَّجَتْ عَقْلِيَّةُ قَوْمِهِ القائِمَةُ عَلَى الخُرافَةِ والجَهْلِ –وشَدَّ ما كانَ أبْغَضَها واشْمَأَزَّ مِنها– ذاكِرَتَهُ بِأَكالِيلِ الأُسْطُورَةِ والخَيالِ. فَقَدْ جاءَ في كِتابٍ مَنْحُولٍ نُسِبَ إلَى الغَزالِيِّ الصُّوفِيِّ المعْرُوفِ قِصَّةٌ تُحْكَى عَلَى لِسانِ الغَزالِيِّ عَلَى هَذا النَّحْوِ:

(حَدَّثني يُوسُفُ بْنُ عَلِيٍّ بِأَرْضِ هَرْكارٍ، قالَ: دَخَلْتُ مَعَرَّةَ النُّعْمانِ عَقِبَ عِلْمِ مَحْمودِ بْنِ صالِحِ الحَلَبِيِّ مِنْ وَزِيرِهِ أنَّ المعَرِّيَّ زِنديقٌ يَقُولُ بِعَدَمِ إتْلافِ الصُّوَرِ وتَحْطِيمِها[1] ويَنْصَحُ بِأَنَّ صَفاءَ العَقْلِ يُفْضِي إلى النُّبُوَّةِ. وقَد أصْدَرَ مَحْمُودٌ أوامِرَهُ بِإشْخاصِ أبِي العلاءِ مِنَ المعَرَّةِ إلى حَلَبٍ وأرْسَلَ في طَلَبِهِ خَمْسِيْنَ مِنْ رِجالِهِ. فَأَرْسَلَ بِهِمْ أبو العلاء إلى غُرْفَةِ الضِّيافةِ. ثُمَّ جاءَهُ عَمُّهُ مُسْلِمُ بْنُ سُلَيْمانَ وقالَ لَهُ: (يا ابْنَ أخِي! لَقَدْ حَلَّ بِنا هَذا البَلاءُ، فالملِكُ يَطْلُبُكَ ونَحْنُ لا نَقْوَى عَلَى حِمايَتِكَ والدَّفْعِ عَنْكَ، ولَوْ أنَّنا أسْلَمْناكَ لَلِحِقَ بِتَنوخَ عارٌ عَظِيْمٌ)؛ فَقَالَ لَهُ أبو العلاء: (لا تُرَعْ أيْ عَمِّ، فَلَنْ يَحِلَّ بِنا ما تَكْرَهُ فإنَّ لِي رَبّاً يُدافِعُ عَنِّي). ثُمَّ نَهَضَ واغْتَسَلَ وقالَ لِخادِمِهِ: (جِدْ لِي أيْنَ يَكُونُ المِرِّيْخُ) فَقالَ الخادِمُ: في دارَتِهِ؛ فَقَالَ أبو العلاء: (انْظُرْ لِي أيْنَ مَوْقِعُهُ مِنَ السَّماءِ، ودُقَّ وَتِداً في الأَرْضِ بِمُحاذاتِهِ، ثُمَّ شُدَّ قَدَمِي إلَيْهِ بِخَيْطٍ). فَفَعَلَ الخادِمَ ما أَمَرَهُ بِهِ. وسَمِعْناهُ يَقُولُ: (يا باقِي يا مُسَبِّبَ الأَسبابِ، وعِلَّةَ العِلَلِ، يا خالِقَ الخَلْقِ أنا فِي مَلَكُوتِكَ العَظِيْمِ الذِي لا يُرامُ وفِي ذَراكَ الذِي لا يُضامُ؛ الأَضْيافَ! الأَضْيافَ! الوَزِيْرَ! الوَزِيْرَ!)؛ ثُمَّ جَعَلَ يَفُوْهُ بِكَلِماتٍ لَمْ نَفْهَمْها. وفَجْأَةً سَمِعْنا جَلَبَةً عَظِيْمَةً، فَسَأَلَ عَنْها فَقِيْلَ لَهُ إنَّ البَيْتَ قَدْ خَرَّ عَلَى الأَضْيافِ، فماتَ الفِرْسَانُ الخَمْسُونَ. وفِي الصَّباحِ جاءَ طائِرٌ يَحْمِلُ رِسالَةً مِنْ

[1] أيْ أنَّ كُلَّ أشكالِ التَّقْطِيعِ والبَتْرِ، بِمَا في ذَلِكَ ذَبْحُ الحَيَوَاناتِ، فُسُوقٌ وإثْمٌ، وذَلِكَ ما كانَ يَرَاهُ المانَوِيُّونَ؛ ويَراهُ قُدَامَى المسْلِمِيْنَ كُفْراً.

حَلَبٍ أَلْقَى بِهَا عَلَى الأَرْضِ، فَإِذا فِيْها: (لا تَخْشَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، لَقَدْ جاءَ المَوْتُ الوَزِيْرَ)[1].

ولا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ مِنْ وَضعِ أَضْرَابِ الخُرَافَةِ والجَهْلِ مِن مَنْ كانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي العلاءِ، قَدِ اخْتَلَقُوها فِي وَقْتٍ مَّا بَعْدَ مَوْتِهِ، رُبَّما لِيُدْحَضُوا بِهَا القِصَّةَ التي وَضَعَها الإِسْماعِيْلِيَّةُ الزَّاعِمَةَ أَنَّ أبا العلاء قَتَلَ نَفْسَهُ أَوْ ماتَ مُنْتَحِراً اتِّقَاءً لِلأَذَى والعَنَتِ الذي كان يَنْتَظِرُهُ مِنهُمْ. ولَكِنَّها قِصَّةٌ لا تَخْلُو مِنْ مُتْعَةٍ لِأَنَّها تُصَوِّرُ لَنا كَيْفَ تَلْتَفُّ الأُسْطُورَةُ بِحَيَاةِ رَجُلٍ عَظِيْمٍ فِي مُجْتَمَعٍ صَغِيْرٍ، يُغَشِّيْها مِنْ خُرَافاتِهِ.

فَأَبو العلاء لَمْ يَكُنْ مُنَجِّماً، مَعَ ما تَرَى مِن مُصطلحاتِ المُنَجِّمِيْنَ والفَلَكِيِّيْنَ التي تَرِدُ فِي شِعْرِهِ. بَلْ لَقَدْ كانَ حُجَّةً ثِقَةً فِي الأَسْماءِ العَرَبِيَّةِ لِلْكَوَاكِبِ والنُّجُومِ ومَجْمُوعاتِها ونُعُوتِها التي أَطْلَقَها عَلَيْها قُدَامَى الشُّعَراءِ والأَعْرابِ أَهْلِ الفَصاحةِ والبَيَانِ. ومِثْلُ هذه المَعْرِفَةِ تَدْخُلُ حَقّاً فِي حَيِّزِ الفَلْسَفَةِ. ولا يُمْكِنُنا لِمُجَرَّدِ اسْتِخْدَامِ أَبِي العلاءِ لِلصُّوَرِ السَّماوِيَّةِ أَنْ نَجْعَلَ مِنهُ فَلَكِيّاً أَوْ نَظُنَّ أَنَّهُ شارَكَ أَغْلَبَ مُعاصِرِيْهِ فِي اعْتِقادِهِمْ فِي التَّنْجِيْمِ والمُنَجِّمِيْنَ. إِنَّ نَظَراتِ أَبِي العلاءِ إلى النُّجُومِ والتي نَجِدُها في (لُزُومِهِ) وفي دالِيَّتِهِ

---

[1] هذا هو الخَبَرُ كما تَرْجَمْتُهُ، وقد وَقَعْتُ على أَصْلِهِ فِي الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ تَرْجَمْتُهُ، فَلَمْ أُعَدِّلِ التَّرْجَمَةَ وَفْقَهُ، ولَكِنِّي أُوْرِدُهُ إِلَيْكَ بِلَفْظِهِ أَيُّها القارِئُ لِتُقارِنَ -إِنْ شِئْتَ- التَّرْجَمَةَ مَعَ الأَصْلِ. يَقُوْلُ الخَبَرُ (إِنَّ مَحْمُودَ بْنَ صالِحٍ صاحِبَ حَلَبٍ اتَّهَمَهُ – يَعْنِي المَعَرِّيَّ- بالزَّنْدَقَةِ فأَمَرَ بِحَمْلِهِ إِلَيْهِ مِنَ المعَرَّةِ، وبَعَثَ خَمْسِيْنَ فارِساً لِيَحْمِلُوهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَمُّهُ مُسْلِمُ بْنُ سُلَيْمانَ وقالَ: يابْنَ أَخِي، قَدْ نَزَلَتْ بِنا هَذِهِ الحادِثَةُ فإنْ مَنَعْنَاكَ عَجَزْنَا وإنْ أَسْلَمْناكَ كانَ عاراً عَلَيْنا عِنْدَ ذَوِيْ الذِّمامِ ويَرْكَبُ تَنُوخَ الذُّلُّ والعارُ. فَقَالَ أبو العَلاءِ: هَوِّنْ عَلَيْكَ يا عَمّ! ولابَأْسَ عَلَيْكَ، فَلِي سُلْطانٌ يَذُبُّ عَنِّي، ثُمَّ قامَ فاغْتَسَلَ وصَلَّى إلى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قالَ لِغُلامِهِ: انْظُرْ إِلَى المِرِّيْخِ أَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ فِي مَنْزِلَةِ كَذَا وكَذَا. فَقَالَ: زِنْهُ واضْرِبْ لِي تَحْتَهُ وَتِداً، وشُدَّ فِي رِجْلِي خَيْطاً وارْبِطْهُ إلى الوَتِدِ. فَفَعَلَ غَلامُهُ ذَلِكَ، وسَمِعُوْهُ وهُوَ يَقُولُ: يا قَدِيْمَ الأَزَلِ! يا عِلَّةَ العِلَلِ! يا صانِعَ المخلُوقاتِ ومُوْجِدَ المَوْجُوداتِ، أنا فِي عِزِّكَ الذي لا يُرَامُ وكَنَفِكَ الذِي لا يُضَامُ.. الضُّيُوفَ الضُّيُوفَ! الوَزِيْرَ الوَزِيْرَ. ثُمَّ ذَكَرَ كَلِماتٍ لا تُفْهَمُ. وإذا بِهَدَّةٍ عَظِيْمَةٍ، فَسَأَلَ أبو العلاء عَنها فَقِيْلَ: وَقَعَتِ الدَّارُ عَلَى الضُّيُوفِ الذِيْنَ كانُوا بِها فَقَتَلَتِ الخَمْسِيْنَ.. وعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَعَتْ بِطاقَةٌ مِنْ حَلَبٍ عَلَى جَناحِ طائِرٍ: لا تُزْعِجُوا الشَّيْخَ فَقَدْ وَقَعَ الحِمامُ عَلَى الوَزِيْرِ. ا.هـ) انظر كتاب (رجعة أبي العلاء) للأستاذ العَقّاد، ص ٤، نهضة مصر ٢٠٠٧ (المترجم).

الشُّهيْرَةِ في (سَقْطِ الزَّنْدِ) إنَّما جاءَ بِها مِمَّا عُرِفَ بِهِ مِنْ سَلامَةِ العَقْلِ وحُسْنِ التَّصَوُّرِ والتَّفْكِيْرِ المسْتَقِلِّ. بَعْضُهُنَّ كُنَّ شَدِيْدَاتِ العُمْقِ بَعِيْدَاتِ الغَوْرِ بِالنَّظَرِ إلى سِنِّهِ آنَ أنْشَأَهُنَّ، كاعْتِقادِهِ مَثَلاً أنَّ مَجْمُوعاتِ النُّجُومِ سَتَنْدَكُّ يَوْماً، وكَتَنَبُّئِهِ بأنَّهُ مَتَى ذَهَبَتْ عَنِ الشَّمْسِ وَقْدَتُها وخَبَتْ حُمْرَتُها فَسَيَنْتَهِي الكَوْنُ إلى حالَةٍ مِنْ الاخْتِلالِ والاخْتِلاطِ والاضْطِرَابِ:

يَجُوزُ أنْ تُطْفَأَ الشَّمْسُ التي وَقَدتْ ... مِنْ عَهْدِ عادٍ وأذْكَى نارَها الملَكُ
فإنْ خَبَتْ في طَوَالِ الدَّهْرِ حُمْرَتُها ... فلا مَحالَةَ مِنْ أنْ يُنْقَضَ الفَلَكُ

وقَدْ كانَ يَشُكُّ في أكْثَرِ ما كانَ يُقالُ في النُّجُومِ في زَمانِهِ وكانَ يَسْتَسْخِفُ أُوْلَئِكَ الذِيْنَ كانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الأَجْرَامَ السَّمَاوِيَّةَ تَمْتَلِكُ عَقْلاً وقُوَّةَ إرادَةٍ[1]؛ إذْ يُعَلِّقُ شاعِرُنا عَلَى ذَلِكَ قائِلاً: (لَوْ كانَ هذا صَحِيْحاً، لَكانَ مِنَ المرَجَّحِ جِدّاً أنْ تَكُونَ بَيْنَها أَوَاصِرُ وصِلاتٌ ورَوَابِطُ زَوَاجٍ، ولَعَلَّ (سُهَيْلاً)، فَحْلَ النُّجُومِ، كان زَوْجاً لإحْدَى بَنَاتِ السِّمَاكِ وأنْ يَكُونَ قَدْ آتَى زَوْجتَهُ صَدَاقَها؛

وإنْ صَحَّ أنَّ النَّيِّراتِ مُحِسَّةٌ ... فَمَاذا نَكِرْتُمْ مِنْ وِدَادٍ ومِنْ صِهْرِ
لَعَلَّ سُهَيلاً وهْوَ فَحْلُ كَوَاكِبٍ ... تَزَوَّجَ بِنْتاً لِلسِّمَاكِ عَلَى مَهْرِ[2]

ومَعَ ذَلِكَ فَهُناكَ مُلاحَظَةٌ واحِدَةٌ في رِسالَةِ الغُفْرَانِ يُمْكِنُ أنْ تُشْعِرَ بِأَنَّ أبا العلاء كانَ يُؤْمِنُ بِالتَّنجِيْمِ والمنَجِّمِيْنَ وهِيَ قَوْلَهُ (وأمَّا النُّجُومُ فلا تُعْطِي إلَّا إشْعاراً باهِتاً بِمَا يَكُونُ فِي المسْتَقْبَلِ ولَكِنْ لا يُمْكِنُ التَّنبُّوءُ بِشَيْءٍ يَقِيْنٍ مِنْ طَرِيْقِها)[3]. ولَكِنْ يَبْدُو أنَّ ابْنَ

---

(1) (انْظُرْ دِيوانَ المتنبِّي ص٢٩٨).
(2) اللُّزُومُ ج١ ص٣٧٢. والسِّماكُ إمَّا الأعْزَلُ (Sepia Virgins) أوِ الرَّامِحُ (Areturus)؛ وسُهَيْلٌ هُوَ (Canopus)؛ انْظُرْ مُعْجَم لَيْنْ ص١٤٣٠و ص١٤٥٤.
(3) رِسالَةُ الغُفْرَانِ ص١٤٩.

القارِحِ الذِي خاطَبَهُ أبو العلاء بِرِسَالَةِ غُفْرَانِهِ كانَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِي التَّنْجِيمِ والمنَجِّمِيْنَ. ولِذَا كانَ مِنَ الطَّبِيْعِيِّ أنْ يَتجنَّبَ أبو العلاء إغْضابَهُ أوِ الإسَاءَةَ إِلَيْهِ بِرَفْضِهِ التَّنْجِيْمَ رَفْضاً قاطِعاً؛ ولِذَلِكَ عَمَدَ إلَى كَلامٍ صَاغَ كَلِمَاتِهِ بِحَذَرٍ، قَدْ ذَكَرْناهُ لَكَ آنِفاً. ومِنَ المحْتَمَلِ أنَّ ابْنَ القارِحِ، كَكَثِيْرٍ مِنْ مُعاصِرِي شاعِرِنا، قَدْ كانَ استَنْتَجَ مِنْ وَلَعِ أبِي العلاءِ بِذِكْرِ النُّجُومِ فِي شِعْرِهِ فَظَنَّ أنَّ أبا العلاء كانَ مُنَجِّماً، فَحَاوَلَ أنْ يَسْتَنْصِحَهُ فِي ذلكَ؛ ولَعَلَّهُ كانَ سَيَعْلَمُ شَخْصِيَّةَ المعَرِّيِّ حَقّاً لَوْ قَدْ كانَ قَرَأَ شَيْئاً مِنْ طَعْنِهِ فِي المنَجِّمِيْنَ الذِي ضَمَّنَهُ (اللُّزُومِ) إذْ وَصَفَهُمْ ثَمَّ بِأَنَّهُمْ لُصُوصٌ خِساسٌ وأَوْباشٌ لُؤْمٍ وخُبْثٍ.

٣. أبو العلاء والأُمَراءُ:

لَمَّا سَمِعَ صالِحُ بْنُ مِرْدَاسٍ، أَمِيْرُ حَلَبٍ، أَبْياتَ أَبِي العلاءِ:

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْزِلِي بُرْهَةً سَتِيْرَ العُيُوْبِ فَقِيْدَ الحَسَدْ
فَلَمَّا مَضَى العُمْرُ إلَّا الأَقَلَّ وحُمَّ لِرُوْحِي فِرَاقُ الجَسَدْ
بُعِثْتُ شَفِيْعاً إلَى صالِحٍ وذَاكَ مِنَ القَوْمِ رَأْيٌ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ مِنِّيَ سَجْعَ الحَمَامِ وأَسْمَعُ مِنهُ زَئِيْرَ الأَسَدْ
فَلا يُعْجِبَنِّيَ هَذا النِّفَاقُ فَكَمْ نَفَّقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ

قالَ: (بَلْ كلامُهُ كانَ زَئِيْرَ الأَسَدِ، وكلامُنا كانَ سَجْعَ الحَمَامِ)[1]. وصالِحٌ هَذا نَفْسُهُ يُشِيْرُ إِلَيْهِ أبو العلاء فِي ذَاتِ (لُزُومِهِ) بِأَنَّهُ طاغِيَةٌ ظالِمٌ مُسْتهْتِرٌ سِكِّيْرٌ:

أَلِفْنا بِلادَ الشَّامِ إِلْفَ وِلادَةٍ نُلاقِي بِها سُوْدَ الخُطُوبِ وحُمْرَها
فَطَوْراً نُدَارِي مِنْ سُبَيْعَةَ لَيْثَها وحِيْناً نُصادِي مِنْ رَبِيْعةَ نِمْرَها
أَلَيْسَ تَمِيْمٌ غَيَّرَ الدَّهْرُ سَعْدَها؟ أَلَيْسَ زُبَيْدٌ أَهْلَكَ الدَّهْرُ عَمْرَها

---

(١) تَعْرِيْفُ القُدَماء، ص٥٦٨.

وَدِدْتُ بِأَنِّي في عَمَايَةَ فارِدٌ   تُعاشِرُنِي الأَرْوَى فَأَكْرِهُ قُمْرَها
أَفِرُّ مِنَ الطَّغْوَى إلى كُلِّ قَفْرَةٍ   أُؤَانِسُ طَغْياها وآلَفُ قُمْرَها
فإنِّي أرَى الآفاقَ دَانَتْ لِظالِمٍ   يُعِزُّ بَغَاياها ويَشْرَبُ خَمْرَها

وأَمَّا الأَعْرابِيَّانِ الآخَرانِ اللَّذانِ كانَا قَدِ اغْتَصَبَا كُلّاً مِنْ دِمَشْقَ والرَّمْلَةِ فَيَنْعَتُهُما أبو العلاء كِلاهُما بِازْدِراءٍ واحْتِقَارٍ بِأَوْصَافِ اللُّصُوصِيَّةِ والبَرْبَرِيَّةِ والنَّهْبِ والسَّلْبِ[1] :

أرَى حَلَباً حازَها صالِحٌ   وجَالَ سِنانٌ عَلَى جِلِّقا
وحَسَّانُ في سَلَفَيْ طَيِّءٍ   يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أَبْلَقا
فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلُهُمْ بِالغُبارِ   ثَغَاماً على جَيْشِهِمْ عُلِّقا
رَمَتْ جامِعَ الرَّمْلَةِ المسْتَضَامَ   فَأَصْبَحَ بِالدَّمِ قَدْ خُلِّقا
وما يَنْفَعُ الكاعِبَ المسْتَبا   ةَ هامٌ عَلى عَضِبٍ فُلِّقا
وطُلَّ قَتِيلٌ فَلَمْ يُدَّكَرْ   وغُلَّ أَسِيْرٌ فَمَا أُطْلِقا
وكَمْ تَرَكَتْ آهِلاً وَحْدَهُ   وكَمْ غادَرَتْ مُثْرِياً مُمْلِقا
يُسَائِلُ في الحَيِّ عَنْ مَالِهِ   وما القَوْلُ في طائِرٍ حَلَّقا
ولَمْ يَكُ دَهْرُهُمُ شَاعِراً   ولَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُغْلِقا
إذا كانَ هَذا فَعَالُ الزَّمَانِ   فإنَّ بِهِ كامِناً أَوْلَقا
فَلَيْتَ السِّماكَيْنِ لَمْ يَطْلُعا   ولَيْتَ المنِيْرَيْنِ لَمْ يُخْلَقا[2]

وقَدْ لامَ أبو العلاء الملِكَ المِصْرِيَّ عَلَى سَماحِهِ لِهَؤُلاءِ الزُّعَماءِ الأَعْرابِ لِلْوُصُولِ إلى الشَّامِ، وعَدَمِ اعْتِراضِهِ طَرِيْقَهُمْ. فَأَبُو العلاءِ الرِّيْفِيُّ كانَ يُحِبُّ بِهَذا الطَّبْعِ الرِّيْفِيِّ الأَمْنَ

---

(١) يُشِيْرُ المؤلِّفُ بالمغتَصِبَيْنِ إلى كُلٍّ مِنْ حسَّانِ بْنِ مُفَرِّجِ الطَّائِيِّ الذي اغْتَصَبَ السُّلْطَةَ في دِمَشْق (جِلَّق) وسِنانِ بْنِ عُلَيَّانِ الكَلْبِيِّ مُغْتَصِبِ الرَّمْلَةِ، كما هُوَ في هَذِهِ الأَبْياتِ، رَاجِعْ أوائِلَ الفَصْلِ الأَوَّلِ مِنْ هَذا الكِتابِ)، (المترجم).

(٢) اللُّزُوم ج٢، ص١٣٣ – ١٣٤؛ وانْظُرْ كَذَلِكَ ص ٧ – ٨، و٤٩).

والسِّلْمَ والطُّمَأْنِيْنَةَ، وقَدْ أحْفَظَهُ وساءَهُ ما ارتُكِبَ مِنَ الفَظائِعِ والأَعْمالِ الوَحْشِيَّةِ والمرَارَاتِ في كُلِّ مِنَ الرَّمْلَةِ ودِمَشْقَ وحَلَبٍ. ويَقُوْل: (إنَّ الفاطِمِيِّيْنَ [في مِصْرَ] كانُوا مُنْشَغِلِيْنَ بِالطِّيْبِ والعُطُورِ عَنْ حَمْلِ هَمِّ رَعِيَّتِهِمْ في الشَّامِ)[1]:

والرَّمْلَةُ البَيْضاءُ غُوْدِرَ أَهْلُها ... بَعْدَ الرَّفاغَةِ يأْكُلونَ قَفارَها

والعُرْبُ حالَفَتِ الحَضارَةَ وانْتَفَتْ ... سُكْنَى الفَلاةِ ورَغْلَها وصَفارَها

كانَتْ إماؤُهُمُ زَوَافِرَ مَوْرِدٍ ... فالآنَ أثْقَلَ نَضْرُها أَزْفارَها

أَهِلَتْ بِها الأَمْصارُ فَهِيَ ضَوَارِبٌ ... عُمُدَ المَمالِكِ لا تُرِيْدُ قِفارَها

لَمْ يَبْقَ إلَّا أنْ تَؤُمَّ جِيادَهُمْ ... رُمْحاً لِتَقْطَعَ رَمْلَها وجِفارَها

عَتَرُوا الفَوارِسَ بالصَّوَارِمِ والقَنا ... والمُلْكُ في مِصْرٍ يُعَتِّرُ فارَها

جَعَلُوا الشِّفارَ هَوَادِياً لِتَنُوفةٍ ... مَرْهاءَ تَكْحُلُ بِالدُّجَى أَشْفَارَها

تَكْبُو زِنادَ القادِحِيْنَ وعامِرٍ ... بالشَّام تَقْدَحُ مَرْخَها وعَفارَها[2]

وقَدْ أَرادَ بِهذا التَّعْلِيْقِ الشائِنِ (سِتَّ المُلْكِ) أُخْتَ الحاكِمِ التِي أَقَرَّتْ نَفْسَها حاكِماً فِعْلِيّاً عَلَى مِصْرَ بَعْدَ أنْ مالأَتِ القَوْمَ عَلَى قَتْلِ أخِيْها وذَلِكَ خِلالَ الفَتْرَةِ التي كانَ ابْنُ أَخِيْها الظاهِرُ قاصِراً. ويُشِيْرُ إِلَيْها أبو العلاء في إحْدَى قصائِدِهِ عَلَى أَنَّها فَتَاةٌ مُغْتَلِمَةٌ مُنْغَمِسَةٌ في شَهَوَاتِها :

([1]) (الكامِلُ لابْنِ الأثير، ج٩، ص ٢٢٢ – ٢٢٣).

([2]) الرَّمْلَةُ مِنْ مُدُنِ فِلِسْطِيْنَ بِالشَّامِ؛ أيْ عِيْثَ في الرَّمْلَةِ فساداً وخُرِّبَتْ وتَبَدَّلَ حالُ أَهْلِها فصارَ نَعِيمُهُمْ شَقاءً، فالرَّفاغةُ رَغَدُ العَيْشِ والقَفارُ ما يُؤكَلُ بِلا إدامٍ؛ ودَخَلَ الأَعْرَابُ الجُفاةُ سُكّانُ البادِيَةِ المدُنَ وتَرَكَتْ إماؤُهُمْ حَمْلَ قِرَبِ الماءِ إلى التَحَلِّي بالذَّهَبِ النُّضارِ. لَقَدْ ذَبَحُوا الفَوَارِسَ بِالسُّيُوفِ والقنا، عَلَى حِيْنِ كانَ المِلِكُ في مِصْرَ مَشْغُولاً بِفَتْحِ خَزَائِنِ الطِّيْبِ أو الفارِ، جَمْعِ فَأْرَةٍ وهِيَ وِعاءُ الطِّيْبِ؛ وإنَّهُ ما مِنْ أحَدٍ حاوَلَ إشْعالَ فَتِيْلِ الحَرْبِ والفِتْنَةِ في كُلِّ مَكانٍ إلّا أُخْمِدَ زِنادُهُ، إلّا في الشّامِ فَقَبِيْلَةُ عامِرٍ تُشْعِلُ فِيها كُلَّ نارٍ؛ والمرْخُ والعَفَارُ ضَرْبانِ مِنَ الشَّجَرِ سَرِيْعا الاشْتِعالِ عِنْدَ الإيْقادِ. هذا والرَّغْلُ جَماعةُ الخَيْلِ، والصَّفارُ جَماعةُ الإبِلِ. (المترجم).

وهَلْ يُنْكِرُ العَقْلُ أنْ يَسْتبدَّ   بِالمُلْكِ غانيةٌ غَيْلَمُ

لَقَدْ كانَ كُلُّ الأُمَراءِ في البَلادِ الإسْلامِيَّةِ يَبْدُون لِأَبي العلاءِ كأنَّهُمْ أنْصارٌ لِإبْلِيْسَ وأعْوانٌ لَهُ يَظْهَرُونَ في مَظْهَرِ الحُكَّامِ لِتَعْذِيْبِ النَّاسِ وإذْلالِهِمْ:

وإنِّي أرى أنصارَ إبْلِيْسَ جَمَّةً   ولا مِثْلَ ما أوْفَى لَهُ الزَّرَجُونُ

وكَمِثْلِ الأُمَراءِ كانَ تُبَّاعُهُمْ مِنَ القُضاةِ والمستَشارِينَ والموَظَّفِيْنَ قَدْ بَلَغُوا مَبْلَغاً عَظِيْماً مِنَ الخِسَّةِ والخُبْثِ والفَسادِ، ولَقَدْ كانُوا كَذلِكَ عِنْدَهُ شَياطِيْنَ حَتَّى لَقَدْ سَمَّاهُمْ قُطَّاعَ طُرُقِ المدُنِ، مُدْخِلاً فِي زُمْرَتِهِمْ وفِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ التُّجَّارَ الذِيْنَ كانُوا يُثْرُونَ مِنَ المجاعاتِ المتَكَرِّرَةِ ويَغْتَنِمُونَها لِزِيادَةِ أَرْباحِهِمْ ويُصِيْبُونَ الزِّيادَةَ بِشَقَاءِ الفُقَراءِ وبُؤْسِهِمْ:

في البَدْوِ خُرَّابُ أذْوادٍ مُسَوَّمَةٍ   وفِي الجَوَامِعِ والأَسْوَاقِ خُرَّابُ

فَهَؤُلاءِ تَسَمَّوْا بِالعُدُولِ أوِ التُّجَّـ   ـارِ واسْمُ أَوْلاكَ القَوْمِ أعْرَابُ[1]

ويَقُولُ أبو العلاء أيْضاً:

قَطَعَ الطريْقَ بِمَهْمَهٍ ونَظِيْرُهُ   في المِصْرِ فِعْلُ مُنجِّمٍ ومُعَزِّمِ

تَتَوافَقُ الأَسْماءُ مِنَّا والكُنَى   مُتَبايناتٌ فانْهَ جَهْلاً واحْزِمِ

هَيْهاتَ ما الجَوْزاءُ تُرْزِمُ عِنْدَها   وَجْناءُ كالجَوْزاءِ ذاتِ المِرْزَمِ

وتَشابَهُ الأَخْلاقُ مِنْ مُتَباعِدِي   نَجْرٍ ولَيْسَ خُزَيْمَةٌ مِنْ أَخْزَمِ

وبِعَيْنِ سُلْوَانَ التي في قُدْسِها   طَعْمٌ يُوَهِّمُ أنَّها مِنْ زَمْزَمِ

---

[1] أيْ كما فِي البادِيَةِ لُصُوصٌ يَسرِقُونَ الإبِلَ وهِيَ أَعْظَمُ الأموالِ فِيها كَذَلِكَ يُوجَدُ لُصُوصٌ فِي المُدُنِ مساجِدِها وأَسْواقِها يَسْرِقُونَ أعْظَمَ الأَمْوالِ فِيها؛ فَلُصُوصُ البادِيَةِ يُسَمَّوْنَ خُرَّاباً، ولُصُوصُ الجَوَامِعِ عُدُولاً، ولُصُوصُ الأَسْوَاقِ تُجّاراً، وقَدْ مَرَّ هَذانِ البَيْتانِ (المتَرجِم).

ولَكِنَّ مِمَّا يَعْجَبُ لَهُ المرْءُ أنْ يَجِدَ أنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْتِقادِ أبِي العلاءِ الشَّنِيْعِ لِلْحُكَّامِ الذِيْنَ عاصَرَهُمْ إلَّا أنَّهُ لا يَزَالُ يَعْجَبُ لِماذا كانَ يُحاوِلُ بَعْضُهُم النَّيْلَ مِنهُ. فَنَحْنُ نَرَاهُ يَقُولُ بِشَيءٍ مِنَ البَرَاءَةِ:

كأنَّني كُلَّ حَوْلٍ مُحْدِثٌ حَدَثاً   يَرَى بِهِ مَنْ تَوَلَّى المِصْرَ إغْرَابِي

ومِنْ حُسْنِ حَظِّ أبِي العلاءِ أنَّهُ كانَ مُقِيْماً بِالمعَرَّةِ، بَعِيْداً عَنْ أنْ تَصِلَهُ أيْدِي طُغاةِ القاهِرَةِ وسَلاطِيْنِ بَغْدَادَ؛ وإلَّا لَكانَ صارَ إلى ذَاتِ المصِيْرِ الذي صارَ إلَيْهِ الحَسَنُ بْنُ بِشْرِ الدِّمَشقِيُّ الذي قَتَلَهُ وَزِيْرُ العَزِيْزِ بِأبْياتٍ قلائِلَ مُحَرِّضَةٍ، تُعَدُّ لَطِيْفَةً لا شِيْءَ فِيْها إذا ما قُوْرِنَتْ بِما جاءَ بِهِ أبو العلاءِ مِنَ الطَّعْنِ في هَؤُلاءِ الحُكَّامِ وتَشْنِيعِهِمْ[1].

---

(1) كامِلُ ابْنِ الأثِيرِ ج٩، ص٨٢.

القسم السادس

خاتِمَةٌ

فَضْلاً عَنْ آراءِ أبي العلاء في المرْأةِ وحَياةِ التَّزَهُّدِ، تَرُوعُنا كَثِيرٌ مِنْ آرائِهِ في الدِّيْنِ والعَدَالةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ومَسائِلِ الأَخْلاقِ وتَسْتَحْوِذُ عَلَيْنا لِقُرْبِها مِنَ الآراءِ التي يَحْمِلُها أهْلُ عَصْرِنا. وهَهُنا يُمْكِنُنا أنْ نَعُدَّ أبا العلاء المفَكِّرَ قَدْ كانَ سَبَقَ عَصْرَهُ سَبْقاً بَعِيْداً. ولَكِنَّهُ عَلَيْنا أنْ نَتذَكَّرَ أنَّ عَصْرَهُ كانَ في جُمْلَتِهِ مَوْسُوماً بِالتَّسامُحِ والتَّحَرُّرِ الفِكْرِيِّ في أَوْساطِ النُّخْبَةِ والمحافِلِ الصَّفَوِيَّةِ. فَقَدْ هالَ ابْنَ عَقِيْلٍ، الفَقِيْهَ الحَنْبَلِيَّ، وكانَ مُعاصِراً لِلْمَعَرِّيِّ، أنْ يَجِدَ أنَّ أهْلَ الهَرْطَقَةِ والزَّنْدَقَةِ في أيَّامِهِ ما عادُوا يُؤَاخَذُونَ. فَكَتَبَ مُنْكِراً تَساهُلَ أهْلِ عَصْرِهِ: (فَقَدْ أفْلَتُوا (يُشِيرُ إلى أبي العلاء والتَّوْحِيْدِيِّ والرَّاوَنْدِيِّ وغَيْرِهِمْ مِنْ أَرْبابِ الهَرْطَقَةِ) لِأَنَّ في إِيْمانِ أغْلَبِ الناسِ دَخَلاً؛ لا بَلْ انْطَوَتْ قُلُوْبُ النَّاسِ عَلَى شُكُوْكٍ عاصِفَةٍ يَكْتُمُونَها، إمَّا لِأَنَّ إِيْمانَهُمْ لَمْ يَذْهَبْ جَمِيْعاً بَعْدُ، وإمَّا لِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ اسْتِنْكارَ العامَّةِ؛ فَتَراهُمْ إذا أعْرَبَ لَهُمْ مُعْرِبٌ عَنْ شُكوكٍ مِثْلِ شُكُوكِهِمْ أَلْقَوْا إِلَيْهِ السَّمْعَ وأَقْبَلُوا عَلَيْهِ بِحِرْصٍ. فَأَيْنَ هَؤُلاءِ مِنَ المؤْمِنِ الحَقِّ الذي قَتَلَ أَباهُ[1]. فإنْ رُمْتَ دَليلاً آخَرَ على ما قُلْتُ، فانظُرْ كَيْفَ يَكْرَهُ الناسُ أنْ يُسْأَلُوا عَنْ مُعْتَقَداتِهِمْ ومُيُوْلِهِمْ وما يُحِبُّونَ مِنَ الأَشْيَاءِ، ولَكِنْ مَتَى نابَنا مِنْهُمْ قَوْلٌ كُفْرِيٌّ بالِغاً ما بَلَغَ عِظَمُهُ لَمْ يَتَحرَّكُوا أَدْنَى حَرَكَةٍ لِمُعاقَبَةِ قائِلِ هَذَا الكُفْرِ)[2].

فابْنُ عَقِيْلٍ يُعْطِيْنا في هَذِهِ النُّبْذَةِ مِنهُ وَصْفاً ناضِراً ناطِقاً لِمُيُولٍ هَرْطَقِيَّةٍ لِعَدَدٍ غَيْرِ قَلِيْلٍ مِنْ مُثَقَّفِي عَصْرِهِ. وإذَنْ فَلَنا أَنْ نَفْتَرِضَ باطْمِئْنانٍ أَنَّ مُحاضَراتِ أَهْلِ الفِكْرِ والثَّقافَةِ

---

(1) يُشِيرُ ابْنُ عَقِيلٍ هُنا إلى أَبِي عُبَيْدَةَ، انْظُرِ الكَشَّافَ ج٤ص٧٨؛ ولَكِنَّ ابْنَ سَعْدٍ لَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الوَاقِعَةَ في مَعْرِضِ تَرْجَمَتِهِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ، في طبقاتِهِ؛ انْظُرْ الطبقاتِ ج١ ص٢٩٧.

(2) تَعْرِيْفُ القُدَماءِ ص ٢٠– ٢١.

ومُباحثاتِهِمْ وأَحادِيْثِهُمْ، ومَجالِسَ العُلَماءِ والمثَقَّفِيْنَ الخاصَّةَ كانَتْ جَمِيْعُها تَشْهَدُ قَوْلَ أَشْيَاءٍ كَثِيْرَةٍ ما كانَ يُمْكِنُ أنْ تُقَالَ أوْ يُلْفَظَ بِها أَمَامَ العامَّةِ مِنَ النَّاسِ أوْ تَعْرِفَ سَبِيْلَها إلى الكِتَابةِ والتَّدْوِيْنِ خَشْيَةَ ما كانَ يَتَرتَّبُ عَلَيْها مِنْ عَوَاقِبَ. ولِذلِكَ نُقَدِّرُ ما يُقَدِّمُهُ لَنَا (اللُّزُومُ) مِنْ تَسْجِيْلٍ قَيِّمٍ وتَدْوِيْنٍ نَفِيْسٍ لِضُرُوبِ هَرْطَقَةِ عَصْرِهِ وزَنْدقَتِهِ ويعْكِسُ لَنا كَثِيراً مِنْ ما كانَ سادَ القَرْنَ الرَّابِعَ الهِجْرِيَّ مِنْ فِكْرٍ مُتَقَدِّمٍ جَنْباً إلى جَنْبٍ مَعَ نَفْسِ الشَّاعِرِ الجَرِيْئَةِ المتَمَرِّدَةِ المحَبَّبَةِ.

المُذَكِّرَةُ المُضَافةُ الأُوْلَى

ثَبَتٌ بِالكَلِماتِ والاسْتِخْدَاماتِ الَّتي وَرَدَتْ في (اللُّزُومِ) ولكنْ أَخْطَأَتْها مَعَاجِمُ (لِسانِ العَرَبِ) و(تاجِ العَرُوسِ) و(الأَساس) وغَيْرِها.

١. أَرْفِقَاءُ؛ جَمْعاً لِكَلِمةِ (رَفِيقٍ) بِمَعْنَى صاحِبٍ؛ جاءَتِ في بَيْتِ أبي العلاءِ:

لَقَدْ أَفْنَتْ عَزائِمَكَ الدَّياجِي　　وأَفْرَادُ الكَوَاكِبِ أَرْفِقَاءُ

أيْ لَقَدْ أَوْهَنَتْكَ اللَّيالِي بِمُرُورِها وأَوْهَتْ قُوَاكَ بِكَرِّها، عَلَى حِيْنِ مَا تَزَالُ الكَوَاكِبُ مُجْتَمِعةً. والجُمُوعُ التي وَرَدَتْ في المعاجِمِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ هِي[1]: (مُتَرَافِقُوْنَ) و(رُفَقَاءُ) و(رِفَاقٌ) و(أَرْفَاقٌ) و(رِفَقٌ) و(رُفَقٌ) و(رَفَقٌ) و(رِفْقَةٌ) و(رُفْقَةٌ) و(رُفَاقَةٌ).

٢. آرَا: وتَعْنِي: نَعَمْ؛ وبِحَسَبِ ما جاءَ في حَوَاشِي (اللُّزُومِ) وفي مُذَكِّراتٍ مُتَفَرِّقاتٍ مِنْ (رَسائِلِ أَبِي العَلاءِ) أنَّ كَلِمَةَ (آرَا) فارِسِيَّةٌ؛ وقَدْ جاءَتْ في بَيْتَيْنِ لِأَبِي العَلاءِ هُمَا:

مَتَى آدَاكِ خَيْرٌ فَافْعَلِيْهِ　　وقُوْلِي إنِ دَعَاكِ البِرُّ آرَا

أيْ مَتَى أَمْكَنَكِ أنْ تَصْنَعِي خَيْراً فَبَادِرِي إلى عَمَلِهِ، ومَتَى دَعَاكِ شَيْءٌ مِنَ البِرِّ إِلَيْهِ فَلَبِّي نِدَاءَهُ وقُوْلِي لَهُ: نَعَمْ. كما جاءَتْ في قَوْلِهِ:

إذَا قِيْلَ لَكَ اخْشَ اللهَ مَوْلاكَ　　فَقُلْ: آرَا

---

[1] لِسانُ العَرَبِ، ج ١١، ص ٤١٠. وتاجُ العَرُوسِ ج ٦، ص ٣٥٦-٣٥٧. ومُعْجَم (لَيْنْ)، ص ١١٢٥-١١٢٧

أيْ مَتَى يُقَلْ لَكَ اخْشَ اللهَ رَبَّكَ، فَأَطِعْ وقُلْ: نَعَمْ، أيْ لا تُكابِرْ ولا تَتَأَخَّرْ في ذَلِكَ.

٣. **بُقَّارَى**: وهِيَ لُعْبَةٌ يَلْعَبُها الأطْفَالُ إذْ يَصْنَعُونَ أكْوَاماً صَغِيْرَةً مِنَ الرَّمْلِ ويُخْفُونَ فِيْها شَيْئاً ثُمَّ يَبْدَؤُونَ فِي البَحْثِ عَنْهُ. جاءَتْ هذهِ الكَلِمَةُ في بَيْتِ أبي العلاء:

كأنَّ الأَنْجُمَ السَّبْعَ ةَ فِي لُعْبَةِ بُقَّارَى

أيْ كأنَّ الكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ سَبْعَةُ أكْوَامٍ فِي لُعْبَةِ البُقَّارَى. يَعْنِي أنَّها أَشْياءٌ عَدِيْمَةُ الحِسِّ فاقِدَةُ الشُّعُورِ، فَلا تَمْلِكُ أنْ تُؤَثِّرَ في أقْدارِ النَّاسِ ومَصَائِرِهِمْ كَمَا يَزْعُمُ المنَجِّمُونَ، فَهِيَ لَيْسَتْ فِي وَاقِعِ الأمْرِ إلَّا كَأَكْوَامِ التُّرَابِ التي يَلْعَبُ بِها الأطْفالُ. ولَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ (بُقَّارَى) في أيِّ مِنَ المعَاجِمِ التي ذَكَرْنا آنِفاً، ولَكِنْ وَرَدَ فِيْها: (بُقَّيْرَى؛ وبُقَّارٌ؛ وبَقَّارٌ) . وكُلُّ هَؤُلاءِ لَها ذَاتُ مَعْنَى اللُّعْبَةِ التي وَصَفْناهَا آنِفاً. غَيْرَ أَنَّهُ جاءَ في (الجَمْهَرَةِ) و(القَامُوْسِ و(التَّاج) أنَّ كَلِمَةَ بُقَّارَى تَعْنِي الكَذِبَ أوِ الدَّاهِيَةَ[١]؛ غَيْرَ أنَّ المعْنَى الثَّانِي هُنا لا يَكادُ يَتَّسِقُ مَعَ بَيْتِ أَبِي العَلاءِ.

٤. **عُنْظُبَةٌ**: أُنْثَى ضَرْبٍ مِنَ الجَرَادِ أصْفَرَ ضَخْمٍ؛ جاءَت هذه الكَلِمَةُ في البَيْتِ:

عَفْوَكَ لِلعالَمِ لا تُخْلِيَنْ حُنْظُبَةً مِنهُ ولا عُنْظُبَةْ

أيْ لِيَشْمَلْ عَفْوُكَ العَالَمَ بِأَسْرِهِ فَلا يُخْطِئُهُ مِنهُمْ أَحَدٌ ولو كانَ جَرَادَةً أو خُنْفُساءَ..

---

[١] اللِّسان ج ٥، ص ١٤٢. التَّاج ج ٣، ص ٥٥-٥٦. القامُوْس، ج ١، ص ٣٧٥. الجَمْهَرة ج ٣، ص ٤٥٢. مُعْجَم لَيْن، ص ١٠٠٢-١٠٠٧

وتَقُولُ المعَاجِمُ[1]: عُنْظُبٌ وعُنْظَبٌ وعُنْظَابٌ وعِنْظَابٌ وعُنْظُوبٌ وعُنْظُبَانٌ وعُنْظَبَانٌ؛ وكُلُّها مُتَرَادِفاتٌ تَعْنِي ذَكَرَ الجَرَادِ أو ذَكَرَ الجَرَادِ الأَصْفَرَ الضَّخْمَ. ويَزِيْدُ ابْنُ سِيْدَهْ [الأنْدَلُسِيُّ][2] كَلِمَةَ عُنْظَبَاءَ التي اسْتَشْهَدَ بِها لِسانُ العَرَبِ عَلَى أنَّها مُفْرَدٌ؛ والأُنْثَى مِنهُ (عُنْظُوبَةٌ) ولَيْسَ (عُنْظُبَةٌ) كما جاءَتْ في بَيْتِ أبي العَلاءِ. (وعِنْدَ ابْنِ سِيْدَهْ أنَّ الأُنْثَى (عُنْظُوَانَةٌ) و(عَيْسَاءُ))[3]. كما وَرَدَتْ (عُنْظُبَةٌ) بِمَعْنَى اسْمِ مَوْضِعٍ.

٥. حُنْظُبَةٌ: وهِيَ أُنْثَى الجُعَلِ، أو الخُنْفُسَاءُ. وجاءَ في مَعَاجِمِ اللِّسانِ والتَّاجِ والقَامُوْسِ أنَّ كُلّاً مِنْ: حُنْظُبٍ وحُنْظَبٍ وحُنْظُبَاءَ وحُنْظَبَاءَ وحُنْظُبَانٍ تُسْتَخْدَمُ لِلدَّلالَةِ عَلَى ذَكَرِ الجَرَادِ أوِ الجُعَلِ (وعِنْدَ ابْنِ سِيْدَهْ وابْنِ دُرَيْدٍ أنَّ (حَنْظَباً) هِيَ وَحْدَها التي تَعْنِي الجُعَلَ)[4]. ولَكِنَّ هَؤُلاءِ الثِّقَاتَ لا يَذْكُرُونَ المؤَنَّثَ مِنْ حَنْظَبٍ. ولَعلَّهُ لو كانَ صاحِبُ القامُوسِ يَعْلَمُ صِيْغَةَ المؤَنَّثِ (حُنْظَبَة) لَكانَ قالَ: (دهدبهاء)[5]. ويَذْكُرُ ابْنُ سِيْدَهْ (حُنْظُوب) عَلَى أَنَّها تُطْلَقُ عَلَى المرْأَةِ سَيِّئَةِ الطَّبْعِ[6]

٦. يُضَبَّبُ: مِنَ الفِعْلِ (ضَبَّبَ)، وهُوَ أنْ تُسِيْلَ ما هُوَ مَائِعٌ كَالماءِ والدَّمِ واللُّعَابِ. وقَدْ وَرَدَ الفِعْلُ (يُضَبَّبُ) في البَيْتِ:

---

[1] اللّسان ج ٢، ص ١٠١. التّاج ج ١، ص ٣٨٧-٣٨٨ . القامُوْس، ج ١، ص ١٠

[2] المخصَّص، ج ٨، ص ١٧٥.

[3] نفسه.

[4] نفسه

[5] اللسان ج ١، ص ٣٢٦. التاج ج١، ص ٢٠٨. والقاموس ج١، ص ٥٦

[6] المخصَّص ج ٤، ص ١٣

وأَخُوْهُ   يَكْرَهُ   نُغْبَةً   فِي الرَّفْدِ مِنْ ذَهَبٍ يُضَبَّبُ[1]

أَيْ ... عَلَى حِيْنِ يَكْرَهُ أَخُوْهُ الشُّرْبَ ولَوْ كانَ نُغْبَةً مِنْ قَدَحٍ كَبِيرٍ سائِلٍ. وقَدْ جاءَتْ هذِهِ الاسْتِعارةُ في بَيْتٍ لابْنِ المعْتَزِّ يَصِفُ فِيهِ شِرَاءَهُ الخَمْرَ إذْ يَقُولُ ما مَعْناهُ: (أَعْطَيْناها ذَهَباً صُلْباً فأَعْطَتْنا ذَهَباً سائِلاً). ويَذْكُرُ مُحقِّقُ (اللُّزُومِ) أنَّ كَلِمةَ (يُضَبَّبُ) رُبَّما عَنَتْ يُغَشَّى أو يُطْلَى بالذَّهَبِ، وعلى ذلكَ فَرُبَّما كانَ المعْنَى (مِنْ إناءٍ مَطْلِيٍّ بالذَّهَبِ) لَكِنَّ هذا يَجْعَلُ مِنْ بَيْتِ أبي العلاء بَيْتاً مُضْطَرِباً لا سَبِيْلَ إلى فَهْمِهِ؛ إذِ البَيْتُ السابِقُ لَهُ:

شَرِبَ   الفَتَى   مِنْ   قَهْوَةٍ   حَلَبِيَّةٍ   حَتَّى   تَحَبَّبْ

أيْ شَرِبَ الفَتَى مِنْ خَمْرٍ صُنِعَتْ في حَلَبٍ حتَّى ارْتَوَى. ثُمَّ يأْتِي بَعْدَهُ البَيْتُ الذي ذَكَرْناهُ

وأَخُوْهُ   يَكْرَهُ   نُغْبَةً   فِي الرَّفْدِ مِنْ ذَهَبٍ يُضَبَّبُ

ومِنَ الوَاضِحِ أنَّ كَلِمةَ (أَخُوهُ) هُنا تَعْنِي أبا العلاء نَفْسَهُ إذْ كانَ مِمَّنْ حَرَّمَ الخَمْرَ عَلَى نَفْسِهِ. عَلَى أنَّ (ضَبَّبَ) لَمْ تَرِدْ فِي المعاجِمِ[2]. ولَكِنْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ

---

[1] رِوَايةُ طَبْعةِ دارِ الكِتابِ العَرَبِيِّ بِبَيْروتَ لِلْكَلِمةِ (يُضَبَّبُ) هكذا : (تَضَبَّبْ) أي سالَ. فالصِّيغةُ الأُوْلَى فِعْلٌ لِما لَمْ يُسمَّ فاعِلُهُ والثانيةُ فِعْلٌ لازِمٌ بُنِيَ لِلمَعْلُومِ فاعِلُهُ الذَّهَبُ. وأَرَانِيَ مَيَّالاً لِطَبْعةِ دَارِ الكِتابِ العَرَبِيِّ، أوَّلاً لِأنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى رِوَايةِ الإمامِ التَّبْرِيزِيِّ، وهُوَ مِنْ أَجَلِّ تلامِيذِ أبي العلاء كَمَا ذَكَرَ المؤَلِّفُ في كِتابِهِ هذا، وثانِياً لأنَّ هذِهِ الصِّيْغَةَ تُشْبِهُ في بِنائِها صِيْغَةَ (تَحَبَّبْ) في البَيْتِ السَّابِقِ لِهَذا البَيْتِ؛ والتَّحَبُّبُ أوَّلُ الارْتِوَاءِ. (المتَرْجِم)

[2] بَلَى قَدْ وَرَدَ، فَقَدْ أَوْرَدَ الدُّكْتورُ وِلْيَمْ لَيْنْ (William Lane) في مُعْجَمِهِ الذي أَشارَ إِلَيْهِ المؤلِّفُ هُنا صِيْغَةَ الفِعْلِ (ضَبَّبَ) مَعَ مَصْدَرِها (التَّضْبِيب) بِمَعانٍ شَتَّى وفي سِيَاقاتٍ مُخْتَلِفةٍ، أقْرَبُها إلى السِّياقِ المرَادِ هنا قَوْلُهُ:ضَبَّبَ الإناءَ بِمَعْنَى جَعَلَ لَهُ ضَبَّةً؛ ثُمَّ شَرَحَ كَلِمَةَ (ضَبَّة) هذِهِ في مَوْضِعٍ آخَرَ بِمَعْنَى عِصابةٍ أو شَرِيْطٍ مِنَ المعْدِنِ يُعْصَبُ بِهِ (أو يُضَبَّبُ) الشَّرْخُ يَكُونُ بِالإناءِ مِنْ خَشَبٍ أو نَحْوِهِ؛ هذا سِوَى ما ذَكَرَهُ مِنْ ما اسْتَشْهَدَ بِهِ المؤَلِّفُ هُنا مِنْ صِيْغَةِ اسْمِ الفاعِلِ (مُضَبِّب). وقَدْ اعْتَمَدَ لَيْنْ في ذَلِكَ عَلَى لُغَوِيَّيْنَ كِبارٍ، كابْنِ الأَعْرَابِيِّ والأَزْهَرِيِّ وغَيْرِهِما. انْظُرْ مُعْجَمَ لَيْنْ ص١٧٦١-١٧٦٢. (المترجم)

(أضَبَّ)؛ وهِيَ الصِّيْغَةُ الرَّابِعَةُ[1] لِلْفِعْلِ (ضَبَّ) بِمَعْنَى: سَالَ وجَرَى[2]. كما وَرَدَ اسْمُ الفاعِلِ (مُضَبِّبٌ) بِمَعْنَى المحْتَرِشِ أوْ صائِدِ الضِّبابِ. ويَقُولُ لَيْنُ[3]: (المضَبِّبُ صائِدُ ضَرْبٍ مِنَ العَظَايَاتِ يُسَمَّى الضَّبَّ، وذَلِكَ بأَنْ يَصُبَّ ماءً عَلَى جُحْرِهِ لِيَخْرُجَ إلَيهِ فَيُمْسِكَ بِهِ، أو أنْ يُحَرِّكَ يَدَهُ عَلَى الجُحْرِ فَيَخْرُجَ ماداً ذَنَبَهُ أوّلاً فَيُمْسِكَ بِهِ مِنْ ذَنَبِهِ). ويَظْهَرُ أنَّ هَذَيْنِ الشَّرْحَيْنِ الأَخِيرَيْنِ لِكَلِمَةِ مُضَبِّب يَنْتَهِيَانِ إلى مَعْنَىً واحِدٍ. وقَدْ وَصَفَ الجاحِظُ وغَيْرُهُ كَيْفِيَّةَ هذا الصَّيْدِ وَصْفاً مُمْتِعاً. إذْ يَصُبُّ الصَّائِدُ الماءَ عَلَى أَحَدِ فَتْحَتَيْ جُحْرِ الضَّبِّ ويَذْهَبُ إلى الفَتْحَةِ الأُخْرَى يُحَرِّكُ عَلَيْها يَدَهُ مُتَظاهِراً بِتَقْدِيمِ المسَاعَدَةِ لِلضَّبِّ المِسْكِيْنِ الذِي يُبْغِضُ الماءَ أَشَدَّ البُغْضِ، فَيَمُدُّ الضَّبُّ ذَنَبَهُ أَوّلاً لِيَتَبَيَّنَ ما إنْ كانَ الصَّائِدُ عَدُوّاً لَهُ أَمْ صَدِيْقاً[4]. وحَتَّى لَوْ كانَتِ الكَلِمَةُ (يُضَبِّب) في شِعْرِ أبي العلاء تَصْحِيْفاً لِكَلِمَةِ (يُصَبِّب) لَكانَ ما يَزَالُ عَلَيْنا أنْ نَحُلَّ مُشْكِلَةَ اشْتِقاقِها مِنَ الفِعْلِ (صَبَّبَ) إذْ هِيَ صِيْغَةٌ لَمْ تَرِدْ قَطُّ فِي المعاجِمِ.

٧. **شَمْتٌ**: وهو مَصْدَرٌ نادِرٌ لِلْفِعْلِ (شَمِتَ)، وقد جاءَ في البَيْتِ:

أَرَى الأشْيَاءَ تَجْمَعُها أُصُولٌ وكَمْ فِي الدَّهْرِ مِنْ ثُكْلٍ وشَمْتِ

---

[1] يَعْنِي بِالصِّيْغَةِ الرَّابِعَةِ الفِعْلَ الثُّلاثِيَّ المزِيْدَ بالهَمْزَةِ فِي أوَّلِهِ أيْ صِيْغَة أَفْعَلَ. (المترجم)

[2] تاج، ج ١، ص ٣٤٤. واللسان ج ٢، ص ٢٨-٢٩

[3] مُعْجَم لَيْن، ص ١٧٦٣.

[4] الحَيْوَان، للجاحِظِ، ج ٦، الصفحات ٣٩، ١١٤-١١٥، ١٢١، ١٣٠، ١٣٣، ٤٤. وانظر كذلك (المخصَّص) ج ٨، الصفحات ٩٧-٩٨، ٩٣.

وتَذْكُرُ المعَاجِمُ أنَّ المصْدَرَ هُو (شَمَاتٌ) و(شَماتَةٌ) ويَبْدُو أنَّ المصْدَرَ الذي جاءَ بِهِ أبو العَلاء (شَمْت) صُوْرَةٌ مِنْ صُوَرِ المصْدَرِ القِياسِيِّ (شَمَتٌ) لِأنَّ فِعْلَهُ مِنْ بابِ فَرِحَ.

٨. <u>تَشَصَّصَ</u>: جاءَتْ هذِهِ الكَلِمةُ فِي البَيْتِ:

وطَبْعُكَ سُلْطانٌ لِعَقْلِكَ غالِبٌ تَداوَلُهُ أَهْوَاؤُهُ بِالتَّشَصُّصِ

لَمْ يَرِدِ الفِعْلُ (تَشَصَّصَ) في المعَاجِمِ[١]؛ والمعْنَى هُنا لَيْسَ واضِحاً جِدّاً. ومِنْ بَابِ الحَدْسِ والتَّخمِيْنِ نَقُولُ في مَعْناهُ: إنَّ طَبْعَكَ يَتَحَكَّمُ فِي عَقْلِكَ الذي تَتَنَابُهُ أهْوَاؤُكَ. فَلَوْ عادَ الضَّمِيرُ فِي (أهْوَاؤُهُ) إلى كَلِمةِ (عَقْلِ) فِي صَدْرِ البَيْتِ إذَنْ لَرُبَّما كانَ مَعْنَى التَشَصُّصِ التَنَقُّصَ، والتَّنَقُّصُ التَّقَلُّلُ، مِنْ قَوْلِهِمْ :شَصَّتِ النَّاقةُ أيْ شَحَّ دَرُّها أو قَلَّ لَبَنُها[٢]؛ أو رُبَّما كانَ مَعْناها المنْعَ، مُشْتَقَّةً مِنْ قَوْلِهِمْ: شَصَّهُ عَنْ الشَّيْءِ[٣] أيْ مَنَعَهُ مِنهُ. فَلَوْ كانَ اشْتِقاقُها مِنْ هذا الأصْلِ لَلَزِمَ أنْ تَكُونَ فِعْلاً لازِماً يَسْتَلْزِمُ الحَرْفَ (عَلَى). ولِذَلِكَ عَلَينا أنْ نَفْتَرِضَ عِبارَةَ (عَلَيْهِ) مَفْهُومةً في هذا البَيْتِ. أوْ لَعَلَّها مِنْ قَوْلِهِمْ (عَلَى شَصَاصَاءَ) أيْ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ[٤]. وعَلَى ذَلِكَ فَعِبارَةُ (تَداوَلُهُ أهْواؤُهُ بِالتَشَصُّصِ) تَعْنِي أنَّ أهْوَاءَهُ تَحْمِلُ العَقْلَ عَلَى العَمَلِ سَرِيْعاً ودُوْنَ رَوِيَّةٍ.

---

[١] لسان العَرَب ج ٨، ص ٣١٣-٣١٤؛ وتاج العروس ج ٤، ص ٤٠٣

[٢] تاج العَرُوس ج ٤، ص ٤٠٣؛ ولسان العَرَب ج ٨، ص ٣١٣-٣١٤

[٣] نفسه

[٤] نفسه

وأمّا إذا عادَ الضَّمِيْرُ فِي (أهْوَاؤُهُ) إلى كَلِمةِ (طَبْع)، فَعَلَيْنا افْتِرَاضُ عَوْدِ الضَّمِيْرِ فِي كَلِمَةِ (تَدَاوُلُهُ) عَلَى كَلِمَةِ (عَقْل)؛ وفي هذِهِ الحالَةِ يَكُونُ تَرْكِيْبُ البَيْتِ مُعْثَكَلاً مُعَقَّداً بالِغَ التَّعَثْكُلِ والتَّعْقِيْدِ.

٩. **مُوْسَكٌ**: جاءَتْ في البَيْتِ:

وَمَا يَبْقَى عَلَى الأيّامِ لا مُوسَى ولا مُوْسَكٌ

ويَبْدُو أنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ إحْدَى مُشْتَقَّاتِ الكَلِمَةِ (آسَكَ) وهُوَ فِعْلٌ فِي الصِّيْغَةِ الرَّابِعَةِ. مِنَ الفِعْلِ (أَسَكَ). غَيْرَ أنَّ كِلْتا هاتَيْنِ الصِّيْغَتَيْنِ لَمْ تَرِدْ فِي المعَاجِمِ. فلا نَجِدُ في لِسانِ العَرَبِ[1] ولا فِي تَاجِ العَرُوسِ[2] إلا (مَأْسُوكَة) من (الإسكَتَيْنِ)[3] وتَعْنِي المرْأَةَ التي يُخاطُ مِنْها أشْفارُ فَرْجِها خِياطَةً شَدِيدةً. ورُبَّما عَنَتْ مُوْسَى هُنا الاسْمَ العَلَمَ المعْرُوفَ أو رُبَّما عَنَتْ آلَةَ القَطْعِ ذَاتَ الشَّفْرةِ الحادَّة. وأغْلَبُ الظَّنِّ عِنْدَنا أنَّ أبا العلاء أرَادَ اسْتِخْدَامَها هُنا عَلَى سَبِيْلِ الكِنايَةِ. وعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ مَعْنَى البَيْتِ: (لَنْ تُبْقِيَ الأيّامُ بِمَرِّها واللَّيالِي بِكَرِّها أحَداً يَبْقَى لا الشَّفْرَةَ التي تَقْطَعُ ولا مَنْ قُطِعَ بِها).

١٠. **المِرَبُّ**: جاءَتْ في بَيْتِ أبي العلاء:

أَرَى جُنْحَ الدُّجَى أَوْفَى جَناحاً ومَاتَ غُرابُهُ الجَوْنُ المِرَبُّ

---

[1] اللسان، ج ١٢، ص ٢٧٠

[2] تاج العَرُوس، ج ٧، ص ١٠١-١٠٢

[3] إسْكَتَا فَرْجِ المرْأَةِ، هما الشُّفْرانِ الكَبِيرانِ وهُما الخارِجِيّانِ وهُناكَ الشُّفْرانِ الصَّغِيْرانِ وهُما الدَّاخِلِيّانِ، ويُعْرَفُ الأوَّلانِ في الإنجليزيةِ بـ(Labia Majora)، والأخِيرانِ بـ (Labia Minora). ووَضَحَ مِنَ المعْنَى الذي ذَهَبَ إلَيْهِ المؤَلِّفُ أنَّ أبا العلاء يَتَحَدَّثُ عَنْ حَتْمِيَّةِ الفَناءِ والزَّوالِ، مُكْنِياً عَنْ ذَلِكَ بِعادةِ خِتَانِ الإناثِ، أو(Female Circumcision) التي جاء مِنْها بِآلَةِ الخَتْنِ وهِيَ الموْسَى وبِعَمَلِيَّةِ خِياطةِ الأشْفارِ أو (Infibulation)، التي أغلبُ ما تكونُ بَعْدَ إزالةِ البَظْرِ، (Clitoris). (المترجم).

ورِوايَةُ (رَسائِل أبي العلاء) (المرِبُّ)، ولَكِنَّ (المرَبُّ) رِوايَةُ دِيْوانِ اللُّزُومِ الذي يَقُولُ مُحَقِّقُهُ فِي هذا البَيْتِ: (هِي الأرْضُ ذَاتُ العُشْبِ الكَثِيرِ؛ وإنَّما اسْتُخْدِمَ هذا الوَصْفُ لِلْغُرابِ مجَازاً)[1]. فَمَخْطُوطَةُ (رَسائِل أبي العلاء) لا تُقْنِعُنا بِما ذَهَبَتْ إِلَيْهِ من الرَّأيِ لإنَّنا نَجِدُ كَلِمَةَ (مُرِبّ) بِمَعْنَى أقامَ بِالمكانِ[2] ولَمْ يُرِدْ عَنْهُ تَحَوُّلاً في البَيْتِ:

لَمَا نَجَّاكَ مِنْ غِيَرِ اللَّيالِي سَنَاءٌ فارِغٌ وغِنَىً مُرِبُّ

وهُوَ البَيْتُ الذي يَسْبِقُ البَيْتَ الذي أوْرَدناهُ هُنا أوَّلَ هذِهِ المادَّةِ بِبَيْتٍ واحِدٍ. فَلَوْ كانَتْ كَلِمَةُ (مِرَبٌّ) في البَيْتِ الأوَّلِ مِنْ قَوْلِهِمْ (أرَبَّ بِالمكانِ) لَكَانَ البَيْتُ الثَّانِي مَعِيباً بِعَيبِ الإيْطَاءِ، وهو تَكْرَارُ القافِيَةِ في القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ، ولَهُوَ عَيبٌ ظَلَّ أبو العلاء شَدِيْدَ الحِرْصِ عَلَى عَدَمِ الوُقُوعِ فِيهِ[3]. كَمَا أنَّ (المرِبّ) مُشْتَقَّةٌ مِنَ الفِعْلِ (أرَبَّ) لا مَعْنَى لَها هُنا. فإنْ لَمْ تَكُنِ (المرِبّ) – بِرِوايَةِ رَسائِلِ أبي العلاء – مُشْتَقَّةً من (أرَبَّ) فَمَاذا تَعْنِي إذَنْ؟ أيُمْكِنُ أنْ تَكُونَ مُشْتَقَّةً مِنْ كَلِمَةِ (رُبّ)، والرُّبُّ ما يَبْقَى في أسْفَلِ إناءِ الزَّيْتِ مِنْ حُثَالةٍ سَوْداءَ أوْ حُثْفُلٍ أسْوَدَ[4]، وعَلَى ذَلِكَ فَتَعْنِي: (شَدِيدَ السَّوَادِ) ومِنْ ثَمَّ يُمْكِنُنا فَهْمُ البَيْتِ – على هذِهِ الرِّوَايَةِ – هكذا:

---

[1] اي أنَّ شِدَّةَ خُضْرةِ هذا النَّباتِ الكَثِيفِ ضارِبةٌ إلى السَّوَادِ الذي هو لَوْنُ الغُرَابِ. (المترجم)

[2] لسانُ العَرَب، ج ١، ص ٣٨٨. وتاج العروس ج ١، ص ٢٦١.

[3] يُشِيْرُ المؤَلِّفُ بِكلامِهِ هذا إلى ضَرُورةِ أنْ نَفْهَمَ هذا الحِرْصَ مِنْ أبي العلاء بِلزُومِهِ في أمْرِ التَّقْفِيَةِ ما لا يَلْزَمُهُ مِنَ القُيُودِ؛ فَمِنْ بابٍ أوْلَى ألّا يَقَعَ في عَيْبِ الإيْطاءِ. (المترجم)

[4] لسانُ العَرَب، ج ١، ص ٣٩٠.

(أَرَى جُنْحَ اللَّيْلِ أَكْمَلَ سَوَاداً [مِنْ رَأْسِكَ] ومَعَ ذَلِكَ يَمُوتُ عَنْهُ غُرابُهُ الأَسْوَدُ). أيْ لا تَرْجُ بَقَاءَ لَوْنِ شَعْرِكَ عَلَى سَوادِهِ فإنِّي أَرَى اللَّيْلَ الذي هو أحْلَكُ سَوَاداً مِنْ شَعْرِكَ يَفْقِدُ لَوْنَهُ مَعَ اقْتِرابِ الفَجْرِ. ولَعَلَّ رِوايَةَ اللُّزُومِ (مِرَبّ) هِيَ الرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ، ويَكُونُ ما ذَكَرَهُ المحقِّقُ مِنْ بَيانٍ حَوْلَها لَيْسَ بِكَبِيرِ شَيْءٍ؛ إذ إنَّ افْتِراضَ أنْ تَعْنِيَ (المِرَبُّ) الأَرْضَ كَثِيرَةَ العُشْبِ يَجْعَلُ الصُّورَةَ هُنا بَعِيدَةَ التَّخْرِيْجِ والتَّشْبِيهِ بَعِيْدَ المأْتَى. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَخْطَأَ المحقِّقُ ووَهِمَ فأَثْبَتَ كَلِمَةَ (المِرَبّ) بَدَلاً عَنْ كَلِمَةِ (المرَبّ) [1]. فَلَوْ كانَتْ (المِرَبّ) هِيَ الرِّوَايَةَ الصَّحِيْحَةَ لَكانَ اشْتِقَاقُها مِنْ كَلِمَةِ (رُبَّة) وهِيَ جَماعَةُ النَّاسِ، كالرِّبَابِ (وهِيَ اسْمٌ لِبُطُوْنٍ مِنْ قَبِيلَةِ ضَبَّةَ وتَعْنِي الذِينَ فُرِّقُوا ومُزِّقُوا) [2] مُشْتَقَّةً مِنْ ذَاتِ الجِذْرِ كَمَا يُلاحَظُ مِنَ الصِّفَةِ المتَعَلِّقَةِ بِها (رُبِّيٌّ) (وهُوَ المنْسُوبُ إلى الرِّبَابِ). وهَكَذَا فَيُمْكِنُ أنْ تَعْنِيَ كَلِمَةُ (المِرَبّ) ما يُفَرِّقُ النّاسَ (فَيَجْعَلُهُمْ رُبَّاتٍ). ورُبَّما كانَ هذا النَّعْتُ مُناسِباً لِلغُرابِ الذِي كانَتِ العَرَبُ تَرَاهُ طائِرَ شُؤْمٍ ونَذِيرَ تَفَرُّقٍ.

وعَلَى ذَلِكَ فَيُمْكِنُنا أنْ نَشْرَحَ البَيْتَ عَلَى هذا النَّحْوِ:

(أَرَى جُنْحَ اللَّيْلِ أوْفَى سَوَاداً [مِنْ رَأْسِكَ] ومَعَ ذَلِكَ يَمُوتُ غُرَابُهُ الأَسْوَدُ نَذِيرُ الشُّؤْمِ). وقُلْنا نَذِيْرَ الشُّؤْمِ لِأَنَّ اللَّيْلَ بِوَصْفِهِ أَحَدَ عَنَاصِرَ الزَّمَنِ يَشِي بِتَقَدُّمِ السِّنِّ ويُنْذِرُ بِوَشْكِ الموْتِ

١١. **صُفِّنَتْ**: جاءَتْ فِي البَيْتِ:

وأَبَرَّ مِنْ شُرْبِ المدَامَةِ صُفِّنَتْ فِي عَسْجَدٍ شُرْبُ الرَّثِيْئَةِ فِي العُلَبْ

---

[1] تاجُ العَرُوس ج ١، ص ٢٦٣

[2] اللسان ج ١، ص ٣٨٩

(أيْ لَأَنْ يَشْـرَبَ الْمَـرْءُ لَبَنـاً خـاثِراً فِي عُلْبَـةٍ أَكْـرَمُ لَـهُ مِـنْ أنْ يَشْـرَبَ خَمْـراً شُعْشِعَتْ بِالماءِ، فِي كأْسٍ مِنَ الذَّهَبِ). وأمَّا رِوَايَةُ (رَسائِلِ أبي العلاء) فَهْيَ (صُفِّقَتْ) وهذِهِ وَاضِحَةٌ. وأمَّا (صُفِّنَتْ)، رِوَايَةُ دِيْوَانِ اللُّزُومِ، فَلَيْسَتْ خَطأً طِبَاعِيّاً؛ لِأَنَّ المحَقِّقَ يَذْهَبُ فِي إحْدَى الحَوَاشِي إلى القَوْلِ بِأَنَّ (صُفِّنَتْ) رُبَّما كانَتْ مُشْتَقَّةً مِنَ التَّصْفِيْنِ وهُوَ وَضْعُ حَجَرٍ فِي إناءٍ فِيهِ ماءٌ لِقِياسِ الماءِ المأخوذِ (أوِ المزَاحِ) مِنهُ (إذْ يُحَدَّدُ مُسْتَوَى الماءِ الأصْلِيُّ بِعَلامَةٍ ثُمَّ يُوْضَعُ الحَجَرُ فِي الماءِ ثُمَّ يَقْسِمُ المسَافِرُ فِي الصَّحْرَاءِ مِنَ الماءِ حَتَّى يَعُودَ الماءُ إلى المسْتَوَى الأَصْلِيِّ ذِي العَلامَةِ المحَدَّدَةِ مِنْ قَبْلُ؛ فَذَلِكَ يَضْمَنُ قِسْمَةَ الماءِ بَيْنَ المسافِرِيْنَ بِالعَدْلِ). ولكِنْ، كَمَا تَرَى، لا يَتَّسِقُ هذا مَعَ مَعْنَى البَيْتِ أعْلاهُ. فَلَوْ صَحَّتْ رِوَايَةُ (صُفِّنَتْ) فَتَكُونُ إذَنْ مُشْتَقَّةً مِنَ الأَصْلِ (صُفْن)[1] وهُوَ الماءُ. ومِنْ ذَلِكَ يُمْكِنُ أنْ تَعْنِيَ (صُفِّنَتْ) هُنا (مُزِجَتْ بِالماءِ(كَمَعْنَى صُفِّقَتْ). وإنْ لَمْ يَرِدِ الفِعْلُ (صَفَّنَ) فِي أيٍّ مِنَ المعَاجِمِ. ومَعَ ذَلِكَ، فَلا يُمْكِنُنَا أنْ نَقُولَ إنَّ (صُفِّقَتْ) هِيَ وَحْدَها الرِّوَايَةُ الصَّحِيْحةُ.

---

[1] تـاج العَـرُوس ج ٩، ص ٢٦١. وانظُـرْ كَـذَلِكَ لِسـانَ العَـرَب ج ١٨، ص ١١٤-١١٦ والقـامُوسَ ج ٤، ص ٢٤٢؛ ومُعْجَمَ لَيْنْ ص ١٧٠٢-١٧٠٣

المُذكِّرَةُ المُضافَةُ الثانِيَةُ

المَدْرستانِ المَعَرِّيَّتَانِ الشَّرْقِيَّةُ والغَرْبِيَّةُ

أولاً: المدرسة المعرية الشرقية:

مَعَ أنَّ تاريْخَ شُهْرَةِ الشَّاعِرِ وسُمْعَتِهِ غَيْرُ جِدِّ وَثِيْقِ الصِّلَةِ بِدِراسةٍ لِلشَّاعِرِ نَفْسِهِ، إلّا أنَّهُ لَعَلَّهُ مِمَّا يُفِيْدُنا هُنَا أنْ نُلِمَّ هُنَيْهَةً فِي المَوَاقِفِ المتَبايِنةِ حَوْلَ (لُزُومِ) أبي العلاءِ بَيْنَ الشُّعَراءِ والعُلَماءِ المسْلِمِيْنَ مِنَ الأَجْيالِ التي تَلَتْ عَصْرَ أبي العلاءِ؛ لا لِشَيءٍ إلَّا ابْتِغَاءَ التَّمامِ والإحْكامِ. فَيَبْدُو أنَّ اللُّزُومَ قَدْ أَثَّرَ في مَدْرسَتَيْنِ مِنْ مَدارِسِ الفِكْرِ، يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيَ إحْداهُما (المدْرسَةَ المعَرِّيَّةَ الشَّرْقِيَّةَ)، ونُسَمِّيَ الأُخْرَى (المدْرسَةَ المعَرِّيَّةَ الغَرْبِيَّةَ). فما اصْطَلَحْنا عَلَيْهِ هُنا بِالمدْرسَةِ المعَرِّيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى كُلِّ أُولئِكَ الشُّعَراءِ والعُلَماءِ الذيْنَ تَأَسَّوْا بأَبِي العلاء وحَذَوْا حَذْوَهُ فِي أُسْلُوبِهِمْ وفِي طَرِيْقَةِ تَفْكِيْرِهِمْ. وأَمَّا المدْرَسَةُ المعَرِّيَّةُ الغَرْبِيَّةُ فَتَدُلُّ هُنا عَلَى أُوْلَئِكَ الشُّعَراءِ والعُلَماءِ الذيْنَ أُعْجِبُوا بِأُسلُوبِ أَبِي العلاءِ ومَذَاهِبِهِ التَّقَشُّفِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ رَفَضُوا التَّأَثُّرَ بِمَذْهَبِهِ في الاعْتِمادِ عَلَى العَقْلِ وحْدَهُ في الرَّأْيِ. فَأَمَّا أَصْحابُ المدْرَسَةِ المعَرِّيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ فَيَنْبَغِي أنْ نَلْتَمِسَهُمْ عَلَى الأَغْلَبِ بَيْنَ رِجالاتِ الأَدَبِ فِي العِرَاقِ، المِصْرِ الذِي يَدِيْنُ لَهُ أبو العلاءِ بالكَثِيْرِ مِنْ تَطَوُّرِهِ[1]. فَلَرُبَّما رَجَعَتْ أُصُولُ هذِهِ المدْرَسَةِ - إذا جازَ أنْ نُسَمِّيَها كَذَلِكَ - إلى تلامِيذِ أبي العلاءِ العِرَاقِيِّيْنَ أَمْثالِ أَبي القاسِمِ التَّنُوخِيِّ وابْنِ فُوْرُّجَةَ (وَصَفَ صاحِبُ (دُمْيَةُ القَصْرِ) شِعْرَ الأَخِيْرِ مِنهُما بِقَوْلِهِ: (شِعْرُهُ فَرْخُ شِعْرِ الأعْمَى))[2]. لَكِنَّ يَحْيَى بْنَ عَلِيٍّ التِّبْرِيْزِيَّ، شارِحَ

---

[1] كَأَنِّي بالمؤَلِّفِ هُنا يَنْتصِرُ لِأَبِي العلاءِ، يُرِيدُ أنْ يَقُولَ: إذا كانَ أبو العلاء الشَّامِيُّ، وهُوَ واحِدٌ، مَدِيْناً لِلْعِراقِ، فَقَدْ رَدَّ الدَّيْنَ وأَرْبَى، فَصَارَ العِرَاقُ مَدِيْناً لِأَبِي العلاء لا بِواحِدٍ بَلْ بِمَدْرسةٍ فَنِّيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ واسِعةٍ؛ واللهُ أَعْلَمُ (المترجم).

[2] دُمْيَةُ القَصْرِ، لِلْباخَرْزِيِّ، القاهرة، ١٩٣٠، ص٩١.

الحَمَاسَةِ المشْهُورَ وأمْيَزَ تلامِيْذِ أبي العلاءِ، هُوَ مَنْ يَبْدُو الأكْثَرَ أخْذاً لِطَرِيْقَةِ أبي العلاءِ وأثَرِهِ.

فالتّبْرِيْزِيُّ كان قَدْ ذَهَبَ إلى العِراقِ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلائِلَ مِنْ مَوْتِ أُسْتَاذِهِ فاسْتُقْبِلَ ثَمَّ عَلَى أنَّهُ أعْظَمُ عُلَماءِ اللُّغَةِ في عَصْرِهِ. وظلَّ يُدَرِّسُ هُناكَ حتى وَفَاتِهِ في سَنَةِ ٥١١هـ. ولَقَدْ كانَ شاباً في أوَائِلِ العِشْرِيْنَ لَمَّا لَقِيَ أبا العلاءِ[١]، ولِذَلِكَ كانَ سَهْلَ التَّأثُّرِ بأُسْتاذِهِ الشَّيْخِ العلَّامَةِ. ويَبْدُو أنَّ المعَرِّيَّ كانَتْ لَهُ ثِقَةٌ شَخْصِيَّةٌ في التّبْرِيْزِيِّ؛ لِأنَّنا نَرى مَنْ تَرْجَمُوا لِشاعِرِنا يَرْوُوْنَ عَنِ التّبْرِيزِيِّ هذا أنَّهُ سَأَلَ المعَرِّيَّ عَنْ عَقِيْدَتِهِ وإيْمانِهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ المعَرِّيُّ قائِلاً: (شَيْخُكَ فِي شَكٍّ)[٢]. فَمِثْلُ هذا الجَوابِ -إنْ نَحْنُ سَلَّمْنا بِصِحَّتِهِ- ما كانَ لِأبي العلاءِ أنْ يُفْضِيَ بِهِ إلى التّبْرِيزِيِّ لَوْ لَمْ يَكُنْ يَثِقُ بِهِ. وفِي تَرْجَمَةِ ابْنِ خلِّكانَ لِلتّبْرِيْزِيِّ مِنَ الدَّلِيْلِ ما يَكْفِي لِحَمْلِنا عَلَى الاعْتِقادِ بِأَنَّ التّبْرِيزِيَّ هَذَا كانَ يُشارِكُ المعَرِّيَّ آراءَهُ في كَثِيْرٍ مِنْ مَسَائِلِ العَقِيْدَةِ[٣]. كما يُخْبِرُنا ابْنُ خلِّكانَ أنَّ التّبْرِيزِيَّ كانَ يَنْظِمُ الشِّعْرَ ويَسْتَشْهِدُ مِنْ شِعْرِهِ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ:

فَمَنْ يَسْأَمْ مِنَ الأسْفارِ يَوْماً ... فإنِّي قَدْ سَئِمْتُ مِنَ المقَامِ

أَقَمْنا بالعِرَاقِ عَلَى رِجالٍ ... لِئَامٍ يَنْتَمُونَ إلى لِئَامِ

---

(١) (كان مَوْلِدُ التبريزيِّ في ٤٢١هـ).

(٢) تَعْرِيْفُ القُدَماءِ، ص١٩١.

(٣) انظُرْ وَفَياتِ الأعْيانِ، ج٢ ص٣٠٨ وما بَعْدَها. يُورِدُ ابْنُ خَلِّكانَ فَقْرةً مِنْ كِتابِ(الذَّيْلِ) وكِتابِ (الأنْسابِ) لِلسَّمْعانِيِّ لا تُبْقِي شَكّاً فِي هَرْطَقَةِ التّبْرِيْزِيِّ. ولَكِنَّ هَذِهِ الفَقْرةَ التي نَقَلَها ابْنُ خَلِّكانَ لا نَجِدُها في نُسْخَةِ كِتابِ (الأنْسابِ التي نَشَرَها مَرْجُلْيُوث؛ (فانظُرْ الأنْسابَ ص١٠٣، السَّطْرَ ٢٠ وما بَعْدَهُ. ولَكِنَّهُ نَظَراً إلى أنَّ ابْنَ خَلِّكانَ أحَدُ الثِّقاتِ المعْتَمَدِيْنَ فلا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ ثَمَّةَ شَكٌّ فِي أنَّ ما وَصَلَ إلَيْنا مِنْ نُسْخَةِ كِتابِ الأنْسابِ غَيْرُ مُكْتَمِلَةٍ أوْ لَعَلَّها نُسْخَةٌ مُخْتَصَرَةٌ مِنْ أصْلِها؛ إذْ يُخْبِرُنا ابْنُ خَلِّكانَ فِي جُزْءٍ آخَرَ مِنْ كِتابِهِ أنَّ ابْنَ الأثِيْرِ كانَ قَدِ اتَّخَذَ لَهُ نُسْخَةً مُخْتَصَرَةً مِنْ ذَلِكَ الكِتابِ، انظُرِ الوَفَياتِ ج١ ص٣٧٨-٣٧٩).

ومِنَ العَسيْرِ عَلَينا أنْ نُقَوِّمَ هُنا شِعْرَهُ ونَنْظُرَ في جَوْدَتِهِ ومُمَيِّزاتِهِ اكْتِفاءً بِاجْتِزاءٍ ضَئِيْلٍ كَهَذا. ولَكِنَّنا مَعَ ذَلِكَ نَشْعُرُ في هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ بِذَلِكَ السُّخْطِ الغائِرِ الذي نُدْرِكُ لِأَوَّلِ وهَلَةٍ قُرْبَهُ مِنْ سُخْطِ أبي العلاءِ.

لَقَدْ أثَّرَ التِّبْريزيُّ في عَدَدٍ مِنَ العُلَماءِ الذيْنَ عاصَرُوهُ وهُمْ، كَذَلِكَ، نَقَلُوا أثَرَ أبي العلاءِ إلى الأَجْيَالِ التي تَلَتْهُمْ. إذْ يُحَدِّثُنا ياقُوْتٌ عَنْ شاعِرٍ بَغْدَادِيٍّ أعْمَى يُسَمَّى الدَّاوُوْدِيَّ أَنَّهُ كانَ حُجَّةً في شِعْرِ أبي العلاءِ وأنَّهُ كانَ، لِذَلِكَ، مُتَّهَماً بِالهَرْطَقَةِ[1] وعَمَّنْ يُعْرَفُ بِشُمَيْمٍ الحِلِّيِّ الذِي كَتَبَ كِتاباً يُقَلِّدُ بِهِ أبَا العلاءِ سَمَّاهُ (الإشاراتِ المعَرِّيَّةَ)[2].

ويَتَحَدَّثُ السُّيُوطِيُّ عَنْ عالِمٍ مُتَضَلِّعٍ وشاعِرٍ أَعْمَى يُسَمَّى مَكِّيَّ بْنَ رَيَّانٍ الماكِسِيْنِيَّ كانَ مُغْرَماً بِسَمَاعِ شِعْرِ اللُّزومِيَّاتِ يُنْشَدُهُ ويُقْرَأُ لَهُ[3]. وقَدْ أوْرَدَ ابْنُ خَلِّكانَ في تَرْجَمَتِهِ لِلتِّبْريزِيِّ الجُزْءَ الأكْبَرَ مِنْ قَصِيْدَةٍ خاطَبَ بِها مَنْ يُعْرَفُ بِالفَيَّاضِ التِّبريزِيِّ تُظْهِرُ التَّقْفِيَةُ فِيْها تَأَثُّراً بِاللُّزومِ لا يَخْفَى[4]. فَكُلُّ هَذا مِنَ الأدِلَّةِ والشَّوَاهِدِ يَنْفِي عِنْدَنا كُلَّ شَكٍّ في وُجُودِ مَدْرسَةٍ بِالعِرَاقِ مِنْ أهْلِ التَّفْكيْرِ الحُرِّ والشُّعَراءِ وعُلَماءِ اللُّغَةِ مِمَّنْ كانُوا تَلامِيْذَ ذَوِيْ شَأْنٍ لِكِتَاباتِ أبي العلاءِ ومُتَمَسِّكِيْنَ بِأَثَرِهِ مُخْلِصِيْنَ. غَيْرَ أنَّ كُلَّ تَآلِيْفِ هَؤُلاءِ الرِّجالِ، تَقْرِيْباً، قَدْ ضَاعَتْ إبَّانَ حُكْمِ ذَوِي الغُلُوِّ والتَّعَصُّبِ؛ وأُبِيْدَتْ أغْلَبُ الكتاباتِ التي يُشْتَمُّ مِنْها الهَرْطَقَةُ (البِدْعَةُ).

---

(1) إرْشادُ الأرِيْبِ، ج٤، ص١٩١ . وقد تُوُفِّيَ الدَّاوودِيُّ في سَنَةِ ٦١٥هـ.

(2) نَفْسُهُ، ج٥ ص١٣٨.

(3) بُغْيَةُ الوُعاةِ، بُولاق، ٣٣٥، تُوُفِّيَ الماكِسِيْنِيُّ في سَنَةِ ٦٠٣ هـ؛ وانظُرْ كَذلِكَ وَفَياتِ الأعْيانِ ج٢ ص ١٥٩.

(4) الوَفَيات، ج٢، ص٣٠٨.

وَمَعَ هذا كُلِّهِ فَقَدْ بَقِيَ لَنا قَدْرٌ لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنْ كتاباتِ مَنْ نَعُدُّهُ أَهَمَّ مُمَثِّلِي المَدْرسَةِ المَعَرِّيَّةِ، وهُوَ عُمَرُ الخَيَّامُ[1]، وعَسَى أَلَّا نَزالَ على أَمَلٍ أَنْ يُعْثَرَ يَوْماً عَلَى بَعْضِ قَصائِدِ شُمَيْمٍ الحِلِّيِّ (الذي يَبْدُو أَنَّهُ كانَ رَجُلاً مَطْبُوعاً وذا أَصالَةٍ عَظِيْمَةٍ في كِتاباتِهِ) فَتُبْعَثَ مِنْ بِلَىً. ولَعَلَّهُ مِنَ الخَيْرِ لَنا أَنْ نَقِفَ وَقْفَةً قَصِيْرَةً عِنْدَ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ البارِعَيْنِ.

أَمَّا شُمَيْمٌ الحِلِّيُّ فَقَدْ تُوُفِّيَ في سَنَةِ ٦٠١هـ. وتُوْجَدُ نُتَفٌ مِنْ سِيْرَةِ حَيَاتِهِ في (إِرْشادِ) ياقُوتٍ الذِي كانَ مُعاصِراً لَهُ[2] وفِي وَفَياتِ الأَعْيانِ لِابْنِ خَلِّكانَ[3]. فَيُحَدِّثُنا ياقُوتٌ أَنَّهُ كانَ زارَ شُمَيْماً في بَلْدَتِهِ الحِلَّةِ بالعِراقِ ووَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ في غَرابَةِ أَطْوارِهِ؛ إِذْ كانَ يَطْلُبُ أَنْ يَرْقُصَ الناسُ طَرَباً وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرَهُ؛ وكانَ يَدَّعِي أَنَّ هُناك إِلَهَيْنِ أَحَدُهُما فِي السَّماءِ والآخَرُ في الأَرْضِ، يَعْنِي نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ – أيْ شُمَيْماً – كانَ (يَخْلُقُ) عَجائِبَ الأَشْعَارِ. ويَرَى ياقُوتٌ أَنَّ شُمَيْماً كانَ شاعِراً مُمْتازاً ولُغَوِيّاً مُنَجَّذاً. ويَذْكُرُ ابْنُ خَلِّكانَ أَنَّهُ قَرَأَ قَدْراً صالِحاً مِنْ أَشْعَارِ شُمَيْمٍ وَجَدَها في كِتابِ (تارِيْخُ إِرْبِلَ) لِابْنِ المِسْتَوْفِي فأَلْفَاهُ مَلِيْئاً بالهَرْطَقَةِ. ويَذْكُرُ لَنا كَذَلِكَ أَنَّ ابْنَ المِسْتَوْفِي هذا وَصَفَ شُمَيْماً بِالكافِرِ، ونَسَبَ إِلَيْهِ كِتاباً كانَ أُرِيد بِهِ الرَّدُّ عَلَى تَحَدِّي القرءان[4]. وعَلَيْنا أَنْ نَضَعَ فِي حُسْبَانِنا أَنَّ ابْنَ المِسْتَوْفِي هذا كانَ تابِعاً وَفِيّاً لِلْماكِسِينِيِّ الذي وَصَفْناهُ آنِفاً بِأَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ المُعْجَبِيْنَ بِالمَعَرِّيِّ. فَلَعَلَّ ابْنَ المِسْتَوْفِي كانَ يَحْمِلُ اعْتِقَاداتِ شُمَيْمٍ الهَرْطَقِيَّةَ، ولَكِنَّهُ إِنَّما هاجَمَهُ بِوَصْفِهِ إِيَّاهُ بالكافِرِ حَتَّى يَتَمكَّنَ مِنْ إِيْرادِ كَثِيرٍ مِنْ أَقْوَالِهِ المهاجِمَةِ لِلإِسْلامِ، وهُوَ في مَأْمَنٍ. ويَذْكُرُ بْرُوكِلْمانْ أَنَّ كِتابَ ابْنِ المِسْتَوفِي (تارِيْخَ إِرْبِلَ) كانَ قَدْ ضاعَ. ولَكِنْ لَمَّا

---

[1] هُوَ غِيَاثُ الدِّيْنِ أَبُو الفُتُوحِ عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيْمَ (١٠٤٠-١١٣١م) وُلِدَ وماتَ بِإِيْرَانَ. كان مُحِبّاً لِلْقِرءَاةِ والاطِّلاعِ؛ فَدَرَسَ الجَبْرَ والرِّياضِيَّاتِ والفَلَكَ والفَلْسَفَةَ وكَثِيْراً مِنْ عُلُوْمِ عَصْرِهِ الدِّيْنِيَّةِ.

(٢) إرشاد الأريب، ج٥، ص١٣٨.

(٣) المجلد ١، ص٤٣٤.

(٤) وَفَيات الأعْيان، ج١، ص٤٣٤.

كانَ هَذَا الكِتَابُ مَوْجُوداً في عَصْرِ ابْنِ خَلِّكانَ، فَمَا نَزَالُ نأْمُلُ أنْ يَكُونَ مَدْفُوْناً في وَاحِدَةٍ مِنْ خَزَائِنِ الكُتُبِ الخاصَّةِ الكَثِيْرَةِ في الشَّرْقِ وأنْ عَسَى أنْ يُكْشَفَ عَنْهُ يَوْماً مّا. وحَتَّى ذَلِكَ الحِيْنِ يَظَلُّ شَأْنُ شُمَيْمٍ الحَقِيْقِيُّ لُغْزاً مُعَمًّى.

وأَمَّا عُمَرُ الخَيَّامُ، الفَلَكِيُّ الفارِسِيُّ، فَقَدْ طارَ اسْمُهُ مُشْتَهَراً في آفاقِ البِلادِ شَرْقِها وغَرْبِها[1] وقَدْ كُتِبَتْ رُبَاعِيَّاتُهُ في الأَصْلِ بِالفارِسِيَّةِ، غَيْرَ أنَّ قُرَّاءَ الإنْجِلِيْزِيَّةِ قَدْ عَرَفُوها عَنْ طَرِيْقِ تَرْجَمةِ فِيْتْزْ جِيْرالْدْ[2]، التي لَعَلَّها تَرْقَى لِأَنْ تَكُونَ عَمَلاً شِعْرِيّاً خاصّاً وَحْدَهُ بِما بَلَغَتْهُ مِنْ إتْقانٍ واسْتِحْقاقٍ وجَدارةٍ. وقَدْ ظَهَرَتْ حَدِيْثاً تَرْجَمَتانِ مُتَمَيِّزَتَانِ لِلرُّباعِيَّاتِ إلى العَرَبِيَّةِ، إحْدَاهُما لِلْبُسْتَانِيِّ[3]، والأُخْرَى لِلسُّباعِيِّ[4] وكِلْتَاهُما[5] تُقْرَآنِ الآنَ عَلَى نطاقٍ

([1]) تُوُفِّيَ عُمَرُ في سَنَةِ ٥١٧ هـ بِنَيْسابُورَ، انْظُرْ (تاريخُ بلادِ فارس الأَدَبِيُّ)، بْرَاوُنْ، كَمْبِرِدْجْ، ١٩٢٨، ج٢ ص٢٤٧.

([2]) هُوَ الشَّاعِرُ الإنجليزِيُّ إدْوَارْدْ فِيْتْزْ جيرالد (١٨٠٩– ١٨٨٣) شاعِرٌ وكاتِبٌ ومُتَرْجِمٌ دَرَسَ فِي جامِعَةِ كَمْبِرِدْجْ ولَكِنَّهُ اشْتُهِرَ أَكْثَرَ شَيْءٍ بِتَرْجَمَتِهِ لِرُباعِيَّاتِ الخَيَّامِ التي تَرْجَمَها شِعْراً مُقَفًّى، والتي حَظِيَتْ مِنَ القَبُولِ والسَّيْرُورةِ بِما لَمْ تَحْظَ بِهِ أيُّ تَرْجَمةٍ إنجليزيَّةٍ أُخرى لِشِعْرٍ آسْيَوِيٍّ عَلْمانِيٍّ، لا سِيَّما مِنْ لَدُنْ ظُهُورِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيةِ مِنْها في سَنَةِ ١٨٦٨، باجْتِهادٍ مِنَ الشَّاعِرِ والرَّسَّامِ الإنجليزِيِّ دَانْتِي رُوْسِيْتِي، الذِي أَحَبَّها وتَحَمَّسَ لَهَا. (المترجم).

([3]) هُوَ وَدِيْعٌ البُسْتَانِيُّ (١٨٨٦-١٩٥٤)؛ لِبْنانِيٌّ فِلِسْطِيْنِيٌّ، أَدِيْبٌ وشاعِرٌ كَبِيْرٌ؛ ولَيْسَ هُوَ سُلَيْمانَ البُسْتَانِيَّ مُتَرْجِمَ إلْيَاذَةِ هُوْمِيْرُوسَ شِعْراً. وقَدْ تَرْجَمَ وَدِيْعٌ البُسْتَانِيُّ هَذه الرُّبَاعِيَّاتِ سَنَةَ ١٩١٢وهِيَ أَوَّلُ تَرْجَمَةٍ عَرَبِيَّةٍ لها اعْتَمَدَ فِيها عَلَى تَرْجَمَةِ فِيْتْزْ جِيْرَالْدْ الإنجليزيةِ المذْكُوْرَةِ هُنا. (المترجِم).

[4] هُوَ محمد السُّبَاعِيُّ (١٨٨١-١٩٣١)، والِدُ الكاتِبِ المِصْرِيِّ يُوْسُفَ السُّبَاعِيِّ. أَكْثَرَ مِنَ التَّرْجَمَةِ لِكِبارِ كُتَّابِ الأدبِ الإنْجِلِيْزِيِّ، كَشَارْلْس دِكِنْز، وأَدِيْسُوْنَ وسْبِنْسَر، وقَدْ اعْتَمَدَ فِي تَرْجَمَتِهِ الرُّبَاعِيَّاتِ كَذَلِكَ عَلَى تَرْجَمَةِ فِيْتْزْ جِيْرَالْدْ الإنجليزيةِ المذْكُورَةِ.(المترجِم)

[5] هُناكَ عَشَرَاتُ التَّرْجَماتِ الأُخْرَى كَثِيْرَةٌ غَيْرُ هاتَيْنِ، أَشْهَرُها تَرْجَمَتانِ كِلْتَاهُما شِعْرِيَّةٌ وكِلْتَاهُما مِنَ الفارِسِيَّةِ مُباشَرَةً؛ إحْدَاهُما لِلشَّاعِرِ العِرَاقِيِّ الكَبِيْرِ أَحْمَدَ الصَّافِي النَّجَفِيِّ (١٨٩٧-١٩٧٦)، ويُقالُ إنَّها أَجْمَلُ التَّرْجماتِ وأَقْرَبُها إلى النَّصِّ الأَصْلِيِّ، رُبَّما لِأَنَّهُ تَرْجَمَها مِنَ الفارِسِيَّةِ مُباشَرَةً، نَشَرَها ١٩٣١. وقَد كانَ هاجَرَ إلى إيْرَانَ فاراً مِنْ بِلادِهِ لَمَّا كانَ مَطْلُوباً لِحاكِمِها؛ إذْ كانَ ذا رَأْيٍ سِيَاسِيٍّ يُنَاصِرُ بِهِ بِلادَهُ وشَعْبَهُ ضِدَّ الظُّلْمِ والاسْتِبْدَادِ أيَّامَ الاحْتِلالِ وبَعْدَهُ؛ وهُناكَ تَعَلَّمَ الفارِسِيَّةَ وأَتْقَنَها وقَرَأَ بِها وكَتَبَ. والأُخْرَى لِلشَّاعِرِ المِصْرِيِّ المعْرُوفِ أَحْمَدَ رَامِي (١٨٩٢-١٩٨١)، ويُذْكَرُ في مَظانِّ الأَدَبِ أنَّها تَرْجَمَةٌ جَمِيْلَةٌ كَذَلِكَ، نُشِرَت ١٩٢٢ وهي الأَشْهَرُ، رُبَّما لِأَنَّ المغَنِّيَةَ المِصْرِيَّةَ أمَّ كُلْثُوم غَنَّتْ بَعْضَ رُباعِيَّاتِها. ومِمَّا يَسْتَرْعِي الانْتِبَاهَ اهتِمامُ الأُدَباءِ

واسِعٍ. ويَبْدو أنَّ الحَنِيْنَ إلى الخَمْرِ واللَّذَّةِ الحِسِّيَّةِ في الرُّباعِيَّاتِ تدفَعُ كُلَّ شَكٍّ في أثَرِ المعَرِّيِّ عَلَى الخَيَّامِ، ورُبَّما أشْعَرَتْ شَيْئاً ما بِأَثَرِ أبي نُوَاسٍ عَلَيْهِ. ولكِنَّنا إذا تَذَكَّرْنا أنَّ بُوهِيْمِيَّةِ عُمَرَ أوِ اسْتِهْتارَهُ لَمْ يكُنْ سِوَى تَمْوِيْهٍ وتَصَنُّعٍ جاءَ بِهِ بِلا رَيْبٍ مِنْ شُعَراءِ المتَصَوِّفَةِ في عَصْرِهِ[1] وإذا نَظَرْنا في تأمُّلاتِهِ المتَعَمِّقَةِ في الموْتِ وفِي أَبْياتِهِ الصَّرِيْحَةِ في شَكِّها في الدِّيْنِ، فَسَنُدْرِكُ بُوُضوحٍ أثَرَ المعَرِّيِّ فِيهِ. ويُؤَيِّدُ هَذا أنَّ الخَيَّامَ كانَ كاتِباً بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مُتْقِناً فِيْها مُجِيْداً، ونَظَمَ أَغْلَبَ أَشْعَارِهِ بِها. يَقُولُ القِفْطِيُّ: (ولَهُ شِعْرٌ طائِرٌ) يَعْنِي شِعْرَهُ المنْظُومَ بِالعَرَبِيَّةِ. ويَصِفُ القِفْطِيُّ شِعْرَ عُمَرَ بِأَنَّهُ هَرْطَقِيٌّ، ويَسْتَشْهِدُ عَلَى ذَلِكَ بِأَرْبَعَةِ أَبْياتٍ لَهُ هِيَ:

إذا رَضِيْتُ نَفْسِي بِمَيْسُورِ بُلْغَةٍ ... تُحَصِّلُها بِالكَدِّ كَفِّي وساعِدِي
أَمِنْتُ تَصارِيْفَ الحَوَادِثِ كُلِّها ... فَكُنْ يا زَمانِي مُوْعِدِي أوْ مُواعِدِي
أَلَيْسَ قَضا الأَفْلاكِ في دَوْرِها بِأَنْ ... تُعِيْدَ إلَى نَحْسٍ جَمِيْعَ المسَاعِدِ
فَيَا نَفْسُ صَبْراً فِي مَقِيْلِكِ إنَّما ... تَخِرُّ ذُرَاهُ بِانْقِضاضِ القَوَاعِدِ

أيْ هُوَ لا يَعْبَأُ بِزَمانِهِ إنْ جاءَهُ بِخَيرٍ أَوْ رَماهُ بِشَرٍّ؛ ولِماذا يَخْشَاهُ مادَامَتِ الأَفْلاكُ قَدْ قَضَتْ بِدَوَرانِها أنْ تَرُدَّ كُلَّ سَعْدٍ إلَى نَحْسٍ؛ ومَقِيْلُ نَفْسِهِ هُنا جَسَدُهُ.
فَمَا أَسْرَعَ ما تُشْعِرُ هَذِهِ الأَبْياتُ بِأُسْلُوبِ المعَرِّيِّ؛ إذْ نَرى أنَّ أَلْفاظَها جَلِيْلَةٌ فَخِيْمَةٌ، ونَجِدُ فِيْها طَرِيْقَةَ تَقْفِيَةِ اللُّزُومِ الصَّعْبَةِ التِي لا تَبْدُو هُنا مُجَرَّدَ صُدْفَةٍ ؛ لِأنَّ حَرْفَ القافِيَةِ

-والشُّعَراءِ العَرَبِ بِهَذِهِ الرُّباعِيَّاتِ دَرْساً وتَرْجَمَةً، شِعْراً ونَثْراً، حتى قارَبَتِ الثَّلاثِيْنَ ترجمةً، إحدى وعِشْرُونَ مِنْها تقريباً عَنِ الفارِسِيَّةِ مباشرةً، وسِتَّ عَشْرَةَ عَنْ تَرْجَمَةِ فِيْتْزَاجِيرالْدْ الإنجليزيةِ. (المترجم)

[1] يَقُولُ القِفْطِيُّ في تَرْجَمَتِهِ لِلخيَّامِ: (وقَدْ أُعْجِبَ بَعْضُ المتَصَوِّفَةِ المتَأَخِّرِيْنَ بِشِعْرِهِ عَلَى سَطْحِيَّةٍ مِنهُمْ وتَغَفُّلٍ، وقَلَّدُوا أُسْلُوبَهُ فِي أَشْعارِهِمْ ومَدَحُوْهُ في مَجالِسِهِمْ وأَحادِيْثِهِمُ الخاصَّةِ؛ ولَكِنَّ في خَبايا أَشْعارِهِ تَسْتكِنُّ الحَيَّاتُ التي تَلْدغُ جَسَدَ الإيْمانِ). انظُرْ (تارِيْخُ الحُكَماءِ) ص٢٤٤. فما كانَ لِمُتأَخِّرِي المتَصوِّفةِ أنْ يُعْجَبُوا بِشِعْرِ (عُمَرَ) إنْ لَمْ يَجِدُوا أُسْلُوبَهُ شَبِيْهاً بِأُسلُوبِ شُعَرائِهِمُ الكِبارِ).

الثاني (العَيْنَ) المستخدَمَ فِي هَذِهِ الأَبْياتِ مِنْ أَشَدِّ أحْرُفِ القافِيَةِ عُسْراً، ولا يُمْكِنُ أنْ يَسْتخْدِمَهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَأْلَفُ النَّظْمَ عَلَى هَذَا الأُسْلُوبِ. ونَحْنُ وَاجِدُونَ في هَذِهِ الأَبْياتِ أَكْثَرَ مِمَّا وَجَدْنا، وهُوَ ذَلِكَ النَّوْعُ مِنَ التَّوْرِيَةِ الذِي أَلِفْناهُ في اللُّزُوْمِ. فالبَيْتانِ الأَخِيْرَانِ لا يُثِيْرَانِ في ظاهِرِهِما شَيْئاً مِنَ الشَّكِّ، غَيْرَ أنَّ مَعْناهُما الحَقِيْقِيَّ يَكْشِفُ عَنْ شَكٍّ فِي الدِّيْنِ مُتَأَصِّلٍ؛ فَقَدْ أَرَادَ الشَّاعِرُ أنْ يَقُولَ إنَّ كُلَّ سَعْدٍ سَيَزُولُ بِحُلُولِ الموْتِ وأَنَّهُ مَتَى ما انْفَرَطَتِ العَناصِرُ الأَرْبَعَةُ التِي هِيَ قِوَامُ الجَسَدِ فَلَيْسَ ثَمَّ أَمَلٌ فِي البَعْثِ؛ وإذا ما خَرَّتِ الذُّرَى أوِ السَّقْفُ عَلَى المقِيْمِ تَحْتَهُ فَقَلَّما يَنْجُو. وبِما أنَّ المقِيْمَ هُنا هو النَّفْسُ، فتَهَدُّمُ الجَسَدِ يَعْنِي في مآلِ الأَمْرِ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ هُناكَ بَعْثٌ. فَلِأَجْلِ هَذِهِ الهَرْطَقَةِ المسْتَكِنَّةِ فِي البَيْتَيْنِ الأَخِيْرَيْنِ جاءَ القِفْطِيُّ بِهَذِهِ الأبْياتِ مِثالاً (لِحَيَّاتِ الخَيَّامِ الخَفِيَّةِ)[1].

ويُخْبِرُنا القِفْطِيُّ أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ أَمْرُ هَرْطَقَةِ الخَيَّامِ لِمُعاصِرِيْهِ (أَسْرَعَ فَكَبَحَ لِجامَ لِسانِهِ وقَلَمِهِ وذَهَبَ حاجّاً إلى مَكَّةَ نَجاةً بِنَفْسِهِ لا تُقىً). ولَمَّا رَجَعَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَغْدادَ، فِي طَرِيْقِهِ إلى مَوطِنِهِ في خُراسانَ، طَرَقَ عَلَيْهِ بابَهُ (مَنْ هُمْ عَلَى شاكِلَتِهِ فَرَدَّهُمْ دُونَ أَنْ يَلْقاهُمْ، مَعَ أَنَّهُ كانَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ حَزِيناً لِذَلِكَ). ولَمَّا رَجَعَ إِلَى خُراسانَ، بَلَدِهِ، قَضَى بَقِيَّةَ أيَّامِهِ بَيْنَ بَيْتِهِ والمسْجِدِ، لا يَكادُ يُخالِطُ أحداً، مُحْتفِظاً بِأَسْرَارِهِ لِنَفْسِهِ[2].

فَهَلْ كانَ هَذا التَّشابُهُ العَجِيْبُ بَيْنَ المعَرِّيِّ والخَيَّامِ حَتَّى في طَرِيْقَةِ حَياتِهِما مُجَرَّدَ صُدْفَةٍ؟

ثانياً: المدرسةُ المعرِّيَّةُ الغربيَّةُ

ازْدَهَرَتْ المدْرَسةُ المعَرِّيَّةُ الغَرْبِيَّةُ في الشَّامِ وشَمالِ إِفْرِيْقِيا وإِسْبانِيا. ولَرُبَّما عادَ أَصْلُها إِلى قَرَاباتِ أبي العلاءِ ومُرِيْدِيْهِ الذِيْنَ كانُوا شَدِيْدِي الحِرْصِ عَلَى الدِّفاعِ عَنْ إِيْمانِ أبي العلاء

---

(1) تاريخ الحكماء، ٢٤٣، ٢٤٤.

(2) نَفسُهُ، ص٢٤٤.

وعَقِيْدَتِهِ وعَلَى تَصْوِيْرِهِ بِأَنَّهُ وليٌّ لِلَّهِ جَلِيْلُ القَدْرِ، مِنْ أَمْثالِ ابْنِ أَخِيْهِ القاضِي أَبِي الفَتْحِ الذِي زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى أبا العلاءِ يَبْكِي وَهُوَ يَقْرأُ آيَ القُرْءانِ[1] وكَتِلْمِيْذِهِ يُوْسُفَ بْنِ عَلِيٍّ الذِي رَوَى لَنا القِصَّةَ الخَيالِيَّةَ التي نَجَا بِها أبو العلاءِ مِنْ غَضَبِ حاكِمِ حَلَبٍ بِقُدْراتِهِ المُعْجِزَةِ. ومِمَّنْ يُمَثِّلُونَ هَذِهِ المَدْرَسَةَ مِنَ الأَجْيالِ التي جاءَتْ بَعْدَ أبي العلاءِ أَسْمَاءٌ كابْنِ الوَرْدِيِّ وابْنِ العَدِيْمِ والبَطَلْيَوْسِيِّ والسِّلَفِيِّ وغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ. وكُلُّهُمْ كانَ تابِعاً صادِقَ التَّبَعِيَّةِ، ومِنْ ثَمَّ نَصِيْراً قَوِيّاً لِأَبِي العلاءِ. غَيْرَ أَنَّ البَطَلْيَوْسِيَّ والسِّلَفِيَّ كانَا أَهَمَّ هَؤُلاءِ جَمِيْعاً. أَمَّا الأَوَّلُ فَلِشَرْحَيْهِ اللَّذيْنِ صَنَعَهُما لِسَقْطِ الزَّنْدِ واللُّزُومِ؛ وأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهُ كانَ قَدْ أَسَّسَ مَدْرسَةً شِعْرِيَّةً عُرِفُ أُسْلُوْبُها فِيْما بَعْدُ فِي كُلٍّ مِن شَمَالِ إفْرِيْقِيا وإسْبانِيا عَلَى أَنَّهُ (مَذْهَبُ الجَمَاعَةِ)[2].

وُلِدَ عَبْدُ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ السَّيْدِ البَطَلْيَوْسِيُّ في سَنَةِ ٤٤٤هـ بِبَطَلْيَوْسَ، إحْدَى مُدُنِ إسْبانِيا المغارِبِيَّةِ. ويَبْدُو أَنَّهُ كانَ قد تَنَقَّلَ تَنَقُّلاً واسِعاً إبَّانَ شَبابِهِ فِي إسْبانِيا، أَوَّلاً تِلْمِيْذاً يَطْلُبُ العِلْمَ ثُمَّ مادِحاً يَبْحَثُ عَمَّنْ يَمْدَحُهُمْ لِنَيْلِ عَطائِهِمْ. وقَدْ عَمِلَ فِي خِدْمَةِ أَمِيْرِ سَرَقَسْطَةَ الذِي نَظَمَ فِيهِ أجْودَ أمادِيْحِهِ، وأَمِيْرِ قُرْطُبَةَ الذِي طَرَدَهُ لِأَبْياتٍ فاضِحَةٍ كانَ هذا نَظَمَها[3]. ثُمَّ ذَهَبَ إلى فالِنْسِيَا[4] حَيْثُ أَخَذَ فِي تَدْرِيْسِ النَّحْوِ وعُلُومِ اللُّغَةِ

---

(1) تَعْرِيْفُ القُدَماء، ص١٩٩.

(2) انظُرْ (أزهارَ الرِّياض في أخبارِ عِياض)، القاهرة، ١٩٣٤، مجلد٣ ص ١٨٥– ١٨٦. يُقَدِّمُ المَقَّرِيُّ لِقَصِيْدَةٍ غَيْنِيَّةٍ لِشاعِرٍ يُعْرَفُ بابْنِ جُزَي قائِلاً: قالَ فِي الأَبْياتِ الغَيْنِيَّةِ ذاهِباً مَذْهَبَ الجَمَاعَةِ، كأَبِي العلاءِ المعَرِّيِّ والرَّئِيْسِ ابْنِ المظَفَّرِ وأَبِي الطَّاهِرِ السِّلَفِيِّ وأَبِي الحَجَّاجِ ابْنِ الشَّيْخِ وأَبِي الرَّبِيْعِ بْنِ سالِمٍ وأَبِي عَلِيٍّ ابْنِ أبي الأَحْوَصِ وغَيْرِهِمْ.

(3) نَفْسُه، ص ١٠٢.

4 فالِنْسِيَا هِيَ المدِيْنَةُ التَّارِيْخِيَّةُ المعْرُوفَةُ الواقِعَةُ فِي شَرْقِ إسْبانيا، ولَيْسَتْ (فالِنْسِيَا) الفِنزُويلِيَّةُ الواقِعَةُ عَلَى نَهْرِ كابِريالْس. وقُرْطُبَةُ هِيَ المدِيْنَةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ التارِيْخِيَّةُ المشْهُورةُ؛ كانَتْ أَشْهَرَ المدُنِ فِي قارَةِ أُوْرُبَّا بِعلُومِها ومكتباتِها فِي عَهْدِ الأَنْدَلُسِ المسْلِمَةِ، إذْ كانَتْ مَرْكَزاً عِلْمِياً يَشِعُّ بِمَعارِفِهِ عَلَى جَمِيْعِ نَواحِي أُوْرُبَّا؛ وهُناكَ مَدِيْنَةٌ أُخْرَى مُسَمَّاةٌ باسْمِها فِي الأَرْجَنْتِيْنَ، ولَيْسَتْ هِيَ المَقْصُوْدَةَ هُنا بِالطَّبْعِ. (المترجم)

والحَدِيْثِ والفِقْهِ. ويُحَدِّثُنا مَنْ تَرْجَمَ لَهُ وهُوَ الفَتْحُ بْنُ خاقانَ[1] أنَّ ابْنَ السِّيْدِ عاشَ حَياةَ التُّقَى والوَرَعِ في آخِرِ أيّامِهِ وأنَّهُ كَتَبَ شِعْراً كَثِيْراً في الزُّهْدِ[2].

وأكْثَرُ ما عُرِفَ ابْنُ السِّيْدِ البَطَلْيَوْسِيُّ بِكِتَاباتِهِ اللُّغَوِيَّةِ ووَضَعَ شَرْحاً لِسَقْطِ الزَّنْدِ وآخَرَ لِلُّزُومِ. ومِنْ قِطَعٍ لِشَرْحِ هَذا الأَخِيْرِ المَوْجُودِ في (ألِف با) يَتَبَيَّنُ أنَّهُ شَرْحٌ عَظِيمُ القَدْرِ قَدْ شَرَحَ صُعُوباتِ لُزُومِ أبِي العَلاءِ وكَشَفَ غامِضَهُ. وهُناكَ أمَلٌ عَظِيْمٌ ألّا يَزالَ هَذا الكِتَابُ مَوجُوداً في شَمَالِ إفْرِيْقِيا؛ وإنْ يَكُنْ ابْنُ خَلِّكانَ لا يَذْكُرُهُ في تَرْجَمَتِهِ لِلْبَطَلْيَوْسِيِّ.

وفي (أزْهَارِ الرِّياضِ) اسْتِشْهادٌ رَائِعٌ مِنْ قَصِيْدَةٍ دِيْنِيَّةٍ لِلْبَطَلْيَوْسِيِّ تُظْهِرُ تَأَثُّراً بِأَبِي العَلاءِ لا يَخْفَى في أُسْلُوبِها الجَدَلِيِّ واسْتِخْدَامِها لِلْمُصْطَلَحاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وهِيَ:

إلَهِي إنِّي شاكِرٌ لَكَ حامِدُ ... وإنِّي لَساعٍ في رِضَاكَ وجاهِدُ
وإنَّكَ مَهْما زَلَّتِ النَّعْلُ بِالفَتَى ... عَلَى العائِدِ التَّوّابِ بِالعَفْوِ عائِدُ
تَبَاعَدْتَ مَجْداً وادَّنَيْتَ تَعَطُّفاً ... وحِلْماً فَأَنْتَ المُدَّنِي المُتَباعِدُ
وما لِي عَلَى شَيْءٍ سِوَاكَ مُعَوَّلٌ ... إذا دَهِمَتْنِي المُعْضِلاتُ الشَّدائِدُ
أَغَيْرَكَ أدْعُو لِي إلَهاً وخالِقاً ... وقَدْ أَثْبَتَ البُرْهَانُ أنَّكَ وَاحِدُ
وهَلْ في التي طاعُوا لَهَا وتَعَبَّدُوا ... لِأَمْرِكَ عَاصٍ أوْ لِحَقِّكَ جاحِدُ
وهَلْ يُوْجَدُ المَعْلُولُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ... إذا صَحَّ فِكْرٌ أوْ رَأَى الرَّأْيَ رَاشِدُ
وهَلْ غِبْتَ عَنْ شَيْءٍ فَيُنْكِرَ مُنْكِرٌ ... وُجُودَكَ أَمْ لَمْ تَبْدُ مِنْكَ شَوَاهِدُ
وكُلُّ وُجُودٍ عَنْ وُجُوْدِكَ كائِنٌ ... فَوَاجِدُ أصْنافِ الوَرَى لَكَ واجِدُ
سَرَتْ مِنْكَ فِيْها وَحْدَةٌ لَوْ مَنَعْتَها ... لَأَصْبَحَتِ الأَشْيَاءُ وهِيَ بَوَائِدُ
وكَمْ لَكَ في خَلْقِ الوَرَى مِنْ دَلائِلٍ ... يَرَاها الفَتَى في نَفْسِهِ ويُشَاهِدُ

---

[1] (تُوجَدُ تَرْجَمَةُ بْنِ خاقانَ بأسْرِها في (أزهار الرياض) ج٣، ص ١٠٣ – ١٤٩).

[2] (نفسُهُ، ج٣، ص١١٦).

وكَمَا عَسَى أنْ تَرَى فالأَبْياتُ الأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ القَصِيدة تُنادِي بِالعَقِيْدَةِ الصُّوْفِيَّةِ (وَحْدَةِ الوُجُودِ)؛ إذْ يَبْدُو ابْنُ السَّيْدِ مُتَأَثِّراً بِالمتَصوِّفةِ، وتَلْمَسُ هذا ظاهِراً في عَدَدٍ مِنْ قصائِدِهِ، بَعْضُها أمادِيْحُ فِي النَّبِيِّ[1]. وإذا وَضعْنا في اعْتِبارِنا أنَّ البَطَلْيَوْسِيَّ كانَ مَعْرُوفاً لَدَى أهْلِ بَلْدَتِهِ عَلَى أنَّهُ شاعِرٌ عَظِيْمٌ وأَنَّ قصائِدَهُ الدِّيْنِيَّةَ كانَتْ مَعْرُوْفَةً عَلَى نَحْوٍ واسِعٍ أدْرَكنا أنَّ أَثَرَهُ عَلَى بَعْضِ مُتَصَوِّفَةِ المغَارِبَةِ كابْنِ عَرَبِي لَيْسَ يُجْحَدُ.

([1]) نفسه، ج٣، ص١٤٧).

ثالثاً: مَذْهَبُ الجَمَاعَةِ

يُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ أبو طاهِرٍ أحْمَدُ بْنَ مُحَمَّدٍ الإصْفِهانِيُّ السِّلَفِيُّ، المحَدِّثُ المشْهُورُ مُؤَسِّسَ هَذِهِ المدْرَسَةِ. وُلِدَ هَذَا الرَّجُلُ في ٤٧٢هـ كما ذَكَرَ أغْلَبُ مَنْ تَرْجَمُوا لَهُ، أوْ في سَنَةِ ٤٧٨هـ، كَمَا هُوَ عِنْدَ ابْنِ خَلِّكانَ[١]؛ ولَقَدْ تَنَقَّلَ طَوِيْلاً طَلَباً لِلْعِلْمِ ولَقِيَ عَدَداً مِنْ أبْرَزِ عُلَماءِ عَصْرِهِ. وقَدْ دَرَسَ عُلُومَ اللُّغَةِ عَلَى يَدِ التِّبْرِيزيِّ في بَغْدادَ ولَقِي ابْنَ أَخِ أبي العلاء، أبا مُحَمَّدٍ القاضِي بالشَّامِ. ثُمَّ ذَهَبَ إلى الاسْكَنْدَرِيَّةِ لِيُوَاصِلَ دَرْسَ الحَدِيْثِ وتَدْرِيْسِهِ حَتَّى أقامَتْ لَهُ السُّلْطَةُ الحاكِمَةُ داراً لِلعِلْمِ في سَنَةِ ٥٤٦هـ، ظَلَّ رَئِيْسَها حَتَّى وفاتِهِ في سَنَةِ ٥٦٧هـ. وقَدْ كانَ السِّلَفِيُّ ذا شَخْصِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ وعِلْمٍ غَزِيْرٍ. وكانَ يُظْهِرُ شَغَفاً عَظِيماً بِشِعْرِ أبي العلاء ووَضَعَ كتاباً تَنَاوَلَ سِيْرَتَهُ، كانَ هذا الكِتابُ مَرْجِعاً ومَصْدَراً لِياقُوتٍ وابْنِ العَدِيْمِ وابْنِ خَلِّكان والذَّهَبِيِّ وكَثِيْرينَ غَيْرِهِمْ مِنْ كُتَّابِ السِّيَرِ[٢].

ومِنَ الاسْتِشْهَاداتِ الكَثِيْرَةِ التي يُوْرِدُها ابْنُ العَدِيْمِ وغَيْرُهُ مِنْ كِتابِ السِّلَفِيِّ يَبْدُو أنَّ السِّلَفِيَّ كانَ رَجُلاً مُتَسامِحاً؛ إذْ كانَ يَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ هَرْطَقَةِ أبي العلاءِ ويُفِيْدُ مِنَ (الجانِبِ الخَيِّرِ) مِنْ تَأْلِيْفِهِ. ويُخْبِرُنا المقري أنَّ السِّلَفِيَّ كانَ يَنْظِمُ زُهْدِيَّاتٍ، ويُوْرِدُ بَعْضاً مِنْ أبْياتِهِ في مَدْحِ دَرْسِ الحَدِيْثِ[٣]. غَيْرَ أنَّ أَهَمِّيَّةَ السِّلَفِيِّ لا تُلْفَى كَثِيْراً في تَوَالِيفِهِ (وأَغْلَبُها الآنَ مَفْقُودٌ) ولَكِنَّها تَكْمُنُ في تأْثِيْرِهِ الكَبِيْرِ في عَدَدٍ كَبِيْرٍ مِنْ العُلَماءِ والشُّعَراءِ مِمَّنْ كانُوا تَلامِيْذَهُ، وأَهَمُّهُمْ جَمِيْعاً ابْنُ الشَّيْخِ البَلَوِيُّ. فَقَدْ وُلِدَ أبو الحجَّاج يُوْسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ المعْرُوفُ بِابْنِ الشَّيْخِ في سَنَةِ ٥٦٢هـ في مَلَقَّى وتُوُفِّيَ في سَنَةِ ٦٠٤هـ. وقَدْ دَرَسَ

---

(١) الوفيات، ج٢، ص٢٩٢، وما بَعْدَها).

(٢) الوفياتُ، ج٢، ص٢٩٢. ولِتَرْجمةِ السِّلَفِيِّ انظُرْ، كذلك (تَذْكِرةُ الحُفَّاظِ) لِلذَّهَبِيِّ، ج٤، ص٩٠).

(٣) أزهار الرياض، ج٣، ص١٧٠

النَّحْوَ واللُّغَةَ إبَّانَ شَبابِهِ عَلَى يَدِ عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّهَيلِيِّ صاحِبِ (الرَّوْضُ الأُنُفُ)[1]. ثُمَّ ذَهَبَ إلى مَكَّةَ. وفِي طَرِيْقِ عَوْدَتِهِ إلَى اسْبَانِيا نَزَلَ بِالاسْكَنْدَرِيَّةِ في ٥٦٢هـ فَلَقِيَ بِها السِّلَفِيَّ ولَزِمَهُ لِسَنَوَاتٍ يَدْرُسُ عَلَيْهِ الحَدِيْثَ. وبَعْدَ عَوْدَتِهِ جَعَلَ يَقْضِي وَقْتَهُ في بِناءِ المساجِدِ وعَمَلِ الصَّالِحاتِ وإلْقاءِ دُرُوسِ الحَدِيْثِ واللُّغَةِ ونَظْمِ الشِّعْرِ وغَيْرِهِ مِنَ الأَعْمالِ الأَدَبِيَّةِ. وأشْهَرُ كُتُبِهِ التي تَرْسُمُ شَخْصِيَّتِهِ وتُمَثِّلُها بِحَقٍّ هُوَ كِتابُ (أَلِفُ باء) الذي كانَ وَضَعَهُ في الأَصْلِ لِابْنِهِ عَبْدِ الرَّحِيْمِ يَتعلَّمُ مِنهُ، وقَدْ كانَ رَامَ بِهِ أنْ يَكُونَ مَوسُوْعَةً عِلْمِيَّةً مُوْجَزَةً تَحْوِي لُبَّ المعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ وزُبْدَتَها.

ومَنْهَجُ كِتابِ (أَلِفُ باء) في غايةِ التَّعْقِيْدِ. ومَوضُوعُ الكِتابِ إنَّما هُوَ شَرْحٌ لِلأَبْياتِ العَوِيْصةِ لِقَصِيْدةٍ مِنْ نَظْمِ الكاتِبِ نَفْسِهِ، نَظَمَها عَلَى طَرِيْقَةِ الأَلْغازِ المعْرُوفةِ عِنْدَ الحَرِيْرِيِّ. ويَحْتَوِي كُلُّ بَيْتٍ فِيْها عَدَداً مِنَ التَّوْرِيَاتِ حَوْلَ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الهِجَاءِ. وقَدْ جَاءَ كُلُّ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ (أَلِفْ باء) شَرْحاً لِبَيْتٍ واحِدٍ مِنْ أبْياتِ القَصِيدةِ. ويَتَناوَلُ المؤَلِّفُ كُلَّ المسَائِلِ اللُّغَوِيَّةِ المتَّصِلَةِ بِالتَّوْرِيَاتِ الوَارِدَةِ في البَيْتِ الذِي يَشْرَحُهُ. ثُمَّ يَسْتَطْرِدُ لِيَتَناوَلَ مُخْتَلِفَ الموْضُوعاتِ (اللُّغَوِيَّةَ والتارِيخِيَّةَ والدِّيْنِيَّةَ) وعادَةً ما يَعْتَذِرُ قَبْلَ إذْ يَأْخُذُ في الاستِطْرَادِ بِعَدَدٍ مِنَ الأَبْياتِ يَكْتُبُها بِأُسْلُوبِ (اللُّزُومِ)[2] ويَنْتَهِي كُلُّ فَصْلٍ بِقَصِيْدَةٍ قَصِيْرَةٍ، بِأُسْلُوبِ اللُّزُومِ كَذَلِكَ، تُنْبِيءُ القافِيَةُ فِيْها بِعُنْوانِ الفَصْلِ التالِي. ومِنَ الواضِحِ مِنْ طَرِيْقَةِ كِتابِ أَلِف باء المعْتاصَةِ المعَقَّدَةِ أنَّ ابْنَ الشَّيْخِ كانَ في ذِهْنِهِ مَنْهجا الفُصُولِ واللُّزُوم لَمَّا وَضَعَ هذا الكِتابَ. ومِنِ اسْتِشْهاداتِهِ مِنَ المعَرِّيِّ ومِنْ قصائِدِهِ هُوَ الكَثِيْرَةِ التي يَترَدَّدُ فِيْها صَدَى مَعانِي أبِي العلاءِ، تَسْتَطِيْعُ أنْ تَرَى أنَّهُ كانَ عَلَى مَعْرِفَةٍ

---

(1) انظُرْ (أَلِفْ باء) لابْنِ الشيْخِ، القاهرة، مجلدا، ص٧٤

[2] أيْ مِثْلُ قُيُوْدِ التَّقْفِيَةِ ونَحْوُها.

مُتَأَصِّلَةٍ بِمُؤَلَّفاتِ أبي العلاءِ[1] وكأبِي العلاءِ اسْتَخْدَمَ ابْنُ الشَّيْخِ أَدَاةَ الشِّعْرِ (مُسْتَخْدِماً فِي الغالِبِ طَرِيْقَةَ تَقْفِيَةِ اللُّزُومِ) لِيُعَبِّرَ بِهِ عَنْ كُلِّ شيءٍ فَكَّرَ فِيهِ أَوْ شَعَرَ بِهِ. إذ نَجِدُهُ، مَثلاً، في إحْدَى قِطَعِهِ يَتَحَدَّثُ عَنْ حُبِّ اللهِ[2] وفِي أُخْرى عَنْ عَفْوِ اللهِ؛ وفي ثالِثةٍ يَشُنُّ هُجُوماً عَنِيْفاً عَلَى الحجَّاج بْنِ يُوْسُفَ، الطَّاغِيَةِ المعْرُوفِ؛ وفِي رَابِعةٍ يَهْجُو مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ؛ ويَصِفُ في ثَلاثَةِ أَبْياتٍ ظِرَافٍ نَجَاتَهُ التي تَحَصَّلَها بِشِقِّ النَّفْسِ مِنَ أَحَدِ الكِلاب الضَّوَارِي؛ وفِي قَصِيْدةٍ قَصِيْرةٍ عَلَى قافِيَةِ (سَدْ) يَصِفُ تَجاهُلَ أحَدِ المارَّةِ لَهُ إِذْ كانَ حَيًّا صاحِبَهُ ولَمْ يَأْبَهْ بِهِ أوْ أعْرَضَ عَنْهُ؛ ويُحَذِّرُنا في قِطْعَتَيْنِ مِنْ أنْ نَغْتَرَّ بِالهَرْطَقَةِ ونَنْخَدِعَ بِالزَّنْدقةِ؛ وفي قِطْعةٍ مِنْ سَبْعَةِ أبْياتٍ يُعَنِّفُ شَيْخاً عَلَى تَزَوُّجِهِ فَتاةً صَغِيْرَةً مُثْرِيَةً؛ وهَكَذا يَمْضِي الكِتابُ. وكَثِيراً ما يُذَكِّرُنا ابْنُ الشَّيْخِ فِي ثَنايا كِتابِهِ هذا أنْ نَلْتَمِسَ العَدَدَ الأَكْبَرَ مِنْ قصائِدِهِ فِي كتابِهِ المسَمَّى التَّكْمِيْل، ولَكِنَّ ما نَجِدُهُ مِنْها في أَلِفْ باء كافٍ لِأَنْ نُقِيمَ رأْياً حَسَناً عَنْ مَقْدِرَتِهِ الفَنِّيَّةِ. فَهُو رَجُلٌ ذُو مَبادِئَ أَخْلاقِيَّةٍ عالِيَةٍ ورُوحٍ خَفِيْفٍ لَطِيْفٍ مُحَبَّبٍ إلى النَّفْسِ. وهو بَعْدُ غَرِيْبٌ سَرِيْعُ التَّقَلُّبِ فَطِنٌ وأحْياناً ذو فُكاهةٍ ونُكْتَةٍ. ولَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ تَلَذُّذُ أبي العلاءِ وجَزَالَتُهُ؛ كَما أَنَّ التَّلاعُبَ اللَّفْظِيَّ عِنْدَهُ يَفُوقُ فِي فَظاعَتِهِ ما عِنْدَ الحرِيرِيِّ فِي بَعْضِ مَقاماتِهِ[3].

---

[1] انظُرْ مَثَلاً: أَلف باء، ج١ ص٣٩٧ –٣٩٨. إذْ نَجِدُ هُنا قَصِيْدَةً مِنْ أرْبَعَةٍ وثَلاثِيْنَ بَيْتاً يُنْكِرُ فِيها ابْنُ الشَّيْخِ الزَّوَاجَ وبَثَّ النَّسْلَ عَلَى طَرِيْقَةِ المعَرِّيِّ. ولَكِنَّهُ كانَ مِنَ الأمانةِ بِمَكانٍ إذِ اعْتَرَفَ أنَّهُ أَلَّفَ هَذِهِ الأبْياتَ عَلَى حِيْنِ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ وبَعْدَ أنْ فَقَدَ الشَّهْوَةَ.

[2] نفسه، ج١ ص٣٩٢، و٣٩٣، و٤٧٥؛ وج ١١ ص ٢٣٨، وج ١ ص ٣٧٨، وص ٣٦٦؛ وج ١١ ص ٥٦٦، وص ٥٦٦؛ وج ١ ص ٣٤١.

[3] ومَعَ ذلِكَ فكِتابُ أَلِف باء قَيِّمٌ؛ إذْ هُو ذُو ثَرَاءٍ لُغَوِيٍّ ومَلِيءٌ بِالحِكاياتِ التارِيْخِيَّةِ، وفِيهِ مَادَّةٌ جَيِّدَةٌ مُفِيْدَةٌ لِطالِبِ السِّيْرَةِ وأيَّامِ الإسْلامِ الأَوَائِلِ.

ويُحَدِّثُنا ابْنُ الشَّيْخِ في أَلِف بائِهِ عَنْ عَدَدٍ مِنْ مُعاصِرِيْهِ مِمَّنَ تَعاطَوْا طَرِيْقَةَ تَقْفِيَةِ المَعَرِّيِّ ذاتَ القُيُوْدِ فِي أَشْعارِهِمْ ونَظَمُوا، كذلِكَ، في مَوضُوعاتِ الزُّهْدِ والأَخْلاقِ كالمَيْرتَلِيِّ الذِي مَدَحَ التَّبتُّلَ وتَرْكَ الزَّوَاجِ(١) وكالعُثْمانِيِّ الذي هَجَا القُضَاةَ المعاصِرِيْنَ لَهُ ووَصَفَهُم بِأَنَّهُم لُصُوصٌ ومَهَرَةٌ حاذِقُونَ في النَّشْلِ أو طَرَّارُونَ(٢). ويُحَدِّثُنا المقري الذي جاءَ بَعْدَ ابْنِ الشَّيْخِ بِما يَقْرُبُ مِنْ ثلاثةِ قُرُونٍ، أَكْثَرَ عَنِ الشُّعَراءِ الذيْنَ احْتَذَوْا حَذْوَ السِّلَفِيِّ وابْنِ الشَّيْخِ ويُخْبِرُنا أَنَّ أُسْلُوبَهُما (أيْ مَذْهَبَ الجماعةِ) كانَ مازَالَ مُزْدَهِراً في عَصْرِهِ(٣). وقَدْ أَوْرَدَ مِنْ شِعْرِ هَؤلاءِ الشُّعَراءِ المحْتَذِيْنَ شَيْئاً كَثِيراً، لا سِيَّما مِنْ شِعْرِ ابْنِ فَرَجٍ(٤) وابْنِ الجَزَىْ(٥) وأَبِي الرَّبِيْعِ بْنِ سالِمٍ الكَلاعِيِّ(٦)؛ (وقَدْ ذَكَرْنا لَكَ هذا الأَخِيْرَ مِنْ قَبْلُ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِنا عَنْ مَلْقَى السَّبِيْلِ). غَيْرَ أَنَّ أَغْلَبَ القصائِدِ التي اسْتَشْهَدَ بِها المقَرِّي تُظْهِرُ أَثَرَ الشِّعْرِ الدِّيْنِيِّ الذي كانَ سائِداً عَصْرَئِذٍ الذي كانَ يَدُوْرُ عُمُوماً في مَدْحِ النَّبِيِّ، كما تُظْهِرُ أَثَرَ مَلْقَى السَّبِيلِ الذي يَبْدُو أَنَّ كَثِيْراً مِنْها قَدْ حَذَتْ حَذْوَهُ. أَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ فَرَجٍ الذي أَوْرَدَ لَهُ المقَرِّيُّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ ذَكَرْنا فلا أَثَرَ يُلْحَظُ لِلمَعَرِّيِّ عَلَيْهِ؛ (فالحَقُّ أَنَّ ابْنَ فَرَجٍ بَدا كأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى دِيْوَانِ لُزُومِ شاعِرِنا)(٧) وتُمَثِّلُ اسْتِشْهَاداتُ المقَرِّي مِنْ شِعْرِ مَذْهَبِ الجَمَاعةِ انْحِطاطَ (المَدْرَسَةِ المعَرِّيَّةِ الغَرِبيَّةِ)؛ إذْ إِنَّ

---

(١) نفسه، ج١ ص٣٩٨.

(٢) نفسه، ج١ ص٣٦٦.

(٣) أزهار الرِّياض ج ٣ ص١٨٥.

(٤) نفسه ج٣ ص٢٢٦.

(٥) نفسه ص ١٨٤.

(٦) نفسه ٢٢٦.

(٧) نَفْسُهُ، ج٣، ص٢٣٣.

أَكْثَرَ هَذِهِ الاسْتِشْهَاداتِ قصائِدُ عَلَى (المِثالِ) وتَعْرِضُ ذَلِكَ النَّوْعَ مِنَ التَّصَوُّفِ الذِي انْتَهَى إلى فَسَادٍ وانْحِطاطٍ مِمَّا سادَ عُصُورَ الإِسْلامِ المتَأَخِّرَة[1].

رَابِعاً : كلمة في عدم سيرورة اللزوم

مِنْ هذهِ اللَّمْحَةِ العَجْلَى لِأَثَرِ (اللُّزُومِ) في التَّالِيْنَ مِنَ الشُّعَراءِ، لِلْمَرْءِ أَنْ يَرَى بِوُضُوحٍ لِماذا لَمْ يَحْظَ مِنَ الذِّكْرِ والاهْتِمامِ والسَّيْرورةِ بِما حَظِيَ بِهِ دِيْوانُ سَقْطِ الزَّنْدِ. فَشُعَراءُ المدْرسَةِ المعَرِّيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ الذيْنَ عَرَفُوا بِحَقٍّ مَزَايا دِيْوانِ اللُّزُومِ وفَضْلَهُ وتَأَثَّروا في أَعْماقِهِمْ بِأُسلُوبِهِ وتَأَمُّلاتِهِ كانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِأَذَى أَهْلِ الدِّيْنِ الذيْنَ كانوا يَنالُونَ مِنهُم نَيْلاً، فَحَمَلُوهُمْ عَلَى إبادةِ أَشْعارِهِمْ أَوْ إبْقائِها في خَفَاءٍ بِاسْتِثْناءِ رُباعِيَّاتِ الخَيَّامِ. وهَذِهِ لَمْ تَنْجُ إلَّا لِأَنَّها لَمْ تَكُنْ مَكْتُوْبَةً بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ. وأَمَّا أَصْحابُ المدْرَسَةِ المعَرِّيَّةِ الغَرْبِيَّةِ، فَلَمْ يُعانُوا ذاتَ المصِيْرِ؛ لِأَنَّهُم كانُوا عَلَى دِيْنٍ وكانُوا يُدافِعُونَ عَنْ مَذْهَبِ الاتِّباعِ. ومَعَ كُلِّ ما بَقِيَ اليَوْمِ مِنْ أَشْعارِهِمْ لا تَجِدُ شَيْئاً واحِداً مِنْها يُضاهِي تِلْكَ النُّبَذَ والنُّتَفَ التي بَقِيَتْ مِنَ المدْرَسَةِ الشَّرْقِيَّةِ في الأَصالَةِ والجَوْدَةِ.

وفِي عَصْرِنا هذا لَمْ يَكُنْ إلَّا عُلَماءُ الغَرْبِ هُمْ مَنْ بَعَثُوا الرَّغْبَةَ في دِيْوَانِ اللُّزُومِ إذْ هُمْ مَنْ أَدْرَكُوا نَفَاسَةَ مادَّةِ هَذا الدِّيْوانِ وثَمِيْنَ قِيْمَتِها. ولَكِنَّهُمْ أَغْفَلُوا عُمُوماً الإِطْارَ الذي عُرِضَتْ فِيهِ هَذِهِ المادَّةُ والقالَبَ الذي صِيْغَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عُلَماءُ العَرَبِ يَقْتَفُونَ آثارَهُمْ ويَتَرَسَّمُونَ خُطاهُمْ فَمالُوا إلَى مُحْتَوَى (اللُّزُومِ) مُعْتَبِرِيْنَ أَهَمِّيَّتَهُ مَوْقُوْفَةً عَلَى مَا حَوَى مِنْ مَعَانٍ وأَفْكارٍ مُتَقَدِّمَةٍ ومُتَجاهِلِيْنَ مَزَاياهُ الشِّعْرِيَّةَ وما انْطَوَى عَلَيْهِ مِنْ إتْقانٍ فَنِّيٍّ. لا بَلْ مَتَى ذُكِرَتْ هَذِهِ المزَايا الشِّعْرِيَّةُ أَوْسَعُوها ازْدِراءً وامْتِهاناً مُعَلِّلِيْنَ ذَلِكَ بِأَنَّ طَرِيْقَةَ

---

[1] يُوْجَدُ رَسْمٌ (لِلْمِثالِ) في (أَزْهارِ الرِّياضِ) ج٣ ص٢٦٧. ويَعْتَقِدُ العامَّةُ أَنَّ المِثالَ حِرْزٌ مِنَ المرَضِ وحِجابٌ ضِدَّهُ. ويَعْمَلُ الدَّجَّالونَ الدِّيْنِيُّوْنَ عَلَى بَيْعِ نُسَخٍ مِنهُ لِعَوامِّ النَّاسِ.

التَّقْفِيَةِ فِي (اللُّزُومِ) مُعَقَّدَةٌ وأنَّ مَنْهَجَهُ فِي النَّظْمِ مُتَكَلَّفٌ. ولَكِنَّا أَثْبَتْنا لَكَ فِيما مَضَى هُنا أنَّ هَذَا الرَّأْيَ وَاهٍ، لا يَنْهَضُ أمامَ الحُجَّةِ والبُرْهانِ.

ثَبَتٌ بِالمَصادِرِ والمَرَاجِع

١. أبُو العلاءِ ذَلِكَ المجْهُولُ؛ لجَمِيْل العَلائِلي

٢. أَرَاجِيْزُ العَرَب؛ لتَوْفِيْق البَكْرِيّ

٣. إرْشادُ الأَرِيْبِ إلى مَعْرِفَةِ الأَدِيْبِ؛ لِياقُوتٍ

٤. أزْهارُ الرِّياضِ في أَخْبارِ عِيَاضٍ؛ للمقري

٥. أَساسُ البلاغَةِ؛ لِلزَّمَخْشَرِيِّ

٦. أَشْعارُ وِلْيَمَ شِكْسبِيْر

٧. الإسْلامُ والكُومِيْدِيا الإلَهِيَّةُ؛ لِأَسِيْن (Asin)

٨. الأَغانِي؛ لِأَبِي الفَرَجِ الإصبْفهانِيِّ

٩. الأَنْسابُ؛ لِلسَّمْعانِي

١٠. البِدَايَةُ والنِّهايَةُ؛ لابْنِ كَثِيْرٍ

١١. البَيَانُ والتَّبْيِيْنُ؛ لِلجاحِظِ

١٢. التُّحْفَةُ البَهِيَّةُ (مُجَلَّدٌ يَحْوِي عَدَداً مِنَ الأَشْعارِ تَشْمَلُ (مَن غَبا عَنْهُ المطْرب) لِلثَّعالِبِيِّ؛ ورِسالَةَ الحاتِمِيِّ)

١٣. التَّعارِيْفُ الأَدَبِيَّةُ؛ لِعَبْدِ العَزِيْزِ المَيْمَنِيِّ

١٤. الحَيْوانُ؛ لِلْجَاحِظِ

١٥. الذَّخِيْرَةُ؛ لابْنِ بَسَّامٍ

١٦. الصِّحاحُ؛ لِلْجَوْهَرِيِّ

١٧. الصِّناعَتَيْنِ؛ لِلْعَسْكَرِيِّ

١٨. العِقْدُ الفَرِيْدُ؛ لابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ

١٩. العُمْدَةُ في صِناعَةِ الشِّعْرِ ونَقْدِهِ؛ لِابْنِ رَشِيْقٍ القَيْرَاوَنِيِّ

٢٠. الفُصُولُ والغاياتُ؛ لأبي العلاء المعَرِّيِّ

٢١. القَامُوسُ المحِيْطُ؛ لِلْفَيْرُوْزَابَادِي

٢٢. القُرْءانُ

٢٣. الكامِلُ؛ لِابْنِ الأَثِيْرِ
٢٤. الكَشَّافُ؛ لِلَّزَمَخْشَرِيِّ
٢٥. المَثَلُ السَّائِرُ فِي أَدَبِ الكَاتِبِ والشَّاعِرِ؛ لِابْنِ الأَثِيْرِ
٢٦. المفَضَّلِيَّاتُ؛ تَحْقِيْقُ: شارِلس لِيَّال (Charles Lyal)
٢٧. المنْتَخَبُ فِي أَدَبِ العَرَبِ؛ تَحْقِيْق: طَهَ حُسَيْن وآخَرِيْن
٢٨. المِهْرَجانُ الأَلْفِيُّ لِأَبِي العلاءِ
٢٩. النَّثْرُ الفَنِّيُّ؛ د. زَكِي مُبَارَك
٣٠. الوَافِي بِالْوَفَيَاتِ؛ لِلصَّفَدِي
٣١. بُغْيَةُ الوُعاةِ؛ لِلسُّيُوطِيِّ
٣٢. تارِيْخُ ابْنِ خَلْدُوْنَ
٣٣. تارِيْخُ الأُمَمِ والمُلُوْكِ؛ لِلطَّبَرِيِّ
٣٤. تارِيْخُ الحُكَماءِ؛ لِلْقِفْطِيِّ
٣٥. تَارِيْخُ العَرَبِ الأَدَبِيُّ؛ نِيكِلْسُوْنْ (Nicholson)
٣٦. تَارِيْخُ الفُرْسِ الأَدَبِيُّ؛ لِبْرَاوُنْ (Brown)
٣٧. تارِيْخُ بَغْدَادَ؛ لِلْخَطِيْبِ
٣٨. تَأَمُّلاتُ المعَرِّيِّ (مِنْ كِتابِ دِراساتٌ في الشِّعْرِ الإِسْلامِيِّ لِنِيكِلْسُوْنْ)
٣٩. تَتِمَّةُ اليَتِيْمَةِ؛ لِلثَّعالِبِيِّ
٤٠. تَجْدِيْدُ ذِكْرَى أَبِي العلاءِ؛ لِطَهَ حُسَيْنٍ
٤١. تَذْكِرَةُ الحُفَّاظِ؛ لِلذَّهَبِيِّ
٤٢. تَعْرِيْفُ القُدَماءِ بِأَبِي العلاءِ
٤٣. تَفْسِيْرُ الطَّبَرِيِّ
٤٤. تَهافُتُ الفَلاسِفَةِ؛ لِلْغَزَالِيِّ
٤٥. جَمْهَرَةُ أَشْعارِ العَرَبِ؛ لِلْقُرَشِيِّ
٤٦. جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ؛ لِابْنِ دُرَيْدٍ

٤٧. حاشِيَةُ الصَّبَّانِ

٤٨. خاصُّ الخاصِّ؛ لِلثَّعَالِبِيِّ

٤٩. خِزَانَةُ الأَدَبِ؛ لِلْبَغْدَادِيِّ

٥٠. دُمْيَةُ القَصْرِ؛ لِلْبَاخَرْزِيِّ

٥١. ديوان ابْنِ الرُّوْمِيِّ

٥٢. ديوان ابْنِ المعْتَزِّ

٥٣. دِيْوَانُ أَبِي العَتَاهِيَةِ

٥٤. ديوان أبِي تَمَّامٍ

٥٥. ديوان أبِي فِرَاسٍ

٥٦. دِيْوَانُ أَبِي نُوَاسٍ

٥٧. ديوان الأَخْطَلِ

٥٨. ديوان الأَعْشَى

٥٩. ديوان البُحْتُرِيِّ

٦٠. ديوان الشرِيف الرَّضِي

٦١. ديوان الفَرَزْدَقِ

٦٢. ديوان المتَنَبِّي

٦٣. ديوان الوَأْوَاءِ الدِّمَشْقِيِّ

٦٤. ديوان امْرِئِ القَيْسِ

٦٥. ديوان زُهَيْرٍ

٦٦. ديوان طُفَيْلٍ الغَنَوِيِّ

٦٧. ديوان غِيْلان، ذِي الرُّمَّةِ

٦٨. ديوان كُثَيِّرِ عَزَّةَ

٦٩. ديوان مِهْيارِ الدَّيْلَمِيِّ

٧٠. رَجْعَةُ أَبِي العلاء؛ لِعَبَّاس محْمُود العَقَّاد

٧١. رَسائِلُ أَبِي العلاء؛ تَحْقِيْقُ: مَرْجُلْيُوث (Margoliouth)
٧٢. رِسالَةُ الغُفْرَانِ؛ لِأَبِي العلاء المعَرِّيِّ
٧٣. رِسالَةُ الغُفْرَانِ؛ لِأَبِي العلاء المعَرِّيِّ؛ تَحْقِيْقُ: اليَازِجي
٧٤. رِسالَةُ الغُفْرَانِ؛ لِأَبِي العلاء المعَرِّيِّ؛ تحقيق: كامِل كَيْلاني
٧٥. رَوْضاتُ الجنَّات؛ محمد باقر الخَوَانْسِري
٧٦. شَذَرَاتُ الذَّهَبِ؛ لِابْنِ العِمَادِ الحَنْبَلِيِّ
٧٧. شَرْحُ التَّنْوِيْرِ (لِدِيْوَانِ سَقْطِ الزَّنْدِ؛ لِلْمَعَرِّيِّ)؛ لِلْخُوَيِّ
٧٨. شَرْحُ أَلْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ؛ لِابْنِ عَقِيْلٍ
٧٩. شَرْحُ المعَلَّقاتِ السَّبْعِ؛ لِلزَّوْزَنِيِّ
٨٠. شَرْحُ المعَلَّقاتِ العَشْرِ؛ لِلتِّبْرِيْزِيِّ
٨١. شَرْحُ بَدِيْعِيَّاتَ الرُّعَيْنِيِّ؛ لِابْنِ جابِرٍ (مَخْطُوطَةُ المتْحَفِ البرِيْطانِيِّ)
٨٢. شَرْحُ دِيْوَانِ المتَنَبِّي؛ لِلْعُكْبرِيِّ
٨٣. شَرْحُ دِيْوَانِ حَماسَةِ أَبِي تَمَّامٍ؛ لِلتِّبْرِيْزِيِّ
٨٤. شَرْحُ لَامِيَّةِ الأَفْعالِ؛ لِلْبَحْرَق
٨٥. شَرْحُ نَهْجُ البَلاغَةِ؛ لِابْنِ أَبِي الحَدِيْدِ
٨٦. شُرُوْحُ سَقْطِ الزَّنْدِ؛ لِكُلٍّ مِنَ التِّبْرِيْزِيِّ والبَطَلْيَوْسِيِّ والخُوَارَزْمِيِّ
٨٧. شُعَرَاءُ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ الإِسْلامِ؛ لِلُوِيْس شَيْخُو
٨٨. شُعَرَاءُ النَّصْرَانِيَّةِ؛ لِلُوِيْس شَيْخُو
٨٩. طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ
٩٠. طَبَقاتُ الشُّعَرَاءِ؛ لِابْنِ المعْتَزِّ
٩١. عَبَثُ الوَلِيْدِ؛ لِأَبِي العلاءِ المعَرِّيِّ
٩٢. قَلائِدُ العِقْيَانِ؛ لِلْفَتْحِ بْنِ خاقَان
٩٣. كتاب أَلِفْ باء؛ لِابْنِ الشَّيْخِ البَلَوِيِّ
٩٤. لِسَانُ العَرَبِ؛ لِابْنِ مَنْظُوْرٍ

٩٥. لِسَانُ المِيْزَانِ؛ لِابْنِ حَجَرٍ

٩٦. مَجَلَّةُ الجَمْعِيَّةِ المَلَكِيَّةِ الآسْيَوِيَّةِ

٩٧. مِرْآةُ الزَّمانِ؛ لِابْنِ الجَوْزِيِّ

٩٨. مَعَ أَبِي العلاءِ فِي سِجْنِهِ؛ لِطَهَ حُسَيْن

٩٩. مَعَ المتَنَبِّي؛ لِطَهَ حُسَيْن

١٠٠. مُعْجِزُ أَحْمَدَ، لِأَبِي العلاءِ المعَرِّيِّ (مَخْطُوطَةُ المتْحَفِ البرِيْطانِيِّ)

١٠١. مُعْجَمُ البُلْدانِ؛ لِيَاقُوْتٍ

١٠٢. مُعْجَمُ الشُّعَرَاءِ؛ لِلْمَرْزُبَانِي

١٠٣. مُعْجَمُ لَيْنْ (William Lane)

١٠٤. مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُوْنَ

١٠٥. مَلْقَى السَّبِيْلِ؛ تَحْقِيْقُ: حَسَن حُسْنِيّ

١٠٦. مِنْ حَدِيْثِ الشِّعْرِ والنَّثْرِ؛ لِطَهَ حُسَيْن

١٠٧. مِنْهاجُ السُّنَّةِ؛ لِابْنِ تَيْمِية

١٠٨. مِيْرَاثُ الشِّعْرِ؛ لفيليب وين (Philip Wane)

١٠٩. نَقَائِضُ جَرِيْرٍ والأَخْطَلَ؛ تحقيق: أَنْتُوْنَ صالحاني

١١٠. نَقائِضُ جَرِيْرٍ والفَرَزْدَقِ؛ تحقيق: بِيْفَانَ

١١١. نَقْدُ الشِّعْرِ؛ لِقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرَ

١١٢. نَكْتُ الهِمْيَانِ فِي نُكَتِ العُمْيَانِ؛ لِلصَّفَدِي

١١٣. نِهَايةُ الأَرَبِ؛ لِلنُّوَيْرِيِّ

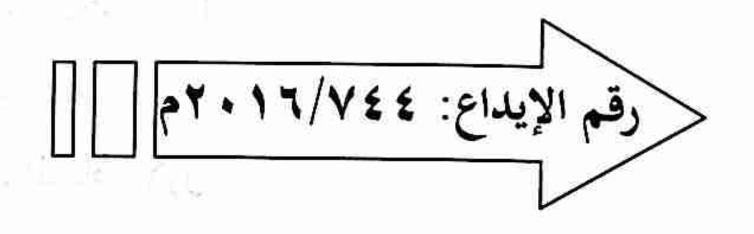
١١٤. وَحْيُ بَغْدَادَ؛ د. زَكِيْ مُبارَك

١١٥. وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ؛ لِابْنِ خَلِّكَانَ

١١٦. يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ؛ لِلثَّعالِبِيِّ

فهرس المُحْتَوَيات

فهرس ترجمة الشعر





بروفسور عبدالله الطيب

- ولد بغرب الدامر في ٢٥ رمضان ١٣٣٩هـ - ٢ يونيو ١٩٢١م.
- والداه الطيب عبدالله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.
- تعلم بمدرسة كسلا والدامر وبربر وكلية غوردون بالخرطوم والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن بكلية التربية ومعهد الدراسات الشرقية والأفريقية.
- نال الدكتوراة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠م.
- عمل بالتدريس بأم درمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.
- تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم (١٩٦١-١٩٧٤م).
- كان مديراً لجامعة الخرطوم (١٩٧٤-١٩٧٦م).
- أول مدير لجامعة جوبا (١٩٧٥م - ١٩٧٦م).
- أسس كلية بايرو بكنو بنيجيريا وهي الآن جامعة مكتملة.
- عمل أستاذاً للعربية بالمغرب في كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس.
- عين أستاذاً ممتازاً مدى الحياة (بروفسر أميرتس PROFESSOR EMERITUS) بجامعة الخرطوم في سنة ١٩٧٩م.
- له عدة مؤلفات منها المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، والأحاجي السودانية، ونافذة القطار.
- له عدة دواوين شعرية مثل: أصداء النيل وبانات رامة وأغاني الأصيل، وزواج السمر.
- عمل بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٦١م.
- عمل أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالخرطوم.
- منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١م ومن جامعة بايرو بكنو بنيجيريا ١٩٨٨م ومن جامعة الجزيرة السودان ١٩٨٩م.
- شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.
- له مساهمة في الصحافة والإذاعة والتلفزيون.
- فسر القرآن الكريم كله من إذاعة أم درمان بين ١٩٥٨-١٩٦٩م مع تلاوة الشيخ صديق أحمد حمدون رحمه الله تعالى رحمة واسعة.
- نال جائزة الملك فيصل سنة ٢٠٠٠م.
- توفي سنة ٢٠٠٣م يوم الخميس ٦/١٩ وترك أكثر من ٤٥ كتاباً عدا المحاضرات والبرامج الإذاعية والتلفازية.



ردمك: ISBN:978 - 99942 - 4 - 599 - 4

طبع تحت رعاية مجموعة النفيدي ELNEFEIDI GROUP

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة